لطائف المنن والأخلاق

في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق

المعروف بـ

المنن الكبرى

تأليف

الإمام العارف بالله أبي المواهب سيدي عبد الوهاب الشعراني

(٨٩٨ - ٩٧٣ هـ)

اعتنى به

أحمد عزو عناية

دار التقوى

لطائف المنن والأخلاق

في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق

المعروف بـ

المنن الكبرى

لطائف المنن والأخلاق

في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق

المعروف بـ

المنن الكبرى

تأليف

الإمام العارف بالله أبي المواهب سيدي عبد الوهاب الشعراني

(٨٩٨ - ٩٧٣ هـ)

ضبطه وصححه

أحمد عزو عناية

دار التقوى
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لايسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه، وبأي شكل من الأشكال، أو نسخه، أو حفظه في أي نظام إلكتروني أو ميكانيكي يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه، وكذلك ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق

الكتاب : لطائف المنن والأخلاق .

المؤلف : الإمام عبد الوهاب الشعراني .

رقم الموافقة : ٧٧٤٧٨

الطبعة الأولى .

تاريخ الطبع : ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .

عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة .

دار التقوى

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا . دمشق . حلبوني . ص.ب: ٣٠٧٢١

هاتف: ٢٢٤٩١٠٧ - ٠٩٣ ٢٠٦٠٠٧

فاكس: ٥٩٢١٨٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة المحقق

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وخليله أرسله بالهدى ودين الحق.

وبعد:

فإن من مِنن الله تعالى وفضله على هذه الأمة أن حفظ لها أمر دينها قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ، وجعل لها أئمة يهتدون بهدي نبيهم وينهلون من إرثه ومن معينه الصافي ، فمن هؤلاء العلماء الأجلاء سيدي العلامة عبد الوهاب الشعراني ، الذي سخر عمره كله لخدمة هذا الدين الحنيف فألف مؤلفات كثيرة في فنون متنوعة ، ووضعها بين يدي طلبة العلم ، ومن هذه المؤلفات كتابه هذا الذي بين أيدينا «المنن الكبرى» فجزاه الله تعالى عن هذه الأمة خير الجزاء.

عملنا في الكتاب

١ ـ قابلت الكتاب على نسختين مطبوعتين أما الأولىٰ فهي الطبعة المصرية التي طبعت بالمطبعة العامرة العثمانية سنة (١٣١١) هجرية.

والنسخة الثانية: طبعة عالم الفكر بالقاهرة، تحقيق عبد الحليم محمود.

وأثبت ما ترجح لنا صحته دون الإشارة إلى ذلك.

٢ ـ خرجت الآيات القرآنية.

٣ ـ خرجت الأحاديث النبوية.

٤ ـ عرفت بالكتب الوارد ذكرها في الكتاب.

٦ـ وضعت مقدمة تشتمل على مقدمة المحقق وترجمة المؤلف.

٧ ـ وضعت فهرس مواضيع.

وفي الختام: أتوجه بالشكر إلى كل أخ كريم ساهم في إخراج هذا الكتاب بهذه الحلة الجديدة وخاصة الأخ لؤي الأحمر صاحب دار التقوى للطباعة والنشر. راجياً المولىٰ تبارك وتعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه خادم العلم الشريف
أحمد عزو عناية سوريا / دمشق/
تلفاكس: ٥٢٢١٧٥١
جوال: ٠٩٣٤٢٧٦٣٠

ترجمة المؤلف

رحمه الله تعالى

اسمه ونسبه:

عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، نسبة إلى محمد بن الحنفية، الشعراني أبو محمد.

ولادته ونشأته:

ولد في قلقشندة بمصر سنة ثمانٍ وتسعين وثمانمائة هـ، ونشأ بساقية أبي شعرة من قرى المنوفية وإليها نسبته: الشعراني ويقال الشعْراوي.

حياته العلمية:

قال ابن العماد الحنبلي نقلاً عن الحافظ المناوي في طبقاته وهو يذكر الشيخ بقوله: هو شيخنا الإمام، العالم، العابد، الزاهد، الفقيه، المحدث، الأصولي، الصوفي، المربي، المسلك، مات والده وهو طفل ومع ذلك ظهرت فيه علامة النجابة، ومخايل الرياسة والولاية، فحفظ القرآن، وأبا شجاع، والآجرومية، وهو ابن نحو سبع أو ثمانٍ، ثم انتقل إلى مصر سنة إحدىٰ عشرة وتسعمائة هجرية وهو مراهق، فقطن بجامع الغمري وجدّ واجتهد فحفظ عدة متون منها المنهاج، والألفية، والتوضيح، والتلخيص، والشاطبية، وقواعد ابن هشام، بل حفظ الروض إلى القضاء وذلك من كراماته. وعرض ما حفظ على علماء عصره.

ثم شرع في القراءة فأخذ عن الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري قرأ عليه ما لا يحصى كثرة منها الكتب الستة.

وقرأ على الشيخ الشمس الدواخلي، والنور المحلى، والنور الجارحي، وسنلا علي العجمي، وعلي القسطلاني، والأشموني، والقاضي زكريا، والشهاب الرملي، ما لا يحصى أيضاً.

وحبب إليه الحديث، فلزم الاشتغال به والأخذ عن أهله، ومع ذلك لم يكن عنده جمود المحدثين، ولا لدونة النقلة، بل هو فقيه النظر صوفي الخبر له دربة بأقوال السلف،

ومذاهب الخالف ، وكان ينهىٰ عن الحط على الفلاسفة ، وتنقيصهم ، وينفر ممن يذمهم ، ويقول هؤلاء عقلاء ، ثم أقبل على الاشتغال بالطريق ، فجاهد نفسه مدة وقطع العلائق الدنيوية ، ومكث سنين لا يضطجع على الأرض ليلاً ولا نهاراً ، بل اتخذ له حبلاً بسقف خلوته يجعله في عنقه ليلاً حتى لا يسقط ، وكان يطوي الأيام المتوالية ، ويديم الصوم ، ويفطر على أوقية من الخبز ، ويجمع الخروق من الكيمان ، فيجعلها مرقعة يستتر بها . وكانت عمامته من شراطيط الكيمان وقصاصة الجلود ، واستمر كذلك حتى قويت روحانيته فصار يطير من صحن الجامع الغمري إلى سطحه ، وكان يفتتح مجلس الذكر عقب العشاء فلا يختمه إلا عند الفجر ، ثم أخذ عن مشايخ الطريق . صحب الخواص ، والمرصفي ، والشناوي فتسلك بهم ثم تصدىٰ للتصنيف وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات يخالف ظاهرها الشرع ، وعقائد زائغة ، ومسائل تخالف الإجماع ، وأقاموا عليه القيامة ، وشنعوا وسبوا ورموه بكل عظيمة ، فخذلهم الله ، وأظهره عليهم ، وكان مواظباً على السنة ، مبالغاً في الورع ، مؤثراً ذوي الفاقة على نفسه حتى بملبوسه متحملاً للأذىٰ موزعاً أوقاته على العبادة ما بين تصنيف وتسليك وإفادة .

كان عظيم الهيبة وافر الجاه والحرمة ، تأتي إلى بابه الأمراء ، وكان يسمع لزاويته دوي كدوي النحل ليلاً ونهاراً .

كان يحيي ليلة الجمعة بالصلاة على المصطفىٰ ﷺ .

مؤلفاته :

له مصنفات كثيرة ، منها المخطوط ومنها المطبوع نذكر منها :

١ ـ «الأجوبة المرضية عن أمة الفقهاء والصوفية» مخطوط .

٢ ـ و«أدب القضاة» مخطوط .

٣ ـ و«إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين» مخطوط .

٤ ـ و«الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية» مطبوع .

٥ ـ و«البحر المورود في المواثيق والعقود» مطبوع .

٦ـ و«البدر المنير» مطبوع في الحديث .

٧ ـ و«بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق» مخطوط بخطه .

٨ـ و«تنبيه المغترّين في آداب الدين» مطبوع .

٩ ـ و«تنبيه المغترّين في القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر» مطبوع .

١٠ ـ و«الجواهر والدرر الكبرى» مطبوع.

١١ ـ و«الجواهر والدرر الوسطى» مطبوع.

١٢ ـ و«حقوق أخوة الإسلام» مخطوط.

١٣ ـ و«الدرر المنثورة في زبد العلوم المشهورة» مطبوع.

١٤ ـ و«درر الغوّاص من فتاوى الشيخ علي الخوّاص» مطبوع.

١٥ ـ و«ذيل لواقح الأنوار» مخطوط جزء صغير.

١٦ ـ و«القواعد الكشفية في الصفات الإلهية» مخطوط.

١٧ ـ و«الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر» مطبوع.

١٨ ـ و«كشف الغمة عن جميع الأمة» مطبوع.

١٩ ـ و«لطائف المنن» ويعرف بالمنن الكبرى وهو كتابنا هذا.

٢٠ ـ و«لواقح الأنوار في طبقات الأخيار» مطبوع في مجلدين ويعرف بطبقات الشعراني الكبرى.

٢١ ـ و«لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية» مطبوع.

٢٢ ـ و«مختصر تذكرة السويدي» وهو رسالة في الطب، مطبوع.

٢٣ ـ و«مختصر تذكرة القرطبي» مطبوع وهو مواعظ.

٢٤ ـ و«إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء، إلىٰ شروط صحبة الأمراء» مخطوط.

٢٥ ـ و«مدارك السالكين إلى رسوم طريق العارفين» مطبوع.

٢٦ ـ و«مشارقة الأنوار» مطبوع.

٢٧ ـ و«المنح السنية» مطبوع، شرح وصية المتبولي.

٢٨ ـ و«منح المنة في التلبس بالسنة» مطبوع.

٢٩ ـ و«الميزان الكبرى» مطبوع.

٣٠ ـ و«اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر».

وفاته:

توفي رحمه الله سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة هجرية ودفن بجانب زاويته.

مصادر الترجمة :

شذرات الذهب (٨/ ٣٧٢) .

خطط مبارك (١٤/ ١٠٩) .

الأعلام للزركلي (٤/ ١٨٠) .

تمت بتاريخ ١٥/ ربيع الأول/ ١٤٢٥ هـ
الموافق لـ ٤/ أيار/ ٢٠٠٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يقول الفقير إلى الله تعالى: عبد الوهاب بن أحمد بـن علي الشعراني الشافعي ، عفا الله عنه وعن مشايخه ووالديه وجميع من شاء الله من الموحدين.

أحمد الله رب العالمين ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين.

وبعد: فهذه جملة من النعم والأخلاق التي تفضَّل الحق تعالى بها علي أوائل دخولي في محبة طريق القوم رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، كان الباعث لي على تأليفها ورقمها في هذه الطروس أموراً.

أحدها: ليقتدي بي إخواني فيها ، فيتخلقوا بها ، ويشكروا الله تعالى على ذلك ، وقد مكثت متخلقاً بها عدة سنين ، ولا يشعر إخواني بذلك ، وكنت آمرهم بالتخلق بها فلا يسمعون ، فقال لي يوماً جماعة منهم هذه الأخلاق التي تأمرنا بها لم نجد أحداً تخلق بها من أهل عصرنا حتى نقتدي به فيها ، فاستخرت الله تعالى وأظهرت لهم تخلقي بها ، قطعاً لحجتهم ، وقلت لهم: انظروا إلى هذه الأخلاق التي أذكرها لكم في هذا الكتاب ، فكل خُلُقٍ رأيتموني مُتَخَلِّقاً به فاتبعوني عليه ، وما بقي لكم حجة في ترك التخلق به فلولا ذلك لربما كان الكتمان لها أولى ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في المقدمة.

وكان ذلك من جملة شكر نعمة الله تعالى علي ؛ إذ خلقني بهذه الأخلاق بعد أن كنت معرى منها ، كما أن من أنقذه الله تعالى من الغرق يتأكد عليه أن ينقذ كل من رآه غريقاً.

ثانيها: قصدي بذلك دوام الشكر لله تعالى بعد موتي مدة بقاء الكتاب ، فإن شكر اللسان ينقضي بموت العبد ، وشكر الله في الكتاب قد يتأخر أثره بعده ، فيكون كالنائب في الشكر عن المؤلف وكأن ذلك الشاكر لم يمت.

ثالثها: إعلام أهل عصري بدرجتي في العلم والعمل ، ليقتدوا بي في حفظ كتب الشريعة ، والتخلق بما قسم لي من ذلك فإن طريق القوم محررة على الكتاب والسنة كتحرير

الذهب والجوهر ، فيحتاج سالكها إلى ميزان شرعي في كل حركة وسكون .

رابعها: استغناء من يريد من إخواني أن يذكر شيئاً من مناقبي عن الفحص عنها ، والتتبع لها وربما زاد فيها أو نقص ، كما يقع فيه من يجمع مناقب العلماء والصالحين ، ثم بتقدير صدقه فيما يذكره بواسطة أحد من الثقات ، فهو لا يبلغ إلى مرتبة ما يذكره الإنسان عن نفسه إذا كان صادقاً فإن غاية ما يحكيه الإنسان عن غيره بواسطة إنما هو الظن لا اليقين ، وفي الحديث «**فليقل أحسبه كذا أو أظنه كذا ولا يزكِّي على الله أحد**»[1] أي: لأنه تعالى هو أعلم بمن اتقى .

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي يقول: ليس فوق مرتبة من يزكي نفسه إذا كان صادقاً إلا مرتبة من زكاه الحق تعالى عموماً أو خصوصاً ، كما في نحو قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وكما في نحو قوله تعالى في حق يحيى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٤]. مع نحو قول عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١ ـ ٣٣].

فإن بعض العلماء قال: إن سلام الله تعالى على يحيى ، وتزكيته له أعلى مرتبة من سلام عيسى على نفسه وتزكيته لها في الجملة ، مع أنه عليه الصلاة والسلام معصوم عن أن يخبر عن نفسه بخلاف الواقع .

قال: وسلام عيسى على نفسه أعلى مرتبة من سلام الحواريين عليه ، انتهى .

خامسها: اقتدائي في ذلك بالسلف الصالح رضي الله عنهم ، وقد سبقني إلى مثل ذلك جماعة ذكروا مناقبهم في طبقاتهم تحدثاً بنعمة الله عز وجل ، وتعريفاً بأحوالهم ، ليأخذ الناس عنهم العلم والطريق ، منهم الشيخ الإمام الفقيه المحدث عبد الغافر الفارسي ، أحد حفاظ الحديث ، ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة العماد الكاتب الأصفهاني ، ومنهم الشيخ الإمام المقري ، الفقيه ياقوت الحموي ، ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة لسان الدين بن الخطيب ، ومنهم الشيخ العارف بالله تعالى أبو عبد الله القرشي ، ومنهم شيخه العارف بالله تعالى أبو الربيع المالقي ، ومنهم الشيخ العارف بالله صفي الدين بن أبي المنصور ، ومنهم الشيخ الإمام المجتهد الزاهد أبو شامة ، ومنهم الشيخ الإمام المحدث الحافظ تقي الدين الفارسي ، ومنهم الشيخ الإمام الورع الزاهد أبو حيان ، ومنهم الشيخ الإمام المحدث الحافظ

---

(١) أخرجه بلفظ «ولا أزكِّي» البخاري ، كتاب الشهادات، باب إذا زكى رجل رجلاً كفاه (٢٦٦٢)، ومسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط (٣٠٠٠).

ابن حجر ، ومنهم تلميذه خاتمة الحفاظ بمصر الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى فإنه ذكر مناقب نفسه في طبقات الفقهاء ، وفي طبقات المحدثين ، وفي طبقات المفسرين ، وفي طبقات النحاة ، وفي طبقات الصوفية ، وفي طبقات المقرئين.

وقال في كتابه التحدث بالنعمة[1] إنما ذكرت مناقبي اقتداء بالسلف الصالح ، وتعريفاً بحالي في العلم ليأخذه الناس عني ، وتحدثاً بنعمة الله عز وجل ، لا افتخاراً على الأقران ، ولا طلباً للدنيا ومناصبها وجاهها ، معاذ الله تعالى أن أقصد ذلك ، وأي قدر للدنيا حتى يطلب تحصيلها بما فيه ذهاب الدين واللعنة والطرد عن حضرة الله تعالى ، وقد ظهر شيبي ، ومضى أطيب عمري وعيشي ، ودنا رحيلي ا هـ.

وكذلك أقول: فلم أقصد بما ذكرته لك من الأخلاق في هذا الكتاب الافتخار على الأقران ، معاذ الله أن أهدي إلى حضرته تعالى كتاباً مشتملاً على ما أستحق به باللعنة والطرد ، هذا هو قصدي الآن ، وأرجو من الله تعالى دوام هذه النية الصالحة إلى الممات ، وما ذلك على الله بعزيز.

فإياك يا أخي أن تبادر إلى الإنكار على أولئك القوم الذين اقتديت بهم ، أو علي في ذكر مناقبي وأخلاقي التي تفضل الله تعالى بها علي في هذا الكتاب وغيره ، وتقول إنه ليس من الأدب أن يذكر العبد مناقبه في كتاب ، فإن ذلك جهل وسوء ظن بالعلماء ، والعارفين الذين ذكرناهم ، بل الواجب عليك أن تحمل القوم على المحامل الحسنة ، كنحو أنهم ما ذكروا لإخوانهم شيئاً من مناقبهم وأحوالهم إلا ليقتدوا بهم فيها ، هذا هو اللائق بمقام العلماء كما سيأتي بسطه في المقدمة إن شاء الله تعالى.

واعلم يا أخي أن مما جرأني على ذكر مناقبي وأخلاقي في هذا الكتاب مع علمي بالمحو والإثبات ، حسن ظني بالله عز وجل ، وأنه لا يسلب مني ما وهبه لي على عادة الكرام ، وهو تعالى أكرم الأكرمين ، وأيضاً فإن المعارف لا تسلب ، وإنما تسلب الأحوال لسرعة استحالتها من حال إلى حال ، إذ هي كالثوب الذي يخلع ويلبس ، بخلاف المعارف فإنها كالذوات لا يدخل فيها محو ولا إثبات وجميع ما ذكرناه في هذا الكتاب إنما هو من قسم المعارف لا الأحوال ، ولولا أن أولياء الله تعالى يعلمون من كرمه وفضله تعالى أنه تعالى لا يسلبهم ما وهبهم من المعارف والأخلاق ، ما وضعوها في كتاب ، ولا نشروها في المجالس ، لأن أفعالهم وأقوالهم حينئذ تكذب دعواهم.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن التحدث بالنعم لا يشترط في ذكره تكرارها على العبد طول عمره ، بل يكفيه أنه ينتفع بها أو يتخلق بها ولو لحظة واحدة من عمره ، قال تعالى: ﴿ وَإِن

---

(١) ذكره في كشف الظنون باسم «التحدث بنعم الله» (١/ ٣٥٥).

﴿تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فمن تخلق بخلق ولو لحظة صار من أهل ذلك الخلق على كل حال، فإذا قال أعطاني الله كذا وكذا فقد صدق.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: اذكر كمالاتك ما استطعت فإن بذلك يكثر شكرك لله، وإياك والإكثار من ذكر نقائصك فإن بذلك يقل شكرك، فما ربحته من جهة نظرك إلى عيوبك خسرته من جهة تعاميك عن محاسنك التي جعلها الله فيك، وكان يقول: شهودكم المحاسن فيكم هو الأصل، وأما النقائص فإنما طلب من العبد النظر فيها بقدر الحاجة حتى لا يعجب بنفسه لا غير، وكان يقول: إياكم ومجالسة الأكابر من الملوك والعلماء خوفاً أن تستصغروا ما أنعم الله تعالى به عليكم بالنظر لما رأيتموه من نعم هؤلاء، انتهى.

ويؤيده قوله ﷺ لعائشة: «إياك ومجالسة الأغنياء»[1] وكان يقول: من كمال الكمل شدة الخوف من الله تبارك وتعالى على الدوام، وعدم طمأنينتهم من الطرد عن حضرته في ليل أو نهار، حتى أن سيدي عبد القادر الجيلاني رحمه الله كان يقول: أعطاني الله أربعين عهداً وميثاقاً أنه لا يمكر بي حين رأيته في المنام، ومع ذلك فأنا غير آمن مكره تعالى بي، لعلمي بسعة إطلاقه وأنه يفعل ما يشاء. ا هـ.

وقد وقع لي أنني رأيت رسول الله ﷺ، وأخبرني أن الله تعالى غفر لي جميع ذنوبي ومع ذلك فأنا غير آمن من نحو الخسف والمسخ، كما سيأتي بسطه آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

وقد شيدت منن هذا الكتاب وأخلاقه بجملة من أخلاق سيدنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ إبراهيم المتبولي، وجملة من أخلاق تلميذه العارف بالله تعالى سيدي علي الخواص، وجملة من أخلاق أخي الشيخ الصالح أفضل الدين الأحمدي رضي الله عنهم، وإنما خصصت تشييد الكتاب بأخلاق هؤلاء الأشياخ الثلاثة دون غيرهم، لما تواتر عن أصحابهم أنهم كانوا يقولون إن مشايخنا أخذوا طريقهم عن رسول الله ﷺ يقظة ومشافهة بالشروط المعروفة بين القوم، فبيني وبين رسول الله ﷺ من طريق سيدي إبراهيم المتبولي رجلان، ومن طريق غيره رجل واحد، كما سيأتي بيانه في المقدمة إن شاء الله تعالى، فكل أخلاق هؤلاء الثلاثة محمدية.

فإياك والمبادرة إلى اعتراضك على شيء مما أذكره عنهم في هذا الكتاب ببادىء الرأي من غير تثبت فتخطىء طريق السنة، فإني لم أر أحداً من مشايخ العصر متخلقاً بشيء من أخلاقهم إلا قليلاً، وفي كلام الفضيل بن عياض رحمه الله: الزم طريق الهدى، ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطريق البدعة، ولا يضرك كثرة الهالكين.

وقد فصلت لك يا أخي الأخلاق والنعم تفصيلاً، فجعلت كل خلق أو نعمة في مبحث

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب اللباس، باب ما جاء في ترقيع الثوب (١٧٨٠)، والحاكم في المستدرك (٧٨٦٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦١٨١).

ليسهل اطلاع الناظر فيه على كل مبحث أراد مطالعته ، كما سيأتي بيانه في الفهرسة وكررت فيه بعض النعم عمداً لا سهواً بقصد تأكيد العمل بها والاعتراف بها ، لكن بعبارة أخرى ، واخترت فيه من صيغ التراجم قولي : **ومما أنعم الله به علي كذا** ، **أو مما منّ الله به علي كذا** ، إشارة إلى أنه ليس قصدي بذكر مفاخري وأخلاقي ومناقبي ، الفخر على الإخوان ، وإنما قصدي بذلك الإعلان بكثرة شكر الله عز وجل بالأصالة .

ثم إن لزم من ذلك مدح نفسي فليس ذلك مقصوداً بالأصالة ، وإنما هو باللازم ، ولازم المذهب ليس بمذهب على الراجح عند علماء الأصول ، ويؤيده قول علمائنا لو قرأ الجنب القرآن لا بقصد قرآن جاز ، قالوا لأنه لا يكون قرآناً إلا بالقصد ، فمرادي بقولي ومما أنعم الله تعالى به علي كذا مثلاً الإعلام بأن ذلك من فضل الله عز وجل ، لا بحولي ولا بقوتي ولا باستحقاقي لشيء منه ، وأنا أحث جميع الإخوان على مطالعة هذا الكتاب ، وطلب التخلق بما فيه ، وأحذرهم من أن يطالعوا فيه ثم يتخذوا ذلك ميزاناً يزنون بها على الناس ، وينسوا نفوسهم كما هو شأن غالب مريدي هذا الزمان ، فترى أحدهم يقول : ما بقي أحد من أهل الزمان يصدق عليه اسم المريد ، ويقصد بذلك غيره ، بدليل أنه يتكدر ممن ينفيه من طريق المشيخة فضلاً عن طريق الإرادة ، وقد قالوا : من علامة انتفاع المريد بشيخه أن يصير يعتقد في الناس كلهم الخير إلا نفسه ، فلا يكاد يرى في أحد نقصاً ، وإذا سمع أحداً ينقصه لم يتغير منه شعرة ، بل يرى أن ذلك المنقص له صادق فيما قال ، فإذاً الواجب على كل من يطالع كلام القوم أو غيرهم مما يطلب العمل به أن ينظر في نفسه ، فإذا رآها متخلقة بذلك الأمر فليشكر الله تعالى ، وإن رآها متجردة عنه فليستغفر الله تعالى ، ويأخذ في تحصيل طريق الوصول إلى التخلق به ، على أني لم أذكر فيه مما تخلقت به من أخلاق المريدين إلا نبذة يسيرة تأنيساً للإخوان ، فإن الداعي إلى خير إن لم يكن متخلقاً به قبل المدعوين قل نفعهم به ، وكأنه يقول انظروا إلى كل شيء تخلقت به فاتبعوني فيه ، وما لم أتخلق به فأنا وأنتم فيه سواء فأكرم به من كتاب احتوى على غالب ما يسهل التخلق به على من يريده في هذا الزمان .

وسميته بحمد الله تعالى بـ :

«لطائف المنن والأخلاق
في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق»
ورتبته على مقدمة ، وستة عشر باباً ، وخاتمة .

وضمنت كل باب منه جملة صالحة من الأخلاق الحسنة ، والنعم الجميلة بحسب الوارد ، فلا أزال أقول ومما منّ الله به علي كذا أو ومما أنعم الله به علي كذا إلى أن يفرغ الوارد ، وقدمت فهرسة الأبواب والخاتمة ليكون ذلك أهون في الكشف على من يريد الاطلاع

على خلق من الأخلاق ، أو نعمة من النعم ، فينظر أولاً فهرسة الباب لينظر مظنة تلك المنة أو ذلك الخلق ، هل هو في أوائل الباب أو وسطه أو آخره «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»[1]

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق .

المقدمة: هي كالدهليز الذي يدخل منه إلى صحة الاعتقاد في العارفين ، وقلة الاعتراض عليهم ، وفيها بيان مقام سيدي علي الخواص الذي ورثنا هذه الأخلاق عنه ، فإنه كان من أكابر الأولياء المجهولين عند غالب الناس ، فمن لم يطالع هذه المقدمة ويمعن النظر فيها فبعيد عليه أن ينتفع بشيء من أخلاق هذا الكتاب .

الباب الأول

وفيه من النعم نعمة شرف نسبي لكوني من ذرية الإمام محمد بن الحنفية ، ثم حفظي للقرآن العظيم وأنا في سن التمييز ، ومواظبتي على الصلوات الخمس في أوقاتها من حين كان عمري ثمان سنين ، فلا أتذكر أني أخرجت صلاة عن وقتها عمداً إلى وقتي هذا ثم حفظي من الآفات وأنا يتيم من الأبوين ، وتسخير التمساح لي حين غرقت في بحر النيل فوقف تحت رجلي حتى استرحت وعمت ، ثم مهاجرتي من بلاد الريف إلى مصر لقراءة العلم ، ثم حفظي لمتون كتب العلم التي لم يحفظها أحد من أهل عصري ، وبيان عددها بذكر أسمائها ، ثم شرحي لمحفوظاتي على الأشياخ ، كالشيخ زكريا ، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، والشيخ عبد الحق السنباطي ، والشيخ أمين الدين ، والشيخ شهاب الدين الرملي وأضرابهم وكذلك بيان قراءتي لتفسير القرآن العظيم ، وعلم الحديث عليهم ، وبيان ما كنت أطالعه من الكتب حال القراءة عليهم مما لم يتيسر مطالعته لأحد من أقراني ، ثم أخذي بالأحوط فالأحوط في ديني ، وعدم الأخذ بالرخص إلا بالطريق الشرعي ، ثم عدم التعصب لمذهبي من غير دليل ، مع اعتقادي أن سائر أئمة المسلمين على هدى من ربهم ، ولكن كل من حكم الحديث لقوله فهو أرجح عندي ، ثم كثيرة تأويلي للقوم كلامهم ، وزجر كل من طعن في طريقهم من غير دليل شرعي ، ثم عدم جزمي بما فهمته أنه مراد الله تعالى ، أو مراد رسوله ﷺ ، أو مراد أحد من الأئمة ومقلديهم ، وذلك لأن الكلام على مراد صاحب الكلام من غير توقيف منه لا يكون إلا بكشف صحيح ، أو إلهام لا يخطىء أو نحوهما وأنى لي بذلك

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٦٩٩) ، والترمذي ، كتاب الحدود ، باب ما جاء في الستر على المسلم (١٤٢٥) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في المعونة للمسلم (٤٩٤٦) ، وابن ماجه ، كتاب المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٥) ، وأحمد في مسنده (٧٣٧٩) .

إلا بعناية الله تعالى ، ثم حفظي من دعوى العلم على وجه التكبر به على أحد العوام والأقران .

ثم إذن سيدنا ومولانا شيخ الإسلام الشيخ زكريا بتدريس علم الفقه والتفسير والتصوف ، ثم عدم المبادرة إلى القول بتعارض الأدلة ، وأقوال الأئمة ، بل أتربص وأنتحل لهما محملاً صحيحاً أدباً مع الشارع ، فإن منصبه ومنصب الأئمة يجل عن التعارض، ثم حفظي من الجدال ورفع الصوت مع إخواني المخالفين لي في الفهم فضلاً عن الأشياخ ، ثم كثرة مطالعتي لكتب الشريعة وآلاتها من تفسير وحديث وأصول وتصوف ، ثم بيان عدد الكتب التي طالعتها ، ثم مطالعتي لكتب مذاهب الأئمة الثلاثة زيادة على مذهبي لأتحرز من مخالفة الأئمة في أعمالي كلها ، ويكون عملي موافقاً لهم حسب الطاقة ثم كثرة توجيهي وتقريري لمذاهب المجتهدين حين تبحرت في العلم حتى كأني واحد من أمهر فحول مقدلي ذلك المذهب، وذلك لاطلاعي على أدلة الأئمة ، وما استندوا إليه من نص أو قياس أو إجماع، ثم أعطاني الفهم في القرآن والحديث وكلام الأئمة، ثم تأليفي كتباً كثيرة في الشريعة وغالبها لم أسبق إليه إنما استنبطته من الشريعة؛ وذلك ككتاب العهود ، وكتاب المنن وكتاب مشارق الأنوار القدسية وغير ذلك .

ثم إجازة علماء المذاهب الأربعة لمؤلفاتي ، ومدحها ومدح مؤلفها خلاف ما أشاعه الحسدة عني في مصر والحجاز ، ثم موت جميع أشياخي في الفقه والتصوف وغيرهما وهم عني راضون ، ثم انشرح صدري من حين كنت صغيراً للعمل بالكتاب والسنة ، وانقباض خاطري من العمل بالبدعة خلاف ما أشاعه الحسدة عني ، ثم إلهامي لمجاهدة نفسي بغير شيخ لما تبحرت في العلم . ثم بشيخ ليساعدني على إزالة الموانع التي توقفني عن العمل بما علمته ومبالغتي في الورع حتى كنت لا أمر في ظل عمارة أحد من الولاة ، ثم ظهور أن جميع ما كنت عليه من الأعمال بلا شيخ كأنها كانت رياء وسمعةً نفاقاً بالنسبة لما نبهني عليه الشيخ ، ثم إعطاؤه تعالى لي الفهم في القرآن على مصطلح العارفين ، ثم إعطاؤه لي تعالى الفرقان بين المقامات والعلوم ، وما كل الرجال أعطوا الفرقان ، ثم سكون القلب عن طلب الأجر على الأعمال ، لعلمي بأن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ثم علمي بكون الحق تعالى يكرهني أو يحبني ، وذلك بوزني أعمالي على الكتاب والسنة ، ثم قصدي بتعليم العلم نفسي أولاً ثم الخلق ثانياً ، والله تعالى أعلم .

البـاب الثاني

وفيه من النعم نعمة نفرة نفسي ممن يزعم أنه يعلم علم جابر ، أو يفتح المطالب من حين كنت صغيراً وفيها تلخيص رسالة الشيخ أفضل الدين في بيان الحجر المكرم ، ومراتب أهل ذلك العلم ، ثم بلوغي مقام الزهد إلى أن صار عندي الذهب والتراب على حد سواء من غير ترجيح ، ثم بعد أن أحكمت ذلك المقام رجحت الذهب على التراب ، عملاً بما جعله الله تعالى فيه من الحكمة ثم ذكرت أني بلغت في مقام الزهد إلى أنه لو أمطرت السماء ذهباً وصار

الناس ينتهبونه لم أجد لي داعية إلى أخذ شيء منه إلا لأمر مشروع ، ولو أنني مررت على تلال الذهب والفضة من غير مزاحم عليها من أبناء الدنيا ، ولا حساب عليها في العقبى ، لم أتناول منها ديناراً واحداً إلا لضرورة شرعية ، ولو أن البغلة دخلت داري في الليل محملة ذهباً من مطلب ونحوه أخرجتها من داري بذهبها خوفاً من طول الحساب يوم القيامة ، ثم إنه لو كان عندي ما شاء الله من الذهب فسرقه إنسان أو أخذه من بين يدي ، وأنا أنظره لا أتبعه ولا بوكيلي هواناً بالدنيا ، ثم كراهتي للأكل من شيء أعطيته من الناس على أني من الصوفية لأنه أكل بالدين ثم كثرة شفقتي على جميع المسلمين وولاة أمرهم ، حتى أني ربما أمرض لمرض صاحبي ، أو ولي أمري ، وأشفى لشفائه ، وحتى أني أحفظ جميع الولاة وبيوت الناس وحوانيتهم وزروعهم وجسورهم كل يوم وليلة ، وقد يغفلون هم عن ذلك. وفيها ذكر رؤيتي أني شربت من عين العرش في واقعة ثم عدم مدحي لأصولي وفروعي عند من لا يعرفهم إلا لغرض شرعي.

ثم تمييزي لحظ نفسي من حظ الباري جل وعلا ، فلا أحب أنه يعفو عني من حيث إن في ذلك راحة لي ، وإنما أحب العفو من حيث إنه يحب العفو ، فلولا محبته تعالى للعفو ما أحببت العفو ، وإن كان فيّ جزء يحب العفو فهو جزء ضعيف ، لا أكاد أحس به ، ثم عدم بداءتي بالزيارة لمن علمت أنه يكافئني على ذلك خوفاً من تكليفه لزيارتي نظير البداءة بالهدية ، كما أشار إليه عند بعضهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

ثم عدم نصبي على الناس حتى يحبوني ، أو يأخذوا عني أدب القوم ، بإيهامهم أني أعرف علم الكيمياء ، وأن كل من صحبني علمته ذلك ، كما وقع فيه بعض أهل العصر ، ثم إلهامي جوامع الكلم من التسبيح والاستغفار ، حيث ذهلت عما ورد في السنة لدهشة وارد أو نحوه ، ثم ترادف رؤيتي للعلماء والمشايخ الذين ماتوا لما دخلت سنة إحدى وستين وتسعمائة ، وأمرهم لي بطلب التزود والرحيل من هذه الدار ، ثم نظري إلى الوقت الذي أنا فيه دون الماضي والمستقبل ، ثم نصحي لأصحابي بما صرحت به الشريعة فقط تخفيفاً عليهم ، إلا إن أجمع العلماء على ذلك الأمر ، ثم فراري إلى الله تعالى في جميع الشدائد قبل خلقه ، ثم تربية الحق لي برؤيتي العبر في غيري ، ثم نفرة نفسي من الدنيا ، وممن يحبها ، ثم حمايتي من الأتباع الذين يتعصبون لي بالباطل ، ثم كثرة اعتقادي في أهل عصري من غير مطالبة بدليل ، ثم غيبتي عن التطلع لما في أيدي الخلائق ، ثم دوامي على التقشف النسبي إلى وقتي هذا ، ثم كتماني ما أطلعني الله عليه من غالب الحوادث المستقبلة ، ثم عدم تسلقي على مقامات الصالحين ، ثم وجود الرجاء والخوف عندي في وقت واحد ، ثم توبتي كلما أتناول شهوة ، ثم حفظه تعالى لفرجي من الفواحش ، ثم عدم اشتغالي بالنعمة عن الله ، ثم فناء اختياري مع الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ، ثم عدم شهوة أعضائي للمعصية من حين بلغت للأربعين

سنة ، ثم حمايتي من وقوع الانتظار لرزق معين ، ثم معرفتي بالله عز وجل بحيث لا تزلزلني النقول ثم كتمان مصائبي عن الخلق ، ثم عدم وعدي لأحد بما لا أقدر على الوفاء به ، ثم حمايتي من أكل الشبهات ، ثم توالي الآلام على جسدي ، ثم رضائي بالدون من الدنيا ، ثم عدم قولي في دين الله بالرأي ، ثم كثرة شكر الله تعالى إذا زوى عني الدنيا ، ثم حمايته تعالى لقلبي أن يقيم فيه محبة أحد من الخلق إلا بإذنه تعالى ، ثم كثرة حثي لأصحابي على كثرة ذكر الله محبة في الله لا لعلة أخرى ، ثم فرحي بالفقر إذا أقبل ، ثم عدم تدبيري مع الله تعالى إذا نزل بي بلاء ، ثم عدم بغضي أو محبتي لأحد بحكم الطبع ، ثم عدم تكدري من صاحبي إذا فارقني وعاداني ، ثم محبتي لكثرة مخالطتي للعلماء والصالحين مع الاعتراف بعجزي عن القيام بواجب حقوقهم ، ثم صبري على جفاء من دعوتهم إلى خير وأبوا ، ثم عدم سخطي على مقدورات ربي إذا نزل بي ما أكره ، ثم كونه تعالى لم يجعل الدنيا أكبر همي من صغري إلى وقتي هذا ، ثم ملاطفتي لمن رأيت عنده حسداً لأخيه المسلم ، وصبري عليه حتى يرجع عن حسده ، ثم اطلاعه تعالى لي على بعض المنعمين والمعذبين في قبورهم ، ثم حجبي عن ذلك رحمة من الله تعالى بي ، ثم عدم أمني من مكر الله تعالى في ساعة من ليل أو نهار ، وعدم اغتراري بما أعطاه الله تعالى لي من المكاشفات والكرامات.

ثم عدم التمادي في استحسان شيء من أحوالي ، وأقوالي ، ثم حمايتي من الحاجة إلى سؤال الناس وغنائي عنهم بالقناعة ، فلم أجده يحوجني قط تعالى إلى كتابة قصة لأحد ليعطيني شيئاً من الدنيا ثم عدم طمأنينة نفسي إلى دوام النعمة عليّ لعدم استحقاقي لها وكثرة التحويل والتغيير لمثلي عقوبة له على سوء أدبه ، ثم فزعي لذكر الله ، وإلى الصلاة إذا احتجت إلى شيء من أمور الدنيا ، ثم تقديمي الأهم فالأهم من المأمورات الشرعية من حين كنت صغيراً ، ثم عدم محبتي للشبع من الحلال فضلاً عن الأكل من الحرام والشبهات ، ثم عدم صبري على البعد من حضرته تعالى ساعة من ليل أو نهار ، كلما أغفل أو أخرج من الحضرة ، ثم رميي للدنيا الزائدة عن حاجتي الحالة الراهنة في بداية أمري ، ثم أخذي لها وجمعها في آخر عمري تحقيقاً بالفقر والفاقة لفضل الله ، وكف نفسي عن السؤال لعيالي وأصحابي ، ثم مبادرتي إلى تفتيش نفسي إذا دعوت الله في حاجة ولم يجب دعائي ، لأن الإجابة ربما توقفت لأجل معصية ارتكبتها ، والله أعلم.

الباب الثالث

وفيه من النعم نعمة رد نفسي فوراً إلى الرضا بتقدير الله عز وجل إذا حصل عندي لمحة خاطر اشمئزاز منه ، ثم عدم طلبي لشيء من مناصب الدنيا من منذ وعيت على نفسي ، ثم عدم تسليمي للنفس ما تدعيه من ترك الحظوظ فإن لها غوائل ، ثم تسليمي لمن ادعى أنه خرج عن حظوظ نفسه ، وصارت إرادته موافقة لإرادة ربه ، ثم تنبيهي بتصاريف القدرة فيّ بما أكره

على وجود ذكر الله لي ، وعدم غفلتي عن التمادي في الغيّ ، وحظوظ النفس ، ثم حسن ظني بربي إذا قسيَّ علي قلوب عباده ، وكف لسانهم عن حمدي ، وأطلق لسانهم علي بالذم ، ثم معرفتي بمداواة من رأيته يتسخط إذا سأل ربه شيئاً ولم يعطه ، ثم وجود منازعة نفسي لي وميلها إلى الشهوات المباحة أواخر عمري ليحصل لي أجر مجاهدتها ، فأفارق الدنيا على المجاهدة ، ثم عدم سؤالي لله تعالى شيئاً إلا مع التفويض إليه فيه لكونه أعلم بمصالحي من نفسي ، ثم مبادرتي لشكر ربي إذ حفظني من مضلات الفتن دون العجب ، ورؤية النفس على من وقع فيها ، ثم مداومتي على الأعمال التي كنت أعملها أيام بدايتي إلى وقتي هذا ، ثم شهودي أن صفات نفسي الناقصة دائمة معي على الأعمال حتى أموت ، فلا أمان لي من الوقوع فيما لا يحل لي.

ثم عدم شهوة نفسي لشيء من المطاعم والملابس إذا دخلت سوق الطعام واللباس، ثم غضبي باطناً على كل من رأيته يدعي التلبس بشيء من مقامات القوم دعاوى باطلة ، ثم إعلامي له بكذبه فيما بيني وبينه ليتوب من الدعوى ، ثم طلبي لكل حاجة احتجت إليها من باب الله تعالى دون خلقه إلا بجعل خلقه باباً من أبوابه ، كالقناة الجاري لنا منها الماء فقط ، ثم عدم استبعادي على نفسي أنها تقع في أكبر الكبائر ، ولو صارت معدودة من مشايخ العصر ، ثم عدم اعتمادي على غير الله عز وجل في الشدائد.

ثم كثرة أدبي مع ولاة الزمان ظاهراً وباطناً من حيث كون الحق تعالى ولاهم علينا ، وجعلنا تحت حكمهم ، ثم كراهتي لتردد أحد من الأكابر إلي من عالم أو صالح أو أمير إجلالاً لهم وتعظيماً ، ثم ردي كل شيء يأتيني من مال الولاة ، وإن قبلته رميته بين الحاضرين ولا آخذ منه شيئاً ، ثم عدم خوفي من أحد من الولاة لأنهم لا يسلطون إلا على من يحب الدنيا غالباً ، ثم حملي للعلماء الذين يدخلون على الأمراء ، ولا ينصحونهم على العجز دون المداهنة لأجل دنياهم.

ثم عدم خوفي من مخلوق مطلقاً ، من حية أو عقرب أو تمساح أو لص أو جن أو غيرهم إلا عملاً بأمر الشارع ﷺ بالذب عن بدني ، ثم تنبيهي في المنام على الأمور التي تقع مني في المستقبل أو في الماضي ، ولم أشعر بكونها مذمومة ، ثم محبتي لرفع صوتي مخلصاً بالذكر حتى أود أن يسمع ذكري أهل المشرق والمغرب ضد ما كنت عليه في بداية أمري ، ثم محبتي للتقلل من مجالسة الأكابر من العلماء والصالحين وقضاة العساكر ونحوهم خوفاً من إخلالي بواجب حقهم ، ثم كثرة تعظيمي للشرفاء ولو من جهة الأم فقط ، وإن طعن الناس في صحة نسبهم ، ثم معرفتي بصوت الشريف وتمييزه عن غيره إذا كلمني من وراء جدار مثلاً ، ولو لم أجتمع به قبل ذلك ، ثم كراهتي للأكل من الصدقات الخاصة دون العامة كالأوقاف على فقراء المسلمين ، ثم استئذاني بقلبي لربي ، أو لرسول الله ﷺ ، أو أحد أئمة العلماء ، إذا كنت

أقرأ القرآن أو الحديث أو العلوم الشرعية ، وكلمني إنسان في حاجة بنحو قولي دستور يا رب أكلم عبدك فلاناً في حاجته ، ثم أقبل عليه ، أو دستور يا رسول الله أو دستور يا محمد يا ابن إدريس ، ونحو ذلك بحسب الكلام الذي أقرره ، ثم كراهتي لمد رجلي في ساعة من ليل أو نهار إلا بعد قولي دستور يا الله أو دستور يا رسول الله أو دستور يا أولياء الله ، ثم أمدها بعد ذلك ، ثم شدة كراهتي للنوم على حدث أكبر أو أصغر ، أو على الإصرار على شيء من الذنوب خصوصاً على نحو غل أو حسد أو كبر أو محبة للدنيا ونحو ذلك ، ثم شدة كراهتي للنوم في الثلث الآخر من الليل ، كشدة كراهة وقوعي في المعاصي الظاهرة ، والله تعالى أعلم.

البـاب الرابع

وفيه من النعم: نعمة كثرة ثنائي على الله تعالى إذ أنزل بي ما يسوؤني عادة. ثم عدم استعمالي الدواء إلا إن كان الداء يشغلني عن الله تعالى ، ثم شدة كراهتي لخطاب الحق وفي بدني نجاسة ، ثم حضوري مع الحق تعالى عند الأكل والشهوات ، ثم كثرة مراعاتي لليتيم ، ولامرأة الجار إذا غاب زوجها أكثر من مراعاتي لمن له والد ، أو لمن زوجها حاضر ، ثم نفرتي من اعتقاد الناس فيَّ ، ثم عدم إجابتي للتصدر في نحو دعاء الاستسقاء ، ثم إحساسي بمشاركة جميع المسلمين في جميع البلايا والمحن التي تصيبهم ، حتى أني قد أشارك المعاقبين في بيت الوالي ، وأشارك المرأة حال طلقها ، وأحس بالولادة ، ثم مساعدة أصحاب النوبة في حفظ إدراكهم في سائر أقطار الأرض ، ثم استئذاني أصحاب النوبة كلما خرجت من بيتي لحاجة أو إلى سفر أو رجعت منها أو دخلت بيت حاكم أو طلعت القلعة لشفاعة ، ثم حفظي من تصريف أرباب الأحوال فيَّ مع كثرة شفاعتي عند الحكام ، وكثرة معارضتي لهم من حيث لا أشعر ، ثم حمايتي من الوقوع في المعاصي والشهوات إذا كنت في حملة ، وسيأتي شروط قضاء الحوائج عند الحكام.

ثم إلهامي إلى أني أطلب الحوائج من أبوابها دون غيرها ، ثم قضاء الحوائج من الحكام مع عدم الوقوع فيما ينقص ديني بسبب ذلك من تزكية نفسي على ألسنة الوسائط أو غيرها ، ثم كثرة توجيهي لكلام الأئمة من المجتهدين والصوفية ، وليس في هذا الكتاب أطول من هذه القولة ، وفيه ذكر افتراء الحسدة عليَّ أنني ادعيت الاجتهاد المطلق ، وبيان من امتنع من الكتابة على السؤال ، ومن وقع ، ثم عدم قطعي للبر والإحسان عمن كفر بتربيتي ، ونكث عن صحبتي ، بل أدوم على الإحسان إليه ، ثم عدم طلبي للثواب على شيء من أعمالي إلا من باب الفضل والمنة دون الاستحقاق ، ثم عدم تكديري إذا قدر الله تعالى علي سهواً أو نسياناً في الصلاة ، بل أفرح لكوني أحتاج إلى الوقوف بين يديه تعالى زمناً آخر بسبب الإعادة أو التدارك ، ثم عدم طلب نفسي مقاماً عند الخلق دون الله تعالى ، ثم عدم احتياجي لقبولي مرتباً

من بيت مال المسلمين أو مسموحاً ، ولو سألوني في ذلك ، ثم حمايتي من الأكل من هدايا الظلمة وأعوانهم، ثم إنصافي لكل من عاملني في بيع أو شراء: وإذا استأجر مني شخص دولاباً أو رزقة أو مركباً ولم ينتفع بها لا آخذ منه أجرة ، ولو سألني هو فيها رددتها عليه.

ثم شهودي أن جميع ما أقاسيه من الشدائد في هذه الدار إنما هو كالإدمان على تحمل أهوال يوم القيامة ، فهو رحمة بي ، ثم حمايتي من الأكل من طعام من شفعت عنده ، أو شفعت له ، أو قبولي هدية من أحدهما ثم عدم قبولي هدية أعلمني بها صاحبها مثلاً قبل مجيئها إليّ ، ثم عدم بخلي بشيء دخل في يدي من الدنيا على من يستحقه سواء النقود وغيرها ، ثم غلبة الحياء علي من الله تعالى ، ومن الخلق ، حتى أني أجعل الطيلسان على رأسي من شدة الحياء وتحرزاً عن فضول النظر ، ثم كراهتي للأكل من ضيافة الأوقاف التي تحت نظري أو نظر غيري ، وعدم استقرارها في جوفي إذا أكلت منها ولو سهواً ، ثم جعلي الحظ الأوفر للوقف إذا زرعت في أرضه ، فأعطي جهة الوقف الأكثر من الخراج أو الحب ، فإنه كمال اليتيم في يد وليه ، والله أعلم.

الباب الخامس

وفيه من النعم: نعمة كراهتي للأكل من صدقة أو هدية علمت أن في بلد المتصدق أو المهدي من هو أحوج إلى ذلك مني ، بل إن قدر أني قبلتها صرفتها فيما أعلم أنه أرجح في ميزانه من أكلي منها ، ثم كراهتي لشيء يقيم في باطني من محاب الدنيا ، سواء كان ولداً أو زوجة أو نقداً أو ثياباً أو نحو ذلك ، ثم كثرة إضافة الأفعال المذمومة إلى نفسي الأمارة قبل إضافتها إلى إبليس ، عكس ما عليه غالب الناس ، ثم عدم مبادرتي إلى سوء الظن بأحد من المسلمين ، ثم عدم مطالبتي أحداً من الخلق بالوفاء بعهدي وهو يخل بعهود الله ورسوله ﷺ ، ثم كثرة توجهي إلى الله تعالى في تسهيل رزق عيالي من غير حصول منة لأحد من الخلق في طريقه ، ثم محبتي لكل تقدير شيء ينكس رأسي بين يدي الله أو يورثني الحياء منه من حيث التقدير لا من حيث الكسب ، وهروبي من كل شيء يرفع رأسي بين الناس يورثني العجب والزهو ، ثم رؤية منة الله تعالى علي إذا أقامني بين يديه في الأسحار ، ولم أجد لذة في مناجاته ، ثم عدم الجهر بالقرآن في صلاة الليل ، وذهاب الخشوع مني إذا جهرت ، ثم عدم نوم قلبي ليلة الأحد فتنام عيني فيها ، ولا ينام قلبي بحكم الإرث لرسول الله ﷺ ، ثم شهودي عدم كمال الإخلاص في كل عبادة فعلتها ، ثم عدم مبادرتي إلى الرحمة والشفقة لمن رأيته جيعاناً أو عطشاناً أو عرياناً ، بل أتربص في ذلك ، فربما فعل الحق تعالى معه ذلك لحكمة لأنه أرحم مني به بيقين ثم شدة قربي من رسول الله ﷺ ، وطي المسافة بيني وبينه ، حتى أني في بعض الأوقات أضع يدي على قبره الشريف وأنا في مصر ، ثم تعويلي في الشدائد كلها على الله تعالى ، ثم على رسول الله ﷺ ، ثم جعلي عباداتي كلها مقاصد لا وسائل ، ثم

سترتي لمن دخل علي من الفقهاء وقرر كلام القوم على غير وجهه.

ثم عدم تزوجي لابنة شيخي إجلالاً لها ، ثم سترتي لمن أطلعني الله تعالى عليه أنه ارتكب معصية ولم يتب ، ثم شهودي أن جميع ما بيدي من الخير هو ببركة ملاحظة أشياخي لي بإرادة الله تعالى ، ثم محبتي لإطعام الطعام لكل داخل علي ، ثم سياحتي في الجبال والبراري حتى وصلت إلى مواضع قل من سلكها ، ثم إقامة العذر للفقيه إذا بادر إلى الإنكار على بعض أهل الطريق، ثم كثرة أدبي مع المجاذيب وأرباب الأحوال، ثم وجود البركة في رزقي حتى ربما أقدم للضيف ما يأكله واحد فيكفي العشرين نفساً ، ثم طاعة الجن لي ، واعتقادهم في الصلاح والعلم ، ثم كراهتي للأكل من طعام العزاء والجمع وتمام الشهر ، ثم عدم مبادرتي إلى الإنكار على من تزيا بزي الفقراء حتى المطاوعة ، إلا أن أرى منهم ما يخالف الشريعة ، ثم عدم حرماني للسائل ولو كان قوياً على الكسب ، فربما يكون له عذر ، ثم تفقد قلبي صباحاً ومساء من دخول الصفات المخالفة للأخلاق الحميدة ثم ندمي في بعض الحيثيات على كل نومة نمتها في ليل أو نهار ، ثم معرفتي للولي إذا زرته في قبره ، هل هو حاضر أو غائب ، وغير ذلك.

الباب السادس

وفيه من النعم: نعمة كراهتي للاختصاص عن الفقراء بشيء ولو أنه موقوف علي وحدي ، ثم تعففي عن الأكل من طعام كل شخص عرف بالكرم في هذا الزمان ، ثم حمايتي من أخذ معلوم على فعل شيء من القربات الشرعية إلا لضرورة شرعية ، ثم عدم قبولي شيئاً أعطاه لي الناظر من وقف المرتب ، زائداً على رفقتي من المستحقين ، ولو عزم عليّ به ، ثم عدم مطالبتي لمن لي عليه حق دنيوي ما دمت أجد الرغيف والخلقة ، ثم عدم رؤيتي أنني أحق بشيء مما في يدي من الدنيا من المحتاجين ، ثم عدم التفات نفسي إلى شيء من الدنيا إذا ضاع مني ، سواء قل أو كثر إلا أن يكون لغيري ، ثم عدم مزاحمتي لشيء مما فيه رياسة دنيوية أو يؤول إلى الدنيا من جاه أو نشر صيت ، ثم كثرة حذري من إبليس كلما ترقيت في مقامات الطريق ، ثم كثرة تعظيمي لإخواني عند كل أمير صحبته ، حتى ربما يترك صحبتي ويصحبهم ، ثم انشراح صدري لتقديم زيارتي لمن يكرهني على زيارة من يحبني.

ثم قصدي بزيارتي نفعه هو بالأصالة ، وفيه ذكر سيدي علي المرصفي رضي الله عنه ، ثم حسن سياستي لمن رأيته ينقص أخاه المسلم حتى يتوب من التنقيص ، ثم عدم تقديم نفسي على إخواني في أمور الدنيا باختيار مني وطيب نفس ، ثم عدم شهودي الملك الحقيقي لشيء أعطانيه الله في الدنيا والآخرة ، لأنني عبده في الدارين ، ثم خفض جناحي لفسقة المسلمين حتى يسمعوا نصحي ، ثم كثرة نصحي لإخواني ، ثم عدم ترددي إلى بيوت الحكام لغير

ضرورة شرعية لكن إن بدأني أحد منهم بالزيارة كافأته على ذلك بالتردد إليه مرات وفاء بحقه ، وبه قال جماعة.

ثم عدم تكدري على شيء فاتني من الدنيا أو ممن صدها عني عادة ، ثم انشراح صدري إذا أصبحت أو أمسيت وليس عندي شيء من الدنيا ، ثم عدم مبادرتي للإنكار على من رأيته يأخذ مال الولاة ، فربما أخذه للضرورة الشرعية ، ثم شكري لله عز وجل إذا ضيق علي الرزق كشكري له إذا وسعه علي من حيث خوف الطغيان ، ثم رضاي عنه إذا قدر علي شيئاً من المعاصي من حيث علمي بأنه حكيم عليم ، فأستغفره من حيث الكسب ، وأرضى عنه من حيث التقدير ، ثم عدم اعتمادي على شيء من طاعتي دون فضل الله عز وجل ، ثم حسن سياستي للمقاريض في أعراض الناس ، ثم عدم اعتقادي في نفسي أنني من علماء الزمان العاملين ، ثم نفرة نفسي ممن يمدحني في المجالس بنظم أو نثر ، ثم موافقة من يمدح عدوي في المدح ، ثم عدم المبادرة إلى الإنكار على من رأيته يسعى على وظائف الناس ، ثم حسن سياستي للأمير الذي صحبه أحد من إخواني للخدمة ، وفيه ذكر حمزة الكاشف ، والشيخ أبي المجد الزفتاوي.

ثم عدم عداوتي لأحد ممن يحضر المواكب الإلهية كالمؤذنين وأضرابهم ، ثم كثرة أدبي مع قضاة زماني وعدم قولي ببطلان أحكامهم إلا بطريق شرعي ، ثم موالاتي لمن والى شيخي أو إمامي ، ثم كثرة أدبي مع الإمام مالك وأصحابه لكونه شيخاً لإمامي في الجملة ، ثم حمايتي من الأكل من طعام المتهورين في مكاسبهم كالظلمة وأضرابهم ، ثم عدم أكلي من طعام من يعتقد في الصلاح خوفاً من الأكل بديني ، ثم عدم أكلي من طعام العباد الذين لا حرفة لهم ويأكلون بدينهم ، ثم حمايتي من الأكل من طعام النذور والعرس والعزاء ونحو ذلك ، ثم حمايتي من الأكل من طعام الصنائعي الذي يعمل بالقوت ، ثم حمايتي من الأكل من طعام من علمت أن عليه ديناً وهو قادر على وفائه ، فضلاً عن كونه عاجزاً ، ثم حمايتي من الأكل من هدية علمت بالقرائن أن لها قدراً عظيماً عند صاحبها ، ثم كراهتي للأكل وحدي ، ثم عدم ردي للسائل المحتاج ، ثم اعتقاد الجن وكثير من المسلمين والنصارى وغيرهم في الصلاح ، ثم كثرة تصديقي وتسليمي لكل من ادعى ممكناً في العادة حتى القطبية الكبرى.

ثم كشف الحجاب عني ، حتى سمعت تسبيح الجمادات ، ثم عدم قولي بالجهة في جانب الحق جلا وعلا ، ثم عدم تسليمي للنفس ما ادعته من العجز عن القيام إلى الصلاة في المرض إلا بعد امتحانها ، ثم حمايتي من الأكل من طعام من شفعت فيه شفاعة ، ثم كراهتي لقبول شيء من هدايا الولاة والعمال ، ثم عدم مزاحمتي على صحبة أحد من الولاة ، وعدم صحبتي للأمير إذا لم ترجح صحبته شرعاً على تركها ، ثم كثرة قبول شفاعاتي عند الأمراء ومشايخ العرب والعمال ، ثم حسن سياستي للأمير الذي أشفع عنده ، وفيه ذكر محمد العبادي ،

فأقول للأمير إذا كان التأديب بلغ حده في فلان فشفعنا فيه ، وإلا فنحن معكم على تأديبه ، ثم حمايتي من الأكل من ضحايا الولاة التي يرسلونها إلى الزاوية ، ثم حمايتي من مساعدة الظلمة لي في حجاتي الثلاث ، ثم حمايتي من وقوع مجاورتي بمكة لعجزي عن القيام بآداب المجاورة ، وفيه ذكر شروط ذلك ، ثم حمايتي من الأكل من صدقات الناس ، ثم كثرة شكري لله تعالى إذا زوى عني الدنيا ، ثم عدم شهود فضلي على من أحسن الله تعالى إليه على يدي ، ثم انشراح صدري للإسرار بالصدقة ، والله تعالى أعلم.

الباب السابع

وفيه من النعم: نعمة عدم تشوف نفسي إلى مكافأتي على هديتي ، ثم كثرة رحمتي وشفقتي على من غير وبدل من الفقراء أو رجع إلى محبة الدنيا ، ثم عدم قطع بري لمن كفر بوساطتي في رزقه ، ثم عدم شح نفسي على الهرة بالدجاجة ، وعدم تمكيني أحداً يتبعها إذا خطفتها من السفرة خوفاً من إزعاجها ، ثم حضوري مع الله تعالى حال أكلي وشربي كما أحضر في الصلاة ، ثم عدم التكدر ممن ذهبت إلى زيارته فلم يفتح لي الباب ، وفيه ذكر الخطيب الشربيني وأدبه ، ثم صحة توجهي إلى الله تعالى في دفع الدنيا عني ، ثم تنبيهي على ما أكلته من الحرام والشبهات بعلامات أعرفها ، ثم عدم تقديمي للضيف ما فيه شبهة وعدم تكلفي له ، ثم كتماني لعمل وليمة أو مولد عملتهما عن أصحابي خوفاً من أن يتكلف أحد منهم ويساعدني ، ثم حمايتي من التداوي بإشارة يهودي ، ثم شهودي أن الابتلاء الذي يقع لي إنما هو بمحبة الحق تعالى لي ، ثم تحملي عن بعضِ المرضى مرضه ، ثم عدم غفلتي عن الصلاة إذا مرضت ، ثم إرسال رسول الله ﷺ لي رسولاً كلما أمرض يبشرني بالخلاص من ذلك المرض ، ثم رضاي عن ربي إذا قسم لي يسيراً من الطاعات ، ثم أخذي كل كلام سمعته من واعظ أو خطيب في حق نفسي دون غيري ، ثم فرحي بكل شيخ سكن في حارتي وانقلب إليه جماعتي ، حتى لم يبق أحد منهم حولي ، ثم حفظي للأدب مع أصحاب الوقت من العلماء والصالحين ، فلا أجلس مجلس وعظ مثلاً حتى أقول دستور يا أصحاب الوقت حتى لا يرتج عليَّ الكلام ، ثم شهودي أن جميع الكرامات التي تقع على يدي ليس لي فيها تعمد ، وإنما هي كلها فعل الله وحده حقيقة ، ثم عدم مبادرتي للإنكار على من رأيته يلبس ملابس أهل الدنيا عادة من العلماء والصالحين ، وفيه ذكر سيدي محمد البكري.

ثم كراهتي للجلوس في المسجد على حدث أصغر ، ثم كراهتي إخراج الريح في المسجد ، ثم كثرة تبجيلي لإخواني فيّ في غيبتهم وحضورهم ، ولا أواجه أحداً منهم بنصح في الملأ إلا إن كان قد بايعني على ذلك ، ثم محبتي لزيارة جميع أقراني إلا الحسود ، وفيه ذكر إجلالي للخطيب الشربيني ، وسيدي محمد البكري ، وكثرة توجهي إلى الله تعالى أن لا يمشي أحد منهما إلي تعظيماً لهما ، ثم كراهتي لحضور المحافل الكثيرة التي لم يشرع لنا

حضورها ، ثم حمايتي من النوم على غير وتر ، ثم عدم إجابته تعالى دعائي على أحد من المسلمين ، وسؤالي له قبل ذلك أن لا يستجيب لي فيهم دعوة حال غضبي ، ثم عدم مجادلة من جادلني بغير حق حتى تخمد نار نفسه ، وينزل الشيطان من على ظهره ، ثم كثرة مشاورتي لأصحابي في كل أمر لم يأمرني به الشارع بخصوصه ، ثم عدم هجري أحداً من المسلمين لحظ نفسي فوق ثلاث ، ثم حضوري مع الله تعالى حال جماعي كما في الصلاة في أصل الحضور وإن تفاوت الحضوران من حيثيات أخر بجامع الأمر بكل منهما ، ثم عدم جماعي مع الغفلة أو وأنا مخاصم لأحد أو محب للدنيا ، فربما أتى الولد على صورة والده حال الوقاع ، وفيه ذكر الشيخ أحمد بن عاشر .

ثم عدم بخلي على عيالي بأجرة دخولهن الحمام كلما أجامع ، ولو تكرر ذلك كل يوم ، ثم تقبيلي لِرِجْلِ العالم أو الصالح إذا زرته بحضرة تلامذته ، بقصد زيادة اعتقاد مريديه فيه ، ثم أرى فعلي ذلك من بعض حقوقهم عليّ ، ثم تحفظي من طول الجلوس عند أحد من إخواني خوفاً من وقوعي ، أو وقوعه في غيبة أحد ، فقل مجلس طال وسلم من ذلك ، ثم كثرة ستري لعورات المسلمين الذين لم يتجاهروا بالمعاصي ، لا سيما عدوي ، ثم عدم مبادرتي إلى الرد على من أشيع عنه أنه قال ما يخالف الشرع أو جمهور العلماء ، وفيه ذكر واقعة الشيخ عبد المجيد النامولي ، المقيم بالمحلة الكبرى ، في قولنا اللهم صل وسلم على أفضل مخلوقاتك ، وأنه نهى عن مثل ذلك ، وبيان أن ذلك كذب عليه وافتراء .

ثم مشاركتي لجاري في الفرح والسرور إذا ولد له مولود مثلاً ، ثم عدم مني بالأكل على صاحبي إذا حصل بيني وبينه وقعة ، ولا أقول له تذكر العيش الذي بيننا وبينك ، ثم معرفتي بحال قضاة الزمان في تشوشهم ممن يصلح بين الناس ويعطل محاكمهم ، وأنهم معذورون في مثل ذلك ، ثم عدم جمعي بين الضرتين ، ولو بإذن القديمة منهما ، لأن ذلك أمر لا يدوم ، والله أعلم .

الباب الثامن

وفيه من النعم: نعمة عدم بغضي أحداً من الأشراف أو الأنصار ولو طعن الناس في نسبهم ، ثم حفظي لحرمة مشايخي الأحياء والأموات ، فلا أرى نفسي أهلاً لخدمتهم ولو بلغت مقام مشايخ العصر ، ثم عدم مزاحمتي لأحد من مشايخ عصري على المشيخة كأخذ العهد ، وتلقين الذكر ، ورؤيتي أنه أفضل مني ، ثم عدم افتتاحي مجلس الذكر ، وهناك من هو أكبر مني سناً أو أحد من الأشراف ولو صغيراً ، ثم عدم أخذي العهد على مريد نكث عهد شيخه. وعدم إظهاري البشاشة له وفاء بحق شيخه الذي نكث عهده ، ولو لم يعلم بذلك شيخه ، ثم عدم تقييدي على أحد ممن صحبني أنه لا يجتمع بغيري ، أو لا يصلي الجمعة إلا

عندي ، أو أنه يجلب أحداً لصحبتي إلا لغرض شرعي ، ثم حمايتي من الوقوع في شيء يغير قلب شيخي علي يوماً من الدهر ، ثم عدم تغير خاطري على مريدي إذا زار غيري من مشايخ العصر ، ولا أظهر له التغير إلا بطريق شرعي ، ثم عدم تكدري من شيخ عقد له مجلس ذكر تجاه مجلسي ولو في زاويتي ، بل أذهب بجماعتي إليه ، وأكون في طاعته لكل خير ظاهراً وباطناً وآمر أصحابي كلهم بذلك ، ثم كراهتي للتميز عن إخواني في مجلس علم أو ذكر ، ولا أجلس على سجادة مثلاً إلا لعذر شرعي ، ثم كراهتي للأكل من طعام مريدي ، إلا إن كان يعتقد أن جميع ما بيده كالملك لي دونه ، ثم عدم تكدري ممن صحبني من الأمراء ومشايخ العرب مثلاً إذا زار أحداً من أقراني ، بل أحسن اعتقاده في جميع أهل الخير من أقراني ليصحبهم ويتركني ، ثم كثرة إرشادي لأصحابي أن ينظروا في أنفسهم إذا خالفهم خادمهم أو زوجهم ، فربما كان سبب مخالفة الخدم والعيال مخالفة الإنسان لربه عز وجل مجازاة.

ثم كثرة إرشادي للمريدين أن يتحملوا كثرة الأذى من الناس ، ولا يجيبوا عن أنفسهم بجواب إلا لغرض شرعي ، ثم حفظي للأدب مع أقراني حال غيبتهم عني ، وذكر مناقبهم ومفاخرهم في كتاب الطبقات ، وقل من يفعل مثل ذلك مع أقرانه ، ثم عدم أمري للذاكرين بالسكوت آخر المجلس إلا بعد قولي بقلبي دستور بالله أسكتهم ، فإنهم ملوا أو وراءهم ضرورات ، ثم إن شيخي الشيخ محمد الشناوي لي بأني آخذ العهد على المريدين وأربيهم ، ثم كثرة محبتي وتعظيمي لأولاد مشايخي من ذكور وإناث في حياة والدهم وبعد مماته ، وكذلك محبة جميع أصحابهم ، ثم شهودي فضل معلمي علي ولو جاوزت مقامه في زعمي ، ثم إرشادي لإخواني من الأمراء والمباشرين وغيرهم إذا عزل أحدهم من ولايته مثلاً أن يكثر من الاستغفار ، ويتفقد ذنوبه التي عملها طول عمره ويتوب منها كلها ، فإن ذلك أسرع في تحصيل غرض أحدهم ، ثم عدم غفلتي عن نصح أصحابي إذا سلك أحدهم بنفسه مسالك التهم ، ثم كثرة احترامي للأولياء بعد مماتهم ، فلا أتزوج لأحد منهم زوجة ، ولا غير ذلك مما فيه إخلال بواجب حقوقهم ، ثم محبة نفسي للجلوس في طرف الحلقة.

ثم ذهاب فهمي إلى الاتعاظ إذا سمعت القرآن أو الحديث قبل ذهابه إلى الاستنباط للأحكام ونحو ذلك ، ثم عدم احتجابي عن المكروب والملهوف ، ثم أدبي مع أصحاب الحضرة الإلهية في ليل أو نهار فلا أسبق للوقوف بين يدي الله تعالى قبلهم إلا لعذر ، كأن أعلم أن ذلك أرضى لله تعالى ، ثم محبتي لجميع الطاعات لكون مجالسة الحق تعالى تحصل فيها ، وبغضي للمعاصي من حيث حجابي عن الحق تعالى فيها فلا أحب ولا أبغض لعلة ثواب ولا عقاب ، ثم رؤية نفسي أن لحيتي تحت نعل كل عالم أو صالح زرته فضلاً عن كوني أرى نفسي مثله ، وفيه ذكر جماعة من العلماء يعتقدوني بغير دليل ، كالطبلاوي ، والرملي ، ثم تصديقي للصالحين في كل شيء يخبرون به في وقائعهم مما تحيله العقول عادة ، ثم نفرتي

بالطبع ممن يقبل يدي في المحافل ، أو يمشي معي إلى الباب إذا خرجت من عنده إلا لغرض شرعي ، والله تعالى أعلم.

الباب التاسع

وفيه من النعم: نعمة كثرة إكرامي لأهل الحرف النافعة ، ثم عدم ازدرائي لأحد منهم إلا بطريق شرعي ، فأزدري صفاتهم وأفعالهم لا ذواتهم ، ثم تخفيفه تعالى علي مدة المرض في الغالب ، وكثر ضجيجي إلى الله تعالى دون إظهار التجلد ، قال سيدي عمر: **ويقبح إلا العجز عند الأحبة**[1].

ثم هروبي من تحمل منن الإخوان وإن لم يقع منهم منٌّ عليّ ، ثم محبتي لتحمل بلاء جاري عنه حتى أني أود أن كل بلاء نزل عليه كان نزل علي وفاء بحقه ، ثم كثرة محبتي وإكرامي لأهل العلم والقرآن من حيث كونهم حملة شريعة رسول الله ﷺ لا لعلة أخرى ، ثم ستري لطالب العلم فلا أقول له قط قرر كلام القوم إلا إن علمت منه أنه يقرر الكلام على مصطلح القوم ، خوفاً أن يفتضح عند الحاضرين من الفقراء ، ثم كراهتي للتقدم للإمامة في الفرائض وغيرها خوفاً من تحمل نقص صلاة المأمومين ، ثم مبادرتي للشكر إذا قدر الله لي خيراً أو إلى الاستغفار لو قدر علي شراً ، ثم تحملي هم أصحابي إذا خرج أحدهم لزيارتي ولم يجدني في البيت ، ولذلك كنت لا أخرج من بيتي قط إلا إن قلت بتوجه تام اللهم إن كان أحد خرج لزيارتي فعوقني له ، وإن كان لم يخرج فعوقه عن الخروج حتى أرجع إلى بيتي.

ثم صلاتي للاستخارة كل يوم على مصطلح القوم ، ثم أقول اللهم إن كنت تعلم أن جميع ما أتحرك فيه ، أو أسكن ، أو يتحرك فيه غيري ، أو يسكن في حق نفسه أو نفسي ، أو أحد من المسلمين خير لي في ديني ومعاشي إلى آخره ، ثم كثرة اجتماعي بالأموات وهم في قبورهم ، ثم رؤيتي للأولياء الذين ماتوا في المنام ومباسطتهم لي كالإمام الشافعي وغيره ، ثم اطلاعه تعالى لي في المنام على أوقات الحوادث التي تقع في مستقبل الزمان ، ثم رؤيا جماعة من الحكام وغيرهم في المنام ما يزيدهم اعتقاداً في ، ثم شهودي بعين قلبي تصور أعمالي صوراً وهي صاعدة إلى المكان الذي منه برزت من عرش أو كرسي أو سماء ، لا بعين بصري ، ثم ترتيب أورادي فأبدأ بالأفضل فالأفضل ، وبجوامع الكلم قبل غيرها ، ثم احترامي لكل من كان له جمعية قلب مع الله تعالى ، أو مع رسوله ﷺ ، فأتحمل منه الأذى ما لا أتحمله من غيره ، ثم عدم دعائي على الشريف إذا وقع منه شيء يؤذيني ، ثم حصول

---

(١) البيت بتمامه من البحر الطويل:

ويحسن إظهار التجلد للعدا ... ويقبح غير العجز عند الأحبة

انظر ديوان عمر بن الفارض.

الفرح والسرور إذا جفاني أصحابي الذين ليس لي بهم نفع ، بل أعد عدم زيارتهم لي يوم عيد ، ثم كثرة المعتقدين في من الفلاحين ، حتى أن أولادهم يحلفون بي ، ثم عدم اهتمامي بشيء من أمور الدنيا فلا أعمل قط عرساً وأحضر الطباخين ، ثم عدم وجود أحد من الزوالق حولي كما هو الغالب على العلماء والفقراء ، ثم كراهتي لسماع الآلة المطربة ، ثم حسن ظني بأهل الخرق ، كالأحمدية ، والبرهامية ، والمطاوعة ، فلا أنكر عليهم إلا ما خالف صريح الشرع أو خالف الإجماع ، ولا أنكر عليهم شيئاً من المختلف فيه إلا على وجه التنزيه.

ثم عدم تحجيري على مريدي أن لا يصلي الجمعة إلا عندي ، وقد مرت هذه أوائل الباب أيضاً.

ثم حفظي لمقام صاحبي ، أو مقام من أكلت عنده خبزاً وملحاً يوماً من الدهر ، ثم نفرتي بالطبع فضلاً عن الشرع من كل من ينقل إلي نقائص الناس من نفسي أو غيري بغير غرض صحيح ، وفيه ذكر الشيخ زين العابدين البلقيني ، ثم حفظي لمقام العالم أو الصالح إذا خاصمه أحد بغير حق ، فلا أقول: ما لهذا الصالح يتخاصم مع فلان ، وإنما أقول ما لهذا الفاسق يؤذي سيدي الشيخ مثلاً ، ثم صبري على غضب صاحبي الأحمق إذا أمرته بمعروف وتكدر مني ، ثم قلة عيادتي للظلمة إذا مرضوا إلا لمصلحة شرعية ، ثم مداواة المريد إذا تكدر من شيخه إذا لم يعده في مرضه ، ثم صبري على عوج زوجتي وخادمي إذا اعتقدت أن أصل ذلك العوج مني ، ثم خدمة زوجتي إذا مرضت ، ثم كراهتي للخلوة بالأجنبية ، ثم عدم معاتبتي لأحد تخلف عن الصلاة على ميتي ، ثم حسن تدبيره تعالى لي في الحملات الثقيلة التي أدخل فيها ، ثم عدم قبولي هدية ممن تحملت حملته ، ثم كثرة حنيني إلى الوحدة ، وكراهتي لتردد الناس إلي إلا لمصلحة ، ثم تفتيشي لجوارحي صباحاً ومساءً لأشكر الله على عافيتها ، واستغفره من معصيتها ، ثم عدم اعتمادي على شيء من أعمالي دون الله تعالى ، وقد تقدمت هذه المنة مراراً ، ثم عدم إتعاب سري في تحرير كتاب صنفته خوفاً من حصول العجب فيه ، ثم جمعه تعالى فيَّ جميع الأخلاق المذكورة في هذا الكتاب ، ثم إطلاعه تعالى لي في واقعة على جميع ما يتفضل به عليَّ في الدار الآخرة ، إلا ما استثناه الشرع.

الباب العاشر

وفيه من النعم: نعمة حمايتي من أني لم أدع أحداً من الصالحين والعلماء إلى زفة عرس أو ختان إجلالاً لهم ، وفيه ذكر سيدي محمد البكري نفعنا الله ببركاته ، ثم عدم تمكيني لأحد من أصحابي أن يتصدر للرد على أحد من الفرق الإسلامية إلا إذا خالفوا صريح السنة المحمدية ، أو قواعد علمائها ، ثم عدم تنفيذ غضبي فيمن غضبت عليه عند القدرة ثم حفظي للأدب مع أشياخي وأصحابي فلا أمدح أحداً منهم إلا بحضرة من يعتقدهم ، خوفاً أن يسبهم كما يقع

للروافض في حق أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ثم عدم اعتنائي بحضور عمارة بيت أو مركب أو غرس بستان أو شجرة ، ثم عدم اهتمامي بشيء من ملابس الدنيا ، والتعنت في شرائها ، ثم تعففي عن المبادرة إلى إجابة من دعاني إلى التنزه في بستانه أنا وجماعتي خوفاً من قطع الثمار قبل كمالها أو تكليف صاحب البستان ونحو ذلك ، ثم حيائي من الله عز وجل إذا مشيت وحدي في طريق من شدة هيبة الله عز وجل ، ثم كراهتي لكثرة تردد الإخوان إلي خوفاً من العجز عن مكافأتهم ، وقد تقدمت هذه المنة مراراً بغير هذه العبارة.

ثم حفظ زوجاتي من حضور الأعراس التي لا تنضبط أصحابها على الشرع ، ثم محبتي للأشراف ولو كانوا من جهة الأم فقط ، وإن كانوا على غير قدم الاستقامة ، وقد تقدمت هذه المنة مراراً ، ثم زيارتي كل قليل لأهل البيت المدفونين في مصر وقراها ، ولو بعض أعضائهم ، بقصد صلة رحم رسول الله ﷺ.

ثم كثرة اهتمامي بشأن الأمير الذي يجتمع على أحد من أقراني إذا حصلت له بلية وفاء بحق صاحبي ، لا سيما إن كان من المحسنين إليّ ، ثم عدم شهودي أنني وفيت بحق الله عز وجل أو حق أحد من عباده في حال من الأحوال ، ثم عدم مجادلتي مع من غلب عليه حكم الطبع ومحبة الرياسة ثم حث جميع الإخوان على عمل الحرف والصنائع ، وتقديم ذلك على حضور مجلس وردي أو وعظي إلا لغرض شرعي ، ثم عدم شهودي أنني بلغت مقام من هو فوقي في الكمال في إسلامي أو إيماني إو إحساني ، ثم حمايتي من أنني أدعي مقاماً لم أبلغه خوف الحرمان له ، ثم تفويضي إلى الله تعالى في تربية أولادي وأصحابي ، لكن مع مناقشتهم في الأفعال والأقوال البارزة على أيديهم ووزنها على الكتاب والسنة ، ثم شهودي الكمال في صاحبي وشهودي النقص في نفسي ، ولذلك كنت لا أحب العزلة عن الإخوان إلا بحكم الشرع لا الطبع ، ثم عدم الركون والميل إلى أحد من إخواني دون الله تعالى ، وقد تقدمت هذه المنة مراراً.

ثم شهودي أن الله تبارك وتعالى أرحم بنفسي مني ببادىء الرأي من غير تفكير في ذلك ، ثم كوني لا آكل ولا ألبس إلا إن وجدت ذلك من مالي دون الدين إلا لضرورة ، ثم عدم الإكباب على معاشرة الناس ، وعدم انقباضي عنهم ، ثم كثرة صبري على كتمان سري ، وعدم إفشائه لأعز أصدقائي إلا لغرض صحيح ، ثم عدم كثرة امتحاني لأصحابي خوفاً من ظهور عيوبهم لي ولو بالمكاشفة ، ثم عدم تنقيري للإخوان أن يرسلوا إليّ طعاماً من بيوتهم ، أو هدية من غير استدعاء مني ، ثم كثرة مسامحتي للإخوان فيما يتعلق بالإخلال في الأدب معي ، وعدم مسامحتهم في ذلك في حق غيري ، ثم عدم اغتراري برؤيا صالحة رأيتها أو رُئِيَتْ لي ، ثم شهودي لمحاسن العوام من المحترفين ، وتفضيلهم على نفسي ، ثم إقامة العذر باطناً للإخوان إذا أخرجوا أخلاقهم الرديئة على بعضهم بعضاً ، ثم عدم إعطائي الحكمة

غير أهلها أو الأدب غير أهله ، ثم عدم مشاورتي للنساء والعباد بغير علم في فعل شيء أو تركه ، لنقص عقول النساء ، وجهل العباد ، بخلاف العارفين.

ثم كراهتي لتعلم علم الحرف والرمل والهندسة والسيمياء وغير ذلك من علوم الفلاسفة ، ثم هروبي من كثرة النصح للإخوان على طريق التجسس ، خوفاً من الاستدراج لي ، ثم ردي للأمانات التي جعلها الحق تعالى عندي إليه تعالى من مال أو علم أو قال أو حال ، ثم عدم جوابي لمن سألني مسألة في العلم وقلبه غافل عن العزم على العمل بها ، إجلالاً للعلم ومصلحة للسائل ، ثم إذعاني وخدمتي بالطريق الشرعي لكل من ظهر بمظهر دعوى العلم والمعرفة بطريق القوم ، ثم شدة حرصي على وقوع ما ينفع الإخوان في دينهم ودنياهم ، ثم شدة حذري من صحبة العارفين والعلماء العاملين مع محبتي للقرب منهم ، وقد تقدمت هذه المنة في الأبواب السابقة ، ثم كثرة نصحي للإخوان من التجار والمباشرين وغيرهم ، وتحذيري لهم من الإسراف في مأكل أو ملبس في هذا الزمان ، لكساد البضائع وقلة الرزق ، ثم حرصي على حصول الخير لطلبة العلم ، والذاكرين بتعليمهم آداب العلم والذكر.

الباب الحادي عشر

وفيه من النعم: نعمة نفرة نفسي من الصفات التي يكرهها الله تعالى ، ومحبتي للصفات التي يحبها سبحانه وتعالى ، ثم تعليمي لمن عزل من ولايته ، مثلاً طريق إقامة الحجة على نفسه دون الله تعالى ودون خلقه ، ثم معرفتي بطب أرباب الأحوال إذا مرضوا في الحال على اختلاف طبقاتهم ، ثم سروري بالمرض إذا جاء ، وتمنيه بطريقه الشرعي إذا أبطأ طلباً لتكفير سيئاتي ، ثم عدم معاجلتي بالجواب في مجلس المذاكرة والمناظرة في العلم ، ثم عدم طلبي أحداً يساعدني إذا عارضني أحد من أرباب الأحوال، ثم ميلي إلى الدواء إذا حصل عندي مرض ، فأبادر إلى التداوي بكل ما يصفه لي الطبيب المسلم ، ولا أترك التداوي على رغم التوكل ، فإن التداوي لا ينافيه ، ثم أخذي بالاحتياط في عدم كتابتي في المحاضر التي يبنون عليها تولية أحد من أرباب الولايات، ولا أكتب فيها، ولا أزكي أحداً من أصحابها إلا إن غلب على ظني صلاحيته لتلك الولاية ، وتعينها على مثله خوفاً من أن أكون شريكاً له في ظلمه في تلك الولاية.

ثم إعطاء الحق تعالى لي جانباً عظيماً من علم الفراسة الناشئة من نور الإيمان لا على طريقة أرباب الطبائع من الفلاسفة ، ثم معرفتي بالآفات التي تطرق الإنسان في أعماله وعقائده وأحواله ، ثم نظري إلى أدب ذوي البيوت من الأكابر فإن معهم من الآداب ما لا يوجد في كتاب ولا أنظر إلى شيء من مساويهم ، ثم حفظي للأدب مع سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، ثم عدم سياحة فكري فيما تشابه من آيات الكتاب العزيز ، ثم حمايتي من كثرة النوم

الزائد على العادة في الليل والنهار ، ثم محبتي لمن يبصرني بعيوبي ونقائصي ، وتقديمه في المحبة على الصديق الذي يداهنني ، ثم كراهتي من أصحابي أن يكثروا اللغو عندي ، ويجروا قوافي الولاة وغيرهم خوفاً على دين نفسي وعليهم ، ثم كثرة إرشادي لطلبة العلم أن لا يكثروا من الجدال ورفع الصوت عند قراءة التفسير للقرآن ، أو الشرح للحديث ، وربما أغار على أحدهم أن يذكر اسم سيدنا محمد ﷺ وهو على غير طهارة ، ثم مطابقتي بين ما عليه العارفون من أسرار الطريق ، وبين ما قاله الأئمة المجتهدون ، ومقلدوهم من معتمد الأحكام الشرعية عندهم ، ثم العمل على طهارة إيماني بالتوبة ، وإصلاح الطعمة.

ثم عملي على تحصيل مقام الصديقية والشهادة بحكم الإرث لأبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ثم حفظي من الندم على فوات معصية أو طاعة بطريقه الشرعي ، ثم نصحي لمن استشارني في الأخذ عن أحد من مشايخ العصر الذين جلسوا بأنفسهم من غير إذن من شيخهم أن لا يأخذوا عنه ، ثم كراهتي للأكل من الأطعمة الفاخرة في أواني الصيني أو الفرنجي ونحوها ، ثم تشريفي برؤيا الباري جل وعلا مرتين في المنام ، وبالاجتماع برسول الله ﷺ ، وبالسيد عيسى عليه السلام مراراً ، وبالخضر ، وبالقطب عليهما السلام مراراً ، ثم عدم شكوى من يؤذيني إلى الله تعالى أو إلى نفسي ، لأن ولينا كلنا الله تعالى ، وهو يرى ويسمع ما يقع من عباده ، ثم إيماني بالغيب من صغري سواء كان من الغائب عن بصري أو عن عقلي ، ثم جعله تعالى لي محمدي المقام لجمعه مقامات جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ثم زهدي في الدنيا من حيث كونها مبغوضة لله عز وجل لا لعلة أخرى ، وزهدي فيما بأيدي الناس ليحبوني فيشفعوا لي عند الله تعالى لا لعلة أخرى ، ثم حصول مقام التجريد في الباطن حتى أني لو تعريت عن لبس ما زاد على العورة لشاكلت باطني ، ولم يكن عليّ بذلك لوم.

ثم حفظي من أكل أموال الناس بغير إذنهم من حين شهدت أنهم لا يملكون مع الله شيئاً في الدارين إلى وقتي هذا ، ثم عدم إدعائي لمقام المحبة المشهور بين القوم ، ثم خوفي من وقوع يدي على ذكري في ليل أو نهار في عبادة أو غيرها ، ثم عدم مبادرتي إلى الأخذ للعهد على مريد طلب مني أن يكون تحت تربيتي وإشارتي ، حتى أعلم صدقه ، ثم رؤيتي في نفسي إذا جلست مع الفقراء في مجلس خير أنني أكثرهم ذنوباً ، ولذلك أتأثر منهم لما يقبلون يدي ولكن أعذرهم لغيبتهم عن مشهدي ، والله أعلم.

الباب الثاني عشر

وفيه من النعم : نعمة إيثار جناب الحق جل وعلا على جنابي ، فلا أمكن مريدي من رسوخ محبتي في قلبه ، ثم كثرة إرشادي لفقراء الأحمدية ، والرفاعية ، والبرهامية ، وغيرهم أن

يتلمذوا لِشيخ يربيهم من الأحياء ، ولا يكتفوا بالأموات ، ثم عدم إنكاري على أحد من أهل الكشف إذا رأيته يضرب إنساناً مثلاً من غير ذنب ظاهر ، ثم عدم إجابتي لأمير أو شيخ عرب ، طلب أن يتلمذ لي لعجزه عادة عن استعمال ما أصفه له من الدواء النافع للمريد ، ثم سلبي من الحال التي تؤثر فيمن جنى عليّ أو آذاني ، ثم تربيتي لخواص أصحابي بالنظر من غير قول ولا إشارة ولا أمر ولا نهي ، ثم إطلاعه تعالى لي على عدد أصحابي الذين انتفعوا بصحبتي ، ويحشرون معي ، وأحشر معهم ، ثم تقريب الطريق على الصادقين من أصحابي باشتغالهم بالتوحيد ، ثم عدم رجوعي في شيء خرجت عنه في سري لأحد ولو عمامتي أو جوختي ، ثم عدم إتباعها نفسي ، ثم كثرة أدبي مع كل من تزيا بزي القوم ، لاسيما حال بسطه وممازحته لي ، فلا أخالطه إلا بالأدب ، ثم كراهتي لوقوع شيء من الخوارق على يدي في هذه الدار .

ثم رؤيتي لأولاد كل من أصحاب رسول الله ﷺ بالعين التي كنت أنظر بها إلى والدهم لو أدركته ، رضي الله عنهم أجمعين ، ثم رؤية بعض الصالحين الاثني عشر إماماً من أهل البيت ، ووجوههم كالقمر ، وعليهم ثياب نفيسة فقال لهم ما جاء بكم فقالوا: نسلم على عبد الوهاب فإنه ليس في مصر أحد يحبنا الآن مثله ، ثم تقليدي للعارفين في كل ما فهموه من القرآن مما لم يذكره المفسرون ، ثم وصولي في مقام الإيمان إلى حد صرت أتألم كما يتألم أخي المؤمن ، وأحس بألمه كما يحس هو بالألم ، ثم إفادتي لكل فقيه جلس إلي بالأدب عدة فوائد كلما جلس مما لم يكن عنده ، ثم إعطائي لأرباب الأحوال كل ما يطلبونه مني ولو عمامتي ، ولا أشح عليهم بشيء لي قدرة عليه ، ثم عدم تشويشي من الفقير إذا دخل عليّ وتشرط عليّ في الأكل لاسيما بعد العشاء الآخرة ، ثم عدم إصغائي بأذني إلى من يقول بكفر الحلاج من صغري إلى وقتي هذا ، ثم اجتماعي وصحبتي لأولياء الله الأكابر الظاهرين بالكرامات والخوارق ، ثم قراءة القرآن على الجني فيحترق في الوقت ، أو يحجب عن رؤيتي في الليل والنهار ، ثم صحبتي لجماعة من الأولياء يجتمعون بملك الموت وبجبريل في هذه الأيام ، ثم أخذي الطريق عن أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وهو سيدي علي الخواص رضي الله عنه لأن علوم الأميين علوم وهب ، ثم تعظيمي للفقير الذي عليه زي الفقراء بادىء الرأي ثم ندائي بقلبي لمن شئت من أصحابي أن يحضر فيحضر من غير لفظ أو يرد من غير لفظ .

ثم جعله تعالى لي ممن يحيي السنة ويميت البدعة بعد الفترة التي كانت بعد أشياخي ، وفيها ذكر الخطيب الشربيني ، والشيخ نجم الدين الغيطي ، وسيدي محمد البكري ، وسيدي علي المرصفي ، رضي الله عنهم ، ثم عدم الجزم بتفضيل أحد من علماء العصر وأوليائه على غيره ، ثم اقتدائي بالسلف الصالح في كتمان الأسرار التي منحتها بفضل الله تعالى ، وفيه ذكر سيدي محمد البكري ، ثم معرفتي بأهل الدعاوى الصادقة والكاذبة ، ثم كثرة شفقتي على الأيتام والعميان ، ثم عدم مروري على أحد العلماء والصالحين أو الفقراء وأنا راكب ، ثم

كراهة نفسي للقرب من الملوك والأمراء إلا[1] أن أعطاني الله تعالى الكشف التام الذي أحتمي به من سوء عاقبة ذلك ، ثم عدم طلبي لكثرة المريدين ، إلا[1] أن وطنت نفسي على تحمل كثرة البلاء الزائدة على بلاء جميع الأقران ، ثم فلاح ولدي عبد الرحمن وحسن فهمه وعقله ، وإفادته لي عدة فوائد وهو دون سبع سنين، وفيه ذكر سيدي محمد البكري ، وسيدي علي بن المنين ، وسيدي زين الدين ابن سيدي علي المرصفي ، وجماعة من أولاد فقراء العصر.

ثم عدم عداوتي لأحد من مشايخ عصري من أقران مشايخي ، ثم حمايتي من صغري إلى وقتي هذا من الوقوع في شيء من أعمال قوم لوط أو غيرهم ، مما أهلك الله به الأمم السالفة ، ثم صحبتي لجماعة من الفقراء الكمل في مقام الإيمان ، بحيث لا يتخللني فيهم تهمة إذا ناموا عند عيالي في غيبتي ، مع أن ذلك لم يقع لي ، إنما ذلك على سبيل الفرض ، ثم صحبتي لجماعة من ملوك الآخرة المطلعين على الأسرار والكوائن التي تقع في مستقبل الزمان ، ثم وقوفي عند ما حده لي شيخي من فعل كذا دون كذا ، حتى ولو نهاني عن صحبة من يصحب الملوك ثم صحبهم هو توقفت عن صحبته إلا بإذن جديد ، ثم عدم خروجي من بيتي في غالب الأيام إلى الزاوية وغيرها الآن إلا إن علمت من نفسي القدرة بإرادة الله تعالى على آداب الخروج الثلاثة ، وهي النصيحة للخلق ، وترك المؤاخذة لهم على جنايتهم عليّ ، وعدم السكوت على ترك معروف ، أو فعل منكر.

ثم كوني لا آكل ولا أشرب ولا أجامع ولا أضحك إذا جنى علي أحد جناية ، حتى أتوجه إلى الله تعالى في سؤال العفو عنه ، ويلقي في قلبي أنه عفا عنه ، ثم وصولي بحمد الله تعالى إلى مقام في الإيمان بأحوال الساعة ، حتى لو كشف الغطاء ما ازددت به يقيناً ، ثم إجلالي لحانوت شيخي سيدي علي الخواص رضي الله عنه كلما مررت عليه بعد موته ، وتأخذني عند رؤيته رعدة وهيبة ، حتى كأن شيخي جالس فيه حياً ، ثم معرفتي بالعمل الواقع على يدي ، هل هو حسن أو قبيح لأشكر الله على حسنه عادة ، وأستغفره من قبحه كذلك ، والله أعلم.

الباب الثالث عشر

وفيه من النعم: نعمة كثرة شهودي لأصل ولاة الزمان حال ولايتهم وضخامتهم ، فلا يحجبني أحد الحالين عن الآخر ، فأشهد الأمير تراباً حال كونه أميراً ونحو ذلك ، ثم خوفي من فعل شيء يغير قلب أحد من الفقراء الذين ظهروا في العصر وتعرفوا بنا وتعرفنا بهم ، ثم إطلاعي على أسرار الحروف أوائل السور والمفرقة في الهجا على غير طريق أهل علم الحرف الآن ، ثم تكرمي بثيابي وما عندي من الطعام على كل محتاج ، سواء كان من المعارف أو

---

(١) هكذا العبارة في الأصل ولعل الصواب (إلى) والله أعلم.

غريباً ، من غير توقف ولا إتباع نفس ، ثم عدم غفلتي عن نصح الشباب المقيمين عندي في الزاوية فلا أكاد أغفل عن رعايتهم لأنهم بشعبة من الجنون ، ثم استحيائي من الله عز وجل أن أقرب من زوجتي ، أو أكثر من ملاعبتها لاستيلاء سلطان الغيرة الإلهية على قلبي ، ثم حسن سياستي ونصحي لمن عرف بالفجور في العبيد والمماليك ، مع عدم سوء الظن به ، ثم كتمي على الأموات من أصحابي ما رأيتهم فيه من العقوبة بعد موتهم ، ولا أخبر بذلك أحداً من أصدقائهم فضلاً عن غيرهم ، ثم عدم كوني أتصدى للدعاء للخلق في زوال ضروراتهم إلا إن اجتمعت في ثلاث خصال جمعية القلب على الله ، وعدم الالتفات إلى غيره ووجود الاضطرار إليه.

ثم كثرة تصديقي للأولياء فيما يدعونه مما هو من مرتبتهم عادة ، ثم عدم مبادرتي بالإنكار على من قام وتواجد ولو كان من الظلمة فإن في لمحة تقع الصلحة ، ثم عدم رضائي بما يقع من إخواني من البغي والفساد على بعضهم بعضاً ، ثم حمايتي من جعلي قاضياً أو حاكماً أو شاهداً لخفاء غالب القضايا على الحكام والشهود ، ثم شدة زجري لأصحابي عن الكذب ، وتغيظي عليهم بسبب ذلك ، ثم عدم قبولي شيئاً من النمام مطلقاً ولو كان معدوداً من مشايخ العصر ، ثم المبادرة إلى التوبة فوراً إذا جزى على قلبي غيبة أحد ولو لم أتلفظ بذلك ، ثم كسر قفص طبعي حتى خرجت عن الحياء الطبيعي ، ثم إرشادي لإخواني المهمومين أن يأمر أحدهم أحداً من المحبين له أن يؤذن في أذنه ، فإنه يذهب همه لوقته، ثم كثرة زجري لمن رأيته من أصحابي يتجسس على عيوب الناس، ثم شهودي ببادىء الرأي فضل من قبل صدقتي أو فضل من قضيت له حاجة، ثم كثرة رفقي ورحمتي لمن شكا إلي كثرة محبته للمعاصي، ثم غض طرفي عن رؤيتي النساء الأجانب وما قاربهن، ثم غيرتي على أذني أن تسمع زوراً أو باطلاً أو عيني أن تنظر إلى محرم أو لساني أن يتكلم بباطل ، لأجل كوني أسمع كلام الله أو أنظر في المصحف ، أو أتلو القرآن ، ثم شدة ندمي على اجتماعي بأحد من الأمراء ، وكراهتي للظالم منهم ولو أحبني.

ثم إقامة العذر باطناً لمن قدر الله تعالى عليه شيئاً من أمارات الساعة المذمومة ، وإنكاري عليه ظاهراً قياماً بواجب الشرع، ثم كثرة محبتي لمن ينصحني ، وزيادة محبته على من يجيب عني ، ثم موت أبي وأمي قبل بلوغي سن التكليف ، ثم عدم سؤالي الله تعالى أن يعطيني المنازل العالية في الجنة إلا بعد توطيني نفسي على كثرة الصبر على البلاء ، لكون البلاء مقروناً بذلك وعكسه ، ثم إعطائي الخبز حقه من الإكرام والتعظيم وتقبيله ووضعه على العين ، ثم عدم اجتماعي بمن دخل في عهد شيخ قبلي أو بعدي ، إلا إن علمت سلامته من الآفات عند اجتماعه به ، ثم رؤية بعض الصالحين أن الأئمة الاثني عشر من أهل البيت دخلوا مصر لزيارتي ، وشهادتهم لي بالمحبة لأهل البيت ، ثم محبتي لعيالي محبة الإخوة في

الإسلام ، لا محبة الطبع ، فتزيد محبتها بالدين عندي ، وتنقص بقلة الدين ، ثم عدم مبادرتي لصحبة إنسان إلا بعد مجالستي له أياماً كثيرة ، ومعرفتي بتعظيمه لأوامر الله عز وجل ، ثم عدم مطالبتي العارفين والعلماء العاملين بدليل في جميع أحوالهم ، فإن مثلهم لا يفعل ما هو بدعة ، ثم رؤيتي لجملة من مشايخي بعد موتهم ، وتعظيمي لهم ، وخدمتهم ، ثم حسن ظني في الله عز وجل أنه يجيب دعائي ولو كنت أكثر أهل الأرض خطايا ، وفيه ذكر بعض آداب الدعاء.

ثم عدم إقامتي ميزان عقلي على علماء عصري ، وعدم سب أحد منهم إلا بطريق شرعي ، ثم حمايتي من الخديعة والغدر لأحد من المسلمين ، ثم حفظي من السرقة والخيانة من منذ وعيت على نفسي ، ثم حمايتي من أكل الحرام الصرف ، ثم عدم ذكري للأمير الذي دخلت عليه شيئاً من أخبار الأمير الذي كان قبله إلا لمصلحة ، ثم تأدبي مع الأمير الذي كان لي عليه أياد قبل أن يتولى تلك الولاية ، وعدم طلبي منه أنه يدخل تحت حكمي ، كما كان معي قبل ولايته ، ثم كثرة تعظيمي وتبجيلي لكل من زاد علي في كثرة تحمل البلاء من تجريح الناس في عرضه ونحو ذلك ، ثم إلهامي لقراءة السور الفاضلة ، والآيات العظيمة ، التي ورد أنها تعدل ألف أية أو ربع القرآن أو نصف القرآن ، أو ثلث القرآن إذا ضاق علي الوقت في قيام الليل أو نحو ذلك ، ثم عدم رؤيتي حماية نفسي حال طاعاتي من وقوع العذاب على عكس ما كان الحال في الزمن الماضي ، ثم عدم تكليفي لأصحابي ما لا يطيقونه من الأعمال ، ثم شهودي قرب الحق مني في حال سجودي كحال قيامي على حد سواء ، ثم انشراح صدري لكثرة ذكر الله تعالى ، والصلاة على رسول الله ﷺ من منذ وعيت على نفسي ، ثم مطابقة رؤيتي في المنام ما يطابق ما جاء عن الشارع وغير ذلك ، ثم عدم إفشائي الأسرار المتعلقة بالتوحيد ودقائق الشريعة لأحد من الخلق إلا بعد طول امتحان ، ثم شهودي أنّ ذاتي وروحي معي كاليتيم تحت كفالة وليه ، ثم حفظي للأدب مع السلطان ونوابه فلا أعترض عليهم في فعل ما هو من ملازمهم عادة دوني كإركابهم الفرنج الخيل ، ومعارضتهم لنا في هدم كنيسة ونحو ذلك ، ثم ملاطفتي لإخواني من الفقهاء ، فلا آمرهم إلا بفعل ما هو من مقامهم في الورع إلا إن طلبوا ذلك مني وفيه جواز إعارة الكتب المشروط عدم إخراجها ، ليطالع الطالب فيها في مسجد آخر مثلاً ، ثم صبري على مجالسة الثقلاء ، والله أعلم.

الباب الرابع عشر

وفيه من النعم نعمة كثرة شفقتي على كل دابة ركبتها ، وكراهتي حملي سوطاً إذا ركبت ، ثم عدم سبي ولعني الدابة إذا عثرت ورمتني على الأرض على وحل أو قدر أو نحو ذلك ، ثم مواظبتي على الوضوء لكل ما يستحب له الوضوء ، ثم عدم غفلتي عن تبغيض كل من صحبني

من الحشاشين في بلع الحشيشة ، وعدم زجري له عن ذلك بعنف ، ثم شهودي بنور الإيمان ، وسر الإيقان ، أن نبينا محمداً ﷺ أفضل خلق الله على الإطلاق ، فلا أحد من أهل السموات والأرض يساويه في مقام من المقامات ، ثم عدم مزحي مع أحد وهو في عبادة من صغري إلى الآن أدباً مع الله عز وجل ، ثم عدم مبادرتي للإنكار على الولاة من أمير أو قاض في تغاليهم في شراء المماليك الصباح الوجوه ، ثم عدم الوسوسة في الوضوء والصلاة والقراءة فيهما ، مع أني بلغت الغاية في الورع التي لم يصل إليها هؤلاء الموسوسون ، ثم طيب نفسي بالقراءة على أقراني ، وإظهار أنني من طلبتهم ، ثم تعظيمي لأقراني كلما خفي أمرهم ، ونفر عنهم المعتقدون ، ثم حمايتي من أن يكون لي ديوان سر بين أصحابي في تنقيص أقراني ، ثم إذا واجهتهم أكبّر بهم كما عليه طائفة أخرى ، ثم عدم احتقاري من رأيته على معصية إلا إن أطلعني الله عز وجل على سوء عاقبته التي يبعث عليها ، ثم عدم سب السكران أو ضربه إذا طلع المسجد وخيف عليه من تنجيسه ، ثم كثرة اهتمامي بأمر الضيف وغدائه وعشائه مع كثرة اشتغالي بأمور أخرى ، من تأليف وقراءة قرآن وتدريس علم وقضاء حوائج الفقراء عند الحكام غالب النهار وغير ذلك ، وفيه ذكر سيدي محمد البكري ، وسيدي محمد الرملي.

ثم رؤيتي لمحاسن أعمال العلماء والصالحين وسائر أعمال المسلمين ، وعدم التعرض لمقاصدهم في الباطن ، لأن ذلك إلى الله تعالى لا إلى العبد ، ثم تفتيش نفسي والتوبة من كل صفة مذمومة كلما قمت إلى الصلاة من حسد ومكر ونفاق ورياء وغير ذلك ، ثم عدم أكلي إذا ركبت حمارة بأجرة أو عارية لكوني أصير بالأكل ثقيلاً زيادة على ما كنت عليه حال استئجارهم أو استعارتها ثم عملي بالأمور التي علق الحق زيادة العمر أو الرزق أو الموت على الإيمان بفعلها ، ولا أتكل على ما سبق به العلم ثم كثرة توجهي إلى الله تعالى في حفظ رأس مال عمل كل من بات عندي في كل مولد عملته من النقص أو الأحباط ، من مقرئين ومادحين وسامعين خوفاً أن يقع أحدهم في غيبة أو رياء ، فيحبط عمله أو ينقص ، ويرجع من مولدي خاسراً ، ثم عدم ظني النجاة في طاعة من الطاعات بعد إذ سمعت قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

ثم تصويبي لكل من زهد في صحبتي وفارقني ، وقولي إن فلاناً قد أصاب في مفارقتي مثلاً ، ثم تنزيل الناس منازلهم في الإكرام بحسب ما هم عليه من ذل النفس ، ثم عدم تكديري ممن أمرته بأمر فلم يمتثل ذلك الأمر ، عملاً بقوله تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩] ، ثم مبادرتي إلى النظر في حكمة كل شيء وقع في الوجود من المعاصي والمخالفات دون الاعتراض ، فلا اعتراض إلا بعد ذلك ، ثم عدم تكديري ممن لم يحضر مولدي أو لم يساعدني فيه بماله أو ببدنه ، ثم شهودي في نفسي أنني دون من أربيه من المريدين في المقام ، لأنهم مشايخي في الحال ، وأنا شيخهم بالقال ، ثم شهودي في نفسي أنني من جملة العصاة

على الدوام إما بوقوعي في المخالفة ، وإما بتقصيري في العبادة ثم عدم تكديري ممن نفاني من طريق الصوفية ، وقال: فلان ليس هو من أهل الطريق ، ولا ذاق منها شيئاً ثم تسليمي لكل من ادعى من الفقراء أنه من أهل الكشف ، ولكنه تنزه عنه ، ثم عدم تغيير ما كنت عليه من الضحك والمزح إذا دخل علي من يستحيا منه عادة خوفاً من النفاق ، ثم عدم محبتي للبس ثياب مخصوصة دون غيرها لحظ نفسي ، ثم تحبيبي لمن أراد من الناس أن يأخذ عن أحد من أقراني في الأخذ عنه ، ثم تكدري إذا دخل علي أحد من الأمراء والأكابر وأنا في قراءة حزبي أو محفلي صباحاً ومساء مثلاً ، ثم خوفي من المواظبة على الأذكار ومجالس الخير أن يكون ذلك رياء ، ودوامه استدراجاً ، ثم عدم أخذ إخواني معي في الولائم ، إلا أن غلب الخلاص في ذلك ، ثم أخذي كل كلام وعظت به الناس في حق نفسي أولاً ، وفي حق الناس ثانياً ، واستغفاري من ذلك ثالثاً ، ثم عدم تمكيني أحداً من الإخوان يمشي بين يدي إذا ركبت في وليمة أو حاجة ، ثم شهودي في نفسي أنني عاجز عن رد كيد إبليس عني فضلاً عن رد كيده عن مريدي.

ثم عدم تمكيني أحداً من الإخوان أن يتفوه بأني من الأولياء والصالحين ، لأنه غرور وجهل ، ثم محبتي لكل من انتسب إلى هذه الطائفة ، ثم عدم سؤالي عن ثمن قمح أو حطب أو غير ذلك بحضرة من يساعدني في حقه من الإخوان ، خوفاً أن يتكلف معي في ثمنه ، ثم عدم تعاطي أسباب تميل خاطر الأغنياء إلي إلا لغرض صحيح ، ثم محبتي لكل من كان أكثر طاعة لله مني ، وتقديمه على نفسي لكون الحق تعالى يحب من أطاعه أكثر ، ثم انشراح صدري لتقديم الناس أحداً من أقراني الذين أخذوا معي على شيخ واحد عليّ في المقام ، ثم عدم ميلي لخروجي مع الناس للاستسقاء إلا بشرط عدم رؤية نفسي على الناس ، إذ خصني نائب السلطان بالخروج بالناس دون أحد من أقراني ، ثم عدم امتناعي من الإجابة إلى وليمة إذا علمت أن أحداً من أقراني هناك ، ثم إذا دخلت قبلت ركبته أو رجله بحضرة ذلك الجمع العظيم ، وأجعل المجلس كله له ، ثم عدم تعريضي لأصحابي أن يحملوا كل شيء صدر من أفعالي وأقوالي على المحامل الحسنة ، وذلك لعدم عصمتي ، بل أحثهم على أن ينصحوني جهدهم ، ثم شهودي نقص نفسي إذا سمعت القرآن أو الحديث ، أو كلام السلف الصالح ولم أبك ، دون قولي إن البكاء لا يكون إلا للناس الناقصين دون الكاملين ، ثم عدم اغتراري بكثرة أتباعي المعتقدين في ، وكلما كثروا رأيت ذلك من جملة الابتلاء ، وأنه قد يكون من الاستدراج ، وأخاف أن أشتغل بهم عن الله عز وجل ، والله أعلم.

الباب الخامس عشر

وفيه من النعم: نعمة سماعي للقرآن في زاويتي ليلاً ونهاراً على التواصل في أغلب

الأوقات فلا ينتهي قارىء إلا ويبتدىء قارىء آخر ، وكذلك لا يفرغ قارىء كتب الحديث أو التصوف أو الفقه من كتاب إلا ويبتدىء قارىء في كتاب آخر ، وهذا لا يكاد يوجد الآن في زاوية من زوايا مصر إلا نادراً ، ثم نعمة إرساله تعالى لنا في الزاوية شخصاً اسمه الشيخ منصور ، فيطلع المنارة من أول نصف الليل الثاني ، فلا يزال يذكر الله تعالى بصوت عال يسمعه من بعد من الزاوية حتى يوقظ أهل الزاوية ، وأهل الحارة ، فيواصل الذكر والقراءة من حين يصعد المنارة إلى ضحوة النهار.

ثم من جملة فقراء الزاوية شخص آخر اسمه محمد الترساوي ، يقرأ في الليل قراءة تحن لها القلوب القاسية ، ويطرب لها الحيوان لا يكاد يغفل ليلة واحدة بجواري ، وهذا لا يكاد يوجد الآن عند أحد من فقراء مصر ، ثم تتعاقب بعده جماعة أخرى إلى الفجر ، ثم كثرة وجود الرزق عندي في الزاوية حتى أنه يفيض عن أهلها ، وأهدي منه إلى الأصحاب في دورهم ، من أرز وعسل ودجاج وأوز وغير ذلك.

ثم إصلاح زوجاتي الأربع اللاتي تزوجتهن على التعاقب في أمر دينهن ، ثم تأهلي لخدمة الفقراء القاطنين عندي للاشتغال بالعلم والقرآن والأدب والأوراد من منذ ثلاثين سنة ، من غير تقلق مني ولا تعب في تحصيل أمر معاشهم ، ثم محبة الفقراء الطالبين للآخرة في الإقامة عندي من بلاد شتى ، ولو بذلوا لأحدهم مالاً جزيلاً ليفارقني لم يفعل ، ثم كثرة تفرقتي على الفقراء كل ما يدخل الزاوية على اسمي أو على اسمهم ، فأفرق عليهم كل سنة أكثر من عشرين ألف نصف ، ولا أشاركهم في شيء سوى اللقمة ، ثم بلغ من العميان عندي نحو ثلاثين نفساً وزوجت من المجاورين نحو أربعين نفساً وغير ذلك ، ثم تيسير الفرن الذي يخبز فيه للفقراء في البيت ، وتيسير الوقود ، فيأتينا كذا وكذا وسقاً في المركب إلى أن ترسي على الزاوية ، فتصير نساء المجاورين يخبزن بتبن طاهر طول السنة دون الزبل.

ثم تيسير جميع ما يحتاج إليه في الزاوية من طعام ولباس وغيرهما من غير سؤال ولا ذل في طريق الوصول إلى ذلك ، ثم إرسال الحق جل وعلا إلي كل سنة من عسل النحل نحو عشرة قناطير ، ومن عسل القصب نحو خمسة عشر قنطاراً ، ومن القمح ثلاثمائة أردب ، وغير ذلك مما سيأتي بيانه في هذا الكتاب ، ثم إرساله تعالى لنا كل سنة من البطيخ الهندي نحو ألفي حبة ، فنطعم منها الفقراء والضيوف طول السنة حتى يطلع البطيخ الجديد غالباً ، ثم عدم اعتمادي على وقف أو هدية أو على مخلوق دون الله تعالى ، ثم حمايته تعالى لي من الأكل من خراج رزقة ، أو بيت قيل لي إن في شرائه حيلة لا يقبلها الشرع ، ثم موافقة إخواني المجاورين على رد ما يأتينا إلى الزاوية من هدايا الأمراء والظلمة بطيبة نفس ، ثم حماية أصحابي من الأكل من خبز ابن عمرو بن بغداد لما رتبه في مصر ، ثم مطاوعة إخواني في عدم القراءة بالفلوس على القبور ، وفي بيوت الناس ، وعدم الأكل من طعام العزاء ، والجمع

وتمام الشهر ، والأعراس الواسعة التي لا تورع عند أصحابها ، ثم جمعي للفقراء في الزاوية لأجل نفع نفوسهم دون نفع نفسي إلا بحكم التبع ، وسماعهم لإشارتي إذا قلت لأحدهم لا تأكل من هذه الهدية ، أو لا تأخذ شيئاً من هذه الفلوس أو نحو ذلك ، ثم كثرة مجالستي لله عز وجل ولرسوله ﷺ في مجلس الذكر ، والصلاة على رسول الله ﷺ من سنة ثماني عشرة وتسعمائة إلى وقتي هذا ، وهو سنة ستين وتسعمائة ، والله أعلم.

الباب السادس عشر

وفيه من النعم: كثرة سماعي للقرآن والذكر ليلاً ونهاراً وأنا جالس في بيتي ، مما لم يقع للملوك مثله ، ثم تأدب المجاورين معي إذا عاتبت أحداً منهم على زلة وقعت منه ، وعدم جوابه عن نفسه إلا بإذن ، ثم دوام الاشتغال بالعلم والقرآن في الزاوية طول السنة على شيخ الزاوية ، ثم حماية جميع وقف زاويتنا من ظلمة الحكام في مصر والريف ، فلا أحد يقف لنا في طريق مع كوننا لا مرسوم معنا من جهة السلطان ، ثم عدم وقوفي لأحد من الحكام إذا نازعني أحد في بيتي أو رزقتي أو زاويتي ، بل أسلمها له بمجرد دعواه ، ولا أقف بنفسي ولا بوكيلي هواناً بأمور الدنيا ، ثم معرفتي باسم الله الأعظم ، وعدم تصرفي به أدباً مع الله عز وجل ، ثم كثرة إفاضة الخير عليّ في الملابس ، حتى أني كسوت خلقاً كثيراً لا يعلم عددهم إلا الله تبارك وتعالى ، ثم بيان جماعة كسوتهم على التعيين ، ثم ملاطفة المريدين والمعتقدين أول اجتماعهم عليّ ، فلا أمتحنهم في الصدق قط ، خلاف ما عليه بعضهم.

ثم حذري من مكايد النفس إذا قام علي عدو وصار ينقصني في المجالس ، وصرت أنا أثني عليه خيراً ، ثم تعظيمي للناس بحسب مراتبهم في الدين ، فأقدم العارف بالله وبشرعه على كل من كان بالضد من ذلك ، ثم جعله تعالى لي من أهل الإلهام الصحيح في غالب الأوقات ، ثم حفظي من الخوض في آيات الصفات من غير علم ، ثم استئذاني الحق تعالى بقلبي إذا كنت في عبادة مستحبة وأردت الجماع لإعفاف نفسي أو زوجتي ، ثم شهودي في نفسي أنها كاذبة في دعوى الإرادة فضلاً عن المشيخة ، ثم حفظي من الآفات التي تطرقني إذا أمرت أحداً بخير ، ثم خوفي من ترك التظاهر بالدعاوى أكثر من خوفي من الدعاوى ، ثم نصح إخواني على سبيل الكر والفر من غير رؤية نفسي عليهم ، ثم شهودي خوف كثرة غشي لأصحابي كلما كثروا لأني لو نصحتهم لما كثروا غالباً ، ثم كوني لا ينصحني قط ناصح ، وأرى نفسي مستغنية عن نصحه ، ثم استئذاني لربي إذا قمت من الليل ، ولم أجد عندي داعية إلى الوقوف بين يديه ، ثم شهودي أن ضرر نصحي للإخوان أكثر من نفعي لهم ، لكوني أقيم عليهم الحجة بنصحي يوم القيامة.

ثم حمايتي من نصرة نفسي إذا غارمني حاسد ، ثم كوني لا أنكر على أحد شيئاً إلا بعد

شهودي من ناصيته بيده ، ثم كوني لا أنصح أحداً عن شيء إلا بعد تحققي وقوعه في ذلك الشيء ، ثم عدم نسبة النقص إلى أحد تاب من ذلك النقص ، ثم فرحي برجوع العصاة إلى الله تعالى بلا واسطتي ، أكثر من فرحي بهم إذا رجعوا بواسطة نصحي لهم ، ثم معرفتي بنفسي إذا نصحني ناصح هل أنا من أهل الخير أو من أهل الشر ، ثم أمري بالمعروف ونهيي عن المنكر في حال تسليمي للقدرة ما فعلت ، ثم شهودي العلل في أعمالي ، ثم موافقة باطني لظاهري في الأعمال ثم ترجيحي للمنع على العطاء لفناء اختياري مع الله تعالى ، ثم رجائي من الله تعالى أنه يحبني لما زهدت في الدنيا ثم إمساكي الدنيا بعد الزهد فيها على وجه الأدب مع الله تعالى ، ثم إيماني بأن أفعال العباد خلقاً لله تعالى في حال نسبتها إليهم ، ثم إطلاعه تعالى لي على مقام يرفع الخلاف من آيات الصفات وأخبارها ، ثم على ميزان يرجع جميع أقوال الأئمة للشريعة فلا يخرج عنها من أقوالهم قولاً واحداً ، ثم جمعه تعالى فيَّ جميع أخلاق هذا الكتاب ، والله أعلم.

الخاتمة: وفيها من النعم نعمة شهودي في نفسي أنني دون كل جليس من المسلمين كشفاً وذوقاً ثم كثرة تحملي للبلايا والمحن الواقعة لي في الدنيا ببعض ذنوبي ، حتى كأني قطب للبلاء ، ثم قلة ضجري ممن يؤذيني ، وفرحي كلما زادني أذى ، ثم مبادرتي للشكر كلما آذاني إنسان لأنه يهدي إلي حسناته ، ثم عدم تمكيني أحداً من أصحابي يجيب عني إذا رماني أحد بزور أو بهتان ، وفيها ذكر محن الملوك من عصر الصحابة إلى عصرنا هذا ، وذكر محن الأولياء والعلماء ، ثم تنبيهي للشكر لله كلما حسدني حاسد ، ونقصني في المجالس ، ثم صبري على الحسدة والأعداء حين دسوا في كتبي ما يخالف الشريعة ، ثم أشاعوا ذلك عني ، وذكر بعض وقائع صبرت عليها ، ولم أقابل أهلها بنظير ما نقصوني به ، ثم انتصاره تعالى لي كلما أوذيت من أعدائي غيرة منه تعالى من غير سؤال مني في ذلك ، ولا دعاء عليهم.

ثم كثرة محبتي وشفقتي على دين كل من رأيته مقراضاً في الناس ، وقيامي بواجب حقه إذا ورد علي ، ثم كثرة شفقتي وحنوي على كل من بالغ في إيذائي ، وترجيح محبته على محبة من أحسن إليّ واعتقدني ، ثم كثرة شفقتي وخوفي على دين من آذاني أن ينقص بسبب إيذائه لي ، حتى أن ذلك يشغلني عن مراعاة التأذي بالشيء الصادر منه لي ، فأتأثر على نقص دينه أكثر مما يتأثر هو ، ثم عدم إتعاب سري في تدبير حيلة تؤذي من آذاني بقول أو فعل ، ثم مبادرتي لإقامة العذر لكل من آذاني لكونه ما آذاني إلا بعد مخالفتي لهواه ، أو بعد وقوعي في ذنب يقتضي عنده ذلك ، ثم كثرة تعظيمي وتبجيلي لكل عالم أنكر عليّ وبالغ في الإنكار ، لكونه غار لظاهر الشريعة على قدر عقله.

ثم كثرة مبادرتي للشكر كلما نقصني منقص عند أحد من الأمراء والأكابر ، كما أشكر الله تعالى إذا مدحوني وعظموني عند الأكابر على حد سواء ثم كثرة محبتي لمن نفر عني أبناء

الدنيا ، وجرحني عندهم من تجار ومباشرين وأمراء وغيرهم ، وذلك لكوني لا أمد طرفي إلى شيء مما في أيديهم من الدنيا ، ولو أنني مددت عيني إلى ذلك لكرهت كل من ينفرهم عني ، ثم كثرة تحملي لهموم الإخوان وهروبي من هداياهم خوفاً على نفسي من الهلاك ، لأني إذا كنت أكاد أموت من كثرة تحمل همومهم من غير هدية ، فكيف حالي إذا قبلت هديتهم ، ثم كراهتي للجواب عن نفسي إذا نقصني منقص إلا لمصلحة شرعية ترجح على السكوت ، ثم شكري لله تعالى إذا نقصني أحد من الأعداء بشيء لم يقع مني ، لأنه نفعني على كل حال بتحذيري من الوقوع فيه ، ثم عفوي وصفحي عن جميع من جنى عليّ في مال أو عرض أو بدن من جميع هذه الأمة المحمدية إكراماً لله عز وجل ، من حيث كونهم عبيده ، ثم إكراماً لرسول الله ﷺ من حيث كونهم أمته لا لعلة أخرى ، وأشهدت الله تعالى وملائكته على ذلك فلا أرجع عنه ، ولو جئت القيامة صفر اليدين من سائر الأعمال الصالحة ، ثم مسامحتي لكل من اغتابني بعد موتي أو في حال حياتي ، ولم تبلغني غيبته وإن لم أكن أعلم ذلك فالله يعلمه ، ثم مسامحتي لكل من سمع غيبتي وصدق المغتاب فيها من المستهزئين والمتهورين في دينهم ، ثم عدم جوابي عن نفسي حياء من الله تعالى لا لعلة أخرى.

ثم شهودي أن كل ما يؤذيني به الناس من جملة المصالح لي ، لأنه ربما كان عندي عجب بأحوالي فأنتبه لها بذلك الأذى وفي ذلك أيضاً إدمان على تحمل أهوال الآخرة ، ثم شدة كراهتي لكل من ينقل إلي أخبار الناس الناقصة التي يستحيي أن يواجههم بها ، لأنها كلها غيبة ، ثم محبتي لأن أفدي جميع العلماء الصالحين بنفسي ، وأود أن كل الناس ينقصوني بكل ما ينقصونهم به ، ولا يضيفوا النقص إلى أحد منهم ، ثم عدم تكديري ممن رفع أحداً من أقراني فوقي ، ثم كثرة إجلالي للعلماء والصالحين والأمراء فلا أدعو أحداً منهم إلى وليمة عملتها ، ثم رحمتي لعدوي وتأثري إذا نزل عليه بلاء ، ثم مبادرتي لإقامة الحجة على نفسي دون الله تعالى إذا ظلمني ظالم ، ثم حمايتي من الحسد لأحد من أقراني إذا أقبلت الدنيا وأهلها عليه دوني ، ثم عدم تكديري ممن ناداني باسمي المجرد عن اللقب أو الكنية أو السيادة أو الشياخة ونحو ذلك ، ثم عدم نفرة نفسي من عشرات المخنثين ، لكونهم أصحاب بلايا وأمراض ، فأقرب منهم لأداويهم من مرضهم ، وأشكر الله تعالى على معافاته لي من مثل أمراضهم.

ثم توجهي إلى الله في أن يمحو من قلب مريدي كل علم تعلمه ولم يخلص لله فيه إلى آخر التوجهات ، ثم عزمي على العمل بعلم كل عالم رأيته لا يعمل بعلمه ، فأساعده على تحصيل ثواب علمه بعملي أنا به ، فربما أثابه الله تعالى على كونه كان سبباً في عملي أنا بعلمه ، ثم عدم إصغائي إلى قول عدو ما لا ينبغي في حق عدوه ، ثم مخالطتي لعدوي باطناً إذا ادعى محبتي ظاهراً ، وعدم إعلامه بأنه يكرهني ، خوفاً أن يخجل ، ثم عدم تكدري من صاحبي إذا

عاشر عدوي ، وحمله على المحامل الحسنة ، ثم كثرة شكري لله تعالى وكثرة استغفاري إذا كثر حسادي وأعدائي ثم كثرة اهتمامي بحمل هم عدوي أعظم من اهتمامي بهم صديقي ، ثم كثرة تحفظي من الوقوع في غيبة عدوي أكثر من تحفظي من الوقوع في غيبة صديقي عادة ، ثم رد كيد أعدائي في نحورهم من غير توجه مني إلى الله تعالى في ذلك ، ثم وجود جماعات كثيرة يحبوني وأحبهم ، وأما المعتقدون في فلا يحصي عددهم إلا الله تعالى ، وبيان الفرق بين المحب والمعتقد ، ثم كثرة رؤيا جماعة من العلماء والأمراء وغيرهم لي المرائي الحسنة التي تزيد اعتقاداً فيّ ، مع كوني لست بصالح في معتقدي على الحد الذي أرضاه لنفسي ، ثم إنصافي لكل من تعب لي على تحصيل رزقة أو جوالي ، أو شيء من أمور الدنيا ، فأشركه معي فيما أتاني به.

ثم عملي بالنسبة في النظر إلى المخطوبة ، ولا أترك ذلك حياء نفسانياً وتحرزي من النظر فوق الوجه والكفين ، ثم أدبي مع كل من علمني سورة أو آية من القرآن ولا أرى نفسي عليه ، ولو صرت شيخ الإسلام ، ثم عدم شهودي في نفسي أنني فعلت شيئاً من النوافل ، لأن النوافل إنما تكون لمن كملت فرائضه ، وأما لمثلنا إنما هي جوابر ، ثم سماحة نفسي بمقاسمة أعدائي في حسناتي في الآخرة ، وأموالي في الدنيا ، ثم شدة بغضي لأهل المعاصي ولو أحبوني وأحسنوا إليّ واعتقدوني ، ثم محبتي لجماعة من العلماء والصالحين من غير اجتماع ، ثم وجود جماعة يكرهوني على الدوام ليدوم لي الأجر من جهة صبري عليهم ، ثم حملي لمن يكرهني على أنه إنما يكرهني بحق ، ثم طرح نفسي بين يدي الله تعالى إذا أطلعني على وقوعي في معصية في المستقبل ، وأسأله التحويل إن لم يكن حق بها التقدير ، وزوالها من شهودي ، وإن كانت في ألواح المحو والإثبات ، ثم عدم استشراف نفسي لهدية من صاحبي إذا جاء من الحجاز ونحوه ، وعدم تحديث نفسي بذلك.

ثم زهدي في المطاعم ، والملابس ، والنساء ، والفرش الوطيئة ، وكثرة الروائح الطيبة الخارجة عن العادة ، وقناعتي بالكسرة اليابسة من غير أدم ، ثم ذكري لمناقب جميع الحسدة والأعداء في كتاب طبقات العلماء والصالحين ، مع شدة مبالغتهم في إيذائي ، ثم مواظبتي أوائل دخولي في محبة طريق القوم على ذكر الله بلفظ الجلالة أربعاً وعشرين ألف مرة كل يوم وليلة ، عدد الأنفاس الواقعة في الثلاثمائة وستين درجة ، ثم كثرة تفويضي جميع أموري الظاهرة والباطنة إلى الله تعالى وحده ، وعدم اعتمادي على شيء من أعمالي ، ثم عدم إتعاب سري في تحرير كتاب ألفتُهُ ، إلا بنية صالحة لا ليمدحني الناس على ذلك ، ثم جمعه تعالى في جميع هذه الأخلاق التي في هذا الكتاب تحققاً وتخلقاً قبل تأليفه ، ولولا ذلك لكان فعلي يكذب قولي ، ثم إطلاعه تعالى لي على جميع ما تفضل به عليّ في الدار الآخرة في واقعة في عالم غيب الخيال ، وذلك بمشهد من الأنبياء والأولياء ، ثم شمي لرائحة المعاصي من نفسي

وغيري إذا وقعنا في معصية ، وكذلك ترك الصلاة نسياناً ثم كثرة حلمه تعالى علي ، وعدم معاجلته بالعقوبة مع كون ذنوبي لو قسمت على أهل الأرض لاستحقوا بها الخسف ، والله أعلم.

انتهت فهرسة أبواب الكتاب بعون الملك الوهاب ولنشرع في مقدمة الكتاب ، فأقول وبالله التوفيق.

* * *

تقديم

في ذكر الأمور هي كالدهليز الذي يتوصل منه إلى عدم الاعتراض على من ذكر مناقبه في كتاب ، وهي مشتملة على بيان الطريق الموصلة إلى التخلق بأخلاق هذا الكتاب ، وعلى بيان أدلة تقضي الحث على ذكر العبد ما أنعم الله تعالى به عليه حسب الطاقة في دينه ودنياه ، وأنه إن لم يذكر ذلك عصى ربه ، وعلى بيان أنني لم أذكر من أخلاق هذا الكتاب كلها إلا ما تحققت به ، خوفاً أن يقول معترض: كيف يدعي فلان التخلق بهذه الأخلاق وأفعاله تكذبه ، وعلى بيان قرب سندنا بهذه الأخلاق من رسول ﷺ ، ومن أبينا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وغير ذلك مما يأتي بيانه ، إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق:

اعلم يا أخي أن الله تعالى قد أمرنا بشكره على نعمته التي أسبغها علينا ، وجعل ذلك علينا من جملة فرائضه ، ولا سبيل لنا إلى إحصاء نعمه كلها بلساننا ولا بجناننا ولا بأركاننا ، مع أنه تعالى قد طالبنا بشكره باللسان والقلب والجوارح ، فشكر اللسان لا يكون إلا باعترافنا بنعمه أنها من عنده ، مع تركنا إضافتها إلى الخلق إلا من حيث كونهم واسطة ، كالقناة التي يجري لنا منها الماء ، فالشكر حقيقة لمن أجرى الماء في القناة لا للقناة ، وفي الحديث «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[1].

ومثال من حصل لنا على يديه خير كالغلام الحامل لطبق الهدية ، فالحقيق بالحمد من أهدى لا من حمل.

وأما شكر القلب لا يحصل إلا باعتقاد العبد جزماً أن جميع ما بيده من النعم والمنافع واللذات والحركات والسكنات من فضل ربه ، لا من غيره ، وذلك ليكون شكر العبد بلسانه

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك (١٩٥٤) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في شكر المعروف (٤٨١١) ، وأحمد في مسنده (٧٤٥٢) ، وابن حبان في صحيحه (٣٤٠٧) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١٨٢) ، والبزار في مسنده (٣٢٨٢) ، والطبراني في المعجم الكبير (٥١٩) ، والطيالسي في مسنده (٢٤٩١) ، والشهاب في مسنده (٨٢٩) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١١٧) ، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٨) ، والضبي في كتاب الدعاء (١١) ، وهناد في الزهد (٧٨٢) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ١٦٥).

مطابقاً لما في قلبه ومعبراً عما فيه ، إذ ليس للعبد منعم سوى ربه عز وجل.

وأما شكر الجوارح فلا يكون إلا بجعل العبد جميع حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة كلها في مرضاة الله عز وجل ، حتى لا يجد كاتب الشمال شيئاً يكتبه ، ولا تجد الملائكة في صحيفته شيئاً يفتضح به يوم القيامة ، وهذا الشكر قليل فاعله ، وغاية ما عند غالب الناس من الشكر باللسان دون العمل ، وقد قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]. ونحن أولى بالشكر وبالعمل من أمة داود عليه السلام.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن جميع ما أذكره لك في هذا الكتاب من الأخلاق والمنن إنما هو حالي أيام شروعي في سلوك الطريق ، لأن هذه الأخلاق كلها من أخلاق المريدين أوائل دخولهم في الطريق ، فلا تظن يا أخي أنها من أخلاق كمل العارفين كما توهمه من لم يدخل طريق القوم ، فإنه لا ذوق لأمثالنا حين ذاك في أخلاق الكمل ، حتى نتكلم عليه لكونها لا تأتيهم إلا من طريق الوهب ، أو بعد طول المجاهدة العظيمة ، وكما أنه لا ذوق للأولياء في مقامات الرسل ، فكذلك ليس للمريدين ذوق في مقامات الكمل ، وإيضاح ذلك أن بداية مقام النبوة يبتدي من بعد انتهاء مقام الولاية ، فلا تشترك الولاية مع شيء من أجزاء النبوة ، انتهى ، فافهم.

وقد اطلع بعض علماء العصر على بعض أخلاق من مسودة هذا الكتاب ، فطالع فيها أياماً ثم أتاني بها ، وقال: هذه الأخلاق لا تكون إلا للأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، فعذرته في ذلك ، وعلمت أنه لم يدخل مبادىء طريق القوم ، إذ لو دخلها لعرف أنها من جملة أخلاق المريدين ، وكأن لسان حاله يقول: شيء لم أذقه أنا مع علمي الذي وصلت إليه ، فيكف يذوقه جاهل من هؤلاء الناس ، فذوقه صحيح ، وحكمه غير صحيح ، وسبب ذلك اندراس العمل بأخلاق القوم ، في هذا الزمن ، حتى لا يكاد العبد يجد أحداً من المتمشيخين فيه يتخلق بشيء من أخلاق القوم ، فكان ذكري لهذه الأخلاق الخاصة بالمريدين كالتكذيب لكل مدع في هذا الزمان ، فيقال له إذا كنت قد عجزت عن التخلق بأخلاق المريدين ، فكيف تدعي التخلق بأخلاق كمل العارفين.

فكل ما ذكرناه في هذا الكتاب كالسيف الماحق لأصحاب الدعوى والرعونات ، ولو أنهم ملكوه لأحرقوه لكونه يكشف لهم وللناس عن جهلهم بالطريق التي يزعمون أنهم من أهلها ويتجلسون بجلاسهم فيها ، فأسأل الله تعالى أن يحميه منهم بحوله وقوته ، ليتم مقصودي بالانتفاع به ، فإذا رأيت يا أخي في هذا الكتاب شيئاً من أخلاق الكمل فليس ذلك مقصوداً ، وإنما ذلك سبق قلم ، أو استطراد ، أو استشهاد ، أو تأنيس للمريدين ، ولم يزل يقع من السالكين هذا الغلط فضلاً عن غيرهم ، فيقولون عن كل مقام لم يترقوا إليه هذا خاص بالكمل ، فإذا ذاقوه وترقوا مقاماً آخر فوقه عرفوا أن الأول من مقام المريدين ، فما برحت

الإرادة مع السالك فضلاً عن غيره في كل مقام ذاقه إلى أن يلقى الله تعالى ، فإن النهاية منقولة غير معقولة ، وتنتهي همم العارفين وهم مع الحق تعالى على أول قدم ، فلم تف لهم أعمارهم بما تعلقت به هممهم من معرفة الله تعالى .

ويؤيد ما قلناه ما نقل عن شيخ الطائفة أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه ، أنه قال: مكثت زماناً وعندي وقفة في قول بعضهم إن الذاكر لله تعالى يصل إلى حالة لو ضرب وجهه بالسيف لم يحس ، إلى أن وجدت الأمر كما قاله ، انتهى.

ثم إن أكثر من يقع في الغلط في ذلك المؤلفون لكتب الرقائق من المتصوفين الذين لم يذوقوا مقامات الطريق ، فينقلون عن الولي كل ما بلغهم عنه ، ولا يعرفون الفرق بين ما قاله ذلك الولي في بدايته أو توسطه أو نهايته ، ويسمون كل ما لم يذقوه في الطريق مقاماً للكمل ، فإذا طالع الكامل في كتبهم ، أي أولئك المؤلفين عرف جهلهم ، ولو أن هؤلاء المؤلفين ذاقوا مقامات الطريق لم يذكروا عن الولي من مناقبه إلا ما عمله أو قاله في حال نهايته ، لأن هذا هو الذي يصلح أن يكون منقبة له كما فعلت أنا ذلك في كتاب طبقات العلماء والصوفية ، فلم أذكر عن أحد منهم إلا ما قاله أو عمله حال نهايته .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: إذا كان رسول الله ﷺ أمر أن يسأل ربه الزيادة من العلم فما ظنكم بغيره ، هذا مع قوله ﷺ عن نفسه أنه أوتي علم الأولين والآخرين ، واعتقادنا أنه تعالى أجاب دعاءه ، وزاده علماً عن علم الأولين والآخرين ، فعلم أن أحداً لا يصح له مقام النهاية إلا إذا وصل إلى حالة لا مقام بعدها لأحد ، وهذا غير واقع لغيره ﷺ ، إذا علمت ذلك فإياك أن تنكر على فقير سمعته يقول: أنا عبد الله الآن لا خوفاً من ناره ولا رجاء لثوابه ، فإن ذلك من مقامات المبتدئين في الطريق لا من مقام الكاملين ، وذلك أن المريد إذا واظب على الذكر وأكثر منه ليلاً ونهاراً يرق حجابه ضرورة ، وإذا رق حجابه رأى الفعل لله تعالى لا للعبد ، ويسمع نداء الحق من قلبه بنحو ما من معناه ، ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو نار لو لم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً لأن أعبد ، فيخجل العبد ويستحيي من الله تعالى أن يعبد الله تعالى خوفاً من نار أو رجاء لثواب ، لأن أحداً لا يطلب قط أجراً على فعل غيره ، وإنما يطلب الأجر على فعل نفسه ، فكل من رق حجابه من المريدين يشهد أنه لا مدخل له في وجود أفعاله إلا بقدر نسبة التكليف فقط أدباً مع الشريعة المطهرة ، ويرى كشفاً ويقيناً أنه كالآلة التي يحركها المحرك على الفارغ ، وكما أنه خالق لذات العبد فكذلك هو خالق لفعله .

ونظير ذلك أيضاً ما إذا سمعت أحداً يقول: لا ملك إلا الله ، وليس أحد يملك معه شيئاً فإن ذلك مقام يذوقه المريد أول دخوله في الطريق ، وليس قائله يدعي مقام النهاية كما قد يتوهم ، فإن من أول قدم يضعه المريد في الطريق شهوده الملك لله ، إذ هو الخالق لكل

شيء ، وفي عبارة المنهاج للنووي ، ولا يملك العبد بتمليك سيده في الأظهر ، فافهم ، وإذا صح لعبد شهود الملك لله وحده صح له مقام الزهد في الدنيا ، وعدم الشح بها على أحد من الخلق إلا لغرض شرعي ، ومن علامة ذوق العبد لهذا المقام أيضاً أنه لو كان عنده أردب من الذهب فسرقه أحد لم يتغير منه شعرة واحدة لأجله ، بل ينشرح لمن يأخذه منه خوفاً من الحساب عليه من حيث المصرف يوم القيامة ، وصاحب هذا المقام يتساوى عنده عطاء الله تعالى ومنعه له على حد سواء ، من حيث عين العطاء والمنع ، لا من حيث ما على العبد نفسه من نحو الرضا والشكر ، لأنه لا يرى له ملكاً مع ربه في الدارين ، ولو أعطاه شيئاً لا يرى أنه يملكه إلا بقدر نسبة العطاء إليه لأجل الشكر لا غير ، ثم يتبرأ منه إلى ربه الذي هو المالك الحقيقي له ولذاته.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: متى أعطى الله تعالى العبد شيئاً ولم يشهد خروجه عن ملكه إلى ملكه تعالى بعد نسبة التحقق بالعطاء على الفور فقد عصى الله تعالى عندنا وادعى الشركة معه في الملك ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء: ٤٨] فشمل شرك العموم وشرك الخصوص ، وكل عن مقامه يترجم ، انتهى.

ومن هنا تساوى عند الفقراء الصادقين الذهب والتراب في عدم ميل القلب إليه من غير ترجيح الذهب عليه ، لأنهم لا ملك لهم مع الله تعالى فهم يأكلون ويلبسون من مال سيدهم ويسكنون في ملكه في الدارين رضي الله عنهم أجمعين ونظير ذلك أيضاً ما إذا سمعت أحداً يقول: لا موجود إلا الله فإياك أن تظن به أنه يدعي الكمال فإن ذلك من مقامات المريد ، لأن المريد من شدة تعشقه في الطريق ، وترحل قلبه عن محبة غير الله تعالى ما عدا من أمره الله تعالى بمحبته يصير قلبه محجوباً عن شهود الأكوان ، كما يقع لصاحب المصيبة إذا مات له ولد ، أو تلف له مال ، فإنه من شدة المصيبة يصير يدخل الدار ويخرج ولا يرى صاحبه الجالس على بابه من بكرة النهار ، ويصير يقول: ما رأينا فلاناً اليوم ، فيقولون له: إن له من بكرة النهار على بابك ، فيقول: والله من شدة الهم ما رأيته ، فهذا مثل من صار لا يشهد إلا الله لما تعلقت محبته بقلبه فليس مراده في ذلك أن ينفي وجود العالم كله ، كما يظنه من لا علم له بأحوال أهل الطريق ، بل مراده أن الله قد أخذ حبه بمجامع قلبه حتى حجبه عن شهود الخلق ، ما عدا ذات المشاهد ، إذ لو حجب عن شهود نفسه ، فمن يكون هناك يشهد الحق تعالى ، فتأمل.

وبالجملة فإذا كان النساء اللاتي خرج عليهن يوسف عليه الصلاة والسلام ذهلن عن أنفسهن ، حتى قطعن أيديهن ، ولم يشعرن بألم القطع ، فكيف بمن يشهد سر معنى جمال رب العالمين في حضرة الإحسان ، فتأمل يا أخي في هذا المحل واسلك الطريق لتعرف

المقامات ذوقاً ، وتميز ما كان للمريدين ، وما كان للعارفين ، وتعرف أن مقام الإرادة قد عز في هذا الزمان ، فكيف بمقامات العارفين.

وقد روى القشيري عن الشبلي ، أنه كان يزور شيخه الحصري كل يوم جمعة فقال له الحصري يوماً يا أبا بكر إن خطر في بالك غير الله تعالى من الجمعة إلى الجمعة فلا تعد تأتنا فإنه لا يجيء منك شيء فجعل خطور غير الله تعالى على باله من الجمعة إلى الجمعة من أحوال المريدين ، ولو عرض مثل ذلك على غالب مشايخ العصر لقالوا هذا خاص بخواص الأولياء.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن نهاية كل عارف ترجع إلى صورة بدايته ، لكن على غير الوجه الذي يشهده المبتدي ، ومثاله أن المريد في حال بدايته يجب عليه عند القوم أن يترك كل شيء يشغله من الدنيا عن الله عز وجل ، فإذا انتهى إلى الحضرة التي ينتهي سلوكه إليها على مصطلح القوم ، وعرف الله تعالى المعرفة الثابتة التي لا تزلزلها الأدلة ، فهناك لا يصير شيء يشغله في الدارين عن الله عز وجل ، لأنه حينئذ يجد الحق تعالى مع كل شيء كان أمر بتركه في حال سلوكه حين كان ضعيف الحال ، فمثل هذا يمسك الدنيا بحذافيرها ويتصرف فيها تصرف حكيم عليم ، يزاحم الناس على الرياسة ويشاحح الناس على جديد نقرة ، ويؤاخذ الناس بكل شيء فعلوه معه من الأذى ، ولا يسامح أحداً إلا إن رجحت تلك المسامحة في الحكم لله تعالى في اعتقاده ، وتصير صورته صورة أبناء الدنيا المحبين لها ، وقصده مختلف مع أن كماله في ذلك ، ومتى خالف ذلك نقص مقامه ، وإيضاح ذلك أن العبد إذا تحقق بمعرفة الله تعالى كان مشهده السر القائم بالذوات لا الذوات ، ولم يصر يرى غير ذلك السر حتى يشتغل به عن الله عز وجل ، فيقصد بإمساكه الدنيا كف نفسه عن سؤال الناس ، وتحمل منتهم ، ويقصد بها الإنفاق في سبيل الله ، والفوز بلذة خطاب الله تعالى لأهل الجدة والغنى بقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] فإنه لم يخاطب بذلك إلا من معه مال ، وفات الفقير لذة ذلك الخطاب ، ويقصد بمزاحمته على الرياسة التخلق بها من حيث كونها من أخلاق الله عز وجل ، لا شغوف نفسه على الإخوان[١] ، بل ليقوم بين الناس بالعدل ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، ولو أنه لم يكن عنده رياسة ما سمع أحد كلامه ، ولا قدر على تخليص حقوق الناس من بعضهم بعضاً ، ويقصد بمشاحة الناس في المال والعَرَض تخليصهم من منة المسامحة ونحو ذلك ، فقد رجعت صورة العارف إلى صورة بدايته ، والقصد مختلف.

ونظير ذلك أيضاً أن المريد في بداية سلوكه يجب عليه ترك شهوات الدنيا كلها ، فلا يشرب الماء المبرد في الكيزان ولا ينام على طراحة ، ولا يضع جنبه على الأرض ، ثم إذا

(١) هكذا العبارة في الأصل فليحرر.

انتهى سلوكه وعرف الله تعالى المعرفة الثابتة بين القوم أمر بالإحسان إلى نفسه لكونه مسؤولاً عنها وعن حقها ، فيأكل الشهوات ، وينام على أوطأ الفرش ، ويشرب الماء المبرد في الكيزان ، ويترك ضد ذلك حتى لا يسمى ظالماً لرعيته ومطيته ، فيا طول ما أسهرها الليالي الطويلة الباردة أو الحارة ، ويا طول ما أجاعها وأعطشها وألبسها الخشن من المسموح والمرقعات ، فلما أوصلته إلى مقصده من حضرة العرفان كانت كالأجير الذي عمل ما استؤجر عليه ، وقد كان مأموراً أولاً بظلم نفسه في مرضاة الله تعالى كما أشار قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] ، الآية.

قال بعض العارفين: إنما صح لمن يظلم نفسه الاصطفاء لكون ذلك الظلم لنفسه ، كان في مجاهدتها طلباً لمرضاة الله عز وجل ، فليس المراد بها من يظلم نفسه بالمعاصي ، كما فهم. اهـ.

فعلم أن المبتدي لو لم يظلم نفسه في مرضاة الله كما ذكرنا بل أطعمها اللذيذ ، وأسقاها المبرد ، وأنامها على أوطأ الفرش ، لكان لم يبرح من مكانه وعدم الترقي جملة ، كما قالوا إن من خصائص الطريق أن الإنسان إذا أقبل عليها بكليته أعطته بعضها ، وإن لم يقبل عليها بكليته لم تعطه شيئاً منها كما هو شأن العوام الذين لا يطلبون الترقي عما هم فيه ، ونظير ذلك أيضاً الإيثار على النفس فإنه مطلوب من المبتدىء جزماً ليخرج عما فتح عينه عليه من شح النفس ، وبخلها على نفسها ، فضلاً عن إعطائها شيئاً لغيرها ، ولذلك مدح الله تعالى الصحابي حين آثر غيره على نفسه تشجيعاً له ، ثم إنه إذا بلغ السالك النهاية في السلوك أمر بالإحسان إلى نفسه ، لكونها أقرب جار إليه« والأقربون أولى بالمعروف»[1] كما ورد وعليه يحمل قوله ﷺ «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[2] فلو أمر المبتدي بالبداءة بنفسه ما ترقى في الطريق ذرة ، ولو أن الكامل يقدم على نفسه غيرها لأساء إليها ، ولخرج عن حكم العدل ، فقد رجعت صورة نهاية الإنسان في تقديمه نفسه على غيره إلى صورة حال المبتدىء في تقديمه نفسه ، والقصد

---

(١) ذكره في كشف الخفاء (٤٨٦) ، وقال: قال السخاوي: ما علمته بهذا اللفظ. وقال أيضاً عنه: وفي أسنى المطالب: اشتهر على الألسنة «الأقربون أولى بالمعروف» وليس بحديث خلافاً لمن زعمه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة ، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى (١٤٢٦) ، ومسلم ، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى (١٠٣٤) ، والترمذي ، كتاب الزكاة ، باب ما جاء في النهي عن المسألة (٦٨٠) ، والنسائي ، في كتاب الزكاة ، باب أيتهما اليد العليا (٢٥٣٢) ، وأبو داود ، كتاب الزكاة ، باب الرجل يخرج من ماله (١٦٧٦) ، وأحمد في مسنده (٤٤٦٠) ، كلهم بلفظ «وابدأ بمن تعول» بدون «نفسك» وهذه اللفظة أخرجها الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٤٦).

مختلف ، وسيأتي في أبواب الكتاب إيضاح ذلك إن شاء الله تعالى فاعلم ذلك ، وتأمله ، فإنك لا تجد التصريح به في كتاب.

ولندخل لباب التخلق بأخلاق هذا الكتاب من طريق الجد ، والاجتهاد ، كما درج عليه السلف الصالح ، فقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: من طمع أن يدخل طريقنا وهو لم يزهد في نعيم الدارين فقد رام المحال. اهـ.

وبالجملة فجميع الأخلاق التي نذكرها في هذاالكتاب لا يوصل إليها إلا بأحد طريقين ، إما بالجذب الإلهي ، وإما بالسلوك على يد شيخ صادق ، ومن لم يدخل من أحد هاتين الطريقين فمحال أن يصل إلى شيء من هذه الأخلاق ، وقد طلب أقوام الوصول إلى التخلق بها من غير طريق الجد فكان غايتهم الحرمان لظنهم أنها طريق قال بغير حال ، مثل غيرها من الطرق ، وغاب عنهم أن طريق التصوف طريق علم وعمل كما يعلم من أخلاق هذا الكتاب ، وكان الشيخ مفرح رضي الله عنه يقول: من علامة الصدق في أول قدم يضعه المريد في الإرادة أن يعطى ثلاث خصال تقوية لعزمه: أن يمشي في الهواء وعلى الماء وينفق من الغيب ، فمن لم يحصل له هذه الثلاثة فهو ممن لم يشم من الإرادة رائحة انتهى.

وبالجملة فمن أراد أن يحيط علماً بما قلناه ، فليطالع أخلاق هذا الكتاب ، ويطالب نفسه بالتخلق بما فيه ، فهناك تعرف حقيقة علم التصوف وطريقه ، فإن بعض الناس بنى طريقه على ظاهر الفقه ، ونفى طريق التصوف جملة ، وقال: ليس لنا طريق تقرب إلى الله تعالى غير ما نحن عليه من ظاهر الفقه بحسب فهمه هو ، وبعضهم ظن أن علم التصوف حفظ نقول فقط من غير عمل ، فأخذ نحو: رسالة القشيري [١] ، وعوارف المعارف [٢] ، وجلس يدرس للناس فيه بحسب فهمه المخالف لما عليه القوم ، وظن بنفسه أنه صار صوفياً من غير تخلق بما يدرسه ، وهذا خطأ ظاهر ، وغاب عنه أن دائرة الولاية تؤخذ من بعد انتهاء دائرة غيرها كما مر ، فكما أن دائرة النبوة تؤخذ بدايتها من بعد نهاية الولاية ، فكذلك علم التصوف يبتدأ من بعد نهاية أهل الفهم والفكر فلا يسمى صوفياً إلا من عمل بعلمه على وجه الإخلاص ، كما عليه الأئمة المجتهدون وصالحو مقلديهم.

ولو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم من غير شيخ يسير بالطالب فيها ، لما احتاج مثل حجة الإسلام الإمام الغزالي ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام أخذ أدبهما عن شيخ ، مع

---

(١) الرسالة القشيرية في التصوف؛ للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى سنة (٤٦٥) هـ. اهـ. كشف الظنون (١/ ٨٨٢).

(٢) عوارف المعارف في التصوف ، للشيخ شهاب الدين أبي حفص ، عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي المتوفى سنة (٦٣٢) هـ. اهـ. كشف الظنون (٢/ ١١٧٧).

أنهما كانا يقولان قبل دخولهما طريق القوم كل من قال إن ثم طريقاً للعلم غير ما أبدينا فقد افترى على الله عز وجل ، فلما دخلا طريق القوم كانا يقولان: قد ضيعنا عمرنا في البطالة والحجاب ، وأثبتا طريق القوم ومدحاها ، وقد سلك الإمام الغزالي على الشيخ أبي محمد البازغاني ، وسلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام على الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، وصار يقول: مما يدلك على أن القوم قعدوا على قواعد الشريعة ، وقعد غيرهم على الرسوم ما يقع على يدهم من الكرامات والخوارق ، ولا يقع ذلك على يد فقيه إلا إن سلك طريقهم . اهـ .

قال ذلك لما قطع سلسلة باب القلعة بالكراس الورق كما سيأتي بسطه في الباب الثاني إن شاء الله تعالى ، فعلم أن مثال من يحفظ نقول أهل الطريق بغير ذوق ولا تخلق مثال من حفظ له كتاباً في علم الطب على ظهر قلب من غير معرفة الداء والدواء ، فكل من سمعه وهو يقرأ ويقول الداء الفلاني دواؤه الشيء الفلاني يقول ما هذا إلا طبيب عظيم ، فإذا قال له أعلمني باسم هذا الداء الذي فيّ ، وأخبرني باسم الدواء ، وقال له: لا أعلم ذلك ، يقول إنه جاهل بعلم الطب .

وقد كان علماء السلف الصالح رضي الله عنهم يعملون بكل ما يعلمون على وجه الإخلاص لله تعالى فيه ، فنارت قلوبهم ، وخلصت من العلل القادحة في الإخلاص ، فلما ذهبوا وخلف بعدهم أقوام لا يعتنون بالإخلاص في علمهم وعملهم ، أظلمت قلوبهم ، وحجبت عن أحوال القوم فأنكروها ، وبعضهم إذا سمع بشيء من أخلاق القوم يقول هذا منزع صوفي لا شرعي ، فيوهم السامعين أن التصوف أمر خارج عن أصل الشريعة ، والحال أنه لب الشريعة ، كما يعلم ذلك من طالع في مثل هذا الكتاب ، فإنه لا يكاد يجد خلقاً واحداً مما فيه يخالف الشريعة أبداً لكثرة مناقشات أهل الطريقة لأنفسهم وأخذهم بالعزائم، فإن حقيقة طريق القوم علم وعمل، سداها ولحمتها شريعة وحقيقة ، لا أحدهما فقط ، فينبغي للفقيه إذا قال عن مسألة هذا منزع صوفي أن يعقب ذلك بقوله لا يقدر أحد من أمثالنا على المداومة على العمل به ، ليزيل ما في نفوس السامعين ممن لا يفهم الأمر على وجهه .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول كثيراً:

لا تسلكن طريقاً لست تعرفها بلا دليل فتهوي في مهاويها

انتهى .

ولم تزل طريق القوم عزيزة في كل عصر لقلة صبر من يصبر تحت تربية شيخه ، ومناقشته في جميع أعماله ، ولذلك صار الشيخ يرى الأخلاق المحمدية من ورع وزهد وخشية وخوف من الله تعالى ، ونحو ذلك في يد أهل الله تعالى ، فلا يقدر على الوصول إلى التخلق بخلق منها على وجه ، لأن طريق القوم كلها مجاهدة للنفس ، وأين من يقدر على التخلق والتقيد بمخالفتها إيثاراً لجناب مراد الحق تعالى على مرادها ، هذا لا ينال إلا ببذل الروح ، فعلم أن

الأئمة المجتهدين والعلماء العاملين هم الصوفية حقيقة.

فإن قال قائل: لو أن طريق التصوف أمر مشروع لوضع فيه الأئمة المجتهدون كتباً، ولا نرى لهم قط كتاباً في ذلك.

قلنا له: إنما لم يضع المجتهدون في ذلك كتاباً لقلة الأمراض في أهل عصرهم، وكثرة سلامتهم من الرياء والنفاق، ثم بتقدير عدم سلامة أهل عصرهم من ذلك، فكان ذلك في بعض أناس قليلين لا يكاد يظهر لهم عيب، وكان معظم همة المجتهدين إذ ذاك إنما هو في جمع الأدلة المنتشرة في المدائن والثغور مع أئمة التابعين وتابعيهم، التي هي مادة كل علم، وبها يعرف موازين جميع الأحكام، فكان ذلك أهم من الاشتغال بمناقشة بعض أناس في أعمالهم القلبية التي لا يظهر بها شعار الدين، وقد لا يقعون فيها بحكم الأصل، ولا يقول عاقل قط إن مثل الإمام أبي حنيفة، أو مالك، أو الشافعي، أو أحمد رضي الله عنهم يعلم أحدهم من نفسه رياء أو عجباً أو كبراً أو حسداً أو نفاقاً، ثم لا يجاهد نفسه ولا يناقشها أبداً، ولولا أنهم يعلمون سلامتهم من تلك الآفات والأمراض لقدموا الاشتغال بعلاجها على كل علم، فافهم.

وقال القشيري رحمه الله: وأصل تسمية الصوفية صوفية كان حين ظهرت الأهواء والبدع في عصر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فسموا كل من تمسك بالكتاب والسنة وعمل بهما صوفياً دون غيره، قال: وقد روينا عن الإمام أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه أنه كان يقول: طريقنا هذه مشيدة بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فيها.

وقال الشيخ محيي الدين في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات[١]: اعلم أنه ما تم لنا دليل يرد طريق الصوفية، ولا قادح يقدح فيها شرعاً ولا نقلاً، وإنما يطعن فيها من طعن بالجهل، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: قد أجمع أشياخ الطريق على أنه لا يجوز لأحد التصدر لتربية المريدين إلا بعد تبحره في الشريعة وآلاتها كما عليه السادة الشاذلية، فكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وسيدي أبو العباس المرسي وسيدي ياقوت العرشي، والشيخ تاج الدين بن عطاء الله، لا يدخلون أحداً في الطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة، بحيث يقطع العلماء في مجالس المناظرة بالحجج الواضحة، فإن لم يتبحر كذلك لا يأخذون عليه العهد أبداً، وهذا الأمر قد صار أهله في هذا الزمان أعز من الكبريت

---

(١) الفتوحات المكية في معرفة أسرار المالكية والملكية للشيخ محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن عربي الطائي المالكي المتوفى سنة (٦٣٨) هـ. اهـ. كشف الظنون (٢/ ١٢٣٨).

الأحمر فعلم أن كل من لم يسلك الطريق على هذه القواعد لا يقدر على التخلق بشيء من أخلاق هذا الكتاب ، وقد قالوا : من ضيع الأصول حرم الوصول.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: لا يصح لعبد ابتداء السير في طريق العارفين حتى يزهد في نعيم الدارين ، ولا يكون له محبوب إلا الله تعالى ورسوله ، وكمل ورثته ، انتهى.

وكان يقول: أخذت طريقي هذه عن سيدي إبراهيم المتبولي عن رسول الله ﷺ ، وتارة يقول : أخذت طريقي هذه عن أبينا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، انتهى.

ولا منافاة لأن رسول الله ﷺ قد أمر أن يتبع ملة إبراهيم عليه السلام في محاسن الأخلاق وإن كانت أخلاق إبراهيم عليه السلام هي بالأصالة لمحمد ﷺ ، لأنه نبي الأنبياء كلهم ، وصورة أخذ الأولياء عن رسول الله ﷺ أن روحهم تجتمع برسول الله ﷺ يقظة ومشافهة من حيث أرواحهم ، لا من حيث أجسامهم ، فليس اجتماعهم به ﷺ كاجتماع الصحابة فافهم.

وكان سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله يقول: لا يكمل مقام فقير إلا إن صار يجتمع برسول الله ﷺ ، ويراجعه في أموره كما يراجع التلميذ شيخه.

وقد بلغنا أن سيدي محمد الغمري لما عمر جامعه بمصر ، استأذن رسول الله ﷺ بواسطة ، فقال له: قل له عمر وتوكل على الله ، انتهى ، فلا أدري أكان ذلك قبل الكمال ، أو استأذن بالواسطة حياء من رسول الله ﷺ ، وهذا هو اللائق بمقامه ، فإنه كان مشهوراً بالكمال.

وكان سيدي ياقوت العرشي رحمه الله يقول: من أدعى أنه يأخذ عن رسول الله ﷺ الأدب والعلم ، فاسألوه عن كيفية ما وقع له فإن قال رأيت نوراً ملأ المشرق والمغرب ، وسمعت قائلاً يقول لي: من ذلك النور في ظاهري وباطني لا يختص بجهة من الجهات اسمع لما يأمرك به نبيي ورسولي ، فصدقوه ، وإلا فهو مغتر كذاب ، انتهى.

فعلم أن مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ بلا واسطة ، مقام عزيز لا يناله كل أحد.

وقد سمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: بين الفقير وبين مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ بلا واسطة مائتا ألف مقام ، وسبعة وأربعون ألف مقام ، وتسعمائة وتسعة وتسعون مقاماً ، وأمهاتها مائة ألف مقام ، وخاصتها ألف مقام ، فمن لم يقطع هذه المقامات كلها فلا يصح له الأخذ المذكور.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول: نحن في الدنيا خمسة لا شيخ لنا إلا رسول الله ﷺ الجعيدي ، يعني نفسه ، والشيخ أبو مدين ، والشيخ عبد الرحيم القناوي ، والشيخ أبو السعود بن أبي العشائر ، والشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنهم أجمعين.

واعلم يا أخي أني لا أعلم في مصر الآن أحداً من الفقراء الظاهرين أقرب سنداً في طريقه إلى رسول الله ﷺ مني ، فإن بيني وبين رسول الله ﷺ فيها رجلين فقط : سيدي علي الخواص ، وسيدي إبراهيم المتبولي فقط ، فجميع أخلاق الكمل المذكورة في هذا الكتاب المأخوذة عنهما ، مأخوذة عن رسول الله ﷺ تصريحاً وإشارة ، كما أخبرني به سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى ، وأخبرني الشيخ أبو الفضل الأحمدي أن سيدي علياً لم يمت حتى صار يأخذ عن رسول الله بلا واسطة ، فبيني وبين رسول الله من هذا الوجه رجل واحد ، وهذا الأمر شبيه بسندي بالمصافحة ، فإني صافحت الشيخ إبراهيم القيرواني ، وهو صافح الشريف الساوي بمكة ، وهو صافح بعض الجن الذين صافحهم رسول الله ﷺ ، فبيني وبين رسول الله ﷺ ثلاثة رجال .

وقد أحببت يا أخي ن أذكر لك نبذة من أحوال سيدي علي الخواص ، تأنيساً لك ، وتعريفاً ببعض مقامه ، لتسلك طريق اتباعه بعزم ، فإنه رجل كان الغالب عليه الخفاء ، فلا يكاد يعرفه بالولاية إلا العلماء العاملون ، لأنه رجل كامل عندنا بلا شك ، والكامل إذا بلغ مقام الكمال في العرفان صار غريباً في الأكوان ، ولذلك كانت طريقته غريبة لعلو مراقيها ، وقربها من رسول الله ﷺ من حيث سندها ،.كما مر .

إذا علمت ذلك ، فأقول وبالله التوفيق .

هو الشيخ الإمام الكامل الراسخ، الأمي المحمدي، صاحب الكشوفات الظاهرة ، والأحوال السنية المرضية بين أكابر الأولياء : سيدي علي الخواص البرلسي ، رحمه الله تعالى .

من كراماته رضي الله عنه : أنه كان يسمى بين الأولياء النسابة ، لكونه كان يعرف نسب بني آدم ، وجميع الحيوانات إلى آبائها الأول التي لم يتقدمها أب .

ومنها أنه كان إذا نظر في الميضأة التي يتوضأ منها الناس يعرف جميع الذنوب التي غفرت وخرت في الماء من غسالتها ، ويعرف أهل تلك الذنوب التي غفرت على التعيين ، ويميز بين غسالة كل ذنب عن الآخر ، من كبائر وصغائر ومكروهات وخلاف الأولى ، وأطلعني عليها مرة في ميضأة المدرسة المزهرية بسويقة اللبن ، فرأيتها عروقاً عروقاً مجاورة لبعضها بعضاً ، ولم أر في غسالة الكبائر أقبح ، ولا أنتن ريحاً ، ولا أغلظ عروقاً من غسالة اللواط ، والوقوع في أعراض الناس ، والتهاون في الناس ، والاستهزاء بهم ، وقتل النفس التي حرم الله قتلها .

وقد سمع بعض المنكرين سيدي علياً مرة وهو يقول : لا جزى الله تعالى من اغتسل في هذا المغطس خيراً ، فإنه قذره وأنتنه ، وكان شخص من أعوان الظلمة قد اغتسل فيه ، وذلك المنكر ينظر إليه ، فلما سمع كلام الشيخ ذهب إلى ذلك الشخص ، وقال : أقسمت عليك بالله

تعلمني ما سبب غسلك آنفاً؟ فقال: قد وقع مني فاحشة في عبدي ، ثم رجع المنكر ، وقال للشيخ: سألتك بالله تخبرني عن سبب قولك آنفاً في المغطس ما قلت ، فقال له: ما معي إذن أن أهتك سرائر الناس ، فقبل ذلك المنكر رجل الشيخ واعتقده من ذلك اليوم.

وهذا أمر ما رأيت أحداً يطلع عليه من فقراء العصر سوى سيدي علي هذا ، وهو كان مقام الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، فإن له في الماء المستعمل ثلاثة أقوال:

أحدها: إنه كالنجاسة المغلظة.

الثاني: إنه كالنجاسة المتوسطة.

الثالث: إنه طاهر في نفسه غير مطهر لغيره ، وجه الرواية الأولى الأخذ بالاحتياط ، وهو حمل الغسالة على أنه غسالة كبائر ، ووجه الرواية الثانية الأخذ بالاحتياط المتوسط ، وهو حمله على أنها غسالة صغائر ، ووجه الرواية الثالثة الأخذ بحسن الظن بالمتوضئين ، وهو أن الأصل عدم ارتكابهم الكبائر والصغائر والمكروهات ، وأنهم لم يرتكبوا سوى خلاف الأولى ، كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب اليواقيت والجواهر. ومنها: أنه كان إذا رأى في دواة الحبر يرى الحروف التي تكتب منها إلى أن يفرغ الحبر ، قال أخي أفضل الدين وقد أراني مرة ذلك في دواة مع فقيه ، وقال أول ما يكتب منها السطر الفلاني ، فكتمت ذلك عن صاحب الدواة ، ولكن قلت له: أرني الكلام الذي تكتبه من تلك الدواة أولاً ، فإن لي به حاجة ، فكتب ذلك السطر الذي قاله الشيخ بحروفه لم يخطىء حرفاً واحداً ، فتحققت صدق الشيخ في كشفه.

ومنها: أنه كان إذا رأى أنف إنسان يعرف جميع زلاته السابقة واللاحقة ، إلى أن يموت على التعيين من صحة فراسته ، كما سيأتي إيضاحه أول الكتاب في نعمة الفراسة ، وربما قال عند رؤية وجه الإنسان: اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت ، لكونه كان يرى ما قدر على ذلك الإنسان من المعاصي. ورآه مرة فقيه وهو يملأ قعاوي الكلاب ، ويلامس النجاسات ، فقال له: يا شيخ علي لا ينبغي لك أن تملأ قعاوي هؤلاء الكلاب وتلامس النجاسات. فقال له الشيخ في أذنه. وكذلك أقول لك أنا الآخر لا ينبغي لك أن تزني بامرأة جارك على قبة الفرن لما سرح زوجها يحصد من الغيط ، فتغير وجه الفقيه ، فقلت له مالك فقال: أخبرني الشيخ بأمر وقعت فيه بنواحي دمياط من منذ خمسين سنة ، وما كنت أعرف أن أحداً من الخلق اطلع عليه ، ثم اعتقد الشيخ من ذلك اليوم وتتلمذ له ، وحصل له خير كبير.

ومنهاأنه كان يرى في الليل والنهار معاريج أعمال الناس إلى السماء على التعيين ، ودعوت مرة للأمير محيي الدين بن أبي أصبع لما طال عليه الترسيم في القلعة ، فرأى الشيخ معراج دعائي في تلك الليلة للأمير محيي الدين ، فأرسل يقول لي من الفجر قد عجبت الليلة

من دعائك في حق فلان ، وقد بقي عليه من مدة الترسيم خمسة شهور وسبعة أيام ، فكان الأمر كما قال.

ومنها أنه كان يطلع على ما يصنعه الناس في بيوتهم من الرذائل ، فيقول لأحدهم يا فلان تب من كذا ، ولا تغتر بحلم الله عليك فإن الحق تعالى غيور ، فربما حول النعمة عنك فقاسيت العذاب الأليم ، فيتوب ذلك الشخص إلى الله تعالى.

ومنها أنه كان يعرف مدة ولاية الولاة ، ومتى يولى أحدهم ، ومتى يعزل في سائر أقطار الأرض.

ومنها أنه كان يعرف مدة أعمار الخلائق ، فيقول: يموت فلان في اليوم الفلاني ، فلا يخطىء أبداً ، ورأى مرة شخصاً من جماعة القاضي شرف الدين الصغير ، ومعه كفن للشيخ عبد الله البتنوني ، وكان محتضراً في تربة يشبك الدوادار ، فقال له الشيخ: ارجع بالكفن فإنه بقي من عمره سبعة شهور. فكان الأمر كما قال.

وأصل ذلك أن مطمح بصر الشيخ كان اللوح المحفوظ ، يعني من المحو ، بخلاف غيره فإن مطمح بصره ربما كان ألواح المحو والإثبات الثلاثمائة وستين لوحاً ، فربما أخبر هذا عن شيء ثم إنه يمحى بعد ذلك ثم إن السامع لم يسأل أخباره ، ولو أنهم كانوا سألوه بعد ذلك عن ذلك الأمر لأخبرهم بمحوه ، ولكنهم لم يسألوه فهو صادق في الحالتين ، وأما من كان مطمح بصره اللوح المحفوظ فلا يصح مخالفة ما أخبر به أبداً.

ومنها أنه كان يجتمع بالنبي ﷺ ، ويخبر عنه بالأمور المستقبلة في أوقات معينة فلا يخطىء أبداً ، من وباء أو قحط أو موت سلطان ونحو ذلك ، وكان رسول الله ﷺ إذا أخبره بنزول بلاء في وقت معين يتأهب لذلك بكثرة الاستغفار والبكاء والتضرع ، ويصير لا يأكل ولا ينام حتى ينقضي أمده ، وكان أولياء مصر إذا شكوا في نزول بلاء يرسلون أصحابهم إليه ينظرون هيئته في الجلوس في حانوته ، فإن رأوا ظهره إلى الشارع ووجهه لداخل حانوته ، أو وجدوه في داره يعلمون أن البلاء نازل.

ومنها ما أخبرني به أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله ، أن الله أعطى سيدي علياً الخواص القدرة على استنباط جميع أحكام القرآن من الفاتحة ، وكذلك استنباط جميع أدلة المجتهدين منها ، بل أعطاه القدرة على تخريج جميع الأحكام الشرعية من أي حرف شاء من حروف الهجاء ، انتهى. وهذا أمر ما بلغنا أنه حصل لأحد ممن تقدمه من الأولياء.

ومنها أنه كان يعرف أولياء الأقطار كلها ، ويعرف أصحاب النوبة في كل قطر ، ومن تولى

منهم ، ومن عزل ، وأخبرني أن درك[1] بحر الهند مع الشيخ محيسن المجذوب ، ودرك بحر الروم مع الشيخ محمد الشربيني ، وأنهم يحفظون أدراكهم المذكورة وهم في مصر ، انتهى. وقد ذكرنا مناقبه في الطبقات.

وأما بيان أدلة ذكر العلماء العاملين مناقبهم في كتاب ، والإعلان بها على رؤوس الأشهاد ، فأقول وبالله التوفيق.

من جملة ذلك قول الملائكة عليهم السلام: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[الصافات: ١٦٥ ـ ١٦٦]. وقول السيد يوسف عليه الصلاة والسلام للعزيز: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٥٥]. وقول السيد داود عليه الصلاة والسلام ، وقول ولده سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]. وقول سليمان عليه الصلاة والسلام أيضاً: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]. وقول عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣١]. إلى آخر النسق ، وقول سيدنا ومولانا محمد ﷺ: «**أنا أول شافع وأول مشفع وأنا أول من تنشق عنه الأرض وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»[2] اهـ .

وإنما خص النبي ﷺ سيادته بيوم القيامة ، لأن فيه تجتمع الأولون والآخرون ، فلا يكون أحد من بني آدم غائباً في ذلك اليوم ، وهو سيدهم كلهم ، وإنما قال، ولا فخر ، أي ليس سيادتي وفخري بعلو قدري، وإنما الفخر لي بالعبودية فافهم، فما ذكر ﷺ مثل ذلك إلا تحدثاً بالنعمة عليه ، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وقال بعض العارفين: لم يبلغنا أن أحداً من العارفين زكى نفسه رياء وسمعة ، وإنما زكاها لغرض صحيح شرعي ، كما قال ﷺ «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»[3] فأعلم أمته أنه

---

(١) هكذا العبارة في الأصل فليحرر.

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب تفضيل نبينا على جميع الخلائق (٢٢٧٨) ، والترمذي ، كتاب المناقب ، باب فضل النبي ﷺ (٣٦١٦) ، وأبو داود ، كتاب السنة ، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤٦٧٣) ، بلفظ: «أنا أول شافع وأول مشفع» وبلفظ المؤلف أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر الشفاعة (٤٣٠٨) ، وأحمد في مسنده (١٠٦٠٤).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (٤٧١٢) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤) ، والترمذي ، كتاب صفة القيامة والرقائق ، باب ما جاء في الشفاعة (٢٤٣٤) كلهم بلفظ «أنا سيد الناس يوم القيامة» ، ورواية المؤلف أخرجها الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٨) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر الشفاعة (٤٣٠٨) ، وأحمد في مسنده (٢٥٤٢).

سيد ولد آدم ، وأنه أول شافع ، وذلك ليريحهم من التعب في ذلك اليوم الشديد ، ومن ذهابهم إلى نبي بعد نبي رجاء أن يشفع لهم ، وأرشدهم أنهم يمكثون في مكانهم وينتظرونه حتى تأتيه النوبة ، ويقول: أنا لها أنا لها ، فما ذهب إلى نبي بعد نبي من الناس إلا من لم يبلغه هذا الحديث ، أو بلغه ثم نسيه ، وكان في قول كل نبي قبله لست لها بياناً لشرف محمد ﷺ ، وبياناً لعلو مقامه ، فهو أفضل الرسل على الإطلاق ، انتهى.

وعلم من هذا التقرير أنه لم يحوج شيخه من المريدين إلى تزكية نفسه ، إلا من هو جاهل بمقام شيخه ولو أنه كان عالماً بمقامه لم يحوجه إلى الوقوع في تزكية نفسه ، فقصد الشيخ بقوله مثلاً خذ مني هذا الكلام المحقق الذي لا تجده عند غيري ، أن المريد يأخذه باعتقاد واعتناء ، ولا يتهاون به ، وبالجملة فقد أمرنا الله تعالى بالتأسي برسول الله ﷺ في كل أمر لم يكن خاصاً به ، ومن التأسي به أن نتحدث بكل نعمة أنعمها علينا ولا نكتمها ، ولا نتحدث في سرائرنا بها ، بل نعلن بها على رؤوس الأشهاد.

وقد روى الطبراني والبيهقي وغيرهما مرفوعاً «**التحدث بالنعمة شكر**»[(١)] زاد في رواية البيهقي[(٢)] «**وتركه**» يعني الشكر «**كفر**» وأخرج ابن جرير في تفسيره ، وغيره عن أبي نضرة الغفاري قال: «كان المسلمون يرون أن من شكر النعمة إظهارها والتحدث بها لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]. فتوعدهم على كفرهم بالنعمة بالعذاب الشديد» وروى الطبراني مرفوعاً «**من أعطي الشكر لم يحرم من الزيادة**»[(٣)]

وكان الحسن البصري يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]. أي يعد المصائب التي تصيبه ، وينسى التحدث بالنعم.

وروى أبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه أنه سئل عن سبب سلب بلعام بن باعورا بعد تلك الآيات والكرامات ، فقال: إن بعض الأنبياء سأل ربه عن سبب ذلك فأوحى الله تعالى إليه: «أنه لم يشكرني يوماً قط على ما أعطيته ، ولو شكرني على ذلك مرة واحدة لما سلبته نعمتي ، لكن جرى بذلك قضائي ، وتمت فيه إرادتي ومشيئتي»[(٤)]

وروى الديلمي وأبو نعيم: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه صعد المنبر يوماً فقال:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٩٨١).

(٢) في شعب الإيمان (٩١١٩).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٥٢٨) ، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٤٣٤٧٢) وعزاه للبيهقي في الشعب.

(٤) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٣٤٧٣) ، وابن المبارك في الجهاد (٢٠٧) ، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين (٤/ ٣) ، والخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ١٨٧) ، والسلمي في آداب الصحبة (١١٧) ، والفاداني في العجالة في الأحاديث المسلسلة (١/ ٧٣).

«**الحمد لله الذي صيرني ليس فوقي أحد**» ثم نزل فقيل له في ذلك فقال: «**إنما فعلت ذلك إظهاراً للشكر**» انتهى.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول: لا يكمل شكر العبد حتى يرى نعمة ملوك الدنيا دون نعمته هو من حيث إنهم مسخرون له، وإيضاح ذلك أن جميع من هو فوق مقام العبد من جملة نعم الله عليه كالأنبياء والملوك فلولا الأنبياء ما اهتدى، ولولا الملوك ما أمن على نفسه وماله وحريمه، فكل من هو فوقه ممن ذكر من جملة نعم الله عليه، فكأنهم مسخرون له وهو الرئيس عليهم، فافهم، ومن هنا ورد «**سيد القوم خادمهم**»(١)

وكان سفيان الثوري يقول: من لم يتحدث بالنعمة فقد عرضها للزوال.

وروى البيهقي في سننه عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: لا بأس أن يشكو المريض إلى بعض أصدقائه ما هو فيه من الألم كما أنه لا بأس بأن يحدث الثقة من إخوانه بما فعله من الخير لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وكان عبد الله بن غالب التابعي الجليل يقول: أعلنوا بأعمالكم الصالحة واذكروها لمن لا يعلم بها فإن ذلك مما يرضي ربكم عز وجل، وكان يقول للناس كثيراً صليت الليلة كذا كذا ركعة، وسبحت كذا كذا ألف تسبيحة وتصدقت بكذا كذا درهم، فقال له شخص يوماً لو أنك تخفي ذلك عن الناس لكان أفضل لك، فقال له عبد الله: ما لك لا تفقه أما تقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. لو أنك أمرتني بإظهار أعمالي لكان أفضل لك ولي، فإن نعمة الله على العبد في دينه من أعظم النعم، وهي أولى بالتحدث بها من التحدث بالنعم الدنيوية، قولك إن الله تعالى أعطاني الليلة ألف دينار مثلاً انتهى.

وكان السري السقطي يقول: لا فرق بين قول العبد إن الله خلقني ورزقني وصورني وعلمني العلم والقرآن وجعلني مباركاً، وبين أن يقول أنا ولي الله، وأنا من العلماء العاملين، ونحو ذلك، لأن كل مؤمن ولي لله تعالى قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. ولا يخلو العالم قط من العمل بعلمه ولو في مسألة واحدة، فيشكر الله تعالى الذي جعله من العلماء العاملين، ومن نفى عن نفسه الولاية والعلم مطلقاً فقد قل شكره، انتهى.

وكان الإمام الليث بن سعد يقول: أنا أعرف شخصاً من منذ وعى على نفسه ما عصى ربه

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٣٤٧٣)، وابن المبارك في الجهاد (٢٠٧)، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين (٤/ ٣)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ١٨٧)، والسلمي في آداب الصحبة (١١٧)، والفاداني في العجالة في الأحاديث المسلسلة (١/ ٧٣).

قط ، فكان أصحابه يتحدثون فيما بينهم أنه يعني بذلك نفسه ، لأن أحداً لا يعرف ذلك من غيره إلا بوحي من الله تعالى.

وغمز رجل قدم أبي العباس السياري أحد رجال رسالة القشيري ، فقال له أبو العباس: أتغمز قدماً ما مشى إلى معصية الله قط.

وكان الشيخ عبد القادر الجيلي يقول: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله عز وجل ، يعني من أهل عصره.

وكان أبو القاسم الجنيد يقول: لا يكمل أحد في مقام الشكر لله تعالى حتى يرى نفسه أنه ليس بأهل أن تناله رحمة الله عز وجل ، وإنما رحمة الله تعالى له من باب المنة والفضل.

وكان الشيخ أبو عبد الله القرشي يقول: صحبت ستمائة شيخ ، ثم وزنت بهم فرجحتهم.

وكان أبو العباس المرسي يقول: والله ما سارت الأبدال من ق إلى ق إلا ليصادفوا رجلاً مثلي يربيهم ويرقيهم إلى مقامات الرجال ، وكان يقول: والله لو احتجب عني رسول الله ﷺ ساعة واحدة ما عددت نفسي من جملة المسلمين ، وكان يقول كثيراً: والله لو علم أهل العراق والمغرب والشام ومصر ما تحت هذه الشعيرات ، ويشير إلى لحيته ، من العلوم والأسرار لأتوها ولو سعياً على الوجوه.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول: ما بقي بحمد الله عند غيرنا من أهل عصرنا علم نستفيده وإنما ننظر في كلام غيرنا لنعرف ما من الله به علينا دونهم بما هو فوق مقامهم ، فنشكر الله على ذلك.

وأخبرني الشيخ علي الشاذلي ربيب الشيخ أبي المواهب قال: سمعت سيدي أبا المواهب يقول: كنت وأنا مريد أتكدر من مدح الشاذلية نفوسهم ، وأقول: كيف ينبغي لفقير أن يزكي نفسه بين الناس؟ حتى وصلت إلى مقامهم الذي مدحوا منه نفوسهم ، فرأيت أن ذلك من أوجب الواجبات على العبيد ، وأنه لا يكفي الإنسان أن يشكر ربه في نفسه فقط من غير لفظ ، وإنما عليه أن يشيع ذلك بين العباد ، حتى يعلم به الخاص والعام ، فإنه تعالى يحب من عباده أن يشكروه ، ويذكروا فضله وإحسانه عليهم بين عباده ، ويصفوه بالجود والكرم والفضل ، انتهى.

ورأيت بخط الشيخ جلال الدين في كتابه التحدث بالنعمة ما نصه: أنا أعلم خلق الله الآن قلماً وفماً ثم قال: فإن اعترض علينا معترض قلنا له هذا موكول إلى تخصيص العقل ذلك بعالم زماننا أو بلدنا أو إقليمنا لا غير ، وعلى ذلك حمل العلماء قوله تعالى في بني إسرائيل ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]. وقالوا: لا يدخل في ذلك الأنبياء ولا الملائكة ، قال الشيخ جلال الدين: ولولا اعتبار هذه القاعدة التي ليس عنها براح لكان التلقيب بقاضي القضاة

وأقضى القضاة محرماً غير مباح ، لأنه شامل لكل نبي بل ولرب العالمين ، انتهى.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول كثيراً لأصحابه أعلنوا بطاعاتكم إظهاراً لعبوديتكم ، كما يتظاهر غيركم بالمعاصي ، وعليكم بالإعلام للناس بما منحكم الله تعالى من العلوم والمعارف.

فهذه بعض نقول من كلام السلف الصالح تؤذن بأن العلماء والصالحين ما مدحوا نفوسهم فخراً ورياء ، حاشاهم من ذلك ، وإنما بنوا أمرهم في ذلك على قواعد صحيحة ، وأغراض شرعية ، فإياك يا أخي أن تبادر إلى الإنكار على أحد من العارفين إذا مدح نفسه ، وتحمله على الأغراض النفسانية بعد اطلاعك على هذه الأدلة والنقول التي ذكرناها ، وعليك بحملهم على أحسن المحامل ، وقد مدح الله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: عليكم بالإعلان بما تفضل الله به عليكم فإن الله تعالى يستحيي من عبده إذا قال أعطاني الله كذا وكذا أن يسلب منه ذلك ، لئلا يخجله بين عباده ، وسمعته أيضاً يقول: التحدث بنعمة الله تعالى من غير فتنة ولا أغراض نفسانية خاص بالأكابر من الأولياء في كل عصر ، بخلاف غير العارفين فربما دخل الرياء على أحدهم في تحدثه بما أنعم الله به عليه ، انتهى.

قلت: وإيضاح ذلك أن للعبد في إظهار أعماله ثلاث حالات.

إحداها أن يظهر أعماله رياء وسمعة كما هو شأن بعض العوام والعباد الذين ليس لهم شيخ يربيهم ويرقيهم إلى مقام توحيد الأفعال لله رب العالمين ، أو لم يحفهم توفيق ، فإن من وصل إلى مقام توحيد الأفعال لله ذهب عنه الرياء والسمعة والعجب والكبرياء بأعماله جملة واحدة ، كما ستأتي الإشارة إليه في مواضع من هذا الكتاب ، لأنه حينئذ يرى الفعل لله وحده لا شركة له في الفعل إلا بقدر نسبة التكليف لا غير ، ومعلوم أن أحداً لا يرائي إلا بما يشهده فعلاً له ، وأما ما يراه فعل غيره فلا يصح له الرياء به أبداً ، لأن الناس يكذبونه ، كما في العارفين بالله يكذبونه إذا رأى الفعل لنفسه حقيقة ، وهذا هو مذهب الجبرية بعينه ، فإن الجبرية قوم وصلوا بالعقل إلى مقام توحيد الأفعال لله وحده ، ولم يصلوا إلى مقام الكمل في إضافتهم الأفعال إلى الخلق ، فأخطؤوا الشرائع من إضافتها الأفعال إلى العباد ، بنحو قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ فلذلك ذمهم أهل السنة لكون ذلك يؤدي إلى أن الله تعالى يؤاخذ العبد بما ليس من كسبه ، ولا من فعله جملة واحدة ، ولا يخفى ما في ذلك من رائحة إقامة الحجة على الله تعالى ، وإن كان الحق من مرتبته أن يفعل ما يشاء ، وله مؤاخذة من لم يذنب ، لكن لم يفعل ذلك ، بل رتب الأسباب والمسببات ، وهذا المذهب وإن كان يدخله الخطأ فهو أحسن من مذهب المعتزلة على كل حال لتأييده بنحو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ

شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]. ونحو قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. ولم يأت لنا شرع بأن العبد يخلق أفعال نفسه استقلالاً بغير إذن من الله أبداً، فافهم، فعلم أن من كمال إيمان العبد أن يشهد العمل لله تعالى إيجاداً، وللعبد إسناداً، وكما سيأتي إن شاء الله تعالى في الحالة الثالثة.

ثانيها: يعني الأحوال أن يحس من نفسه شهود إخلاص العمل لله تعالى خلقاً لا شركة لغير الله فيه، من غير أن يتمكن في المقام، فهذا يخاف على نفسه من إظهار أعماله للناس كما يخاف من أنها تحبط لرائحة اعتماده عليها دون الله تعالى، كما هو شأن العباد سلفاً وخلفاً، فهذا لا يقدر على إظهارها.

ثالثها: يعني الأحوال أن يحس بنفسه يقيناً الخلاص من الرياء بالكلية، حين تمكن من حقائق التوحيد، فهذا لا يخاف من إظهار شيء من عمله، لأنه يشهده لله تعالى وحده كما يشهد ذاته خلقاً لله تعالى على حد سواء، فكما أنه لا يقدر على شيء من كون ذاته خلقاً لله تعالى وحده، كذلك لا يقدر على أن يصف شيئاً من أعمال نفسه لنفسه، بل يراها لله رب العالمين، ما عدا نسبة التكليف، ثم انتفى المحظور وأخلص العبد عمله لله رب العالمين لا شريك له، فحينئذ يؤمر بإظهار كل ما أجراه الله تعالى على يديه من الأعمال، وكساه له من الأخلاق اعترافاً له بالنعمة وهذا هو حقيقة الشكر التي ينتهي إليها الصديقون، فإن جميع الأعمال التي يرى العبد أن يشكر الله بها من جملة نعمه عليه أيضاً فصاحب هذا المشهد يرى نفسه كالآلة الفارغة التي يحركها المحرك على الفارغ، ويرى نفسه عبداً غارقاً في فضل سيده ونعمته سداه ولحمته نعم.

فعلم أنه يجب على صاحب هذا المقام إظهار جميع نعم الله عليه، والتحدث بها، وأن ذلك أفضل في حقه من الإسرار بها لعدم خوفه على نفسه من آفات الإظهار، وعلم أيضاً أن كل من لم يصل إلى هذه الحالة الثالثة ذوقاً وتحققاً فكتمان الأعمال الصالحة، والأخلاق الحسنة في حقه واجب، أو أولى، خوفاً عليه من دخول الآفات، وأما شهوده نسبة العمل له من حيث التكليف فلا يقدح حينئذ في هذا المقام، لأنه أمر لا بد منه، وقد أجمع أهل التوحيد على أنه لا يقدح في توحيد العبد شهود نسبة الفعل إليه، كما أشار إليه نحو قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤]. فافهم.

وبما قررناه يعلم أن من قال: إن إخفاء الأعمال أولى مطلقاً أخطأ أو إظهارها مطلقاً أفضل أخطأ ومن فصل في المسألة فقد أصاب.

وسمعت سيدي علياً الخواص يقول: الناس في إظهار الأعمال وإخفائها على أقسام، فمنهم من علانيته أفضل من سريرته، ومنهم من تساوت سريرته وعلانيته، ومنهم من رجحت سريرته في الخير على علانيته، ومنهم من غاب عن ذلك كله. فالأقسام الثلاثة الأول

قد يطرق صاحبها الرياء والسمعة لشهوده الترجيح ، بخلاف من غاب عن ذلك كله ، أي عن التقيد بشيء من هذه الأقسام الثلاثة ، بحكم اختياره الطبعي ، بل بحكم الاختيار الشرعي ، فيكون فاني الاختيار في اختيار الحق تعالى ، فما رجح الشرع إظهاره رجح هو إظهاره ، وما لا فلا ، قال وعلى هذه الحالة الرابعة يحمل حديث «**الإخلاص سر من أسراري أودعه قلب من شئت من عبادي لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا شيطان غوي**»[1] أو ما هذا معناه انتهى.

وقد أجمع الأشياخ على أن من شهد في نفسه الإخلاص احتاج إخلاصه إلى إخلاص.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص يقول: أرجح الناس ميزاناً يوم القيامة من كان في أعماله كالدابة المحملة لا تعلم بنفاسة ما هي حاملته ، ولا بخسته ، ولا تعلم هو لمن ، ولا تطلب من ذلك أجراً ، وهي مع ذلك صابرة على ثقل ما حملت ، منكسة الرأس لا تدري أين تذهب ، انتهى.

وفي كلام ابن عطاء الله: ادفن نفسك في أرض الخمول ، فإن ما نبت من الحب من غير دفن لا يتم نتاجه ، يعني لعدم تمكنه ، لأن الرياح ربما عصفت فقلعت عروقه من الأرض فمات ، بخلاف ما دفن ، فإن نباته يشق الأرض ويخرج ، فلا تزعزعه الرياح.

فعلم مما قررناه أن من يخاف محظوراً من إظهار أعماله فكتمانه لها أولى ، كما مر ، ومن كان قصده بإظهارها اقتداء الإخوان به ، أو إظهار فضل الله تعالى وكرمه عليه ، أو غير ذلك من النيات الصالحة ، فلا حرج عليه في إظهارها.

وسمعت سيدي علياً الخواص يقول: إذا علم العبد كشفاً ويقيناً أنه عبد مستحق للعقوبة ، وأن جميع ما عنده من الكمالات من فضل سيده عليه عارية عنده ليس له منها شيء ، جاز له الإعلان بالنعم والتحدث بها على رؤوس الخلائق ، لأنه لا يرى له بها فخراً على أحد من خلق الله تعالى ، انتهى.

وهذا مشهدي الآن بحمد الله تعالى ، كما سيأتي بسطه آخر الخاتمة إن شاء الله تعالى ، فإني والله ، ثم والله ، ثم والله أرى نفسي في بعض الأحيان قد استحقيت الخسف بي من سنين ، لولا فضل الله تعالى وحلمه عليّ ، ثم والله لا أرى أحداً على وجه الأرض أكثر اقتحاماً للمعاصي مني ، ولا أقل حياء مني ، ولو أن أحداً من المعتقدين في أقام لي الأدلة على ضد ذلك ما أصغيت إليه ، وكثيراً ما أشهد أن جميع ما يقع على مصر وقراها من البلاء هو بسبب ذنوبي وحدي ، وأن ذنوب غيري كلها مغفورة لا أتعقل غير ذلك فيصير جسمي ذائباً كالذي

---

(١) ذكره العسقلاني في فتح الباري (٤/ ١٠٩) ، وأخرجه الديلمي في مسنده (٤٥١٣) ، والفاداني في العجالة في الأحاديث المسلسلة (١/ ٨٩).

شرب رطلاً من السم ، وهذا أمر لا يذوقه إلا أهل المقام ، كما سيأتي بسطه في الباب الثالث إن شاء الله تعالى ، ووالله ، ثم والله ، ثم والله إني أود أن يكون لي ذوات وجوارح بعد ذوات الوجود ، وكل ذات وجارحة تفعل فعل أخواتها ، وتعبد الله بعبادة أهل السموات والأرض أضعافاً مضاعفة من افتتاح الوجود إلى انتهائه ، ثم مع ذلك لا أرى نفسي تستحق ذرة واحدة مما تفضل الله تعالى به عليها في الدنيا والآخرة ، بل أرى أنني لو عبدت الله تعالى بعبادة الثقلين إلى يوم الدين لا أرى أنني قمت بشكره تعالى على تمكيني أن أقف بين يديه خلف كل عاص على وجه الأرض ، ولو غافلاً عنه ، وكيف أقوم بذرة من شكره وهو خالق لذاتي ولأعمالها ، فما بقي شكر للعبد إلا بالاعتراف بالنعم لا غير ، فافهم.

ووالله ، ثم والله إنني لم أقصد بذكري لأخلاقي ومناقبي في هذا الكتاب فخراً على الإخوان ، وإنما قصدت بذلك اقتداءهم بي في تحصيلها ، والتخلق بها بعد أن سمعت بعضهم مراراً عديدة يستغرب قيام أحد بهذه الأخلاق ، ويقول: ما بقي أحد من فقراء هذا الزمان يصلح أن يقتدى به في شيء من أخلاق القوم لعدم تخلقه بها.

ووقع لي مرة أنني قلت لواحد من إخواني : أحب لك أن تزهد في الدنيا ، فقال: حتى أجد من يزهد فيها فأتبعه. فلما سمعت مثل ذلك من الإخوان من ظنهم أن أخلاق القوم قد فقدت بالكلية أبرزت لهم نبذة من أخلاق المريدين التي منّ الله تعالى بها علي أوائل صحبتي للقوم رجاء أن أحداً يتبعني على ذلك ، وقطعاً بحجة الكسالى ، إذ الداعي إلى خير إن لم يكن فاعلاً به فدعاؤه ناقص ، وإن كان ذلك ليس بشرط فإن لسان حال المدعو يقول للداعي: انصح أنت نفسك ، وربما صرح بذلك بالقال ، فلذلك صرحت في هذا الكتاب بأمور كان الأولى لنا كتمها لولا الأمر لي بإظهارها ، ولولا إقامة الحجة علينا من المدعوين ، فإنهم إذا رأونا متخلقين بما ندعوهم إليه أذعنوا لكلامنا ضرورة ، وإن لم يعملوا به. وكذلك لم أقصد به بيان عزته ليلقي الإخوان بالهم إلى الاهتمام به لتحصيله والتخلق به لا غير ، ومعاذ الله أن أؤلف كتاباً وأهديه إلى حضرة الله عز وجل ، وهو مشتمل على ذنب إبليس الذي أخرج به من الحضرة ، وطرد ولعن ، مع أني بحمد الله قد خرقت ببصيرتي إلى الدار الآخرة ، وشهدت يوم الحساب ، وعرفت بميزان الشريعة من هذه الدار ما يصح أن يقبل من الأعمال وما يرد ، وصار ذلك عندي كأنه رأي عيني ، فإياك أن تظن في أنني وضعت هذا الكتاب على غفلة عن شهود الآخرة وأحوالها ، فإني إنما وضعته عن حضور ، وأرجو من فضل الله دوام الحضور والشهود إلى طلوع روحي ، وما ذلك على الله بعزيز ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

الباب الأول

في أمور يجب عند أئمة الطريق فعلها قبل طلب طريق القوم وذلك حتى لا يصير عند الطالب التفات إلى غيرها ويجمعها كلها التبحر في العلوم الشرعية ثم المجاهدة للنفس على يد شيخ صادق وما زاد على ذلك فهو من التوابع والكمالات كما ستراه إن شاء الله تعالى

فمما من الله تبارك وتعالى به علي من فضله شرف نسبي، وإن كان ذلك لا ينفع إلا مع التقوى غالباً فقد يقع غيره تفضلاً من الله تعالى في الجملة، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]. فلولا أن يكون والدهما صالحاً ما دخلا في هذه النعمة، وما كان للتصريح بصفة الصلاح فيه كبير فائدة. فأنا أحمد الله تعالى حيث جعلني من أبناء ملوك الدرني بحمد الله تعالى، فإني بحمد الله تعالى عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن زوفا، ابن الشيخ موسى المكنى في بلاد البهنسا بأبي العمران جدي السادس، ابن السلطان أحمد، ابن السلطان سعيد، ابن السلطان قاشين، ابن السلطان محيا، ابن السلطان زوفا بن ريان، ابن السلطان محمد بن موسى، ابن السيد محمد بن الحنفية، ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

لكن رأيت في نسبتنا القديمة اسمين مطموسين قبل السيد محمد، لا أدري من هما، وكان جدي السابع الذي هو السلطان أحمد سلطاناً بمدينة تلمسان في عصر الشيخ أبي مدين المغربي رضي الله عنه، ولما اجتمع به جدي موسى قال له الشيخ أبو مدين: لمن تنتسب؟ قال والدي: السلطان أحمد، فقال له: إنما عنيت نسبك من جهة الشرف، فقال: أنتسب إلى السيد محمد بن الحنفية، فقال له: ملك وشرف وفقر لا يجتمعن، فقال له: يا سيدي قد خلعت ما عدا الفقر، فرباه فلما كمل في الطريق أمره بالسفر إلى صعيد مصر، وقال له أسكن بناحية «هو» فإن بها قبرك، فكان الأمر كما قال رضي الله عنه، فالحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ: وأنا صغير ببلاد الريف حفظ القرآن وأنا ابن ثمان سنين، وواظبت على الصلوات الخمس في أوقاتها من ذلك الوقت، فلا أتذكر أنني أخرجت

صلاة عن وقتها إلى وقتي هذا إلا نسياناً مرة واحدة فنسيت الظهر في طريق الحجاز حتى دخل وقت العصر من غير نية تأخير ، وكثيراً ما كنت أصلي بالقرآن كله في ركعة وأنا دون البلوغ ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: وأنا دون البلوغ أنني عمت بحر النيل أيام الوفاء فتعبت ونزلت في قعر البحر لأموت ، فأرسل الله تبارك وتعالى لي تمساحاً فوقف تحت رجلي حتى استرحت ، وكنت أحسبه حجراً حتى شرع ثم عام حولي يساندني حتى وصلت إلى سا حل البحر الآخر ، ثم غطس. وهذا من جملة نعم الله علي مع كوني إذ ذاك صغيراً لا أعرف طريق معاملته ، فحماني باللطف من التلف بالمتلف ، وذلل هذا الوحش تحت رجلي حتى استرحت.

وكذلك تعرض لي بعض الفسقة بكلام فاحش ، فابتلاه الله تعالى بالجذام بعد سبعة أيام ، حتى صار الناس يتقذرونه إلى أن مات ، وكذلك تعرض لي شخص آخر فسافر إلى الروم ، فأسره الفرنج وتنصر عندهم ، ووقائعي في مثل ذلك كثيرة ، مع أني كنت يتيماً من الأبوين فكان الحق تعالى هو وليي ، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: ببركة رسول الله ﷺ مهاجرتي من بلاد الريف إلى مصر ، ونقله تعالى لي من أرض الجفاء والجهل إلى بلد اللطف والعلم ، وقد أشار إلى نحو ذلك السيد يوسف عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. فذكر أن مجيء إخوته من البدو من جملة إحسان الحق تعالى إليه وإليهم بحكم التبعية ، فكأنه عليه الصلاة والسلام أثنى على الحق تعالى بما فعله مع إخوته ومعه ، وفي الحديث مرفوعاً: «**من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن**»(١). وكان مجيئي إلى مصر افتتاح سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وعمري إذ ذاك اثنتا عشرة سنة ، فأقمت في جامع سيدي أبي العباس الغمري ، وحنن الله تعالى علي شيخ الجامع وأولاده ، فكنت بينهم كأني واحد منهم ، آكل مما يأكلون ، وألبس مما يلبسون ، فلا يجازيهم عني إلا الله تعالى ، فأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها ، وحللتها على الأشياخ ، ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقوع في المعاصي ، معتقداً عند الناس يعرضون علي كثيراً من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردها وتارة أطرحها إباحة في صحن الجامع ، فليتقطها المجاورون ، وكنت كثيراً ما أطوي الأيام وأنا دون البلوغ تعففاً

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في النهي عن سب الريح (٢٢٥٦) ، والنسائي ، كتاب الصيد والذبائح ، باب اتباع الصيد (٤٣٠٩) ، وأبو داود ، كتاب الصيد ، باب في اتباع الصيد (٢٨٥٩) ، وأحمد في مسنده (٣٣٥٢).

عما في أيدي الناس وخوفاً من هواني في أعينهم ، كما سيأتي بسط ذلك في نعمة مجاهدتي لنفسي بلا شيخ إن شاء الله تعالى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حفظ متون الكتب ، فحفظت أولاً أبا شجاع[1]، ثم الآجرومية[2] في بلاد الريف ، وحللتهما على أخي الشيخ عبد القادر بعد وفاة والدي ، ثم لما جئت مصر حفظت كتاب المنهاج[3] للنووي ، ثم ألفية ابن مالك[4]، ثم التوضيح[5] لابن هشام ، ثم جمع الجوامع[6]، ثم ألفية العراقي[7]، ثم تلخيص المفتاح[8]، ثم الشاطبية[9]، ثم قواعد[10] ابن هشام ، وغير ذلك من المختصرات ، وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن من جودة الحفظ ، ثم ارتفعت الهمة إلى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة[11] لكونه أجمع كتاب في مذهب الإمام الشافعي ، فحفظت منه إلى أثناء باب

---

(١) المراد به متن أبي شجاع المسمى بـ«غاية الاختصار» في الفقه الشافعي للإمام أبي شجاع الحسين بن أحمد الأصفهاني الشافعي المتوفى سنة (٤٨٨) هـ. اهـ. كشف الظنون (٢/ ١١٨٩).

(٢) واسمها مقدمة الآجرومية في النحو لأبي عبد الله محمد بن محمد داود الصنهاجي المعروف بابن آجروم المتوفى سنة (٧٢٣) هـ. اهـ. كشف الظنون (٢/ ١٧٩٦).

(٣) واسمه منهاج الطالبين في فروع الشافعية للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيى ابن شرف النووي المتوفى سنة (٦٧٦) هـ. اهـ. كشف الظنون (٢/ ١٨٧٣).

(٤) الألفية في النحو: للشيخ العلامة جمال الدين أبي عبد الله الطائي المعروف بابن مالك النحوي المتوفى سنة (٦٧٢) هـ. وهي مقدمة مشهورة في ديار العرب جمع فيها مقاصد العربية وسماها الخلاصة ، وإنما اشتهر بالألفية لأنها ألف بيت. اهـ. كشف الظنون (١/ ١٥١).

(٥) واسمه أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ثم اشتهر بالتوضيح للإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام النحوي المتوفى سنة (٧٦٢) هـ. اهـ. كشف الظنون (١/ ١٥٤).

(٦) جمع الجوامع في أصول الفقه للإمام تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن السبكي الشافعي المتوفى سنة (٧٧١) هـ. اهـ. كشف الظنون (١/ ٥٩٥).

(٧) ألفية العراقي في أصول الحديث ، للشيخ الإمام الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي المتوفى سنة (٨٠٦) هـ. اهـ. كشف الظنون (١/ ١٥٦).

(٨) تلخيص المفتاح في المعاني والبيان ، للشيخ الإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق المتوفى سنة (٧٣٩) هـ. اهـ. كشف الظنون (١/ ٤٧٣).

(٩) واسمها حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع المثاني وهي القصيدة المشهورة بالشاطبية ، للشيخ أبي محمد القاسم بن فيرة الشاطبي الضرير المتوفى سنة (٥٩٠) هـ. اهـ. كشف الظنون (١/ ٦٤٦).

(١٠) واسمه الإعراب عن قواعد الإعراب للشيخ أبي محمد عبد الله بن يوسف الشهير بابن هشام النحوي ، وهو مختصر مشهور بقواعد الإعراب. اهـ. كشف الظنون (١/ ١٢٤).

(١١) الروض مختصر الروضة في الفروع للنووي وهو أي: الروض لشرف الدين إسماعيل بن أبي بكر =

القضاء على الغائب ، وآخر الكتاب ، فلقيني بعض أرباب الأحوال بباب الخرق خارج باب زويلة ، فقال لي مكاشفاً: قف على باب القضاء على الغائب ولا تقض على غائب بشيء ، انتهى.

فما قدرت بعد ذلك على حفظ لوح واحد منه ، لكنني طالعت الكتاب ودرسته نحو مائة مرة ، وكنت اقرأ محفوظي للمتن في الشرح ، وأنظر كل شيء توقفت في فهمه حتى صار شرحه للشيخ زكريا عندي نصب عيني كما سيأتي بيانه في النعمة بعد ، ثم لقيني الشيخ أحمد البهلول رضي الله عنه فقال لي مكاشفاً: أقبل على الاشتغال بالله ويكفيك من العلم ما قد علمته ، فشاورت في ذلك مشايخي ، فقالوا لا تدخل طريق القوم إلا بعد شرح محفوظاتك كلها على الأشياخ ، فإذا فهمتها وتبحرت فيها فعليك بطريق القوم ، وكان أشياخي كلهم من الجامعين بين العلم والعمل ، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ: شرحي لمحفوظاتي السابقة على المشايخ الذين عرضتها عليهم ، وهم نحو خمسين شيخاً ذكرنا مناقبهم في كتاب الطبقات(١) فقرأت على الشيخ أمين الدين الإمام والمحدث بجامع الغمري شرح المنهاج للجلال المحلي(٢)، وكان أعرف أشياخي بنكت هذا الشرح لكونه قرأه على أعيان طلبة الشيخ جلال الدين كالفخر المقسي ، والشمس الجوجري ، والشمس ابن قاسم ، وكنت أطالع على درسي هذا القوت(٣) للأذرعي ، والقطعة والتكملة للأسنوي ، والزركشي والقطعة للسبكي ، والعمدة لابن الملقن(٤)، وشرح ابن قاضي شهبة ، وشرح الروض للشيخ زكريا(٥)، وأكتب زوائد هذه الكتب على الشيخ جلال الدين ، وألصق فيه أوراقاً حتى ربما تصير الحواشي أكثر من الكتاب ثم أقرؤها كلها عليه ، وذلك كله لضيق يدي عن شيء أشتري به هذه الكتب ، وقرأت عليه أيضاً شرح جمع الجوامع(٦) للشيخ جلال الدين ، وحاشية الشيخ كمال الدين بن

= المعروف بابن المقري الشافعي المتوفى سنة (٨٣٧) هـ. اهـ. كشف الظنون (١/ ٩١٩).

(١) المراد بن كتابه الطبقات الكبرى.

(٢) واسمه كنز الراغبين شرح منهاج الطالبين للإمام الشيخ جلال الدين محمد بن أحمد المحلى المتوفى سنة (٨٦٤) هـ. اهـ. كشف الظنون (٢/ ١٨٧٣).

(٣) وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٥١).

(٤) العمدة في فروع الشافعية: لعمر بن علي المعروف بابن الملقن ، المتوفى سنة (٨٠٤) هـ. كشف الظنون (٢/ ١١٧٠).

(٥) شرح الروض مختصر الروضة للقاضي زكريا محمدالأنصاري. كشف الظنون (١/ ٩١٩).

(٦) شرح الجوامع في أصول الفقه للمحقق جلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي ، المتوفى سنة (٨٦٤)هـ. كشف الظنون (١/ ٥٩٥).

أبي شريف[1] كاملاً ، وكان قد قرأها على مؤلفها ، وقرأت عليه أيضاً شرح ألفية العراقي للجلال الحافظ السخاوي[2]، ويقال إنه للحافظ ابن حجر ظفر به السخاوي مسودة في تركة الحافظ ابن حجر أو غيره فضبطه وبيضه وأبرزه للناس ، وقرأت عليه إيضاح شرح ألفية ابن مالك لابن عقيل[3]، وكنت أطالع عليها شرحها للأعمى والبصير ، وشرح التوضيح للشيخ خالد[4]، وشرح المكودي[5]، وشرح ابن المصنف[6]، وشرح ابن أم قاسم[7]، وشرح الشواهد للعيني[8]، وأكتب زوائد هذه الشروح على ابن عقيل ، ثم أقرؤها كلها ، وقرأت عليه أيضاً الكتب الستة في الحديث[9] والغيلانيات[10]، ومسند عبد بن حميد[11]، وكتباً كثيرة ، وأجازني بجميع مروياته ، وكان له السند العالي أخذ عن الحافظ ابن حجر وغيره .

وقرأت على الشيخ الإمام العلامة شمس الدين الدواخلي رضي الله عنه هذا الشرح المذكور آنفاً ، وطالعت عليه الكتب المذكورة بعد الشيخ أمين الدين ، وكان فقيهاً صوفياً أصولياً نحوياً محققاً للأبحاث ، وقرأت عليه إيضاح شرح الإرشاد لابن أبي شريف[12]، وكنت أطالع عليه شرح البهجة الكبير للشيخ زكريا[13]، وشرح الإرشاد

---

(١) الدرر اللوامع في تحرير جمع الجوامع للكمال أبي شريف المقدسي. كشف الظنون (١/ ٥٩٥).

(٢) شرح شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفى سنة (٩٠٢) هـ. على ألفية العراقي. كشف الظنون (١/ ١٥٦).

(٣) شرح ألفية ابن مالك لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الشهير بابن عقيل ، المتوفى سنة (٧٦٩) هـ. كشف الظنون (١/ ١٥٢).

(٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ١٥٤).

(٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ١٥٢).

(٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ١٥١).

(٧) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٥٢).

(٨) الشواهد الكبرى والصغرى أعني شرح شواهد الألفية للعيني المتوفى سنة (٨٥٥) هـ. وسماه المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية. كشف الظنون (٢/ ١٠٦٦).

(٩) المراد بها: كتاب صحيح البخاري ، ومسلم ، وسنن الإمام الترمذي ، وأبي داود، والنسائي ، وابن ماجه.

(١٠) الغيلانيات من أجزاء الحديث لأبي بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم المعروف بالشافعي المتوفى سنة (٣٥٤) هـ. كشف الظنون (٢/ ١٢١٤).

(١١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٦٧٩).

(١٢) شرح الإرشاد في فروع الشافعية للمحقق الكمال محمد بن أبي يوسف بن شريف المقدسي المتوفى سنة (٩٠٣) هـ. كشف الظنون (١/ ٦٩).

(١٣) الغرر البهية شرح البهجة الوردية للقاضي زكريا بن محمد الأنصاري ، المتوفى سنة (٩١٠) هـ. كشف الظنون (١/ ٦٢٦).

للجوجري[1]، والقوت للأذرعي ، والتوسط والفتح[2] له أيضاً ، وقرأت عليه أيضاً شرح الروض إلى أثناء باب الجهاد ، فحصل لي مرض فلم أتمه عليه لكني أتممته على غيره ، وكنت أطالع على هذا الشرح كتاب الخادم[3] وكتاب القوت ، وجميع المواد التي استمد منها شارحه ، وكنت أتتبع نقوله بذكر سوابق الكلام ولواحقه ، وألحق ذلك بالشرح حتى أن حواشي هذا الشرح صارت أكثر من الشرح ، وكان يتعجب من سرعة مطالعتي لهذه الكتب وكتابة زوائدها ، ويقول: لولا أنك تلخص زوائدها لقلت إنك لم تلحق تطلع على بعضها ، وقرأت عليه أيضاً شرح الألفية لابن المصنف ، وشرح التوضيح للشيخ خالد ، وكتاب المطول بحواشيه[4]، وشرح ألفية العراقي للمصنف وللسخاوي ، وكتاب شرح جمع الجوامع بحاشيته لابن أبي شريف ، وغير ذلك.

وقرأت على الشيخ شمس الدين السمانودي المفتي والخطيب بجامع الأزهر كان نحو النصف من شرح المنهاج للمحلي ، ثم مات رحمه الله رحمة واسعة.

وقرأت على الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين المسيري قطعة من شرح جمع الجوامع ، ونحو النصف من شرح المنهاج للجلال المحلي ، ثم مات.

وقرأت على الشيخ الإمام المحقق الشيخ نور الدين المحلي شرح جمع الجوامع بحاشيته وكثيراً ما كنت أقرأ عليه الشرح مع الحاشية من ذهني وهو يمسك على الأصلين فيتعجب من جودة حفظي وتوقيعي الحاشية على الشرح مع صغر سني ، وقرأت عليه أيضاً شرح العقائد للتفتازاني[5]، وحاشيته لابن أبي شريف عليه ، وشرح المقاصد[6]، وكتاب سراج العقول

---

(١) شرح الإرشاد في فروع الشافعية للعلامة الشمس محمد بن عبد المنعم الجوجرجي المتوفى سنة (٨٨٩) هـ. كشف الظنون (١/ ٦٩).

(٢) التوسط والفتح بين الروضة والشرح لشهاب الدين أحمد بن حمدان الأوزاعي. المتوفى سنة (٧٣٨) هـ. كشف الظنون (١/ ٩٣٠).

(٣) لعله أراد كتاب خادم الرافعي والروضة في الفروع لبدر الدين محمد بن بهادر الزركشي الشافعي المتوفى سنة (٧٤٩) هـ. شرح فيه مشكلات الروضة وفتح مقفلات فتح العزيز وهو على أسلوب التوسط للأوزاعي. كشف الظنون (١/ ٦٩٨).

(٤) المطول شرح تلخيص المفتاح في المعاني والبيان للإمام سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة (٧٩٢) هـ. وعلى المطول حواشٍ كثيرة منها: حاشية العلامة السيد الشريف الجراجاني، وحاشية المولى المحقق شاه الفناري وغيرها. كشف الظنون (١/ ٤٧٤).

(٥) شرح العقائد النسفية للعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ، المتوفى سنة (٧٩١) هـ. كشف الظنون (١/ ١١٤٥).

(٦) المقاصد في علم الكلام للعلامة سعد الدين التفتازاني المتوفى سنة (٧٩١) هـ ، وله عليه شرح جامع. كشف الظنون (٢/ ١٧٠٨).

لأبي طاهر القزويني[١]، وهو كتاب نفيس مشتمل على أربعين مسألة من مشكلات علم الكلام، عقد لكل مسألة باباً جمع فيه نقول المتقدمين والمتأخرين، وما رأيت في علماء الكلام أطول باعاً منه.

وقرأت على الشيخ نور الدين الجارحي المدرس بجامع الغمري رحمه الله شرح ألفية العراقي للمؤلف، وشرح الشاطبية لابن القاصح[٢]، والسخاوي صهر الشاطبي[٣]

وقرأت على الشيخ الإمام العلامة الشيخ نور الدين السنهوري الضرير الإمام بجامع الأزهر عدة كتب، منها شرح الشذور[٤]، ومنها نظمه للآجرومية، وشرح نظمه لها، وشرح الألفية للمكودي، وغير ذلك.

وقرأت على الشيخ الإمام المحقق المفنن في العلوم ملا علي العجمي بباب القرافة عدة كتب في الفقه والنحو.

وقرأت على الشيخ جمال الدين الصاني قطعة من المنهاج، وقطعة من الألفية في نحو شهر، ثم مات.

وقرأت كذلك على كل من الشيخ عيسى الأخنائي، والشيخ شمس الدين الديروطي، والشيخ شمس الدين الدمياطي الواعظ صاحب البرج بدمياط قطعة من شرح المنهاج، وقطعة من شرح الألفية في النحو، ثم مات.

وقرأت على الشيخ العالم الصالح المحدث المقرىء الشيخ شهاب الدين القسطلاني شارح البخاري غالب شرحه على البخاري[٥]، وقطعة من المواهب اللدنية[٦]

وقرأت على الشيخ مجلى رحمه الله قطعة من شرح المنهاج للجلال المحلي، صحبة قراءة الشيخ أبي الحسن البكري عليه، ثم مات رحمه الله تعالى.

---

(١) سراج العقول إلى منهاج الأصول للإمام محمد بن طاهر القزويني. كشف الظنون (٢/ ١٨٨٠).

(٢) واسمه سراج القاري للإمام علاء الدين علي بن عثمان بن محمد المعروف بابن القاصح العذري، المتوفى سنة (٨٠١) هـ. كشف الظنون (١/ ٦٤٧).

(٣) واسم شرحه فتح الوسيط في شرح القصيد للإمام علم الدين أبي الحسن علي بن محمد السخاوي المصري المتوفى سنة (٦٤٣) هـ. كشف الظنون (١/ ٦٤٧).

(٤) شذور الذهب في علم النحو لجمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام النحوي المتوفى سنة (٧٦٢) هـ. وعليه شروح كثيرة، ولم يتبين لنا مراد المؤلف منها. كشف الظنون (٢/ ١٠٢٩).

(٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٥٢).

(٦) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية في السيرة النبوية، للإمام أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني المتوفى سنة (٩٢٠) هـ. كشف الظنون (٢/ ١٨٩٦).

وقرأت على الشيخ صلاح الدين القليوبي قطعة من شرح جمع الجوامع ، ثم مات ، ولم أكمله عليه.

وقرأت على الشيخ العالم العلامة نور الدين بن ناصر نحو ثلاثة أرباع المنهاج ، وكان أحفظ الناس بنقول المذهب ، كأن المذهب نصب عينيه.

وقرأت على الشيخ نور الدين الأشموني قطعة من المنهاج ، وقطعة من ألفية ابن مالك ، ونظمه لجمع الجوامع ، ثم مات.

وقرأت على الشيخ سعد الدين الذهبي شرح ألفية العراقي للمؤلف ، وقرأت قطعة من شرح المنهاج للمحلي مع مطالعة كتاب القوت ، وكتاب الخادم ، ومراجعته في المشكلات.

وقرأت على شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين الششيني الحنبلي قطعة من تفسير البغوي [١] ، إلى أواخر البقرة ، ثم مات سنة ثمان عشرة وتسعمائة.

وقرأت على شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين القلقشندي قطعة من المنهاج ، وقطعة من ألفية ابن مالك ، ومسند عبد بن حميد ، والغيلانيات ، ثم مات ، وكان عالي السند في الحديث.

وقرأت على شيخ مشايخ الإسلام الشيخ زكريا شرحه لرسالة القشيري كاملاً ، وشرحه لمختصر المزني [٢] ولم يكمله وشرح آداب البحث ، وشرح التحرير ، وشرح الروض إلى أثناء باب الجزية ، وشرح مختصره لجمع الجوامع مع حاشيته على شرح الجلال المحلي ، وقرأت عليه تفسير البيضاوي كاملاً ، ونشأ من قراءتي عليه حاشيته التي وضعها عليه ، وغالبها بخطي وخط ولده الشيخ جمال الدين ، وذلك بعد أن كف بصره ، وطالعت له حاشية الطيبي على الكشاف [٣] ، وحاشية الشيخ سعد الدين [٤] ، وبعض حواش كحاشية الشيخ جلال الدين السيوطي والبابوني ، وغير ذلك. ولما شرح البخاري كنت أطالع له حال التأليف فتح الباري ، وشرح العيني ، وشرح البرماوي ، وشرح الكرماني ، وشرح القسطلاني [٥] حتى صار غالب هذه الشروح نصب عيني من كثرة مطالعتها له ، وتكرار الكلام ، حتى يأخذ منه

---

(١) معالم التنزيل في التفسير للإمام أبي محمد حسن بن مسعود الفراء البغوي الشافعي ، المتوفى سنة (٥١٦) هـ. كشف الظنون (٢/ ١٧٢٦).

(٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٦٣٥).

(٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٨).

(٤) حاشية العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني على الكشاف. كشف الظنون (٢/ ١٤٧٨).

(٥) ذكر هذه الشروح حاجي خليفة عند ذكره لكتاب الجامع الصحيح (صحيح البخاري). كشف الظنون (١/ ٥٤١).

المعنى الذي يضعه في شرحه ، ولما قرأت عليه شرح الروض كنت أطالع عليه شرح المهذب [١]، والخادم ، والقوت ، وشروح المنهاج ، والمطلب ، والكفاية لابن الرفعة [٢]، وتتبعت جميع المواد التي استمد منها في شرحه ، ونبهته على اثني عشر موضعاً ذكر في شرحه أنها من زوائد الروضة على الروضة ، والحال أنها مذكورة في الروضة في غير أبوابها ، فضرب على كونها زائدة ، ونبه على أنها مذكورة في غير أبوابها ، ثم إني رأيت الزركشي نبه على هذه المواضع في كتابه خبايا الزوايا [٣]، ففرح بذلك رضي الله عنه ، وكان أعظم أشياخي في العلم والعمل والهيبة ، ولازمته عشرين سنة فكأنها من طيبها كانت جمعة ، وكان في بعض الأوقات يقول لي هلا تذهب بنا إلى بحر النيل نشم الهواء ، فأقول له: يا سيدي مجالستكم عندي أعظم من شم الهواء ، فيدعو لي.

وحكى لي مرة أن يحيى بن يحيى الأندلسي جالس الإمام مالكاً سنين ، فمر يوماً الفيل فقام الطلبة يتفرجون عليه ، فقال له الإمام مالك: أما تنظر إلى الفيل فإنه ليس في بلادكم ، فقال: يا سيدي أنا ما رحلت من بلادي لأتفرج على الفيل ، وإنما رحلت إليك لأنظر إلى أفعالك وأقوالك وأهتدي بهديك ، فأعجب مالكاً ذلك وسماه عاقل أهل الأندلس ، انتهى ، رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وقرأت على الشيخ الإمام المحقق علامة الزمان الشيخ شهاب الدين الرملي رحمه الله تعالى الرحمة الواسعة ، وأمطر عليه من سحائب نعمته الهامعة ، كتاب الروضة من أولها إلى أثناء كتاب الجراح ، فحصل لي رمي دم فلم أكمله عليه ، وكنت أطالع على كل درس قرأته عليه كتاب القوت ، وكتاب الخادم ، وكتاب شرح الروض للشيخ زكريا ، ولابن سولة ، والمطلب ، والمهمات ، والكفاية لابن الرفعة ، وشرح المهذب ، والرافعي الكبير ، والقطعة ، والتكملة ، وشرح ابن قاضي شهبة على المنهاج [٤]، وشرحي الإرشاد للجوجري ، ولابن أبي شريف [٥]، وشرح البهجة للشيخ زكريا [٦]، وأكتب زوائد هذه

---

(١) المجموع شرح المهذب للإمام محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي المتوفى سنة (٦٧٦) هـ. كشف الظنون.

(٢) كفاية البينة على التنبيه للإمام نجم الدين أحمد بن محمد بن علي المعروف الشافعي المتوفى سنة (٧١٦) هـ. كشف الظنون (١/ ٤٩١).

(٣) خبايا الزوايا في الفروع لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي المتوفى سنة (٧٤٩) هـ. كشف الظنون (١/ ٦٩٩).

(٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٨٧٦).

(٥) الإرشاد في فروع الشافعية لأبي بكر بن المقري المتوفى سنة (٨٣٦) هـ، وذكر حاجي خليفة شروحه بعد ذكر اسم الكتاب. كشف الظنون (١/ ٦٩).

(٦) الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة للشيخ زكريا بن محمد الأنصاري، المتوفى سنة =

الكتب على الحواشي ، وربما ألصق فيها أوراقاً حتى تصير الحواشي أكثر من ألفاظ الأصل ، ثم أقرأها كلها عليه ، وكان ينبهني على المفتى به من غيره ، فأقيده على الحاشية ، وكان يتعجب من سرعة مطالعتي لهذه الكتب في نحو اليوم والليلة ، ويقول: لولا أنك تكتب زوائدها على الحواشي ، وتترك الكلام المتداخل لقلت إنك لم تلحق تطالع هده الكتب ، فضلاً عن تحرير ما تكتبه منها بعد حذف المتداخل ، يعني تركه من هذه الأصول.

وكان ذهني بحمد الله سيالاً لا يسمع شيئاً وينساه ، ولم أزل كذلك حتى ترادفت علي الهموم ، لما بلغت في السن إلى نحو خمس وعشرين سنة ، وذلك نحو ثلاث وعشرين من القرن العاشر التي دخلت فيها إلى مصر ، لما جاءت دولة بني عثمان نصرهم الله تعالى ، وقال لي مرات بدايتك نهاية غيرك ، فإني ما رأيت أحداً تيسر له مطالعة هذه الكتب كلها في هذا الزمان أبداً ، وكنت أطالع الجزء الكبير من الرافعي والخادم كاملاً في ليلة واحدة ، فهذا ما استحضرته الآن من الكتب التي طالعتها حال قراءتي على الأشياخ ، وسيأتي قريباً ذكر أسماء الكتب التي طالعتها لنفسي مع مراجعة الأشياخ في مشكلاتها إن شاء الله تعالى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: أَخذي بالأحوط في ديني ولا أترخص في تركه إلا بطريق شرعي ، فكما أن من أخذ بالأحوط فهو على هدى من ربه كذلك من أخذ بالرخصة بشرطها فهو على هدى من ربه فيها ، وكنت بحمد الله تعالى حال اشتغالي على الأشياخ أشدد على نفسي في العمل على الخروج من الخلاف ما أمكن ، وكل ذلك طلباً لتكون عبادتي صحيحة على جميع المذاهب أو أكثرها ، وما رأيت أشد علي مراعاة للخلاف من صلاة العصر ، فإني إن صليتها على مذهب الإمام الشافعي في أول وقتها خالفت الراجح من مذهب الإمام أبي حنيفة ، لأن وقتها حين صليتها على مذهب الشافعي لم يكن دخل ، وإن صليتها أول الوقت على مذهب الشافعي وأعدتها حين يدخل وقتها على الراجح من مذهب أبي حنيفة يقول الإصطخري إن العصر لا تعاد ، وإن اقتصرت على صلاتها في الراجح من مذهب أبي حنيفة قال الطحاوي قد خرج وقتها حينئذ ، فلما تعذر علي الخروج من خلاف العلماء أخذت بما صح في حديث إمامة جبريل من الوقتين.

واعلم يا أخي أن من جملة الاحتياط اجتناب المكروه كأنه حرام ، والاعتناء بالسنن كأنها واجبة ويتوضأ من مس الفرج إن كان حنفياً ، ومن الفصد إن كان شافعياً ، ويطهر نجاسة الكلب والخنزير سبعاً إحداهن بتراب إن كان مالكياً ، وهكذا في سائر مسائل الخلاف العالي والنازل من الصحابة ومن بعدهم إلى عصرنا هذا ، فعلم أنه ينبغي للعبد التوبة من المكروه

= (٩٢٦) هـ. وهو شرح القصيدة المنفرجة للتوزري. كشف الظنون (٢/ ١٣٤٦). =

كأنه حرام ، ومن ترك السنة كأنها واجب تعظيماً لأمر الله .

وقد روى البزار بإسناد صحيح: «**إن الله فرض فرائض وفرضت فرائض**»[1] الحديث ، ومما يؤيد الاعتناء بالسنة قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: كلما ازداد العبد معرفة بالله تعالى كلما اعتنى بالتعظيم لأمره ونهيه ، وكلما بعد عن حضرة الله تعالى كلما تهاون بفعل أمره واجتناب نهيه ، وفي الحديث: «**أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه**»[2] وروى الحاكم وصححه[3] مرفوعاً «**من أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه**» انتهى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم التعصب لمذهبي من غير علم ولا اجتهاد ، فلم أتذكر أني قلت عن شيء من مذهب المخالف هذا ضعيف أبداً ، بل سداي ولحمتي التسليم للمخالف ، وقد كان الإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه وأرضاه يقول: ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين ، وما جاء عن أصحابه تخيرنا ، انتهى. وكذلك نقول ما جاءنا عن الأئمة المجتهدين تخيرنا اتباع من شئنا منهم ثم إذا تخيرناه لازمنا العمل بكلامه ولا نفارقه إلا بالموت خوفاً من وقوعنا في صورة التلاعب بالدين ، وإنما كنا نسلم للمخالف لإمامنا لأنه مجتهد ، وقد قرر الشارع وجوب العمل على المجتهد بما فهمه من السنة فكذلك من ألزم نفسه باتباع مجتهد يلزمه العمل بقوله.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: كل من أنكر على عالم بفهمه فكأنه يدعي أنه أعلم من ذلك العالم ، ولو أنه كان يعتقد في نفسه أنه دونه في العلم لسلم له قوله ، وحفظ من الوقوع في الإنكار عليه ، انتهى. وكان يقول: إياك والمراء في العلم فإنه يجر إلى الإثم ، قال: وحد المراء هو الاعتراض على كلام الغير لإظهار خلل فيه لا يشعر به غالب الناس ، وسببه طلب زيادة الترفع على الأقران ، وإظهار التفضيل ، انتهى.

وخرج بتقييد شيخنا رحمه الله تعالى الإنكار بالفهم ما لو كان الإنكار على ذلك العالم بدليل شرعي واضح ، فإنه لا اعتراض على أحد في الإنكار عليه لمعارضته النص ، بخلاف معارضة الفهم ، فإنه أمر سهل لتفاوت الأفهام ، وعدم عصمتها.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٢٢٢) ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٢) ، وأبو يعلى في مسنده (٢٤٥٨).

(٢) ذكره الحسيني في البيان والتعريف (١/ ٢٩٤) ، والعجلوني في كشف الخفاء (٦٠٧) وقال: قال في المقاصد: قال شيخنا صحيح.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٨٢٠).

وسمعته أيضاً يقول: لا اعتراض على الفقيه إذا أنكر على المتصوفة أمراً يخالف ظاهر الشرع ، كما وقع في قصة موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام ، فإن ظاهر الشرع هو السيف القاطع بحده كل شيء ، فإذا رأينا من يدعي أن بينه وبين الله تعالى حالة أسقطت عنه التكاليف مع وجود عقل التكليف لم نسلم له ، لأنه كاذب على الله تعالى ، انتهى.

واعلم يا أخي أن غالب الإنكار الذي يقع بين الفقهاء والصوفية إنما هو بين القاصر من كل منهما وبين مثله ، وإلا فالكامل من الفقهاء يسلم للعارفين ، والعارفون يسلمون للعلماء ، لأن الشريعة جاءت على مرتبتين تخفيف وتشديد ، ولكل من المرتبتين رجال في حال مباشرتهم للأعمال ، فمن قوي منهم خوطب بالتشديد والأخذ بالعزائم ، ومن ضعف منهم خوطب بالتخفيف والأخذ بالرخص ، فكما أن موسى عليه الصلاة والسلام كان على هدى من الله ، فكذلك الخضر عليه السلام ، ولذلك سلم موسى للخضر آخر الأمر لما علم أن الشريعة لها مرتبتين ، مرتبة خاصة بعامة الناس ، ومرتبة خاصة بخواص الناس ، فالنبي يفهم ، من كلام الله ما لم يفهمه الصحابي ، والصحابي يفهم منه ما لم يفهمه غيره ، وهكذا ، وكل ذلك ينطلق عليه اسم الشريعة ، وإنما قال القوم: كل حقيقة تخالف ظاهر الشريعة فهي باطلة نصرة لظاهر الشرع ، وإلا فالحقيقة من أصلها لا تكون إلا موافقة للشريعة ، فإن طابقت الحقيقة الشريعة ظاهراً وباطناً ، كانت الحقيقة والشريعة متلازمتين ، كما إذا حكم الحاكم بشهادة الصادقين في نفس الأمر ، وإن طابقت الحقيقة الشريعة في الظاهر فقط ، كما إذا حكم الحاكم بشهادة عدلين في الظاهر ، وهما كاذبان ، فالشريعة والحقيقة حينئذ غير متلازمتين ، فمراد القوم أنهما متلازمتان ، حيث توافقتا ظاهراً وباطناً لا ظاهراً فقط ، فافهم.

وسمعت أخي أفضل الدين يقول: ينبغي للفقيه مراعاة علم الباطن ، وللفقير مراعاة علم الظاهر ، والناظر بفرد عين أعور من فقيه وفقير ، والكامل من نظر بالعينين ، انتهى.

وممن أدركته ينظر بالعينين الشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، وشيخ الإسلام زكريا ، والشيخ عبد الحق السنباطي ، والشيخ شمس الدين السمانودي ، رحمهم الله تعالى أجمعين ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تعالى به علي حال اشتغالي بالفقه: كثرة تأويلي للقوم كلامهم ، وزجر من يطعن في طريقهم بفهمه فلم يقع لي قط التجريح في الطائفة ولا في طريقهم ، كما يقع فيه كثير من الفقهاء ، وهذا من أكبر نعم الله تعالى عليّ ، حيث حفظني من الإنكار على القوم حتى دخلت طريقهم ، وكان رفقتي في الاشتغال يلومونني على عدم الإنكار ، ويقولون وهل ثم لنا طريق يتقرب به إلى الله تبارك وتعالى غير ما نحن عليه ، فأسكت ، وأقول الله أعلم. وقد أجمع أهل الطريق على أنه ما أنكر أحد شيئاً من المقامات على أهل الطريق إلا حرم ذلك المقام ، ولو دخل في طريقهم عقوبة له ، وكنت أقول لرفقتي: إذا كنتم تؤولون كلام الحق

تعالى وكلام رسوله ﷺ مع وسع كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ، وعموم الخطاب به لجميع العباد ، فكلام الفقراء أحق بالتأويل لضيقه وعدم عموم الخطاب به .

وقد بلغنا عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى أنه قال: قلت يوماً سبحان الله فناداني الحق تعالى في سري هل في عيب تنزهني عنه؟ فقلت له لا يا رب ، فقال: فنفسك إذن نزِّهها عن ارتكابها الرذائل ، قال: فأقبلت على نفسي بالرياضة حتى تنزهت عن الرذائل ، وتخلقت بالفضائل والكمالات ، فصرت أقول: ما أعظم شأني من باب التحدث بالنعمة . اهـ.

وكثيراً ما ينطق الحق تعالى على لسان بعضهم بكلام لا يليق إلا بالله تعالى حال اصطلامهم وغيبتهم فينكر الناس عليهم ذلك ، ولا ينبغي ذلك إلا لو قالوه حال صحوهم ، وفي الحديث: «**إن الله قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده**»(١) فافهم.

ومن وصية شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى الرحمة الواسعة: إياك والإنكار على الطائفة في كل ما يتحققون به وسلم لهم تسلم فإنهم تارة يتكلمون حال غيبتهم عن نفوسهم بكلام لا يليق إلا بالحق تعالى ، أو برسوله ﷺ ، فيظن السامع أنهم يشطحون بذلك ، وحاشاهم من سوء الأدب مع الله تعالى ، أو مع رسوله ﷺ ، اهـ ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به علي: حال اشتغالي بالفقه ، أني لم أجزم قط بما فهمته من كلام إمامي أو مقلديه ، بأن ذلك مراده أو مرادهم ، لأن التكلم على مراد القائل لا يدرك إلا بالكشف ، وليس كل ما يفهمه المقلد مثلاً من كلام المجتهد يكون مراداً للمجتهد قطعاً ، لأنه لو كان مراده نصاً لم تختلف في ذلك الأفهام ، كما هو الحكم في صريح الكتاب والسنة ، ومن تحقق بهذا الخلق قلت منازعته لإخوانه ، ومجادلته لهم بغير حق ، بخلاف من كان بالضد من ذلك ، فإن من لازمه النزاع والجدال.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى ، يقول: لا يتحد اثنان قط في ذوق ولا مقام لوسع كلام الشارع ﷺ ، وما تفرع عنه من استنباط المجتهدين ومقلديهم ، قال: ومن علم ذلك لم يقطع قط بما فهمه ، وإنما يقول: الذي فهمته من هذا الكلام كذا وكذا ، فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمني كما كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول ، وقد يكون من يخطىء غيره في الفهم غير مصيب ، فإن ذلك إنما هو خطأ في نظره هو لا في نظر المتكلم به . اهـ.

وكان الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى يقول: ليس فهم كلام المتكلم أن يفهم الإنسان جميع الوجوه التي تضمنها كلامه بطريق الحصر ، وإنما الفهم أن يفهم ما قصده المتكلم بذلك

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ.

الكلام من قصد جميع الوجوه التي احتوى عليها ذلك اللفظ بحسب ما تواطأ عليه أهل اللسان ، أو بعض تلك الوجوه ، انتهى .

فاعرف يا أخي الفرق بين فهم الكلام والفهم عن المتكلم من حيث مراده الذي هو المطلوب ، فما كل من فهم الكلام فهم مراد المتكلم ، لا سيما مراد الحق تبارك وتعالى من كلامه .

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : إذا كان أحدنا يعجز عن فهم كلام جنسه من البشر فكيف لا يعجز عن فهم كلام رب العالمين ، فلا ينبغي أن يتكلم على معاني القرآن إلا كمل الأولياء من الأئمة المجتهدين ، وكمل العارفين ، على أن الحق قد غفر للأئمة ما أخطؤوا فيه من الفهم والتأويل ، بل جعل لهم الأجر في ذلك حيث بذلوا وسعهم ، ولم يخرجوا عن حد لسان الشارع ، انتهى .

وكان الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى يقول : قد رحم الله هذه الأمة المحمدية بكثرة المذاهب والمجتهدين ، فإذا وجد أحدهم ضيقاً في مذهب انتقل إلى التقليد لمذهب آخر ، لكن قد حجر هذه الرحمة على الأمة من أمر جميع الناس بالتزام مذهب معين لم يعينه الله ولا رسوله ، ولا دل عليه ظاهر كتاب ولا سنة لا صحيحة ولا ضعيفة ، قال : وهذا من أشق الكلف على الأمة ، فالذي وسعه الشرع ضيقه هؤلاء ، اللهم إلا أن يخاف على العامي وقوعه في التخليط إذا لم يلتزم مذهباً معيناً لضعف فهمه عن استخراج الأحكام من الكتاب والسنة ، فهذا يلزمه التقييد بمذهب معين ، انتهى ، فالحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به علي حال اشتغالي بالعلم على الأشياخ حفظي من دعوى العلم والتكبر به على العامة ، فلا استحضر أنني رأيت نفسي قط على أحد من عوام المسلمين ، وذلك لعلمي بأن جميع ما بيدي من النقول ليس هو علمي حقيقة وإنما هو علم من استنبطه واستخرجه ، وما بقي معي إلا الحكاية نحو قولي : رجح فلان كذا ، قال فلان كذا ، أفتى فلان بكذا ، وهذا ليس بعلمي حقيقة .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول : علم الرجل حقيقة هو ما لم يسبق إليه ، وأما من كان علمه مستفاداً من النقل فليس ذلك له بعلم ، إنما هو صاحب لصاحب العالم ، قال : وذلك لأن معنى العلم قائم بالحرف ، والحرف مصاحب للكتابة ، انتهى .

وسمعته أيضاً يقول : كل علم يقبل صاحبه الشبهة فليس هو بعلم ، إنما العلم ما أتى العبد من طريق الإلهام والذوق كما قال تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف : ١٠٨] . وسمعته أيضاً يقول : لا ينتقل مع العبد إلى البرزخ إلا العلم الخالص من الرأي الضعيف الذي لا يشهد له كتاب ولا سنة ، وأما جميع العلوم التي دخل

فيها الرأي والرياء فلا يسمى صاحبها عالماً ، ولا يحشر مع العلماء العاملين ، وسمعته يقول: من علامة الإخلاص في العلم أن لا يثقل عليه الاشتغال به عند طلوع روحه ، ومتى سئل عن مسألة وهو محتضر فقال: إليك عني ، دل على عدم إخلاصه ، فلا فرق عند المخلص بين قول من يقول له قل: أستغفر الله ، أو سبحان الله ، وبين من يقول له: علمني فروض الوضوء على حد سواء ، وهذا الخلق قل من يتخلق به من طلبة العلم ، بل غالبهم يرى الناس كلهم هالكين إلا هو فقط فإن أمرهم بمعروف يأمرهم بنفس فربما قابلت نفسه الأنفس فوقعت الإباية فلم يحصل بذلك ثمرة ، انتهى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما من تبارك وتعالى به عليّ: إذْنُ شيخ الإسلام الشيخ زكريا لي في قراءة الفقه وتدريسه ، وكذلك تفسير الزمخشري[1] والبيضاوي[2]، ثم لما درست كنت أعد نفسي مع الطالب كأني جاهل ، فلا أستحضر يوماً أنني رأيت نفسي شيخاً عليه ، إنما أرى ذلك مذاكرة يفيدني تارة وأفيده أخرى ، وكان على هذا القدم جماعة منهم سيدي عبد الله المنوفي شيخ الشيخ خليل صاحب المختصر ، ومنهم الشيخ عبد الحق السنباطي ، ومنهم الشيخ عبد الرحيم الإيناسي رضي الله تعالى عنهم ، فكانوا يرون إقراءهم العلم إنما هو مذاكرة ، فالحمد لله الذي حصل لي أسوة بهم ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ حال اشتغالي بالعلم: عدم المبادرة إلى القول بتعارض الأدلة أو كلام المجتهدين ، إنما أبادر إلى حمل كل كلام على حال خوفاً أن أرمي من الشريعة شيئاً فيفوتني العمل به. ومن هنا كان بعض العارفين لا يذهب إلى النسخ بالتاريخ بمجرده لاحتمال أن يكون ﷺ فعل أحد الفعلين لبيان الجواز أو الأفضلية اللهم إلا أن يجمع العلماء على القول بالنسخ ، فذلك ظاهر ، قال: ومما يحتمل بيان الأفضلية والجواز مسحه ﷺ على رأسه كاملاً ، ومسح البعض منه في وقت آخر ، فلو أخذنا بالنسخ بالتاريخ لكان أحد المسحين منسوخاً ، لأنه لا بد أن يكون المتأخر واحداً منهما ، انتهى.

وسمعت شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: ليس في كلام الشارع ﷺ تعارض ، لأن كلامه يجل عن ذلك ، فإن أجوبته ﷺ كانت تختلف باختلاف السائلين ومقامهم ، وإلا فأين ما يجيب به السيد أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه مما يجيب به آحاد الناس من الأعراب ، وأيضاً فإنه ﷺ كان مأموراً بأن يخاطب الناس على قدر عقولهم واستعدادهم ، كما يشهد لذلك قوله للجارية التي أراد سيدها عتقها عن الكفارة ، وشكوا في إسلامها «أين الله؟

---

(١) واسمه الكشاف عن حقائق التنزيل للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفى سنة (٥٣٨) هـ. اهـ. كشف الظنون (٢/ ١٤٧).

(٢) واسمه أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير للقاضي البيضاوي المتوفى سنة (٦٨٥) هـ. اهـ. كشف الظنون (١/ ١٨٦).

فقالت: في السماء أو أشارت إلى أنه في السماء فقال ﷺ مؤمنة ورب الكعبة»[1] فأقرها على قولها في السماء، وإن كان ظاهر حالها أنها قصدت التحيز للحق المنزه تبارك وتعالى عنه، وفي القرآن العظيم ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٣] فوافقت الجارية بعض ما أشار إليه القرآن، وإن كان المعنى الحق في ذلك الإشارة إلى أنه تعالى لا يتحيز، أي فكما هو في السماء كذلك هو في الأرض على حد سواء، ولذلك قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[2] أي فكما يطلبه العبد في جهة العلو كذلك ينبغي أن يطلبه في جهة السفل، فالسفل للحق تعالى كالعلو من حيث المكانة لا المكان، لأن كل جهة طلب الحق منها فهي عروج، وإن كانت في السفليات، فافهم.

فعلم أن رسول الله ﷺ ما سأل الجارية بالأينية المستحيلة في حق الله تعالى إلا لعلمه بقصور عقلها عن التنزيه المحض عن مثل ذلك، فكان من حكمته ﷺ أن يتنزل لعقلها، ولو أنه ﷺ كان خاطبها بغير ما تصورته في نفسها لارتفعت القاعدة المطلوبة، ولم يحصل القبول، لكن لما أقرها ﷺ على قولها إنه في السماء، وبانت حكمته ﷺ وقوة علمه، علمنا أنه ليس في قوة هذه الجارية أن تعقل خالقها إلا على قدر ما تصورته في نفسها، فكان من حكمته ﷺ أن سألها بهذه العبارة السابقة، ولذلك قال إنها مؤمنة، أي مصدقة بوجود الله تعالى في السماء، دون قوله إنها عالمة لأن العلم هو معرفة المعلوم على ما هو عليه، وتعالى الله عن التحيز في جهة الفوق دون السفل.

ورأيت في بعض الكتب: «أن عيسى عليه الصلاة والسلام مر على شخص يعمل البراذع، وهو يقول في سجوده يا رب لو علمت أين حمارك الذي تركبه لعملت له برذعة، ورصعتها بالجواهر، فحركه المسيح، وقال ويحك أو لله تعالى حمار، فأوحى تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام دع الرجل فإنه مجدني بقدر وسعه» انتهى.

فمن فهم ما قلناه من تفاوت أفهام الخلق سلم لكل إنسان فهمه، لا سيما إن كان ذلك الشخص مقلداً لغير إمام ذلك المعترض، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به علي حفظي أيام الاشتغال من الجدال ورفع الصوت على رفقتي، فضلاً عن شيخي، بل كنت أتلقى جميع ما أسمعه بالأدب والتسليم من غير تأويل إلا

---

(١) أخرج نحوه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٧)، والنسائي، كتاب السهو، باب الكلام في الصلاة (١٢١٨)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة (٩٣٠)، وأحمد في مسنده (٧٨٤٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢)، والنسائي، كتاب التطبيق، باب أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل (١١٣٧)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود (٨٧٥)، وأحمد في مسنده (٩١٦٥).

في المواضع التي يتعين فيها التأويل ، فما أطلعني الله تبارك وتعالى عليه من المعاني ، قلت به من غير حصر للمعنى في ذلك ، وما لم يطلعني الله تبارك وتعالى على علته أكل علمه إلى الله تعالى ، ولا أقف أتفكر فيه ، لأن المحل غير قابل لذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من توقف في فهم شيء جاء بلغته وعلى لسانه فهو علامة على ظلمة قلبه ، فيجب عليه السعي في تنظيف قلبه من الشهوات والمخالفات ، ثم بعد ذلك لا يصير يتوقف في فهم شيء إلا إن كان ذلك فوق مقامه ، وما كان فوق مقامه لم يكلفه الله تعالى بالعمل به ، إنما يكلفه بقدر ما فهمه ، فقط ، أو فهمه من هو مقلده من العلماء ، فعلم أن من أراد كلام الله تعالى ، وكلام رسوله ﷺ ، والأئمة المجتهدين ، ومقلديهم ، فليعمل على جلاء مرآة قلبه من الصدأ والغبار على يد شيخ مرشد ، ويجمع ذلك طيب المطعم ، والإخلاص ، والتسليم ، وخفض الجناح لعامة المسلمين، وترك البحث والجدال والدعاوى ، وعدم إقامة ميزان عقله وفهمه على كل كلام عسر عليه فهمه ، فإن من سلك هذا الطريق نور الله تعالى قلبه وكشف له عن أسرار الشريعة ودقائقها إذ القلب إذا صفا صار كالمرآة الكرة المصقولة ، فإذا قوبلت بالوجود العلوي والسفلي انطبع جميعه فيها فلا ينسى بعد ذلك شيئاً.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: من رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يكلفهم بفهم علل الأحكام ولا تتبع مشكلاتها وما تشابه منها ، بل ذمهم بقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [البقرة: ٢٦] وبقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧].

وكان يقول أيضاً: كل عمل لم يظهر له الشارع تعليلاً من جهته فالعمل به تعبد محض ، إذ العمل إذا علل ربما يكون الباعث للعبد على العمل حكمة تلك العلة ، لا امتثال أمر الله عز وجل ، وذلك يجرح مقام العبودية ، إذ العبد إنما شأنه امتثال أمر سيده واجتناب نهيه ، قياماً بواجب حق العبودية ، وامتثالاً لأمره تعالى لا لعلة أخرى ، ثم لا يخفى أن مجموع الشريعة افعلوا كذا ، واجتنبوا كذا ، وهذا لا يتوقف في فهمه أحد ، انتهى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تعالى به علي: كثرة مطالعتي لكتب الشريعة وآلاتها بنفسي. ثم مراجعة العلماء لما أشكل علي منها دون الاستقلال بفهمي ، لاحتمال الخطأ ، فطالعت بحمد الله تعالى شرح الروض للشيخ زكريا نحو ثلاثين مرة ، وشرحه لابن سولة مرتين ، وطالعت كتاب الأم للإمام الشافعي[١] ثلاث مرات ، حتى كنت استحضر غالب نصوصه ، وطالعت مختصر

---

(١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٣٩٧) باسم «كتاب الأم».

المزني مرة واحدة ، وطالعت مسند الإمام الشافعي [١]، وشرحه للجاولي [٢] ثلاث مرات ، وطالعت كتاب المحلى لابن حزم في الخلاف العالي [٣] ثلاث مرات ، ومختصرة للشيخ محيي الدين بن العربي [٤] مرة واحدة وهو ثلاثون مجلدة ضخمة ، وطالعت كتاب الحاوي للماوردي [٥] وهو ثلاثون مجلدة ضخمة وطالعت الأحكام السلطانية [٦] له مرة واحدة ، وطالعت فروع ابن الحداد [٧] مرتين ، وطالعت كتاب الشامل لابن الصباغ [٨] مرة واحدة ، وطالعت كتاب المحيط للشيخ أبي محمد الجويني [٩]، وكذلك كتاب الفروق [١٠] له ، ولم يتقيد في كتاب المحيط بمذهب معين وطالعت كتاب الوسيط والبسيط والوجيز للغزالي [١١] مرة واحدة ، وطالعت الرافعي الكبير [١٢] ثلاث مرات ، وطالعت الروضة سبع مرات ، وطالعت شرح المهذب نحو خمسين مرة ، وطالعت تكملة السبكي عليه مرة واحدة ، وهي مجلدة واحدة وطالعت شرح مسلم للنووي [١٣] خمس عشرة مرة ، وطالعت كتاب المهمات للأسنوي [١٤]، والتعقبات لابن العماد [١٥] مرتين ، وطالعت القوت للأذرعي مرة واحدة ، وطالعت الخادم مرتين ونصفاً ، وطالعت العمدة والعجالة كلاهما لابن الملقن [١٦] مرة واحدة ، وطالعت شرح المنهاج لابن قاضي شهبة مرة واحدة ، وطالعت شرح الإرشاد لابن أبي شريف مرة واحدة ، وشرحه للجوجري مرة واحدة ، وطالعت شروح التنبيه لابن يونس

---

(١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٦٨٣).
(٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٦٨٣).
(٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٦١٧) باسم «المحلى في الخلاف العالي».
(٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٦١٧).
(٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٦٢٨) باسم «الحاوي الكبير في الفروع».
(٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ١٩).
(٧) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٠٢٥) باسم «الشامل في فروع الشافعية».
(٨) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٢٥٦) باسم «الفروع في مذهب الشافعي».
(٩) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٦٢١) باسم «كتاب الأم».
(١٠) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٢٥٨) باسم «كتاب الأم».
(١١) «الوسيط في الفروع» ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ٢٠٠٨).
«البسيط في الفروع» ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٢٤٥).
«الوجيز في الفروع» ذكره حاجي خليفة في شكف الظنون (٢/ ٢٠٠٢).
(١٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ٢٠٠٣).
(١٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٥٧).
(١٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٩١٤) باسم «المهمات على الروضة».
(١٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٩١٥) باسم «التعليق على المهمات».
(١٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٦٢٦).

والزنكلوني ، ولابن الملقن ، وللجلال السيوطي مرة واحدة ، وطالعت شرح المنهاج للجلال المحلي مع تصحيح ابن قاضي عجلون نحو ثلاثين مرة ، وطالعت شرح البهجة للشيخ ولي الدين العراقي[1] مرات ، وشرحها للشيخ زكريا مرة واحدة [2]، وطالعت قواعد الشيخ عز الدين الكبرى والصغرى نحو خمس مرات ، وقواعد العلائي مرة واحدة ، وقواعد الزركشي ثلاث مرات ، ثم اختصرتها ، وطالعت الأشباه والنظائر لابن السبكي[3] مرة ، وطالعت الألغاز للأسنوي مرة واحدة ، وغير ذلك من الكتب المشهورة في الفقه وتوابعه.

وطالعت من شروح الأحاديث كثيراً ، فطالعت كتاب فتح الباري على البخاري[4] مرة واحدة، وشرح الكرماني[5] مرتين ، وشرح البرماوي[6] خمس مرات ، والعيني[7] مرتين ، وشرح القسطلاني[8] مرة ونصفاً ، وطالعت شرح مسلم للقاضي عياض[9] مرة واحدة ، وطالعت شرحه للشيخ زكريا[10] نحو خمس مرات ، وغالب مسودته بخطي كما مر بيانه آنفاً ، وطالعت شرح الترمذي لابن المقري المالكي [11]، ونسخه في مصر قليلة ، وفي الإسكندرية نسخة واحدة.

وطالعت من كتب التفسير للقرآن غالب التفاسير المشهورة ، فطالعت تفسير البغوي[12] مرة ، وتفسير الخازن[13] ثلاث مرات ، وتفسير ابن عادل[14] سبع مرات ، وتفسير الكواشي[15] عشر مرات ، وتفسير ابن زهرة مرة [16]، وتفسير

---

(١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٦٢٦).
(٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ؟؟
(٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (/ ١٠٠).
(٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٤٧).
(٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٤٦).
(٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (/ ٥٤٧).
(٧) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٤٨).
(٨) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٥٢).
(٩) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٥٧).
(١٠) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٥٨).
(١١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٥٩).
(١٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٧٢٦) باسم «معالم التنزيل في التفسير».
(١٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٥٤٠) باسم «لباب التأويل في معاني التنزيل».
(١٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٥٤٣) باسم «اللباب في علوم الكتاب».
(١٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٣٣٩) باسم «التبصرة في التفسير».
(١٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٤٣٨).

القرطبي[١] مرتين ، وتفسير ابن كثير[٢] مرة ، وتفسير البيضاوي[٣] خمس مرات وتفسير ابن النقيب المقدسي[٤] مرة وهو مائة مجلدة ضخمة ، ما طالعت أوسع منه ، وطالعت تفسيري الإمام الواحدي البسيط[٥] والوجيز[٦]، وتفسيري الشيخ عبد العزيز الديريني الكبير والصغير[٧] ثلاث مرات ، وطالعت تفسير الجلالين[٨] نحو ثلاثين مرة ، وطالعت تفسير الجلال السيوطي الكبير المسمى بالدر المنثور[٩] ثلاث مرات ، وطالعت تفسير الإمام سنيد بن عبد الله الأزدي يروي عن وكيع ، وهو تفسير نفيس وقد تطلبه الشيخ جلال الدين السيوطي عشرين سنة فلم يظفر بنسخة منه ، ثم جردت أحاديثه وآثاره في مجلد ، وطالعت تفسير الزمخشري بحواشيه[١٠] مرة ، وأعظمها حاشية الطيبي[١١]، وكان محدثاً صوفياً نحوياً فقيهاً أصولياً ، وقل أن تجتمع هذه الصفات في عالم ، وكذلك طالعت عليه كتاب الانتصاف لابن المنير[١٢]، وهو مبين لمواضع الاعتزال منه ، وكذلك طالعت كتاب الانصاف للعراقي[١٣] الذي جعله حكماً بين الكشاف والانتصاف ، وقد اختصره ابن هشام[١٤] في مؤلفه وطالعته كذلك ، وكذلك طالعت البحر لأبي حيان[١٥] الذي ناقش فيه الزمخشري من حيث الإعراب ، وكذلك طالعت عليه إعراب تلميذه أحمد بن يوسف الحلبي الشهير بالسمين[١٦]، وكذلك طالعت عليه إعراب السفاقسي ، وكذلك طالعت عليه حاشية الشيخ

---

(١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٣٤) باسم «جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان».
(٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٤٣٩).
(٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ١٨٦) باسم «أنوار التنزيل وأسرار التأويل».
(٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٣٥٨) باسم «التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير».
(٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٢٤٥).
(٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ٢٠٠٢).
(٧) ذكره الزركلي في الأعلام (٤/ ١٣).
(٨) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٤٤٥).
(٩) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٧٣٣).
(١٠) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٥) باسم «الكشاف عن حقائق التنزيل».
(١١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٨).
(١٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٧).
(١٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٧).
(١٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٧).
(١٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٢٢٦) باسم «البحر المحيط في التفسير».
(١٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٧).

قطب الدين الشيرازي [1]، وقطعة من حاشية الشيخ فخر الدين الجاربردي[2] وقطعة من حاشية الشيخ أكمل الدين البابرتي[3]، وهي في مجلدين إلى أثناء سورة البقرة ، ولا أدري هل أكملها أم لا ، وكذلك الشيخ سعد الدين لم يتم حاشيته[4]، وكذلك السيد الجرجاني[5] فيما أظن ، وكذلك طالعت عليه حاشية أبي زرعة العراقي [6]، وهي مجلدتان لخص فيها كلام ابن المنير ، والعلم العراقي ، وأبي حيان ، وأجوبة السمين ، والسفاقسي ، مع زيادة تخريج أحاديثه ، وطالعت تفسير البيضاوي مع حاشية الشيخ زكريا عليه خمس مرات ، فهذا ما طالعته على الكشاف ، وقل من تيسر له مطالعة جميع هذه التفاسير والحواشي ، وكان الله تعالى قد سخر لي الشيخ شمس الدين المظفري يأتيني بكل كتاب طلبته من خزائن مصر ، فجزاه الله تعالى عني خيراً.

وطالعت من كتب الحديث وأدلة المذاهب ما لا أحصي له عدداً ، فمن جملة ما طالعته الكتب الستة [7]، وصحيح ابن خزيمة[8]، وصحيح ابن حبان[9]، ومسند الإمام أحمد[10]، وموطأ الإمام مالك ، ومعاجم الطبراني الثلاثة[11]، وكتاب جامع الأصول لابن الأثير[12]، وطالعت الجامع الكبير للشيخ جلال الدين السيوطي[13]، وكذلك الجامع الصغير وزيادته[14] وهي عشرة آلاف حديث ، ولا يكاد يخرج من الشريعة عن أحاديث هذه الكتب شيء إلا نادراً ، فهي أجمع كتاب صنف بعد سنن البيهقي في الأدلة ، وكذلك طالعت السنن الكبرى للبيهقي [15]، ثم اختصرتها بحذف السند والمكرر دون الأحكام ، وكذلك طالعت كتاب

(١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٧).

(٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٧).

(٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٧).

(٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٨).

(٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٩).

(٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٩).

(٧) وهي صحيح البخاري ، ومسلم ، وسنن الترمذي ، وأبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه.

(٨) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٠٧٥).

(٩) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٠٧٥).

(١٠) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٦٨٠).

(١١) قصد بها الصغير والأوسط والكبير ، ذكرها في كشف الظنون (٢/ ١٧٣٧).

(١٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٣٥).

(١٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥٦٠).

(١٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ٥٦٠).

(١٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٠٠٧).

المنتقى من الأحكام لابن تيمية [١]، وهو الشيخ مجد الدين ، وليس هو الشيخ تقي الدين صاحب المحنة ، وهو أصل مسودة كتابي المسمى بكشف الغمة عن جميع [٢] الأمة وكذلك طالعت كتاب الهدى النبوي لابن القيم ، ثم اختصرته ، وطالعت دلائل النبوة للبيهقي [٣]، وكتاب المعجزات والخصائص للشيخ جلال الدين السيوطي [٤]، ثم اختصرتها ، وغير ذلك مما لا أحصي له عدداً من الأجزاء والمسانيد.

وطالعت من كتب اللغة صحاح الجوهري [٥] ، والقاموس [٦] ، والنهاية لابن الأثير [٧]، وكتاب تهذيب الأسماء واللغات للنووي [٨]، وقد طالعته خمس عشرة مرة.

وطالعت من كتب الأصول والكلام كثيراً ، فمن جملة ما طالعته شرح العضد [٩]، وشرح منهاج البيضاوي [١٠]، وكتاب المستصفى للغزالي [١١]، وكتاب الأمالي لإمام الحرمين ، وشرح المقاصد [١٢]، وكتاب شرح الطوالع والمطالع [١٣]، وكتاب سراج العقول للقزويني [١٤]، وشرح العقائد للتفتازاني [١٥]، وحاشيته لابن أبي شريف [١٦]، وغير ذلك.

وطالعت من فتاوى العلماء في وقائع الأحوال من المتقدمين والمتأخرين ما لا أحصي له عدداً ، كفتاوى ابن أبي زيد المروزي .وفتاوى القفال [١٧]، وفتاوى القاضي حسين [١٨]،

---

(١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٨٥١).
(٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٩٢).
(٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٧٦٠).
(٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٧٠٥) باسم «الخصائص النبوية».
(٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٠٧١).
(٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٣٠٦) باسم «القاموس المحيط والقاموس الوسيط».
(٧) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٩٨٩).
(٨) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٥١٤).
(٩) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٨٥٤).
(١٠) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٨٧٨) باسم «منهاج الوصول إلى علم الأصول».
(١١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٦٧٣).
(١٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١١٨٢).
(١٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١١١٦).
(١٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٨٧٩).
(١٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٣٤٨).
(١٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٣٤٨).
(١٧) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٢٢٨).
(١٨) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٢٢٧).

وفتاوى الماوردي ، وفتاوى الغزالي[1] ، وإمامه ، وفتاوى ابن الصباغ[2] ، وفتاوى ابن الصلاح[3] ، وفتاوى ابن عبد السلام[4] ، وفتاوى النووي[5] ، وفتاوى السبكي[6] ، وفتاوى البلقيني[7] ، وفتاوى الشيخ زكريا[8] ، وفتاوى الشيخ شهاب الدين الرملي ، وغير ذلك.

وطالعت من كتب القواعد قواعد الشيخ عز الدين الكبرى[9] والصغرى[10] ، وقواعد العلائي[11] ، وقواعد ابن السبكي ، وقواعد الزركشي[12] ، وهي أجمع القواعد وأوضحها عبارة ، وقد اختصرتها كما مر من غير حذف شيء من أحكامها الصحيحة ، ثم إني جمعت هذه القواعد كلها في كتاب واحد ، وحذفت المتداخل منها فجاء كتاباً نفيساً ، وكذلك فعلت في كتب الفتاوى ، وقد سارت الركبان بنسخة من الفتاوى إلى بلاد التكرور.

وطالعت من كتب السيرة سيرة ابن هشام[13] ، وسيرة ابن إسحاق[14] ، وسيرة الكلبي ، وسيرة أبي الحسن البكري ونظرت على مواضع منها ، وسيرة الطبري[15] ، وسيرة الكلاعي[16] ، وسيرة ابن سيد الناس[17] ، وسيرة الشيخ محمد الشامي التي جمعها من ألف كتاب ، وهي أجمع كتاب في السير فيما أظن.

---

(١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٢٢٧).

(٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٢١٨).

(٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٢١٨).

(٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٢١٩).

(٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٢٢٨).

(٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٢٢٣).

(٧) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٢٢١).

(٨) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٢٢٤).

(٩) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٣٥٩).

(١٠) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٣٦٠).

(١١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٣٥٨).

(١٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٣٥٩) باسم «القواعد في الفروع».

(١٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٠١٢).

(١٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٦٠) باسم «كتاب المغازي».

(١٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٠١٥) باسم «سيرة النبي ﷺ».

(١٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ١٤١) باسم «الاكتفا في مغازي المصطفى ﷺ والخلفاء الثلاثة».

(١٧) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١١٨٣) باسم «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير».

وطالعت من كتب التصوف والرقائق ما لا أحصي له عدداً ، فمن جملة ما طالعته كتاب القوت لأبي طالب المكي ، وكتاب الرعاية للحارث المحاسبي(١) وكتاب الحلية لأبي نعيم(٢)، وكتاب رسالة القشيري(٣)، وكتاب عوارف المعارف للسهروردي(٤)، والإحياء للغزالي ، وكتب اليافعي كلها ، وكتاب الفتوحات المكية للشيخ محيي الدين ، ثم اختصرتها وحذفت المواضع المدسوسة على الشيخ فيها ، وطالعت رسالة النور للشيخ أحمد الزاهد(٥)، وهي مجلدتان ، وطالعت كتاب منح المنة لتلميذه سيدي محمد الغمري(٦)، وهي ست مجلدات ، وكتاب منازل السائرين للهروي(٧)، وشرح الفصوص للقاشاني(٨)، وكتاب شعب الإيمان للقصري ، وغير ذلك.

فهذا ما استحضرته الآن من الكتب التي طالعتها ، وما أظن أحداً في عصري هذا أحاط بها علماً أبداً ، وقد كتب بعض الحسدة سؤالاً يتعلق ببعض كلمات في كتاب العهود ، وقدمه إلى شيخ الاسلام الشيخ شهاب الدين الحنبلي الفتوحي رضي الله تعالى عنه ، فامتنع من الكتابة عليه ، وقال كيف أكتب على سؤال يتعلق بشخص طالع من الكتب ما لا أعرف له اسماً ، فضلاً عن الخوض فيها مع أنه لو ادعى تأليفها لم يجد له في مصر منازعاً ، انتهى ، مع أن ما سئل عنه ليس في شيء من كتبي بحمد الله تعالى ، إنما هو افتراء عليّ ، وقد كتب بعض المتهورين عليه كتابة كلها خطأ فالله تعالى يغفر له ما جناه ، ورضي الله تبارك وتعالى عن أهل الإنصاف ، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ: مطالعتي لكتب أئمة المذاهب الثلاثة زيادة على مذهبي ، وذلك لما تبحرت في مذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه وأرضاه احتجت إلى معرفة المسائل المجمع عليها بين الأئمة أو التي اتفق عليها ثلاثة منهم ، وذلك لأجتنب العمل بما منعوه ، وأمتثل أمرهم فيما أمرونا به ، وإن لم يكن مذهبي فأعمل بما أجمعوا عليه ، أو اتفق عليه ثلاثة منهم على وجه الاعتناء والتأكيد أكثر مما انفرد به واحد أو اثنان ،

---

(١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٩٠٨) باسم «الرعاية في التصوف».
(٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٦٨٩) باسم «حلية الأولياء».
(٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٨٨٢) باسم «الرسالة القشيرية».
(٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١١٧٧).
(٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٨٩٦).
(٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٨٦٠) باسم «منح المنة في التلبيس بالسنة».
(٧) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٨٢٨) باسم «منازل السائرين إلى الحق المبين».
(٨) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ٢٠٠٨) باسم «مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم».

لأن ما أجمعوا عليه ملحق بنصوص الشارع ﷺ فمما طالعته من كتب الحنفية شرح الكنز[١]، وشرح مجمع البحرين[٢] والحدادي ، وفتاوى قاضي خان[٣]، وشرح القدوري[٤]، والبزازية[٥]، والخلاصة[٦]، وشرح الهداية[٧]، وتخريج أحاديثها للحافظ الزيلعي[٨] وهو كافل بأدلة الحنفية كلها ، وكنت أراجع في مشكلات هذه الكتب الشيخ نور الدين الطرابلسي ، والشيخ شهاب بن الشلبي ، والشيخ شمس الدين الغزي الكبير ، وغيرهم ، رضي الله تعالى عنهم.

وطالعت من كتب المالكية المدونة الكبرى[٩]، ثم اختصرتها وهي عشر مجلدات ، وطالعت كتاب الموطأ[١٠]، وشروح رسالة ابن أبي زيد[١١]، وشرح مختصر الشيخ خليل[١٢] وكتب ابن عرفة ، وابن فرحون ، وكانت مطالعتي للمدونة بإشارة رسول الله ﷺ ، وكنت أراجع في مشكلات هذه الكتب الشيخ شمس الدين اللقاني ، والشيخ شرف الدين الحطاب ، والأخ الصالح الشيخ عبد الرحمن الأجهوري ، وغيرهم ، رضي الله تعالى عنهم.

---

(١) كنز الداقائق للإما حافظ الدين النسفي ، أحسن مختصر صنف في فقه الأئمة الحنفية وقد وضعوا له شروحاً أحسنها التبين للزيلعي. كشف الظنون (٢/ ١٥١٥).

(٢) شرح مجمع البحرين وملتقى النهرين كلاهما لابن الساعاتي المتوفى سنة (٦٩٤) هـ. كشف الظنون (٢/ ١٦٠٠).

(٣) فتاوى قاضي خان للإمام فخر الدين حسن بن منصور الأوزهندي. كشف الظنون (٢/ ١٢٢٧).

(٤) مختصر القدوري في فروع الحنفية للإمام أبي الحسين أحمد بن محمد القدوري (٤٢٨) هـ. كشف الظنون (٢/ ١٦٣١).

(٥) الجامع الوجيز (الفتاوى البزازية) لمحمد بن محمد بن شهاب الكردي الخوارزمي الشهير بالبرازي المتوفى سنة (٨٢٧) هـ. كشف الظنون (١/ ٢٤٢).

(٦) خلاصة الفتاوى للشيخ الرشيد البخاري المتوفى سنة (٥٤٢) هـ. كشف الظنون (١/ ٧١٨).

(٧) الهداية في شرح البداية للمرغيناني المتوفى سنة (٥٩٣) هـ. كشف الظنون (٢/ ٢٠٣١) هـ.

(٨) نصب الراية لأحاديث الهداية للشيخ جمال الدين الزيلعي المتوفى سنة (٧٦٢) هـ. كشف الظنون (٢/ ٢٠٣٦).

(٩) المدونة في فروع المالكية لأبي عبد الله عبد الرحمن بن القاسم المالكي المتوفى سنة (١٩١) هـ. كشف الظنون (٢/ ١٦٤٤).

(١٠) الموطأ في الحديث لإمام دار الهجرة مالك بن أنس الحميري الأصبحي المتوفى سنة (١٧٩) هـ. كشف الظنون (٢/ ١٩٠٧).

(١١) رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي ، للإمام أبي محمد عبد الله بن أبي زيد المالكي القيراوني ، المتوفى سنة (٣٨٩) هـ. كشف الظنون (١/ ٨٤١).

(١٢) مختصر الشيخ خليل في فروع المالكية للإمام خليل بن إسحاق الجندي المتوفى سنة (٧٦٧) هـ. كشف الظنون (٢/ ١٦٢٨).

وطالعت من كتب الحنابلة: الخرقي[1]، وعدة مختصرات ، قالوا: ولم يدون الإمام أحمد له مذهباً ، وإنما مذهبه الآن ملفق من صدور أصحابه ، فإنه كان مذهبه الحديث ، وكان يقول: أستحيي من رسول الله ﷺ أن أتكلم في معنى كلامه ، فقد لا يكون ذلك مراده ، رضي الله تعالى عنه ، وكان رضي الله تعالى عنه يقول: أو لأحد كلام مع رسول الله ﷺ ، وبلغنا أنه وضع في أحكام الصلاة نحو ثلاثين مسألة.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: أنه تعالى أعطاني الفهم في القرآن العظيم ، وهو مقام عظيم قل من أعطيه من الفقراء.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول: أعطيت استخراج العلوم من القرآن العظيم ، من فقه وأصول ونحو ومعان وبيان وجدل وعروض وغير ذلك ، فلو جلس إلي منصف ، نظيف القلب من الأدناس ، خال من الحسد ، لبينت له مادة كل علم ، وأوضحت له ذلك ، حتى لا يبقى عنده في ذلك شك ، ولكن السالم مما ذكرناه قليل وجوده ، انتهى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة توجيهي وتقريري لجميع مذاهب المجتهدين حين تبحرت في علومهم ، حتى كأني في حال تقريري لها واحد منهم ، وربما ظن الداخل عليّ وأنا أقرر في مذهب ذلك الإمام أنني حنفي أو حنبلي أو مالكي ، والحال أنني مقلد للإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، وذلك لإحاطتي بمنازع أقوال الأئمة رضي الله تعالى عنهم ، واطلاعي على أدلتها ، وربما قال بعض المتهورين عني: إن فلاناً لا يتقيد بمذهب على وجه الذم والتنقيص ، والحال أنني إنما أقرر مذاهب الأئمة لوسع اطلاعي ، لا تهوراً في الدين ، وتتبعاً للرخص ، وأصل ذلك أني لما صنفت كتب أدلة المذاهب ، رأيت جميع المجتهدين لا يخرجون عن السنة في شيء ، إنما هم بين مشدد ومخفف ، فمنهم من أخذ بصريح الحديث أو القرآن ، ومنهم من أخذ بمفهومها ، ومنهم من أخذ بما استنبط منهما ، ومنهم من أخذ بما استنبط من ذلك المفهوم ، ومنهم من أخذ بالقياس الصحيح على الأصل الصحيح ، فكأن مذاهبهم رضي الله تعالى عنهم منسوجة من الشريعة المطهرة ، سداها ولحمتها منها.

وقد وضعت في الجمع بين أقوال الأئمة رضي الله تعالى عنهم أجمعين ميزاناً ترجع جميع مذاهب المجتهدين ، وأقوال مقلديهم إلى الشريعة المطهرة ، لم أجد لها ذائقاً من أهل عصري ، وقد استعارها الشيخ شهاب الدين شلبي الحنفي ، فمكثت عنده أياماً ثم أتاني بها ،

---

(١) مختصر الخرقي في فروع الحنبلية للإمام أبي القاسم عمر بن الحسين الحنبلي المتوفى سنة (٣٣٤) هـ. كشف الظنون (٢/ ١٧٥١).

وقال: هذه خصوصية لك ، فإني لم أقدر أخرج عن دائرة كلام مذهبي ، فقلت له: فهل هي باطلة ، فقال: صولة كلامها ليست بصولة مبطل ، انتهى.

وقد عرضتها على سيدنا ومولانا أبي العباس الخضر عليه السلام فأجازها ، وقال لي: هذا أمر لا يحيط به إلا من نظر الشريعة بعين الكمال ، واطلع على العين التي يتفرع منها كل مذهب ، وقليل من أولياء الله تبارك وتعالى من أحاط بذلك ، انتهى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ: تأليفي كتباً كثيرة في الشريعة ، وغالبها أبتكر به ولم أسبق إليه [1]، وذلك ككتاب البحر المورود في المواثيق والعهود ، وكتاب كشف الغمة عن جميع الأمة ، جمعت فيه أدلة المذاهب الأربعة من غير عزو إلى من خرجها من الحفاظ ، اكتفاء بعلم أهل كل مذهب بمن خرج دليلهم ، ثم صنفت بعده كتاب المنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين ، عزوت فيه كل حديث إلى من رواه ، فكان كالتخريج لأحاديث كتاب كشف الغمة ، وكتاب البدر المنير في غريب أحاديث البشير النذير ، وكتاب مشارق الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية ، جمعت فيه أحاديث الترغيب والترهيب ، وجعلته على قسمين: مأمورات ومنهيات ، فدخل في المأمور المندوب ، ودخل في المنهي المكروه ، وهو كتاب نفيس ، وصنفت كتاب لواقح الأنوار القدسية في مختصر الفتوحات المكية ، وكتاب قواعد الصوفية ، وكتاب مختصر قواعد الزركشي ، وكتاب منهاج الوصول إلى علم الأصول ، جمعت فيه بين شرح الجلال المحلي لجمع الجوامع ، وحاشية ابن أبي شريف ، وكتاب اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر ، وكتاب الجوهر المصون في علوم كتاب الله المكنون ، وهو مشتمل على نحو ثلاثة آلاف علم منثورة على سور القرآن ، وكتاب طبقات الصوفية ، وهي من أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى ختام سنة ستين وتسعمائة ، ذكرت فيه مناقب كل من كان له كلام أحفظه في الحقيقة أو الشريعة لا غير ، وذكرت فيه العلماء الأحياء والفقراء الأحياء الذين وقع لي بهم صحبة ، ومما صنفته كتاب مفحم الأكباد في بيان مواد الاجتهاد ، وكتاب لوائح الخذلان على كل من لم يعمل بالقرآن ، وكتاب حد الحسام على من أوجب العمل بالإلهام ، وكتاب التتبع والفحص على حكم الإلهام إذا خالف النص ، وكتاب البروق الخواطف لبصر من عمل بالهواتف ، وكتاب رسالة الأنوار في آداب العبودية ، وكتاب كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان ، وهي نيف وسبعون سؤالاً في التوحيد سألني عنها علماء الجان ، وكتاب فرائد القلائد في علم العقائد ، وكتاب الجوهر والدرر ، جمعت فيه ما سمعته من العلوم والأسرار من سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى ، وكتاب الكبريت

---

(١) انظر الكلام على مؤلفاته رحمه الله تعالى في المقدمة.

الأحمر في بيان علوم الكشف الأكبر ، وكتاب الاقتباس في علم القياس ، وكتاب تنبيه المغترين في القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر ، وغير ذلك مما سارت به الركبان إلى بلاد التكرور والمغرب ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إجازة العلماء من أهل المذاهب الأربعة لمؤلفاتي ، ومدحهم لها خلاف ما أشاعه بعض الحسدة في مصر والحجاز وغيرهما من امتناعهم من الكتابة على مؤلفاتي ، أو رجوعهم عن الكتابة عليها ، وسبب ذلك أنهم استعاروا مني بعض كتب ليكتبوها فدسوا فيها عقائد زائفة ، ومسائل خارقة للإجماع ، ونسبوها إلي ، ودارت تلك المسائل في مصر نحو سنة وأنا لا أشعر ، فحصل بذلك رج في البلد ، وسيأتي في هذه المنن براءتي عند العلماء مما دسوه ، حين أرسلت لهم النسخ التي عليها خطوطهم ، فالله يغفر لهؤلاء الحسدة ما جنوه ، آمين.

فمن جملة ما كتبه الشيخ شهاب الدين الرملي الشافعي رضي الله تعالى عنه على كتاب كشف الغمة ، بعد الحمد والشهادتين: وبعد فقد وقفت على هذا المؤلف الغريب ، والمجموع العجيب ، فرأيته كتاباً لا ينكر فضله ، ولا يختلف اثنان في أنه ما صنف مثله.

ومن جملة ما كتبه شيخ الإسلام نور الدين الطرابلسي الحنفي رضي الله تعالى عنه ، وبعد: فقد وفق العبد الضعيف ، على هذا المجموع اللطيف ، المفرد المنيف ، وتأملته فإذا هو محتو على نخب حقائق العارفين ، وزبد كنوز الواصلين ، ولقد توج مؤلفه بتاج لطائف التحقيق ، معارف رؤوس أهل الطريق ، وأوضح لهم منها الطريق ، ولقد أبدع مؤلفه وأغرب ، وأتى بما هو من العجاب أعجب ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه الشيخ شهاب الدين بن الشلبي الحنفي ، وبعد: فقد وقفت على هذا المؤلف السعيد ، والدر النضيد ، والعقد الفريد ، فلله دره من مؤلف جل مقداره ، وطفحت بالسنة أسراره ، وهمعت من سحب الفضل أمطاره ، ولاحت في سماء الشريعة شموسه وأقماره ، فجزى الله مؤلفه خير الجزاء في الدارين ، وجعلني وإياه من خير الفريقين ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه الشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وبعد: فقد استجليت هذا الكتاب النفيس ، فوجدته قد حوى المقاصد الدينية ، والأصول العلمية فمن العقائد الصحيحة نفيسها ، ومن آداب القوم مليحها ، ومن علومهم شريفها ، ومن السنة ظريفها ، ومن الإشارات الربانية لطيفها ، فجزى الله تعالى مؤلفه أفضل الجزاء ، ونشر علومه على أهل الدراية والصفاء ، ولا غرو أن يصدر عن بحره هذه الجواهر ، وعن مدده هذه النجوم الزواهر ، فإنه علامة الزمان ، وصاحب المناقب والمفاخر ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ ناصر الدين اللقاني عليه رضي الله تعالى عنه ، وبعد: فقد

وقفت على هذا المصنف الشريف ، البديع التأليف ، المشتمل على أسلوب عجيب ، ونظام غريب ، لم ينسج أحد على منواله ، ولم تسمح قريحة بمثاله ، قد اشتمل على لطائف أسرار ربانية ، وبدائع حكم إلهية ، أوصلها الكريم الجواد من عنده ، وأفاضها الوهاب على عبده ، جعله الله تعالى علماً للمهتدين ، وقدوة للسالكين ، وبحراً يغترف من علومه ظماء المسترشدين ، وبدراً يستضيء بنوره طلاب اليقين ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه شيخ الإسلام الفتوحي الحنبلي رحمه الله تعالى ، وبعد: فقد وقفت على هذا المؤلف الفريد ، الجامع بين الطارف والتليد ، الجامع لفنون من العلوم متفرقة ، المشتمل على مسائل لم توجد في غيره محققة ، فانشرح صدري به غاية الانشراح ، لما أودع فيه من المعاني الرشيقة ، والأقوال الصحاح ، وأعدت نظري فيه المرة بعد المرة ، فإذا تحت كل ذرة منه درة ، فيا له من مؤلف عزيز المثال ، لم ينسج له فيما أظن قبل ولابعد على منوال ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه الشيخ عبد القادر المالكي الشاذلي رضي الله تعالى عنه ، وبعد: فقد اطلعت على هذا الكتاب المسمى بكشف الغمة ، عن جميع الأمة ، فوجدته كتاباً كريماً ، وصراطاً مستقيماً ، ونوراً ساطعاً عظيماً ، ورأيت فيه من غرائب الحديث وعجائبه ما لا تسعه مجلدات كثيرة ، مع اختصاره في حجم لطيف ، وأوراق يسيرة ، فللّه دره من كتاب عظمت فيه المنة ، وكشف الله به الغمة ، وهدى به الأمة ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ شهاب الدين عميرة الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وبعد: فقد وقفت على هذا المؤلف العظيم الشأن البديع في المعاني والبيان ، فوجدته مشتملاً على حقائق هي خلاصة أنظار المتقدمين ، ودقائق هي نتيجة أفكار المناظرين إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ شهاب الدين الرملي الشافعي رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، على كتاب المنهج المبين ، في بيان أدلة المجتهدين ، وبعد: فقد اطلع كاتبه على هذا المؤلف الشريف ، والمجموع اللطيف ، الحاوي لجميع أدلة المجتهدين ، والقامع للطغاة والمبتدعين ، فجزى الله تعالى مؤلفه خيراً ، وكفاه وصماً وضيراً ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ ناصر الدين الطبلاوي رحمة الله تعالى عليه ، وبعد: فقد تشرفت باطلاعي على هذا الكتاب العجيب ، والأسلوب الغريب ، المسمى بالمنهج المبين ، فإذا هو كتاب طابق اسمه مسماه ، لأنه قد حوى من السنة ثمرات مقاصد العارفين ، وانطوى منها على قواعد وفوائد ترشد الحائرين ، وتوصل المنقطعين ، قد أتقن فنون الشريعة واستقصاها ، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فالله تعالى يديم حديث مؤلفه في العالمين ، وينشر فضائله على الخافقين. آمين.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ شهاب الدين البهوتي الحنبلي رحمه الله تعالى ، وبعد ،

فقد اطلعت على هذا الكتاب العظيم ، والمؤلف الجسيم ، المنتقى من أصول كتب الحديث المعتمد عليها في أحكام الدين ، ولقد كان لهذه الأمة أجمع حاجة إلى ما وعاه هذا المهذب وجمع ، وأنت خبير بأن الله تعالى قد جمع لمؤلفه بين الحال والقال ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ شمس الدين البرهمتوشي الحنفي رحمه الله ، وبعد ، فقد وقفت على هذا المؤلف المنيف ، والكتاب الشريف ، الجامع من السنة النبوية ، والعقائد المرضية ، ما تقر به أعين المؤمنين ، وتذهب به ظنون الأغبياء الملحدين ، فجزى الله تعالى مؤلفه خيراً ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ ناصر الدين اللقاني المالكي رضي الله تعالى عنه ، وبعد: فقد وقفت على هذا المؤلف العظيم الشأن ، فإذا هو فلك مشحون بدرر فرائد الفوائد ، أو فلك مرصع بكل كوكب دري توقد بالنكت والقواعد ، وكيف لا يكون كذلك ومؤلفه المحقق الفهامة ، شيخ الحقيقة ، وأستاذ الطريقة ، الجامع بين المنقول والمعقول ، والمرجع والتعويل عليه فيما يفتي ويقول ، سيدنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ أبو محمد عبد الوهاب الشعراني ، الشافعي ، المرشد ، المسلك ، المربي ، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته ، وحشرنا في زمرته ، إلى آخر ما قال ، ولما اجتمعت به قال لي: إنما صرحت باسمك ومدحتك تكذيباً لمن أشاع عني أنني لا أعتقدك ، رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

ومن جملة ما كتبه شيخ الإسلام الفتوحي الحنبلي رضي الله تعالى عنه ، على كتاب العهود ، وبعد: فقد اطلعت على هذا البحر العجاج ، المتلاطم بالأمواج ، فسبحت فيه وابتهجت بنفائس درره غاية الابتهاج ، وغصته فظفرت بجواهر فوائده التي أنا لها محتاج ، ووردته ورود ظمآن أتى إليه من بعد فجاج ، وتأملته المرة بعد المرة ، فإذا تحت كل ذرة منه درة ، قد اشتمل من الفوائد على أدناها وأقصاها ، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فهو مؤلف فريد في فنه وصنفه ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يقدح في معانيه إلا جاهل أو معاند ، أو حائد عن طريق الحق لأجل غرضه الفاسد ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ ناصر الدين اللقاني المالكي رحمه الله تعالى الرحمة الواسعة ، وبعد: فقد اطلعت على هذا المؤلف المشتمل على حقائق ورقائق ، ونكت لطيفة ودقائق ، حقيقة أن تكتب بماء الذهب ، بل بسواد العيون ، وأن تشترى بنفائس الأرواح لا بنقد العيون ، لما فيه من الحكم وآداب السلوك ، وخلاصة الإخلاص المذهبة للأوهام والشكوك ، وكفى هذا المصنف شرفاً أن لسان حاله وقاله ناطق بفضله وعلو شأنه ، بحيث إن الناظر في تلك العهود ، يكاد يمزق مألوف نفسه المعهود ، وما هي إلا منح ربانية ، ومواهب قدسية ، خص بها الكريم الوهاب ، عبده الأواب ، حشرني الله في زمرته ، ونفعني في الدارين ببركته ، وأفاض علينا من مدده ، وعمر قلوبنا بوده ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه آخر هذا الكتاب لما أشاع بعض الحسدة أن الشيخ ناصر الدين اللقاني رجع عن كتابته على كتاب العهود ، وبعد : فما نسب إلى العبد من الرجوع عما كتبه على هذا الكتاب وغيره من مؤلفات الشيخ فلان باطل باطل باطل ، فوالله ما رجعت عن ذلك ولا عزمت عليه ، ولا اعتقدت في كلامه شيئاً من الباطل ، وأنا معتقد صحة مقاله ، باقٍ على ذلك ، وإني أدين الله تعالى بالاعتقاد في صحة كلامه وولايته ، والقصد من فضله أن لا يصدق في أمري شيئاً مما لعله ينسب إلي على ألسنة الذين لا يخشون الله تعالى ، انتهى بالمعنى في البعض من جهة الضمائر.

ومن جملة ما كتبه الشيخ شهاب الدين بن الشلبي الحنفي رحمة الله عليه ، وبعد: فقد وقفت على هذا المؤلف الذي هو تحفة المريد وروضة الأحباب ، فإذا البحر يعب عبابه ، لأنه مترع يحلو لأهل الطريق شرابه ، فوردت ماء فضله الصافي ، وترديت برداء محاسنه الصافي ، فالله تعالى يبقي مؤلفه إماماً يصطف خلفه المريدون ، ليؤمهم بنوافل فضائله وبره ، ولا برح جيد الزمان ، حالياً بوجوده ، والناس ناطقون بحمده وشكره ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ شهاب الدين الرملي رحمه الله ، وبعد: فقد وقفت على هذا المؤلف العجيب ، والمفرد الغريب ، المشتمل على الألفاظ الرائقة ، والمعاني المتناسقة ، لقد بذل مؤلفه في نصح سالك طريق القوم الغاية ، وفي إرشاده إلى إماتة نفسه وترقيه النهاية ، إلى آخر ما قال ، ولما أشاع الحسدة أن الشيخ رجع عن كتابته على العهود كتب تحت خطه هذا ، وبعد: فما نسب إلي من رجوعي عن كتابتي على هذا المؤلف غير صحيح ، وكتبه أحمد بن حمزة الرملي.

ومن جملة ما كتبه الشيخ ناصر الدين اللقاني المالكي على كتاب الجوهر المصون ، وبعد فقد وقفت على هذا المصنف العجيب ، والأسلوب الغريب ، الذي لم ينسج على منواله ، ولم تسمح قريحة بمثاله ، وطبعت فيه بصري وبصيرتي بالتأمل في ألفاظه ومعانيه ، وتدرجت في كمال مدارجه ومراقيه ، فوجدته كنزاً مملوءاً بالمعارف الربانية ، والعوارف اللدنية ، وبحراً يضيق نطاق النطق عن وصفه ، ويكل لسان الفكر عن إدراك كنهه وكشفه ، ولا غرو في ذلك فإن المستفيض عبد منيب أواب ، والمفيض جواد كريم وهاب ، أمدنا الله تعالى بمدده ، وجعلنا من حربه وجنده ، آمين.

ومن جملة ما كتبه عليه شيخ الإسلام الفتوحي الحنبلي ، وبعد: فقد وقفت على هذا المؤلف العظيم الشأن ، المشتمل على فوائد حسان ، وروضة ذات أفنان ، من علوم القرآن ، ومعان مقصورات في الخيام ، لم يطمثها من قبل إنس ولا جان ، فسبحان من سهل على مؤلفه طرق العلم والعرفان ، حتى أتى فيها بما لم يكن في جنان ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ شهاب الدين بن الشلبي الحنفي ، وبعد: فقد وقفت على هذا المؤلف السعيد ، والجوهر المصون التليد ، المستنبط من كتاب الله العزيز ، فإذا هو مؤلف لم يصنع أحد شكله ، ولا جمع أحد في علوم القرآن مثله ، إلى آخره.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ ناصر الدين الطبلاوي ، وبعد: فقد اطلعت على هذا الكتاب العجيب ، والأسلوب الغريب ، والنيل المسكوب ، والنبل المكسوب ، فوجدته مقياس زيادة العلوم ، بأصابع الفهوم ، وأطال في ذلك.

ومن جملة ما كتبه الشيخ نجم الدين الغيطي رحمه الله تعالى ، وبعد: فقد تشرفت بالنظر في هذه العلوم والمعارف ، وترنحت بالوقوف على ساحل بحر هذه الأسرار واللطائف ، وتحققت أن ذلك لا ينال بالجد والاجتهاد والاكتساب ، وإنما هو فيض من الملك الوهاب ، على عبده المخصوص لما تفرغ مما سواه وناخ بتلك الرحاب ، ومسح لوح وجوده مما نقش فيه وتفرغ لما يلقى عليه من حضرة مصطفيه ، فملىء من العلوم والأنوار ، وصار بحراً للمعارف والأسرار ، حتى ظهر منه الجوهر المصون ، في علوم كتاب الله المكنون ، لا زال معوذاً بالواحد من شر كل معاند وحاسد ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ عبد القادر الشاذلي المالكي ، وبعد: فقد وقفت على هذا الكتاب العظيم الشأن ، الساطع البرهان ، المشتمل على علوم كتاب الله المكنون فوجدته بحراً عجاجاً لا ساحل له ولا قرار ، تكل عن إدراك مداه البصائر والأبصار ، وكنزاً مطلسماً مشحوناً بالعلوم اللدينية ، والمعارف الربانية والأسرار ، فانذهل عقلي فيه وحار ، ورأيته كلاماً غريباً غير مألوف لأحد من الأبشار ، فعلمت أنه فيض من الكريم الغفار ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ شمس الدين البرهمتوشي الحنفي ، وبعد فقد وقفت على مواضع من هذا الكتاب الشريف ، فإذا هو خلاصة الألباب ، ومنتهى منازل أهل الخطاب ، كيف لا وهو تأليف سيدنا ومولانا خاتمة أهل الشريعة والحقيقة في عصره ، الشيخ عبد الوهاب ، أدام الله عزه وعلاه ، وبعين عنايته حرسه وتولاه ، ومتع بطول حياته الأنام ، وكبت أعداءه الحسدة اللئام ، فقد جعله الله تعالى وارثاً للأقدام المحمدية ، وهادياً بسلوكه إلى السنة النبوية ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه شيخ الإسلام الفتوحي الحنبلي على كتابي المسمى بالجواهر والدرر وبعد: فقد وقفت على هذا المؤلف، المسمىٰ بالجواهر والدرر المتضمن أحوال عظيمة لما كان الناس غافلين عنه بالخبر وتأملت ألفاظه تأملاً يشفي السقيم، ويهدي من ضل إلى الصراط المستقيم، ولما أمعنت فيه التأمل والنظر وجدت تلك الجواهر نفائس لم يحوها إنس

ولا بشر ، وتلك الدرر كأنها من شدة عظمها وصفائها ترمي بشرر ، فهو مؤلف عديم النظير لم يسبق لوضع مثله صغير ولا كبير إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه عليه الشيخ شهاب الدين بن الشلبي الحنفي ، وبعد: فقد وقفت على هذا الكتاب الذي بهرت أنواره ، وأشرقت ونمت عروس ألفاظه الزاكية ، لأنها في منابت العرفان أعرقت ، وتصفحته ففاح مسكه ، وقرأته فلفظته ، فكأنما انقطع سلكه ، وغصت على الجواهر في بحره الذي سطوره فلكه ، فتارة آخذ منه درة ، وتارة أقتطف زهرة ، فلله دره من مؤلف كلما طالعت فيه استفدت ، وكلما غازلت عيون معانيه استزدت ، ولله من أنفاس تسر النفوس ، ويا عجباً كم بهذه الطروس من عروس ، وكيف لا ومؤلفه تاج ومحله الروس ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه الشيخ ناصر الدين اللقاني ، وبعد: فقد وقفت على هذا الكتاب الشريف الذي فاق سائر الكتب في لطافة نظمها ، ودقة معناها ، وكيف لا وهوالجوهر الفرد الذي هو غايتها ومنتهاها ، ولا عجب في ذلك فإنها مواهب وهاب لا تحصر عوارفه ، ولا تستقصى معارفه ، جعلنا الله تعالى ممن ذاق مذاقها ، وتحلى بحلاها ، وورد مواردها الشافية ، واهتدى بهداها ، وحشرنا مع مؤلفها ، وسلك بنا طريقته التي ما ضل من اقتفاها ، إلى آخر ما قال.

ومن جملة ما كتبه الشيخ عبد القادر الشاذلي المالكي ، وبعد: فقد وقفت على هذا الكتاب المسمى بالجواهر والدرر ، فوجدته بحراً قد زخر ، يحار في إدراكه البصر ، وتكل عن معرفته العقول والفكر ، إذ هو مشحون بالنفائس التي لا توجد الآن عند أحد من البشر ، إلى آخر ما قال.

فهذه نبذة مما كتبه علماء مصر على مؤلفاتي تكذيباً لما أشاعه الحسدة من ضد ذلك كما مر أول المبحث ، فرحم الله هؤلاء العلماء ، ما كان أكثر محبتهم لي ، واعتقادهم في كل من توهموا فيه شيئاً من صفات أهل الولاية والصلاح وتواضعهم له ، وما وردت قط على الشيخ ناصر الدين اللقاني في بيته أو جامع الأزهر إلا ونزل عن فرشه وأجلسني عليه ، فإن أبيت أقسم عليّ بالله ، ثم يجلس بين يدي على الحصير ولم يفعل ذلك معي أحد من أهل هذا الزمان ، وقد تغالى في التكبر بعده جماعة ممن لا يصلح أن يكون أحدهم من طلبته الآن ، بل رأيت بعضهم جالساً على طراحة في الجامع ، وهو يجود القرآن على الشيخ أبي النجاء النحاس ، والشيخ جالس بين يديه على الحصير ، وربما أدخل على بعض طلبة العلم الآن ، فأقبل ركبته فلا يمد يده إليّ ، فالله يلطف بنا وبهم ، ويرد عاقبتنا إلى خير ، أمين.

ومما أنعم الله تعالى به عليّ: موت جميع أشياخي في الفقه والتصوف وهم عني راضون ، وذلك من أكبر نعم الله تعالى عليّ ، فإن رضا الأشياخ على طالبهم ومريدهم عنوان على رضا

الله عز وجل عنه ، لأنهم واسطته في السلوك ، وقل مريد أو طالب في هذا الزمان يسلم من تغيير خاطر شيخه عليه ولو في حين من الأحيان ، وقد راجع بعض طلبة العلم شيخه في مسألة من غير أدب ، فقال له: أما تخشى يا ولدي أن يقال لا نفع الله فلاناً بعلمه ، فوقف ذلك الطالب عن المزيد ، ولم ينتفع أحد بعلمه ، مع أنه كان في الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام والنحو أمة من الأمم ، ورأيت مدرسي جامع الأزهر يجلسون في درسه ، فيسمعون فوائده ، ويعجبون بها ، ثم يقومون من عنده لا يستحضر أحد منهم شيئاً من تلك الفوائد ، ولولا أني أخشى أن تكون غيبة لذكرته وشيخه وبينتهما.

فإياك يا أخي أن تتهاون في تغيير خاطر أحد من أشياخك عليك ، أو لا تبادر إلى تطييب خاطره ، أو تنتقل عنه ، وتقرأ على غيره مراغمة له ، فإن الحكم للداعي الأول ، وله الحق الأعظم ، وإيضاح ذلك: أن الطالب لا يفارق شيخه غضباً من نصحه له ، ويقرأ على غيره إلا لحظ نفسه ، وطالب العلم بغير إخلاص لا يفلح ، ولو أنه أخلص في العلم لاحتمل نهر شيخه وزجره له وهجره له في طريق تحصيله العلم.

وقد أجمع أشياخ الطريق على أن المريد إذا بلغ مقام شيخه في العلم ، فمن الأدب أن يقيم تحت تربيته ، ويجري الله تعالى على لسان شيخه من العلم والتحقيق ما هو أهله لمكان أدبه وصدقه ، كما أنه يجري على لسان شيخه إذا أساء الأدب معه عكس ذلك ، فإن الطالب إذا كان قليل الأدب مع شيخه فقد يستحق حرمانه من فوائده ، فيعقد الله تعالى لسان شيخه عن الإفصاح له بالتحقيق ، ويحرم النفع به ، فيصير العلم موفوراً في قلب الشيخ ، ولا يقدر على النطق به ، وإن نطق نطق بكلام مشكل غير مفصح له عن المقصود ، كما جربنا ذلك مع طلبتنا.

وممن كان يبالغ في محبتي ، ويمنحني الفوائد والنكت من العلوم لمكان أدبي معه شيخ الإسلام زكريا ، وكان يقول لي: والله إني أود أن لو أسقيك جميع ما عندي من العلوم في مجلس واحد ، كذلك الشيخ نور الدين المحلي ، والشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري ، والشيخ عبد الحق السنباطي ، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، والشيخ شمس الدين السمانودي، والشيخ شهاب الدين المسيري، والشيخ شهاب الدين الرملي ، فكانوا كلهم يحبونني، رضي الله عنهم أجمعين، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تعالى به عليّ: انشراح صدري لاتباع السنة المحمدية قولاً وفعلاً واعتقاداً ، وانقباض خاطري من ضد ذلك ، من حين كنت صغيراً ، حتى أني بحمد الله تعالى أتوقف في بعض الأوقات عن العمل ببعض ما استحسنه بعض العلماء ، حتى يظهر لي وجه موافقته للكتاب والسنة أو القياس أو العرف المشار إليه بقوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقد استدل الشيخ جلال الدين السيوطي على جواز كبر عمامة العلماء زيادة عن طول عمامة رسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ وقال: قد صار من عرف العلماء كبر العمامة ليتميزوا عن غيرهم من العامة، فيسألوا عن الشريعة، وذكر أن كبر العمامة بهذا القصد لا يخرجهم عن السنة لأن العرف قد صار من جملة الشريعة بأمر الأمة باتباعه، انتهى.

وهذا أمر لم أجد له فاعلاً من الناس إلا قليلاً، وأغلبهم يقدم على الفعل من غير توقف ونظر، هل ذلك موافق للشريعة أو لا، بخلافي بحمد الله تعالى، فإني إن لم أجد ذلك الفعل موافقاً للشريعة ولم يظهر لي موافقته لها ولا للعرف توقفت عن العمل به، وربما أشاور رسول الله ﷺ فيه، فيلقي الله تعالى في قلبي الانشراح للفعل أو الترك، فأعمل بذلك، فكذب والله وافترى من أشاع عني من الحسدة أنني أشطح في أفعالي وأقوالي وعقائدي عن ظاهر الكتاب والسنة، مع أن أحداً من هؤلاء الحسدة لم يجتمع بي قط، ولا ثبت عنده ذلك ببينة عادلة، إنما بعض الحسدة زين له الشيطان ذلك لما عجز أن يجد مطعناً في أفعالي الظاهرة، فافترى عليّ ببعض كلمات ودار بها في جامع الأزهر وغيره، وأخبرهم بذلك، فالله تعالى يغفر له، فإن من كان متقيداً بالشريعة كما ذكرنا فهو من صدور أهل السنة والجماعة في عصره، فكيف يسمى مبتدعاً، والله ما ذلك إلا من شدة الحسد، فإني لا أعلم أحداً من أقراني أحاط علماً بكتب السنة كما أحطت بها، وأعرف جماعة الآن في جامع الأزهر من المتهورين إذا رأوني ينظرون إلي شذراً كأنهم على السنة وأنا على البدعة، وربما كان الأمر بالعكس، فإن من جمع الله فيه مثل هذه الأخلاق المذكورة في هذا الكتاب من أهل السنة والورع بيقين، بل يقضي العقل بأنه فريد عصره في اتباع السنة، ولكن لنا أسوة برسول الله ﷺ لما انشق له القمر، قالوا: هذا سحر، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إلهامي لمجاهدة نفسي بغير شيخ لما تبحرت في علوم الشريعة وتعذر علي العمل بما علمت وقد كان السلف الصالح لصفاء قلوبهم، لا يحتاجون في طريق العمل بعلمهم إلى شيخ لعدم الموانع، وصار الناس اليوم لهم موانع لا تحصى، حتى أن بعضهم يرى الأخلاق المحمدية من زهد وورع وخشية ونحو ذلك فلا يصل إلى التخلق بها، فلذلك أوجب بعض علماء الشريعة على الطالب أن يتخذ له شيخاً يرشده إلى طريق إزالة هذه الموانع من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقالوا: من لم يجد له شيخاً في بلده وجب عليه السفر في طلبه، ومن لم يستطع السفر وجب عليه مجاهدة نفسه بغير شيخ، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. ومراد جميع أشياخ الطريق بتسليكهم الناس أن يوصلوا المريد، إلى مقام العمل بالإخلاص الذي كان عليه السلف الصالح أو بعضه لا غير، فإن اشتغل أحدهم بعد ذلك بالعلم، أو صلى أو صام أو حج أو تورع أو زهد كان محفوظاً من الرعونات التي تجرح مقام الإخلاص، أو تحبط العمل، وقد

قدمنا في المقدمة أن حقيقة الصوفي هو عالم بعلمه على وفق ما أمر الله به لا غير ، وكانت صور مجاهدتي لنفسي من غير شيخ أنني كنت أطالع كتب القوم كرسالة القشيري ، وعوارف المعارف ، والقوت لأبي طالب المكي ، والإحياء للغزالي ، ونحو ذلك وأعمل بما ينقدح لي من طريق الفهم ، ثم بعد مدة يبدو لي خلاف ذلك فأترك الأمر الأول وأعمل بالثاني ، وهكذا ، كنت كالذي يدخل درباً لا يدري هل ينفذ أم لا ، فإن رآه نافذاً خرج منه وإلا رجع ، ولو أنه اجتمع بمن يعرفه أمر الدرب قبل دخوله لكان بين له أمره وأراحه من التعب ، فهذا مثال من لا شيخ له ، فإن فائدة الشيخ إنما هي اختصار الطريق للمريد لا غير ، ومن سلك بغير شيخ تاه ، وقطع عمره ، ولم يصل إلى مقصوده لأن مثال الشيخ مثال دليل الحجاج إلى مكة في الليالي المظلمة.

ومن جملة ما جاهدت به نفسي من غير إشارة شيخ : أنني كنت جعلت لي حبلاً في سقف الخلوة محرراً على عنقي إذا جلست ، ولا يصل إلى الأرض لو اضطجعت ، فكنت أجعله في عنقي من العشاء إلى الفجر ، فمكثت على ذلك سنين ، ولم يكن لي بحمد الله علاقة دنيوية تعوقني عن المجاهدة والوصول إلى المقصود سوى كثرة وجود العلل في أعمالي ، وإن كانت العلل لا تنقطع عن العبد ، إذ هي تدق معه في كل مقام سلكه ، فلكل مقام علل تناسبه ، فافهم.

وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداي ولحمتي ، فأغنتي بحمد الله عن وقوعي في الذل لأحد من أبناء الدنيا ، ولم يقع لي أنني باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوي منذ بلغت ، ولم يزل الحق تعالى يرزقني من حيث لا أحتسب إلى وقتي هذا وعرضوا علي الألف دينار ، وأكثر ، فرددتها ولم أقبل منها شيئاً ، وكانت المباشرون والتجار يأتوني بالذهب والفضة فأنثرهما في صحن جامع الغمري فليتقطها المجاورون ، وتركت أكل لذيذ الطعام ، ولبست الخيش والمرقعات من شراميط الكيمان نحو سنتين ، وأكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين ، ثم أغاثني الله تبارك وتعالى بالحلال المناسب لمقامي إذ ذاك ، وكنت لا آكل طعام أمين ولا مباشر ، ولا تاجر يبيع على الظلمة ، ولا فقيه لا يسد في وظيفته ، ويأكل معلومها ولا غيرهم من جميع المتهورين في كسبهم ، وضاقت علي الأرض كلها ، ونفرت من جميع الناس ونفروا مني ، فكنت أقيم في المساجد المهجورة ، والأبراج الخراب مدة طويلة ، وأقمت في البرج الذي فوق السور من خرابة الأحمدي مدة سنة ، وما رأيت أصفى من تلك الأيام، وكنت أطوي الثلاثة أيام وأكثر ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز من غير زيادة ، وضعفت بشريتي ، وقويت روحانيتي ، حتى كنت أصعد بالهمة في الهواء إلى الصاري المنصوب على صحن جامع الغمري فأجلس عليه في الليل والناس نائمون ، ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتي ، وطلبها الصعود إلى عالمها ، فإنه

لا يثقل الإنسان في الأرض إلا كثرة الشهوات ، وهذا هو سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر ، وتلاوة القرآن فكأن الروح تشتاق إلى القرب من حضرة ربها إذا سمعت كلامه أو اسمه فتكاد تلحق بعالمها السماوي ، وقد أنشدوا في معنى ذلك:

ولما بدا الكون الغريب لناظري حننت إلى الأوطان شبه الركائب

ولما غلب علي طلب العزلة عن الناس تنكرت مني جميع قلوب أصحابي ونفروا مني، حتى كأنهم لا يعرفوني من ضيق وقتي عن مباسطتهم بالكلام اللغو ، وعدم المجالسة.

وكنت كثيراً ما أخرج إلى موارد البرك التي يغسل الناس فيها الفجل والخس والجزروالبقل ، فألتقط منها ما يكفيني ذلك اليوم مما أعرضوا عنه ، وأشرب عليه من ذلك الماء ، وأشكر الله تعالى على ذلك.

وكنت كثيراً لا آكل قط طعام فقير لا كسب له من المتعبدين في الزوايا من غير كبير اشتغال ، خشية أن يكون ممن يأكل بدينه وهو لا يشعر ، وكذلك كنت لا آكل طعام قاض ولو كان من أهل الدين ، لما عساه أن يقع فيه عند الحاجة من قبول هدايا الناس ، ثم إني تركت أكل طعام كل من يمسك الميزان والكيل والذراع ، ثم طويت عن طعام جميع الناس ، فلا آكل إلا عند أوائل درجة الاضطرار ، وذلك حين لا تجد أمعائي شيئاً تشتغل به فيلدغ بعضها بعضاً ، وكنت إذا افتتحت مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع الفجر ، ثم أصلي الصبح ، وأذكر إلى ضحوة النهار ، ثم أصلي الضحى وأذكر حتى يدخل وقت الظهر فأصلي الظهر ، ثم أذكر إلى العصر ، ومن صلاة العصر إلى المغرب ، ومن صلاة المغرب إلى العشاء ، وهكذا ، مكثت على ذلك نحو سنة ، وكنت كثيراً ما أصلي بربع القرآن بين المغرب والعشاء ، ثم أتهجد بباقيه فأختمه قبل الفجر ، وربما صليت بالقرآن كله في ركعة ، وكان نومي غلبة تخطف رأسي خطفة بعد خطفة وخفقة بعد خفقة ، وكثيراً ما يغلب علي النوم فأضرب أفخادي بالسوط ، وربما نزلت بثيابي في الماء البارد في الشتاء حتى لا يأخذني نوم ، وهذه الأمور من قاعدة ما إذا تعارض عندنا مفسدتان وجب ارتكاب أخفهما مفسدة ، ولا شك أن وقوف المحب بين يدي الله عز وجل في الظلام مع تألم جسمه بالضرب أحسن عنده من نومه عن ربه عز وجل حال تجليه مع صحة جسمه ، كما أشار إليه قوله ﷺ: «**خصلتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»(1) ولكل مقام رجال ، ومن طلب نفيساً خاطر بنفيس فعلم أن المحب لله في واد والمنكر عليه في واد ، ومن طالع أحوال القوم في مجاهداتهم سهل

(1) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب لا عيش إلا عيش الآخرة (٦٤١٢)، والترمذي ، كتاب الزهد ، باب الصحة والفراغ ، نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس (٢٣٠٤) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد، باب الحكمة (٤١٧٠) ، وأحمد في مسنده (٢٣٣٦) كلهم بلفظ (نعمتان) بدل (خصلتان).

عليه ما يكابده في نفسه ، فقد وقع للشبلي رضي الله عنه أنه كان إذا غلب عليه النوم يضرب نفسه بقضيب الخيزران ، حتى ربما أفنى الحزمة في الليلة الواحدة ، وكان يكتحل بالملح حتى لا يأخذه النوم ، وكان يطلع على طرف الحائط ويقف حتى يطرد عنه النوم.

وبلغنا أن سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه وأرضاه مكث أيام مجاهدته سنة كاملة لا يأكل ولا يشرب ، ولا ينام ، وكان رضي الله تعالى عنه يقول: دعوت نفسي مرة إلى قيام الليل ، فأبت فمنعتها شرب الماء سنة ، انتهى.

قال اليافعي رحمه الله تعالى: وأعظم ما يجاب به عن هؤلاء السادات في مجاهدتهم رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم ، بأنهم ارتكبوا أخف المفسدتين كمن غص بلقمة ولم يجد ماء فأساغها بجرعة خمر ، انتهى.

وقد مكثت أنا نحو سنة وعمامتي شراميط من الكيمان وقصاصة الجلود ، حتى وجدت الحلال ، وبالغت في التدقيق في الورع بحماية الله عز وجل لا بحولي ولا بقوتي ، حتى كنت لا آكل من فراخ الحمام لأكلها من زرع الناس ما قد لا تسمح به نفوسهم ، ولا أمشي في ظل عمارة أحد من الولاة وأعوانهم ، ولما عمل السلطان الغوري بمصر الساباط الخشب الذي بين مدرسته ، وقبته الزرقاء ، تركت المرور من تحته ، فكنت أدخل من سوق الوراقين ، وأخرج من سوق الشرب ، وأنا بحمد الله تبارك وتعالى على مقام الورع إلى وقتي هذا ، لأن المعرفة لا تطفىء نور الورع ، ثم إذا حقق المتورع أمره في نفسه وجد جميع ما تورع عنه لم يقسمه الله له ، لا أن الله تبارك وتعالى قسمه له فرد نفسه عنه لأن ذلك لا يصح ، فافهم ، فظنه أنه رد نفسه عنه مع القسمة وهم منه ، وإن كان الحق تعالى قد أمر المكلف أن يدافع الأقدار النازلة جهده ، فذلك ليس هو تكليفاً برد الأقدار ، وإنما ذلك ليثيبه ويأجره على تلك المدافعة ، سواء أوقع في ذلك المقدر أم لم يقع ، وإذا اعتنى الحق تعالى بعبده حماه من الوقوع في المعاصي والرذائل بعدم القسمة ، واستخرج له الحلال من بين فرث الحرام ، ودم الشبهات ، كما يستخرج له اللبن من الضرع ، والله على كل شيء قدير ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ: بعد ذلك إلهامي لطلب الاجتماع بأهل الطريق وانقيادي لهم ، فاجتمعت بحمد الله تبارك وتعالى على خلائق لا تحصى من أهل الطريق ، فلم يكن لي وديعة عند أحد منهم سوى هؤلاء الثلاثة وهم سيدي علي المرصفي ، وسيدي محمد الشناوي ، وسيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنهم ، فسلكت على يد الأولين كل واحد شيئاً يسيراً ، وكان فطامي بحمد الله تعالى على يد سيدي علي الخواص ، أعني الفطام اليسير المعهود بين القوم ، وإلا فالحق أنه لا فطام حتى يموت العبد ، ولذلك كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول كثيراً: لا تكبر تعظم ، انتهى.

ولم أتحقق بأن الإنسان لا بد له من شيخ إلا حين اجتمعت بهؤلاء الأشياخ ، وكنت قبل

ذلك أقول كما قال غيري: وهل ثم طريق توصل إلى حضرة الله تبارك وتعالى غير العمل بما بأيدينا من الشريعة؟ يعني على مصطلح غير القوم ، حتى وجدت الأمر بخلاف ذلك ، وكفى شرفاً لأهل الطريق قول السيد موسى عليه السلام للخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

واعتراف الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى وأرضاه لأبي حمزة البغدادي بالفضل عليه ، واعتراف الإمام أحمد بن سريج رحمه الله لأبي القاسم الجنيد ، وطلب الإمام الغزالي له شيخاً يدله على الطريق مع كونه كان حجة الاسلام ، وكذلك طلب الشيخ عز الدين بن عبد السلام له شيخاً ، مع أنه قد لقب بسلطان العلماء ، فكان شيخ الإمام الغزالي الشيخ محمد الباذغاني ، وشيخ الشيخ عز الدين الشيخ أبو الحسن الشاذلي.

وكان الإمام الغزالي رضي الله تعالى عنه يقول لما اجتمع بشيخه المذكور ضيعنا عمرنا في البطالة يعني بالنسبة لما ذاقه من أحوال أهل الطريق.

فإذا كان هذان الشيخان قد احتاجا إلى الشيخ مع سعة علمهما بالشريعة ، وكان الشيخ عز الدين رضي الله عنه يقول: ما عرفت الإسلام الكامل إلا بعد اجتماعي على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

فغيرهما من أمثالنا من باب أولى ، وقد كنت قبل اجتماعي بأهل الطريق أتخذ أعمالي كلها وسائل إلى تحصيل أغراض ، فإن حصلت تلك الأغراض ثبت على ذلك وإلا تحولت منه ، فلما اجتمعت بأهل الطريق قالوا لي: اجعل أعمالك كلها مقاصد لتحضر فيها مع الله تعالى ، ولا تتخذها وسائل فتموت ولا تصل إلى مقصودك فقربوا علي الطريق ، فلو لم يكن في الاجتماع بهم إلا هذه الخصلة لكان فيها كفاية.

ومما وقع للجنيد مع ابن سريج أن حلقة الجنيد كانت الأصوات فيها ترتفع على أهل حلقة ابن سريج ، وكان ابن سريج ينكر على الجنيد ، فتنكر ابن سريج يوماً وحضر حلقة الجنيد ، ثم رجع إلى أصحابه فقال لم أفهم من كلامه شيئاً إلا أن صولة كلامه ليست بصولة مبطل ، ثم إن ابن سريج قال للجنيد طريقنا أقرب إلى الله من طريقكم ، فقال الجنيد لا بد أن تأتينا ببرهان ، فقال للجنيد ائت لنا أنت ببرهان ، فقال الجنيد يا فلان خذ هذا الحجر فألقه في حلقة الفقراء ، فألقاه فصاحوا كلهم الله الله ثم قال له: ألقه بين هؤلاء الفقهاء ، فألقاه فصاحوا كلهم حرام عليك أزعجتنا ، وابن سريج ينظر ، فقام وقبل رأس الجنيد واعترف بفضله فقال له الجنيد: إنما الفضل لكم ، فإن أساس طريقنا مما معكم من العلم ، فقال ابن سريج: بلى لكم الفضل ، فإنكم زدتم علينا بحسن معاملة الله تعالى ، انتهى.

ومما وقع للشيخ عز الدين بعد اجتماعه بالشيخ أبي الحسن الشاذلي أنه كان يقول من أعظم

دليل على أن طائفة الصوفية قعدوا على قواعد الشريعة ، وقعد غيرهم على الرسوم ، ما يقع على يدهم من الكرامات والخوارق والمكاشفات ، ولا يقع شيء من ذلك قط لفقيه ، إلا إن سلك طريقهم ، انتهى ، أي لأن الكرامات فرع المعجزات ، وهي علامة على صحة اقتداء صاحبها واتباعه لرسول الله ﷺ.

وقد نقل القشيري رحمه الله تعالى في ترجمة أبي علي الثقفي رضي الله تعالى عنه وأرضاه قال: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس كلهم ، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام مؤدب ناصح ، ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه لا يحل الاقتداء به في تصحيح المعاملات انتهى.

ومما وقع لابن أسعد اليافعي رضي الله تعالى عنه وأرضاه قال: مكثت خمس عشر سنة ونفسي تنازغني هل أدوم على الاشتغال بالعلم ، أم انتقل عنه إلى صحبة الصوفية واقتفاء آثارهم ، فبينما أنا يوماً أمشي في شارع من شوارع زبيد إذ لقيني شخص من أرباب الأحوال ، فقال لي مكاشفاً يكفيك ما حصلته من العلم الظاهر ، واتبع طريق العمل على طريق القوم من اليوم ، فإنها أولى ، فقلت له: وما وجهة كونها أولى؟ فقال لي: تعال حتى أريك وجه ذلك ، فدخل زاوية من زوايا الفقراء وأنا معه ، فجلس وقال لفقير: ادع لي العالم الفلاني ، فدعاه فلما أقبل قال للحاضرين: لاأحد يرد على هذا السلام إذا جاء إلا بعد قليل بحيث لا يطول الفصل ، ولا أحد يتحرك له ولا يفسح له في المجلس ، ففعلوا فتكدر لذلك ، وقال: يحرم عليكم عدم رد السلام ، فقالوا له: الفقراء لهم عذر في ذلك ، فقال كذبتم ليس لكم عذر فقالوا له بلى لنا عذر ، وهو أنك مستحق للهجر لارتكابك العجب والكبر ، فقال: أنا ما عجبت ولا تكبرت عليكم إلا بحق ، فقال الشيخ الفقراء في نفوسهم منك شيء ، فقال وأنا أيضاً في نفسي منكم أشياء ، وأشار بأصابع يديه كلها ، فخرج وهو يسب الفقراء ومن دعاه إليهم ، فقال لليافعي: انظر ثمرة علم هؤلاء ماذا يفعلون ، ثم قال لفقير: ادع لنا الفقير الفلاني ، فدعاه فلما أقبل قال الشيخ للحاضرين افعلوا معه كما فعلتم مع ذلك العالم من عدم رد السلام على الفور وعدم تفسيح المجلس له ، ففعلوا ، فبادر إلى نعال الفقراء وجعلها في عنقه وعلى رأسه ، ووقف خاضعاً ذليلاً عند النعال ، ولم يمر على خاطره ما قاله ذلك العالم من الإنكار عليهم بعدم المبادرة إلى رد السلام ، وعدم تفسيح المجلس له بل ولا خطر على باله أنه من العلماء أبداً ، فقال له فقير من الحاضرين الفقراء في نفوسهم منك شيء فقال: أقول أستغفر الله تعالى في حقهم ، وأسألهم أن يلحظوني بلحظهم ، فلعل الله تعالى يصلح حالي ، وصار يبكي ، وهو واقف حامل نعالهم ، فقال الشيخ لليافعي: انظر ثمرة اتباع طريق القوم ، قال اليافعي رضي الله تعالى عنه فقوي عزمي من ذلك اليوم في ذلك المجلس على اتباع طريق القوم حتى كان ما كان ، انتهى.

قلت وكانت صورة مجاهدتي على يد سيدي علي الخواص رضي الله عنه ، أنه أمرني أول اجتماعي عليه ببيع جميع كتبي والتصدق بثمنها على المحاويج ، ففعلت وكانت كتباً نفيسة كشرح الروض والمطلب والخادم والقوت للأذرعي وغيرها مما يساوي ثمنها عادة مالاً كثيراً ، فبعتها وتصدقت بثمنها ، فصار عندي التفات إليها لكثرة تعبي فيها ، وكتابة الحواشي والتقييدات عليها ، حتى كأني سلبت العلم ، فقال لي : اعمل على قطع الالتفات إليها بكثرة ذكر الله عز وجل ، فإنهم قالوا ملتفت لا يصل ، فعملت على قطع الالتفات إليها مدة حتى خلصت بحمد الله تعالى من ذلك فأمرني بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتي ، فصرت أهرب من الناس ، وأرى نفسي خيراً منهم ، فقال لي : اعمل على قطع رؤية أنك خير منهم ، فعملت في المجاهدة مدة حتى صرت أرى أن أرذلهم خير مني ، ثم أمرني بالخلطة ، والصبر على أذاهم ، وعدم مقابلتهم ، فعملت على ذلك حتى قطعته ، فرأيت حينئذ أني صرت أفضل مقاماً منهم ، فقال لي : اعمل على قطع ذلك ، فعملت على قطعه مدة ، حتى قطعته ، ثم أمرني بالاشتغال بذكر الله تبارك وتعالى سراً وعلانية ، وكل خاطر خطر لي مما سوى الله عز وجل صرفته عن خاطري فوراً ، فمكثت على ذلك عدة أشهر ، ثم أمرني بترك أكل الشهوات مطلقاً ، فتركتها حتى صرت أكاد أصعد بالهمة في الهواء ، وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية ، ثم أمرني بالتوجه إلى الله تبارك وتعالى في أنه يطلعني على أدلتها الشرعية ، فلما اطلعت عليها وصار لوح قلبي ممسوحاً من العلوم النقلية لاندراجها في الأدلة ، ترادفت علي حينئذٍ العلوم الوهبية ، وكان ابتداء ذلك بساحل بحر النيل عند بيت البرابرة وسواقي القلعة ، فبينما أنا واقف هناك ، وإذا بأبواب من العلوم اللدنية انفتحت لقلبي كل باب أوسع مما بين السماء والأرض ، فصرت أتكلم على معاني القرآن والحديث ، واستنبط منهما الأحكام وقواعد النحو والأصول وغير ذلك ، حتى استغنيت عن النظر في كتب المؤلفين ، فكتبت من ذلك نحو مائة كراسة فعرضت بعض ذلك على سيدي علي الخواص فأمرني بغسله وقال هذا علم مخلوط بفكر وكسب ، وعلوم الوهب منزهة عن مثل ذلك فغسلتها وأمرني بالعمل على تصفية القلب من شوائب الفكر ، وقال : بينك وبين علم الوهب الخالص ألف مقام فصرت أعرض عليه كل شيء فتح به عليّ ، وهو يقول : أعرض عن هذا واطلب ما فوقه إلى أن كان ما كان ، فهذا كان صورة فتحي بعد المجاهدة المذكورة فالحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ بعد ذلك : دخولي للاطلاع على معاني الكتاب والسنة من بابها ، وذلك بتكثير النوافل ، فإن من واظب عليها أحبه الله تعالى ، وإذا أحبه قربه من حضرته ، وإذا قربه من حضرته ، أطلعه على أسرار شريعته ، وكان بعض العارفين يقول : لا يفتح على سالك قط إلا من باب إكثاره النوافل ، فإنه في الفرائض عبد اضطرار إن لم يصل

الصلوات مثلاً عذبه به ربه بخلاف النوافل ، فإنه فيها عبد اختيار ، فلا يتقرب بها خوفاً من عقابه ، وإنما ذلك محبة له جل وعلا ، قال: وأعظم النوافل بركة الإكثار من النكاح لما فيه من الازدواج والإنتاج ، فيجمع العبد فيه بين المعقول والمحسوس ، فلا يفوته شيء من العلوم الصادرة من حضرة الاسم الظاهر والباطن ، فلذلك كان اشتغال العبد بنوافل النكاح أتم وأقرب ، لتحصيل كل ما يرومه ، وكان محبوباً لله تعالى ، ومن كان محبوباً لله تبارك وتعالى صار عرشاً لاستواء الحق تبارك وتعالى عليه بإفاضة العلوم ، وسماء للنزول ، وكرسياً لظهور أوامره ونواهيه ، فظهر له من علوم الكرسي ما لم يكن يره فيه ، مع أنه كان فيه ، وهذه الطرق من أجل الطرق وأقربها على السالكين ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ: بعد المجاهدة ظهور أن جميع ما كنت علمته من العلوم كلها ليس فيه شيء من الإخلاص ، وإنما هو مخلوط لحظوظ النفسانية وذلك أن من علامة العلم الخالص أن يجمع قلب العبد على ربه حال الاشتغال به ولم أر ذلك حصل لي إنما كان قلبي متشتتاً في كل واد ، وغاب عني العلم بأن جميع ما خلق الله تبارك وتعالى ، وأنزل على قلوبنا من العلوم ، إنما مراده به أن يجمعنا به عليه ، ومن أتعب نفسه في جمع العلوم من غير أن ينظر في دلالتها على الله عز وجل فاته المقصود الأعظم منها وحجب عن مواضع الدلالة التي فيها على الحق جل وعلا. وقد عملت بحمد الله تعالى على كشف الغطاء عن وجهة دلالة العلوم كلها على الحق تبارك وتعالى، حتى صرت أحضر بقلبي مع الله تبارك وتعالى في علم الحساب والهندسة والمنطق فضلاً عن العلوم الحقيقية الشرعية ومن كشف الله تعالى عن بصره وبصيرته رأى جميع العلوم التي بأيدي الخلائق مقربة إلى الله تبارك وتعالى ، وطريقاً إلى دخول حضرته ، ولكن أكثر الناس لم يكشف الله تبارك وتعالى عن بصيرتهم ، فلم ينظروا في العلوم من حيث الوجه الدال منها على الحق تعالى: ففاتهم الكمال ، ولذلك ذمهم العارفون رضي الله عنهم، وقالوا: إن علوم هؤلاء حجاب لحجبهم بها عن ربهم، ولو أنهم نظروا فيها من حيث الوجه الدال على الحق لم تحجبهم عن ربهم ، ولنالوا درجات العارفين.

وقد بلغنا عن الإمام الغزالي رحمه الله تعالى الرحمة الواسعة ، أنه لما دخل طريق القوم كان يقول: قد وجدنا علوم الفقهاء كلها حجاباً فياليتنا لم نضيع عمرنا فيها فقال له لعض العارفين ، ولأي شيء تجعلها حجاباً ، فلو نظرت فيها وفي كل شيء في الوجود لوجدته دليلاً على الله تبارك وتعالى ، ورافعاً للحجب عنك ، فعمل على ذلك ، فعرف وجوه دلالتها على الحق جل وعلا فرجع عن ذلك القول ، وصار يقول: العلم نور يكشف عن العبد الحجب ، وإنما يكون حجاباً على من لم يخلص لله عز وجل في تعلمه وتعليمه انتهى.

وكذلك بلغنا عن الشيخ عبد القادر الجيلي رحمه الله تعالى الرحمة الواسعة أنه لما دخل الطريق بعد السياحة ترك تدريس العلم الظاهر كله ، ووقعت النفرة بينه وبين أهله ، فلما كمل

حاله ، وشهد وجه دلالة العلوم كلها على الله تبارك وتعالى ، صار يدرس في علم الفقه والأصول والنحو وغيرها حتى مات.

وقد بلغنا أن الشيخ غانماً المقدسي رحمه الله تعالى الرحمة الواسعة ، كان يسلك مريديه كلهم من طريق علم النحو حتى يوصلهم منه إلى حضرة الله تبارك وتعالى ، انتهى. فاعمل يا أخي على تحصيل ما قلناه.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: بعد المجاهدة إعطاؤه جل وعلا لي الفهم في القرآن الذي هو علم الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً ، وذلك على مصطلح العارفين زيادة على الفهم الذي أوتيته على مصطلح الفقهاء ، كما تقدم آنفاً.

قال سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه وأرضاه: وإنما قال تعالى: ﴿ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. لكثرة تلك الوجوه المبطونة في الكلمات ، وإيضاح ذلك: أن الفهم في الكلام على قسمين قسم مكتسب من مادة ، وقسم موهوب من غير مادة فالذي وهب من غير مادة لا يقال فيه فهم ، وإنما يقال فيه علم ، وأما المكتسب من المادة فهو الذي يقال فيه فهم ، وهو تعلق خاص في العلم ، فإذا علم السامع اللفظ من اللافظ بها أو رأى الكتابة ففهم منها أمراً ، ففيه تفصيل ، فتارة يعلم مراد المتكلم من تلك الكلمة مع تضمنها في الاصطلاح معاني كثيرة خلاف مراد المتكلم بها ، فهذا يسمى فهماً ، وتارة لا يعلم مراد المتكلم من تلك الكلمة على التفصيل ولكن يحتمل عنده فيها عدة وجوه يدل عليها الكلام ، لا يعلم مراد المتكلم من تلك الوجوه ، ولا يدري هل أرادها كلها أو أراد بعضها ، فمثل هذا لا يقال فيه أنه أعطي الفهم في القرآن ، وإنما يقال فيه أنه أعطي العلم بمدلولات تلك الكلمة أو الكلمات ، وقد أجمع العارفون رضي الله تعالى عنهم على أن كلام الله تبارك وتعالى واسع يقبل جميع ما فسره به المفسرون ، لأنه تعالى قد خاطبهم بجميع ما يقبله استعدادهم ، فما من وجه مقبول فهمه عباده المؤمنون إلا وهو مقصود له تعالى من تلك الكلمة بالنظر إلى فهم من فهم كلامه تعالى تلك الوجوه المقصودة له تعالى ، أو لذلك الشخص الذي فهم منها ما فهم من كلامه تعالى حيث لم يخرج في فهمه عما يؤديه كلام العرب ، فإن خرج عما يؤديه إليه كلام العرب فلا علم ولا فهم أيضاً ، وهذا من خصائص كلام الله تعالى. أما كلام المخلوقين فقد يكون بعض الوجوه غير مقصود لصاحب الكلام ، فاعلم ذلك ، واعمل على جلاء مرآة قلبك لتفهم كلام ربك عز وجل ، والحمد لله رب العالمين.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من أدب العبد في الفهم في كلام ربه جل وعلا أن يمشي حيث مشى به الشرع ويقف حيث وقف به ، فيعقل فيما يقول له فيه اعقل ، ويؤمن فيما يقال له فيه آمن ، وينظر فيما قال له فيه انظر يعني تفكر ، ويسلم فيما قال له فيه سلم ، وذلك لأن الآيات وردت في القرآن متنوعة ، فآيات لقوم يعقلون ، وآيات لقوم يؤمنون

وآيات لقوم يتفكرون ، وآيات لقوم يسمعون ، وآيات للعالمين ، وآيات للمؤمنين ، وآيات للموقنين ، وآيات لأولي النهى ، وأيات لأولي الألباب ، وآيات لأولي الأبصار ، ففصل يا أخي كما فصل لك الحق تبارك وتعالى ، ولا تتعدَّ إلى غير ما ذكره لك ، ونزل كل آية وعبرة موضعها ، وانظر فيمن خوطب بها، واجعل نفسك كأنك المخاطب بها، فإن فيك مجموع ما تفرق في إخوانك المسلمين لنعته تعالى لك بالعقل ، والإيمان ، والتفكر ، والتقوى ، والسمع ، والقلب الذي هو اللب ، والأبصار ، وغير ذلك فانظر يا أخي في كل صفة نعتك بها ، واظهر بها في العالم تكن ممن جمع له القرآن ، وأعطي الفرقان. انتهى كلامه بالمعنى في غالبه ، وذكر نحو ذلك الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تعالى به عليّ: إعطاؤه تبارك وتعالى لي الفرقان بين رجال الله تعالى ، فإنه ما كل الرجال أعطوا الفرقان ، وهم ثلاثة أصناف لا رابع لهم ، ذكرهم الشيخ محيي الدين رحمه الله في الفتوحات.

الأول: العباد بضم العين ، وهم قوم غلب عليهم الزهد والتبتل ، والأفعال الظاهرة المحمودة ومن شأنهم أنهم لا يرون شيئاً فوق ما هم فيه حتى يطلبوا الانتقال إليه ، فلا معرفة لهم بالأحوال ولا بالمقامات ، ولا رائحة عندهم من العلوم الإلهية الوهبية ، ولا مكاشفة لهم ، ويخافون من ظهور أعمالهم أن تحبط لاعتمادهم عليها ، دون مطلق فضل الله تعالى.

الصنف الثاني: الصوفية: وهم رجال فوق هؤلاء العباد ، فإنهم يرون أفعالهم كلها لله تبارك وتعالى مع ما هم عليه من الجد والاجتهاد والورع والزهد والتوكل وغير ذلك، ويرون مع ذلك أيضاً أن جميع ما هم فيه بالنظر للمقامات التي فوقهم كلا شيء ، وفيهم رعونة ونفس بالنظر لأهل الطبقة العليا فعندهم رائحة دعوى ، مع حسن أخلاقهم وفتوتهم.

الصنف الثالث: الملامتية وهم على قدم السيد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وأرضاه، ومن شأنهم أنهم لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتب ، ولا يفعلون من العبادات كلها إلا ما لا بد منه ، ولا يتميزون عن غالب الناس بعبادة ، يمشون في الأسواق ، ويتكلمون مع الناس بكلام العامة ، قد انفردوا بقلوبهم مع الله جل وعلا ، لا يتزلزلون عن عبوديتهم ، لا يذوقون للرياسة طعماً لاستيلاء عظمة الله تبارك وتعالى على قلوبهم ، وهؤلاء أعلى الطوائف كلها مقاماً ، كما فضل أبو بكر الصحابة كلهم رضوان الله عليهم أجمعين ، فتأمل في ذلك واطلب المقامات الثلاثة ، ولا تقنع بشيء دون المقام الثالث ، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ: بعد المجاهدة إطلاعه تبارك وتعالى لي على أن الله جل وعلا لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وذلك من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليّ ، لأن به يسكن

القلب عن طلب الأجر على أعماله ، وعن طلب الفتح على قلبه في مقامات العارفين، إذ الفتح بعد المجاهدات والرياضيات أمر لازم لا بد منه ، تطلبه الأعمال ، وتناله الأنفس ، ولكن متى يكون ذلك الفتح؟ هل هو في الدنيا أو الآخرة؟ ذلك إلى الله تبارك وتعالى ، فإذا رأيت يا أخي عامل صدق أو عرفت ذلك من نفسك ، ولم تر يفتح لك في باطنك مثل ما فتح لمن رأيته على قدمك في العمل ، من نفسك ، فإياك أن تتهم ربك ، فإنه مدخر لك ، واطرح من نفسك التهمة في ذلك ، وفر من أن تكون من أهل التهم، وعليك بالإخلاص في أعمالك عبودية وخدمة لربك لا لطلب أجرة فإنك عبد له ما أنت أجير، فلو سجدت على الجمر من افتتاح الدنيا إلى انتهائها ما أديت شكره في جعله لك عبداً دون جعلك أجيراً ، فإن من شأن العبد أن لا يفارق دار سيده في حال عمله ، وفي حال تركه للخدمة ومعه الإذن من سيده بدخوله على حرمه ، ولا هكذا الأجير فإنه إذا فرغ من العمل ترك صاحب ذلك العمل وبعد عن دار السيد ، وليس معه إذن في الدخول على حرمه، انتهى، فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به علي بعد المجاهدة: علمي بكون الحق تعالى يكرهني أو يحبني ، وذلك بنظري إلى أعمالي وما أنا منطو عليه ، فإن نظرت في نفسي ورأيتها متبعة للكتاب والسنة مهتدية بهدى السلف الصالح بحسب طاقتها حكمت بأن الحق تبارك وتعالى يحبها وهو راض عنها ، وإن رأيتها مخالفة للكتاب والسنة ، قليلة الورع ، قليلة الزهد ، قليلة الخشوع ، قليلة الخوف من الله تبارك وتعالى ، ذاكرة للدنيا ووظائفها ومناصبها ناسية للآخرة ودرجاتها ومراتبها حكمت بأن الله تبارك وتعالى يكرهها فعليك يا أخي بالعمل بهذه الميزان صباحاً ومساء إن لم تستطع ذلك في جميع الساعات ، لتعلم ما لك وما عليك ، ولا تنتظر أحداً غيرك ينبهك على ذكر ذلك فإنه مفقود في هذا الزمان ، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة: ١٤]. فعلم أنه يتأكد على كل شخص ليس له شيخ أو أخ صادق أن يزن أحواله بالكتاب والسنة وكلام الأئمة لينظر في ربحه وخسرانه ، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] ، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ: قصدي بتعلم العلم نفع نفسي به أولاً ثم المسلمين ثانياً ، ولا أقصد نفع غيري إلا بحكم التبعية لي ، وإذا رأيت نفسي عاجزة عن العمل بما علمت ، أوقفتها عن التعلم حتى تستوعب العمل بكل ما علمت ، وهذا من أكبر نعم الله تعالى ، فإن فاتتني مباشرة العمل لم يفتني أجر نية العمل ، وهذا ما كان عليه السلف الصالح، كداود الطائي، وأبي حنيفة ، وسفيان الثوري ، وشعبة ، وأضرابهم ، رضي الله تبارك وتعالى عنهم ، وكان الشعبي يقول لعلماء زمانه: لستم بعلماء ، إنما أنتم متلذذون بالمسائل ، ولو أنكم كلفتم نفوسكم بالعمل بما تعلمون لتجرعتم المرارات ، ولكبحت نفوسكم عن التعلم.

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: قد غلط قوم في طلبهم العلم ، فطلبوه لغير العمل به ، فصار علمهم كالجبال ، وأعمالهم كالهباء.

وكان بشر الحافي يقول: والله ما كنا نظن أن نعيش إلى زمان صار علم الناس شبكة لهم يصطادون به الدنيا، ولما انقطع بشر رحمه الله تعالى عن إملاء الحديث أتى إليه إخوانه وقالوا له: ما تقول لربك إذا قال لك يوم القيامة لم تركت التحديث بكلام نبيي ﷺ؟ فقال بشر: أقول له: يا رب قد أمرتني فيه بالإخلاص ولم أجد عند نفسي إخلاصاً.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه وأرضاه يقول: من علامة إخلاص العالم في علمه أنه كلما ازداد علماً ازداد في الدنيا زهداً ، وقلت أمتعة داره ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: كان من آخر العلماء العاملين الإمام النووي رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، لما مرض المرض الذي مات فيه ، ورجع من الشام إلى نوى بلده ، لم يجدوا له متاعاً يحملونه إلى أمه سوى العكاز والإبريق ، وترك كتبه ومؤلفاته كلها بالشام للفقراء والمساكين ، انتهى.

وكذلك بلغنا عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى: أنه لما غضب من السلطان صلاح الدين في مصر ، حمل أمتعة داره كلها على حمارته ، وأركب زوجته عليها.

وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: مررت على حجر مكتوب عليه: اقلبني تعتبر، وذلك أيام سياحتي، قال: فقلبته فوجدت في باطنه مكتوباً «أنت بما تعلم لم تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم فوالله إن أمثالنا لم يطلب العلم إلا لأقامة الحجة عليه لا غير، ومن ادعى غير ذلك كذبته أفعاله، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

* *

الباب الثاني
في جملة أخرى من الأخلاق

أقول وبالله التوفيق:

مما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: من حين كنت طفلاً عدم إصغائي إلى قول من يزعم أنه يعرف علم الكيمياء ، أو يقدر على فتح المطالب ، وهذا من أكبر نعم الله عز وجل عليّ ، فقد تلف في ذلك مال كثير من الفقراء وطلبة العلم، ثم رد ذلك التلف على أديانهم ، فتلفت قلوبهم ، وخربت من محبة الله ورسوله والصحابة والتابعين وسائر المقربين ، فإنه لا يصح المحبة لأحد إلا بالتخلق بأخلاقه ﷺ ، وما أحد من الأنبياء وأتباعهم الصادقين يحب الدنيا أبداً فمن أدعى محبتهم مع محبته للدنيا فهو كذاب ، وقد كان لي عدة أصحاب على تقوى وخير فخالفوني وعاشروا النصابين ، فأتلفوا أموالهم وأديانهم، وضيعوا ما كان معهم من المال في شراء العقاقير والبخورات، وأجهزة الحفارين للكيمان والقبور والمغاير والآبار وصاروا لا دنيا ولا آخرة إلى أن ماتوا.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى يقول: ثلاثة من الناس لا يرجى فلاحهم لاستحكام المقت فيهم ، من يحب اللواط ، ومن يعمل الكيمياء ، ومن يريد فتح المطالب ، انتهى.

وقد أخبرني سيدي أبو البقاء بن البرزي أن شخصاً نصب عليه فأتلف عليه نحو ثلاثين ألف ديناراً ، فصار يأخذ منه كل قليل المائة دينار وأكثر ويطبخ فتطلع الطبخة فاسدة ، فيقول له: المرة الثانية تصح إن شاء الله تعالى ، فما زالت الطبخة تطلع زغلاً حتى أفنى جميع ما كان معه من المال ، فقلت له فأين كان عقلك؟ فقال: وهل لمحب الدنيا عقل.

وأخبرني سيدي محمد ابن الشيخ أبي شعر الماوردي أحد أصحاب سيدي الشيخ أبي السعود الجارحي رحمه الله تعالى ، أن نصاباً قال له: بلغني أن في قاعتك مطلباً عظيماً ومقصودي أفتحه لك ، ولكن يحتاج إلى نحو سبعة وعشرين ألف نصف نشتري بها بخورات ، ونحلي بها الخدام ، وكان هذا النصاب يعرف علم السيمياء ، فأخذه وأدخله القاعة ، وأطلق له عشباً معروفاً عنده فانفتح في مخيلته الفاسدة باب بجانب بيت الخلاء ، فنزل هو وإياه فوجدوا كيمان الذهب والفضة كالتلال ، وإذا بملك الكنز نائم على سرير قوائمه

من ذهب وهو مغطى بثياب من حرير ، وعليه شبكة من لؤلؤ ، فقال له: بقي عندك شك؟ فقال لا ، فقال: أعطني المال لآتي لك بالبخور الذي يبطل الموانع لتصير تبخر به ، كلما تأخذ لك منه شيئاً وإلا فكل شيء أخرجته منه أخذه منك الخدام ، فأعطاه جميع ما كان بيده من النقد ، وأخذ أساور أمه الذهب ، وعصابة زوجته حتى خلاه على الأرض السوداء ، ثم قال له: أنا رائح أسعى لك في البخور ، فخرج هو وإياه وأغلق باب المطلب فلم يجد له بعد ذلك أثراً إلى يوم تاريخه ، قال وأول ما نصب علي أنه قال لي: هذا الأمر يحتاج إلى مائة بندقي نشتري بها بخوراً من الملك الأحمر من ملوك الجان ، والقاضي عمروش ، يضمن الجني الذي يعطيه المائة دينار ، وهو الآن في مدينة إسكندرية فأخذ منه المائة دينار يعني النصاب وسكن في قاعة مرخمة في السبع قاعات بمصر المحروسة ، وتزوج امرأة جميلة ، وصار ينفق عليها مدة سنة ، حتى فرغت تلك الفلوس ثم طلق تلك المرأة وجاءه ببخور قدر الدرهم الغذار ، وقال: ما وجد الملك الأحمر في بلاد الجن إلا هذا الشيء اليسير ، ويحتاج إلى مائة بندقي أخرى ، حتى يفتح بها المطلب ، ويبطل موانعه ، فأعطاه مائة أخرى ، ثم تبين لسيدي محمد كذب هذا النصاب ، فصار يشتكيه من بيوت الحكام فيقول النصاب: يا مسلمين شرع الله بيني وبينه ، وينكر أنه ما أخذ ذلك المال والحلي الذي أخذه منه فلم يصل منه إلى شيء من ذلك إلى وقتنا هذا.

ووقع لهذا النصاب أيضاً أنه نصب على قاض من بعض قضاة العساكر بمصر ، قال له: عندك في القاعة كنز عظيم ، ولكن يحتاج إلى خمسمائة دينار ذهباً ولا تعطيها لي حتى ترى الذهب بعينك فيبخر له ببخور معروف عند أهل علم السيمياء ، فأراه كيمان الذهب والفضة والملك صاحب الكنز نائم على سريره وقال له رأيت بعينك فقال: نعم ، فقال له: أعطني الخمسمائة دينار ، فأعطاها له ، وقال له: انتظرني حتى آتيك بالبخور ، فخرج فلم يرجع له إلى يوم تاريخه ، وصار القاضي يستحيي أن يتكلم بذلك ، ثم يقول لنفسه: كيف تكذب شيئاً رأيته بعينك ، ولم يزل يتحسر على تلك الأموال إلى أن سافر من مصر إلى بلاد الروم.

وأخبرني القاضي نور الدين الأشموني أن شخصاً نصب عليه ، فوضع في البودقة نحو عشر بنادقة وغطاهم بالنخالة بحيث لا يعلم بها القاضي ، ثم أرسله إلى عطار بينه وبينه لغز فاشترى منه عشباً بدرهم ، فأخذه ونثره على النخالة ثم أطلق عليه النار ، فانسكبت العشرة الدنانير ، وصارت سبيكة فأخرجها للقاضي وقال: هذه السبيكة أصلها كلها بدرهم ، ولكن إن أردت أن أطبخ لك كذا كذا قنطاراً من الذهب فأعطني مائة بندقي فأعطاها له فطبخ له بنحو درهمين نقرة ، وقال له إنها فسدت ثم إنه وضع له منها نحو عشرين بندقياً في البودقة وغطاها بنخالة كما تقدم وذر عليها شيئاً يشبه دقاق الترمس ، وأطلق عليها النار فأخرجها سبيكة ، فقال له إذهب بها إلى اليهودي الذي هو جالس على باب الصاغة فبعها له فإنه لا يعرف الذهب

الخالص إلا هو ، فلما رآها اليهودي قال له : من أين لك هذا الذهب العظيم ، فأعطاه في كل مثقال ستين نصفاً ، وقال هات لي ثانياً من هذا الذهب وأنا أعطيك في كل مثقال سبعين نصفاً ، قال القاضي : ثم أخبرني الناس أنه نصاب ، وأن هذا اليهودي الذي يجلس على باب الصاغة ليس هو يهودياً حقيقة وإنما هو مسلم قليل الدين يلبسه عمامة يهودي ، ويعطيه خرجاً صغيراً على كتفه ، ويعطيه كل يوم أجرته ، ثم إن القاضي طلب فلوسه التي أعطاها للنصاب ، فراحت عليه إلى يوم تاريخه.

ثم إنه يقال لمن يزعم أنه يعرف علم الكيمياء : إنك يا أخي لا تخلص من التبعة في الدنيا وفي الآخرة ، لمن تعامله بدراهم كيميائك إلا إن قلت له هذه الدراهم صنعتي بيدي ، ولعله لا يقبلها منك أبداً خوفاً على نفسه من بيت الوالي ، وأما أنت فقد عرضت نفسك للشنق ، أو النفي من جهة السلطان ، فإنك إن عملتها له وصحت قتلك وإن فسدت قتلك.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول كثيراً : بتقدير صحة الكيمياء ورواجها في المعاملة لا بد أنها تخرج زغلاً ، ولو على طول ، ويصير إثمها على من عملها، وكذلك إثم العقوبات التي تقع لمن ظهرت على يديه زغلاً ، وذلك لتميز ما خلقه الله عز وجل من المعادن ، وما عمله ابن آدم من ذلك بالحيل والتركيب ، انتهى.

وقد وقع لأخي الشيخ أبي الفضل أن شخصاً من أصحابه اشتغل بعلم الكيمياء على طريقة النصابين فزجره وهجره ، وقال : كيمياء الفقراء إنما هو أن يعطيهم الله تبارك وتعالى حرف كن ، ثم إن سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى قال لحجر كان هناك : كن ذهباً فصار ذهباً يلمع ، حتى رآه صاحبه وتحققه ، ثم قال له : كن حجراً فرجع حجراً ، انتهى ، هذا لفظ صاحب الواقعة.

ولعب الشيطان بجماعة كثيرة يدعون التصوف والسلوك ، فأتلفوا ما كان بأيديهم وأيدي أصحابهم من الأموال ، وصاروا كلهم فقراء من الدنيا يأكلون بدينهم وصلاحهم ومجالسهم في الذكر خبزاً وطعاماً وثياباً ، فكان الذي يأكل بالطبل والمزمار أحسن حالاً منهم ، لأنه قد قيل بحل الأكل بالطبل والمزمار في الجملة ، ولعل الباب الذي دخل عليهم إبليس منه أنه قال لهم : إنكم اشتهرتم بالصلاح والزهد في الدنيا ، وما بقي أحد يظن فيكم إلا الصلاح ، ولو ضربتم الزغل ، ولا يكمل الفقير إلا إذا كان متعففاً عن أموال الناس ، ثم وسوس للنصابين ، وقال قولوا لهم نحن نعلمكم صنعة تنفقون وتوسعون منها على أنفسكم وجماعتكم ، فلما خدعهم بذلك أطاعوه ، كما وقع لجماعة من فقراء الروم والعجم بمصر أيام السلطان الغوري ، ونفاهم من مصر بعد قطع أيديهم ، ولعمري إذا كان المريد في بداية أمره يجب عليه في اصطلاح القوم كما كان مذهب أبي ذر رضي الله عنه الزهد في الدنيا بأسرها والخروج عما بيده منها ، فكيف يليق بمن يزعم أنه في مقام الكمال والمشيخة أن يطلب الدنيا بالحرام فضلاً

عن الحلال ، ثم إنه لا يقدر أحد على عمل الكيمياء إلا في المغاير والجبال والخرائب من الحارات ، وذلك من أقوى الأدلة على أن هؤلاء يعرفون أن ذلك زغل ، ولو أنهم عرفوا أن ذلك كان صحيحاً لعملوه بحضرة الناس ، كما يفعل الصائغ في الصاغة في الذهب الحقيقي ، وكما يفعل الأولياء أصحاب الكرامات رضي الله تعالى عنهم ، وأين دعوى هؤلاء الصلاح وهم يخافون من الخلق أكثر مما يخافون من الله عز وجل ، ويجعلونه كأنه أهون عندهم من بعض عبيده.

فعلم أن كيمياء القوم إنما كانت عن حرف «كن» فعجل الله لأحدهم في الدنيا بعض ما يعطيه له في الجنة ، فإن أهل الجنة ، يقول أحدهم للشيء كن فيكون ، فكان تعجيل الله تبارك وتعالى ذلك لأوليائه في الدنيا تقوية لإيمانهم بما يعطيه لهم في الجنة ، وبعضهم أعطاه الله تبارك وتعالى ذلك فلم يتصرف به في هذه الدار ، وادخره للدار الآخرة ، كالشيخ أبي السعود بن الشبل وأضرابه ، فلا تظن يا أخي أن كيمياء السلف كانت بشراء حوائج من العطار ، وإنما كانت أبدانهم تتجوهر من كثرة الأعمال الصالحة ، حتى يسري ذلك إلى فضلاتهم ، فإذا بال أحدهم على حديد أو رصاص صار ذهباً خالصاً ، وانقلبت عينه كما وقع ذلك لبعض مريدي سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه ، ولمريدي سيدي يوسف العجمي رضي الله تعالى عنه ، وشاع بذلك الخبر حتى شاع الخبر أن مريداً لسيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي بال على نحو خمسة قناطير من الرصاص فصارت ذهباً حتى بلغ ذلك السلطان محمد بن قلاوون ، فنزل لزيارة الشيخ لظنه أن ذلك من الكيمياء على طريقة النصابين ، فقال له الشيخ: ليس كل من عرف الكيمياء يقدره الله جل وعلا على العمل بها ويأذن له فيها ، ولا كل من تجوهر بدنه وفضلاته تمشي له القدرة ذلك فرجع السلطان بالخمسة القناطير هدية من الشيخ له.

فاعمل يا أخي على تجوهر بدنك بالأعمال المرضية على وجه الإخلاص ، حتى تصعد صحيفتك كل يوم كأنها مضمخة بالند والعنبر ، ولا يصير لك عمل يكتبه كاتب الشمال أبداً ، وهناك يصح لك عمل الكيمياء بإردة الله تبارك تعالى ، ويعطيك الله تعالى ما تؤمله من خيري الدنيا والآخرة ولعلك إذا فعلت زهدت في الدارين ، دون الله جل وعلا ، فضلاً عن شيء خسيس أمرك الله عز وجل بالزهد فيه.

وقد بلغنا أن شخصاً جاء سيدي أبي العباس المرسي رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، فقال له: إني أسمع الناس يقولون عنك إنك تعرف صنعة الكيمياء ، وأنت تلتقط القمح وتأكل ، فقال: نعم ، ثم أخذ حجراً ، ورفعه في الهواء ، ثم نزل ، فإذا هو ياقوت أضاء منه المكان ، ودخل عليه مرة شخص آخر وقال: أريد أعلمك الكيمياء لتنفق منها على إخوانك ، فقال له الشيخ أبو العباس رحمه الله تعالى قد صحبنا أقواماً إذا قال أحدهم لشجرة أم غيلان: أمطري

ذهباً أمطرت ، فيلتقطه الناس ، فمن وصل إلى مثل ذلك لا يحتاج إلى كيميائك ودخانها.

وأخبرني الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري رضي الله تعالى عنه: أن سبب تسمية سيدي أحمد الزاهد بالزاهد ، مع أن سائر الأولياء لا بد لهم من الزهد ، أن بعض الأولياء علمه الكيمياء الصحيحة ، وقال له: خذ بظفرك تراباً من أي مكان شئت وذره على أي حجر شئت ، وقل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنه يصير ذهباً ، ففعل ذلك ، فصح له ، فأمر بالحجر الذهب فأرمي في بيت الخلاء ، وأمر الرامي أن لا يعلم بذلك أحداً حتى يموت الشيخ ، قال: فأصبح الناس كلهم يلقبونه بالزاهد ، ولم يكن له هذا اللقب قبل تلك الليلة ، انتهى.

وأخبرني سيدي علي المرصفي رضي الله عنه ، أن مغربياً جاء إلى سيدي محمد ابن أخت سيدي مدين رضي الله تعالى عنهما ، وقال له: أريد منك عشرة أنصاف أشتري لك بها حوائج من العطار ، وأطبخ لك نحو قنطار من الذهب تنفقه على هؤلاء الفقراء، فقال له الشيخ: كمل جميلتك واشتر ذلك وادفع ثمنه من عندك ففعل ، ودخل الخلوة فما مكث ساعة إلا ووجه ذلك المغربي محرق ، وذهبت لحيته ، فقال له الشيخ: نحن لا نعمل شيئاً يؤدي إلى حرق اللحى والوجوه ، انتهى.

قال سيدي علي المرصفي: وكان ذلك من حال سيدي محمد ، ألقاه عليه حتى ينفر الفقراء عن الميل إلى مثل ذلك، ولعل المغربي كان يعرف الكيمياء الصحيحة ، انتهى.

ومما وقع لي مع الشيخ أبي الفضل ، وكان مشهوراً بعمل الكيمياء الصحيحة ، أنه جاءني يوماً أوائل صحبتي له وقال: مرادي أعلمك صنعة الكيمياء الصحيحة ، وأعملها بحضرتك في نحو خمس درج ، فقلت له: ليس لي ميل إلى ذلك ، فقال: هذا أولى من أكلك بدينك ، فإن الفقير إذا لم يكن له كسب دنيوي أكل بدينه ، لا سيما هؤلاء الفقراء الذين عندك كلهم محتاجون ، فقلت له: لا أعمل شيئاًمن ذلك ، فقال لي: فماذا تصنع إذا احتاج عيالك إلى شيء من الدنيا من مأكل أو ملبس أو نحوهما؟ فقلت له: أوقد تحت دكان طباخ ، ومهما حصل قسمته بيني وبينهم ، فولى وهو مظهر للغضب عليّ ، ثم جاءني بعد أيام ، وقال: والله ما كنت أريد أن أعلمك شيئا من ذلك ، ولو طارت الرقاب ، وإنما امتحنتك قبل صحبتي لك ، فإني عاهدت أن لا أصاحب أحداً يحب الدنيا وقد ملأت عيني منك من ذلك اليوم ، فقلت الحمد لله رب العالمين.

قال: وقد امتحنت سيدي محمداً الجعفي لما حججت ، وقلت له: أنا أعرف علم الكيمياء فصار يخدمني أشد الخدمة ، فلما عزمت على الرجوع من الحج تبعني ، وقال: علمني ما وعدتني ، فقلت له هيهات كيف أعلمك شيئاً يشغلك عن الله تعالى ، فما زال يقسم عليّ فلا أجيبه ، ثم قلت له: يا شيخ محمد أين شهرتك بالزهد في الشام ومصر والحجاز والروم ،

وأنت تحب الدنيا؟ قال: فاستغفر وتاب على يدي، وكلح مني، انتهى، فالحمد لله رب العالمين.

وأما فتح المطالب فحكمه حكم الغول والعنقاء، يتحدث بذلك ولا يرى له فاعل ثم إنه لا يشتغل بحب ذلك عن الله تعالى إلا من مقته الله تعالى، وطرده عن بابه، مع أن أصحاب الكنوز قد أخذوا العهد على جميع الخدام الموكلين بها، أنهم لا يفتحون ذلك المطلب قط لمن تدين بدين الإسلام إلا إن كفر بالله تعالى، فإن صح أن أحداً انفتح له ذلك المطلب فلا يكون إلا بعد كفره بالله تعالى، فليختر من يريد أن يفتح المطلب دينه أو دنياه، وبعض الخدام يستهزىء بمن يريد فتح المطلب، ويقول له: لا نجيبك إلى فتحه إلا إن أتيتنا بنملة حامل لها أربعة شهور كما وقع للباشا داود لما فتح المطلب بجامع سمانود البحري، وبعضهم يدهن دبر من يفتح المطلب، فيصير يضرط كالطبل العظيم، ثم إذا ضحك أحد من الحاضرين رجع التراب إلى محله، كما وقع ذلك للسلطان الغوري في المدينة المسماة بعين شمس، بالقرب من المطرية، فإن المطالبية لما حفروا وضرطوا وضحكوا رجع التراب الذي حفروه، وقالوا للسلطان: احضر معنا حتى تستحيي الناس منك فلا يضرطون، فحضر فضرط الآخر.

وأخبرني الأمير يوسف بن أبي أصبع، أنهم لما حفروا في الرمل ظهر لهم باب عظيم كباب زويلة، فلما ضرط الناس رجع الرمل إلى موضعه، انتهى.

ووقع لبعضهم أنه طلع للوزير علي باشاه، وأخبره بأن بناحية سمانود مطلباً عظيماً، وأنه يفتح إذا ذبحوا عليه قرداً وعبداً أسود، فاجتمع على ذلك عسكر السلطان، فهرب النصاب، ودخل تحت ستر شيخ حتى رجعوا من غير فتح.

وإنما بسطت لك يا أخي الكلام في هذه المنة بعض البسط مبالغة في نصح الإخوان فقد بلغني أن جماعة من الفقراء وطلبة العلم باعوا كتبهم وأمتعتهم في طلب علم الكيمياء وفتح المطالب، وكان عاقبتهم الحرمان.

وقد أخبرني أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى: أن أصحاب فن الكيمياء مأخوذ عليهم العهد من أيام جابر أن لا يذكروا قط تدبيراً كاملاً، وإنما يحذفون منه أركاناً وشروطاً، ويكلون علم ذلك إلى العالم بالفن، وجميع ما يذكرونه من الرموز واللغوز، وأسماء العقاقير المراد به غير ما يتبادر إلى الأذهان، وقد رأيت إنساناً رأى في كتاب يؤخذ دهن القمح الصعيدي، وقاف الراء الأحمر، وقشور البيض والنطرون فاستخرج دهن القمح وخلطه على الزنجفر، وصحن على ذلك قشور البيض والنطرون الذي يبيض به الغزل، وجعله في دن، ووضع عليه راوية ماء، وصار يحرك ذلك بخشبة فأعلمت الشيخ أفضل الدين بذلك، فضحك حتى كادت عمامته تقع.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا يصح علم الكيمياء من طريق علم جابر إلا ممن صار الذهب عنده كالتراب على حد سواء ، فإنه من علم الحكمة والحكمة لا تدخل قلباً يحب الدنيا ، انتهى.

وسمعته رحمه الله تعالى مرة أخرى يقول: كل شيء في الوجود إذا أضفته إلى شيء آخر على مقدار ووزن معلوم يعلمه أهل الكشف ، صار حجراً مكرماً فالسر إنما هو في معرفة مقدار ما يضاف من كل جزء إلى الآخر ، وذلك يختلف باختلاف الأعيان ، قال: وربما صح ذلك مع بعض الفقراء بحكم الاتفاق ، فيطمع فيعيد العمل ثانياً ، وينسى تحرير المقدار الذي كان وضعه أولاً على الجزء الآخر ، فيصير يعمل زغلاً إلى أن يموت ، انتهى ، مع أن أهل هذا الفن لم يزالوا يبخلون بتعليمه للناس في كل عصر ، إما لعزته عندهم ، وإما لخوفهم على من يعلمونه من القتل ، فإنه إن صح معه وعلمه السلطان قتله ، وإن لم يصح معه قتله أيضاً ، كما مر.

وأخبرني أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى: أن الشيخ بدر الدين التوزي رحمه الله تعالى ، كان يعرف الصنعة ، فكان الأمراء بمصر يخدمونه إلى الغاية ، ولم يعلم أحداً منهم ، وقال: هذا أمر يحتاج إلى دماغ ثقيل.

وقال رضي الله تعالى عنه: على أن طلب الدنيا لا يصح قط من فقير فطم على يد الأشياخ ، وإنما يقع في ذلك من كان دعياً في الطريق ليس له فيها أب ، فإياك أن ترى أحداً من أهل هذا الفن ينتسب إلى أحد الأشياخ الماضين ، فتحسب أن شيخه كان على ذلك الحال ، انتهى.

ولما أنهيت الكلام على هذه المنّة دخل علي شخص برسالة في التنفير عن هذا الأمر من كلام أخي أفضل الدين رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، فأحببت إثباتها هنا لكونها من كلام عارف بالله تعالى ، وبطبائع الكون ، وكلها نصح ، فأقول وبالله التوفيق:

قال الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى ومن خطه نقلت: «أوصي جميع إخواني من المسلمين بالزهد في الدنيا ، وعدم الإصغاء إلى كلام من يزعم من فسقة المتصوفة ، أنه يعرف علم الكيمياء فإنه كاذب ، وذلك لأن جميع العلوم الحاصلة للعبد من عين الجود والمنة ولا يحصرها عقل ولا نقل ، ولا يمكن لأحد الاطلاع عليها إلا من طريق الكشف ، ومحب الدنيا محجوب عن مقام الكشف بألف ألف حجاب ، ثم إن من خصائص من عرف هذا العلم وصح له العمل به أنه لا ينتفع بجسمه بعد ذلك ، بل تحدث لـه أمراض تمنعه التلذذ بشيء من الدنيـا لمزاحمتـه الملوك على حطام الدنيـا التي أمره الله بالزهد فيها ، فعلم أن كل من لم يكن عنده كشف ، وقنع بما رآه مكتوباً في الكتب فهو مغرور هالك ، لأن أهل هـذا العلم رمزوه

برموز لا يعلمها إلا هم ، ومن أطلعه الله جل وعلا من طريق كشفه على حقيقة العلم وغايته وعلم جملته وتفصيله».

وقد استخرج جابر بن حيان الكوفي الأزدي صاحب علم الحكمة علم الكيمياء والحجر والخواص ، من قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]. استخرج من ذلك زبدة علومه ورئيسها وقطبها الذي عليه مدار علم الحكمة وهو علم الميزان الذي هو علم الوقت ، وأشبع القول في ذلك في كتابه المسمى بالسبعة ، وذكر في هذا الكتاب أصل الميزان ، وفي بقية كتبه شروط العمل بها غيرةً على هذا العلم أن يطلع عليه غير أهله ، فما أخطأ من أخطأ في التدبير إلا من حيث جهله بالشروط والموازين ، وظنه أن المراد بتلك المسميات ظواهرها المعروفة بين الناس ، فإذا علمتم ذلك أيها الإخوان فأقول بأعلى صوتي ، حسب الإذن الكريم من رب العالمين ، إلى جميع عباده المقلين المفلسين: إننا ولو أقدرناكم على هذا العلم لم نأذن لكم في العمل به ، فإن العمل به رفع في سنة أربعين وتسعمائة ، كما رفع العلم به من سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ، ولا يجوز الاشتغال بعلم رفع علمه من القلوب ، مع عدم أمان فاعله على نفسه وماله وعرضه وكان الملوك أحق به منكم لعدم خوفهم على أنفسهم ، وغزارة عقلهم ، وحسن أدبهم ، وكمال أخلاقهم ، وسماجة نفوسهم بما يصرفونه على تحصيله ، مع أنهم اشتغلوا بذلك ولم يحصلوا على طائل ، وبعضهم قتل النصاب عليه لما أيس من معرفته لذلك العلم ، لأجل تضييعه ماله.

قال: وقد سألت الله تعالى أن يطلعني على هذا العلم من غير طريقه المعتاد ، فسمعت هاتفاً يقول: اقرأ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. فقرأتها فعلمت أن هذا العلم قد ارتفع من القلوب ، فسررت بذلك ، فإياكم أيها الإخوان من الاشتغال بذلك ثم إياكم ، وعليكم بالصبر على قيامكم في الصنائع والحرف التي بها معاشكم وأجركم على الله تعالى ، ثم اعلموا أن علم الحكمة ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، وهي في الحقيقة مراتب الأقسام:

الأول: علم الكيمياء ، وهو علم الجمادات على اختلاف مراتبها وأحكامها.

الثاني: علم الحجر المكرم ، وهو على صورة تدبير أعيان العالم من حال ظهوره إلى حال استوائه ، من غير نظر إلى كثرة الصور المتولدة في العالم ، المستحيلة ، الحكم والبقاء في الدنيا والآخرة ، ويحتاج صاحب هذا العلم إلى معرفة عين الحجر المكرم المأخوذ بدليل البراهين القاطعة ، وذلك بالكشف الثابت الذي لا يدخله محو ولا تغيير ، فكل من ادعى معرفته فامتحنه بما يخطر على بالك ، فإن علم ذلك مع اختلافه وتنوعه فهو صادق ، وإلا فهو كاذب.

الثالث: علم الخواص الموضوعة في المفردات بغير واسطة الطبيعة الكلية ، وصورها العنصرية المزاجية ، لعلوه عن العالم بأسره ، إذ هو محل خزانة الملك ، وموضع أسراره ،

وليس لهذا العلم دليل عليه من خارج ، إنما يوصل إليه بالعناية الربانية فيطلع الله تعالى من يشاء من عباده على خاصة كل شيء وحكمها بلسان تسبيحها ، فتقول: سبحان من جعلني أنفع لكذا وكذا ، سواء الجماد والنبات والحيوان ، إذ ليس في العالم العنصري المزاجي غير هذه الثلاثة أنواع.

فأما علم الكيمياء فطريقه معرفة الميزان من غير تدبير حكمي ، ويحتاج صاحبه إلى معرفة الذوات وتفاصيلها من حيث الحكم والأثر ، علماً يطابق عين الوصف القائم بذلك الجوهر حكماً وأثراً فعلاً وانفعالاً ، ثم معرفة علم الدرجات والدقائق بالأعراض الملكوتية في الجوهر بسبب انحراف القطر ، أو نقص شرط أو علة في المادة ، مع تمييز الأعراض وحكمها في الاستحالة أو عدمها ثم يحتاج بعد ذلك أيضاً إلى علم معرفة الكم المفصل لتلك الأعراض تفصيلاً لا يقبل القسمة الواضحة بالمثال ، وذلك كله سهل على من أذن له الحق تعالى فيه ، بل ذلك أسهل مما كلفنا للعمل به ، والإيمان به ، من جهة الحق تعالى كتبه ورسله وملائكته وغير ذلك ، والضابط الجامع لعلم جميع ما تقدم هو النظر في ثقل بعضها وخفته ، وصفائه وكدورته ، ومشابهة أدناها لأعلاها في الوصف ، واختلافها عند امتحانها بالنار في اللين واليبس إلى غير ذلك ، مما هو معلوم للعارفين.

ثم ينحصر علم مجموع هذا القسم في معرفة رتبة أنواع الجمادات بأسرها ثم ينقسم ذلك إلى قسمين: قسم مازجت أرواحها وأنفاسها أجساداً ثابتة الحكم والأثر ، لا تقبل ذواتها الاستحالة ، وهو المعادن السبعة ، أو قابلة للاستحالة ثابتة الحكم والأثر وهو الياقوت والبلخش ، وأمثال ذلك ، وقسم لم تمازج الأرواح والأنفاس منه أجساداً ثابتة الحكم ، بل هو سريع الاستحالة حكماً أو عيناً ، سواء استحال بواسطة أم غيرها ، كالأملاح والشبوب والبوارق وأمثال ذلك ، ثم لا يخفى أن الجمادات كلها بأقسامها تحت رتبة واحدة كما يعرف ذلك كل من في قلبه نور ، وأن أعلى ما فيها وأكمل هو المعادن السبعة ، وهي المطلوبة لأن تغير أوصاف بعضها إلى بعض بواسطة عقار أكمل منها رتبة وأثراً ، وليس ذلك ثم أبداً لما ذكرناه ، من أنه ليس في جنسها أعلى منها فطالب النتيجة والاستحالة من الكباريت والزرانيخ والأملاح وغير ذلك ، مما هو داخل تحت هذه الرتبة ، كالطالب لما لا يمكن وجوده.

ومثاله مثال من حمل جملاً على بغلة ، أو طيراً على جمل ، وطلب نتيجة صحيحة خالية من المخالفة والمشابهة ، وكل من ادعى صحة النتيجة في ذلك ، وأقام على ذلك برهاناً طالبناه بالامتحان بنار التخليص ، إما رؤية حقاً وإما تعليقاً ، فإنه يفتضح ، إذ لا يثبت إلا ما كان على الميزان الحق الواقع على يدي إدريس عليه الصلاة والسلام ، كل ذلك حتى لا يدعي أحد ما فوق مرتبته ، فيكذبه ميزان الحق ، فاقطعوا أطماعكم أيها الإخوان عن كون ذلك يصح لكم في هذا الزمان ، فإن العمل بعلم الميزان الحق قد رفع أوائل المائة السادسة ،

كما رفعت الطريقة المسماة بالميزان بين أهل عصرنا أوائل المائة الرابعة ، كما رفع العلم بها في أوائل المائة السابعة ، وما بقي مع أحد علم بها غير أهل الكشف الثابت لا غير ، لأنه ليس عارف يظهره الله عز وجل بين العباد إلا بعد أن يغمسه طباقاً في ظلمات الطبيعة ، ليشهد في نفسه التغير والاستحالة قبل شهودها في الكون ، ولولا ذلك لما قدر أن يترجم عن شيء بأحسن وصفه أبداً.

وأما علم الحجر المكرم فهو الذي لا يقبل الاستحالة بوجه من الوجوه ، إذ لو قبل الاستحالة لفسد نظام العالم ، وحكمت فيه كلمة الاستحالة ، فكان الجماد ينقلب نباتاً ، والنبات حيواناً ، والحيوان إنساناً ، ولو لم يكن ثابتاً لم يوصف نحو ثلثي العالم بالبقاء ، وإن كان عين ما ثبت هو عين ما استحال وعكسه عند أهل الكشف ، الناظرين في المرآة الكبرى من خلف ظهور الاستواء ، ومن شهد ذلك شهد صورة العدم ، وعلم أن كل ما سلم من التغيير والتبديل هو الحجر المكرم ، ومن لم يكشف له عن ذلك لا يعرف الحجر المكرم ولو عبد الله جل وعلا عمر نوح عليه السلام.

وإيضاح ذلك أن تعلم يا أخي أن كل ما خرج بعد الإنسان من جميع ما دار عليه الفلك السفلي ، سالماً من تأثير النار والماء والهواء والتراب ، فهو الحجر المكرم ، لأنه لو أقام في الطبيعة أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، لم يتغير عما خلق عليه أول مرة لا صورة ولا صفة ولا ذاتاً ، فهو كالكليات المخلوقة للبقاء ، وما بعد هذا البيان من بيان.

وأما علم المفردات المؤثرة بالخاصية دون الطبع تأثيراً أعلى وأثبت من تأثير الطبيعة المضادة في الحكم والمحكوم به ، أو عليه ، وهو عام في الجماد والنبات والحيوان ، فليس ذلك لأحد إلا لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، ومن ورثه في المقام ، وهم قليلون في الأولياء ، لا يكاد يظهر لهم عين ، وقد أمروا بكتمه إلا عن أفراد ، ولا يدخل هذا القسم رفع ولا تغيير ، بل هو على حالة واحدة فرد الفرد ولا ينال بالكسب إنما هو هبة من الله تبارك وتعالى سالمة من الأسباب والروابط ، خارج عن علم الحكمة لأن موضوعها إقامة الأسباب ، وإثبات الوسايط في محلاتها اللائقة بها بخلاف علم خواص المفردات ، لأنه أمر خارق للعادة غير معقول في نفسه ، ثم لا يخفى أن هذا القسم ليس من علم الحكمة في شيء ، وإنما ذكرناه هنا لحكمة أطلعنا الله جل وعلا عليها ، إذ ما من عبد حفته العناية الربانية إلا ويصير يقلب عين كل شيء توجه إليه بقلبه كالإكسير الخالص ، أو المدبر لصورة المعدن الناقص ، بل يكون كلامه وسائر أحواله حتى بوله وغائطه إكسيراً ، ثم لا يخفى أن صاحب هذا العلم يحتاج إلى ثلاثة أمور:

الأول: أن يعطى معرفة الحكمة والأثر على وجه لا يقوم الأثر به إلا لحكمة في العدد.

الثاني: أنه يعطى الحكمة في معرفة الوقت الذي يتم فيه وجود التأثير.

الثالث: أن يعرف الوقت الذي تقوم فيه الحكمة ، وكذلك المكان المناسب للقوة المؤثرة أو المعين لها ، هذه الثلاثة الأمور يجهلها غالب العارفين فضلاً عن غيرهم ، لأنه ما ثم عارف همته مصروفة إلى هذا العلم أبداً حتى يعرف شروط صحته ، ومعلوم أن صدقات الحق تبارك وتعالى لا تعطى إلا للمحل القابل لذلك ، ولو قدر أن عارفاً أعطى شيئاً من غير قبول محله له لم يثبت عنده.

قال: ويقع لبعض العارفين أن الله تعالى يطلعه على صحة هذا العلم ، ثم يغفل عنه فيفسد عمله ، ولا يعلم من أين دخل عليه الفساد ، مع أنه دخل عليه من ذهوله عن كون ذلك ليس من علم التجربة الذي ليس هو من قدرة البشر ، إذ ليس في قدرتهم العلم بما تولد من الكواميش المختلفة باختلاف التراكيب والموازين والعقاقير ، وقد قيل: إن هرمس الأول أخطأ إحدى عشرة مرة ، مع أن علمه أخذه من طريق الوحي والكشف فكيف بغيره؟

قال الشيخ أفضل الدين: وقد سألت الله تبارك وتعالى وأنا دون السبع من السنين أن يطلعني على معرفة هذه الأقسام الثلاثة المتقدمة ، على وجه لا يبلغه أحد من بعدي فأعطانيه ، وأقمت في محل الاستعداد للعمل به نحو أربع سنين ، ثم سألت الله جل وعلا أن يسلبه مني ، فسلبه ، فله الحمد على كل حال ، قال: وصفة تدابير هذه الأقسام الثلاثة مذكورة في كتب أهل الفن ، ولكن نذكر لك يا أخي منها طرفاً:

أما القسم الأول الذي هو علم الكيمياء ، فهو أن تعلم أن الله تبارك وتعالى ابتدأ الأشياء في عالم الأرواح ممثلة على الصورة التي ظهرت في هذا العالم السفلي ، فكان لها من الحكم ما للأرواح ، ثم إن الحق جل وعلا استنزلها من ذلك العالم كارهة للفرقة ، فنفرت أرواحها منها ، واستترت في باطن أحد العناصر المستديرة تحت فلك القمر ، لعدم قوة سلطانها ، فانحبست فيه كارهة ، ولم تعلم أن العناصر ما توسطت بين العالم الأعلى والأسفل إلا لتعطي الخواص المودعة فيها ، وتسلمها إلى الأعيان المستحقة لها ، لتظهر الآثار على الأعيان ، ويعم حكم الافتقار جميع العالم ، فافتقرت الأرواح إلى أجسادها افتقار عجز وقهر ، ودخلت فيها دخول مكره خائف من جور ظلمة الكون عليها ، فأوجب ذلك فيها هنا الخسة ، وعدم الشرف والثناء ، وعدم النفع بها ، حتى صارت في حد التراب بل أنزل منه ، وقصرت نفعها على أجسادها الثابتة النفع في هذا العالم بحسب طاقتها ، وثبت من ذلك طائفة من الجمادات فلم تستنكف عن هذا العالم ، بل قامت فيه قياماً تاماً بحسب ما قيدت به ، وصارت ناظرة إلى عالمها الأول نظر ذل وانكسار ، فأوجب لها ذلك العز في الدنيا والشرف الذي استعبد جميع العالم له إلا من شاء الله تعالى ، وصارت هذه الجمادات النافعة محبوبة بالطبع ، مدخرة عند الملوك ، معظمة عند العارفين بالله تعالى ، ثم إن الحق جل وعلا استخلص من تلك الطائفة الثابتة جملة أخرى ثبتت لما ثبت له تلك الطائفة ، لكن من غير التفاتها إلى موجدها ، فأقبلت

على ما أمرت به كأنها لم تخلق إلا له ، فقامت في العالم قياماً عم نفعها العالم كله ، وافتقر إليها افتقاراً كلياً من غير تكبر ولا تمني ، حالة أعلى مما هي فيه مع صبرها على النار ، وعلى ما يراد منها من الآلات الشريفة أو الخسيسة ، وانقادت لجميع ما في العالم من صغير وكبير ، وعالم وجاهل ، ومؤمن وكافر ، ولما علم الحق تبارك وتعالى في سابق علمه صدق ذلك من قبلها استعبد لها خلقه باحتياجهم إليها ، وهذه هي حقيقة السيادة ، لأن شرط القائم في الخلق بحق أن يقوم بإطعامهم وحفظهم وإكرامهم وقبول سؤالهم ، ومكافأتهم لمن يأتي بشيء إليه بأكثر مما أتاه به لا يطالب أحداً منهم بما عجز عنه من تأدية حقه ، بل يسامحه في كل ما ادعى العجز عنه ، وغير ذلك من أخلاق الله عز وجل مع عباده ، فإنه يرزقهم أطاعوه أم عصوه ، وقد ورد أن الله جل وعلا عاتب خضر موسى عليه الصلاة والسلام في قتله الغلام ، وقال: لو أن الغلام مال بقلبه إلي طرفة عين لأخذتك به ، انتهى.

فإياكم أيها الإخوان بعد أن سمعتم ما ذكرناه لكم في هذا القسم من أحوال الجمادات أن تطلبوا أن تنقلوا جماداً عن رتبته التي خلقه الله جل وعلا عليها إلى أعلى منها ، فإن ذلك غير ممكن، ولا ينالكم منه إلا العناء والتعب ، وربما قتلكم الحكام بسبب ذلك ، واعلموا أن جميع تدابير هذا القسم يرجع إلى معرفة أصول طرق التدبير وهي العلم بأحكام المراتب السبعة وطبائعها، التي هي الجمادية المعدنية، ومعرفة ما يمكن انقلابه إلى الرتبة الذهبية ، أو الفضية بسهولة من غير واسطة أمر آخر ، أو بأدنى شيء من التدابير ، ومعرفة ما لا يمكن انقلابه إلى ذلك إلا بواسطة شيء أو بكثرة علاج ، فإن الذهب قد جعله الله جلَّ وعلا كاملاً في النشأة، وجميع الأوصاف ، فلا يدخل في تدبير أبداً إلا عند أجهل الجاهلين ، إذ ليس فيه قوة صابغة زائدة على ذاته ، فيطلب منه صبغ شيء أو الإعانة عليه ، إذ لو كان فيه قوة زائدة لم تتماسك أجزاؤه على هذه الصورة.

وأما الزئبق فهو الواسطة في حفظ الصورة الإكسيرية ، وحلها إلى المعدن الذي هو من جنسه ، لكن بشرط ثباته إلى القوة الحديدية ، لأن الإكسير للطافته يفرق كثائف المعادن اليابسة ، فضلاً عن غيرها مما عدمت فيه الكثافة حتى صار في حد المياه وحكمها.

وأما النحاس فليس فيه قوة خالصة توجب فعلاً أو انفعالاً ، لأنه كالخنثى لا يعد مع الذكور ولا مع الإناث لشبهه بالذهب والفضة والقصدير والرصاص ، فلا تقربوه قط في تدبير ، ولا في إلقاء ، فإنه لا يقلب عينه فضة إلا إكسير الحجر المكرم ، أو نبات بالخاصية وغير ذلك لا يكون.

وأما الرصاص فذكر ثابت لا يقلبه إلى الذهب لا صورة إكسير ثابت من الحجر أو غيره ، لكن مع واسطة ثبات الزئبق وعقده في الإكسير ، واستحالته معه ، كل ذلك لمجانسة الرصاص للذهب ، وقربه منه.

وأما القصدير فهو أقرب الجميع إلى الفضة ، لعدم المانع القائم بذاته من كثافة الأخلاط ، فمن ابتلي بعدم قبول النصح ، وترك العمل بهذا الأمر ، فلا يقرب غيره ، واعلموا أن عيبه هو الرخاوة والنتن والخرير والصرير ، وموجب ذلك عدم طبخ الحرارة ، وانحلال اليبوسة وممازجها له في محل تكوينه ، فما كان حاراً يابساً من المفردات المجففة عن سيلان الأدهان ، أو المياه الحارة المكررة فهو دواؤه لو كان العمل صحيحاً في هذا الزمان ، وقد يخرق الله جل وعلا العادة بصحته لبعض أوليائه.

وأما الفضة فهي كاملة النشأة في ذاتها ورتبتها ، وهي بالإضافة إلى الذهب أقرب من القصدير ناقصة الرزانة والصفرة ، وعلاج الفضة أقرب من القصدير إليها ، لكن من غير واسطة معدن آخر ، لا كما يفعله الجهلة من إدخال النحاس عليها بقصد صبغها ، ثم يسلبونه عنها ، فإن ذلك يفسد العمل لكثرة عيوبه ، ويزيد الذهب صلابة وتكسيراً وسواداً ، فمن أراد عود الذهب سالماً من ذلك فليطفئه بالزيت الحار مراراً إن لم يقدر على تكرير السبك سبع مرات فأكثر ، ولم أعلمكم بذلك إلا لكثرة شفقتي عليكم ، وخوف تلف الذهب الذي تكلفتم شراءه بدينكم وإيمانكم ، ثم إن تدبير هذا القسم ليس فيه تقطير ، ولا تنكيس ، ولا طبخ ، ولا تحليل ، ومن عمل شيئاً من ذلك فهو زغل ، لأن تدبيره لا يزيد على ثلاثة عقاقير غير الواسطة ، وهي نفس ، وروح ، وجسد ، بميزانها الموضوع من قبل الحق جل وعلا.

وأما صفة تدبير الحجر المكرم فهو أن تعلم يا أخي أن المراد من التدبير الفرقة أو الاجتماع ، أو السلب والنقص فيه لا في غيره ، لأنه لا يقام حافظاً لأجزائه إلا من كان خارجاً عن حكم الطبائع البسيطة عليه كما مر ، فمن عرف الآنية عرف المأنى فيها ، وهذه سنة الله تبارك وتعالى في إيجاد الكمل من المخلوقات ، ألا ترى إلى النطفة كيف خروجها وتقلبها في المحلات المناسبة لها حكماً وطبعاً ، أصلاً وفرعاً ، فإن تدبير هذا العلم محصور في تدبير الصور الإنسانية من خلقها نباتاً أولاً ، ثم إطعامها دماً ، ثم تسويتها نطفة جارية ، ثم انتقالها إلى محل أوسع من محلها الأول ، فصارت علقة ثم صارت بواسطة الغذاء مضغة ، ثم بواسطة هيجان حرارة المحل لطبخ الطعام والشراب عظاماً ، ثم بواسطة انحصار دم الحيض وطبخه في المعدة لحماً كاسياً للعظم ، ثم بواسطة أحوال الأبوين روحاً مجسداً ، ثم بواسطة القوة النافخة يكون دفعه إلى هذا العالم الأوسع ، ثم بواسطة الحرارة وفراغ المحل اندفع الدم من المعدة إلى الثديين وصار لبناً خالصاً ، ثم لا يزال على هذا التدريج حتى يستقر في الجنة أو النار المناسبين له بالحكم والطبع ، وحينئذ يأمن كل فريق من افتراقه من محله المخلوق منه.

وأما صفة تدبير المفردات فهو أن تعلم يا أخي : أن الطريق إليها كالطريق إلى علم الأفراد المؤثرة في العالم بالخاصية ، وذلك من علوم الوهب لا من علوم الكسب ، وليس الكلام في ذلك مما أذن الحق تبارك وتعالى لنا في إفشائه : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ

﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. وقد خالف قوم فطلبوا ذلك من غير طريق الوهب فخسروا الدنيا والآخرة ، ونفرت عنهم أصحابهم الذين كانوا يعتقدون فيهم القطبية وصاروا يصفونهم بأنهم زغلية ، نسأل الله عز وجل العافية لنا ولإخواننا من ذلك. انتهى.

ما ذكره أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى في رسالته.

وسمعته مرة يحذر من طلب فتح المطالب ، ويقول: من طلب فتحها فليقرأ كتاب خواص الحروف المرقوم في اللوح المحفوظ ، على الملائكة الموكلين بظهور الأحرف وحفظها ، ثم يقرأ كتاب سر خواص الأزمنة على كاتم سر الشمس والقمر ، ثم يقرأ كتاب خواص العقاقير المناسب روائحها لأرواح الجان الموكلين بحفظ المطالب على شيخ مشايخ هذه الطوائف إبليس اللعين ، ولا تطلبوا فتح المطالب من غير هذه الطرق ، فافهم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: من حين كنت دون البلوغ تساوي التراب والذهب عندي على حد سواء في عدم الميل إليه زيادة على التراب ، وقد أقمت في هذا المقام نحو سنة ، ثم أطلعني الله جل وعلا على الحكمة في ترجيح الذهب على التراب ، فرجحته على علم مني برتبته ، لا بحكم الطبع كأبناء الدنيا ، وهذا الحال أكمل من الأول ، فصورتي الآن صورة محب الدنيا ، والقصد مختلف ، لأني إنما أضع الذهب عندي في بعض الأوقات أدباً مع الله تبارك وتعالى الذي جعل البيع والشراء به دون غيره ، فالمراد بالزهد في الدنيا حيث أطلق شرعاً الزهد في ميل القلب إليها لا في إمساكها من غير ميل ، فافهم.

وقد بلغت بحمد الله عز وجل في الزهد إلى أنه لو أمطرت السماء ذهباً ، وصار الناس يجثون في أحجارهم ما تحركت إلى ذلك خوفاً على نفسي من الوقوف للحساب ، وأما ما نقل عن أيوب عليه السلام أنه صار يحثو في ثوبه من الذهب لما أمطرته السماء فهو معصوم من الحساب على مثل ذلك ، كما أشار إليه قوله تعالى في حق سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص: ٣٩]. فمن أعطاه الله تبارك وتعالى الأمان من الحساب فله أن يقتدي به في ذلك ، كما وقع للعباس عم النبي ﷺ.

وكذلك بلغت بحمد الله عز وجل من الزهد إلى أني لو مررت على تلال الذهب والفضة ما طأطأت رأسي لأخذ دينار واحد أو نصف واحد إلا لحاجة في ذلك اليوم ، أو لدفعه في دين كان عليّ ، ثم إذا أخذت شيئاً لا آخذ قط زيادة على قوت يومي.

وكذلك بلغت بحمد الله عز وجل من الزهد إلى أنه لو دخلت علي بغلة محملة ذهباً من مطلب أو غيره في ليل مثلاً لأخرجتها بحملها ، وأغلقت بابي خوفاً من الحساب ، واقتداء برسول الله ﷺ ، لما عرض عليه جبرائيل عليه السلام جبال الذهب والفضة والزمرد ، فردها.

وكذلك بلغت بحمد الله عز وجل من الزهد أنه لو كتب السلطان لكل واحد من الفقراء ألف دينار ، وكتب اسمي معهم ، فعارضني في ذلك شخص ، ومسح اسمي ، وقال: هذا لا يستحق ذلك لفسقه مثلاً ، لم تتغير مني عليه شعرة ، بل أنشرح لسعيه في حرماني من الدنيا التي أنا غير محتاج إليها.

وكذلك بلغت من الزهد بحمد الله تبارك وتعالى: أنه لو قدر أنني جمعت من الدنيا إردباً من الذهب ، فسرقه شخص أو أخذه من بين يدي ، لا تتكدر مني عليه شعرة ، ثم إني لا أرى ما ذكرته مقاماً عظيماً ، لأنه من أخلاق المريد أول دخوله في الطريق ، فلا ينبغي لأحد من أبناء الدنيا استبعاد ذلك على فقير قياساً على نفسه هو ، ومن كان بهذه الصفة فهو غني عن عمل الكيمياء ، والتعب في حفر المطالب ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كراهتي للأكل من شيء أعطيته على اسم كوني من الصوفية ، أو على اسم كوني من الصالحين ، وكذلك لم آكل قط من خبز الخوانق المشروطة للصوفية لأن اسم الصوفي عرفاً لا يطلق إلا على من كان على قدم الصوفية المذكورين في رسالة القشيري وغيرها ، من الزهد ، والورع ، وحفظ الجوارح كلها عن الحرام ، بحيث يشهد له أهل العقل من العلماء بذلك ، وأما من تكون له سريرة سيئة لو ظهرت للناس لمقتوه وازدردوه ، فليس له أدباً أن يأكل مما وقف على الصوفية ، وهذا هو الباب الذي دخل منه الشيخ جلال السيوطي رحمه الله تعالى لما قام عليه صوفية الخانقاه البيبرسية ، وسعيد السعداء ، ولكن كان عليه بعض لوم في طلبه منع المحتاجين من ذلك ، وإنما كان الأدب أن يعرض ذلك عليهم فمن شاء تبعه على ذلك ، ومن شاء أخذ منه وأكل بقدر الحاجة.

وقد كان شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى لا يأكل إلا من خبز الخانقاه سعيد السعداء ، ويقول: إنها عمرت بإشارة رسول الله ﷺ ، وكان واقفها من الصالحين في الملوك. اهـ.

فإن كنت يا أخي في مقام الشيخ زكريا في التصوف فكل ، وإلا فالورع الترك ، فإن الشيخ زكريا ، والشيخ جلال الدين وأضرابهما كانوا من الصوفية بلا شك ، إذ الصوفي هو كل عالم عمل بعلمه كما مر تقريره أوائل الكتاب ، وإنما امتنع الشيخ عبد الله المنوفي رحمه الله تعالى ، شيخ الشيخ خليل المالكي من سكنى الخانقاه ، وقال: إن هذه موقوفة على الصوفية وأنا لست بصوفي تواضعاً منه ، وإلا فقد أجمع الخلق على جلالته وعلمه ، وأنه من أكابر أولياء مصر ، فاعلم ذلك.

ولما خرجت جهات زاويتنا أيام التفتيش لجهة السلطان ، قال لي جماعة الديوان: قد سمح لكم بذلك الباشاه الذي هو نائب السلطان ، والآن وقد صرتم تأكلون حلالاً ، وفرح

بذلك المجاورون ولم أفرح أنا بذلك ، لعلمي بأن الباشاه لولا سمع بي أنني صالح لما أعطاني ذراعاً من أرض بعد أن طلع ذلك للسلطان بقرينة ما يفعلون مع من لم يشتهر بصلاح ، فلا تسأل يا أخي ما أنا فيه الآن بسبب الحذر أن آكل كما قد أكل عيالي من ذلك ، من حيث إنه أكل بالدين الذي هو أعظم إثماً من الأكل بأمور الدنيا فانتقلنا من الأخف إلى الأشق ، فإن لكل مسلم شبهة حق في بيت المال ، فله الأكل منه ، ولا هكذا الأكل بالدين ، فإنه لم يؤذن لأحد فيه ، فأسأل الله جل وعلا حمايتي واللطف بمن أكل من ذلك من عيالي ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة شفقتي على جميع المسلمين ، وولاة أمورهم ، حتى أني ربما أمرض لمرض ولي أمري ، وأشفى في وقت شفائه ، ومن شفقتي على المسلمين وولاة أمورهم أنني أحوطهم في كل يوم وليلة بما ورد في الأخبار والآيات مما يدفع عنهم الآفات المعلقة على ذلك ، حتى أني أحوط جسورهم أيام زيادة النيل خوفاً من أنها تنقطع قبل وقتها أو يقطعها العصاة كذلك فيعدم الناس ري أراضيهم أو بعضها ، وكذلك أحوط زروعهم من الدودة والهياف والفأر ونزول المطر الذي يحرق الزرع بعد اشتداد حبه ونحو ذلك إلى طلوع الثريا ، لما ورد مرفوعاً «**إذا طلع النجم**» يعني الثريا «**أمن الزرع من العاهة**»[1] اهـ.

وكذلك أحوط زهر الفواكه والخضروات خوفاً من البرد والحر الشديدين ، لأنه يسقط الزهر فيخسر الناس الذين يزنون المال على ذلك معجلاً ، وكذلك أحوط من يغفل عن الله عز وجل من رعاع الناس في مثل يوم خروج المحمل أو خروج الحجاج أو دخولهم ، أو كسر النيل أيام الوفاء ، أو دخول نائب جديد البلد أو عمل مولد أو عرس ونحو ذلك ، كالتفرج على البهلوان ، فأحوط جميع هؤلاء وأحوط دورهم وحوانيتهم خوفاً أن تسرق اللصوص ما فيها حال غيبتهم.

وقد رأيت في واقعة وأنا شاب أنني في أرض من بلور واسعة وعليها سور شاهق نحو السحاب ، وليس له باب ، وأنا خلف الشيخ نور الدين الشوني شيخ مجالس الصلاة على رسول الله ﷺ في مصر وقراها ، بل وجميع أقطار الإسلام بمقتضى أنه هو أول من وضع صورتها ، فبينما نحن نمشي إذ نزل من السماء قربة من ماء في سلسلة من ذهب إلى أن وقفت بقدر ما يصلها الفم فقط من القائم ، فشرب الشيخ نور الدين منها ، ثم أعطاني الفضلة ، ثم جاوزته ماشياً ، وتركته حتى غاب عني ، فنزل شيء يشبه اللوح وهو في سلسلة من فضة إلى

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (١٠٤) ، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٢١٥٩٨) ، ونسبه للطبراني في الصغير ، وكذلك ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٧٤٤) ، ونسبه للطبراني في الصغير.

أن وقف بقدر ما يصل إليه الفم كذلك ، فرأيت فيه ثلاث عيون تتفجر ماء بارداً أحلى من السكر ، ورأيت مكتوباً على العين العليا مستمد هذه العين من حضرة الله تعالى ، وعلى العين التي تحتها وهي الوسطى مستمد هذه العين من العرش ، وعلى العين السفلى مستمد هذه العين من الكرسي ، فألهمني الله تبارك وتعالى أني أشرب من عين العرش ، فقصصت ذلك على الشيخ شهاب الدين الهرامزي الواعظ المعبر فقال: لا أعبر لك ذلك إلا بدينار ، فأعطاه الشيخ نور الدين الشوني ديناراً ، فقال لي: هذا يتخلق بالرحمة على جميع العالم ، لأن الحق تعالى ما ذكر أنه استوى على العرش إلا باسمه الرحمن. ا هـ.

فمن ذلك اليوم وأنا أرحم جميع الخلق ، فلكل مخلوق عندي رحمة تناسب حاله من مؤمن وكافر ، وهذا الخلق من أعظم أخلاق الفقراء ، ولم أر له فاعلاً من إخواني في مصر وقراها إلا قليلاً ، وغالبهم إنما يحمل هم نفسه أو هم من يلوذ به فقط ، وقد تقدم في هذه المنن أن مقام تحمل هموم المسلمين ليس هو لكل فقير ، وإنما ذلك لبعض أفراد كسيدي إبراهيم المتبولي ، وسيدي علي الخواص ، وتقدم أيضاً أن من علامة من يحمل هم المسلمين أن لا يفطر أيام همومهم ، ولا يضحك ، ولا يدخل حماماً ، ولا يبخر له ثياباً ولا غير ذلك ، بل يكون حاله كحال صاحب المصيبة العظيمة يوم موت أعز أولاده أو إخوانه ، أو خراب دياره ، أو عزله من ولايته ، وتقدم أني أمرض كثيراً لمرض أصحابي ، أو لمرض ولي الأمر من سلطان أو نائبه ، ولما مرض السلطان سليمان مرضت أيام مرضه بمثل مرضه ، وكذلك الباشاه علي الوزير في سنة ستين وتسعمائة ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم مدحي لأصولي وفروعي عند من لا يعرفهم إلا لغرض صحيح شرعي ، فقد قالوا: من اعتمد على جده فاتته الفضائل ، وقد رأيت من الفقراء من عايروه بجده وقالوا: فلان ليس له أصل في المشيخة ، ولا كان أحد من آبائه شيخاً ، وإنما أخذ المشيخة باليد ، فتشوش لذلك ، وعمل لأبيه تابوتاً وستراً ليصير له أصل في المشيخة.

ودخلت على بعض المتمشيخين مرة ، فرأيت أفعاله بعيدة عن أفعال الأولياء وأولادهم ، الذين يزعم أنه أخذ عنهم ، أو أنه منهم ، فلما استشعر مني ذلك خاف من احتقاري له ، فصار يقول: ما رأيت أحداً في هذا الزمان على قدم والدي في العبادة ولا مشايخ الزوايا ، فإنه كان لا يمل من صيام النهار ، ولا من قيام الليل ، إشارة إلى أنه عريق في المشيخة ، ثم قال: والله إني عجزت أن أفعل مثل فعله يوماً واحداً ، فما قدرت مع أن والده رجل مستور ليس له شهرة بالصلاح مثل ولده المذكور ، فصار المعتقدون في ولده هذا يقولون: إذا كان سيدي الشيخ ادعى العجز عن عمل والده فوالده أمر عظيم ، فليتفقد من يمدح والده أو جده نفسه ، فربما كان ذلك لحظ من حظوظ النفس.

ورأيت شخصاً من المتمشيخين عمل له مدفناً وقبة عظيمة صرف عليها جملة من المال ،

ورأيت آخر عمل له مدفناً ومقصورة في حال حياته ، وبعضهم عمل له مقصورة وتابوتاً ، فأنكر عليه أهل حارته ، وسرقوا ستره بعد موته ، وكسروا تابوته ، وقالوا: هذا لم يكن شيخاً ، فكيف يحاكى بالمشايخ.

وقد أدركت نحواً من مائتي شيخ ما رأيت أحداً منهم اعتنى بشيء من ذلك ، وإنما المعتقدون هم الذين يصنعون ذلك بعد موتهم تعظيماً له وإكراماً.

وقد كان سيدي الشيخ نور الدين الشوني المذكور في النعمة السابقة المدفون بباب زاويتنا ، يقول كثيراً: كم من ضريح يزار وصاحبه في النار ، نسأل الله عز وجل العافية ، فإياك يا أخي ثم إياك من الافتخار بجدودك أو بأعمالك فإنك لا تعلم ما إليه مصيرك ، انتهى ، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ: تمييز حظ نفسي من حقوق الباري ، فأطعم نفسي وأسقيها وألبسها من حيث كونها أمة الله عز وجل ، لا لما أجده من اللذة والتقوي بذلك مع الغفلة ، وكذلك لا أحب أن يعفو الله تعالى عني مثلاً لأجل ما في ذلك من راحة نفسي ، وإنما أحب العفو من حيث إن الحق جل وعلا أخبر عن نفسه أنه يحبه ، فلولا محبة الحق تعالى للعفو ما أحببته ، وإن كان فيَّ جزء دقيق يحب العفو من حيث راحة البدن فهو ضعيف جداً ، وهذا مشهد ما رأيت له ذائقاً من أهل عصري إلا قليلاً ، وقد تقدم نظير ذلك في مواظبتي على الوضوء بالماء البارد في الشتاء لأقاسي الألم من البرد ، حتى إذا طلبت النفس إسباغ الوضوء في أيام الصيف وتلذذت بالماء البارد قلت لها: إنما تلذذك الآن بالماء لموافقةحفظ نفسك لا امتثالاً لأمر الشارع ﷺ لك بالإسباغ، وهناك تندحض حجة نفسي إذا كانت كاذبة ، فلولا تألمها بالماء أيام الشتاء ما عرفت تميز حظ الشرع من حظ نفسها أيام الصيف ، فاعمل يا أخي على هذا الخلق ونظائره ، فإن كل شيء لا يكون القصد به محض امتثال أمر الحق جل وعلا فهو مضمحل ، فقس على هذا الخلق جميع الأفعال والأقوال ، ولا تحب شيئاً ولا تبغض شيئاً إلا تبعاً للحق جل وعلا ولا يقدح في ذلك شوب الباعث عليه بحب دخول الجنة ، وإن كان بمحض الامتثال أكمل ، فافهم ذلك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم بداءتي بالزيارة لمن أعلم منه المكافأة لي خوفاً من تكليفه بزيارة نظير البداءة بالهدية لمن أعلم منه المكافأة عليها ، فإن البداءة بالهدية والزيارة ما شرعت بالأصالة إلا لتأليف القلوب المتنافرة ، وأنا بحمد الله تعالى أحب جميع المسلمين ولا أكره أحداً منهم إلا بطريق شرعي واضح كالشمس ثم لا أبغض من أخي المسلم إلا صفته المذمومة لا ذاته ، ومتى تاب عن ذلك الفعل المذموم أحببته ذاتاً وصفة.

وممن أترك كثيراً زيارته من إخواني مع شدة الاشتياق إليه خوفاً من تكليف نفسه بمكافأتي في الزيارة الأخ الصالح العالم الورع ، الشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني ، المفتي بجامع

الأزهر ، وشارح المنهاج والتنبيه ، والشيخ الصالح الشيخ سراج الدين الحانوتي الحنفي ، والشيخ العلامة الشيخ نور الدين الطندتاتي ، نفعنا الله تعالى ببركاتهم.

فاعلم ذلك ، وإياك أن تحب تردد أحد من العلماء والصالحين إليك ، فإنك لا تقدر على أن توفيهم حق طريقهم في المشي إليك ، فافهم ذلك ، والله عز وجل يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم نصبي على الناس بإيهامهم أني أعرف علم الكيمياء بقصدائتلاف قلوبهم عليّ ، حتى أرشدهم إلى سلوك طريق القوم ، كما عليه جماعة ممن برزوا في هذا الزمان من فقراء العجم بغير إذن من أشياخهم ، فضلاً عن وقوع الإذن لهم من الشارع ﷺ ، فإن ذلك خروج عن الطريق ، وضلال للأتباع ، وقد أجمعوا على أن فساد الانتهاء من فساد الابتداء ، وربما تمادى الأمر بالشيخ فتلف بالكلية ، وصار زغلياً ، وقد أتلف هذا الباب خلائق لا يحصون ، وصار أصحابهم يجلبون أولاد المباشرين والتجار والعلماء إلى أشياخهم ويقولون لهم: شيخنا يقلب الأعيان ، ويجعل الرصاص ذهباً ، فيتركون الاشتغال بالعلم أو بالتجارة التي بها قوام معاشهم ، ويصير أحدهم يجعل له عذبة وجبة بيضاء ، ويطلب من ذلك النصاب ما لا يصح له كالذي يطلب نتاجاً من ركوب جمل على بغلة لا تلد ، فإياك يا أخي أن تفعل مثل ذلك ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: إلهامي جوامع الكلم من التسبيح والاستغفار ، والصلاة على رسول الله ﷺ لأشتغل بذلك إذا عزب عن علمي ما ورد عن الشارع ﷺ في ذلك ، لا سيما كلما ضاق عمري ، أو ضاق زمن قراءة وردي في الليل أو النهار.

فمما ألهمته لما دخلت سنة تسع وخمسين وتسعمائة أني أقول أول ورد الليل «بسم الله الرحمن الرحيم على إيماني وإسلامي وإحساني» ألف مرة فقلت لملك الإلهام في نفسي: لم قدمت لي الإيمان على الإسلام ، ومرتبة الإسلام عند العلماء تكون قبل الإيمان ، فقال لي: أعمال الإسلام قد مضى حكمها ، وأنت فيها طول عمرك ، وما بقي إلا الأعمال القلبية إذ الحكم لها عند طلوع الروح ، فقلت له: فهل أنا من أهل الإحسان؟ فقال: نعم وكل مسلم له من مقام الإحسان نصيب كما في سائر مقامات الأولياء ، فلا يمكن تجرد مسلم من مقام من المقامات بالكلية ، وإنما الناس لما قرنوا مقام الأدنى بمن هو فوقه ، قالوا فلان ليس عنده خوف من الله ، أو ليس هو بزاهد في الدنيا ، أو ليس هو بخاشع لله ، ونحو ذلك ، والحال أن له نصيباً من كل مقام ، لكن بحسب ما أعطاه الله تعالى ، اهـ. فقلت له: هل يخرج شيء من الدين عن هذه المقامات الثلاثة الذي رقيناها ببسم الله الرحمن الرحيم ألف مرة؟ فقال: لا ، جميع ما يقرب إلى الله جل وعلا يرجع إلى الإسلام والإيمان والإحسان ، فما ثم إلا هي

وتوابعها ، فمن لقي الله تعالى بواحدة من هذه الثلاثة نجا من شدة العذاب بفضل الله تعالى ، وأما مقام الإيقان فليس ذلك مقام عمل.

ومما ألهمته في السنة المذكورة أن أقول ألف مرة: «اللهم إني أسألك بك أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين ، وأن تشغلني بك في الدارين على وجه الكشف والشهود دون الحجاب».

ومما وقع لي في السنة المذكورة: أنه عزب عن علمي جميع ما ورد من أذكار الركوع ، فلم أستحضر من ذلك سوى قوله ﷺ: «أما الركوع فعظموا فيه الرب»[1] وما عرفت بأي صيغة أعظمه ، فقيل لي قل: سبحان من كان جميع ما عرفه الخلق كلهم من عظمته كذرة من البحر المحيط بالنسبة لما جهلوه ، أو كذرة في فضاء ليس له سماء ولا أرض.

ومما ألهمته حين عزب عن علمي ما ورد من صيغ الاستغفار: «اللهم إن ذنوبي قد رجحت على ذنوب الأولين والآخرين ، ولكنها في جنب عفوك كلا شيء».

ومما وقع لي حين عزب عن علمي صيغة الاستغفار لإخواني المسلمين «اللهم إني أسألك بك أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، وأن تغفر لنا ما مضى ، وأن تحفظنا فيما بقي ، اللهم إن الأولين والآخرين حطوا رحالهم على ساحل بحر جودك وكرمك ، ينتظرون فضلك وإحسانك ، فأجزل لنا ولهم المغفرة ، فإن عظم المغفرة تابع لعظمة الذنب ، اللهم إن الأولين والآخرين من المسلمين قد غرقوا في بحر جودك وكرمك من حين أخرجتهم من العدم ، فلا تخرجهم منه أبد الآبدين ودهر الداهرين».

ومما وقع لي وأنا طائف بالكعبة حين عزب عن علمي ما ورد من أذكار الطواف فقيل لي: قل: «اللهم إني أسألك بك أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، وأن تجعل جميع حركاتي وسكناتي في حق نفسي وفي حق غيري سعيدة ، وكذلك فافعل بجميع إخواني». اهـ.

قلت والمراد بملك الإلهام ، ملك مغيب يعلمه العبد ولا يرى له شخصاً ، بخلاف ملك الوحي فإن النبي يراه ويسمع صوته كما مر تقريره مراراً ، فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حين دخلت سنة إحدى وستين وتسعمائة ترادف رؤيتي للمشايخ الذين أدركتهم من علماء وصالحين ، وأمرهم لي بالتهيؤ للسفر إلى الدار الآخرة ، حتى صرت لا أتهنى بنوم ولا بأكل ولا بشرب ، ولا أغسل عمامتي إلا بعد أمرهم

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (٤٧٩) ، والنسائي كتاب التطبيق ، باب تعظيم الرب في الركوع (١٠٤٥) ، وأحمد في مسنده (١٩٠٣).

لي بغسلها من شدة الوسخ ، فرأيت سيدي الشيخ نور الدين الشوني رضي الله عنه وقال لي: تهيأ للسفر ، وأكثر من التزود ، فإنك راحل عن قريب ، ولا تستكثر لك عملاً في جنب مرضاة الله عز وجل ، فقلت له: فما رأيتم من الله عز وجل، فقال: كل خير ، أعطاني الله تعالى مقاماً عرفت منه تفاضل أعمال الخلائق ، فقلت له: وما هو؟ قال: جعلني بواب البرزخ ، فلا يدخل أحد بعمل إلى البرزخ إلا عرفته ، وما رأيت في الأعمال الواردة علي أنور ولا أضوأ من عمل أصحابنا. اهـ.

ورأيت الأخ الصالح الشيخ عبد القادر ، وقال لي: تهيأ للسفر ، فإننا كلنا نموت على رأس الثلاث والستين سنة.

ورأيت الشيخ الصالح سيدي أبا الحسن الغمري رضي الله عنه وقال لي: قم معي نسافر، فأجبته إلى السفر، ثم أتاني ثاني مرة، فقال: تهيأ ما نأخذك إلا في السفرة الآتية.

ورأيت والدي سيدي خضر الذي كفلني يتيماً ، وقال لي: شد مئزرك للسفر ، واشتر لي محزمين كل محزم ثلاثة أذرع ، وأخبرني بما وقع له من كرم الله عز وجل ، وكان كثير القيام في ليالي الشتاء الطويلة.

وما رأيت أحداً من هؤلاء إلا وحصل لي من قوله رعب ، فإن القدوم على الله تبارك وتعالى شديد على كل الناس ، فإنه إن كان محسناً ندم وخجل من الله جل وعلا الذي لم يبذل طاقته كل البذل في مرضاته ، وإن كان مسيئاً ندم وخجل وصار كالمجرم الذي فسق في حريم الملك، ثم أتوه به بعد سنين ليعاقبه على ما فعل من القبائح، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: نظري إلى الوقت الذي أنا فيه دون الماضي والمستقبل ، فإن الماضي قد ذهب بما فيه من خير أو شر ، وختم على صحيفته ، والمستقبل لا يدري العبد ما الله صانع فيه ، وما بقي إلا الحالة الراهنة ، ولا يخلو العبد فيها من أن يكون مخاطباً فيها بأحد ثلاثة أمور ، إما أمر يمتثله ، وإما نهي يجتنبه ، وإما قدر يرضى به ، وقد قال القوم: الصوفي ابن وقته ، وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: استفدت من الصوفية طول صحبتي لهم شيئين: قولهم الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك ، وقولهم: إن لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالشر ، اهـ. أي لأنها لا تترك نفسها مهملة طرفة عين من حين كلفت ، والمهتدي من هداه الله تعالى ، وقال تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]. أي ألهمها فجورها لتجتنبه ، وألهمها تقواها لتعمل بها ، ثم لا يخفى أن تفكر العبد فيما مضى من سيئاته ليستغفر منه لا بأس به للمريدين ، بخلاف العارفين ، لأن من اشتغل بالماضي ضيع وظيفة الوقت ، فإن على العبد في كل نفس عبودية يؤديها ، وصاحب هذا المشهد لا يرى شيئاً من عبادة الله يقضي إذا فات ، وبه قال بعض المالكية ، قال: لأن الوقت إذا ذهب فارغاً ختم على صحيفته فارغة ، فلأي شيء يطلب تفريغ محل ليملأ به محلاً آخر ، والكل مناقش عليه ،

ومحاسب به ، فلكل دقيقة من الدرجة من عمره دائرة ، ولكل ثانية منها دائرة ، ولكل درجة دائرة ، ولكل درجتين دائرة ، ولكل ساعة دائرة ، ولكل يوم دائرة ، ولكل جمعة دائرة ، ولكل شهر دائرة ، ولجميع عمر الإنسان دائرة ، فلا يصح دخول عمل دائرة في دائرة أخرى ، كما يعرف ذلك أهل الكشف.

فو الله لقد خلقنا لأمر عظيم ، وما منا أحد وفّى بآداب عبوديته ، ولو أن العبد جعل بقية عمره كله استغفاراً لما بقي ربما أنه لا يجبر خلل الذنوب الماضية فضلاً عن الآتية ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: أني لا أنصح أحداً من أصحابي إلا بما وردت به السنة ولا أقرهم قط على بدعة لا يعرفون موافقتها للشريعة ، وهذا من أكبر نعم الله تعالى علي ، خلاف ما أشاعه الحسدة عني ، وهم معروفون بين أصحابنا بالحسد ، حتى أن بعض طلبة العلم استخفى وجلس عندنا بعض أيام وليالي ، فلم يجد عند أصحابنا شيئاً من البدع المنكرة ، وإنما هم على الكتاب والسنة ، ثم إنه ذهب إلى مكان هؤلاء الحسدة فرآهم لا أوراد لهم صباحاً ولا مساء ، وليس عندهم أحد يقرأ القرآن ، بل هم ينامون عن صلاة الصبح إلى ضحوة النهار وهم غافلون عن الله تعالى ، في أكثر أوقاتهم ، مشغولون ببطونهم وفروجهم وملابسهم ونومهم على الفرش الوطيئة ، فقال لهم: كذبتم والله فيما أضفتم إلى فلان وأصحابه ، فإنهم على السنة وأنتم على البدعة ، فاشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم ، ورميتم الناس بحجارتكم ، اهـ.

وقد كنت كتبت لأصحابي عدة وصايا لا يكاد يخرج شيء منها عن ظاهر الكتاب والسنة ، منها قولي لهم: اتبعوا ولا تبتدعوا ، وأطيعوا ولا تمرقوا ، ونزهوا ربكم عن كونه تعالى ينساكم بلا رزق ، ولا تتهموا ، وصدقوه ، ولا تشكوا ، واصبروا على شدائد هذه الدار ، ولا تجزعوا ، واثبتوا على ذلك ، ولا تملوا ، واسألوا عن اللقمة وفتشوها ، ولا تسأموا ، وانتظروا فرج الله لكم عند البلايا ولا تيأسوا ، وتواخوا على الصفاء ، ولا تتباغضوا ، وازهدوا في الدنيا ، ولا ترغبوا ، واجتمعوا على مجالس الخير ، ولا تفرقوا ، واسهروا فيها ، ولا تناموا ، وطهروا صحائفكم من الذنوب ، ولا تتدنسوا ، وتتلطخوا ، وتزينوا بطاعة ربكم ، وعن بابه لا تبرحوا ، وأقبلوا على حضرة ربكم وعنها لا تتولوا ، وعليكم بالتوبة عقب كل ذنب ولا تسوِّفوا ، واعتذروا إلى ربكم ولا تغفلوا ويجمع هذه الجملة كلها أن تعملوا بعلمكم خالصاً ، وعن نفوسكم لا ترضوا اهـ. فإن كان هذا كلام مبتدع فما بقي على وجه الأرض أحد من أهل السنة ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: فراري في جميع الشدائد إلى الله تعالى قبل جميع الخلق ، لعلمي بأن بيده ملكوت كل شيء على الكشف والشهود ، وهذا من أكبر نعم الله

تبارك وتعالى عليّ ، فإن غالب الناس لا يرجعون إلى الله تبارك وتعالى إلا بعد الوقوف على الخلق على اختلاف مراتبهم ، فإذا وقفوا ولم يجدوا بيدهم قدرة على دفع ما نزل بهم رجعوا حينئذ إلى الله عز وجل ، كما أنهم إذا وقعوا في معصية يشهدونها أولاً من نفوسهم ، فإذا ندموا وذابوا من الخجل تذكروا أن ذلك كان مقدراً عليهم قبل أن يخلقوا ، فخفف عنهم ذلك البلاء ، وهذا شأن عامة الناس الذين لم يدخلوا طريق القوم ، وأما ما قلناه أولاً فهو خاص بمن دخلها.

ومن جملة نعم الله جل وعلا بالمريد أنه يحبسه في كل مقام حتى يتحقق به ، ثم ينقله إلى أعلى منه ، وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه يقول لعامة من حضر مجلسه وهو على الكرسي: إذا نزلت بأحدكم شدة فليتحرك في دفعها بنفسه أولاً ، فإن لم تندفع استعان بغيره من الخلق كأرباب المناصب ، وأبناء الدنيا ، فإن كانت الشدة مرضاً في بدنه فليعرض نفسه على الأطباء من المسلمين ، فإن لم يجد عند أحد من الخلق خلاصاً رجع إلى ربه عز وجل بالتضرع والدعاء والبكاء ، قال: وما دام أحدكم يجد عند نفسه نصرة فلا حاجة إلى الخلق ، ثم إن رجع إلى ربه جل وعلا ولم يجد أمارات النصرة استطرح بين يديه بالافتقار والذل والبكاء والتضرع اهـ.

فانظر كيف خاطب العامة بالطريق البعيدة ، لأنه لو أرشدهم إلى الله ابتداء لم يقدروا لغلبة استنادهم إلى الخلق دون الخالق ، وسيأتي في هذه المنن أن من أعون شيء على قضاء الحوائج من طريق الخلق ، إنزال الحاجة بمن بصره مقصور على الدنيا وشهواتها من العباد والأمراء وغيرهم ، فإذا سئل أحدهم في حاجة توجه إليها بكل شعرة فيه ، لأنه محجوب عن أحوال الآخرة ، بخلاف إنزال الحاجة بمن خرق ببصره إلى الدار الآخرة ، حتى رأى ما أعد الله تعالى فيها لمن صبر على الشدائد من الأجر والثواب العظيم ، فإن كل شعرة فيه تصير تطلب دوام ذلك البلاء على ذلك الشخص ، ليحصل له ذلك الأجر والثواب العظيم في دار البقاء ، وليس هذا مطلوب غالب الناس ، إنما قصدهم قضاء حوائجهم في الدنيا ، ولو نقص ذلك من درجاتهم في الآخرة ، فافهم ذلك.

قال: وقد يقع لبعض الأولياء أنه يشتكي بعض المتجبرين للحكام شفقة منه عليه ، خشية أن يشكوه إلى الله تعالى فيهلكه ، ويصير بعض الناس يعترض ، ويقول: لو كان هذا من أولياء الله تعالى ما رفع أمره إلى الحكام ، غفلة من المنكر عن مراد الأستاذ ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تربيته تعالى لي في النوم واليقظة برؤيتي للعبر في الدنيا ، فلا يقع بصري على شيء إلا وأعتبر به من صبر وضجر وزهد ورغبة وشهود وغفلة ، وقد قمت ليلة فوجدت قساوة في قلبي لم أعرف لها سبباً ، فقيل لي في المنام: إن أردت حياة

قلبك الحياة التي لا موت بعدها فاخرج عن الركون إلى الخلق ، ومت عن هواك وإرادتك ، فهناك يحييك الله عز وجل حياة لا موت بعدها ، ويغنيك غنى لا فقر بعده ، ويعطيك عطاء لا منع بعده ، ويريحك راحة لا تعب بعدها ، ويعلمك علماً لا جهل بعده ، ويطهرك طهارة لا تدنيس بعدها ، ويرفع قدرك في قلوب عباده ، فلا تحقَر بعدها ، قد ذهبت أيام المحن لك بأجمعها ، وأتت أيام المنن بأجمعها ، وهناك يتحرك عليك الحساد من كل مكان ، فعليك بالصبر ، انتهى.

فتراني بحمد الله تبارك وتعالى أرى نفسي في يد القدر كالطفل الصغير في يد الظئر أو كالميت في يد الغاسل ، أو كالصولجان في يد الفارس ، وأصل نظري للعبر كان على يد والدي الذي كفلني يتيماً ، كان يقول لي: ما ثم شيء أبرزه الله تعالى إلى هذا الوجود إلا وفيه حكمة بالغة ، وأمرني يوماً بالوقوف على من يقوم الرماح على النار ، فوقفت فقال لي: ما رأيت؟ فقلت ما رأيت شيئاً ، فقال: يا ولدي أما تنظر أنه لا يعرض على النار إلا المعوج وأما المستقيم فلا يعرضه على النار ، فأخذت من ذلك العبرة ، فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: نفرة نفسي من الدنيا وأبنائها فلا أتمنى قط أن يكون شيء مما بأيديهم في يدي ، ولا أن يكون لي مثل ذلك أبداً ، وهذا من أكبر نعم الله تعالى عليّ ، فإن غالب الناس ينظر إلى ظاهر الدنيا دون ما في باطنها من السموم القاتلة والأباطيل والخداع والمصايد ، ولذلك تزاحموا عليها وتحاسدوا وتباغضوا ، وانقبضوا لفقدها ، وانشرحوا لوجودها ، ويعد أحدهم اليوم الذي يقوم فيه من النوم ، ويجد عند رأسه شكارة فيها عشرة آلاف دينار ذهباً يوم عيد ، وأنا بحمد الله تبارك وتعالى بالعكس من ذلك ، فأنقبض إذا دخل علي شيء من الدنيا فلا أنشرح إلا إن خرج ، وقد كان السلف الصالح كلهم على هذا القدم ، فكان الفضيل بن عياض رضي الله عنه يقول: قد صرت أتقذر الدنيا كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر عليها ، مخافة أن تصيب ثوبه ، انتهى.

وقد ذقت بحمد الله عز وجل هذا المقام ، ولذلك ما أعلم أحداً يكرهني قط إلا حسداً فإني لم يقع لي أنني زاحمت أحداً على تدريس علم ولا وظيفة ، ولا تزوجت له امرأة في حال حياته، ولا غير ذلك، فافهم ذلك ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من كثرة الأتباع من الرعاع الذين يدعون محبتي ، وربما يتعصبون بالباطل على أقراني ، ويفضلوني عليهم ، ولا ينتفعون مني بأدب يسمعونه أو يرونه ، وكراهتي الشديدة لاجتماعهم حولي إذا ركبت في حاجة ، وفي ذلك عدة مفاسد منها: إقامة الحجة عليهم عند الله تعالى بما يسمعونه أو يرونه مني ولا يعملون به.

ومنها: ظهور شرفي على أقراني بذلك عند الناس ، فإن غالب الناس ليس عندهم شيخ

عظيم إلا من كثرت أتباعه ، وربما كانت أصبع ذلك الفقير الذي ليس حوله أحد أفضل من ذلك الشخص الكثير الأتباع.

ومنها: تعرض من كثرت أتباعه للنفي من بلده بحكم القانون ، فإن بداية الخارجين عن طاعة السلطان الأعظم كان أولها كذلك ، فيتبع الناس الشيخ في حجة الوعظ والتسليك ، فإذا تم انقيادهم له وصاروا يفدونه بأرواحهم جاءهم أبو مرة فزين لهم معارضة السلطان في أحكامه في بلاده ، وأثاروا الغوغاء ، حتى ربما قتل أحد من جماعة السلطان ، فأرسل السلطان ينفي ذلك الشيخ من بلاده ، أو يقتله مع جماعة من بلده ، كما وقع للشيخ علي الكازواني في حلب ، فلذلك كنت أحب لمشايخ العصر كلهم قلة الأتباع ، وأكره لهم كثرتهم ، خوفاً عليهم من حصول الضرر ، لعدم وجود حال يحميه من تصريف الولاة فيهم ، وقد قالوا: من لم يكن له حال يحميه فليس له التظاهر بالشفاعات عند الولاة ، ولا معارضتهم في أحكامهم ، على أن الشيخ الصادق لو فتش أتباعه في جميع مصر ما وجد فيهم ثلاثة صادقين ، بدليل أنه يلقن الألف نفس مثلاً فلا يصح له واحد منهم في الطريق ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة اعتقادي في أهل عصري من العلماء والصوفية ، ولا أطالبهم قط بكرامة ، إذ لا يطلب الكرامة إلا الشاك فيهم ، وأنا بحمد الله تبارك وتعالى ليس عندي شك في علمهم ، ولا صلاحهم.

ومعلوم أنه لا يطالب بالكرامة إلا من قال لنا أنا صالح فاعتقدوني وأنا ما سمعت أحداً منهم قط يقول لأحد تعالَ اعتقدني ، ولا أنا صالح ، ولو قدر أن أحداً دعا الناس إلى اعتقادهم فيه لربما كان يسوغ للمتعنت أن يقول لأحدهم: أظهر لي كرامة حتى أعتقدكم لأني بشر وأنتم بشر مثلي ، وما ثم تمييز إلا بإظهار الكرامات.

وتأمل يا أخي في قول من قال لرسول الله ﷺ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣]. تجد ذلك القول لم يقع إلا ممن عنده شك في دينه.

وانظر كيف رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]. ولم يبلغنا أن أحداً من المصدقين لرسول الله ﷺ تعنت عليه وطلب منه معجزة أبداً ، وهذا الخلق غريب في أكثر إخواننا من الفقهاء سلفاً وخلفاً ، فلم يزل الواحد منهم يقول: لا أعتقد فلاناً إلا إن أظهر لي كرامة من المكاشفة بما في سري ، أو من المشي على الماء ، أو طي الأرض أو نحو ذلك ، فيقوي بتلك الكرامة يقينه ، وأما من يعلم صحة شرعه فلا يحتاج إلى نحو ذلك ، إنما كرامته الاستقامة على الشريعة لا غير ، فهذه هي أعظم الكرامات ، كما

قاله الجنيد وغيره فمن أراد من الفقهاء أن يصحب أحداً من هؤلاء القوم فليعاشره وينظر ، فإن رأى أفعاله وأقواله على الكتاب والسنة ، وعقيدته صحيحة فليصحبه ، وإلا فليتركه بعد أن ينصحه ، وبالجملة فلم يصد إبليس أحداً من الصالحين بمثل الإنكار عليهم ، فترى أحدهم يرى صورة نفسه في مرآة الصالح ، فيظن أن تلك الصفات الناقصة صفات الصالح ، والحال أنها صفته هو.

وممن أدركناه من العلماء يعتقد مشايخ عصره من غير مطالبتهم بكرامة الشيخ نور الدين الطرابلسي الحنفي ، والشيخ ناصر الدين اللقاني المالكي ، والشيخ شهاب الدين الرملي الشافعي ، والشيخ شهاب الشلبي الحنفي ، والشيخ كمال الدين الطويل ، والشيخ زكريا ، والشيخ نور الدين بن ناصر ، والشيخ عبد الحق السنباطي ، والسيد الشريف بزاوية الحطاب ، والشيخ شهاب الدين القسطلاني.

فرأيت أحدهم إذا دخل على الفقير الذي لا يصلح أن يكون من طلبته في العلم يجلس بين يديه كالطفل يلتمس منه الدعاء ، حتى أن الشيخ ناصر الدين اللقاني قال لي يوماً: والله ما نصحب مثلكم إلا ليأخذ بيدنا في عرصات القيامة ، ولم أدخل عليه قط إلا ونزل من على فراشه ، وأقسم عليّ بالجلوس عليه ، ويجلس بين يدي.

فعلم أن كل من أقام الميزان على فقراء عصره حرم مددهم ، وربما مقت فلا يفلح بعدها أبداً ، وكما أن الفقراء يعتقدون العالم من غير مطالبته بدليل على صلاحه ، وعمله بعلمه ، فكذلك ينبغي له كذلك أن يفعل معهم ، وفي عصرنا هذا جماعة من الصوفية والعلماء العاملين ربما يكون المنكر عليهم لا يصلح تلميذاً لهم ، كسيدي محمد ابن الشيخ أبي الحسن البكري ، والشيخ سليمان الخضري ، والشيخ ناصر الدين الطبلاوي ، والشيخ زين سبط سيدي علي المرصفي ، وقد عرضت هؤلاء على بعض المنكرين فقال: لا أعتقد في واحد من هؤلاء إلا إن رأيت له كرامة ، فقلت له وأي كرامة أعظم من العلم والعمل؟ فلم يرجع إلى قولي ، فتركته.

ولعمري من يرى مثل سيدي محمد البكري ، ويسمع ما يتكلم به من العلوم والأسرار التي تبهر العقول مع صغر سنه ، ولم يعتقده فهو محروم من مدد أهل العصر كلهم ، فإن سيدي محمداً هذا كسيدي عبد القادر الجيلي في عصره من حيث الناطقة ، وعلو المرتبة ، فأسأل الله تبارك وتعالى أن يلهمنا زيادة الأدب مع علماء عصرنا وأوليائه ، ولا يخالف بنا عن طريقهم ، آمين ، والحمد لله رب العالمين ، وسيأتي بسط هذا الموضع في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تقديم زاوية غيري على زاويتي ، إذا شاورني أحد في وقف شيء على الفقراء ، فأقول له زاوية فلان أحق بذلك ، وأقيم له الدليل على ذلك ، كما

وقع لي مع ابن عمر ، وابن بغداد ، لما أرادا ترتيب الخبز فقلت لهما: إن جامع الغمري ، وزاوية سيدي علي المرصفي ، أحق ، وكما وقع لي ذلك مع الواقف على زاويتي القاضي عبد القادر القادري ، فقلت له: إن جامع المغاربة وجامع الميدان أحق ، ولم أر لهذا الخلق في مصر فاعلاً غيري ، وذلك لأن كل إنسان مأمور بالنصح للأمة ، فليس له أن يقدم نفسه بصدقة إلا إن كان أحوج إليها ، ومتى قدم نفسه من غير أن يكون أحوج فقد غش ، وخرج عن الشريعة ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: غناي عن التطلع لما في أيدي الخلائق من المناصب والمطاعم والملابس والنقود وغير ذلك ، وهذا من أكبر نعم الله تعالى عليّ ، وربما يدعي بعضهم ذلك والحال بخلافه ، فليمتحن المدعي لهذا المقام نفسه ، فإن رأى نفسه تحب التردد عليهم ، وتكره الانقطاع عنهم ، وهي طامعة فيما في أيديهم أن يعطوها منه شيئاً فهي كاذبة في دعوى الغناء عن الخلق.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه يقول: من علامة الولي ثلاث: الفناء عن الخلق ، والهوى ، والإرادة مع الله تعالى ، ثم يقول: فعلامة الهوى الاعتماد على الكسب والتعلق بالأسباب ، وعلامة الفناء عن الإرادة أن لا يريد مراداً قط مع الله تبارك وتعالى ، فيكون مراده مراداً لله تعالى ، وميزان الشريعة بيده لا يرميها من يده فيهلك ، انتهى.

وفي الحديث يقول الله عز وجل: «**أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي**»[1] أي الذين كسرت إرادتهم البشرية ، وأزيلت شهواتهم الطبيعية ، واستؤنفت لهم إرادات ربانية ، وشهوات مستعارة إضافية ، كما قال ﷺ «**حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[2] فأخبر ﷺ أن ذلك أضيف إليه بعد أن خرج عنه ، وزال عنه.

فعلم أن الحق تعالى لا يكون عندك إلا بعد أن يكسر هواك وإرادتك ، فإنه هناك يجعل لك إرادة وهوى لا اختيار فيه لنفسك ، كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[3] انتهى.

فمعنى المنكسرة قلوبهم من أجلي ، أي صاروا منكسري القلب دائماً تحت قهر إرادتي ،

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٦١٤) وقال: لا أصل له في المرفوع.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٧٨) ، والنسائي ، كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء (٣٩٣٩) ، وأحمد في مسنده (١١٨٨٤).

(٣) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٦٤) ، وابن أبي عاصم في السنة (١٥) ، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٧) ، وذكره العسقلاني في فتح الباري (١٣/ ٢٨٩) ، وكذلك في مفتاح الجنة ص ٤٧.

طوعاً منهم لا ينجبر لقلبهم كسر أبداً حتى يلقوني ، فعليك يا أخي بالقناعة ، والاشتغال بالله تعالى عن نعيم الدارين ، فإنه هو النعيم المطلوب للأكابر ، الباقي كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ٨٨]. فافهم ذلك ، والله سبحانه وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: دوامي على التقشف من أول عمري إلى وقتي هذا الذي هو أواخر عمري ، وقل فقير يصح له ذلك ، لأن الغالب بعد مجاهدة الفقير نفسه حصول الرياسة ، وإذا حصلت الرياسة انقاد الخلق إلى صاحبها ، وأتته الدنيا ، وهناك يقول له أبو مرة يا طول ما تعبت وسهرت ، وجعت وعطشت ، فتندلق النفس على كثرة الأكل والشرب ، كما قيل في المثل: بدويِ مقروح ، ورأى تمر مطروح ، وقد عدوا من فسق العارف تبسطه في المطاعم والملابس والمناكح بعد العرفان ، وقالوا أيضاً: إن نور المعرفة لا يطفىء نور الورع ، وفي بعض الآثار: ما وسع الله على عبد دنياه إلا نقص ذلك من مقامه في الآخرة ، وإن كان عند الله كريماً.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: إذا أبغض الله عبداً وسع عليه دنياه ، وشغله بها عنه.

وكان سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه وجماعة ممن خرج عن هذه القاعدة فيأكلون ويلبسون ويتمتعون بالدنيا ، ولا ينقص لهم بذلك رأس مال ، كما يأتي إيضاحه أواخر الكتاب ، مع أن سيدي عبد القادر كان يقول: كلما ارتفع الفقير في مقام العرفان وجب عليه التفتيش في مطعمه وملبسه وأعماله أكثر ، لأن من عظمت مرتبته كبرت صغيرته ، وكان رضي الله تعالى عنه يقول لأصحابه: إذا أكل أحدكم أو شرب ، أو لبس فليفتش ، ولا يغفل ، وليحذر ولا يركن ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم إفشائي ما أطلعني الله تعالى عليه من طريق الكشف في مستقبل الزمان ، من تولية الولاة أو عزلهم ، أو حصول غلاء أو قحط ، فلا يكاد أحد يأخذ مني تعيين الوقت الواقع ذلك الأمر فيه أدباً مع الله جل وعلا الذي أطلعني على مثل ذلك ، وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى يقول: إذا أطلعك الله تعالى على سر فلا تخبر به أحداً فإن الله عز وجل كل يوم هو في شأن في تغيير وتبديل وتحويل ، وأخبرنا أنه يحول بين المرء وقلبه ، فربما يزيلك عما أخبرت به ، ويغيرك عما تخيلت ثباته وبقاءه ، فتخجل عند من أخبرته بذلك ، بل احفظ ما أطلعك الله تعالى عليه في قلبك ، ولا تعده إلى غيرك ، فإن كان الثبات والبقاء علمت أنه موهبة من الله عز وجل فتشكره ، وإن كان غير ذلك كان فيه زيادة علم ومعرفة ونور وتيقظ وتأديب ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تسلقي على مقامات الصالحين ، وعدم تفعلي في

تحصيلها بالرياضة واستعمال الأسماء الإلهيـة ونحو ذلك ، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليّ ، لأن فعلي ذلك مع غيري من الخلق مذموم ، فكيف بالحق جل وعلا ، ومن أين للزبال أن يطلع إلى السلطان ، ويقول: اجعلني أميراً عندك ، مع جهله بآداب الملوك ، ودنس ثيابه.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من أقبح الذنوب عند الله تعالى القيام بين يديه في الأسحار بالتملق والخداع على نية أنه تعالى يعطيه مقاماً فوق ما هو فيه ، وقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: ٣٦]. فنكر تعالى شيئاً فشمل كل شيء من جميع المخلوقات حتى الإرادة والهوى والشهوة ، فإنها من خلقه تعالى بيقين ، فلا يريد ولا يهوى شيئاً دون الله تعالى ، فيكون مشركاً ، وقال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

قال السيد عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه: ليس المراد بالشرك في هذه الآية عبادة الأصنام فقط ، وإنما المراد ما هو أعم من ذلك من متابعة الهوى ، وأن يختار العبد مع ربه شيئاً سواه إلا بإذنه سوى الدنيا وما فيها ، والآخرة وما فيها ، فإن كل ما سواه عز وجل فهو غيره ، فإذا ركن العبد إلى غير الله تبارك وتعالى من مقام أو حال فقد أشرك بالله غيره.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رضي الله تعالى عنه يقول: كان نبينا عليه الصلاة والسلام أكثر عبادة من موسى عليه الصلاة والسلام ، وأكثر شوقاً إلى رؤية الله عز وجل بما يتقارب ، ومع ذلك فلم يقل: ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. بل لزم الأدب حياء من الله تعالى حتى دعي للرؤية ، وأرسل له الملك بالبراق ، هذا وإن كان ثم مقام في الرسالة يقتضي طلب الرؤية فثم مقام رفيع وأرفع ، وذلك أنه قد يكون عرض الملك على عبده الشيء خديعة ليرتب عليه ما سبق في علمه ، انتهى.

وفي كلام سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه في كتابه «فتوح الغيب»[1]: إذا أقامك الله تعالى في حالة فلا تطلب الانتقال منها إلى ما هو أعلى منها أو أدنى ، بل تربص حتى يكون الحق تعالى هو الذي ينقلك بغير إرادة منك ، وإذا أوقفك بالباب فلا تطلب الدخول إلى الدار ، واصبر حتى تدخل إليها بعد تكرر الإذن لك بالدخول ، وإياك أن تقنع بمجرد الإذن لك بالدخول مرة واحدة ، لجواز أن يكون ذلك مكراً وخديعة من الملك ، فإذا كان الدخول جبراً محضاً ، وفضلاً من الملك ، فحينئذ لا يعاقبك الملك على الدخول وإنما تتطرق العقوبة إليك بشؤم اختيارك ، وشرهك ، وقلة صبرك ، وسوء أدبك ، وتركك الرضا بحالتك التي أقامك الحق تعالى فيها ، ثم إذا أدخلك الملك الدار بالإذن فكن مطرقاً برأسك ،

---

(١) ذكره في كشف الظنون (٢/ ١٢٤٠).

غاضاً بصرك ، متأدباً ناظراً لما تؤمر به من الخدمة ، فتبادر إلى ذلك غير طالب للترقي إلى الدرجة العليا ، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ الآية [طه : ١٣١]. فنهاه عن الالتفات إلى غير الحالة التي هو فيها ثم إن العبد الطالب الانتقال من حال إلى حال لا يخلو ، إما أن يكون ذلك الأمر قسم لـه ، أو قسم لغيره ، أو لم يقسمه الله لأحد ، بل أوجده الله تعالى فتنة ، فأما المقسوم فهو واصل إلى العبد لا محالة في الوقت الذي جعله الحق تعالى فيه ، فلا ينبغي له أن يظهر الشره وسوء الأدب في طلبه ، وأما المقسوم لغيره فلم يتعب نفسه فيما لا يناله ، ولا يصل إليه ، وإن كان لم يقسم لأحد وإنما جعله الله تعالى فتنة فكيف يرضى العاقل أن يستجلب لنفسه الفتنة يستحسنها ، فإذن الخير والسلامة في حفظ الحال ، ثم إذا رقيت بعد الدار إلى الغرفة ، ثم منها إلى السطح ، فكن كما ذكرنا من الأدب والإطراق ، بل يتضاعف ذلك منك لأنك صرت أقرب إلى حضرة الملك ، فإياك وطلب الانتقال إلى محل أقرب من ذلك إلا إن أعلمك الملك أن تلك الدرجة أو المقام الذي تطلب الانتقال إليه قد وهبه الحق تعالى لك بعلامات وآيات ، انتهى كلام سيدي عبد القادر رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، وهو كلام في غاية النفاسة ، فتدبره ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: وقوع الخوف مني تارة بعد أخرى من الله عز وجل حتى أكاد أهلك، ووجود الرجاء منه حتى أكاد لا أخاف، وأهل الطريق يسمون ذلك من تجلي الجلال والجمال ، يعني الجلال الممزوج بالجمال ، وإلا فغير الممزوج لا يطيقه أحد في الدنيا ، وقد كان ﷺ إذا تجلى على قلبه الجلال يصير يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل في الصلاة من شدة الخوف ، ونقل مثل ذلك عن السيد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أيضاً ، وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، فكان يسمع من صدر الخليل صوت كغليان القدر على النار من مسيرة ميل ، وكان ﷺ يقول: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش**»[(١)] وكان إذا تجلى لقلبه ﷺ شيء من تجلي الجمال يمتلىء نوراً وسروراً وملاطفة وأنساً ، وكل وارث من أمته ﷺ له نصيب من هذين التجليين فتجلي الجلال يورث الخوف والقلق والوجل المزعج ، وتجلي الجمال يورث الأنس والسرور ، وقد عجل الله عز وجل لخواص عباده نصيباً مما جعله لهم في الجنة من تجلي الجمال رحمة بهم ، لئلا تنفطر مرائرهم فيهلكوا أو يضعفوا عن القيام بآداب العبودية ،

---

(١) أخرجه مختصراً البخاري ، كتاب الجمعة ، باب الصلاة في الكسوف (١٠٤٤) ، ومسلم، كتاب الصلاة ، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود أو نحوهما (٤٢٦) ، وبتمامه المؤلف أخرجه الترمذي ، كتاب الزهد ، باب قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» (٢٣١٢) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الحزن والبكاء (٤١٩٠) ، وأحمد في مسنده (٢١٠٠٥).

لما عندهم من شدة الشوق والمحبة فالحمد لله الذي من علينا باقتفاء آثارهم في ذلك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة الاستغفار إذا وافقت نفسي في هواها المباح خوفاً من أن يجرني ذلك إلى مكروه ، ولعلمي بأن النفس عدوة لله عز وجل ، فمن أطاعها عصاه الكون كله ، ومن خالفها وأطاع ربه أطاعه الكون كله ، لأنه كله يرضى لرضا الله جل وعلا ، ويغضب لغضبه إلا من شاء الله ممن لا عبرة به ، وقد أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود عليه السلام: «**يا داود كن خصماً لي على نفسك إذا فعلت ذلك حقت موالاتك لي**» انتهى .

وقد قال رجل لأبي يزيد أوصني فقال: عاد نفسك فإن بذلك تصح موالاتك لله وعبوديتك له ، وتأتيك الأقسام هنيئاً مريئاً ، وأنت عزيز مكرم وتخدمك الأشياء وتعظمك لأنها بأجمعها تابعة لربها موافقة له .

ونقل عن أبي يزيد أنه قال: رأيت ربي في المنام فقلت له: يا رب كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال ، قال أبو يزيد: فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها ، انتهى .

والمراد بترك النفس ترك العمل بخواطرها المذمومة في الشرع ، فإن عرضتها على الشرع فلم يظهر لك موافقة ولا مخالفة فتوقف عن العمل ، ولا تبادر إليه ، لأنك لا تدري ما عاقبته ، وما يؤول الأمر إليه فيه ، ولأهل الحق علامات في كل خاطر يعرفونها بقلوبهم ، وإن خفي ميزانها على غيرهم ، فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حفظه تعالى لفرجي عن الفواحش والاحتلام من حين بلغت حد الشهوة إلى أن صار عمري نحو ثلاثين سنة ، وذلك لأنه لم يكن لي وقت أسعى فيه على العيال ، لاشتغالي بالعلم ، وقل من يقع له الحفظ عن الفواحش في مثل هذه المدة ، فالحمد لله الذي حماني من ذلك حتى تزوجت ، فاصبر يا أخي على العزوبة مستنداً إلى قوة الله تعالى لا إلى نفسك ، فإنه لا بد للصابر من أحد الشيئين ، إما بأن يعطيه الله سؤله ، وإما بأن يحول من قلبه شهوة ذلك ، ثم إن رأيت يا أخي الشهوة غالبة عليك فتزوج ولو بالدين ، حفظاً لنفسك من الوقوع في الفواحش ، وإن استطعت الصوم كان ذلك أعون لك وأفضل من التزوج بالدين .

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يأمر العازب بالجوع ، وتارة يعطيه حبلاً يشد به وسطه فما دام وسطه مشدوداً به لا يحتاج إلى نكاح ، وإن قال له الشخص أريد أن لا تنتشر لي جارحة مدة عمري مسح على ظهره فلا تنتشر له بعد ذلك جارحة ، وكذلك كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يفعل ، على أن الشيخ كان لا يفعل ذلك إلا مع من

كشف له عنه أنه ليس في صلبه ذرية ، وقال له رجل مرة أريد أن أتزوج ، فقال له هل تزوجت؟ فقال: نعم وطلقتها ، فقال: حصلت السنة لا تتزوج ، فقال له فقيه تنهاه عن السنة؟ فقال له الشيخ: ما تذكرت إلا كونه سنة ، أما تنظر إلى ما يقع فيه من أكل الحرام أو الشبهات ، ثم قال: من أشار على شخص بالتزوج في هذا الزمان وليس له كسب فكأنه يعلمه خطف عمائم الناس والنصب والحيل والغش ، وإن كان متعبداً أكل بدينه ، فاعمل يا أخي على تحصيل الكسب من الحلال ، وتزوج وإلا فعش عزباً ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم اشتغالي بالنعمة عن المنعم سبحانه وتعالى ، وذلك من أكبر نعم الله عز وجل عليّ ، فقل من لا تشغله النعمة عن المنعم ، والمعين لي على ذلك شهودي عدم ملكي لما خولني الله تعالى فيه من الأطعمة والملابس ، إنما أنا عبد آكل من مال سيدي ، وأسكن في داره ، ولا أتذكر قط أني بنيت داراً وأعجبتني ، ولا لبست جوخة وأعجبني سجافها ولا لونها بحيث يشغلني ذلك عن ربي.

وفي كلام سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه: احذر أن تشتغل بما أعطاك الله من المال عن طاعته ، فيحجبك بذلك عنه دنيا وأخرى ، وربما سلبك ذلك المال وأفقرك وغيرك عقوبة لك ، واعلم أنك إذا اشتغلت بطاعته تعالى عن ذلك المال فهو موهبة من الله تعالى لك وليس هو من المال المذموم ، فيكون المال خادمك ، وأنت خادم المولى جل وعلا ، فتعيش في الدنيا مدللاً وفي الآخرة مكرماً ، انتهى.

فإياك أن تسأل الله تعالى دنيا إلا مع التفويض إلى الله عز وجل ، لتأمن من الآفات ، وأما إذا أعطاك الله تعالى شيئاً من غير سؤال فذلك مبارك وعاقبته حميدة ، وليس عليك فيه حساب إن شاء الله تعالى يوم القيامة ، كما قال به بعضهم لكونه جاء من غير استشراف نفس والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ دائماً من صغري: عدم اختياري جلب نعمى ، أو دفع بلوى ، وذلك لعلمي بنور الإيمان ، وسر الإيقان أن النعمى إن كانت قسمت لي فهي واصلة إليّ ، ولو رددتها لا ترتد ، وكذلك البلوى هي حالة بي لا محالة إن كان الحق تعالى قد قضاها عليّ لا ترتد بالرد ، وما بقي إلا الصبر والتجلد لما قدر الله تعالى على العبد ، وإن كانت المدافعة مشروعة ، ثم بعد ذلك إن حصلت النعمى وجب على العبد الشكر ، وإن حصلت البلوى وجب عليه الصبر ، وإياك أن تطلب رفع الأقدار بالدعاء إلا بما ورد ، واطفىء نار البلوى بماء الصبر وبرده ، فليست نار البلية أعظم من نار جهنم ، وقد ورد في الحديث:

«إن جهنم تقول للمؤمن: جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»[1]

وإيضاح ذلك أن نور المؤمن الذي يطفىء به نار جهنم يوم القيامة هو نوره الذي كان معه في الدنيا، فليطفىء به لهب البلوى ما دام في دار الدنيا، ثم لا يخفى أن البلية لم تأت العبد في دار الدنيا لتهلكه وإنما أتته لتختبره، وتحقق صحة إيمانه عند نفسه وتؤيد قاعدة يقينه، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: من حين بلغت سن الأربعين سنة عدم شهوة أعضائي للمعصية، أو تحديث نفسي بها، وذلك من أكبر نعم الله عز وجل عليّ، فتسترخي مفاصلي كلها إذا جلست عندي امرأة جميلة معطرة، وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول مراراً: ألا يكمل الفقير في مقام الحفظ من الله تبارك وتعالى حتى يكون سمعه عند الغيبة والفحش كأنه أصم خلق على ذلك، وبصره عند رؤية ما لا يحل له كأنه معصوب أو مرمود أو أكمه مطلوس، وشفتاه عند القبلة كأنهما مقرحتان كالدمل، ولسانه عند الكلمة القبيحة كأن به خرساً، وأسنانه عند ما فيه شبهة من الطعام والشراب كأن بها ضرباناً وبثوراً، ويداه عند إرادة البطش لغير حق كأن بهما شللاً، ورجلاه عند المشي لما لا يحل كأن بهما رعدة وارتعاشاً وجروحاً، وفرجه عند الزنا كأن به عنة أو دمامل قرحته، فلا يستطيع أحد أن يلمسه، وبطنه عند إرادة الشبع من الحلال كأن به امتلاء وارتواء، وعقله عند التفكر فيما لا يحل له كأنه مخبول مجنون، وجملة الأمر أن يرى جسده كله عندما لا يحل كأنه ميت، اهـ.

وهذا كله هو معنى قول الجنيد رضي الله تعالى عنه وأرضاه: ليكن بدنك حياً عند طاعة الله تعالى، وميتاً عند معصية الله جل وعلا، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من انتظار رزق معين يومي أو جمعي أو شهري أو سنوي، إنما يبتدئني الحق جل وعلا بالرزق من غير تطلع إلى حصوله، اللهم إلا إن علمت بالإلهام الصحيح أنه رزقي، ليس لأحد فيه نصيب، فحينئذ لي أن أطلبه بواسطة وبلا واسطة إذا احتجت إليه تعجيلاً لشهودي فضل ربي علي متجرداً لا لعلة أخرى، وهذه النعمة من أكبر نعم الله عز وجل عليّ، ولا يصل العبد لها إلا بعد خلوصه من الاعتماد على الخلق، والأسباب والحرف والصنائع، لأن العبد ما دام متكلاً على الخلق لا يستحق عادة أن يبدأه الحق تعالى بفضل ولا نعمة إلا استدراجاً والعياذ بالله تعالى، إذا الخلق حجاب، وما دام العبد واقفاً مع الخلق راجياً لعطائهم وفضلهم، سائلاً لهم، متردداً إلى أبوابهم، معرضاً عن التوكل على الله تعالى فهو مشرك بالله عز وجل خلقه في رزقه، حتى الناظر

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٢٥٨)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١٢٨)، والديلمي في مسند الفردوس (٢٣٦٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٢٣٢).

والجابي إذا طالبهما بمعلومه بقلبه ، ولم يشهد ذلك من فضل الله تبارك وتعالى حال المطالبة هو شرك بالله تعالى في طريق الارتزاق ، ومثل هذا يستحق أن يعاقب بحرمان الأكل من حيث لا يحتسب ، أو من عمله الحلال كالتجارة بمال حلال ، أو عمل الحرفة السالمة من الغش ، ثم إذا تاب العبد من الاعتماد على الكسب ، وخلص من هذا الشرك استقبله شرك آخر أخفى منه ، وهو اطمئنان قلبه إلى الكسب الحلال ، ونسيان أن ذلك من فضل الرب ، وهناك ربما عاقبه الله تعالى بحجابه عن شهود فضله ، وعن البداءة به ، ثم إن تاب من ذلك ، وأزال ذلك الشرك من الوسط ، ورأى الفضل والنعمة من الله تبارك وتعالى وحده من غير شهود الواسطة من قوة أو كسب ، بأن يرى طريق التكسب لا أثر لهما في تحصيل رزقه ووصوله إليه ، فهناك يبدؤه الحق تعالى بالعطايا والمنح ، وهذا هو رزق المؤمن الكامل الذي يأتيه من حيث لا يحتسب ، وهو معتمد على سبب من الأسباب ، فيشرك بالله تعالى من حيث لا يشعر ، ثم هذا الأمر لا يكون إلا لخواص عباده ، لأنه تعالى يغار عليهم أن يعتمدوا أو يلتفتوا لأحد سواه إلا عن إذنه ، فيصير رزقهم في الدنيا كحالهم في الجنة على حد سواء ، ليس لأحد من الخلق فيه منة ، فأسأل الله سبحانه وتعالى من فضله أن يثبتنا على هذا المشهد إلى الممات ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: معرفتي له سبحانه وتعالى المعرفة الثابتة التي لا تزلزلها الأدلة، ويعبر عن ذلك بالوصول إلى حضرة الله عز وجل، ومعنى ذلك وصول العبد إلى حضرة يشهد فيها أن لا فاعل إلا الله عز وجل ، ولا رازق إلا الله تبارك وتعالى، ولا محيي ولا مميت إلا الله جل وعلا، وهكذا ويفنى عن شهود الخلق والهوى، ولا يشهد في الكون إلا أفعاله وخلقه وحده لا مشارك له في ذلك ، فليس الوصول إلى الله جل وعلا مثل الوصول إلى خلقه كما قد يتوهمه أصحاب العقول الضعيفة المحجوبة بسبعين ألف حجاب : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فعلم أن كل من ادعى معرفة الله جل وعلا وزلزلته الأدلة فهو لم يشم من المعرفة رائحة لأنه كل وقت يترك اعتقاداً ويعتقد آخر ، كالمجتهد إذا ظهر له وجه الدليل في أمر آخر فإنه يتركه ، ولو أنه قيل له اثبت على الأول لا يقدر ، والفرق بين معرفة أهل الله عز وجل ومعرفة غيرهم ، أن جميع تعرفات أهل الله تعالى يرضى بها الله جل وعلا ، لأنها بتعريفه ، بخلاف تعرفات الأفكار ، لأن الأفكار لا تقدر ترقى عن الكون أبداً ، فافهم ، على أن لكل مخصوص تعريفاً على حدة لا يشاركه فيه غيره ، فله تبارك وتعالى مع كل واحد من رسله وأنبيائه وأوليائه سر من حيث هو لا يطلع على ذلك أحد غير صاحبه ، حتى أنه قد يكون للمريد سر لا يطلع عليه شيخه ، وللشيخ سر لا يطلع عليه غيره.

وقد قلت مرة لسيدي علي الخواص رحمه الله تعالى: إذا بلغ المريد مقام العرفان **هل**

يستغني عن شيخه ، فقال: إذا بلغ المريد مقام شيخه أفرد عن شيخه ، وقطع عنه ، فيتولاه الحق جل وعلا ، فيفطمه عن الخلق جميعاً ما عدا رسول الله ﷺ ، فإنه لا يمكن رفع واسطته أبداً ، ويصير الشيخ بعد فطام الحق جل وعلا لهذا المريد كالظئر والداية ، ويؤيده حديث «لا رضاع بعد الحولين»[1] فقلت له: فإذن الشيخ يحتاج إليه ما دام عند المريد هوى أو إرادة دون الله عز وجل ، فقال نعم ليكسرهما عنه ، فإذا كسرهما عنه وزالا فلا كدورة هناك ولا نقصان ، انتهى.

ثم من علامة صحة الوصول على ما قررناه وبيناه كون العبد لا يصير عنده خوف من الخلق كلهم ، لا من سلطان جائر ، ولا حية ، ولا سبع ، ولا نحو ذلك ، ولا يرى لغير ربه ضراً ولا نفعاً ، ولا عطاء ولا منعاً ، بل يصير أبداً آمناً مما سوى ربه ، ناظراً إلى فعل ربه ، مترقباً لأمره ، مشتغلاً بطاعته ، مبايناً لجميع خلقه دنيا وأخرى من حيث ترك اعتماده عليهم دون الله تعالى ، لا يعلق قلبه بأحد منهم ، فالخلق كلهم عنده كرجل كتفه السلطان وصلبه ، ثم جلس على كرسي مملكته أو غيره وأمر جميع عبيده أن يضربوا ذلك المكتوف بالنشاب والرماح ، فهل يليق بعاقل أن يترك السلطان ويسأل ذلك المصلوب في حاجة من حوائجه ، أو يخافه ، أو يرجوه ، لا والله ، فهكذا الصادقون لا يخشون أحداً إلا الله جل وعلا ، فليفتش من يدعي العرفان نفسه ، فربما كان يعول على الخلق في شيء من أموره ، وقد أنشدوا:

وكل يدعو وصال ليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

فنعوذ بالله من العمى بعد الإبصار ، ومن القطع بعد الوصل ، ومن الصدود بعد القرب ، ومن الضلالة بعد الهداية ، ومن الكفر بعد الإيمان ، إنه هو المنعم المنان ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به علي: كتمان ما يصيبني في باطني من البلايا والمحن عن الخلق ، فلا أذكر ذلك لعدو ولا صديق ، وفي بعض الأوقات يقع الحريق بباطني حتى يصير الدخان يخرج من أنفي ومن فمي ، مثل دخان الحطب والحلفاء ، فلا أطلع أحداً منهم على سببه ، وكثيراً ما يأتوني بالطبيب فلا يعرف أن يشخص لي مرضاً ، وكان على هذا القدم سيدي الشيخ نور الدين الشوني رضي الله عنه وأرضاه ، مكث ملقى على ظهره في مرض الموت سبعاً وأربعين يوماً ، حتى انتثر لحم ظهره ، وصار النمل يدخل في لحمه طوائف طوائف ، وما سمعته قط يقول: آه ، ولا سأله أحد كيف حالك إلا قال: أنا طيب بخير ، انتهى ، والرجال لا تظهر مراتبها إلا في الشدائد.

واعلم يا أخي أن قولك أنا طيب ، أي طيب الاعتقاد مع شدة المرض والألم وأنت كاذب

---

(١) أخرجه العسقلاني في تخريج أحاديث الهداية (٥٦١).

خير من شكواك من ربك وأنت صادق ، فكم من نعمة عندك لربك وأنت لا تعرفها ، وفي الحديث الشريف «أن في المعاريض مندوحة عن الكذب»(١)

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا تسكن إلى أحد من الخلق ، ولا تستأنس به ، ولا تطلعه على ما أنت فيه إلا من أذن لك فيه شرعاً ، وليكن أنسك بالله ، وسكونك إليه ، وشكواك منه إليه ، فإنه ليس في يد أحد سواه ضر ولا نفع ، ولا جلب ولا دفع ، ولا عز ولا ذل ، ولا خفض ولا رفع ، ولا غير ذلك من سائر الأمور الواقعة في الكون ، انتهى.

فإياك يا أخي أن تشكو ربك عز وجل وأنت معافى ، أو لك قدرة على تحمل ذلك البلاء بالقوة التي قواك الله تعالى بها ، فتقول: ليس عندي قوة ولا قدرة ، أو تشكوه لخلقه وعندك نعمة أنعم بها عليك ، وتقصد بتلك الشكوى الزيادة من النعمة ، وأنت متعام عما له عندك من النعمة والعافية ، احتقاراً لهما ، فإنه تعالى ربما غضب عليك ، وحقق شكواك ، وأزال عنك النعمة والعافية ، وضاعف عليك البلاء وشدده عليك ، بل مقتك وقلاك ، وأسقطك من عين رعايته ، فاحذر من الشكوى للخلق جهدك ولو قطعت وقرض لحمك بالمقاريض ، إن أردت أن تكون من أهل هذا المقام والسلام ، فإن أكثر ما ينزل بابن آدم من البلاء من جهة شكواه ، وكيف يشكو العبد من هو أرحم به من والديه ، فارض بما قدره عليك ، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. الآية فطوى عن العبد علم حقائق الأمور وعواقبها ، وحجبه عن ذلك ، فأبقى معه الإيمان بأنه أرحم به من أمه ، فلا ينبغي له أن يسيء الأدب ، فيكره بنفسه ، ويحب بنفسه ، بل يجب عليه اتباع الشرع في جميع ما ينزل به إن كان في حالة التقوى التي هي المرتبة الأولى ، كما أنه يجب عليه اتباع الأمر الإلهي إن كان في مقام الولاية وهو القدم الثاني ، كما أنه يجب عليه الرضا بالفعل ظاهراً وباطناً إن كان في مقام العرفان ، فتنح يا أخي عن طريق القدر ، وخل عن سبيله ، فإن الله تبارك وتعالى أعلم بك وبمصالحك ، واحمد الله رب العالمين على كل ما أنزله عليك.

واعلم يا أخي أنه لا يطأ بساط الحضرة من هو متلطخ بالذنوب والسيئات والمعاصي والخطيات ، كما لا يدخل حضرة ملوك الدنيا من ثوبه متلوث بالأنجاس والنتن والأوساخ: فقد يريد ربك بإنزاله البلايا والأمراض بك أن يطهرك من الأنجاس والأدناس ، حتى تصلح لدخول حضرته ، فإن تدنست بالذنوب بيقين ، ولا يمكنك دخول الحضرة وأنت متلطخ

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ، كتاب الأدب ، باب المعاريض مندوحة عن الكذب ، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٧٩٤) ، وابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٥٢) ، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٨٢٥٤) ، وعزاه لابن السني.

بالقذر ، لأنها حضرة لا يدخلها إلا طيب طاهر ، مطهر من سائر المخالفات ، حتى من درن الدعاوي والهوسات.

فإياك أن تتكدر من البلايا والمحن ، فإنها مكفرات مطهرات ، وتجلد لها يا أخي ولا تضجر ، كما تتجلد لشرب الدواء الكريه لما تعلم من تنقية باطنك من الطبيعة القذرة المنتنة التي يصعد بخارها الرديء إلى رأسك فيصدعه ، فاعلم ذلك ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: أني لا أعد أحداً بوعد إلا مع التفويض إلى الله تبارك وتعالى ، وطلبي منه أن يعينني على الوفاء به.

وفي وصية سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه: إذا كنت ضعيف الإيمان واليقين ووعدت بوعد فوف بوعدك ولا تخالفه ، لئلا يذهب إيمانك ، ويضعف يقينك ، بخلاف ما إذا قوي يقينك وتمكنت فيه ، وعلمت رضا الله تعالى عنك بوجود رضاك عنه في كل أمر قدره عليك ، فلك حينئذ أن تعد بالوعد لأمانك من الخلف ، فإن الله عز وجل يعامل العبد بحسب ما يعامل العبد به ربه جل وعلا.

فكن يا أخي إبراهيمي المقام ، ثم عد ، فإن الحق تبارك وتعالى يعينك على الوفاء ولا يكذبك ، لأنك حينئذ محبوب له ، وسيأتي أن مما من الله تبارك وتعالى به علي عدم الأكل مما وعدت به قبل حضوره ، لأنه قد لا يجيء إلا مع استشراف النفس إلى حضوره بسرقة الطبع ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من الأكل مما فيه شبهة في الغالب ، فتقوم نفسي منه فلا أقدر أسيغه ، وربما تناولته في بعض الأوقات فلعبت نفسي منه فأتقايأه ، وربما أسهو فآكله أو أشربه ثم أعلم به فأتقايأه قبل أن يجري في العروق ، وهذا من أكبر نعم الله عز وجل عليّ ، قال ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[(١)] فلم يأذن لنا في تناول شيء فيه ريبة ، سواء اجتمع ما فيه ريبة مع ما لا ريبة فيه ، أم حضر بين يدينا وحده ، لكن في صورة الاجتماع يجب علينا الأخذ بالعزيمة وهو الأكل مما لا ريبة فيه ، وترك ما يريب ، وأما في صورة تجرد المريب وحده فالأدب الوقف عنه إلا في وقت الضرورة ، فتأكل منه بقدر الحاجة فقط ، وإن كان عندك يقين وصبر فلا تأكل ، وقل: يا رب إني قد جعت وقد نهيتني عن الأكل من مثل هذا ، فارزقني شيئاً من الحلال أتبلغ به ، فإنه تعالى يقدر لك إن شاء الله تعالى شيئاً

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ، كتاب البيوع ، باب تفسير الشبهات ، والترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب منه (٢٠١٨) ، والنسائي ، كتاب الأشربة ، باب الحث على ترك الشبهات (٥٧١١) ، وأحمد في مسنده (٢٧٨١٩).

تأكله ، أو يقويك على الجوع حتى تجد الحلال ، وقد وقع لي مرة أنني لم أجد شيئاً حلالاً آكله ، فقلت اللهم اجعل لي في هذا التراب طعماً ، ثم أكلت منه فوجدت له دسماً كدسم اللحم ، اكتفيت به ثلاثة أيام ، وهذا من قاعدة ارتكاب أخف المفسدتين إذا تعارضتا ، وذلك لأن التراب مضر في البدن دون الروح ، والحرام مضر في كل منهما ، فافهم ذلك ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: توالي الآلام على جسدي من منذ عرفني الناس واعتقدوني ، فلا أنفك من بلاء إلا ويعقبه بلاء آخر ، وهذا من أكبر نعم الله عز وجل عليّ ، لأن ذلك البلاء إن كان عقوبة على ذنب سلف فهو خير ، وإن كان كفارة له فهو خير ، وإن كان رفع درجات فهو خير ، ولا يخلو البلاء عن هذه الثلاثة أحوال إلا أن يكون اختياراً اختباراً من الله تبارك وتعالى حتى أعرف مقامي في الصبر ، ودعواي المحبة له سبحانه وتعالى ، فإما أشكر ، وإما أستغفر.

وفي كلام سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه وأرضاه: إنما كان الحق تعالى يديم على أنبيائه وأوليائه البلايا والمحن ليكونوا دائماً بقلوبهم في حضرته لا يغفلون عنه دائماً ، لأنه تعالى يحبهم وهم يحبونه ، فهم لا يختارون قط الرخاء ، لأن فيه بعدهم عن محبوبهم ، بخلاف البلاء فإنهم يختارونه لأنه صفاء لقلوبهم ، وقيد لنفوسهم يمنعهم من الميل إلى غير مطلوبهم ، فإذا دام عليهم البلاء ذابت أهويتهم ، وانكسرت قلوبهم ، فوجدوا الله أقرب إليهم من حبل الوريد ، كما قال تعالى في بعض الكتب الإلهية: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»[1] يعني على الكشف منهم ، والشهود ، وإلا فهو تعالى عند كل عبد انكسر قلبه أم لم ينكسر ، فافهم.

واعلم يا أخي أن البلاء كلما اشتد على العبد كلما قوي القلب واليقين ، وضعفت النفس والهوى ، وقرب العبد من حضرة ربه عز وجل كما مر ، فافرح يا أخي بنزول البلاء لكن مع الاستعانة بالله تعالى عليه ، خوفاً أن يقع منك سخط فتهلك مع الهالكين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: رضاي بالدون من كل شيء تحبه النفس من شهوات الدنيا ، ولذلك لم يقع مني قط منازعة أحد من أهلها في شيء واستراح بدني وقلبي من التعب في تحصيل شيء من أمورها ، فإن رزقني كسرة من الشعير قنعت بها وشكرته عليها ، وإن رزقني خيشة لبستها وشكرته عليها ، هذا أساسي الذي يثبت أمري عليه ، فكلما جاءني بعد ذلك من أمر زائد أكثر من شكر الله تعالى عليه بالاعتراف له بعد استحقاقي لذلك ولم أزل

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٦٤)، والبيهقي في الزهد (٣٦٧).

بحمد الله جل وعلا عندي الثياب والطعام زائداً عن حاجتي فآكل من ذلك ، وألبس ، وأعطي الزائد الفائض عني لغيري ، وهذا الخلق فيه راحة عظيمة ، ومن لم يتخلق به فلا يزال في تعب قلب وبدن في تحصيل رزقه ، وكلما ترقى في الرزق لدرجة لاح له أخرى فيتعب في تحصيلها إلى أن يموت ، ويفوته عمل الآخرة ، كما هو مشاهد فيمن شابت لحيته ، وأشرف على معترك المنايا ، وهو يتاجر ويسافر إلى الشام وحلب والروم وبلاد التكرور والغرب ، ولا يشبع ولا يقنع ، ولا يبر نفسه بشيء مما يجمعه ، فضلاً عن أن يتصدق به ، أو يفعل به لغيره خيراً ، انتهى ، فافهم ذلك.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم قولي في دين الله عز وجل برأيي ، فإذا لم أجد في المسألة تصريحاً من الشارع توقفت عن العمل بها كما مر أوائل الباب الثاني ، انتهى ، ولا أقدم عليها إلا إن رأيت فيها نصاً أو إجماعاً أو قياساً جلياً.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: إياك أن تقول في دين الله بهواك ، فإنه يرديك ، ويظلم عليك قلبك ، ويسلبك إيمانك ومعرفتك ، ويسلط عليك شيطانك ونفسك وهواك بالأذى ، حتى شهواتك وأهلك وجيرانك وأصحابك وأخلاءك ، وجميع خلقه ، حتى عقارب دارك وحياتها وجنها وبقية هوامها ، فينغص عيشك في الدنيا ، ويطيل عقابك في الآخرة ، انتهى.

وإيضاح ذلك أن الله تبارك وتعالى أمر رسوله ﷺ أن يبلغ جميع ما أنزل إليه من ربه ، فما ترك ﷺ شيئاً مما فيه سعادتنا إلا وبينه لنا ، وما سكت عنه فهو رحمة لنا وتوسعة ، كما أشار إليه حديث «وسكت عن أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها»(١)

ومنها: منع بعض العارفين من القياس ، قال: لأنه طرد علة وما يدريه لعل الشارع لم يرد طرد تلك العلة ، ولو أرادها لأبانها ولو في حديث ، انتهى ، فافهم ذلك ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة شكري لله تعالى إذا زوى عني الدنيا وأعطاها لأقراني ، وجعل لهم المنزلة والجاه عند الأمراء والأغنياء والأكابر ، وأحمل(٢) ذكري بين الناس ، وأجاعني ، وأعراني ، وعترتي(٣)، وفرق عني الدنيا ولم يجمع لي شملاً بها ، ثم إني أسأل الله تبارك وتعالى أن يعافي أقراني من فتنة الدنيا التي أعطاها لهم ، ومنعني منها حتى

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٨٤)، والطبراني في المعجم الأوسط (٨٩٣٨) ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٢) ، وابن رجب في جامع العلوم والحكم ٢٧٥.
(٢) هكذا العبارة في الأصل ولعل الصواب وأخمل. فليحرر.
(٣) هكذا العبارة في الأصل فليحرر.

لا أقع في تمني السوء لأحد من المسلمين ولو باللازم ، فافهم ، ويا لهذه من لذة ما أعظمها لو ذاقها من يتقلب في النعمة الظاهرة ليلاً ونهاراً لترك جميع ما هو فيه ، وذلك لأن الله تبارك وتعالى بالرأفة غالباً مع أهل البؤس والضراء دون أهل النعمة والعافية ، ومن حصل على مجالسة الحق تعالى لم يفته شيء من الدنيا والآخرة.

وقد كان سيدي إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه يقول: لو تعلم الملوك ما نحن فيه لضاربونا عليه بالسيوف.

وكذلك نقل عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه كان يقول ذلك ، وإيضاح ذلك ، أن الدنيا إنما هي دار عبور لا دار إقامة ، فليس لعاقل أن يمسك منها إلا بقدر زاد الراكب المسافر.

وبالجملة فكل مؤمن زوى الله تبارك وتعالى عنه الدنيا فهو عنوان على رضاه تبارك وتعالى عنه في الدنيا والآخرة ، وعلامة على طيب أرض إيمانه ، وشدة طراوتها ، فلذلك كثر الظل والندى النازل على ورقها ومغرسها ، فصاحب الإيمان الكامل بما وعد الله في الجنة ، لا يبني إلا في الجنة ولا يغرس إلا في الجنة ، فلا تزال شجرة إيمانه تورق وتثمر وتنمو وهي في زيادة ، يتنعم ببؤس الدنيا وجوعها وعطشها وعريها ، عكس ما عليه أهل الدنيا ، فلا يزال في زيادة من الأعمال الصالحة حتى يجهل أهل الدنيا عمله لشدة إخلاصه ومشاهده وعلو مراقيه ، وهو الذي يعطى في الآخرة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نظير ما كان يعمل في دار الدنيا من الأعمال المرضية التي جهل الخلق قدرها من علو مشاهدها وملاحظها ومراقيها ، وأما من أعطاه الله عز وجل الدنيا ، ووسع عليه في مطاعمها وملابسها ومناكحها ومراكبها ، وشغله بها عنه ، فهو عنوان على أن محل أرض إيمانه بالآخرة ، وما أعد الله جل وعلا للمؤمنين فيها سبخة خبيثة أو صخر لا يكاد يثبت فيها ماء ، ولا يثبت فيها شجر ، فلذلك احتاجت لصب الماء عليها كثيراً ليبس أرضها ، وهي مع ذلك لا تورق ولا تثمر إلا شيئاً ضعيفاً ، فلولا كثرة صب الماء عليها لماتت أصلاً ، وجفت أشجارها ، وانقطعت ثمارها ، وخربت الدنيا ومعاشها ، وهو تعالى يريد عمارها ، فعلم أن شجرة الغني بالدنيا ضعيفة المنبت ، سريعة الهلاك ، وشجرة الفقير الذي يده خالية من الدنيا قوية المنبت باقية ببقاء الله تبارك وتعالى ، فكانت مداواة الحق تعالى لشجرة الغني بكثرة صب الماء عليها رحمةً به ، وإلا فلو يبست ، وجفت أغصانها ، وانقطعت ثمرتها ، لربما كفر أو جحد لقلة صبره وعدم رضاه بالدون ، فالتحق بالمنافقين والمرتدين والكفار ، ويؤيد ذلك الحديث «إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر ولو أغنيته لفسد حاله ، وإن من عبادي من لا يصلح له إلا

الغنى ولو أفقرته لفسد حاله»[1] فالحمد لله الذي عافانا من مثل ذلك ، وأعطانا الرضا عنه ، ولو زوى عنا نعيم الدارين ، والحمد لله رب العالمين.

ومن وصية سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه: إياكِ أن تشره عينك فتتمنى ما ليس لك أنه يكون لك ، فإنه لا يخلو إما أن يكون قسمه الله لك ، أو لم يقسمه ، فإن كان قسمه لك فهو صائر إليك لا محالة ، إما بمشيك إليه ، وإما بمجيئه هو إليك من غير مشي. وأما إن لم يكن قسمه الله لك فلا يمكنك الوصول إليه بحيلة من الحيل ، فاشتغل عن ذلك بإحسان الأدب فيما أنت بصدده من طاعة مولاك في وقتك الحاضر ، فقد نصحتك ، وعليك ببذل طوقك وجهدك في طاعته معتذراً مفتقراً خاشعاً مطرقاً غير ناظر إلى عرض من دنيا أو أخرى ، فإنك عبد والعبد لا يستحق على خدمة سيده شيئاً لأنها من حقوق السيد ، انتهى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايته لقلبي أن تقيم فيه محبة أحد من الخلق إلا عن إذنه ، وقد ضمن الله عز وجل حراسة كل قلب ليس فيه غيره فيعطي ذلك العبد سيف التوحيد والعظمة والجبروت ، ويجعله بواب قلبه ، فكل من دنا من ساحة صدره لباب قلبه قطعت رأسه ، فإذا تمكن العبد في حراسة قلبه ضربت حول قلبه سرادقات الغيرة ، وخنادق العظمة ، وسلطان الجبروت ، وأقام الحق جل وعلا دون قلب ذلك العبد حراساً من جنده ، كيلا يخلص الشيطان أو النفس أو الهوى إلى قلبه ، وحفظه من سائر الدعاوى الكاذبة الناشئة عن النفس والهوى ، فلا ينقص له رأس مال بإقبال الخلق عليه ، ولا بترادف نعم الدنيا عليه ، وإن تزوج امرأة كانت له عوناً على طاعة الله عز وجل ، وإن جاءه ولد كان صالحاً لا يحصل له ذل في طريق معاشه أبداً ، بل يرزقه الله رزقاً واسعاً حلالاً من حيث لا يحتسب ، ويأمره الله تعالى بتناوله وأخذه وجمعه ، ويثيبه على أخذه وإنفاقه منه على نفسه وغيره ، كما يثيبه على فعل الصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، والحج.

ثم اعلم يا أخي أن لمن ادعى حب الله عز وجل علامات إن وجدت فيه صدقناه ، وذلك أن نراه على الشريعة البيضاء النقية لا تلبيس عنده ولا تخليط ، ولا يشك فيما وعد الله ، أو وعد به في الدار الآخرة ، بل هو صابر على البلاء ، راضٍ بالقضاء ، حافظ للحالِ حامل للذكر[2] ، ساكت: صامت ، مطرق رأسه ، مغمض عينيه عن كل ما يشغله عن الله سبحانه وتعالى حتى يموت ، فافهم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٨٠٩٨) ، وابن رجب في جامع العلوم والحكم ص ١٨٨ ، وذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ١٢٩) ، والسيوطي في زيادات الجامع الصغير (٥٨).

(٢) هكذا العبارة في الأصل ولعل الصواب خامل الذكر. فليحرر.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حث أصحابي كلهم على كثرة ذكر الله عز وجل وتوحيده ، محبة في الله تبارك وتعالى ، ومحبة فيهم ، فإن بذلك يحصل تنظيف القلب مما سواه تعالى من الشهوات التي تحجب العبد عن ربه جل وعلا ، لأن القلب إذا خلا من الشهوات كان بيتاً لحب الرب ، وإذا سكن فيه حب الشهوات كان بيتاً للنفس والهوى والشيطان ، والحق تبارك وتعالى غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده المؤمن غيره ، فإذا خرجت الشهوات من القلب ، بقي فيه توحيد الرب وحده: صار محلاً للمعارف والموارد الغيبية والأسرار والعلوم.

وإيضاح ذلك ، أن القلب لا يسع اثنين. قال الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤]. أي فيشغل الرجل بشغلين مقصودين في آن واحد ، إذ كل قلب لا يتصرف إلا لمقصود واحد ، وإن وقع لشخص صورة اشتغال بشغلين كان أحدهما فقط مقصوداً لمن حقق النظر ، كأن اتفق أن شخصاً يذكر الله تعالى ، ويخيط ثوباً ، فهل يحمل أن الأهم عنده ذكر الله تعالى والخياطة تابعة ، أو يمشي على حبل ويراعي ميزانه بيده ، فالمشي هو المقصود حقيقة ومراعاة الميزان إنما هي وسيلة لإصلاح المشي ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤].

وقد جرب جميع أشياخ الطريق رضي الله عنهم سائر العبادات فما وجدوا عملاً أسرع في تنظيف القلب مما سوى الله من التوحيد ، فعليكم أيها الإخوان بكثرة ذكركم لربكم ، لتصيروا من أهل مجالسته ، فإنه لا يصطفي أحداً وفيه شهوة من الشهوات ، أو علة من العلل ، أو بقية من المجاهدات.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول مراراً: لا تطمع أن يفتح لك الباب وقد بقيت فيه بقية من المخالفات ، أو من محبة الدنيا ، كما أنه لا يصح لك الخروج من كير السبك وفيك بقية رعونة ، فاصبر حتى تخلص من الدنس ، ويعرضوك على الملك ، وتنظر هل يقبلك ويصطفيك أو يردك ويقصيك ، انتهى كلامه ، فافهمه ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: سروري بالفقر إذا أقبل ، وخوفي منه إذا أدبر ، لكن من وجهين مختلفين ، وذلك أن الفقر من شعار الأنبياء والصالحين فيفرح به المؤمن من حيث أنه سلك به طريقهم ، ويحزن ويخاف من حيث الامتحان الذي يقع فيه للعبد ، فإنه إن لم تحفه العناية الربانية هلك دينه من حيث لا يشعر.

وقد كان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: ما فزعت من الفقر قط ، وذلك لعلمه رضي الله تعالى عنه بأنه محفوظ من آفاته.

وأما سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه فكان يستعيذ بالله من الفقر ويقول: لأن أجمع عندي أربعين ألف دينار حتى أموت عنها أحب إليّ من فقر يوم ، ووقوعي في سؤال الناس ، والوقوف على أبوابهم ، وكان رضي الله عنه يقول: إنما خاف الأكابر من البلايا والمحن لما يطلق أهلها فيها ، ثم يقول: والله ما أدري ماذا يقع مني لو ابتليت ببلية من مرض أو فقر ، فلعلي أكفر ولا أشعر ، انتهى.

وهذا من باب الاتهام لنفسه رضي الله تعالى عنه ، والاحتياط لها ، وإلا فإذا لم يكن مثل سفيان الثوري يحمل البلاء فمن يحمله ، ويؤيد سفيان حديث «**كاد الفقر أن يكون كفراً**»(١) فإن الله عز وجل إذا ابتلى العبد ببلية ولم يمنّ عليه بالصبر ، وأخذ في السؤال والتضرع ولم يكشف ذلك عنه ، بل أدام عليه المرض والفقر مع قلة الصبر فربما وقع في السخط ، وانقطع عنه مدد إيمانه ، وكفر بالاعتراض على مقدور ربه ، فيموت كافراً بالله ، جاحداً لآياته ، ساخطاً على تقديره عليه ، فيكون من أشد الناس عذاباً يوم القيامة ، كما أشار إليه حديث «**وإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة**»(٢) انتهى ، فافهم ذلك ، واعمل عليه ترشد ، فالحمد لله الذي منّ علينا بالنظر بالعينين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تدبيري مع الله تعالى إذا نزل بي بلاء ، ولا أقول لأحد من الخلق: أيش أعمل ، وأيش تكون حيلتي ، بل أصبر تحت ذلك البلاء حتى ينصرف ، فإنه كالسحابة السائرة ، فإما يسبقني وإما أسبقه ، وكثيراً ما أسامح نفسي بالمباح في تدبيرها حال حجابها تنفيساً لها من الحصر ، وكثيراً ما اضطجع وألقي سلاح التجلد والصبر إذا رأيت المحل قابلاً لإظهار العجز ولدفع البلاء ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٢٢٠]. أي في ترككم الصبر ، فلا تصبروا ، فافهم ، وسيأتي بسط الكلام على هذا المحل في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله سبحانه وتعالى ، وفي بعض الكتب المنزلة ، يقول الله عز وجل: «**من طلب محبتنا فليصبر على بلائنا ، فإننا لا نحب عبداً إلا بعد أن نبتليه ويصبر**» انتهى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: من حين كنت صغيراً ، أني لا أبغض أحداً من المسلمين بحكم الطبع ، ولا أحبه بحكم الطبع ، بل أعرض حاله وأعماله على الشريعة ، فإن وجدتها موافقة للكتاب والسنة أحببته في الله عز وجل ، وإن وجدتها مخالفة لهما أبغضته لله

---

(١) أخرجه الشهاب في مسنده (٥٨٦) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٦١٢) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٥٣).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٩١١) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٣) ، والطبراني في الأوسط (٩٢١٩) ، ومسند الشاميين (١٦١٥) ، والروياني في مسنده (١٤١٢) ، والشهاب في مسنده (١١٢٦) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤٩٩).

عز وجل ، فإن الله تبارك وتعالى يحب من يعمل على الوفاق ، ويكره من يعمل على الخلاف.

وكان سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه يقول: إذا وجدت في قلبك بغض شخص فاعرض أعماله على الكتاب والسنة ، فإن كانت فيهما مبغوضة فأبشر بموافقتك لله ولرسوله ، وإن كانت أعماله فيهما محبوبة وأنت تبغضه فاعلم أنك ظالم عاص لله ولرسوله ببغضك إياه ، فتب إلى الله عز وجل من بغضك إياه ، واسأل الله أن يحببك في جميع أحبابه ، لتكون موافقاً له عز وجل في محبته ، وكذلك افعل فيمن تحبه ، اعرض أعماله على الكتاب والسنة ، فإن كانت محبوبة فيهما فأحببه ، وإن كانت مبغوضة فيهما فأبغضه ، كيلا تحبه بهواك وتبغضه بهواك ، وقد أمرت بمخالفة هواك لما شرعه الشارع ﷺ ، انتهى.

وهذا الخلق لم أر له فاعلاً من أقراني إلا قليلاً ولا يقدر على التخلق به إلا من آثر رضا الله عز وجل على رضا نفسه ، وصار هواه تبعاً لما جاءت به الشريعة ، على أن بغضك لأهل الخير أشد إثماً من حبك لأحد من عصاة المؤمنين ، لاحتمال أن يكون ممن سامحه الله تعالى ، أو يبدل سيئاته حسنات بالتوبة ، فالحمد لله رب العالمين فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تكدري من صاحبي إذا فارقني وعاداني بل آخذ ذلك من الله عز وجل من باب الفضل والمنة لأني أرجو حينئذ أنه تعالى لولا أنه يريد بي الاصطفاء ما نفر عني صديقاً ، ولا أمات لي ولداً ، ولا ألقى العداوة بيني وبين أحد من المسلمين ، فإنه تعالى غيور لعبده ، وعلى عبده ، فإنه جل وعلا ما خلق عبده إلا له ، وعبده المحجوب عن ذلك يريد أن يكون لغيره ، وفي القرآن: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وفي كلام الجنيد رضي الله تعالى عنه: إذا أراد الله أن يحب عبداً لم يذر له مالاً ولا ولداً ، وذلك لأنه إذا كان له مال أو ولد أحبهما ، فتشعبت محبته لربه ، وتجزأت ، وصارت مشتركة بين الله وبين غيره ، والله عز جل لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، وهو تعالى قاهر غالب لكل شيء ، فربما أهلك شريكه وأعدمه ، ليخلص قلب عبده لمحبته تبارك وتعالى وحده ، ثم إذا تنظف القلب من الشركاء والأنداد من الأهل والمال والولد واللذات والشهوات والولايات والرياسات ولم يبق في القلب إرادة ولا أمنية ، فحينئذ لا يضر القلب ملاحظة الأسباب من المال والولد والأهل والأصحاب ، لأن القلب حينئذ صار كالإناء المنكسر الذي لا يمسك ما يمكث فيه ، لأنه قد انكسر بفعل الله جل وعلا ، فكلما اجتمعت فيه إرادة لشيء غير الله تعالى كسرها فعل الله فلم يتركها تصل إلى القلب ، بل تكون خارجة ، والله تعالى لا يغار من شيء يكون خارج القلب ، بل يعطيه العبد على وجه الكرامة له بين

عباده ، فيطعم منه الواردين والقاطنين ، ولا حساب عليه في الآخرة إن شاء الله تعالى ، قال الله عز وجل في مثل ذلك: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص: ٣٩]. فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: من صغري مخالطة العلماء العاملين ، مع خوفي من عدم القيام بواجب حقهم ، والبعد عن كل من لا يعمل بعلمه ، وما أمثل نفسي بين يدي العالم العامل إلا كأنها بين يدي رسول الله ﷺ ، من حيث إنه ﷺ لو كان في عصري لم يرشدني بغير ما أرشدني به ذلك العالم الذي هو وارث له ، وقد قالوا ليس فوق منزلة العالم العامل إلا منزلة النبوة ، فعليك يا أخي بمجالسة كل من رأيته يعمل بعلمه ، وإياك أن تخالفه أو تنافره أو تجانبه أو تعاديه ، فإن السلامة فيما يقوله من النصح ، وفي مخالفته الضلال والهلاك.

واعلم يا أخي: أن النفس من شأنها أنها تحب الإطلاق والسراح ، وتكره التحجير عليها ، ولو من الشارع ﷺ ، وقل من الناس من نفسه تحب التحجير من الشارع ، وإيثاره على هواها ، وتأمل يا أخي ما يقع لك من الملل إذا أكثرت من الصلاة ، والوقوف بين يديه تبارك وتعالى ، أو ما يحصل منك من المزاحمة على الدنيا ورياستها وجاهها ، أو نومك على طراحة في الثلث الأخير من الليل ، تجاه نفسك بالضد مما ذكرناه ، فقد آثرت هواها على ما يرضي ربها منها ، فالعاقل من فتش نفسه وجاهدها ، حتى صار هواها هو ما رجحه ربها سبحانه وتعالى ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: صبري على جفاء من دعوتهم إلى خير فأبوا ولم يمتثلوا ، وإحساني إليهم مع ذلك بالكلام الحلو في وجوههم وفي غيبتهم لمن يبلغهم ، فإن العامي المقصر في التعلم لا لسان له ولا قلب ، بل هو غالباً من حثالة الناس الذين لا ميزان لهم ، فمن طلب من مثل هذا استقامة القول والعمل من غير علاج فلا يجاب إلا إن حفت العناية الربانية ذلك العامي ، فكان من أهل الخصوصية ، وقليل ما هم ، وهو حين ذاك ليس من العوام المقصرين ، بل هو ثالث الأقسام الآتية ، وقد قسم بعض العارفين الناس إلى أربعة رجال:

أحدهم: هذا العامي المقصر ، وهو لا يستقيم إلا بالعلاج والمسارقة شيئاً فشيئاً لعدم استقامة قلبه ولسانه.

الثاني: من له لسان ولا قلب له ، كالذي ينطق بالحكمة ولا يعمل بها ، ويدعو الناس إلى الله جل وعلا ويفر هو منه ، ويستقبح عيب غيره ويفعل هو ما هو أعظم في العيب، ويظهر للناس النسك والعبادة ويبارز ربه بالعظائم إذا خلا به ، ذئب من الذئاب، ولكن عليه ثياب ، وهذا هو الذي حذر منه رسول الله ﷺ في قوله: **«أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم**

اللسان جاهل القلب»[1] فمثل هذا ابعد عنه يا أخي ، وهرول لئلا يخطفك بحلاوة لسانه ، ويحرقك بنار معاصيه ، ويقتلك بنتن باطنه وقلبه ، اللهم إلا أن تكون آمناً من وقوعك فيما يقع فيه ، وقصدت بالقرب منه نصحه ، فمثل هذا لا يضرك القرب منه بل ينفعك ، وهذا الأمر الذي ذكرناه واقع كثيراً لمن برزوا للوعظ في هذا الزمان ، حتى أن بعض الناس يحضرون مجلسه ، وكلما يعظهم بأمر يقولون له : قل هذا لنفسك .

الرجل الثالث : من كان له قلب من غير لسان ، وهو المؤمن الكامل الذي ستره الله تعالى عن غالب الخلق ، وأسبل عليه كنفه ، وبصره بعيوب نفسه ، وعرفه غوائل مخالطة الناس ، وشؤم الكلام والمنطق ، فهذا رجل من أولياء الله تعالى ستره الله عز وجل ، وحفظه من الآفات ، وأعطاه العقل الوافر ، فدونك يا أخي ومصاحبة هذا ومخالطته وخدمته ، لتسرق من صفاته الحسنة فتصير مثله ، ولا أعلم في مصر الآن من إخواني على هذا القدم إلا قليلاً ، كالشيخ كمال الدين بن الموقع ، والشيخ شمس الدين البرهمتوش الحنفي ، والشيخ سليمان الحانوتي ، والشيخ إبراهيم بجامع آل ملك خارج الحسينية ، كثر الله تعالى في هذه الأمة من أمثالهم .

الرجل الرابع : من كان له لسان وقلب ، وهو العالم العامل المتقدم ذكره ، المتصدر لإرشاد الأمة وهدايتها نيابة عن رسول الله ﷺ كما أشرنا إليه في النعمة قبله ، ومثل هذا يجب القرب منه ، ومخالطته ، وخدمته ، والأخذ عنه ، والتخلق بأخلاقه ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ : عدم سخطي على مقدرات ربي عز وجل إذا نزل بي ما أكره ، وعدم اعتراضي عليه ، أو اتهامي له إذا أبطأ عني الوصول إلى رزقي ، أو أخر عني كشف كربي ، ذلك لعلمي يقيناً بأن لكل أجل كتاب ، ولكل بلية غاية ومنتهى ونفاد ، لا يتقدم شيء من ذلك ولا يتأخر ، وأوقات البلايا لا تنقلب عافية ، وأوقات البؤس لا تنقلب نعمة ، وأوقات الفقر لا تنقلب غنى ، وإن عجزت عن الوصول إلى مقام الرضا بالقضاء صبرت وانتظرت الفرج إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، فتسفر تلك الحالة عن ضدها ، كما تنقضي الليلة فتسفر عن النهار ، فمن طلب ظلمة العشاء في النهار ، وأنوار النهار في الليل فقد جهل ، ولم يعط ما طلب ، لأنه طلب الشيء في غير وقته وحينه ، وقد مدح الله عز وجل الصابرين بقوله جل وعلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] . أي بنصرهم وتثبيتهم جزاء لما نصروا الله تبارك وتعالى به على أنفسهم وهواهم ، قال تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد : ٧] . فكل من نصر الله تعالى هكذا كان الله تبارك وتعالى له ناصراً ومعيناً فكن يا أخي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢) ، والحسني في البيان والتعريف (١/ ٤١) .

خصماً على نفسك على الدوام ، ينصرك الله عز وجل على الدوام ، وإن كنت خصماً لها في بعض الأوقات نصرك في بعض الأوقات ، ففتش فإن الله سبحانه وتعالى يعامل عبده بحسب ما برز منه جزاء وفاقاً ، فاعمل على ذلك الخلق ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ من صغري إلى وقتي هذا أنه لم يجعل الدنيا أكبر همي ، فلا أصبح وأمسي قط وأنا مهتم بشيء من أمرها ، بل جعلت الآخرة رأس مالي ، وجعلت الالتفات إلى ما أحتاج إلى الاقتيات به في الدنيا كالربح ، فأصرف زماني أول ما أصبح في أمر الآخرة من علم أو ذكر أو غيرهما ، ثم إن فضل بعد ذلك من زماني شيء صرفته في طلب معاشي الذي أمرني الحق سبحانه وتعالى به ، وهذا الخلق عزيز في أبناء الدنيا ، بل حالهم بالعكس مما ذكرنا ، فجعلوا دنياهم رأس مالهم ، وآخرتهم ربحهم ، فإن فضل عن طلب دنياهم زمان جعلوه لآخرتهم ، وإلا فاتهم عمل الآخرة بالكلية ، وفي الحديث: «**إن الله يعطي الدنيا على نية الآخرة ولا يعطي الآخرة على نية الدنيا**»(١)

وإيضاح ذلك: أن أعمال الآخرة كلها يحبها الله عز وجل ، وإذا أحب الله عز وجل عبداً أحبه الوجود الصامت كله ، وغالب الناطق ، إذ الخلق كلهم تبع للخالق إلا من حقّت عليه الشقاوة ، كمن يكره الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو الأولياء ، ومن جملة الصامت الدنيا ، فهي تسعى خلف الزاهد فيها الراغب في الآخرة ، ولو أنه تركها لسعت خلفه خادمة له ، وحكم الراغب في الدنيا بالعكس ، وهو هروب الآخرة منه ، لأن الله تبارك وتعالى يغضب على محب الدنيا ، ومن غضب عليه الرب تعاصت الدنيا عليه وتعسرت وأتعبته في تحصيل ما قسم له منها ، لأنها مملوكة لله تهين من عصاه ، وتكرم من أطاعه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. فاعمل على ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: ملاطفتي لمن رأيت عنده حسداً لأخيه المسلم، وضربي له الأمثال لعله يتوب من خفة العقل ، وهذا الداء قد كثر في غالب الناس اليوم ، فترى أحدهم يحسد جاره على مطعمه أو مشربه أو ملبسه أو منكحه أو مسكنه أو على الكل ، وغاب عن هذا أن ذلك مما يضعف إيمانه ويزيده مقتاً من الله عز وجل ، ثم ليتأمل الحاسد في الوجه الذي يحسده عليه ، فإنه لا يخلو أن يكون الحسد واقعاً على قسم المحسود ، أو على قسم الحاسد ، فإن كان على قسم المحسود الذي قسمه الله تعالى له في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]. فقد ظلمه بذلك الحاسد ، فإنه رجل يتقلب في نعمة مولاه عز وجل التي تفضل بها عليه وقدرها له ، من غير تفعل منه ، ولم يجعل لأحد فيها

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٥٤٦) ، والشهاب في مسنده (١١٠٨) ، وابن المبارك في الزهد (٥٤٩).

نصيباً ، فما وجه حسده ، وإن كان حسدك يا أخي له على إعطائه قسمك الذي قسمه الله تعالى لك ، فهذا لا يصح قط ، فإن قسمك لا يعطى لغيرك ، ولا ينقل منك إليه أبداً ، فقد جهلت يا أخي بهذا الحسد غاية الجهل ، وظلمت أخاك به غاية الظلم ، وسيأتي بسط هذا الخلق في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: الاطلاع على بعض المنعمين والمعذبين في قبورهم ، ثم حجب ذلك عني رحمة بي ، فإن صاحب هذا الحال يموت في اليوم والليلة موتات ، كما أشار إليه حديث «**لولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر**»(١) ، وهذا أمر لا يحصل للعبد إلا بعد غلبة روحانيته على جثمانيته ، حتى يكون كالروحانيين ، وإلا يخاف عليه إفشاء الأسرار.

وفي كلام الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه: لا تطمع أن تدخل في زمرة الروحانيين ، وتسمع ما يسمعونه من الأسرار إلا إن عاديت جميع جوارحك ، وتفردت عن وجودك ، حتى صرت في مثل الحالة التي كنت عليها قبل نفخ الروح فيك ، لأن جميع ما حصل بعد نفخ الروح هو حجاب لك عن ربك ، فإن أردت الاطلاع على ماذكرناه فتجرد حتى تصير روحاً منفردة سر السر وغيب الغيب ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم أمني من مكر الله عز وجل بي في ساعة من ليل أو نهار ، فإنه تعالى لا يدخل تحت التحجير وله حضرة تسمى حضرة الاطلاق يفعل فيها ما يشاء ، كما أن له حضرة تسمى حضرة التقييد لا يخلف فيها الميعاد ، قال الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه وقد يقرب الله تعالى عبده المؤمن ويجتبيه ، ويفتح قبالة عين قلبه باب الرحمة والمنة والإنعام ، فيرى بقلبه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من مطالعة الغيوب في ملكوت السموات والأرض ، ومن تقريب وكلام لطيف ، ووعد جميل ودلال وإجابة دعاء ، وتصديق وعد ووفائه ، وكلمات حكمة تفاض على قلبه قذفاً من بعيد ، فتظهر على لسانه ، ويسبغ عليه مع ذلك نعماً ظاهرة على جسده وجوارحه في المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح الحلال والمباح ، وحفظ الحدود ، وكثرة العبادات الظاهرة ، ويديم جميع ذلك على هذا العبد برهة من الزمان ، حتى إذا اطمأن إلى ذلك واغتر به ، وظن دوامه ، فتح عليه جملة من أبواب البلايا والمحن في النفس والمال والأهل والولد والقلب ، فينقطع عنه جميع ما كان فيه من النعيم قبل ذلك ، فيبقى متحيراً حسيراً منكسراً مقطوعاً به ، إن نظر إلى ظاهره رأى ما يسوؤه ، وإن نظر إلى قلبه وباطنه رأى

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (٢٨٦٧) ، والنسائي ، كتاب الجنائز ، باب عذاب القبر (٢٠٥٨) ، وأحمد في مسنده (١١٥٩٦).

ما يحزنه ، وإن سأل الله تبارك وتعالى كشف ما به من الضر ، لم يرج إجابة ، وإن طلب وعداً جميلاً لم يجده سريعاً ، وإن وعد بشيء لم يصل إليه ، وإن رأى رؤيا لم يظفر بتعبيرها وتصديقها ، وإن رام الرجوع إلى الخلق لم يجد إلى ذلك سبيلاً ، وإن عمل برخصة تسارعت إليه العقوبات ، وتسلطت أيدي الخلائق على جسمه ، وألسنتهم على عرضه ، وإن طلب الإقالة مما دخل فيه ، والرجوع إلى الحالة الأولى التي كانت له قبل التقرب لم يقل ، وإن طلب الرضا والتنعم بما هو فيه من البلاء لم يعط ، وحينئذ تأخذ النفس في الذوبان ، والهوى في الزوال ، والأماني والإرادات في الرحيل ، والأكوان كلها في التلاشي ، ويدام عليه ذلك مدة ، حتى تفنى جميع أوصافه البشرية ، فإذا صار روحاً مجرداً ، وتعطف الحق تبارك وتعالى عليه يسمع النداء في باطنه: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص: ٤٢]. كما قيل لأيوب عليه السلام ، وحينئذ فيمطر الله تبارك وتعالى على قلبه ماء رحمته ورأفته ولطفه ومنته ، ويزيل عنه سائر البلاء ، ويطلق ألسنة العباد بمدحه والثناء عليه ، ويذل له الرقاب ، ويسخر له الملوك والأرباب ، ويسبغ عليه النعم الظاهرة والباطنة.

فكن يا أخي على حذر إذا نزل بك بلاء ، واسأل الله تعالى السلامة من فتنته ، فإنه لا بد لمن يريد الله تبارك وتعالى اجتباءهم واصطفاءهم من تجربتهم بالبلاء قبل ذلك ، ليصفيهم به من خبث الهوى ، والميل إلى الخلق ، والسكون إليهم ، والفرح بإقبالهم عليه ، فما برح العبد عن البلاء في حال النعمة ، وفي حال النقمة ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، وسيأتي بسط ذلك في مواضع إن شاء الله تعالى ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم التمادي في استحسان شيء من أفعال نفسي وأقوالها ، وجميع أحوالها ، لعلمي بعجزها عن الوفاء بحقوق ربها عز وجل ، وعن الوفاء بما كلفت به ، ولو قدر أن معونة الله تبارك وتعالى صاحبتني ففوق ذلك المقام مقامات لا تحصى.

وكان سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه يقول: للنفس حالتان لا ثالث لهما ، حالة عافية ، وحالة بلاء ، فإن كانت في بلاء فمن لازمها غالباً الجزع والشكوى ، والسخط والاعتراض ، والتهمة للحق تعالى من غير صبر ولا رضا ولا موافقة ، بل محض سوء أدب وشرك بالخلق والأسباب ، وإن كانت في عافية ونعمة ، فمن لازمها غالباً الأشر والبطر ، واتباع الشهوات واللذات ، كلما نالت شهوة تبعت أخرى ، وازدادت ما عندها من النعم ، من مأكول ومشروب وملبوس ومسكون ومنكوح ومركوب ، وتظهر في كل نعمة من هذه النعم عيوباً ونقصاً ، وتطلب أعلى منها مما لم يقسم لها ، وتقول إن مثل هذه النعمة لا تكفيني ولا تعفني ، وتطلب ما لم يتسم لها ، كلما تعطى ما طلبت فتوقع صاحبها في تعب طويل لا غاية له في الدنيا ولا منتهى.

وقد قالوا: من أشد العذاب على النفس طلبها ما لم يقسم لها ، واعلم يا أخي أن من شأن

النفس أنها إذا كانت في بلاء لا تتمنى سوى انكشافه عنها ، وتنسى كل نعيم وشهوة ولذة ، فإذا عوفيت وشفيت من ذلك رجعت إلى رعونتها ، وأشرها وبطرها ، وإعراضها عن طاعة ربها جل وعلا ، وانهماكها في معاصيه ، وتنسى كل ما كانت فيه من البلاء ، فربما تعاقب ، فترد إلى أشر ما كانت فيه من البلاء والضر عقوبة لها ، وذلك من رحمة الله عز وجل بها ليفطمها بذلك ، ويكفها به عن المعاصي في المستقبل ، لأنها لا تصلح لها العافية والنعمة ، فكان البلاء والبؤس أولى بها ، ولو أنها كانت تابت وندمت ولم ترجع إلى نقائصها ورذائلها لحماها الله تعالى من العقوبات دنيا وآخرة ، لكنها جهلت ولم تعلم كل ما فيه صلاحها ، وذلك لأن الله تبارك وتعالى قد طوى علم المصالح عن عباده وتفرد به ، وأعطاهم بدل ذلك ميزان الشريعة ، فما كان من محمود فهو من المصالح ، وما كان من مذموم فهو من المفاسد ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من الحاجة إلى سؤال الناس طول عمري إلى وقتي هذا ، وذلك من أكبر نعم الله عز وجل عليّ ، فلم يحوجني تعالى قط إلى كتابة قصة في طلب وظيفة أو غيرها ، بل لم يزل يرزقني ما يسد ضرورتي من غير سؤال.

وقد قال أهل الحق رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم: ما سأل أحد الناس إلا لجهله بالله عز وجل ، وضعف إيمانه ويقينه وقلة صبره ، وما تعفف متعفف إلا لوفور علمه بالله عز وجل ، وقوة إيمانه ويقينه وتزايد معرفته بربه جل وعلا ، وكثرة حيائه منه ، انتهى.

ثم إن كان العبد ولا بد سائلاً فليسأل الله عز وجل كما أشار إليه حديث «**إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله**»[1] فإن أجابه فذاك ، وإن أبطأت عنه الإجابة يعني قضاء الحاجة فلا ينبغي له أن يتكدر لذلك ، بل الواجب عليه أن يفرح بذلك ، لأن الله عز وجل إنما لم يستجب لعبده في كل ما سأل لئلا يغلب عليه الرجاء فيهلك ، ويترك فعل الأوامر ، ويقع في المناهي ، فكان عدم استجابة دعائه رحمة به ، لأن خوف المؤمن ورجاءه كجناحي الطائر لا يتم الإيمان إلا بهما ، مع أن العارف لا يسأل ربه قط في شيء إلا إن علم أنه مأمور بذلك فلا يزيده السؤال إلا قرباً وأدباً ، كما لو سأل الزيادة من العلم والصلاة والصوم ونحو ذلك ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم طمأنينة نفسي إلى دوام النعمة عليّ لعدم استحقاقي لها ، ولشهودي التحويل والتغيير في غيري ليلاً ونهاراً ، فلا يخلو صاحب النعمة قط من حصول ما ينغص عليه عيشه إما عاجلاً وإما آجلاً ، من الأمراض والأوجاع والمصائب في النفس والمال والولد والأهل والأصحاب ، وهذه الأمور لا تفارقني بحمد الله عز وجل إلا

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب صفة القيامة والرقائق ، باب منه (٢٥١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٦٦٤). =

قليلاً ، ثم إذا حصل للعبد تنغيص العيش حجبته الحالة التي هو فيها عن تذكر شيء من النعيم السابق ، ولذلك قال تعالى في حق من قالوا : ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]. لأنهم ما قالوا ذلك إلا بلسان الحالة التي هم فيها فظنوا أنها تدوم معهم إذا خرجوا ، ولو علم أحدهم أنه إذا رد إلى الدنيا يرد إليها بحكم القبضتين ، ما قال ذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ما التذ عاقل بنعمة في الدنيا قط ، لأن الحقوق التي عليه في تلك النعمة تحجبه عن التنعم بها ، فإنه مكلف بإنفاقها على المحتاجين إليها من نفسه وأهله وجيرانه وعامة المسلمين ، وليس له حبس شيء عنده من الدنيا ، وهو يعلم أن في الحبس مديوناً ، أو في البلد مريضاً لا يجد ما يصرفه على مرضه ، أو عرياناً لا يجد ما يستر به عورته بين الناس ، ونحو ذلك ، لكن إذا عمل العبد بما أمره الله تعالى به في ماله من الصدقات والخيرات ، لا بد أن الله تعالى يتفضل عليه بطيب العيش في أواخر عمره ، ويعطيه الراحة والدلال والعز بين الناس.

وقد قالوا: من صبر على بلاء الدنيا حل له نعيمها أواخر عمره ، إنما يعطى الأجير أجرته بعد عرق جبينه ، وتعب جسده ، وكرب روحه ، وضيق صدره ، وذهاب قوته ، وإذلال نفسه ، وكسر هواه كما هو الشأن في خدمة المخلوقين ، فلا يكاد يطيب له عيش إلا بعد تجرعه في خدمتهم هذا المرارات كلها ، فإذا تجرعها أعقبت له طيب طعام وأدام وفاكهة ولباس وراحة وسرور وتلذذ بالبلاء.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه يقول: لا يعطي الله تبارك وتعالى مقام التلذذ بالبلاء لعبد إلا بعد بذله المجهود في مرضاته ، فإن الابتلاء على ثلاث أحوال: تارة يكون عقوبة ومقابلة لجريمة ارتكبها ، أو معصية اقترفها ، وتارة يكون تكفيراً وتمحيصاً ، وتارة يكون لارتفاع الدرجات ، وتبلغ المنازل العاليات ، ولكل من هذه الأحوال علامة ، فعلامة الابتلاء على وجه العقوبة والمقابلة عدم الصبر عند وجود البلاء ، وكثرة الجزع والشكوى إلى الخلق ، وعلامة الابتلاء تكفيراً وتمحيصاً للخطايا وجود الصبر الجميل من غير شكوى ، ولا إظهار جزع ولا ضجر إلى الأصدقاء والجيران ، وعدم ثقل الطاعات على بدنه ، وعلامة الابتلاء لارتفاع الدرجات وجود الرضا والموافقة ، وطمأنينة النفس ، وخفة الأعمال الصالحة على القلب والبدن ، انتهى ، فاعمل على التخلق بذلك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: فزعي لذكر الله عز وجل وإلى الصلاة إذا احتجت إلى شيء من أمور الدنيا ، ولا أشتغل بالسؤال عن الذكر والصلاة ، وذلك عملاً بحديث: يقول

الله عز وجل: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»[1] وفي الحديث أنه ﷺ «**كان إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة ، ويقول أرحنا بها يا بلال**»[2] انتهى.

والسائلون على أقسام ، ولكل قسم مشهد ، فإن الله عز وجل إذا أراد أن يصطفي عبداً من عبيده سلك به في الأحوال ، وامتحنه بأنواع البلايا والمحن ، فيفقره مثلاً بعد الغنى ، ويضطره إلى مسألة الخلق في الرزق بعد سد جميع جهات رزقه عليه ، ثم إنه يصونه بعد ذلك عن مسألتهم ويضطره إلى القرض منهم ، ثم إنه يصونه عن القرض ويضطره إلى ذل المكاسب ، ويسهل عليه ذلك ، فيأكل من كسبه كما هو السنة ثم إنه يعسر عليه الكسب ويلهمه السؤال للخلق بأمر باطن ، يرى أنه يعصي بتركه ، لا يذوقه إلا هو ، ليكسر بذلك نفسه وهواه ، وهو حال الرياضة للنفس ، ثم يصونه عن ذلك ، ويأمره بالقرض منهم ، أمراً جازماً لا يمكنه تركه ، ثم ينقله من ذلك ويقطعه عن الخلق ومعاملتهم ، ويجعل رزقه في السؤال له تعالى فقط ، فيسأل ربه جميع ما يحتاج إليه ، فيعطيه عز وجل ذلك ، ولا يعطيه له إن سكت وأعرض عن السؤال ، ثم ينقله من السؤال باللسان إلى السؤال بالقلب ، فيسأل بقلبه جميع ما يحتاج إليه فيعطيه له ، حتى أنه لو سأله بلسانه لم يعطه شيئاً أو سأل كذلك الخلق لم يعطوه شيئاً ، ثم إنه تعالى بعد ذلك كله يغنيه عن السؤال ظاهراً وباطناً ، ويصير الحق تبارك وتعالى يبدؤه بجميع ما يحتاج إليه ويصلحه من المأكول والمشروب وغير ذلك من غير أن يخطر ذلك بباله ، وحينئذ يتحقق بولاية الله تبارك وتعالى له ، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. ويتحقق أيضاً بمعنى قوله تعالى: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**» والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: تقديمي الأهم فالأهم من المأمورات الشرعية من حين كنت صغيراً إلى وقتي هذا ، ولذلك لم أعول قط على علم من غير عمل ، ولا على نافلة قبل العمل على إكمال الفريضة الكمال النسبي الذي يصل إليه أمثالنا ، وقد قالوا: من اشتغل بالنوافل عن الفرائض فهو أحمق ، ومثاله من دعاه الملك إلى حضرته فقال له: اصبر حتى أفرغ من خدمة غلامك ، أو مثال حبلى حملت فلما دنا نفاسها أسقطت فلا هي ذات حمل ، ولا هي ذات ولد ، أو مثال من يجود بما لا يجب عليه ، ويترك وفاء الديون أو وفاء الزكاة مثلاً.

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ (٢٩٢٦) ، والدارمي ، كتاب فضائل القرآن ، باب فضل كلام الله على سائر الكلام (٣٣٥٦).

(٢) أخرج الجزء الأول منه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل (١٣١٩) ، وأحمد في مسنده (٢٢٧٨٨) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣١٨١) ، وبلفظ المؤلف أخرجه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في صلاة العتمة (٤٩٨٥) ، وأحمد في مسنده (٢٢٥٧٨).

وفي كـلام سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنـه: من الفرائض التي يجب تقديمها على الاشتغال بالعلم والكسب ترك الحرام ، وعدم الشرك الخفي بالله ، فلا يشرك به خلقه في جلب نفع أو دفع ضرر إلا بقدر نسبة التكليف إليهم ، من غير وقوف معهم.

ومن ذلك أيضاً ترك الاعتراض على أقداره ، وإجابة الخلق إلى المعصية ، والإعراض عن أمر الله تبارك وتعالى وطاعته ، عملاً بقوله ﷺ **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»**(١) فالحمد لله الذي هدانا لذلك ، والحمد لله على كل حال.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى بـه عليّ: عدم محبتي للشبع من الحلال فضلاً عن الحرام والشبهات ، وذلك من أكبر نعم الله تبارك وتعالى علي ، فإن أكل الحرام أو أكل الحلال الزائد على الحاجة يجلبان النوم ، والنوم أخو الموت ، لأنه يورث الغفلة عن جميع المصالح ، وقد قالوا: الخير كل الخير في اليقظة ، والشر كل الشر في النوم والغفلة.

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: من شبع من الحلال كثيراً ، شرب كثيراً فنام كثيراً ، فندم كثيراً لفواته الخير الكثير.

وقد قال بعضهم: أكل القليل من الحرام في الظلمة كأكل الكثير من الحلال ، لأن الحرام يغطي محل الإيمان ويظلمه ، كما يظلم الخمر العقل ويغطيه ، فإذا أظلم محل الإيمان فلا صلاة ولا عبادة ولا إخلاص ، ومن أكل من الحلال كثيراً لم يجد الأمر كما كان في النشاط والعبادة إن أكل منه قليلاً ، ولم يشرب عليه ، فإذن الحلال نور في نور ، والحرام ظلمة في ظلمة ، انتهى ، فافهم ذلك ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم صبري على البعد من حضرته تعالى وطيراني إليها كلما أغفل ، وأخرج منها ولا أعرف لسرعة الطيران شيئاً أعون عليه من هذين الجناحين ، أحدهما ترك اللذات والشهوات المحرمة والمباحة ، وترك الراحات كلها ، الثاني احتمال الأذى والمكاره وركوب العزائم والشدائد ، والخروج عن الخلق والهوى والإرادة والمنى الدنيوية والأخروية ، فإن هذه الأمور تخرج أصحاب الحضرة من الحضرة ، فمن استعملها خارج الحضرة منعته الدخول.

وكان سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه يقول: كن طياراً إلى الحضرة كلما تغيب عنها ، ولا ترض بالقعود عنها ، ثم إذا من الله تعالى عليك بالدخول فأحسن الأدب ، ولا تغتر بما أنت فيه من النعيم الأوفر ، والعز الدائم ، والكفاية الكبرى ، والدلال والغنى في الدنيا والأخرى ، فمن اغتر بذلك قصر في الخدمة ضرورة ، وأخلد إلى الرعونة الأصلية من

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (١٨٤٠).

الظلم والجهل ، فأخرج بذلك من الحضرة في أسرع من لمح البصر ، فاحفظ يا أخي قلبك من الالتفات إلى ما تركته قبل دخول الحضرة من الركون إلى الخلق ، والهوى ، والإرادة ، والتدبير ، ورؤية النفس على أحد من المسلمين ، وتعامَ عن رؤية ما سوى الله تعالى ، ولا تر له نفعاً ولا ضراً ، ولا عطاء ولا منعاً.

وكان سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه يقول: اجعل الخلق كلهم والأسباب كلها عند حصول الأذى والبلية لك كسوط ربك عز وجل الذي يضربك به ، واجعلهم عند النعمة والعطية ، كيده تبارك وتعالى التي سخرها لك من عبيده ليلقمك بها الحلوى ، ولله المثل الأعلى ، انتهى ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: رمي الدنيا الزائدة عن حاجتي حتى الحالة الراهنة في بداية أمري ، وكراهتي لإمساكها ، ودوامي على ذلك عدة سنين ، حتى تحققت بخروجها من قلبي ، وصرت أنقبض لدخولها عليّ ، وأفرح للفقر وضيق اليد ، ثم إني الآن أجمع منها ما يكفيني ومن تلزمني كفايته يومنا وليلتنا إظهاراً للفقر والحاجة ، ولعلمي بأن الله تبارك وتعالى غني عن جميع الخلق ، وما خلق ما خلق إلا لخلقه لينتفعوا به ، فكان من الأدب أخذ الدنيا ثم استعمالها فيما شرعت له.

ومن هنا قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي وغيره: إن الزاهد في الدنيا يثاب بسببها مرتين ، الأولى برميها بعد أن فتح عينه على محبتها تبعاً لجمهور الناس ، الثانية: بأخذها بعد رميها وخروج محبتها من قلبه ، فقد رماها هذا[1] بإذن ، وأخذها بإذن ، فإن لسان إشارة الحقيقة تقول للمؤمن وما تلك بيمينك أيها المؤمن ، فيقول: هي دنياي أنفق منها على نفسي وعيالي وأهلي وإخواني والواردين عليّ ، فيقال له: ألق ما في يمينك ، فيلقيها فيراها حية تسعى كعصا موسى ، فيقال له: خذها ولا تخف كما وقع لموسى على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأزكى السلام ، فهو ممتثل أمر الله تبارك وتعالى في الحالين لا اختيار له معه ، وهذا الخلق قليل من إخواننا من تخلق به على وجهه فهو ممسك للدنيا بقلبه ويده كالعوام ، فاعمل يا أخي على التخلق به ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: مبادرتي عند نزول البلاء بساحتي ، أو عند توقف إجابة دعائي في حق نفسي أو في حق غيري ، إلى تفتيش نفسي فيما ارتكبته من الذنوب ، أو تركته من الأوامر الظاهرة أو الباطنة ، أو فيما نازعته من الأقدار ونحو ذلك ، إذ الغالب أن العبد إنما يبتليه الله تبارك وتعالى مقابلة ، ثم إن لم ينكشف البلاء مثلاً بادرت إلى التضرع ، والإكثار من الاعتذار والاعتراف ، بنحو قولي اللهم إني أعترف بين يديك بأني لا أعلم أحداً على وجه

---

(١) هكذا العبارة ولعل الصواب حذف كلمة هذا والله أعلم.

الأرض من المؤمنين أكثر عصياناً ، ولا مخالفة ، ولا أسوأ حالاً ، ولا أقل حياء مني.

وقد قال بعضهم: قد يبتلي الله تبارك وتعالى عبده ليرده بالبلاء إلى السؤال ، فيجيب سؤاله ، فإذا سأل أحب تبارك وتعالى إجابته ، وذلك ليعطي الله تعالى الكرم والجود حقهما ، لأنهما يطالبانه عز وجل عند سؤال عبده بالإجابة ، وقد تحصل الإجابة بقوله تعالى: «لبيك عبدي» ولكن يؤخر كشف المرض والبلاء مثلاً لتعويق القدر ، لا على وجه عدم الإجابة والحرمان والصد عنه ، فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ، فإنه نفيس ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

الباب الثالث
في جملة من الأخلاق

فأقول وبالله التوفيق:

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: رد نفسي فوراً إذا اشمأزت من تقدير الله تبارك وتعالى عليها في أمر من الأمور ، إلى الرضا بقضاء الله تعالى وقدره ، طلباً لرضا الله تعالى عني برضاي عن ربي ، فإن العبد لا يعرف رضا الله تبارك وتعالى عنه إلا بوجود الرضا منه عن ربه عز وجل ، كما قاله الجنيد وغيره ومن رضي بقضاء الله ، وأفنى فعله في فعله ، واختياره في اختياره تعالى ، حصلت له الراحة الكبرى ، والجنة المعجلة في الدنيا ، فإن أهل الجنة هكذا يكونون فيها ، وهذا هو باب الله الأكبر الذي هو سبب الرضا عن العبد ، وما دام العبد يرى نفسه تطلب غير مراد ربها لها فالحق تعالى غير راض عنها ، وقد قالوا من رضي الله تعالى عنه في الدنيا وأحبه لم يعذبه في الآخرة والدنيا ، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]. أي لو كنتم كما تزعمون ما عذبكم ، لأن الحبيب لا يعذب محبوبه ، فافهم.

وهذا الخلق قل من يراعيه من المريدين: فيشتغل أحدهم بالطاعات والعبادات مع العلل ، غافلاً عن قصده بذلك رضا الله عز وجل ، إنما هي لتخلص له نسبة كمالها ، لتطلب أجرها من الله تعالى ، وذلك من الجهل ، وإنما الواجب عليه العمل على تنقيتها من العلل ، طلباً لمحبة الله عز وجل له ورضاه عنه وقد أجمع أهل الله عز وجل على أن من ادعى أنه يحب الله عز وجل واختار مع ربه غيره ، أو طلب عوضاً على عبادة ربه ، فهو مغتر كذاب ، غير مخلص لله عز وجل ، فإن المخلص هو من يعبد الله عز وجل ليعطي الربوبية حقها ، فإنه عبده ، والسيد يستحق على عبده الطاعة والخدمة له ، فكيف يطلب العبد عوضاً على ذلك ، بل الواجب عليه الشكر لله الذي أهله للوقوف بين يديه ، ولم يطرده كما طرد غيره من العبيد السوء ، والله إني لأرى الفضل لله الذي أهلني لأن يمر اسمه تبارك وتعالى على لساني ، ولا أرى أني كافأته على ذلك ، ولو عبدته بعبادة أهل الدنيا كلهم.

وبالجملة فقد جعل الله تعالى دونه خنادق من لم يقطعها لم يدخل حضرته ، أعظمها على

المريدين الاشتغال بالحظوظ التي قسمت أو لم تقسم ، فإنها إن كانت لم تقسم له ، فالاشتغال بطلبها حمق ورعونة وجهل وعقوبة ، وإن كانت قد قسمت فالاشتغال بها شره وحرص وشرك في باب العبودية والمحبة والحقيقة ، إذ الاشتغال بغير الله عز وجل شرك ، وذلك ينافي طريق الولاية التي يزعمها ، ثم كيف يطلب العاقل رضا الله جل وعلا بالاشتغال بغيره وهو يرى خلقاً كثيراً ، كلما كثرت عندهم الحظوظ ، وتواترت ، وتتابعت ، زاد تسخطهم على ربهم وتضجرهم أو كفرهم بنعمه ، وزاد همهم وغمهم ، وفقرهم إلى أمور لم تقسم لهم ، وحقروا وصغروا ما عندهم من النعم ، فليقل العاقل لنفسه غايتك أن تكوني مثل هؤلاء في الجهل والغفلة عن الله تبارك وتعالى إذا اشتغلت بغيره ، فإن الأمور تجر إلى بعض.

وتأمل يا أخي في الزهاد لما نظروا إلى أن الدنيا ليس لها حد يقف أحدهم عليه ، ثم يشتغل بعد ذلك بربه جل وعلا ، كيف أخذوا منها الكفاف ، واشتغلوا بربهم عز وجل ، وبذلك صاروا أعقل الناس ، كما قال به الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ، فكان يقول كثيراً: لو أوصى شخص بشيء لأعقل الناس لصرفته إلى الزهاد في الدنيا ، انتهى.

ومن تأمل وجد الفقير القانع أكثر نعيماً في الدنيا من الملوك ، لأنه رضي عن ربه جلّ وعلا ، ورأى أن ما بيده من الدنيا كثير على مثله ، والملوك لا يرون أن ما بيدهم من الدنيا كثير ، بل يطلب أحدهم أن تكون معه مملكة غيره زيادة على مملكته ، فلم يزل في تعب وغم وهم وقتال وحرب.

وقد رأيت مرة شخصاً من أهل الوراقين يطحن مسكاً ، وعليه ثوب أبيض رفيع ، وعبد يروح عليه بالمروحة وهو يقول: أسأل الله أن يريحنا من هذه العيشة ، فقلت للعبد ما لسيدك متكدر ، فقال: قال لهم في البيت اطبخوا كشكاً فطبخوا شوربة ، فقلت له في أذنه: تذكر وتفكر في المقيدين في الحبوس في الحر والجوع ، فقال: أستغفر الله العظيم ، انتهى.

وأصل ذلك أن العبد كلما غمرته النعم يجهل مقدارها ، ولا يعرفها غالباً إلا بالتحويل ، وهذا الداء قد كثر في أبناء الدنيا اليوم ، فترى أحدهم يحتقر ما قسم له ويقلله ويقبحه ويعظم ما بيد غيره من التجار ، ويكثره ويحسنه في عينه ، ويطلب أن يكون له مثل ذلك زيادة على ما بيده ، مع أن ذلك لم يقسم له فذهبت أعمارهم ، وانحلت قواهم ، وكبر سنهم ، وصارت لحية أحدهم بيضاء من كثرة الهم والتعب ، فتعبت أجسادهم ، وعرقت جباههم ، واسودت صحائفهم من كثرة الذنوب والآثام التي يقعون فيها بسبب تحصيل الدنيا ، ثم إنهم بعد ذلك لم ينالوها فخرجوا من الدنيا مفاليس ، فلا هم شكروا ربهم جل وعلا فيما أعطاهم ، ولا هم نالوا ما طلبوا مما هو في يد غيرهم فضيعوا دنياهم وآخرتهم.

وقد سئل الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه عن شر خلق الله من هم؟ فقال: من اشتغل بالدنيا عن الآخرة ، ثم لم ينل ما طلب ، فهذا شر خلق الله وأجهلهم وأحمقهم

وأخسهم عقلاً وبصيرة ، انتهى ، ويشير لذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤]. وقد رأيت من معه نحو ثلاثين ألف ديناراً يشاحح بائع الفجل على فجلة ، ورأيت من يملك مائة ألف ديناراً ذهباً يحلف بالله تعالى يميناً مغلظاً على ستة أنصاف عند قاض ، ونفقته كل يوم عشرة أنصاف ، وهو الآن في سن الشيخوخة وليس له ولد ، فلو أن هؤلاء جلسوا يأكلون بقية عمرهم مما جمعوه لكفاهم وفضل عنهم ، ولو أنهم رضوا بالقضاء ، وقنعوا بالعطاء ، واشتغلوا بطاعة ربهم لكانوا ممن لم يشغلهم القيام في الأسباب عن ربهم ، وبتقدير تركهم الأسباب فلا بد أن الله تبارك وتعالى يبعث لهم من الدنيا ما يكفيهم من غير تعب ولا عناء ثم ينتقلون إذا ماتوا إلى جوار المولى جل وعلا فيجدون عنده فوق ما كانوا يؤملون ، كما درج عليه السلف الصالح جعلنا الله تبارك وتعالى منهم وجميع إخواننا وأحبابنا وأصحابنا ، آمين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم طلبي لشيء من مناصب الدنيا من حين وعيت على نفسي ، فلم أزل بحمد الله تعالى أحب الزهد في الدنيا وشهواتها ، إلهاماً من الله تعالى من غير سلوك على يد شيخ كما مر أوائل الباب الثالث وغيره ، فليس لي بحمد الله تعالى علاقة في الدارين تعوقني عن الاشتغال بربي جل وعلا ، ولذلك لا يطلب مني أحد شيئاً مما هو بيدي إلا أعطيته إياه إلا أن يمنعني الشرع منه ، وهذا من أكبر نعم الله عز وجل عليّ.

وقد قال العارفون رضي الله تعالى عنهم: من أراد الآخرة فعليه بالزهد في الدنيا ، ومن أراد الله فعليه بالزهد في نعيم الآخرة ، فيترك الدنيا للآخرة ، والآخرة لربه عز وجل ، ويشتغل بالله وحده خالصاً مخلصاً لا يطلب على عبادته وخدمته عوضاً في الدارين ، وسيأتي في هذه المنن أن هذه النعمة لا يعطاها العبد إلا بعد دخوله طريق القوم ، فليس لغير من دخلها غالباً قدم في ذوقها ، إنما هو يطلب العوض على عبادته في الدنيا أو الآخرة ، ولذلك كان اسمه عند القوم عبد الدنيا أو عبد الآخرة لا عبد الله جل وعلا ، وقد أنشد سيدي علي بن وفا رحمه الله تعالى:

محب الله لا يهوى خلافه ... ولو أعطى على ذاك الخلافة

فعلم أنه ما دام في قلب العبد شهوة من شهوات الدنيا ، أو لذة من لذاتها ، فهو محجوب عن الآخرة كما أنه ما دام في قلبه شهوة من شهوات الآخرة فهو محجوب عن ربه عز وجل.

وقد عد سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه من شهوات الدنيا طلب العلم لغير العمل به ، كأن طلبه لولاية أو رياسة ، وعد من شهواتها أيضاً قراءة القرآن بالروايات من غير مطالبة نفسه بالعمل به ، وقراءة النحو واللغة والبلاغة ، والفصاحة الزائدة على الحاجة ، فليس صاحب هذه الأمور بزاهد حقيقة ، لأن كل خصلة من هذه الخصال فيها لذة للنفس ،

وموافقة للهوى ، وراحة للطبع ، وكل ذلك من الدنيا يحبب الإنسان في البقاء فيها ، ويحصل لديه السكون والطمأنينة إليها.

فليفتش العالم نفسه أو مدعي الزهد في الدنيا نفسه ، ويأخذ في مجاهدة نفسه ورياضتها ، حتى يخرج من قلبه كل شهوة دنيوية أو أخروية ، فيحب الجنة لكونها دار المشاهدة والمجالسة للحق تعالى ، لا لشيء يأكله أو يلبسه أو ينكحه ، فإن ذلك إنما خلقه الله تبارك وتعالى بالأصالة لعبيده ، والاشتغال بالحاصل تضييع للوقت ، فاعمل يا أخي على تحصيل كل مرتبة قبل طلب ما بعدها ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تسليمي للنفس ما تدعيه من تركها الحظوظ النفسانية في الدنيا والآخرة ، لأن لها غوائل في طلبها قل من يتنبه لها ، ولذلك طالت الطريق على المدعين ، ولم يدخل أحد منهم حضرة الله تبارك وتعالى لعدم تفتيشه نفسه وتوبته من الصفات التي تمنعه من دخول الحضرة.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه يقول: لا يدخل أحد من عتبة الولاية حتى يسمع المنادي من قلبه ينادي: ألا من أراد دخول حضرة الحق جل وعلا فليترك الحظوظ كلها ، ويخلع نعليه وهما دنياه وأخراه ، ويتجرد عن الأكوان كلها ، ويتعر عن جميع الأماني ، فلا يكون له ميل ولا محبة لشيء إلا بأمر الله عز وجل ، ثم يدخل بعد ذلك ، ومن لم يتجرد كما ذكرنا فلا يصح له أن يطأ بساط الحضرة أبداً ثم إذا دخل فله أدب آخر وذلك أن يكون مطرقاً لا ينظر يميناً ولا شمالاً أي لا ينظر يميناً إلى الآخرة ، ولا شمالاً إلى الدنيا ، وحينئذ يتهيأ لأن يخلع عليه الخلع ، انتهى ، وكان رضي الله تعالى عنه يقول: تترك الحظوظ ثلاث مرات ، ثم يؤمر العبد بأخذها ، فإن لم يأخذها عصى أمر ربه:

المرة الأولى: أن يترك الحرام والشبهات.

المرة الثانية: أن يترك الحلال خوفاً أن يشغله عن الله عز وجل.

المرة الثالثة: أن يسمع من قلبه النداء: اترك كل شهوة في الدارين ، ثم يؤمر بأخذ النعم والتلبس بها ، وينهى عن ردها لشهوده أن في رد نعم الملك في تلك الحضرة سوء أدب ، وافتياتاً على الملك ، واستخفافاً بالحضرة وحينئذ يتلبس بالنعم ، ويراها فضلاً من الله تعالى ونعمة ، بعد أن كان يتلبس بها بهواه ونفسه ، وهو غافل ، لأن العبد كلما نزل منزلاً تعددت نعمه ، قال رضي الله تعالى عنه: ولا يسمى صالحاً إلا من وصل إلى هذا المقام ، وصار بالله لا بنفسه وهواه إذ الصالح هو من تولى الله تعالى أموره ، ولم يبق عنده في نفسه طلب لجلب مصالح ولا لدفع مفاسد ، بل هو كالطفل الرضيع مع الظئر أو الميت مع الغاسل فتتولى القدرة تربيته ، وتجلب له مصالحه ، وترفع عنه مضاره من غير أن يكون له اختيار أو تدبير.

فهذه هي صفات الصالح التارك للحظوظ على الحقيقة ، فاعمل على التخلق بذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: تسليمي لكل من ادعى أنه تخلص من حظوظ نفسه من الفقراء ، بأن صار يريد بإرادة الله عز وجل ، ويدبر بتدبيره ويختار باختياره ، ويشاء بمشيئته ، ويرضى برضاه على الكشف والشهود ، وكذلك نسلم له دعواه أنه خرج عن النفس والهوى والأماني والإرادات ، دنيا وأخرى ، وأن الله اصطفاه واجتباه ، وذلك لأنه ادعى ممكناً راجعاً إلى الباطن لا يطلع عليه إلا الله تبارك وتعالى ، ثم صاحبه ، فنسلم له ما يدعيه ، ثم إن كان صادقاً فقد صدقناه وحصل لنا الثواب ، وإن كان كاذباً رجع إثم ذلك عليه ، وحرم الوصول إلى ذلك عقوبة له.

وفي كلام سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه وأرضاه: لا يكمل الرجال حتى يكون محواً في صفات الله تبارك وتعالى ، انتهى.

قال بعضهم: ومراده أن العبد إذا زالت أهويته وإرادته ، وخرج عن جميع الحظوظ صار لا يرى لغير الله تبارك وتعالى وجوداً ولا فعلاً ، بل هو في نفسه فعل لله عز وجل ومراد له ، ولذلك لا يضاف إلى صاحب هذا المقام صدق في وعد ، ولا خلف في وعد ، لأن الوعد والخلف إنما يكون ممن له هوى وإرادة ، فحكم هذا مع الله عز وجل إذا وعد أحداً حكم رجل عزم على فعل شيء في نفسه ونواه ، ثم صرفه إلى غيره ، انتهى ، وهنا أمور يذوقها العارفون رضي الله تعالى عنهم لا تسطر في كتاب لعدم طاقة غالب الناس على تحملها ، انتهى ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تنبيهي بتصاريف القدرة فيّ بما أكره على وجود ذكر الحق تعالى لي ، فأشكر الله تعالى على كثرة تصاريف الأقدار ، لعلمي بأن الحق تبارك وتعالى إذا اعتنى بعبد تعرف إليه بما تهوى نفسه ، وبما تكره نفسه ، ليعطي كل وارد عليه حقه من الشكر والاستغفار ، وليرده عما تسبح فيه نفسه من الحظوظ ، وأما إذا لم يعتن به فإنه يجعله تجري عليه تصاريف الأقدار وهو عن ذلك غافل كالبهيمة.

وتأمل يا أخي لما كان رسول الله ﷺ ممحوق الهوى والإرادة ، كيف قال الله تعالى له: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]. عقب قوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] ، أي ألم تعلم أنك في بحر القدرة تقلبك أمواجه تارة كذا وتارة كذا ، فيوحي إليك بوحي ، ثم ينسخه ، ويوحي إليك بأمر آخر ، فلم يترك تعالى نبيه على حالة واحدة محبة فيه ﷺ ، ليصير الحق تبارك وتعالى له على بال ولا ينساه لحظة واحدة ، ومن هنا تعلم يا أخي أن في قول الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله

تعالى عنه أن الخواص يصلون إلى حالة لا يكونون فيها تحت أمر ولا نهي نظراً إلى أن يريد حالة يزول عنهم فيها عمل التكليف ، وذلك لأنه إذا كان سيد المرسلين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين لم يترك لنفسه هملاً في وقت من الأوقات ، فكيف بغيره ، فلا بد أن يكون العبد المكلف تحت حكم الأوامر والنواهي ، ولو بلغ الغاية ، فافهم وإياك والغلط.

ومن هنا تعلم أيضاً ضعف قول من قال: إن الفرق بين الأنبياء والأولياء كون الأنبياء يملكون أحوالهم ، والأولياء لا يملكون أحوالهم ، لأنه لو صح ذلك ما خر موسى صعقاً ، فافهم ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حسن ظني بربي إذا قسى قلوب عباده عليّ ، وأطلق ألسنتهم بذمي ، وكف لسانهم عن حمدي والثناء عليّ ، وأرجلهم عن السعي إليّ ، وأقول لولا أن الله تبارك وتعالى أراد تقريبي منه لما جفاني عباده ، لأنه ربما داخلني الميل إلى من أحبني ومدحني وواصلني بالنعمة قهراً عليّ ، فينقص ذلك من محبتي لله عز وجل ، وأشتغل بعبيده ومراعاتهم ، وأغفل عنه تبارك وتعالى ، وأنسى كون ما وصل إليّ على يد عبده هو من نعمته تبارك وتعالى عليّ ، لا من نعمة عبده ، وهو تعالى غيور لا يوحد عبداً في المحبة إلا إن وحده العبد كذلك في المحبة ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨]. فكان في كف أيدي الغير عن مواصلتي ، وعدم حمدهم أو مشيهم إلي في حال مرضي مثلاً ، سعى في كف بصري عن رؤية النفع أو الضر من غيره ، فيجتمع قلبي عليه تعالى ، وأفرده بالمحبة ، قال ﷺ: «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها**»[1] زاد في رواية: «**وبغض من أساء إليها**» ثم لا يخفى أن العبد لا يصطفيه الحق جل وعلا وهو يرى نفعاً أو ضراً من غيره أبداً.

فأحسن الظن بربك يا أخي ، وانظر إلى من هو ناظر إليك ، وأقبل على من هو مقبل عليك ، وأحبب من يحبك ، وأعط يدك لمن ينشلك من سقطتك في الوحل ، ويخرجك من ظلمات الجهل ، وينجيك من ورطات الهلاك ، ويطهرك من الأنجاس ، وينظفك من الأوساخ ، ويبعدك عن الأقران المضلين لك عن سواء السبيل ، من شيطانك وهواك وخلانك من الجهال القطاع لطريق الحق تبارك وتعالى ، الحائلين بينك وبين كل شيء ينفعك.

وكان سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه ، يحذر أصحابه من خلطة الناس ، ويقول: إلى متى عادة ، إلى متى خلف ، إلى متى هوى ، إلى متى رعونة إلى متى دنيا ، إلى متى أخرى ، إلى متى الاشتغال بغير الله تعالى ، تعس والله وانتكس من اشتغل بالأكوان عن المكون سبحانه وتعالى ، فتدرج يا أخي في قطع العلائق شيئاً بعد شيء ، واشكر ربك تبارك

---

(١) أخرجه الشهاب في مسنده (٥٩٩) ، والديلمي في مسنده (٢٥٨٨).

وتعالى على كل شيء منعك من الدنيا ، والله سبحانه وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: معرفتي بمداواة من رأيته يتسخط إذا سأل الله تعالى شيئاً ولم يعطه الحق له ، سواء كان ذلك في حق نفسه أو غيره ، فإن سوء الأدب مع الله تبارك وتعالى لا يحتمله محب لله عز وجل أبداً ، بل يراه كفراً بالله جل وعلا ، فإذا سمعت يا أخي أحداً يقول: قد سئمت وأن أدعو الله تعالى في الشيء الفلاني فلا يعطيه لي ، فقل له: أنت حر أم عبد؟ فإن قال: أنا حر لست بعبد له ، فقل له: كفرت يا عدو الله ، وإن قال: أنا عبد ، فقل له: فإذن العبد ليس له مع سيده اختيار إنما يدعو سيده عبودية ، وإظهاراً للفقر والحاجة ، وسيده يفعل ما يشاء ، فإن لم يرجع عن الاعتراض فقل له: أمتهم ربك في كمال حكمته وعلمه بأحوال عباده أم غير متهم؟ فإن كنت متهماً له في ذلك فأنت كافر ، وإن كنت غير متهم فعليك بالشكر على منعه لك من حظوظ نفسك ، وإن كان لا بد لك من الاتهام وسوء الظن بأقدار ربك. فاتهم نفسك الأمارة بالسوء ، العاصية لربها عز وجل ، فإن ذلك أولى لك ، لأنها عدوة الله وعدوتك ، وحبيبة الشيطان ومصافية له ، وهي خليفته عندك وجاسوسة ، فكن خصماً مع الله تعالى عليها ، ومجادلاً لها نيابة عن الله عز وجل ، وجنداً من جنود الله عليها ، فإن كان بالضد من ذلك فهو عدو الله عز وجل ، فالحذر الحذر منها ، ولا ينبئك مثل خبير ، ثم لا يخفى أنه يجب على كل داع إلى الله تبارك وتعالى أن يعلم الناس الأدب مع الله جل وعلا ، قبل الأدب مع عباده ، فإن سؤال الحق تعالى من جملة الأدب معه ، لأن فيه إظهار الفاقة والحاجة ، وترك السؤال إظهاراً للغنى عنه ، وذلك لا يصح ، وقد قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٢٣] فأمرنا بالسؤال ، ثم إن كان المسؤول فيه مقسوماً فلا بد أن يسوقه تبارك وتعالى إلى السائل ، فيزيده ذلك إيماناً ويقيناً وتوحيداً ورجوعاً إلى الله في جميع أحواله ، وإن لم يكن مقسوماً أعطاه الله تعالى الغنى عنه في الباطن ، والرضا عنه بالفقر إن كان المسؤول فيه غنى ، أو أرضاه بالمرض إن كان المسؤول فيه ترك المرض ، أو قلب عنه قلب صاحب الدين إن كان المسؤول فيه طلب شيء يوفي دينه ، أو صبر صاحب الدين عليه ، أو ثبطه عن مطالبته ، أو ألهمه إسقاطه عنه أو بعضه ، ثم إن لم يعطه الحق تبارك وتعالى شيئاً مما سأل في الدنيا فسيعطيه في الآخرة ثواباً أعظم من ذلك ، فلا بد للسائل من حصول فائدة عاجلة أو آجلة ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: منازعة النفس لي بعد أن طعنت في السن وميلها إلى الشهوات ، وإعانته تعالى لي على مجاهدتها ، وذلك ليكتب الله تعالى لي ثواباً دائماً ، ونعيماً متجدداً في الجنة ، وغالب الناس إذا طعن في السن خمدت نار نفسه ، وكفى الله المؤمنين القتال ، ففاته ثواب المجاهدة ، وفي الحديث: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد**

الأكبر»[1] يعني مجاهدة النفس ، لأن جهادها دائم مستمر ، وعليه ينزل قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]. فإن الله تعالى قد أمر نبيه ﷺ بالعبادة حتى يأتيه الموت ، فافهم.

وإنما كانت العبادة مجاهدة ، لأنها كلها مبنية على مخالفة النفس ، إذ جميع العبادات تأباها النفس من أصلها ، لولا لطف الله تبارك وتعالى بها ، وإنما كان كل من جاهد نفسه وغلبها وقتلها بسيف المخالفة يحييها الله عز وجل ليكتب له ثواباً دائماً مستمراً كما مر.

فإن قال قائل: كيف أمر الله جل وعلا رسوله ﷺ بالعبادة وهو ﷺ معصوم من الهوى ، كما أخبر عنه الباري جل وعز بقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

فالجواب: أن الله تبارك وتعالى ما خاطب نبيّه ﷺ بهذا الخطاب إلا ليقرر بذلك شرعه ، فيكون عاماً بين أمته إلى أن تقوم القيامة ، وإلا فهو تعالى قد أعطى نبيه ﷺ القوة على النفس والهوى ، فلا يضرانه ولا يحوجانه إلى المجاهدة والمحاربة بخلاف أمته ، فإذا دام المؤمن على مجاهدة نفسه حتى أتاه الموت ، ولحق بربه عز وجل ، ولقيه بسيفه المسلول الملطخ بدم النفس والهوى ، أعطاه تبارك وتعالى ما ضمن له من الجنة بقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]. ثم إذا أدخله الله تعالى الجنة واستقر فيها ، وأمن من النقلة ، وغرق في النعيم وطلب العود إلى دار الدنيا ليجاهد نفسه ثانياً ، فيجدد الله تبارك وتعالى له كل ساعة نعيماً إلى ما لا غاية له من الطعام والشراب والحلي والحلل على حسب ما كان في دار الدنيا من تجدد المجاهدة لنفسه كل ساعة ، عكس حال الكافر أو المنافق أو العاصي ، إذا مات من غير توبة ، فإن هؤلاء لما تركوا مجاهدة نفوسهم كل ساعة ، ووافقوها في هواها وشهواتها وكفرها حتى أتاهم الموت على غير الإسلام ، أدخلهم الله عز وجل النار ، فإذا دخلوها ، وجعلها الله مقرهم ومصيرهم ، وأحرقت جلودهم ولحومهم ، جدد الله لهم جلوداً ولحوماً غيرها ليذوقوا العذاب المتواتر المضاعف.

فعلم أن ساعات المجاهدة للمؤمن هي التي كانت سبب نعيمه ، وساعات ترك المجاهدة للكافر أو العاصي هي التي كانت سبباً لتعذيبه ، فضوعف على كل قسم ما يناسبه من النعيم والعذاب ، وهذا هو معنى حديث «**الدنيا مزرعة للآخرة وكل ميسر لما خلق له**»[2] فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٣/ ٥٢٣) ، والسيوطي في الجامع الصغير (٦١٠٧).

(٢) الجزء الأول من الحديث ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٣٢٠) وقال: قال في المقاصد لم أقف عليه ، والجزء الثاني من الحديث أخرجه البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (٤٩٤٩) ، ومسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٧).

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: أني لا أسأله تعالى شيئاً من أمور الدنيا والآخرة إلا مع التفويض ورد العلم فيه إليه تعالى، عملاً بعموم قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فأقول في دعائي: اللهم أعطني كذا وكذا إن كان فيه خير لي، واصرف عني كذا وكذا إن كان فيه شر لي، ثم كل شيء وقع بعد هذا التفويض كانت عاقبته محمودة من عطاء أو منع، وهذا الميزان واجب على العبد ما دام له إرادة واختيار مع الله تبارك وتعالى، فإذا فنيت إرادته واختياره، وتفرغ قلبه لمحبة الله عز وجل، كان اختياره باختيار الله تبارك وتعالى، وإرادته بإرادة الله جل وعلا، وكان في سؤاله ذلك ممتثلاً أمر الله عز وجل، فلا يقع له إلا ما يسره لموافقة مراده مراد ربه تبارك وتعالى، سواء كان السؤال في أمر الدنيا أو الآخرة، وعلامة صاحب هذا المقام أنه إن أعطي شكر، وإن منع شكر، ولم يتغير على ربه جل وعلا بباطنه.

فاعلم ذلك، وإياك أن تدعي ذلك من غير تحقق به، وعليك بسؤال الله عز وجل الأمور التي لا بد لك منها، وعاقبتها حميدة على الدوام، لا يدخلها مكر ولا استدراج أبداً كسؤالك المغفرة للذنوب السالفة، وسؤالك الحفظ في المستقبل، والتوفيق لحسن المعاملة، ثم ختام ذلك بخاتمة الخير، وهي أن تموت وأنت حسن الظن بالله عز وجل، فإن ذلك محط رحال الأولين والآخرين، فعليك بالإكثار من سؤال الله تعالى ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: مبادرتي لشكر ربي، إذا حفظني من مضلات الفتن، دون العجب بذلك على من وقع في الفتن، وهذه من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليّ، فإن العجب يورث المقت، وإحباط الأعمال، كما ورد، لا سيما إن سمع الناس الذين يقتدى بهم يقولون ليس في مصر الآن على الطريق المستقيم في العلم والعمل مثل فلان، وحصل له جاه بذلك في قلوب الخلق دون أقرانه، فإنه يهلك بالكلية، ومن هنا أخفى بعض الفقراء كثيراً من أعمالهم الصالحة خوفاً من ميل النفس إلى مدح الناس لهم عليها، فيهلكوا من حيث لا يشعرون.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن العجب لا يكون إلا عن شهود العبد نفسه فاعلاً لذلك الأمر الذي عجب به، أو مشاركاً لله تبارك وتعالى فيه، وقد يشير إلى ذلك القرآن العظيم حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]. فالأولياء رضي الله تعالى عنهم كشف الله تبارك وتعالى لقلوبهم عن كون ذلك ظلماً، يعني للنفس، فتركوه من هذه الدار، وغيرهم لم يكشف الله تبارك وتعالى لهم عن ذلك فلا يظهر لهم إلا يوم القيامة، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: مداومتي على الأعمال التي كنت أعملها في حال

بدايتي ، وصبري على الشدائد التي تصيبني في حال كهولتي ، وقد قيل للجنيد رضي الله تعالى عنه : نراك تدمن إمساك المسبحة وقد وصلت إلى مقام لا تحتاج إلى من يذكرك بربك من الخلق ، فقال : شيء وصلت به إلى حضرة ربي لا أقطعه ، انتهى .

وفي الحديث : «**أنه صلى الله عليه وسلم كان يسبح على عقد أصابعه ويقول : إنهن مستنطقات**»[1] يعني يوم القيامة ، بل أنا بحمد الله تبارك وتعالى أحب كثرة الأعمال الصالحة ولو رضيت النفس بدون ذلك فإن الله جل وعلا قال : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة : ١٠٥] . فطلب منا كثرة الأعمال ، فالعاقل يعلم أن نفسه وإن رضيت بالدون لا يرضى الحق تبارك وتعالى منها بذلك ، فقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] . ومن ذاق ذلك علم أن الحق تبارك وتعالى أشفق عليه من نفسه ، وأن المنازل في الجنة لا تشيد ، ولا ترفع إلا بأعمال في الدنيا ، لأنها مزرعة الآخرة .

ثم اعلم يا أخي أن مراد القوم رضي الله تعالى عنهم بالبداية حيث أطلقت في لسانهم هو خروجهم من المعهود إلى المشروع ، كما أن مرادهم بالتوسط خروجهم عن ظاهر المشروع إلى الاطلاع على المقدور ، كما أن مرادهم بالنهاية الرجوع إلى المعهود بشرط حفظ الحدود ، فصورة الكامل في الأعمال صورة المبتدىء ، والقصد مختلف ، لأن المبتدىء يشهد مشاركة نفسه لربه تبارك وتعالى في الفعل ، والمنتهي يرى الفعل لربه وحده ، وربه هو الفاعل به فيه ، وقل من يخرق سور الشرع إلى شهود الحقيقة إلا وتحصل له الزندقة ، فيستبيح المحرمات ، ويستهين بالمأمورات ، فالحمد لله تبارك وتعالى على حفظنا من ذلك .

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن أعمال الأكابر من الأنبياء والأولياء بعد أداء الأوامر ، واجتناب النواهي ، إنما هي الصبر والرضا ، والموافقة في حال البلاء ، فيكون غالب أعمالهم قلبية ، فلا يقدر على اتباعهم فيها من أصحابهم إلا القليل لعلو مراقيها عكس أعمالهم أوائل أمرهم ، فإن الغالب عليها كونها جسمانية ليقتدي جمهور قومهم بهم فيها ، ومن الأكابر من ختم أمره بالأعمال الجسمانية زيادة على القلبية ، علواً لمقامه كنبينا ﷺ ، والخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم ، فقاموا حتى تورمت منهم الأقدام ليقتدي بهم الأكابر من بعدهم ، مبالغة في النصح ، فلا يقال : فكيف ابتلى الله تبارك وتعالى الأكابر في حال كمالهم ، وإنما الابتلاء لهم يكون في مقام الإرادة ، ومن كان مراداً فلا يحتاج إلى الامتحان أصلاً ، لأنا نقول : إن كل محبوب محب فهو تبارك وتعالى يبتليه من حيث كونه محباً ،

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد (٣٤٨٦) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب التسبيح بالحصى (١٥٠١) ، وأحمد في مسنده (٢٦٥٤٩) .

وينعمه من حيث كونه محبوباً ، وفي الحديث الشريف «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**» انتهى ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي أن صفات نفسي المؤمنة باقية معي إلى أن أموت ، وأنه يجب علي استصحاب التحفظ من ارتكاب الفواحش والحمية عنها إلى حين لقاء الله عز وجل ، ويؤيد ذلك قوله تعالى في حق يوسف على نبينا وعليه وعلى بقية الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]. ولو أن حكم الطبع يزول من غير المعصوم لالتحق بالملائكة كالمعصوم ، وانخرم النظام ، وبطلت الحكمة ، فكان من كمال الولي إبقاء حكم الطبع فيه ، ليستوفي به ما قسم له من الحظوظ المأذون له فيها ، قال ﷺ: «**حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[(١)] ، فإنه ﷺ لما فني عن الدنيا وما فيها ردت إليه أقسامه المحبوسة عنه في حال سيره إلى ربه جل وعلا حال بدايته ، فاستوفاها موافقة لربه تبارك وتعالى ، وامتثالاً لأمره ، فكمل مقامه بذلك ، ولم ينقص ، وهكذا الولي يرد الله إليه أقسامه وحظوظه بعد الفناء ، مع حفظ الحدود بحكم الإرث لرسول الله ﷺ ، فافهم ذلك، واعمل على التخلق به، والله تبارك وتعالى يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم شهوتي لشيء من المطاعم والملابس إذا دخلت السوق ، فأنا بحمد الله تبارك وتعالى لو رأيتها أراها ببصر رأسي لا ببصر قلبي ، وأراها رؤية فجأة لا رؤية شهوة ، وأنظرها نظر صورة لا نظر معنى ، كما أنظرها نظر الظاهر لا نظر الباطن ، وهذا الخلق نادر في المريدين اليوم ، فربما غلبت أحدهم نفسه فاشترى لها ما اشتهته ، وربما لم يجد معه شيئاً فيشتريه في الذمة ، ولو برهن أو ضامن ، ويقول: مررت على الشيء الفلاني فأعجبني ، وما رأيت معي شيئاً من الفلوس ، وخفت أن يأخذه غيري ، بينما أذهب إلى البيت وأرجع ، وهذا كله من غلبة الشهوة والحرص ، وفوق هذا المقام الذي ذكرناه مقام آخر خاص بالكمل رضي الله تعالى عنهم ، وهو تخلقنا بالرحمة على أهل الأسواق إذا دخلنا إليهم ، أو مررنا فيها ، وغيبتنا بامتلاء قلوبنا بالرحمة عليهم عن الميل إلى شهوة من الشهوات ، بل لم يزل صاحب هذا المقام من حين يدخل السوق إلى أن يخرج منه يحس بقلبه أنه محترق عليهم من غلبة الشفقة والرحمة ، فلا يزال يدعو لهم ، ويشفع فيهم عند ربه تبارك وتعالى حتى يخرج ثم إنه يشكر الله عز وجل على كونه تعالى غمرهم بنعمته مع غفلتهم عن

---

(١) أخرجه النسائي ، كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء (٣٩٣٩) ، والإمام أحمد في مسنده (١١٨٨٤) ، وعبد الرزاق في مصنفه (٧٩٣٩).

الشكر عليها ، ولم يسلبها عنهم جزاء لكفرانهم ، وقد بلغنا أن ذلك كان من خلق الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه ، فكان إذا دخل السوق لم يزل يتضرع ، ويدعو لأهل السوق ، وتغرغر عيناه بالدموع حتى يخرج منه ، فرضوان الله على كل فقير وصل إلى هذا المقام ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شدة غضبي باطناً على كل من ادعى عندي دعاوى كاذبة ، ومباسطتي له ظاهراً ، ثم إعلامي له بيني وبينه بكذبه إن رأيت نفسه تحمل مثل ذلك ، كأن يدعي الرقي أو يحب من يرقيه إلى مقامات الصالحين رضي الله تعالى عنهم ، وهذا الخلق فيه جمع بين الغيرة لله تعالى ، والنصح لذلك العبد ، وقل من يجمع بين هذين الشيئين ، وقد دخل علي مرة شخص لابس عمامة صوف ، وله عذبة ، بحضرة أخي الشيخ أفضل الدين ، فاطلع على باطنه فرآه مملوءاً كذباً ورعونة وشركاً لله في الأفعال والأقوال ، وإضمار السوء للمسلمين ، ثم صار يمدح نفسه ويزكيها ، فصاح فيه الشيخ أفضل الدين ، وقال له: كذبت ، وأمر بإخراجه ، وقال له: كيف تدعي السلامة مع هذه العلل والمعاصي الظاهرة والباطنة.

فلا تسأل يا أخي ما فعل لابس ذلك الصوف بالشيخ أفضل الدين بعد ذلك في المجالس ، فمقت ، وانسلخ من جميع ما كان يدعيه ، وصارت أفعاله الظاهرة تكذب ما يدعيه من الأخلاق الباطنة ، وذلك أنه تبع من يزعم أنه يعرف صنعة الكيمياء ، وطائفة العرجان ، وترك جميع ما كان فيه من الكسب والعبادة إلى وقتنا هذا ، فأخذت أنا عبرتي من ذلك اليوم ، وصرت ولو أطلعني الله عز وجل على معاصي جليسي الباطنة لا أفضحه بها ، وإنما أذكر ذلك في معرض وقائع سايح بن رايح ، أو أذكرها لصاحبها في أذنه ، ثم أصير أجيب عنه إذا أضاف أحد إليه تلك النقائص ، وأقول: ما رأيت عليه إلا خيراً ، وهذا الكلام الذي قيل عنه إنما هو من إشاعة الحسدة عنه ، وذلك لا يقدح في مقام العلماء والصالحين ، فليحذر من أطلعه الله تبارك وتعالى على سريرة أحد من المتلطخين بالمعاصي أن يكتم ذلك عن صاحبه ، ويحكيه لغيره ، فإن في ذلك عدة مفاسد ، وربما انتصر بعض المحجوبين له ، ونسبوا ذلك الشيخ إلى غيبة الناس ، ويصيرون يقولون لا يجوز لفلان انتهاك أعراض المؤمنين بما يزعم أن الله تبارك وتعالى أطلعه عليه كذباً وزوراً ، وحاشا أن يكون هذا من أولياء الله عز وجل ، وهو يقرض في أعراض الناس ، ونحو ذلك ، وإن كان ولا بد لذلك الشيخ من إظهار ما كشف له فليكن بنية صالحة لمن يصدقه على صحة كشفه ، فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: طلبي لكل حاجة احتجتها من باب الله تبارك وتعالى دون باب أحد من عبيده ، ولا أنظر إلى باب غيره إلا من حيث كون الخلق كالقناة التي تجري لنا منها الماء لا غير ، فالفضل لصاحب الماء الذي أجرى القناة لا للقناة ، فتشكر الوسايط

امتثالاً لأمر الله عز وجل من غير وقوف معها ، وفي كلام الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه: تعامَ يا أخي عن الجهات كلها حال طلبك حاجة من ربك ، ولا تنص على جهة معينة منها بغير علم ، فإن ربك غيور ، فلا يفتح لك باب فضله وأنت ناظر إلى جهة أحد من عبيده ، فسد يا أخي الجهات كلها بتوحيدك ، وامحها بيقينك ، ثم بفنائك ومحوك ، وحينئذ يفتح الله تعالى في قلبك عيناً تنظر بها إلى جهة الجهات ، وهي جهة فضل الله تعالى ، فتراها بعيني رأسك ، بشعاع نور قلبك وإيمانك ، ثم يظهر ذلك النور من باطنك إلى ظاهرك كنور الشمعة التي في البيت المظلم ، فيشرق ظاهر البيت بنور باطنه ، وتسكن النفس والجوارح إلى وعد الله وعطائه دون عطاء خلقه ووعدهم ، فمن لم يصل إلى ما ذكرناه فمن لازمه الاعتماد على الأسباب والوقوف معها ، وذلك شرك عند أهل الحقيقة رضي الله تعالى عنهم ، انتهى ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله سبحانه وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم استبعادي على نفسي وقوعها في الكبائر فضلاً عن الصغائر ، ولو صارت يقتدى بها في مثل هذا الزمان المبارك ، فإن من وصية سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه: إياك أن تستبعد وقوعك في أكبر الكبائر ولو توالت عليك المراقبة لله آناء الليل وأطراف النهار ، لأن باب العصمة مسدود على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكمل أتباعهم على الصحيح ، فلا أمان لنا ما دمنا في هذه الدار ، وقد أغوى إبليس خلقاً كثيراً حين ظنوا بأنفسهم الخير ، ووقعوا في أكبر الفواحش ، وبعضهم أوقعه في عمل الزغل وشنقوه أو نفوه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: ليس لإبليس حيلة يوقع بها الفقراء في المعاصي أكبر من ظنهم بأنفسهم الخير والصلاح ، فيصرعهم من حيث لا يشعرون ، لأمانهم وعدم حذرهم منه ، انتهى كلامه رضي الله تعالى عنه ، وفي القرآن العظيم: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وفي كلام سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه: من لم يحاسب نفسه في كل نفس ، ويتهمها بالسوء ، فلا يكتب في ديوان الرجال ، انتهى.

وقد درج السلف الصالح كلهم رضي الله تعالى عنهم على الخوف حتى ماتوا ، حتى إن بعض رجال رسالة القشيري أوصى أهله وقال: إذا خرجت من هذه الدار على دين الإسلام ، ومت ، فشيعوا جنازتي بالدف والمزمار ، أي الحلال ، فلما مات فعلوا معه ذلك ، ولا اعتراض على مثل ذلك ، فإن الموت على الإسلام أعظم سروراً عند العاقل من تزويج ولد أو ختانه ، وقد رأينا بعض العلماء والصالحين يعطون الزامر وغيره في الدعوات الفلوس على

ذلك ، واختلاف الأئمة رحمة ، وبالجملة فكل شيء دخل به المجرمون بيت الوالي جائز وقوعه من سيدي الشيخ ، فليكن على حذر.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: لا يصح لفقير أن يحفظ من الوقوع في المعاصي الظاهرة والباطنة إلا إن صارت حضرة الإحسان مقره ، لا يبرح منها ليلاً ولا نهاراً ، كالأنبياء والملائكة ، وإلا فهو معرض للوقوع إذا خرج منها في وقت من الأوقات ، وأنه تعالى يراه ، ومتى غاب عنه هذا المشهد خرج من الحضرة ، وتعرض لكل سوء ، وأجلب عليه إبليس بخيله ورجله ، انتهى.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رضي الله تعالى عنه يقول: لا بد للعبد من إسدال الحجاب عليه حتى يقع في المعصية وإلا فعصيان العبد ربه تعالى على الكشف والشهود بأن الله تعالى يراه لا يصح أبداً ، وهذا من جملة رحمة الله تبارك وتعالى بعصاة الموحدين ، فإن مجاهرة الحق تبارك وتعالى بالمعصية على اعتقاد أنه تعالى ساخط عليه في ذلك الفعل قلة احترام للجناب الإلهي ، فكانت العقوبة تشدد عليه ، ويؤيد هذا الحديث «**إذا أراد الله تعالى إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم حتى إذا نفذ فيهم قضاؤه وقدره رد عليهم عقولهم ليعتبروا**»[1] أو كما قال ﷺ ، وقد بلغنا أن إبليس قال: **يا رب كيف تؤاخذني بترك السجود لآدم ولم ترد وقوعه مني؟ فقال الله عز وجل له: متى علمت أني لم أرد وقوعه منك ، أبعد وقوع الإباية منك أو قبلها؟ فقال: بل بعدها ، فقال له: بذلك آخذتك**»[2] انتهى ، فإذا كان إبليس الذي يوقع الناس بالوسوسة اصطاده فخ القدرة الإلهية ، فكيف بغيره ، فتأمل.

وذكر الشيخ محيي الدين رضي الله تعالى عنه في الفتوحات المكية؛ أن الأسباب المانعة للعبد من الوقوع في المعاصي أربعة لا خامس لها ، إذ بوجود أحدها في المؤمن يستدل على عدم تقدير تلك المعصية على ذلك العبد.

الأول: المحبة لله تعالى.

الثاني: دوام الحياء من الله تعالى عن الكشف ، والشهود بأن الله تبارك وتعالى يراه.

الثالث: دوام خوفه من مؤاخذة الله تعالى له إذا عصاه ، وصحة إيمانه بذلك.

الرابع: الرجاء لمغفرة الله تبارك وتعالى وثوابه ، إذا ترك ذلك الذنب ، فما دام يشهد ذلك لا يقع في معصية أبداً.

---

(١) أخرج بنحوه الديلمي في مسند الفردوس (٩٦٦) ، والشهاب في مسنده (١٤٠٨).
(٢) لم أجده.

قال: وإلى ذلك الإشارة بحديث «**نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه**»[1] أي: لأنه لو انتفى عنه الخوف من الله تبارك وتعالى كان معه ثلاثة من الأسباب المانعة له من الوقوع في المعاصي، أو واحد منها، وكذلك القول في بقية الثلاثة غير الخوف، كما لو قال ﷺ: «**نعم العبد صهيب لو لم يستح من الله لم يعصه**» «**لو لم يرج ثواب الله لم يعصه**» انتهى، أي فإن الإنسان لا يخالف محبوبه، ولا من يستحي من مخالفته، ولا من يرجو إحسانه، ولا من يخشى سطوته، وهو كلام نفيس ما أظنه طرق سمعك يا أخي أبداً.

وقد تقدم في هذه المنن أن العبد لا يقع في معصية قط إلا بعد تأويل أو تزيين، ولو تحقق أن الله تبارك وتعالى يؤاخذه ما عصى أبداً، كما لو أجج الوالي لأحد ناراً، وقال له، ازن بهذه المرأة وأحرقك بهذه النار، لا يزني بها أبداً، فافهم ذلك، واعمل على التخلق به، والله سبحانه وتعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: دوام اعتمادي على الله تبارك وتعالى وحده في الشدائد دون شركة أحد معه في ذلك من الأصحاب والمحبين والمعتقدين، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالى علي، فإن حكمي بين الحسدة كحكم البهلوان الذي يمشي على الحبل العالي بقبقاب، وجميع الحسدة والأعداء والمبغضين من أهل مصر واقفون تحتي ينتظرون لي زلقة حتى أنزل إلى الأرض متقطعاً، فما تغيب الشمس علي كل يوم أو تطلع وأنا لم أقع في شيء يشمتون بي فيه، وفي عيني قطرة، وتعظم الشماتة عند الحسدة، وتصغر بحسب النعمة، فإن عظمت النعمة على العبد عظمت الشماتة فيه، وإن قلت بالنسبة إلى نعمة أخرى في العدد مثلاً صغرت الشماتة، فيحتاج صاحب هذا المقام إلى العكوف في حضرة الله عز وجل على الدوام، ومتى خرج منها لتناول شهوة ولو مباحة فقد عرض نفسه للزلقة من فوق الحبل.

وكان الشيخ محيي الدين رضي الله تعالى عنه يقول: حكم العارف إذا تناول الشهوة مع الغفلة عن ربه جل وعلا حكم القمر إذا كسف، ثم من أعظم النعمة التي يعطاها العبد في دار الدنيا قيام الجاه عند الحكام، وكثرة المعتقدين فيه الصلاح، فمن جمع بين هاتين الصفتين صار كل حسود في بلده ينتظر له زلقة لكونهم لا ينظرون إلا لظاهر الدنيا، ولو أنهم أنصفوا ونظروا إلى أمور الآخرة لكانوا يحسدونني على مجالسة الله عز وجل، ومجالسة رسوله ﷺ، ولو لحظة في النهار فإن ذلك أولى بالحسدة، لأنه لا نعيم في الدارين أعظم من ذلك.

ولما طلعت للوزير علي باشاه في ضرورة إلى القلعة وأكرمني، تحرك علي الحسدة من كل جانب، وصاروا يفترون علي أموراً لم تقع لي قط، فتعجبت منهم غاية العجب، فإن منهم من يدعي أنه أعلم من في مصر، ومنهم من يدعي الولاية، فكيف يحسدونني على إكرام

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٣٨٥) وقال: لا أصل له كما صرَّح به الحفاظ.

جندي من عبيد السلطان ، ولا يحسدونني على جلوسي في حضرة الله تبارك وتعالى في مجلس الذكر صباحاً ومساء ، ولكن قد عرفت بذلك عدم صدق دعواهم العلم والصلاح ، ثم إن بعضهم إذا وقع له مصيبة يأتيني فيحملني حملته ، فأقاسي فيها ما الموت دونه ، ولا أتخلف عنه ، فإن عندنا أن الحملة تخف بحسب الاعتقاد ، وتثقل بعدمه.

وقد جاءني مرة شخص من أهل العلم ليلاً ، وحملني حملته ، وقال : إن بعض الحسدة رشى شخصاً في الحبس كان محبوساً على دين قيل إن فيه شبهة لذلك العالم ، وقالوا له : اكتب فيه قصة للباشا ، وأخبره أنك هدمت عنده حائطاً فوجدت فيه قدرتين من الذهب ، وعمودين من الفضة ، كل عمود طوله ذراع ، فأشرت عليه أن يسامح ذلك المديون مما سطره عليه فتوقف ، فاشتد غضب المديون ، فكتب بذلك قصة ، ووصلت للباشاه ، وأمر الوالي بالقبض عليه ، فلما جاءني ليلاً قاسيت في حملته ما لا طاقة لي به ، لكونه يرى أنه أتم رأياً مني ، فأمرته بطلوع القلعة قبل أن يطلبه الوالي ، فطلع ، وأيقن الحاضرون كلهم بالترسيم عليه ، فصرت أسأل الله عز وجل وأنا في البيت تحويل قلب الباشا ، وأن يطلعه على الحق في المسألة ، فخلا بكل من الخصمين ساعة ، ثم قال : ظهر لي أن دعوى كل منكما باطلة ، ثم قال للعالم : سامح خصمك بما في المسطور ، وقال للآخر : ظهر لي أنك كذاب ، فلو أن هذا العالم كان سمع الإشارة بأنه يسامحه بما في المسطور من غير توقف في الباطن لقضيت حاجته من غير إرعاب ولا خوف.

والله تبارك وتعالى يصبرنا على هؤلاء الحسدة ، ويعيننا على دوام الاعتماد عليه ليحمينا من شماتتهم ، فقد فرت الأنبياء من شماتة الأعداء كما في القرآن العظيم ، والحديث الشريف ، آمين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ : تعظيمي لولاة الزمان ظاهراً وباطناً ، من قاض ، ووال ، ومحتسب ، وكاشف ، وشيخ عرب ، فإن هؤلاء قد رفعهم الله تبارك وتعالى علينا في هذه الدار بين الناس ، والأدب معهم مطلوب شرعاً أو عرفاً بحسب استقامتهم واعوجاجهم ، وهذا الخلق قل من يفعله من الناس مع ولاة الزمان باطناً أو خالياً عن العلل ، وربما قام بعضهم لمن هو عنده فاسق ، وإذا استشعر أن أحداً ينكر عليه قال : الضرورات تبيح المحظورات ، ولا هكذا تعظيم مثلي لهم ، لأني إنما أعظمهم وفاء بحقهم علينا.

وكثيراً ما كنت أسمع سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول : ينبغي لنا أن نعظم الولاة ونكرمهم أدباً مع الله عز وجل الذي ولاهم رقابنا ، وحكمهم فينا ، انتهى.

وذكر الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه في باب الوصايا من آخر الفتوحات المكية ما نصه : ينبغي للفقير أن يعظم كل وارد عليه من الولاة ، لأن أحدهم لم يطلع لزيارة ذلك الفقير حتى خلع كبرياء نفسه وعظمتها ، ورأى نفسه دون ذلك الفقير ، ولو

أنه كان نظر إلى عظمة نفسه ، وأن ذلك الفقير من جملة رعيته لما كان يطلع له زاويته ، ولكان أرسل إليه ليحضر ، ومن خلع عظمته قبل أن يصعد إلينا فما لقينا إلا وهو فقير حقير ، فوجب على الفقراء إكرامه ، انتهى.

فإن اعترض معترض لا معرفة له بنيتنا ولا مصطلحنا ، وقال: إن ذلك الأمير مثلاً ظالم لا ينبغي إكرامه ، قلنا: ونحن كذلك ظالمون لأنفسنا بالمعاصي ، ولغيرنا ولو بسوء الظن به في وقت من الأوقات ، فظالم قام لظالم وأكرمه فلا مزية لذلك الشيخ عليه لو أنصف ، لا سيما إن كان لذلك الأمير عليه منة بهدية أو مساعدة له على تمشية جواليه ، أو مرتبه ، أو رزقته ، إذا توقف الولاة فيها ، ونحو ذلك ، وقد رأيت شخصاً له عمامة صوف وعذبة أرسل نقيبه ليسأل له شيئاً من أمير ، فأرسل له عسلاً وعدساً وأرزاً حتى كفى مولده ، فلما حضر ذلك الأمير تشاهم عليه ولم يقم له ، فتعجب من مثل ذلك ، فإن التشاهم إنما يكون ممن لا يقبل من الظلمة شيئاً ولا يحتاج إليهم في شيء كالأشياخ الصادقين الذين مضوا ، وأما النصاب فلا يناسبه مثل ذلك.

وكان من خلق سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه تعظيم الولاة بطريقه الشرعي ، ويقول: إنما نهى الشارع ﷺ عن التواضع للأغنياء إذا طمعنا في دنياهم ، أو علمنا بأن تعظيمنا لهم يزيدهم طغياناً وغفلة عن الله تبارك وتعالى ، وأما إذا تعففنا عما في أيديهم ، وتعاطينا الأسباب التي تميل قلبهم إلينا حتى يحبونا ، ويقبلوا شفاعتنا في مظلوم مثلاً ، فلا حرج علينا في ذلك ، والأعمال بالنيات انتهى.

وكان رضي الله تعالى عنه إذا زاره أحد من الأكابر يمشي معه إلى خارج باب داره يشيعه ، ويقول له: حصل لنا سرور برؤيتكم اليوم ، وإذا أرسل له هدية ردها عليه ، ويقول له: أرسلها إلى أحد من المحتاجين إليها فإني غير محتاج ، ثم يقول إذا عظم صاحب ولاية: هذا أدبنا مع ولاة أمورنا في هذه الدار ، وسيعلمنا الله تبارك وتعالى الأدب مع أكابر الدار الآخرة إذا انتقلنا إليها إن شاء الله تعالى كما تقدم إيضاح ذلك مراراً.

ومر ابن موسى المحتسب أيام السلطان الغوري على الشيخ وهو في حانوته ، فنزل الشيخ وقبل ركبته وهو راكب ودعا له ، فأنكر بعض الفقهاء على الشيخ فقال له الشيخ: إنما قبلت ركبته أدباً مع الله تعالى الذي ولاه ، وجعل الناس يسمعون قوله ، فإذا خفت البضائع من السوق يبعث مناديه ينادي للناس الذين يحتكرون الطعام عن المحتاجين: أخرجوا ما عندكم ، فيخرجون البضائع ، حتى يمتلىء السوق ، أفتقدر أنت يا فقيه على مثل ذلك ، فسكت الفقيه.

ثم حكي لي أن بعض الفقراء رأى سيدي عبد الله بن أبي حبرة الشاذلي رضي الله تعالى عنه وهو جالس على كرسي ، وعليه خلعة خضراء ، والأنبياء والأولياء واقفون بين يديه ، غاضون

طرفهم ، فاستنكر ذلك ، وقال: كيف يقف الأنبياء بين يدي واحد من الناس ، فقص ذلك على بعض الأولياء ، فقال له: لا تستنكر ذلك ، فإن أدب الأنبياء ليس هو مع لابس الخلعة ، وإنما هو مع الله عز وجل الذي ألبسه ، فزال الاستنكار ، ثم قال له: أما رأيت أكابر الدولة وهم راكبون أمام بعض غلمان السلطان إذا ألبسه خلعة ، أدباً مع السلطان لا مع الغلام ، انتهى.

ثم لا يخفى أن التردد للأكابر مع السلامة منهم ليس هو لكل فقير ، إنما هو لكمل العارفين ، وقد طلبت مرة أن أذهب إلى زيارة أمير بلغني أنه عازم على زيارتي حملاً للمشقة عنه ، فنهاني أخي العبد الصالح الأمير شجاع كيخية الغرب ، وقال لي: إن هؤلاء لا يحملونك على أنك تزورهم أدباً مع الله عز وجل الذي ولاهم ، ولا يعرفون لذلك طعماً ، وإنما يحملونك على زيارتهم طلباً لدنياهم أسوة غيرك من النصابين ، فتذل نفسك بزيارتك لهم ، وتحملهم الإثم من جهتك ، فمن ذلك اليوم ما ذهبت إلى أحد من ولاة الزمان ، وإنما أراسلهم في حوائج الناس خوفاً على دينهم لا غير.

وبالجملة فمن أراد إكرام الولاة وتعظيمهم له ، واعتقادهم فيه ، فلا يأكل لهم طعاماً ، ولا يقبل منهم صدقة ولا هدية إلا إن كانوا صادقين في المحبة له ، بحيث يشهدون الفضل له إذا أكل من طعامهم ، وقبل هديتهم ، فإن مثل هؤلاء ارتفعوا عن درجة المعتقدين الذين لا ينبغي أكل طعامهم ، لأن الآكل من طعامهم آكل بالدين ، والفرق بين المحب والمعتقد: أن المحب يطعمك كالوالد سواء كنت صالحاً أو غير صالح ، وأما المعتقد فلا يطعمك إلا لاعتقاده فيك الصلاح ، فإذا أكلت طعامه كأنك أكلت بدينك ، ولا بد أن تعتقد حل ما تأكله ، وتسلك طريق الاستقامة مع الله تبارك وتعالى ، وأنا أضمن لك حصول التعظيم والاعتقاد التام ، وأما من يخالف ما ذكرناه ، فإن حصل له عندهم جاه واعتقاد فإنما ذلك بطريق نصب وحيل وخداع ، يسأله الله تبارك وتعالى يوم القيامة عنه.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: من أراد إجلال الله تبارك وتعالى له في قلوب عباده فلينظف باطنه من الرذائل ، وليجل الله تعالى بقلبه ، حتى لا يتحرك ولا يسكن إلا وهو يعلم أن الله تبارك وتعالى يراه ، وأما من يظهر للناس خلاف ما يضمر من النفاق والخداع ، فإن الناس يعاملونه بمثل ذلك فيعظمونه خداعاً ونفاقاً في وجهه ، فإذا غاب عنهم وصفوه بما يعتقدونه فيه ، ويقطعون فروته من ورائه.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول: كيف يقبل الفقير هدايا الظلمة وبرهم وإحسانهم ، ثم يطلب له المقام في قلوبهم ، هذا أمر لا يكون ، وهو من قلب الموضوع ، لأنه صار معدوداً من عائلة الظلمة ، وكيف تطلب العائلة ممن يعولها أنه يخضع لها ويقبل يدها ورجلها ، ثم يحكى أن بعض الأمراء كان يعتقد سيدي محمد الحنفي رضي الله

تعالى عنه اعتقاداً زائداً ، فأرسل الأمير إليه مرة نحو نصف ويبة فضة ، فدخل بها القاصد والشيخ جالس على الكرسي فصار يحفن منها ويرمي للناس حتى فرغت الفضة فأخبر القاصد بذلك سيده ، فركب وجاء إلى الشيخ وقال له: إنما أرسلتها لك لتتوسع أنت بها ، فقال الشيخ للأمير: خفف ثيابك واملأ لي دلواً من هذا البئر أتوضأ منه ، ففعل ، فثقل الدلو عليه فما أطلعه إلا بجهد ، فنظر فيه فإذا هو ذهب أحمر ، فقال له الشيخ: صبه في البئر واملأ غيره ، فطلع الدلو كذلك ذهباً ، حتى فعل ذلك معه ثلاث مرات ، فقال له: قل للبئر إن محمداً يطلب منك ماء للوضوء فطلع الدلو ماء ، فقبل الأمير رجل الشيخ واستغفر ، ثم يقول سيدي إبراهيم رضي الله تعالى عنه: فلو أن سيدي محمداً أخذ الفضة لنفسه ، وشكر فضله على ذلك ، لما قام له في قلبه جاه بعدها.

ومن هنا قالوا لو وزن الذي يقبل هدايا الأمراء مقام نفسه قبل أن يأخذها ومقامه بعده ، لما وجد مقامه بعده يجيء قيراطاً من مقامه قبل الأخذ ، ومن شك في قولي هذا فليرد من أتاه بشيء من الذهب مع حاجته إليه ، فإنه يحس بأن مقامه عظم في عين صاحب الذهب بيقين عكس حاله إذا قبله.

وقد بلغني عن بني بغداد أنهم يقولون: قد سئمت نفوسنا من كثرة ما يسألنا الفقهاء والفقراء ، وبعضهم جعل نزوله كل سنة إلى مولد سيدي أحمد البدوي حجة في سؤالنا ، وقبول صدقتنا ، وربما أنه لم يدخل قبة سيدي أحمد مطلقاً ، فيضرب خيمته خارج الملفة ، ويصير يأخذ ما يأكل هو وجماعته وبهائمه ، ثم إذا انقضى المولد يأتي إلى محلة المرحوم يسألنا بحاله وبقاله ، ويزعم أنه إنما نزل لزيارتنا شوقاً إلينا وهو كاذب ، فإننا لسنا من العلماء حتى يستفيد منا علماً ، ولا من الصالحين حتى ندعو له ، ولا عندنا شيء من الحلال حتى يأخذ منه ما يطلبه ، فما بقي إلا أنه نصاب فاسق ، انتهى.

فإياك يا أخي من وقوع مثل ذلك منك.

وسمعت جماعة الوزير علي باشاه يقولون: قد سئمت نفسنا من كثرة ما يسألنا هؤلاء المشايخ ، ونعطيهم من العدس والعسل والفلوس ، ثم إنهم يقولون عنا: إننا ظلمة ، فلأي شيء يأخذون منا ولو أن مثل هؤلاء شموا رائحة الطريق لتعففوا عما في أيدي الخلائق ، فكانوا يعظمون في عيونهم ، وطلب بعض الفقراء من خازن دار الباشاه الزيارة ، فقال: إن زاره أستاذي زرته تبعاً له ، وإن زار هو أستاذي لم أزره ، لأنه مريد من جملة مريدي أستاذي ، فأنا وهو سواء في الدرجة ، انتهى.

فإياك يا أخي أن تتخذ صلاحك ، ولبسك الجبة ، وإرخاء العذبة شبكة تصطاد بها الدنيا فتخسر مع الخاسرين ، وعليك بالورع تفز مع الفائزين ، فافهم ذلك ، والله تعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: محبتي لولاة أمور المسلمين ، ومشاركتي لهم في الهموم والأمراض ، لا سيما السلطان الأعظم ، وقد مرضت لمرضه مرتين ، وضربت على مفاصل رجلي مرات آخرها في شهر رمضان سنة إحدى وستين وتسعمائة لما سافر لقتال الروافض ، ومكثت مريضاً من أول رمضان إلى آخره ، فلما شفي السلطان شفيت ، وجاءني في المنام ، وضرب خيامه من الخليج المجاور لبيتي إلى نحو بولاق ، وكانت خيمته خضراء من ياقوت ، وفتح طاقة بيتي ، وقال: شكر الله فضلك ثلاث مرات ، ولقي شخص من أرباب الأحوال الشيخ نور الدين الشربيني ، وقال له: لولا أن عبد الوهاب حمل عن السلطان وجع الرجل في سفره ما لقي خيراً ، انتهى ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كراهتي لتردد أحد من الأكابر إليّ من علماء وفقراء وأمراء ، فأنا بحمد الله تعالى أتشوش من ترددهم إلي تعظيماً لهم ، لا سيما إن أتى أحد منهم ماشياً ، كما يفعله الشيخ العالم الصالح الشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني ، والشيخ سراج الدين الحانوتي الحنفي ، فسح الله تبارك وتعالى في أجلهما ، ونفعني والمسلمين ببركتهما ، فإني أكاد أذوب من الحياء منهما لعجزي عن مكافأتهما بنظير ذلك ، ولعلمي بأنهم ما ترددوا إليّ إلا لظنهم في الصلاح والبركة ، وأنا أعرف أني لست بصالح ، وأن صفات نفسي أنجس من ماء خرّارة المذبح ، وكان ذلك من خلق سيدي إبراهيم المتبولي ، وسيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنهما ، فكانا يقولان: اسع إلى إخوانك قبل أن يأتوا إليك ، ولا تنقطع عنهم بحيث يستوحشون إليك ، فيأتون لزيارتك ، وإياك أن تحب أن أحداً يتردد إليك من غير أن تتردد أنت إليه ، كما يفعله بعضهم ممن لم تربهم الأشياخ ، فإن جميع ما مع الفقير في هذا الزمان من المدد قد لا يجيء حق طريق واحد يمشي إليه.

وقد رأى سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه شخصاً يقول لفقير: ما عدنا ننظركم ، فزجره ، وقال: لأي شيء ما تذهب أنت إليه إذا اشتقت إليه.

وكان رضي الله تعالى عنه إذا بلغه أن أميراً عازم على زيارته يذهب هو إلى بيته ويزور ذلك الأمير ، ويقول: أنا أقل كلفة في المجيء إليك من مجيئك إليّ ، ولامه بعض الناس على ذلك ، فقال: إنما ذم السلف الوقوف على أبواب الأمراء لمن خاف على نفسه الفتنة أو وقف يطلب منهم شيئاً ، ونحن بحمد الله لا نركن إليهم إذا دخلنا عليهم لزيارة أو عيادة ، ولوأنهم أعطونا شيئاً لا نقبله منهم ، وإنما نأتيهم لنسوق إليهم خيراً.

وتقدم قريباً أن محل طلب زيارة الفقير للأمير ما إذا لم يترتب عليه محظور ، فراجعه ، واعلم يا أخي أن لصاحب هذا الخلق علامة ، وهي أن ينشرح صدره إذا تركه الأكابر الذين كانوا يترددون إليه ، وترددوا إلى أحد من أقرانه ، وينقبض خاطره إذا تركوا أقرانه ، وترددوا

إليه ، فإن الصادق يحب غفلة الناس عنه ونسيانهم له ، خوفاً أن يشتغل بهم عن ربه عز وجل ، والكاذب بالعكس ، وقد رأيت شخصاً انقطع في بيته وزاويته ، يعتب على بعض الناس عدم تردده إليه ، فقلت له: عتابك للناس على ترك ترددهم إليك يخالف ما أشعته عن نفسك في مصر من محبة العزلة والانقطاع إلى الله تبارك وتعالى ، فما درى ما يقول ، فعلم أن كل ما فيه تفعل من العبد غالباً فهو مذموم ، وهو إلى صفة النفاق أقرب ، بخلاف ما ليس بتفعل ، وإنما دعاه إلى ذلك صدق التوجه إلى الله تبارك وتعالى كالشيخ شاهين حين انقطع في الجبل ، وكالشيخ دمرداش حين انقطع في الصحراء ، فمثل هؤلاء كانوا يفرحون إذا غفل الناس عنهم ، وقد سمعت مرة الشيخ شاهين رضي الله تعالى عنه يقول: والله ما لي حاجة في توسعة مطلعنا إلى الجبل ، حتى يطلع إلينا الناس بالدواب ، ولا بعمارة مسجد عندي ، لأن ذلك يجمع الناس ، ويكثر الزائرين ، والعقل يشهد بصدقه رضي الله تعالى عنه ، فرحم الله تبارك وتعالى من تبعه في ذلك الرحمة الواسعة ، آمين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: ردي كل ما يأتيني من مال الولاة ، فإن أبوا أن يقبلوه رميته لكل من كان حاضراً من الناس ، ولا أقبل منه نصفاً واحداً لنفسي ولا لعيالي ، وكثيراً ما يرسل الأكابر إليّ مالاً سراً لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى ، فأخرج به للفقراء وأفرقه عليهم ، ولا أمسك منه درهماً واحداً ولا لولدي ، ولم أر أحداً من أقراني يفعل مثل ذلك ، بل رأيت من يقبل المال على اسم الفقراء ، ويسمي لقاصد صاحب المال أسماء خلائق على غير مسمى ، ويوهمه أنه يفرق ذلك المال عليهم ، فقال له بعض القصاد يوماً: أما تأخذون لعيالكم شيئاً؟ فقال: قد عاهدت الله أن لا آكل من مال الولاة أبداً ، ففرس فيه القاصد الكذب ، فأمر غلامه أن يتخلف بعده حتى ينظر أيش يفعل سيدي الشيخ في ذلك المال ، فرآه أعطاه الخازندار ، فتسامع الفقراء ، فأتوا الشيخ فلم يعط أحداً منهم نصفاً ، وقال: هذا مال أرسله الباشا لي بالخصوص ، فأخبر الغلام بذلك أستاذه ، فتعجب من ذلك ، وأخبر بذلك الباشا فقطع عنه بره وحسنته.

فإياك يا أخي أن تفعل مثل ذلك، فتخون الله ورسوله ﷺ، وتخون نفسك، وصاحب الصدقة ، والفقراء ولما بلغ بعض الحسدة أنني أرد مال الولاة ، قال: هذا ليس بمقام عندنا ، فبلغ ذلك الأمير محمد الدفتردار ، فأرسل إلى ذلك الحاسد بالمال الذي رددته أنا ، وكان ذلك بحضرة جماعة فرده ، وقال: هذا شيء ما فعلته قط ، فلما رد القاصد إلى الدفتردار ، وقال: الذي ألقاه الله في قلبي أن هذا متفعل ، ولم يرد ذلك إلا خوفاً من لوث الناس به ، ولكن خذ هذه الصرة وأعطها له ليلاً في جامع الأزهر ، وجعل في الصرة رملاً وشقفاً ، فلما دخل القاصد بها إلى الجامع وجده تحت دكة المؤذنين ، فأعطاها له فقبلها ، وانشرح وانبسط ، وقال: سلم على الأمير ، وقل له جزاك الله تعالى عن الفقراء والعلماء خيراً ، فقال

له القاصد: يا بطال ترد الذهب في النهار بحضرة الناس، وتقبل الشقف والرمل ليلاً، فخجل، وافتضح.

ووقع لي أيضاً أن الأمير أحمد الدفتردار زارني، وعرض علي ألف نصف، فرددتها فخرج، ثم أرسلها إليّ مع غلامه، وقال: أعطها له: بينك وبينه بحيث لا يراك أحد، لظنه أنني رددتها عليه حياء من الناس، فلما جاءني بها، قلت له: يا أخي شيء لم أقبله من أستاذك أقبله من غلامه، ورددتها عليه ثانياً، فتحقق أني ما رددتها إلا تورعاً، فاعتقدني غاية الاعتقاد، وقضيت عنده بعد ذلك عدة حوائج للناس، وهذا الأمر قد أعطاه الله تبارك وتعالى لي من حين كنت صغيراً لا أعرف الرياء ولا النفاق، انتهى، وإنما ذكرت لك يا أخي هذه الوقائع لتقتدي بي فيها وترد الدنيا خالصاً لا لعلة، والله تبارك وتعالى يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم خوفي من أحد الولاة، بسبب كلام نقله لهم بعض الحسدة في حقهم عني أو نحو ذلك، إلا إن كان الخوف منهم يرجع إلى الخوف من الله عز وجل، كما إذا خفت من الله تبارك وتعالى أن يسلطهم عليّ بذنوبي، فإن ذلك لا يقدح في كمال مقام المؤمن، وقد وقع لموسى عليه السلام وغيره الخوف من الخلق، ويجب حمل ذلك جزماً على ما قلناه، لأن الأكابر لا يشهدون الأمور إلا من الله تبارك وتعالى أصالة، وإن شهدوها من الخلق فإنما ذلك بحكم التبعية، وأيضاً فإن في كل مؤمن جزءاً يخاف من الخلق، ويجب على كل مؤمن كف الضرر عن نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وإنما كنت لا أخاف من الظلمة، لعلمي بأنهم لا يسلطون إلا على من يحب الدنيا بقلبه، وأنا أعلم من نفسي أنها لا تحب الدنيا، وليس فيها بحمد الله تعالى إلا محبة الله عز وجل، ومحبة رسوله ﷺ، ومحبة الأولياء والصالحين رضي الله تعالى عنهم وساكن البيت يحميه من كل ظالم، واعتقادي في رسول الله ﷺ أن يحميني بإذن الله عز وجل من كل سوء في الدنيا والآخرة، فعلم أن من لم يحب الدنيا فلا يسلط عليه أحد من الظلمة، سواء كان خالي اليد منها بالكلية أو عنده مال، لكن في يده لا في قلبه، فلو أراد الظالم أن يؤذي مثل هذا لما أقدره الله تبارك وتعالى عليه.

وتأمل يا أخي المجاذيب لما تحقق الولاة منهم تركهم للدنيا، كيف صاروا يقبلون أقدامهم، ويخافون منهم، ومن تغير خاطرهم عليهم، وقد قال لي صاحبنا الأمير خضر الكاشف بالشرقية والقليوبية، لقيني مرة الشيخ علي البرلسي المجذوب في طريق قليوب، ومعي العسكر، فقبض على طوقي، وأنزلني من فوق الفرس، وصار يصفعني ويضربني على عمامتي، حتى هدمها في عنقي بحضرة عسكر السلطان، وصرت أرعد من هيبته، وأنا خائف منه، ثم سألني أن أطيب خاطره عليه، هذه حكايته لي عن نفسه، فلو أن أحداً من

المحبين للدنيا أراد أن يفعل بالكاشف مثل ذلك لم يقدر ، ولو قدر أنه فعل ذلك لكانوا يضربونه ويحبسونه أو يقتلونه ، أصلاً ، فعلم أن كل من تحقق بالزهد في الدنيا حكمه الله تبارك وتعالى في الولاة ، ولم يقدر الولاة أن يحكموا فيه ، ولو كانت عمامته عمامة قاض وثيابه ثياب أمير ، فافهم ذلك ترشد.

ومن هنا تصدر العلماء العاملون لإزالة منكرات الولاة ، كالشيخ محيي الدين النووي ، والشيخ تقي الدين الحصني ونحوهما ، لكمال زهدهم في الدنيا ، ولو أنهم كانوا يحبون الدنيا ومناصبها لما قدر أحد منهم على مخاصمة أحد من الولاة ، ولا ساعدته القدرة الإلهية على مثل ذلك ، وقد حكى السخاوي في مناقب النووي رضي الله عنه أن النووي أنكر على نائب الشام لما أراد أن ينقل كتب العلم التي في خزانة الجامع الأموي إلى بلاد العجم ، وأغلظ عليه القول ، فأراد نائب الشام أن يبطش به. وكان في فرش نائب الشام جلود نمار وسباع ، فأشار الإمام النووي إليها فقامت سباعاً ونماراً بقدرة الله عز وجل ، وكشرت بأنيابها على نائب الشام ، فخرج منها هارباً هو وجماعته ، ثم صالح الشيخ وقبل رجله.

وكذلك بلغنا أن الشيخ تقي الدين الحصني رضي الله تعالى عنه هدم وكالة عمرها نائب الشام ، وأخرج حائطها في طريق المسلمين ، فأرسل نائب الشام إليه من يقتله ، فلما جاء وجد عند كتف الشيخ سبعاً عظيماً قدر الفيل ، فخاف ورجع إلى نائب الشام ، ولم يقدر أن يفعل فيه شيئاً.

فهكذا كان العلماء العاملون رضي الله تعالى عنهم ، وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول: كل من لم يقدره الله تبارك وتعالى على حماية نفسه من الولاة ، فليس له أن يتعرض لإزالة منكراتهم ، خوفاً أن يقتلوه أو ينفوه فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حملي للعلماء الذين يدخلون على الأمراء ولا ينصحونهم ، ولا يأمرونهم بمعروف ، أنهم لم يتركوا ذلك إلا عجزاً أو أنهم لم يروا عندهم منكراً ، وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول لأصحابه: من أدرك منكم النصف الثاني من القرن العاشر ، فلا يشدد في إزالة منكرات الولاة ، لأن في ذلك الزمان تترادف علامات الساعة التي أخبر بها الشارع ﷺ ، ومن شدد في منع وقوعها أصلاً فكأنه ساع في خلف ما وعد به الشارع ، ولا يخفى ما فيه ، قال: وعلى ذلك يحمل حديث الطبراني مرفوعاً «**إذا رأيتم شحاً مطاعاً متبعاً ودنياً مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليكم بخويصة أنفسكم ودعوا عنكم أمر العامة**»(١) انتهى.

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة (٣٠٥٨) ، وأبو داود ، كتاب

قلت: لكن قواعد الشريعة تشهد لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مطلقاً ، ولو كان ذلك الأمر من علامات الساعة إلا أن يخاف الإنسان على نفسه من ذلك حصول ضرر شديد لا يحتمله عادة ، وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه يقول: لو كشف لولي أن فلاناً لا بد أن يزني بفلانة ، أو يشرب الخمر مثلاً ، وجب عليه النهي ، لأن نور الكشف لا يطفىء نور الشرع ، غايته أن الله تبارك وتعالى أطلع بعض أوليائه على تقديره على عبده ، وجميع ما أوجب سبحانه وتعالى علينا أن ننهى عنه كله من تقديره بإجماع أهل السنة ، فالإيمان بأن ذلك من تقدير الله تعالى ، أو مشاهدتي من طريق الكشف ، لا يسقط الأمر بالمعروف ، لأن الله تبارك وتعالى قد تعبدنا بإزالة المنكرات ، ولو شهدنا كشفاً بأنها بإرادته وخلقه تعالى.

وفي كلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي رضي الله تعالى عنه: إياك أن تخرق سور الشرع يا من لم يخرج عن عادة الطبع ، فإن الذي أشهدك أن كل شيء في الوجود خلقه هو الذي أمرك بإزالة المنكر ، انتهى.

فعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينافي التسليم لله تبارك وتعالى ، فالعبد يسلم لربه تعالى من حيث تقديره على عباده ، ويقوم بما كلف به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه ليس للعبد أن يقف مع ظاهر الحديث السابق ، ويقول: قد وجدت العلامات التي أخبر بها الشارع ﷺ ، وما بقي على أحد وجوب في أمر غيره بمعروف ، وإنما يترك العبد ذلك إذا خاف على نفسه ضرراً شديداً من قتل أو نفي من بلده ، أو إخراج وظائفه التي بها معاشه ونحو ذلك ، ولعله مراد الشارع ﷺ بقوله: «**فعليكم بخويصة أنفسكم**» أي لأنه يخاف عليكم حينئذ من الضرر الذي لا تطيقونه ، ولا تجدون معيناً يعينكم عليه ، هذا لا يبعد ، فليس في الحديث تصريح بإسقاط أصل الأمر بالمعروف ، إنما فيه الأمر بعدم التشديد فيه ، لأن أمر الشارع ﷺ لا يترك اختياراً إلا إذا نسخ ، ولا ناسخ لأمره ﷺ بعده إلى قيام الساعة ، حتى أن عيسى عليه السلام إذا نزل لا يحكم إلا بشريعة محمد ﷺ كما ورد ، فتأمل ذلك وحرره ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم خوفي من مخلوق مطلقاً ، من حية أو عقرب أو تمساح أو لص أو جن أو غير ذلك ، وإنما أتحرز من هذه المذكورات عملاً بالشرع ، من حيث إنه تعالى قد أمرني أن لا ألقي بنفسي إلى التهلكة كما مر تقريره قريباً ، لا خوفاً من ذلك المخلوق مع غفلتي عن كون ذلك من الله تبارك وتعالى ، وهذا الأمر قد أعطاه الله لي من حين

= الملاحم ، باب الأمر والنهي (٤٣٤١) ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ (٤٠١٤).

كنت دون البلوغ ، فلا أهاب سبعاً ، ولا صقراً في ليل مظلم ، وإن وقع مني خوف من جهة الجزء الذي في نشأة كل إنسان فذلك الجزء ضعيف لا يكاد يظهر له صورة لغلبة عسكر اليقين ، والتوكل على الله عز وجل على ذلك الجزء ، فافهم ، وقد وقع لي أنني نمت في شيخ مدفون في قبة مهجورة ، وكانت القبة كلها ملآنة أحجاراً ، فيها ثعابين كبار ، لا يتجرأ أحد منها أن يزور الشيخ ليلاً ولا نهاراً إلا من خارج القبة ، فدخلت الشيخ في ليلة مظلمة أيام الشتاء ونمت فيها ، فصار الثعابين يدورون حولي إلى الصباح ، ولم يتغير مني شعرة ، فلما طلع النهار وجدت مكان سحبهم في السباخ يشبه ذراع الآدمي في الغلظ ، فتعجب أهل البلد من ذلك ، وقالوا لي : كيف سلمت في هذه الليلة؟ فقلت لهم : اعتقادي أن الثعبان لا يلسعني إلا إن ألهمه الله تعالى ذلك ، فيقال له بلسان القدرة : اذهب إلى فلان فالسعه في المكان الفلاني من جسمه ليمرض أو يعمى أو يموت ، ولا يمكن الثعبان أن يلسع أحداً بلا إرادة الله عز وجل ، ومن نظر إلى السوابق لم يخف من اللواحق.

وقد سبقني إلى نحو ذلك شجاع الكرماني رضي الله تعالى عنه ، كان يذهب إلى الغيضة فينام بين السباع إلى بكرة النهار ليمتحن نفسه في اليقين ، فكانت السباع تشمه وتمشي حوله ولا تضره ، وكان رضي الله تعالى عنه يقول : ما أمثل نفسي في الليلة التي أنام فيها بين السباع إلا بليلة عرسي ، ونومي مع العروس.

ومما وقع لي في سنة تسع عشرة وتسعمائة ، أنني سافرت إلى الصعيد ، فتبع مركبنا تماسيح نحو سبعة ، كل تمساح قدر ثور ، ففزعت الناس كلها من الجلوس على حافة المركب ، خوفاً من أن تخطفهم التماسيح فجعلت في وسطي مئزراً ونزلت البحر بين التماسيح ، فهربت كلها مني ، فطردتها في البحر ، ثم رجعت إلى المركب ، فتعجب الناس من ذلك.

ومما وقع لي مع الجن أن جنياً كان يدخل على بيتي الذي في مدرسة أم خوند في الليل ، فيطفىء السراج ، ويصير يرمح في البيت ، فكان العيال يفزعون منه ، فكمنت له ليلة ، وقبضت على رجله ، فصار يصيح وترق رجله في يدي وتبرد إلى أن صارت كرقة الشعرة الباردة ، ثم خرجت من يدي ، فمن ذلك اليوم ما ظهر.

ونمت مرة عند شخص من أصحابي في قاعة مهجورة كلها جن ، فأوقد السراج بعد العشاء ، وأغلق علي الباب ، وتركني وحدي ، فجاء جني وأطفأ السراج ومعه جماعة كثيرة من الجن ، فصاروا يرمحون حولي إلى الصباح ، وقلت لهم : وعزة الله إن قبضت على أحد منكم ما يقدر أحد أن يطلقه مني ، ولا الملك الأحمر ، ونمت ، وأخذني النوم من غير فزع.

ووقع لي أنني دخلت مغطس ميضأة جامع الغمري ليلاً لأتوضأ منه ، وكانت ليلة مظلمة فخبط شيء في المغطس يشبه الفحل الجاموس وغطس ، فصعد الماء حتى فاض ونزل ناحية

الحنفية ، فنزعت ثيابي ونزلت عليه في المغطس فزهق من تحتي فلم أجده ، وإنما كنت لا أخاف من المؤذيات ، لأني كنت في مقام التدريج في اليقين ، وكذلك لا أخاف من اللص لأنه لا يطلب مني إلا الثياب أو غيرها من أمور الدنيا ، وأنا بحمد الله تبارك وتعالى إذا رأيته سمحت له بها بطيبة نفس ، ثم أبرأت ذمته في الدنيا والآخرة حتى لا يلحقه إثم من جهتي ، فلم ذا يضربني أو يؤذيني وأنا أعلم أنه لا يضربني إلا إن قلت له: ما أعطيك ثيابي مثلاً ، وبالجملة فلي أن أقاتله ، ولي أن استسلم له بالطريق الشرعي ، ولا يجب علي قتاله إلا إن كان معي مال للغير وديعة مثلاً أو حريم لي أو لغيري ، ولم يمتنع عن الفجور إلا بالمقاتلة ، وأما المال إذا كان لي فهو عندي أخسر من أن أقاتل مسلماً لأجله ، فافهم ذلك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: تنبيهي في المنام على الأمور التي تقع مني في المستقبل من خير أو شر ، لآخذ حذري منها إذا لم يكن الأمر مبرماً قد حق به القدر ، وذلك معدود من وحي الحق تبارك وتعالى إلى المؤمن ، ولا يعرف ذلك ويعتني به إلا الأولياء الكمل ، وقد كان ﷺ إذا صلى الصبح يقول لأصحابه: «من رأى منكم رؤيا ـ يعني ـ أعبرها له»[1] فكان ﷺ يحب أن يرى أثر الوحي في أمته ، وإن اختلف المقام وتفاوتت المراتب ، ولي أمارات أعرف بها جنس ما يقع مني لأعينه وأعرف بها عظمة الذنب وصغره ، بالنسبة لما قرره العلماء من صغير وكبير ومكروه.

فإذا رأيت أنني أمشي حول شجر التين أعرف أنني حائم حول خصلة دنيئة ، أريد أن أفعلها كما في قصة آدم عليه السلام ، وإذا رأيت أنني آكل من الشجرة أعرف أنه لا بد لي من الوقوع في تلك الخصلة وإن رأيت أحداً يجني التين ويطعمه لي أعرف أنه يساعدني على تلك الخصلة كما وقع لحواء مع آدم عليهما السلام ، وإن رأيت أنني مجالس للأموات أعرف أن قلبي مات عن فعل الطاعات ، وإن رأيت أني مصاحب لأعمى أعرف أنني عميت عن طريق حق فأرجع ، وإن نمت عن وردي ولم أتأثر لهوانه عندي أرى في الليلة الآتية أن راحلتي ضاعت مني ، وأنا مسافر في أرض كثيرة الوعر والشوك ، وإن نمت عن قيام الليل مع الأوائل أرى نفسي مسافراً لمكة ، وقد انقطعت عن الحجاج بنحو مرحلة أو أكثر أو أقل ، بحسب ما تخلفت في الزمان ، وإن نمت عن وقت التجلي الإلهي أرى نفسي مضطجعاً مع الأموات ، وإن تخلقت بشيء من أخلاق البهائم أرى نفسي مخالطاً للبهائم في زريبة ، وربما رأيت نفسي معانقاً لذلك الحيوان الذي تخلقت بأخلاقه من آدمي أو بهيمة ، وإن نمت على غير وتر أرى نفسي تلك الليلة وأنا واقف على باب الوتر من الجنة ، فأريد أن أدخل منه ، فيمنعني الملك من

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الرؤيا ، باب في تأويل الرؤيا (٢٢٦٩). ولفظه: «من رأى منكم رؤيا فليقصها أعبرها له».

الدخول ، ويقول لي أنت نمت على غير وتر ، وقد أمرت أن لا أفتح هذا الباب إلا لمن نام على وتره ، وأرى الكتابة التي على عتبة الباب الفوقانية وصورتها باب الوتر ، وإن رأيت قلة صفاء معاملتي مع الله تبارك وتعالى أرى كأني أتطهر من ماء نتن الرائحة ، وهو قليل لا يكفي للطهارة ، وإن رأيت إلى كثرة عملي أرى الليلة الآتية أنني ألعب مع المحبطين ، وإن فعلت خصلة من خصال المنافقين أرى نفسي حاملاً خشباً عظيماً غليظاً أو متوسطاً أو رفيعاً بحسب تلك الخصلة ، أصغرها حطب الطرفاء الشعشاع ، وإن وقع مني غيبة في المسجد أرى كأني أشرب فيه الخمر ، وأرى نفسي كأني آكل في لحم رجل مشوي أحمر ، وأنا أستحلي ذلك اللحم كالحلاوة ، فأعرف أنني استلذيت بغيبته ، وإن نمت عن قيام ليلة أرى نفسي في مركب وهي منحدرة بي إلى جهة دمياط ، وإن نقصت من قيام الليل أرى نفسي منحدراً إلى ميت غمر أو سمانود أو غيرها بحسب ذلك النقص ، وإن انحدرت عن بلدي ساقية أبي شعرة أعرف أنني نزلت في المقام عن الحالة التي كنت عليها في الريف قبل مجيئي إلى مصر ، وكأني لم أترق في مصر بعمل من الأعمال التي عملتها ، وإن نمت عن وردي حتى قرب طلوع الفجر أرى نفسي في الليلة التي بعدها كأني تركت صلاة العصر حتى كادت الشمس أن تطلع ، وإن قمت في الليل وختمت وردي قبل انصراف أهل الحضرة من بين يدي الله تبارك وتعالى ، أرى كأني صليت الجمعة وحدي قبل الناس ، ثم انصرفت إلى بيتي ، وإن نمت عن قيام الليل في الليالي الفاضلة أرى نفسي في مكة المشرفة وقد تخلفت عن الجمعة ، حتى كاد الخطيب أن يفرغ من الخطبة الثانية ، وإن كان تخلفي بسبب الاشتغال بلهو أو عمل لا إخلاص فيه أرى نفسي في مكة ، وأنا واقف على مجالس اللهو ، والخطيب يخطب في الحرم لم أحضره ، وإن تركت قيام الليل ليلتين متواليتين أرى نفسي جاوزت دمياط ودخلت البحر المالح ، وإن نمت ثلاث ليال أرى نفسي في الليلة الرابعة أنني مضطجع معانق شخصاً أعمى مزمناً أكتع يخط برجله في الأرض ، وبصاقه سائل على لحيته فأعرف أن مقامي في النهضة للعبادة كحال ذلك الشخص ، وإن سترت عورة أحد من المسلمين أرى تلك الليلة كأن لحيتي مضمخة بالمسك والعنبر والغالية والكافور ، وإن رأيت أنني آكل طعاماً مخلوطاً بغيره أعرف أنني مخلط في أعمالي تلك الأيام ، وإن رأيت نفسي في حارة الباطلية أعرف أنني ارتكبت باطلاً فأرجع عنه ، وإن رأيت نفسي تائهاً فيها أعرف أنني لا أهدى للخروج من ذلك الباطل إلا بعسر ، وإن رأيت سيدي الشيخ أبا الحسن الغمري رضي الله تعالى عنه وهو مبتسم أعرف أنني فعلت شيئاً حسناً ، وإن رأيته معبساً أعرف أنني فعلت شيئاً قبيحاً ، وإن رأيت الشيخ أمين رضي الله تعالى عنه معبساً أعرف أنني عزمت على فعل شيء فيه خيانة للدين فأرجع عنه .

وقد عزمت مرة على منع أولاد أخي الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه أن يخرجوا من باب قاعتي ، وقلت لهم من باب السر ، فرأيت تلك الليلة الشيخ أمين الدين وقد فتح باباً من

خلوته يطلعون منه إلى بيته ، فعرفت أنني خرجت عن وصية الله تبارك وتعالى على الأيتام ، فرجعت عن ذلك لما رأيته فتح باباً من خلوته التي هي محل ماله وحوائجه التي يخاف عليها خوفاً من كسر خاطر اليتيم ، وإن خضت مع أحد في مجالس اللغو أرى تلك الليلة كأنني عائم في بحر مع أعمى ، أخاف الغرق أنا وإياه ، وإن اغتاب أحد عندي شخصاً بريأ ، وحصل عندي شك في أمر ذلك الشخص ، أراه تلك الليلة وعليه ثياب نقية البياض ، فأعرف كذب ذلك المغتاب له ، وإن رأيت أنني لابس ثياباً خضراً ملطخة بحبر ، أعرف أن أحداً ينقصني في مجلس ، ويقبل بعض الناس ذلك منه ، فإن لباس الأخضر لباس الصالحين ، ولكنه لم يسلم ممن يجرح في صاحبه ، وإن سمعت غيبة في أحد ، ولم أرد عنه أرى نفسي تلك الليلة وأنا كأني أسمع الآلات المحرمة في مجلس الخمر مع أهل ذلك المجلس ، وقد صب الخمر على ثوبي فدنسه ، وإن نفرت نفسي من فعل خير أرى كأنني منحدر في مركب وهي سائرة كالحجر المرمي في المشرعة ، وإن وقعت في معصية رأيت نفسي في ناحية برشوب الصغرى ، أعرف صغر تلك المعصية ، أو ناحية برشوب الكبرى أعرف كبر تلك المعصية ، وأن الله تعالى غضبان عليّ ، وإن رأيت نفسي تائهاً في أزقة هاتين البلدين أعرف أني لا أخرج عن تلك المعصية إلا بعسر ، وإن رأيت نفسي في مركب قد أرست على برشوب ، أعرف أنني أقع في شيء عاقبته رديئة ، وإن رأيت أنني في الصالحية أعرف أن الحق تبارك وتعالى رضي عني وعفا عني في ذلك الذنب ، وإن رأيت نفسي معلقاً من الصالحية في مركب نحو مصر أعرف أنني شرعت في الرجوع إلى المقام الذي نزلت منه بفعل ذلك الأمر القبيح ، وإن رأيت نفسي مقلعاً من مصر العتيقة إلى ناحية الصعيد أعرف أنني شرعت في الرقي عن مقامي قبل فعل تلك المعصية مثلاً ، وإن رأيت نفسي خارجاً من باب النصر إلى الصحراء أعرف أني غير منصور في تلك الحركة التي أنا فيها في ذلك الوقت ، وإن رأيت نفسي داخلاً من باب النصر أعرف أنه لا بد من نصرتي ، وإن وقعت في تقريب شخص ، أو في فعل عاقبة رديئة ، وأنا أحسب أنه حسن أجد نفسي وأنا أغرس شجرة التين التي هي كناية عن حصول الندم بعد ذلك ، ثم إن غير الله تعالى الحال أجد ذلك الشجر قد تحول خساً أو قلقاساً ونحو ذلك من الخضروات ، وإن جلست في مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ ، وقلبي يتفكر في شيء من أمور الدنيا ، أرى تلك الليلة أن بستاني الفاكهة تحول إلى شجر شوك وأثل وسدر ، وإن غفلت عن الحضور مع الله تبارك وتعالى أرى شجر بستاني كله قد أصفر من العطش بقدر ما غفلت فيه من مرات الصلاة على النبي ﷺ ، أو مرات من الذكر ، وإن عظمت الغفلة تلك الليلة عن قلبي ، ولم أحضر إلا قليلاً أرى أني موسق مركباً تراباً من بلاد الريف ، وأنا مقلع بها إلى مصر التي هي بلد السلطان ، فأعرف أن عملي تلك الليلة لا يصلح هدية للملوك بوجه من الوجوه.

وإن رأيت أحداً من العصاة المغفور لهم ، ورجحت نفسي عليه أرى تلك الليلة أنني على

الصراط ، وذلك العاصي يحازيني على الصراط خوفاً أن أقع منه ، فأعرف أنه أحسن حالاً مني عند الله تبارك وتعالى ، فأستغفر في حقه ، وإن تلاهيت عن الصلاة على النبي ﷺ ، أو عن ذكر الله عز وجل لأجل كلام أحد من الكشاف ، أو مشايخ العرب ، الذين يدخلون عليّ ، وأنا في المجلس أرى تلك الليلة أن بستاني الفواكه ليس فيه سوى صف واحد بجانب الزرب من شوك وأثل وصفصاف وأشجار غير مثمرة ، والباقي كله قاعاً صفصفاً ، ليس فيه شجر ، فمن نظر إلى البستان من بعيد يعتقد أنه مغروس كله ، ومن دخله لا يجد فيه شيئاً ، فأعرف أن عملي في ذلك المجلس لم يتحصل منه شيء سوى الصورة فقط ، كبساتين أهل سبأ ، وكثيراً ما أرى الصف الذي عند الزرب كله شجرتين ، فأعرف شدة الندم يوم القيامة ، وإن لم أتدارك أمري في الدنيا لم أتداركه في الآخرة ، وإن مالت نفسي إلى جاريتي من وراء زوجتي الممكنة نفسها مني أرى تلك الليلة أنني صاحبت كلبة جرباء ضعيفة تأكل الذباب الطائر ، وتلتقطه من الهواء ، فإذا عطست طار من أنفها بصاق ، فأصاب ثوبي ، فأحتاج إلى غسله ، فأعرف أن نفسي عند ذلك كنفس الكلبة المذكورة في الدناءة والقذارة وطيب نفسها بأكل الذباب الذي يورث القرف والمرض.

ولما زوجت جاريتي «دام السرور» امتنعت عن رؤية وجهها نحو سنتين ، فرفعت طرفي لها مرة بحضرة زوجها فرأيت تلك الليلة كأنني في جامع الحاكم ، وبين يدي قطعة من دم أسود نحو القنطار معجونة بخمر ، فأنا أريد أن ألحس منها مع أني بحمد الله تبارك وتعالى ، لم أنظر إلى وجهها بشهوة ، وأعلم أن حكم الأمة المزوجة مع سيدها حكم المحارم في النظر ، فعلمت بذلك كثرة اعتناء الحق تبارك وتعالى بي في منعي من النظر إلى جاريتي المزوجة ، ولو بغير شهوة ، وشكرته تعالى على ذلك ، وإن أكثرت الكلام في العلم وأنا غافل عن العمل به ، أرى نفسي تلك الليلة وأنا معاشر جماعة من الفقهاء المشهورين بعدم العمل بالعلم ، وإن عظمت غفلتي بالتلاهي مع أحد من الخلق ، أرى نفسي تلك الليلة وأنا في المقابر ، أتفرج على أهل السخرية ، فأعرف أنني نسيت الموت والأعمال الصالحة واشتغلت بما لا يعنيني وإن سكنت إلى خلق مذموم ، أرى نفسي ساكناً في المحلة في بيت أحد من الفسقة ، وإن أكلت طعاماً من غير تفتيش على حله ، أو التبس علي وجهه مع التفتيش أرى ذلك الطعام في تلك الليلة ، وقد قدم لي وهو مطبوخ بلحم كلب أو خنزير أو ميتة أو لحم حمار ونحو ذلك ، فأعالجه بالقيء ، فإن لم يخرج أكثرت من الاستغفار.

ومما وقع لي أن محمد ابن أخت خضر أتاني بطعام قلقاس حامض بلحم ضانٍ ، وقال: كل هذا فإن هذا من طعام شخص يعتقدك تزوج الليلة ، فأكلت منه ، فرأيت تلك الليلة كأنه يقدم إليّ طعاماً فيه لحم كلب وخنزير ، وهما معاً مطبوخان ، وأولئك الجماعة الذين أكلوا معي يأكلون معي في المنام ، فبحثت عن ذلك فوجدته طعام عبد تزوج ، وسرق من مال سيده

شيئاً فعمل به العرس ، وسيده من مباشري الظلمة ، فكأنه حرام بعد حرام من حيث كسب سيده ومن حيث سرقته ، وإن اشتغلت عن الطاعات من أورادي بشيء من الدنيا أرى تلك الليلة أن اللص قد ثقب جدار داري ، وأراد الدخول إلى قعر الدار.

والوقائع في ذلك كثيرة ، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليّ ، فينبهني حتى أتدارك ما يمكن تداركه قبل موتي ، فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: محبتي لرفع صوتي بالذكر محبة في الله عز وجل ، وطلباً لأحد يذكر الله عز وجل بذكري ، وتنهيضاً لهمم الإخوان لا لعلة أخرى من حظوظ النفس ، فأنا أحب إذا قلت لا إله إلا الله أن يسمع بها أهل المشرق والمغرب من أنس وجن ومسلمين وكفار ، وقد بلغ الكتمان حده ، لكوني الآن في معترك المنايا ، وما بقيت نفسي بحمد الله تبارك وتعالى تطلب مقاماً عند الخلق ، ولا شيئاً سوى رضا الله عز وجل عنها ، ويا طول ما كتمنا العبادات ، ويا طول ما أمرت قيم المسجد أن يغلق شبابيك المسجد حتى لا يسمع أحد صوتنا بالورد فيذكر الله تعالى ولو مرة واحدة ، وأنا الآن أحب لقيم المسجد أن يفتح الشبابيك كلما نذكر ، فلعل أحداً من المارين يسمع صوتنا فيذكر الله تعالى ولو مرة واحدة محبة في الله عز وجل ، ومحبة في حصول الخير للمارين الغافلين ، وإنما كنت أخفي أعمالي قبل أن يشتهر اسمي في مصر وغيرها ، وقد بلغت الشهرة حدها ، ووالله إني لأطلب في بعض الأوقات الخفاء فلا يتيسر لي ، وأشتاق إلى بعض الإخوان فلا أقدر على الخروج إليه ، لكثرة ما يشير الناس إليّ بالأصابع فأخاف أن أكون معدوداً من شر الناس ، كما ورد ، ولذلك لبست الطيلسان ، وصرت أرخيه على وجهي حتى لا أعرف ، فلم يزل الناس يسألون من يقود بي الحمارة عني حتى صاروا يعرفوني ولو غطيت وجهي ، فتركت الطيلسان ، ثم إني قصدت بإرخاء الطيلسان على وجهي الآن كف البصر عن فضول النظر ، وإن وقع أن أحداً عظمني أجد ذلك من باب فضل الله تبارك وتعالى لا من باب المكر والاستدراج ، هذا قصدي الآن ، وأريد في أعمالي الشكر لله تعالى.

وقد علم مما تقرر أن ما ورد من ذم الشهرة في نحو حديث «**من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوباً من النار**»(١) وما ورد من ذم التسميع في نحو حديث «**من سمع سمع الله به**»(٢) محمول على من فعل ذلك رياء وسمع الناس بأعماله لغير غرض صحيح ، وسيأتي زيادة على ذلك في نعمة إرخائي الطيلسان على وجهي حياء من الله عز وجل ، ومن الخلق ، ففافهم

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب اللباس ، باب في لبس الشهرة (٤٠٢٩) ، وابن ماجه ، كتاب اللباس ، باب من لبس شهرة من الثياب (٣٦٠٦).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب الرياء والسمعة (٦٤٩٩) ، ومسلم ، كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٦).

ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: محبتي للتقليل من مجالسة الأكابر كلهم من العلماء ، والصالحين ، وقضاة العساكر ، والأمراء ، والكبراء ، خوفاً من وقوعي في الإخلال بواجب حقهم لا لعلة أخرى ، فإن حقوق الأكابر يعجز أمثالنا عن الوفاء بها ، والقاعدة أن كل من كثرت مشاهدة الناس له هان في العيون ، ولذلك قالوا : أقل الناس نفعاً بالشيخ زوجته وولده ونقيبه ، لكثرة مشاهدتهم له ، ووقوفهم مع ظاهر بشريته دون الوصول إلى معرفة قلبه ، وما فيه من الأسرار والمشاهد النفيسة ، انتهى .

وتأمل أهل مكة لما كثرت مشاهدتهم للكعبة ، كيف تجدهم لا يعظمونها كل ذلك التعظيم الذي يقع من الآفاقي ، ومن هذا الباب أيضاً احتجاب الخطيب في خلوة الخطابة ، إنما عمل به العلماء طلباً لتأثير وعظه في قلوب السامعين ، لأن التأثير تابع لشدة الهيبة ، ولو أن الخطيب جلس يمزح ويلغو ويستغيب الناس إلى أن أمر بالصعود إلى المنبر على أثر تلك الغفلة واللهو والمعصية لما أثر وعظه في قلوب السامعين من أهل ذلك المجلس ، وربما وعظهم بشيء ، فقالوا له بلسان الحال أو المقال : قل هذا لنفسك .

فعلم أن مجالسة الأكابر لا تطلب شرعاً إلا لمصلحة ترجح عن البعد عنهم ، لا سيما إن كانوا أمراء .

وقد قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : إياك والدخول على الأمراء ، ولو أمرتهم ونهيتهم ، فإن ذلك لا يتيسر لك المداومة عليه ، انتهى ، وكم ينظر الفقير الجالس عند الأمير محرماً في مأكله ومدخله ومخرجه وملبسه وملابس غلمانه ، وهو ساكت لا ينهاهم عن ذلك لا تصريحاً ولا تعريضاً ، بل قد رأيت من كان يأخذ البلص على يده للأمير ، ثم إن الأمير يستشهد به في أنه لا يقبل بلصاً ، فيشهد له بذلك ، ويقول : حاشاكم من ذلك ، حماكم الله من مثل ذلك ، فالبعد أولى ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة تعظيمي للشرفاء وإن طعن الناس في نسبهم ، وأرى ذلك التعظيم من بعض ما يستحقونه عليّ .

وكذلك من نعم الله تبارك وتعالى عليّ : تعظيم أولاد العلماء والأولياء وإكرامهم وإجلالهم بطريقه الشرعي ، ولو كانوا على غير قدم الاستقامة ، ثم من أقل ما أعامل به الشريف في الإجلال والتعظيم أن أعامله مثل ما أعامل نائب مصر ، أو قاضي العسكر ، وهذا خلق عظيم غريب في هذا الزمن ، قل من يعمل به من الناس .

ومن جملة الأدب مع الشرفاء أن لا يجلس أحدنا على فرش أو مرتبة أو صفة ، والشريف بضد ذلك ، وأن لا نتزوج لهم مطلقة وزوجة ماتوا عنها .

وكذلك لا نتزوج شريفة إلا إن كان أحدنا يعرف من نفسه القدرة على القيام بواجب حقها ، وأن يعمل على رضاها ، فلا يتزوج عليها ، ولا يتسرى ، ولا يقتر عليها في المأكل والملبس دون قدرتنا ، ونقول : إن جدك رسول الله ﷺ اختار ذلك.

وكذلك لا نمنعها شهوة مباحة سألتنا فيها ، ونقدم لها نعلها إذا قامت واحتاجت ، ونقوم لها إذا وردت علينا ، لأنها بضعة من رسول الله ﷺ.

وكذلك من الأدب أن لا نرى لها بدناً ولو لبيع أو شراء إلا إن تعين ذلك علينا شرعاً ، ولا ننظر رجلها إذا كان أحدنا بائع أخفاف ، ولا نمعن النظر إليها في الإزار إذا مرت علينا ، فإن ذلك يغضب جدها رسول الله ﷺ لو رآنا نفعل ذلك.

وكذلك من الأدب مع الشريف أن لا يطلب منا شيئاً ونمنعه ولو قوت يومنا أو عمامتنا ، أو جوختنا النفيسة إلا لعذر يقبله منا رسول الله ﷺ ، لأنها في جانب رسول الله ﷺ كالذرة من التراب.

وقد أوضحنا الكلام على حقوق الشرفاء في كتاب البحر المورود ، وتقدم أيضاً في هذه المنن أننا لا نفتح مجلس ذكر فيه شريف ، بل نسأله أن يفتتح بنا ، ثم نكون تبعاً له ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: معرفتي بصوت الشريف وتمييزه عن غيره ، ولو من وراء حجاب.

وكذلك مما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: معرفتي لكلام النبوة وتمييزه عما أدرج فيه.

وكذلك مما منَّ الله تبارك الله وتعالى به عليّ: معرفتي بالمساطير الزور وتميزها من غيرها ، فأرى الحرف ميتاً لا روح فيه ، عكس الحرف الذي وضع بحق.

وكذلك مما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: معرفتي بشهادة الزور ، فأعرف ذلك من نطقه بالكلمة ، ثم إني توجهت بقلبي إلى الله تبارك وتعالى فحجب عني جميع ذلك في سنة خمسين وتسعمائة ، أدباً مع الشريعة المطهرة.

وكان على هذا القدم سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه ، وكذلك أخي الشيخ أفضل الدين رضي الله تعالى عنه ، وربما نازعهما أحد في ذلك ، فيخبرانه بأوقات كل معصية ، وأنها تكررت منه كذا كذا مرة ، أو لم تتكرر فيرجع إليهما ، ويستغفر.

وكان على هذا القدم أيضاً الشيخ محيسن المجذوب ، المدفون بتربة جانم الحمزاوي بالقرب من الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ، كنت جالساً عنده ، وكان برجله اليمنى أكلة ، فقال له إنسان : الذي طلع في هذه إن شاء الله يطلع لك في الرجل الأخرى ، مازحاً

معه ، فقال له الشيخ : ما يستحق ذلك إلا الذي أمسك امرأة جاره فوق الفرن في بلده في الوقت الفلاني ، فاصفر لون الرجل ، فقلت: له ما لك؟ فقال هذا الأمر صحيح وله سبع وخمسون سنة ، ثم صار يتعجب ، ويقول: كأن هذا الشيخ في أين وأنا في أين.

ثم من فوائد معرفة صوت الشريف من غيره مبادرتنا إلى تعظيمه والأدب معه ، ولا نتوقف على إظهار علامة خضراء في عمامته ، أو ثبوت نسبه عند حاكم.

وكذلك من فوائد معرفتي لكلام النبوة من غيره ، أنني أبادر إلى العمل به من غير معرفة ما قاله المحدثون فيه من صحة ، أو حسن ، أو ضعف ، وأقدمه على ما شككت فيه.

وكذلك من فوائد معرفتي بالكلام الزور ، عدم تصديقي قائله ، وعدم الأكل من غلته أو أجرته إن كان مكتوب رزقه ، أو بيت ، وهذه الأمور قد أعطاها الله تبارك وتعالى لي من حين كنت صغيراً.

وقد كنت وأنا صغير أسمع الخطيب يروي حديثاً يقول فيه: «**الليل والنهار مطيتان فأحسنوا السير عليهما، واعلموا أن أحداً لا يموت حتى يرى حسن عمله وسوء عمله**»[1] فكنت أقول في نفسي تركيب هذا الكلام ليس فيه فصاحة لركاكته ، حتى رأيت الحافظ المنذري نبه عليه في الترغيب والترهيب ، وقال: في إسناده من لا يوثق به ، فلا تسأل يا أخي عما حصل عندي من السرور لما وافقني الحفاظ على ما كان عندي من طريقتهم الظاهرة ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كراهتي للأكل من الصدقات الخاصة إلا لضرورة شرعية ، لظهور المنة فيها بخلاف العامة ، كالموقوف على الفقراء والمساكين ، فلا أكره الأكل منه ، لكن بشرط الحاجة ، وسيأتي في هذه المنن كراهة أكلي من خبز الخوانق الموقوف على الصوفية ، لعزة اجتماع شروط الصوفية المنطلق إليها الاسم في عرف أهل الطريق ، كالجنيد ، وأضرابه ، فراجعه.

وأما دراهم الزكاة المفروضة فلا أتذكر أني أكلت شيئاً منها ، ولا لبست ، وعلى ما تقدم ذكره أوائل الكتاب من أنني من ذرية محمد بن الحنفية رضي الله عنه ، فأنا شريف فيحرم علي الصدقات ، وبتقدير أنني لست بشريف ، فلي التعفف عن أوساخ الناس ، وإن قبلت شيئاً من الزكاة في السنين الخالية فإنما كان على اسم المحاويج من الفقراء والأرامل والعجائز.

وقد منع الناس زكاة أموالهم في سنة تسع وخمسين وما بعدها ، فلم يأت الفقراء شيء منها لقلة المكاسب وضعف يقينهم ، فأسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا القناعة حتى نلقاه آمين ،

---

(١) أخرج نحوه الديلمي في مسند الفردوس (٥٤٥٦)، وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٤/ ١٧٩).

فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: استئذاني بقلبي لربي جل وعلا ، أو لرسوله ﷺ ، أو لأحد المجتهدين رضي الله تعالى عنهم أو غيرهم ، إذا كنت أقرأ في قرآن ، أو حديث ، أو علم ، وأردت أن أكلم أحداً في حاجة ، فأقول بقلبي ولساني: دستور يا رب أكلم عبدك في حاجة كذا ، ودستور يا رسول الله أو دستور يا محمد بن إدريس مثلاً أن أكلم فلاناً ، كل ذلك مراعاة للأدب مع الله عز وجل ، ومع رسوله ﷺ ، ومع العلماء رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، ولهذا الأدب حلاوة عظيمة يجدها صاحبه لا يعادلها حلاوة ، ثم إن غفلت عن الاستئذان ، وكلمت إنساناً فلابد من استغفاري لله تبارك وتعالى حتى يلقي الله تعالى في قلبي أنه قبل استغفاري.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رضي الله تعالى عنه إذا كلم إنساناً غافلاً ، وهو يقرأ القرآن ، يستغفر الله عز وجل ألف مرة ، وإن كلم أحداً وهو يقرأ في حديث رسول الله ﷺ يستغفر الله تبارك وتعالى أكثر من سبعين مرة ، وإن كلم شخصاً وهو يقرأ في كلام أحد من العلماء رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم يستغفر الله جل وعلا ثلاث مرات ، ولم أر لهذا الأدب فاعلاً الآن من أقراني غيره فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: جعلي رسول الله ﷺ واسطة بيني وبين الله تبارك وتعالى في كل حاجة طلبتها لأنه ﷺ كبير الحضرة الإلهية ، فسؤالنا ربنا جل وعلا بلا واسطته سوء أدب معه ﷺ ، ولأنا لا نعرف الأدب مع الله تبارك وتعالى ، لعدم إحاطتنا به عز وجل بخلاف رسول الله ﷺ ، فافهم ذلك. وفي كلام سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنه: إياك أن تحذف واسطة رسول الله ﷺ ، وتكلم الله عز وجل بلا واسطته ، فإنك تكون إذ ذاك مبتدعاً لا متبعاً ، والكامل لا يطأ مكاناً لا يرى فيه قدم الاتباع لنبيه ﷺ فيه أبداً انتهى ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كراهتي لمد رجلي في ساعة من ليل أو نهار إلا بعد قولي: دستور يا الله أمد رجلي لأريحها من القرفصاء ، ثم أمدها بعد ذلك ، وكذلك الحكم في مدها نحو المدينة المشرفة ، أو نحو ولي من الأولياء لا أمدها ناحية أحد منهم ، حتى أقول دستور يا سيد المرسلين ، أو دستور يا سيدي عبد القادر يا جيلاني ، أو يا سيدي أحمد يا ابن الرفاعي ، أو يا سيدي أحمد يا بدوي أو يا سيدي إبراهيم يا دسوقي ، ونحوهم من الأولياء الأحياء والأموات كل ذلك لشهودي أنني بين يدي الله تبارك وتعالى ، أو بين يدي رسوله ﷺ أو أئمة دينه رضي الله تعالى عنهم على الدوام ، شعرت بذلك أو لم أشعر ، فإن لم يكن ذلك كشفاً كان إيماناً.

ولهذا الأدب حلاوة عظيمة لا يقدر قدرها ، ثم إني إذا حصل لي وجع من كثرة ضم رجلي بحيث إني أعرف أن مثل ذلك الوجع ، يعذرني الله تبارك وتعالى فيه بقرينة قواعد الشريعة ، فحينئذ لا يتأكد علي الاستئذان.

وقد رأيت الأم إذا خافت على ولدها من القرفصاء تصير تمدد رجلي ولدها ، كلما قبضهما رحمة به ، مع أن رحمتها بولدها دون رحمة الله تبارك وتعالى بعبده بيقين ، فإذا كانت الأم تمدد رجلي ولدها مع ضعف رحمتها ، فالله تبارك وتعالى أرحم أو أشفق ، ولم أر لهذا الأدب فاعلاً من أهل عصري إلا قليلاً ، فاعمل على التخلق بذلك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شدة كراهتي للنوم على حدث أكبر أو أصغر ظاهر على الجسد ، أو باطن من حقد أو مكر أو خداع أو غل أو حسد ، أو تنقيص أحد من المسلمين إلا بطريق شرعي كل ذلك مراعاة للأدب مع الحضرة التي ننتقل إليها بعد النوم ، فإن الأرواح إذا ارتفعت عن الجسم إلى السماء لا يؤذن لها في السجود بين يدي الله تبارك وتعالى إلا إذا نامت على طهارة ظاهرة وباطنة ، فإن لم تكن طاهرة كما ذكرنا ، منعت من السجود والدخول لحضرة الله عز وجل فتصير واقفة خارج الحضرة ، لا تقدر على السجود ، ولو أنها سجدت خارج الحضرة على حدث لم تقبل في عالم الأرواح ، فصلاتها باطلة ، وتأثم بذلك إثماً يشاكل مقام صاحبها ، ويستروح لما قلناه بقوله ﷺ في خروج النساء لصلاة العيد «**والحيض يعتزلن المصلى**»(١) مع أن المصلى ليس هو بمسجد ، إنما ذلك لكونه محلاً يسجد الناس فيه ، فافهم ، وما يعقلها إلا العالمون.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول لسيدي أفضل الدين: إياك أن تنام على حدث ظاهر أو باطن من محبة الدنيا وشهواتها ، فربما أخذ الله تعالى بروحك تلك الليلة ، فتلقى الله تعالى وهو عليك غضبان ، بحسب قبح ذلك الذنب الذي نمت عليه.

وقد قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [النحل: ٤٥] الآية.

وفي الحديث أيضاً مرفوعاً «**يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»(٢) وفي

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب وجوب الصلاة في الثياب (٣٥١) ، ومسلم ، كتاب العيدين ، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى (٨٩٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٣١٩) ، والترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في أخذ المال بحقه (٢٣٧٨) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٣) ، وأحمد في مسنده (٨٢١٢)

الحديث أيضاً: «إن الله تعالى منذ خلق الدنيا لم ينظر إليها»[1] أي نظر رضا عنها أو عن محبها ، وإلا فهو تبارك وتعالى ينظر إلهيا نظر تدبير ، ولولا ذلك لذهبت في علم الله جل وعلا ، ولم يبق لها وجود ، فافهم ذلك ، فمن نام على محبة الدنيا ومات في تلك النومة حشر مع مبغوض لله لم ينظر إليه منذ خلقه.

وهذا الأمر قل من يتنبه له حتى يتوب منه بل غالب الناس لا يعد محبته للدنيا ذنباً أبداً أو غاب عن هؤلاء قول المسيح عليه السلام «حب الدنيا رأس كل خطيئة» فلم يخرج عن محبتها خطيئة واحدة ، انتهى.

وكذلك ينبغي للإنسان مراعاة التوبة من جميع الذنوب والشهوات أيضاً ، إذا استيقظ من منامه ، فربما مات بغتة فلم يمهل عليه ملك الموت حتى يتوب.

وقد كان مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه يجمع أصحابه ، ويقول لهم: تعالوا نستغفر من الذنب الذي لا يهتدي أحد للتوبة منه ، وهو محبة الدنيا.

فواظب يا أخي على التوبة من ذلك ، وواظب على النوم على طهارة الظاهر والباطن كما ذكرناه لك ، ولا تترخص تندم في الآخرة والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: شدة كراهتي للنوم في الثلث الآخر من الليل أشد من كراهتي للمعاصي الظاهرة ، وكذلك أكره النوم ليلتي العيدين ، وليلة الجمعة ، وليلة النصف من شعبان ، أو ليالي القدر ونحو ذلك إلا غلبة لا اختياراً ، وربما نمت جالساً لحرصي على اليقظة ، وذلك لا ينقص رأس مال الفقير ، بخلاف نوم الاختيار.

وهذا الخلق من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليّ ، ومن أين لمثلي أن يوقفه الله تعالى بين يديه في الظلام مع أوليائه وأصفيائه ، وإن لم ألحق بهم ، فإن صفوف المواكب الإلهية على هيئة صفوف الدنيا ، ولله المثل الأعلى ، فيقف الأكابر في حضرة الشهود الكبرى التي ما فوقها مرتبة ، ومن دونهم قريباً منهم ، وهكذا إلى آخر من يحضروا ، ربما تأخرت عن المبادرة إلى موقفي المعتاد ، فيقول لي جاري في الموقف: قد تخلفت هذه الليلة عن عادتك ، وهناك شخص لم يزل يمزح معي ، ويقول إذا رآني قد جاء المتملق على الله ، لكثرة ما يسمعني أدعو لنفسي ولإخواني.

واعلم يا أخي أن الموكب الإلهي تارة ينصب من أول النصف الثاني ، وتارة ينصب من أول الثلث ، كما يعرف ذلك أرباب القلوب ، إلا ليلة الجمعة فإنه ينصب من غروب الشمس إلى خروج الإمام من صلاة الصبح ، كما ورد في حديث رواه الإمام سنيد في تفسيره فينبغي لكل مسلم أن لا يغفل عن سؤال ربه ليلة الجمعة من الغروب إلى صلاة الفجر ، وذلك لأن

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٤٥٨) ،

الملك ما كل وقت يتجرأ عبده على سؤاله فإذا رفع الحجب عن قلوب عباده وقال لهم هل من سائل؟ وهل من مبتلى؟ هل من مستغفر؟ ونحو ذلك فقد أذن لهم في السؤال ، وما أذن لهم في ذلك إلا وهو تبارك وتعالى يريد أن يجيب دعاءهم ، كما صرح به في الحديث ، فلا يغفل عن الدعاء في ذلك الوقت إلا كل محروم.

وتأمل يا أخي أصحاب السلطان إذا رأوا من يتخلف عن طلوع الموكب ، كيف يقطعون جامكيته ، ويمحون اسمه من ديوان عسكر السلطان ، فيصير ممقوتاً بين الناس ، وكذلك حكم الفقير إذا نام في وقت المواكب الإلهية ، ربما يمحون اسمه من ديوان الولاية وكان سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه يقول ما من ليلة إلا وينزل فيها نثار من السماء ، فيفرق على المستيقظين ويحرم النائمون ، انتهى. وقد مكث ابن المؤذن بناحية منية أبي عبد الله أربعين سنة لا يضع جنبه الأرض ، فكان سيدي محمد السروي يقول لم يدع ابن المؤذن مدداً ينزل من السماء في ليل أو نهار إلا وله فيه نصيب ، فاعمل على التخلق بذلك ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

الباب الرابع
في ذكر جملة أخرى من الأخلاق

فأقول وبالله التوفيق: وهو حسبي ونعم الوكيل.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليَّ: كثرة ثنائي على الله تبارك وتعالى إذا نزل عليَّ ما يسوؤني عادة لعلمي بأن تقديراته تعالى كلها على عباده عين الحكمة لا بالحكمة لأنها لو كانت بالحكمة لكانت أفعاله تعالى معلولة تحت الحكمة ومن هنا كان لا يجوز السخط على شيء من أفعاله تعالى قط، ومن سخط فهو جاهل، ولو كشف للعبد عما يسوؤه من الواردات الإلهية، ورأى ما أعد الله تبارك وتعالى له في نظير صبره عليها لكان هو يسأل الله تبارك وتعالى وقوع ذلك، وأيضاً فإن كل واقع في الوجود بإرادة إلهية، وسبق علم، فلا يصح تغييره.

وفي الحديث: «**أشدُ الناسِ بلاءً الأنبياء ثُمَّ الأمثلُ فالأمثل**»[1] ومعلومٌ أنَّ الأنبياء والأولياء محبُّون له تبارك وتعالى، وما يفعل الحق بمحبوبه إلا ما يقربه إليه، وإيضاح ذلك أنَّ الحق تعالى متعرف متعطف بكل شيء ورد من حضرته، ليعرف أهل حضرته مقدار الوصل والهجر، ومقدار النعمة والبلاء، ومن تأمل الداء بعين الاستبصار وجده دواء وخير، هذا في البلايا في الجسد والمال والولد ونحوهم، وأما البلاء في الدين فذلك مؤذن بغضب الله تبارك وتعالى على العبد، فافهم، وإيَّاك والغلط وقد قلت في هذا المقام:

يا رب لا أحصي عليك ثناء ... في كل أمر سرني أو ساء
أنت الحكيم وعين فعلك حكمة ... قد عمت السراء والضراء
بكليهما متعرف متعطف ... فالداء في الدنيا نراه دواء

فافهم، ذلك، واعمل على التخلق به، والله يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب المرض، باب أشد الناس بلاءً الأنبياء، والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (٤٠٢٣)، وأحمد في مسنده (١٤٨٤).

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: أنّي لا أتداوى قط من مرض إلا إن اشتد ، بحيث يشغلني الالتفات إليه عن كمال الإقبال على الله تبارك وتعالى ، والحضور معه ، وما دمت أقدر على الحضور النسبي في عباداتي فلا أتداوى ، ثم لا بد لي مع التداوي بشرطه من مراعاة نية التداوي لحق الغير لأخرج عن حظ نفسي من محبة العافية بالطبع لا لكون الحق تبارك وتعالى هو المالك لجسمي ، إذ العارف إنما يتداوى لأجل كون ذاته أمة لله تبارك وتعالى لا لنفسه هو ، ولولا أنّها ملك لله تعالى ما اعتنوا بها في التداوي كل ذلك الاعتناء ، ففرق بين من يتداوى قياماً بواجب حق ربه عز وجل وبين من يتداوى قياماً بواجب حق نفسه وما يعقلها إلا العالمون.

ونظير ذلك محبتي للعفو من قبل الحق تبارك وتعالى ، فلولا أني أعلم محبة الحق تعالى له ما طلبته منه ، ومن مقام الأكابر أنهم لا يعتنون بشيء إلا إن رأوا وجهاً فيه للحق تبارك وتعالى دون أنفسهم ، فافهم ذلك ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: شدة كراهتي لخطاب الحق جل وعلا ومناجاته إذا تلطخ ثوبي أو بدني عذرة ولو من مرض حصل أونحوه إلا إن وجب ذلك الخطاب تعظيماً لحضرة مناجاة الحق جلّ وعلا ، لا سيما إن حصل لي إدرار بول أو مشي بطن ، فمن خاطب الله تبارك وتعالى في حال تقذر بدنه أو ثيابه ، فهو خارج عن أدب الأكابر ، وكثيراً ما أرسل إلى أحد من الإخوان ليحادثني بأمور الدنيا ، ويشغلني عن مراقبة الحق تبارك وتعالى في تلك الحالة القذرة ، حتى لا أستحضر أنّي بين يدي ربي ، تعظيماً لجنابه عز وجل لا لعلة أخرى.

ومن هنا بخّرت الأكابر ثيابها للجمعة والجماعات ، وبسطوا لصلاتهم السجادات النفيسة المبخّرة تعظيماً لحضرة خطاب الله تبارك وتعالى المشار إليها بنحو حديث: «**إنّ الله في قبلة أحدكم فلا يبصق تجاه وجهه**»(١) وخوفاً أن يدوس أحد برجله في محل يتخيل فيه وجود قرب الحق تبارك وتعالى ، حين يصير يعبده ، كأنه يراه ففرش السجادة مطلوب ليتوقى الماشي الدوس برجله إذا رآها مفروشة ، فافهم ذلك ترشد والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حضوري مع الله تبارك وتعالى عند أكلي الفاكهة والحلوى وغيرهما من الشهوات كالمناكح والملابس ، فلا أفعل شيئاً من ذلك غافلاً عن الله تبارك وتعالى ، وإنّما أفعل بحضور ونية صالحة كنية مداواة النفس بميلها لتوافقني فيما أريد منها ، من طاعة الله عز وجل ، فإنّ لسان حالها يقول لصاحبها: كن معي في بعض أغراضي وإلا صرعتك ، وهذا خلق غريب قل أن يوجد في النّاس اليوم ، بل إذا رأى أحدهم الشهوة

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (٣٠١٤) ، والنسائي ، كتاب المساجد ، باب النهي عن أن يتنخم الرجل في قبلة المسجد (٧٢٤).

جذب قلبه إليها ، ونسي ربه ومن هنا منع الشرع من الأكل في الصلاة ، لأنَّ شهوة الأكل ولذته تصرف قلبه عن الله تعالى ، فلا يقدر على كمال الإقبال عليه ، فعلم أن كل من ادعى ما ذكرناه من الأدب والحضور قل حجابه عن الله عز وجل ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ: زيادة إكرامي لليتيم ، ومراعاتي له بعد موت والده أكثر مما كنت أراعيه ، لأجل والده ، وكذلك أزيد في الغض عن النظر إلى المرأة التي غاب عنها زوجها ، أكثر من غض طرفي عنها إذا كان زوجها حاضراً لا سيما إن كان زوجها مجاوراً بمكة أو المدينة ، أوكان شريفاً أوكانت المرأة شريفة أو من بنات الأولياء ، فإنِّي أزيد في غض الطرف عنها أكثر مما أغض إذا سافر زوجها لغير مكة والمدينة لكون زوجها يصير في حضرة الله تبارك وتعالى ، وحضرة رسوله ﷺ والشريفة بضعة من رسول الله ﷺ وبنت الولي ملحقة به ، فمن تعرض لحرمه أو حرم الأولياء ، فقد تعرض لعقوبات الله عز وجل.

وهذا خلق غريب. لم أر من تخلق به من أقراني إلا القليل ، وإيضاح ذلك أنه يتأكد على العبد زيادة التعظيم والإكرام لكل من كان في كفالة الحق جلَّ وعلا المحضة أكثر من تعظيم من كان في كفالة الحق تبارك وتعالى المخلوطة بكفالة الخلق عادة ، فلا بد من تمييز الحق جلَّ وعلا بزيادة تعظيم ، وكل من راعى اليتيم ، أو غض عن النظر إلى المرأة التي غاب عنها زوجها مثل مراعاته لها حال حياة الوالد ، أو حضور الزوج ، فقد ساوى في التعظيم بين الله وبين خلقه وأساء الأدب.

وقد وقع لي أنني ساويت في الغض عن رؤية وجه جاريتي «دام السرور» حين غاب عنها زوجها ، كحضوره فلم أزد في الغض حين سافر ، فعوتبت على ذلك في المنام وقيل لي ميز الحق تعالى بزيادة غض على ما كنت عليه حين حضور زوجها ، فقلت سمعاًوطاعة ، فإذا كان من لم يزد في الغض يعاتب فكيف بمن يخون زوجة جاره ويفسق فيها ، ويسارق النظر إليها كالمتلصص ، نسأل الله تعالى العفو والعافيـة والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ: نفرتي من كثرة اعتقاد أحد من الأمراء وغيرهم فيَّ ، وإن وقع أنَّ أحداً مدحني عند أمير حتى رفعني فوق جميع أقراني ، توجهت إلى الله تبارك وتعالى في أن يحرك لي أحداً من الأعداء ، فينقصني عنده أو سألت الله تبارك وتعالى أن يحول باطنه عن الاعتقاد في حتى يصير لا يلتفت إليَّ بوجه من الوجوه وذلك فتحاً لباب الراحة لنفسي ، وسداً لباب تنقيص أحد من إخواني برفعتي فوقه عند ذلك الأمير ، وهذا الخلق لم أجد له فاعلاً من أقراني ، فاعمل على التخلق به ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ: عدم إجابتي لمن دعاني إلى التصدر لصلاة الاستسقاء

ودفع الوباء لما في ذلك من تحريك نفس الحسدة من الأقران ، وقد أرسل إليَّ مرة الباشاه محمد قصاده ، أن أطلع مع العلماء الجبل المقطم لدفع الوباء والبلايا في سنة إحدى وستين وتسعمائة ، بشرط أن أكون أنا الداعي ، والناس كلهم يؤمنون ، فلم أجبه إلا إلى الحضور خوفاً من تحرك نفس بعض الناس عليَّ ، ومع ذلك ، فلا تسأل يا أخي ، ما حصل من قول الباشاه ، لا يدعو إلا فلان من الغيبة والتنقيص لي عند الباشاه ، وهؤلاء ، وإن كانوا صادقين ، في تنقيصي وتنفير الأكابر من الاعتقاد فيَّ لكن ما كل أحد يحتمل مثل ذلك ، وقد تقدم في هذه المنن أن مما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ محبتي لمن ينفر الولاة عني أكثر ممن يحببهم فيَّ ، وأنه خلق غريب ، لا يكاد يوجد في أحد من أقراني ، وقد شكرت فضل من غير اعتقاد الباشاه محمد فيَّ ، فجزاه الله عني خيراً في الدنيا والآخرة، فإنه سترني بين العباد، فافهم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ: أدبي مع شيخي الشيخ محمد الشناوي رضي الله تعالى عنه ، ومع شيخي الشيخ نور الدين الشوني رضي الله تعالى عنه في دوام السهر معهما فلا أتذكر أنني نمت في وقت يكون أحدهما مستيقظاً فيه ، وذلك من أكبر نعم الله تعالى عليَّ لكونه وسيلة إلى دوام السهر بين يدي الله عز وجل ، ومن لم يحكم مقام السهر بين يدي شيخه لا يصح له مقام السهر بين يدي الله عز وجل ، وقبيح على المريد أن ينام وشيخه جالس بين يدي الله تبارك وتعالى في مثل ليلة الجمعة أو غيرها ، بل ذلك علامة على كذبه في محبة الله جلَّ وعلا ، فضلاً عن محبته للشيخ ، فإنه لو كان يحب الشيخ لاستغنم أوقات الخلوة به ، كما أنه لو كان يحب الله عز وجل المحبة المعروفة بين القوم لما أخذه نوم إلا بعد أن يصرع كذا وكذا مرة.

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «**يا داود كذب من ادعى محبتي ، فإذا جنَّه الليل نام عني**»[1] انتهى فشهد الحق تبارك وتعالى على من نام في الليل اختياراً بكذبه في محبته ، وفي زبور داود عليه السلام: «**يا داود جعلت النهار للمعاش وجعلت الليل للسمر معي فاشتغلتم عنِّي في النهار ونمتم عن مجالستي في الليل فلا أنتم في النَّهار معي ولا في الليل**»[2] انتهى ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تعالى يتولى هداك ، فالحمد لله رب العالمين.

---

(١) ورد في سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤/ ٤٢٤) عن الحسن بن زياد وقال: أخذ الفضيل بن عياض بيدي فقال: يا حسن ينزل الله إلى السماء الدنيا «فيقول: كذب من ادعى محبتي فإذا جنه الليل نام عني».

(٢) لم أجده.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليَّ: عدم إظهاري لنظام الطريق إذا دخل عليَّ أمير أو كبير ، فلا أقول للمداح الذي ينشد للفقراء أسمعنا شيئاً بحضرة ذلك الأمير إلا بنية صالحة ، ولا أقول للأمير إذا دخل بعد أن انفض أهل مجلس الذكر ، وقراءة الورد مثلاً ، سبحان من عجل للفقراء نعيم الجنات في الدنيا في مجالس ذكرهم ، وقد نزل على الفقراء في هذا اليوم رحمة حتى عمتهم ، وحصل مدد كبير ، وكنت أود أنَّك دخلت قبل انفضاضهم ليحصل لك الرحمة ، وربما كان ذلك القول من شيخ الزاوية للأمير رياء وسمعة لظنه في الأمير أنه ظن أنه قليل الذكر والاشتغال بالله عز وجل ، حين رآه جالساً لا فقراء عنده ولا ذكر.

وهذا يقع فيه كثير من المتمشيخين بالنصب إذا زارهم الأمراء ، ولو أنهم كانوا صادقين لم يذكروا مثل ذلك للأمير ، لأنه ليس بمريد لهم ، ولا سألهم هل قرأتم وردكم اليوم ، ولا قال أسمعنا شيئاً من كلام القوم والفقراء ، فأي أمر ألجأ سيدي الشيخ أن يقول ما قال ، فاعلم ذلك ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ: مشاركتي لكل من بلغني أنَّه في ضيق في جميع ما يصيبه ، وينزل عليه من البلايا والمحن ، لا سيما السلطان الأعظم ، فإني مرضت لمرضه مرات عديدة ، وجاءني وشكر من فضلي ، واطلع على ذلك أهل الكشف وصاروا يتحدثون فيما بينهم ، أنني لولا حملت عن السلطان وجع رجله لما سافر لقتال الروافض ما كان حصل له خير ، وذلك من علامات صحة ارتباطي مع إمامي.

وممَّا يقع لي أنه إذا كان عندنا امرأة في المخاض أحسُّ بأني أطلق مثلها ، إذا بلغني ما هي فيه من الوجع ، وكذلك إذا بلغني أن أحداً يعاقب في بيت الوالي أحسُّ بالمقارع ، والكسارات ، وعصر الرأس ، ووضع الخودة المحمَّاة بالنار على رأسي حتى أنِّي أحسُّ بسيلان دهن رأسي وهو نازل ناحية أذني ، فأضع يدي أمسحه لاعتقادي أنه سال وخرج إلى ظاهرها ، وهذا أمر عزيز وقوعه في الفقراء ، ولا يعرف هذا الحال إلا من ذاقه ، وكان ذلك من وظيفة سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه ، وسيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه.

وورثت ذلك من سيدي علي الخواص رضي الله تبارك وتعالى عنه ، وسبق سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تبارك وتعالى عنه إلى مثل ذلك سفيان الثوري رضي الله تبارك وتعالى عنه ، وميمون بن مهران رضي الله تبارك وتعالى عنه والفضيل بن عياض رضي الله تبارك وتعالى عنه وأضرابهم رضي الله تبارك وتعالى عنهم أجمعين ، فلا تطلع الشمس ، ولا تغرب على صاحب هذا المقام إلا وبدنه ذائب ، كأنه شرب رطلاً من السم ، والله إنِّي لأحسُّ في بعض الأوقات أن جسمي كله من فرقي إلى قدمي كالدمل الذي قرب انفجاره.

وقد حكيت ذلك مرة لأخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى فقال لي: والله إنَّ لي منذ

عشر سنين ، وأنا أحسُّ بأنَّ جسمي في طبق من نحاس على نار من غير ماء ولحمي ودهني يطشطش على النار وأنا صابر ، فقلت له: مم ذلك: فقال: من كثرة توجه الناس إليَّ في شدائدهم ، انتهى.

فعلم أنَّ أهل هذا المقام لم يزل أحدهم مريضاً لتواصل وجود البلاء في الوجود على اختلاف طبقاته ، فلا يستريح إلا في وقت لم يتوجه إليه مكروب ، ويتعين ، ولم يبلغه أنَّ أحداً في بلاء ولا عقوبة يتعين عليه مساعدته فيها ، هذا هو حظه من الراحة في الدنيا ، ومن أعظم علامة على صاحب هذا المقام وجود الصداع والضارب الشديد في رأسه ، حتى يحس بأنَّ شخصاً ذا قوة شديدة يضرب رأسه بطبر أو دقماق ليلاً ونهاراً ، أو أنَّ رأسه مرضوض بين حجري معصرة ، فيتمنى الموت فلا يجاب.

ومن أدلة ذلك ما رواه الطبراني وغيره مرفوعاً: «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»[1] وحديث الترمذي وغيره مرفوعاً: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا مرض منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»[2].

وممن روينا عنه أنه كان إذا نزل بالمسلمين هم أو بلاء يمرض له أيَّاماً السيد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وعمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه ، والشعبي رضي الله تعالى عنه ، فكانوا يمرضون ويعادون كما تعاد المرضى ، فإذا ارتفع ذلك الهم أو البلاء عن المسلمين خلصوا من المرض لوقتهم ، حتى كأنه لم يكن بهم مرض.

ويقع لي بحمد الله تبارك وتعالى مثل ذلك كثيراً ، فربما أتوني بالطبيب ، فيصف لي دواء فيطول جلوسه عندي ساعة ، فأشفى من المرض كأن لم أكن مريضاً فيتعجب الطبيب من ذلك.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه إذا نزل بأحد بلاء يقول له: أكثر من الاستغفار ليلاً ونهاراً ، ويقول: ما ثم أسرع لرفع البلاء من كثرة الاستغفار ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. قال: وأقل الاستغفار الدافع لغالب البلاء عندي الآن ألف مرة صباحاً وألف مرة مساء وسمعته رضي الله تبارك وتعالى عنه مرات يقول: من ضحك ، أو جامع زوجته ، أو لبس ثوباً مبخَّراً أو ذهب إلى مواضع التنزهات أيَّام نزول البلاء على المسلمين ، فهو والبهائم سواء ، انتهى.

ومثل حال أهل هذا الزمان ما حكي أنَّ شخصاً مرَّ على شخص خرج صرمه ، وهو مدلى

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٤٧٣) ، والصغير (٩٠٧).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم (٦٠١١) ، ومسلم كتاب البر والصلة ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦).

من دبره فقال له أعطني هذه القطعة النازلة أطعمها لقطي فإنه جيعان ، انتهى. ولعمري ليس عند مثل هذا من تحمل هم أخيه ذرة واحدة ، وسيأتي إيضاح ذلك إن شاء الله تبارك وتعالى في مواضع من هذا الكتاب ، فاعلم ذلك وراجعه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليَّ: مساعدتي لأصحاب النوبة في سائر أقطار الأرض ، في حفظ أدراكهم من براري وقفار ومدائن وبحار وقرى وجبال ، فأطوف بقلبي على جميع أقطار الأرض في نحو ثلاث درج وإيضاح ذلك أن حكم القلب حكم المرآة الكرة المعلقة بين السماء والأرض ، فيرتسم فيها جميع العلويات والسفليات ويصير البصر القلبي يدركها كلها على التفصيل ، فالمدار على قوة وسع دائرة البصر لا غير ، وإن شككت يا أخي في ذلك فامتحن ذلك بمرآة صغيرة تضعها فوق منارة عالية ، فإنك إذا قابلتها بمدينة مصر كاملة تجدها كلها مرتسمة في تلك المرآة الصغيرة ، فاعمل يا أخي على جلاء مرآة قلبك من الصدأ أو الغبار إن أردت العمل بهذا الخلق ، فإنك تطوف أقاليم الأرض كلها في مقدار ساعة.

ومما وقع لي أنَّ شخصاً من بلاد الحبشة أسلم عندنا في مصر ، فسألته عن بلده وعن الكنيسة الكبيرة التي في آخر زقاق داره ، وعن شجرة النبق التي في دار جاره فصدقني على ذلك ، ثم قال للحاضرين هذا صالح ، لاطلاعي على بلده ودار جاره مع أنِّي ما رحت إليها قط بجسمي ، وإنَّما نظرت إليها بقلبي.

وكذلك وقع لي مع خادم نبي الله لوط عليه السلام ، لمَّا قدم علينا مصر ، فقلت له: ما فعل شجر الليمون المغرس تجاه مقام السيد لوط ، فقال: موجود لم يقطع منه شيء ، مع أنني لم أره إلا بقلبي.

وفي كلام سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه أن القلب إذا انجلى من محبة الدنيا وشهواتها صار كالبلور ، وأخبر صاحبه بما مضى ، وبما هوآت من أحوال النَّاس ، وإذا صدأ قلب الفقير حدَّثه بأباطيل يغيب معها رشد الرجل وعقله ، انتهى.

وصورة طوافي كل ليلة على مصر وجميع أقاليم الأرض أنني أشير بأصبعي إلى أزقة جميع المدائن والقرى والبراري والبحار ، وأناأقول الله الله ، فأبدأ بمصر العتيقة ، ثم بالقاهرة ، ثم بقراها ، حتى أصل إلى مدينة غزة ، ثم إلى القدس ، ثم إلى الشام ، ثم إلى حلب ، ثم إلى بلاد العجم ، ثم إلى بلاد التركية ، ثم إلى بلاد الروم ، ثم أعدي من البحر المحيط إلى بلاد المغرب ، فأطوف عليها بلداً بلداً حتى أجيء إلى اسكندرية ثم أعطف منها إلى دمياط ، ثم منها إلى أقصى الصعيد ، ثم إلى أقصى بلاد العبيد ، ثم إلى بلاد الرجرأ ، وهي إقطاع جدي الخامس ، ثم أعطف إلى بلاد التكرور ، وبلاد السكوت ، ومنها إلى بلاد النجاشي ، ثم إلى أقصى بلاد الحبشة ، وهي سفر عشر سنين ، ثم إلى بلاد الهند ، ثم إلى بلاد السند ، ثم إلى بلاد الصين ، ثم أرجع إلى بلاد اليمن ، ثم إلى مكة ، ثم أخرج من باب المعلى إلى

الدرب الحجازي إلى بدر ، ثم إلى الصفراء ثم إلى مدينة النبي ﷺ ، فأستأذنه عند باب السور ، ثم أدخل حتى أقف بين يديه ﷺ ، فأصلي وأسلم عليه وعلى صاحبيه ، وأزور من في البقيع ، ثم أقول: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» ، وما أرجع إلى داري بمصر إلا وأنا ألهث من شدة التعب ، كأني كنت حاملاً جبلاً عظيماً ولا أعلم أحداً سبقني إلى مثل هذا الطواف.

وكان ابتداء حصول هذا المقام لي في سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ، فرأيت نفسي في محفة طائرة فطافت بي سائر أقطار الأرض في لحظة ، وكانت تطوف بي على قبور المشايخ من فوق أضرحتهم إلا ضريح سيدي أحمد البدوي ، وضريح سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله تبارك وتعالى عنهما فإن المحفة نزلت بي من تحت عتبة كل من أحدهما ، ومرت من تحت قبره ، ولم أعرف إلى الآن الحكمة في تخصيص هذين الشيخين بذلك نفعنا الله تعالى بهما والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ: استئذاني أصحاب النوبة نفعنا الله ببركاتهم ، كلما خرجت من بيتي أو بلدي ، أو دخلت ، وذلك لأكون تحت نظرهم حتى أرجع سالماً إن شاء الله تعالى ، وكذلك لا أطلع القلعة أو أدخل بيت حاكم في شفاعة مثلاً ، حتى أقول بتوجه تام عند أول عتبة تلاقيني من أعتاب القلعة أو ذلك الأمير: دستور يا أصحاب النوبة ، جبهتي تحت نعالكم اليوم ، فلاحظوني مع هذا الأمير ، أو هذا القاضي ، أو هذا الظالم مثلاً ، فلا أخرج بحمد الله تعالى من عنده إلا منصوراً مكرماً مبجلاً ، كما وقع لي ذلك مع الباشا عليَّ كما مر إيضاحه ، اللهم إلا أن أكون مبطلاً ، والعياذ بالله تعالى ، فإن أصحاب النوبة لا يساعدونني فليحرر صاحب الحاجة نفسه إن طلب النصرة على يد أصحاب النوبة رضي الله تعالى عنهم.

وهذا الذي ذكرناه قل من يتنبه له من فقراء هذا الزمان ، بل رأيت بعضهم ينكر وجود أصحاب النوبة أصلاً ، وهذا يدل على أنه لم يدخل دائرة الولاية قط ، فإنه لو دخلها لعرف أهلها على اختلاف طبقاتهم ، كما يعرف جماعة السلطان بعضهم بعضاً ، وبعضهم يظن أن أصحاب النوبة هم الأولياء المرصدون لتربية المريدين ، وذلك جهل عظيم ، إذ لا يلزم من كون أحدهم مسلكاً أن يكون بيده تصريف ، كما يعرف ذلك من له أدنى خلطة بأهل الطريق.

وقد كان سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه معه ثلاثة أرباع التصريف في مصر وقراها ، وكان يرسل الحوائج في بعض الأوقات إلى أصحاب التصريف في الربع الباقي ، رضي الله تعالى عنه ، وكان كثيراً ما يرسل الحوائج للشيخ محيسن المجذوب ، لكونه كان من أصحاب التصريف في الربع الباقي في مصر ، وقراها ، وجاء شخص من تجار بحر الهند إلى سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه يأخذ خاطره ويسأله بالله تعالى أن يحفظ مراكبه ببحر

الهند ، فقال له : اذهب إلى الشيخ محيسن ، فإنه صاحب درك بحر الهند ، وأعطه نصفاً ، فإن قبله منك فهو دليل على أنه دخل في الحملة وإن رده فاحتسب ما في مراكبك عند الله تعالى ، فذهب إليه ، فقبل منه النصف ، وسلمت مراكبه تلك السنة وكان الشيخ محيسن إذ ذاك جالساً في رميلة مصر.

ورأيت مرة بعض أشياخنا بمصر ذهب إلى دكان الشيخ بركات الخياط ، وكان من أصحاب النوبة فوضع على دكانه حجراً في غيبته ، فلما جاء الشيخ بركات عرف الحجر ومن جاء به والحاجة وقضاها ، وكانت الحملة أن شخصاً كتبوه إلى اصطنبول سر كن لما دخل ابن عثمان إلى مصر ، وكان محسناً للشيخ المذكور كثيراً ، فمسك الشيخ الأدب مع أصحاب النوبة وسألهم في قضائها ، ولو أنه سأل الله تعالى بلا واسطتهم لربما أجيب لصلاحه وولايته.

ثم لا يلزم من مشاورة الولي الكبير لأحد من أصحاب النوبة أن يكون ذلك نقصاً ، وأيضاً فإن الكمل مقامهم منزه عن مشاركة الخفير في التصريف دنيا وأخرى ، بخلاف أرباب الأحوال ، فالكامل كشيخ الإسلام ، وصاحب الحال كخفير البلد ، ولكن هكذا أهل الأدب.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه إذا شاوره أحد في السفر من مصر إلى الريف مثلاً ، يقول له : إذا أردت الخروج من سور البلد أو من عمرانها ، فقل بقلبك : دستور يا أصحاب النوبة اجعلوني تحت نظركم حتى أرجع ، ثم إذا رجعت فاستأذنهم أيضاً في الدخول ، فإنهم يحبون من يمسك معهم الأدب.

وقد أعطاهم الله تبارك وتعالى معرفة الخواطر التي تمر على قلوب أهل أدراكهم فضلاً عن معرفة أعمالهم ومعاصيهم في قعر بيوتهم ، ولهم التأديب على كل زلة وقعت في أدراكهم ، لأن قوسهم موتور على الفساق وعلى الفقراء الغافلين عن الأدب مع الله تبارك وتعالى.

وسمعته رضي الله تعالى عنه وأرضاه مراراً يقول : لا يخرج أحدكم إلى السوق إلا وهو على طهارة فإن أصحاب النوبة يحبون من يراعي الطهارة في أدراكهم ، انتهى.

ومما وقع لي تصديقاً لكلام الشيخ رضي الله عنه أنني أخرجت ريحاً بنواحي شون السلطان بمصر العتيقة ، وإذا بشخص أسمر جالس في دكانه يحبك الشدود ، فرفع رأسه إليَّ ، وقال : كنا محتاجين إليك قوي في فسائك في دركي وحارتي ، فعلمت أنه من أصحاب النوبة.

وكذلك مما وقع لي أنني كنت ماراً تجاه سوق الصاغة بخط بين القصرين ، وأنا غافل ، فبينا أنا كذلك إذ أحسست بكل شعرة في قامت تمشي ، وأحسست بأن خلفي تمساحاً كبيراً ، يريد أن يبتلعني ، فالتفت فإذا بشخص أشعث الشعر أحمر العينين كاد فمه أن يصل إلى كتفي ، فقال لي : لا تعد تمشي في خطي وأنت غافل عن الله تعالى ما يجري لك خير ، فمن

ذلك اليوم ما أتذكر أنني مررت في ذلك الدرك غافلاً أبداً ، فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليَّ: في هذا الزمان حفظي من تصريف أصحاب النوبة فيَّ بمرض أو سلب حال أو نحوهما ، مع كثرة مزاحمتي لهم في الشفاعات عند الحكام ، وكثرة معارضتهم لمن يشفع عند الحكام من غير واسطتهم ، ومع كونهم أتم نظراً مني ، فلم يزالوا يسامحوني بشفاعتي عند الحكام ، وأنا غافل عنهم أو غير مستوعب لهم في الإذن ، فإن من لم يستوعبهم في الاستئذان فربما انقسموا فيه فريقين أحدهما يعارضه ، فيقاسي من الشدائد والأهوال ما لا يعبر عنه ، وقل من يسلم من عطبهم من الفقراء والعلماء ، ثم إن جرح من طعنوه لا يختم جرحه إلا بعد موت صاحبه .

وقد تشفع الشيخ علي الخواص رضي الله تعالى عنه مرة عند الأمير جانم الحمزاوي من غير استئذان أصحاب الثلث الذي لا تصريف له فيه من مصر ، فطعنه إنسان بخنجر في مشعره ، فلم يزل بها حتى مات بعد عشرين يوماً ، وهو يقول آه من حرارة هذه الضربة . انتهت .

وقد سبق لي أنا معهم وقائع كثيرة أوائل دخولي طريق القوم رضي الله عنهم ، حتى كدت أن أهلك ، ولكن بحمد الله تبارك وتعالى كلهم يحبوني اليوم ، ولا أعرف أحداً منهم يكرهني ، ولذلك رتبت لهم الدعاء عندي في الزاوية في قراءة الأسباع والكرسي ، وغير ذلك ، فمن وقائعهم الماضية معي أن ثلاثة منهم عارضوني ، فمكثت تسعة أيام بلياليها لا آكل ، ولا أشرب ، ولا أنام ، ولا أضع جنبي إلى الأرض ، حتى صار بدني كله كالدمل الذي قرب انفجاره ، ثم حصل لي الفرج على يد الشيخ محمد البهوتي ، بباب زويلة العريان ، وقال لابن عمي عبد السلام ، قد عرضوا حكاية عبد الوهاب على ثلاثين نفساً فأبوا أن يحملوها ، ولكن أنا أحملها لله تبارك وتعالى ، وأخبرني أن الذي عارضني ثلاثة من العجم كانوا يجلسون تحت المدرسة البرقوقية بخط بين القصرين ، ثم قال لي تبخر هذه الليلة ببخور حصا لبان ، وإن شاء الله تعالى تنام هذه الليلة ، ويخف العارض ، ففعلت فكان الأمر كما قال .

ومن جملة من لم يحمل عني سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه ، وقال لأخي الشيخ أفضل الدين رضي الله عنه : إياك أن تتحمل شيئاً عن عبد الوهاب مما هو فيه ، ودعه يدمن على البلاء الآتي .

وأما الشيخ شعبان المجذوب والشيخ محمد الجوهري المكشوف الرأس ، فطلعا لي البيت وأمراني بالصبر ، ونقش لي الشيخ شعبان في الحائط بسكين يقول الله عز وجل في التوراة : «**يا عبدي تحمل ما يرد عليك مني واصبر**» وقال لي الشيخ محمد الجوهري : سبحان

من حمل عنك يا ولدي ، فإنهم كانوا قاتليك ، ولكن كان في قنديلك الزيت ، فإن أصحاب النوبة اليوم يا ولدي من العجم لا يحبون أحداً له اسم من أولاد العرب ، انتهى.

ومما وقع لي أيضاً أن شخصاً جاء من الفقراءإلى مصر ليدخلها على نية الإقامة ، فمنعه أصحاب النوبة ، فجلس تجاه قبة بشتك الدوادار خارج باب النصر ، وصار كل من مر عليه يقول له: كيف يمنعوني من دخول مصر ، ويمكنون عبد الوهاب ، فصار الناس يخبروني بكلامه ، فمكثت أربعين يوماً ، ثم مد الشيخ محمد الصوفي المقيم بالفيوم يده من الفيوم ، فضربه ، فمات ، وقال: أنا مذهبي أن كل من قتل أحداً من أصحابي فقتله عندي حلال ، انتهى.

وقد كان الشيخ حسن العراقي المدفون بكوم أبي الريش المطل على بركة الرطلي ، يقول: لا يأذن أصحاب النوبة لفقير أن يسكن في مصر إلا إن كان تحت نظرهم ، مراعياً للأدب معهم ، وإلا أخرجوه إلى القرى أو إلى خارج السور ، انتهى.

ومما وقع لي معهم أيضاً: أن شخصاً التف في عباءة ، ونام في مجاز الزاوية ثلاثة أيام ، لا يأكل ولا يشرب ، وأنا لا أشعر ، فدخل علي الشيخ حسن الريحاني ، فأخبرني به وقال: كيف يجلس في زاويتك شخص يقصد معارضتك إذا وجد عندك غفلة ولا تحس به ، ثم خرج إليه وضربه بعصاه ، وأخرجه من الزاوية ، فصادف الشيخ حسن بعد مدة فطعنه في فخذه بسكين ، وقال: إنما طعنتك لكونك عارضتني في عبد الوهاب ، وكان ذلك آخر معارضة الفقراء لي ، فلم يعارضني منهم بعد ذلك أحد إلى وقتي هذا.

وقد أخبرني سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه أن شخصاً تبع فقيراً من بلاد الشام إلى مصر يريد أن يقتله بالحال ، فلم يجده غافلاً عن الله تبارك وتعالى في وقت ، فاجتمع هو وإياه مع الفقراء في جامع عمرو آخر جمعة من رمضان ، فوجده غافلاً فطعنه فمات ، انتهى.

وقد أخبرني أخي الشيخ أبو العباس الحريتي رضي الله تعالى عنه ، قال لما طفت بلاد الغربية دخلت جامع اصطنها ، فبينما أنا جالس والناس حولي ، إذ أحسست بمثاقلة في بطني ، فكدت أهلك ، فقلت لهم ائتوني بشيء أتقايأ فيه ، فأتوني بجفنة كبيرة فملأتها قيحاً ودماً ، ثم إن شخصاً تحرك من جانب الجامع وكان نائماً مغطى بملاءة مزعفرة وقال: والله لولا أنك ضعيف الحال ، وأنت ضيف ، ما تركتك تخرج من الجامع إلا للقبر ، كيف تطلع بلاد الناس وأنت غافل عن استئذانهم كالبهائم ، قال: فقلت له: التوبة ، فتبت ، ومن ذلك اليوم ما طلعت بلداً حتى استأذن أصحاب دركها قبل أن أطلع إليها ، انتهى.

وكذلك وقع لي وأنا في مولد سيدي أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه وأنا جالس في ركن القبة ، فمد شخص من الطائفين بقبر سيدي أحمد يده إلى معاليق قلبي وقبض على قلبي ،

فكدت أن أهلك ، وكان متقلداً بقوس فشكوته إلى سيدي أحمد البدوي ، فاتهم بتهمة أو مسكه الكاشف وأرسل يستغفر الله تعالى ، فسألت سيدي أحمد فيه فخلص ، ولم يشعر بهذه الواقعة أحد من أصحابي.

وكان سيدي محمد الشناوي رضي الله تعالى عنه يقول: لا يؤخذ الفقير ويسلب العالم إلا عند رؤية أحدهما نفسه على إخوانه أو غفلته عن الله تعالى ، ثم حكى لي عن سيدي محمد بن هارون بمدينة سنهور ، أنه مر على صبي قراد وهو ماد رجله فقال الشيخ في نفسه: إن هذا الصبي لقليل الأدب يمر عليه مثلي ولم يضم رجله ، فسلب لوقته ، حتى صار لا يعرف الفاتحة ، ثم طلب الصبي فلم يجده ، وكان صبياً للقراد ، فسأل عنه حتى وصل إلى الرميلة ، فلما رآه القراد الكبير قال أقم رأسك هاهو غريمك قد جاء ، فلما فرغوا من اللعب بالقرد والدب والحمار سلم عليه القراد الكبير ، وقال: مثلك في هذه الشهرة العظيمة بالعلم والصلاح يخطر على باله أنه خير من أحد من المسلمين ، فقال: التوبة ، فتاب الشيخ محمد ، وقال القراد الكبير للصبي: أين وضعت علم هذا وحاله ؟ فقال: في قلب السحلية التي كنت أفلي ثوبي على باب حجرها في بلده ، فليذهب إليها ويقول لها: يقول لك «قمريمزان» صبي القراد ردّي عليَّ الوديعة التي عندك للشيخ محمد ، فخرجت السحلية ونفخت في وجه الشيخ فرد الله عليه حاله وعلمه ، وقال في نفسه: كيف تفخر على الناس بشيء حملته السحلية في قلبها ، فمن ذلك اليوم ما رأى نفسه على أحد حتى مات ، انتهى.

وقد ذكرنا في كتاب العهود المحمدية حكاية سلب شيخ الإسلام الشيخ سراج الدين البلقيني على يد الحشاش الذي كان يبيع الحشيش ، فلا يأخذها أحد منه إلا ويتوب منها لوقته ، وكذلك ذكرنا فيه سلب الفرغل لشيخ الإسلام ابن حجر وغير ذلك ، فراجعه ، فإياك يا أخي ورؤية نفسك على أحد من المسلمين إلا بطريق شرعي خال عن الكبر ، فإن كل من رأى نفسه على أحد فقد تعرض للسلب.

ووقع للشيخ حسن الغزاوي ، وكان من أهل الكشف أنه ذهب إلى الشيخ محيسن بناحية بولاق ، يريد مناقلته ، فلما أقبل الشيخ وعرف ما في نفسه ، فقام له الشيخ محيسن وعظمه ، وقال خاطرك عليّ يا شيخ حسن ، ولماقام قدم له نعله ، فرأى الشيخ حسن نفسه بذلك فسلبه الشيخ محيسن حاله كله ، فلما أحسَّ بذلك جاء مستغفراً ، فقال: أنت الظالم ، فإنك أنت الذي جئتني ، ولم يزل مسلوباً ، فضاقت عليه مصر فسافر وانقطع عنا خبره ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: إعانتي على الاحتماء من الذنوب ، وتناول الشهوات أيام تحملي البلاء عن الإخوان ، وتوجهي في قضاء حوائجهم عند الله تبارك وتعالىٰ ، فإن من

لم يحتم عن مثل ذلك فلا يصح للتصدر لقضاء حوائج إخوانه ، ولا لتحمل البلاء عنهم ، وللتحمل والاحتماء شروط.

الأول: أن يتخلق بوصف الذل والانكسار والفاقة ، فلا يرى له شغوف نفس على أحد من المسلمين ، ولا يكون معتمداً على أحد غير الله تبارك وتعالى ، حتى أنه لا يدبر قط حملة في قضاء تلك الحاجة.

الثاني: كثرة الملازمة والوقوف في المواكب الإلهية ليلاً ونهاراً ، وذلك بين الأذان والإقامة ، وحين يدخل نصف الليل الثاني ، فإن الموكب ينصب من ذلك الوقت إلى طلوع الفجر ، وفي أوقات يبقى إلى انصراف الإمام من صلاة الصبح ، وتأمل يا أخي وزراء السلطان لا يهتمون بقضاء حاجة إلا إن لازمهم زماناً طويلاً ، ويقولون: لو أنه كان محتاجاً للازمنا في كل موكب.

الثالث: صدق التجاء صاحب الحاجة إلى الفقير الذي جعله واسطة في قضاء حاجته ، وعدم شركة أحد من الفقراء معه في ذلك ، واستحقاق المشفوع فيه للشفاعة بأن تكون العقوبة فيه قد بلغت حدها ، ومن علامة صدق صاحب الحاجة في الالتجاء أن لا يحتاج في طريق قضاء حاجته عند ذلك الأمير مثلاً إلى غرامة فلوس لأحد من الوسائط الذين هم حول الولاة ، ومتى احتاج إلى وزن فلوس فهو غير صادق في الالتجاء.

الرابع: أن يأمر المتحمل صاحب تلك المصيبة مثلاً بكثرة الاستغفار ، حتى تخف العقوبة فإذا خفت أو انقضت كلها صحت الشفاعة حينئذ ، كما يشفع رسول الله ﷺ في الجماعة الذين يؤخذ بهم ذات الشمال ، ويقول: «**يا رب أمتي**»[1] ويقال له: «**إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم**»[2] يعني وقعوا في معاصي أهل الإسلام ، ثم إذا ذهب الغضب الإلهي يشفع فيهم ويخرجهم من النار فما يشفع فيهم إلا بعد بلوغ العقوبة حدها ، فافهم.

وكثيراً ما يأتي المحبوس أو المعزول عن وظيفته مثلاً إلى الفقير ويقول له حبسوني أو عزلوني لا ذنب لي ولا جريمة ، فيتحرك الفقير الساذج بل الأبله إلى التوجه إلى الله تبارك وتعالى في الإفراج عنه ، أو رده إلى وظيفته فلا يجاب ، فيكاد الفقير يموت من ثقل تلك الحملة ، ولعل ذلك المحبوس أو المعزول وقع في الزنا أو شرب الخمر أو غير ذلك مما لا يحصى ، فليتنبه الفقير لما ذكرناه من الاستغفار ، وأخذ العقوبة حدها ، ثم يشفع.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (٤٧١٢) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب في الحوض (٦٥٨٥) ، والترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء في شأن الحشر (٢٤٢٣).

الخامس: أن يرى ذلك المعزول مثلاً أن الله تبارك وتعالى قد جعل بيد ذلك الفقير الولاية والعزل ليتوجه قلبه إلى ذلك الفقير جزماً من غير تردد ، ومتى تردد في ذلك بطل عمل الفقير ولو كان قطباً.

وبالجملة فمتى ظن أنه لولا فلوسه التي غرمها لذلك الأمير وحاشيته مثلاً ، أو لولا قراءة ورده مثلاً ما قدر الفقير على توليته تلك الوظيفة ، فهو غير صادق في الالتجاء إلى ذلك الفقير ، فيا طول تعب ذلك الفقير ، ويا بعد ولاية ذلك المعزول ، ولعل ذلك الفقير يرمي حملته على طول حتى تتمزق همته.

السادس: أن لا يقبل الفقير الحامل من المحمول عنه هدية ، ولا يأكل له طعاماً ، ليكون قلبه متوجهاً إلى الله تبارك وتعالى في حقه خالصاً ، ومتى قبل منه شيئاً بطل توجهه ، وخرب باطنه ، وتوقف قضاء حاجته ، لأن الفقير يصير يقابله عوضاً عن دنياه التي أهداها له ، وأهل الدنيا لا تنفذ لهم همة في أحد.

هذا مذهبنا ، وأما مذهب غيرنا من الأكابر فربما أخذ على ذلك هدية ، ونفذت همته مع ذلك فله أن يشترط في تحمله أخذ العوض من المحمول عنه ، ومتى طلب منه ذلك الفقير الذي تحمل حملته شيئاً من ثيابه أو أمتعته ، ومنعه فلا يلزم ذلك الفقير قضاء حاجته لأنه في ذلك كالأجير في الأعمال الظاهرة ، وفي ذلك إعطاء الفقير بدنه حقه في تعبه ، وعتق المحمول عنه من منته عليه.

ومما وقع لسيدي محمد السروي رضي الله تعالى عنه أنه حمل حملة شمس الدين عوض ، لما نقم عليه السلطان الغوري ، فجاء إلى الشيخ يستعجله في الحملة ، فقال له: اخلع لي هذه الجوخة الحمراء ، والصوف ، والعمامة التي عليك حتى أحمل حملتك بقلب ، واخرج أنت بالقميص والقبع فقط ، فشاور نفسه وتوقف ، فأخذ الشيخ قدرة فخار كبيرة كانت قريبة منه فرماها من الطاقة في الخليج ، وقال روحي يا حملة ابن عوض ، ثم قال: أنا أدخل معك بالروح ، وأنت تشح علي بخليقات عندك في الدار غيرهم ، فسلموه تلك الليلة للعقوبة ، فحلقوا رأسه وكتفوه وملؤوا قحفاً خنفساً ، وألبسوه على رأسه ، وربطوا القحف من تحت لحيته ، فصار الخنفس يحفر في دماغه حتى صارت رأسه حفراً ، والدم نازل على وجهه ولحيته ، فلو أنه كان أعطى الشيخ الثياب لكان حمل عنه هذا العذاب.

السابع: كف جوارحه الظاهرة والباطنة عن كل محرم ومكروه وخلاف الأولى ، أو خطور ذلك على باله ، وهذا أعظم الشروط ، فإن منع الجوارح من شهواتها من أشد العقوبة عليها ، فعلم أن من لم يكف جوارحه المذكورة عما ذكرناه فليس هو بأهل أن يجيب الحق تبارك وتعالىٰ دعاءه ، لأنه كما نهاه فلم يجتنب ، وأمره فلم يمتثل ، فكذلك دعا ربه فلم يجبه جزاء

وفاقاً ، ولو أنه أجاب أمر ربه لكان أجابه تبارك وتعالىٰ ، فإجابته تعالىٰ لدعاء عبده على قدر مبادرته لامتثال أوامره سرعة وبطأ بحسب حال العبد.

الثامن: عدم تناول شيء من شهوات النفس المباحة ، فضلاً عن المكروهة ، فضلاً عن المحرمة ، أيام التحمل ، لأن تناول هذه الشهوات يعمي البصيرة ، ويمنع من دخول حضرة الله تبارك وتعالى ، لحديث البخاري وغيره مرفوعاً: «**وحفت النار بالشهوات**»[1] ومن ادعى من المتصوفة أن تناول الشهوات المباحة لا يؤثر فيه فهو جاهل بطريق الله عز وجل ، غافل عن الاهتمام بأمر المسلمين.

وقد كان سيدي علي الخواص رضي الله عنه يقول: من شرط من يتحمل عن إخوانه أن لا يجلس قط على حدث إلا لضرورة ، ولا يجامع حليلته مدة التحمل إلا أن يكون ممن يحضر مع الله تبارك وتعالى في جماعه ، كما يحضر في صلاته ، وكذلك لا يشم رائحة طيبة ، ولا يدخل حماماً بغير ضرورة ، ولا يضع جنبه إلى الأرض في ليل أو نهار ، ولا يضحك ، ولا يغفل عن الله تعالى لحظة ، ولا يبيت على دينار ولا درهم ، انتهى.

وقد جاء شخص إلى سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله عنه ليسأله الدعاء في قضاء حاجته ، فقال له سيدي أحمد: اذهب فإن عندي الآن قوت جمعة ، فإذا بلغك أنه ليس عندي قوت يوم فتعال أدع لك ، فإن لي حينئذ أسوة برسول الله ﷺ ، ثم قال ليعقوب الخادم: يا يعقوب إن الرجل إذا كان عنده قوت غد أو شبعان فدعاؤه خداج ، لعدم اضطراره ، وصدق التجائه.

وقد ذكر الغزالي رضي الله تعالى عنه: أن من شرط من له حاجة أن لا يفطر ذلك النهار حتى يقضيها ، ولو عند غروب الشمس ، قال: وقد جربناه فصح ، قال: لأن الإنسان إذا شبع كان دعاؤه كالسهم الذي يخرج من غير وتر مشدود ، انتهى ، وسيأتي في الشرط الذي بعده ما يؤيده.

التاسع: أن لا يفطر أيام التحمل بل يكون صائماً ، وذلك ليستنير قلبه ، ويقرب من حضرة الدعاء ، فإن الشبعان قلبه محجوب عن الله تبارك وتعالى بنحو سبعين ألف حجاب.

العاشر: أن لا يكون الفقير الذي يتحمل قد خرق بصره إلى الدار الآخرة ، فإن من خرق بصره كذلك تصير همته فاترة ، فإذا اطلع على ما في ذلك البلاء من الأجر والثواب والقصور

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب حجبت النار بالشهوات (٦٤٨٧) بلفظ «حجبت» بدل «حف» ، وبرواية حفت أخرجه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب منه (٢٨٢٣) ، والترمذي ، كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات (٢٥٥٩) ، وأحمد في مسنده (٧٤٧٧).

والدور والبساتين ، فتصير كل شعرة منه تطلب دوام ذلك البلاء على ذلك السائل ، أو دوام عزله عن ولايته ، وإذا فترت الهمة كذلك بطل توجهه ، فيجب عليه أن يرشده إلى غيره من الفقراء المحجوبين عما ذكرناه ممن بصره مقصور على الدنيا فقط ، فإنه أسرع إجابة ، ولذلك كان دعاء الولاة والأغنياء مقبولاً في هذه الدار أكثر من بعض الفقراء الصادقين ، لما قررناه.

الحادي عشر: أن يعمل الفقير على الوصول إلى مقام التخلق بالرحمة ، حتى يكون أشفق على أخيه من نفسه ، فإذا حمل حملة من مات ولده مثلاً ، وحم بالنار من فرقه إلى قدمه فيكون أحم منه وأكثر حزناً على ذلك الولد من والديه ، فإن لم يصل إلى ذلك فليأمر الوالدين بأن يسألا الله تبارك وتعالى لأنفسهما ، فإن ذلك أسرع إجابة لهما من دعاء ذلك الفقير.

وقد توجهت إلى الله تبارك وتعالى مرة في التحمل عن سيدي أبي الفضل ، وزوجته بنت سيدي محمد الحنفي ، لما ماتت ابنتهما ، وحصل لهما حزن عظيم فكاد لحمي وعظمي أن يذوب ، حتى وصلت إلى مقام فوقهما في الحزن ، ثم دعوت لهما.

وبالجملة ، فلم أر لهذا الخلق فاعلاً بعد سيدي علي الخواص غيري ، وغاية غالب الناس إذا اشتكى له أحد مصيبة نزلت به أن يتوجع له باللسان ساعة ، أو يدعو له من غير استجماع هذه الشروط بكلام يشبه كلام الغائبي العقل ، وربما كان ذلك الفقير وكذلك المشفوع له مرتكبين شيئاً من المعاصي الكبيرة فضلاً عن غيرها ، فلا الشيخ أهل لأن يدعو ويقبل دعاؤه ، ولا المريد أهل لأن يشفع أحد فيه ، وربما دخل سيدي الشيخ الحمام ذلك اليوم ولبس الثياب المبخرة بعد أن تلذذ بزوجته وسريته على الفراش ، وأكل الأطعمة اللذيذة ونام على طراحة ، وغفل عن الله تبارك وتعالى فضلاً عن ذلك المحمول عنه ، وما عند أهل الجنة خير من أهل النار ، فأسأل بالله تبارك وتعالى جميع إخواني أن لا يأخذوا في أنفسهم عليّ إذا كلموني ورأوني معبساً ضيق الصدر ، فربما أكون في ذلك الوقت مشاركاً لمن ضرب في بيت الوالي مقارع وكسارات ، أو لمن مات ولدها من النساء ، أو لمن كانت في الطلق ، فإن صاحب هذا الحال لا يصير له وجهة لغير ما هو فيه ، فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إلهامي لأن آتي إلى قضاء الحوائج من أبوابها التي جعلها الله تبارك وتعالى لها ، فإذا قضيت من الأدنى لا أسأل الأعلى أدباً معه ، وذلك أني أسأل فيها أصحاب النوبة أولاً فإن لم تقض على يدهم توجهت إلى النبي ﷺ ، فإن لم تقض توجهت إلى الله عز وجل ، فإن لم تقض أكثرت من الاستغفار ، وعلمت أن المحل ما هو قابل ، أو أنَّ من سألني لا يستحق قضاء تلك الحاجة.

واعلم يا أخي أن أصحاب النوبة الآن في مصر ، وذلك سنة ستين وتسعمائة سبعون رجلاً وهم مفرقون في بيوت الحكام ، فلا يوجد حاكم إلا وعنده واحد منهم أو أكثر ، فإذا دخلت

يا أخي إلى حاكم في حاجة فتوجه بقلبك إلى صاحب النوبة في داره ، واسأله أن يعطف قلب ذلك الحاكم عليك ، فإنه يفعل إن شاء الله تبارك وتعالى ، ومن لم يتوجه إليه فربما عارضه في حاجته عند ذلك الحاكم ، وقس قلبه عليه لسوء أدبه.

فعلم أن من أنكر أصحاب النوبة رضي الله تعالى عنهم ، أو اعترف بهم ثم تعداهم إلى الحكام فهو مظلم القلب ، ليس له في قدم الصدق لطريق الفقراء نصيب ، ولو أنه كان من أهل الطريق لعرف أهلها ، ولزم الأدب معهم.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تبارك وتعالى عنه يقول: كم من كامل لا تصريف له ، وكم من ناقص بالنسبة إليه يتصرف في الوجود ليلاً ونهاراً ، فلا تظن يا أخي أن صاحب التصريف أعلى مقاماً ممن لم يتصرف.

قال: وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تبارك وتعالى عنه يقول: إن الشيخ أبا السعود بن الشبل أعلى مقاماً من شيخه الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنهم لأنه عرض عليه مقام التصرف فأبى ، وقال: قد تركنا الحق تبارك وتعالى يتصرف لنا ، والشيخ عبد القادر عرض عليه مقام التصريف فتصرف ، وكان الأولى له أن يتركه حتى يؤمر بالتصريف ، فهناك يتصرف بأمر ، انتهى.

وتأمل يا أخي في مقدم الوالي كيف يتصرف في المجرمين بالعقوبة فيهم ، والإفراج عنهم ، ولا يقدر على ذلك شيخ الإسلام ، مع أنه أعلى رتبة عند الله عز وجل إن شاء الله تعالى من المقدم بيقين ، بل ربما سئل شيخ الإسلام في حاجة عند الوالي فيسأل هو المقدم فيها ، ولا يقدر على إطلاق متهوم بحرام أو فجور أبداً بخلاف المقدم ، قال الله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقد خالف قوم وتصرفوا بغير واسطة أصحاب النوبة فقتلوهم بالحال ، وقد أوصاني سيدي الشيخ أبو الفضل شيخ بيت بني الوفا رضي الله تعالى عنهم ، وقال: إياك أن تدخل في حملة أحد من ولاة هذا الزمان ، ويحن عليه قلبك ، فلعلك تقتل تحتها ولا تجاب ، فإنهم ظلمة ، ولسان حالهم يقول: يا سيدي الشيخ دعنا نظلم العباد والبلاد ، واحمنا من العقوبة التي استحقيناها ، فليكن الفقير حاذقاً فإنه في النصف الثاني من القرن العاشر ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: إياكم أن تسألوا حوائجكم الأولياء الذين ماتوا ، فإن غالبهم لا تصريف له في القبر ، وأما غير الغالب كالإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ، والإمام الليث رضي الله تعالى عنه ، وسيدي أحمد البدوي ، رضي الله تعالى عنه ، وأضرابهم ، فربما جعل الله تبارك وتعالى لهم التصريف في قبورهم بحسب صدق من توجه إليهم.

قال: وقد استدارت أبواب جميع الأولياء رضي الله تعالى عنهم إلى الغلق ، وما بقي مفتوحاً إلا باب سيد المرسلين ﷺ ، وزاده فضلاً وشرفاً لديه ، فمن كان له حاجة فليصل على النبي ﷺ ألف مرة بتوجه تام ، ثم يسأله قضاء حاجته ، فإنها تقضى إن شاء الله تعالى.

ولما وقع التفتيش في مكاتيب الرزق خرج بعض جهات الزاوية إقطاعاً للسلطان ، فأشغلت الفقراء بالقرآن فقرؤوا نحو ثلاثمائة ختمة وأهدوا ذلك لرسول الله ﷺ ، ثم لأصحاب النوبة رضي الله تعالى عنهم ، وللسلطان نصر الله به الإسلام والمسلمين ، فأفرج عنهم الباشا عليّ ، ولم يقع ذلك لأحد في مصر غيرنا ، ولذلك رتبت الدعاء لأصحاب النوبة ، فليس أحد من جماعتنا الذين بزاويتنا يدعو عقب صلاة أو قراءة إلا ويدعو لأصحاب النوبة رضي الله تعالى عنهم ، ونفعنا بهم ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: قضائي الحوائج عند الحكام من غير وقوع نقص في ديني بسبب ذلك ، وذلك أنه إذا كان لي حاجة عند الباشا فمن دونه أتوجه إلى الله عز وجل وأسأله أن يسخر ذلك الأمير لي في قضاء تلك الحاجة ، فيصبح الأمير متهيئاً لذلك ، فأول ما يقرأ القصة ، أو يسمع كلام القاصد يقضي الحاجة لوقتها ، بخلاف غيري ، فربما يظهر النسك والعبادة ، ويقول للوسايط: اذكروا الفقراء عند الأمير ، واذكروهم عنده بما أنتم أهله من الخير ، وربما وقع في الرياء والنصب والحيل إلا أن يكون من كمل الأولياء الذين لا رياء عندهم في اعتقادنا ، كسيدي أحمد الزاهد ، فقد كان يقول لصاحب الحاجة إذا سأله قضاء حاجة عند من لا يعرفه: انظر أحداً يسبق إلى بيت الأمير يعظمني عنده ، حتى نقضي حاجتك ، فإني لا يسعني أن أزكي نفسي عنده ، وإن لم أزكها لا تقضى لك حاجة ، انتهى ، والأعمال بالنيات.

قلت: وقد قضيت عند قضاة العساكر والكشاف ومشايخ العرب حوائج من المهمات، وما رأيت أحداً منهم ولا جالسته ، ولا أرسلت له من يعرفه بي ، ولكن يحتاج صاحب هذا الخلق إلى قوة توجه، فإنهم قالوا: تحويل الجبل بتوجه الفقير أهون عليه من تحويل قلب أمير ، وذلك لأن الجبل لا رؤية عنده ولا تأمل ، بخلاف الأمير ، فإنه ربما ظهر له أن الصواب في مخالفة الفقير فعمل به ، ولا كذلك الجبل ، فافهم.

ويقع لي في بعض الأوقات أني أتوجه إلى الله تعالى في قضاء حاجة وأنا ساجد ، فأحس بجسمي وعظمي قد ذاب ، فأرتمي إلى جنبي من غير تشهد ولا سلام ، فما أفيق إلا بعد ساعة وأعرف أني لو زدت في السجود وطولت فيه مع الحضور لاحترقت ، وهذا أمر لا يذوقه إلا أهله ، فأين من له عظم يثبت من أمثالنا في حضرة هي أقرب الحضرات ، ولكن من أراد أن يحيط بما قلناه علماً فليطل السجود ، ويقول: يا الله يا أرحم الراحمين حتى ينقطع نفسه مراراً ، بحيث لا يبقى فيه متسع لأن ينطق بكلمة واحدة ، وكل شيء خطر في باله من غير الله

عز وجل يصرفه عنه ، حتى لا يبقى في ذهنه إلا الله وحده ، فإنه يحس بجسمه أنه يكاد يحترق لو زاد في التطويل.

ثم إن كل من صح له الثبوت هناك أجيب دعاؤه بوقته ، لأنها حضرة لا يرد فيها سائل ، لارتفاع الحجب والوسايط فيها إلا ما استثني شرعاً ، انتهى ، فاعمل على التخلق بذلك ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليَّ: كثرة توجيهي لكلام الأئمة المجتهدين ، ومشايخ الصوفية ، وحمل كلامهم على أحسن الوجوه ، وكذلك كلام أتباعهم ، فأحمله على محامل حسنة ، وقد يتفق لي ذلك مع بعضهم ولو علمت أنهم لم يصلوا إلى ذلك المشهد ، كل ذلك سداً لباب الوقيعة فيهم ، وللتحقيق موضع آخر.

فمن ذلك: ما إذا سمعنا شخصاً من الأكابر يقول: اللهم احبس عني ألسنة عبادك مثلاً حتى لا ينقصوني ، لا نحمل ذلك على أنه قصد بذلك تعظيمه عند الناس لغرض نفسي ، وإنما نحمله على أنه قصد بذلك عدم تنقيصه حتى لا يتوقف أتباعه في قبول نصحه ووعظه ، أو حتى لا يرتكب أحد معصية بغيبته ، ونحو ذلك كهضم نفسه تواضعاً ، فكأنه يقول للناس: مثلي لا يقدر على تحمل الكلام فيه ، ونحو ذلك.

وقد نقل: أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: «**يا رب احبس عني ألسنة عبادك فقال: يا موسى هذا شيء ما جعلته لنفسي قد قالوا في ما قالوا**» انتهى.

ومعلوم أن موسى عليه السلام لا يطلب مقاماً عند الخلق لحظ نفس قط لعصمته ، فكذلك القول في الأولياء رضي الله تعالى عنهم ، لحفظهم ، فما سأل الأكابر في حبس ألسنة الناس عنهم إلا خوفاً من عدم قبول أتباعهم نصحهم إذا نقصوا في أعينهم ، وقد كلفوا بهدايتهم فيتعبون في ذلك ، ومن هنا قال العارفون رضي الله تعالى عنهم يشترط في كمال الداعي إلى الله تعالى أن يكون محفوظ الظاهر من الزيغ عن الشريعة ، حتى لا يجد المدعو فيه مطعناً.

ونظير ما قلناه أيضاً قول هارون عليه السلام: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. فإنه إنما قصد بذلك عدم وقوع قومه في الإثم بسبب شماتتهم به فإن من شمت بنبي كفر.

وهذا الباب الذي فتحناه لك قليل من الفقراء من يعرفه ، بل غالبهم يسارع إلى الإنكار ، إما لقلة العلم ، وإما لغير ذلك ، فينكر بمجرد رؤيته لشيء رآه أو سمع به أو أشيع من غير تثبت ، وقد جاءني مرة شخص من جامع الأزهر فقال لي: ما عدت أعتقد في العالم الفلاني أبداً ، فقلت له: لماذا ؟ فقال: سمعته يقول أنا أعلم من جميع علماء مصر الآن ، بل أعلم من جميع من على وجه الأرض من العلماء ، فقلت له: يحتمل أنه يريد أنا أعلمهم بزلاتي

ومخالفتي أو بما في بيتي من الأمتعة ، أو أعلمهم ببدن زوجتي ونحو ذلك ، قال: وسمعته أيضاً يقول: العالم الفلاني لا يجيء في قلامة ظفري ولا شعرة مني ، فقلت له: صحيح أنه لا يجيء في قلامة ظفره ولا شعره ، بل هو أجل وأعظم من ذلك ، وكأن لسان حالك أنت تقول: بل هو يجيء كذلك ، قال: وسمعته أيضاً يقول: ونحن في طريق بولاق: سبحان من شرف هذه البقاع بمشينا فيها ، فقلت له: هو قول صحيح ، فإن النوع الإنساني أشرف من التراب ، لأنه خلاصة الوجود فهو أشرف ممن هو دونه ، خصوصاً إذا أنعم الله عليه بذكره وهو مار ، قال: وسمعته يقول أيضاً: أنا أفضل علماء مصر الآن ، فقلت له يحتمل أنه يريد بذلك أنا أفضل منهم عند نفسي الخبيثة ، وهي مخطئة في تلك الدعوى ، والحال ، أنهم أفضل مني قطعاً ، انتهى.

فانتحل يا أخي لإخوانك الأجوبة الحسنة ، وإن كانت بعيدة فإنه أخلص لك وأسلم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا يسوغ الإنكار شرعاً إلا إذا لم يقبل ذلك الأمر التأويل ، انتهى ، وكان يقول أيضاً من كمال الفقير أن يحمل كلام الأكابر على أحسن المحامل ، لخروجهم عن مقام التلبيس والرعونات النفسانية ، وإن عجز عن الجواب عنهم في قول قالوه ، أو فعل فعلوه ، فليسلم لهم ، وليكف عن الإنكار ، لأن منازعتهم دقيقة على عقول أمثالنا لا سيما الأئمة المجتهدين ، وكبراء مقلديهم ، وأنى لأمثالنا أن يتصدى لرد كلامهم.

وقد تصدى شخص للرد على الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، وعمل في ذلك كراسة ، وأتى بها إليّ يعرضها عليّ فطردته ، ولم أصغ إلى قوله ، ففارقني ووقع من سلم بيته ، وكان عالياً فانكسر صلبه وخرج زر وركه من مكانه فهو إلى الآن مكسور ، يبول ويتغوط على نفسه ، نسأل الله تبارك وتعالىٰ العافية ، وقد أرسل لي مرات أن أعوده فلم أفعل ، أدباً مع الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه أن أوالي من أساء الأدب معه.

هذا التأويل في حق الأئمة الماضين ، أما الأحياء فلا أقبل في أحدهم كلاماً قط حتى أجتمع بهم ، وأفاوضه في ذلك الكلام ، فربما نقل الحسدة عنه كلاماً باطلاً ، أو حرفوه عن مواضعه ، على خلاف مراده ، ليشنوا الغارة عليه عند المتهورين في دينهم من باب التعصب والباطل ، بقصد أنهم يطفئون نوره في البلد ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

وهذا الأمر قد كثر نقله بين الأقران ، وذلك من قلة الورع في المنطق ، فإن الورع في المنطق في كل زمان أعز من الكبريت الأحمر ،وقد كان شيخنا شيخ الإسلام زكريا رضي الله تعالىٰ عنه إذا رفع إليه سؤال عن أحد من علماء العصر يقول: لا أكتب عليه إلا إن اجتمعت به وسألته عن مراده ، وتارة يقول: إن ثبت ذلك عن قائله بطريق شرعي لا تعصب فيه فالحكم كذا وكذا ، انتهى.

وقد دريت أنا هذا الباب كثيراً مع حسادي ، فكل قليل يحرفون عني مسائل لم أقل بها قط ، ثم يكتبون بها سؤالاً ، ويستفتون عنها العلماء ، فيفتون بحسب السؤال ، ثم يدورون بخطوط العلماء على الناس فيحصل لي من ذلك أجور لا تحصى من كثرة الوقوع في عرضي بغير حق ، فلو أني كنت مؤاخذاً أحداً من هذه الأمة لما رضيت يوم القيامة بأعمال الواحد منهم طول عمره في غيبة واحدة ، هذا ، وما أحد من المستفتين عليّ اجتمع بي طول عمره ، ولا بلغه ذلك عني ببينة عادلة ، ولو أنهم كانوا يقصدون الخير لاجتمعوا بي وأخذوا مني الجواب ، فإما أن أتبرأ من ذلك الكلام فلا يجوز نسبته إليَّ بعد ذلك ، وإما أن أرد تحريفهم بتبيين مرادي على الوجه الشرعي ، ولكن العدو ما قصده إلا الأذى ، ويخاف أن أجيب عن نفسي ، فلا يروج له أمر فيما افتراه عليَّ ، فالله يغفر له.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا ينبغي لفقير أن يؤاخذ أحداً من الفسقة بكلام قاله في حقه ، لأنه ليس مع الفاسق أعمال صالحة في الآخرة يعطي شيئاً لأحد من أخصامه ، أو معه ولكن لا تفي بما عليه ، ثم إن الفقير إن وضع من أوزاره شيئاً على ظهر ذلك الفاسق بعد نفاد أعماله الصالحة ، وقع فيما يقدح في مروءته ، فما بقي إلا المسامحة ، وإن كان ولا بد له من المؤاخذة فليؤاخذ العلماء العاملين المخلصين ، لأن غير المخلصين لا يصل لهم عمل إلى الآخرة حتى يأخذ حقه منها لإحباطه بالرياء والعجب مثلاً في دار الدنيا ، انتهى.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: إذا سامحت أحداً في حقك من مال أو عرض فاجعل ذلك من جانبك لا من جانب الحق تبارك وتعالىٰ ، من حيث انتهاكه حرمة الله عز وجل ، وتعدي حدوده بالكلام في المؤمنين بغير حق ، فإن ذلك ليس هو إليك ، وإنما هو إلى الله تعالى يفعل فيه ما يشاء ، انتهى.

فعلم مما قررناه ، أنه لا ينبغي للمفتي أن يبادر إلى الكتابة على سؤال متعلق بأحد من الأحياء ، لا سيما إن كان يعلم ولو بالقرينة أن ذلك المستفتي منه عدو للمستفتى عنه ، فيحصل بتلك الكتابة ضرر كبير ، إذ الاستفناء على شخص كالكتابة ، والعلامة على قلة دينه فهو كالتقرير له.

وقد وقع في سنة سبع وخمسين وتسعمائة أن شخصاً ممن لا يخشى الله تبارك وتعالىٰ زور علي أنني ادعيت الاجتهاد المطلق كأحد الأئمة الأربعة ، فلا تسأل يا أخي عن كثرة ما لاث الناس بعرضي ، ولعل شبهتهم في ذلك كثرة أجوبتي عن الأئمة ، فيرونني أوجه هذا المذهب ، وهذا المذهب كما يوجهه أصحابه ، فربما يفهمون من ذلك بفهمهم المعكوس ما فهموه ، مع أني بحمد الله تبارك وتعالىٰ لم أجب عن إمام قط بالصدر ، وإنما أجيب عنه بعد اطلاعي على دليله ، كما يعلم ذلك من كتابي الذي ألفته في بيان أدلة المجتهدين

وممن توقف عن الكتابة على ذلك السؤال تورعاً الشيخ ناصر الدين اللقاني ، والشيخ شهاب الدين الرملي ، والشيخ نجم الدين الغيطي ، والشيخ نور الدين الطندتائي ، والشيخ شمس الدين البرهمتوشي ، وسيدي محمد الرملي ، وقال: ائتوني بالكتاب الذي فيه هذه الدعوى ، أو بينة عادلة تشهد عليه بذلك ، فأعجزهم.

وأما الشيخ نجم الدين فسح الله في أجله فأجاب عني بنحو خمسين جواباً ، وقال للحسدة: بتقدير ثبوت ذلك عنه فليس في ذلك محظور ، لأن من شرط القاضي أن يكون مجتهداً ، انتهى ، ولما بلغ ذلك الشيخ ناصر الدين الطبلاوي قال: إن ثبت أن فلاناً ادعى ذلك فأنا أول من يقلده ، انتهى.

وقد أشاعوا مثل ذلك عن الشيخ جلال الدين السيوطي ، والحال أن الشيخ لم يدع إلا الاجتهاد المنتسب ، لأنه على قسمين: اجتهاد مطلق مستقل كالأئمة الأربعة ، وهذا لم يدعه أحد بعد الأئمة الأربعة إلا ابن جرير الطبري ، ولم يسلم له ذلك ، واجتهاد مطلق منتسب كما عليه المزني ، والقفال ، والشيخ أبو محمد الجويني ، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، وأضرابهم رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين ، فكل هؤلاء مجتهدون منتسبون لا مستقلون ، هكذا رأيته بخط الشيخ جلال الدين السيوطي ، وقال: إني لم أدع إلا الاجتهاد المطلق المنتسب ، فظن الحسدة أني أعني المطلق المستقل ، انتهى.

على أن الاجتهاد عند أهل الطريق يحصل للمريدين فضلاً عن العارفين ، وعبارة الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالىٰ عنه في الفتوحات المكية في كتاب الجنائز «وإذا بلغ المريد مقام الاجتهاد فهل يقيم تحت حكم أستاذه أو يخالفه قد قال بكل منهما جماعة» قال والذي أراه أنه يقيم تحت حكم شيخه حتى يرقيه إلى علم اليقين ، أو حق اليقين ، انتهى.

وذلك فوق مقام الاجتهاد بيقين إذ غاية الاجتهاد في الفروع الظن ، فالله تبارك وتعالىٰ يحمي جميع إخواننا من الوقوع في الإنكار على أحد من الأئمة ومقلديهم ، كما وقع لي ، فإني لا أعلم بحمد الله تبارك وتعالىٰ أحداً من أقراني أكثر أجوبة عن الأئمة رضي الله تعالىٰ عنهم وعن مقلديهم مني ، خلاف ما أشاعه الحسدة عني ، فلو أن أحداً سالماً من التعصب جلس عندي وعرض علي أقوال جميع المذاهب المتضادة عند غيري لجمعت بينها من غير تكلف ، انتهى.

وقد رأيت وأنا شاب الإمام الأعظم أبا حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه ، والإمام مالك جالس عن يساره ، وأنا واقف بين يديهما ، فقال الإمام مالك رضي الله عنه للإمام أبي حنيفة: ما أحد أجاب عنا مثل هذا الشاب ، فسررت بذلك غاية السرور.

وقد حبب إليَّ أن أذكر لك يا أخي جملة من المسائل التي اختلف فيها الأئمة رضي الله

تعالىٰ عنهم في الوضوء والصلاة تأنيساً لك ، فربما تستبعد إقدار الحق تبارك وتعالىٰ لمثلي على الجمع بين الأقوال المتضادة ، فأقول ، وبالله التوفيق.

وجه قول من قال: لا يصح الوضوء بالماء المستعمل في فرض الطهارة ، كون الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم لم يجمعوا المستعمل في أسفارهم القليلة الماء ليتوضؤوا به ، ثانياً ، بل عدلوا عنه إلى التيمم ، ولأن الخطايا قد خرت فيه بنص الحديث [١]، وما تخر فيه الخطايا فهو مستقذر شرعاً ، فلا ينبغي لمؤمن أن يتطهر به ، لأن من شأن مقام الطهارة أنها تزيد الجسد طهارة وتقديساً ، والوضوء من غسالة الخطايا يزيد الجسد تقذيراً ، فلو كشف الحجاب عن العبد لرأى الماء المستعمل في الميضأة التي يردها الناس كالذي وقع فيه جملة من الحيوانات الميتة كالكلاب والخنازير والحمير والحشرات ، على حسب تفاوت المعاصي التي خرت من زنا ولواط وشرب خمر وغيبة ونميمة ومرافعة في الناس عند الحكام ، وغير ذلك من كبائر وصغائر ومكروهات ، فرحم الله الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه حيث عم بأقواله الثلاثة الكبائر والصغائر والمكروهات ، فإن له قولاً إن حكم الماء المستعمل في حدث حكم النجاسة المغلظة ، وله قول آخر أنه كالمتوسطة ، وله قول آخر أنه طاهر غير طهور.

وجه كونه كالنجاسة المغلظة ، الأخذ بالاحتياط ، فربما وقع ذلك المتطهر في شيء من الكبائر ، ووجه كونه كالنجاسة المتوسطة ، كون الغالب في الناس وقوعهم في الصغائر ، وهي حالة متوسطة بين الحرام والمكروه ، ووجه كونه طاهراً غير طهور ، وأن الأصل عدم ارتكاب الناس من الصغائر والكبائر ، فما بقي إلا ارتكابهم المكروه الذي أباحته الشريعة.

ويؤيد ما ذكرناه في تقسيم الغسالة قوله ﷺ **لعائشة لما قالت له: حسبك من صفية كذا ، تعني قصيرة: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»** [٢] أي لو وقعت في البحر لغيرته كله وأنتنته ، فإذا كان مثل هذه الكلمة يغير ماء البحر الأعظم لو وضعت فيه ، فما ظنك يا أخي بغسالة الذنوب العظام إذا سقطت في فسقية صغيرة ، فرحم الله تعالىٰ أصحاب الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه حيث أشاروا إلى منع الوضوء من فساقي المساجد ، فإنها بالنسبة للبحر المحيط كقطرة صغيرة ، فهي أولى بالتقذير والتغيير.

وأما وجه من جوز الطهارة بالماء المستعمل ، فهو لأن تقذير الماء بالخطايا المعنوية أمر غير مشهود إلا لأهل الكشف ، ولا ينهى الإنسان إلا عن الطهارة بالماء الذي يشهد قذارته

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الطهارة ، باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء (٢٤٤) ، والترمذي ، كتاب الطهارة ، باب ما جاء في فضل الطهور (٢) ، والنسائي ، كتاب الطهارة ، باب مسح الأذنين مع الرأس (١٠٣) ، وابن ماجه ، كتاب الطهارة وسننها ، باب ثواب الطهور (٢٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب صفة القيامة والرقاق ، باب منه (٢٥٠٢) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في الغيبة (٤٨٧٥) ، وأحمد في مسنده (٢٥٠٣٢).

وتغييره على اختلاف المقامات في ذلك ، ويؤيد ذلك تسمية الماء طهوراً ، أي تتكرر به الطهارة عند من جوزه.

وأما وجه من منع الوضوء بالماء المعتصر من النبات والأشجار ، فهو لأن مشروعية الطهارة إنما جعلت لإنعاش البدن ، ليقوم العبد إلى مناجاة ربه ببدن حي ، ومعلوم أن الماء المعتصر ضعيف الروحانية ، لأن الروحانية التي كانت فيه قد انتقلت إلى الحبة والنواة مثلاً حتى أخضر ذلك الزرع ، وكثرت أوراقه وأغصانه ، فصارت روحانية ذلك الماء ضعيفة لا تنعش بدن المتوضىء ، ومن شك في قولي فلينظر بدنه إذا توضأ بماء البئر الذي لم يستعمل ، وماء الفساقي ، فإنه يجد بدنه ينتعش بماء البئر أكثر.

وأما وجه من منع صحة الوضوء إذا لم يذكر اسم الله عليه ، فلأن كل ما لم يذكر اسم الله عليه غير مبارك ، أو يحمل ذلك على الكمال ، لقوله ﷺ: **«لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»**[1].

وأما وجه من أوجب الترتيب في أعضاء الوضوء ، وأبطل الوضوء إذا لم يرتب فلأنه لم ينقل لنا أنه ﷺ توضأ غير مرتب أبداً ، وقد قال ﷺ: **«كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»**[2] فالترتيب مأمور به أولاً ، ثم نهض به إلى الوجوب اجتهاد المجتهد.

وأما وجه من صحح الوضوء إذا لم يرتب ، فإنه جعل الواو في آية الوضوء لغير الترتيب ، والمقصود غسل جميع هذه الأعضاء قبل أن يقوم للصلاة ، ويدخل فيها ، ويؤيده ما روي عن عليٍّ رضي الله تعالىٰ عنه **«لا أبالي بدأت برجلي أو بوجهي»**.

وأما وجه من أوجب الموالاة من حيث الاعتبار والحكمة ، فلأن الطهارة إنما شرعت لإنعاش البدن ، مما تولد من وقوع صاحبه في المعاصي أو الشهوات أو الغفلات ، حتى كاد البدن أن يموت أو يضعف أو يفتر ، فلو لم يوجب الموالاة لأدى إلى زيادة البطء في زمن الطهارة ، كأن يغسل وجهه قبل طلوع الشمس مثلاً ، ثم يغسل بقية أعضائه قبيل العصر مثلاً مع وقوعه في الغيبة والنميمة وكثرة الضحك وأكل الشهوات وكثرة الغفلات بين الوقتين ، حتى صار بدنه من كثرة الضعف كأنه لم يتوضأ ، وبذلك يذهب المقصود من حكمة الوضوء ، وهي إنعاش البدن قبل الدخول في الصلاة ، فيقوم للصلاة قبيل العصر مثلاً ببدن ميت أو

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٨٩٨) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٥٧) ، وابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٣٠٣) ، وعبد الرزاق في مصنفه (١٩١٥) ، والربيع في مسنده (٢٥٦).

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ومسلم في كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة (١٧١٨).

ضعيف أو فاتر ، فالموالاة من أصلها مأمور بها ، ونهض بها الاجتهاد إلى الوجوب كما مر في الترتيب.

وأما وجه من قال: إن النية لا تجب في الوضوء ،وتجب في التيمم ، فهو أن الماء يحيي ما سرى إليه بطبعه ، ولو بلا نية فعل فاعل ، كالأرض التي سال عليها الماء من غير فعل إنسان ، فإنها تحيا وتصلح للزرع ، وتنبت الحب الذي بذر فيها ، فكذلك القول في حياة الأعضاء.

وأما وجه من قال بوجوبها في التيمم ، فلأن التراب ضعيف الروحانية بالنسبة للماء ، فاشترط معه النية للقصد ، تقوية لروحانيته من حيث إن الهمة تؤثر فيما قابلها.

وأما وجه من قال: إنه يصلي بتيمم واحد ما شاء من الفرائض ، فلأن الشارع ﷺ سكت عن ذلك ، ولو أنه كان لا يؤدي به غير فرض لبينه الشارع ولو في حديث.

وأما وجه من قال: لا ينقض مس الفرج ، فلأن الناقض حقيقة إنما هو الخارج لا المحل ، ولذلك ورد فيمن مس ذكره ما يعطي عدم النقض في حديث: «**هل هو إلا بضعة منك**»[1]

وأما وجه من نقض الوضوء بمسه فهو زيادة في التنزه ، وذلك خاص بالأكابر دون الأصاغر.

وأما وجه من نقض الوضوء بالنوم ولو ممكناً مقعدته ، فلأن النوم أخو الموت ، كما ورد ، وهذا خاص بالأكابر أيضاً دون الأصاغر.

وأما وجه من لم ينقض بنوم ممكن مقعدته فلأمنه حينئذ من خروج الريح ، وذلك رخصة.

وأما وجه من نقض الوضوء بمس الفرج باليد إلى المرفقين ظهراً أو بطناً ، فلأن اليد تطلق على ذلك كله ، وقد قال ﷺ: «**إذا أفضى أحدكم إلى فرجه**»[2] الخ.

وأما وجه من نقض بباطن الكف فقط ، فهو عمل بما عليه أهل اللغة من تخصيص الإفضاء ببطن الكف دون غيره.

وأما وجه من لم ينقض الطهارة إلا بالجماع ، فلأن اللمس يطلق على الجماع نظير قوله

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب الطهارة ، باب ماجاء في ترك الوضوء من مس الذكر (٨٥) ، والنسائي ، كتاب الطهارة ، باب ترك الوضوء من ذلك (١٦٥) ، وأبو داود ، كتاب الطهارة ، باب الرخصة في ذلك (١٨٢) ، وأحمد في مسنده (١٥٨٥١)

(٢) أخرجه النسائي ، كتاب الغسل والتيمم ، باب الوضوء من مس الذكر (٤٤٥) ، وأبو داود ، كتاب الطهارة ، باب الوضوء من مس الذكر (١٨١)

تبارك وتعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. أي تجامعوهن.

وأما وجه من نقض بالدم الجاري، وبالقهقهة، والغيبة، ومس اليهودي أو الصليب، أو الأجذم ونحو ذلك، فهو لكون المكلف مأموراً بالتنزه عن كل ما تولد من الأكل المشغل بلذته عن الله تبارك وتعالىٰ حالة فعله.

وأما وجه من لم يوجب الغسل بالجماع من غير إنزال فلخفة اللذة فيه، بخلاف من أنزل، فإنه لا يكاد يقدر على الحضور مع الله تبارك وتعالىٰ حال جماعه أبداً، لعموم اللذة لجسمه كله، ولذلك أمر بالغسل لبدنه كله.

وأما وجه من أباح وطء الحائض إذا انقطع دمها وغسلت فرجها فقط، فلأن الوطء إنما حرم للأذى الذي يخرج من الفرج وقد زال، وحكم غسل بقية البدن إنما هوزيادة تنظيف، وقس على ذلك بقية المسائل التي تركناها.

وأما توجيه أقوال الأئمة رضي الله تعالىٰ عنهم في الصلاة.

فوجه من قال: يجب على المصلي استحضار أفعال الصلاة وأقوالها كلها في حال التكبير، فهو لأن المصلي الحقيقي يدخل حضرة الله عز وجل بالروح دون الجسم، وذلك سهل على مثله، فهو خاص بالأكابر.

وأما وجه من قال: لا يجب ذلك لعسره، فهو في حق من غلبت جثمانيته على روحانيته من غالب الناس، فإنه لا يتعقل أمراً إلا بعد شهود ما قبله، وهكذا، وذلك يؤدي إلى زمن طويل بخلاف الروح، فإنها تدرك الأشياء جملة في آن واحد، فهذا في حق قوم، وذاك في حق قوم.

وأما وجه من أمر المصلي بالاستعاذة في قراءة كل ركعة، فلأن غالب المصلين ضعيف الحال ليس له عزم يطرد به إبليس عنه باستعاذته مرة واحدة أول قراءته، فأمر بالاستعاذة في كل ركعة، بخلاف قوي العزم فإن إبليس يطرد عنه باستعاذته في الركعة الأولى فقط، فلا يحتاج إلى الاستعاذة ثانياً، لعدم حضور إبليس عنده بعد الاستعاذة الأولى، ويؤيده ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]. ولا شك أن في كل ركعة قراءة جديدة تتخلل الركوع والسجود بين كل قراءتين.

وأما وجه من أوجب البسملة في قراءة الفاتحة في كل ركعة فهو للاتباع لرسول الله ﷺ عند من أوجبها، ومن لم يوجبها فلعدم ثبوت حديثها عنده.

وأما وجه ذلك من حيث الاعتبار، فهو لأن ذكر الاسم إنما يكون في الغيبة عن مشاهدة صاحب الاسم، فمن شاهد الحق تبارك وتعالى بقلبه، كفاه مناجاته من غير ذكر اسمه، فلكل مجتهد مشهد.

وفي مواقف الشيخ محمد النفري: «أوقفني الحق تبارك وتعالى بين يديه في المنام ، وقال لي: إذا لم ترني فالزم اسمي» فما أمره تبارك وتعالىٰ بلزوم اسمه إلا إذا لم يره ، ومن هنا ألغز بعض العارفين رضي الله تعالىٰ عنه ونفعنا ببركاته وإمداداته في شعره بقوله: بذكر الله تزداد الذنوب.

أي لأن حضرة المشاهدة حضرة بهت وخرس: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

على ذلك يحمل قول الشبلي رضي الله تعالىٰ عنه ، لما قيل له: متى تستريح ؟ فقال إذا لم أر لله ذاكراً ، وذلك في حضرة الشهود ، فكأنه تمنى لجميع أهل محله دخولها ليكتفي عن الذكر بالشهود ، هكذا وجهه أهل الطريق.

وأما وجه من قال يرخي يديه بجنبيه دون أن يضعهما تحت صدره كما ورد ، فذلك في حق من شغله مراعاة كون يديه تحت صدره لا ينزلان عنه ، عن كمال مناجاة الله تبارك وتعالىٰ ، وإقباله عليه ، لأن من شأن النفس العجز عن مراعاة شيئين معاً في آن واحد إلا بقوة يمد الله تبارك وتعالىٰ العبد بها ، وإذا تعارض معنا أمران راعينا الأفضل منهما ، ولا شك أن إقبال العبد على خطاب ربه عز وجل من غير التفات إلى غيره أولى من أن يشتغل بيديه ، خوفاً أن ينزلا إلى سرته ، أو ينفكا عن وضع اليمين عن اليسار.

وأما وجه من قال: إنه يضع يديه تحت السرة ، فهو لأن اليد إذا طال وضعها على الأخرى يغفل المصلي عن مراعاتها فتنزل إلى أسفل السرة ، وأصلها إنما كانت فوق السرة ، فربما رآها بعض الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم كذلك فظن أن أصل وضعها كان كذلك فقال به ، واتباع ما صح في الأحاديث أولى ، فعلم أن وضع اليدين تحت الصدر خاص بالأكابر الذين لا يشغلهم عن الله تبارك وتعالىٰ شاغل ، وإرخاؤهما خاص بالأصاغر كما قررناه ، بهذا حصل الجمع بين مذهب الإمام مالك ، والإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنهما ، فإن الشارع أمن المجتهد على شريعته وأمته ، فلا يخالف ظاهرها إلا لأمر يعلم رضا الشارع به ، فافهم.

وأما وجه من قال: لا تصح الصلاة إلا بفاتحة الكتاب دون غيرها من القرآن ، فالأحاديث الصحيحة في ذلك ، وأقواها دليلاً على تعين قراءتها في كل ركعة حديث مسلم وغيره: **«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»** ثم فسر ذلك بقوله: **«فإذا قال العبد بسم الله الرحمٰن الرحيم قال الله عز وجل ذكرني عبدي ، وإذا قال: الحمد لله رب العالمين قال الله عز وجل: حمدني عبدي ، وإذا قال الرحمٰن الرحيم ، قال الله عز وجل مجدني عبدي»**[1] إلى آخر

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥) ، والترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب من سورة فاتحة الكتاب (٢٩٥٣) ، والنسائي ، كتاب الافتتاح ، باب ترك قراءة=

الحديث ، فإنه جعل الفاتحة جزءاً من الصلاة .

وأما وجه من قال: يجزىء المصلي قراءة ما تيسر من القرآن ، فلأن القرآن صفة من صفات الله عز وجل ، وصفاته تعالىٰ لا تقبل التفاضل من حيث نسبتها إليه تعالىٰ ، وإنما التفاضل راجع إلى القراءة والقارىء لا إلى المقروء ، وصاحب هذا المذهب يقول في نحو حديث «**لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب**»(1) أي: لا صلاة كاملة ، ففيه نفي الكمال لا نفي الصحة .

وسمعت بعض العارفين رضي الله عنه يقول: وجوب الفاتحة إنماهو على الأكابر الذين أشهدهم الله تبارك وتعالىٰ جميع معاني القرآن فيها ، فكأنهم صلوا بالقرآن كله في كل ركعة ، وعدم وجوبها خاص بمن عجز عن تعقل جميع معاني القرآن فيها ، انتهى .

وأما وجه من أمر المصلي بمراعاة الأنغام في القراءة ، فهو في حق الأكابر الذين أقدرهم الله تبارك وتعالىٰ على رفع الصوت بين يديه من غير اشتغال بذلك عنه تعالىٰ .

وأما وجه من قال: إنه يقرأ ساذجاً ، فهو في حق العاجز عن الإقبال على الله عز وجل ، مع الاشتغال بالأنغام ، وهو حال أكثر الناس سلفاً وخلفاً .

وأما وجه من منع صحة الصلاة إذا لم يعتدل اعتدالاً كاملاً ، أو لم يطمئن في الركوع ، فهو أن المبالغة في ذلك خاصة بالأكابر ، أما الركوع فلأن الضعيف لما كان قائماً ، وتجلت له عظمة الله تعالىٰ ، فخضع وركع ، فربما لم يقدر على كمال الطمأنينة لشدة ما تجلى له من عظمة الله عز وجل ، فيرجع إلى القيام بسرعة وهو الاعتدال من غير تطويل ، وكذلك القول في السجود بل ذلك أولى بالرجوع إلى السجدتين عن قرب ، لأن السجود أقرب حضرة يدخلها ذلك المصلي ، فربما حكمت عليه الهيبة من الله تبارك وتعالىٰ فارتعد ، فكاد عظمه ولحمه أن يذوب ، فأسرع بالرجوع إلى الجلوس تنفيساً له ورحمة بنفسه ، وفي القرآن العظيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

وأما وجه من قال: إنه لا بد من المبالغة في الاعتدال عن الركوع والسجود ، فذلك خاص بالضعفاء الذين لا يقدرون على طول الخضوع من شدة الهيبة التي طرقتهم ولا على توالي عظمة الله عز وجل على قلوبهم ، فتخفيفهما خاص بالأقوياء ، فيكفيهم أدنى اعتدال يتنفسون به ، فمانقل عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه خاص بالأكابر ، وما نقل عن الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه خاص بالأصاغر ، فكان ﷺ يطوّل الاعتدال والركوع تارة ويخففهما

= فاتحة الكتاب (٩٠٩) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب (٩٩٩) ، وابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب ثواب القرآن (٣٧٨٤) ، وأحمد في مسنده (٧٢٤٩) .

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأذان ، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها (٧٥٦) ، ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٤) .

أخرى ، ليقتدي به الأقوياء والضعفاء ، وفي الحديث : «**كان ﷺ إذا جلس بين السجدتين كأنه جالس على الرضف**»[١] أي الحجارة المحماة ، يعني فيرجع إلى السجود بسرعة لقوته ﷺ ، فإنه ابن الحضرة وأخو الحضرة ، وأبو الحضرة ، لا أحد من البشر أكثر جلوساً فيها منه ﷺ ، وزاده فضلاً وشرفاً ، وإنما كان يخفف ﷺ رحمة بأمته .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إنما اشترط بعض الأئمة كمال الاعتدال من الركوع والسجود رحمة بالضعفاء من الأمة ، الذين لا يقدرون على توالي شهود عظمة الله تبارك وتعالىٰ في حال ركوعهم وسجودهم ، فلو أراد أحدهم أن ينزل إلى السجود من غير اعتدال لربما زهقت روحه ، وخرجت من حضرة الله عز وجل قهراً عليها ، فلذلك شرع له الشارع الاعتدال ليستريح فيه من ثقل تلك العظمة التي كادت تفصل أعضاءه ، وقال: «**لا صلاة لمن لم يقم صلبه في الصلاة**»[٢] وفي رواية «**لا ينظر الله إلى صلاة من لم يقم صلبه في الصلاة**»[٣] أي : لا صلاة كاملة أو لا صلاة أصلاً ، أي لأن عجزه عن تحمل تلك العظمة يفسخ مقام إقباله على الله تبارك وتعالىٰ ، حتى يكاد يخرج من حضرته ، فيفوته كمال الصلاة .

ووجه لا صلاة أصلاً كون روحه خرجت من الحضرة بالكلية من شدة ضعفه وعجزه ، فعلم أن أصل الاعتدال عن الركوع والسجود لا بد منه لكل مصل من أكابر وأصاغر ، لعجزهم عن توالي عظمة الله عز وجل في الركوع والسجود من غير اعتدال أصلاً ، وإن العبد كلما ضعف خوطب بزيادة الطمأنينة في الاعتدال أكثر ، وكلما قوي خوطب بزيادة الطمأنينة في السجود أكثر .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إنما ثنى السجود دون الركوع لأن السجدة الأولى امتثال للأمر ، عكس ما وقع لإبليس ، والثانية شكر لله تعالى على حصول امتثال الأمر ، انتهى .

ووجه ما قررناه آنفاً أن من وصل إلى محل القرب في ركوعه أو سجوده فقد حصل المقصود ، فلا يرجع إلى محل البعد عادة الذي هو القيام والجلوس بين السجدتين إلا لحكمة ، وهذا الذي ذكرناه هو من حكمة ذلك ، فتأمله فإنه نفيس .

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب الصلاة ، باب ماجاء في مقدار القعود في الركعتين الأولين (٣٦٦) ، والنسائي، كتاب التطبيق ، باب التخفيف في التشهد الأول (١١٧٦) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب تخفيف القعود (٩٩٥) .

(٢) أخرج نحوه الترمذي ، كتاب الصلاة ، باب فيمن لا يقيم صلبه في الركوع والسجود (٢٦٥) ، والنسائي ، كتاب الصلاة ، باب إقامة الصلب في الركوع (١٠٢٧)

(٣) أخرجه المقدسي في الأحاديث المختارة (١٨٢) ، وأحمد في مسنده (١٠٤٣٠) .

وأما وجه مشروعية جلسة الاستراحة ، فهو أن العظمة التي تجلت للمصلي في حال سجوده لا عظمة فوقها ، لأن حضرة السجود تقرب من حضرة قاب قوسين أو أدنى كما أشار إلى ذلك حديث: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(١) فلو أن المصلي المستحضر لعظمة الله عز وجل طلب أن ينهض إلى القيام من غير جلسة الاستراحة لما قدر ، وكان كالتكليف بما لا يطاق ، فلذلك شرعت جلسة الاستراحة رحمة بالعباد.

ومن شك في قولي هذا ممن صلاته صورية لا حقيقية ، فليلزم نفسه في حال سجوده ، ويجمع حواسه كلها بين يدي الله تبارك وتعالىٰ بحيث لا يصير في ذهنه إلا الله تبارك وتعالىٰ وحده ، ولا يصير شيء من الكون في خاطره إلا ما يدعو ربه لأجله ، فإنه لو أراد أن يقوم إلى القيام من غير جلوس لا يقدر أبداً ، فكان خطور الأكوان على قلوب الضعفاء حال سجودهم من جملة رحمة الله عز وجل لهم ، وإلا تقطعت مفاصلهم وماتوا عن آخرهم ، لأن كل من تجلى له من عظمة الله تبارك وتعالىٰ ما هو فوق طاقته مات ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فإذا كان من هو من أولي العزم خر صعقاً فكيف بغيره.

فعلم مما قررناه أن من قال: طول القيام أفضل من تكرار الركوع والسجود فهو في حق الأصاغر الذين لا يطيقون تجلي عظمة الله عز وجل لهم في الركوع والسجود ومن قال بالعكس فهو في حق الأكابر الذين يحملون تلك العظمة ، فافهم ، ويؤيد ما ذكرناه من أن خطور الأكوان على قلب العبد بين يدي الله تبارك وتعالىٰ من جملة الرحمة به ، ما ورد في بعض طرق حديث الإسراء من قوله ﷺ: «**فسمعت صوتاً يشبه صوت أبي بكر ، يقول: قف إن ربك يصلي**»(٢) الحديث ، فآنسه الحق تبارك وتعالىٰ بصوت أبي بكر رضي الله تبارك وتعالىٰ عنه ، لأن تلك العظمة التي تجلت له لا يطيقها غيره من الخلق أبداً ، فتأمل ، وقد بسطنا الكلام على أسرار الصلاة في كتاب مستقل فراجعه.

وأما وجه من لم يوجب الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير ، فهو أن حضرة الصلاة خاصة بالله تعالىٰ بالأصالة فربما قويت هيبة الله عز وجل على قلب المصلي فلم يكن له التفات إلى أحد من أكابر الحضرة الإلهية ، فجعل بعض العلماء رضي الله تعالىٰ عنهم الصلاة على النبي ﷺ في حق مثل هذا مستحبة لا واجبة ، بخلاف الأكابر الذين يشهدون الله تبارك وتعالىٰ مع خلقه ، لا يشغلهم شهود الله عز وجل عن شهود خلقه ولا عكسه ، فإن الصلاة على

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢) ، والنسائي ، كتاب التطبيق ، باب أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل (١١٣٧) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب في الدعاء في الركوع والسجود (٨٧٥) ، وأحمد في مسنده (٩١٦٥).

(٢) أخرج نحوه الطبراني في الصغير (٤٣). والديلمي في مسند الفردوس (٤٦٦٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢١٣). رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله وثقوا.

النبي ﷺ بين يدي الله تبارك وتعالىٰ واجبة عليهم لأنه واسطتهم عند الله تعالىٰ ، لا يمكن أحد منهم أن يقرب من حضرة الله عز وجل في عبادة من العبادات إلا ورسول الله ﷺ إمامهم فيها.

وفي كلام الجنيد رضي الله تبارك وتعالىٰ عنه: الكامل من الرجال من لا يتحجب بشهود الله تعالىٰ عن شهود خلقه ولا عكسه ، بل يعطي كل ذي حق حقه ، اهـ، فعلم أن من قال بعدم وجوب الصلاة على النبي ﷺ فليس ذلك استهانة بمقامه ﷺ ، وإنما ذلك لعظمة ما تجلى لقلب المصلي من الهيبة ، وقد نقل القشيري رضي الله تعالىٰ عنه عن أبي بكر الشبلي رضي الله تعالىٰ عنه أنه أذن مرة ، فلما أتى للشهادتين وقف ، وقال: وعزتك وجلالك لولا أنك أمرتني بذكر رسولك ﷺ لما استطعت أن أذكره ، اهـ. ولعل هذا كان من الشبلي رضي الله تعالىٰ عنه قبل كماله.

وأما وجه من قال: تجب نية الخروج من الصلاة ، فهو أن المصلي كان في حضرة الله تبارك وتعالىٰ الخاصة ومعلوم عند أهل الأدب منا أن أحدهم إذا كان مجالساً كبيراً فلا بد في الأدب أن يستأذنه في المفارقة تعظيماً واستمالة لقلبه ، فالله سبحانه وتعالىٰ أحق بذلك ، وتأمل يا أخي إن قام جليسك من مجلسك من غير استئذان كيف تجد في نفسك منه وحشة لإخلاله بالتعظيم والأدب ، عكس ما تجد من الأنس إذا استأذنك ، وما كان أدباً مع الأكابر من الخلق فالحق تعالىٰ أحق وأولى به.

وأما وجه من لم يوجب نية الخروج من الصلاة فنظر إلى سعة رحمة الله تبارك وتعالىٰ ، ومسامحته عباده في مثل ذلك ، ولو أن ذلك كان واجباً لأمرنا الشارع به ولو في حديث.

وأما وجه من قال ينصرف من الصلاة عن يمينه ، فهو خاص بالأكابر الذين توالت عليهم المراقبة لله تبارك وتعالىٰ. وأنهم بين يديه تعالىٰ في سائر أحوالهم ، فهم لا ينتقلون حقيقة من حضرة الله تبارك وتعالىٰ إلى غيرها ، وتلك الحضرة مقدسة واللائق بها اليمين.

وأما من ليس لهم هذا المشهد ، فهم ينتقلون من حضرة الله تبارك وتعالىٰ إلى غيرها ، واللائق بمثل هؤلاء اليسار ، بدليل ما ورد من الأمر بالبداءة بالرجل اليمنى في دخول المسجد ، وباليسرى في الخروج منه ، فرحم الله تبارك وتعالىٰ أئمة الدين رضوان الله عليهم أجمعين ، ما كان أنور قلوبهم ، وما كان أعرفهم بطريق الأدب ومنازع الأحكام وما فيها من الحكمة فتأمل يا أخي في هذا المحل وتدبره ، واشكر من نبهك على ذلك عند ربك جل وعلا ، وهو كلام ابن وقته ، وإياك وتضعيف أقوال الأئمة رضي الله تعالىٰ عنهم ببادي الرأي إذا خالفوا مذهبك من غير معرفة أدلتهم وما فهموه من الحكمة ، وشهدوه من الأسرار ، واسلك طريق القوم على يد شيخ تعرف ذلك ذوقاً ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك

وأما الجواب عن السادة الصوفية رضي الله تعالىٰ عنهم فغالب مؤلفاتي جواب عنهم ،

فإنها طريق عزيزة ، وغالب الناس لم يدخل حضرتهم ، فيقل الإنكار ويكثر من الناس بحسب دخولهم حضرة القوم ، فمن دخل كثيراً أنكر قليلاً ، ومن دخل قليلاً أنكر كثيراً ولذلك ألّف القوم كتباً في بيان إصطلاحهم ومرادهم ، لمن لم يدخل حضرتهم شفقة عليه ، ليقل إنكاره عليهم ، فلا يقع في الإثم والجهل ، ويحرم من ذوق ما أنكره ، فإن كل من أنكر شيئاً على القوم بغير دليل عوقب بحرمان ما أنكره فلا يعطيه الله تبارك وتعالىٰ له أبداً.

ومن خاصية طريق القوم أن الصادق من المريدين إذا دخل طريقهم يعرف جميع ما اصطلحوا عليه بالخاصية من أول قدم يضعه في طريقهم ، حتى كأنه الواضع لذلك الاصطلاح ، وليس ذلك لغير الصادقين في طلب الطريق ولا لغيرهم من أهل سائر العلوم ، فلا بد لهم من شيخ يوقفهم على مصطلح أهل ذلك العلم ، كما هو مقرر في كتب المتكلمين والمناطقة وأهل الهندسة ، ثم إنه قد يكون ذلك الكلام الذي أنكره بعضهم على ذلك الولي مثلاً مدسوساً عليه في كتبه ، أو مفترى عليه ، كما وقع ذلك في كتب الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالىٰ عنه ، فإنهم دسوا عليه جملة من الأمور المخالفة لظاهر الشريعة في كتاب الفتوحات المكية التي ألّفها رضي الله تعالىٰ عنه ، وفي الفصوص أيضاً الذي ألّفه رضي الله تعالىٰ عنه ، كما قاله الشيخ بدر الدين بن جماعة وغيره ، وكما وقع لي في بعض كتبي ، كما مرت الإشارة إليه أوائل هذا الكتاب.

وقد يكون سبب الإنكار جهل المنكر بمصطلح القوم رضي الله تعالىٰ عنهم ، وعدم ذوقه لمقاماتهم كما في كلام سيدي عمر بن الفارض رضي الله تعالىٰ عنه في التائية وغيرها ، فالعاقل من ترك الإنكار ، وجعل ما لم يفهمه من جملة مجهولاته ، لا سيما ولم يبلغنا عن أحد من الأولياء رضي الله تعالىٰ عنهم أنه أمر الناس بترك وضوء ، أو صلاة أو صوم ، أو غيرها مما يخالف الشريعة أبداً ، بل رسائلهم كلهم طافحة بالأمر بالتقيد على الكتاب والسنة ، وعلاج أخلاقهم وأعمالهم ، وتنقيتها من الدسائس والعلل القادحة في الإخلاص ، وتحمل الأذى ، وترك الأذى ، والزهد ، والورع والخوف ، والخشية ، وربما كان المنكر عليهم بالضد من هذه الصفات كلها.

وربما تكلم العارف في نظمه أو غيره على لسان الحق تبارك وتعالى ، وربما تكلم على لسان رسوله ﷺ ، وربما تكلم على لسان القطب ، فيظن بعضهم أن ذلك على لسانه هو فيبادر إلى الإنكار ، فافهم ، وربما أنكر العالم على بعض الصوفية في بعض الأوقات رحمة بالعوام والمحجوبين ، خوفاً أن يتبعوه في ذلك الأمر بالجهل فيهلكون لا رداً على ذلك الصوفي بالكلية ، كما وقع للشيخ برهان الدين البقاعي ، في كلام سيدي عمر بن الفارض رضي الله تعالىٰ عنه ، وكما وقع لغيره في كلام الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالىٰ عنه ، ونعم ما فعلوا ، فإن هؤلاء القوم قد ماتوا والإنكار عليهم الآن لا يضرهم بل يزيدهم أجوراً

وثواباً ، ولا هكذا العوام والمحجوبون ، فإنه يجب على كل عالم إنقاذهم من الهلاك لإمكان تداركهم وتقريرنا لهم على ما فهموه من كلام القوم على غير مراد القوم يضرهم ، وربما ضر القوم أيضاً في قبورهم ، ولذلك كان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا يبلغ الكامل مقام الكمال حتى لا يخدش كلامه شيئاً من ظاهر الشريعة ، فإن الشارع ﷺ قد أمنه على شريعته ، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: الكامل لا يستر له كلاماً ولا يرمزه ، بل يتكلم بكلام يسع أفهام العلماء والعوام إذ التستر والرموز من بقايا النفوس ، انتهى.

وما رأيت في كلام القوم أوسع من كلام السادة الشاذلية رضي الله تعالىٰ عنهم أبداً.

وقد سمعت شيخي الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري رضي الله تعالىٰ عنه يقول: قد وضع الشيخ تاج الدين بن عطاء الله رضي الله تعالىٰ عنه كتاب الحكم ، وجعل كل كلمة وحكمة منها تحتوي على معاني جميع الكلام السابق واللاحق ، وقل من الصوفية من يقدر على استخراج تلك المعاني السابقة واللاحقة من كل حكمة ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول أيضاً: أقل درجات الأدب مع القوم أن يجعلهم المنكر كأهل الكتاب ، لا يصدقهم ولا يكذبهم ، انتهى ، فافهم ذلك.

وكان سيدي علي بن وفا رضي الله تعالىٰ عنه ، يقول: التسليم للقوم أسلم والاعتقاد فيهم أغنم ، والإنكار عليهم سم ساعة في إذهاب الدين ، وربما تنصر بعض المنكرين ومات على ذلك ، نسأل الله العافية ، انتهى.

فإن أردت يا أخي عدم الإنكار فاجل مرآة قلبك ، فإنك تشهد الصوفية من خيار الناس ، ويقل إنكارك ، وإلا فمن لازمك كثرة الإنكار لأنك لا تنظر في مرآتك إلا صورة نفسك ، فافهم.

إذا علمت ذلك فمما نقل عن الشيخ أبي يزيد قوله: طاعتك لي يا رب أعظم من طاعتي لك ، أي إجابتك لي يا رب دعائي في نحو قول اغفر لي وارحمني واعف عني ولا تؤاخذني أعظم من إجابتي أنا لامتثال أمرك واجتناب نهيك ، لأنك عظيم وأنا حقير ، وأنت سيد وأنا عبد ، ولذلك ستر أهل الأدب مع الله تبارك وتعالىٰ مثل ذلك ، وسموه دعاء لا أمر للحق تبارك وتعالىٰ ونهياً ، وإن كان اللفظ يؤدي ظاهره إلى ذلك.

وأول من أحدث هذا الاصطلاح الحكيم الترمذي رضي الله تعالىٰ عنه ، فعلم أنه ليس مراد أبي يزيد أن الحق تبارك وتعالىٰ تحت طاعته ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً ، عنده وعند جميع المسلمين وعلى ما قررناه ينزل معنى ما نقل عن أبي يزيد أيضاً أنه قال: طاعة الله لي أكثر من طاعتي له ، هكذا أوله بعضهم.

ومما نقل عن أبي يزيد أيضاً أنه قال: بطشي أشد من بطش الله بي ، لما سمع قارئاً يقرأ:

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]. فصاح حتى طار الدم من أنفه، وقال: بطشي أشد من بطشه بي ومراده رضي الله تعالىٰ عنه أن بطش الله عز وجل بي لا يكون إلا مخلوطاً بالرحمة لأن رحمته بعبده غلبت غضبه عليه، فهو أرحم بالعبد من والدته الشفيقة، ولا هكذا بطش أبي يزيد، فإنه محض انتقام لا يشوبه رحمة، لأن غضبه غلب رحمته لضيقه، فكان بطشه بأخيه أشد من بطش الله جل وعلا به، لا سيما عدوه إذا قدر عليه، فإنه لا يكاد يرحمه في الدنيا ولا في الآخرة، هكذا أوله الشيخ محيي الدين وغيره.

ومما نقل عنه أيضاً أنه قال لبعض مريديه: لأن تراني مرة خير لك من أن ترى ربك ألف مرة، ومراده أن المريد ليس له قدم في معرفة الله جل وعلا إذا رآه فإنه يراه ولا يعلم أنه هو فلا يعرف يأخذ عنه علماً ولا أدباً، بخلاف أبي يزيد فإنه ينتفع به ويعلمه الأدب مع الله تبارك وتعالىٰ، حتى يرقيه إلى معرفة ربه جل وعلا، والله تعالىٰ أعلم بمراده رضي الله عنه.

ومما نقل عنه أيضاً: سافرت من الله إلى الله، ولعل مراده سافرت في طريق الله إلى أن عرفته، أو سافرت في حب الله من باب قوله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[الحج: ٧٨]. وليس مراده رضي الله تعالىٰ عنه بذلك مسافة، تعالىٰ الله عند العارفين عن التحيز، ويصح أن يكون مراده ابتداء سفري إلى انتهائه بحول الله وقوته، ولا بحولي ولا قوتي.

ومما نقل عن الجنيد رضي الله تعالىٰ عنه قوله: العارفون لا يموتون، وإنما ينقلون من دار إلى دار، انتهى، أنكر ذلك بعضهم، وقال: قد قال الله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. أي تذوق الموت عند انتهاء أجلها في الدنيا، فكيف الحال؟.

والجواب كما قاله بعضهم: إن مراد الجنيد أن العارفين لما جاهدوا نفوسهم في حال سلوكهم، حتى ماتت عن جميع تصرفاتهم، وشهدت التصريف لله وحده، فكأنها ماتت في حال حياتها لأن حكمها إذ ذاك حكم الأموات في عدم إضافتها الفعل إلى نفسها، وقد ورد في الحديث «**من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر**»[1] انتهى، أي لأن التسليم لله تبارك وتعالىٰ محق نفسه حتى صارت كنفس الميت.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: طلوع الروح يهون ويصعب على العبد بحسب كثرة مجاهدته لنفسه وقلتها، فإن صعب على عبد طلوع روحه فإنما ذلك لبقية مجاهدة بقيت عليه من الميل إلى شهوات الدنيا وعلاقاتها، بخلاف من لم يبق عنده ميل إلى شيء من ذلك، فلا يحتاج إلى جذب روحه بشدة، بل حكمه حكم من ينتقل من دار إلى دار، اللهم إلا أن يكون من الأنبياء أو أكابر الأولياء، فإن صعوبة طلوع روحهم ليست بسبب

---

(١) ذكره الإمام الشعراني أيضاً في العهود المحمدية، قسم المناهي.

ميلهم إلى الدنيا ، وإنما ذلك لحبهم لطاعة الله تعالىٰ في دار الدنيا ، والقيام بشعار دينه حباً فيه تعالىٰ ، أو اهتماماً بقومهم الذين كانوا يرشدونهم إلى طريق الله تعالىٰ ، حيث ماتوا ولم يبلغوا بهم مرتبة الكمال ، ونحو ذلك من الأغراض الصحيحة ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بمراده .

ومما نقل عن الشبلي رضي الله تعالىٰ عنه أنه كان يقول : إن ذلي عطل ذل اليهود ولعل مراده رضي الله تعالىٰ عنه أن ذلي لله تبارك وتعالىٰ أعظم من ذل اليهود له تعالىٰ ، إذ الذليل يكون على قدر معرفته بعظمة من ذل له ، ولا شك أن الشبلي رضي الله تعالىٰ عنه أعرف بعظمة الله تعالىٰ من اليهود ، فذله لله أعظم من ذل اليهود له ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بمراده .

ومما نقل عنه أيضاً أنه قال : ما في الجبة إلا الله ، انتهى وضبط بعضهم الجبة بالجيم والباء الموحدة ، وبعضهم بالجيم والثاء المثلثة التي هي البدن ، ولعل مراده رضي الله تعالىٰ عنه ما ثم في جسدي فاعل إلا الله تبارك وتعالى ، نظير قول بعضهم : ما في الكونين إلا الله تعالىٰ ، فليس مراده نفي الكونين ، ولا أن الله سبحانه وتعالىٰ يحل في خلقه ، لأنه أثبت وجودهما كما ترى ، ولكن جعل الله تعالىٰ خالقاً لهم ولأفعالهم ، وكم في الكتاب والسنة من كلام يحتاج إلى تقدير ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة : ٩٣] . أي أشربوا حب العجل ، وفي الحديث : «**أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»[١] فافهم .

ومما نقل عن الإمام الغزالي رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال : ليس في الإمكان أبدع مما كان ، لعل مراده رضي الله تعالىٰ عنه أن جميع الممكنات أبرزها الله تعالىٰ على صورة ما كانت في علمه تعالىٰ القديم ، وعلمه القديم لا يقبل الزيادة وفي القرآن العظيم ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ [طه : ٥٠] . فلو صح أن في الإمكان أبدع مما كان ولم يسبق به علمه تعالىٰ للزم عليه تقدم جهل ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً .

وهذا هو معنى قول الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالىٰ عنه في تأويل ذلك : أن كلام حجة الإسلام في غاية التحقيق ، لأنه ما ثم لنا إلا رتبتان قدم وحدوث ، فالحق تعالىٰ له رتبة القدم ، والحادث له رتبة الحدوث ، فلو خلق تعالىٰ ما خلق إلى ما لا يتناهى عقلاً فلا يرقى عن رتبة الحدوث إلى رتبة القدم أبداً ، انتهى .

وقد رأيت مؤلفين للشيخ برهان الدين البقاعي رضي الله تعالىٰ عنه في تأويل هذه الكلمة عن الغزالي رضي الله تعالىٰ عنه وكلاهما لم يحم حول هذا الحمى ، فالحمد لله رب العالمين .

ومما نقل عن الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال : حدثني قلبي عن

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، باب أيام الجاهلية (٣٨٤١) ، ومسلم ، كتاب الشعر ، باب منه (٢٢٥٦) .

ربي ، أو حدثني ربي عن قلبي ، أو حدثني ربي عن نفسه تعالىٰ ، بارتفاع الوسائط ليس مراده أن الله تعالىٰ كلمه كما كلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما مراده أن الله تعالىٰ يلهمه على لسان ملك الإلهام ، بتعريف ببعض أحوال ، فهو من باب قوله ﷺ: «**إن يكن في أمتي محدثون**» بفتح الدال المشددة «**فعمر**»(١) .

وإيضاح ذلك أن من الفرق بين وحي الإلهام الذي يكون للأولياء رضي الله تعالىٰ عنهم ، وبين وحي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتعلق بتشريعهم لأنفسهم أو لأممهم ، أن النبي يشهد الملك ويسمع كلامه ، فيجمع بين الرؤية وسماع الكلام ، ولا هكذا الولي ، فإنه إن سمع كلام الملك لا يرى شخصه ، وإن رأى شخصه لا يسمع منه كلاماً ، والسر في ذلك كون النبي مشرعاً والولي تابعاً ، يدعو بشرع نبيه ﷺ الثابت المقرر عنده ، فلا يحتاج إلى مزيد انكشاف أمر ، وأما النبي فيريد ينشىء شرعاً جديداً ، وينسخ شرعاً آخر ، فلذلك احتاج إلى مزيد تأكيد وانكشاف أمر ، ففرِّق يا أخي بين وحي الإلهام وبين وحي الكلام ، تكن من العلماء الأعلام ، هكذا قرره الشيخ أبو المواهب الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه .

ومما نقل عن القوم رضي الله تعالىٰ عنهم قولهم: اللوح المحفوظ هو قلب العارف . ليس مرادهم نفي اللوح المحفوظ ، وإنما مرادهم أن قلب العارف إذا انجلى ارتسم فيه كل ما كتب في اللوح المحفوظ ، نظير المرآة إذا قابلها لوح مكتوب ، فافهم .

ومما نقل أيضاً عن القوم رضي الله تعالىٰ عنهم قولهم: دخلنا حضرة الله ، خرجنا من حضرة الله . ليس مرادهم بحضرة الله عز وجل مكاناً خاصاً معيناً فإن ذلك ربما يفهم منه التحيز للحق تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً ، وإنما مرادهم بالحضرة حيث أطلقوها شهود أحدهم أنه بين يدي الله عز وجل فما دام يشهد أنه بين يدي ربه جل وعلا فهو في حضرته ، فإذا حجب عن هذا المشهد خرج من حضرة الله تعالىٰ ، والناس في ذلك بين مقل ومكثر كما سيأتي إيضاحه في هذا الكتاب ، فمنهم من يحضر في صلاته أو بعضها ، ومنهم من يحضر في صلاته وغيرها مقدار درجة و درجتين أو ثلاث ، وهكذا إلى أن يستغرق الليل والنهار في الحضور إلا ما يسامح الله تبارك وتعالىٰ به عبده في غفلته عنه ، ونيل بعض شهواته رحمة به ، فإن مراقبة الله تبارك وتعالىٰ مع الأنفاس كلها ليست من مقدور البشر كما صرح بذلك المحققون رضي الله تعالىٰ عنهم .

ومما لم يصح نقله عن الإمام الغزالي رضي الله تعالىٰ عنه ، وأشاع بعضهم عنه قولهم أنه قال: إن لله عباداً لو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها ، وإن لله عباداً لو سألوه أن يقيم الساعة

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر (٢٣٩٨) ، والترمذي ، كتاب المناقب ، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣٦٩٣) ، وأحمد في مسنده (٢٣٧٦٤) .

الآن لأقامها ، فإن مثل ذلك كذب وزور على الإمام حجة الإسلام رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، يجب على كل عاقل تنزيه الإمام عنه ، لأنه يرد النصوص القاطعة الواردة في مقدمات الساعة ، فيؤدي ذلك إلى تكذيب الشارع ﷺ ، فيما أخبر وإن وجد ذلك في بعض مؤلفات الإمام ، فذلك مدسوس عليه من بعض الملاحدة .

وقد رأيت كتاباً كاملاً مشحوناً بالعقائد المخالفة لأهل السنة والجماعة صنفه بعض الملاحدة صنف كتاباً في تنقيص الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه ، فكتب عليه كذب والله وافترى من أضاف هذا الكتاب إلى حجة الإسلام ، انتهى .

وكذلك ذكر الشيخ مجد الدين الفيروزأبادي صاحب القاموس في اللغة أن بعض الملاحدة صنف كتاباً في تنقيص الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه ، وأضافه إليه ثم أوصله إلى الشيخ جمال الدين بن الخياط اليمني ، فشنع على الشيخ أشد التشنيع ، فأرسل إليه الشيخ مجد الدين يقول : إني معتقد في الإمام أبي حنيفة غاية الاعتقاد ، وصنفت في مناقبه كتاباً حافلاً ، وبالغت في تعظيمه إلى الغاية فأحرق هذا الكتاب الذي عندك ، أو اغسله فإنه كذب وافتراء عليَّ ، انتهى .

وكذلك مما لم يصح عن الشيخ أبي يزيد رضي الله تعالىٰ عنه ما نقله بعضهم من أنه قال : إن آدم عليه السلام باع حضرة ربه بلقمة ، انتهى فإن الشيخ أبا يزيد من جملة مشايخ رسالة القشيري الجامعين بين الشريعة والحقيقة ، فكيف يصدر عنه مثل هذا الكلام الجافي في حق السيد آدم عليه السلام ، فافهم .

وكذلك مما لم يصح نقله عنه رضي الله تعالىٰ عنه ما نقله بعضهم من أنه قال : لو شفعني الله تعالىٰ في الأولين والآخرين لم يكن ذلك عندي بكبير ، غاية الأمر أنه شفعني في لقمة طين ، انتهى فإن ذلك كلام من لم يشم رائحة الأدب ، فإنه يبطل خصوصية رسول الله ﷺ ، انتهى .

وقد فتحت لك يا أخي باب الأجوبة عن علماء الإسلام من الفقهاء والصوفية رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين ، فقس على ذلك ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ : عدم قطعي البر الذي جعله الله تعالىٰ على يدي للفقراء إذا كفر أحد منهم واسطتي ، وكذلك لا أقطع تعليمه العلم والأدب إلا بطريق شرعي ، وذلك لأني أعلم أن من لم يشكر من أحسن إليه فقد وفر له الأجر عند الله تعالىٰ ، ومن شكره فربما جعل الله تعالىٰ ذلك الشكر في مقابلة إحسانه وتعليمه ولا يقدر على التخلق بهذا الخلق إلا من عامل الله تعالى دون خلقه ، وأما من يعامل الخلق فمن لازمه غالباً أن يقطع بره وحسنته وتعليمه عمن أساء معه الأدب .

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إياك أن تطلب من العبيد مجازاة على إحسانك إليهم ، فإنك تخسر أجرك عند الله تعالىٰ ، وإنما الأدب أن تعاملهم بالبر والخير ، لكونهم عبيد الله لا غير ، وما ألذها من معاملة إذا اطلع الحق تعالىٰ على قلبك ، ووجد الباعث لك على إكرام الخلق ، إنما هو كونهم عبيد الله تعالىٰ ، وفي القرآن العظيم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

وكذلك القول فيمن يحسن إلى الخلق ليجازوه بنظير فعله ، فإنهم إذا لم يجازوه يندم ويتأثر ، فأحسن يا أخي إلى من كفر بنعمتك التي كنت واسطة له فيها ، ولو كرهت نفسك ذلك ، فإن فيه من رياضة النفس ما لا يخفى.

وقد عاتب الله تبارك وتعالىٰ السيد أبا بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه لما قطع نفقة مسطح ، وشفع تعالىٰ فيه عند أبي بكر رضي الله تعالىٰ عنه ، بقوله عز وجل: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾ [النور: ٢٢]. انتهى فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به والله سبحانه وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم طلبي الثواب من الله تبارك وتعالىٰ على شيء من الأعمال التي أبرزها عز وجل على شيء من جوارحي ، إلا من باب المنة والفضل ، لعلمي بأن نعم الدنيا والآخرة ما خلقها الله تبارك وتعالىٰ إلا لنا ، لأنه غني عن العالمين ، فمن الأدب طلب ذلك الثواب الذي جعله في مقابلة تلك الطاعة إظهاراً للفاقة والحاجة ، ومن لم يطلب ذلك الثواب فهو قليل الأدب ، لإظهاره الغنى عن فضل ربه جل وعلا ، فافهم.

وقد شنع العارفون رضي الله تعالىٰ عنهم على من قال: لا يبلغ الفقير مقام الكمال حتى لا يكون له إلى الله حاجة ، اهـ. لأن ظاهره وصول العبد إلى الغنى المطلق وذلك محال إذ العبد لا يستغني عن الله تعالى طرفة عين ، ولو لم يكن إلا خروج النفس ودخوله فتارك النفس يموت.

ويصح أن يجاب عن ذلك: بأن مراده الاكتفاء بعلم الله تعالىٰ فيه ، وبما قسمه له ، وأن الحق تعالىٰ قد أغناه عن السؤال بالقسمة الإلهية ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

ووالله إني لأرى الفضل لله تعالىٰ الذي أهلني للوقوف بين يديه ، ولو خلف جميع العصاة المارقين الفاسقين ، رجاء أن يصيبني شيء من الرحمة التي لعلها أن تنالهم وأنى لمثلي أن يقف بين يدي رب العالمين في صلاة أو غيرها مع جهله بآداب تلك الحضرة المقدسة ، فالحمد لله الذي لم يطردني كما طرد تاركي الصلاة ، فلم يمكن أحداً منهم أن يقف بين يديه ،

وفي بعض الكتب الإلهية يقول الله عز وجل: «**ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو نار لو لم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً لأن أطاع**» انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا يليق بأحد من أمثالنا أن يسأل الله تعالىٰ ثواباً على عبادته، وإنما اللائق به أن يسأل العفو عما جناه في تلك العبادة من سوء الأدب، وعدم الخشوع فيها لما ورد أن الصلاة إذا لم يكن فيها خشوع تلف كما يلف الثوب الخلق، ثم يضرب بها وجه صاحبها.

وسمعته أيضاً رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا يصح لعبد أن يسأل ربه ثواباً على أعماله من باب المنة والفضل إلا إن أحكم مقام التوحيد لله تعالىٰ في الفعل، وإلا فمن لازمه غالباً طلب الثواب في مقابلة عمله كما عليه طائفة العباد الذين لم يسلكوا الطريق، فيقول الحق جل وعلا لأحدهم، ادخل الجنة برحمتي، فيقول: بل بعملي، كما ورد[1]، ولو أن أحدهم ذاق التوحيد لم يقل لربه مثل ذلك، لأنه جهل وخروج عن أدب العبيد، فإن من شأن العبد أن يخدم سيده قياماً بواجب حق السيادة لا لعلة أخرى من علل النفس.

وإيضاح ذلك: أن من شهد الفعل لله تعالىٰ كشفاً زال عنه طلب الثواب على طاعته جملة واحدة لأن أحداً لا يطلب ثواباً قط على فعل غيره.

وسمعته أيضاً رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إنما شرع ﷺ للمصلي حين يسلم من صلاته أن يقول، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، ثلاث مرات، ليتنبه المصلي على نقص صلاته، وعدم الحضور مع الله فيها، وكثرة الغفلة، وحديث النفس وغير ذلك إذ الاستغفار لا يكون إلا عن ذنب أقل ما هناك شهود نسبة الطاعة إليه، مع كونه غافلاً عن شهود كون الحق تعالىٰ هو الخالق لها، وما قال عارف قط: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. إلا على وجه التلاوة فقط، لا على وجه كونه له شركة في الفعل إلا بقدر نسبة التكليف فقط، تعالىٰ فعل الله عز وجل عنده ـ أي العارف ـ عن الشركة، فافهم، وبالجملة فمن تأمل وجد حكم وقوف أمثالنا بين يدي الله تبارك وتعالىٰ حكم العبد المجرم الذي فسق في حريم الوالي وعرضوه عليه ليعاقبه فلا يكاد يخطر على باله قط أنه يخلع عليه خلعة، وإنما يسأل ربه عز وجل في العفو عنه وترك العقوبة، وما أبردها على كبد ذلك المجرم إذا سمع بأن الوالي عفا عنه، وترك معاقبته وحرقه بالنار، ووضع الخوذة المحماة على رأسه، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم تكديري إذا قدر علي السهو والنسيان حتى صليت

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٦٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٦٢٠)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٩٥).

صلاة بلا طهارة مثلاً ، بل أشكره تبارك وتعالىٰ الذي منَّ عليَّ بصورة الوقوف بين يديه ، ثم أشكره ثانياً على ذلك السهو أو النسيان ، لأنه كان سبباً لأمري بالوقوف بين يديه ثانياً بطهارة ، أو لطول مناجاتي له سبحانه وتعالىٰ بسجود السهو ، أو تدارك ما سهوت عنه مثلاً ، ولو أني صليت الأولى متطهراً لربما لم أكن أقف بين يديه تبارك وتعالىٰ ثانياً في ذلك الوقت ، بل من شأن المحب من الخلق إذا غضب عليه أستاذه أن يعمل الحيل التي يتوصل بها إلى الوقوف بين يديه بالقصد ، ليفتح باب الكلام معه ، فافهم.

ثم إني بعد ذلك أكثر من الاستغفار حيث غلبت عليَّ الغفلة عن الطهارة حتى قمت بين يدي رب العالمين من غير طهارة ، وقد يؤاخذ العبد بالنسيان في بعض فروع الشريعة ، ويحتاج صاحب هذا الخلق إلى عينين ، عين ينظر بها إلى نعمة الوقوف بين يدي الله تبارك وتعالىٰ ولو محدثاً ، وعين ينظر بها إلى تقصيره واشتغاله بأمور الدنيا حتى غفل عن صلاته بلا طهارة ، فافهم ذلك والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم طلب نفسي مقاماً عند الخلق ، وذلك من أكبر نعم الله تبارك وتعالىٰ عليّ ، لأن من طلب مقاماً عند الخلق عدم المقام عند الله تبارك وتعالىٰ ، وعند الخلق ، ومن طلب المقام عند الله تعالىٰ حصل له المقام عند الله عز وجل وعند الخلق ، هذا فيمن يطلب المقام عند الناس لغير غرض صحيح ، وإلا فقد كان سيدي أحمد الزاهد رضي الله تعالىٰ عنه يقول لمن سأله في حاجة عند أمير لا يعرف مقامه: اذهب يا أخي وخذ معك أحداً من أبناء الدنيا ، وانتظرني عند دهليز ذلك الأمير ، فإذا رأيتماني جئت فهرولا وقبلا يدي ، وأعضداني من تحت إبطي ، ليبادر غلمان ذلك الأمير إلى تعظيمي ، تقليداً لكما ، فيدري بذلك الأمير فيعظمني كذلك تقليداً لتقضى حاجتكم ، بخلافي إذا شفعت عنده وهو لا يعرفني ، فإنه يتعبني في تحويل قلبه. اهـ.

وتقدم في هذا الكتاب أن مما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به علي قضائي للحوائج عند الأمراء والأكابر من غير تقدم تعريفهم بي ، وقل من يقع له ذلك إلا بنقص دين في طريق قضاء تلك الحاجة من إظهار عبادة أو ورع أوزهد بحضرة جماعة ذلك الأمير ، ليوصلوا علم ذلك إليه ، بل بعضهم سمعته يقول: اذكرني بخير عند الأمير ، وقل له: هذا ما هو من الفقراء النصابين في هذا الزمان ، وما بقي في مصر أقدم هجرة منه في طريق الفقراء. اهـ.

فليحذر الشافع عند الأمراء من دخول الرياء في مثل ذلك ، وليحرر نيته لمصالح العباد كما قدمنا عن سيدي أحمد الزاهد رضي الله تعالىٰ عنه ، وصورة شفاعتي عند من لا يعرفني أني أتوجه إلى الله تبارك وتعالىٰ في تحويل قلب ذلك الأمير ، فإذا وجدت أثر الإجابة ذهبت إليه ، وإلا توقفت عن الشفاعة إلى محل قابل في وقت آخر ، فإن من لم تكن له همة تنفذ فليس في شفاعته إلا بخس مقامه عند ذلك الأمير وأضرابه ، وإقامة الحجة عند الله تعالىٰ على ذلك

الأمير ، فأساء في حقه ، وسيأتي إيضاح ذلك في عدة من المنن .

وكذلك حكمي في مكاتبات الأكابر أني لا أكاتب أحداً منهم إلا إن حصل لي علامات القبول ، بأن تصير كل شعرة فيّ توقن بقبول شفاعتي ، فإن لم تحصل تلك العلامة فلا أكاتب أحداً في ذلك ، وربما يقسم علي صاحب الحاجة بأن أكتب له ولو بلا وارد ، فاكتب له كتاباً ، فلا تقضى له حاجة لأن الوارد إذا لم يحصل عند الفقير فلا فرق بينه وبين آحاد الناس من العوام ، فلا يقرأ الأمير له كتاباً فضلاً عن العمل به .

وقد جربت أن كل من لم يذهب بكتابي على أثر الوارد لا تقضى له حاجة لاشتغالي عن صاحب الحاجة بأمر آخر ، بخلاف من ذهب بالكتاب على أثر الوارد فإني أصير ألاحظه حتى يقف بين يدي الأمير ، فأساعده بالهمة في قضاء حاجته .

ومما جربته : أن كل من أخذ لذلك الأمير كتاباً آخر من أحد مع كتابي لا تقضى له حاجة ، فليستخر صاحب الحاجة ربه في جميع أهل بلده مثلاً ، فكل من ترجح عنده في الاعتقاد أخذ مراسلته ، فإن حاجته تقضى إن شاء الله تعالىٰ ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : عدم قبولي مرتباً من بيت مال المسلمين أو مسموحاً ، ولو سألني الولاة في ذلك لعلمي بأن مال بيت المال إنما هو معد لصالح عسكر الإسلام من علماء ومقاتلة ، تسافر في التجاريد ، وليس لي قدرة على السفر لمثل ذلك ، ولا أنا معدود من العلماء العاملين الذين يحمون الدين ، لضعف يقيني وشوكتي ، وأيضاً فإن أحداً لا يتوصل إلى ترتيب المرتب والمسموح إلا بذل النفس في طريقة عاجلاً وآجلاً ، وأيضاً فإن الله تبارك وتعالىٰ قد رزقني القناعة ، فلو أني وجدت كسرة يابسة قنعت بها ، ومن كان كذلك لا يحتاج إلى مال السلطان ، وهذا كان مذهب جمهور العلماء والصالحين سلفاً وخلفاً ، فبهداهم أقتدي ، ولا تغتر يا أخي بكثرة من يترخص في مثل ذلك من أهل زمانك فإنها طريق تجر إلى العطب ، هذا لو أعطي مثل ذلك وهو في بلده من غير سؤال ، فكيف بمن يسافر لأجل ذلك من مصر مثلاً إلى الروم ، ويزاحم عسكر السلطان .

وقد رأيت شخصاً صغير العمامة ينكر على فقيه كبير العمامة ، ويقول : هذا إسراف ، وله أربعون نصفاً مسموحاً في الشام من جهة السلطان ، ثم يسافر إلى بلاد الروم يطلب أن يرتبوا له شيئاً آخر ، مع أنه ليس عنده فقراء مجاورون ، ولا عليه واردون ، فلما وصل إلى الروم جلس في طريق اصطنبول ، وأرسل وراء الوزير ليحضر عنده دون أن يذهب هو إليه ، فقال الوزير سبحان الله ، يسافر من بلاد الشام إلى هنا في طلب الدنيا ، ويتكبر علينا مع دعواه الولاية ، ويطلبنا نذهب إلى عنده مع عدم حاجتنا إليه ، وعدم رياضة نفوسنا ، ثم عاكسه فيما طلب ورده إلى مصر من غير قضاء حاجة فعاتبته ، وقلت له . كبر أنت عمامتك مثل الفقيه ، واقنع

بالأربعين نصفاً كل يوم ، فإنه أفضل لك من تصغير العمامة ، وإرخاء العذبة ، وأنت تحب الدنيا ، فما درى ما يقول ، وافتضح .

وقد أدركت بحمد الله تبارك وتعالىٰ جمعاً كثيراً من مشايخ الطريق ، وعلماء الإسلام ، كانوا كلهم يردون عطايا الولاة ، احتياطاً لأنفسهم ، وكانوا يقنعون بالخبز والملح ، اقتداء برسول الله ﷺ ، وعملاً بوصيته في قوله ﷺ : «**ليكن بلغة أحدكم من الدنيا كزاد الراكب**»(١) .

وقد كان مالك بن دينار رضي الله تعالىٰ عنه يأكل الخبز بالبقل وبالخل وبالملح ويقول : من رضي بهذا من الدنيا لم يحتج إلى الناس ، ولا إلى الوقوف على أبواب الولاة .

فعلم أن كل فقير لم يقنع بما ذكرناه ، فمن لازمه طلب الدنيا غالباً بلسانه أو بقلبه لأجل ملابسه ومطاعمه ومشاربه وسرايره وخدامه ، إلا أن يزرع أو يتجر أو يعمل حرفة ، كما كان السلف الصالح يفعلون .

وقد كان الفضيل بن عياض رضي الله تعالىٰ عنه يقول : لأن آكل الدنيا بالطبل والمزمار أحب إليَّ من أن آكلها بديني ، ودخل عليه الخليفة مرة فرسم له بألف دينار ، فردها ، فقالت امرأته من الخباء : دع منها للصبيان قوتِ يومهم فلم يفعل ، ثم قطع بساطاً بالياً كان تحته نصفين ، وقال : اشتروا بهذا طعاماً كلوه اليوم ، وما مثلي ومثلكم إلا كبعير ند من أهله فصار كل من قدر عليه طعنه فأكلكم من ثمن هذا البساط خير لكم من أن تطعنوا فضيلاً . ا هـ .

ولما رأى الناس قد أقبلوا عليه بهداياهم لأجل تجرده من الدنيا اشترى له جملاً بمكة ، فكان يسقي عليه ويتقوت هو وعياله منه ، حتى مات رضي الله تعالىٰ عنه .

وقد أرسل زين الدين الاستادار إلى الشيخ جلال الدين المحلي رضي الله تعالىٰ عنه ألف دينار ، فلم يردها ووضعها عند شخص ، وصار يرسل له المحتاجين واحداً بعد واحد إلى أن صرفها كلها على المديونين والمحتاجين والعاجزين عن الكسب وأوهمه أنه قبلها لنفسه ، وما علم الناس بذلك إلا بعد موت الشيخ رضي الله تعالىٰ عنه ورحمه . ا هـ .

وكان الشيخ له دكان تحت الربع يبيع فيه القماش ، ويغلقه من الظهر ، ثم لا يخفى عليك يا أخي أن طالب المسموح لا بد أن ينهى في قصته أنه من أهل العلم والخير والفقر ، وليس له ما يقوم به ولا بعياله والمترددين إليه ، وينسى كون الحق تبارك وتعالىٰ يطعمه ويسقيه إلى أن شابت لحيته من حيث لا يحتسب ، لم ينسه يوماً واحداً .

فانظر يا أخي كيف زكى نفسه بالعلم والخير ، وشكا ربه تبارك وتعالىٰ لعباده بغير حق ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣١٩٩) ، والحاكم في المستدرك (٧٨٩١) ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٣٩٥) ، وهناد في الزهد (١/ ٣٦) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٩٦) .

لأجل زيادة شهوات الدنيا وربما كان في ذلك اليوم الذي شكا ربه عز وجل فيه أوسع من بيت النبوة ، وربما كان حاله بخلاف ما أنهى من الخير والعلم والفقر ، ثم إن الحيلة التي يعملها صاحب المسموح بعد أن أعطيه لا تخلصه عند الله تبارك وتعالىٰ فإن المعصرة التي يؤجرها للمعاصري أو الدكان الذي يؤجره للقصاب مثلاً كل يوم بنحو أربعين نصفاً ، لولا توفر ما كان أصحاب حملة الوزر ، يأخذونه ما أعطي تلك الأجرة أبداً ولو حبس أو ضرب ، لكنها لم تتوفر له بل أخذها صاحب المسموح منه وكان لسان حال صاحب المسموح يقول للمعاصري أو الجزار: أعطني ما كان أصحاب حملة الوزر يأخذونه منك ، لأني شيخ أو عالم.

وقد سألني الأمير جانم الحمزاوي لما سافر إلى الروم أن أكتب له قصة معه للسلطان، ليأتيني بمرسوم للمعصرة الموقوفة علي فلم أجبه ، فراجعني في ذلك وقال: هذا هو ليس لك وإنما هو للفقراء ، فكتبوا القصة فلما رأيتها ، وجدت فيها أن فلاناً فقير ، وعليه الوارد كثير ، وليس له ولا لأولاده ما يقوم بهم ، وقالوا: لا بد في الإنهاء من ذلك ، فقطعت القصة لأجل ذلك ، اهـ والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حمايتي من الأكل من هدايا الظلمة وأعوانهم من العمال ، ومشايخ العرب والكشاف ، وشيوخ البلاد والمباشرين ، وهذا الأمر قليل من يقع له الحماية منه في هذا الزمان، ثم من أقل ما يحصل لمن أكل من هداياهم ، أو لبس منها الركون إليهم بالقلب وكراهة عزلهم من ولايتهم ، ولو ظلموا وأهلكوا الحرث والنسل ، وقد قال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]. فنهانا عن الركون ، وأوعدنا بإمساس النار ، فقل من يأكل طعامهم مثلاً يريد أن يعمل بوصية الله تبارك وتعالىٰ ، فلا يقدر على قلبه يطاوعه ، وفي الحديث «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها**»[1] فلا يخرج عن ذلك إلا من كان يرى إحسان الناس له من جملة إحسان الحق تعالىٰ إليه ، كما عليه أهل الله تبارك وتعالىٰ فإنهم لا يرون محسناً إلا الله تعالىٰ ، فمثل هؤلاء لا يضرهم ما يأخذونه من الظلمة إلا إن علموا أنه حرام مثلاً ، لأنهم يرون الخلق مستخلفين كالوكلاء للحق تبارك وتعالىٰ في إنفاق رزقه على عباده على الوجه الشرعي ، فلذلك جبلت قلوبهم على حب الله وحده ، فلا يضرهم ما يأخذونه من الظلمة بشرطه ، لعدم وقوفهم معهم دون الله تبارك وتعالىٰ ، فافهم.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إياكم أن تأكلوا من طعام من يعتقد فيكم الصلاح من الأمراء وغيرهم ، فإنكم تأكلون بدينكم ، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يرد

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٤٦٦) ، والشهاب في مسنده (٥٩٩) ، والديلمي في مسند الفردوس (٢٥٨٨) ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١٤٩)

هدايا الولاة ، ويقول لهم : إنما صحبناكم لنأخذ بيدكم في الشدائد وإذا أكلنا من طعامكم المخلوط بالحرام والشبهات عجزنا عن تحمل ما يصيبكم من الشدائد وعدمتم النفع بنا ، فيرضون منه بذلك . اهـ .

وقد أرسل الباشا قاسم إلى شيخنا الشيخ محمد الشناوي رحمه الله تعالىٰ نحو خمسمائة دينار ، وبعض ثياب فردها عليه ، وقال : لو أني بعت ما عندي من روث بهائمي لجاء أكثر من هذه الهدية ، فرضي الله تعالىٰ عن أهل الصدق .

ومما وقع لي أن شخصاً من جند السلطان أرسل لي في رمضان صحن كنافة مبخرة ، ونثر عليها السكر والفستق ، فأكلت منها لقماً ، فقسا قلبي جمعة ، وعجزت عن إخراجه بالقيء ، وكذلك وقع لي أنني أفطرت عند شخص من مباشري القلعة في رمضان ، فرأيته صنع طعاماً كثيراً نحو خمسة عشر لوناً ، فعلمت أنه متهور في مكسبه ، فأكلت لأجل خاطره ثلاث لقم بورق فجل ، فرأيت تلك الليلة قائلاً يقول لي : استعد لمن يحاذيك على الصراط من أجل الثلاث لقم التي أكلتها الليلة بورق الفجل فأردت أن أتقيأ ما أكلت فلم يتيسر لي ذلك ، فإذا كان هذا في مثل ثلاث لقم بفجل فكيف الحال فيمن يشبع ، فأسأل الله تعالىٰ من فضله أن يحمني وإخواني من مثل ذلك بقية أعمارنا.آمين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : إنصافي لكل من عاملني ببيع أو شراء أو استئجار رزقه في ملكي المجازي ، فلا أطلب منه شيئاً زائداً على القيمة ، بل إن بعته شيئاً سامحته بشيء من الثمن ، وإن اشتريت منه شيئاً زدته في الثمن ، ولو قدر أن المشتري أعطاني شيئاً زائداً على السعر الواقع لا أقبله منه ، ولو قال لي : إنه بطيبة نفس ، أقول له : أنا أعرف ذلك ولكن خاطري أنا ما هو بذلك طيب .

وهذا كان من خلق سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ ، وفيه الهروب من تحمل منن الناس ، ومن الأكل بالدين فإنه ما سامحنا بزيادة عما يعطيه للناس مثلاً إلا لاعتقاده فينا الخير والصلاح ، ونقل مثل ذلك عن الشيخ جلال الدين المحلي رحمه الله تعالىٰ ، شارح المنهاج ، كان إذا أعطاه البائع شيئاً زائداً لا يأخذه ، فلما عرفه السوقة وعرفوا صلاحه كان يرسل غيره فيشتري له ، ويقول : إياك أن تقول هذا لجلال الدين ، فإني لا آكله .

وكذلك لا آخذ خراجاً قط ممن زرع في رزقتي ، وحصل للزرع جائحة من دودة أو فأر أو هياف[1] ، أو استأجرها لتروى فشرقت تلك السنة ، لأنه قد خسر عمله وبذره ، ولم يستفد من ورائي شيئاً لا سيما أن أغناني الله تعالىٰ عن أكل ماله ، فكيف استحل ماله .

---

(١) الهيف : ريح حارة تأتي من نحو اليمن ، نكباء بين الجنوب والدبور تُيبس النبات وتعطش الحيوان وتنشف المياه . اهـ . القاموس المحيط مادة (هيف) .

قلت: ومما وقع لي أن بعض التجار كان ينكر عليّ ، فبعث له جبة فاشتراها بزيادة عن ثمنها بعشرة أنصاف ، رددت عليه العشرة فردها ، وقال: إن خاطري بذلك طيب فلم أقبلها ، فاعتقدني من ذلك اليوم ، وهو صاحبي إلى الآن ، فالحمد لله الذي جعلني أولى بإخواني من أنفسهم ، وراثة محمدية ، وكذلك لا آخذ من المعاصري والنوتي أجرة أيام بطالة الدواليب والمراكب ، لعدم الحب الذي يعصره ، أو لعدم من يحمل في المركب شيئاً في الشتاء ، وليقدر الإنسان أن المعصرة كانت تحت يده هو أو المركب من غير أحد يستأجرها ، فماذا كان يصنع ، وكذلك لا أقبل شيئاً من الأجرة المعجلة ولو بطيبة نفس المستأجر ، وإنما أصبر حتى يحصل له الانتفاع بتلك المعصرة المستأجرة مثلاً ثم آخذها منه على العادة في مثل ذلك ، وذلك لاحتمال أني أموت أو هو يموت قبل الانتفاع ، فتشتغل ذمتي وذمة ورثتي ، ويقع بينهم وبين ورثة المستأجر النزاع ، وربما هاف الزرع أو أكله الفأر ، وربما مات ولم يقدر ورثته من بعده أن يزرعوا تلك الرزقة ، وكذلك لا أضع في عيني لبن امرأة أجنبية إلا إن أخذت قيمته مني من جديد ، أو رغيف ، وذلك مكافأة لها على هديتها ، أو لما في اللبن من رائحة حق الولد الرضيع ، لا سيما إن كانت مستأجرة للإرضاع ، أو قليلة اللبن ، ولا يمكن معرفة طيب نفسه ولا عدم طيبها لعدم نطقه وصغره.

وهذه الأخلاق لم أجد لها فاعلاً من أهل عصري ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: شهودي أن جميع ما أقاسيه من الشدائد والأهوال في حقي أو حق غيري ، إنما هو من رحمة الله تبارك وتعالىٰ بي ، إذ هو كالتأسيس والإدمان ، لتحمل الشدائد والأهوال التي بين أيدينا يوم القيامة ، والإنسان لا يهوله شيء إلا إن ورد عليه جديد مما لم يكن له به عادة ، وأما من ذاق شدائد الدنيا وأهوالها ، فإن أهوال يوم القيامة تهون عليه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا ينبغي لفقير أن يكثر من تحمل الشدائد عن إخوانه إذا دخل النصف الثاني من القرن العاشر ، فإنه يسيء في حقهم الأدب ولا يشعر ، وذلك لأن البلاء يكثر في ذلك الزمان حتى يعم القرى والأمصار وكل بلاء وقع في ذلك الزمان فإنما هو كالإدمان ، لتحمل البلاء الذي يأتي بعده ، فمن الإحسان للمريد باطناً أن يتركه شيخه يتقلب في بلائه حتى يخرج بنفسه هو منه ، ولكن يحتاج صاحب هذا المقام إلى كشف صحيح ، وميزان دقيق ، ليعرف أعمار الناس الذين يتحمل حملتهم ، أو يتركها ، فقد يحمل عن إنسان يظن أن عمره طويل فيموت في ليلته ، وكان الأولى له أن لا يحمل عنه ففاته أجر التحمل ، فلا يحمل إلا عن من عرف طول عمره إلى حصول بلاء آخر ، فإنه هو الذي يحتاج إلى الإدمان.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: ينبغي للشيخ إذا رأى عند المريد ضجراً وسخطاً على المقدر أن يتحمل عنه بقدر ما يزول به الضجر ، فإن ذلك أولى من وقوعه في الضجر وسوء الأدب مع الله تعالىٰ. اهـ. فاعلم ذلك ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، انتهى ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حمايتي من الأكل من طعام من شفعت عنده شفاعة ، أو من طعام من شفعت فيه شفاعة أو قبول هدية على ذلك ، لا سيما إن وقع ذلك قبل الشفاعة ، أو قبل قبولها ، ولكن إن حلف أنه لا يستردها أطعمتها للفقراء والمساكين ، أو بعتها وفرقت ثمنها عليهم ، وكذلك قد حماني الله تبارك وتعالىٰ من قبول هدية أهداها لي من سألت الله تبارك وتعالىٰ في قضاء حاجته وقضيت ، وهذا الخلق وما قبله قد صارا غريبين في هذا الزمان ، بل بعضهم يأخذ الهدية قبل أن تقضى الحاجة ، ويأكلها ويتوسع فيها.

وقد كانت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها تقول: «**من شفع لأخيه شفاعة فأهدى له على ذلك شيئاً فقبله فقد أتى باباً من الكبائر**»(١) اهـ.

وقد وقع أني توجهت إلى الله تبارك وتعالىٰ في قضاء حاجة لإنسان فقضيت فأعطاني مالاً جزيلاً فلم أقبله منه ، وقلت له: لا يخلو ما سألت الله تبارك وتعالىٰ ، أن يفعله لك من أحوال: إما أن يكون كتبه عليك أو لك ، أو لم يكتبه عليك أصلاً ، فإن كان كتبه عليك في الأزل فلا أقدر أن أرد عنك ما قدره الله تعالىٰ عليك ، وإن كان كتبه لك فلم أعمل لك شيئاً أستحق به أجرة ، وإن كان لم يكتبه عليك ولا لك فما هناك شيء فعلته لك أصلاً ، وما بقي إلا أن الحق تبارك وتعالىٰ كتبه عليك ، وجعلني واسطة في دفعه عنك بدعائي وتوجهي ، من باب توقف المسبب على السبب ، فلا أطلب أجري إلا من الله تبارك وتعالىٰ ، وما أرضى أن يكون أجري أمراً يفنى ويضمحل في هذه الدار ، فأخذ الرجل ماله وولى ، وصار يقول شيء لله المدد ، ما كنت أعرف مقامك ، ثم إن المرض اشتد بولده فدخل عليه شيخ لا ينبغي تعيينه ، فقال اخرج لي عن خمسين ديناراً وأنا أضمن سلامة ولدك من هذا المرض ، فأعطاه الخمسين ديناراً فأصبح الولد ميتاً فطلب منه الخمسين ديناراً فلم يعطها له إلى وقتنا هذا. اهـ.

وذلك وقع لهذا الشيخ أنه دخل على صلاح الدين ناظر الخواص لما تكسح ، فقال له: أعطني مائة دينار واشتر لي رزقة خراجها مائة دينار ، وأنا أخلصك من الكساح في هذا الوقت ، فإني أنا الذي كسحتك لما رددت شفاعتي في الوقت الفلاني ، فشاغل الشيخ بالكلام ، وأرسل قاصده يقول لي: إن سيدي يقول لك: إن فلاناً ادعى أنه هو الذي كسحه ، ويطلب منه مائة دينار ورزقة خراجها كذلك ، فهل تعلم أن له قدرة على مثل ذلك فأعطيه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧٤٨).

ما طلب وعليك الدرك ؟ فقلت له الأمر راجع إلى اعتقادك أنت فيه فإن كان اعتقادك فيه القدرة على ذلك فأعطه وإلا فلا تعطه ، وخفت أني أقول له إنه نصاب ، ويكون سبق في علم الله أنه يعافيه على يده ، فأكون سبباً في منع شفائه ، أو أقول إن له قدرة على ذلك ، فأكذب وربما يبلغه أنني قلت أنه نصاب ، فيسلط علي الزوالق الذين حوله فالله يغفر له ما جناه من هذا النصب ، وقد توفي إلى رحمة الله تعالىٰ في هذه السنة ، واستراحت العباد والبلاد منه ، فاعلم ذلك ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم قبولي هدية أعلمني بها صاحبها قبل أن يحضر بها ، وذلك لعلمي بأن من شأن النفس أنها تصير مستشرفة لما وعدت به ، كأنه حق لازم على الذي وعد ، فلا تزال تستشرف لتلك الهدية حتى تحضر ، وقد نهى النبي ﷺ عن أخذ كل ما استشرفت له النفس [1]، وهذا خلق لم أر له في عصري هذا فاعلاً ، ثم إن صاحب تلك الهدية إن غلبني وأدخلها بيتي لا آكل منها شيئاً ، وإنما أطعمها للفقراء والمساكين والمترددين.

وقد بلغنا أن شخصاً قال لسيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه: قد خرجت للفقراء عن سلة عنب ، فأرسل معي أحداً من الفقراء يحملها ، فأبى الشيخ وقال: نحن لا نأكل شيئاً أعلمنا به قبل أن يحضر عندنا ، فالحمد لله الذي جعل لنا بهذا الشيخ أسوة.

وكذلك بلغنا عن سيدي أبي الحسن أيضاً أنه كان لا يقبل قط رزقة ولا مرتباً ، وقال لا أربي أصحابي إلا على التوكل ، والأكل من حيث لا يحتسبون بشرطه ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم البخل بشيء دخل يدي على مستحقه من النقود والطعام والثياب وغير ذلك ، وهذا الخلق قد أعطاه الله تعالىٰ لي من حين كنت صغيراً قبل أن أعرف ما جاء في ذم محبة الدنيا ، وقبل أن أعرف رميها نفاقاً ورياء للناس ، وهو خلق غريب لا يوجد اليوم إلا في أفراد من المشايخ ، ثم لا يكون لهم إلا بعد مجاهدة طويلة على يد شيخ صادق ، بعد أن يحكم مقام الزهد في الدنيا ، ويصير ينشرح إذا أدبرت ، وينقبض خاطره إذا أقبلت.

وقد أوصى لي الشيخ خضر رحمه الله تعالىٰ الذي رباني يتيماً بخمسمائة دينار ، فلم أقبلها ، وكذلك أوصت لي زوجته بنحو مائة دينار ذهباً ففرقتها على الفقراء والمساكين ، ولم آخذ لنفسي منها فلساً وعرض عليّ بعض الأكابر ثلاثة آلاف دينار على أني أتزوج ابنته ، فلم

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الزكاة ، باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٧٢) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب بيان أن اليد العليا خير اليد السفلى (١٠٣٥)

أفعل ، وأوصى لي القاضي شمس الدين بن محاسن قاضي اسكندرية بثلث ماله ، وكان أربعة آلاف دينار فرددتها ، لكون ذلك من مال قاض لا لعلة أخرى ، فأوصى إلى الفقراء بالزاوية خمسين ديناراً ليقرؤوا له بها قرآناً ، فأمرتهم بردها ، فردوها وقرؤوا له احتساباً.

وسألني مرة فقير بالقرافة في شيء لله فأعطيته ثيابي كلها ، وكانت جوخة وصوفاً ومضربة بعلبكية وعمامة ، ورجعت إلى جامع الغمري بفوطة في وسطي ، فوجدت شخصاً هو سيدي يحيى بن صالح من تجار الخانقاه ينتظرني بقميص ومضربة بعلبكية وعمامة فلبستها وشكرت الله تعالىٰ.

وسألني مرة شخص في عنقه جنزير من حديد شيئاً فأعطيته جميع ثيابي ، فظن أنني سكران ، فتبعني من بعيد حتى وصلت الدار فطلع لي بالثياب فرآني غير سكران ، وقال رضيت منك بنصف فضة فقط ، فلم أجبه إلى ذلك ، وخرج بالثياب فباعها فاشترى منها يحيى بن العامل صوفاً بمائة وستين نصفاً ، ولم أزل بحمد الله تبارك وتعالىٰ من حين كنت صغيراً يأتيني الناس بالذهب والفضة فأرميها في جامع الغمري ، فيلتقطها المجاورون ، وهو خلقي بحمد الله إلى الآن ، وربما كنت أحوج منهم إلى شيء من ذلك ، ولكني أفعل ذلك هواناً بالدنيا في عيون الحاضرين ، حتى يقتدوا بي في ذلك.

وكان بعض الحسدة يقول: ما رأيت نصاباً مثل عبد الوهاب أبداً ، إنما يرمي الذهب والفضة ليتسامع الناس بذلك فيعتقدوه ، ويأتوه بما يطلب ، فقال له بعض الإخوان فارم أنت الآخر ما معك ، فلم يقدر على ذلك ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: رجوعي على نفسي باللوم إذا قدمت نفسي على خصمي في الراحة ، بل أوثره على نفسي بالراحة ، وأتكلف أنا المشقة ، وكثيراً ما تتعارض المصلحتان فتصير مصلحتي تضره فأؤخرها ، ولو كانت مصلحته تضرني فلا بد في المعروف من تقاضي واحد منا وهو خير الرجلين ، نظير ما ورد في حديث المتشاحنين وخيرهما الذي يبدأ بالسلام(١).

وقد حكي أن شخصين كان بينهما مركب شركة نصفين ، فتعاندا فأراد أحدهما أن يوسق نصفه ملحاً ، وأراد الآخر أن يوسق نصفه ماء ، ومعلوم أن مجاورة الماء للملح تذيبه ، فما فصل بينهما إلا الحكام ، فاعمل يا أخي على ما ينفع خصمك وأجرك على الله تبارك وتعالىٰ والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: إقامة العذر لزوجتي إذا تزوجت عليها ، أو تسريت

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأدب ، باب الهجرة (٦٠٧٧) ، ومسلم، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي (٢٥٦٠).

ولا أطالبها بالصبر جزماً لعلمي بأن ذلك لا تطيقه غالب النساء ، وقد وقع لزوجتي أم عبد الرحمٰن أنني مزحت معها يوماً ، وقلت لها : أنا أسبق إلى الجنة بضرتك تفرش لك بيتك وتملأ لك الأباريق وتنتظرك حتى تجيئي إلينا ، فحلفت بالله العظيم أنها لو دخلت الجنة ورأت ضرتها هناك رجعت ، وأقامت خارج الجنة أبد الآبدين ، حلفاً لا تورية فيه ، انتهى. فاعلم ذلك ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: غلبة الحياء من الله تبارك وتعالىٰ أو من عباده حتى ربما جعلت الطيلسان على رأسي ، وأرخيته على وجهي حتى لا أرى وجه أحد ولا يراني ، وإن كانت رؤية وجوه المؤمنين شفاء.

وقد كان أبو بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وأبو يزيد البسطامي وأنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم[1] بأرديتهم غالباً.

ثم إن أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه لما مات رسول الله ﷺ ، أدمن من لبس البرنس ، وقال: إنه يكف البصر عن فضول النظر ، انتهى.

ويقع لي في بعض الأوقات أنني أستحيي أن أمر في شوارع مصر راكباً ، ولا أقدر على المشي ، فأرخي الطيلسان بحيث لا يعرفني أحد ، وأعطي مقود الحمارة لشخص.

ونقل مثل ذلك عن الشيخ محمد المغربي شيخ الجلال السيوطي كان إذا مشى يضع يده على كتف شخص ، ويصير شاخصاً إلى السماء لا ينظر إلى وجه أحد حتى يرجع إلى بيته.

وللفقراء في ذلك مشاهد صحيحة ، فإياك والمبادرة إلى الاعتراض على من يفعل مثل ذلك ، فتقع في الإثم والجهل ، أما الإثم فلكونك تظن بهم أنهم يفعلون ذلك تمشيخاً ومحبة لأن يعرفوا ، وأما الجهل فلكونك جهلت أنه من سنة السلف الصالح رضي الله تعالىٰ عنهم.

فعلم أن صاحب هذا المشهد غائب عن قصد التمشيخ بذلك أو عن قصد دفع حر أو برد ، وأما قصد التمشيخ بذلك فهو حرام يبعد وقوعه من الفقراء والعلماء ، وأما دفع الحر والبرد فإنه حاصل في ضمن نية كف البصر عن فضول النظر ، ونية الحياء من الله عز وجل ، فلا نحتاج إلى نية أخرى.

وسمعت الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالىٰ يقول: شرط الطيلسان المشروع أن يكون نازلاً قبالة وجه الإنسان ، حتى يصير لا ينظر من الأرض إلا موضع مواقع قدميه فقط ، انتهى.

وإنما صح جعلنا الطيلسان بقصد الحياء من الله تعالىٰ ، وإن كان الحق تعالىٰ لا يحجبه

---

(١) هنا كلمة ساقطة وهي متعلق خبر كان فليحرر

شيء لأن الشرع قد تبع العرف في مثل ذلك حال الصلاة وغيرها ، فأوجب على العبد أن يستر عورته ولا يكشفها إلا لضرورة شرعية ، واستحب للعبد أن يستتر في الغسل ولو كان خالياً أو في ظلام ، وقال: الحق تعالىٰ أحق أن يستحيا منه (١)، فلما رأينا استحباب ذلك حياء من الله تعالىٰ قسنا عليه الطيلسان إذا غلب على صاحبه الحياء من الله تعالىٰ ، أو من خلقه ، فإن العبد بين يدي الله تعالىٰ على الدوام شعر بذلك أو لم يشعر ، فمن لم يصل إلى مقام شهوده ذلك فليكن معه الإيمان بذلك.

وقد كان عثمان بن عفان رضي الله تعالىٰ عنه إذا أراد دخول الخلاء يتقنع بردائه حياء من الملائكة الكرام الكاتبين ، ولا شك أن الله تبارك وتعالىٰ أحق منهم بالاستحياء منه.

وكان أخي الشيخ أبي العباس الحريثي رضي الله تعالىٰ عنه لا يغتسل خالياً إلا في ثوب مهلهل ، كما يفعل بالميت إذا غسل ، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: الفقير كالمرأة المخدرة لا ينبغي له أن يكشف يده أو رجله أو ساعده بحضرة إخوانه إلا لضرورة أو حاجة ، وعلى ذلك أكابر الدولة مع من هو أكبر منهم ، انتهى.

ومن هنا أدمن المباشرون وغيرهم لبس الخف ، وضيقوا أكمامهم ، واتخذوا الأطواق التي تستر أعناقهم أيام دولة الجراكسة ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق بهذه الأخلاق المحمدية ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي للأكل من ضيافة الوقف الذي تحت نظري ، أو نظر غيري ، وعدم استقرارها في باطني إذا أكلت منها ، فلا آكل منها وإن جعلها الواقف لي إلا إن علمت طيب نفس الفلاح بذلك ، من حيث محبته لي لا لعلة أخرى ، لا تبعة فيها ، ومتى علمت أن علة مجيئه بالضيافة لكوني ناظراً على ذلك الوقف ، وأني متى عزلت منه لا يأتيني بشيء فلا آكل من ضيافته شيئاً ، وما جعل الفلاحون المتقدمون الضيافة لأستاذيهم إلا لما كانوا يجدونه منهم من البر والإحسان وكف مظالم الكشاف وشيوخ العرب عنهم ، وهذا أمر قد تودع منه ما بقيت الدنيا.

وقد رأيت وأنا صغير الفلاح إذا جاء لأستاذه بضيافة يصير يطبخ له الطعام الطيب والحلو والأرز إلى أن يطلب السفر ، فيعطيه الكسوة والهدية أكثر مما جاء هو به فيصير يمدح أستاذه بين الفلاحين ، ثم يأتيه بعد ذلك بضيافة أعظم من تلك الضيافة لما وجد من بره وإحسانه ،

(١) اقتباس من حديث أخرجه البخاري تعليقاً ، كتاب الغسل ، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة ، والترمذي ، كتاب الأدب ، باب ما جاء في حفظ العورة (٢٧٦٩) ، وأبو داود ، كتاب الحمام ، باب ما جاء في التعري (٤٠١٧).

فأين هذا ممن يجيئه فلاحه بالضيافة فلا يعلق على حمارته ، ولا يطبخ له طعاماً ، ويطعمه الطعام البائت ، وإن عزم الفلاح على أحد من معارفه ، وأتى به إلى بيت أستاذه قامت عليه القيامة ، ثم يصير يسمعه الكلام الجافي حتى يسافر بلا حسنة في مقابلة تلك الضيافة ، بل رأيت شخصاً من العلماء أتاه فلاحه بضيافة الأوز فوجد فيها واحدة هزيلة فردها عليه ، فسافر بها إلى البلاد ليرسل له واحدة مكانهافإذا كان هذا فعل حامل القرآن فكيف بالظلمة ، فعلم أن من طلب أن يأكل ضيافة الفلاح ويتحكم فيه ، فليفعل معه كما كان السلف يفعلون.

وقد قال لي فلاح عتيق: كنا نعد الأيام التي نأتي لأستاذنا فيها بضيافة كأنها أيام عيد ، وكان يطعمنا الحلوى والأطعمة الفاخرة التي لا نجدها في النوم. اهـ.

فتنبّه يا مدعي الدين لنفسك ، وخلص نفسك من تبعات الفلاح ، واحمه من الكشاف ومشايخ العرب ، وأحسن إليه ، ثم اقبل ضيافته كأنها جعالة لك على دفع الأذى عنه ، وإلا فنزه نفسك عن الأكل من ضيافته ، فإنها من قسم الشبهات بيقين فإن الفلاح ربما أتى بها خوفاً منك أن تغالطه في الحساب ، أو تسلط عليه حاكماً يؤذيه ، بل أفتى بعضهم بأن أخذ الجعل على كف المظالم حرام ، لأنه يلزم القادر على دفع الظلم أن يدفعه مجاناً ، فإن لم يقدر على دفع الظلم عن الفلاح فما وجه أخذ الضيافة منه.

وهذا خلق غريب ما رأيت له في مصر كلها فاعلاً غيري ، فالحمد لله الذي منَّ عليّ بالشفقة على الفلاح ، وإقامة العذر له في هذا الزمان إذا ترك الضيافة وأتاني بلا ضيافة ، فإن غالب الفلاحين قد صار لا يحصل له من زرعه بعد وزن المغارم عنه طول سنته إلا القوت ، وبعضهم لا يحصل له القوت ، فكيف يؤخذ من هذا ضيافة ، بل مثل هذا لا يلزمه ضيافة الوارد عليه ، ولا تستحب له.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يرد خراج رزقته الزائد على خراج مثلها ، ويرد الضيافة ، ويقول: ليس لفقير أن يأخذ خراج رزقته مثل ضريبة طين السلطان ، وله رد الضيافة ولو كانت حلالاً صرفاً ، انتهى.

فاعلم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: إذا زرعت في طين وقف تحت نظري أو لم يكن تحت نظري أن أجعل الحظ والمصلحة للوقف ، فإن جاء الزرع أكثر من الخراج عادة جعلت الزائد بيني وبين الوقف ، وإن جاء الخراج أكثر لم أندم على إعطائه لهم كاملاً ، وذلك لأن حكم أرض الوقف عندي إذا كنت ناظراً أو زارعاً من غير نظر حكم مال اليتيم تحت يد الوصي مثلاً ، فلا أنظر إليه إلا بالحظ أو المصلحة.

فليحذر الناظر من محاباة نفسه ، فيزن الخراج لجهة الوقف الذي هو تحت نظره بأنقص مما يأخذه هو من الفلاح ، وليحذر من أن يسخر الفلاح في الحرث والحصاد مثلاً بغير طيب نفس ، كما يفعل الأمناء ومشايخ العرب فيساعدون أستاذيهم خوفاً من شرورهم ، وكذلك فلاح سيدي الشيخ ربما يساعده خوفاً من شره ، وذلك من قسم الظلم الذي هو ظلمات يوم القيامة.

ثم إن هذا خلق غريب قل من يفعله الآن مع الفلاح والمستحقين ، وأصل الإخلال بذلك قلة دين الناظر ، وعدم شفقته ، وكثرة محبته للدنيا مع أن ذلك ممحقة للبركة كما جرب ، ولم أزل بحمد الله تبارك وتعالىٰ أزرع في طين الوقف والكلفة من مالي ثم أعطيه كله للفقراء وآكل منه كأحدهم ، لا أحاسبهم قط على شيء لي مما ربحته انتهى. فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

* * *

الباب الخامس

في جملة أخرى من الأخلاق
فأقول وبالله تبارك وتعالىٰ التوفيق

مما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي للأكل من صدقة أو هدية علمت أن في بلد المتصدق أو المهدي أو حارته من هو أحوج إلى ذلك مني من الفقراء والمساكين والأرامل ، ومن ارتكبتهم الديون ، ثم إن قدر أني قبلتها صرفتها فيما أراه أرجح في ميزانه من أكلي منها ، وذلك أنه كما قصد نفعنا بدنياه فينبغي لنا أن ننفعه بزيادة دينه كذلك ، ولا ننقصه من الأجر ، فإن في ضمن أكلنا من تلك الصدقة أو الهدية رائحة حق لذلك المحتاج الذي تعداه وجاء إلينا ، من حيث إن الشارع أمره أن يبدأ في صرف صدقته أو هديته بالمحتاج أو الأقرب داراً أو رحماً ، فلا نساعده على مخالفة السنة بتقديمه لنا على من هو أولىٰ منا من قريب أو محتاج أو جار ، ثم إننا إذا قبلنا من ذلك شيئاً بشرطه لا نقبله إلا بنية نفعه ، مما هو أولى بالأجر والثواب ، ونجعل نفع نفوسنا بالتبعية لا بالقصد الأول ، كل ذلك لتكون حركتنا في نفوسنا أو في حق إخواننا في ديوان الحسنات ، ويكتب لنا أجر القائمين في مصالح العباد ، وتحصل محبة الحق تعالىٰ لنا ، فإن الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله[(1)] كما ورد.

وقد رددت بحمد الله تبارك وتعالىٰ كثيراً من الذهب والفضة والطعام على من تعدى جيرانه أو قرابته أو المحتاجين من أهل حارته ، وأتى بذلك إليّ ، خوفاً على دينه أن ينقص ، لا لعلة أخرى ، ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «**صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**»[(2)] أي: لأن فقراء كل بلد ناظرون إلى صرف صدقة أغنيائهم عليهم ، ومن هنا حرم بعض العلماء نقل صدقة أغنيائهم عليهم من بلد إلى أخرى إلا لعذر شرعي ، وهذا الخلق ما رأيت له فاعلاً إلى وقتي هذا غير أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ فاعلم يا أخي ، واعمل بالتخلق به والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٠٣٣) ، وأبو يعلى (٣٣١٥) ، والشهاب في مسنده (١٣٠٦) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٤٤٤) ، والديلمي في مسند الفردوس (٢٩٩٥).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة (١٣٩٥) ، ومسلم ، كتاب الأيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩).

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي لشيء يقيم في قلبي من محاب الدنيا إلا سهواً أو غفلة ، سواء كان ذلك المحبوب زوجة أو ولداً أو مالاً أو غير ذلك ، ومن ذاق هذا المقام استراح من مزاحمة الناس على الدنيا ، واستراح الناس منه ، لأن من كانت الدنيا في يده دون قلبه فمن شأنه الفرح والسرور إذا فاتته ، خوفاً من أن تشغله عن ربه جل وعز ، وقل من تخلق بهذا الخلق من أقراننا ولذلك يقع بينهم وبين غيرهم الشحناء والبغضاء والحسد ، لأن حب الدنيا في قلوبهم ساكن ، ولو أنهم كانوا محبين لله عز وجل ما مكنوا عدوه يسكن في قلوبهم ، فإنه تعالىٰ غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده المؤمن محبة لسواه إلا بإذنه ، ولصاحب هذا المقام علامة ، وهو أنه لا يطلب أحد منه شيئاً ويمنعه منه إلا لعذر شرعي ، فلا يمنعه قط بخلاً ، لأن البخل من ثمرة سكون محبة المال في القلب ، فافهم.

فعلم أن المذموم من محبة الدنيا إنما هو إذا كان بحكم الطبع لا بحكم تحبيب الله تبارك وتعالىٰ له ذلك لغرض صحيح ، لأن ذلك غير مذموم، بل هو محبوب شرعاً كما سيأتي بسطه في هذا الكتاب، فإن أكابر الأولياء يحبون المال حباً جماً لينفقوه في مرضاة الله عز وجل لا ليبخلوا به على أحد من عباده إلا لحكمة ، لأنهم محفوظون من آفات المال.

ونقل عن بعضهم أنه كان يقول: إنما أحببت المال لأفوز بلذة خطاب الله لي بقوله: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ [المزمل: ٢٠]. فإنه لم يخاطب بذلك إلا أهل الجدة ، وكثرة الأموال دون الفقراء الذين لا يملكون عشاء ليلة ، وعلى ذلك يحمل حال أيوب عليه السلام حين صار يحثو في ثوبه من الذهب حين أمطرته السماء فإن الله تعالىٰ أوحى إليه: ألم أكن أغنيتك عن مثل هذا فقال: بلى يا رب ولكن ليس لي غنى عن بركتك [(١)] ، انتهى.

وكذلك وقع للعباس رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، عم النبي ﷺ حين أمره النبي ﷺ أن يحمل في بردته ما شاء من الذهب ، فجعل فيها ما لم يقدر على حمله ، فصار كلما أراد أن يحمله لا يقدر على حمله. فإن مثل العباس رضي الله تعالىٰ عنه إنما فعل ذلك محبة في الإنفاق لا محبة في الإمساك ، انتهى.

وبالجملة فمن خالط الأكابر بالأدب والتعظيم لهم حملهم على أحسن المحامل وعرف مقامهم ، ونزههم عن محبة الدنيا لغير غرض صحيح ، فإن منهم من يأخذ الدنيا إذا ساقها الله تعالىٰ إليه تبركاً بفضل الله تبارك وتعالىٰ ، وبعضهم يأخذها إظهاراً للفاقة ، وكلما أكثر من المزاحمة عليها كلما أظهر فاقته وعجزه وكثرة حاجته إلى فضل ربه تعالىٰ ، فيزداد بكثرة الدنيا فاقة وحاجة ، حتى يصير سداه ولحمته حاجة وفاقة ويصير عاكفاً في حضرة ربه تبارك وتعالىٰ

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الغسل، باب من اغتسل عرياً وحده في الخلوة وهي تستتر (٢٧٩) ، والنسائي ، كتاب الغسل والتيمم ، باب الاستتار عند الاغتسال (٤٠٩).

لا يخرج منها ، قال تبارك وتعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧]. وربما أعطى الله تبارك وتعالىٰ العبد قوت سنة وأكثر ليطرده عن الوقوف بين يديه بفضله ، وربما قتر على عبد رزقه حتى يصير واقفاً بين يديه تعالىٰ ليلاً ونهاراً.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالىٰ يقول: لا بد للفقير في بداية أمره من رمي الدنيا والزهد فيها ، ليخلص من محبة ما سوى ربه بحكم الطبع ، فإذا تخلص لمحبة ربه وحده ، وسكنت محبته في قلبه ، قيل له: خذ برنا وفضلنا وحسنتنا لك بشدة وعزم ومزاحمة عليها ، واستعمل ذلك فيما خلقناه لأجله من القربات الشرعية ، فكما ألقاها أولاً بإذن كذلك أخذها آخراً بإذن ، انتهى.

قلت: ولولا أن الحق تبارك وتعالىٰ أمر المريد في بداية أمره بالزهد في الدنيا لما قدر على السير في الطريق ، ولا ترقى إلى مقام من المقامات ، لأنه فطر على الاستفادة لا على الإفادة ، فما فتح عينه إلا على محبتها ، ثم رأى جمهور الناس على ذلك فازداد محبة لها.

فعلم أنه في أصله مجبول على الشح بالدنيا حتى يود أن كل شيء في الوجود يكون له ، وذلك من أكبر القواطع عن الله تبارك وتعالىٰ ، فلا يصح له دخول طريق أهل الله تبارك وتعالىٰ إلا بعد فطامه عن الدنيا ، ثم بعد أن يقوى في المقام بحيث لا يصير شيء يشغله عن الله تبارك وتعالىٰ ، يرجع إلى جمع الدنيا لمصالح نفسه وغيره ، ويصير صورته صورة من يحب الدنيا ، والقصد مختلف ، فلا يكاد يعرف أحد أنه من الصالحين لاحتجابهم عنه بشهود مزاحمته على الدنيا ، ومشاححته على الجديد ، مع أنه يعطي الألف دينار وأكثر وكأنه أعطى بعرة ، فيشاحح على أقل القليل ، ويعطي الكثير بمشاهدة صحيحة ، فإن أعطى الكثير شهد حقارته ، وإن أخذ اليسير بغير حق شهد كثرته من حيث المطالبة به يوم القيامة حين تتقاسم الناس حسنات بعضهم ، وإن شاحح في القليل فهو لأجل عتق غيره من المنة لو سامحه ، ومن شرط الكمل أن لا يكون لهم حركة ولا سكون إلا وهم فيها تحت الأمر الإلهي ، وبذلك نفذت عهودهم ووصاياهم إلى مريديهم في سائر أقطار الأرض ، فإن أحبوا الدنيا فذلك بحق ، وإن كرهوها فذلك بحق ، وإن أحبوا أولادهم فذلك بحق ، وإن كرهوهم فذلك بحق ، وإن أحبوا الرياسة فذلك بحق ، وإن كرهوها فذلك بحق ، وإن أحبوا الخفاء فذلك بحق وإن أحبوا الظهور فذلك بحق ، وهكذا في سائر أحوالهم ، رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم ، فاعلم ذلك يا أخي ، واعمل على التخلق به والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة إضافتي للعمل المذموم الذي فعلته أنا إلى نفسي قبل إبليس ببادىء الرأي ، وكثرة إضافة ما فعله الإخوان معي إلى إبليس قبل إضافته إليهم ، فأضيفه إلى إبليس ببادىء الرأي ، ولذلك قل غضبي عليهم ، وتحملت منهم أثقال الجبال من الأذى من غير مؤاخذة لهم ، كما مر إيضاحه أوائل الباب الثالث ، وذلك لأن إبليس هو الذي

وسوس لهم وزين لهم أن ما يفعلونه معي من الأذى خير ونصرة للدين مثلاً ، فإبليس في ذلك أصل ، وهم فرع منه ، وإرسال العداوة وسوء الظن على الأصل أولى من إرسالهما على الفرع ، هذا في الأصل والفرع من الخلق ، أما في حق الحق تعالىٰ فلا يجوز إرسال ذلك له على الأصل ، فإن فيه إقامة الحجة على الله تبارك وتعالىٰ ، ولا يخفى ما في ذلك من سوء الأدب ، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩]. أي إيجاداً وإسناداً ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: إسناداً لا إيجاداً ، فافهم.

وهذا الخلق قل من يتخلق به ، بل غالب الناس يرسل العداوة وسوء الظن إلى أخيه المسلم ببادي الرأي إذا آذاه أخوه ، أو آذى غيره ، أو عصى ربه ، ولا يرسل ذلك إلى إبليس إلا بعد تفكر وتدبر ، وبذلك كثر إزدراؤهم بعضهم لبعضهم ، وذلك حرام بخلاف من ازدرى إبليس أو أبغضه ، فإنه لا يقع في حرام ، وبخلاف من يضيف الأمور الناقصة إلى إبليس ببادي الرأي ولا يضيفها إلى الخلق إلا بعد ذلك ، فإن ازدراءه وبغضه للناس يقل ، ومن هنا قالوا: إذا صحبت فاصحب العارفين ، فإنه ليس لكثير الطاعات عندهم كبير أمر حتى يعظموك لأجله ، لعدم اعتمادهم عليها دون الله تبارك وتعالىٰ ، وللقبيح عندهم وجوه من المعاذير.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إضافة المذمومات إلى النفس والشيطان أولى من إضافتها إلى الحق تبارك وتعالىٰ ، بحكم الخلق والتقدير ، فإن ذلك تحصيل الحاصل ، وأحكام التكليف إنما هي دائرة مع نسب المكلفين ، لأنه الباب الذي يؤاخذون منه.

وسمعته رضي الله تعالىٰ عنه مرة أخرى يقول: من أضاف المذمومات إلى الله تعالىٰ ووقف مع ذلك ، دون إضافتها إلى الخلق وقع في أعلى طبقات سوء الأدب مع الله تعالىٰ ، وهلك في دينه من حيث لا يشعر ، وذلك لأنه حينئذ لا يكاد يندم على ذنب فعله أبداً ، ويقول هذا مقدر علي قبل أن أخلق ، فأيش كنت أنا. انتهى.

وفي كلام الجنيد رضي الله تعالىٰ عنه: لا يضر في توحيد العبد للحق تعالىٰ في الأفعال شهوده نسبة الأفعال إليه هو ، بل ذلك واجب ، لأن من لم يضف إلى نفسه الأعمال يلزمه هدم أركان الشريعة كلها ، وإسقاط المؤاخذات التي يؤاخذ الله تعالىٰ عليها عباده في الدنيا والآخرة ، انتهى. فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم مبادرتي إلى سوء الظن بأحد من المسلمين، وكثرة ستري لما تحققته من عوراتهم ، وذلك لأن الظن أكذب الحديث ، وأما قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه «احترسوا من الناس بسوء الظن»[1] ، فمراده عاملوا الناس

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٢٩) ، والطبراني في الأوسط (٥٩٨) ، وابن أبي عاصم =

كمعاملة من يسيء بهم الظن في الحذر منهم ، لا حثهم على سوء الظن ، فإن سوء الظن لم يأت لنا شرع بالحث عليه ، فافهم ، ثم إن ورد فهو مؤول ، ولا يؤاخذ الله تعالى في الآخرة عبداً أحسن الظن بعباده المؤمنين أبداً ، إنما يؤاخذ من أساء بهم الظن ، وسيأتي في هذه المنن أن العبد لا يصح له حسن الظن بالمسلمين إلا بعد تنظيفه باطنه من الرذائل ، حتى لا يكون له سريرة سيئة قط يفتضح بها في الدنيا والآخرة ، ومادام له سريرة سيئة فمن لازمه سوء الظن قياساً على نفسه وصفاتها فإن أردت يا أخي أن تكون ممن يحسن الظن بالمسلمين فطهر باطنك أولاً من الرذائل ، وإلا فلا سبيل لك إلى الخلاص ، فإنك إذا كان عندك ميل الظن للزنا بأجنبية مثلاً وتود أنك تزني بها ، فلا تتمكن من ذلك ، ثم إنك رأيت شخصاً قد اختلى بها أو وقف يحدثها في زقاق لا تحمله إلاّ على صورة نفسك ، ولو أنك كنت بالعكس لحملته على أحسن الأحوال ، قياساً على نفسك ، فحكم من طهر الله باطنه من المعاصي حكم من خلقه الله عنيناً ، فهو لا يعرف للجماع طعماً ، ولو اختلى بأجنبية لا يخطر في باله فاحشة ، فتأمل ، فالعاقل من أتى البيوت من أبوابها.

وقد كان سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: إذا رأيت إنساناً بالغاً يطوف بشيء يبيعه . والناس يصلون الجمعة ، فاحمله على عذر شرعي ، فإذا رأيت عالماً أو صالحاً يأخذ من الظلمة مالاً فاحمله على أنه يفرقه على أصحاب الضرورات بالطريق الشرعي ، ولا يأكل منه شيئاً ، وإذا رأيت عالماً توقف عن الكتابة على سؤال متعلق بأمور السلطنة فاحمله على خوف الفتنة التي تبيح له كتم العلم أصلاً ، كإخراج من وظيفته التي يتقوت منها هو وعياله عنده أو نفيه من بلده ونحو ذلك ، وإذا رأيت شخصاً يسارر امرأة في عطفة[1] فاحمله على أنها من محارمه أو زوجته ، أو أنها ممن لا يخاف منها الفتنة ، انتهى.

فقس يا أخي على ذلك ، ولكن بعد تنظيف باطنك كما مر ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم مطالبتي بالوفاء بعهدي من لم يوف بعهود الله تبارك وتعالىٰ وعهود رسوله ﷺ ، لعلمي بأن من لم يصح له الوفاء بعهد الله أو عهد رسوله ﷺ ، فكيف يصح له الوفاء بعهد مثلي مع شهوده نقصي ومماثلتي له ، وذلك كأن أطلب من أحد من إخواني أنه يراعيني في الرخاء كما يراعيني في الشدة ، أو لا يخالف ما عاهدته عليه في فعل الأوامر واجتناب المناهي ، ولو أنني طلبت ذلك منهم أو من نفسي لما صح لهم ولا لي ، فإن ذلك راجع إلى حكم القبضتين ، ومادام الحق تبارك وتعالىٰ يخلق المعاصي

= في الزهد (١/ ٢٤٢).

(١) قارعة الطريق. اهـ. القاموس المحيط ، مادة (عطف)

للعبد فلا يقدر على الوفاء بالتوبة النصوح التي لا ذنب بعدها أبداً ، بل إنما يتوب بعد كل معصية ، ومن هنا قال الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالىٰ عنه وغيره: ليس من الأدب أخذ العهد على العوام بأنهم لا يقعون قط في معصية ، وإنما الأدب أن يأخذ عليهم العهد أنهم كلما أذنبوا يتوبوا على الفور ، ولا يصروا قط على معصية ، لأنه إذا كان في علم الله تبارك وتعالىٰ أنهم يعصون يصير عليهم معصيتان ، معصية من حيث الشرع ، ومعصية أخرى من حيث نقض العهد ، ولو أنه لم يعاهدهم لما كان عليهم سوى إثم معصية واحدة انتهى ، وهو كلام في غاية التحقيق.

وأما مبايعته ﷺ للنساء والرجال بترك المعاصي ، فكان ذلك بوحي إلهي أوائل إسلامهم أو إسلامهن ، ولم يبلغنا أنه ﷺ بايع هذه المبايعة لمن رسخ في الإسلام أبداً ، وقد يكون أراد ﷺبتلك المبايعة تقبيح الذنوب في أعينهم ، لينقادوا لأحكام الإسلام بعد ما كانوا فيه من الشرك ، ويؤيد ذلك ما ورد أنه ﷺ **كان يبايع وفود العرب ، ويقول بخفض صوت «فيما استطعتم»**[1] وبايع شخصاً على أنه يصلي صلاة الصبح والعصر فقط وقال بعدما ولى: «سيصلي»[2] يعني بقية الصلوات ، فعلم من هذا التقرير أن للفقير أن يأخذ العهد بالتضييق والتحجير على من رسخ في صحبته ، لعلمه بالقرائن أن اللهتعالىٰ يحفظ مثله عن الفواحش ، وكتب الشريعة طافحة بذلك ، ومن فهم ما أومأنا إليه حمل نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]. على حال رعاع الناس دون الأكابر من الأنبياء والأولياء وكمل المؤمنين ، فإنا نراهم في الشدائد والرخاء لا يرجعون في أمورهم إلا إلى الله وحده، بخلاف رعاع الناس ، فليس لفقير أن يطلب منهم أن يكونوا معه في الشدة والرخاء على حالة واحدة ، فإن ذلك لم يفعلوه مع ربهم وخالقهم ورازقهم فكيف يفعلونه مع من هو مثلهم في الفاقة والعجز.

وقد وقع أنه ﷺ أخذ العهد على جماعة ، وكتبوا الوحي زماناً ، ثم إنهم ارتدوا بعد ذلك كعبد الله بن خطل وأضرابه ، وفي القرآن العظيم: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

فعلى الداعي أن يدعو إلى حضرة الله تبارك وتعالىٰ ليميز أهل القبضتين فقط بدعائه ، وأما الامتثال وعدمه فذلك إلى الله تبارك وتعالىٰ لا إلى العبد ، ومن طلب ممن دعاهم أن لا يخالفوا ما عاهدهم عليه مطلقاً فقد رام المحال ، ولا يناله إلا العناء والتعب ، ولما غلبت

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب السير ، باب ما جاء في بيعة النبي ﷺ (١٥٩٣) ، والنسائي ، كتاب البيعة ، باب البيعة فيما يستطيع الإنسان (٤١٨٧).

(٢) لم أجده.

الرحمة على رسول الله ﷺ صار يكره الناس على الإيمان ، فأنزل الله تعالىٰ عليه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [هود: ١١٨]. الآية وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ ﴾ [الأنعام: ٣٥]. الآية.

والداعون من بعده من أمته على سنته ﷺ ، فمنهم من غلبت عليه الرحمة ، ورأى سعة الإطلاق ، فدعا إلى الحق تعالىٰ وأخذ العهد على كل من طلب منه ذلك ، ومنهم من توقف عن أخذ العهد على من لم يعلم قدرته على الوفاء بذلك العهد ، وهي طريقة الجنيد وأتباعه إلى عصرنا هذا.

وقد كان الشيخ ياقوت العرشي رضي الله تعالىٰ عنه لا يأخذ العهد على مريد قط ويقول: ما هي طريقتنا وكان يقول: لو أردت ذلك لأخذت العهد على جميع من في الإسكندرية ، وكثيراً ما كان يقول: العهد صار الآن يؤخذ برغيف ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ لا يأخذ العهد على فقير إلا إن كشف له عن حاله: وأنه يوفي بالعهد ، وإلا لم يأخذ عليه عهداً ، وهي طريقتنا الآن ، فكثيراً ما يسألني أحد في تلقينه الذكر وأخذ العهد عليه ، فأتفرس فيه الخيانة فلا أجيبه إلى ما طلب شفقة عليه ، وكثيراً ما أجيب إلى ذلك من سأل لغلبة ظني أنه يوفي بالعهد وعلى ذلك يحمل قول من قال: لا ينبغي للشيخ إذاجاء مريد يطلب أخذ العهد عليه أن يقول له: اصبر إلى غد مثلاً لأنه يفتر همته ، ويخمد نار عزمه ، اللهم إلا أن يكون ما قال له اصبر إلا بعد أن تفرس منه أنه لا يوفي بالعهد ، وأنه يلعب بالطريق ، وإلا فكيف يقدر الصياد على صيد ما هو محتاج إليه ويتركه ، انتهى. فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة توجهي إلى الله تبارك وتعالىٰ في تسهيل رزق عيالي الذي قسمه لي من غير حصول منة في طريقه للخلق ، فسخرهم الله تبارك وتعالىٰ لي فضلاً منه ونعمة ، وما فعلت ذلك إلا بعد أن غلب على ظني أنه تبارك وتعالىٰ لم يقسم لي عملاً حرفة من خياطة أو تجارة أو ضفر خوص ونحو ذلك ، وكثيراً ما أستأجر أرضاً ، وأستأجر من يزرعها لي ، فيأتيني منها بقوتي وقوت عيالي.

وقد حث السلف كلهم رضي الله تعالىٰ عنهم على عمل الحرفة وأشدهم في ذلك السادة الشاذلية رضي الله تعالىٰ عنهم ، فكان سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه يحث أصحابه على السبب والسعي على العائلة وعلى أنفسهم ، ويقول: من فعل ذلك وأقام بفرائض ربه عز وجل عليه فقد كملت مجاهدته.

وكان سيدي أبو العباس المرسي رضي الله تعالىٰ عنه يقول لأصحابه: عليكم بالسبب، وليجعل أحدكم مكوكه سبحته، أو قادومه سبحته، أو تحريك أصابعه في الخياطة أو الضفر سبحته، وهذه الطريق وإن كانت عظيمة ففيها التحجير على الخلق بشيء لم يحجره الله عز وجل، فإن الله تبارك وتعالىٰ لم يحجر على العبد أن يأكل من الحلال بأي طريق وصل إليه، ولم يزل الناس سلفاً وخلفاً على ذلك، فمنهم من قسم الله له حرفة دنيوية، ومنهم لم يقسم له ذلك.

ولما صحب أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ، سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه أراد أن يضفر الخوص، فقال له الشيخ: ما هي إقامتك، فخالف وضفر، فلم يصح له أكل رغيف من ثمنها، فاستغفر ورجع.

وكان الشيخ أبو العباس رضي الله تعالىٰ عنه أواخر عمره يقول: طريقنا المداومة على الذكر وترك الغيبة، وسوء الظن بعباد الله، فمن واظب على ذلك رزقه الله من حيث لا يحتسب، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول كثيراً: نحن لا نقول لمن يأتينا اترك سببك وتعالَ لنا، وإنما نفعل كما فعل رسول الله ﷺ من تقرير كل إنسان على ما هو عليه من الحرفة وغيرها، لكن نأمرهم بعدم الغش فيها، كما فعل ﷺ.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: ليس عمل الحرفة لكل فقير، وإنما هو للرجال الكمل الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، مع إقامتهم في التجارة والبيع والشراء والمعاوضات والمحاسبات، أما من كان يلهيه ذلك عن الله تعالىٰ فترك التجارة في حقه أولى، قال تعالىٰ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]. وسيأتي في هذه المنن أن غاية أمر العبد أنه يأكل ويلبس من مال سيده ويسكن في داره، وسداه ولحمته من فضله دنيا وأخرى، فافهم ذلك يا أخي، واعمل على التخلق به، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: محبتي لكل شيء ينكس رأسي بين يدي الله تبارك وتعالىٰ، ويورثني الحياء منه، ورؤية الفضل له عليَّ بذلك، وهروبي من كل شيء يرفع رأسي، ويورثني الكبر والعجب.

وقد سمع سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ شخصاً يقول في دعائه: اللهم طهرني من كل دنس، ورجس، حتى ألقاك طاهراً مطهراً من كل رذيلة، فقال له سيدي علي: اللهم الطف بي، ودبرني، واغفر لي ما جنيته من المعاصي والسيئات، واحفظني بعد ذلك من العجب بأحوالي، فإن مثلك يا أخي إذا رأى نفسه طاهراً مطهراً من كل رذيلة يطرقه العجب

والكبر على إخوانه ، فيقع فيما هو أشد مما سأل الله تعالى رفعه ، انتهى .

وسمعته رضي الله تعالىٰ عنه مرة أخرى يقول: لا تكمل رؤية العبد المنة لله تعالىٰ عليه إلا إن رأى سداه ولحمته ذنوباً فيجب أن يتميز بالنقص المطلق ليكون للحق تعالىٰ الفضل والكمال المطلق ، انتهى .

وهذا أمر لا يصح إلا بعد أن يأخذ العبد حظه من كثرة الطاعات والإخلاص ويتنصل من شهود الرذائل المحسوسة ، حتى لا يجد كاتب الشمال شيئاً يكتبه عليه وإلا فلا يقدر على التخلق به ، فإياك والغلط ، فقد علمت أنه لا ينبغي للعبد ، أن يقول: اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد ، إلا مع سؤاله الحفظ من رؤية النفس بذلك على أحد من المسلمين ، ولا تقل إن رسول الله ﷺ دعا بذلك ، فأنا أدعو به ، اقتداء به ﷺ ، لأنا نقول: إن رسول الله ﷺ معصوم من رؤية النفس ، بخلافك أنت ، فاسأل الله الحفظ ، ثم ادع بذلك .

وقد سمعت الشيخ عبد الرحمن النقلي بباب زويلة ، وكان من أولياء الله عز وجل يقول: يا لطيف يا لطيف فقلت له: مالك يا عم فقال: سمعت الواعظ يقول حديثاً فقلت له: وما هو ؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه**»[1] فخفت أن يقع لي ذلك فأرى به نفسي على من حدث نفسه وأرى أنه تعالىٰ غفر لي ما تقدم من ذنبي فيقل خوفي من الله تعالىٰ ، ويطرقني العجب ، فقلت له: إن الناس يسألون الله تبارك وتعالىٰ أن يرزقهم صلاة بغير حديث نفس ، فلا يحصل ذلك لهم ، فقال: صحيح ليس من علم كمن جهل ، ثم قال: لا ينبغي لعبد أن يسأل الله تبارك وتعالىٰ قط شيئاً من الكمالات إلا مع سؤاله الحفظ من آفاتها. انتهى. فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: قيامي في الأسحار مع رؤية المنة لله تبارك وتعالىٰ الذي أقامني ، ولم ينمني ، كما أنام غيري ، ورؤية المنة لله تعالىٰ أيضاً إذا لم أستلذ بصلاتي أو مناجاتي ، لما ورد أن الله تبارك وتعالىٰ أوحى إلى موسى عليه السلام «**نعم العبد برخيا في قيامه بين يدي في الليل ولو لم يكن يسكن إلى نسيم السحر فإن من يسكن إلى غيرنا لا يصلح لنا**»[2] اهـ .

وشكا أخي سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ إلى سيدي علي الخواص ما يجده من

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب قول الله تعالى . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ (٦٤٣٣) . والنسائي ، كتاب الطهارة ، باب ثواب من أحسن الوضوء ثم صلى ركعتين (١٥١) .

(٢) لم أجده .

قساوة قلبه ، فقال له: اشكر الله الذي أطلعك على مساويك ، وحجبك عن كمالاتك ، خوف العجب ، وإن كان الكامل يشكر الله تعالىٰ على كل حال ، فإن كشف له عن كمالاته شكر ، وإن سترها عنه شكر ، انتهى.

وهذا خلق غريب قل من يتخلق به من إخواننا ، بل يضيق صدر أحدهم إذا لم يحصل له لذة بقراءته أو صلاته ، وربما كان الباعث لمثل هذا على قيامه ما يجده من اللذة ، ولولا هي لما قام.

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: خطاب العبد لربه لا لذة فيه ، لأن الهيبة تمنعه من اللذة ، وأيضاً فإن الإنسان لا يأنس إلا بجنسه والحق تبارك وتعالىٰ ليس بينه وبين عباده مجانسة بوجه من الوجوه.

فإن رأيت يا أخي في كلام أحد أن العبد يأنس بسيده فاعلم أنه غير محقق ، ولو أنه حقق النظر لوجد أنسه بما من الله تبارك وتعالىٰ من لذة التقريب ونحوه لا بالله عز وجل قال: وهذا الحكم لنا في الدنيا والآخرة فإنه ﷺ لم يفصح لنا عن سبب اللذة إذا وقعت لنا الرؤية ، بل قال: فما أعطوا لذة مثل لذة نظرهم إلى ربهم ، ولذة النظر أمر آخر غير الأنس ، فافهم ، انتهى ، هكذا قال.

وقال أيضاً: لا يصح الأنس بالله عند المحققين ، وإنما يأنس العبد ويتلذذ بملاطفات الحق تبارك وتعالىٰ لقلبه ، لانتفاء المجانسة بينه وبين ربه تبارك وتعالىٰ ولذلك كان الجن لا يأنس أحدنا بهم ، بل تقوم كل شعرة من الأنسي إذا رآهم ، انتهى.

وبالجملة فكل يتكلم عن ذوقه ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم الجهر بالقرآن في قيام الليل ، فإن حضرة الحق تبارك وتعالىٰ حضرة بهت وصمت ، فمن جهر لغير غرض شرعي فقد أساء الأدب عند القوم ، وقد جربت أنا ذلك ، فإذا أسررت حصل عندي الخشوع ، وإذا جهرت ذهب الخشوع ، ومعلوم أن الخشوع لا يذهب إلا من فعل ما فيه سوء أدب ، فافهم يا أخي ذلك ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: نوم عيني دون قلبي ، بحكم الإرث لرسول الله ﷺ ، لكن ذلك لا يقع لي إلا ليلة الأحد فقط ، وسبقني إلى ذلك الشيخ أبو الربيع المالقي رحمه الله تعالىٰ ، فكان له هذا المقام ليلة الاثنين وليلة الخميس فقط ، وأما الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالىٰ عنه فأخبر أن هذا المقام له في كل الأسبوع ، انتهى.

وكثيراً ما أقرأ القرآن وأنا نائم فأعتد به ، ثم أبني عليه ، لكن في غير قراءتي في الصلاة ،

انتهى. فافهم ذلك، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: شهودي عدم كمال الإخلاص في كل عبادة فعلتها، ولو بلغت الغاية في خشوع أمثالي، وفي كلام الشيخ أبي الحسن الشاذلي: إذا كان لا يسلم من النفاق من يعمل على الوفاق فكيف يسلم من النفاق من يعمل على الخلاف، وفي الحديث: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1] وربما كانت المؤاخذة للأكابر في صلاتهم أكثر من مؤاخذة الأصاغر، لأن الأصاغر لا يرون لهم عبادة كاملة قط. بخلاف الأكابر فقد يرون كمالها لكثرة ما فيها من الخشوع مثلاً، فعلى هذا إن كمل الأكابر من جهة نقصوا من جهة، وإن كمل الأصاغر من جهة نقصوا من جهة، والكامل من نظر إلى أعماله بالعينين فشكر الله تعالىٰ من حيث رائحة الإخلاص في أعماله، واستغفر الله تعالىٰ من حيث وجود النقص فيها الذي ما سلم منه سوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم الذين يؤدون العبادات على وفق ما أمروا ولذلك كانوا لا يحزنهم الفزع الأكبر، لعدم خوفهم على أنفسهم، ومن خاف منهم إنما يخاف على أمته، وأما غيرهم فمن لازمه وجود النقص في أعماله وعبادته كلها، شعر بذلك أم لم يشعر.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا نفل إلا عن كمال فرض وكان سيدي أحمد الزاهد يقول: ليس لأمثالنا نوافل لنقص فرائضنا عن الكمال وإنما هي جوابر، وإنما النوافل لمن كملت فرائضه، فافهم ذلك، واعمل على التخلق به والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: إذا رأيت شخصاً عرياناً أو جيعاناً، أو مبتلى أن لا أبادر إلى الرقة إليه، والتوجع له، وإنما أرق له بعد شهودي وجه حكمة الله تبارك وتعالىٰ في ذلك، فإنه أرحم بعباده من والدتهم.

وقد بلغنا أن سيدي ياقوتاً العرشي رحمه الله تعالىٰ مر على مساكين يسألون الناس فأخذته الرقة، فإذا بالهاتف يقول له: الله تعالىٰ أرحم بهم منك، ولو شاء لأشبعهم فتب من ذلك، قال: فقلت له من أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا أخوك الخضر، كنت بالصين فقيل لي أدرك فلاناً فإنه يتكرم على الله تبارك وتعالىٰ، ويرى نفسه أشفق على عباده منه، انتهى.

واعلم يا أخي أنه لا بد لأهل الله تبارك وتعالىٰ في طريقهم من المحن والشدائد لينظر تعالىٰ صبرهم، وهو العالم بهم وبسرائرهم، فربما يكون ذلك المسكين الذي رأيته في بؤس وشدة في مقام الامتحان فتكسوه أو تطعمه فتعارض الحكمة الإلهية وتسيء الأدب مع الله تبارك

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة (١٧١٨).

وتعالىٰ ، وإن كان يا أخي ولا بد لك من الإحسان إلى ذلك المسكين فقل: اللهم إن كان إحساني لهذا المسكين يضره في طريق سلوكه فاصرفني عنه ، وإن كان ينفعه فأوصل ذلك إليه واحفظني في عاقبته. وقد كان بعض العارفين يسأل الناس خلقة أو سكرة فلا يعطونه شيئاً ثم بعد سنين صار الناس يعطونه بغير سؤال ، فقال له أصحابه: ما هذا الحال ؟ فقال: ذهبت أيام المحن وأتت أيام المنن فلو أعطانا تعالىٰ الدنيا والآخرة لم يحجبنا ذلك عنه انتهى. فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: شدة قربي من رسول الله ﷺ ، وهي المسافة بيني وبين قبره الشريف في أكثر الأوقات ، حتى ربما أضع يدي على مقصورته ، وأنا جالس بمصر ، وأكلمه كما يكلم الإنسان جليسه ، وهذا الأمر لا يدرك إلا ذوقاً ، ومن لم يشهد ذلك فربما أنكره ، والإنسان تابع لقلبه ، لا أن القلب تابع للجسم.

وفي كلام السيد عيسى عليه الصلاة والسلام «**قلب الإنسان حيث يكون ماله فاجعلوا أموالكم في السماء تكن قلوبكم في السماء**» أي: تصدقوا بها تصعد إلى السماء ، وتروا ثوابها هناك.

وكان سيدي الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لو حجبت مني جنة الفردوس طرفة عين ، أو رسول الله ﷺ طرفة عين ، أو فاتني الوقوف بعرفة سنة واحدة ، ما أعددت نفسي من جملة الرجال ، انتهى. فسلم يا أخي للفقراء ما يدعونه من مثل ذلك ولا تنكر عليهم إلا ما صرحت الشريعة بمنعه ، فقد أجمعوا على أن كل من أنكر شيئاً من مقاماتهم حرم الوصول إليه ، انتهى فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تعويلي في الشدائد كلها على الله تبارك وتعالىٰ ثم على رسول الله ﷺ فإن بيده تبارك وتعالىٰ ملكوت كل شيء ، وليس لنا واسطة أعظم من رسول الله ﷺ ، فتارة يرى نفسه قريباً من حضرة الله تبارك وتعالىٰ وحضرة رسوله ﷺ فلا يحتاج إلى أحد من الخلق ، وتارة يحس بنفسه أنه بعيد ، فيحتاج في قضاء حاجته إلى بعض الأولياء الأحياء أو الأموات ، ويطرق توابيت المشايخ.

وكان الشيخ تاج الدين بن عطاء الله رحمه الله تعالىٰ يقول: قال لي سيدي الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله تعالىٰ عنه: أفرد الله يفردك ، ووحد الله يوحدك ، والزم فرد باب تفتح لك الأبواب ، واخضع لربك وحده تخضع لك الرقاب ، وعليك بمحبة الله تعالىٰ ، ومحبة رسوله ﷺ تكف أمر الدنيا والآخرة ، انتهى.

وقد جعلت في وردي أني أقول: اللهم حبب نبيك محمداً ﷺ فيَّ ، ألف مرة كل ليلة ، وذلك لعلمي بأنه إذا أحبني كفاني بعون الله تعالىٰ هم الدنيا والآخرة ، انتهى. فافهم ذلك ،

واعمل على التخلق به ، والله تعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: جعل عباداتي كلها مقاصد لا وسائل ، وذلك من أكبر نعم الله تبارك وتعالىٰ عليَّ فإن كل من جعل عباداته وسائل فاته الجلوس بين يدي الله تبارك وتعالىٰ حال العمل ، ثم إنه إن لم يحصل له ما قصده حصل عنده أسف وصار ممن يعبد الله على حرف كما مر تقريره في هذه المنن.

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه: كنت في بدايتي أعبد الله تعالىٰ أنا وصاحب لي ، وأقول: غداً يفتح علينا ، بعد غد يفتح علينا ، فمكثنا على ذلك الحال زماناً ونحن في تعب عظيم ، فدخل علينا رجل مهيب المنظر ، فقلنا له: من أنت ؟ فقال: عبد الملك ، فعلمنا أنه من أولياء الله تعالىٰ ، فقلنا له: ما حاجتك ؟ فقال: جئت أنصحكما لله تعالىٰ أن تعبدا الله تعالىٰ لله تعالىٰ ، ولا تقولا غداً يفتح علينا ، بعد غد يفتح علينا ، قال: فكشف لنا عن أمر كنا عنه غافلين ، فعبدنا الله لله ففتح علينا في ثاني يوم.

فعلم أن من اتخذ عباداته وسائل لتحصيل غرض من الأغراض طالت عليه الطريق وربما رجع من أثنائها ، كما هو حال غالب المريدين في هذا الزمان ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: إذا كنت أقرر علماً ودخل علي فقيه أقول له: قرروا أنتم ، فإن أبى عزمت عليه إلا إن كنت أعلم أن عندي من التقول في تلك المسائل أكثر مما عند ذلك الفقيه ، فإني أقرر دونه ، خوفاً عليه من أن يرى نفسه عليّ فيمقت ، وإن لم أعلم أنا بذلك ، وقليل من الفقهاء من يبدي في تقريره التقول التي ليست عند أقرانه ، ويسلم من رؤية النفس والدعوى والرعونة ، فما عزمت عليه أنه يقرر إلا لحسن ظني به ، ثم إني أسأل الله تبارك وتعالىٰ بتوجه تام أن يحميه من رؤية النفس.

وقد دخل علي مرة فقيه وأنا أقرر في بعض المسائل ، فصار يبادرني إلى التقرير ، فقلت له: قرر أنت ، ففعل ، فما قام من المجلس إلا ممقوتاً ، وكان تاجراً عليه نحو خمسمائة دينار ديناً ، فطالبه أرباب الديون ، وحبسوه وباعوا كل شيء في دكانه وأخلوه ، وأخذوا خلوه في الدين ، وصار أولاده يسألون الناس ، وقسى الله تبارك وتعالىٰ عليه القلوب ، فسافر إلى الأرياف ، فادعى العلم فضربوه وعروه ما كان عليه من الخليقات ، ثم ابتلي بترك الصلاة وإخراجها عن أوقاتها وصار مقراضاً في العلماء ، لا يعجبه أحد من علماء جامع الأزهر فضلاً عن غيرهم نسأل الله العافية ، فشفع فيه بعض الفقراء فرد الله تعالىٰ عليه بعض حاله ، وكان ذلك تأديباً له من الله تبارك وتعالىٰ ، ليس لي في ذلك فعل.

وقد حكى الشيخ تاج الدين بن عطاء الله رضي الله تعالىٰ عنه: أن شخصاً من الفقهاء دخل على سيدي الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله تعالىٰ عنه ، وهو يدرس العلم في

إسكندرية ، فصار يزاحم في التقرير ، فعزم عليه الشيخ فقرر ، فرأى نفسه على الشيخ ، فقال له الشيخ: اخرج يا ممقوت ، فأخرجوه فسلب جميع ما كان معه من القرآن والعلم ، وصار دائراً في أزقة المدينة كل من رآه يمقته ، فدلوه على سيدي ياقوت العرشي رضي الله تعالىٰ عنه ، فشفع فيه عند سيدي الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله تعالىٰ عنه فقال: قد رددنا عليه الفاتحة والمعوذتين ليصلي بهما ، وكان قد حفظ القرآن وثمانية عشر كتاباً في العلم ، ولم يزل مسلوباً إلى أن مات ، انتهى. فإياك يا أخي ثم إياك من مثل ذلك ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم تزوجي لابنة شيخي الشيخ محمد الشناوي رضي الله تعالىٰ عنه إجلالاً له لا لعلة أخرى ، فإن السلامة مقدمة على الغنيمة ، وقد تزوج جماعة بنات مشايخهم فجرهم ذلك إلى العطب.

ولما تزوج سيدي ياقوت العرشي رضي الله تعالىٰ عنه ابنة سيدي الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله تعالىٰ عنه ، مكثت عنده ثلاث عشر سنة ، حتى مات عنها وهي بكر برضاها ، وكان إذا دخل عليه أحد من أكابر الأولياء وهو يكلمها لا يقطع حديثها لأجله ، ثم يعتذر إليه ويقول له: إني كنت أكلم ابنة شيْخي ، فلا تؤاخذني يا أخي ، انتهى.

ومن قواعد السلف رضي الله تعالىٰ عنهم السلامة مقدمة على الغنيمة ، فالعاقل لا يتزوج ابنة شيخه إلا إن كان يقوم بواجب حقها ، انتهى فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: أنه ما جلس عندي أحد قط وهو متضمخ بمعصية وأوهمته أنني اطلعت على شيء من أحواله أبداً ، بل أقول له حلت البركة علينا وأضاء مجلسنا بنورك ، وأؤانسه وألاطفه حتى ينصرف من عندي ، فمن الناس من يعود ، ومنهم من لا يعود.

وقد كان سيدي الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله تعالىٰ عنه ، يكاشف الناس بما في سرائرهم ، حتى ربما قال للرجل: يقوم أحدهم إلى مجالس الأولياء ويجلس فيها عقب فعله للمعصية من غير توبة ، أما يخشى أن يمقته الله تعالىٰ ، وينهر ذلك العاصي ، حتى يكاد يهلكه ، ولم يزل ذلك دأبه مدة مجاهدته لنفسه ، فلما أتاه التعريف من الله تبارك وتعالىٰ ، واتسع حاله صار يقول: نحن لا نحب إلا من يأتينا وهو مختضب بدم المعصية ، فقيل له في ذلك ، فقال: طريقنا أيها الشاذلية أن من كانت بدايته التعريف كانت نهايته التكليف ، ومن كانت نهايته التكليف كانت بدايته التعريف ، وأنا كانت بدايتي التكليف ، انتهى.

وكذلك حكي عن سيدي علي البدوي الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه ، تلميذ سيدي الشيخ

أبي العباس المرسي رضي الله تعالىٰ عنه ، أنه قال : أصبحت يوماً من الأيام وأنا أعمى البصر ، فضاق صدري ، ولم أعرف السبب ، وتمادى بي الحال سبعة أيام ، ثم قيل لي : يا علي إنما فعل الله تعالىٰ بك ذلك إكراماً بك ، قال : فقلت : كيف ذلك ؟ فقال : إنك إذا رأيت عباده على معصية تنهرهم لأجله ، فأعمى بصرك رحمة بك وبهم ، كي لا تمقتهم ، قال : فاستغفرت الله تعالىٰ وتبت إليه ، فرد علي بصري انتهى .

قال الشيخ تاج الدين رضي الله تعالىٰ عنه : فكان بعد ذلك إذا دخل عليه أحد ورأى قلبه أسود يقول له : حصلت لنا البركة ، ويلاطفه ، ويسأل الله تعالىٰ له التوبة .

فتخلق يا أخي بأخلاق الله تبارك وتعالىٰ ، فإنه يرى العيب ويستره ، فافهم ذلك والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : شهودي أن جميع ما أنا فيه ببركة ملاحظة مشايخي لي بإرادة الله تبارك وتعالىٰ ، فجميع ما أنا فيه من محبة الناس لي ما أعده إلا من فضل الله تبارك وتعالىٰ عليّ بواسطتهم .

وقد كان سيدي الشيخ ياقوت العرشي رضي الله تعالىٰ عنه يقول : النظر في وجه الولي على جهة التعظيم ساعة واحدة خير للمريد من عبادته وحده خمسين سنة ، وإن كانت مخالطة الصغير للكبير مخاطرة بالروح ، ولكن الغالب السلامة بحمد الله تبارك وتعالى .

وكان رضي الله تعالىٰ عنه كثيراً ما يقول : أنا رأسي وكوارعي لا تساوي أربعة دراهم نقرة ، وإنما خالطت الأكابر وجالستهم فجملوني بين الناس ، ثم يقول : قالوا لدود القمح : لم تنطحن مع الدقيق ؟ فقال : لما خالطت الأصاغر انطحنت معهم ، وقالوا لسوس الفول : لم لا تنطحن مع الفول ؟ فقال : لما خالطت الأكابر حملوا عني الآفات ، انتهى .

فخالط يا أخي مشايخك بالأدب ، وإلا كانت صحبتك لهم سماً قاتلاً لك ، وإنما قلنا إن من شرط المريد أن يرى جميع ما هو فيه من الخير ببركة شيخه ، لأن كل مريد محبوس في دائرة شيخه ، لا يمكنه أن يتجاوزها ، فلا يمد بمدد إلا وشيخه واسطة له فيه ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : محبتي لإطعام الطعام ، وسقي الماء ، وإغاثة الملهوف ، وذلك لأنَّ بعض المشايخ اجتمع بالخضر عليه السلام وقال : عرفني طريق الوصول إلى الله تعالىٰ زيادة على الصلاة والصيام ، فقال له : عليك بهذه الثلاث خصال المذكورة ، أي أولاً ، وما دخل عليّ بحمد الله تبارك وتعالىٰ أحد إلا وعرضت عليه الأكل والشرب ، وما استغاث بي أحد إلا وأغثته بطريقه الشرعي ، وكان ذلك من خلق سيدي محمد بن عنان وسيدي يوسف الحريثي وسيدي عبد الحليم بن مصلح رضي الله تعالىٰ عنهم ،

وما رأيت له بعدهم فاعلاً إلا القليل ، بل بعضهم قيل له: إنَّ فلاناً يطعم العيش كثيراً في زاويته ، فقال: هذه بطالة ، يجعل زاويته مناخاً لكل بطال ، فقال له القائل: ورأيته أيضاً يغيث الملهوف ، فقال: هذا اعتراض على الله تعالىٰ ، فقال له القائل فقل لي: على نفعك أنت في الوجود ، فما درى ما يقول ، وافتضح.

فما ثم يا أخي أفضل من إغاثة الملهوف في الدنيا والآخرة إذا كان ذلك خالصاً لوجه الله عز وجل ، فإن إبليس بالمرصاد لمثل ذلك ، فقد يطعم الشخص الناس ليقال أو يسعى لهم في جر نفع ليقال.

وقد حضرت شيخاً من مشايخ الشام كان بمكة مجاوراً سنين ، فجاء مع الحجاج إلى مصر ، فقلت له: ما أقدمك إلى مصر ؟ فقال: جئت لأعلم مولانا الباشا ليكتب لي عرضاً إلى السلطان ليعمر بيمارستان بمكة لأجل الغرباء والمنقطعين ، وطلب مني أنْ أجمعه على محمد دفتردار الأموال فجمعته عليه ، فقال لي سراً: هذا ما هو من أهل هذا الأمر ، إنما مراده أن يشتهر بين الولاة بأنه شيخ يسعى في مصالح المسلمين فقلت للدفتردار: ما عهدت عليه إلا خيراً ، فقال: أنا أكشف لك حاله ، ثم أخرج له مائة دينار ذهباً ، فقال: أجبروا بخاطرنا واقبلوها مني لله تعالىٰ ، وتوسعوا فيها فأخذها الشيخ ، ثم قال لي الدفتردار سوف تنظر أنه ما عاد يذكر لنا البيمارستان أبداً فكان الأمر كما قال ، فصار الدفتردار يقول له حين عزم على السفر اصبروا حتى يكتب لكم العرض ، فلم يصبر ورجع إلى مكة بالمائة دينار ، فإيَّاك يا أخي أن تفعل مثل ذلك ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، ويعينك على إطعام وإغاثة الملهوف ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: سياحتي في الجبال والبراري ، حتى قطعت براري ما أظن أن أحداً يعرفها الآن من أقراني ، ثم حبب الله تبارك وتعالىٰ إلي الجبل المقطعم ، ثم المساجد المهجورة في القرافة ، ثم الخرايب في مصر ، وأقمت على سور باب الفتوح في القصر المطل على خرابة الأحمدي نحو سنة ، وما من فقير حقَّ له القدم في الطريق إلا بعد سياحة ، وذلك لأن الأنس بالخلق حجاب عظيم ، فلا بد من قطع هذا الحجاب إما بالمجاهدة ، وإما بجذبة إلهية ، وكتب الصوفية طافحة بذلك في حق ذي النون المصري وإبراهيم بن أدهم ، والخواص ، والسادة الشاذلية وغيرهم رضي الله تعالىٰ عنهم.

وحكي عن الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالىٰ عنه ، أنه قال: ما جلست للناس حتى سحت خمساً وعشرين سنة في البراري ، وكنت آكل من نبات الأرض وأشرب من الأنهار ، وكنت أصبر عن الماء السنة وأكثر ، قال: وأعطيت حرف كن وأنا سائح في البرية ، فكنت أجد الموائد منصوبة فآكل منها ما أشتهي ، وأقطع من الجبل الحلوى وآكل ، وكنت أشرب

من الرمل السكر ، فأضع الرمل وأصب عليه من البحر الملح وأشربه حلواً ، ثم تركت ذلك أدباً مع الله تعالىٰ ، انتهى.

وقال الشيخ علي البدوي الشاذلي تلميذ سيدي ياقوت العرشي رضي الله تعالىٰ عنهما: مررت في سياحتي بقبة كبيرة ليس لها باب ، فإذا هي ببيضة رخ. قال رضي الله تعالىٰ عنه: ودخلت مرة أخرى برية فرأيت فيها نحو ألف فيل ، وفيهم فيل أبيض يقومون لقيامه ويقعدون لقعوده ، وإذا بطائر أبيض عظيم الخلقة خرج على الفيلة فهربوا كلهم منه. وقال أيضاً رضي الله تعالىٰ عنه: قطعت مع أولياء الله تعالىٰ في السياحة جبل ق كله ، ثم قطعنا بحر الرمل بعده ، وهو بحر عظيم من رمل تتلاطم أمواجه ، يغلي كغليان القدر ، قال: وكنا أربعين رجلاً فمات منا سبعة وثلاثون رجلاً فدفناهم هناك ، ورجعنا ثلاثة أنفس ، فكان ذلك آخر سياحتنا ، انتهى.

قال الشيخ علي البدوي الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه: وكثيراً ما كان الشيخ ياقوت يوجهني في الحاجة من إسكندرية إلى بلاد الأندلس ، فأذهب إليها وأرجع في يوم واحد لسرعة خطاي من غير أن تطوى لي الأرض ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: سياحة المريدين بأجسامهم وسياحة العارفين بأرواحهم ، انتهى كلامه رضي الله تعالىٰ عنه.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: إقامة العذر للفقيه إذا بادر بالإنكار على بعض أهل الطريق ، لأنه ما تعدى دائرة علمه ، وكثير من الفقراء من لا يقيم لهم عذراً ، بل كان سيدي الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله تعالىٰ عنه ، وسيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه ، وغيرهما ، يقولون ما بيننا وبين هؤلاء المنكرين الذين ينكرون علينا مودة ولا محبة ، لأنه ليس معهم شيء نستفيده ، ولا يقبلون منا ما هو معنا من المعارف والأسرار ، انتهى.

وقد حكي أن الشيخ علي البدوي الشاذلي تلميذ سيدي ياقوت العرشي رضي الله تعالىٰ عنهما ، كان له صهر ينكر عليه كثيراً ، فخرج الشيخ إلى خارج الاسكندرية فرأى غيطاً فيه فواكه ، فقال للفقراء: ادخلوا كلوا من التين الذي فيه دون الشجر الذي بجانب الخرنوب فلا تأكلوا منه شيئاً ، فدخلوا وأكلوا إلا صهره ، فقال: إني صائم ، فقال الشيخ: كلوا بسرعة واخرجوا وإلا يجيء صاحب الغيط يضربكم ، فازداد صهره إنكاراً ، وقال في نفسه: كيف صلاح هذا وهو يأكل هو أصحابه حراماً بغير إذن أصحابه؟ ثم خرج الشيخ والجماعة من الغيط مهرولين ، فلما بعدوا عن الغيط ، إذا برجلين سلما على الشيخ وجماعته ، ثم قالا:

ارجعوا معنا إلى غيطنا فإنا أخرجنا لك ولأصحابك عن التين الذي في الغيط إلا ما كان بجانب الخرنوب ، فإنه ليس لنا فالتفت الشيخ إلى صهره ، وقال له: فاتك الأكل من التين يا صائم ، فاستغفر صهره وتاب عن المبادرة إلى الإنكار على الفقراء ، انتهى.

فإياك يا أخي والمبادرة إلى الإنكار على أهل الطريق ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة أدبي مع المجاذيب وأرباب الأحوال من حين كنت صغيراً ، فما أتذكر أني أسأت مع أحد منهم يوماً واحداً ، وذلك من أكبر نعم الله تبارك وتعالىٰ عليّ.

وقد حكي أن شخصاً مر على سيدي الشيخ علي البدوي الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه ، فخطر في باله أن هذا زوركاري ما هو شيخ صادق ، فكلمه الشيخ شفاهاً وقال: مالك لا تتأدب مع الفقراء ، أما تخاف الهلاك ؟ ثم حرك الشيخ يده وإذا بيد في بطن ذلك المنكر تجذب مصارينه حتى كادت تتقطع ، فصاح بأعلى صوته: تبت إلى الله تعالىٰ ، فخرجت اليد من بطنه ، انتهى.

وقد كان الشيخ إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: سلموا على أرباب الأحوال بالقلب دون اللفظ ، فإنهم في حضرة لا يقدرون على خطاب أحد لهم باللفظ ، وربما سألهم أحد في الدعاء له ، فيدعون عليه ، ويستجيب الله تعالىٰ لهم من باب توقف المسبب على السبب.

وسيأتي بسط ذلك في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ ، فافهم ذلك واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: البركة في رزقي ، فربما أقدم للضيوف شيئاً قليلاً ، فيأكلون منه ويشبعون ، وأتاني مرة أربعة عشر نفساً من الفلاحين فقدمت إليهم رغيفاً واحداً فأكلوا كلهم منه وشبعوا ، وقدمت مرة الطاجن الذي نعمله في الفرن إلى سبعة عشر نفساً فأكلوا كلهم منه وشبعوا ، وأتاني مرة ضيوف صحبة الشيخ شهاب الدين بن داود المنزلاوي رضي الله تعالىٰ عنه بعد صلاة العشاء ، وليس عندي شيء فطبخت لهم شوربة قمح بلا شيرج ولا دهن بل بالماء فقط ، فأكلوا وصاروا يقولون: نعمل هذه الشربة كثيراً في دارنا فما نجد لها طعماً مثل هذه في اللذة ، فقلت لهم: سبحان الله الستار ، وكان على هذا القدم سيدي علي رضي الله تعالىٰ عنه من تلامذة الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه ، كان يأمر بوضع الزبادي الفارغة للضيوف ويقول لهم: غمضوا عيونكم ثم يفتحونها ، فيجدون الأواني كلها ملآنة من الأطعمة المختلفة.

وكذلك بلغنا عن سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه أن أصحابه اشتهوا في البرية سماطاً[1] يمد في أواني صيني من سائر الألوان ، وفيه شوربة ودجاج ، فأمرهم الشيخ بأن ينتشروا ليتطهروا ، ثم يأتوا فأتوا فوجدوا سماطاً ممدوداً عند الشيخ كما اشتهوا ، قال الشيخ يوسف الكردي : فأكلنا ثم ارتحل الشيخ ، وتركنا السماط ممدوداً كما هو ، انتهى .

قلت : وكان على هذا القدم سيدي علي المليجي رضي الله تعالىٰ عنه ، فبلغنا أن السلطان محمد بن قلاوون نزل لزيارته بالعسكر ، فكفاهم من قدر فيه قدحان من عدس ، وعلى هذا القدم أيضاً عدة جماعة ممن أدركناهم كسيدي الشيخ عبد الحليم بن مصلح رضي الله تعالىٰ عنه ، وسيدي الشيخ محمد بن عنان رضي الله تعالىٰ عنه ، وسيدي الشيخ محمد الشناوي رضي الله تعالىٰ عنه .

وقد شاهدت أنا شيخنا محمد الشناوي رضي الله تعالىٰ عنه قد جاء بجماعة من الريف نحو خمسين رجلاً ، ثم تسامع بذلك المجاورون بجامع الأزهر فأتوا ، حتى امتلأت زاوية شيخه الشيخ محمد السروي رضي الله تعالىٰ عنهما ، ثم فرشوا للناس الحصر في الزقاق حتى امتلأ الزقاق ، ثم قال لنقيب شيخه : هل عندكم طبيخ فقال : نعم طبيخي أنا وزوجتي فقط ، فقال : لا تغرف شيئاً حتى أحضر ، ثم غطى الشيخ الدست الصغير بردائه ، وأخذ المغرفة وصار يغرف إلى أن كفى من في الزاوية وخارجها ، هذا شيء رأيته بعيني .

وأما سيدي الشيخ محمد بن عنان رضي الله تعالىٰ عنه فكفى نحو خمسمائة نفس من ستة أقداح دقيق ، وذلك أن سيارة الفقراء أتوه على غفلة ، فقال لوالدته : غطي العجين بهذا الرداء وقرِّصي منه ولا تكشفيه ، فملأت البيت والحجير ونصف صحن الدار حتى أكل الخمسمائة منه ، وفضل ، والله ذو الفضل العظيم ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : عدم نفرة نفسي من مخالطة الأبرص والأجذم وأرباب العاهات ، فتطيب نفسي بحمد الله تبارك وتعالىٰ أن آكل معهم المائعات وأشرب فضلتهم ، وكان على هذا القدم جدي الشيخ علي رحمه الله تعالىٰ ، دخل إلى بلده مجذوم تقطر أطرافه صديداً فنفر الناس منه ، فأخذه جدي وأدخله داره ، ثم حلب له البقرة وأكل معه في إناء واحد ، ثم شرب فضلته ، فلامه والده رحمه الله تعالىٰ وقال له : أما قال رسول الله ﷺ : **«فرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»**[2] فقال له جدي : أما قال ﷺ : **«لا عدوى ولا طيرة»**[3] ثم قال :

---

(١) السماط من الطعام ما يمر عليه الطعام والعامة تضمه تاج العروس مادة (سمط) .

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً ، كتاب الطب ، باب الجذام ، وأحمد في مسنده (٩٤٢٩)

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الطب ، باب الطيرة (٥٧٥٣) ، ومسلم ، كتاب السلام ، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر (٢٢٢٠) .

والله إن عدم كسر خاطره مقدم عندي على ما لو حصل لي مثله من الجذام ، فإن كسر الخاطر عظيم عند الله تبارك وتعالىٰ .

ثم حكي عن زوجة الشيخ أبي عبد الله القرشي رضي الله تعالىٰ عنهم أنها كانت تضع الإناء تحت رجلي الشيخ وقدميه ، وكان أجذم كسيحاً فإذا تحصل منه شيء من الصديد شربته إلى أن مات رحمه الله تعالىٰ ، فاستخلفها الشيخ بعده ، فكلمت أصحابه من بعده ، انتهى .

ومما وقع لسيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالىٰ عنه أن كلباً حصل له جذام فقذرته نفوس أهل بلده ، وصار كل واحد يطرده عن داره ، فأخذه سيدي أحمد ، وخرج به إلى البرية وضرب عليه مظلة ، وصار يأكل هو وإيَّاه ويسقيه ويدهنه مدة أربعين يوماً حتى عافاه الله تعالىٰ من الجذام ، ثم سخن له ماء وغسله ودخل به البلد فقيل له : أتعتني بهذا الكلب هذا الاعتناء ، فقال : نعم ، خفت أن يؤاخذني الله تعالىٰ به يوم القيامة ، ويقول : أما كان عندك رحمة لهذا الكلب ، أما كنت تخشى أن أحول ما ابتليته به إليك ، انتهى .

فافهم يا أخي ذلك ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : طاعة الجن لي ، واعتقادهم في أوائل دخولي طريق القوم ، فكنت ربما أقول للواحد منهم ارجع عن ركوب فلان أو فلانة فينزل عنها من غير عزيمة ، وربَّما دخلوا عليّ في الليل أفواجاً من طيقان القاعة ، فيصلون معي ويسبحون معي على السبحة ، ثم يذهبون ، وسحب واحد منهم خيط السبحة ، فقلت له : الزم الأدب ، وإلا لا تعد تجالسني فتاب .

وأتوني مرة بعدة أسئلة في التوحيد ، أُشكِلَتْ عليهم ، يطلبون مني أن أكتب لهم عليها ، فكتبت لهم عليها ، وكانت نحو خمسة وسبعين سؤالاً ، ونقلت الأسئلة وألفت أجوبتي عليها في نسخة سميتها « كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان » ليراجعها من يريد استفادتها ، فتلقاها العلماء بالقبول ، وكتب الناس منها نسخاً لا أحصيها ، ونقلت إلى الممالك القريبة والبعيدة .

وكان على هذا القدم سيدي أبو الخير الكليباتي رضي الله تعالىٰ عنه ، وسيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه ، وسيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه وسيدي علي الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه ، فكانوا يستخدمون الجن في صورة كلاب .

وكان الشيخ أبو الخير الكليباتي رضي الله تعالىٰ عنه يدخل بهم جامع الحاكم فينكر ذلك عليه الفقهاء إنكاراً شديداً لاعتقادهم أنهم كلاب ، وقال له فقيه يوماً : كيف تدخل الكلاب بيت ربك جلَّ وعلا ؟ فقال : إنهم لا يأكلون حراماً ، ولا يشهدون زوراً ، ولا يغتاب بعضهم بعضاً ، وكان يرسلهم في قضاء الحوائج فيقضونها ، ويقول لصاحب الحاجة اشتر له رطلين

لحماً شوربة ورغيفين فيفعل فيذهب معه إلى ذلك الضائع من أمتعته أو بهيمة إلى أن يقف به على المكان التي هي فيه ، وكان يعمل لهم الوليمة في بعض الأوقات في المكان الذي بين الأزبكية وباب اللوق ، ويمد لهم الطعام هناك في صحاف ، فيعتقد المارون أنهم كلاب ، والحال أنهم جن.

قال الشيخ أحمد البهلول رفيق الشيخ نور الدين الشرنوبي الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنهما : وأنا ممن أجلسني الشيخ أبو الخير معهم مرة ، وقال: كل مع إخوانك ، فما وسعني إلا طاعته ، فلما قام الشيخ أبو الخير رضي الله تعالىٰ عنه ذهبت لأطهر ثيابي فرجع إليّ ، وقال: هؤلاء من مؤمني الجن ، فقلت: إني أطهر ثيابي لظاهر الشرع ، انتهى.

ومما وقع للشيخ حسن الغزاوي ، وكان ممن يملأ قعاوي الكلاب بإذن سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه ، فقال له: لا تملأ القعاوي التي خارج دروب الأزبكية مما يلي باب اللوق إلا بإناء طاهر ، فإنهم من الجن ، فخالف فصكه واحد منهم ، فكاد أن يعمي بصره.

واعلم أن هذا الخلق المذكور من جملة ما يتفضل الله تعالىٰ به على من يشاء من عباده من الإنس ، فافهم ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي للأكل من طعام العزاء والجمع في المقبرة ، لا سيما الأطعمة الفاخرة التي يعملها الأكابر ، فإنَّ أكلها لا يليق بحضرة الأموات ، إنما اللائق بمن دخل مقبرة البكاء والنوح على نفسه ، وتذكر ما كان فيه هؤلاء الأموات من الغفلة حتى أتاهم الموت على غفلة ، ويقول لنفسه: هكذا يقع لك عن قريب ، ولم أر لهذا الخلق فاعلاً بل بعض الفقراء يذهب فيذكر مجلس ذكر ثم يجلس هو وأصحابه فيأكلون أطايب الطعام ، وربما يكونون كلهم غافلين عن الموت وعمّا إليه مصيرهم ، وقد نهت الشريعة عن النوم في المقابر ، وبلغنا عن الحسن البصري رضي الله تعالىٰ عنه أنه رأى رجلاً يأكل بين المقابر فزجره ووبخه ، وقال: أما في حال هؤلاء الأموات ما يلهيك عن الأكل ، وفي رواية أنه قال: والله إنك لمنافق تأكل بين المقابر ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم مبادرتي إلى الإنكار على من ينسب إليَّ البدعة كطائفة القلندرية والمطاوعة وغيرهما ، وإنما أنكر عليهم إذا خالطتهم ، ورأيت منهم ما لا يوافق الشريعة ونهيتهم عنه فلم ينتهوا ، وذلك لعلمي بأن قلوب الخلق خزائن الله تعالىٰ ، وربما أسكن الحق تعالىٰ بين هؤلاء المبتدعة أحداً من أوليائه وحلسه بحلاسهم في الملبس ،

وذلك ليحفظهم بوجوده من نزول البلاء عليهم ، لكون رحمته تبارك وتعالىٰ سبقت غضبه ، فربما أحكم على ذلك الولي بأنه منهم والحال أنه ليس منهم فأخطىء في حقه ، وربما جرني ذلك إلى العطب ، كما بلغني عن سيدي علي الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال: أنكرت يوماً على النواتية بساحل رشيد حين رأيتهم يكشفون عوراتهم على بعض المذاهب ، وإذا رجل في الهواء يقول: يا علي تنكر على النواتية وأنا منهم ، والعورة مختلف فيها ، فارتعدت من هيبته ، وكدت أن أهلك ، فاستغفرت الله تعالىٰ.

قال: مما وقع لي في القلندرية المقيمين بالقرب من عمود الصواري أني دخلت عليهم يوماً فرأيت منهم شيئاً يخالف ظاهر الشريعة عند بعض الأئمة فضاق صدري من ذلك فرفعت طرفي إلى السماء فإذا شخص جالس في الهواء وهو يتوضأ فقال: تنكر على القلندرية وأنا منهم قال: فاستغفرت الله تعالى وتبت عن الإنكار على الناس عموماً ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم حرماني للسائل ولو رأيته قوياً على الكسب ، فقد يكون سؤاله لغيره من الأرامل والأيتام والعميان ، وقد كنت أعطي شخصاً على هذه الصفة ، وكان بعض الناس ينكر عليّ ويقول: لو أعطيت ذلك لأحد من المحتاجين لكان أفضل ، فتبعت ذلك الرجل يوماً من غير علمه ، فرأيته يفرق جميع ما يأخذه من الناس على العجائز والشيوخ المنقطعين في باب اللوق ، ولا يأكل منه شيئاً ، فحمدت الله تبارك وتعالىٰ على عدم سوء ظني به ، كما وقع لغيري ، انتهى.

وأخبرني سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه أن جماعة من الأولياء يقيمون في الجبل المقطم دائماً ، ويرسلون خادمهم إلى أقطار الأرض ليأتيهم بالقوت الذي قسمه الله تبارك وتعالىٰ لهم ، وأودعه عند بعض عباده ، فيستخرجه الخادم ممن هو عنده بإلحاح ، فربما أنكر عليه من لم يعرف الحال.

قال أخي الشيخ أفضل الدين رضي الله تعالىٰ عنه: وقد أرمتني المقادير مرة إلى سبعة أنفس منهم في مغارة ، فأشاروا علي أن أجلس ، فجلست فصاروا يقولون: أبطأ فلان أبطأ فلان ، وأنا لا أعرف الخبر ، ثم دخل عليهم فقالوا له: ما أبطأك وعندنا هذا الضيف ؟ فقال: جبت لكم الأرض كلها فلم أجد فيها شيئاً من الحلال اللائق بمقامكم إلا عند عجوز في مدينة مراكش بأرض المغرب ، ومد لهم قليلاً من النخالة ، فقالوا لي: تقدم فكل ، فقلت في نفسي: وما أصنع بهذه النخالة وأنا لا أقدر على بلعها من خشونتها ، فقال لي واحد منهم: هكذا وجدنا الحلال في هذه الليلة ، ثم مسح بيده على النخالة ، فصارت حلوى ، فأكلت معهم منها ، انتهى.

وأخبرني الشيخ حسن الريحاني ، أنه مرَّ على قوم بالجبل المقطم المطل على بحر السويس ، فرآهم يأكلون من الحشيش النابت هناك من المطر ، وبعضهم يتغذى بنسيم السحر ، ويصلون كل ليلة المغرب بمكة خلف القطب رضي الله تعالىٰ عنه ونفعنا به فأحسن يا أخي ظنك بالمسلمين ، فإن الله تعالىٰ لا يسألك قط يوم القيامة لم حسنت ظنك بعبادي أبداً ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تفقد قلبي صباحاً ومساء من دخول الصفات الرديئة فيه ، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالىٰ عليّ ، وأنا أنبهك على الصفات التي تتوارد على القلب لتعرفها فتشكر الله تعالىٰ أو تستغفره ، فأقول وبالله التوفيق.

يتوارد على قلوب العلماء العاملين رضي الله تعالىٰ عنهم خمسة أشياء: العلم والحلم، والحكمة ، والخشية ، والكرم ، ويتوارد على قلوب الأولياء رضي الله تعالىٰ عنهم خمسة أشياء: الصمت ، والذكر ، والفكر ، والنور ، وزيادة العقل ، وعمدة هذه الصفات تحصل من الجوع ومن قيام الليل ، ويتوارد على قلوب الغافلين خمسة أشياء: الغفلة، والسهو ، والضحك ، والراحة ، والنوم ، ويتوارد على قلوب المنافقين خمسة أشياء: الهوى ، والبغض للعبادة ، والخبث ، والمكر ، والنفاق ، هذه أمهات الصفات ، وأما الفروع فهي بعدد الخواطر وهي سبعون ألف خاطر في الليل والنهار.

وكان سيدي علي الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: تفقدوا بيت ربكم ، وهو القلب ، وانظروا ما نقص من صفاته وأركانه وأبوابه ، فإن الله تعالىٰ جعل أرضه من المعرفة ، وسماءه من الإيمان ، وشمسه من الشوق ، وقصره من المحبة ، وبابه من الهمة ، ورعده من الخوف ، وسحابه من الوفاء ، وثمرته من الحكمة ، وبهاءه من العلم ، وبرقه من الرجاء ، وغمامه من الفضل ، ومطره من الرحمة ، ونهاره من الطاعة ، وليله من المعصية ، فمن لم يكن في زيادة تفقد كل وقت لهذه الصفات فهو مغرور ، وأما أركانه فهي أربعة: الأنس ، والتوكل ، واليقين ، والصدق ، وكذلك أبوابه أربعة: العلم ، والحلم ، واليقين ، والمعرفة ، وقد قفل الله تعالىٰ على القلب بقفل ولا يفتحه إلا هو يوم القيامة ، وبالجملة فمن لم يكن بواباً لقلبه يعرف ما يدخل وما يخرج فهو في خسران.

فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: ندمي من حيث كسبي على كل نومة نمتها في ليل أو نهار ، لأن الخير كله في السهر واليقظة ، فمن أحب النوم فقد أحب النقص واللحوق

بالأموات ، والغفلة عن عمل الحسنات ، وفاتته مصالح دنياه وآخرته ، لأن النوم أخو الموت ، ولهذا لا يجوز على الله تعالىٰ نوم أبداً ، لأنه نقص ، وكذلك الملائكة لما قربوا من حضرة الله عز وجل نفي النوم عنهم ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، وكذلك أهل الجنة لما كانوا في أرفع الأماكن وأطهرها من المعاصي وأكرمها نفي عنهم النوم ، لكونه نقصاً ، فجميع الخير في السهر ، وجميع الشر في النوم ، ولهذا جعل العارفون السهر أحد أركان الولاية.

قال سيدي علي الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه: وقد جربنا فما رأينا شيئاً يطرد النوم مثل أكل الحلال ، وترك الحرام والشبهات ، فمن أكل الحرام والشبهات كثر نومه وذلك من جملة رحمة الله تعالىٰ به ، لأن أكل الحرام يحرك الأعضاء للمعاصي فيطلب كل عضو منه أن يعصي ، فيتفضل الله تعالىٰ عليه بالنوم ليريحه من المعاصي كما أنه يتفضل على الطائع بأكل الحلال ليقيمه بين يديه ليلاً ونهاراً ، انتهى.

فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: معرفتي بالولي إذا زرته في قبره هل هو حاضر أو غائب ، فإن غالب الأولياء لهم السراح والإطلاق في قبورهم ، فيذهبون ويجيؤون ، وكان على هذا القدم سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه ، كان إذا رأى إنساناً عازماً على زيارة بعض الأولياء يقول له: اذهب بسرعة فإنه عازم على الذهاب إلى موضع كذا ، وفي بعض الأوقات يقول له: لا ترح له ، فإنه ما هو هناك اليوم ، وقد زرت مرة سيدي عمر بن الفارض رضي الله تعالىٰ عنه فلم أجده في قبره ، فجاء إلي بعد ذلك وقال: اعذرني فإني كنت في حاجة.

وكان سيدي علي البدوي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا تزوروا سيدي الشيخ أبا العباس المرسي رضي الله تعالىٰ عنه إلا يوم السبت قبل طلوع الشمس ، فإنه يكون حاضراً ، ولا تزوروا سيدي إبراهيم الأعرج رضي الله تعالىٰ عنه إلا ليلة الجمعة بعد المغرب ، ولا تزوروا سيدي ياقوتاً العرشي رضي الله تعالىٰ عنه إلا يوم الثلاثاء بعد الظهر ، وإذا أنا مت فزوروني يوم السبت بعد الصبح ، انتهى.

وهذا أمر لا يعرفه إلا من كشف الله تعالىٰ عن بصيرته ، وأما غيره فهو يزور بالنية وأجره على الله تعالىٰ إذا لم يجده في قبره ، فاعلم ذلك ، والله تعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

* * *

الباب السادس

في جملة من الأخلاق ،

فأقول وبالله التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي للاختصاص عن الفقراء بشيء وقف عليّ وعلى ذريتي فقط ، فقد وقف علي شخص ربع رزقه في ناحية برشوب الصغرى وآخر نصف سيرجة ونصف طاحون وغير ذلك ، فلم أختص عن إخواني بشيء من أجرة ذلك ولا خراجه ، بل آكل من ذلك كآحاد الفقراء ، وسبب ذلك أنني أفهم من نية الواقف بالقرينة أنه لولا أنه يعلم مني الكرم وعدم الاختصاص ما وقف ذلك عليّ بدليل أنه لا تسمح نفسه أن يوقف مثل ذلك على من رآه يختص بما دخل يده من الدنيا ، وهذا الخلق غريب في هذا الزمان ، بل رأيت بعضهم غير وبدل في كتاب الوقف ما كان للفقراء ، وجعله باسمه واسم ذريته ، فلما جاء التفتيش في الرزق لم يقدر يظهر ذلك المكتوب أبداً ، وصار يستشهد بالاستشمار والشواهد على المستحقين ، فالله تعالىٰ يتوب عليه من محبة الدنيا ، فإن ذلك هو الذي أوقعه فيما وقع فيه ، فالحمد لله الذي حماني من مثل ذلك ، مع أن مكاتيب هذه الجهات التي وقفت عليّ وعلى ذريتي قد صرح واقفها بأن ريعها لي ولذريتي من بعدي ، أستحق ذلك بمفردي ، ثم ذريتي من غير مشارك ، وذلك لأني أرى جميع ما يدخل في يدي مشتركاً بيني وبين إخواني المسلمين ، وكل من كان أحوج قدمته من نفسي أو من غيري ، كما سيأتي بسطه في مواضع من هذا الكتاب ، فكان في ضمن عدم الاختصاص القيام بواجب حق إخواني ، وتحقيق ما ظنه الواقف فيّ من عدم التخصيص عن إخواني .

وقد رأيت شيخاً يزعم أنني لا أصلح تلميذاً له ، نازعه فقراء الزاوية في اختصاصه بجهة من جهات زاويته مع غناه عن خراجها بماله من المسموح والمرتبات ، فحضر هو والمجاورون عند القاضي المنصوب للتفتيش ، ولم يعط جماعته من ذلك شيئاً فخرجوا من زاويته ، وكان ينبغي له أن يشركهم معه في ذلك لأنه ما هو شيخ إلا بهم ولا أعطوه المسموح إلا على اسمهم بإنهائه ذلك في قصته .

وأنا بحمد الله ربما أخلط فيما يخص الفقراء شيئاً مما يخصني من غير أن أعلمهم بذلك ،

عملاً بحديث «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1] وقد طلب ولدي عبد الرحمن أن يختص عن القراء بأجرة السيرجة لما تزوج واحتاج ، فمنعته وقلت له لا تختص بشيء وقف عليك بعدي إلا لضرورة ، وأما وقت الرخاء فلا فأطاعني ، فافهم ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تعففي عن الأكل من طعام من عرف في هذا الزمان بكثرة الكرم ، وقرى الضيوف من مشايخ العرب والقرى وفقهاء الأرياف وغيرهم ، وذلك لأن من عرف بذلك لا يقدر على تهيئة طعام لكل من ورد عليه إلا بتكلف زائد ، ثم بتقدير أن نفسه تسمح بذلك ، فالعيال لا يصبرون على تهيئة ذلك من غربلة وعجين وخبز وطبخ كل يوم ، وربما عجنت المرأة وخبزت وطبخت في اليوم مرتين ، وتصير تتسخط وتقول اللهم أرحنا من هذه العيشة ، وربما أكرهها زوجها على ذلك ، وضربها بالعصا ضرباً مبرحاً ، ولا يخفى عليك يا أخي أن كل طعام دخله التكلف فالأكل منه مذموم شرعاً لا سيما إن كان صاحبه لا يحلل ولا يحرم ، كغالب مشايخ البلاد وفقهائها ، وإذا لم نجد أحداً نبيت عنده غير من عرف بإقراء الضيوف بتنا عنده ، وكافأناه على كلفته لنا ولدوابنا ، ثم لا ينبغي لنا أن نأكل عنده إلا إن كان بنا جوع مفرط ، وإلا طوينا.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: طعام المتكلفين يورث الظلمة في القلب ، لأنه كطعام البخيل على حد سواء ، لكونه يطعم الضيف ، وعنده ثقل من ذلك.

وفي الحديث: «**طعام البخيل داء**»[2]

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: كل فقير لا يقدره الله تعالىٰ على أن يمد صاحب الطعام بالبركة الخفية طول عامه . . فليس له أن يمد يده إلى طعامه ، فإن أكل من غير إمداد ولا مكافأة فقد أكل بدينه ونقص مقامه بذلك ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا ينبغي لفقير أن يمد يده لطعام إنسان إلا إن كان يشاركه في بلاء تلك السنة كلها ، أو يحمله عنه كله.

ولما دار بعض إخواننا بلاد الشرقية والغربية ومعه جماعة بكثرة ، عاب عليه ذلك وأرسل يحط عليه ، وقال له: إن جميع أعمالك كل يوم لا تفي بثمن الطعام الذي تأكله بالمحاباة يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٤٥).

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٥٢٥٨) ، وعزاه إلى الخطيب في كتاب البخلاء وأبو القاسم الخرقي في فوائده عن ابن عمر وقال: حسن.

وقد أدركت سيدي محمد بن عنان رضي الله تعالىٰ عنه ، وسيدي علياً المرصفي رضي الله تعالىٰ عنه ، وسيدي محمد السروري رضي الله تعالىٰ عنه ، إذا ذهبوا إلى طعام أحد يذهبون بجماعة قليلة ، بشرط إعلام صاحب الطعام بهم قبل الذهاب ، وانشراح خاطره بذلك ، وإلا لم يذهبوا ، واستدلوا بقصة عائشة رضي الله تعالىٰ عنها لما دعي النبي ﷺ إلى طعام فقال النبي ﷺ ، وهذه ، يعني عائشة فقال: لا ، فأبى النبي ﷺ ثانياً وثالثاً ، حتى قال له نعم ، فأخذها معه ، وذلك قبل نزول آية الحجاب.

وقد برز شخص من الفقراء في مصر ، وصار يحضر الولائم بجماعة كثيرة فأخبرت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه ، فقال: أسأل الله تعالىٰ أن يفرق شمله ، فما اجتمع عليه بعد ذلك اثنان إلا بتكلف ، بعد أن كان يركب البغلة وبين يديه نحو مائة شخص ، وقال رضي الله تعالىٰ عنه: ما درج السلف الصالح إلا على العفة ، وعدم الشهرة ، انتهى.

وقد عزم شخص من الأمراء على الشيخ الدمرداش المحمدي رضي الله تعالىٰ عنه فذهب الشيخ إليه وحده ، فقال الأمير: أرسل وراء الفقراء فإني عملت طعاماً واسعاً فقال الشيخ: أنا آكله ، فجلس على السماط وصار يأكل وعاء بعد وعاء إلى أن أكله كله ، وقال: حملنا حسابه عن إخواننا ، وكان الطعام يكفي ثلاثمائة نفس هكذا أخبرني الشيخ محمد الحانوتي خليفته.

فعلم أن كل فقير ليس عنده حال يحمي به صاحب الطعام من البلاء ، أو يمده بالبركة في طعامه ، كما تقدم ، فأكله من ذلك الطعام قلة مروءة ، وخروج عن طريق أهل الله تعالىٰ الذين يزعم أنه على طريقهم ، فإياك يا أخي إذا نزلت بلاد الريف أن تأكل من طعام من لا تكافئه كما عليه مشايخ الحرف والمتهورون في دينهم من مشايخ مصر ، فينام أحدهم وجماعته عند من عرف بالكرم ، ويذهبون من غير مكافأة ولا عليهم منه إن كان ذلك بطيبة نفس أو بكراهة ، أقل ما في الكراهة أن يطعم الشيخ خوف العتب عليه منه ، أو من جماعته الذين يأخذون من الحافي نعله ، وربما رأوا لنفسهم الجميلة على من باتوا عنده وكلفوه ، ورأوا أنه حصل لصاحب الطعام الجبر ببيات سيدي الشيخ عنده ، وربما قالوا له نصباً وزوراً: كم شخص عزم على سيدي الشيخ فلم يجبه ، ولولا أنه يحبك ما بات عندك ، وربما كان صاحب الطعام مستنداً إلى شيخ آخر لا يعتقد غيره ، فيحصل له بذلك النكد خوفاً على تغيير خاطر شيخه عليه الذي عمل الطعام لذلك الشيخ الآخر ، لا سيما إن كان بينه وبينه وقفة فيصير في غلبة بين مراعاة خاطر شيخه وبين القيام بواجب حق الشيخ الآخر ، فليكن الشيخ في هذا الزمان يلحق بلاحق اللاحق ، فافهم يا أخي ذلك ، وتمسك بأذيال ما هنالك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تعففي عن الأكل من مال الأيتام ، ومن كل شيء للشرع عليه اعتراض ، فعلم أنه ينبغي لمن مات له صاحب من المشايخ أن لا يبيت عند أولاده

القاصرين بعده على جاري عادته مع والدهم ، أو عند أولاده الرشداء قبل قسمهم التركة بينهم وبين القاصرين ، إلا إن تحقق أنهم يضيفونه من مالهم دون التركة ، فإن الأكل من طعامهم قلة ورع إن كان بطيبة نفوسهم ، وحرام إن كان بغير طيبتها ، وهذا الأمر يقع كثيراً في زوايا المشايخ في الريف وفي مصر ، ويساعد على ذلك نقباء الشيخ الذي مات ، يقولون لأم الأولاد مثلاً نريد أن أولادك يطلعون مشايخ ، ويفتحون عين الزاوية ، فتظن الوالدة أنَّ أولادها يطلعون مشايخ بذلك فتكلف نفسها وتطبخ من مال الأيتام ، فليحذر الفقير الخائف على دينه من مثل ذلك والله تبارك وتعالىٰ يحمينا ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حمايته تبارك وتعالىٰ لي من أخذ شيء من المعاليم المرصدة على شيء من القربات الشرعية ، ولو أن الواقف صرح في كتاب وقفه باسمي فلا آخذه إلا لضرورة شرعية ، وذلك كأن لا أجد شيئاً غيره ، وأحتاج ، ثم إذا أخذته بهذا الشرط لا آخذه إلا ابتداء إعطاء من الله تعالىٰ ، لا في مقابلة فعل ما وقف ذلك عليه من القربات ، ومحك صدق صاحب هذا المشهد أن لا يعطل الوظيفة ويترك مباشرتها إذا صار الوقف معطلاً ، بل يباشرها حسبة لله تبارك وتعالىٰ ، ومن محك الصدق في ذلك أيضاً أن لا يطالب بمعلومه ناظراً ولا جابياً ، لا تصريحاً ولا تعريضاً إلا إن احتاج إليه ، ولم يجد غيره ، ومتى فعل ذلك فهو لم يشم لهذا الخلق رائحة.

وقد رأيت شيخاً له عذبة يشتكي ناظراً في بيت التفتيش على معلوم وظيفة لم يباشرها لا بنفسه ولا بوكيله ، مع غناه عن معلومها ، فقلت له: هذا يجرح مشيختك فلم يلتفت إليَّ.

ولما عمل القاضي أبو البقاء بن الجيعان لسيدي الشيخ محمد السروي رضي الله تعالىٰ عنه معلوماً في الزاوية الحمراء خارج مصر في نظير الخطابة والإمامة ، امتنع سيدي محمد من ذلك ، وقال: نحن نفعل ذلك احتساباً ، وأنت إن شئت أن تعطي الفقراء ذلك احتساباً.

فعلم أن من ورع الفقير أن لا يأخذ معلوماً على نظر مسجد ولا إمامة ولا خطابة ولا وفادة ولا فراشة ، ولا قراءة جزء ولا سبع ، ولا غير ذلك من سائر القربات الشرعية ، وعلى ذلك درج العلماء العاملون رضي الله تعالىٰ عنهم ، ونفذت به وصاياهم في سائر أقطار الأرض ، كالشيخ أبي إسحاق الشيرازي رضي الله تعالىٰ عنه والإمام النووي رضي الله تعالىٰ عنه ، فكانا رضي الله عنهما يوفران معلوم تدريسهما للوقف ، ويباشران التدريس لله تعالىٰ ، مع أنه بلغنا أن الشيخ أبا إسحاق كان يحتاج إلى جديد ، وكان يفت الرغيف اليابس ويسقيه بماء الفول المسلوق ، ويجعل ذلك إداماً ، فأين هذا ممن يأكل في بيته الطيبات ويطبخ كل يوم اللحم الضاني ويأخذ معلوم وظيفته التي لم يباشرها لا بنفسه ولا بنائبه.

وربما يقول: إن الله تعالىٰ لم يجعل لي رزقاً إلا من الوظائف، فنقول له صحيح فإننا ما نازعناك في أنه رزقك ، إذ رزق الإنسان هو ما ينتفع به ولو حراماً ، وإنما قلنا لك إن طريق

الأشياخ كانت هكذا ، وأنت تزعم أنك منهم فباشر وظيفتك لله عز وجل وخذ ذلك المعلوم ابتداء عطاء من الله جلَّ وعلا لا بيعاً لثواب تلك القربة ، لذلك المعلوم كما مر ، وهذا الخلق لا أعلم له في مصر فاعلاً من أقراني إلا القليل ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم قبولي شيئاً زائداً على إخواني المستحقين إذا كان لي شيء في وقف المرتب ، لا في مقابلة عمل ، ولو فاض الوقف عملاً بحديث: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه»**[1] ولو أن الناظر أعطاني ذلك من غير سؤال على وجه الإكرام رددته عليه ، أو فرقته على جميع المستحقين، وأخذت منه كأحدهم، لأن من كمال مرتبة الداعي إلى خير أن لا يتميز عن المدعوين بشيء ثم ينهاهم عنه ، أو يأمرهم به ، فإنهم ناظرون إلى أفعاله ليقتدوا به.

وقد رأيت شيخاً من مشايخ العصر يتنازع هو والناظر على عدم تمييزه عن إخوانه ويقول: تجعل رأسي برأسهم ، والناظر يقول له: هذا ما جعله لك الواقف ، فقلت له هذا يجرح مقامك ، فلم يلتفت إليّ ، وبالجملة فالذي ينبغي للشيخ أن لا يتعاطى شيئاً فيه كراهة الله تعالىٰ له ، بل يراعي كل أمر علم أن الله تعالىٰ يحبه إجلالاً لله تعالىٰ لا لعلة ثواب ولا غيره ، لأن عبد الثواب معدود عند كمَّل العارفين ممن هو في مقام بعض النساء ، وإن كان له لحية كبيرة.

وقد رأيت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه مرة يعطي عامل البراس عادته من جباية الظلم الذي على البراس بطيب نفس ، ويبرىء ذمته ، مع أن معه مربعة السلطان قايتباي بإعتاقه منها ، ويقول: إن الله تعالىٰ يكره العبد المتميز عن إخوانه حتى في ترك وزن المغارم التي يجعلها الظلمة على الناس بغير حق ، انتهى.

وهذا الخلق لم أر له فاعلاً في مصر ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم مطالبتي لمن لي عليه حق دنيوي ، ما دمت أجد الكسرة اليابسة والخلقة ، ولكن إن أتاني بشيء مما لي عليه من غير مطالبة قبلته ابتداء عطاء من الله تبارك وتعالىٰ ، وإن لم يأتني به لا أطالبه بنفسي ولا بوكيلي بانشراح صدر لذلك ، استهانة بالدنيا لا لعلة أخرى من حظوظ النفس ، فعلم أن من أخذ ماله بالمطالبة عند الحاجة إليه فلا يقدح ذلك في كماله ، لكن ذلك يكفه عن سؤال الناس ويعتقه من تحمل منة الخلق

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٤٥).

الذين يفتقدونه بالطعام والشراب واللباس إذا رأوه محتاجاً.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يطالب من له عليه حق بنية عتق ذلك المديون من المنة، وتقبيحاً لعدم اعتنائه بوفاء الدين في عينه، حتى لا يتساهل به ولكل رجال مشهد، ثم إذا وقع أني طالبته عند الحاجة وتعلل بضيق اليد فلا أكذبه ولا أحلفه على ذلك، بل أسامحه إلى وقت ميسرة لله تبارك وتعالىٰ ثم لرسول الله ﷺ؛ لكونه معدوداً من أمته، أو محبة في رسول الله ﷺ لا لعلة أخرى من طلب ثواب أو غيره.

وهذا الخلق لم أر له فاعلاً، مع أنه من أخلاق رسول الله ﷺ المشهورة، فقد ورد أنه ﷺ لما رعى الغنم لخديجة قبل النبوة هو ورجل آخر، كان الرجل يقول له: يا محمد طالب لنا خديجة بالأجرة، فيقول ﷺ: «أنا أستحي»[1] انتهى. فافهم يا أخي ذلك، واعمل على التخلق به، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم رؤيتي في نفسي أنني أحق بما عندي من النقود والثياب والطعام وغير ذلك من أحد من إخواني المسلمين، إلا إن كنت أحوج إلى ذلك منه، فأقدم نفسي حينئذ، عملاً بحديث: «**ابدأ بنفسك ثم بمن تعول**»[2] وبحديث: «**الأقربون أولى بالمعروف**»[3] ولا أقرب إلى الإنسان من نفسه، فهي أقرب جار إليه، بل هي حقيقته، وهذا الخلق لا يصح لأحد التخلق به إلا بعد إحكامه مقام الزهد في الدنيا، وبعد تخلقه بالرحمة على جميع خلق الله تعالىٰ، ومحك الصدق في إحكامه مقام الزهد أنه يصير ينقبض خاطره إذا دخلت عليه الدنيا فوق الحاجة وينشرح إذا ضاقت يده، ولم يجد عشاء ليلة، وأن يكون بحيث لو سرق إنسان قدرة ذهب له كانت معدة للمصالح لم يتغير منه شعرة، ولو أن شخصاً فتح صندوقه بحضرته وهو ساكت وأخذها لا يقول له اتركها، ولا خلّ لي منها شيئاً، ومتى رجح من يدعي الزهد شيئاً من ذلك على ضده، أو رأى أن ترك القدرة أحسن من أخذها فهو لم يشم من الزهد رائحة، إنما هو متفعل في ذلك.

ولا أعلم أحداً من أقراني تخلق بهذا الخلق في مصر غيري إلا قليلاً، انتهى. فافهم يا أخي ذلك، والله يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم التفاتي إلى شيء ضاع مني أو سرق، أو نسيته في مكان أو وقع، ولو كان إردباً من الذهب، ولا أبعث قط منادياً ينادي: من رأى ذلك، كل ذلك هواناً بالدنيا، وتنشيطاً لهمم الإخوان، اللهم إلا أن يكون ذلك المال الذي ضاع مني

---

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٢٠)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٤٦).

(٣) ذكره في كشف الخفاء (٤٨٦) وقال: قال السخاوي ما علمته بهذا اللفظ.

حلالاً لا أجد غيره في ذلك الزمان ، أو يكون ملكاً للغير ، فمثل هذا لي أن أبعث منادياً يقول: من رأى كذا وكذا ، بل ذلك واجب في مال الغير ، كما وقع ذلك لعائشة رضي الله تعالىٰ عنها لما ضاع عقدها كما هو مذكور في قصة نزول آية التيمم [١]، ثم إننا إذا لم نبعث منادياً ينادي لذلك ، لا بد من براءتنا لذمة من وجده في الدنيا والآخرة ، حتى أنه لا يقع في أكل الحرام في زعمه ، ويستهين بحدود الله تبارك وتعالىٰ ، حيث لم يعرفه سنة أو أكثر أو أقل بحسب حكم الشرع في ذلك ، وحتى لا يكون لنا عليه مطالبة في الدار الآخرة ، فإنه لا بد من اجتماع الخصم مع خصمه في ذلك اليوم الشديد ، وربما تاه الخصم من خصمه فلم يجده إلا بعد مقدار سنة أو سنتين لكثرة اجتماع الخلائق ، ولا يمكن أحداً أن يدخل الجنة إلا بعد إعطاء ما عليه من الحقوق ، فإذا أبرأناه من ذلك أرحناه من طول انتظاره لنا ، وهذا خلق لم أرَ له فاعلاً من أقراني انتهى. فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: من صغري عدم مزاحمتي على شيء فيه رياسة دنيوية ، أو تؤول إلى الدنيا ، لا سيما إن كان هناك من هو أولى بها مني ، لكثرة علمه أو ورعه مثلاً ، أو لكثرة تحمله للأذى ممن يترأس عليهم من الإخوان ، فلا أنازع من يزاحمني في الرياسة قط ، وإذا كنت أخطب للناس أو أصلي بهم ، أو أدرسهم العلم أو أعظهم ، أو أسلكهم ، وجاءني شخص يريد أن يكون مكاني وهو أهل لذلك تركته له بانشراح صدر مع اتهام نفسي في الإخلاص ، وذلك لأن مقصود الصادقين إنما هو إقامة شعار الدين من حيث هو ، لا بشرط أن يكونوا هم الفاعلين لذلك إلا بطريق شرعي ومتى نازعنا من يطلب منا ذلك ولم نتركه بطريقه الشرعي فنحن محبون للرياسة ، ليس لنا في قدم الصدق نصيب ، بل نحن محبون للدنيا التي زعمنا أننا تركناها.

وهذا أمر لم أجد له في مصر فاعلاً غيري إلا القليل ، فإنِّي إذا جاءني أحد يطلب الطريق إلى الله تعالىٰ أرسله إلى غيري ، لا سيما الأمراء والأكابر الذين حولهم البر وما رأيت أحداً من أقراني فعل معي مثل ذلك أبداً مع قلة معرفته بالطريق ، وكثيراً ما أرى عند الشخص قلة اعتقاد فيمن أريد أن أرسله إليه ، فأحسن اعتقاده فيه جهدي ، ثم أرسله له ، فاعلم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة حذري من إبليس كلما ترقيت في مقامات

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التيمم ، باب قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً ﴾ (٣٣٤) من حديث السيدة عائشة ، وكذلك مسلم في الحيض ، باب التيمم (٣٦٧) ، والنسائي في الطهارة ، باب بدء التيمم (٣١٠).

الطريق ، لعلمي بأنه لمثل ذلك بالمرصاد ، لحرصه لعنه الله تعالىٰ على إغواء الخلق ، فهو لا يفارق الأعوج ولا المستقيم ، أما الأعوج فإنه من جنده ، وأما المستقيم فيلازمه ويترقب له وقتاً يغويه فيه من وقت غفلة أو سهو أو تأويل أو تزيين. ولولا أن الله تبارك وتعالىٰ يحفظ الأكابر منه بعصمة ، أو حفظ لما قدر أحد على رد كيده منه ، ولذلك شرع الله تبارك وتعالىٰ لنا الاستعاذة به تعالىٰ منه ، فلم يقل لنا استعيذوا بأحد من الملائكة ، ولا بأحد من الأنبياء من كيد إبليس ، لعلمه تبارك وتعالىٰ بعجز الخلق عن مثل ذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: الحكمة في استعاذتنا باسم الله تعالىٰ دون غيره من الأسماء ، كون الإنسان لا يعرف من أي حضرة يأتيه إبليس من طرق حضرات الأسماء الإلهية فلذلك أمرنا أن نستعيذ منه بالاسم الجامع لحقائق الأسماء كلها لنسد على إبليس كل طريق أتى لنا منها ، انتهى.

وسمعته أيضاً رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لم يعصم الله تعالىٰ الأكابر من وسوسة إبليس لهم ، وإنما عصمهم من العمل بما يوسوس لهم به فقط ، فهو يلقي إليهم وهم لا يعملون بذلك ، لعصمتهم أو حفظهم ، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [الحج: ٥٢].

ثم لا يخفى أن العبد كلما قرب من حضرة الله تعالىٰ اشتدت عداوة إبليس له ، وكان له أشد ملازمة من غيره ، وذلك لعلم إبليس بكثرة ضلال الناس إذا ضلت أئمتهم ، ثم إذا دخل الأكابر الحضرة ، فإن إبليس يقف على الباب ينتظرهم ، فكل من خرج منهم بغير إذن ركبه كما يركب الإنسان الحمار ، يصرفه بإذن الله كيف شاء ، ومرادنا بالحضرة شهود العبد أنه بين يدي الله تبارك وتعالىٰ وهو تعالىٰ يراه ، ومرادنا بخارج الحضرة حجابه عن هذا المشهد ، فمتى حصل للإنسان غفلة عن شهود أن الله تبارك وتعالىٰ يراه خرج من الحضرة في أسرع من لمح البصر ، فركبه إبليس كما يركب الإنسان الحمار ، ومتى استحضر أن الله تبارك وتعالىٰ يراه نزل إبليس من على ظهره أسرع من لمح البصر ، هكذا شأنه مع الخلق دائماً.

والناس في المكث في الحضرة والخروج منها متفاوتون قلة وكثرة ، بحسب علو الدرجة وخفضها ، فمن الناس من لا يدخل الحضرة إلا في صلاة الفريضة فقط ومنهم من يدخلها في النوافل كذلك ، ومنهم من يدخلها في كل عبادة مشروعة ومنهم من يمكث فيها من أول العبادة إلى آخرها ، ومنهم من يخرج في أثنائها ثم يدخل ، ومنهم من يخرج فلا يدخل ، حتى تنقضي تلك العبادة مع الغفلة ، ومنهم من يدخلها في الليل والنهار مقدار درجة أو أقل أو أكثر بحسب مقامه ، ومنهم من يحضر في أكثر النهار ، ويغفل في باقيه ، ومنهم من يحضر في الليل كذلك ، ومنهم وهكذا وأكملهم من كان حاضراً مع الله تبارك وتعالىٰ في ليله ونهاره إلا في الأوقات التي يسامح الحق تبارك وتعالىٰ فيها البشر ، فإنهم قالوا: إن مراقبة الحق تبارك

وتعالىٰ مع الأنفاس ليست من مقدور البشر ، بخلاف الملائكة .

وكان سيدي معروف الكرخي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لي ثلاثون سنة في حضرة الله تعالىٰ ما خرجت ، فأنا أكلم الله دائماً ، والناس يظنون أني أكلمهم ، وإلى ما قررناه الإشارة بقوله ﷺ: «**لي وقتٌ لا يسعني فيه غير ربي**»[1] فنكر الوقت تشريعاً لأمته .

قال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد بالوقت العمر كله ، أي لي عمر لا يسعني فيه غير ربي ، أي خصني الله بذلك ، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]. فليتأمل ، وهو أي الوقت في الحديث يشمل الوقت الكثير والقليل بحسب مقام أمته .

وقد نقل الجلال السيوطي رضي الله تعالىٰ عنه في كتاب الخصائص ، أنه ﷺ كان مكلفاً بخطاب الحق تبارك وتعالىٰ والخلق معاً في آن واحد ، لا يشغله أحد الخطابين عن الآخر ، وأما غيره فإن خاطب الحق تبارك وتعالىٰ حجب عن الخلق ، وإن خاطب الخلق حجب عن الحق جلَّ وعلا ، انتهى .

ولم أر أحداً من أقراني تخلق بالحذرة من إبليس كلما ترقى في المقامات إلا القليل فإن أحدهم بمجرد ما يصير يقال له يا سيدي الشيخ يظن أن إبليس فارقه ، وما بقي له عليه سلطنة ، بل سمعت بعضهم يقول: نحن لا نعرف إبليس أصلاً ، وما ثم إلا الله تعالىٰ ، فقلت له: فهل زال إبليس من الوجود في مشهدك ، أم أنت حجبت عنه ؟ فقال: حجبت عنه ، فقلت له: فإذن هو مسلط عليك .

وبالجملة فمن دقق النظر وجد إبليس يترقى معه في كل مقام سلكه ، من حيث دوام مجالسته له ، ولا ينقطع بالكلية ، فبعد أن كان يوسوس له في فعل المعاصي الظاهرة صار يوسوس له في المعاصي الباطنة ، أو الصغيرة في عينه ، الخفية عن شهوده .

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: كلما ترقى العارف في المقام سدج باطنه وقبل عمل الحيلة من إبليس ، وقد قالوا: من كان كثير الانقياد خيف عليه الفساد ، وقد قالوا: إن أكذب الناس الصالحون ، أي لأنهم لا يعتقدون أن أحداً يكذب قياساً على أنفسهم ، فيرون كل ما سمعوه لا سيما إن حلف لهم إنسان بالله تعالىٰ .

وقد بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام رأى إنساناً يسرق ، فقال له عيسى: ألا ترد المتاع إلى أصحابه ؟ فقال: والله يا روح الله ما هو أنا الذي سرق ، قال عيسى عليه الصلاة والسلام: فصدقته ، وكذبت عيني ، انتهى .

فقد بان لك يا أخي أن معنى أكذب الناس الصالحون ، ظنهم أن أحداً لا يكذب لا أنهم

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢١٥٩) وقال: تذكره الصوفية كثيراً

يتعمدون الكذب ، حاشاهم من ذلك ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة تكبيري بإخواني إذا صاحبت أميراً أو كبيراً ، فلا أزال أمدحهم عنده في غيبتهم ، وأحسن اعتقاده فيهم ، حتى ربما تركني وصحبهم ، ثم إني أفرح بتحويل اعتقاد ذلك الأمير عني ، واعتقاده فيهم وإنكاره عليّ ، أشد من فرحي بالعكس ، وهذا الخلق عزيز في الفقراء من أهل العصر ، ولم أر له فاعلاً غيري إلا قليلاً ، فما صحبني قط أمير ولا كبير إلا وأرسلته إلى غيري وحسنت اعتقاده فيه ، ولم يفعل ذلك أحد منهم معي ، بل بعضهم جرح فيّ عند من سبقهم لصحبتي ، وحكى له عني ما هو أهله ، فالله يتوب عليه.

واعلم يا أخي أن المعين لي على حصول الفرح بتحويل اعتقاد الأمراء والأكابر عني كوني لا أصحبهم قط لعلة دنيوية من إحسان أو بر ، وإنما أصحبهم لمصالح العباد لا غير ، فإذا أعرضوا عني أقبلت بقلبي على عبادة ربي ، واشتغلت به وحده دون خلقه ، وإن كان صحبتهم الأخرى فيها الخير ، لكن ثم مقام رفيع ، ومقام أرفع ، فعلم أن كل من لم يصحب الأكابر لله تعالىٰ ، فمن لازمه غالباً قلة التكبير بإخوانه عند ذلك الكبير ، خوفاً أن يميل إلى غيره ، ويقطع عنه بره وإحسانه ، ونحو ذلك ، وفي الحديث: «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها**»[1] انتهى ، فمن كان مشهده أن المحسن له هم الخلق تكدر لفراقهم ضرورة ، ومن كان مشهده أن المحسن له الحق تبارك وتعالىٰ وحده لم يتغير منه شعرة لو أدبر الخلق عنه أجمعون ، فافهم يا أخي ذلك واعمل على التخلق به ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: انشراح صدري لتقديم زيارة من يكرهني وينكر علي زيارة من يحبني ويعتقدني ، وذلك لأن القلب مع من يحبني في قرار البحار ، ومع من يكرهني في طبقات النيران ، فأنا بحمد الله تبارك وتعالىٰ أخاف على نفسي من كراهتها لمن يكرهني ، وأخاف على من تمادى على كراهتي من نقص دينه بسبب ذلك ، فأبادر لزيارته طلباً لتخفيف عداوته وكراهته لي أو كراهتي له إن وقعت ، وفي ذلك أيضاً من رياضة النفس ما لا يخفى على عاقل ، هذا كله في حق من يكرهني لعلة أخرى غير الحسد يمكنني عادة إزالتها أما الحاسد فلا يرضيه مني إلا زوال نعمتي وذلك إلى الله تبارك وتعالىٰ لا إليّ ، فليس في قدرة العبد أن يرد ما قسمه الله تعالىٰ له ، بل من الأدب عدم ردها وشكره تعالىٰ له عليها ، فإن رد نعم الأكابر من ملوك الدنيا سوء أدب معهم ، فمع الحق جلَّ وعلا أولى.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٦٦) ، والشهاب في مسنده (٥٩٩).

وأنا أعلمك يا أخي ميزاناً تعرف بها من يكرهك حسداً ومن يكرهك لغير ذلك وهو أن كل من رأيته يكرهك ويحط عليك في مجالس المستهزئين ، ولا يقدر على تصوير دعوى صحيحة عليك لا عند حاكم من الخلق ، ولا بين يدي الله تبارك وتعالىٰ في الدار الآخرة ، فاعلم أنه حسود خالص ، فلا تتعب نفسك في زيارته بقصد أنه يحبك فإن ذلك لا يكون.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إيَّاك أن تقبل رجل عدوك وتتواضع له طلباً لزوال ما عنده من الحسد ، فإنك تذل نفسك في غير محل ، وتكبر نفسه بغير حق ، انتهى. فافهم ذلك ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: قصدي بتقديم زيارة عدوي نفعه هو في دينه بتخفيف عداوته بالأصالة ، وتركه التنقيص الموجب للإثم ، لا نفرة نفسي من تنقيصه لي في المجالس بقطع النظر عن نفعه هو ، فإن الفقراء يحملون أكثر من ذلك كما سيأتي بسطه في الخاتمة ، وفيها أن حكم من يريد تغيير الفقير الصادق بكلام يقوله فيه حكم ناموسة نفخت على جبل تريد أن تزيله من مكانه ، وأيضاً فلو قدر أن الفقير الصادق تأثر من كلام قيل فيه فهو لغرض صحيح ، كخوفه على الضعفاء من أصحابه وأتباعه أنهم ينفرون عنه ، فلا ينتفعون بشيء من نصحه لهم ، وأيضاً فإنه يعلم أن له رباً يأخذ له بحقه لا يغيب عنه مثقال ذرة من كلام عدوه ، فهو راض بذلك ، ولو كشف للعبد لرأى نفسه وخصمه بين يدي الله تبارك وتعالىٰ ، وهو يسمع ويرى ما يصنعه بعض عبيده مع بعضهم ، وقد أرسل لكل منهما ملكين كاتبين حافظين يكتبان ما يلفظ به كل عبد ، ضبطاً لحقهما إذا نسي أحدهما ما فعله الآخر معه ، ومن آمن بذلك جزماً ذهب تكدره من عدوه جملة.

واعلم يا أخي أن كراهة المسلمين بغير حق تنقص دين الكاره ، ثم يقل النقص ويكثر بحسب قلة الكراهة وكثرتها ، فمن أبغض عشر أهل بلده مثلاً نقص عشر دينه ومن كره ربعهم نقص ربع دينه ، وهكذا من نصف وثلاثة أرباع وأكثر وأقل ، فمن فهم ما ذكرناه لم يكره أحداً من المسلمين بغير حق أبداً ، صيانة لدينه هو إذ ينقص منه شيء ويحتاج من يريد التخلق بهذا المقام إلى مجاهدة طويلة على يد شيخ صادق ليس عنده شحناء ولا كراهة لأحد من أقرانه ، وهذا أعز من الكبريت الأحمر الآن وقد خبرت كثيراً ممن جلسوا في صورة مشايخ العصر ، فلم أجد أحداً منهم يسلم من الشحناء إلا القليل ، كسيدي الشيخ سليمان الخضيري ، والشيخ إبراهيم الذاكر وأضرابهما نفعنا الله ببركاتهم ، وكل ذلك من قلة رياضة نفوس المدعين للطريق ومبادرتهم للجلوس للمشيخة قبل خمود نار بشريتهم ، وزوال رعوناتها.

وقد أدركت سيدي علياً المرصفي رحمه الله تعالىٰ لا يأذن لأحد في الجلوس للمشيخة إلا بعد الإذن له من رسول الله ﷺ صريحاً ، بقوله له قل لفلان يبرز للخلق وينفع الناس ، فلما مات رضي الله تعالىٰ عنه صارت مصر كأنها مقات بطيخ خربت وأطلقت فيها البهائم ، فالعاقل

من نصح نفسه ، وأخذ الطريق عن أهلها ، ولم يجلس إلا بعد إذنهم له ، ولا أعلم الآن من جلس في مصر بإذن من شيخه إلا القليل ، ولذلك كثرت عداواتهم لأبناء الخرقة ، فتجد أحدهم يكره صاحبه كما يكره الفجار الأبرار ولا سيما إن كانوا في حارة واحدة ، حتى أني رأيت كثيراً منهم يموتون فلا يحضر أحد من أقرانهم جنازته ، ولو أن هؤلاء كانوا فطموا على يد شيخ عن رعونات نفوسهم لأحبوا كل من أطاع الله وكرهوا كل من عصاه برحمة وشفقة شرعيتين ، كما يظهر الوالد والوالدة لولدهما الصغير الغضب والأنفة بالفعل والقول وقلبهما يرحمه.

وبالجملة فإذا رأيت فقيراً يدعي الكمال وهو يكره فقيراً كذلك ، ويدعي الكمال ، فكلاهما كذاب على الطريق أو أحدهما في نفس الأمر ، وقد كنت أسمع الناس وأنا صغير يقولون ، لو لم يكن في اتباع طريق الفقراء من الخير إلا قول أحدهم إذا سئل عن أخيه حال غضبه عليه ونعم من ذكرت ، لكان في ذلك كفاية في الحث على اتباع طريقهم ، بخلاف غيرهم ، فإنك إذا سألته عن أحد من إخوانه حال غضبه عليه يقول: بئس من ذكرت ، فصار غالب الفقراء اليوم يقولون عن إخوانهم لمن رأوه يمدحهم بئس من ذكرت ، ويظهر التكدير على وجهه والعبوسة ، وقد بلغنا أنه كان بين خالد بن الوليد ، وبين شخص وقفة ، فلما ذكروا عنده ذلك الشخص بخير ، أخذ خالد يمدحه ، فقيل له في ذلك فقال: إن الذي وقع بيني وبينه لم يبلغ إلى ديننا.

ومما وقع لي أن شخصاً جاءني يطلب مني أن ألقنه ، فلم أجد عنده همة ، ففارقني ولبس له عمامة من صوف وأرخى له عذبة ، وجمع له جماعة من الشباب والعوام وقال لهم: تعالوا خذوا عني طريق التصوف ، فقال له بعض الناس ، من شيخك ؟ فقال: أخذت عن فلان ، فكذبه أصحاب ذلك الشيخ ، فادعى أنه تلقن على شيخ آخر فكذبه جماعته ، فادعى أن سيدي علياً المرصفي لقنه في المنام ، وأذن له ، وذلك كله كذب وتلبيس ، ثم إنه تحلس بحلاس الفقراء القدماء الهجرة في الطريق ، حتى صار كأنه واحد منهم ، فأرسلت له ورقة أرشده فيها إلى أحد من أشياخ الطريق يتلمذ له ، ويأذن له إن رآه أهلاً لذلك ، فلم يفعل ، فأسأل الله عز وجل أن يتوب علينا وعليه آمين ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حسن سياستي لمن رأيته يبغض أخاه المسلم بغير حق ، وذلك بإقبالي عليه ، وبشاشتي له ، وتقديم طعام له ، ونحو ذلك مما يميل القلوب إلى المحبة ، فإذا مال إلي وأحبني سارقته بذكر الصفات التي تميل خاطره إلى عدوه شيئاً فشيئاً ، ولا أقول لأحدهما قط لا تعد تأتني مادام فلان غضبان عليك ، فإنه يفهم من ذلك العصبية مع عدوه ، فلا يصير يسمع لنا نصحاً لكونه جلعنا خصماء له فصرنا نحتاج إلى شخص ثالث

يصلح بيننا لا سيما والفقير إذا شاع اسمه في الوجود يصير موردة للناس للعدو والصديق ، كما يرد على الأمير العدو والصديق ، ولا يمكنه أن يرد واحداً منهما ، ومن شرط الفقير الإقبال ببشاشته على كل وارد عليه بطريقه الشرعي ، قياماً بواجب حقه ، وقلبه فارغ من العصبية لأحد الأخصام.

ولما قام أهل مصر على ناظر النظار في سنة تسع وخمسين وتسعمائة بسبب إبطال نظار المساجد كلها ، صار أهل مصر فرقتين فرقة معه ، وفرقة عليه ،وصار كل من الفريقين يرد عليّ ، فكنت أحبب كل فريق من الفريقين في الآخر من وراء صاحبه وأنهاه عن فعل شيء يضر عدوه ، وكان الوزير علي باشا مساعداً لأهل مصر ، فجاءني ناظر النظار يأخذ خاطري ، فحطيت عليه ، وأعلمته بوجوب طاعة ولي الأمر عليه في المعروف ،وأنه لا يخونه بالغيب ، فبلغ بعض الحسدة مجيء ناظر النظار إليّ فطلع للباشا وقال: إن ناظر النظار زار فلاناً وأكرمه بقصد تغيير خاطر الباشا عليّ ، فقال له الباشا: فما سمعته يقول له ؟ قال: لم أعرف ماذا قال له ، فزجره ولم يصغ إلى قوله فكتبت ورقة للباشا خشية على دينه أن ينقص بسببي من مضمونها: أنا الذي طلبت الاجتماع بناظر النظار لأعلمه طريق الأدب معكم ، وأخبره بوجوب طاعتكم ، وتحريم مخالفتكم ، فرضي مني بذلك ، وقال: ذلك هو ظني بالفقراء ، فلما مرض وزرته في القلعة لم أر عنده شيئاً من تغيير الخاطر ، فإيَّاك يا أخي أن تظن بفقير أنه يتعصب بالباطل مع أحد الخصمين ، كما يفعل أبناء الدنيا ، فإن ذلك ظن كاذب ، فإن الفقراء لا يمشون بين الناس إلا بالمصالح ، فاعلم ذلك، واعمل على التخلق به، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم تقديم نفسي على أحد من إخواني في شيء من الأمور التي فيها رياسته إلا بسؤالهم لي في ذلك بطيبة نفس ، أو لمصلحة أراها ترجح على مصلحة عدم التقديم ، فلا أفتتح مجلس ذكر إلا إن سألوني كلهم في ذلك بشرط أن لا يكون هناك أحد من الأشراف ، ولا أحد أكبر مني سناً ، فإن كان هناك من هو أسن مني أو شريف ولو صغيراً قدمته عليّ ، ولو سألوني في ذلك ، أدباً مع من هو أسن مني ، ومن هو أشرف مني، ثم إذا افتتحت المجلس بالشرط المذكور أقصد بذلك المبادرة إلى تعجيل سماع الناس ذكر الله تبارك وتعالىٰ محبة في الله تعالىٰ لا لعلة أخرى من ثواب أو غيره ، وهذا خلق ما رأيت له في عصري فاعلاً إلا القليل ، بل رأيتهم يتخاصمون على البداءة بالذكر ، وبعضهم رأيته يستخدم الشريف ، ويحمله سجادته ليفرشها له ، وهذا كله جهل بالمراتب ، وسيأتي بسط ذلك في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ ، وكثيراً ما يتنازع عندي اثنان فأكثر فأسألهما أن يفتتحا قبلي ، فاعلم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: أني لا أرى لي ملكاً مع الله تبارك وتعالىٰ في شيء أعطانيه ، بل أقبله من الله تبارك وتعالىٰ ، ثم أخرج عنه فوراً إلى المالك الحقيقي وهو الله تبارك وتعالىٰ ، وإنما كنت أقبله أولاً ولا أرده أدباً مع الله تعالىٰ ، فإنه تبارك وتعالىٰ ما خلق كل ما في الوجود إلا لعباده ، لغناه تبارك وتعالىٰ عن العالمين ، فأنا أقبله منه وأبقيه بقدر ما أتحقق بقبوله لأشكره تبارك وتعالىٰ عليه الذي استخلفني فيه ، ولولا نسبة ذلك العطاء لي لما صح لأحد شكر على نعمة طعام ولا شراب ولا غيرهما ، وإنما كان يشكر على نعمة الإيجاد والإمداد فقط كالملائكة ، إذ لم يرد لنا أنهم يحتاجون إلى شيء من المطاعم والمشارب والمراكب والمناكح والدور وغير ذلك مما هو خاص بنا.

وإيضاح ما قلناه أن حقيقة العطاء أن ينتقل ذلك من ملك المعطي اسم فاعل إلى ملك المعطى اسم مفعول وهذا لا يصح في حقنا مع الباري جلَّ وعلا ، فإن العبد وما يدخل في يده لسيده بإجماع ، ولا يصح أن يتوارد ملك الحق عز وجل والعبد على عين واحدة بحقيقة واحدة ، لأن الله تبارك وتعالىٰ مالك حقيقي ، والعبد مالك مجازاً من حيث الحدود المتعلقة بالخلق لا المتعلقة بالله جلَّ وعلا ، فغاية ملك العبد أنه مستخلف فيما بيده ، يصرف منه بالمعروف على عباد الله من نفسه وغيره لا غير كالوكيل المحض ،وعبارة المنهاج في مذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه تأليف الإمام محيي الدين النووي رحمه الله تعالىٰ: ولا يملك العبد بتمليك سيده «في الأظهر».

فإن قيل: فإذا كان العبد لا يملك شيئاً فمن أين جاء تحريم غصب ماله ؟

فالجواب: أن تحريم الغصب ما جاءنا من جهة ملك العبد مع الله تعالىٰ ، وإنما هو من جهة تمليك الحق جلَّ وعلا له ذلك على وجه الاستخلاف دون غيره من العبيد كما مرت الإشارة إليه ، فلما تعدى الغاصب وأخذ ما لم يستخلفه الحق تبارك وتعالىٰ فيه بما استخلف فيه غيره ، عوقب بسبب ذلك ، وكأن لسان الحق جلَّ وعلا يقول: من أخذ من أحد شيئاً بغير طريق شرعي عذبته ، فالعذاب من حيث أخذه ذلك بغير طريق شرعي ، لا من حيث ملك العبد مع الله تبارك وتعالىٰ ، فافهم ، هذا ما علل به القوم وهو اختلاف في العلة لا في الحكم ، فإن القوم أجمعوا على تحريم الغصب ، وإن كانوا يرون أن العبد لا يملك مع الله شيئاً ، وأنه يستحق العقوبة التي توعد الله الغاصب عليها ، فقد اتفق القوم مع العلماء على تحريم الغصب ،وعلى استحقاق صاحبه العقوبة ، واختلافهم في العلة لا يقدح في الحكم ، ويؤيد ما قررناه من عدم ملك العبد ، وأنه لا يشترط في تحريم الغصب لشيء ملك صاحبه له حقيقة ما قاله علماؤنا من تحريم غصب الاختصاصات ، كالزبل مع أنها لا تملك.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن مقام شهود العبد ذوقاً أنه لا يملك مع الله سبحانه وتعالىٰ شيئاً ، مقام يذوقه المريد أول دخوله في طريق القوم ، فليس هو بمقام عزيز كما يظنه من لم

يسلك الطريق ، فيقول عن مثل ذلك هذا مقام الخواص ، ولو أنه دخل طريق القوم لعرف أن المريد يذوقه من أول قدم يضعه في الطريق ، كما مر إيضاحه في الباب الأول ، فلا يزال يذكر الله تبارك وتعالىٰ حتى ينجلي باطنه ، فيشهد أن الملك لله عز وجل ، والفعل لله تعالىٰ ، والوجود الحق لله ، ومحك الصدق في حق من ادعى هذا المقام ذوقاً أنه لو كان عنده ألف دينار ، وأحمال من الثياب والأمتعة ، فسرقت من داره لم يتغير منه شعرة لأجل زوال ملكه عنه ، وإنما يتأثر لنقص دين الآخذ لذلك ، بل يرى أن عبيد الله تعالىٰ أخذوا ما يحتاجون إليه من مال سيدهم دون مال عبده ، وترجح في اعتقاده شمول مغفرته تعالىٰ للآخذ ، فلا يتأثر على ما مر تقريره ، وكذلك من محك صدقه في دعواه أنه لا فاعل إلا الله تبارك وتعالىٰ ، أنه لو ضربه إنسان بسيف لم يتغير على ذلك الضارب إلا من حيث ما ذكر ، فمن ذاق ما ذكرناه فهو الذي يحسن منه أن يقول لا ملك ولا فعل إلا لله تعالىٰ ذوقاً وشهوداً ، ولا ينسب ذلك إلى الخلق إلا بقدر نسبة التكليف إليهم فقط ، فعلم أنه متى تكدر ممن أخذ ماله ، أو ضربه فتوحيده الملك والفعل لله تبارك وتعالىٰ علم لا ذوق.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: جميع ما بيد العارفين من أمور الدنيا مما أضيف إليهم ملكه حكمه في الإضافة حكم باب الدار ، وبرذعة الدابة على حد سواء ، فإن كانت الدار تملك الباب ، أو الدابة تملك البرذعة ، فكذلك العبد مع الله تبارك وتعالىٰ.

فما شكر العارفون ربهم على ما أعطاهم إلا من حيث تمكينهم من الانتفاع به على الوجه الشرعي لا من حيث ملكهم لذلك ، نظير ما قررناه آنفاً من وجه تحريم الغصب عند القوم ، هكذا حكم العارفين في جميع ما يعطيه الله عز وجل لهم في الدنيا والآخرة ، وقد تحققنا بذلك ولله الحمد ، فلست أرى لي ملكاً مع الله تبارك وتعالىٰ في الدارين ، إنما أرى نفسي عبداً غارقاً في إحسان سيدي ، آكل وألبس وأنكح وأنفق من مال سيدي ، فسواء أعطاني شيئاً أو منعني فهو عندي سواء لعدم شهودي الملك معه ما عدا نسبة العطاء ، أي لأجل الشكر عليه فقط ، كما مر تقريره.

ومما وقع لي أوائل دخولي في الطريق أن شخصاً لقيني في سوق خان الخليلي لا أعرفه ، فقبض على طوقي وصار يصكني في عنقي ، ويقول: هذا أفسد عليَّ امرأتي ، فلازال يسحبني حتى قربت من عطفة الجامع الأزهر ، فنظر في وجهي وقال: أنا غلطت فيك ، وأقول: أستغفر الله في حقك ، ولم يتغير مني عليه شعرة واحدة ، بل كنت مسروراً لنظري إلى خالق تلك الحركة التي صكني بها ، والقول الذي قاله ، فعلمت أني تحققت بتوحيد الفعل لله تعالىٰ ذوقاً.

وكذلك وقع لي أنني ألزمت بإحضار الأمير محيي الدين بن أبي أصبع لما استخفى من السلطان أحمد ، فمسكني أعوان الوالي ومدوني للتوسيط بحضرة الوالي ، فلم يتغير مني

شعرة ، بل صرت أتبسم حتى تعجب الوالي ، وقال: أطلقوه ، ثم استغفر في حقي ، ثم تحول غضب السلطان على ذلك الوالي ، فمسك وعوقب في البرج ومات بعد ثلاثة أيام ، انتهى. فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: خفض جناحي لفسقة من المسلمين كالحشاشين والمقامرين والظلمة ، ولا أحتقر في نفسي أحداً منهم إلا من حيث ذلك الفعل المذموم حين التلبس به فقط ، فإذا نزع منه وتوضأ وصلى مثلي حملته على أنه تاب منه وندم ودليل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقد رأيت سيدي الشيخ أبا السعود الجارحي رضي الله تعالىٰ عنه يتواضع لحشاش ، فقلت له في ذلك ، فقال: ربما كان أحسن حالاً مني وأصفى قلباً وأخشع لله مني ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا ينبغي أن يتواضع للفسقة إلا الدعاة إلى الله تعالىٰ من العلماء العاملين لأمنهم على أنفسهم من الفتنة بمخالطتهم ، بخلاف العامة ، لأنهم ربما مالوا إلى محبة أهل المعاصي ، ووقعوا فيما وقعوا فيه ، انتهى.

فعلم أنه لا لوم على الدعاة إلى الله تعالىٰ من العلماء العاملين في تليينهم الكلام للفسقة ، فقصد صحيح ، كأن يقصدوا بذلك تمييل قلوبهم إلى محبتهم حتى يصغوا لنصحهم ، فإن التكبر على الفسقة ، وإظهار احتقارهم مما ينفر قلوبهم ،وتأمل يا أخي الصياد إذا اصطاد سمكة كبيرة ، وخاف على خيطه أن ينقطع كيف يخدعها ويرخي لها الخيط حتى تبعد ثم يسحبها مسارقة شيئاً فشيئاً حتى تدخل تحت يده ، ويقبض عليها وكذلك العصاة ، فإنهم مارقون من طريق الاستقامة ، وقد ضرب بينهم وبين محبة المأمورات الشرعية بسور ، فلا يجدون لفعلها طعماً بخلاف المعاصي ، فإن نفوسهم كادت تطبع على محبتها فكأن أهل المعاصي صاروا أعداء لأهل الطاعات.

وقد رأيت مرة فقيهاً رأى شخصاً في الحمام قد كشف عن فخذيه ، فحركه برجله على وجه الازدراء والاحتقار ، وقال: غط فخذك يا قليل الدين ، فتحركت نفس ذلك الشخص ، ونزع المئزر من وسطه ورماه ، وقال: ما عدت أجلس إلا عرياناً جكارة فيك يا فقيه ، ولو أن الفقيه كان قال له بشفقة ورحمة وعدم احتقار: يا أخي أنت من ذوي المروءات ، ولا يعرف كل أحد عذرك في كشف فخذك ، وقد غرت عليك أن أحداً يرى فخذك مكشوفة ممكن يكرهك فيزدريك ، ونحو ذلك ، لربما قال له: جزاك الله عني خيراً ، وغطى فخذه.

وقد قال المحققون من شرط الداعي إلى طريق الله تبارك وتعالىٰ معرفته بطرق السياسة قبل الدعاء ، ليدعو كل إنسان من الطريق التي يسهل عليه انقياده له منها فيمهد الطريق للمدعو أولاً

ولو بإرسال هدية إليه ، أو كسوة ، أو بإطعامه الفاكهة ، أو الكنافة المبخرة المبسوسة بالقطر ، ونحو ذلك مما يميل نفس ذلك المدعو إلى محبته الناصح، فإذا مال إليه بالمحبة فحينئذ يسارقه بإعلامه بما في تلك (الكتبة) من غضب الله تبارك وتعالىٰ ومقته ، وتعسير الوصول إلى رزقه ، وعدم حفظه من الآفات ، حتى أن صاحب الكتبة يبادر إلى سماع النصح والعمل به ، لما يرى لنفسه في ذلك من الحظ والمصلحة في الدنيا والآخرة: قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال بعض العارفين: الحكمة هنا هي غنى الداعي عن الحاجة إلى المدعوين ، فلا يحتاج إليهم في مطعم ولا ملبس ولا غير ذلك ، لئلا يذل لهم لعلة دنيوية ، فتذهب حرمته ، ولا يؤثر كلامه في قلب أحد من العصاة إذ هو حينئذ معدود من جملة عيال المدعو ، والعائلة تحت حكم من يعولها شاءت أم أبت ، قال: وأما الموعظة الحسنة فالمراد بها تليين القول للمدعو، وبيان ماله في ترك تلك الكتبة من المصالح وما يصرف عنه إذا تركها من العقوبات والمضار كما تقدم.

وهذا باب قد أغفله غالب الناس ، فترى أحدهم يحتقر الظالم ، ويذمه في المجالس ، أو يقبل بره وإحسانه ، ثم يريد أن يمتثل أمره إذا وعظه ، وذلك غلط لأنه إذا ذمه نفر منه ، وإذا قبل بره سقطت هيبته من قلبه ، لا سيما إن صار يمدح ذلك الظالم على إحسانه إليه ، ويقول: والله ما كنا محتاجين لما أرسله إلينا فلان ونحو ذلك.

وقد كان الجنيد رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا ينبغي للشيخ أن يأكل من طعام مريده أول صحبته ، لئلا يهون في عينه ، بل يرد كل ما أهداه إليه بسياسة وتبسم ، ويقول له: أعطه لمن هو أحوج إليه منا ، فإننا ما صحبناك يا ولدي لمثل ذلك ، فيوهمه الغنى عنه مع عدم تنفيره ، انتهى.

وقد بلغنا أن داود عليه الصلاة والسلام كان ينفر من مجالسة عصاة بني إسرائيل غيرة لله تبارك وتعالىٰ ، فأوحى الله تبارك وتعالىٰ إليه: «**يا داود المستقيم لا يحتاج إليك والأعوج قد أنفت نفسك عن مجالسته ، وتقويم عوجه ، فلماذا أرسلت**»(١) فتنبه داود لأمر كان عنه غافلاً ، وامتثل أمر الله تبارك وتعالىٰ ، وصار يجالس عصاة بني إسرائيل ويحسن إليهم ، ويتخولهم بالموعظة الحسنة بشفقة ورحمة ، فانقادوا له كلهم إلا من حقت عليه كلمة العذاب.

وعلم ما قررناه أن محل قولهم يحرم إيناس العصاة ومجالستهم ما إذا لم يكن ذلك لغرض شرعي ، فافهم ، وقد تقدم أوائل الباب أن من شرط الفقير أن يتواضع لإخوانه المسلمين ويرى نفسه دون كل فاسق على وجه الأرض من حيث جهله بالخاتمة فمثل هذا يأمر العصاة

---

(١) لم أجده.

وينهاهم ويرى نفسه مع ذلك دونهم في التقوى ، وأنه أكثر معصية لله تبارك وتعالىٰ منهم من حيث عظمة الذنب في عينه ، أو من حيث كثرة عدد ما يعلمه من نفسه بالنسبة لما يعلمه من غيره ، وسيأتي في هذا الكتاب أنَّ عطاء السلمي رضي الله تعالىٰ عنه كان يستخدم في بيته المخنثين ، وإذا لاموه في ذلك يقول: والله لهم أحسن حالاً مني عند نفسي ، انتهى.

وفي شرح شعب الإيمان للقصري: لا يكمل العارف حتى يرى مرتبته تحت مرتبة الأرضين السفليات التي ما بعدها إلا ما لا يعقل ، انتهى.

وقد طلبت أنا مرة الدعاء من شخص رأيته رث الثياب كأصحاب الكتب ، فعرق جبينه من الخجل والحياء ، فسألت عنه ، فقيل لي إنه صاحب كتبة لا يرى نفسه أهلاً لأن يدعو لأحد ، ثم إني وجدته بعد أيام وعليه ثياب نظيفة ، فقال: قد أثر فيّ قولك لي أمس ادع لي ، فتبت إلى الله تعالىٰ ، وتركت تلك المعاصي التي كنت مرتكبها انتهى.

فحال العارفين في نفوسهم دائماً كحال أعصى العصاة ، وكثيراً ما أقول في سجودي: اللهم إن حلمك عليَّ يرجح على حلمك على غالب الأولين والآخرين فأجد لذلك حلاوة عظيمة ، فافهم يا أخي ذلك ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: كثرة نصحي لجميع إخواني فلا أتذكر أني لبست على أحد منهم أمراً مذموماً ، ولا سكت عن ذلك إلا بطريق شرعي ، والنكتة في معونتي على ذلك ، كوني لا أصحبهم لعلة دنيوية ، وإنما أصحبهم لله تبارك وتعالىٰ وأقدم رضا الله تبارك وتعالىٰ على رضاهم ، مع تعففي عما بيدهم من الدنيا ، وأنا أعرف وأتحقق أني لو صحبتهم لغرض فاسد لربما وقعت في غشهم ، والسكوت عن نصحهم ، خوفاً على خاطرهم أن يتكدر مني ، بل بلغني أن شخصاً خطيباً دعا شخصاً إلى حضور وليمته ، فقال: بشرط أنك تشتري لي برشاً آكله ، فأرسل واشترى له ذلك ، انتهى ، وهذا خروج عن الشريعة.

وبالجملة فلو أن أصحابي عملوا بكل ما نصحتهم به لكانوا كلهم علماء عاملين زاهدين هادين مهديين ، ولكن لم يصح ذلك لداع قبلي ولا بعدي بحكم القبضتين فلا بد في الوجود من طائع وعاص على الدوام ، مادام سلطان الشريعة قائماً ، وذلك ليظهر فضل الله تعالىٰ وحلمه على خلقه ، ويؤجر الداعي على صبره على من خالفه لأنهم لو كانوا كلهم طائعين لفاته أجر الصبر ، ولو كانوا كلهم عاصين لفاته أجر الشكر ، ولما غلبت الرحمة على قلب رسول الله ﷺ والشفقة ، وتمنى أن الناس كلهم يؤمنون به ، وبما جاء به أوحى الله تبارك وتعالىٰ إليه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]. الآية ، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]. الآية ، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم ترددي إلى بيوت الحكام إلا لضرورة شرعية ترجح على عدم ترددي ، مما ينفعني أو ينفع أحداً من المسلمين ، فعلم أنه يشترط النية الصالحة في التردد وعدمه ، فربما يترك بعض الناس التردد إلى الحكام تكبراً عليهم وذلك من الجهل ، فإن قاضي العسكر والمحتسب أكبر منه عند غالب الناس بيقين ويرفعونه عليه غيبة وحضوراً ، ولو أن الواحد منا قال للناس: عظموني مثل ما تعظمون الحاكم الفلاني لسخروا به ولم يجيبوه ، فالعاقل من عرف مقامه ، وسيأتي في هذه المنن أن بعض العارفين كان يعظم ولاة الأمور ، ويقول: هذا أدبنا معهم في هذه الدار ، وسوف يعلمنا الله تعالىٰ الأدب معهم إذا انتقلنا إلى الدار الآخرة ، انتهى .

فالله تبارك وتعالىٰ يجعلنا وإخواننا ممن تكون حركاتهم وسكناتهم محررة على الشريعة تحرير الذهب ، آمين ، اللهم آمين ، فافهم ذلك ، والله يتولى هداك والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: تعليمي الأدب للأمراء إذا اجتمعت بهم عند تعين ذلك عليَّ ، فإن الناصح لهم أعز من الكبريت الأحمر ، وغالب الناس يستحي أن ينصحهم هيبة لهم أو خوفاً من شرهم ، ولعدم اكتراثه بذلك .

ومن هنا كان عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا تدخلوا على الأمراء ، ولو بقصد نصحهم ، فإن سلامتكم منهم مقدمة على آفة الدخول عليهم انتهى .

ولما دخلت على الوزير علي باشا مصر في خيمته حين برز للسفر ، سلخ المحرم سنة إحدى وستين وتسعمائة ، تلقاني من خارج الخيمة وعضدني من تحت إبطي وأجلسني على فراشه ، وجلس هو دوني ، وقال لي: مهما يكن لكم من الحوائج فأرسلوا لنا بها ورقة في اصطنبول نقضها لكم ، فإننا هناك لأهل مصر أحسن من إقامتنا عندهم ، لقربنا هناك من السلطان ، فقلت له: ليس للفقراء بحمد الله تعالىٰ عند الولاة حاجة ، ولكن إن كان لكم أنتم حاجة فأعلمونا بها نسأل الله تعالىٰ لكم فيها ، فأطرق ملياً ، ثم قال: أستغفر الله ، أنتم تعلقتم بالحق تعالىٰ ونحن تعلقنا ببعض عبيده ، فكان الصواب معكم ، لأن الحق تعالىٰ بيده ملكوت كل شيء ، انتهى .

فكان في إعلامي له بأن الفقراء محتاجون إلى الله تبارك وتعالىٰ لا إلى خلقه ،وأنهم يشفعون في غيرهم من الملوك ، والملوك لا تشفع فيهم ، بيان مقام الفقراء وتعليم الباشا الأدب معهم ، وما رأيت أحداً ممن دخل عليه من الفقراء معهم خاطبهم بمثل ذلك ولا بين له

مقام الفقراء والأدب معهم ، بل قال لي بعضهم: إذا دخلت عليه فاسأله شيئاً من الدنيا ولا تردها عليه ، فيسيء ظنه بالفقراء ، فلا يعود يعطي أحداً منهم شيئاً ، ويقول: إن هؤلاء معهم دنيا ، انتهى. فافهم ذلك يا أخي ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم تكدري على شيء فاتني من الدنيا وتكدري ممن صدها عني ، وذلك لعلمي ويقيني بأن كل شيء فاتني ليس هو برزقي ولا قسم لي ، فكيف أحزن على شيء لم يقسمه الحق تبارك وتعالىٰ لي ، أو أتكدر ممن صد ذلك عني بالوهم ،وهذا خلق غريب في هذا الزمان ، وغالب الناس يحزن ويتكدر ممن سعى في قطع رزقه ، أو خروج وظيفته عنه ، وربما عادى من عارضه في رزقه الذي كان يتوهم أنه له أبداً ما عاش.

وقد رأيت خطيباً كان يخطب في الجامع الأزهر ، فلما دخل السلطان سليم مصر وصلى في الجامع الأزهر ، قال للناس: لا يخطب اليوم إلا فلان لفصاحته ومعرفته بالوعظ المناسب للسلطان ، ومنعوا صاحب النوبة تلك الجمعة لعجزه عن مثل ذلك فلما خطب رسم له السلطان بخمسين ديناراً ، فقال: هذه لي ولم يعط صاحب النوبة منها شيئاً ، فمشيت في الصلح بينهما فلم أقدر ، ولم تزل العداوة بينهما إلى أن ماتا على العداوة ، فقلت لصاحب النوبة: أين قولك في الخطبة والله ثم والله ما يعطي ويمنع ويضع ويرفع إلا الله تعالىٰ فما درى ما يقول.

وبالجملة فلا يقع في مثل ذلك إلا جاهل محجوب عن الله تعالىٰ ، فإن كان ولا بد للمؤمن من أن يحزن فليحزن على ساعة مرت به لم يذكر الله تعالىٰ فيها فإن ذلك محمود ولو لم يمكن تداركه لما فيه من التعظيم لجناب الله تعالىٰ والحزن على فوات مجالسته تعالىٰ ، والوقوف بين يديه جلَّ وعلا ، كما هو شأن كل محب مع محبوبه ، ومن لم يحزن على فوات مجالسة محبوبه فليس له في مقام المحبة نصيب.

واعلم يا أخي أن الحزن على ما فات من الطاعات إنما هو محمود للعبد ، مادام محجوباً يختار خلاف ما يختاره له ربه جلَّ وعلا ، فإذا رفع عنه الحجاب لم يجد شيئاً قسم له ثم فاته أبداً ، لأن ذلك لا يصح عقلاً ولا شرعاً.

وكان الشبلي رضي الله تعالىٰ عنه يقول وهو في بداية أمره: اللهم إن عذبتني بشيء فلا تعذبي بذل الحجاب ، فلما كمل حاله صار يقول: الحمد لله الذي حجبني في الوقت الفلاني عن شهوده ، فإنه تعالىٰ ما حجبني عنه إلا رحمة بي ، خوفاً أن لا أقوم بأدب الشهود ، وتارة يقول: إني لا أشتهي رؤية الله عز وجل أبداً ، فقيل له في ذلك فقال: أنزه ذلك الجمال البديع عن رؤية محدث مثلي ، انتهى.

ولكل مقام رجال، فافهم يا أخي ذلك، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: انشراح صدري إذا أمسيت أو أصبحت وليس عندي شيء من الدنيا، وانقباض خاطري إذا أصبحت أو أمسيت وعندي دينار أو درهم، عكس ما عليه من يحب الدنيا، وكان هذا من أخلاق رسول الله ﷺ: «**كان إذا أمسى وعنده شيء من الدنيا ولم يجد من يقبله من الفقراء والمساكين لا يأوي إلى بيته تلك الليلة بل ينام في المسجد**»[1] انتهى.

ولم أزل أنا بحمد الله تبارك وتعالىٰ على هذا الحال إلى أن دخلت سنة سبع وخمسين وتسعمائة، فأطلعني الله تبارك وتعالىٰ على أن في كل إنسان ما عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جزء يضطرب ويهتم بأمر الرزق، لا يسكن عن ذلك الاضطراب إلا إن كان عنده شيء من الطعام، أو شيء من الدنيا يشتري به ما يحتاج إليه في دنياه فمن تلك السنة وأنا أجعل عندي تارة طعاماً، وتارة نحو المائة نصف، ونحو ذلك مما هو دون النصاب.

وكان على هذا المذهب جماعة من السلف الصالح رضي الله تعالىٰ عنهم، منهم سفيان الثوري، وسليمان بن يسار وأبو سليمان الداراني رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم، فكان سفيان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: الدنيا وإن كثرت لا تساوي عند الله تعالىٰ جناح بعوضة، وما عسى يصيب الواحد منها حتى يزهد فيه، أو يأخذه، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: أحب أن لا أخلي بيتي من الذهب والفضة ليلة واحدة وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول لأن أخلف بعدي أربعين ألف دينار مع قلة الاهتمام بأمر رزقي أحب إليّ من أن أموت خالي اليد من الدنيا وأمتعتها، وأنا مهتم بأمر رزقي، فإن ذلك يؤذن بالاتهام للحق جلَّ وعلا، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يكوم الذهب بين يديه يذريه في الهواء، ويقول: لولا هذا الذهب لتمندل الناس بنا.

وكان أبو سليمان الداراني رضي الله تعالىٰ عنه يقول: ليس الشأن أن تصف قدميك للعبادة، وغيرك يفت لك، إنما الشأن أن تحرز عندك قوتك، ثم تغلق بعد ذلك بابك، قال رضي الله تعالىٰ عنه: وقد غلط في هذا الأمر خلق كثير، فتجردوا في الظاهر عن الدنيا، ثم تطلعوا لما في أيدي الخلائق ليطعموهم ويكسوهم وينفقوا عليهم، فأحرز يا أخي قوتك ثم أغلق بابك فحينئذ لا تبالِ بأي داق دق الباب بخلاف ما إذا لم يكن في بيتك شيء، فإنك تصير تقول إذا دق الباب لعل مع هذا شيء نأكله، انتهى.

---

(١) لم أجده.

ويؤيد ذلك قول الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه: لا يشاور من ليس في بيته دقيق ، أي لأنَّ عقله مشتت وتدبيره ناقص ، انتهى.

واعلم يا أخي أن إمساك الدنيا والبيات عليها على اسم غيرنا من المحتاجين لا يقدح في مقام الزهد ، بخلاف الإمساك على اسم العبد نفسه ، فربما كان ذلك لشح في الطبيعة.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا يخلو المدخر للدنيا من حالين ، إما أن يكشف له أن ذلك من رزقه أو لا يكشف له ، فإن كشف له أنَّ ذلك من رزقه ، فالأدب إنفاقه على الناس إذا طلبوه منه ، فيكسب الثناء الحسن ويحبب نفسه إليهم ، ثم إنه يرجع بعد ذلك إليه بطريق من الطرق ، فلا يقدر أحد منهم يتناول منه درة واحدة ، وبذلك يخرج عن ورطة الادخار بغير حاجة ، وإن كان لم يكشف له أنه من رزقه فهو مخير في ادخاره وعدمه ، وينتظر بعد ذلك فكل ما قسم له فهو له.

وبالجملة فلا يقدر على التخلق بهذا الخلق إلا من سلك على يد شيخ ، وصبر تحت تربيته حتى خلقه بصفات العبودية ، فيرى أنه ليس له مع سيده ملك في الدارين إنما هو عبد استخلفه الحق تبارك وتعالىٰ في ماله ، لينفق منه على عباده بالمعروف ، ويتساوى عنده كون جميع أموال الناس عنده أو عند غيره على حد سواء ، ولهذا الخلق حلاوة يجدهاالعبد في نفسه أشد من حلاوة الإمساك عند أهل الدنيا ، كما يعرف ذلك أهل الله تبارك وتعالىٰ.

ولما ترك إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالىٰ عنه الملك ولاموه على ذلك ، فقال: لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا يكمل العبد في مقام العبودية حتى لا يرى له ملكاً مع الله تبارك وتعالىٰ في الدارين ، إنما هو عبد يأكل من مال سيده ، ويلبس من مال سيده ، ويسكن دار سيده ، وحينئذ يخرج من ورطة الإمساك والادخار جملة واحدة ولا يصير يشح في شيء يسأل فيه إلا لغرض شرعي انتهى.

فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به يا أخي ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم مبادرتي للإنكار على من رأيته يأخذ مال الولاة إلا بطريق شرعي ، سواء كان طعاماً أو ثياباً أو غير ذلك ، بل أتربص في ذلك فربما كان ذلك الشيخ يصرف ما يأخذه من الظلمة للمحاويج ، كالذي ارتكبته الديون وطلع عليه الحب الفرنجي ، وهو ذو عيال ، وكالعميان ، والعجائز والأيتام ، ونحو ذلك ممن لا يقدر على التعفف عن مثل ذلك ،وكذلك لا ننكر عليه إذا رأيناه يأكل من ذلك ، لأنه ما أكله إلا عند الضرورة الشرعية ، بخلاف ما إذا رأيناه يجمع مال الظلمة ولا يعطي منه أحداً من المحتاجين

شيئاً ، ويتوسع هو به في مأكله أو ملبسه أو مؤنة حجه ، فمثل هذا لا ننكر عليه من غير رؤية شغوف نفس عليه إلا على وجه النكر لله تبارك وتعالىٰ ، فننكر عليه شفقة على دينه ولحمه من النار ، كما أشار إليه حديث: «**كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به**»[1] ثم بعد إنكارنا عليه نتوجه إلى الله تبارك وتعالىٰ ، وندعو له بالمغفرة والمسامحة ، وإرضاء الخصوم الذين جمع ذلك الظالم المال منهم ، ثم نشكر الله تعالىٰ الذي عافانا من مثل ذلك.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يرد مال الولاة الذي يعطونه له ليفرقه على المحاويج ، ويقول: من جمعه فهو أولى بتفرقته ، ثم قبله أواخر عمره وصار يفرقه على المحاويج ، وصار يقول: ما ثم درهم من شبهة إلا وفي الوجود من يستحق الانتفاع به من أصحاب الضرورات ، كالذي طلع عليه الحب الفرنجي في الشتاء ، ولا يقدر على عمل حرفة ، ولا أحد يفتقده ولا عياله برغيف.

وبالجملة فلا يقدر على ترك الفضول وترك المبادرة إلى الإنكار بغير علم إلا من راض نفسه على يد شيخ ، حتى صار يثقل عليه النطق بالكلام ، وأما من شبع من الشهوات فالفضول من لازمه ، لا يقدر على ترك كثرة الكلام الحرام فضلاً عن الفضول ، بل سداه ولحمته كثرة كلام فرحم الله من أتى البيوت من أبوابها ، وقد تقدم في منة حسن الظن أن الإنسان لا يقدر على حسن الظن بالناس إلا إن نظف باطنه من سائر الرذائل ، وإلا فمن لازمها سوء الظن قياساً على ما في نفسه هو ، وأن الإنسان مادام يسيء الظن بأحد ، فهو لم يتطهر من الرذائل ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: رضاي عن ربي عز وجل إذا قتر علي الرزق كرضاي إذا وسع عليَّ ، لعلمي بأنه أعلم بمصالحي من نفسي ،ولا يفعل معي إلا ما سبق به علمه ،وليس لعبد أن يقول لسيده: رد عني ما سبق في علمك ، ولو سأل ربه في ذلك لا يجيبه ، إذ لا يمكن تبديل ما قسم. وأيضاً فإنه إذا قتر علي الرزق فقد سلك بي طريق أنبيائه وأصفيائه ، وإذاوسع علي فقد سلك بي طريق أعدائه في الغالب ، فإن في الفقر عدم الغفلة عن الله تبارك وتعالىٰ ، ورقة الحجاب ، وفي سعة الرزق كثرة الغفلة عن الله عز وجل ، وكثافة الحجاب ، وسيأتي بسط ذلك في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: رضاي عنه تبارك وتعالىٰ إذا قدر عليَّ معصية كما أرضى

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٧٦٠) ، وابن عدي في الكامل (٥/ ٢٩٦) ، والربيع في مسنده (٩٤١).

عنه تعالىٰ إذا قدر لي طاعة ، لكن من حيث التقدير لا من حيث الكسب ، لأن المعاصي بريد الكفر ومقدمته ، وهذا هو معنى قول أهل السنة والجماعة رضي الله تعالىٰ عنهم : يجب الرضا بالقضاء لا بالمقضي ، ومعنى قولهم أيضاً نؤمن بالقدر ولا نحتج به .

وإيضاح ما قلناه من الرضا أن يعلم العبد أن سيده فعال لما يريد ، لا يتوقف على غرض عبده ، فله أن يستعمله تارة في تقليب المسك ، وتارة في تقليب الزبل فالمسك مثال الطاعات ، والزبل مثال المعاصي ، وميزان الشرع في يد العبد لا يضعها من يده لحظة ، فما كان من طاعة ، قال الحمد لله ، وما كان من معصية ، قال : أستغفر الله .

فإن قيل : إذا كان فعل العبد خلقاً لله تبارك وتعالىٰ ، فكيف سميتموه زبلاً في حق العاصي ؟

فالجواب : قد قال تبارك وتعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الزمر : ٦٢]. فخلق الحسن والقبيح ولكن من الأدب أن لا يثني على الحق تبارك وتعالىٰ إلا بما هو حسن في العرف ، فلا يقال سبحانه خالق القردة والخنازير ، وإن كان ذلك حقاً ، فمثال الطاعات والمعاصي مثال صندوقين محشوين مسكاً ، وكتب على ظاهر أحدهما مسك ، وعلى ظاهر الآخر زبل ، فهل ينقلب ما في باطن ذلك الصندوق من المسك زبلاً بكتابة الاسم عليه ، لا والله لا ينقلب ، بل هو مسك من حيث إنه فعل حكيم عليم ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول : من تأمل في مقدورات الحق تبارك وتعالىٰ وجدها في غاية الكمال ، واعلم أن الحق جلَّ وعلا لم يقدر على عبد معصية إلا لحكمة ، إما اختياراً له ، وإما لوقوعه في عجب بأعماله أو تكبره بها على أحد من المسلمين ونحو ذلك ، فإن العبد مادام مستقيماً في أحواله كلها فهو محفوظ من الوقوع في المعاصي جملة .

وتأمل يا أخي الأنبياء وكمَّل الأولياء لما كان من شأنهم الاستقامة كيف حماهم الله تعالىٰ من المعاصي جملة ، إما عصمة ، وإما حفظاً ، بخلاف غيرهم ، فإن الله تبارك وتعالىٰ ينوع عليهم الواردات ليخلصهم من ورطة أمور أخر ، كما قال تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٨]. وفي المثل السائر : من لم يَجِىءْ بشراب الليمون جاء بحطبه ، فشراب الليمون هنا هو كناية عن الطاعات ، وحطبه هو كناية عن المعاصي .

وفي كتاب الحكم لسيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله رضي الله تعالىٰ عنه « ربَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » يعني بالنظر للأثر ، فإن الله تبارك وتعالىٰ ما وضع التكاليف في عنق المكلف إلا ليذل بها نفسه ، فلما خالف وتكبر بها مثل

إبليس ، كان أثر المعصية من الذل والانكسار أحسن أثراً من أثر تلك الطاعات التي رأى بها نفسه على الخلق فافهم.

ويحتاج صاحب هذا الخلق إلى ميزان دقيق يفرق به بين الحق والباطل ، ليعطي كل واحد منهما حقه ، فيستغفر ويندم من حيث كسبه ونفسه ، ويرضى من حيث كون ذلك من تقدير ربه عليه.

وكان سيدي عبد القادر الدشطوطي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: مادام العبد بعيداً من حضرة ربه فمن لازمه غالباً كثرة الاعتراض على مقدور الحق تبارك وتعالىٰ ، فإذا قرب من الحضرة أطلعه الله تبارك وتعالىٰ على ما في أفعاله من الحكمة فلم يطلب قط تغيير شيء برز في الكون إلا بوجه شرعي ، حياء من الله تبارك وتعالىٰ.

وكان سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا يقدح في كمال الولي منازعته للأقدار الإلهية ، إذ من شأن الكامل أن ينازع أقدار الحق بالحق للحق ، وفي رواية أخرى عنه رضي الله تعالىٰ عنه أنه كان يقول: كل الرجال إذا ذكر القدر أمسكوا إلا أنا ، فإنه فتح لي فيه روزنة [1]، فدخلت ونازعت أقدار الحق بالحق للحق ، فالرجل هو المنازع للقدر بالقدر لا الموافق له ، انتهى.

وهو كلام نفيس ،ومعناه ليس الرجل من يكون راضياً بالمعاصي ويحتج بالقدر إنما الرجل من يدافع الأقدار حتى لا تقع ، ثم إن وقعت كذلك أعطاها حقها من الاستغفاروالتوبة والندم والحزن.

فعلم أن كراهة العبد للوقوع في المعاصي لا تقدح في رضاه عن الله تبارك وتعالىٰ وتسليمه لأقداره ، بل هو مطلوب شرعاً إذ المعاصي موجبة لسخط الله تعالىٰ على العبد ، ومن فر من مواطن السخط فهو مأمور بذلك ، كما أنَّ من رأى حائطاً قد مالت للسقوط فليس له أن يقف تحتها ينتظر سقوطها عليه ليموت ، ومن فعل ذلك فحكمه حكم قاتل نفسه ، وقد توعده الله تبارك وتعالىٰ بالعذاب ، لأنه تعدى على الحق تعالىٰ في استجلاب الأذى لبدنه الذي هو بنية الله تبارك وتعالىٰ ، ولا يهدم البنية إلاخالقها وأما العبد فالواجب عليه السعي في حفظها من سائر الآفات الظاهرة والباطنة ، فهو ولو علم أن الله تعالىٰ قدر عليه معصية يجب عليه مدافعتها حتى تقع بمحض القدر ، ويثاب على ذلك ، كما بسطنا الكلام عليه في كتاب اليواقيت والجواهر ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم اعتمادي على شيء من طاعاتي دون الله تبارك

---

(١) هو الكوة غير النافذة. اهـ المعجم الوسيط مادة / رزن/ (١/ ٣٤٣).

وتعالىٰ ، فإنَّ كل من اعتمد على غير الله تبارك وتعالىٰ تخلى عنه في الآخرة ، ووالله ثم والله ثم والله إني لأنصرف من صلاتي وأنا في خجل من ربي عز وجل أكثر من خجلي إذا عصيته ، لسوء ما يقع لي في صلاتي من شهودي سوء الأدب والغفلة عما يليق بتلك الحضرة ، ولا أتجرأ أن أقول في سجودي أو في ركوعي : اللهم لك سجدت وبك آمنت ، أو اللهم لك ركعت إلى آخره إلا إن أعقبت ذلك بقولي سجوداً أو ركوعاً استحق به في اعتقادي المؤاخذة لولا عفوك وحلمك وشفقتك عليَّ ، فلك الفضل الذي لم تخسف بي الأرض ، ولم تمسخ صورتي ، انتهى .

فلو نظر العبد لوجد سداه ولحمته ذنوباً بالنظر لما يستحقه جلال الله عز وجل ومن كان هذا مشهده لا يقدر أن يرفع له بين العباد رأساً ، وفي منظومة الشيخ إسماعيل بن المقري رضي الله عنه وأرضاه ، ونفعنا ببركاته وإمداداته :

ذنوبك في الطاعات وهي كثيرة إذا عددت تكفيك عن كل زلة
تصلي بلا قلب صلاة بمثلها يكون الفتى مستوجباً للعقوبة
صلاة أقيمت يعلم الله أنها بفعلك هذا طاعة كالخطيئة

إلى آخر ما قاله رضي الله عنه فعلم أنَّ من كان ما ذكرناه مشهده في طاعاته فهو غائب عن طلب ثواب بفعلها بل لا يتجرأ أن يطلب ذلك من الله أبداً ، فحكمه كالمجرم الذي أتوا به بين يدي الوالي بسبب قتل أو عمل زغل أو فجور بامرأة أمير أو نحو ذلك ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : حسن سياستي للمقاريض الذين يقرضون في أعراض الناس بغير حق ، فأقدم لأحدهم الطعام إذا ورد عليّ وأبش له في وجهه وأباسطه ، وكثيراً ما أعطيه ردائي أو قميصي أو شيئاً من الدنيا ونحو ذلك ، مما يحببه فيّ ، فإذا أحبني ومال إليّ ، ثم سمعته يذكر أحداً بسوء قلت له : وأنا متبسم : يا أخي ما هي عادتك تذكر أحداً بسوء ، فإنه يخجل من ذلك ويستحيي أن يكمل الحكاية ، فإذا خجل من ذلك واستحا وسكت داويناه بنحو قولنا للحاضرين فلان يلتقي من غير أخينا ، ولا يلتقي منه ، ثم نقول للحاضرين لو كان أصحابنا كلهم مثل صاحبنا هذا كانوا بخير ، فإنه يعجبني حاله لكونه رجلاً حقانياً لا يداهن أحداً في حق ، ويقبل النصح من المحبين ، ونغالطه في نفسه ، فإذا غلط فيه قلنا له : قد أحببناك يا أخي في الله ، واشهدوا على أنه أخي دنيا وأخرى إن شاء الله **تعالىٰ** ، ولكن مقصودي أن نتبايع في هذا المجلس على أن أحداً منا لا يذكر أحداً قط بسوء ، ولا يقر على معصية ولا غيبة في أحد من المسلمين ، فلا يسع الحاضرين إلا أن يجيبوا إلى تلك المبايعة ويدخل ذلك المقراض في جملتهم ويبايع ، فإذا بايع تصرفنا فيه بعد ذلك لأجل الشرط شيئاً فشيئاً حتى يصير إن شاء الله تعالىٰ لا يذكر الناس في مجلسنا إلا بخير .

وهذا الخلق قل من يفعله من الناس ، فإنهم إما أن ينكروا على ذلك المقراض ويعبسوا وجوههم في وجهه فيخرج مقراضاً فيهم كذلك ، وإما أنهم يشاركونه في الغيبة في الناس ، وإما أن يسكتوا على تلك الغيبة ، ومن أدب مجالس المؤمنين أن لا يذكر فيها أحد بغيبة ، ولا يشمت فيه بمصيبة ، ولا خير في مجلس يقوم أهله كلهم متحملين الأوزار.

وكان من حسن سياسة أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله أنه كان إذا علم من أحد أنه يغتاب الناس يقول للحاضرين أول ما يجلس عنده: مثل صاحبنا هذا هو الذي ينبغي للفقير أن يتخذه صاحباً ، لكونه لا يذكر الناس قط إلا بخير فيلجمه في ذلك المجلس عن الغيبة ، حتى يقوم لأنه يستحيي أن يخيب ظن الناس فيه الخير.

وقد تحزّب عليه رضي الله تعالىٰ عنه مرة جماعة بالباطل ، وجاؤوا معهم بجماعة من الزوالق يريدون سب الشيخ ، فقال لي: إيش قلت فيمن يلجم لك هؤلاء الزوالق فلا يقدر أحد منهم أن يكلمني كلمة قبيحة ، ويخالفون جميع ما اتفقوا عليه من أصحابهم ، فقلت له: وماذا تفعل ؟ فقال: أقول لهم الحمد لله الذي لم تجيبوامعكم إلا جماعة خيرين دينين يستحيون أن يتكلم أحد منهم بين اثنين ، أو يساعد أحداً على الباطل ، ولو كان أباه أو أخاه ، ولم أسمع منهم في عمري إلا الكلمة الطيبة ، فالتجموا كلهم عن سيدي الشيخ أفضل الدين رضي الله تعالىٰ عنه ، فلم يقدر أحد منهم على النطق بكلمة في حقه ، وصار أصحابهم يغمزونهم أن يسبوه كما وعدوهم فلا يستطيعون ، بل انقلبوا على الذين جاؤوا معهم ، ثم قال سيدي الشيخ أفضل الدين رضي الله تعالىٰ عنه: إيش قلت في هذه السياسة ، فقلت له: عظيمة ، فقال: نصرناهم وكففناهم عن الوقوع في الإثم بسبب ما كانوا أضمروه لي من السب ، وصاروا نصرة لي على أصحابهم الذين جاؤوا بهم ، انتهى.

فتعلم يا أخي هذه السياسة ، واعمل بها بقصد حماية دين أعدائك عن النقص وإيَّاك أن تعلم أعداءك أنك تكرههم ، فإنهم يزدادون فيك عداوة ويتبعون سرك اهـ.

ووالله إني لأعرف جماعة من الفقهاء كانوا يكرهوني ، فمازلت أقول للناس إني أحب فلاناً لدينه وخيره ، فيبلغه الناس ذلك فتقل عداوته ، حتى صار من أصحابي ولو أني كنت قلت إني أكره فلاناً لقلة دينه لكان ازداد عداوة وبغضاً ، وإذا أردت يا أخي أن لا تجرئ عليك السفهاء ، فلا تجبهم إذا شتموك ، ولا تقل قط لأحدهم: البعداء عندي مثل النعل ، أو أقل أو أخس ، فإنهم إذا تأدبوا معك قالوا لك وكذلك أنت الآخر عندنا لأنهم أسفه منك بيقين ، وأقل حياء.

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، ونفعنا ببركاته وإمداداته:

إذا سبني نذل تزايدت رفعة   وما العيب إلا إن وقفت أسابه

وقال رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه: لا ينبغي للعالم أن يرد على سفيه قط بالسفه فإن كان

ولا بد فليجعل عنده سفيهاً يسافه عنه السفهاء ، انتهى.

فاعلم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم رؤيتي في نفسي أنني معدود من جملة علماء الزمان ، بل لم يزل جهلي مشهوداً على الدوام ، ولو أن السلطان رسم لأهل العلم والصلاح في مصر كل واحد بألف دينار لا تحدثني نفسي بأنهم يعطوني من ذلك شيئاً.

وهذا الخلق من أكبر نعم الله تبارك وتعالىٰ عليَّ ، وغالب من يدعيه متفعل فيه فيقول أحدهم: نحن لسنا من العلماء ، وإذا فرق السلطان على العلماء مالاً فلم يعطوه شيئاً تكدر وتميز من الغيظ ، ففعله هذا يخالف دعواه ، فليمتحن الناصح لنفسه نفسه بهذا الميزان ، فإن رآها انشرحت لكل شيء فاتها مما هو على اسم العلماء من وظائف ونقود فليعلم أنه صادق في شهوده في نفسه الجهل ، إذ الجاهل إذا بلغه أن السلطان رسم بمال للعلماء لا تحدثه نفسه قط بأنهم يعطونه من ذلك شيئاً ، وكذلك صاحب هذا المقام كما مر.

وقد رأيت من يدعي الجهل من طلبة العلم ، قد كتبوا اسمه في ديوان صدقات السلطان ، فجاء واحد وقال للكاتب: امح اسم فلان فإنه متورع ولا يأكل قط من مال السلطان ، فمحا اسمه. فلا تسأل يا أخي ما حصل لذلك الواحد ، فصار يقول له: أنا عظمتك ووصفتك بالورع حماية لك من الشبهات ، فيقول له: أنا قلت لك إني ورع ولم يزل معادياً له حتى مات.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: من نظر في علوم السلف الصالح حكم على نفسه بالجهل ، ولم يحدث نفسه قط بأنه من العلماء ، انتهى.

وقد نقل ابن السبكي رحمه الله تعالىٰ: أن كتب خزانة المدرسة النظامية حرقت في زمان حياة نظام الملك ، فشق عليه ذلك ، فقالوا له: لا تخف فإن ابن الحداد يملي للكاتب جميع ما حرق من حفظه ، فأرسلوا خلفه فأملى جميع ما حرق في مدة ثلاث سنين ما بين تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ذلك.

ونقل أصحاب الطبقات أن ابن شاهين الحافظ صنف ثلاثمائة وثلاثين مؤلفاً ، منها تفسيره للقرآن في ألف مجلد ، ومنها المسند في ألف وستمائة مجلد ، وذكروا أنه حاسب الحبار في استجراره منه الحبر للكتابة أواخر عمره ، فبلغ ألف رطل وثمانمائة رطل.

وحكى بعضهم أن الشيخ عبد الغفار القوصي صنف في مذهب الشافعي بإخميم[1] ألف مجلد.

---

(١) إخميم: بلد بالصعيد وهو بلد قديم على شاطئ النيل بالصعيد.

وحكى الجلال السيوطي رحمه الله تعالىٰ: أن الشيخ أبا الحسن الأشعري رضي الله تعالىٰ عنه ألف تفسيراً ستمائة مجلد، قال: وهو في خزانة النظامية ببغداد.

وحكى أيضاً رضي الله تعالىٰ عنه عن محمد بن جرير الطبري، الذي ادعى الاجتهاد المطلق بعد الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه: أنه كان يحفظ من العلم وقر[1] ثمانين بعيراً.

وحكى الشيخ تقي الدين السبكي رضي الله تعالىٰ عنه أن محمد بن الأنباري رضي الله تعالىٰ عنه كان يحفظ في كل جمعة عشرة آلاف ورقة.

وحكى أيضاً رضي الله تعالىٰ عنه أن الإمام الواحدي رضي الله تعالىٰ عنه كان يحفظ من كتب العلم وقر مائة وعشرين بعيراً.

قال رضي الله تعالىٰ عنه: ومن الغريب أن محمد بن سينا لامه إنسان على عدم حفظه للقرآن، فحفظه كله في ليلة، ولم يكن سبق له قبل ذلك حفظ سورة منه غير الفاتحة، وقل هو الله أحد، والمعوذتين، وكان لا يسمع شيئاً إلا حفظه من أول مرة وكذلك الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه، فكان يقول: ما سمعت شيئاً قط ونسيته بعد ذلك.

وروينا عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه وكرم وجهه، أنه كان يقول: لو شئت لأوقرت لكم ثمانين بعيراً من معنى الباء.

وكان الليث بن سعد الإمام رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه يقول: لو كتبت ما في صدري ما وسعه مركب، انتهى.

فانظر يا أخي إلى علمك مع هذه العلوم التي أوتيها غيرك من العلماء الذين ذكرناهم، والذين لم نذكرهم تجده لا يجيء قطرة من البحر المحيط، وهناك تحكم على نفسك بالجهل.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: من أراد أن يعرف مرتبته في العلم، فليرد كل قول علمه إلى قائله، وينظر في نفسه، فما بقي معه بعد ذلك فهو علمه الذي يبعث عليه يوم القيامة، ويثيبه الله عليه، ويأجره، وما زاد على ذلك فله ثواب حمله لا غير، وسمعته رضي الله تعالىٰ عنه مرة أخرى يقول: لا يبلغ العبد مقام الكمال إلا إن صارت مذاهب المجتهدين نصب عينه.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا يكمل الرجل عندنا في الطريق حتى يقدر على استخراج جميع أحكام القرآن من أي حرف شاء من حروف الهجاء، انتهى.

---

(١) الحِمْل والثقل. القاموس. مادة (وقر).

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: نفرة طبعي ممن يمدحني في المجالس بنظم أو نثر من حيث خوفي من رؤية نفسي لذلك ، فأهلك مع الهالكين ، ثم إني بعد ذلك أشكر الله تعالىٰ الذي أطلق بعض الألسنة بمدحي ، مع أني لا أستحق ذلك ، ثم بعد ذلك أيضاً أفتش نفسي فربما كان حب المدح كامناً فيها فيورثها المدح بعض زهو وعجب ، فيجب على الفقير مراعاة ذلك ، على أن المادح غالباً لا يخلو من مجازفة وكذب ، ومثال من يفرح بما قاله الشعراء كذباً مثال من سمع شخصاً يقول عنه ما رأيت رائحة أطيب من رائحة غائط فلان إذا دخل الخلاء ، فيفرح بذلك مع علمه بنتنه ، فهو إلى السخرية به أقرب.

وكان الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: من مدحك بما ليس فيك فقد يذمك بما ليس فيك أي فكما لم يتورع في المدح فكذلك لا يتورع في الذم ، وأيضاً فإن غالب الحاضرين لمدحك قد يعرفون من عيوبك ما يصدهم عن قبول المدح فيك ، إما ظناً وإما حقيقة.

كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إذا رأيت نفسك على قدم الاستقامة ثم مدحك إنسان فهو تنبيه لك على نقصك ، ففتش نفسك ، وتعرف من الله تبارك وتعالىٰ سبب مدح الناس لك ، فربما علم تعالىٰ من نفسك حب المدح لها على عبادتها مثلاً فأعطاك ذلك ، وجعله هو حظك منه سبحانه وتعالىٰ ، كما يفرح الوالد الطفل بالجلاجل والشخاشيخ ، انتهى.

وكان أخي أفضل الدين رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إذا مدحك إنسان فقل لنفسك: لولا أن الله تبارك وتعالىٰ علم منك عدم الإخلاص وعدم الاكتفاء بعلمه وحده لأخفاك كما أخفى عباده المخلصين ، ولم يبعث لك من يمدحك إذ لا يحتاج إلى الترغيب في الطاعات إلا من كان يعبد الله على حرف.

وأما مدح الله تبارك وتعالىٰ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنما هو ليعلمنا الله تعالىٰ بعلو مقامهم وصدقهم ، لنقبل منهم كل ما جاؤونا به من الهدى من غير توقف لا لترغيبهم في الطاعة ، خوفاً أن يخلوا بها كغيرهم فإن ذلك لا يحتاج إليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لعصمتهم.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يزجر من يمدحه أشد الزجر غيرة لجناب الله عز وجل أن يشركه في صورة المدح أحد ، مع أنه كان مشهده أن جميع الصفات التي يمدح بها إنما هي بالأصالة للحق تبارك وتعالىٰ ، فكان يحب أن يتميز بالنقص المطلق ، وليتميز

الحق جلَّ وعلا بالكمال المطلق ، وإن كان لم يزل متميزاً كذلك وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: ليس في حلٍ من يمدحني في غيبتي أو حضوري فإن مثلي لو نطقت كل ذرة من جميع الكائنات بهجوه لكان ذلك قليلاً ، انتهى.

وهذا المقام أعلى مما ذكره الشيخ تاج الدين بن عطاء الله رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، في حكمه ، بقوله: العارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق ، والعباد إذا مدحوا انقبضوا لشهودهم ذلك من الخلق ، انتهى.

فإن الكامل هو من ينظر بالعينين أو العيون لا بعين واحدة ، فينظر أن ذلك من الحق بأحد العينين فيشكره على ذلك ، وينظر أن ذلك من الخلق بالعين الأخرى فيخاف ويستغفر ، فقد يكون ذلك استدراجاً ، وقد تحققت بهاتين العينين ، ولله الحمد.

وكان أخي سيدي أفضل الدين رضي الله تعالىٰ عنه يقول: من ادعى أنه وصل إلى مقام لا يؤثر فيه مدح الناس له فليمتحن نفسه بما لو ذموه ونقصوه وكفروه ، فإن كان يتأثر من ذلك فهو يحب المدح ، انتهى.

وهذه ميزان تطيش على الذر ، فزجر المادح أو منعه بسياسة أولى ، حتى لا يعود لمثل ذلك.

وكان سيدي عبد القادر الدشطوطي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا ينبغي للعبد أن يفرح بما آتاه الله تعالىٰ من العلوم والمعارف والجاه إلا بعد مجاوزة الصراط وماذا ينفع المدح لمن يسقط يوم القيامة من الصراط في النار ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك بمنه وكرمه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: موافقتي على مدح من يكرهني إذا سمعت أحداً يمدحه أو يذكره بخير ، فأظهر البشاشة وطلاقة الوجه ، حتى لا يكاد يلحق بي أحد أني متفعل بذلك ، وفي ذلك من حسن السياسة ما لا يخفى على عارف ، وفيه أيضاً سد باب الغيبة والنميمة فيَّ ، وفيمن يكرهني ، فربما أني إذا لم أظهر البشاشة لمدح من يكرهني وانقبضت ، فهم الناس عداوتي ، وينفتح للناس باب الغيبة ، ونقل الكلام بالفساد بيننا وبينه ، وتكبر الفتنة ، وتشتد العداوة ، فيحتاج من يخالط الناس في هذا الزمان إلى عقل وافر ، وسياسة عظيمة ، وإلا قال العدو ما شاء من النقائص ، بخلاف ما إذا قالوا له: إن فلاناً ظهر لنا منه الفرح والسرور لما مدحناك عنده ، وتحققنا أنه يحبك ، وجميع ما يبلغك عنه من ضد ذلك إنما هو رمي فتن من الناقل ، وأكثر الناس اليوم لا يكادون يذكرون عن بعضهم ما يؤلف قلوبهم أبداً ، إنما يذكرون ما ينفرهم عن بعضهم ويتفرجون عليهم ، حتى لا يكاد أحد

الشخصين يخالط أخاه ساعة ، بل سمعت بعضهم يقول: اللهم إنَّ أدخلتني الجنة فلا تجعلني جاراً لفلان.

وقد رأيت شخصين من المدرسين ، بينهما وقفة فجمعتهما دعوة لعرس ، فأول ما دخل أحدهما ورأى عدوه هناك شرع في الرجوع ، وشرع الجالس في الخروج فعجز الناس أن يجلسوا أحدهما مع جلوس الآخر فلم يقدروا فخرج الجالس ، ودخل الخارج ، فتكدر الوقت على جميع العلماء الحاضرين ، وعلى كل من كان حاضراً وصار الناس يقولون: إذا كان هذا فعل العلماء في بعضهم فما بقينا نعتب على الظلمة والعوام ، وحصل لصاحب الوليمة كذلك غاية التكدر ، وإذا كان العلم لا يهذب حامله فكيف يتهذب به غيره ، انتهى.

فينبغي لمن حضر وليمة وكان هناك من يتأذى بمجالسته أن لا يدخل ، لئلا يقع له كما وقع لمن قدمنا ذكرهما من التعزيز ، أو يتصبر حتى ينفض الناس ، وأنه إذا لم يوافق على سماع مدح عدوه فأقل أحواله السكوت.

وقد حضرت مع أخي سيدي أفضل الدين رضي الله تعالىٰ عنه وليمة ، وهناك شخص من أشد المنكرين عليه ، فقام المادح يمدح ذلك المنكر ، فخلع أخي سيدي أفضل الدين رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه عليه جبته ونقطه بالفضة ، فزال إنكار ذلك الشخص على يدي سيدي أفضل الدين ، وقام وقبل رأسه ، وكأن الكراهة التي كانت عنده لم تكن ، وهذا من حسن السياسة ، وسمعته رضي الله تعالىٰ عنه مرة يقول: ينبغي للفقير إذا كان في مجلس ، وهناك من يحط عليه أو يكرهه أن يذكره بخير للحاضرين من ورائه ، فإنه أقوى في تخفيف العداوة من مدحه في وجهه ، وأكمل في رياضة النفس وكذلك ينبغي له أن يقوم له إذا قام بقصد إزالة المانع بينه وبينه ، ويؤجر على ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

وهذا خلق لا يشم رائحته إلا من سلك على يد الأشياخ حتى فطموه عن جميع الرعونات البشرية أو من جذبه الحق تبارك وتعالىٰ إلى حضرته بغير واسطة أحد من الأشياخ ، فلم يلتفت إلى مراعاة أحد من الخلق إلا عن إذن الله تبارك وتعالىٰ ، وإلا فمن لازمه غالباً مراعاتهم رياء ونفاقاً فيعاملونه كذلك رياء ونفاقاً ، ولا يحصل بذلك تخفيف عداوة.

وقد دخلت بحمد الله تعالىٰ إلى مقام صرت أكرم فيه جميع المسلمين وأجلهم وأعظمهم من حيث كونهم عبيد الله عز وجل ، لا لعلة أخرى ، وصرت أسعى في التأليف بينهم بكل ما يمكنني ، وربما أتاني النمام بكلام قبيح عن بعض أعدائه ، فأقلبه بكلام حسن وأبلغه له فيتعجب ، ويقول: أنت صادق فيما تقول ، ولكني أعرف منه سابقاً خلاف هذا ، ولكن القدرة صالحة

ومما وقع لي أن شخصاً من الحسدة صار يذكرني بالسوء في المجالس ، فصار الناس

يقولون لي: إن فلاناً يقول في عرضك كذا وكذا ، فأقول لهم: أنا عاهدت الله تعالىٰ أن لا أقبل نميمة من أحد ، وقد فارقته على صفاء وصلح ، ولم أجتمع به بعد ذلك ، فلا أصدق فيه قولاً إلا إن سمعته منه بأذني ، فانقطع الناس عن نقل الكلام إليَّ عنه ،وأنا أعلم أني لو صدقتهم وقابلته بالسوء لنقلوا إليه كذلك ما يسمعونه مني ، فإن من نم لك نم عليك ، ومن نقل إليك نقل عنك ، ولهذا الخلق حلاوة يجدها الإنسان في نفسه أشد من حلاوة العسل ، فافهم يا أخي ذلك ترشد ، واعمل على التخلق به والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم المبادرة إلى الإنكار على من رأيته يسعى على وظائف إخوانه في هذا الزمان ، بل أتربص وأنظر في أمره ، فربما كانت تلك الوظيفة تحت يد من لا يستحقها شرعاً ، لفقد شروط الواقف أو غير ذلك ، ثم إذا تبين لنا بعد ذلك أنه أخذها من أخيه بغير حق ، كأن لبس على الناظر حتى جونه في تقريره فعند ذلك ننكر عليه أشد الإنكار ، وأحسن ما يقول الواحد منا إذا رأى طالب علم يسعى على وظيفة أخيه ، أو سمع عالماً ينكر على عالم شيئاً لم تصرح الشريعة بحكمه: اعلم يا أخي أن فلاناً أعلم مني ، وربما يكون أعلم منك بالشريعة ، فلولا أن له شبهة حق في مثل ذلك لما فعله ، على أن هؤلاء المنكرين لا ينكرون على ذلك الذي سعى غالباً إلا من ورائه ، ولا أحد يبلغه في الغالب ، وذلك معدود من الغيبة لا من النصيحة ، فليتنبه الإنسان لمثل ذلك.

وقد بلغ سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه أن شخصاً يسعى على وظائف الناس ، ثم ينزل عنها لقوم آخرين بفلوس ، فأرسل وراءه وزجره أشد الزجر ، وخوفه من سوء الخاتمة بمقتضى الإيذاء وحب الدنيا ، وتحول عنه بالقلب ، فتاب إلى الله تبارك وتعالىٰ ، ورجع.

وبالجملة فكل من ذاق ضيق العيش في الدنيا أقام لمن يسعى فيها الأعذار ، وصار لا ينكر على الناس إلا ما خالف صريح السنة المحمدية ، أو كلام أئمتها رضي الله تعالىٰ عنهم ، وقد كان طلبة العلم في الزمان الماضي لهم صدقات وخيرات وهدايات تأتيهم من التجار والأكابر بغير سؤال ، ويقولون لأحدهم اشتغل بالعلم ، ونحن نكفيك ما تحتاج إليه من كسوة ونفقة.

وكان كل غني أو أمير يفتقد كل ليلة جميع من في حارته من الفقهاء والفقراء بالطعام مهياً مطبوخاً ، فصار الأكابر اليوم لا يرى أحد منهم حسنة من حسنات الدنيا ،وقد قررنا لإخواننا مراراً أن سعي الفقير وطالب العلم على نفسه في هذا الزمان ليلاً ونهاراً لا يقدح في مقامه ، لأن جميع ما يحصله بالجري والتعب قد لا يكفي عياله ، فسعيه على ما يستره ، ولو سماه الناس دنيوياً أفضل من تركه التكسب ، ولو سماه الناس صالحاً وقد يكون الساعي فقيراً ليس له ما يقوم بأوده ، والمسعي عليه غنياً لا يحتاج لتلك الوظيفة ،ولا يقوم بها ، فأراد الساعي سترة حاله وعياله وأكله بتعاطي تلك الوظيفة على الوجه الشرعي ، وحمايته من أكله

الحرام بأخذه المعلوم ، وتركه المباشرة ، فهذا من الساعي مقصد حسن لا ينبغي الاعتراض عليه فيه.

فإيَّاك يا أخي أن تنكر على طالب علم بسعي على قوته ،وتقول: ما بقي عند أحد من الناس قناعة بل تربص وتأمل ، فربما كان ذلك السعي واجباً عليه ،والواجب لا يجوز لأحد الإنكار على فاعله.

وقد بلغنا أن الشيخ أبا عبد الله القرشي المصري رضي الله تعالىٰ عنه ، مر بأصحابه على صبي يقرط فريكاً من الغيط ، فقال للصبي: هذا حرام عليك يا ولدي ، فقال: لأي شيء يا عم ، والله إنه لزرع أبي وحده ، وقد أرسلني أقرط منه شيئاً نعمله فطيراً لإخوتي ، فخجل الشيخ أبو عبد الله بين أصحابه ومن ذلك اليوم ما بادر بالإنكار على أحد إلا بعد علم ، وكان أبو عبد الله هذا من أكابر العارفين ، وهو تلميذ الشيخ أبي الربيع المالقي رضي الله تعالىٰ عنه ، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: قلت يوماً في دعائي اللهم لا تفضحني بسريرتي على رؤوس الخلائق ، فقال له الشيخ أبو الربيع رضي الله تعالىٰ عنه: ولأي شيء تجعل لك سريرة تفتضح بها ؟ هل نظفت نفسك من سائر الأدناس ؟ انتهى. رضي الله تعالىٰ عنهما ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: حسن سياستي للأمير الذي خدمه أحد من أصحابنا ، وصار صاحبي يأكل من طعامه الذي غالبه بلص ،وجرائم ، وذلك بأني أقول له مشافهة أو في كتاب أرسله له ، وبعد: فإني أوصيك يا أخي أن تأكل من طعام الأمير الذي اختاره لنفسه ، ولا تأكل من طعام أحد من البلاصية الذين حوله إلا الدينين منهم ، فإني أعتقد من الأمير التحرز من أكل الشبهات ، ومقتضى دينه أنه لا يأكل إلا ما ظهر له حلُّه ، فإن مثل هذا الكلام حق ، فإذا سمعه صاحبنا أخذ له منه معنى ، أو سمعه الأمير يأخذ له منه معنى ، أو سمعه المباشرون أخذوا لهم منه معنى من غير أن نسمي أحداً منهم بلاصاً ، أو أنه يأكل حراماً ، لا سيما إن كنا نشفع في المظلومين عند ذلك الأمير ، فإنه ربما نفرت نفسه من قولنا لصاحبنا لا تأكل من طعامه ، فيصير يخالفنا في الشفاعات ، فيتعب سرنا في تحويل قلبه إلى ما تطلب منه اللهم أنت تعلم احتمال ذلك الأمير لزجرنا ، وقبوله نصحنا ، فلا بأس إذن بالإفصاح عن المقصود.

وقد كتبت مثل ذلك للأخ الصالح بن الصالح سيدي أبي المجد ابن الشيخ أحمد المغربي الزفتاوي نفعنا الله تعالىٰ ببركاته ، حين عمل إماماً وفقيهاً عند حمزة الكاشف بالغربية ، فأرسلت له: إيَّاك ثم إيَّاك ، والأكل من طعامه أو موافقته على هواه المذموم.

وكتبت للكاشف: أوصيك بأن لا تقبل كل ما أتاك به جماعتك ، وإيَّاك أن تغفل عما يفعلونه مع الرعية ،خوفاً من حرقك بالنار.

وهذا دأبي دائماً في سياسة الولاة ، إذا علمت أن أحداً منهم ظلم إنساناً لا أجعل ذلك الظلم على علمه أبداً ، لئلا يصير يخاصم عن نفسه ، وإنما أقول: بلغنا أن جماعتك ظلموا فلاناً من غير علمك ،والمسؤول النظر في هذه القضية ، ولا تكل أمرها لأحد غيرك ، وأجر الأخ على الله تبارك وتعالىٰ. وكثيراً ما أقول: السلام على الأخ العزيز العبد الصالح فلان ،وأقصد بذلك صلاحه لإحدى الدارين الجنة أو النار فربما ينكر علي بعض الجهلة ، ويقول لي: كيف تصف شيخ العرب الفلاني أو الكاشف الفلاني بالصلاح وهو يظلم الناس ، وذلك كذب وليس ذلك بكذب على هذا القصد ، وهو أيضاً أخ في الله عز وجل ، وعزيز على من يحبه ، وكثيراً ما أقول للظالم: أسأل الله تبارك وتعالىٰ أن يدخلك الجنة بغير حساب ، وأضمر في ذلك أنه يتوب عليه ويرضي عنه خصماءه يوم القيامة من فضله ، ثم يدخله الجنة بغير حساب وكذلك أقول في حق النصارى واليهود من الظلمة لو وقع منا الدعاء لهم بدخول الجنة لا بد أن نضمر الدعاء بوقوع إسلامهم قبل أن يموتوا ، وإلا فنحن نعلم قطعاً أن الجنة محرمة على الكفار ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم بغضي أو عداوتي أو إيذائي لأحد ممن يحضر المواكب الإلهية كقوّام الليل ، والمؤذنين ، والذاكرين الله كثيراً والميقاتي فربما حفت بهؤلاء العناية الربانية ، فغفر الله تبارك وتعالىٰ لهم ما جنوه من السيئات في الماضي والمستقبل ، وصاروا محبوبين للحق تبارك وتعالىٰ ، فكيف نكره أو نعادي أو نؤذي من يحبه الحق تبارك وتعالىٰ.

وهذا الخلق وإن كان فعله واجباً كذلك مع غير من يحضر المواكب الإلهية ، لكنه في حقهم آكد ، كما قالوا: يستحب للصائم أن يكف لسانه عن الغيبة في رمضان ، مع أن ذلك واجب عليه في غير رمضان أيضاً ، فافهم.

وقد تقدم في هذه المنن أني سامحت جميع من آذاني من المسلمين إكراماً لله تبارك وتعالىٰ ، ثم لرسوله ﷺ ، فدخل في ذلك المؤذنون وقوّام الليل ، وإنما نبهنا عليهم هنا زيادة تأكيد لئلا يغفل الإخوان عن مثل ذلك ، فيعادوا أحداً منهم بغير حق وينتحل له عذراً لا يقبل عند الله تبارك وتعالىٰ وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يكرم المؤذنين والذاكرين لله تبارك وتعالىٰ غاية الإكرام ، ويقول: إن هؤلاء من خدام الله عز وجل ، وربما أقبل الحق تبارك وتعالىٰ عليهم في الأسحار بالرضا ، وجعل دعاءهم مقبولاً في حق كل من دعوا عليه ، وربما كان الذي آذاهم وعاداهم في ذلك الوقت نائماً على جنابة وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إذا تشوش منكم أحد من المؤذنين فصالحوه فوراً ، وقبلوا نعله ، لئلا يدعو عليكم دعوة في الأسحار ، فتنفذ فيكم إلى سابع ولد ، وسمعته رضي الله تعالىٰ عنه مرة أخرى يقول.

إيَّاكم أن تعادوا أحداً من خدام المساجد من مؤذن وبوَّاب وفرَّاش وإمام وغيرهم ، لأنهم أهل حضرة الله عز وجل ، وحضرة الله تبارك وتعالىٰ محرم دخولها على الذي عنده شحناء من أخيه بغير حق واضح كالشمس ، فمن كان من أهل حضرة الله تبارك وتعالىٰ عرف ما قلناه ، وأومأنا إليه ، ومن لم يكن من أهلها فهو كالبهائم السارحة فلا كلام لنا معه حتى يخرج من صفات البهائم.

وقد تكدَّرت مرة من مؤذن فقمت في الليل للتهجد فلم أجد قلبي معي ، ولا قدرت على إحضاره ، فألهمني الله تبارك وتعالىٰ السبب ، فطلعت له المنارة في الليل وصالحته ، فرد الله تعالىٰ علي قلبي ،ودخلت الحضرة ، وقد كنت عالجت قلبي قبل أن أطلع له حتى ذاب فلم أقدر على حضوره ، بل صار كلما يلوح لي بارقة من حضوره تذهب لوقتها ، وتتفلت من الإقبال على الحضرة.

وهذا أمر لم أر له فاعلاً في عصري من أقراني إلا القليل ، وذلك لعدم دخولهم الحضرة فلو دخلوها لعرفوا أهلها ، وعرفوا المقدم عند الملك فاحترموه ، حتى لو أرادوا أن يؤذوه بعد ذلك لا يقدرون ، بل يكرمونه تعظيماً للملك ، كما هو الحكم في جماعة ملوك الدنيا.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لو أن الناس علموا ولاية أحد من الفقراء ما آذوه قط ، وإنما يعتقدون فيمن يؤذونه أنه زوكاري نصاب مراء شيطان انتهى ، وفي هذا الكلام ما يشبه رائحة العذر لهم.

وقد دخل مرة شخص مجهول من جماعة الباشا علي الوزير بمصر على بعض المشايخ ، فكلمه الشيخ بغلظة وأنا حاضر ، فقال له: أما تعرفني ، أنا فلان قبجي الباشا علي ، فقام له الشيخ وأكرمه وصار يعتذر إليه كأنه وقع في ذنب عظيم ، ولو أن إنساناً قال له: أنا من أمة رسول الله ﷺ لما أكرمه ذلك الإكرام ، فتعجب من ذلك الشيخ كل العجب ، فالله يغفر لنا وله آمين ، فإيَّاك يا أخي أن تعادي أحداً ممن ذكرنا إكراماً لله تبارك وتعالىٰ ، فاعلم ذلك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: أدبي مع قضاة هذا الزمان كباراً وصغاراً ولا أقول ببطلان أحكامهم في العقود والوثائق ، كما يقع فيه بعضهم ، بل أرى عقودهم وأنكحتهم صحيحة أدباً مع أئمة الدين القائلين بصحتها ، وأدباً مع السلطان الذي ولى أولئك الحكام ، ولعلمي بأنه أتم نظراً مني ومن أمثالي ، بل ربما كان أتم نظراً من جميع رعيته ، وصاحب هذا المشهد لا ينكر على إمامه في تولية أحد أو عزله ولا يذمه أبداً من ورائه كما يفعله بعضهم.

وقد قال العلماء رضي الله تعالىٰ عنهم: لو ولى السلطان قاضياً فاسقاً نفذ قضاؤه للضرورة ، وقالوا أيضاً من غلبت طاعاته على معاصيه فهو عدل.

واعتقادنا بحمد الله تبارك وتعالىٰ في جميع من نعرفهم من قضاة مصر وشهودهم أن طاعاتهم غلبت على معاصيهم ، وبلغنا عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه أنه كان يقول: كل مسلم عدل ، وإن كان المتأخرون من أصحابه قد قيدوه ببعض شروط ويكفي المتعنت في القضاة والشهود الاقتداء بهذا الإمام الأعظم رضي الله تعالىٰ عنه ولم أزل بحمد الله تبارك وتعالىٰ على هذا الخلق من حين كنت شاباً خلاف ما أشاعه عني بعض الحسدة من أني أقول ببطلان أحكامهم ، لفسقهم بقبض فلوس القانون وذلك باطل عني ، وما رأيت قط أحداً منهم وهو يأخذ رشوة لكوني لم أقف على قاضي قط إلى وقتي هذا ، وإن كان ذلك يقع من بعضهم فلا يجوز لي تعميم الحكم ، فالله تعالىٰ يغفر لهذا الحاسد ما جناه آمين ، بل من جملة ما وقع لي أنني اطلعت على شخص عقد عقد ابنته على يد قاض ، ثم أنه جاءنا يعقد العقد ثانياً بحضرة الفقراء ، فأنكرت عليه غاية الإنكار ، وقلت له: القاضي أعلى مرتبة في العدالة من أمثالنا لعدم ثبوت عدالتنا على يد حاكم ، وقلت له: إن كنت تعتقد بطلان أحكامهم فكيف يسوغ لك أن تدعي بالحقوق التي تثبت لك على الناس بشهادتهم وأحكامهم وتقاريرهم ، كالبراءات والحجج ، فاستغفر وتاب ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: موالاتي لمن والى شيخي ، أو الإمام الأعظم ومعاداتي لمن عاداهما بغير طريق شرعي ، ولو لم يعلما بذلك قياماً بواجب حقهما وإن وقع أنني أظهرت المحبة لعدوهما فإنما ذلك بنية صالحة كنحو أن يميل إليّ بالمحبة حتى أعلمه الأدب في حقهما ، لا خيانة لهما.

وكان على هذا القدم الإمام الأعظم أبو حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه ، وسعيد بن جبير وأضرابهما ، رضي الله تعالىٰ عنهم ، ومن وقائع الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه أن الخليفة لما منعه الفتيا سألته ابنته في الليل عن الدم الخارج من لحم الأسنان ، هل ينقض الوضوء ، فلم يجبها ، وقال سلي عن ذلك حماداً ، فإن إمامي منعني الفتيا ، ولم أكن أخنه بالغيب.

ومن وقائع سعيد بن جبير رضي الله تعالىٰ عنه ، أن الحجاج لما حبسه وصار أولاده يبكون عليه ، قال له السجان: اذهب فنم عند أولادك وأنا أكتم ذلك ، فقال: معاذ الله أن أخالف ولي أمري ، فقال له السجان: إن الحجاج ظالم ولا يلزمك طاعته ، فلم يصغ إليه ، وقال إن الحجاج لو علم ذلك منك لآذاك ، ولم أكن ممن يجر إلى أخيه الأذى.

ولم أر لهذا الخلق فاعلاً في عصري من أقراني إلا النادر ، وتقدم هذا الخلق في هذه المنن بأبسط مما هنا ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: أدبي مع طلبة العلم من المالكية أكثر من غيرهم ، من حيث إن الإمام مالكاً رضي الله تعالىٰ عنه له مشيخة على إمامي رضي الله تعالىٰ عنهما ، فكما كان إمامنا يتأدب مع شيخه وأتباعه كأشهب ، وابن القاسم ، كذلك ينبغي لمقلدي مذهبه أن يتأدبوا مع أتباعه.

وقد نقل عن الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالىٰ عنه ، أنه بحث مع بعض المالكية ، فأغلظ عليه المالكي فقيل للنووي في ذلك ، فقال: إن إمامه شيخ إمامي فالأدب معه كالأدب مع إمامه ، انتهى.

ولم أر لهذا الخلق فاعلاً في مصر من أقراني إلا القليل فافهم يا أخي ذلك واعمل على التخلق به والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: حمايتي من الأكل من طعام المتهورين في مكاسبهم ، سواء دعوني إليه في بيوتهم، أو أرسلوه إلى بيتي، ثم بتقدير أنني أسهو وآكل منه فتلعب نفسي منه واتقيأه في الوقت قبل أن تتشربه العروق وقد قدمنا في هذه المنن أن من علامة المتهورين في مكاسبهم أن ينوعوا الأطعمة في بيوتهم في هذا الزمان، فإنهم لو تورعوا فيما يدخل يدهم ربما لم يجدوا شيئاً من ذلك الذي نوعوه بل لم يقدروا على الخبز الحاف ، ومن المتهورين في المكسب بعض التجار والزياتين ونحوهم ممن يبيع على الظلمة والمكاسين وأكلة الرشا ، ويأخذ ثمن بضاعته من أموالهم ، فإنه لا فرق في الحرام والشبهة في مذهب المتورعين بين أن يأخذوه بواسطة أو بلا واسطة.

وما نقل عن بعض علماء الحنفية رضي الله تعالىٰ عنه: من أن الحرام لا يتعدى ذمتين، سألت عنه الشيخ شهاب بن الشلبي الحنفي ، شيخ الإسلام بمملكة مصر رضي الله تعالىٰ عنه ، فقال: هذا محمول على من لم يعلم بذلك ، أما من رأى المكاس مثلاً يأخذ من أحد شيئاً من المكس، ثم يعطيه لآخر ثم أخذه ذلك الآخر فهو حرام فافهم.

وبلغنا عن الحسن البصري رضي الله تعالىٰ عنه أنه زار عمر بن عبد العزيز أيام خلافته ، فأخرج له عمر كسرة يابسة ونصف خيارة ، وقال له: كل يا حسن فإن هذا زمان لا يحتمل فيه الحلال الصرف ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم أكلي من طعام من يعتقد فيَّ الصلاح ولولا ذلك لما أطعمني ، لأنه لا يخلو حالي من أمرين: إما أن أكون صالحاً في نفس الأمر من حيث لا أشعر ، أو غير صالح ، فإن كنت صالحاً فقد أكلت بديني طعاماً وإن كنت غير صالح فقد

أكلت حراماً في الشرع ، لأنه لو اطلع على ما أقع فيه من المخالفات ليلاً ونهاراً لم يعتقدني أبداً ، بل ربما بصق على وجهي ولم يجالسني.

وقد كان أخي سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: إني أحب أن آكل طعام من يحبني إذا كان حلالاً ، دون طعام من يعتقدني ، فقلت له: ما الفرق بينهما ؟ فقال: لأن المحب لا يتزلزل عن محبتي إذا وقعت في زلة ، بل يحبني محبة الوالدة لولدها فهي تسمح بالإحسان إليه سواء اتصف بالصلاح أو لم يتصف ، وأما المعتقد فإنما يحبني ما دام الصلاح قائماً ، وأنا لا أقدر على المداومة على الاستقامة اهـ.

وهذا الأمر قل من يتنبه له من الإخوان ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم أكلي من طعام من يأكل بدينه من فقراء هذا الزمان ، ويجرد الناس ويسلقهم إذا لم يبروه بألسنة حداد ، لا سيما إذا عمل مولداً كبيراً فإنه لا يكاد يحلل فيه ولا يحرم ، أي: لا يحلل الحلال ويعتني به ، ولا يحرم الحرام ويجتنبه ، فالورع ترك الأكل من طعام هؤلاء ، لأنه لولا اعتقاد الناس فيهم الصلاح لم يعطوهم شيئاً ، ومعلوم أن من يأكل الدنيا بدينه أقبح ممن يأكلها بدنياه.

وقد كان الفضيل بن عياض رضي الله تعالىٰ عنه يسقي على جمل بمكة ، فيحمل الماء من العين إلى دور الناس ويتقوت هو وعياله من ثمن ذلك ، فقيل له: إن فلاناً ترك الحرفة فلم يضيعه الله تبارك وتعالىٰ ، وأقبل على عبادة ربه ، فقال الفضيل رضي الله تعالىٰ عنه: هذا رجل ربما يأكل بدينه خبزاً وإداماً ، ثم قال رضي الله تعالىٰ عنه: والله لأن آكل الدنيا بالطبل والمزمار أحب إليَّ من أن آكلها بديني انتهى.

وقد سأل شخص من الأمراء أن يعمل مولداً لسيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ، فأبى الشيخ رضي الله تعالىٰ عنه وقال: والله إن كسبي من هذا الخوص لا يعجبني الأكل منه ، فكيف آكل من كسب الأمراء ، أو أدعو الناس إلى الأكل منه انتهى.

وهذا الأمر قل من يتنبه له من فقراء هذا الزمان ، بل رأيت منهم من يسافر البلاد فيجمع آلات طعامه في ذلك المولد من أموال الولاة والظلمة ، ثم يدعو الناس إليه فيلطخ بواطن الناس بالحرام والشبهات ، وربما قال بعض الناس: قد حصل لنا الليلة خير لأنا أكلنا حلالاً من طعام سيدي الشيخ ، ولا يفتشون على ذلك الطعام من أين جاء به الشيخ.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ لا يجيب قط فقيراً دعاه إلى طعامه إلا إن علم أن له كسباً شرعياً من تجارة أو زراعة أو صنعة ، بل قد رأيته مرة أمر فقيراً بالقيء لما أكل

من طعام متمشيخ عمل مولداً ولا حرفة له ، وقال رضي الله تعالىٰ عنه: كيف تأكل من طعام شخص يأكل بدينه.

وقد أخبرني شخص من جماعة الباشا علي الوزير ، فقال: قد سئمت نفوسنا من كثرة سؤال هؤلاء المشايخ الذين يعملون لهم موالد ، فلم يتركوا عندنا عسلاً ولا أرزاً ولا عدساً ولا بسلة ، وإيش قام على هؤلاء أن يشحذوا ويعملوا لهم مولداً ، انتهى.

فأخذت لي من ذلك مشروباً ، ومن أراد من المشايخ المتجردين عن الكسب بالحرف والصنائع أن يعرف كونه يأكل بدينه أم لا ، فليقدر نفسه متجرداً من جميع صفات الصالحين التي تظاهر بها ، واعتقده الناس ، وقبلوا يده ورجله لأجلها ، وينظر بعد ذلك حاله ، فكل من أطعمه أو عمل له مولداً فليأكل من طعامه بشرط الحل في ذلك ، فإن مثل هذا لم يطعمه لأجل دينه ، وأظن أنه إذا تجرد من صفات الصالحين لا يصير أحد يحسن إليه ، ولا يعمل له مولداً قط ، كما لا يعمل مثل ذلك لمن لم يظهر صلاحه.

وقد كان أخي سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: لا أحب أن آكل لأحد طعاماً إلا إن كان الطعام حلالاً ، وكان الشخص بحيث لو رآني أشرب الخمر لم يتغير اعتقاده فيَّ الصلاح ، انتهى. فقلت له هذا باب للامتناع من أكل طعام جميع الناس أو غالبهم ، فقال: مالي ولهم.

ومما وقع أن الأمير يوسف بن أصبع اعتقد شيخاً من مشايخ الريف ، وصار يقبل يده ورجله ويعمل له مولداً كل قليل ، ويدعو الناس إلى مولده ، ويتشوش ممن لم يحضر ثم بعد ذلك مد الشيخ وضربه علقة وحلق شعره ، وقال: كنت أظن أنه صالح فظهر لي أنه ليس بشيخ ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تعالىٰ يتولى هداك فالحمد لله الذي جعلني أكره طعام المعتقدين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: حمايتي من الأكل من طعام النذور ، والأعراس الواسعة ، وطعام العزاء ، والجمع ، وتمام الشهر ، فلا أستحضر أنني أكلت شيئاً من ذلك إلا مرة واحدة ثم تقيأته ، وإيضاح كون ذلك لا يليق بأهل الطريق: أنه لا يسلم من الشبهة غالباً ، وأن طعام النذر لا يعمله صاحب إلا بمعصار إلزامه نفسه به إن شفى الله مريضه مثلاً ، كما أشار إليه خبر: «أن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره وإنما يستخرج به من البخيل ما لم يكن يخرجه»[1] أو كما ورد.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأيمان والنذور ، باب الوفاء بالنذر (٦٦٩٢) ، ومسلم ، كتاب النذر ، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً (١٦٣٩).

ومعلوم أن طعام البخيل داء كما صحت به الأحاديث ، لا سيما إن عملته امرأة من كسبها ، فإن الأكل منه ينافي شهامة الرجل ، لا سيما سيدي الشيخ الحاضر بجماعته ليأكل ويلحس الصحون ، حتى لا يخلي فيها لمن بعده شيئاً.

وقد نقلت وصايا الأشياخ رضي الله تعالىٰ عنهم بالنهي عن الأكل من كسب النساء في سائر الأقطار ، ليرفعوا همة المريد عن مثل ذلك ، وإذا كانوا يمنعونهم من الأكل من كسب غيرهم من الرجال فكيف بالنساء ، وقالوا: من رضي لنفسه بالأكل من كسب امرأة فارفضوا أمره ، فإنه لا يجيء منه شيء في الطريق ، وأما ما ورد من أن رسول الله ﷺ كان يذهب بأصحابه كل يوم جمعة إلى دار امرأة يأكلون عندها سلقاً تطبخه لهم ، فهو لا يدخل في هذا الميزان ، لأن كل ما في الدنيا ملك له بالأصالة وجميع الخلق يأكلون من رزقه ﷺ ، وأيضاً فإنه معصوم من تناول ما يحصل به نقص شيء من كماله ﷺ ، فافهم.

وأما أطعمة العرس الواسعة ، فإن الغالب على صاحبه التكلف فيه ، فيطبخ ما ليس من عادته أن يطبخه مما هو فوق طاقته ، وقد نهانا الشارع ﷺ عن الأكل من طعام المتكلفين والمتباهين والمتفاخرين ، فترى أبا العريس ، أو أم العروسة ، أو أم العريس ، يبيع أحدهم ثيابه في عمل الطعام ، أو يقترض غالب ذلك ولو بالربا ويقول: قد تجونت في عمل هذا العرس ، وما بقي إلا عمله ، فيعمل ذلك الطعام متكرهاً له متفاخراً به ، حتى أنه بعد ذلك ربما سمع بعض الناس يقول: كان طعام فلان أكثر من طعام فلان ، فيتأثر لذلك.

وأما طعام العزاء والجمع وتمام الشهر ، فربما دخله المفاخرة كذلك ، وربما عملوا ما عملوا من الفطير والعجمية والسنبوسك والحلو والأرز متكلفين له ، خوفاً من عتب الناس الذين يعزون ويطلعون له التربة ، وربما كان ذلك من مال الأيتام أو بعضهم ، ولا يتصور منهم إذن ، وليس لوليهم فعل مثل ذلك شرعاً ، فالعاقل من فتش على كل لقمة دخلت بطنه قبل أن يضعها في فمه.

وكذلك لا ينبغي لمتورع أن يشرب من الماء الذي يسبلونه عند الدفن إن كان أهل الميت يقيمون ذلك من التركة ، اللهم إلا أن يكونوا بالغين رشداء ، فلا حرج في ذلك ، ولا في طعام العزاء والجمع وتمام الشهر بطريقه الشرعي ، وقد حمى الله تبارك وتعالىٰ بعض إخواننا من الأكل من طعام العزاء ، فالله تعالىٰ يديم عليهم ذلك.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا يليق بمن له مروءة أن يجلس يأكل من طعام العزاء من الجبن المقلي والفطير وغير ذلك ، وأم الميت وأبوه وأخواته كأنهم غمسوا في نار من فوقهم إلى قدمهم من شدة الحزن ، والداهية العظمى خناق المقرئين على الفلوس ، وانتهاب بعض الطعام ، وأهل الميت يسمعون ذلك وذلك دليل على خلو

باطنهم من مشاركة أهل الميت في الحزن ، ولا يخفى ما في ذلك ، فقد قال رسول الله ﷺ : «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له جميع الجسد بالحمى والسهر**»(١) انتهى.

فإيَّاك يا أخي والأكل مما ذكرناه ثم إيَّاك ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: حمايتي من الأكل من طعام الصنائعي الذي يعمل بالقوت ، لا سيما إن كان قد طعن في السن إلا إن كافأته على ذلك بإعطائه ثمنه ، أو بتوجهي إلى الله تبارك وتعالىٰ أن ينزل له البركة الخفية في رزقه بقية عمره ، وأرى أثر الإجابة لدعائي ، وسبب التورع عن مثل ذلك كون الصنائعي يقاسي شدة في كسبه طول يومه ، حتى يعاين ما يقارب أسباب الموت ، فلا ينبغي لمن له مروءة أن يأكل من مثل ذلك ، لا سيما إن كلفته امرأته لعمل أسبوع أو مولد أو نحو ذلك ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: حمايتي من الأكل من طعام من علمت أن عليه ديناً حالاً ، وهو يماطل صاحبه مع القدرة على وفائه ، والعلة في ذلك كون الواجب عليه أن يصرف ثمن ذلك الطعام في الدين ، ففي أكلنا منه شبهة ، لكون الحق فيه لغيرنا دوننا ، وكذلك لا نأكل من طعام شخص عليه دين وهو عاجز عن وفائه ، بل هو أشد من أكل طعام القادر لما فيه من الإجحاف به ، ولو أنه دعانا بطيب نفس فلا نجيبه لأنه جاهل بما قلناه ، لأنه كالطفل في حجر وليه أو وصيه أو قيمه ، لا يجيبه إلى كل ما تهواه نفسه ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: حمايتي من الأكل من هدية علمت بالقرائن أن لها عند صاحبها قدراً عظيماً ، كأن أرسلها مع غلامه ، وقال له: لا تسلمها إلا إلى عبد الوهاب في يده ، أو جعل على وعائها قفلاً أو خيطه ، أو علمت أنه في كل قليل يصير يتذكرها ولو في نفسه ، وذلك من علامة أن نفسه تتبعها بعد أن أرسلها ، ففيها ضرب من التكلف وقد نهينا عن الأكل من طعام المتكلفين ، وكذلك من علامة كبر مقدار الهدية عنده كونه ينص على أني آكلها ولا أعطيها لغيري ، فإنه تحجير عليَّ ، وذلك من علامة أن نفسه تبعتها أيضاً ، فإن من أعطى لغيره شيئاً خالصاً فما له وللتحجير عليه وكذلك إذا جلست مع أحد على سماطه وصار

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم (٦٠١١) ، ومسلم، كتاب البر والصلة ، باب تراحم المؤمنين (٢٥٨٦).

يحلفني أنني آكل ذلك الورك من الدجاجة مثلاً ، وكلما أبعده عني يقربه مني ، فإنني أزداد فيه نفرة فلا آكله ، لأنه لولا عظمته عنده ما اعتنى به ذلك الاعتناء .

وهذا الخلق واللذان قبله لم أر لها فاعلاً في مصر غيري ، فافهم يا أخي ذلك واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: كراهتي للأكل وحدي ، كما أكره الصلاة فرادى من غير عذر ، ويضيق صدري من الأكل وحدي ، كما يضيق إذا صليت وحدي بجامع أن الشارع ﷺ أمرنا بالأكل مع الجماعة ، كما أمرنا بالصلاة معهم .

وفي ذلك فوائد ، منها: ائتلاف القلوب ، ومنها: كثرة البركة في الرزق والمدد ومنها: امتثال أمر الشارع ﷺ ، وإيضاح ذلك أن الله تبارك وتعالىٰ أمرنا بإقامة الدين وعدم التفرق فيه ، ولا يستقيم ذلك إلا بائتلاف القلوب ، ولا تتألف القلوب غالباً إلا بالاجتماع على الطعام ، والإحسان إلى بعضهم بعضاً ، ولعل بعض الناس يرتبط قلبه معك إذا أطعمته أكثر من ارتباطه معك إذا صليت معه جماعة ، وأكسبته الأجر .

فعلم أن كل من أكل وحده ، ومنع رفده ، وأراد من غالب الناس نصرته ولو على الدين ، فقد أتى البيوت من غير أبوابها ، وربما خذلوه ولم ينصروه عناداً لكثرة بغضهم له ، إذ البخيل مبغوض ولو كان كثير العبادة ، والسخي محبوب ولو كان فاسقاً ، كما هو مشاهد .

وهذا الخلق قد أعطانيه الله تبارك وتعالىٰ من حين كنت صغيراً ، فكل ليلة لا أجد من يأكل فيها معي لا أتهنأ بالطعام فيها ، ولا أستلذ به ، وكلما كثرت الأيدي وأكلوا أطايب الطعام كلما أفرح ، عكس البخيل .

وكان على هذا القدم سيدي محمد بن داود رضي الله تعالىٰ عنه ، والشيخ عبد الحليم ببلاد المنزلة رضي الله تعالىٰ عنه ، فربما عمل أحدهم الدجاجة ففرقها على نحو سبعين نفساً ، انتهى .

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: مباسطتي للخادم حتى صار لا يهابني إذا قلت له: تعال كل معي ، فإن كثيراً من الخدام إذا قال سيده: تعال كل معي ، يقول: فضيحة آكل مع سيدي ، وفي ذلك رائحة علم العبد بفظاظة سيده وتكبره عليه ، ولو أنه كان يعلم منه الرحمة واللين لجلس يأكل مع سيده بلا إذن .

وقد بلغنا أن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالىٰ عنه ، دعا فتى له ليأكل معه ، فأبى فجلس عمر يبكي ، وقال: لولا أنه علم مني الكبر ما أبى ، انتهى .

فإيَّاك ثم إيَّاك من التكبر على خادمك ، أو رؤية نفسك عليه ، فافهم يا أخي ذلك واعمل على التخلق به ترشد ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم ردي للسائل إذا كان محتاجاً فأعطيه ما سأل ، ولو كان عمامتي أو جوختي أو هما معاً ، لا سيما إن كان أحوج إلى ذلك مني ، ولا أمنعه إلا لغرض شرعي ، لا لبخل أو لشحة نفس .

وهذا الخلق من أكرم أخلاق الفقراء ، ولا أحصي عدد من لبس من ثيابي ، ويجمع ذلك كله ، أني لم أرقع ثوباً قط منذ وعيت على نفسي ، إنما يأخذه الناس من أصحابي وغيرهم كما هو مبسوط في نعمة ذكر أسماء من كسوتهم من العلماء والصلحاء والفقراء والأقارب ، ونحوهم .

واعلم يا أخي أن من الغرض الشرعي أن أقدم نفسي لكونها أحوج إلى ذلك من السائل ، وكذلك من الغرض الصحيح عدم إعطائي لذلك السائل ذلك الشيء حتى أجد نية صالحة ولو شهراً أو أكثر ، فربما استحيىٰ الفقير إذا طلب منه شيء بحضرة الناس مما يشح به الناس غالباً ، فأعطى فاتبعته نفسه ، وذلك معدود من التهور ومن الرياء وحب المحمدة ، وكذلك من الغرض الصحيح إذا علم ولو بالقرائن أن سؤاله تعنت لا لحاجة إليه ، فيتنبه الإنسان لمثل هذه الأمور ، ولا يعطي ويمنع إلا بحق ، فإن الأموال إنما وضعها الحق تبارك وتعالىٰ في يد العارفين لمنافع العباد من أنفسهم أو غيرهم ، فإن رؤوا نفوسهم أحوج قدموها أو غيرهم أحوج قدموه ، وفي الحديث : « **ابدأ بنفسك ثم بمن تعول** »[1] فمن آثر السائل على نفسه بما هو أحق به فقد ظلم نفسه فعليه إثم من ظلم رعيته وشق عليها .

وما مدح الله تبارك وتعالىٰ المؤثرين على أنفسهم إلا ترغيباً لهم وتشجيعاً ليخرجوا من ورطة البخل الذي فتحوا عيونهم في الدنيا عليه فلولا مدح الله تبارك وتعالىٰ لهم على ذلك ما قدروا على الخروج من شح نفوسهم ، فإذن الإيثار من صفات المريدين والبداءة بالنفس من صفات الكمَّل ، لأن العبد يؤمر أولاً بالخروج من الشح فإذا وفى العمل به أمر بالبداءة بنفسه قياماً بالعدل ، اللهم إلا أن يكون له أتباع يقتدون به في الإيثار ، فاللائق به التنزل لمقامهم ، ويؤثر على نفسه بحضرتهم ، ولا يخفى أن الكامل على يقين من طريق كشفه أنه من رزقه أو من غير رزقه ، فإن كان من رزقه فهو على يقين من عوده إليه ، ولا يقدر أحد أن يأكل منه شيئاً فيستفيد بإيثارهم على نفسه حسن الثناء عليه ، وفتح باب الاقتداء به ، والثواب الذي هو الأصل ، وإن كان من غير رزقه فليس له منع صاحبه منه ، بل اللائق دفعه إليه ، ومن شأن الكامل أن يعطي كل ذي حق حقه : بخلاف غير الكامل فإنه إن وفى بمقام أخلَّ بمقام آخر ،

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٤٦) .

وفي الحديث: «**الأقربون أولى بالمعروف**»(١) ولا أقرب إليك من نفسك ، فهي مقدمة على جارك إذا كانت محتاجة لما هي أحق به.

فعلم أنه لا تعارض بين حديث: «ابدأ بنفسك»(٢) وبين قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الحشر: ٩]. لأن الآية في حق من عنده اتهام لنفسه في المنع لبخل وشح في النفس ، أو لمن يقصد أنه يقتدي الناس به. والحديث في حق من ليس عنده ذلك ، وتقديم المريد غيره عليه من باب ظلم دون ظلم ، فسومح بظلم نفسه طلباً للترقي إلى مقام آخر أعلى مما هو فيه ، فعمدته العمل على الخروج من عهدة نفسه وحظوظها ما أمكن ، ولو أنه أمر بالبداءة بنفسه لازداد بخلاً وشحاً.

ولما لام بعضهم سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالىٰ عنه على أكله المطاعم اللذيذة ، ولبسه الثياب الفاخرة ، والنوم على الفرش الناعمة الوثيرة ، قال لهم: يا طول ما أطعمت نفسي الطعام الكريه ، وألبستها الخشن ، وأنمتها على التراب ، وقد وفت بما استأجرتها عليه ،واستحقت أن تأخذ أجرتها قبل أن يجف عرقها ، وذلك قبل موتها ، فإن عرقها لا يجف إلا بالموت ، انتهى كلامه رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه.

وهذا الذي قاله الشيخ رضي الله تعالىٰ عنه لا يكون إلا لمن له أتباع يعرفون مقامه ، أو لمن ليس له أتباع ، أما من له أتباع لا يعرفون مقامه فمن لازمهم غالباً الاقتداء به في الترفهات ، فيهلكون ويقفون عن السير لنقص رأس مالهم بذلك ، بخلاف الكامل ، ثم لا يخفى على المريد أن جميع ما يؤثر به غيره ليس هو من رزقه ، فلا ينبغي له أن يرى له به مقاماً على غيره بإيثاره ، لأنه ما آثر الغير إلا بما هو لذلك الغير ، ولو أنه أمسكه لنفسه لا يقدر على أنه يتناول منه شيئاً.

من هنا قالوا: ما تورع المتورعون وزهد الزاهدون إلا فيما لم يقسم لهم ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: اعتقاد كثير من الإنس والجن واليهود والنصارى في الصلاح ، وإجابة الدعاء ، مع أني لست من الصالحين عند نفسي ، ولا عند كثير من الناس ، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالىٰ عليَّ ، ومن أعظم سترة سترني بها بين العباد حتى أني أنفي الصلاح عن نفسي بحضرة بعض الناس لينفر مني ، فيقول لي: بل أنت صالح ، فأتعجب من

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٤٨٦) ، وقال: قال في أسنى المطالب: ليس بحديث.

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب الابتداء في النفقة بالنفس (٩٩٧) ، والنسائي ، كتاب الزكاة ، باب أي الصدقة أفضل (٢٥٤٦).

صنع الله تبارك وتعالىٰ وأعرف أنه أراد ستري بين عباده ولولا ذلك لكان الأمر بالعكس ، فأقول لهم: أنا صالح ، فيقولون لي: تكذب لست بصالح ، ثم إن الناس قسمان: قسم يعلم بصلاح نفسه فيكون نفيه الصلاح عن نفسه اتهاماً لها ، وقسم لا يعلم بصلاح نفسه فهو صادق في نفيه الصلاح عن نفسه ، وعلى ذلك أكثر السلف الصالح.

وقد كان مالك بن دينار رضي الله تعالىٰ عنه يقول: والله لو حلف حالف إنني من الفاسقين لقلت له صدقت.

وكان الحسن البصري رضي الله تعالىٰ عنه يقول لو حلف شخص أن أعمالي أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب ، لقلت له: صدقت ، لا تكفر عن يمينك ، انتهى.

لكن صاحب هذا المقام ربما يقل شكره لله تبارك وتعالىٰ ، فلا يكاد يرى لله تبارك وتعالىٰ عليه نعمة أو صفة من صفات الكمال ، ولكن إن منَّ الله تبارك وتعالىٰ عليه بالكمال كثر شكره لله تبارك وتعالىٰ من حيث حلمه جلَّ وعلا عليه ، وعدم معاجلته بالعقوبة مع شدة خوفه من الله تبارك وتعالىٰ من ذلك لأن الكامل يكنى ، أبا العيون.

إذا علمت ذلك فمن جملة اعتقاد المسلمين في أنني أعطي أحدهم القشة من الأرض إذا طلب مني الدعاء لمريضه ، أو كتابة ورقة ، وأقول له بخر المريض بها فيفعل فيحصل له الشفاء بإذن الله تبارك وتعالىٰ ، فأعرف أنه لولا شدة اعتقاد أحدهم ما شفى الله تعالىٰ مريضه بدخان تلك القشة ، فإن الأمور تجري بها المقادير الإلهية سرعة وبطئاً بحسب قوة الاعتقاد وضعفه ، حتى أن بعض من لا اعتقاد عنده من المجادلين يأخذ القشة وعنده شك في أن تلك القشة تنفعه ، فلا تنفعه.

وقد جاءني مرة فقيه يأخذني سياقاً لصهره لما غضبت زوجته ، وكان قد جعل لها خمسين ديناراً ، فلم يرضوا أن يردوها له ، فقلت له خذ هذه القشة وأعطها لصهرك فإنه يردها لك بلا فلوس، فقال لي: لا تمزح معي ، فإني مكروب ، فلا زال الفقراء به حتى حصل عنده بعض الاعتقاد ، فأخذ القشة فبمجرد ما أعطاها لصهره قال له: إذهب فخذ امرأتك ، فتعجب الفقيه من ذلك ، وقال: أحوال الفقراء لا تدخل تحت حكم العقل.

وكذلك جاءني الشيخ ناصر الدين بن الطنب المدرس بناحية دمنهور بالبحيرة ، وهو مكروب ، فقلت له: مالك ؟ فقال: اشتكاني شخص لي عليه دين للباشا علي نائب مصر ، وذكر له أن الشيخ هدم جداراً فوجد فيه قدرتين ذهباً وعمودين فضة ، وأنه أمر الوالي بالقبض عليه ، فقلت له: أبرىء المديون مما عليه ، والحق تبارك وتعالىٰ يلهم الباشا أنه يكذبه فيما يدعيه عليك من المال ، فأبى أن يبرئه ، وكان معه الشيخ سالم الدمنهوري ، وهو كثير الاعتقاد في الفقراء ، فصار يقول للشيخ ناصر الدين اطع عبد الوهاب ، فيقول كيف أبرئه من

مالي ، فلما طلع القلعة مخالفاً للإشارة وعاين أسباب الهلاك ، قال له الشيخ سالم أبرئه كما قال لك عبد الوهاب ، فابرأه في نفسه ، فقال الباشا الذي ظهر لي أن المسطور الذي كتب على هذا الرجل باطل ، ودعواه بالقدرتين الذهب ، والعمودين الفضة باطل ، وقد كان جماعة الديوان كلهم تيقنوا أنه معاقب لا محالة ، لأجل قدور الذهب وعمد الفضة ، فما وقع للشيخ ناصر الدين الرعب إلا من جهة توقفه عن العمل بالإشارة ، وطلب العمل برأي نفسه.

وقد وقع أن شخصاً جاءني من حارة جامع ابن طولون يطلب مني الدعاء لابنته وذكر أن بها استسقاء [1] ، وأن الأطباء أيسوا من مداواتها ، فقلت له: أعندك اعتقاد تفعل ما آمرك به ؟ فقال: نعم ، فأعطيته قشة فبخرها بها فشفيت من يومها ، فعلمت صحة اعتقاده ، وقد بلغ ذلك بعض المنكرين فقال: كل هذا سحر ، فرمدت عينه ، فصار يصيح ليلاً ونهاراً ، فقالوا له: اذهب لعبد الوهاب ، فقال: أنا لا أعتقد فيه صلاحاً فاشتد عليه الألم ، فجاءني غصباً عليه ، وكان بين أيدينا طعام كشك ، فقلت له: كل من هذا الكشك ، فتوقف ، وقال هذا منهي عنه ، فاشتد عليه الألم ، فقال له الناس جرب الإشارة هذه المرة ، فأكل من ذلك الكشك فراقت عينه في الحال ، فشفي.

وكذلك جاءني فقيه يشكو القولنج [2] وهو صائح ، فأطعمته بسلة فسكن القولنج ، كل ذلك لكوني أقول على ذلك الشيء «**بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**» [3].

وقد قدموا مرة لخالد بن الوليد رضي الله تعالىٰ عنه إناء مسموماً فأعلمه الناس به فقال باسم الله ، وشربه فلم يضره.

فعلم بما قررناه أن كل من لم يكن عنده اعتقاد في اسم الله تبارك وتعالىٰ أنه لا يضر معه شيء ، فليس له أن يأكل شيئاً مضاداً لذلك المرض شرعاً ، لأنه ربما ضره ووقائعي في ذلك كثيرة شهيرة. ومن جملة اعتقاد النصارى واليهود أنهم يطلبون مني كتابة الحروز لأولادهم ومرضاهم ، فأعطي أحدهم القشة فيبخر بها مريضه فيحصل له الشفاء ، فأتعجب في اعتقادهم فيَّ مع اختلاف الدين ، وكثيراً ما أقول لهم: لم لا تسألون رهبانكم وعلماءكم ، فيقولون أنت

---

(١) الاستسقاء الدماغي: مرض خلقي في الغالب يزداد فيه السائل المخي الشوكي في بطون الدماغ فيمددها ويرققه. اهـ المعجم الوسيط مادة / سقي/ (١/ ٤٣٧).

(٢) ذكره الخوارزمي في مفاتيح العلوم ص ١٨٨ فقال: القولنج: اعتقال الطبيعة لانسداد المِعىٰ المسمىٰ: قولون.

(٣) أخرجه الترمذي ، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى (٣٣٨٨) ، وأبو داوود ، كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٨٨) ، وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى (٣٨٦٩) ، وأحمد في مسنده (٤٤٨).

أعظم عندنا من البترك ومن جميع أهل ديننا ، وإنما كنت أعطيهم القشة دون كتابة شيء من القرآن ، أو أسماء الله تبارك وتعالىٰ إجلالاً لله تعالىٰ ولكلامه. ثم من أعجب ما وقع أن نصرانياً كان يبيع الخمر في حارتنا ، وكان إذا بار خمره في مثل الثلاثة شهور يجيء يأخذ خاطري ، ويقول: أنا خائف من فلوس الحملة أنها تقف عليَّ ، فأقول له: يا معلم الخمر عندنا محرم بالإجماع ، فكيف أقول: يا الله أرسل للمعلم من يشتري خمره ويسكر ، فيقول: ادع الله أن ينزل لي البركة ، فأقول له: إن البركة لا تكون في شيء نهى الله تعالىٰ عنه فقال: ادع الله أن يتوب عليّ من بيع الخمر ، فدعوت له ، فمات بعد جمعة.

ومن جملة ما وقع لي من الجن أنهم ارسلوا لي نحو خمسة وسبعين سؤالاً في علم التوحيد لأكتب لهم عليها ، وقالوا قد عجز علماؤنا عن الجواب عنها ، وقالوا: هذا التحقيق لا يكون إلا من علماء الإنس ، وسموني في السؤال شيخ الإسلام ، فكتبت لهم الجواب عنها نحو خمسة كراريس ، وسميته: «**كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان**».

وكذلك أرسلوا إلي قصة فيها خطبة غريبة في شدة الفصاحة واللغات نحو حزب يسألوني فيها أن أخلص ولد شرف الدين بن الموقع لما أسره جماعة من يهود الجان فأرسلت أقول لهم اسألوا غيري ، فقالوا: قد عجز غيرك عن تخليصه منهم ، فكتبت له ورقة يحملها فرجعوا عنه، وقد ذكرت الخطبة التي أرسلوها والإمارات التي ذكروها لي في كراسة ، فافهم يا أخي ذلك ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: كثرة تسليمي ، وترك تكذيبي لكل من ادعى ممكناً في العادة من سائر المقامات حتى القطبية ، فإن الولاية أمر باطني لا يطلع عليه إلا الله تبارك وتعالىٰ ، ثم صاحبه ، وقد يكون الشخص ولياً من أولياء الله تعالىٰ ولا يعلم بنفسه ، فتصديقنا لكل من لم يدع مقاماً ممنوعاً كدعواه النبوة أولى ، لأنه إن كان صادقاً فقد صدقناه ، وإن كان كاذباً فكذبه يرجع عليه لا علينا.

وقد دخل علي شخص مرة فادعى القطبية الكبرى ، فسلمت له ، فقال لي: اكتب لي خطك بأنك صدقتني على دعواي ، فقلت: هذا لا يكون إلا لو علمت قطبيتك من طريق كشفي ، وأما من طريق إخبارك عن نفسك بها فذلك لا يخلصني ، فأقسم عليّ بالله تبارك وتعالىٰ فكتبت له ورقة فيها أن فلاناً أخبر عن نفسه أنه قطب دائرته فصدقناه على أنه قطب في أي محل حلَّ فيه ، أي لأنه حيث ما جلس فرضنا حوله دائرة هو قطبها فرضي مني بذلك ، انتهى.

وقد كثرت دعوى القطبية في هذا الزمان ، وصار كل من سولت له نفسه شيئاً يعتقد صحته ، لقلة ظهور الأشياخ في العصر ، فكل جماعة شيخ يدعون أن شيخهم هو القطب ، وربما سمعهم وسكت على ذلك ، ومعلوم أن القطب لا يكون إلا واحداً في كل زمان ،

ولا يصح أن يكون في الزمان قطبان أبداً ، كما لا يكون للرحى قلبان إلا أن يريد القائل أنه قطب أصحابه فقط ، فلا منع ، فنحن نسلم لكل من ادعى القطبية لعلمنا بأن من شأن القطب الخفاء دون الظهور ، ونرد علم حقائق الأمور إلى الله تبارك وتعالىٰ.

وقد كان الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه ، يقول: الإنكار فرع من النفاق ، قال المزني: بل هو النفاق كله ، لأن الجحد ضد التصديق ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، وإيَّاك والإنكار على أحد يدعي ممكناً من مقامات الرجال والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كشف الحجاب عني ، حتى سمعت تسبيح الجمادات والحيوانات من البهائم وغيرها من صلاة المغرب إلى طلوع الفجر ، وذلك أني أحرمت بصلاة المغرب خلف الشيخ الصالح الورع الزاهد سيدي أمين الدين الإمام بجامع الغمري رضي الله تعالىٰ عنه ، فانكشف حجابي ، فصرت أسمع تسبيح العمد والحيطان والحصر والبلاط حتى دهشت ، وصرت أسمع من يتكلم في أطراف مصر ، ثم اتسع إلى قراها ، ثم إلى سائر أقاليم الأرض ، ثم إلى البحر المحيط ، فصرت أسمع تسبيح السمك ، وكان من جملة ما سمعت من تسبيح سمك البحر المحيط: «**سبحان الملك الخلاق رب الجمادات والحيوانات والنبات والأوراق ، سبحان من لا ينسى قوت أحد من خلقه ، ولا يقطع بره عمن عصاه**» انتهى. وذلك في سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ثم إن الله تبارك وتعالىٰ رحمني عند طلوع الفجر ، وحجبني عن سماع ذلك التسبيح لما حصل عندي من الدهشة ، وأبقى علي العلم بذلك من طريق الكشف فتقوى بذلك إيماني ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم قولي بالجهة في جانب الحق تبارك وتعالىٰ من حين كنت صغير السن عناية من الله سبحانه وتعالىٰ بي ، لا بسلوك على يد شيخ من الأشياخ ، وقد هلك في هذا الأمر خلائق لا يحصون ، فغلب وهمهم على عقلهم وظنوا أن الحق تبارك وتعالىٰ في جهة العلو فقط ، وغاب عن هؤلاء نحو قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾ [العلق: ١٩]. وقوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[(١)] فإن هذه الآية والحديث تصريحاً بعدم تحيز الحق تبارك وتعالىٰ في جهة دون أخرى ، أي فكما تطلبونه في العلو فاطلبوه كذلك في السفل ، وخالفوا وهمكم وإنما جعل الشارع ﷺ حال العبد في السجود أقرب من ربه دون القيام مثلاً ، لأن من خصائص الحضرة أن لا يدخلها أحد إلا بوصف الذل والانكسار ، فإذا عفر العبد محاسنه في التراب كان أقرب في مشهده من ربه من

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢).

حالة القيام ، فالقرب والبعد راجع إلى شهود العبد ربه لا إلى الحق تبارك وتعالىٰ في نفسه ، فإن أقربيته واحدة ، قال تبارك وتعالىٰ في حق المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]. وقال عز وجلَّ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي الإنسان ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وأخبره أنه يحول بين المرء وقلبه.

فإيّاك وما تراه في كتب القائلين بالجهة من الأحاديث المشعرة بالجهة عند ضعفاء العقول ، فإنها كلها مؤولة ، وكان صورة ما وقع لي وأنا صغير أني تفكرت يوماً في الله عز وجل ، فقسته على ما أتعقله ثم صرفته بليس كمثله شيء ، وبقولهم: كل شيء خطر ببالك فالله بخلاف ذلك. وبقولهم: حقيقته تعالىٰ مخالفة لسائر الحقائق ، وأنه مباين لخلقه في سائر الأحوال ، فذهب عني تعقل الجهة في حق الباري جلَّ وعلا جملة واحدة ، فيالها معرفة ما ألذها ، وكأنني خرجت من السجن إلى الفضاء الواسع ، ثم إني عرضت ذلك على سيدي علي المرصفي رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، فقال: هذه عناية عظيمة حصلت لك ، وإن شاء الله تعالىٰ يزيدك تأييداً ، فنمت فرأيت تلك الليلة قائلاً يقول لي: اخرج من حيطة العرش إلى خارجه بعقلك ، وانظر تجد الوجود الجثماني كله من العلويات والسفليات كالقنديل المعلق في الهواء بلا علاقة ، فإن صعد أبد الآبدين لا يجد جسماً آخر يتعلق به وإن أهبط أبد الآبدين لا يجد أرضاً يستقر عليها ، فخرجت بعقلي كما ذكر ، فعلمت سعة عظمة الله تبارك وتعالىٰ ، وزال عني توهم الجهة من ذلك اليوم ، وجمعت في ذلك المشهد بين شهود نفسي في مكانين ، فإني كنت داخل العرش بيقين ، وأرى نفسي خارجه بيقين ، فبينما أنا واقف كذلك إذ جاء طير أبيض طويل العنق ففتح فاه والتقط الوجود الجسماني كله ، وطار به ، فصرت أرى نفسي في حوصلته وأنا خارجها ، ثم جاءت ناموسة صغيرة ففتحت فاهاً والتقطت الطائر بما حواه ، وغابت عن العين ، فقصصت ذلك على سيدي علي المرصفي رضي الله تعالىٰ عنه ، فقال: الآن قد خرجت من الورطة كلها ، ثم قال لي: كلما اتسعت معرفتك بالله تعالىٰ كلما صغر الوجود في عينك ، فإنك رأيت أولاً العرش عظيماً ، ثم اتسعت معرفتك باتساع الوجود فصغر العرش في عينك عن المشهد الأول ، ثم اتسعت المعرفة أكثر لما رأيت الطائر الذي هو أصغر من العرش ، ثم اتسعت المعرفة أكثر لما رأيت الناموسة ، إذ الوجود المحصور بالنسبة لغير المحصور كالينابيب التي في الكوة التي في عين الشمس ، تراها صاعدة وهابطة ، وإذا قبضت بيدك عليها لم تر في يدك شيئاً ، انتهى.

وكذلك قصصت هذا الأمر على سيدي الشيخ نور الدين علي الشوني رضي الله تعالىٰ عنه ، فقال لي: هكذا وقع لي ، ورأيت الوجود كذرة في الجو ، انتهى.

ثم لما اجتمعت بسيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه ، حكيت له هذه الحكاية ، فقال. صحيح هذه بالنسبة إلى التوحيد ، وإلا فالوجود كله عظيم من حيث أنه من شعائر الله

تبارك وتعالىٰ ، وقد قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. فلا يزال العبد إذا وصل إلى شهود الوجود في عينه كالذرة يتكبر عنده أفراد الوجود شيئاً فشيئاً حتى يرجع إلى الحالة الأولى التي كانت له قبل الترقي ، ويصير يعظم الوجود بتعظيم الله تبارك وتعالىٰ ، ويحقره بتحقير الله تبارك وتعالىٰ ، إذ ليس المؤمن كالمنافق ، ولا الكبش كالكلب ، انتهى.

وحاصل المراد من ذلك كله أنَّ الموجودات من حيث إيجادها تتلاشى في جنب معلومات الله ، وأما من حيث مراتبها ، فما عظمه الله تعالى وجب تعظيمه ، وما حقره وجب تحقيره ، على حد ما نفهم تكليفنا به.

فعلم أن كل من توهم أن الله تبارك وتعالىٰ تأخذه الجهات ، فليس له في مقام المعرفة نصيب وإنما هو كالمجسم ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد كان سيدي علي بن وفا رضي الله تعالىٰ عنه يقول: ليس الرجل من يتقيد داخل الأجرام من العلويات والسفليات ، إنما الرجل من خرج من الأقطار كلها ، وشاهد خالقها كما يليق بجلاله ، انتهى. أي بحسب استعداد ذلك المشاهد ، فإنه وسعه الذي كلف به ، وأما قوله ﷺ: «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك»[1] أي: ما عرفناك على ما أنت عليه في نفس الأمر.

وفي مواقف الإمام النفري رضي الله تعالىٰ عنه: أوقفني الحق جلَّ وعلا بين يديه في المنام وقال لي: قل للعارفين بي: إن رجعتم تطلبون مني الزيادة في المعرفة فما عرفتموني ، لأن طالب الزيادة جاهل بي فيما سأل ، وإن رضيتم بالوقوف على حد ما عرفتموه مني فما عرفتموني ، وعزتي وجلالي ما أنا عين ما عرفوه ، ولا عين ما جهلوه ، انتهى.

فتأمل في هذا المحل ، واطلب من الحق زيادة العلم به ، ولا تمل ، فلو ترقيت في وجوه المعارف أبد الآبدين ودهر الداهرين لم تقف للمعرفة على قرار ، ومن هنا قال بعض العارفين: سبحان من كان العلم به عين الجهل به ، والجهل به عين العلم به ، انتهى. فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم تسليمي للنفس دعواها العجز عن فعل شيء من الطاعات حال مرضها ، فلا أسلم لها العجز عن القيام في الصلاة مثلاً إلا بعد امتحانها بالوقوف ووقوعها مرة بعد مرة ، قهراً عليها ، فإذا وقعت صليت حينئذ جالساً بشرطه ، فإن عجزت عن التماسك في الجلوس صليت مضطجعاً ، وإنما أوجبنا امتحان النفس في مثل ذلك ، لعلمنا بأن النفس مجبولة في أصلها على عدم الطاعة لله تبارك وتعالىٰ ، وإيثار هواها

---

(١) ذكره المناوي في فتح القدير (٢/ ٤١٠).

على أوامر الحق تبارك وتعالىٰ ، وقد ورد في بعض الآثار أن الحق تبارك وتعالىٰ ، أوقف النفس بين يديه ، وقال لها: من أنا ؟ فقالت له تبارك وتعالىٰ ، فمن أنا ؟ فغمسها في بحر الجوع خمسة آلاف سنة ، ثم قال لها: من أنا ؟ فقالت أنت الله خالق كل شيء [1]، انتهى.

فعلم أن من أطاع نفسه في طلب الراحة صرعته ، فلا تزال تسارقه وتجره إلى الكسل شيئاً فشيئاً حتى ترجع إلى إبايتها الأصلية قبل أن تغمس في بحر الجوع ، وهذا الخلق قل من يتنبه له ، وغالب الناس يصلي الصلاة جالساً بأدنى وجع ، ولا يمتحن نفسه ، وهو تهور في الدين.

وقد كان شيخنا شيخ الإسلام زكريا رضي الله تعالىٰ عنه شارح البهجة يصلي النوافل قائماً وقد جاوز المائة عام ، فيصير يميل يميناً وشمالاً يكاد يقع من العجز ولا يصلي جالساً ، فقلت له يوماً: إن مثلكم لا يطالبه الله تبارك وتعالىٰ بالوقوف في النوافل فقال: النفس من شأنها حب الراحة والكسل ، وأخاف أن أجيبها إلى ما طلبت فأختم عمري بالكسل عن الطاعات ، انتهى.

ووالله إني لأخرج للصلاة في بعض الأوقات أجر رجلي جراً من ثقل الوارد الذي يرد عليّ من البلايا والمحن التي تتعلق بي وبإخواني ، ولا أصلي في البيت ، خوفاً أن يقتدي بي الكسالى في مثل ذلك ، فلا يخرجوا من بيوتهم لصلاة الجماعة.

وفي كلام سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالىٰ عنه: من لم يحاسب نفسه على كل نفس ، ويتهمها في جميع أحوالها ، لا يكتب عندنا في ديوان الرجال ، انتهى. فما ثم أتعب قلباً ولا بدناً ممن جعله الله تبارك وتعالىٰ قدوة للناس ، انتهى.

ومن هنا بالغ النبي ﷺ في قيام الليل حتى تورمت قدماه ، وقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[2] فقطع جميع المجتهدين بعده ، ولم يلحقوه مبالغة في النصح لهم ، وما كان يصلي جالساً إلا حين علم الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم عجزه ﷺ ، فصلى حينئذ جالساً ، انتهى.

فاعلم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك بمنه وكرمه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حمايتي من الأكل من طعام من شفعت فيه شفاعة وقبلت عند أحد من الولاة ، أو قبول هدية على ذلك ، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالىٰ عليّ في هذا الزمان ، فقليل من الناس من يتنبه لمثل ذلك ، وقد شفعت مرة في سيدي محمد

---

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه (١١٣٠)، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

العبادي ، عند الوزير علي باشا لما كان عزم على نفيه من مصر ، وشرع في بيع عبيده وأمتعته ، فقبل شفاعتي فيه ، وانحل عزمه عما كان أراد أن يفعله ، فأرسل إلي جارية فلم أقبلها ، فملَّكها لابني عبد الرحمن ، فقلت له: لا تقبل ، فملَّكها لابنتي نفيسة ، فقلت له: لا أقبل لها ذلك ، فحلف أن لا ترجع ، فمكثت عندي إلى أن ماتت على ذمته ، والنكتة في ذلك أن الشفاعة من القربات الشرعية ، وأنا لا آخذ عليها أجراً في الدنيا. وقد وقع أنني أكلت مرة سهواً لمن شفعت فيه ، ثم تفكرت فتقيأته من بطني ، وكثيراً ما يأتي الفلاح أو غيره بهدية لأشفع له عند أحد من الكشاف أو مشايخ العرب ، فأمنع النقيب من أنه يدخلها ، فيصير واقفاً على باب الزاوية بهديته إلى آخر النهار ، حتى يخرج عنها للعميان والمجاورين ، وفي أوقات يرد بها إلى بلده أو يبيعها ، ثم أشفع له لله تبارك وتعالىٰ ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي لقبول شيء من هدايا الولاة والعمال لي أو لإخواني ، وذلك لأننا ما نصحب الولاة إلا بقصد تفريج كرب المكروبين ، ونحن على حذر من الميل إليهم ، وسهامنا المسمومة متوجهة إليهم ليلاً ونهاراً لتصيبهم لكثرة ظلمهم ، فإن سداهم ولحمتهم من كثرة الظلم والبلص وأذى المسلمين ومعلوم أن قبولنا هداياهم والأكل من طعامهم ، يبطل عمل سهامنا فيهم ، ونحن لا نرى إبطال عمل سهامنا فيهم بالأكل من طعامهم ، أو اللبس من ثيابهم مثلاً ، مع ما في ذلك من التبعات وعدم قبول الشفاعات ، فإن من أكل من طعام رجل أو قبل هديته ذل له ، وصار معدوداً من عائلته ، وقد أغفل غالب الفقراء هذا الباب ، فقبلوا من الولاة هداياهم وصدقاتهم ، وطلبوا منهم قبول شفاعاتهم وانقيادهم لهم ، وذلك كالمحال ، ولو أنهم زهدوا فيما في أيدي الولاة ولم يقبلوا منهم صدقة ولا هدية لعظموهم ، وقبلوا شفاعاتهم ، وقبّلوا أيديهم وأرجلهم ، وما أخبرتك يا أخي إلا بما جربته في نفسي قبل دخولي في محبة طريق القوم.

وقد كان الفضيل بن عياض رضي الله تعالىٰ عنه يقول: من أكل من طعام رجل استحيى منه ضرورة ، وربما ترك نصحه جملة حياء منه ، انتهى. وفي المثل السائر: أطعم الفم تستح العين ، انتهى.

وقد بلغني أن شخصاً من مشايخ العصر يسافر كل سنة لمشايخ العرب في مصر ليسلم عليهم ، ويقول لهم: قد اشتقنا لكم ، مع أن لهم إخواناً في الطريق يرى مكانهم من زاويته ، ولا يزور أحداً منهم ولا يشتاق إليه ، وبلغني أيضاً أن بعض مشايخ العرب يقول ، قد عجزنا في رضا هؤلاء المشايخ من كثرة ما يشحذون منا ، وكيف تطيب نفوسهم أن يأكلوا من طعامنا ويقبلوا صدقاتنا مع علمهم بأن أموالنا لا تسلم من الحرام والشبهات ، انتهى. فافهم يا أخي

ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم إفشائي سر من صحبته من الولاة إذا قربني ، وصار يشاورني في أموره ، فلا أقول لأحد من أصحابي قط: إن الأمير قال لي كذا ، أو شاورني في كذا أبداً ، لا سيما الباشا مثلاً ، فإنه ينبني على ذلك مفاسد لا تحصى: منها نفرة ذلك الأمير مني ، وأخذه حذره مني ، ويعدني عدواً أومغفلاً وذلك يوجب عدم اعتنائه بشفاعتي عنده في المظلومين ، ومنها الفساد في المملكة وقد قالوا: ليس للملك أن يعفو عن ثلاث:

الأول: من قدح في ملكه.

الثاني: من أفشى سره.

الثالث: من أفسد حريمه. وهذا الأمر قل من يثبت فيه من المجتمعين على الأمراء فيفشون أسرارهم ، ويفتخرون بقولهم قال لي الباشا البارحة كذا ، وسمعته يقول: مقصودي عزل فلان، أو قتل فلان ، أو تولية فلان ، ونحو ذلك ، انتهى. فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: عدم افتخاري بمجيء الأكابر إليَّ من أمير كبير أو قاضي عسكر ونحوهما ، ولا أقول لمن أتاني ولا علم له بمجيء ذلك الأمير إلي البارحة: كان عندنا فلان ، لأن ذلك كالافتخار بأهل الدنيا ، وهذا أمر يقع فيه غالب المتمشيخين بأنفسهم في هذا الزمان ، كأن أحدهم يقول: اعرفوا مقامي عند الأمراء والأكابر ، وكذلك القول فيما إذا زارني وليٌّ كبير أو عالم ، فإن في ذكري للناس أنه زارني إعلاماً لهم بأن العلماء والأولياء يعظموني ، ولا يخفى ما في ذلك من الرياء وقلة العقل ، فاعلم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم مزاحمتي على صحبة أحد من الولاة وأبناء الدنيا ممن حولهم البر والحسنة ، وإن كنت صحبت أحداً منهم ثم طرأ علي أحد يزاحمني فيه تركته له بانشراح صدر ، وقد تقدم أوائل هذا الكتاب أني لا أتشوش ممن نقصني عند أحد من الولاة ، حتى صار ينكر عليَّ ويبغضني بعد أن كان يعتقدني ويحبني ، لأنه أراحني من ورطة عزله ، ونفر خاطري من الركون إليه ، وحماني من احتمال أن تمسني النار التي وعد الله سبحانه وتعالىٰ بها من يركن إلى الظلمة إن ركنت إليه.

وقد كان سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ إذا نفر أحد عنه من يعتقده من الولاة ، يقول: جزى الله أخانا فلاناً خيراً ، كان الأمير الفلاني مقبلاً علي مثل الحرف فصده عني ، وأراحني من تعبه ، فإن الولاة لا يعتقدون فقيراً إلا بقصد حمايته لهم من عوارض الدهر ،

ولا يحسنون إليه إلا بذلك القصد ، فلسان حالهم يقول: مادام سيدي الشيخ يدعو لنا وهو حامل حملتنا لا نبالي ولو ظلمنا العباد والبلاد ، فالصادق من يحب كل من نفر عنه أبناء الدنيا ، والسلام ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: أنني لا أصحب أحداً من الولاة إلا بعد أن رأيت أن صحبته ترجح على عدم صحبته ، ثم إني إذا صحبته لمصالح العباد لا أزال أسارقه بتكبير غيري ممن أعتقد أهليته لما أقصد من المصالح ، وأرفعه في عينه ، وتحسين اعتقاده فيه ، حتى يصير يقدمهم عليَّ ، فإذا صار كذلك تركت صحبته بسياسة بحيث لا يشعر بي أحد ، ولا يعتقدون في أني تشوشت منه لكونه صحب غيري ، وهذا خلق ما رأيت له فاعلاً في مصر غيري ، وقد فعلته مع الأمير محيي الدين بن أبي أصبع ومع محمد بن بغداد ، ومع كثير من الكشاف ، فحسنت اعتقادهم لما صحبتهم في غيري ، وصرفتهم إليه ، ولم يفعل ذلك معي أحد من متمشيخي أهل عصري ، بل ربما نصبوا على صاحبي ليفسدوه عليّ ، وأرسلوا له زوالق يجرحوني عنده ، كما وقع لي ذلك لما تردد إلي الدفتردار محمد ، وصار يثني عليّ في المجالس ، فجزاهم الله تعالىٰ عني خيراً ، وإن لم يقصدوا ذلك الخير.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: صحبة الولاة غالبها وخيم وعواقبها رديئة فمن ابتلي بشيء من ذلك وأراد التنصل منهم فليحسن اعتقادهم في أحد من الفقراء الذين في بلده ، ويسأل الله تعالىٰ أن يدبرهم بحسن التدبير اهـ.

فعليك يا أخي بتكبير إخوانك عند كل من صحبته من الأمراء ، واذكرهم بالصلاح والخير ، وإياك وتجريح أحد من أقرانك عنده فيقيض الله تبارك وتعالىٰ لك بحكم العدل من يحرجك وينقصك عند ذلك الأمير ، حتى تصير كخرقة الحيض جزاء وفاقاً كما وقع ذلك لجماعة من طلبة العلم ، فذكروا بعضهم بسوء عند الأمير الذي صحبوه فاستفاد الأمير من كل منهم أن خصمه قليل الدين ، فقال: الله لا ينفعني ببركة أحد منهم ، ولو أنهم كانوا كبروا بإخوانهم عنده لخرجوا كلهم من صحبته مستورين اهـ.

وأنا أوصي جميع إخواني بالتخلق بهذا الخلق ، فإن له حلاوة عظيمة ، وفيه رضا الله تبارك وتعالىٰ ورضا الإخوان ، وحكم العكس بالعكس ، ثم إن أصل تنقيص الناس لبعضهم بعضاً عند الأمراء إنما هو لمحبتهم الدنيا ، وطمعهم في إحسان ذلك الأمير لهم ، فهم يخافون أن يميل ذلك الأمير إلى غيرهم ، فيقطع عنهم بره وحسنته ، أو يمنع عنهم ما كانوا يؤملونه منه ، فلذلك نفروه عن الميل إلى أحد من أقرانهم ، انتهى.

ومن أغرب ما وقع لي: أن شخصاً حط في عند بعض الأمراء لما كنت أشفع عنده ، فلامه على ذلك بعض الإخوان، فقال: إنما نفرته عنه رحمة به خوفاً أن يحسن إليه فيميل إليه، ثم إنه

صحب ذلك الأمير بعدي ، وصار يقبل هديته ويبث محاسنه في المجالس ويصفه بالصلاح ، فقال له بعض الإخوان: لما صحب الأمير غيرك ، وصفته بالظلم ولما صحبته أنت وقبلت هديته وبره صار من الصالحين ، فما درى ما يقول ا هـ.

ولما طلعت للوزير علي باشا بمصر ، وقبل شفاعتي وأكرمني ، غار بعض الحسدة من ذلك فأرسلوا له قصة وجرحوني فيها بما هو من صفتهم ، والله يعلم أنني منه بريء ، ثم إنهم احتاجوا إلى من يشفع لهم عنده ، فجاؤوني ، فقلت لهم: كيف أنكم تجرحوني ثم تطلبون مني أن أشفع لكم عنده ؟ وما ضركم لو كنتم سكتم عن تجريحي ، فكنت أشفع لكم ، ثم لم أشفع فيهم عقوبة لهم ، وعلماً بأن ما استشفعوني فيه لي من الضروريات ، انتهى. فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: كثرة قبول شفاعاتي عند الأمراء ، واعتقادهم فيَّ الصلاح من غير مطالبتي بكرامة ، ولا أعلم الآن أحداً في مصر أكثر شفاعة عند الولاة والكشاف ومشايخ العرب والعمال مني ، فربما يفني الدست الورق في مراسلاتهم في حوائج الناس في أقل من شهر ، مع أن في البلد من هو أعظم مقاماً مني ، بل لا أصلح أن أكون تلميذاً له ، وقد بلغنا أن من كان قبلنا من الفقراء لم يزل بينهم وبين الولاة الحرب والمقاطعة ، ولم يزالوا يطالبون الفقراء بالكرامات حتى يقبلوا شفاعتهم ، كسيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه ، وسيدي محمد الحنفي رضي الله تعالىٰ عنه ، وسيدي إبراهيم الجعبري رضي الله تعالىٰ عنه ، وسيدي أحمد الزاهد رضي الله تعالىٰ عنه ، وأضرابهم رضي الله تعالىٰ عنهم ، وكانوا ينفخون بطن الظالم منهم حتى يكاد بطنه يتمزق ، وكانوا يحبسون بول أحدهم حتى يكاد يهلك. وأنا بحمد الله تبارك وتعالىٰ لم يطالبني أحد بذلك ، ولم يحوجني إلى شيء من هذه الأفاعيل.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: من لم يقدر على قتل الظلمة بالحال أو عزلهم، لا يصح له دوام قبول الشفاعة عندهم ، وكان رضي الله تعالىٰ عنه كثيراً ما يقول: ينبغي للعارف أن يحمي نفسه وأصحابه بالحال ولو مرة انتهى.

فاعلم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالىٰ به عليَّ: حسن سياستي لمن أشفع عنده من الولاة وغيرهم، فيلهمني الله تبارك وتعالىٰ كلاماً لم يمر على بالي قبل ذلك ، فينحل غضب ذلك الأمير بعون الله تبارك وتعالىٰ وقدرته ، ولما شفعت عند الوزير علي باشا بمصر في محمد العبادي لما نقم عليه ، وأراد نفيه من مصر ، وأراد أن يبيع عبيده وجواريه وأمتعته ، قلت له: قد جئنا نشفع

في محمد العبادي ، فإن كان يستحق أن نشفع فيه فشفعونا فيه ، وإن كان لم يستحق فالفقراء معكم عليه حتى يتأدب ، فإنا لا نوالي من خرج عن طاعة ولي أمرنا ، فتبسم وانحل غضبه ، فقلت له: حلمكم يسع آلافاً من أمثال العبادي ، وكان قد رد شفاعة من هو أعظم مني قبل ذلك.

ولما مشى النمامون بين سيدي عبد الله الغمري رضي الله تعالىٰ عنه بالمحلة الكبرى ، وبين سيدي الشيخ عبد المجيد الطريني رضي الله تعالىٰ عنه ، ولم يقدر أحد على الصلح بينهما ، فجمعتهما القدرة عندي في مصر ، فقلت: لا شك ولا خفاء أن كل شيخ منكما له معتقدون يصدقونه في كل ما يجرح به الآخر ، فينحل الأمر إلى بهدلة كل منكما عند الناس وعند الحكام ، فقالا هذا الأمر معقول ما طرق سمعنا قط واصطلحا عندي ، ولم يزالا على ذلك حتى ماتا ، انتهى.

وكذلك لما مشى الناس بين شيخي الشيخ أمين الدين رضي الله تعالىٰ عنه الإمام بجامع الغمري ، وبين الشيخ شمس الدين الدواخلي رضي الله تعالىٰ عنه بجامع الغمري ، وحصلت النفرة بينهما ، قلت للشيخ أمين الدين: يا سيدي ، سمعت الشيخ شمس الدين يقول: أنا ظالم على الشيخ أمين الدين لكونه أكبر مني سناً ، وكان الواجب عليَّ أنني أحتمله ، وقلت للشيخ شمس الدين سمعت الشيخ أمين الدين يقول: كان الأولى بي احتمال الشيخ شمس الدين لكونه أصغر مني سناً. فدارت الكلمات بينهما ، فقاما وتعانقا ولم يزالا على الصلح حتى ماتا إلى رحمة الله تعالىٰ ورضوانه.

ثم لا يخفى أن هذا كله إنما هو في وقفة تكون بين اثنين من غير مخالطة حسد ، إذ الحسود لا يرضيه الاعتذار ، وإنما يرضيه زوال النعمة عن المحسود ، فيكل العاقل أمر الحسود إلى الله تبارك وتعالىٰ ، ولا يتعب نفسه معه ، والإثم على الحاسد دون المحسود ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حمايتي من الأكل من ضحايا الولاة ومشايخ العرب التي يرسلونها إلى الزوايا ، ونحوهم من المباشرين وأعوان الولاة ، وإن وقع أنني أذنت في ذبحها عند عدم العلم بمالكيها في الأصل أطعمها لمحاويج الحارة بقصد نفع أصحاب تلك الضحية التي هي على ملكهم في نفس الأمر ، وقد بلغنا أن الكشاف ومشايخ العرب يأخذون هذه الضحايا التي يفرقونها من أهل البلاد غصباً ، وأصل مشروعية التضحية إنما هو لدفع البلاء عن أهل الدار طول سنتهم ، كالعقيقة تميط الأذى عن المولود ، ومعلوم من قواعد الشريعة أن الحرام والشبهات تزيد أهل الدار بلاء ، فضلاً عن كونه يدفع عنهم ، وربما كانت تلك النعجة لأيتام أو فقراء أخذها شيخ البلد منهم قهراً وقال: نفرد لكم ثمنها على أهل البلد

فتكثر التبعات بذلك ، وربما لم يفردوا لهم ، فيأكل سيدي الشيخ وفقراؤه حراماً بنص الشريعة ، فالمؤمن الخائف على دينه من يتورع عن مثل ذلك ، فلا يأكل من تلك الأضحية سواء فردوا ثمنها أم لم يفردوه، فإنه لا وجه لأكله شرعاً، فليحذر المتدين من ذلك ، ولا يغتر بقول المتهورين في دينهم: الأصل الحل؛ لأن الأصل لا يعمل به إلا إذا لم يكن هناك سبب معتبر يحال عليه في الحرمة أو النجاسة ، كما هو مقرر في قواعد الفقه ، وقد وجد سبب الحرمة هنا ، وهو أن الولاة يأخذون ضحاياهم التي يفرقونها من أهل بلادهم بغير طيبة نفوسهم ، ومن شك في قولي هذا فليسافر إلى أهل البلاد ويسألهم: هل الضحايا التي يأخذها شيخ العرب منكم تعطونها له بطيبة نفوسكم أم لا ؟ يعرف صدق قولي يقيناً.

ومما وقع لي أن بعض الكشاف بالغربية أرسل إلي خمسة كباش ، فقلت لقاصده: أنا لا أقبل شيئاً من الكشاف ، فقال: لا أقدر أردهم له فيشوش عليّ ، فقلت له خذها وأنا أدعو الله أن لا يعلم بها ، فلم يفعل ، فقلت للنقيب: أخرجها ليلاً من الدار فكل من وجد منها شيئاً أخذه ، فلم يفعل وذبحها في الليل وفرقها على المتزوجين من الفقراء ، فعلمت بذلك فأرسلت أخذته منهم ، وقلت لهم: أطعموه للكلاب ، فأطعموه جميعه للكلاب ، وشح منهم واحد أن يرمي لحمه للكلاب ، وعزم على أكله ، فجاء صغير لا يهتدي لأمر ولا نهي فرمى اللحم من الطاقة للكلاب من غير علمه ، ولو أنه كان يتيسر لي معرفة أصحاب الغنم من أهل البلد لكنت أرسلتها إليهم ، وهذا أمر ما رأيت له فاعلاً في مصر إلا قليلاً.

وعلم من قولنا إن أصل مشروعية التضحية دفع البلاء عن أهل المنزل ، أنه لا ينبغي لتاجر ولا لفقير أن يقدد لحم أضحيته ويخزنه لطعامه طول سنته ، وكأن لسان حاله يقول: لا أحد يحمل عني بلاء ، ودعوني أحمل بلاء نفسي.

فإن قيل: فإذا قلتم إن لحم الأضحية إذا فرق على الناس يتحملون بلاء المضحي ، فكيف ساغ تفرقة البلاء على الناس من غير علمهم به ؟

فالجواب: إن صاحب الضحية كالمستغيث بإخوان في دفع تلك البلايا عنه ، فلذلك فرقها عليهم ، فيتوزعونها عنه ، فيخص كل واحد منهم جزء يسير لا يكاد يحس به هذا ما ظهر لي في حكمة الأمر بالتضحية ، ومن لم يطلع على حكمة ذلك فيكفيه امتثاله الأمر له بالتضحية من غير معرفة علة ذلك ، ولكن يؤيد ما ظهر لنا من العلة استحباب التصدق بالثلث ، وإهداء الثلث ، وأكل المضحي الثلث ، ويكفي الإنسان من إخوانه أن يتحملوا عنه ثلثي البلاء النازل تلك السنة على نفسه وأولاده ، كما أشار إليه قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠٧]. فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حمايتي من مساعدة الظلمة ، والولاة لي في مؤنة الحج

كلما أحج ، مع شدة اعتقادهم في وطاعتهم لي في كل ما أطلبه منهم ، وقليل من يسلم من ذلك ، بل رأيت بعضهم عرض بمساعدتهم له لما طلب الحج ، وأرسل لهم النقيب الذي يأخذ من الحافي نعله ، فأعطاه جملين وسكراً وعمل له الزاد ، فقال الشيخ: جزاه الله عني خيراً ، ورأيت بعضهم قبل المساعدة من المكاسين وبعضهم أخذ جملين من شيخ عرب ، وقال: هما عارية مردودة ، فلما رجع من الحج باعهما في الرميلة ، وقال: قد ماتا مني في الطريق ، انتهى.

وكانت مؤنة حجاتي الثلاثة من ثمن زراعاتي للبطيخ والتيلة[1] وغير ذلك ، ولا أعلم بحمد الله تبارك وتعالىٰ في ذلك شبهة ، وكان معي من العيال والفقراء في الطريق نحو ثلاثين نفساً ، وقل من يسافر بمثل هذا العدد إلا ويكون في زاده الشبهة ، فينبغي للفقير الذي جعله الله تبارك وتعالىٰ قدوة أن يبالغ في تفتيش زاده من الشبهات جهده ، وإن تجون في السفر وكان في زاده شبهة فليحرص على الأكل من الحلال من حين يحرم بالحج إلى أن يتحلل منه ، فإنها هي مدة الحج حقيقة ، وما زاد على ذلك فهو من التوابع والوسائل ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حمايتي من المجاورة بمكة المشرفة في حجاتي كلها ، وذلك لعجزي عن القيام بآداب المجاورة ، والإقامة بها ، فإنها حضرة الله تبارك وتعالىٰ الخاصة في الأرض ، وهذا الأمر قل من يقوم بآدابه من العلماء والفقراء فضلاً عن غيرهم ، بل ربما يرون أن المجاورة هناك من أكبر النعم ، ولا يفتشون على ما عليهم في ذلك من الآداب ، ومن جالس الملوك بلا أدب جره ذلك إلى العطب ، وها أنا أذكر لك بعض آداب ذكرها الأولياء حضرتني الآن لتتنبه بها على غيرها ، فمنها: أن لا يخطر ببال من يجاور معصية قط مدة مجاورته في مكة ، ولو في بيته ، فضلاً عن المسجد الحرام ، فضلاً عن الطواف ، فضلاً عن الصلاة ، لأنه في حضرة الله تبارك وتعالىٰ التي ما في الأرض بقعة أشرف منها إلا تربة رسول الله ﷺ ، فمن لم يعلم من نفسه السلامة فلا ينبغي له الإقامة هناك حتى يجاهد نفسه بالرياضة ، بحيث يصير لا تشتهي نفسه معصية قط.

قال سيدي الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالىٰ عنه: وممن أقام بمكة خمسين سنة لم يخطر على باله خاطر سوء ، سيدي سليمان الدبيلي رضي الله تعالىٰ عنه ، وفي القرآن العظيم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]. فتوعد من أراد فيه ظلماً بالعذاب الأليم ، ولو لم يعمل ذلك الظلم ، فهو مستثنى عند بعضهم من حديث: «إن الله

(١) التيلة: نبات يُستخرج من سيقانه ألياف للحبال والأكياس. اللسان، مادة (تيل).

تعالىٰ تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل به»[1] الحديث ، كما هو مقرر في كتب الأصول ، وقال بعض المحققين وهذا هو السبب الذي دعا عبد الله بن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما إلى سكنى الطائف دون مكة ، فاحتاط لنفسه وإن كان وقوع الظلم منه لنفسه ، أو لأحد من الخلق بعيداً منه لحفظه رضي الله تعالىٰ عنه من الوقوع في مثل ذلك ، لأنه رضي الله تعالىٰ عنه أعلى مقاماً من الأولياء الذين حفظوا من الوقوع في المعاصي بيقين ، فافهم.

وكذلك كره الإمام مالك والشعبي رضي الله تعالىٰ عنهما المجاورة بمكة ، وقالا: مالنا ولبلد تضاعف فيها السيئات كما تضاعف الحسنات ، ويؤاخذ الإنسان فيها بالخاطر ، انتهى.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن من الظلم سوء ظنك بأخيك المسلم وبغضك له بغير حق ، كما يقع فيه من لم يكن بيده حرفة هناك ، ولم يكن معه مال ينفق منه على نفسه فيصير متطلعاً لما في أيدي الخلائق ، فكل من لم يفتقده بشيء يصير يحط عليه في المجالس ولو تعرضاً ، ويصفه بالبخل ، وذلك ظلم منه لأخيه ، فمثل هذا ربما أذاقه الله تبارك وتعالىٰ العذاب الأليم ، فيجعله يطمع فيما في أيدي الناس ، ويقسي تبارك وتعالىٰ قلوبهم عليه ، ويلقي عليه الجوع الذي لا يحتمله ولا يصبر عليه ، فلا هو يقدر على نفسه ترجع عن الطلب ،ولا هم يعطونه شيئاً ، نسأل الله سبحانه وتعالىٰ اللطف بنا وبإخواننا.

ومنها: أن يأكل من الحلال الصرف مدة إقامته ، وذلك إما بعمل حرفة شرعية كما كان عليه الفضيل بن عياض رضي الله تعالىٰ عنه ، وسفيان بن عيينة رضي الله تعالىٰ عنه وابن أدهم سيدي إبراهيم رضي الله تعالىٰ عنه ، وأضرابهم رضي الله تعالىٰ عنهم. وإما بتوجه إلى الله تبارك وتعالىٰ أن يستخرج له الحلال من بين فرث الحرام ودم الشبهات ، فيرزقه من حيث لا يحتسب كطعام الأنبياء والأولياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وذلك أن من أكل غير الحلال قسا قلبه ، وغلظ ، وأظلم وحجب عن دخول حضرة الله تبارك وتعالىٰ ، فلا يقدر على قلبه أن يمكث لحظة في حضرة الله تبارك وتعالىٰ ، بل كلما اضطره إلى الدخول زهق منه وخرج وتشتت ، فلا يقدر أن يستحضر أنه بين يدي الله عز وجل زمناً طويلاً أبداً ، وإذاحجب عن دخول حضرة الله تبارك وتعالىٰ فمافائدة مجاورته بمكة ؟ وهذا من أعظم الشقاء ، لأنه يصير بعيداً في محل القرب.

ومنها: أن لا يبيت على دينار ولا درهم ولا طعام ولا ثياب ، وهو يعلم أن في مكة أحداً محتاجاً إلى ذلك.

ومنها: أن لا يسأله أحد في الحرم شيئاً ويمنعه منه إلا إن كان هو أحوج من السائل ،

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأيمان والنذور ، باب إذا أحدث ناسياً في الإيمان (٦٦٦٤) ، ومسلم ، كتاب الأيمان ، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب (١٢٧).

لا سيما إن سأله أحد بالله تبارك وتعالىٰ ، أو قال له : أعطني نصفاً بحق رب هذه الكعبة ، فمن سئل شيئاً هناك ومنعه فهو لم يعرف عظمة الله عز وجل ، وإذا لم يعرف عظمته تبارك وتعالىٰ فهو مطرود لا يعبأ الله سبحانه وتعالىٰ به ، ولو أنه كان جالساً عند أحد من ملوك الدنيا وسأله إنسان لأجل ذلك الملك نصفاً لربما أعطاه ديناراً ، فليتنبه المجاور بمكة لمثل ذلك ، فإن الحق تبارك وتعالىٰ غيور .

ومنها : أن لا يحن قط إلى وطنه وبلاده وأصحابه وأولاده ، فيصير ملتفتاً عن حضرة ربه جل وعلا ، وظهره إليها ، ووجهه إلى الدنيا ، ومعلوم أن العطايا والمنح لا تكون إلا للمقبلين على حضرة الله تبارك وتعالىٰ ، فإن المدبر عنها في حضرة إبليس .

ومنها : أن لا يميل قط إلى شهوة محرمة ولا مكروهة ، بل ولا يخطر على باله كما مر ، ومراعاة ذلك عسرة جداً على من يجاور في الحرم من غير زوجة ولا أمة وهو يثاب ، ولذلك حج الأكابر من العلماء العاملين رضي الله تعالىٰ عنهم بزوجاتهم ، وتحمل مؤنة حملهن ذهاباً وإياباً ، كالشيخ أبي الحسن البكري رضي الله تعالىٰ عنه ، والشيخ محمد الشناوي رضي الله تعالىٰ عنه ، وأضرابهما رضي الله تعالىٰ عنهم ، كل ذلك خوفاً أن تميل أنفسهم إلى الجماع هناك ، وليس معهم أحد من حلائلهم .

ومنها : أن يقلل الأكل جهده ، ولا يأكل حتى يحصل له مقدمات الاضطرار الشرعي ، وذلك بأن يحس بأن أمعاءه يأكل بعضها بعضاً مع الحرارة ، لأنه ليس هناك طبيعة تشتغل الأمعاء بها في تبريد النار التي تطبخ الطعام ، وذلك ليشارك أهل الجوع من الزيالع وغيرهم في الجوع ، ولا يتخصص عنهم بشيء ، وكذلك من الأدب أن لا يأكل قط وعين تنظر إليه من المحتاجين ، إلا أن يشرك ذلك الفقير معه في الأكل ، وذلك هو معظم الأسباب التي امتنعت أنا من المجاورة لأجلها .

وقد جاءني الشيخ علي الكازوروني رحمه الله تعالىٰ ، وسألني في المجاورة ، فقلت له ما معي شيء أنفقه ، ومعي من لا يصبر على تجريدي ، فقال : مثلك لا يحمل هم الرزق ، اجلس ويأتيك الله برزقك فقال له ولدي عبد الرحمٰن ، وكان عمره أربع سنين : إن كان سيدي الشيخ يطلب من والدي المجاورة فليشاركه في كل شيء دخل عليه من جواليه وصرره ، ولا يتميز عن والدي بشيء وهو يجلس ، فسكت ولم يرد لنا جواباً من ذلك اليوم ، لعجزه عن القيام بذلك ، مع أنه معدود من الصالحين عند غالب أهل مكة .

ومنها : أن لا يعاني هناك الملابس الفاخرة الغالية الثمن ، ولا الروائح الطيبة ، إلا إن علم أنه ليس في مكة جيعان ولا عريان ، وإلا فمن الأدب صرف ما زاد عن الضرورة على الفقراء والمساكين ، وإن لبس الثياب الخشنة أو الخليقات أو المرقعات كان أولى وأكثر تواضعاً ، ويجمع ذلك كله أن من أدب المجاورة بمكة أن لا يتميز عن إخوانه المسلمين بمأكل ولا ملبس

ولاغيرهما حسب طاقته وعزمه ، ولا يرد سائلاً بالله إجلالاً لله تبارك وتعالىٰ الذي هو في حضرته.

ومنها: أن لا يرى نفسه قط أنه خير من أحد من المسلمين في سائر أقطار الأرض ، فإن هذا ذنب إبليس الذي أخرج لأجله من حضرة الله تبارك وتعالىٰ ، وطرد ولعن إلى يوم الدين ، أن لا يرى أنه خير من حيث نعمة الله تبارك وتعالىٰ عليه بالتوفيق في الحالة الراهنة ، أكثر مما أنعم به على ذلك الشخص ، ويرجو لنفسه حسن الخاتمة من غير أن يعتقد سوء خاتمة ذلك الشخص ، ولا أن نفسه أولى بها منه ، فلا حرج عليه ، ثم لا يخفى أن أهل الحضرة الإلهية كلهم مقربون لا ملعونون ، فمن تعاطى أسباب اللعن أخرج من الحضرة الإلهية ، فافهم.

ومنها: أن لا يبول ولا يتغوط في الحرم ، كما كان أبو عثمان المغربي رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، والفضيل بن عياض رضي الله تعالىٰ عنه ، وسفيان بن عيينة رضي الله تعالىٰ عنه يفعلونه ، فكانوا يخرجون إلى الحل يتغوطون ويرجعون ، هكذا نقله القشيري رضي الله تعالىٰ عنه ، عن أبي عثمان وغيره رضي الله عنهم أجمعين.

ومنها: أن لا يمشي في الحرم الشريف بتاسومة[1] إلا لضرورة ، كشدة حر أو برد أو حرج ونحو ذلك ، فإن الحرم الشريف محل حياة الأولياء والملائكة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولو كشف للمؤمن الحجاب لم يجد في الحرم محلاً يمشي فيه برجله لكثرة الساجدين فيه ليلاً ونهاراً ، وقد وقع ذلك لأخي الشيخ أفضل الدين رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه فكاد أن يذوب من الحياء والخجل من الأولياء الساجدين فتوجه إلى الله تبارك وتعالىٰ وسأله أن يرخي عليه الحجاب ، فحجب عن ذلك حتى طاف وصلى ما كتب له ، وكذلك وقع مثل ذلك لشخص من مريدي سيدي أحمد الزاهد رضي الله تعالىٰ عنه ، في جامعه بالمقسم ، فصار إذا مشى ينحرف يميناً وشمالاً ويقول: دستور والناس لا يرون هناك أحداً ، فأخبرهم بذلك ، فمنهم من أنكر ، ومنهم من صدق ، فرأى مثل ما رأى وصار يقول: ما أرى موضعاً خالياً من الساجدين من الجن والملائكة ، انتهى.

ومنها: أن لا يرى له عبادة وقعت هناك على وصف الكمال إعجاباً أبداً ، لئلا يقع في الزهو والعجب بنفسه فيهلك مع الهالكين ، أما اعترافاً بالنعمة فلا بأس ، ومن هنا كان أكابر الأولياء رضي الله تعالىٰ عنهم لا يتميزون عن العامة بكثرة صوم ولا صلاة ، إنما يؤدون الفرائض وما لا بد منه من السنن خوفاً أن يطرقهم العجب بكونهم فعلوا ما فرضه تبارك وتعالىٰ عليهم ، وزادوا عليه ، فلأجل هذا الخاطر تركوا المبالغة في زيادة النفل ، مع أن النفل لا يكون إلا لمن كملت فرائضه ، وهو خاص ، بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكمل

(١) نوع من أنواع الأحذية وهي كلمة غير عربية.

ورثتهم من الأئمة رضي الله تعالىٰ عنهم ، وأما غيرهم فجميع ما يفعلونه زائداً على الفرائض فإنما هو جوابر لبعض النقص الواقع في فرائضهم ، فافهم.

ومنها: أن لا يستحلي قول من قال في حقه: هنيئاً لفلان الذي أقام بمكة ، وأقبل على عبادة ربه جل وعلا ، فمتى استحلى ذلك فهو دليل على عدم إخلاصه ، وحب للرياء والسمعة ، فعمل مثل هذا حابط من أصله ، وليس معه شيء يحسد عليه ، فكيف يفرح بمن يغبطه على ذلك ، فليتنبه المجاور بمكة لنفسه ، ويحذر من الآفات.

ومنها: أن لا يذكر هناك أحداً بسوء من سكان الحرم ، أو في سائر أقطار الأرض ، وقد كنت أسمع أهل مصر يقولون في شخص أقام بمكة: هنيئاً لفلان ، ترك الدنيا واستراح ، فلما حججت سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة جلست معه في الحرم ، فشرع يستغيب شخصاً بمدينة رسول الله ﷺ ، فقلت له: لو عرف أهل مصر ما تقع فيه هنا ما تمنوا أن يكونوا مكانك ، فكيف تستغيب في الحرم الشريف شخصاً من جيران رسول الله ﷺ ، وأنت في حضرة الله تبارك وتعالىٰ ، فلا استحييت من الله عز وجل ، ولا من رسوله ﷺ ، فماذا حصلت ؟ وكذلك وقع لي أنه جلس معي شخص آخر في الحجر تحت الميزاب ، فصار يستغيب الشريف عبد الرحيم البيروتي ، فقلت له: قم واخرج من الحرم ، كيف تستغيب أولاد رسول الله ﷺ في حضرة الله تبارك وتعالىٰ ، والله إن البهائم أحسن حالاً منك ، انتهى ما حضرني مما يليق وضعه هنا من آداب المقيم بالحرم في هذا الوقت ، وقد فتحت لك الباب ، ففتش نفسك ، فإن رأيتها تقوم بهذه الآداب فجاور بمكة ، وهنيئاً لك ، وإن رأيتها لا تقدر على القيام بذلك فارجع إلى بلادك بعد الحج ، فربما أنه أفضل لك من المجاورة.

وقد حج مع سيدي أبي العباس الغمري رضي الله تعالىٰ عنه أربعة عشر ولياً من أولياء مصر رضي الله تعالىٰ عنهم ، فاستأذنوه في المجاورة ، فقال لهم رضي الله تعالىٰ عنه: إن قدرتم على أدبها فجاوروا ، وبين لهم جملة من الآداب ، فلم يقدر أحد منهم يجاور ورجعوا رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

فاقتد يا أخي بهؤلاء الأشياخ واعمل على التخلق بأخلاقهم ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حمايتي من الأكل من صدقات الناس وزكواتهم ما دمت أجد عندي ما يسد الرمق ، وذلك لما بلغني أنني من ذرية سيدي محمد بن الحنفية رضي الله تعالىٰ عنه ، اللهم إلا أن تكون الصدقات عامة كالأوقاف فلي الأكل منها إذا كنت بصفة المستحقين لذلك الوقف ، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالىٰ علي ، وساعدني على ذلك القناعة التي جعلها الحق تبارك وتعالىٰ عندي ، ومن يستعفف يعفه الله تبارك وتعالىٰ ، ومن يستغن يغنه الله تبارك وتعالىٰ ، وقد كان والدي وجدي وأخي الشيخ عبد القادر على هذا

القدم ، ويقولون : نخاف أن نخالف هدى أسلافنا ، ونأكل من أوساخ الناس ، انتهى. فافهم يا أخي ذلك ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة شكري لله تبارك وتعالىٰ إذا زوى عني الدنيا ، كما أشكره إذا وسعها عليّ ، بل أولى لأنه إذا زوى عني الدنيا يكون لي أسوة بالأنبياء والأصفياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وإذا وسعها عليّ ، كان لي أسوة بغالب الجبابرة كقارون وثعلبة ، والتأسي بالأنبياء والأصفياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في الفقر أسلم عندي من توسعة الدنيا وإنفاقها ، وأقل حساباً ، وقد قال السلف الصالح رضي الله تعالىٰ عنهم : يا طالب الدنيا لتبر بها غيرك تركك لها أبر وأبر ، انتهى.

وقال سيدي الشيخ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالىٰ عنه : خلو اليد أرقى للعبد عندي من توسعة الدنيا عليه ، ولو نوى بها التصدق ، انتهى كلامه رضي الله تعالىٰ عنه.

وقال الفضيل بن عياض رضي الله تعالىٰ عنه : إذا أحب الله عبداً حماه من الدنيا ، وإذا أبغض عبداً وسع عليه دنياه وشغله بها عنه.

ثم إنه تبارك وتعالىٰ إذا أقامنا في حالة منهما فليس لنا طلب تحويلها ، بل يجب علينا الرضا بجميع ما يقضيه علينا ، وذلك لأننا عبيد مستعملون فيما يريد تبارك وتعالىٰ لا فيما نريد نحن ، ثم إن كان ولا بد لنا من سؤال التحويل لغرض من الأغراض الشرعية ، فينبغي لنا أن نقول : اللهم وسع علينا الدنيا إن كان في ذلك مصلحة ، أو ضيقها علينا إن كان لنا في ذلك مصلحة ، كما نقول في طلب الموت والحياة ، ثم إن كل شيء وقع بعد ذلك كانت الخيرة فيه إن شاء الله تعالىٰ لتفويضنا أمرنا إليه تبارك وتعالىٰ في الحالين ، وفناء اختيارنا في اختياره تبارك وتعالىٰ ، وقد جرب الصالحون رضي الله تعالىٰ عنهم الدنيا وقالوا : قل من كثرت عليه الدنيا إلا وتكثر غفلته عن الله تبارك وتعالىٰ ، لأن العبد كلما كان أكثر حاجة إلى الله تبارك وتعالىٰ كلما كان الحق جل وعلا على باله ، بخلاف ما إذا أعطاه قوت سنة مثلاً ، فإن غفلته تكثر ، حتى ربما كان شيخ الزاوية أكثر غفلة عن الله تبارك وتعالىٰ من التجار إذا خزن قوت سنة ، وقد اختار رسول الله ﷺ ، لأهل بيته الكفاف ، وقال : «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**»[١] والقوت هو الذي لا يفضل منه عن غذائهم ولا عشائهم شيء ، وذلك ليكونوا متوجهين إلى الله تبارك وتعالىٰ صباحاً ومساء.

وفي كلام الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه : لا توسع على عيالك وأولادك بما فوق كفايتهم إلا بإذن شرعي ، فإن طاعتهم لك بقدر ما يستحضر من حاجتهم إليك ، انتهى.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا (٦٤٦٠) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب في الكفاف والقناعة (١٠٥٥)

وكذلك القول في العبد مع ربه عز وجل تكون طاعته لربه تبارك وتعالىٰ، بقدر حاجته إليه عز وجل قال تبارك وتعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: ما وسع الله تعالىٰ على عبد دنياه إلا ليكثر شكر ربه عز وجل على ما أعطاه وأغناه به عن سؤال خلقه، ويكثر بذلك عبادته وانقياده له ولأوامره، فعكس العبد ذلك، وغفل بما أعطاه له ربه جل وعلا عنه، واتخذه ذريعة إلى المخالفات والشهوات.

وسمعته مرة أخرى يقول: إنما اختار ﷺ التقلل من الدنيا رحمة بضعفاء أمته، خوفاً أن يتبعوه في توسعة الدنيا ثم لا يهتدون بعد ذلك للخروج منها، ولا يقدرون على القيام بشكرها، ولا على تأدية حق الله تبارك وتعالىٰ منها، فاحتاط ﷺ لأمته، وإلا فاعتقادنا الجازم فيه ﷺ أنه لو أعطاه ربه تبارك وتعالىٰ الكونين لم يشتغل بهما عنه لحظة، لعصمته ﷺ، انتهى.

وسمعته مرة أخرى يقول: لا ينبغي للعارف إذا كان له أتباع ضعفاء أن يتوسع في أمور الدنيا بحضرتهم، فيهلكهم، لأنهم يقتدون في ظاهر الفعل، ولا يعرفون ما في طي ذلك من الآفات والسموم القاتلة، انتهى.

فعلم مما قررناه أن من كان توسعة الدنيا عليه مذكرة له بربه تبارك وتعالىٰ، ويشكره جل وعلا وهو قائم بذلك الشكر على مذهب السلف، فهو أولى وأعلى، ولكنه مقام خطر لا يقوم به خالصاً إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكمل الأولياء رضي الله تعالىٰ عنهم، فلذلك اختار العقلاء كلهم التقلل من الدنيا والزهد فيها، تبعاً لرسول الله ﷺ، وثم مقام رفيع، ومقام أرفع، والسلامة مقدمة على الغنيمة، وكان الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لو أوصى رجل بمال لأعقل الناس لصرفته إلى الزهاد في الدنيا، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك، واعمل على التخلق به ترشد، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم شهود فضلي على من أحسنت إليه، وتقليل ذلك في عيني، فلو أني ملكت ألف دينار مثلاً، وأعطيتها أحداً فحكمه عندي كما لو أعطيته قشة من الأرض في عدم التفاتي إليها بعد إعطائها، وذلك أني أنظر إلى الدنيا بالمعنى الذي ورد من أنها لا تزن عند الله سبحانه وتعالىٰ جناح بعوضة، فماذا عسى أن يخصني أنا من ذلك الجناح إذا فرق على جميع أهل الأرض، حتى أني أمن به أو أتذكره أو ألتفت إليه بعد العطاء، وهذا خلق غريب في هذا الزمان لا يوجد إلا في الفقراء الصادقين، لأن الفقير الصادق على قدم الملوك في شهامة النفس وكرامتها من تعاطي الرذائل المزرية بالعبد، فهو يجل مقامه أن

يلتفت إلى ما أعطاه لسائل مثلاً ، امتثالاً لأمر ربه تبارك وتعالىٰ من حيث ذات ذلك الشيء ، لا من حيث كون الإعطاء قربة ، وقد وفقه الله لها ، فإن التوفيق لذلك منة عظيمة يتأكد عليه شكرها ، ولذلك ورد مرفوعاً: «**لا تسألوا الناس شيئاً وإن كان أحدكم ولا بد سائلاً فليسأل الصالحين أو ذا سلطان**»[1] انتهى ، أي لأن الملوك والفقراء لا يمنون على أحد بما أعطوه له ، أما السلطان فإنه يحتقر ما يعطيه من حيث ما تقدم له ، وأما الصالح فإنه يرى الملك لله تبارك وتعالىٰ في الوجود ، ويرى نفسه كالوكيل المستخلف في مال سيده ، لينفق منه على عبيده بالمعروف ، فإن كان السلطان ممن يرى أنه لا يملك مع الله تبارك وتعالىٰ شيئاً فقد حاز الخير بكلتا يديه ، فليسأله السائل ، وقلبه منشرح ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا ينبغي للفقير في هذا الزمان أن يفتح باب السؤال للناس ، ولو كان كل ما أعطوه له يتصدق به على الناس ، لأن ذلك يزري به ويفوته مصالح أعظم مما فعل ، إلا أن يسألهم زكاة أموالهم الشرعية ، انتهى كلامه رضي الله تعالىٰ عنه.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: انشراح صدري للإسرار بالصدقة أكثر من الجهر بها ، إلا أن تكون صدقة فرض أو لغرض صحيح شرعي ، وذلك لما ورد أن صدقة السر تضاعف على صدقة العلانية بسبعين ضعفاً ، ولكن ليس الحاث لي على الإسرار طلب مضاعفة الأجر ، فإني لا أملك مع الله تبارك وتعالىٰ في الدارين شيئاً ، وإنما الحاث لي على ذلك امتثال الأمر الدال على أن الشارع أحب لنا ذلك لا غير ، وإنما ندب الشارع ﷺ إلى الإعلان بزكاة الفرض ، إقامة لشعار الصدقة كالصلاة ، فإنها مقرونة معها غالباً ، في نحو قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] ولئلا يلوث الناس بالغني إذا أخفى زكاته فيقعوا في الإثم ، وقد يقتدي به في ذلك مانعو الزكاة ، ويوسعون على الفقراء ، فكان أجر توسعة الأغنياء على الفقراء بسبب إظهارهم الزكاة أكبر من أجر إسرارهم ، ومضاعفة الأجر لهم ، إذ الخير المتعدي نفعه أرجح من الخير القاصر على العبد ، فقدمنا المنفعة العامة للفقراء على المنفعة الخاصة بالأغنياء ، انتهى.

وقد كان ﷺ إذا ورد عليه فقراء المهاجرين يأمر أصحابه بأن يجمعوا لهم في المسجد شيئاً ، ثم يقسمه عليهم ، فربما صار في المسجد كوم من الطعام والثياب والذهب والفضة ،

---

(١) أخرجه النسائي ، كتاب الزكاة ، باب سؤال الصالحين (٢٥٨٧) ، وأبو داوود ، كتاب الزكاة ، بالاستعفاف (١٦٤٦) ، وأحمد في مسنده (١٨٤٦٦).

فما أمرهم ﷺ بالإعلان بذلك ، وجعله في المسجد إلا ليقتدي بعضهم ببعض ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: من أعظم أخلاق الرجال أن لا يحدث أحدهم نفسه بصدقته أبداً ، ولا يحب اطلاع الناس عليها ، بل يتكدر إذا علم أحد بها ، فإن غالب الناس إذا أعطى شيئاً تصير نفسه تنازعه في أنه يذكر ذلك للناس تعريضاً أو تصريحاً ، اللهم إلا أن يكون هناك أحد يسيء الظن بالمتصدق ، ويظن به البخل أو منع الزكاة ، فمن الأدب حينئذ إظهارها ليخرج أخاه من سوء الظن لا نفرة من كونه نقصه فافهم.

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رضي الله تعالىٰ عنه يسر بصدقته ، حتى كان غالب الناس يعتقد أنه بخيل ، وقد خالطته رضي الله تعالىٰ عنه عشر سنين ، فما رأيت في علماء مصر أكثر صدقة منه، انتهى. وكان رضي الله تعالىٰ عنه إذا أراد أن يعطي أحداً شيئاً يقول له: صافحني لأجل السنة ويضع له في كفه ما قسم له، وتارة يقول: هل هنا أحد ؟ فإن قلت له نعم ، يقول لمن يريد أن يعطيه شيئاً ، عد إلينا مرة أخرى ، فإن لي بك حاجة، وهذا الأمر لا يثبت فيه إلا من صدق مع الله تبارك وتعالى وعامله مخلصاً.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: من صدقة السر أن تشتري من أحد شيئاً وتزيده على الثمن ، أو تشتري منه بواسطة بحيث لا يشعر البائع أنه وكيلك ، وتأذن له في أن يعطيه زائداً على القيمة ، قال رضي الله تعالىٰ عنه: وليس في مسائل الإخفاء أخفى من هذا ، كمن أعطى صدقته لعامل السلطان ، فإن الفقير لا يعلم من هو المتصدق عليه عيناً أبداً ، انتهى.

وفي الحديث الشريف السبعة الذين يظلهم الله تعالىٰ في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «. . . **ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»[1] انتهى ، وفي هذا الحديث أن جوارح الإنسان تعلم بالأشياء ، ويؤيد ذلك كونها تشهد عليه يوم القيامة ، ووقوع ما يشير إليه اختلاجها من خير أو شر.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

❊

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأذان ، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٦٠) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

الباب السابع
في جملة من الأخلاق
فأقول وبالله التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم تشوف نفسي إلى طلب مكافأتي على هدية أهديتها لأحد من الخلق ، إذا جئت من سفر الحجاز ونحو ذلك ، بل أحرر النية لله تبارك وتعالىٰ قبل أن أهديها له ، ثم إن علمت من همته الاهتمام بالمكافأة أرسلت له مع القاصد أني عزمت أن لا أقبل مكافأة على ذلك ، حتى أريح قلبه من التعب ، ومن قوله: والله ما كان لي حاجة بإرسال فلان لي كذا وكذا ، وأنا في غنية عن ذلك ، وهذا الأمر قل من يتنبه له من المهدي والمهدى إليه ، لا سيما من تعود الأخذ من الناس دون أن يعطيهم ، فربما أعطى شيئاً لأخيه ليصطاد به منه ما هو أكثر من هديته هو ، وربما يبطيء ذلك الشخص عليه بالمكافأة ، فيصير يحدث نفسه بها ، وربما يرسل إليه نظير هديته من غير زيادة ، فيقول: ما كان لي حاجة بها ، لكونها دون ما كان في أمله ، وبعضهم يحلف بالله تبارك وتعالىٰ رياء وسمعة أنه لا يقبل له مكافأة ، وهو في الباطن يحبها كما يقع لأصحاب الأنفس الرديئة من التجار الذين يرجعون من سفر الحجاز والشام ، ولو أنهم عملوا بآداب الفقراء فأهدوا احتساباً لله تبارك وتعالىٰ ، وقبلوا المكافأة على ذلك من الله بقطع النظر عن الخلق أصلاً ، أو مع النظر إليهم من غير وقوف معهم . . . لأفلحوا ، ولم يقعوا في شيء مما ذكرنا ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة رحمتي وشفقتي على من كان على التقوى من إخواني ، ثم غير وبدل ، وصار فاسقاً شريراً مثلاً ، فإن أحوج ما يكون أخوك إليك إذا عثرت دابته ، فالأعوج أولى بالرحمة من المستقيم ، لا سيما إن صار يحط في إخوانه الذين فارقهم ، أو في شيخه الذي فارقه ، فإنه يتأكد مداواته ، وإلا ذهب دينه بالكلية وكذلك إذا اجتمع على شخص ممن يكره شيخه ، فربما يذهب دينه كذلك ، كما هو واقع كثيراً في جماعة الأشياخ ، فإنه بمجرد ما يطرده شيخه يصير يحط عليه وعلى جماعته ، وإذا قال له أحد: كيف

فارقت شيخك ؟ فيقول: ما كل ما يعلم يقال ، ويوهم الناس أنه فارقه بحق ، وأن شيخه مرتكب أموراً لو اطلع عليها الخلق ما اعتقدوه ، وأصل ذلك كونه يصير ممقوتاً مكسور الخاطر بين الناس ، فيريد أن يجبر كسره بما يقوله فيمن فارقهم.

واعلم يا أخي أن المريد إذا خرج مطروداً فإنما تتأكد مداواته مادامت قابليته للخير موجودة ، فإن تمكنت منه أمارات الخذلان والعياذ بالله تعالىٰ وكلنا أمره إلى الله تبارك وتعالىٰ ، حتى نجد أمارات القبول ، ويسوق علينا السياقات ، وهناك ينبغي لنا قبوله ، فإن لم يكن هناك أمارات ، وطلب الرجوع إلى الزاوية منعناه ، خوفاً من أن يفسد الجماعة ، ويعلمهم سوء الأدب. وما أخرج الأكابر من الأولياء فضلاً عن الأنبياء أحداً مطروداً وأفلح أبداً لأنهم لا يطردون أحداً وفيه رائحة خير أبداً ، ثم إذا طردناه فيكون ذلك بالقلب دون اللسان ، فإنه أقل حياء بيقين ممن يكلمه الكلام الجافي من أهل الزاوية أو غيرهم ، ويتولد من ذلك شرور ومخاصمات ، وربما ترافعوا للحكام ، ولا ينسب إلى ساكت قول ، انتهى.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: الفقير هو من يعمل بقلبه دون يده ولسانه ، ثم يقول رضي الله تعالىٰ عنه كان سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: كل الطيور تقول ولا تفعل ، والبازي يفعل ولا يقول ، ولذلك صارت أكف الملوك سدنته يجلس عليها ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم قطع بري وحسنتي للناس إذا كفروا وساطتي في ذلك ، فإني عبد ليس لي فضلاً على أحد ، وإنما أنا استعمل فيما أمرني الحق تبارك وتعالىٰ به ، وليس لي معه ملك أرى لي به فضلاً على أحد من عبيده مطلقاً ، وبتقدير رؤيتي الفضل على العباد فكلما كفروا وساطتي توفر لي الأجر ، بخلاف ما إذا مدحوني ، فربما كان ذلك المدح يرجح على ذلك العطاء فلا يبقى لي حسنة ، وقد كان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: أعظم الناس أجراً من يحسن إلى من لا يشكره أو إلى من يؤذيه من الأعداء ، انتهى.

وسمعته أيضاً رضي الله تعالىٰ عنه يقول: من أراد النصرة على أعدائه فليحسن إليهم ، وليتأمل في نفسه الذي يعاقب ولده وتلميذه مثلاً بقطع الإحسان إليه ، يجد الحق تبارك وتعالىٰ يرزقه ليلاً ونهاراً مع كونه مخالفاً له ، فينبغي للعبد أن يعامل عبيد سيده بالحلم والعفو والصفح وعدم المعاجلة بالعقوبة ، كما يعامله سيده ، ثم لا يخفى أن الإثم الواقع لمن يعاقب ولده مثلاً يقطع رزقه إنما هو من حيث قصده هو ، وإلا فالعبد لا يقدر أن يرد ما قسمه الله تبارك وتعالىٰ لغيره أبداً ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: طيب نفسي بإعطاء القطة أو الكلب ورك الدجاجة التي بين يدي إذا رأيتها تتوقع الإحسان بالقرائن ، وكثيراً ما أعطيها الدجاجة كاملة إذا كانت جيعانة ، فعلم من ذلك أنني بطريق الأولى لا أجري وراءها إذا خطفت الدجاجة المحمرة ، ولا أمكن أحداً من أن يجري وراءها؛ لأني قد أعطيها ذلك بطيبة نفس ، ثم إن جرى أحد وراءها ورأيت أن إرعابها وإزعاجها يذهب أجر الدجاجة ، وكأننا لم نعطها شيئاً ، بل ربما لم تكن الدجاجة تفي بضرر إرعابها ، انتهى.

واعلم يا أخي أن الهرة ما خطفت الدجاجة مثلاً من بين أيدينا إلا بعد أن جربتنا في البخل والشح عليها ، وبعد أن رأت الواحد منا يجرد اللحم عن العظام ، حتى لا يبقى عليها جلدة ولا عصباً ، فما خطفت حتى أيست من إحساننا لها ، مع أنها ما أقامت عندنا إلا لظنها فينا الكرم والبر ، وأننا نرمي لها شيئاً تأكله إذا وقفت بين أيدينا ، فإنها تفهم الأمور ، ولكنها عاجزة عن النطق بما تفهمه ، وقد ذكر بعض المحققين: أن البهائم ما سميت بهائم إلا لإبهام أمرها علينا ، لا لإبهام الأمور عليها هي ، قال رضي الله تعالىٰ عنه: وتأمل صناعة نحو العنكبوت والنحل ، فإنها تطلعك على أن للحيوانات تدبيراً ورؤية بإلهام من الله تبارك وتعالىٰ ، وإن لم تكن مكلفة انتهى.

وقد كان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يوصي عياله على القطيطة ، لا سيما في نهار رمضان ، ويقول: إن الناس لا يأكلون نهاراً ، فلا تجد القطة ما تأكله فتضيع مصالحها ، انتهى ، ورأيته رضي الله تعالىٰ عنه كثيراً ما يضع للنمل الدقيق أو الفتات على باب جحرها ، ويقول رضي الله تعالىٰ عنه: نغني النملة عن الخروج للسعي على قوتها وقوت رفقتها ، فإنها لا تخرج حتى تبايع نفسها على أنها لا ترجع إلا بشيء ، فتعرض نفسها لوقوع حافر أو نعل عليها ، فإما تموت ، وإما تنكسر يداها ، أو ترضخ أضلاعها ، فتمرض زماناً طويلاً ، وتقاسي من الألم ما لا يقاسي أحدنا لو كسرت يداه أو أضلاعه ، ونام على قور سبعة أشهر وأكثر ، انتهى.

وقد بلغنا عن الإمام الغزالي رضي الله تعالىٰ عنه أنه رئي بعد موته ، فقيل له: ما فعل الله بك ؟ قال: غفر لي بصبري عن الكتابة لما جلست ذبابة على القلم تشرب من المداد حتى فرغت ، فطارت ، انتهى.

ومما وقع لي أن زوجتي فاطمة « أم عبد الرحمن » حصل لها حادر نزل على قلبها ، فصاحت والدتها ، وأيقنت بموتها ، فحصل لي تشويش عليها ، وإذا بقائل يقول لي وأنا في مجاز الخلاء: خلص الذبابة من ضبع الذباب في الشق الذي تجاه وجهك ، ونحن نخلص لك

زوجتك ، فمضيت إلى الشق فوجدته ضيقاً لا يسع الإصبع ، فأخذت عوداً وأدخلته فسحبت ضبع الذباب مع الذبابة ، فوجدتها صائحة منه وهو عاض على عنقها ، فخلصتها منه ، فخلصت زوجتي ، وصحت في الحال ، وفرحت والدتها اهـ فمن ذلك اليوم ما احتقرت شيئاً من الإحسان إلى الدواب والحيوانات التي لم يأمر الشارع ﷺ بقتلها ، انتهى.

وقد كان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إذا كان عندكم شيء من العسل أو السكر فصبوا من ذلك شيئاً على باب جحر النمل ، أو في المواضع الذي تمر فيه على اسمها ، ولا تجعلوا لها قطراناً على الإناء إلا بعد ذلك ، فإن من عسر على حيوان طريق الوصول إلى رزقه فربما عسر الله تبارك وتعالىٰ عليه طريق رزقه كذلك ، جزاء وفاقاً بحكم العدل الإلهي ، ثم لا يخفى أن أولى الناس بالعمل بهذا الخلق حملة القرآن والعلم؛ لأن الناس يقتدون بهم في ذلك ، ولا ينبغي لهم أن يتركوا الإحسان إلى الدواب والخلق إلا بطريق شرعي ، انتهى.

وقد حكى لي الحاج محمد الحلبي قال: كنت أطرد القطة كلما وقفت عليّ وأنا آكل ، فجاءتني في المنام ، وقالت: مثلك يطرد القطة ويبخل بأكلها ، وقد خولك الله تعالىٰ النعمة ووسع عليك ، فقلت: أضغاث أحلام وطردتها ، فجاءتني في المنام وقالت لي مثل الأول ، فقلت: أضغاث أحلام وطردتها ثاني مرة فجاءتني في الثالثة ، فصرت أطعمها من كل شيء أكلت منه ، انتهى.

وقد حكى لي بعض الفقراء أنه كان له جار يطبخ ألوان الطعام ، قال: فيدخل له أولادي الصغار فيصير أحدهم واقفاً ينظر إليه فلا يعطيه قطعة لحم مثل قطة الفقيه. ا هـ.

وكنت لم أسمع بهذا المثل قبل ذلك ، فاستنبطت من ذلك أنه لولا أن ذلك يتكرر من الفقيه مثلاً ما صح ضرب المثل به ، انتهى. فإياك يا أخي من العمل بمثل ذلك ، وقد صرح بعض المحدثين رضي الله تعالىٰ عنهم باستحباب تربية القط ، وذلك يستدعي إطعامه وسقيه وعدم الشح عليه ، واستحباب الإحسان إليه ، انتهى ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حضور قلبي مع الله تبارك وتعالىٰ حال أكلي وشربي ، وشهودي أن ذلك من فضل الله تعالىٰ عليّ لا أستحق ذرة منه ، بل لا أقوم بواجب حقه تبارك وتعالىٰ عليّ لو سففت الرماد ، ثم إذا وقع لي أنني أكلت غافلاً عن ذلك المشهد أو شربت ، استغفرت الله تبارك وتعالىٰ حتى يغلب على ظني أن الله تبارك وتعالى قبل استغفاري فضلاً منه ، وإنما لم أقل: استغفر الله مرة فقط؛ لأن مثلنا ربما لا يقع له حضور في استغفاره إلا بعد سبعين مرة أو أكثر.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: ما أسبغ الله تعالىٰ علينا النعم بالأصالة ليمكر بنا ، وإنما أسبغها علينا ليجمع قلوبنا عليه ، ولا نخرج من حضرته تبارك وتعالىٰ إلا لعذر شرعي ، وكأن الحق تبارك وتعالىٰ يقول: من كنت كافيه عن الحرف والصنائع التي تحجبه عني بما سخرته له من الرزق على يد عبادي من حيث لا يحتسب ، ولا تستشرف نفسه إليه ، فلأي شيء يخرج من حضرتي.

وسمعته رضي الله تعالىٰ عنه أيضاً يقول: تيسير استعمال الطعام نعمة كالصلاة ، فكما أن الصلاة ما شرعت إلا لحضور العبد فيها بقلبه مع ربه تبارك وتعالىٰ ، فكذلك الحكم في مشروعية الأكل والشرب ، ما شرعا إلا ليحضر العبد فيهما مع من أحسن بهما إليه ، انتهى.

واعلم يا أخي أنه ما واظب أحد على الحضور مع الله تبارك وتعالىٰ حال أكله وشربه إلا أورثه الله تبارك وتعالىٰ القناعة ، والزهد في الدنيا ، وكفاه شر نفسه ، انتهى.

وسمعت أخي أفضل الدين رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إذا عاتبت ولدك أو خادمك على أمر فعاتبه وهو جالس يأكل معك ، فإنه أسرع لانقياده لك ، فيقول: كيف أكون مخالفاً لأمر سيدي وأنا آكل في خيره ، قال رضي الله تعالىٰ عنه: وإيضاح ذلك أن شكر المتلبس بالنعمة أعظم من شكر من يرجوها قبل أن يتلبس بها ، انتهى كلامه رضي الله تعالىٰ عنه.

فاعمل يا أخي على تحصيل الحضور مع ربك تبارك وتعالىٰ حال أكلك وشربك ، ولو متفعلاً ، كما تتفعل في الحضور معه جل وعلا حال صلاتك ، فمن واظب على ذلك صار خلقاً له ولو على طول لا يتكلف له ، وما رأيت ألذ من الأكل حال حضور القلب مع الله تبارك وتعالىٰ ، ولا أقل لذة من الأكل غافلاً ، لكن ذلك لا يكون مطلوباً إلا للكمل الذين لا يلهيهم عن الله شيء أما من تلهيه لذة الأكل عن الله تبارك وتعالىٰ فلا يكون ذلك مطلوباً له ، بل يحضر مع الله تبارك وتعالىٰ بلا أكل أكثر من حضوره وقت الأكل ، ومن هنا نهينا عن الأكل في الصلاة ، ولو كنا من أكمل الناس سداً للباب ، فليفهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: ما أدمن أحد الحضور مع الله تبارك وتعالىٰ إلا قل أكله وصار تكفيه اللقمة واللقمتان ، ومن هنا قالوا: فلان يأكل ولا يشبع كالمجانين.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم تكدري ممن ذهبت إلى زيارته ، ولم يأذن لي في الدخول من عالم أو أمير أو صالح أو غيرهم ، حتى أني لو سمعته يقول من وراء الباب بئس من جاء ، أو قولوا له: فلان ما هو هنا ، أو ما هو فارغ أو أغلقوا دونه الباب ، أو نحو ذلك ،

لا أتكدر ، وهذا الخلق غريب قل من يتخلق به ، وغالب الناس يتكدر ، وهو جهل عظيم بالقرآن ، فإنه تبارك وتعالىٰ قال وهو أصدق القائلين: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٨]. فشيء شهد الله سبحانه وتعالىٰ بأنه أزكى للعبد فكيف يليق به أنه يتكدر إذا حصل ذلك له.

وبالجملة فلا يحصل هذا الخلق إلا لمن راض نفسه على يد شيخ صادق ، حتى ذهبت رعوناتها أو حصل له جذبة إلهية ، وإلا فمن لازمه غالباً التكدر لمن لم يفتح له الباب ، ولم يبجله ، بل بعضهم يخرج فيه شاعراً يهجوه في المجالس ، ويصير بعض الجهلة يقول له: ما كان ينبغي أن يغلق الباب على مثلك ، ويجعل له الحق على صاحب الدار ، فيزداد بذلك غيظاً وحمقاً ، ولوأنهم قالوا له: غيظك منه حمق؛ لأن الله تبارك وتعالىٰ قد جعل الأمر إلى صاحب الدار لا إليك ، ولو أنه جعل الأمر إليك لكان نهى صاحب الدار عن قوله لك: ارجع ، ولعمري إن الزيارة من مثل هؤلاء الرعاع مذمومة ، ولو تركوها لكان أولى لهم وللمزور؛ لأنها زيارة لغير الله عز وجل ، وأكثر من يقع في مثل ذلك أهل الجدال بغير علم.

وما رأت عيني أحسن زيارة لأخيه في عصرنا هذا من زيارة الشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني ، وصاحبه الشيخ الصالح المسلمي ، وسيدي محمد بن الحنفي الشاذلي ، والشيخ نور الدين الطندتائي ، والشيخ صالح البرهاني ، شيخ تربة السلطان قايتباي رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم ، وكذلك الشيخ زين العابدين البلقيني ، والشيخ سراج الدين الحانوتي الحنفي رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين وأرضاهم ، فما جاءني أحد قط من هؤلاء السادة الأشياخ ووجد بابي مغلقاً ودق الباب أو تكلم أبداً ، بل يقرأ الفاتحة ويذهب منشرحاً.

وأما غيرهم فربما جاء أحدهم وشره على مقدمه ، وإن رددته ولم أفتح له الباب مزقني في الآفاق وإن فتحت له أشبعني من الهذيانات ، وإن أدخلته بيتي وأخرجت له كسراً يابسة ، أو شيئاً يسيراً غضب ، وقال: إني على نية ، فما يخرج من عندي حتى يخض بدني ، ويذوّب قلبي ، ويشغلني عن ربي عز وجل إذا كنت في ذلك الوقت ضعيف الاستعداد عن تحمل مثل ذلك.

وقد جاءني مرة شخص يدعي العلم وكنت شارباً دواء فقالوا له: إنه شرب دواء فلم يصغ إلى قولهم، ودق الباب دقاً مزعجاً فشوش علي تشويشاً عظيماً، فإن دق الباب على الفقير كضربه بالسيف ، كما يعرف ذلك أرباب الجمعية على حضرة الله تبارك وتعالىٰ بقلوبهم وصار يقول: أنا أعرفه قبل أن يعمل شيخاً، وهو يكذب؛ لأني لم أعمل شيخاً، ونقلت مؤلفاتي قبل أن يولد ، فغارت القدرة عليه فعمي بعد أيام من غير دعاء عليه.

فإياك يا أخي ودق الباب على فقير ، فإنه ربما كان في حال قاهر يمنعه من لقاء الناس مطلقاً ، وإن تكلف وتلقاهم لا يقدر على أن ينصفهم في السلام والبشاشة على جاري عوائدهم

قبل ذلك ، فيحصل لأحدهم التكدير وللفقير كذلك ، ولا يقدر يحكي حاله لكل من ورد عليه ، فالعاقل من حمل الفقير على المحامل الحسنة ، والسلام ، ومن علامة الحال القاهر أن لا يقدر على الخروج لصلاة الجماعة ، فاعلم يا أخي ذلك وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: صحة توجهي إلى الله تبارك وتعالىٰ في دفع الدنيا عني ، كما إذا بلغني مثلاً أن شخصاً أوصى لي بمال ، فأتوجه إلى الله تبارك وتعالىٰ في دفعه عني ، فيدفعه عني. ويلهم صاحب الوصية أن يمحو اسمي ، ويكتب اسم غيري ، أو تشح الورثة عليّ بتلك الوصية وينكرونها ، بعد أن أكون قد أسقطت حقي منها ، كما وقع لي ذلك مع الشيخ تاج الدين الطائفي ، أوصى لي بأربعين ديناراً فأنكرها ورثته ، وجاءني الشهود وأخبروني ، فقلت: أنا الذي توجهت إلى الله تبارك وتعالىٰ في دفعها عني وهذا دليل على صدق توجه الفقير إلى الله تبارك وتعالىٰ في دفع الدنيا عنه ، وزهده فيها ، فإن الراغب فيها لا يقدر على أن يوجه قلبه إلى الله عز وجل في سؤال دفع الدنيا عنه ، انتهى.

وهذا الخلق لم أر له فاعلاً إلا القليل ، وله حلاوة عظيمة يجدها صاحبه أعظم من حلاوة من كان فقيراً فنام واستيقظ فوجد عند رأسه جراباً مملوءاً ذهباً في برية ، لا يعرف له صاحباً ، كما جربنا ذلك ، فالحمد لله رب العالمين.

وتقدم في هذه المنن أن مما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به علي محبتي لمن سعى في قطع رزقي المتوهم ، ومعارضته في وصول شيء من الدنيا إليّ ، مع عدم حاجتي إليه ذلك اليوم ، ومن كان يدعي وصوله إلى هذا المقام فليمتحن نفسه بما لو كتب جماعة السلطان اسمه في ديوان الفقراء ، وجعلوا له ألف دينار ، فجاء شخص وقال: هذا ليس من الفقراء ، هذا منافق جاهل مرائي ، فمحوا اسمه ، فإن انشرح لذلك فدعواه صدق ، وإن انقبض فدعواه كذب ، انتهى.

فاعلم يا أخي ذلك وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تنبهي في المنام واليقظة على ما أكلته من الحرام والشبهة ، بعلامات جربتها في أكل الحرام دون الحلال ، وهي ثلاث علامات.

أولها: أن يكون للشرع على ذلك الطعام اعتراض ، من حيث وضع اليد عليه.

ثانيها: وجود الظلمة في قلبي ، والثقل في باطني بعد أكله ، حتى كأني أكلت قطعة من الحجر

ثالثها: أن أقوم من النوم فأمكث ساعة وأنا مخبط العقل ، كما يقع لمن يأكل الربا ، فإن أخطأتني علامة من هذه العلامات الثلاث لم تخطئني العلامتان الأخريتان ، وكثيراً ما أتقيأ

ذلك الطعام إذا علمت بحاله قبل أن يستحيل ، ويقع لي ذلك كثيراً لما آكل من ضيافة الفلاحين ، أو من طعام أحد من المباشرين.

وأما نحو المكاس والظالم فحماني الله تبارك وتعالىٰ في ماضي عمري كله من طعامه إلى وقتي هذا فأغناني الله تبارك وتعالىٰ بذلك عن هذه العلامات.

واعلم يا أخي أن من أعظم علامة للشبهة نفرة القلب من ذلك الطعام ، لقوله ﷺ «**استفت قلبك وإن أفتاك المفتون**»[1] يعني إن أفتوك بخلافه فاعمل بقلبك دون فتواهم ، وفي ذلك أيضاً إخفاء لمقام الورع ، فلا يدري بورعه أحد من الناس ، بخلاف ما إذا تقيأ ذلك الطعام مثلاً ، فافهم ، فقل من يتنبه لما قلناه من العلامات ، بل رأيت بعض المشايخ يأكل من طعام مكاس ، فأنكرت عليه ، فقال: البحر لا تكدره الدلاء ، فقلت له: هذا من جملة الاستدراج ، ثم إني حكيت ذلك لسيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه فقال: مثل هذا ربما يكون وقود النار لتهوره في دينه ، ثم قال سمعت سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: للقمة الحرام والشبهة أثر عظيم في قلوب الخلق على اختلاف طبقاتهم ، ومراتبهم ، فأثرها في العوام وقوعهم في أعمال مذمومة لم تكن لهم عادة بفعلها ، وأثرها في طلبة العلم أو المريدين من أهل الطريق قسوة في القلب ، وثقل في الطبيعة ، وأثرها في المتوسطين في الطريق غفلتهم عما يعود عليهم نفعه من مصالح الدارين ، وأثرها في الكاملين كثرة الخواطر التي لا منفعة فيها ، وأثرها منعهم من الدخول إلى حضرة الله تبارك وتعالىٰ بقلوبهم حتى في الصلاة ، وأثرها في القطب والأوتاد والأبدال وغيرهم من أصحاب الدوائر أمور لا يعرفها إلا أصحابها ، انتهى.

وقد ألهمني الله تبارك وتعالىٰ من نحو أربعين سنة أن أقول إذا قدم إلي طعام أشك في حله ، اللهم احمني من الأكل من هذا الطعام ، فإن لم تحمني منه فلا تدعه يقيم في بطني ، وإن جعلته يقيم في بطني فاحمني من الوقوع في المعاصي التي تنشأ منه عادة ، فإن لم تحمني من المعاصي فاقبل استغفاري ، وأرض عني أصحاب التبعات التي في هذا الطعام ، فإن لم ترضهم عني فاعف عني ، فإن لم تعف عني فصبرني على العذاب يا أرحم الراحمين ، انتهى. فلم أزل أقول ذلك عند كل طعام شككت في حله إلى وقتي هذا.

فاعلم يا أخي ذلك وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم إطعامي الضيف شيئاً فيه شبهة ، ولو أنه هو طلب

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢٨٨) ، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٧٨) ، ومسند الشاميين (١٨٠) ، وأبو يعلى في مسنده (٧٤٩٢) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ٤٤).

مني ذلك منعته منه كما يمنع الطفل من أكل شيء يضره في الدنيا والآخرة ، وإيضاح ذلك أن المؤمن مؤتمن على أديان الناس وأبدانهم ، ومن طلب منه أن يطعمه شيئاً يضره فهو في العقل كالطفل ، ولو أنه كان رشيداً لم يأكل ما ينقص دينه ، وهذا خلق غريب قليل من يعمل به في هذا الزمان ، وغالبهم يطعم الضيف الحرام فضلاً عن الشبهات ، وذلك خلاف الشرع ، فإن الشرع ما أمر بالضيافة إلا من كان عنده طعام حلال وأما من كان عنده طعام حرام ، أو شبهة فلم يأمره بالضيافة منه ، إلا إن كان الضيف مضطراً ، فإن أطعم أحداً شبهة كان له المهنا ، وعلى من أطعمه الحساب.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، وأمطر عليه من سحائب رحمته الهامعة ، إذا أكل عند أحد من إخوانه يقول: اللهم إن كان هذا الطعام حلالاً فوسع على صاحبه ، وإن كان فيه شبهة فاغفر لي وله ، وأرض عنا أصحاب التبعات يوم القيامة ، آمين.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تبارك وتعالىٰ الرحمة الواسعة ، وأمطر عليه من شآبيب رحمته الهامعة ، ونفعنا به والمسلمين ، يضيف الوارد عليه باللقمة أو التمرة أو بشربة من الماء ، ويقول: يا أخي هذا الذي وجدته لك من الحلال في هذا الوقت ، وكان رضي الله تبارك وتعالىٰ عنه وأرضاه إذا علم من الضيف كثرة الأكل ، يقدم إليه الشيء اليسير شفقة على دينه ، كما يفعل مع الأطفال إذا خافت عليهم والدتهم حصول وجع من شدة الأكل ، وكان رضي الله تبارك وتعالىٰ عنه وأرضاه أكثر ما يفعل مع الناس ذلك في ليالي رمضان ويقول سر الصوم ومدده إنما هو في الجوع الزائد على الجوع أيام الفطر ، انتهى كلامه رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه.

وهذا الخلق لا يقدر على العمل به إلا من خرج عن الحياء الطبيعي إلى الحياء الشرعي ، ولم يخف في الله لومة لائم ، وكان أشفق على الضيف من نفسه.

فعلم مما قررناه أن كل من قدم لضيفه طعاماً فيه شبهة أو قدم له طعاماً كثيراً فوق العادة أو قدم له عند فطره مثل ما كان يأكله حال عشائه في أيام الفطر ، فقد أساء في حقه ، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً ، انتهى ذلك. فأشفق يا أخي على دين ضيفك ، ولا تخف في الله سبحانه وتعالىٰ لومة لائم ، ولا تخف أيضاً من لومة لك في الدنيا ، فإنه سوف يشكرك في الآخرة ، فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

•

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم تكلفي للضيف ، ولذلك لم يحصل عندي ملل من الضيف أبداً ، ولو ورد عليّ كل يوم ألف نفس ، ومعلوم أن كل من تكلف للناس كره لقاءهم ، وهرب ولو على طول ، أو يصير يطعمهم ما يضرهم في باطنهم من غير طيبة نفس ،

وهذا هو الأمر الذي نهى الشارع ﷺ وزاده فضلاً وشرفاً لديه ، عن طعام البخيل لأجله ، وقد ورد «**طعام البخيل داء**»[1] اهـ.

وقد تكلف قوم للضيوف ، وخالفوا ما قلناه ، فكان آخر أمرهم الإفلاس ، وضيق المعيشة ، لكونهم أطعموا الناس لغير الله تعالىٰ رياء وسمعة ، ولو أنهم كانوا أطعموهم لله عز وجل بطريقه الشرعي لما أفلسوا ، وكان الله تبارك وتعالىٰ أجرى على يدهم أرزاق الخلائق إلى أن يموتوا إلى رحمة الله تعالىٰ ، ويخلف عليهم أضعاف ما بذلوه ، ثم إن أكثر من يقع في التكلف أولاد الأشياخ في الفقه والتصوف ، فيموت والدهم ، فيريد أحدهم أن يفعل مثل ما كان والده يفعل من ضيافة كل من ورد عليه ، فيورد نفسه موارد الغلبة ، وربما ارتكبه الدين بسبب ذلك ، وغاب عنهم أنه ليس كل فقير يقدر على إطعام كل وارد عليه ، إنما ذلك لبعض أفراد من الفقراء.

وقد أخبرني سيدي الشيخ محمد بن عنان رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، وأمطر عليه من سحائب رحمته الهامعة ، أن الشيخ عبود رحمه الله تعالىٰ ونفعنا والمسلمين بإمداداته ، الذي زاويته تحت الجبل المقطم ، عنده في زاويته أربعة أسمطة كل سماط منها موضوع في إيوان ، فكل من ورد عليه يأكل من أي سماط شاء ، سواء أوجد الشيخ أو لم يجد ، فلما مات جاء بعده فقير أعلى مقاماً منه ، فلم يقدر يطعم الناس مثل الشيخ عبود ، وخرج من الزاوية ، انتهى.

فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم إعلامي المعارف بما أريد أن أصنعه من وليمة عرس أو ختان أو سلامة من مرض ونحو ذلك ، خوفاً أن أحداً منهم يتكلف ويساعدني في ذلك الطعام من غير نية صالحة ، وإن علمت من النقباء الذين حولي أنهم يخبرون بذلك أحداً زجرتهم عن ذلك ، فلا أعلمهم إلا بعد عمل الطعام ، وهذا خلق غريب قل من يتنبه له من الفقراء ، بل ربما غضب بعض الفقراء على كل من لم يساعده في وليمته ، ويقول: فلان ليس هو بصاحب لنا ، ويقبح فعله بين الناس ، بل رأيت بعضهم يسافر بنفسه فيجرد مشايخ العرب والكشاف ، ويسألهم في مساعدته بنفسه ، فيعمل في ذلك المولد بعض ما جرده ، والباقي يبيعه أو يأكله طول سنته ، هذا مع أنه يزعم أنه من الصالحين.

فإياك يا أخي أن تفعل مثل ذلك ، وقد قالوا: من شهامة مقام الشيخ أن يطعم الناس ولا يأكل لهم طعاماً إلا لحاجة ضرورية ، وأعرف جماعة من أصحابي يهربون إذا سمعوا أنني

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس ٢ / ٤٥٦ (٣٩٥٤)

عازم على عمل مولد ، فلا يظهرون حتى يفرغ المولد ، فجزاهم الله تعالى عني خيراً ، فإنهم أحسن عندي حالاً ممن يحضر خوف العتب ، ويصير ينقط المداحين بالفشافش والفلوس رياء وسمعة ، وربما لحقني الإثم بسببه؛ لأنه ما وقع مثل ذلك إلا مراعاة لخاطري على وهمه ودعواه.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه ، لا يأكل قط من ولائم النسوان ، ويقول: من شهامة الرجل أن لا يأكل من كسب غيره من الرجال ، فكيف يأكل من كسب النساء. قال رضي الله تعالىٰ عنه: والنكتة في ذلك كون القلوب جبلت على حب من أحسن إليها قهراً عليها ، فيصير من يقبل رفق المرأة الأجنبية يميل إليها طبعاً ، مع أنه لا حق له في الاستمتاع بها ، ويكره له التلذذ بكلامها أو نحوه ، فيريد من نفسه أنه لا يميل ولا يستلذ بحديثها فلا يقدر ، انتهى.

ووالله إنه يقع لي في بعض الأوقات أن بعض الناس يعطيني الدراهم وأنا محتاج إليها ، فأردها وأطوي خوفاً من تحمل منة الرجال ، وربما إنه كان يعظمني ويهابني وينتفع بي ، فإذا قبلت منه تلك الدراهم صرت بالضد من ذلك ، وسيأتي في هذه المنن أن الشيخ إذا علم من مريده أنه صار يرى جميع ما بيده إنما وصل إليه ببركة أستاذه وأنه وعياله إنما يأكلون من مال ذلك الأستاذ ، فلا حرج على الشيخ حينئذ في الأكل من طعام ذلك المريد ، انتهى.

فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ويدبرك فيما أبلاك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حمايتي من التداوي بإشارة كافر لعدم الثقة بقوله شرعاً ، وقل من يسلم من ذلك في هذا الزمان ، وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: في ضمن التداوي بإشارة الكافر نكتة تخفى على كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم ، وهي أنه إذا وافق شفاؤه إشارة ذلك اليهودي مثلاً يصير يوده بقلبه قهراً عليه ، فيريد أن يتخذه عدواً كما أمره الله تبارك وتعالىٰ فلا يقدر على نفسه أن يعاديه ، وقد قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]. انتهى. قال الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه: وإنما قال تبارك وتعالىٰ وعدوكم ، ولم يكتف بقوله عدوي ، لعلمه جل وعلا بأن في عباده من لا ينزجر عن مودة الكافر لكونه عدو الله تعالى وحده ، فلذلك قال تعالىٰ: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ ، حتى لا يبقى لنا عذر في مودتنا للكافر ، انتهى.

فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ويدبرك فيما أبلاك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: شهودي بأن جميع ما ينزل عليّ من البلايا والمحن ليس هو من بغض الحق تبارك وتعالىٰ لي ، وإنما ذلك محبة فيّ كما وردت به الأحاديث ، ما عدا المعاصي ، فإن الحق تبارك وتعالىٰ لا يبتلي بها إلا من يكرهه ، ومن شهد هذا المشهد صار يشهد سداه ولحمته نعماً من الله تبارك وتعالىٰ عليه ، ورأى جميع ما يؤلمه به إنما هو تأديب له ومصلحة ، كشرب الدواء الكريه ، فإن صاحب البلاء لا يخلو حاله من ثلاثة أمور كما مر تقريره مراراً لأنه إما أن يكفر خطاياه ، وإما أن يرفع درجاته ، وإما أن يكون عقوبة له على ذنب سلف.

وتأمل يا أخي الوالد كيف يفرك أذن ولده إذا خاف عليه من الوقوع في بئر مثلاً ، وكذلك الوالدة تغرز الأبرة في بدن ولدها خوفاً عليه من وقوعه في أمر هو أشد من غرز الإبرة في بدنه ، ويعد العاقل ذلك الفعل من الوالدين شفقة ومحبة لولدهما لا بغضاً له ، فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة شفقتي ورحمتي لمن دخلت عليه أعوده من المسلمين ، حتى أني كثيراً ما أسأل الله تبارك وتعالىٰ تحويل ذلك المرض إليّ ، فيصير ذلك المرض يخف عليه وينتقل إليّ شيئاً فشيئاً حتى أمرض ، ويخلص هو من المرض هذا ، في مرض يقبل النقل ، فإن كان الأمر الإلهي قد حق به ، سألت الله تبارك وتعالىٰ أن يلطف به ، وانصرفت من غير تحمل ، ثم إن المرض إذا انتقل إلي لا أرى لي بذلك فضلاً على المريض؛ لأني لم أتحمل عنه المرض الذي قدره الله تبارك وتعالىٰ على بدنه وإنما حملت عنه ما لم يقدره الله تعالىٰ عليه ، وكأنني سألت الله تبارك وتعالىٰ أن يجعل عندي من المرض مثل المرض الذي عند ذلك المريض لا غير ، فما حمل أحد عن أحد مرضاً هو لغيره أبداً لمن تأمل ذلك ، وإنما المريض لما رأى المرض انتقل عنه بتوجه ذلك الفقير إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، ظن أنه حمله عنه ونظير ذلك ما إذا رمى إنسان على شخص حجراً ليقتله فبادر إلى ذلك الحجر شخص وتلقاه عنه فلم يصل إليه ، فيصير ذلك الشخص المرمى عليه يشكر من فضل من تلقاه عنه ، ويقول جزاك الله عني خيراً ، مع أن الحجر في الحقيقة إنما قدره الله تبارك وتعالىٰ على من تلقاه ، فافهم ذلك ترشد.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ إذا دخل على مريض يقول بتوجه تام: اللهم إن كان هذا المرض الذي هو في أخي يقبل النقل فانقله إليّ ، وصبرني عليه ، وأقدرني على تحمله ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ إذا دخل على مريض ، ورأى أن ذلك المرض يرفع درجات ذلك المريض ، يدعو له بالرضا وبالصبر ، ثم ينصرف ، وإن رأى أن ذلك

المرض يزيد المريض سخطاً على مقدورات ربه ، دعا له بالتحويل ، انتهى .

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، وأمطر عليه من سحائب رحمته الهامعة آمين ، اللهم آمين ، يقول: إذا لم يتحمل الفقير المرض عمن عاده ، أو يخفف عنه المرض بدعائه ، فليس في عيادته كبير أمر ، غايته أنه يتوجع له لا غير ، ويخرج عن المريض وهو يتجرع الصبر ، وما هكذا كانت زيارة السلف الصالحين ، انتهى كلامه رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه .

ولكل رجال مشهد .

ويقع لي بحمد الله تبارك وتعالىٰ في بعض الأوقات أنني أدخل على المريض ، فتسرقني الرحمة له فأرجع مريضاً كأن لي شهراً مريضاً ، ولا أقدر على رد ذلك المرض عني فأمرض يوماً أو أياماً ثم أخلص ، وتقدم بسط ذلك مراراً ، انتهى فاعلم ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم غفلتي عن الصلاة في أول وقتها مدة مرضي، أو أوقات تحملي مصائب الزمان عن الإخوان ، أو يوم موت ولدي العزيز عندي ، أو نحو ذلك ، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ ، وكثير من الناس يترك الصلاة أصلاً ذلك اليوم ، أو يخرجها عن أوقاتها أغلب أيام المرض ، وكثيراً ما أكون في شدة المرض والألم فيدخل وقت الصلاة فيخف الألم عني ، وأصحو من المرض حتى أسلم من الصلاة ، وقد كان ﷺ يرتاح إلى الوقوف في الصلاة ويقول: «**أرحنا بها يا بلال**»[1] انتهى ، وهذا دأبي على الدوام ، وكثيراً ما أنشد قول بعض عرب البوادي:

الأوجاع ما خلين في بقية ولا مفصل إلا وفيه جراح[2]

فلا أرى الآن مفصلاً واحداً إلا ويطرقه المرض من كثرة تحمل هموم الناس ، وكثرة توجههم إليّ في شدائدهم .

وقد كانت هذه من وظائف سيدي الشيخ أحمد بن الرفاعي رحمه الله تعالىٰ ، ونفعنا به ، فما زال يتحمل هموم الناس حتى صار عظاماً ليس عليها أوقية لحم ، رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، وكان رضي الله تبارك تعالىٰ عنه يقول: وعدني ربي أني لا ألقاه وعلي أوقية لحم ، قال يعقوب خادمه: ففني لحمه كله قبل موته ، رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، وأمطر عليه من سحائب رحمته الهامعة ، آمين .

وكيف حال من يشارك المرضى والمعاقبين في بيوت الولاة في كل وقت بلغه ذلك من ليل

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة (٤٩٨٥) ، وأحمد في مسنده (٢٢٥٧٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦٢١٥) ، والبغدادي في تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٢) .

أو نهار، وعلامة صحة هذا المقام أن لا يعرف طبيب يشخص له مرضاً، انتهى، فافهم ذلك ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كلما مرضت مرضاً فيه رفع درجاتي ، أو كنت في جملة أحد من المسلمين أن رسول الله ﷺ يرسل لي من جهته من يعودني ، تارة على صورة شيخي سيدي علي الخواص ، رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، وتارة على صورة غيره من الأولياء ، فإذا دخل علي قصاده ﷺ ، أعرف أنني أشفى من ذلك المرض ، فأشكر الله تبارك وتعالىٰ على فسحته لي في الأجل ، وكثيراً ما يرسل لي أحداً من أهل بيته ، وقد كنت في حملة عظيمة في سابع عشر ربيع الأول سنة ستين وتسعمائة ، فأشرفت فيها على الموت ، فأتاني الحسن بن علي رضي الله تعالىٰ عنهما ومعه شخص لا أعرفه ، وعليهما ثياب بيض وخضر ، فوقفا عند رأسي ولم يكلماني ، غير أن شخصاً ثالثاً جاء وبسط بين يدي سجادة خضراء ، فلا يعلم أحد قدر ما حصل لي من الأنس ، فشفيت لوقتي ، انتهى.

فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حملي للعلماء والصالحين إذا رأيتهم فرشوا لهم سجادات للصلاة، على أنهم إنما يفعلون ذلك تعظيماً لحضرة خطاب الله عز وجل ، المشار إليه بنحو حديث: «**إن الله في قبلة أحدكم**»[1] لا كبراً ولا فخراً ، وعدم عملي بقرائن التكبير في مثل ذلك ، إذ القرائن وإن جعلها العلماء إحدى الأدلة ، وإنما ذلك في أماكن فيها احتياط للدين ، وأما العمل بها في مثل حمل العلماء والصالحين على التكبر فلا يجوز العمل بها لأنه مبني على سوء الظن بهم ، وذلك حرام بإجماع ، انتهى.

فافهم ذلك واعلمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: رضاي عن ربي عز وجل إذا قسم لي اليسير من الطاعات كما أرضى عنه إذا قسم لي اليسير من الرزق على حد سواء ، وهذا مقام لا يثبت فيه إلا من تحقق بكمال الاعتماد على فضل الله تبارك وتعالىٰ دون الأعمال ، فإن كل من كان معتمداً على عمله فمن لازمه غالباً التكدر من نقص طاعاته ، وغاب عنه أن ذلك الذي فاته لم يقسم له أصلاً ، وما لم يقسمه الحق تبارك وتعالىٰ للعبد لا ينبغي له أن يحزن عليه إلا بطريق شرعي ، وكثيراً ما ينظر الإنسان إلى شخص قسم الله تبارك وتعالىٰ له الطاعات الكثيرة فيتوهم أنه لو ألقى باله ، وترك الكسل لفعل مثل ما فعله من الطاعات وهو وهم ، فإن ما سبق به العلم

---

(١) سيأتي تخريجه في الصفحة (٤٠٨).

الإلهي هو الواقع من غير زيادة ولا نقص ، فعلم أن كل من اعتمد على فضل الله تبارك وتعالىٰ لا يتكدر من نقص طاعاته ، إلا إن كان يطلب الزيادة من الطاعات لأجل مجالسة ربه عز وجل فيها ، فذلك مطلوب شرعاً لمن علم من نفسه القدرة على محافظة الأدب مع الله تبارك وتعالىٰ فيها .

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول : الحزن على فوات الزيادة من نوافل الطاعات محمود للمريدين دون العارفين ؛ لأن العارفين قد تحققوا بمقام الرضا عن الله تبارك وتعالىٰ في كل ما أجراه الله جل وعلا عليهم ، ولا يخلو ذلك من أن يكون محموداً أو مذموماً أو لا محموداً ولا مذموماً ، فإن كان محموداً قالوا الحمد لله ، وإن كان مذموماً قالوا : أستغفر الله ، وإن كان مباحاً فهو بحسب مقامهم .

وقد بلغنا عن سيدي إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه أنه قال : نمت ليلة عن وردي ، فأصبحت حزيناً مهموماً ، فقيل لي في الليلة الثانية : يا إبراهيم كن عبداً لنا تسترح ، فإن أنمناك نم وأنت راض ، وإن أقمناك قم وأنت شاكر ، وليس لك في الوسط شيء ، قال إبراهيم رضي الله تعالىٰ عنه ، فصرت عبداً له فاسترحت اهـ .

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقوم الليل كله بالقرآن ، ثم يقول : والله إن النائم أحسن حالاً مني لقلة أدبي في صلاتي ، انتهى .

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول : من شأن الحق تبارك وتعالىٰ أن يري عبده مقدار الوصل بتقديره عليه أسباب الهجر ، انتهى كلامه رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه .

ووالله إني لأقوم بعد ما ينفض الموكب الإلهي ، فأكاد أذوب من الخجل ، ثم إني أرى فضل الله تبارك وتعالىٰ علي الذي أراني أهل حضرته وهم راجعون .

وقد كان سيدي الشيخ محمد السروي رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، وأسبغ عليه من جلابيب مغفرته الهامعة ، يحضر مولد سيدي أحمد البدوي ، نفعنا الله تعالىٰ بإمداداته في كل سنة ، فعاقته القدرة عنه سنة وهو مريض ، فقال لخادمه : احملني وضعني على طريق الناس الذين حضروا المولد ، ففعل الخادم ذلك ، فصار يمسح وجهه بثيابهم ،ويتبرك بذلك لكونهم حضروا ذلك الجمع الذي لا يجيء نقطة من بحر حضرة الله عز وجل العظمى ، الجامعة لأرواح الأنبياء والأولياء والملائكة وصالحي المؤمنين من المتقدمين والمتأخرين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: أخذي كل كلام سمعته من واعظ أو خطيب في حق نفسي بالأصالة ، على لسان رسول الله ﷺ ، فإن الواعظ أو الخطيب إنما هو نائبه ﷺ ، فمن الناس من قصر بصره على النائب ، ومن الناس من خرق ببصره إلى رسول الله ﷺ ، فصار كأنه يسمع منه ، فالحمد لله الذي لم يجعلني آخذ كلام الواعظ أو الخطيب في حق غيري ، كما يقع فيه غالب الناس ، فيحضرون الواعظ أو الخطيب ، ثم يخرج أحدهم فيقول: أفلح الواعظ اليوم في الحط على الظلمة المنافقين والمرائين ، والذين يغتابون الناس ، ولا يأخذون لأنفسهم من كلام الخطيب كلمة واحدة في حق نفوسهم ، فكأنهم لم يحضروا الخطيب.

وكان من خلق أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ: أنه يأخذ كل كلام فيه زجر لنفسه سواء سمعه من خطيب أو غيره ، وسمع مرة رضي الله تعالىٰ عنه تاجراً يقول لعبده: تعصيني وأنا أطعمك وأكسوك ، ولا أؤاخذك على سوء أدبك ، فخر مغشياً عليه ، انتهى.

فعلم أن من كمال العقل أن يأخذ الإنسان كلام الخطيب أو الواعظ في حق نفسه دون غيره ، وهذا هو السر في وجوب الإنصات للخطيب ، أو استحبابه ، فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: فرحي بكل شيخ أو واعظ برز في حارتي ، وصار يلتقط أصحابي الذين كانوا حولي واحداً بعد واحد ، حتى لم يبق حولي منهم واحد ، وهذا الخلق من أكمل أخلاق الرجال ، ولا يصح ذلك إلا لمن فنيت رعونات نفسه بالكلية ، وفطم على يد شيخ ناصح ، أو لمن حصلت له جذبات إلهية أدخلته حضرة العبودية الخالصة ، فشهد أن الحق تبارك وتعالىٰ هو الذي أبرز هذا الشيخ الذي أخذ جميع أصحابه ، وحول اعتقادهم عنه إليه ، بحيث صار لا يعتقد صلاحه أحد منهم ، فإن من شهد هذا المشهد فهو الذي يرضى عن سيده بكل ما أقامه فيه من تقليبه المسك ، أو تقليبه الزبل.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: من احتاط لنفسه لم يطلب أن يكون رئيساً في شيء من الأمور الدنيوية أو الأخروية إلا إن خلص من الرعونات النفسانية ، كالرياء والعجب ونحوهما؛ لأن كل راع مسؤول عن رعيته.

فيجب عليه أن لا يورد أحداً من رعيته ما يدخله النار ، ولا تزول قدما داع إلى الله تبارك وتعالىٰ حتى يسأل هل وفّى بحق رعيته في النصح ، أم غشهم وغفل عنهم ، ومن آمن بما قلناه فرح بكل من أخذ جماعته من حوله ، وأحبه ، وشكر فضله ، لكونه فرغه لعبادة ربه المحضة ، وتحمل عنه توبيخ الحق تبارك وتعالىٰ له في الآخرة ، ومناقشته له في يوم تشيب

فيه الأطفال ، ثم من تمام فرحه به تحسين اعتقاد الناس فيه ، وترغيبهم في حضور مجلسه ، والدعاء له بظهر الغيب ، بأن الله تبارك وتعالىٰ يسدده ، وإن حضر الشيخ القديم مع الناس ، وسمع وعظه حصل له خير كثير ، فعلم أن من كان بالضد مما قلناه فهو ممقوت مراء ليس له في قدم الصدق نصيب.

وهذا الخلق لم أر له فاعلاً صادقاً من أقراني ، بل بعضهم يصير يحط على الشيخ الجديد ، وينفر الناس عنه.

ولما انتقل الشيخ العارف بالله تبارك وتعالىٰ الشيخ سليمان الخضيري ، رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، وأمطر عليه من سحائب مغفرته الهامعة من القرافة ، وسكن في جامع الميدان تجاه زاويتنا ، صرت أتردد إليه ، وأقبل ركبته بحضرة جماعته وجماعتي ، وصار الشيخ نور الدين الشوني رحمه الله تعالىٰ يقول: اللهم انقله من حارتك ، فإني أخاف عليك أن تتخلف عنك العناية ، وتتكدر منه حين ينقلب إليه جماعتك ، فقام عليه أهل حارة الميدان بالإنكار ، لما عمر بيته بجوار المسجد ، فرجع إلى مكانه الأول بجوار جامع ابن طولون ، فكان الشيخ نور الدين إذ ذاك يستبعد علي وصولي إلى هذا المقام ، ويخاف عليّ ، رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، وأمطر عليه من سحائب رحمته الهامعة يا مالك الدنيا والآخرة ، يا رب العالمين ، آمين اللهم آمين.

وقد ذكر الإمام محيي الدين النووي رحمه الله تعالىٰ في مقدمات شرح المهذب ، وفي كتاب التبيان ، ما نصه: اعلم أن من أهم ما يؤمر به العالم أن لا يتأذى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره ، وهذه مصيبة يبتلى بها جهلة المعلمين لغباوتهم وفساد نيتهم ، وهو من الدلائل الصريحة على عدم إرادتهم بالتعليم وجه الله الكريم ، انتهى.

فينبغي للعاقل أن يقول لنفسه إذا فارقه تلميذه إلى شيخ آخر: إن كانت صحبة هذا المريد لنا يحصل بها خير له فهو الذي تركه ، وإن كان يحصل بها شر له فقد استراح منا ، وإن كان لا خير ولا شر ، فالأمر سهل لا يحتاج إلى غيظ ، فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حفظي للأدب مع أصحاب الوقت من العلماء والمساكين ، سواء كانوا حاضرين أو غائبين عن مجلسي ، فلا أدرس قط علماً ولا أعظ الناس في كتاب أو غيره إلا بعد قولي بقلبي ولساني: دستور يا أصحاب الوقت ، أدرس أو أعظ بحكم النيابة عنكم ، فمن واظب على ذلك أمن من إرتاج الكلام عليه في ذلك المجلس ، وقد قال العارفون رضي الله تعالىٰ عنهم ، ونفعنا بإمداداتهم: ما أرتج على خطيب أو واعظ قط إلا لكون ذلك الوقت فيه من هو أولى بالكلام منه ، انتهى.

وسمعت سيدي الشيخ علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إذا استأذن الواعظ أو المدرس علماء الوقت بقلبه أو لسانه مدوه كلهم بالعلم والمعارف ، شعر بذلك أم لم يشعر ، انتهى كلامه رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه.

وقد علمت ذلك لبعض الوعاظ ، وكان كثير الإرتاج فلم يرتج عليه بعد ذلك ا هـ.

فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: شهودي أن جميع الفضائل والكرامات التي تقع على يدي ، ليس لي فيها فعل ، وإنما هي لله تبارك وتعالىٰ وحده كسائر أفعالي ، ما عدا النسبة الشرعية لكونها ظهرت على جارحتي ، فسواء أجرى الله تبارك وتعالىٰ على يدي الكرامات أو لم يجرها هو عندي سواء ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: العارف بالله تبارك وتعالىٰ لا يزداد بالسلب إلا تمكيناً لأنه مع الله تبارك وتعالىٰ بما أحب لا مع نفسه بما تحب ، انتهى كلامه رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه.

ومن كان هذا مشهده أمن من وقوع الاستدراج الواقع لأهل الكرامات ، إذ الاستدراج لا يقع إلا لمن يرى الفعل لنفسه شهوداً ، ولربه إيماناً ، فيتوارى عنه في بعض الأوقات ، انتهى.

ومما وقع لي من الكرامات في بعض الأوقات: أنني أقوم للتهجد في الليل فلا أجد ماء يكفيني لغسل الوجه ، فاقول بقلبي: اللهم إنك تعلم أنني لم أرد بهذا الوضوء في هذا الوقت إلا تعظيم جنابك أن أجالسك على حدث ، فيزيد الماء في الإناء حتى أتوضأ ويفضل منه بقية. وفي بعض أوقات أتوجه إلى الله تبارك وتعالىٰ في زيادة الماء ، فلا يزيد قطرة واحدة ، فلا ينقص يقيني بذلك ذرة واحدة؛ لأن الفعل في الحالين لله تبارك وتعالىٰ لا إليّ ، فعلم أني لا أرى أني سلبت بركة كانت معي لما لم يزد الماء ، وإنما أقول: لله تبارك وتعالىٰ في ذلك حكمة ، فأصير أتطلبها ، فربما قصرت في عمل كان متوجهاً على الله تبارك وتعالىٰ فتتخلف عني العناية ، جزاء على فعلي ، إذ الحق تبارك وتعالىٰ مع عبده على حسب ما يقع له ، فكما أن الحق تعالىٰ دعا عبده إلى طاعته فتقاعد عنها فكذلك دعا العبد ربه فتخلفت عنه الإجابة ، والكل من الله تبارك وتعالىٰ حقيقة فله الشكر في حال زيادة الماء لي وفي حال نقصه ، انتهى.

وكذلك يقع لي في بعض الأوقات: أنني أقوم فأجد الماء بارداً في الشتاء لا أستطيع استعماله لبرده ، **فأقول**: اللهم خفف عني برده ، فأجده كالمسخن بالنار ، أو لا برد ولا سخونة ، وفي أوقات أجده بارداً على حاله ، ولو توجهت إلى الله تبارك وتعالىٰ فيه على

وزان ما تقدم ، أي جزاء وفاقاً من العدل الإلهي على عمل تركته ، فالحمد لله الذي جعلني ممن يدور مع الحق تبارك وتعالىٰ حيث دار ، لا مع حظ نفسي ، وكان أصل ذلك أن نفسي في سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وقع لها تشوق عظيم لوقوع كرامة ، فتوجهت إلى الله تبارك وتعالىٰ في ذلك أياماً ، فقيل لي في الليلة الثالثة وأنا نائم في مسجد الشيخ أحمد الأباريقي ، في روضة مقياس النيل: لو أطلعك الله تبارك وتعالىٰ على ملكوت السموات والأرض ، وعلى عدد الرمال ، وأوراق الأشجار ، وعلى النبات وأعماره ، والحيوانات وأعمارها ، وعلى ما يقع لأهل الجنة والنار ، حال وجودهم في الدنيا والبرزخ ، والجنة والنار ، وأنزل المطر بدعائك ، وأحيا الميت على يديك ، وأجرى على يديك جميع ما أكرم الله تبارك وتعالىٰ به عباده المؤمنين فلست من عبوديته في شيء فاستقم على طاعة ربك عز وجل ، وقد بلغت الغاية في الكرامة، انتهى. فما انقضى هذا الكلام ، وبقي عندي بحمد الله تبارك وتعالىٰ شهوة لمقام ولا حال ، بل ذهبت شهوة ذلك من قلبي جملة واحدة ، وقد صنفت في شرح هذا الهاتف رسالة ، وهي من أول تأليفي في علم القوم ، نحو عشرة كراريس.

فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم مبادرتي إلى الإنكار على من رأيته من العلماء والصالحين يلبس لبس أبناء الدنيا من المحررات ، ويركب على نفائس الخيل والبغال ، وينكح السراري والمنعمات؛ لأن ذلك جائز بالشرع ، فمن أنكره فهو جاهل مخطىء ، أو حاسد ممقوت ، فصاحب تلك الملابس يتنعم في مال سيده بإذنه ، والحاسد له شقي محروم ، وأيضاً فإن لله تبارك وتعالىٰ عبيداً متواضعين ذليلين في صورة أغنياء متكبرين ، فجمع الله تبارك وتعالىٰ لهم بين خيري الدنيا والآخرة ، منهم سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي ، رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، ومنهم سيدي علي بن وفا ، رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه، ومنهم سيدي مدين ، رضي الله عنه ، ومنهم سيدي أبو الحسن البكري رضي الله تعالىٰ عنه ، وولده سيدي محمد رضي الله تعالىٰ عنهم ، أجمعين.

فمثل هؤلاء يأكلون ويتمتعون ، ولا ينقص لهم رأس مال إن شاء الله تعالىٰ ، والدليل على ذلك كون علومهم ومعارفهم في زيادة ، مع عدم مطالعتهم وإكبابهم على الكراريس ، بل ينام أحدهم مع زوجته على أوطأ الفراش إلى الصباح ، ثم يقوم تتفجر من قلبه ينابيع الحكمة ، ولسان حالهم يقول للحسدة لهم: موتوا بغيظكم ، فلو كانت كرامات هؤلاء في نظير عمل لكانت كراماتهم تبطل إذ ناموا وقصروا في العمل ، فافهم ، مع أن جميع ما هم فيه حصل من غير طلب ولا ذل في طريقة أبداً ، بخلاف غيرهم ، لم يقع ذلك له مثلهم.

ولما وقع لأبي يزيد رضي الله تعالىٰ عنه إكباب الناس على التبرك به ، والتمسح بمرقعته ،

لامه بعض الناس على ذلك ، فقال له: أما تفقه يا أخي أن الناس لا يتبركون بأبي يزيد ، وإنما يتبركون بخلعة ربه التي خلعها عليه ، انتهى.

فصاحب هذا المقام عبد ذليل في نفسه ، سيد في عيون الناس ، وكم من صاحب مرقعة هو أكبر نفساً من صاحب ثياب الخز ، ورفيع الكتان ، وكم من صاحب مرقعة لبسها بنفس فلم يتبرك أحد بها ، فاحفظ يا أخي لسانك وقلبك عن الإنكار على من خالف عوائد العلماء والصوفية في ملابسه ونحوها ، ولا تنكر عليه إلا ما صرحت الشريعة بتحريمه أو كراهته ، انتهى. فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي للجلوس في المسجد على حدث في ليل أو نهار ، وذلك لما ورد: «**إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام جالساً في المسجد على طهارة**»[1] وصلاة الملائكة بلا شك مقبولة ، يعني استغفارهم لنا لعصمتهم عن الذنوب.

واعلم يا أخي أن من كان مشهده أن الأرض كلها مسجد ، فلا فرق عنده بين الأماكن إلا ما خصه الشارع ﷺ منها ، فهذا في مسجد دائماً ، ثم إن هذا الخلق لا يقدر على العمل به إلا من حماه الله تبارك وتعالىٰ من ثقل الغفلة عنه ، ودامت مراقبته لربه عز وجل ، فإن المسجد حضرة الله جل وعلا الخاصة ، فإذا كان هذا في الحدث الأصغر فكيف بمن يعصي الله تبارك وتعالىٰ في المسجد بغيبة أو نحوها من الفواحش.

وكان أخي سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تبارك وتعالىٰ الرحمة الواسعة وأمطر عليه من سحائب مغفرته الهامعة ، لا يقدر على الجلوس في المسجد ولو طاهراً ، ويقول: والله إني لأتعجب من هؤلاء المجاورين في قدرتهم على إطالة الجلوس في المسجد ، لا سيما وهم محدثون ، انتهى.

ثم لا يخفى أن كل عاقل جلس في المسجد لا بد أن يستحيي من رؤية الله تبارك وتعالىٰ إليه ولو في طاعة ، فكيف إذا كان في معصية كغيبة ونميمة وسوء ظن بالمسلمين وكبر وعجب وحسد وحقد وغل ورياء وسمعة ، وربما مقت الله تبارك وتعالىٰ ذلك العاصي في حضرته ، وطرده عنها ، كما وقع لإبليس ، فلا يفلح بعد ذلك في خير أبداً ، ومن تأمل وجد حكم من يعصي الله تبارك وتعالىٰ في المسجد حكم من دخل عليه ملك جبار شديد البطش ، فوجده يفسق في عياله ، فإنه إما أن يقتله ويمثل به ، أو ينفيه من حضرته ، فلا يمكنه من دخول داره إلى أن يموت ، وإما أن يصير لا يرى له وجه أبداً ، فوالله لقد خلقنا لأمر عظيم ، ولولا أن

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب الحدث في المسجد (٤٤٥) ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة (٦٤٩).

رحمته تبارك وتعالىٰ سبقت غضبه لأهلكنا تبارك وتعالىٰ من أول معصية تقع منا في بيته.

فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ويدبرك فيما أبلاك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي لخروج الريح في المسجد مني أو غيري تعظيماً لجناب الله عز وجل ، كما أن من نعمته علي سهولة خروجي من المسجد لإخراج الريح خارجه من غير تكلف ، وذلك لأن الريح من جملة بخار النجاسة الصاعد من المعدة ، وهو معدود من الرجس ، حتى إن بعضهم أفتى بأنه لو حمل مصراناً فيه فساء وضراط محبوس لم تصح صلاته ، اهـ. فإذا كان رجساً فاللائق به أن يخرجه في الخلاء ، والعامل بهذا الخلق قليل من الناس ، وغالبهم يخرج الريح في المسجد ، ولا يتوقف ، وربما يخرجه في المجلس الواحد مراراً لا سيما المجاورون ، وأعطيك يا أخي ميزاناً هو أن كل شيء تستحيي في نفسك أن تفعله مع الناس فربك أولى بالحياء منه فيه ، ولا ينبغي لفقيه أن يتساهل في ذلك اعتماداً على ما يظهر بالقرائن من عفو الله تبارك وتعالىٰ عن مثل ذلك ، ويقول: لو أن الحق تبارك وتعالىٰ نهى عن ذلك لوصل إلينا علمه كغيره من الأحكام؛ لأنا نقول حلمه تبارك وتعالىٰ وعفوه لا يبيح لنا سوء الأدب معه ، بل هوَ باق على كونه سوء أدب في حقنا ، ولو عفا الحق تبارك وتعالىٰ عنه ، إذ العفو لا يكون إلا عن ذنب ، فافهم.

ثم إن كنت يا أخي صاحب ضرورة ، والغالب عليك الريح ، فقل: دستور دستور يا ملائكة ربي ، وأخرجه وأنت في حياء منهم ، وقد كان الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا تقصر في حق أخيك اعتماداً على مروءته ، فمعاملتنا للحق تبارك وتعالىٰ بنظير ذلك أولى بنا ، وكذلك لا يقال: إن من كان جالساً في المسجد يشق عليه مراعاة هذا الأدب ، والمشقة تجلب التيسير؛ لأنا نقول: كلامنا في حق من لا يحصل له بمراعاة ذلك الأدب مشقة ظاهرة ، كمن به سلس الريح مثلاً ، مع أن المحققين من أشياخ الطريق قالوا: إذا صدقت المحبة تأكدت شروط الأدب ، فمن ادعى محبة الله تبارك وتعالىٰ في جلوسه في المسجد تأكد في حقه مراعاة الأدب أكثر ممن هو خارج المسجد ، وهذا أولى من قول بعضهم: إذا تأكدت المحبة سقطت شروط الأدب ، فافهم.

فإن كتب القوم رضي الله تعالىٰ عنهم طافحة بمؤاخذتهم وعقوبتهم بفعل ما يسامح به غيرهم ، كما وقع للشيخ الكبير أبي الخير الأقطع ، المدفون بجانب منارة الديلمية بالقرافة ، أنه قطعت يده في تناوله شهوة مباحة ، كان عاهد الله تبارك وتعالىٰ على تركها ، ووقع لبعضهم أنه اشتهى بيضاً وسمناً فطلع بلداً ليأكل ذلك ، فألقى الله تعالى عليه شبه لص فمسكه جماعة الوالي فضربوه سبعين خشبة ، ثم بان لهم أنه لم يكن ذلك اللص الذي ظنوه ، ثم جاءه شخص ببيض وسمن ، فقال لنفسه: كليها بعد سبعين خشبة . ومثل ذلك جار على قاعدة

قولهم: «حسنات الأبرار سيئات المقربين» فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة تبجيلي لإخواني في غيبتهم وحضورهم ، ولا أواجه أحداً منهم بما يكره ، إلا إن كان بايعني على ذلك ، وفي ذلك رضا الله تبارك وتعالىٰ، ورضا الإخوان، وعدم تنفيرهم في سماع نصحي ، وكثيراً ما أضرب لأحدهم المثل بأمر آخر غير ما وقع هو فيه سترة له ، وكثيراً ما أقول له: كيف تؤلف جاريتي وأنت تدعي أنك مريدي ، وأريد بجاريتي الدنيا ، فإذا رأيته يحب الدنيا قلت له ذلك أو نحوه ، إلا أن يكون في المجلس غريب لا يعرف مصطلح الفقراء ، فلا أقول له ذلك.

فإياك يا أخي أن تذكر أحداً ممن يبايعك على النصح بسوء تنقصه به في المجالس ، فإنه ربما عاملك بنظير ذلك ، وصار يقطع في عرضك وينقصك في أعين الناس كما نقصته ، ولو أنك كنت كملته لكملك ، وكثيراً ما يبلغ الشيخ الكبير القدر أن فلاناً يقطع في عرضك فيتكدر لذلك؛ لأن الشيخ كالبئر تارة ينزح ماؤه ، وتارة يوجد الماء ولا يوجد الحبل ، وتارة يحمل كلام الثقلين في عرضه ، وتارة لا يحمل كلمة واحدة ، فسد العاقل الباب الذي يدخل منه الأذى أولى ، لا سيما إن كان الغالب عليه قيام بشريته ، وثوران نفسه ، وغالب مريدي هذا الزمان غير صادقين مع أشياخهم ، فربما عاهد أحدهم شيخه على أنه ينصحه سراً وجهراً ، أي من ورائه لمن يبلغه ، ومواجهة ، وهو كاذب ، فليحذر الشيخ من التهور في ذلك ، وعدم التفتيش ، فربما ظن أن مريده مقيم على العهد ولا غير ولا بدّل ، والحال أنه غير وبدل ، فيفجر على الشيخ ، كما وقع لي ذلك كثيراً مع أصحابي ، وصار بعضهم يمزق في عرضي في أي مكان حل فيه ، وبعضهم يصرح في وجهي بأنه ليس من جماعتي ، ثم إنه إذا احتاج إلى حاجة عند الولاة يكبرني غاية التكبير ،ويجعل نفسه من جملة المريدين حتى تقضى حاجته ، ويبلغني عنه ذلك وأقره عليه غضباً عليّ ، فتارة يجعلني متفعلاً وتارة يجعلني قطباً.

وقد كان سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، يجرح أصحابه في وجودهم وغيبتهم، ويقول: من لم يصحبني على أني أفعل في عرضه ما شئت بحسب ما أراه من المصالح وإلا فليبعد عني ، فقلت له: إن وصفكم الإنسان بما لم يقع منه لم يحتمله كل أحد ، فقال: إنما أصفه بالصدق؛ لأنه إن لم يكن وقع في ذلك الأمر فهو معرض للوقوع فيه ، فأقبحه في عينه ليأخذ حذره منه ، انتهى.

فعلم أن من جرح إنساناً بغير غرض شرعي فهو فاسق ، لا سيما ذكره بالنقص بحضرة الأجانب عن الطريق ، فإن الفقير الصادق ينشرح لمن يذكر له نقائصه ، والكاذب بالعكس ، وأكثر الناس اليوم كاذب في قوله: أنا أحب من ينقصني ويظهر في نقائصي ، ومن شك فليجرب.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، يقول: لا بد لكل داع إلى طريق أهل الله تبارك وتعالىٰ من مدح المستقيم ، وذم الأعوج ، ترغيباً وتحذيراً ، قال رحمه الله تعالىٰ: وليس ذلك من باب الغيبة في شيء ، ومن ظن بشيخه ذلك فقد خرج عن أدب أهل الطريق كما هو مقرر في كتب الشريعة ، وقد نظم بعضهم المواضع التي تجوز الغيبة فيها ، فقال:

استفت عرف تظلم حذر استعن   على إزالة فحش واحك ما ظهرا

وإيضاح ذلك: أن أصل تحريم الغيبة إنما جاء من حصول التأذي بها على وجه التشفي من المستغيب ، والمحذر ناصح لأخيه خائف على وقوعه فيما ينقص دينه ، قاصد بذلك دفع أذى آخر أشد ، دون قصد التشفي ، فلا يستغني شيخ عن تحذير أصحابه وترغيبهم أبداً؛ لأنه لا بد فيهم من أعوج ومن مستقيم ، وفي القرآن العظيم: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]. فنهاه تبارك وتعالىٰ عن اتباعه ليونس عليه الصلاة والسلام في غضبه على قومه ، ودعائه عليهم بنزول العذاب ، وهذا وإن كان مباحاً ليونس عليه الصلاة والسلام لكونه معصوماً ، ولكن ثم مقام رفيع ومقام أرفع ، فافهم.

وفي القرآن العظيم أيضاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦]. وفي الحديث الشريف ، أنه ﷺ قال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالىٰ عنه: «**لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فتركه**»[١] قال بعض الحفاظ يحتمل أنه ﷺ عين له ذلك الرجل الذي كان يقوم الليل وتركه ، ويحتمل أنه ﷺ لم يعينه؛ لأنه ضرب مثل ، والغرض حاصل من غير تعيين.

وكان سيدي أحمد الرفاعي رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، يقول: لا يبلغ الفقير مقام الكمال حتى يصير يرضى أن يضاف إليه سائر النقائص التي في إخوانه ، ويستر إخوانه رضا بعلم الله تبارك وتعالىٰ ، وإيثاراً لهم على نفسه ، وإن تأثر من حيث نقص دين المنقصين ، انتهى.

قلت: ويستروح لذلك بما ورد أن الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم كانوا يفدون رسول الله ﷺ بأنفسهم ، وكان بعضهم إذا رأى سهماً نحو رسول الله ﷺ تعرض له بصدره ، فتلقاه عن رسول الله ﷺ ، ولو كان في ذلك زهوق روحه ، فسماع الفقير الكلام الذي يؤذيه ويحمله عن أخيه دون أذى ذلك السهم بيقين ، انتهى.

وفي قصة أبي الحسن النوري رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه: أنه لما قدم للقتل ، وفرش

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه (١١٥٢) ، ومسلم ، كتاب الصيام ، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً (١١٥٩).

النطع لضرب أعناق إخوانه في واقعة تقدم للسياف ، وقال له : إضرب عنقي قبل أصحابي ، فقالو له : لأي شيء ؟ فقال : لأوثر أصحابي بعدي بحياة ساعة ، انتهى .

فاعلم يا أخي ذلك ، وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : محبتي لزيارة جميع أقراني إلا الحسود ، فأترك زيارته شفقة عليه ، وذلك لعلمي بأن زيارته في الغالب لا تفيده إلا زيادة الغم ، لا سيما إن رحت إليه بثياب فاخرة مبخرة ، فمن نعم الله تبارك وتعالىٰ عليّ أني لا أكلف أحداً من أصحابي لزيارتي ولا لعيادتي إذا مرضت ، ولا أعلمهم بمرضي ، خوفاً أن أحداً منهم يتحمل همي أو شيئاً منه ، كفاني علم ربي تبارك وتعالىٰ بذلك ، وإن وقع أن أحداً منهم عادني أو زارني فإنما ذلك تفضلاً منه ابتداء ، على رغم أنفي لعجزي عن مكافأتهم على ذلك ، ولو قدر أني زرت أحدهم ألف مرة في نظير زيارته لي مرة واحدة ، لا أرى أنني كافأته على تلك المرة ، مع أني في بركتهم حيث كنت ، وقلبي مؤتلف عليهم ، ولو لم يزوروني ولم يعودوني ، وإن كان في جزء يحب تردد الإخوان إليّ فذلك الجزء ضعيف ، لا يكاد يظهر له صورة ، وما طلب الشارع ﷺ منا الزيارة والعيادة لبعضنا بعضاً إلا لتأتلف قلوبنا حتى نتعاضد على نصرة الدين المحمدي ، وهذا المعنى حاصل عندي بحمد الله تبارك وتعالىٰ ، فلا ينفر خاطري ممن لم يعدني في مرضي مثلاً .

فإياك يا أخي أن تظن بمن لم يزره صاحب هذا المقام أنه يكرهه ، وتصير تقول : لو أن فلاناً كان يحب فلاناً لزاره وعاده ، فربما كان صاحب هذا المقام هو الذي منعه بقلبه عن المجيء إليه رحمة به وشفقة عليه ، كما يقع لي ذلك مع صاحبي شيخ الإسلام ، العالم الصالح ، الشيخ شمس الدين محمد الخطيب الشربيني رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، ومع سيدي محمد بن الشيخ أبي الحسن البكري نفعنا الله به وبأسلافه ، ورضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم ، ومع كل من كان مشغولاً بخير يتعدى نفعه إلى المسلمين ، فأتوجه إلى الله تبارك وتعالىٰ في عدم مجيئه إليّ حتى لا يفوته فعل ما هو الأفضل ، على أن غالب زيارة الأقران اليوم وعيادتهم لأخيهم تطرقها العلل ، فربما يكون أحدهم يقصد بزيارته وعيادته المكافأة على ذلك ، ليحصل له التبجيل بين الناس ، بكثرة من يعوده من العلماء والصالحين والأكابر .

وقد رأيت شخصاً عاد مريضاً ، فلما مرض هو لم يأت إليه فمزق عرضه في الآفاق ، وحلف أنه ما صار يعوده أبداً ، وصار ينشد :

مـــن جـــاء إليـــك فـــرح إليـــه ومـــن قـــلاك فصـــد عنـــه

ولو أنه كان عاده لله تبارك وتعالىٰ ما ندم على عيادته له فتأمل . وقد مرض شخص من مشايخ العصر ، فطلب من سيدي علي المرصفي رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه أن يعوده فلم

يجبه إلى ذلك ، وقال: إنما يطلب عيادتي طلباً للشهرة عند الأمراء الذين يعتقدونه ، ويقول الناس: إن المرصفي زار سيدي الشيخ اليوم ، ثم إن ذلك الشيخ صار ينقص عرض سيدي علي المرصفي ، فلما بلغه ذلك قال: قد أذنت له أن يطلع المئذنة ويسبني ، ولم يزره إلى أن مات ، وقال: إنما تركت زيارته رحمة به ، لا رؤية نفسي عليه ، ولو علمت أنه يحتقر نفسه عن زيارة مثلي ولا يذكر ذلك للأمراء لزرته ، ثم قال: وكان ذلك من خلق الإمام مالك رضي الله تعالىٰ عنه.

فعلم أن من أدب الحاذق أن يزور إخوانه ويعودهم بالنية الصالحة ، مع عدم طلبه المكافأة على ذلك ، ولا يحوج أحداً منهم لزيارته ولا عيادته ، بالتعريض لمن يبلغهم أنه مريض مرضاً شديداً ، أو بقوله فلان الفلاني أوحشنا كثيراً ، ومرادي لو رأيته قبل موتي، ونحو ذلك، فإنه ربما سمع بذلك فترك أشغاله المهمة وحضر إلى ذلك المريض بغير نية صالحة ، وربما كان ذلك المريض كاذباً في دعواه الاشتياق إليه ، فليفتش كل واحد منهما نفسه ، وربما أن ذلك المتكلف للحضور كان علم بمرض ذلك الرجل ، ولم يجد في نفسه داعية لعيادته ، وكذلك من التعريض: قول المريض بالله عليكم روحوا لفلان العالم ، وقولوا له: اقرأ الفاتحة وادع لفلان ، فربما كان ذلك الفلاني مشتغلاً بعلم يعود على العالم والأمة نفعه ، فيقطعه عن الاشتغال به ويشغله بأمر مفضول.

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ، فجعله أفضل من وقوف العبد بين يدي ربه ، ومناجاته بكلامه ، والركوع والسجود بين يديه في حضرة قربه ، فضلاً عن وقوف عبد بين يدي عبد مريض ، لا يملك له ضراً ولا نفعاً اهـ.

فإن قيل: كيف يترك العبد حضرة ربه عز وجل ، ويخرج لمجالسة عبده ؟

فالجواب: أن حكم العبد حكم من كان في حضرة ملك من ملوك الدنيا ، وقد أمر ذلك الملك بالجلوس معه ، ثم إن ولد الملك وقع في بئر. فقام ذلك العبد من مجلس سيده بغير إذنه لينقذ ولده من الغرق ، فالقرائن كلها متوفرة على رضا الملك بذلك ، حتى لو أن الملك قال له: فارق حضرتي وخلص ولدي ، فقال: لا أفارقك ، عصى واستحق العقوبة ، وحكم من يشتغل بالعلم الشرعي المتعين تقديمه حكم من هو مشتغل بإنقاذ الخلق من الهلاك ، بالنسبة لما هو أدون منه ، مما له تركه من أجله ، وهكذا من يعود أخاه أو يزوره بالنسبة لما ينبغي تركه ، فإن الأمر فيه سهل ، انتهى.

وبالجملة فيحتاج من يعامل الله تبارك وتعالىٰ إلى رياضة نفس ، حتى يخرج من الرعونات ، وإلا كانت معاملته معلولة ، انتهى.

وقد رأيت بعض جماعة يعودون المكاسين إذا مرضوا ، ويزورون الظلمة والتجار إذا

مرضوا ، ولا يعودون أحداً من إخوانهم العلماء ، خوفاً أن يقول الناس عن الزائر : إنه دون المزور ، انتهى.

وقد كان شخص ينسب إلى الصلاح يأتي لزيارة سيدي الشيخ نور الدين الشوني ، المدفون عندي بالزاوية ، رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، وأمطر عليه من ينابيع مغفرته الهامعة ، فرآه بعض الناس ، فقال له : حصل لك الخير حيث تزور عبد الوهاب فلا تنقطع عنه أبداً ، فقال : والله ما طلعت الزاوية إلا للشيخ نور الدين الشوني ، فقال له الشيخ نور الدين الطندتائي : أف على نفسك الخبيثة التي ترى نفسها على أخيها المسلم ، ها أنا طالع إليه أزوره ، وما نقصت شيئاً ، ثم أن ذلك الشخص من ذلك اليوم صار يزور الشيخ نور الدين الشوني بعد المغرب ، خوفاً أن يراه أحد ممن يعتقده فيقول : إنه يزورني ، فينقص مقامه في زعمه ، فالله تبارك وتعالىٰ يغفر لنا وله ، ويختم لنا بخير آمين ، فاعلم يا أخي ذلك وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، ويدبرك فيما ابتلاك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : كراهتي لحضور المحافل التي لم يندب الشارع ﷺ إلى حضورها لا سيما إن علمت ولو بالقرائن أن هناك من يعظمني فوق مقامي ، أو يحتقرني دون مقامي عادة في المسألتين ، وإلا فالفقير لا يرى له مقاماً عالياً حتى تصح حقارته ، كما تقدم بسطه أوائل هذا الكتاب ، ومن علامة احتقاره لي عادة أن يرد السلام على أبناء الدنيا والمكاسين ونحوهم بالبشاشة ، ويرد على سلامي بالعبوسة ، وهذان الأمران اللذان ذكرناهما قل أن يسلم منهما أحد من أهل المحافل ، وأين صاحب الميزان الصحيحة الذي لا يجازف في تعظيم ولا تحقير ، على أن غالب من يحضر المحافل إنما هم أضداد لبعضهم بعضاً ، وغير الغالب ينتظر ما يقع من الغالب ، ثم يخرجون ، فيقولون : فلان لم يقم له أحد ، فلان قام له المجلس كله ، فلان أجلسوه في الصدر ، فلان أخروه لما دخل فلان ، لكونه أعلم منه أو أصلح ، وفلان كان جالساً في الصدر ، فلما دخل المحتسب أخروه ، وفلان كان جالساً فلما دخل فلان نهض قائماً وخرج ، وحصل للداخل خجلة عظيمة ، وهكذا.

وقد شرط العلماء رضي الله تعالىٰ عنهم ، في وجوب حضور وليمة العرس أن لا يكون هناك من لا يليق به مجالسته ، أو من يتأذى به ، فافهم. والنكتة في كراهتنا في الحضور لمن يعظمنا أو يحتقرنا أن من يعظمنا يدخل علينا الإعجاب في نفوسنا ، ورؤيتها على إخوانها ، فيغشها ويلبس عليها حالها ، ومن يحتقرنا يغلق علينا باب رؤية نعم الله تبارك وتعالىٰ في ذلك الوقت ، حتى نرى نفسنا متجردة عن أكثر النعم ، فيدخل علينا الأذى في ديننا ، مع وقوعه في الإثم بمجازفته في التعظيم والتحقير ، ونحن كنا السبب في ذلك بحضورنا ، فلا يبعد أن يلحقنا من إثمه شيء ، انتهى. والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

وقد أخذ الأشياخ علينا العهد ، أن لا نكون سبباً لنقص دين أحد من المسلمين ، هذا ميزان المحافل التي لم يشرع لنا حضورها ، أما ما شرع لنا حضوره كصلاة الجمعة وصلاة العيد ونحوهما فنحضرها امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالىٰ ، ونسأل الله سبحانه وتعالىٰ الحفظ لنا ولإخواننا من الآفات ، على أن مواضع العبادات الغالب على الناس فيها عدم المبالغة في التعظيم والتحقير ، لاشتغالهم فيها بعبادة ربهم تبارك وتعالىٰ ، بخلاف ما كان بالضد من ذلك ، اهـ.

فعلم من جميع ما قررناه أنه لا ينبغي لعاقل أن يدخل لغير ضرورة مواضع الجمعيات إلا إذا سلم من الآفات ، كأن أعطاه الله القوة فصار يجمع على نفسه الناس إذا شاء و يصرفهم عنه إذا شاء ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم ، وقد دخلت مرة جامع الأزهر في صلاة جنازة ، فلما انصرفت من الصلاة أكب الناس على تقبيل اليد والخضوع ، وتبعوني يشيعوني إلى الباب ، حتى صاروا أكثر من الحاضرين في الجنازة ، فخجلت ، ومن ذلك اليوم صرت أصلي على الجنازة قريباً من باب الجامع ، وأخرج بسرعة ، وكثيراً ما أشتاق إلى إخواني في الجامع فما أقدر على زيارتهم؛ لأجل هذه النكتة ، ولعل النكتة في ذلك قلة ورودي إليهم ، ورؤيتهم لي ، فإني أعلم أن في الجامع كل واحد لا أصلح خادماً له ، ومع ذلك فلم يفعلوا معه مثل ما يفعلون معي ، ويؤيد ذلك قول سيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه: لما دخلت إسكندرية مكثت مدة لم يلتفت أحد إليّ ، فدخل البلد زرافة وفيل فانقلب الناس إليهما ، فقلت: يا سبحان الله ، ابن آدم أكمل مقاماً من الفيل والزرافة ومع ذلك فلم يلتفتوا إليه ، قال رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه: ثم إني نظرت فرأيت النكتة في ذلك قلة رؤيتهم للزرافة والفيل ، انتهى.

ونظير ذلك أيضاً قلة تعظيم أهل مكة للكعبة ، وعدم بكائهم عند رؤيتها بخلاف الآفاقي ، وبالجملة فيحتاج من يخالط الناس أن يكون له عدة أعين ، عين ينظر بها إلى ما جعله الله تبارك وتعالىٰ في قلوب الناس من تعظيمهم له ، وعين ينظر بها إلى حقارة نفسه في نفسه ليعطي التواضع لإخوانه حقه ، وعين ينظر بها إلى المواضع التي يحصل للناس بسببه نقص في دينهم فيتركها ، وعين ينظر بها لا يرى له قط مقاماً بين الناس ، وعين يرى له المقام بينهم ، وذلك لما يترتب عليه من الخير في انقياد الخلق له ، انتهى.

فتأمل يا أخي ذلك واعلمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: الحماية من نومي على غير وتر ، تعظيماً لامتثال أمر الشارع ﷺ في ذلك ، ومسارعة لحصول مقام المحبة لي من الله تبارك وتعالىٰ ، لا لعلة ثواب

ولا غيره ، انتهى. وقد ورد «إن الله وتر يحب الوتر»[1] وورد أيضاً: «أوتروا يا أهل القرآن»[2] ولذلك جعله الإمام أبو حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه واجباً فوق السنة ، ودون الفرض ، فمن نام على وتر فقد فعل ما أمره الشارع ﷺ به ، وختم أعماله بعمل يحبه الله تبارك وتعالىٰ ، فإذا أخذ الله تبارك وتعالىٰ بروحه في تلك الليلة مات على دين الذين يحبهم الله تبارك وتعالىٰ ، فلا يلقى بعد موته سوءاً أبداً؛ لأن من أحبه الله جل وعلا لا يعذبه ، بل يرضي عنه خصماءه ، ويغفر له ، بدليل قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]. إن كنتم صادقين في أنكم أحباؤه ما عذبكم ، انتهى.

فتأمل يا أخي ذلك وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم إجابته تبارك وتعالىٰ دعائي على أحد من المسلمين في حال غضبي ، فلو آذاني أحد الآن كل الأذى فدعوت عليه فلا يستجاب لي ، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالىٰ عليّ ، وقد أعطاني الله تبارك وتعالىٰ هذا المقام لما حججت سنة خمس عشرة وتسعمائة ، فألهمني الله تبارك وتعالىٰ أن أسأله بين الركن والمقام بأن لا يستجيب لي دعاء في حق أحد من المسلمين حال غضبي عليه ، فمن ذلك اليوم ما دعوت على أحد وحصل له بواسطتي سوء أبداً ، وإنما الحق تبارك وتعالىٰ يغار لعبده في بعض الأوقات ، فيظن ذلك الظالم أن ذلك بواسطة الدعاء عليه ، فيحصل له زجر عن الظلم ، وقد كنت قبل هذه السنة يستجاب دعائي في كل من دعوت عليه لوقته ، وكان من جملة ما سألت الله تبارك وتعالىٰ فيه في الملتزم سنة سبع وأربعين أنه يفرغ عليّ من الأخلاق المحمدية ما أتحمل به الأذى من جميع الأنام ، فلو اجتمعوا بغير حق على إيذائي بالقول والفعل تحملتهم إن شاء الله تعالىٰ ، ولم أقابل أحداً منهم بسوء.

فتأمل يا أخي ذلك واعلمه وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم مجادلة من جادلني بغير حق ، لا سيما حال ثوران نفسه أو نفسي ، وذلك لعلمي بأنه ما جادلني إلا بما زين له في نفسه أنه الحق ، ومن وقع له ذلك فمن الأدب الإعراض عنه حتى تروق نفسه ، ثم إذا راقت نفسه جادلناه بالتي هي

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الدعوات ، باب لله مئة اسم غير واحد (٦٤١٠) ، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء في الوتر بسبع (٤٥٧) ، والنسائي ، كتاب قيام الليل وتطوع النهار ، باب الأمر بالوتر (١٦٧٥) ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء في الوتر (١١٧٠) ، وأحمد في مسنده (٨٧٩).

أحسن ، غير طالبين للمغالبة ، فقد قال الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه: ما جادلني أحد إلا وددت أن يكون الحق على يديه دوني ، انتهى كلامه رضي الله تعالىٰ عنه.

فعلم أن النفس مادامت قائمة على صاحبها بالرعونات ، فإبليس راكبها ، وهو الذي يجيبنا على لسان ذلك الشخص ، ولا شك أنه أقل حياء منا ، لعدم مراعاته الشرع بوجه من الوجوه ، فيظن أحدنا أن الذي يجادلنا هو صاحبنا ، ويقل حياؤه علينا هو ، والحال أنه إبليس فهو يغضبنا ولا نقدر نحن نغضبه إلا نادراً.

وكان من سياسة أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، وأمطر عليه من سحائب مغفرته الهامعة ، يا مالك الدنيا والآخرة ، يا رب العالمين: أن يوجه فهم من يجادله حتى يميل إليه ، وتسكن نفسه ، فإذا سكن غضبه قال له: يا أخي ، وهنا كلام أعرضه عليك فإن كان صواباً ، وإلا تركنا ذكره ، ويوهمه أنه يتعلم منه ، فيصغي ذلك المجادل إلى سماع قوله ضرورة ، انتهى. وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول كثيراً: من أدب الفقير أن يعذر من جادله ولم يرجع إلى قوله من حال نفسه هو ، فكما أنه هو لا يرجع إلى ما فهمه خصمه ، فكذلك خصمه لا يرجع الآخر إلى ما فهمه خصمه ، بل نقول: إن رجوعه إلى فهم نفسه أولى ، لاعتقاده الصواب فيه ، انتهى ، وكان رضي الله عنه يقول: ما لمن ثارت نفسه دواء أعظم من موافقته ، ثم إذا راقت نفسه وقبلت الحق فحينئذ نعلمه بالصواب ، انتهى.

وكان من خلق سيدي الشيخ عبد الحليم بن مصلح المنزلاوي ، رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، إذا رأى عند أحد قيام نفس أو دعوى للعلم يتلطف به في السؤال ، ويعطف عليه الجواب على سبيل المشاورة له فيه ، ويقول له: ما تقول في الشيء الفلاني ، فإذا توقف يقول له: فلعل الجواب كيت وكيت ، فإن كان صواباً فأعلموني به أعتمده ، وإلا تركته. وتارة كان يترقب لصاحب النفس حضور أحد من العلماء ، ثم يسأله بحضرته السؤالات الواهية حتى يظهر له وللحاضرين أنه جاهل ، لا يصلح أن يكون معلماً لصاحب النفس ، ثم يعطف له الجواب الصحيح على ذلك السؤال الواهي ، فيفيده العلم من غير أن يشعر به أحد من الحاضرين أنه أفاده ، ويقول: سترنا أنفسنا وأفدنا أخانا من العلم ما لم يكن عنده.

وقد بان لك أن من الجهل أن يطلب الإنسان من خصمه أن يرجع إلى قوله هو مع خفاء مدركه عليه ، بل ربما أدى ذلك إلى شدة خصام وسب وغيبة وتنقيص في المجالس وارتكاب آثام ، فالعاقل من أتى البيوت من أبوابها ، وأراح نفسه ، فتأمل يا أخي ذلك وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة مشاورتي لأصحابي في كل أمر لم يأمرني الحق تبارك وتعالىٰ به. أو لم ينهني عن فعله بخصوصه ، ولو كنت أعلم من نفسي أنني أعقل منهم ، قال تبارك وتعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] مع أنه أعلم

منهم بيقين، ثم قال جل من قائل: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا على إشارتهم مع غفلتك عنا، وروى الطبراني مرفوعاً: «أنا فيما لم يوح به إليّ كأحدكم»[1] انتهى.

ولذلك رجع ﷺ في مسألة تأبير النخل إلى كلام أصحابه رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم، لأنه: «**لما رأى الناس على رؤوس النخل يلقحونه، فقال ما لهؤلاء فقالوا: يلقحون النخل فقال ﷺ: ما أرى ذلك يغني شيئاً فترك غالب الناس التلقيح، فقل حمل النخل، وخرج شيصاً، فأعلموه بذلك فقال ﷺ: ما أخبرتكم به عن الله فاعملوا به وما أخبرتكم عن نفسي فأنتم أعلم بأمر دنياكم**»[2] انتهى.

وكذلك رجع ﷺ إلى قول أصحابه رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم: «**لما نزل في بدر على غير ماء، فقالوا له: يا رسول الله إن كنت نزلت ههنا بوحي من ربك فسمعاً وطاعة، وإلا فانزل بأصحابك على الماء فإنه أقوى لنا على العدو**»[3] انتهى.

فعلم أنه ﷺ ما رجع إلى مشورة أصحابه رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم، إلا فيما لم يوح به إليه ﷺ.

وكذلك الفقير منا لا يؤمر بالمشاورة إلا في الأمور التي لم يرد في الشرع لها حكم، أما ما ورد حكمها فيه فنفعلها أو نتركها امتثالاً للشارع ﷺ من غير مشاورة أحد فيها، إلا أن يكون أحدنا في مقام الإرادة فيشاور شيخه على تقديمه العمل الفلاني على غيره، من حيث أن الشيخ أمين على كل ما يرقي المريد إلى مقام العرفان، وإنما لم تشرع الإشارة في المأمورات الشرعية بالأصالة؛ لأن المأمورات الشرعية لا تتخذ حبالة للمكر الإلهي، ولا للاستدراج، بخلاف كل ما لم يبين الشارع ﷺ حكمه. فإنه يحتاج إلى المشاورة لإمكان دخول المكر والاستدراج فيه، انتهى.

وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالىٰ يقول: من شرط المريد أن لا يشتغل بعلم أو صلاة نافلة من النفل المطلق أو ذكر إلا بإشارة شيخه، فربما كان في ذلك الأمر دسيسة توقف المريد عن الترقي لا يشعر بها من عجب ورياء وسمعة، ونحوذلك، ورأيته رضي الله تعالىٰ عنه مرة يقول لشخص تلمذ له من أهل جامع الأزهر: إياك أن تطالع شيئاً من العلم، واشتغل بالذكر ليلاً ونهاراً، فقلت له: العلم مطلوب شرعاً، وربما كان فرض عين، وذكر الله تبارك

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٦٧)، ومسند الشاميين (٦٦٨)، والطبري في الرياض النضرة (٢/ ٦٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً (٢٣٦٢). وابن ماجه، كتاب الأحكام، باب تلقيح النخل (٢٤٧٠). وأحمد في مسنده (١٤٠٢)

(٣) ذكره الطبري في تاريخه (٢/ ٢٩)، وابن هشام في السيرة النبوية (٣/ ١٦٧).

وتعالىٰ إنما هو سنة ، فقال: يا ولدي هذا صاحب نفس ، فكلما ازداد علماً ازداد تكبراً على الناس ، فأمرته بالذكر ، فلعل حجابه يرق ويذهب عنه العجب والرياء بعلمه وعمله ، ثم يشتغل بالعلم بعد ذلك على وجه الإخلاص ، طلباً لإحياء شريعة محمد ﷺ لا غير ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: الإشارة بمنزلة تنبيه صاحبها من النوم ، وربما يكون الإنسان جازماً بفعل شيء وعنده أنه صواب ، فيشاور بعض إخوانه فيه فيقول له: إن فعلت كذا وقع لك من الضرر كذا ، فيرجع بقلبه عن ذلك الأمر ، ويظهر له الخطأ فيه ، حتى أنه لو قيل له بعد ذلك افعل كذا لا يجيب أحداً إلى ذلك.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب (المنن الوسطى) فافهم ذلك واعمل على التخلق به ترشد، والله تعالىٰ يتولى هداك ، ويدبرك في بلواك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم هجري لأحد من المسلمين لحظ نفسي فوق ثلاث ، كما يقع لبعض أصحاب الأنفس الغوية من المريدين وغيرهم ، ثم يزعمون أن هجرتهم تلك لله تعالىٰ لا لحظ نفس ،والحال أن الأمر بخلاف ذلك ، وأنا أعطيك يا أخي ميزاناً تفرق بين الهجرة لله والهجرة لغير الله ، وذلك أنك إذا رأيت نفسك تحب من أحسن إليها من العصاة ولا تهجره لعصيانه ، ثم إنها كرهته وهجرته لما أساء عليها ، فاعلم أن هجرتك لغير الله تعالىٰ ، وقد رأيت شخصاً يثني على بعض العصاة في المجالس ، ثم بعد ذلك رأيته يسبه ففتشت على ذلك فرأيته كان محسناً له حال ثنائه عليه ، فلما ترك إحسانه إليه ذكره بكل سوء ، وصار يقيم الأدلة على وجوب هجرته لله تعالىٰ ، فمثل هذا حبه لحظ نفسه وكرهه لحظ نفسه.

وقد كان سيدي عبد العزيز الديريني ، رحمه الله تعالىٰ يقول: لا يصلح هجر المسلم من أمثالنا لغلبة دسائس النفوس علينا ، وإنما يليق الهجر بالعلماء العاملين الغواصين على دسائس النفوس ومكايدها ، اللهم إلا أن يكون الهجر بأمر صريح في السنة ، فهذا لا حرج على أحد في الهجر بسببه ، انتهى.

واعلم يا أخي أن مما يخفى هجرتك لأخيك الصالح إذا عاشر أهل الفساد والفسق ، فربما خالطهم ليسارقهم بالنصح ، ويتخولهم بالموعظة شيئاً فشيئاً ، فإياك والمبادرة إلى هجرته قبل تربص وتأمل ، فإذا لم تجد مسوغاً للخلطة ، أو خفت على صاحبك الفساد ، فاهجره وأفهمه السبب مصلحة له لينزجر ، وقد تكون إشاعة الفساد عن هؤلاء القوم الذين خالطهم صاحبك الصالح باطلة ، أشاعها عنهم بعض الحسدة ليوقعك وأمثالك في سوء الظن بهم ، ولو أنك تأملت لربما ظهر لك الحق ، وأن أولئك القوم صالحون ، ولولا أنهم صالحون ما صحبهم صاحبك الذي هو صالح عندك.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إياك ثم إياك أن تصغي في هذا الزمان لحط أهل حرفة في بعضهم بعضاً إلا بطرق شرعية واضحة ، فإن غالب الناس قد أقبلوا بقلوبهم على الدنيا ، وأحب كل واحد منهم الانفراد في بلده بالشهرة والسمعة بالعلم والصلاح ، فأعدى عدوهم من كان عالماً صالحاً ، فهو لظلمة قلبه وحجابه من الآخرة يريد أن لا يكون لغيره شهرة بخير ، فالعاقل من استبرأ منه لدينه ، ثم هجر أو أحب تبعاً لحكم الشريعة.

وقد جاء شخص من أهل جامع الأزهر يقرأ على بعض العلماء شيئاً من رسائل القوم ، فلامه بعض الحسدة وقال: كيف تقرأ على شخص يحط على العلماء ، فانقطع عنه زماناً ، ثم جاءه وذكر له ما قاله الحسدة له ، فقال له: قل لهم: هل سمعه أحد منكم أو أخبركم عنه ثقة أنه يحط على العلماء ، أم سمعتم الإشاعة ؟ فقالوا: سمعنا فلاناً يقول ذلك ، فذهب إليه وقال: كيف يحط فلان على العلماء ؟ قال: يوجه كلام كل عالم ، وهذا يؤدي إلى تخطئة كل من خطأ صاحبه ، فينحل الأمر إلى تخطئة الكل ، فقال لهم: أما قال الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه: العمل بالحديثين أولى من إلغاء أحدهما ، أما قال أئمة الأصول إعمال القولين أولى من إلغاء أحدهما ، فأعجزهم.

فانظر يا أخي دسائس الحسدة حيث يقولون عن شخص يجيب عن الأئمة وهو متقيد بمذهبه: إنه يخطىء الأئمة بتأويل مخطىء ، لكلام لا يفهم منه رائحة الحط ، ولا رائحة قلة التعظيم ، وبالجملة فلا يفهم مثل ذلك عن هذا العالم إلا شخص تعس وانتكس في الفهم ، كل ذلك تنفيراً منه للناس حسداً وبهتاناً ، فلولا أن الله تعالىٰ هدى هذا الطالب لكونهم حسدة لكان هجره بقولهم ، وظن بنفسه أن هجرة مثله قربة إلى الله تعالىٰ ، فالله يغفر لهم ولنا ما مشينا فيه بالظن آمين ، فإياك من سوء الظن بأحد من المسلمين ، فضلاً عن غيرهم من العلماء العاملين ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حضوري مع الحق تبارك وتعالىٰ في حال اجتماعي بزوجتي ، كما أحضر معه تبارك وتعالىٰ في صلاتي على حد سواء في أصل الحضور ، وإن تفاوت الحضوران من حيثيات أخر ، بجامع أن كلاً منهما عبادة مأمور بها ، وما شرع الحق تبارك وتعالىٰ جميع المأمورات الشرعية إلا ليحضر العبد مع ربه فيها حال فعلها ، وإنما لم يصرح الشارع لنا بالأمر بالحضور في الجماع ، اكتفاء بما أمرنا به من التسمية عنده ، فإن ذكر اسمه تعالىٰ وسيلة للحضور معه تعالىٰ.

وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالىٰ يقول: لا يتحقق لعارف قط وجه العبودية ذوقاً في شيء من العبادات ، كما يتحقق به حال الجماع أبداً ، فإنه يشهد نفسه مقهوراً تحت حكم شهوة طبيعية حتى لا يقدر على دفع حكمها عليه ولا يكاد يتذكر شيئاً آخر غير ما هو فيه ولذلك

كان من شأن القطب الغوث الإكثار من النكاح لما يجده فيه من التحقق بالعبودية التي لا يشوبها دعوى قوة بل محض ضعف ، انتهى.

فإياك والاعتراض على من يكثر من الجماع ، فربما يكون سبب كثرة جماعه الحكمة التي ذكرناها ،وقد رأيت شخصاً يدعي القطبية يدخل الحمام في النهار ثلاث مرات ، فازددت فيه اعتقاداً وتعظيماً فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، ويدبرك فيما أبلاك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة شفقتي على ذريتي من قبل أن تحمل بهم أمهم ، وذلك أني لا أجامع أمهم قط وأنا غافل عن الله تبارك وتعالىٰ ، كما مر في النعمة قبله ، ولا أجامعها وأنا غضبان ، ولا وأنا مقبل على الدنيا ، ولا وأنا مخاصم أمهم لحظ نفس ، ولا وأنا حسود أو متكبر على أحد من المسلمين ، وذلك كله عملاً بقول بعض أهل الكشف: إن الولد يكونه الله تعالىٰ بقدرته على صورة الحال التي كان عليها والده حال الجماع ، من باب ربط الأسباب بالمسببات ، وهذا وإن لم يصح فيه شيء عن الشارع ﷺ ، فالتحرز منه أولى عملاً بكلام أهل الكشف ، والله غالب على أمره ، فلا أثر للطبيعة في تخليق الولد. فافهم ، فعلى ما قاله أهل الكشف ينبغي لمن كان متلطخاً بشيء من الصفات المذمومة شرعاً أن لا يجامع زوجته أيام توقع الحمل إلا بعد أن يتوب من كل ذنب توبة خالصة ، ثم يجامع.

وكان الشيخ أحمد بن عاشر المغربي ، شيخ تربة السلطان قايتباي ، رحمه الله تعالىٰ ، لا يجامع زوجته من حين تحمل ، حتى تضع حملها وتفطمه خوفاً على الولد من الغيلة الواردة في الحديث ، وإن قيل بنسخ ذلك ، وكانوا إذا مدحوه على ذلك يقول: وهل ذلك إلا خلق البهائم ، فإن البهيمة بمجرد ما تحمل لا تمكن الفحل يعلوها أبداً ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: ليتأمل الشخص في صفات أولاده ، فإن وجد صفاتهم حسنة فهي أخلاقه أو سيئة فهي أخلاقه ، من حيث إن النطفة نزلت من ظهره بتلك الصفات ، فلا يلومن إلا نفسه.

وقد قلت مرة لشيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالىٰ: ما سبب تخلف أولاد العلماء والصالحين عن التخلق بأخلاق أسلافهم غالباً ؟ فقال لي: سببه تصفية ذواتهم من الأخلاق الرديئة إذ الكدر ينزل إلى أسفل ،والصافي يصعد ، ثم قال: وتأمل أولاد الفلاحين كيف يشتغلون بالعلم حتى يصير أحدهم شيخ الإسلام ، لعدم تصفية ظهور آبائهم ثم حكى لي حكاية ظريفة ، وقال: كنا نقرأ يوماً على شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر في قاعته أيام الصيف ، وإذا بالماء يقطر علينا ، فقال الشيخ: انظروا هذا الماء ما هو ؟ فصعد إنسان فوجد ولده قد حفر في السقف ، وغرز ريش الأوز ، وقال: إني أزرع لنا أوزاً ، فقال الشيخ بأعلى صوته انزل فإن معمل الأوز في ظهر أبيك ، انتهى.

وهي تومىء إلى ما ذكرناه عن أهل الكشف ، لكن يجب إخراج الأنبياء من ذلك ، فلا يقال: ما وقع من عصاة بني آدم كان في صلب آدم ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان معصوماً من مثل ذلك ، وكذلك لم يكن عليه شيء من وزر أولاده بالإجماع ، انتهى. فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم بخلي على عيالي بأجرة الحمام كلما قربت منها ، سواء كانت جنابة جماع أو نفاس ، وكذلك لا أبخل عليها بأجرة غسلها من حيض أو احتلام؛ لأن ذلك من جملة المعاشرة بالمعروف الذي أمرني الله تبارك وتعالىٰ به ، فمن بخل على زوجته بما ذكرناه لم يعاشرها بمعروف ، وكذلك لو كلفها الغسل في الشتاء بالماء البارد.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالىٰ يقول: من مروءة الرجل مساعدة زوجته في تحصيل كل ما احتاجت إليه من مصالح الدنيا والآخرة لأنها في حبائله ، وإن لم تأخذ منه حاجتها فممن تأخذ ، ولا ينبغي له التعلل بعدم إيجاب الشارع ﷺ عليه ذلك الأمر ، بل كما ساعدته بتمكينه منها على غض بصره وحفظ فرجه وقضاء وطره ، فكذلك ينبغي له مساعدتها على ما ذكرناه.

وهذا الأمر يخل به كثير من الناس ، فيكثر أحدهم الجماع ، ويشح على حليلته بفلوس الحمام ، لا سيما عيال الأكابر ، فإن إحداهن تستحيي من خروجها للحمام كل يوم أو كل يومين لأجل لوث الناس بها ، ولحوقهم بمجامعتها كل ليلة مثلاً ، ويعسر عليها الاغتسال في البيوت خوف المرض والحوادر التي تنزل على رأسها ، وربما استحيت من جاريتها أن تأمرها بتسخين الماء كل ليلة أو والدتها أو أختها أو والدها ، وربما أخرجت الصلاة عن وقتها من هذه الحيثية أو تيممت بدل الغسل من غير حصول العذر الشرعي من شدة الحياء الطبيعي ، فينقص دينها بذلك ، فليختر المكثر من الجماع: إما أن يقلل جماعه ، وإما أن يعطي عياله فلوس الحمام أو ثمن الوقود ، ويساعدها على تسخين الماء في البيت «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»[1] فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة تواضعي وتعظيمي لكل عالم أو فقير زرته ، وتقبيل يده أو رجله بطيبة نفس ، ثم لا أرى أني قمت بواجب حقه عليّ ، لا سيما بحضرة

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٦٩٩) ، والترمذي ، كتاب الحدود ، باب ما جاء في الستر على المسلم (١٤٢٥) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في المعونة للمسلم (٤٩٤٦) ، وابن ماجه ، كتاب المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٥) ، وأحمد في مسنده (٧٣٧٩).

أصحابه وتلامذته ، فإن في ذلك تقوية لاعتقادهم فيه ، فيعكفون عليه ، ويقبلون نصحه وتربيته ، لا سيما أن لي اسماً في المشيخة عندهم ، فيقولون: إذا كان الشيخ فلان يقبل رجل شيخنا فذلك دليل على أن شيخنا أعلى منه مقاماً ، فيزيد اعتقادهم فيه وانتفاعهم به ، وكثيراً ما أقبل عتبة باب ذلك الشيخ أو باب زاويته بحضرة تلامذته إذا دخلت وإذا خرجت وهم ينظرون ، وإن كان ذلك الشيخ دوني في مقام المعرفة وإنما أفعل ذلك مع ذلك الشيخ لعلمي بعكوف أصحابه عليه دوني ، ولو أني كنت أعلم منهم أنني لو عظمت نفسي قدموني على شيخهم حين علمت أني أعلى مقاماً منه ، ما كنت أقبل رجل ذلك الشيخ ولا عتبة بابه ، إذ لا فائدة فيه حينئذ ، بل الفائدة الدينية في أخذهم عني حينئذ.

وإيضاح ذلك: أن العارف كلما علا مقامه كلما كان أعرف بتقريب الطريق واختصارها على المريدين ، وكل الدعاة إلى الله تعالىٰ خدام لرسول الله ﷺ ، ونوابه وأمناؤه على أمته ، فكل من بادر إلى ما فيه صلاح لأمته وراحة كان أحب إلى رسول الله ﷺ ، وإن رغم منه أنف ذلك الشيخ الأول.

فعلم أنه ليس لنا أن نمدح نفسنا بالمعرفة ، ونفضلها على ذلك الشيخ إلا بحق ، وإلا كان ذلك حراماً علينا وغشاً للمسلمين ، وكان أخي أفضل الدين رحمه الله إذا دخل على شيخ ، ورأى نفسه قائمة يقبل رجله ، ويسأله الدعاء ، وإن كان لا يصلح تلميذاً له ، ويقول: نعلمه التواضع مع إخوانه ، ودخلت معه مرة على شيخ فرآه ليس له قدم في المشيخة ، فصار ينفر جماعته عنه ، ويقول: انظروا لكم شيخاً فإن شيخكم هذا لا يعرف شيئاً من الطريق ، فقلت له: هل حسنت اعتقادهم فيه ، فقال: ذلك غش لهم ، ويجب على الفقير إذا علم من شيخ أنه عامي في الطريق ، كمشايخ الأحمدية والمتمشيخين بالآباء والجدود من غير سلوك على يد شيخ أن يرشدهم إلى طلب شيخ ، فإن لم يجيبوا إلى ذلك نفر جماعتهم عنهم مصلحة للفريقين ، أما أولاد المشايخ فلئلا يصيروا من الأئمة المضلين ، وأما جماعتهم فتقريباً للطريق عليهم ، انتهى.

وصاحب هذا المقام دائر مع المصالح لا مع حظ النفس ، مع أنه خلق غريب في هذا الزمان ، وما رأيت قط فقيراً تمشيخ يقبل رجل شيخ أو عتبة زاويته في مصر غيري ، ثم لا يخفى أن محل طلب تقبيلي رجل ذلك الشيخ ما لم أخف عليه عجباً أو كبراً ، فإن خفت ذلك عليه ولو بالقرائن تركت تقبيل رجله وعتبة بابه ، كما يشهد له قواعد الشريعة ، وقد وقع لي أنني قبلت رجل شيخ بحضرة جماعته ، وبحضرة الأمير الذي يعتقده ، فحصل للشيخ عجب ولي ازدراء واحتقار ، وصار الشيخ يقول: فلان قبل عتبة زاويتنا وطلب منا أن نربيه ، ويقول: الأمير: فلان تلميذ لشيخنا ولا فرق بيني وبينه ، فترتب على ذلك عدة مفاسد ذكرتها في كتاب (المنن الوسطى) ، وخربت دار ذلك الأمير ، ورمي الشيخ بعمل الزغل ، وغير

ذلك. فمن تلك الواقعة ما قبلت رجل أحد إلا إن علمت أن ذلك لا يورثه زهواً ولا عجباً، فافهم ذلك، واعمل على التخلق به ترشد، والله تعالىٰ يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تحفظي من تطويل الجلوس إذا زرت أحداً من إخواني، أو ذكري له أحسن ما عندي من الكلام أو الأحوال، وقل من يتحفظ من مثل ذلك في هذا الزمان، اللهم إلا أن يترتب على ذلك مصلحة شرعية لي أو له، فلا حرج.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إياك أن تزور أحداً وتمكث عنده طويلاً، إلا إن علمت أنه يحفظ لسانه في حق الناس، وإلا فزيارتك إلى الإثم أقرب، وكان رحمه الله تعالىٰ يقول أيضاً إياك أن تذكر شيئاً لأخيك من محاسنك إذا اجتمعت به إلا لغرض شرعي، فإن السلف الصالح ما تركوا كثرة زيارة إخوانهم إلا خوفاً من الوقوع في التزين لبعضهم بعضاً.

وقد وقع للفضيل بن عياض رضي الله تعالىٰ عنه: أنه اجتمع بأخ له في الله، فقال له ذلك الأخ: ما أظن أننا جلسنا مجلساً قط أحسن من هذا، فقال له الفضيل: ما أظن أننا جلسنا مجلساً أشأم من هذا أليس عمد كل واحد منا إلى أحسن ما عنده فذكره للآخر.

وكان بشر الحافي رحمه الله تعالىٰ، يشتاق إلى بعض إخوانه فلا يذهب إليه ويقول: أخاف أن أتزين له ويتزين لي إذا اجتمعت به، انتهى.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالىٰ يقول: كان السلف الصالح يحبون المراسلة بالسلام، ويقولون: هي أحب إلينا من اللقاء؛ لأنه ربما زكى كل إنسان نفسه عند أخيه، فيخلو قلب كل واحد منا من النور، ويقع كل منا في ذنب إبليس الذي هو الفخر على غيره، انتهى، وقال لي مرة إياك يا ولدي من الإكثار للزيارة للناس إلا لمصلحة، ثم أنشدني هذين البيتين:

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً ... سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا ... لأخذ العلم أو إصلاح حال

فافهم ذلك واعمل على التخلق به ترشد، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة ستري لعورات المسلمين الذين لم يتجاهروا بالمعاصي، وأرى ذلك من جملة الواجبات عليّ، هذا شأني مع كل من تستر في معاصيه عن أعين الناس، إلا أن يترتب على ذلك مصلحة شرعية وهذا الخلق قد صار من أغرب ما يكون بين الناس، فلا يكاد أحد يستر عورة أحد وبذلك كثر كشف سوآت الخلائق، لا سيما ونحن

في زمان قد وعد الشارع ﷺ فيه بظهور المعاصي والفتن ، وكثرة الزنا واللواط والقتل وشرب الخمر ، وغير ذلك.

وكان سيدي أحمد الزاهد رحمه الله تعالىٰ يقول: إذا رأيتم من يتجاهر بالمعاصي لبعض الناس ، فأمروه بالستر ، فإن لم يسمع لكم فلا ترفعوا ذلك الأمر إلى الحاكم على وجه إقامة الحدود ، ولا بأس بإعلامكم به الحاكم أو غيره على وجه الاستشارة في طريق نصيحته ، إذا اعتقدتم أنه أوسع تدبيراً منكم ، ولا تعلموا به من لا يعرفه على وجه الهتك له ، فإن نفس الشماتة بالمعصية معصية أخرى ، اللهم إلا أن يتجاهر بالمعاصي بين الخاص والعام ، فذلك عبد خلع ربقة الحياء من عنقه ، واستحق الرفع إلى الحكام ، وإعلام الناس به ليحذروه ، لا سيما إن كان كثير المراودة للنساء ، فإن ذلك يجب على كل مسلم تحذير جيرانه منه ، نصيحة لله تعالىٰ ولرسوله وللمسلمين ، ثم إذا رفعنا أمره إلى حاكم ليقيم عليه الحد أو التعزير بشرطه ، فينبغي أن يكون قصدنا بذلك تطهيره من الذنوب لا التشفي فيه ، فربما عاقبنا الله تعالىٰ بالوقوع في مثل ما وقع فيه؛ لأن التشفي من جنس المعايرة له ، ومن عاير ابتلي ، وفي الحديث: «**لو عير أحدكم أخاه برضاع كلبة لم يمت حتى يرضع من تلك الكلبة**»[1] انتهى.

وكم يقع الشخص في معصية ويسترها الله تعالىٰ عن أعدائه وغيرهم ، ولو أنهم اطلعوا على ذلك ، وحسن عندهم أن يهجروه لهجروه مدى الدهر ، ولم يجالسوه ، ثم لا يخفى أن جملة سترنا للمسلم أن نغلق عليه بابه إذا رأيناه خارجاً وهو سكران ، ونأمر الأجنبية التي معه في الخلوة المحرمة مثلاً أن تنزل من حائط الجار إن خفنا أن أحداً ينظرها إذا خرجت من المحل الذي هي فيه ، كل ذلك حتى لا يعلم أحد بعصيان ذلك الرجل ، لا سيما إن كان جاراً لنا وكم يترتب على كشف السوآت مفسدة.

فإياك يا أخي أن تفشي سر أخيك المسلم ولو لأعز أصدقائك ، فإنه يصير يحكي ذلك لكل الناس إن كان ساذجاً ، وإن كان حاذقاً فيحكي ذلك لبعض الناس ، ويأمرهم بالكتمان ، فيصير كل واحد يخبر صاحبه ويأمره بالكتمان حتى تمتلىء البلد ، وأحدهم يحسب أنه كتم ما رأى ،والحال أنه هتك أخاه بين الناس ، فليتنبه العاقل لمثل ذلك ، فإنه واقع كثيراً في الأكابر فضلاً عن غيرهم. وإن أراد شيخ الزاوية أن يؤدب الناقل ويأمره بتعيين من أخبره وهكذا إلى أن ينتهي إلى الذي نشأ منه الكلام أولاً ليؤدبه كان أولى ،وأكثر غيظاً لإبليس ، فإنه كثيراً ما يوسوس للواحد ، ويقول قد وقع فلان في كذا وكذا تارة بالظن وتارة بسماع ذلك من فاسق أو عدو فإذا قيل له سمعت ذلك من أي شخص ، فيقول له: من واحد لا ينبغي ذكره أو من واحد حلفني بالطلاق أني لا أذكره ، فتخرب الزاوية بسبب ذلك ، وهو يحسب أنه مصيب

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٣/ ٢٧٩) ، وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٤/ ٤١٦).

في عدم تعيينه خوف الفتنة ، والحال أن فتنة الكتمان أكبر لأنه إذا عينه فإما يخرج مما قال بطريق شرعي ، وإما يقام عليه حد القذف والتعزير ، ثم إنه لا يكتم مثل ذلك عن شيخ الزاوية إلا كل شيطان ، فإنه أشفق على الفقراء من أنفسهم ، فافهم ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: انشراح صدري ، ومطاوعة نفسي في محبة ستر عورة عدوي ،وكراهتي لكشفها ، وتأثري لذلك ، وهذا خلق غريب لا يوجد إلا في أفراد من الناس ، والغالب على الناس إظهار الشماتة لعدوهم ، وإظهار عورته ، وإشاعتها للخاص والعام تعريضاً وتصريحاً ، بخلافي أنا فإني بحمد الله تعالىٰ أستر عورة عدوي أكثر من عورة صديقي ، وذلك لأني أرجو من صديقي العفو إذا تبت واستغفرت من كشف عورته ، ولا هكذا عدوي ، بل لا يبرىء ذمتي لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وقد اطلعت بحمد الله تعالىٰ على عورة كثير من أعدائي الذين يرمونني بالبهتان والزور وأنا أسترهم ، فهم يريدون أن يكشفوا سترتي بالبهتان وأنا أسترهم في الأمور المحققة التي رأيتها بعيني ، وكثيراً ما أرى أحدهم يعصي ثم إذا سمعت غيري يذكره بذلك كذبته ، وقلت: حاش لله أنت عدو وكلام العدو لا يقبل في عدوه ، مع أني أعلم أن ذلك الغير صادق فيما رأى سداً لباب كشف سوآت المسلمين، اللهم إلا أن يترافعا إلى حاكم، فلا يجوز الطعن في شهادة الشاهدين أو الأربعة للنهي عن مثل ذلك ، بخلاف الأمر قبل الرفع ، وقبل قبول الحاكم شهادة الشهود فافهم ، ومن هنا قالوا: ما كل ما يعلم يقال.

وأكثر ما أتأثر على عورة عدوي إذا رأيته يحط فيّ وينقصني ، لا سيما إن كان معدوداً من جملة العلماء أو الفقراء سداً لباب الطعن في خرقة العلماء والصلحاء ، فإن في ذلك مفاسد لا تحصى ، أقل ما هناك أن العامة تتجرأ على المعاصي ، والحط في بعضهم بعضاً ،وتقول: إذا كان العالم الفلاني أو الصالح الفلاني وقع في المعصية الفلانية فأيش هو أنا ، وقد حرم المحققون على الواعظ ذكر شيء من مسمى معصية للأنبياء؛ لأن ذنوب الأنبياء إنما هي بالنظر لمقامهم ، كوقوعهم في خلاف الأولى أو المباح مثلاً ، فيسمى مثل ذلك معصية ، وليس المراد بمعاصيهم ارتكابهم شيئاً من المحرمات لأنهم لو ارتكبوه لم يكونوا معصومين ، وقد ثبتت عصمتهم.

وقال الشيخ محيي الدين في الفتوحات: جميع من عيَّن حقيقة معاصي الأنبياء وخطاياهم فهو مخطىء ، كما في قصة خطيئة داود عليه الصلاة والسلام ، فيعتقد بعضهم أنها النظر المحرم إلى امرأة أورياء ، والحق أن تلك الخطيئة إنما هي رفع رأسه عليه الصلاة والسلام بغير حضور نية صالحة في الرفع ، فإن حركات الأكابر وسكناتهم لا تكون إلا بإذن خاص ، ولا يكفيهم مطلق الإباحة كغيرهم ، فلما رفع عليه الصلاة والسلام رأسه ، وقع بصره على

امرأة أو رياء فصرفه فوراً فكان عين الخطيئة رفع بصره بغير إذن خاص لا عين النظر المحرم لعصمته ، وعلى ذلك ينزل خبر «كانت خطيئة أخي داود النظر»[1] فإنه أطلق النظر ، فشمل السماء والحائط وغير ذلك ، ولم يخص شيئاً بعينه ، على أن من عين خطيئة محرمة لا يجد في ذلك قط دليلاً عن الشارع ﷺ لا صحيحاً ولا ضعيفاً ، وإنما نشأ ذلك من بعض اليهود استحلوا أعراض الأنبياء بكلام ما أنزل الله به من سلطان ، قال: والعجب وضع بعض المفسرين ذلك في تفسيره ، ويصير بعضهم يقول: قال المفسرون: كذا. وذلك لا يجوز ، انتهى.

فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم مبادرتي إلى الرد على من نقل عنه بعض الحسدة غلطة تخالف النقل ، بل أتثبت في ذلك غاية التثبت ، لا سيما إن أفضت تلك الغلطة إلى التكفير أو التعزير ، وهذا الأمر قليل من يثبت فيه ، بل يبادر أحدهم إلى الفتوى مع أنه لم يجتمع بصاحب الواقعة ، ولا ثبت ذلك الأمر عنده ببينة عادلة.

ولما نقل بعض الناس عن الشيخ عبد المجيد السامولي رحمه الله أنه نهى المصلين على رسول الله ﷺ أن يقولوا: اللهم صل وسلم على سيدنا محمد أفضل مخلوقاتك ، وأنه قال: لا تقولوا أفضل مخلوقاتك فإن ذلك لم يرد في حديث ، إلى آخر ما أنهوه في حقه ، بادر إلى ذلك كل مبادر ، فمنهم من أفتى بالتكفير ، ومنهم من أفتى بالنكير ، ومنهم من أفتى بالتعزير ، فأرسلت له مكاتبة إلى المحلة أخبرته فيها عما قال الحسدة في حقه ، وأنه يخبرني بحقيقة الحال ، فكتب إليّ وبعد: فما نسب إلى العبد من نهيه المصلين عن قولهم أفضل مخلوقاتك لم يقع مني ، وإنما صورة ذلك: أنه قدم إلي سؤال مضمونه هل الأفضل الصلاة على رسول الله ﷺ بما ورد من الكيفيات ، أم الصلاة عليه بالكيفيات التي فيها زيادة التفخيم والتعظيم ، فأجبت: الأفضل الصلاة عليه ﷺ بما ورد ، فإن الوقوف على حد السنة أولى من تعدي السنة.

ثم قلت: وهذا الذي قلناه لا ينافي اعتقادنا التفضيل الذي أجمع عليه الأئمة ، فقد نقل الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالىٰ الإجماع على أن نبينا محمداً ﷺ أفضل الخلق أجمعين فلا مخلوق أفضل منه فكيف لي أن أخرق الإجماع.

قال: وهذا ما استحضرت أنني كتبته على ذلك السؤال، ولكن أقول كما قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قال: وكنت أود أنهم لو أطلعوني على ذلك الجواب الذي أشاعوه ، لأزيده بياناً وإيضاحاً موافقاً لما عليه العلماء قاطبة ، فلم يطلعوني عليه ، ولم يراجعوني فيه ، هذا ما وقع انتهى.

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٣٠٨١).

فلما كتب إلي ذلك أرسلته للمتعصبين عليه ، فلم يصغ أحد منهم إلى ذلك .

وكان الحسن البصري رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إذا بلغكم عن أحد كلام وأعلمتموه فأنكره فارجعوا إليه وكذبوا الناقل ، انتهى .

وقالوا في كتب الفقه: إن القاضي أو المفتي أو الشاهد إذا أنكر فتواه أو حكمه أو شهادته ، لا يحلف لأنه مؤتمن ، انتهى .

فإياك يا أخي والتعصب على أحد إلا بعد اجتماعك عليه وسماعك منه ما يخالف ظاهره الشرع ، وإعلامك له بمخالفته في ذلك الشريعة ، أو كلام الجمهور مثلاً ، ثم بعد ذلك إن صمم على المخالفة فأنكر عليه وشنع رحمة به وبالمسلمين ، أما هو فلئلا يكون من الأئمة المضلين ، وأما المسلمون فلئلا يتبعوه في ذلك فيهلكوا ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: مشاركتي في الفرح والسرور لمن ولد له مولود من أصحابي ، وإن كان فقيراً ساعدته في عمل اللبابة والسبوع بما أقدر عليه ، من عسل نحل أو عسل قصب أو ذبح خروفين أو خروف ، وكذلك أفرح والدته بالنقوط على يد عيالي ، سواء كان لها عليها دين في النقوط أم لا ، ولا أشح على عيالي بفلوس النقوط إذا طلبت ذلك مني سترة لها بين النساء ولا أقول لها قط هذا لا يلزمني ؛ لأن ذلك من جملة المعاشرة بالمعروف التي أمر الله تعالىٰ بها ، ومن جبر خاطر أخيه جبر الله تبارك وتعالىٰ خاطره في الدنيا والآخرة ، ومن كسر خاطر أخيه فهو بالضد ، ثم إذا جاءك مولود وطلبت منه أنه يفرح به لا يفرح مجازاة لفعلك معه ، ولو أنك كنت فرحت بولده ونقطته لفرح بولدك ونقطك ، وقد رأيت من طلبت منه زوجته نقوطاً تنقط به ولد جارتها فلم يرض ، ووقع بينه وبينها ما لا خير فيه ، وذلك من جملة البخل والشح وسوء العشرة .

فإياك يا أخي أن تفعل مثل ذلك ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، ويدبرك على بلواك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم تعرضي للمن بالأكل على صاحب كان يأكل معي زماناً ، ثم حصل منه كفران نعمة من كان واسطة في ذلك ، ولا أقول له قط: يا فلان تذكر الخبز والملح الذي بيني وبينك ، فإن ذلك يؤذيه ، فيبطل تلك الصدقة ، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وربما قامت النفس على ذلك الصاحب فأنكر وحلف أنه لم يأكل معنا ، ولا لنا عليه فضل ، وربما حلف على ذلك كاذباً إذا خاف شماتة أعدائه فيه ، وربما أطلق لسانه بالنقائص فينا إذا مننا عليه باللقمة فيحصل على ذلك مفاسد وآثام .

فعلم أن الذي ينبغي للعبد أن لا يطعم أحداً شيئاً إلا لله تعالىٰ ، ثم لا عليه بعد ذلك إن

اعترف الآكل بذلك أو أنكر ، فإن ذكر الطعام للآكلين في الخصام عنوان على عدم الإخلاص فيه ،ودليل على خسة الأصل ، فإن الكريم لا يمن قط بما فعل مع أخيه من المعروف ، بل يرى الفضل لذلك الأخ الذي كان أكل عنده ، لا سيما إن كان من المحبين الصادقين ، ثم حصل منه بعض زيغ في الصحبة ، ثم رجع إلى المحبة عن قريب ، فإن ذلك المن يصير يكدر الصحبة بعد ذلك كلما تذكره.

وقد كان لي صاحب من طلبة العلم ضريراً أطالع معه العلم ، ويفيدني الفوائد الحسنة ، فتخاصم مع بعض الطلبة ، فقال له: أنت لا تجيء إلى فلان إلا بقصد الغداء والعشاء ، فحملت ذلك الصاحب المروءة ، فحلف بالطلاق من زوجته أنه ما عاد يأكل عندي في تلك السنة ، فلا تسأل يا أخي عما حصل لي من النكد بسببه ، فإن من شأن الفقير تصديق كل صاحب فيما يدعيه من المحبة الخالصة ،ولا يجوز له أن يكذبه ولو بالقرائن ، ولو تأمل الكريم لوجد الفضل عليه ممن أكل طعامه ، فإنه لولا ظن فيه الكرم ما أكل عنده ، فصاحب يظن بك خيراً ويباسطك ويحمل زادك إلى الآخرة ، وقد يحضره لك أحوج ما تكون إليه ، كيف تمن عليه بلقمة من رزقه جعلها الله تبارك وتعالىٰ له على يديك ، هذا خروج عن محاسن الشريعة.

فإياك يا أخي من فعل مثل ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، ويدبرك في بلواك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: معرفتي بحال قضاة الزمان ، وإقامة الأعذار الشرعية لهم فيما يقع منهم في الأحكام ، ولا أحط قط على قاض إلا إذا لم أجد له محملاً صحيحاً في الشرع ، وقد أخبرني بعض القضاة الصادقين ، أنه كثيراً ما يريد أن يفعل مع الأخصام الأمور الشرعية على التمام ، فيقوم له عدة موانع تمنعه من ذلك. فأنا أسعى في نصرة الشريعة جهدي وطاقتي ، فافهم ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم استدلالي بوقوع مريدي هذا الزمان في النقائص على أن ذلك من نقص شيخهم ، عملاً بقول بعضهم: إذا أردت أن تعرف مقام شيخ لم تره فانظر إلى أصحابه ، فإنهم يدلونك عليه ، انتهى. فإن ذلك ليس بقاعدة كلية ، فقد يكون الشيخ من أكابر أولياء الله تعالىٰ ولم يقسم لمن اجتمع عليه شيء من أخلاق القوم ، كما أنه ليس كل من اجتمع برسول الله ﷺ حصلت له الهداية ، وما كل من سمع كلام الواعظ اتعظ به.

فإياك يا أخي أن تنظر ممن انتسب إلى شيخ من أهل عصرك بسوء أدب ، فتقول: لو كان شيخ هذا متأدباً لظهر على مريده ، فتقع في الغيبة في الأشياخ بغير طريق شرعي ، فتمقت ، فاحذره ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، ويدبرك في بلواك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: أنني لا أسأل ، ولا أرد حلالاً ، ولا أدخره ، فأقبل كل ما جاءني بغير سؤال مني بالحال أو القال ، وأنفقه على من احتاج إليه من نفسي أو غيري على الوجه الشرعي ، وهذه طريقة الشيخ الكامل أبي الحسن الشاذلي وأصحابه رضي الله تعالىٰ عنهم ، وقد عملنا بها في أيام الرخاء مراراً ، بخلاف أيام الضرورات ، فإن هذه الميزان تتغير إلى حكم آخر.

وكان سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: أحل الحلال ما لم يخطر لك على بال ، ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال ، انتهى.

فافهم ذلك واعمل على التخلق به ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم مدح إحدى الضرتين وشكرها بحضرة الأخرى ، في حجة تميل خاطرها إليها ، فإن ذلك لا يزيد كل واحدة إلا ناراً ، وتقول: إن هذه الأمور مما تميل خاطر زوجي إلى ضرتي ، فتزداد على ضرتها حمقاً وغيظاً وكذلك لا أجمع بينهما في منزل واحد ، ولا أذهب بإحداهما إلى الأخرى لتطبخ عندها بقصد ائتلافها عليها ، فإن ذلك أمر مدبج كله تلبيس ،ولو أن إحدى الضرتين أظهرت الرضا عن الأخرى ، وطلبت الذهاب إليها لا أجيبها ، فإن حكم الضرتين حكم الدنيا والآخرة إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى قهراً على كل واحدة منهما ، وقد أنشد سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني رحمه الله تعالىٰ:

تــزوجــت اثنتيــن لفــرط جهلــي ... وقــد حــاز البــلا زوج اثنتيــن
فقلــت أعيــش بينهمــا خــروفــاً ... أنعــم بيــن أكــرم نعجتيــن
فجــاء الحــال عكــس الحــال دومــاً ... عــذاب دائــم ببليتيــن
رضــا هــذي يحــرك سخــط هــذي ... فــلا أخلــو مــن إحــدى السخطتيــن
لهــذي ليلــة ولتلــك أخــرى ... نقــار دائــم فــي الليلتيــن
إذا مــا شئــت أن تحيــا سعيــداً ... مــن الخيــرات مملــوء اليــديــن
فعــش عــزبــاً وإن لــم تستطعــه ... فــواحــدة تكفــي عسكــريــن

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

*

الباب الثامن

في جملة أخرى من الأخلاق

فأقول وبالله التوفيق وهو حسبي وثقتي

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم بغضي لأحد ممن نسب إلى الشرف ، أو كان من الأنصار ، ولو أنه آذاني أشد الأذى احتملته ، وذلك لأن بغضي لأولاد النبي ﷺ أو لأولاد الأنصار ـ أعني لحظ نفسي ـ معاداة لرسول الله ﷺ ، وجرح لإيماني ، ومن عادى رسول الله ﷺ فإيمانه لا يخفى حكمه ، وفي القرآن العظيم: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]. والمودة هي ثبات الحب ودوامه ، وفي الحديث: «**الله الله في أهل بيتي**»[١] وقال رسول الله ﷺ في الحسن والحسين: «**من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني**»[٢] وفي البخاري وغيره مرفوعاً: «**حب الأنصار من الإيمان**»[٣] وفي رواية «**آية الإيمان حب الأنصار**»[٤] وما ثبت حكمه للأصل ثبت حكمه للفرع ، وإن تفاوت المقام إلا ما أخرجه النص ، فالحمد لله على ذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: من الأدب أن نجعل كل ما ظلمنا شريف به من باب جري المقادير الإلهية على العباد ، فأعلى ما نعامل به الحق عز وجل على ذلك الرضا ، فإن لم نقدر على الرضا فالصبر ، فإن لم نصبر سألنا الله تبارك وتعالىٰ أن يمدنا

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٨) ، وأحمد في مسنده (١٨٧٨٠) ، والدارمي ، كتاب فضائل القرآن ، باب فضل من قرأ القرآن (٣٣١٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه ، كتاب المقدمة ، باب فضل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب (١٤٣) ، وأحمد في مسنده (٧٨١٦).

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً ، كتاب المناقب، باب حب الأنصار من الإيمان ، والمرزوقي في تعظيم قدر الصلاة (٤٧١)

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب علامة الإيمان حب الأنصار (١٧) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان (٧٤).

بالصبر على ذلك الشريف ، فإنه ما بعد الصبر إلا السخط على تلك المقادير ، وذلك لا يجوز ، انتهى.

فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حفظي لحرمة أشياخي أحياء وأمواتاً ، ولو قدر أنني جاوزت مقام أحدهم فلا أرى نفسي قط عليه ، بل لا أرى نفسي أصلح خادماً له ، فإن جميع ما يحصل للمريد إنما هو من المادة التي أعطاها له شيخه ، وشيخه دائم الترقي فلا يقف للمريد حتى يلحقه أبداً ، هذا ما نعتقده في أشياخنا ، ولذلك توقفنا في صحة مجاوزة المريد لمقام شيخه بقولنا: ولو قدر... إلى آخره ، وكثيراً ما أزجر من سمعته يرفع مقامي على أحد من أشياخي زجراً بليغاً بالقلب واللسان، وكذلك أزجر من سمعته يقول عني إني خليفة لسيدي علي الخواص، أو سيدي الشيخ نور الدين الشوني، أو إني ورثت مقام أشياخي كلهم ، ونحو ذلك مما هو كالكذب ، فإن من شرط الخليفة أن يرث مقام شيخه كاملاً، وأنا لم أطلع على نهاية مقام أحد من أشياخي، حتى أعرف أني ورثته فيه ، وكذلك أعرف أنه قد يكون عند أشياخي من الأخلاق والعلوم والمعارف والأسرار ما ليس عندي ، فكيف أوافق القائل على أني خليفتهم.

وقد كثر الاغترار في هذا الزمان بمثل ذلك من بعض مشايخ العصر ، وأقروا من يسميهم خلفاء لأشياخهم ، مع علمهم بأنهم لم يقع لهم شيء من الكرامات والخوارق التي كانت لشيخهم ، وربما كان أحدهم قد جلس بنفسه من غير إذن من شيخه الذي عمل خليفة له.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يعيب على من يزعم أنه خليفة لشيخه ، ويقول: ينبغي للمريد أن ينزه مقام شيخه عن مثل ذلك ، ويغار على مقام شيخه أن ينهضم بجعله خليفة له.

وقد قالوا: إذا لم تجتمع بشيخ فانظر حال جماعته ، فإنهم يدلون عليه ، فليحذر العارف الفقير من مثل ذلك ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، وهو حسبي وثقتي ومغيثي ومعيني ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم مزاحمتي لمشايخ عصري على شيء من أنواع صفات المشيخة ، كتلقين المذكر ، وأخذ العهد ، وإرخاء العذبة لأحد من الناس ، لا سيما إن كانوا أقدم هجرة مني في الطريق ، أو أكبر سناً فيها. ثم إنّي إن رأيت أحدهم أعرف مني بالطريق تلمذت له ، ولو كنت مأذوناً لي قبل ذلك من شيخ آخر؛ لأن مقامات الطريق ليس لها حد يقف عليه العبد ، وإذا رأيت ذلك الشيخ الذي هو أكبر مني سناً قليل المعرفة بالطريق تأكد علي أن أتلمذه ظاهراً لأسارقه من حيث لا يشعر بالتعلم شيئاً فشيئاً ، حيث لم أصل إلى تعليمه

إلا بذلك ، وأقول له ينبغي لكم أن تعلموا تلاميذكم الشيء الفلاني، فإنه من أخلاق القوم ، ليتخلقوا به ، وأوهم المريدين أن شيخهم يعرف الطريق، وإنما يشح عليهم بالتعليم لما يراه من فتور همتهم.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: بفعلي مثل ذلك مع جماعة من أشياخ مصر ، فعلمته ورقيته ولم يشعر هو بذلك ولا تلامذته ، لكوني أقبل ركبته بحضرة تلامذته ، وأسأله السؤالات الواهية التي تمجها نفوسهم في بعض الأوقات ، ولم أجد لذلك فاعلاً في مصر غيري إلا القليل ، وكثيراً ما أفيد الشيخ منهم الفائدة ، ثم أغيب عنه أياماً وأجيء إليه فيصير يعلمني تلك الفائدة التي علمتها له أمس ، وينسى كوني أنا الذي علمته ، وكثيراً ما يضيف الفائدة إلى نفسه ، أو إلى كتاب عنده ، فأقول له: مقصودي الاطلاع على هذا الكتاب؛ لأنه لم يزل عندي توقف في هذه المسألة فأعجزه ، وأقصد بذلك تنبيهه على كذبه حتى لا يعود؛ لأني على يقين بأن تلك المسألة ابتكرتها بفهمي ، أو ابتكرها أحد أشياخي ولم أجدها في كتاب ، ثم لا يخفى أن المزاحمة على المشيخة لا تقع قط من عارف بالله تعالىٰ ، وإنما تقع من قاصرين ، أو من قاصر وعارف ، فيريد القاصر أن يكون شيخاً مثل العارف بجهله ، والعارف لا يريد ذلك ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم افتتاحي مجلس ذكر جهراً وهناك من هو أكبر مني سناً ، أو أحد من الأشراف ولو صبياً فلا افتتح الذكر إلا بعد عزمي عليه أن يفتتح ، عملاً بحديث: «كبر كبر»[1] لكون الشريف بضعة من رسول الله ﷺ ، وللجزء من الحرمة والتعظيم ما للأصل.

وهذا الخلق قل من يتنبه له من الفقراء الآن ، بل ربما تخاصموا على أن كل واحد منهم يبتدىء ، وكثيراً ما تدل القرائن على أن بعضهم لا يواظب على الذكر مع الإخوان إلا إن جعلوه شيخاً عليهم ، فمن الأدب أن يشيخوه عليهم محبة في ذكر الله تبارك وتعالىٰ ، وإلا تركه ، وكأن لسان حاله يقول: لا أذكر الله إلا إن كنت شيخاً.

وقد وقع لي أن ثلاثة وردوا على المجلس ، فتفرست في كل واحد أنه يحب المشيخة ، فسألتهم عن أعمالهم ، وقلت: ليفتتح من هو أكبر سناً إلا أن يكون هناك شريف ، فصار أسنهم يذكر بنا ، وكثيراً ما تتقارب أعمارهم فآمر كل واحد منهم أن يفتتح وحده بقوله لا إله إلا الله مرة واحدة ، ثم تذكر الجماعة بعدهم.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجزية ، باب الموادعة والمصالحة مع المشركين (٣١٧٣) ، ومسلم ، كتاب القسامة والمحاربين ، باب القسامة (١٦٦٩).

فعليك يا أخي بالعمل بهذا الخلق ،وابعد عن التمييز جهدك حتى يجمع الناس ويتفقوا على تميزك عنهم ترشد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم أخذي العهد على مريد نكث عهد شيخه وجاءني يجعلني شيخه ، وكذلك مما أنعم الله به علي عدم إظهار البشاشة له ، وفاء بحق شيخه الذي نكث عهده ، وما بشّ شيخ في وجه من نكث على شيخه إلا مقت هو وذلك المريد ، وكان من خلق سيدي علي المرصفي ، والشيخ محمد الشناوي ، أن لا يأخذ العهد على مريد إلا بعد أن يقول له: هل تقدمت لك صحبة مع أحد ؟ فإن قال: نعم ، قال: اذهب إلى حال سبيلك.

واعلم أنه ينبغي لكل من برز للمشيخة في هذا الزمان أن لا يتلاعب بالطريق ، فيأخذ العهد على المريد صورة ، فليس معه مدد يمده به؛ لأن ذلك نفاق ، والمنافق لا يكون داعياً إلى الله تبارك وتعالىٰ ، وفي بعض الآثار: «**لا تقوم الساعة حتى تجلس الشياطين على الكراسي ويعظوا الناس والناس لا يشعرون أن ذلك الواعظ شيطان**»(١).

وكان الشيخ أبو السعود الجارحي رحمه الله تعالىٰ لا يلقن أحداً الذكر إلا بعد أن يتردد إليه السنة وأكثر ، ويسوق عليه السياقات ،وكان يسأله قبل التلقين ، ويقول له: هل لك والد فإن قال: نعم ، قال: نحن لا نصحب من يكون له أب غيرنا. وكان رحمه الله تعالىٰ يمتنع من أخذ العهد على من تلمذ لفقراء الأحمدية أو البرهانية من البيضان أو السودان ، ويقول له: يا ولدي يكفي ميلك إلى طريق الفقراء ، ولبس الزي ، وتأدية الفرائض والسنن المؤكدات ، وقيامك بالكسب ، ثم يقول: الحكم للداعي الأول ، ومن دوّن هؤلاء الفقراء القانعون بالزي لا يصلح في طريق الصوفية لقصور همته ، انتهى.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة يقول: ما أعز الطريق ،وما أعز من يطلبها ، وما أعز من يصدق في طلبها ، وما أعز من يجد من يدله عليها ، وما أعز من يصبر تحت تربية شيخه حتى يفطمه ، انتهى.

وكان سيدي محمد الشناوي رحمه الله تعالىٰ لا يلقن أحداً حتى يقول: دستور يا أصحاب الوقت تلقين هذا الولد نيابة عنكم ، فمدوني لأمده ، ويحكي ذلك عن فعل شيخه الشيخ محمد السروي رحمه الله تعالىٰ ونفعنا ببركاته.

وقد حكى لي الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري: أن جماعة جاؤوا إلى سيدي أبي العباس الغمري يطلبون منه تلقين الذكر فقال: حرروا نيتكم في طلب الطريق وإلا حصل لكم المقت ، فما تجرأ فقير يتقدم إليه منهم ، وذهبوا ، وقالوا: من لعب بالطريق لعبت به

(١) لم أجده.

الطرق ، وقد بلغني أن شخصاً ممن ظهر في هذا الزمان لقن شيخ الإسلام الشيخ نور الدين الطرابلسي ، فأرسلت أعتب عليه ، وقلت: كيف تلقن شيخ الإسلام ؟ فالله تعالىٰ يغفر له.

وجاء شخص من القضاة إلى سيدي محمد المغربي رحمه الله تعالىٰ فقال: يا سيدي خذ علي العهد ، فقال له رح واستكف البلاء ، فإنك الآن تأكل وتشرب من أطيب الطعام والشراب ، وتلبس محاسن الثياب ، وليس عليك حرج ، فتريد تدخل نفسك في تحجير لا تطيقه ،ولم يأخذ عليه عهداً.

فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ،ويدبرك في بلواك ،والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم تعرضي لأحد من الإخوان أنه يتقيد على صحبتي ،أو لا يصلي الجمعة إلا عندي ، أو أنه يجلب أحداً لصحبتي إلا بطريق شرعي لا لحظ نفس ، وقد حدث في هذا الزمان أقوام يصدون الناس عن الاعتقاد في أحد سواهم بغيرحق وصاروا يصطادون أبناء الدنيا بالنصب والحيل وتحقير من سواهم من المشايخ ، وذلك خروج عن سياج أهل الطريق ، بل بعضهم يقول أصحابه في الدعاء: اجعل اللهم ثواب ما قرأناه في صحائف شيخنا القطب الغوث الفرد الجامع ، ويقر أصحابه على ذلك ، فبعضهم يضحك عليه ، وبعضهم يستغيبه ، وكان الأولى له زجر أصحابه عن مثل ذلك أدباً مع القطب ، وأصحاب الوقت.

ورأيت بعض جماعة يقفون في أسواق مصر ، ويدخلون بيوت الأمراء ومشايخ العرب ، كابن عمر ،وابن عيسى ،وابن بغداد ، فيقولون لأحدهم: هل اجتمعت بسيدي الشيخ فلان ؟ فيقول: لا ، فيقولون: مثلك لا يكون له معرفة بالقطب الغوث الفرد الجامع ، وصاحب التصريف في مصر ، فلا يزالون به حتى يجمعوه على ذلك الشيخ ، ثم يقولون للشيخ باتفاق بينهم: مرادنا تأخذوا على شيخ العرب مثلاً العهد ليصير مريدكم ، ويحصل له بركتكم ، وتصيروا تحملوا حملته ، وتحموه ممن يعزله أو يزيد عليه في بلاده ، فيخجل ذلك الأمير أو شيخ العرب ، ولا يسعه إلا أن يجيبهم لأخذ العهد ، ثم يحجرون عليه ، ويقولون له: إياك أن تجتمع بفلان وفلان فتخرب ديار البعيد فيصير في خوف عظيم من اجتماعه بغيره.

وقد سمعت بعضهم يقول لشيخ عرب عن جماعة من مشايخ مصر: إن مثل هؤلاء لا يصلح تلميذاً لسيدي الشيخ ، انتهى.

وهذا كله نصب ، ولعمري ما رأينا شيخ عرب ولا أميراً قط عمل شيخاً في طريق القوم أبداً ، بل لا يقدر يمشي على شروط المريدين ، فبأي وجه يحجرون عليه ، ورأيت بعض مشايخ العرب أخذ جماعة عليه العهد ، وحجروا عليه فنكث عهدهم ، وقال: أنا لا أقدر على

تحجير ، ولا أطلب أن أكون شيخاً ، وإن كان لهم عندي رزق في قمح أو عسل أو بسلة فهو يصل إليهم بلا هذا التحجير ، وقد نقض جماعة كثيرة من مشايخ العرب والأروام عهد أشياخهم لما وقعوا في الشدائد ، ولم يروا عندهم قدرة على دفع ما نزل بهم ، فلما جاؤوني سترني الله تبارك وتعالىٰ في تلك الشدائد ، فحولها الله تبارك وتعالىٰ عنهم ، وصرت أرغبهم في الرجوع إلى أشياخهم فلم يفعلوا ، وطردتهم فلم ينطردوا ، فافهم يا أخي ذلك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : حمايتي من الوقوع في شيء يغير قلب شيخي عليّ يوماً من الدهر ، وذلك من أكبر نعم الله تعالىٰ على المريد ، فإن بذلك يدوم الترقي له ، بخلاف من يسيء الأدب مع شيخه فإنه ينقطع ترقيه ، وربما رجع إلى حالة هي أنقص مما كان عليه قبل صحبته له ؛ لأن الأدب مع الشيخ سلم للأدب مع الحق جل وعلا ، فمن لم يتأدب مع الوسائل لا يشم رائحة من الأدب مع المقاصد ، فعلم أن إقبال شيخ الإنسان عليه عنوان لرضا الحق تبارك وتعالىٰ عنه ، كما أن رضا الوالدين علامة لرضا الله تعالىٰ عن الولد ، فإن الله يرضى لرضاهما ، ويغضب لغضبهما ، ويؤيد ما قلناه من أن سوء الأدب مع الشيخ يرد المريد إلى أنقص من الحالة التي كان عليها قبل صحبة شيخه ، قول الجنيد رحمه الله تعالىٰ : لو أقبل عارف على الله تعالىٰ مائة عام ، ثم أدبر عنه لحظة كان ما فاته في تلك اللحظة أكثر مما ناله قبلها ، انتهى .

أي لأن كل لحظة يقبل فيها العبد على ربه عز وجل متضمنة لمجموع الأمداد السابقة كلها وتزيد عليها بمدد الوقت ، فإن جود الحق تبارك وتعالىٰ لم يزل فياضاً على قلوب المقبلين عليه .

ثم اعلم أن أقل مراتب الشيخ أن يكون كالبواب للملك ، فمن كان البواب يكرهه فبعيد أن تقضى له حاجة عند الملك ؛ لأنه لا يستطيع الوصول إلى السلطان من غير الباب ، ومن قال من المريدين إنه يقدر على قضاء حاجة عند الله تعالىٰ من غير واسطة شيخه فقد افترى على الله تعالىٰ .

وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالىٰ يقول : من شقاء المريد في الدنيا ، وعنوان شقاوته في الآخرة ، تهاونه بغضب شيخه عليه ، وعدم رؤيته على نفسه وجوب المبادرة إلى صلحه ، والدخول في طاعته ، وقد تهاون جماعة بغيظ أستاذهم عليهم فلم يفلحوا بعدها أبداً ، لا على يد شيخهم ولا على يد غيره ، انتهى .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول : من أقل ما يحصل من الهلاك لمن خالف أستاذه الاشتغال بالدنيا ، والإدبار عن الآخرة ، فيصير مكباً على جمع الدنيا من أي وجه كان ، ويعادي كل من صده عنها ولو كان شيخه ، وكذلك من أسباب الهلاك قلة ذكره الله

تعالىٰ ، وقلة تلاوته للقرآن ، وقلة عمله بالعلم ،وعدم تقيده بالأوراد وسهر الليالي ، وقلة المواظبة على صلاة الجماعة في الصلوات الخمس ، وغير ذلك ، وربما فارق شيخه وصار مداوماً على الأوراد التي كان عليها حال صحبته شيخه ، لكنها قليلة النفع ، فهي في عينه كأمثال الجبال ، وفي عين المكاشفين بأحوال الآخرة كالذرة ، وقد أجمع أشياخ الطريق على أن من لم يقدر على ملاحظة شيخه ومراقبته حال العمل لا يصح له مراقبة الحق تبارك وتعالىٰ على حال طاعته أبداً ، وفي بعض الكتب الإلهية يقول الله عز وجل للملائكة الكرام الكاتبين «**اكتبوا عمل عبدي فلان ، واكتبوا أين كان قلبه حال العمل ، ليأخذ ثوابه ممن كان قلبه حاضراً معه**» انتهى.

فعلم أن من عقل العاقل أن لا يعتمد بعمل أو كلمة تسبيح أو تهليل مثلاً قالها وقلبه غافل سارح في أودية الدنيا ، فإن ذلك غير محسوب له عند الله تبارك وتعالىٰ ، وقد بلغنا أن بعض السلف الصالح قرأ سورة طه في الليل ، فجهر بآية منها ليسمع جاره بغير نية صالحة ، فرأى بعد ذلك أن القيامة قامت ، ونشرت له صحيفة تلك الليلة ، فلم ير تلك الآية فيها ، وقيل له خذ أجرك ممن رفعت صوتك لأجله ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم تغير خاطري على مريدي إذا زار أحداً من أقراني ، ثم إن قد رآني تغيرت عليه فلا يكون ذلك إلا لمخالفته الشريعة ، أو لاطلاعي من طريق الكشف أن فتحه لا يكون على يد غيري ، فحينئذ أظهر له التكدر ليلازمني إلى وقت الفتح ، مصلحة له وتقريباً للطريق عليه لا لعلة أخرى من حظوظ النفس ، وعلى ذلك يجب حمل حال الأشياخ الذين منعوا مريدهم أن يجتمع بغيرهم ويحرم حملهم على أنهم إنما منعوا مريدهم من الاجتماع بغيرهم لئلا يتلمذ له دونهم ، فإن الأشياخ منزهون عن مثل ذلك.

قال الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالىٰ: وما سامح شيخ مريده في الاجتماع بغيره إلا فسد حاله ، وحصل له تردد في أي الشيخين أعلى مقاماً حتى يتلمذ له ، وإذا حصل له التردد دفعه قلب هذا وقلب هذا ، ولم ينتفع بأحد منهما؛ لأن شرط الانتفاع بشيخ جزم المريد بالتقيد في دائرته لا يخرج منها حتى يحصل له الكمال ، وحينئذ يصير كالأخ في الطريق للشيخ ، وللشيخ عليه حكم الإفاضة من غير وقوف معه ، انتهى.

وكان سيدي علي بن وفاء رضي الله تعالىٰ عنه يقول: كما لم يكن للعالم إلـٰهان ، ولا للرجل قلبان، ولا للمرأة زوجان، كذلك لا يكون للمريد شيخان ، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: كما أن الله تعالىٰ لا يغفر أن يشرك به ، فكذلك الأشياخ لا يسامحون المريد في شركته معهم غيرهم ، ومتى سامحوه كان غشاً منهم له ، قال رضي الله تعالىٰ عنه: وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠]. فما جعل

السموات والأرض تنشق وتنفطر ، والجبال تنهدم إلا الشرك بالله ، وكذلك الشيخ لا يزيل قلبه عن حفظ المريد وتربيته ترك إحسان ولا خدمة ، وإنما يزيله أن يشرك به المريد غيره ، انتهى.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالىٰ يقول: ليس للشيخ أن يمنع مريداً من الاجتماع بغيره إلا إذا اطلع من طريق كشفه أن ذلك المريد لا يكون فتحه إلا على يديه فقط ، فحينئذ يمنعه ليقرب عليه الطريق ، وإلا فمنعه إنما هو لحظ النفس ، انتهى.

واعلم يا أخي أن مثال الحضرة الإلهية التي ينتهي إليها سلوك كل مريد مثال الكف ، ومثال الطريق التي يدخل منها إليها مثال الأصابع ، ومثال السنين أو الأشهر التي يجاهد المريد فيها نفسه مثال عقد الأصابع ، فإن دخل إلى الحضرة في ثلاث سنين كانت كل عقدة بمثابة سنة ، وإن وصل إلى الحضرة في ثلاثين سنة كانت كل عقدة بعشر سنين ، وهكذا الحكم في الزيادة والنقص ، فإذا سلك مريد على يد شيخ حتى قطع عقدة ثم تركه وسلك على يد شيخ آخر حتى قطع عقدة ثم تركه ، وأخذ عن شيخ آخر حتى قطع عقدة ، أفنى عمره ولم يتجاوز العقدة الأولى؛ لأنه لا يصح لشيخ أن يبني على بناء شيخ آخر ، فلا بد أن يهدم بناء من كان قبله من الأشياخ ، ولو أنه كان صبر ودام تحت حكم شيخ واحد لربما قطع الثلاث عقد من الأصبع الواحدة ،ودخل الحضرة الإلهية ، وهذا مثال ما أظنه طرق سمعك قط.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: أجمع أهل الطريق على أن الملتفت إلى غير شيخه لا يفلح أبداً.

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمه الله تعالىٰ يقول: قلت يوماً لشيخي سيدي محمد السروي: مرادي أن أزور الشيخ الفلاني ، فقال لي: يا محمد إذا لم يكن الشيخ يملأ عين المريد فلم يتخذه شيخاً ؟ فمن ذلك اليوم ما زرت غيره إلى أن مات. انتهى. اللهم إلا أن يكون المريد ثابت القدم مع أستاذه ، فله أن يزور غيره ولا حرج لعدم تزلزله.

وقد كان الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله تعالىٰ يقول: كان سيدي أبو الحسن الشاذلي يقول: نحن لا نقيد على مريدنا أنه لا يجتمع بغيرنا ، وإنما نقول له: إن وجدت منهلاً أعذب من منهلنا فعليك به ، قال الشيخ أبو العباس: فكنا ننظر في أقرانه فلا نجد أعلى مقاماً منه ، ولا أعذب منهلاً ، فلذلك قدمناه على غيره ، انتهى.

وينبغي حمله على حال المتوسطين في الطريق ، أما المبتدىء في الطريق فإنه لا يفرق بين الأعذب من الكلام وغير الأعذب ، وربما أعجبه كلام شيخ لموافقته لهواه ، فعمل به فهلك ، ثم إن هذا الذي قررناه كله في حق المريدين الصادقين في طلب الطريق ، أما من لم يصدق في طلب الطريق فإنما هو معتقد في الصالحين ، يزور هذا ، ويزور هذا ، ولا حرج عليه ، هذا

حال أكثر المريدين اليوم ، فليس لشيخ أن يضيق عليهم بالتقيد عليه وحده ، ومن شك في قولي هذا فليمتحن من يدعي الصدق منهم ، ويأمره بالخروج عن ثيابه وما بيده من الدنيا ، وينظر ، فإن أطاعه بانشراح صدر فهو صادق ، وإن انقبض خاطره فهو كاذب ، وهذا محك يظهر زغل المريد ، وبالجملة فالمريد الصادق في هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر .

فافهم ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم تكدري من شيخ جعل له مجلس ذكر في الجامع الذي كنت أذكر أنا فيه قبله ، بل أنشرح لذلك ، وأذهب بجماعتي إليه ، وأعزم عليه أن يكون هو الذي يفتتح المجلس ، ثم أقبل يده ورجله مع الجماعة ، خوفاً من تشتت قلوب الذاكرين ، وأظهر الفرح والسرور بذلك؛ لأنه كبر مجلسنا ، وقوى قلب جماعتنا ، وإن رأيت له قدماً في الطريق تلمذت له ، وتلقنت عليه أنا وجماعتي .

وهذا خلق غريب في هـذا الزمان ، ومخالفته تدل على وجود الرعونات ، ومن كان صاحب رعونة لا يصلح أن يكون شيخاً على جماعة ، وما عقد الفقراء مجالس الذكر بالأصالة إلا محبة في كثرة ذكر الله عز وجل ، لا لأن يكونوا بذلك مشايخ ، فالله يحفظنا وإخواننا من مثل ذلك ، وقد رأيت جماعة وقع لهم ذلك فترافعوا إلى الحكام ، وأخذ كل واحد منهم مرسوماً بأنه يكون شيخاً ، وأنه أشيخ من غيره ، وذلك كله جهل ، فإن المساجد لله ، وليس شيخ أحق بالذكر فيها من شيخ ، ولو كان هو الذي بنى ذلك المسجد: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]. فعلم أن كل شيخ تكدر ممن جاء بذكر الله عز وجل تجاه مجلسه فهو دليل على أنه طالب بذلك الرياسة والصيت عند الناس ، وذلك إلى الإثم أقرب ، وقـد تـقدم في هذه المنن أن مما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: فرحي بكل شيخ برز في حارتي ، وانقلبت جماعتي ، حتى لم يبق حولي منهم واحد، ومن تكدر من ذلك فهوخارج عن سياج الفقراء ممقوت .

فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي للتميز عن إخواني في مجلس الذكر أو العلم ، فلا أجلس على سجادة ولا مضربة إلا لعذر شرعي ، ثم أطلعهم على ذلك العذر خوفاً من وقوع أحد منهم في سوء الظن فيهلك في دينه ، ومن العذر أن أكون هزيلاً ، أو أطلع في دمامل ونحوها ، أو أكون معداً لسؤال الأعراب من الفلاحين وغيرهم ، فأجلس متميزاً عن الحاضرين ليسألوني ولا يحتاجون إلى سؤال أحد عني .

وقد وقع أنه ﷺ كان يجلس مع أصحابه فيأتي الأعرابي ليسأل عن أمر دينه ، فلا يعرف

رسول الله ﷺ حتى يسأل من الصحابة عنه ، فتشاور أصحابه في أن يجعلوا له شيئاً يتميز به ، فاتفقوا على أنهم يبنون له دكاناً من طين ، فبنوه وفرشوا له عليه حصيراً ، وصار يجلس عليه ، وكان ﷺ من أحسن الناس خلقاً ، وكان يراعي خواطر أصحابه ، ويسعى في كل ما يميل خاطرهم لينقادوا إلى نصحه وإرشاده ، فإن المريد إذا لم يعتقد في شيخه الصلاح والتواضع لا يصح له به انتفاع أو لا يكمل.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا يكمل الفقير حتى يخفض جناحه لإخوانه ، ويرى نفسه دونهم ، وهناك يبالغون في تعظيمه ، وينتفعون به ، بخلاف من كان بالضد من ذلك ، فإن الأمر يكون بالضد فربما يلوثون به فيما بينهم ، ويقولون: شيخنا يحب الضخامة وتقبيل اليد ، كما وقع ذلك لبعض إخواننا مع شيخه ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي لأكل طعام مريدي قبل أن يتمكن في محبتي ، ويرى جميع ما بيده ملكي دونه ، سواء كان ذلك الطعام في عزومة أو وليمة أو أرسله إلى بيتي ، والحكمة في ذلك كون الأكل من مال المريد يورثه الإدلال على شيخه ، والاستهانة بجنابه ، ويصير المريد يرى لنفسه الفضل على شيخه ، وذلك يبطل انتفاعه بشيخه.

وقد عم هذا الداء كثيراً من الفقراء ، فترى أحدهم يندلق على طعام المريد أوائل صحبته ، وعلى قبول هداياه ، وربما كسا عيال الشيخ وأولاده ، ولا يلتفت الشيخ لما في ذلك من نقص المرتبة ، وغاب عن هذا أن من شرط الشيخ أن يكون له اليد على مريده في أمور الدنيا والآخرة ، وجاءني مرة شخص ، وقال لي: إن فلاناً أخذ علي العهد على أني أعطيه كل ما طلبه مني ، وقال: إذا منعتني مطيبتك وعيبتك فلا تلم إلا نفسك ، فقلت له: هذا خروج عن الطريق.

وكان سيدي محمد الشناوي رحمه الله تعالىٰ يقول: مال المريدين حرام على الأشياخ ، انتهى.

لكنه محمول على مريد لا يرى الملك لشيخه فيما بيده ، وإلا فقد أكل الأشياخ الصادقون عند مريديهم ، كما هو مشهور في كتب الرقائق من غير توقف ، فالحمد لله الذي جعل طعام المريد الذي لم يتمكن في محبتي لا يقيم في بطني أبداً ، ولو نسيت وأكلته ، وذلك أني أحس بثقله في بطني ، كأني أكلت قطعة من جبل ، وتارة تلعب نفسي فأتقيؤه. وهذا من جملة نعم الله العظيمة عليّ ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ. عدم تكدري من شيخ العرب أو الكاشف أو غيرهما ، من الولاة أو التجار أو المباشرين إذا صحب أحدهم عيري من الأقران ، بل أفرح لذلك غاية

الفرح كما مر أوائل هذه المنن خوفاً أن يميل قلبي إلى ذلك الظالم مثلاً ، فتقصر يدي ولساني عنده في الشفاعات ، ونحن ما صحبناهم بالأصالة إلا لتخليص المظلومين ، وتفريج كربهم ، فعلم أن تكدر الفقير من صاحبه الأمير إذا صاحب غيره في غاية القبح ، بل بعضهم يعادي ذلك الأمير ، وذلك الشيخ بسبب ذلك ،وأصل ذلك أنه صحبه للدنيا من قبول بره وإحسانه أو غير ذلك ، ولو أنه كان صحبه بنية صالحة لم يتكدر لذلك أبداً.

وقد صحبني شيخ عرب ، وليس على علمي أنه صحب أحداً غيري ، فتكدر ذلك الشيخ ، وصار يقطع في عرضي وعرض ذلك الأمير ، فلا يعلم عدد ما اغتابني به إلا الله تبارك وتعالىٰ ، فقلت لذلك الأمير: رح لصاحبك لأجل الله ، وأرحنا من شره ، فذهب إليه ، مع أني لم آكل لشيخ العرب المذكور قط طعاماً ، ولا قبلت له هدية إلى وقتي هذا.

فإياك يا أخي أن تصاحب شيخ عرب أو غيره من الأكابر إلا بعد أن تفتش ، فربما يكون صحب أحداً قبلك من النصابين ، فتقوم عليك القيامة كما وقع لي ذلك من جرة محمد العبادي وغيره ، وأبعد يا أخي عن أبناء الدنيا جهدك ، فإن نفوس غالب الناس تميل إلى صحبتهم ، وتزاحم عليها فأف ، ثم أف ، ثم أف على من لبس زي الفقراء ، وزاحم على شيء من الدنيا ، وخالف هدي أصحاب الزي ، وشاباش[1] لمن حمى زي الفقراء عما يزري به ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة إرشادي لأصحابي أن ينظروا في أنفسهم إذا خالفهم خادمهم أو زوجتهم ، أو وقعوا في المعاصي والقاذورات ، أو الإباق والنشوز ، ويقتدوا في ذلك بالسلف الصالح رضي الله تعالىٰ عنهم.

فكان أبو يزيد البسطامي إذا رأى في أصحابه نقصاً يقول: بشؤمي وقعوا إلى ما وقعوا فيه.

وكان الشيخ عبد الحليم رحمه الله تعالىٰ إذا قيل له: إن أحداً من المجاورين يتعاطى ما لا يحل له أفأنصحه ؟ فيقول: هل رأيتم قط نجاسة تطهر نجاسة ، انتهى.

ودليل القوم في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقوله ﷺ: «إنما هي أعمالكم ترد عليكم»[2] وقوله ﷺ: «اعفوا عن

(١) كلمة تطلق على مقام الإستحسان ، ثم تطورت إلى الذهب الذي ينثر على رأس العروسين. اهـ معجم المعربات الفارسية (١١٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٧٦) ، والمناوي في فيض القدير (١/ ٢٦٥).

نساء الناس تعف نساؤكم وبروا آباءَكُم تبركم أبناؤكم»[1] وقوله ﷺ: **«من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمل ذلك الذنب»**[2]

وكان الفضيل بن عياض رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إني لأعصي الله تعالىٰ فأعرف ذلك في خلق حماري ، وخادمي ، وزوجتي ، فيشمص الحمار ، ويخرج العبد والزوجة عن الطاعة ، ثم إذا رجعت إلى نفسي واستغفرت الله تعالىٰ وقبل توبتي . . رجعوا إلى طاعتي ، انتهى .

وقد علمت ذلك لكثير من أصحابي ، فتركوا الشكوى لي بعد أن كان أحدهم كثير الشكوى من زوجته وعبده ، وصاروا يرجعون إلى نفوسهم فيقومونها ، فتستقيم رعيتهم ، الذين قسم لهم الاستقامة ، واسترحت من كثرة شكواهم لي .

وقد كان الشيخ أبو النجا سالم المرو رحمه الله تعالىٰ يقول لأصحابه كثيراً: اعلموا أن جميع الوجود يقابلكم بحسب ما برز منكم من الأعمال ، فانظروا كيف تكونون ، فإن الظل تابع للشاخص في العوج والاستقامة ، انتهى .

وهذه قاعدة أكثرية لا كلية ، فقد يبتلي الله تبارك وتعالىٰ العبد ابتداءً لينظر كيف صبره ، وهو العالم بما يكون قبل أن يكون ، ويبتلي عياله بالزنا مع أنه لم يقع هو فيه قط ، ويعقه ولده مع أنه كان باراً بوالديه ، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]. لكن يؤيد أصل القاعدة قوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] في حق الأئمة المضلين ، وقوله ﷺ: **«ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها»**[3] الحديث ، انتهى .

فتأمل ذلك وافهمه ترشد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة أمري للمريدين بأن يصبروا ويتحملوا الأذى من كل من آذاهم حسب الطاقة ، ولا يقابلوا أحداً بسوء ، ثم إذا بلغوا إلى حد لا يحتملونه انتقمت لهم بإذن الله ممن آذاهم بسياسة ولطف ، ولم أمكن أحداً منهم يقابل أحداً خوفاً عليه أن يجازف في المقابلة ، ويزيد في الأذى فيخسر .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٢٥٨) ، والطبراني في الأوسط (١٠٠٢) ، والديلمي في مسند الفردوس (٧٤٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب صفة القيامة والرقائق ، باب منه (٢٥٠٥) ، والديلمي في مسند الفردوس (٥٦٣٠).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (١٠١٧) ، والنسائي ، كتاب الزكاة ، باب التحريض على الزكاة (٢٥٥٤) ، وابن ماجه ، كتاب المقدمة ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٢٠٣).

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: من كمال الفقير أن ينتقم لأصحابه ممن آذاهم للفريقين مصلحة ، وصورة ذلك أن الفقير يسأل ربه عز وجل أن يؤدب الظالم إما بمرض ، وإما بزوال نعمة ، وإما بإخراج وظيفته عنه ، أوزوال جاهه وحرمته من قلوب الناس ونحو ذلك ، انتهى.

وفي الحديث: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»(١) الحديث ، ويقع لي بحمد الله كثيراً أن همتي تطلب الانتقام لأصحابي ، فينفذ الله تبارك وتعالىٰ ذلك بمجرد الهمة من غير سؤال الله تعالىٰ ، وذلك من أشد ما يكون من الانتقام ، فربما دخل في قلب ذلك الظالم منهم سهم مسموم ، فلا يزال به حتى يموت ، ولا يقدر أحد على مداواته ، كما وقع لي ذلك فيمن أفسد في زاويتنا بالفتن ، ورمى إخوانه بالبهتان والزور ، وكان مرضه الاستسقاء.

وكان سيدي محمد السروي شيخ شيخنا يقول: الفقير إذا قوي عليه الحال وتفلت من يده صار كالأسد إذا أفلت يكسر كل من وجده ولو صاحبه وأولاده ، وكان رحمه الله تعالىٰ يقول أيضاً: لا يكمل الفقير حتى يقتل الله تعالىٰ بسببه ، وبسبب أصحابه بعدد أعضائه من الظلمة الذين يؤذون أصحابه وإخوانه المسلمين ، وكان رحمه الله تعالىٰ يقول: من كمال الفقير أن يحتمل الأذى في حق نفسه ، ولا يحتمله في حق أصحابه ، قياماً بواجب حقهم عليه ، لأنهم ما اجتمعوا عليه إلا ليحميهم من ظالم يؤذيهم.

قال: وكان على هذا القدم سيدي إبراهيم الجعبري ، وسيدي إبراهيم المتبولي ، وغيرهما ، فالحمد لله رب العالمين.

وكان كثير من القوم الذين أدركناهم يقتلون الظلمة بالحال ، أو التوجه إلى الله تعالىٰ في ذلك.

قلت: ويجب تقييده بما إذا علموا أن ذلك الظالم قد استحق القتل شرعاً ، وإلا فعليهم اللوم ، والله تبارك وتعالىٰ أعلم.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حفظي للأدب مع أقراني في حال غيبتهم ، وتبجيلهم وتعظيمهم ، كما يدل لذلك ذكر مناقبهم في كتاب الطبقات التي وضعتها في حق أهل القرن العاشر ، وهذا أمر انفردت به في هذا العصر ، لا سيما مناقب الجماعة الذين يكرهوني ويؤذوني ، فإني بالغت في تعظيمهم ، وحملهم على أحسن المحامل ضد ما فعلوا معي ، كما تقدم تقريره أوائل الباب الثالث ، وغالب الناس لا يقدر على أن يذكر مناقب عدوه أبداً ، بل ولا تطاوعه نفسه ، وإذا رأيت أحداً من أعدائي قليل العمل بالعلم في الظاهر ، وأخاف أني

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب المظالم والغصب ، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً (٢٤٤٣) ، والترمذي كتاب الفتن ، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح (٢٢٥٥) ، وأحمد في مسنده (١١٥٣٨).

أمدحه فيكذبني الناس ، أقول في ترجمته في الطبقات وغيرها: والغالب على فلان إخفاء أعماله الصالحة ، فلا يكاد أحد يعرف له منها شيئاً ، كل ذلك سترة للإخوان ، ومن جملة ذلك حملي لهم إذا خطؤوني في فهم على أنهم مجتهدون في الفهم ، فلا يكلفون العمل بغير ما ظهر لهم وجهه ، ولو أنهم شنعوا علي في فهمي ، فلهم ذلك نصيحة للمسلمين بحسب قدرتهم ، فالله تعالىٰ يغفر لنا ولهم ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تقطيب وجهي وعدم بشاشتي لكل مريد دخل علي يزورني ، حفظاً لمقام شيخه في غيبته ، وخوفاً عليه أن يميل إليّ بالمحبة ، فيخرج مقام شيخه كما تقدمت الإشارة إليه قريباً ، اللهم إلا إن كنت أعلم ثبات اعتقاده في شيخه ، فلا أفعل معه شيئاً من ذلك ، بل أبش له ، وأقدم له الأكل والشرب ، وأعظم شيخه بمدحي له بحضرته ، ونحو ذلك كما أفعل بالضيوف ، وهذا الخلق لم أرَ له فاعلاً في مصر غيري إلا قليلاً ، بل بعضهم قمت بواجب حقه ، فلم أخرج لمريده طعاماً ، ولا بششت في وجهه ، خوفاً على قلبه من التزلزل لما رأيته أقبل عليّ ، فشكا ذلك إلى شيخه ، فقال: يا ولدي أما علمت أنه يكرهنا ويكره جماعتنا ، انتهى.

وهو معذور ، فإن هذه الأخلاق غريبة في أهل هذا العصر ، ووالله ما قطبت في وجه مريده إلا حفظاً لمقامه عند مريده ، فكنت بذلك في المشرق وهو في المغرب ، فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: أني لا أسكت الجماعة قط إذا كانوا في ذكر أو قرآن أو علم حتى أستأذن الحق جل وعلا أو رسوله ﷺ ، إن كان حديثاً ، أو العلماء الذين يقرأ على كلامهم ، فأقول بقلبي ولساني بخفض صوت: دستور يا الله أسكت عبادك وأنقلهم إلى غيرذلك من الخيرات ، أو دستور يا رسول الله أن أنقل هؤلاء إلى الخير الفلاني ، فإنهم ضجروا وملوا من الشيء الفلاني ، وهذا الأدب قل من يراعيه من العلماء والفقراء ، فربما يسكتون قارىء القرآن أو الحديث أو العلم بلا استئذان وهم غافلون عن هذا المشهد.

فاعمل يا أخي على التخلق بذلك بكثرة مقدمات المراقبة من الجوع ومخالفة الهوى ونحو ذلك ، حتى تصير في أكثر أوقاتك تشهد نفسك بين يدي الحق ،وبين يدي أهل حضرته ، من رسول الله ﷺ ، أو خواص أمته من العلماء والصالحين ، وإلا فلا يستقيم لك ذلك.

وكان على هذا القدم سيدي إبراهيم المتبولي ، وسيدي علي الخواص ، وأخي أفضل الدين ، وأخي أبو العباس الحريثي رضي الله تعالىٰ عنهم ، ويؤيده حديث الاستخارة المشهور ، وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: ينبغي للفقير أن لا يتحرك ولا يسكن في أمر مهم إلا بمشاورة الحق جل وعلا ، قال: وهو أحق مما أمرنا من مشاورة إخواننا ، أو من مشاورة الولد الموفق والده في أموره ،قال رحمه الله تعالىٰ: وهذا الأمر وإن

لم تصرح به الشريعة فهي تقبله ولا ترده ، وكل ما كان فعله أدباً مع الخلق ، ففعله مع الحق تبارك وتعالىٰ أولى ، انتهى. فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: إذن شيخي الشيخ محمد الشناوي لي في أن أجلس لتلقين الذكر ، وتربية المريدين ، بحضرة الشيخ شهاب الدين بن حجر المقيم بمكة ، وبحضرة الشيخ علي ، والشيخ أحمد السواح أولاد الشيخ عبد الرزاق بناحية كوم النجار ، وبحضرة الشيخ محمد حسن المحلي ، المقيم بالمدينة المشرفة ، وبحضرة الشيخ شهاب الدين الطندتائي ، وجماعة ، وذلك في زاوية شيخه الشيخ محمد السروي ، ليلة تمام شهره ، لما توفي إلى رحمة الله ، ولفظه: اشهدوا علي أنني أذنت لولدي هذا أن يلقن ويربي المريدين على طريق القوم ، ثم أنشد هذا البيت رضي الله تعالىٰ عنه:

أهيــم بليلــى مــا حييــت وإن أمــت ... أوكــل بليلــى مــن يهيــم بهــا بعــدي

ثم سافر من مصر إلى بلاده ، فصار كل بلد يمر عليها يقول لهم: قد أذنت لفلان ، فمن أراد الطريق بعدي فعليه به ، فجاءني خلائق بعد موته رضي الله عنه ، فتلقنوا على سبيل التشبه بالقوم ، عملاً بإذن شيخي ، ثم تركت هذا الباب إلا بأمر من رسول الله ﷺ لبعض أناس ، ثم لما اجتمعت بسيدي علي الخواص قال لي: اعلم يا ولدي أن الخلق الآن صاروا كالحجاج ، إذا رجعوا من مكة وأشرفوا على أوطانهم ورأوها بعيونهم ، فمن يقدر أن يقطرهم ويجمع شملهم ، وقد كانت الهمم في الزمن الماضي موجودة ، وكان أحدهم يتطلب الطريق بصدق كالحجاج في ابتداء سفرهم ، فإنا رأيناهم يعطون جماعة أمير الحاج الدراهم حتى يقطرهم ، انتهى.

ولكن حصل لي بإذن شيخي غاية السترة بين الفقراء ، فإن غالب الفقراء اليوم صاروا يجلسون بلا إذن من شيخهم ، وبعضهم مات شيخه ولم يأذن له ، فادعى أنه جاءه في المنام ، وقال له: أبرز للناس ، وبعضهم ادعى أن رسول الله ﷺ أذن وهو بعيد ، فإن بين مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ كذا كذا ألف مقام ، ما أظن أن هذه حصل منها مقاماً واحداً ، كما مر تقريره في المقدمة وقد ذكرنا قواعد أهل الطريق في رسالة خاصة ، فمن طالعها وجد بعض المشايخ اليوم لم يبلغ مقام مريد ، فالله تعالىٰ يلطف بنا وبهم ، ويغفر لنا ما جنيناه آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة محبتي وتعظيمي لأولاد مشايخي في العلم والطريق ، وأصحابهم ، ومن يلوذ بهم ، في حال حياة أشياخي وبعد مماتهم ، قياماً بواجب حق أشياخي وأولادهم وأصحابهم ، وهذا الخلق يخل به كل من لم يفطم على يد شيخ فيكرهون أولاد شيخهم وأصحابه وبالعكس ، وكيف يدعي أحدهم محبة شيخه ، ثم يبغض أولاده وأصحابه ، هذا يشبه طريقة الروافض.

وكان سيدي محمد الشناوي رحمه الله تعالىٰ يقول: لما أرى أحداً من أولاد شيخي أو أصحابه أكاد أطير من الفرح ، وكأني رأيت شيخي ، ثم يقول: لعلي أراهم أو أرى من يراهم ، وكان رحمه الله تعالىٰ يقول: لو خدمت أولاد شيخي طول عمري ، وأعطيتهم كل ما بيدي من الدنيا ، ماقمت لهم بجزاء ، فإن معرفة الطريق التي أطلعني عليها والدهم لا تقابل بالأعراض الدنيوية.

فعلم أن كل من لم يفطم على يد شيخ ، فمن لازمه غالباً الرعونات البشرية ، والإخلال بواجب الأدب مع أولاد شيخه وأصحابه ، والنكتة في ذلك أن صاحب الرعونة يطلب من أولاد شيخه أن يتلمذوا له ، ويربيهم ، وأولاد شيخه يطلبون منه أن يكون تحت حكمهم ، كما كان مع والدهم فلا يقدر ، ولا يقدرون ، فلذلك كان الغالب على الفريقين العداوة والبغضاء.

ولما مات سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالىٰ انقسم أصحابه فرقتين على أولاده ، ففرقة تكره أولاده ، وفرقة تحبهم ، وكذلك وقع للشيخ تاج الدين الذاكر رحمه الله تعالىٰ فذهبت إلى الفرقة التي كرهت أولاد شيخها فكلمتهم في ذلك فتابوا واستغفروا ولما مات سيدي الشيخ مدين رحمه الله انقسم الناس فرقتين ، فرقة مع ولده سيدي أبي السعود ، وفرقة مع ولد أخته سيدي محمد شيخ سيدي علي المرصفي ، وشيخ الشيخ السروي ، وشيخ الشيخ نور الدين الحسني ، وشيخ الجماعة ، فوقع بينهم خصام كثير ، ثم ضربوا ولد أخته وأخرجوه ، وأجلسوا سيدي أبا السعود ولد سيدي مدين ، فما نتج على يديه أحد ، وما تفرعت الطريق إلا من ولد أخته ، فإن الطريق لا تورث إلا لمن شاء الله ، لا تختص بالأهل كالإرث الظاهر ، حتى أن بعض الأقطاب سأل الله عز وجل أن تكون القطبية بعده لولده ، فنودي: يا فلان ذلك في الإرث الظاهر من الأموال ، فاستغفر ذلك القطب ، فبعد مدة جاءه شخص من أهل المغرب فبات عنده ليلة ، فمات القطب ، فتولى القطبية بعده.

ولما مات شيخي الشيخ محمد الشناوي رحمه الله تعالىٰ عاداني أولاده مدة ، فما زلت بحمد الله أسارقهم ، وأقدم لهم نعالهم وأبجلهم ، حتى زال ما عندهم ، وطلبت من ولده سيدي الشيخ عبد القدوس أن يلقنني بعد والده فأبى ، وتلمذ لي ، وكان يقبل عتبة زاويتي قبل أن يدخل ، وصار لا يفعل شيئاً حتى يشاورني عليه ، فجهز مرة زاده وجماله للحجاز ، فقال له شخص ليلة السفر وهو في البركة إن فلاناً قال: ما كان في خاطري أنه يسافر في هذه السنة ، فركب حمارته وجاءني ، وقال والله لو بلغني الأمر وأنا في نصف الطريق أنك أشرت عليّ بالرجوع لرجعت ، ورأيت ذلك عندي أرجح من الحج ، انتهى

وهذا الأمر مافعله معي أحد غيره ، فرحمه الله تبارك وتعالىٰ الرحمة الواسعة آمين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: شهودي فضل معلمي عليّ ولو بلغت الغاية في الترقي ، فإنه هو الذي أعطاني مادة الترقي ، حتى عرفت بها ما عرفت ، فمن نسي فضل معلمه عليه فهو لئيم ، كما قاله الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه ، وقد اختار المحققون دوام المكث للمريد تحت طاعة الشيخ ، وقالوا: لو حقق المريد النظر لوجد مقامه دون مقام شيخه ورأى مقام شيخه أرقى وأصفى وأنور وغاية أمر المريد أنه ساوى شيخه في جسم العمل لا في روحه ، فإن الغالب على الأشياخ بعد الكمال أن يكون الغالب عليهم الأعمال القلبية التي كل ذرة منها عند الله أرجح من قناطير من أعمال ذلك المريد ، وربما كان حضور المعلم مع الله تبارك وتعالىٰ في الأمور العادية أفضل من حضور المريد معه في الطاعة الشرعية ، وإيضاح ذلك أن الكامل تكون مشاهدته قلبية ، فلا يكاد يظهر من أعماله الصالحة إلا بقدر ما يعرف أن الناس يقتدون به فيها ، والباقي يكتمه عنهم؛ لئلا يقيم الحجة عليهم عند الله تبارك وتعالىٰ.

وقد كثرت خيانة هذا الخلق من كثير من الناس ، فيتعلم أحدهم العلم أو الصنعة ثم بعد قليل يسيئون الأدب مع معلمهم ، ويسعون على وظيفته ، وينسون فضله عليهم ، وقد كان الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: شر الناس اللئيم ، إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، ونسي فضل معلمه ، ولأجل ذلك ضربوا المثل وقالوا: كل شيء إذا رزعته قلعته إلا ابن آدم إذا رزعته قلعك ، وبالجملة فمن قطع حبل معلمه قطع الله عنه الإمداد ، فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: إرشادي لإخواني من الأمراء والمباشرين إذا عزلوا من وظائفهم ، ودارت رحاتهم شمالاً ، إلى فعل ما يرد عليهم ولا يتهم به ، وذلك لعلمي بأن أحداً لا يعزل من وظيفته قط إلا بعد أن أخل بشرائطها ، وهو القيام بواجب حق الله تعالىٰ عليه من ترك المعاصي جملة ، والقيام بواجب الرعية عليه من قضاء حوائجهم ، وتفريج كربهم ، ويجمع ذلك كله أن يكثر من الاستغفار ليلاً ونهاراً ولا يشتغل بغيره إلا لضرورة شرعية ، فإن الاستغفار يطفيء غضب الرب جل وعلا ، ويرضي عنه خصماءه ، وقد أغفل ما قلناه غالب الفقراء ، فتجد أحدهم يدخل في جملة من زالت نعمته ، ويتوجه في قضائها ، فلا يجد لتوجهه أثراً ، وذلك لأن الحق تبارك وتعالىٰ ما يزيل نعمة عن عبد إلا تأديباً له ، ليرجع إليه بالفاقة والاعتراف بذنبه الذي أحصاه الله عليه ونسيه هو ، ومادام يقول: ما لي لا ذنب ولا أسية ، فهو معزول أو جالس في الحبس لا يخرج ، وكثيراً ما تزول النعمة عن بعضهم بالذنوب التي كان يستهين بها لكثرة وقوعها ، كشرب الخمر ، والزنا ، واللواط ، والتعاون عند الحكام ، وإخراج الصلوات عن وقتها ، ونحو ذلك فيعتقد أن الله تبارك وتعالىٰ غفرها له من زمان ، والحال أنها باقية عليه وربه عليه غضبان ، ومن غضب عليه ربه فلا يقدر شافع

يشفع فيه إلا إذا رأى المحل قابلاً للشفاعة ، كما هو مشاهد في بيوت الحكام.

فليفتش الفقير نفسه ، وليتب من كل ذنب يعلمه الله تعالىٰ ، ثم يفتش من يريد أن يتحمل عنه الحملة ويأمره بالتوبة من كل ذنب يعمله ثم بعد ذلك يشفع ، فربما كان الشيخ نفسه له ذنوب لم يتب منها ، فلا يصلح أن يكون شافعاً في غيره ، كما مر في شروط من يتحمل حملة الناس ، وربما كان المحمول عنه له ذنوب كذلك ، فلا يفيد توجه الفقير في إطلاقه ، أو أن يرد له وظيفته مثلاً ، فالعاقل من أتى البيوت من أبوابها ، فافهم ذلك ، فإنه نفيس جداً ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم غفلتي عن أصحابي إذا سلك أحدهم مسالك التهم ، فأنهاه عن ذلك ، وإذا قال: يكفيني علم الله تعالىٰ ، قلنا له: إن الذي يكفيك علمه قد أمرك أن لا تتسبب في وقوع الناس في عرضك ، وقد قالوا: من سلك مسالك التهم فلا يلومن من أساء به الظن ، فكما أن الشمس تحكم بحرارتها على الأرض ، فلا يمكن الأرض أن ترد عنها حرارتها ، فكذلك مسالك التهم تحكم على صاحبها بوقوع الناس في عرضه ، وسوء الظن به ، فلا يمكن الناس أن يحسنوا به الظن إلا بتأويل بعيد قل من يقبله ، فعلم أنه لا ينبغي لإنسان أن يكلم امرأة على شارع إذا علم أن الناس يلوثون به في ذلك ولو محرماً ، كما لا يجوز أن يختلي بأجنبية أو ينظر وجهها ، ويجب على من رآه كذلك أن يزجره عن ذلك أشد الزجر لمسارعة الإنكار عليه من غالب الناس ، وربما يقول الناس: بعيداً أن يكون سلم من الزنا بها في تلك الخلوة ، ويؤيده قول بعض العلماء: إن كل خلوة بإصابة ويقاس على ذلك الخلوة بالأمرد الحسن ، فليحذر الفقير من ذلك ولا يغتر بصفاء حالهم مع الله تبارك وتعالىٰ ، فإن الحق جل وعلا ربما غير الحال في لمحة.

وقد رأى سيدي محمد الحنفي رحمه الله تعالىٰ فقيراً يكلم امرأة في السوق فنهاه عن ذلك ، فقال له الفقير: أنا بحمد الله لا أميل إلى النظر إليها ، ولم يلتفت لكلام الشيخ ، ففي تلك الليلة وقع بالمرأة ، فاشتبك ذكره في فرجها ، فاطلع الشيخ على ذلك من طريق كشفه ، فجاء إلى باب الخلوة وقال: أينا هو الصادق ؟ فقال الفقير: تبت إلى الله تعالىٰ ، فتوجه الشيخ إلى الله تعالىٰ زماناً حتى خلص ذكره من فرجها ، ثم إنه خرج من الزاوية وما بقي فيها ، وما ذكرت لك مثل هذه الحكاية وإن كان في لفظها قبح إلا تقبيحاً للخلوة بمن يخاف منه الفتنة ، فآثرت نصحك على أدبي في اللفظ ، والله لا يستحيي من الحق.

فإياك يا أخي أن ينصحك شيخك أو غيره عن الخلوة بالأجنبية فلا تمتثل أمره ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة احترامي للأولياء بعد موتهم ، فلا أتزوج لهم زوجة ، خوفاً من غيرة الله تعالىٰ لهم فيهلكني؛ لأن للولي مع الله تعالىٰ أوقات رضا

وملاطفة ، فربما قال الولي يا رب أنت وليي بعد موتي ، ووصيي على زوجتي ، فعسر عليها يا رب التزويج بعدي ، فصار كل من تزوجها يعطبه.

وقد أوصاني الشيخ شهاب الدين الكعكي رحمه الله تعالىٰ بأني أتزوج زوجته من بعده ، فلم أرض ، مع أنها سألتني ، وقالت: أنا راضية فقلت لها: ولو رضيتي أنت فلا أرضى أنا.

وقد بلغنا أن زوجة سيدي محمد الشويمي صاحب سيدي مدين رحمه الله تعالىٰ مات عنها وهي بكر ، وقال لها لا تتزوجي بعدي أحداً فأقتله ، فاستفتت العلماء في ذلك ، فقالوا لها: هذه خصيصى برسول الله ﷺ ، فتزوجي وتوكلي على الله تعالىٰ ، فعقدوا لها على شخص فجاءه تلك الليلة وطعنه بحربة فمات من ليلته ، وبقيت بكراً إلى أن ماتت وهي عجوز.

وكذلك أخبرني الشيخ زيتون خادم سيدي الشيخ بهاء الدين المجذوب ، أن زوجته لما جذب انتظرت إفاقته سبع سنين فلم يفق ، فاستفتت العلماء فأفتوها بأنها تتزوج ، فجاء تلك الليلة حين دخل بها زوجها وطعنها فماتا جميعاً ، وضرب القاضي فعمي ، وتكسح إلى أن مات.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يتكدر ممن يتزوج نساء الأولياء أو نساء الملوك والأمراء ، ويقول: ينبغي مراعاة الأدب مع الأكابر.

ولما تزوج الشيخ محمد المغربي الجاولي سرية السلطان طومان باي بعد شنقه في باب زويلة ، تكدر منه غاية التكدير ، وقال: إن هذا لم يشم من الأدب رائحة ، ولو كان عنده أدب لراعى السلطان بعد موته ، كما كان يراعيه حال حياته وقد روى البيهقي عن سلمان الفارسي رضي الله تعالىٰ عنه أنهم ـ يعني الصحابة ـ طلبوه أن يؤم بهم ، فامتنع ، وقال: كيف أؤم بقوم هداني الله على أيديهم. انتهى.

فإياك يا أخي أن تتزوج امرأة ولي إلا إن كنت تعلم أن حاله لا تؤثر فيك، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: محبة نفسي للجلوس في طرف الحلقة في المحافل دون صدرها ، ولو أني جلست في طرف الحلقة لا أرى لي بذلك فضلاً على من جلس في صدر الحلقة من حيث تواضعي ، ولو أني كنت في صدر الحلقة فدخل شيخ من أقراني فأخروني وقدموه لا أتأثر بحمد الله تعالىٰ ، وهذا الخلق غريب في هذا الزمان ، فلا يصح التخلق به إلا ممن كملت رياضته ، وفطم على يد شيخ ناصح ، وإلا فمن لازمه غالباً التكدر ممن يقيمه من الصدر ، ويجلسه في طرف الحلقة.

وقد تقدم أوائل هذا الكتاب أن من شأن أهل الله تبارك وتعالىٰ أنهم يرون نفوسهم دون كل جليس ، فلا يرون لهم مقاماً عالياً ثم ينزلون منه لما هو دونه ، فإذا أجلسوهم عند النعال

فرحوا بذلك ، لتسارع الرحمة في النزول عليهم في كل مكان أذلوا فيه نفوسهم في مرضاة الله تعالىٰ ، فإنه تعالىٰ قال: «**أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي**»[1] بخلاف صاحب الكبر فإنه يتسارع إليه المقت من الله تعالىٰ ، وكما لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، فإن حضرة الله عز وجل كالجنة على حد سواء.

فاعمل يا أخي على تحصيل هذا الخلق بالرياضة لتكون متواضعاً خالصاً فإن بعض الناس قد يجلس في طرف الحلقة ليقال إنه متواضع ، ويتلذذ بقول الناس في حقه ذلك أكثر مما يتلذذ بقولهم فلان أجلسوه في الصدر؛ لكونه من أهل العلم والفضل ، وربما يدعي الفقير في نفسه التواضع ، ويقول: صدر الحلقة وطرفها عندي سواء ، والحال بخلاف ذلك ، فليمتحن الحاذق نفسه ، بخلاف تواضع أهل الله تعالىٰ ، فإن حقارتهم مشهودة لهم ، وفضل الناس عليهم مشهود لهم ، فلو أقام المعتقدون الأدلة على فضلهم على غيرهم لا يلتفتون إلى ذلك ، وقد كان أبو سليمان الداراني رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لو جهد الناس أن يرفعوني فوق ما أعلم من نفسي من الحقارة ما قدروا ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: ذهاب فهمي إلى الاتعاظ إذا سمعت بآية وحديث أو أثر أو شيء من الرقائق ، ولا أذهب بفهمي إلى الأحكام واستخراجها من الألفاظ إلا بعد ذلك ، ثم أصرف قلبي عن ذلك ، وكذلك القول في اللغة والإعراب إن طلبت ذلك لا يكون إلا خارج الصلاة ، وهذا الأمر قد أعطاه الله تعالىٰ لي من حين كنت أمرد ،وهو خلق غريب لا يوجد إلا في أفراد من الناس ، فإن غالب الناس أول ما يذهب فهمهم إلى الأحكام أو إلى إعراب الكلام ، أو إلى ما في ذلك من اللغات ، ولا يكاد أحدهم يترقى عن ذلك إلى الاعتبار والقوارع والزواجر التي في ذلك الكلام إلا بعد ذلك ، وربما فني عمر أحدهم في مثل ذلك ولم يترق إلى الاعتبار ، ولا إلى مقام «**اعبد الله كأنك تراه**»[2] وكثيراً ما تذهب عني الآية في صلاة الليل ، فلا أجد أقرب إليّ من الحق تبارك وتعالىٰ ، فأسأله فيردها عليّ من طريق الإلهام ، ولعل الإشارة بحديث: «**اعبد الله كأنك تراه**» إلى مثل ذلك بقرينة حديث: «**إن الله في قبلة أحدكم**»[3] فافهم.

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير ٢/ ١٦٢ (٣٦٧) ، وابن أبي عاصم في الزهد ص ٤٧٥.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان (٥٠) ؛ ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨).

(٣) أخرج بنحوه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب حك البزاق (٤٠٦)

واعلم أنه كثيراً ما يكون القارىء يقرأ الحديث ، أو كلام القوم ، والسامعون في غاية البكاء والخشوع ، فيدخل علينا نحوي فيقول: هذا الكلام معطوف على ماذا ، والأفصح أن يقال كذا وكذا فيذهب خشوع الجماعة لوقته ، ويرتفع البكاء والاعتبار ، ولكل كلام محل ، وما هكذا بلغنا عن السلف الصالح ، إنما كان أحدهم إذا تلا القرآن في الصلاة ينظر إلى ما فيه من المواعظ ، ثم يترقى من ذلك إلى الاشتغال بمناجاة الحق جل وعلا ، فلا يكون له التفات إلى غير الحق تعالىٰ ، وأما استنباط الأحكام فله وقت آخر.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: قل من يشتغل بمراعاة مخارج الحروف والترقيق والتفخيم والإدغام والإقلاب ونحو ذلك ، ويصح له الحضور مع الله تعالىٰ الذي هو روح الصلاة ، وذلك لأن النفس ليس من قدرتها الاشتغال بشيئين معاً في آن واحد ، قال رحمه الله تعالىٰ: ومن هنا قال مالك رضي الله تعالىٰ عنه بإرخاء اليدين في الصلاة دون وضعهما على الصدر لكل من يشتغل بمراعاتهما عن كمال الإقبال على مناجاة الحق جل وعلا ، انتهى.

وبالجملة: فالناس على مراتب حال التلاوة ، فمنهم من يسبق ذهنه إلى الإعراب ، ومنهم من يسبق ذهنه إلى الجناسات ، ومنهم من يسبق ذهنه إلى الأحكام ، ومنهم من يسبق ذهنه إلى الاعتبار ، ومنهم من يسبق ذهنه إلى حضوره بالقلب مع الحق جل وعلا ، فهم على مراتب بحسب ما هو الغالب على كل واحد منهم ، وأعلاهم مرتبة من حضر مع الله تعالىٰ في حضرة الإحسان.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]. قال: هم الذين يتجدد لهم في كل قراءة معان أخر لم تخطر لهم على بال ، ولو كرر الآية ألف مرة كان له في كل مرة معان جديدة ، فهذا هو تلاوة القرآن حق تلاوته.

وسمعته رحمه الله تعالىٰ مرة أخرى يقول: ليست الصلاة بمحل لاستنباط الأحكام، وإنما يكون الاستنباط خارجها ، وفي الحديث: «**إن في الصلاة لشغلاً**»(١).

وسمعته مرة أخرى يقول: لا يقدر على القراءة بالأنغام في الصلاة ، ومراعاة التفخيم والترقيق والإدغام والإقلاب ، مع الحضور مع الله تعالىٰ إلا الأكابر من الأولياء ، والقراءة الساذجة أولى لكل ضعيف ، والسلام.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب ما ينهى عنه من الكلام في الصلاة (١١٩٩) ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٨).

فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، ويدبرك في بلواك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم احتجابي عن الملهوف أو المكروب، كمن طلبه ظالم ليأخذ ماله ، أو يخرجه من وطنه ، أو يعزله من وظيفته ، أو كمن مات له ولد ، أو كمسترشد في الطريق ونحو ذلك ، فمن فضل الله عليّ أني أترك كل شغل كنت فيه ، وأخرج إليه وأبادر إلى قضاء حاجته بأمور الظاهر، وبالتوجه إلى الله تبارك وتعالىٰ بالباطن ، فإن كان ذلك الكرب من جهة أمر يصح استدراكه سعيت معه في إزالته ، وإن كان لا يصح استدراكه سليته عنه، وأمرته بالصبر أو الرضا، وذكرت له أحوال الصالحين في شدة صبرهم على المصائب والبلايا والمحن ، وعدم سخطهم على فقد مال أو ولد ونحو ذلك ، إذ التسلي ربما يحصل بالتأسي بالصالحين ، فيخف الهم ضرورة ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]. وقال تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]. وقال تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

واعلم أنه لا يجوز حمل الأشياخ على أنهم احتجبوا عن مكروب تكبراً أو استهانة بحقه ، معاذ الله أن يقعوا في مثل ذلك ، وإنما يتخلفون عن الخروج لشدة اشتغالهم بالله عز وجل ، وربما حصلت لهم جمعية بقلوبهم على الله تعالىٰ ، فمنعتهم من الحركة ، ومن الالتفات لغيره تعالىٰ بحكم الإرث لرسول الله ﷺ في ذلك ، فقد ورد أنه ﷺ كان يقول: «**لي وقت لا يسعني فيه غير ربي**»[1] انتهى.

وكان شيخنا رحمه الله تعالىٰ يقول: إنما قال ذلك أواخر عمره ﷺ حين بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وأقبل الإقبال الكلي على ربه عز وجل فوق ما كان عليه حال الاشتغال بالجهاد ، انتهى. وفي القرآن العظيم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٥]. فلم يعين ذلك بمدة ، فشمل اليوم والجمعة والشهر وغيرهما ، فافهم.

وكان سيدي مدين ، وسيدي علي المرصفي ، رضي الله تعالىٰ عنهما لا يخرجان من خلوتهما إلا لصلاة العصر فقط ، ولو أن أحداً جاءهما في غير ذلك الوقت لم يخرجا له، ومثل هذين الشيخين لولا أنهما يعلمان أن لهما عذراً شرعياً لخرجا كل وقت دعيا فيه إلى الخروج ، فالتسليم لهما ولمن تبعهما أسلم ، وحملهما على محمل حسن أغنم ، وكلامنا في الخروج لأصحاب الضرورات العادية. أما من لا ضرورة له كغالب من يزور الفقراء اليوم فلا ينبغي لفقير أن يخرج لأحدهم إلا إن علم منه حفظ اللسان في حال مجالسته له إلى أن يقوم ويخرج ،

---

(١) ذكره ملا علي القاري في المصنوع (٢٥٩) وقال: ليس بحديث.

وقد صار ذلك في هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر ، وإن شككت في قولي فاذكر للجالس أحداً من أعدائه بخير ، أو افتح له أخبار الولاة تعرف صدق ما أقول ، فلا يكاد مجلس يطول إلا ويقع أهله في غيبة.

وقد كان سيدي يوسف العجمي شيخ الطريق بمصر يقول لنقيبه: إذا دق أحد باب الزاوية فلا تفتح له الباب إلا إن كان معه فتوح للفقراء ، وإلا فهي زيارات فشارات ، فقال له فقير يوماً: كيف هذا وأنتم خرجتم عن الدنيا ؟ فقال له: يا ولدي أعز ما عند الفقير وقته ، وأعز ما عند أبناء الدنيا دنياهم ، فإن بذلوا لنا أعز ما عندهم بذلنا لهم أعز ما عندنا ، انتهى.

إذا علمت ذلك فلا تحتجب يا أخي إلا بوجه شرعي ولا تخرج إلا بوجه شرعي ، والله يتولى هداك وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: أدبي مع أصحاب الحضرة الإلهية في الليل ، وكراهتي للتقدم عليهم في الموقف؛ لأنهم كالإمام لي ، فلا أحرم قبلهم بصلاة؛ , لأني أستحيي من وقوفي بين يدي الله تعالىٰ قبل أن يقف أحد منهم ، لضعف حالي عن الخلوة بالملك الجبار ، الذي دكت الجبال من شهود عظمته ، فإن غلب علي أن جميع من في الحضرة فوقي في المقام ، استأذنت الله تبارك وتعالىٰ في الوقوف ، خوفاً أن أصبر إلى آخرهم فيفوتني قيام الليل جملة.

ومما وقع لي: أنني قمت ليلة قبل أن يدخل النصف الثاني من الليل ، وقبل أن يشرع أهل الحضرة في الوقوف في سائر أقطار الأرض ، فما كنت إلا هلكت ، ومن تلك الليلة لم أقم حتى يغلب على ظني أن بعض الناس وقف بين يدي الله تبارك وتعالىٰ ولو في الهند والصين ، ويؤيد ما قلناه كراهة بعض العلماء الطواف ليلاً ، وإن كان الجمهور على خلافه.

وبلغنا عن بعض الأولياء: أنه كره الطواف ليلاً ، وقال: لم يبلغني أن رسول الله ﷺ طاف ليلاً ، ولو أن ذلك ثبت لحملته على بيان الجواز ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: من الأدب أن لا يتقدم أحد في الوقوف على خواص الحضرة الإلهية كما لا يدخل أحد على ملوك الدنيا قبل دخول الأمراء والأكابر ، وقبل الإذن في الدخول ، ولله المثل الأعلى.

وكان رضي الله تعالىٰ عنه لا يتجرأ قط أن يدخل المسجد للصلاة إلا بعد سماع قول المؤذن حي على الصلاة ، وبعد أن يجد أحداً داخلاً ، فيدخل تبعاً له ، فإن لم يجد أحداً داخلاً وقف على الباب خلف حده حتى يجيء أحد يدخل فيدخل معه ، ويقول: مثلي لا ينبغي له أن يدخل المسجد بين يدي الله إلا تبعاً للناس.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن كل ما عدّه خدام حضرة ملوك الدنيا سوء أدب معهم فتركه في

معاملة الحق جل وعلا آكد ، فإن الله تعالىٰ أحق أن يُستحيا منه ، وقد تبع الشرع العرف في كثير من الأحكام ، كأمره المصلي بستر العورة في الخلوة وفي الظلام ، مع أن الحق تبارك وتعالىٰ لا يحجبه شيء ، وهذه الأمور التي ذكرناها لا يدركها إلا أرباب القلوب ، لا أرباب الأجسام والكثائف ، وقد جاءت الشريعة كلها آمرة بالأدب مع الحق تعالىٰ على اختلاف طبقات الخلق ، وربما يكون أدب عند قوم يعده قوم آخرون سوء أدب ، من باب « حسنات الأبرار ، سيئات المقربين » ، فيستغفر قوم مما يتقرب به قوم آخرون ، لكن في الآداب التي لم تصرح بها الشريعة من حيث مشهد كل عبد في الزيادة والنقص في الخشوع مثلاً ، لا من حيث أصل مشروعيتها ، فافهم ، فترى كل إنسان يصلي ويخشع ، ولكن أين صلاة أكابر الأولياء وخشوعهم من صلاة آحاد الناس وخشوعهم ، وفي القرآن العظيم : ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل : ٢٠] . فأفهمنا أنه ليس لأحد من الأمة أدباً أن يقف بين يدي الله تعالىٰ قبل سيد الحضرة على الإطلاق ، ﷺ ، وتأمل قوله تعالىٰ : ﴿ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي : بحكم الاقتداء بك ، والتبعية لك .

ثم إن هذا الأدب الذي ذكرته من خوفي من الوقوف بين يدي الله تعالىٰ قبل الناس في الليل ، لم أجد أحداً صرح به غير سيدي علي الخواص وأضرابه رضي الله تعالىٰ عنهم ، إما لعدم ذوقهم له ، وإما لغير ذلك ، بل غالب الناس يتلذذ بوقوفه في الليل وحده قبل وقوف الناس ، لحجابه عن شهود التجلي الإلهي ، ولو أنه شهده لم يقدر على الوقوف بين يدي الله عز وجل وحده من غير أحد يصلي هناك أبداً ، ولعل هذا أحد المعاني التي كرهت الصلاة فرداً لأجلها ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : محبتي لجميع الطاعات من حيث أن فيها مجالستي للحق تبارك وتعالىٰ لا لعلة ثواب ، وبغضي للمعاصي من حيث أن فيها الحجاب عن الحق تبارك وتعالىٰ لا لعلة عقاب ولا غير ذلك ؛ لأن جميع ما شرعه الحق تعالىٰ لنا في وقت من الأوقات كالإذن الصريح لنا في دخول حضرته ، سواء الفرائض والنوافل ، ثم إن مالت نفسي إلى طلب ثواب طلبته من باب المنة والفضل ، بحكم التبع ، لا بالقصد الأول ، مع أن الثواب حاصل بحكم الوعد الإلهي في كل عبادة حصل فيها إخلاص ، فكما منَّ علينا سبحانه بالوقوف بين يديه ، فكذلك منَّ علينا بالثواب ، فأفعالنا وثمراتها كلها من جملة فضله علينا ، فكان من طلب الثواب طلب ما هو حاصل ، وليس ذلك مقصود الرجال ، إنما يطلبون ما يخاف منه الفوات ، كمجالسة الحق جل وعلا ، فإن كل وقت ذهب ، والعبد فيه غير حاضربقلبه مع ربه عز وجل لا يحسب من عمره ، بل هو خسران في الدنيا والآخرة

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول : إياك أن تبتدع لك ورداً ، فإن الحق تبارك وتعالىٰ لا يجالس عبده إلا فيما شرعه نبيه ﷺ .

ولما اعترض بعض الفقهاء على حزب سيدي أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالىٰ ، ونفعنا به ، المسمى بحزب البحر ، قال الشيخ : والله لقد أخذته من فيّ رسول الله ﷺ حرفاً بحرف ، انتهى .

فإن كنت يا أخي من أهل هذا المقام فابتدع لك حزباً ، وإلا ففيما ورد في الشريعة غنية عن ذلك .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول : إنما شرع الحق تعالىٰ لنا مناجاته في الصلاة بكلامه دون غيره ، حتى لا نخرج عن شهود صفاته ، فإن القرآن صفة من صفاته تعالىٰ ، فكأن مناجاتنا له من باب خطاب الصفة لموصوفها ، فنحن نقرأ كلامه تعالىٰ كالحاكين له ، وكلامه تعالىٰ هو الذي يشهده تعالىٰ ويناجيه ، ثم يخبرنا بما شهد ، وقد قال بعضهم في معنى قولهم العلم حجاب ، أي : علمك حجاب لك عن معرفة المعلوم ، فعلمك عرف المعلوم لا أنت ؛ لأنك دائماً خلف علمك وهو حاكم عليك ، انتهى .

وهو كلام غوره(١) بعيد، فافهمه ترشد، والله يتولى هداك، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : أني لا أتذكر قط أني دخلت على عالم أو صالح وأنا أرى نفسي مثله ، وإنما أرى نفسي تحت أقدامه وأشهد فضله عليّ في العلم والعمل ، ليكملني بلحظه وكلامه ، ولذلك ما خرجت قط من مجلس عالم أو فقير إلا وأنا ممتد من مدده ، وكان على هذا القدم جماعة من العلماء الذين أدركناهم ، كشيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ، والشيخ نور الدين الطرابلسي ، والشيخ شهاب الدين ابن الشلبي ، والشيخ جلال الدين بن قاسم المالكي ، والشيخ شمس الدين اللقاني ، والشيخ ناصر الدين اللقّاني ، والشيخ شهاب الدين الرملي ، وأضرابهم رضي الله تعالىٰ عنهم .

وفي وقتنا هذا أيضاً جماعة كالشيخ ناصر الدين الطبلاوي ، والشيخ نور الدين الطندتائي ، والشيخ شمس الدين الخطيب ، والشيخ نجم الدين الغيطي ، والشيخ شمس الدين البرهمتوشي ، والشيخ سراج الدين الحانوتي ، وسيدي محمد ابن الشيخ شهاب الدين الرملي ، رضي الله تعالىٰ عنهم .

ولذلك رفعهم الله تعالىٰ على أقرانهم ، لكثرة إمدادهم ، فإني ما سمعت من أحد منهم قط يعتقد في نفسه الصلاح أبداً ، فلا يدخل أحدهم على عالم أو صالح إلا ويمده ، بخلاف من يصف نفسه بأنه صالح ، فإنه لا يحصل له شيء فلا هو يستحق أن يمدوه ، ولا معه مدد يعطي

(١) الغور : القعر من كل شيء . اهـ القاموس مادة / غور / .

منه أحداً شيئاً ، ومن هنا قالوا: زيارة الصالح للصالح لا فائدة فيها ، ومرادهم بالصالح هنا الصالح بالدعوى ، فإن الصالحين كلهم لا يصح لأحد منهم أن يزكي نفسه أبداً ، بل يستغفر الله تعالىٰ من نفس صلاته ، ويقول: إني أحب أن أخرج من الصلاة من غير تقصير فيها فلا يصح لي ذلك ، فإذا كان حاله في طاعاته كذلك فكيف حاله في معاصيه ، وقد رأيت بعضهم يعتب على شخص يدعي القطبية في عدم تردده إليه ، فقلت له: لا فائدة في اجتماعكما ، فقال لماذا ؟ فقلت له من يدعي القطبية لا يحتاج إليك ، ولا تقدر أنت أن تُوصِل إليه مدداً ، بل يرفضه ، فرجع عن العتب.

وقد علمت يا أخي من باب أولى أني لا أنكر قط بالظن على من دخلت عليه من العلماء والصالحين ، كما يقع فيه غالب الناس خوفاً من المقت ،وقد كان أبو تراب النخشبي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إذا كان حال العبد الإعراض عن حضرة الله تعالىٰ ، صحبته الوقيعة في أولياء الله تعالىٰ.

وكان الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: من وقع في عرض ولي ، ابتلاه الله بموت القلب.

وكان الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: من غض من ولي ضرب في قلبه بسهم مسموم ، ولم يمت حتى تفسد عقيدته ، فيموت على أسوأ حال ، اهـ.

وكان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: قد تتبعنا أحوال القوم فما رأينا أحداً أنكر عليهم ومات بخير أبداً.

ودخل عليّ مرة شخص فتعرض للحط على سيدي عمر بن الفارض ، فقلت له: تلك أمة قد خلت ، فقال: إني أتقرب إلى الله بسبه في المجالس ، ففارقني ، وسافر إلى بلاد بنواحي إسكندرية ، فاتهم بالفجور فحلق قاضي العسكر نصف لحيته وحاجبه وجرسه[1] على حمار مقلوباً ثم دخل الحمام بعد أيام فمات في المغطس الحار ، فوجدوه ميتاً كالقرن اليابس ، مع أنه كان من المفتين.

وحكى لي شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رضي الله تعالىٰ عنه قال: دخلت أنا وشخصان على سيدي عمر النبتيتي رحمه الله تعالىٰ ، فقال أحد الشخصين: أنا لا أعتقد هذا إلا إن أظهر لي كرامة ، وقال الآخر: أنا معتقد فيه بلا كرامة ، وقلت: أنا لا أطالبه بكرامة ولا أعتقد ولا أنكر ، فلمادخلنا عليه أقبل على المعتقد وبش في وجهه ، وأعرض عن الآخر ، ثم قال لي: كيف تقول لا أعتقد ولا أنكر وأنت تصير شيخ الإسلام ، وتسير بمؤلفاتك الركبان إلى بلاد الهند والروم والشام في حياتك ، فَقَبَّلْتُ ركبته ، واستغفرت الله

---

(١) أي سَمَّع به وندد.

تعالىٰ ، ثم إن ذلك الرجل الذي أنكر سافر إلى الروم فأسره الفرنج ، ويقال: إنه تنصر ، انتهى.

قلت: ومما وقع لي أنا مع جماعة دخلوا عليّ مع سيدي عمر النبتيتي المكشوف الرأس ولد ولد الشيخ عمر صاحب الواقعة قبله مع الشيخ زكريا الأنصاري ، وكان عندي خلائق في وليمة عرس ولدي عبد الرحمن ، وكان طعاماً واسعاً ، فقال واحد من الجماعة الذين مع سيدي عمر: أنا لا أعتقد في فلان إلا إن أخرج لي طاجن[1] لباً ، وقال الآخر: أنا لا أعتقده إلا إن غسل يدينا بالماورد ، فلما دخلوا عليّ ، أتاني شخص بالطاجن اللبَا فأكلوا ، فلما فرغوا رششت على يديهم الماورد فغسلوا به أيديهم ، كل ذلك وأنا لا أشعر بما قالوا قبل الدخول ، فسترني الله تبارك وتعالىٰ معهما ، وما أخبرني بذلك إلا سيدي عمر نفعنا الله تعالىٰ ببركاته ، ثم سألت الله تعالىٰ أن لا يؤاخذهما من جهة امتحانهما.

فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تصديقي للصالحين في كل ما يخبرون به من الأمور التي تحيلها العقول عادة ولم أزل أصدقهم في ذلك من حين كنت صغيراً وكل شيء لم أتعقله جعلته من جملة العلم الذي لم أعرفه ، ولا أكذب إلا ما خالف النصوص الصريحة ، أو خرق إجماع المسلمين ، أجمع أهل الكشف على أنه ما أنكر أحد شيئاً أخبره به أهل الكشف إلا حرم ذلك الأمر الذي أنكره ، ولو بلغ الغاية في السلوك ، فلا يعطى ذلك الأمر عقوبة له على إنكاره وتكذيبه أولياء الله تعالىٰ الذين هم آياته في الأرض ، وبهم يرزق الناس ، وبهم يمطرون ، وبهم يدفع الله البلايا عن عباده.

وقد جلس عندي مرة الأخ الصالح الشيخ أبو العباس الحريثي بين المغرب والعشاء في رمضان ، فقرأ بعد المغرب إلى مغيب الشفق الأحمر القرآن خمس مرات ، وأنا أسمعه ، فلما دخلت أنا وإياه على سيدي علي المرصفي حكيت له ذلك ، فقال: قد وقع لي أني قرأت القرآن في يوم وليلة ثلاثمائة وستين ألف مرة كل درجة ألف ختمة. هذا لفظه بحروفه ، انتهى.

ومما وقع لي ، أنني أحرمت بصلاة الصبح خلف الشيخ عمر الإمام بالزاوية ، فافتتح سورة المزمل ، فسبق لساني القرآن ، فقرأت من أول سورة البقرة ولحقته في قراءة الركعة الأولى قبل أن يركع ، فأنصتّ له حتى ركع ، هذا أمر شهدته من نفسي ، وآمنت بأنه كرامة لي من الله تعالىٰ ، فإن الإيمان بكرامات الأولياء واجب حق ، ويجب على الولي أن يؤمن بكرامات نفسه كما يؤمن بكرامات غيره على حد سواء ، فإنه بإقدار الله تعالىٰ في الجانبين.

فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الطاجن: المِقلَى. اللسان، مادة / طجن/

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: نفرتي بالطبع ممن يقبِّل يدي ، لا سيما في المحافل أو يمشي معي إلى الباب إذا خرجت من الجامع الأزهر مثلاً إلا لغرض شرعي ، كما أني أحب من لم يقبّل يدي ، ولم يقم لي ولم يمشِ معي ولم يعتقدني ، أكثر ممن كان بالضد من ذلك ، كل ذلك خوفاً على أديان الحسدة أن تتمزق بسببي ، فإنهم إن لم يتكلموا في حقي بلسانهم تكلموا بقلوبهم ، ووقعوا في سوء الظن ، فأثموا بسببي ، ولو أن أحداً لم يقبّل يدي ، ولم يمشِ معي ، مثلاً لربما لم يقعوا في شيء من ذلك ، وأيضاً فإن النفس تحب من يعظمها في المحافل ، فربما مالت إلى ذلك فأهلكت صاحبها ، وربما قدم الناس الإنسان في صلاة الجنازة على أحد من أقرانه فقامت على الذي قدموه القيامة ، وكذلك أقول لمّا يريد أحد تقديمي: أنا رجل حنبلي ، فيندهش مني ، ويعتقد أن ذلك عذر شرعي ، ولا يبحث عن حقيقة ذلك ، ومرادي بأني حنبلي ، أني أحب الإمام أحمد رضي الله تعالىٰ عنه ، كل ذلك مراعاة لأصحاب الرعونات الذين يحضرون غالباً الجنائز ، لا سيما الحال في جنائز الأكابر ، فإن أصحاب الأنفس يتقاتلون على التقدم فيها ، ولهذا الخلق حلاوة أعظم من حلاوة التقدم ، ومن شك فليجرب ، وسيأتي بسط عدم تقدمي لصلاة الجنائز إن شاء الله تعالىٰ بعد سبع منن ، فراجعه والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

الباب التاسع
في جملة من الأخلاق

فأقول وبالله التوفيق وهو حسبي وثقتي ومغيثي ونعم الوكيل:

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة إكرامي لأهل الحرف النافعة ، وعدم ازدرائي لأحد منهم إلا بطريق شرعي ، ومرادي ازدراء أفعالهم لا ذواتهم؛ لأن الحمد والذم منوط بوجه نسبة الفعل للعبد من حيث التكليف لا من حيث كون ذلك خلقاً لله تبارك وتعالىٰ ، وانظر إلى قوله ﷺ في الثوم: «**إنها شجرة أكره ريحها**»[1] فلم يكره إلا صفتها لا ذاتها.

وكان سيدي علي الخواص يكرم المعداوي ، والطباخ ، وزبال الحمام ، والقنواتي والطحان ، والفران ، والجزار ، ونحوهم: ويقول: إن هؤلاء عليهم أثقال المملكة وسداهم ولحمتهم منافع للناس ، وكان يقدمهم على الفقير المتعبد ويقول: إن أهل الحرف ولو نقصوا من وجه كملوا من وجه آخر. ورأيته مرة يقوم للقنواتي ويقول ، إنه من أهل الفضل ، والقيام لأهل الفضل مطلوب ، وكان يقول: لولا زبال الحمام وموقد النار تحت القدر فيه لفوّت كثير من الناس صلاة الصبح في أيام الشتاء ، فإنه ما كل أحد يتيسر له تسخين الماء في البيت ، ولا يتجرأ على الاغتسال بالماء البارد ، وتحرير عجزه شرعاً عن تحصيل الماء الحار بوجه من الوجوه عسر جداً ، وربما يحتج الشخص بالعجز وهو قادر على تحصيل ذلك بدرهم أو رغيف من ماء الحمام ، كما أنه أيضاً يعسر تحرير عجزه المبيح للتيمم ، انتهى.

وسمعته رحمه الله تعالىٰ يقول مرة عندي: إن الذي يأكل من كسبه ولو مكروهاً كالحجام والقنواتي أحسن من المتعبد الذي يأكل بدينه ، ويطعمه الناس لصلاحه.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في المنن الوسطى ، فراجعه وتأمله ترشد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تخفيف مدة المرض وقصره عليّ ، وذلك بكثرة

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً (٥٦٥) ، وأحمد في مسنده (١٠٧٠٠).

ضجيجي أول نزول ذلك المرض ، اللهم إلا أن يحجبني الله عن شهود ذلك فلا حرج عليّ في التصبر والتجلد ، بل هو كمال في مقام الإيمان للمريد ، كما أن الكمال في مقام العرفان ظهور الضعف ، وقد قالوا: إن العارف إذا كمل في مقام العرفان يصير يتأثر من قرصة برغوث ، ولا يتجلد لها لشهود ضعفه وعجزه ، بخلاف المريد فإنه من شدة ادعائه القوة يريد أن يقاوم القهر الإلهي ، وذلك سوء أدب ، ثم آخر الأمر لا بد أن يظهر له عجزه ، ويسأل الإقالة من ذلك المرض ، ويصير يشتهي العافية ، فلذلك بادر العارف إلى سؤال العافية لعلمه بأن أمره يرجع به إلى ذلك.

وقد نقل القشيري أن سمنون أحد رجال رسالة القشيري الجامعين بين الحقيقة والشريعة ابتلي بحصر البول ، فصار يدور على مكاتب الأطفال ، ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب ، قال القشيري: وإنما قال ذلك ستراً لحاله ، وقياماً بأداب العبودية ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: في تجلد المريض أول مرضه ونسيانه سؤال الإقالة نكتة حسنة ، وهي: أن اللهتعالىٰ إنما حبسه في مقام التجلد والتصبر ليحصل له الأجر والثواب الذي جعله الله تعالىٰ في مقابلة ذلك ، فإن من اعتناء الحق تبارك وتعالىٰ بالعبد أن يحبسه في كل مقام حتى يحكمه ويتحقق به ، ثم بعد ذلك ينقله إلى ما هو أعلى منه ، وهو هنا ظهور الضعف ، قال تعالىٰ: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

وقد سئل العارف بالله تعالىٰ الحكيم الترمذي عن حقيقة الخلق ، فقال: ضعف ظاهر ، ودعوى عريضة.

فعلم أن العبد مادام فيه بقية من الدعاوى فهو يتحمل أثقال الجبال من البلايا والمحن، بخلاف من زالت عنه الدعاوى بالكلية ،وتلطفت كثائفه بالرياضة والمجاهدة فإنه لا يكاد يحمل شيئاً من ذلك ، وكثيراً ما يضرب الوالي أحداً من المجرمين فلا يضج ولا يستغيث ، فيقول الناس: ما رأينا نفساً أقوى من فلان ، ابتلاه الله تعالىٰ بكذا كذا بلية فلم يسأل الإقالة ، ولم يستغث ، وكثيراً ما يراه الوالي ساكتاً لا يستغيث ، فيقول: زيدوه ، بخلاف ما إذا قال: أنا في حسب النبي ﷺ ، أو حسب أحد من الأولياء ، فإنه ربما يحن عليه ويرق له ، وكثيراً ما تقول جماعة الوالي للمجرم إذا رأوه ساكتاً: ويلك قل أنا في حسب الله ، أو حسب رسول الله ﷺ ، حتى يطلقوك ، وفي القرآن العظيم: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]. ومن فهم جميع ما قررناه علم أن الصبر مقام وعدم الصبر رضاً بما يفعله اللهتعالىٰ مقام ، فلا يقال التجلد أفضل مطلقاً ، ولا ترك الصبر أفضل مطلقاً؛ لأنهما مقامان جعلهما الله تعالىٰ لخواص عباده ، حتى لا يفوتهم أجر الصبر ولا أجر الرضا ، فتارة يتجرعون في المرض المرارة ، وتارة يتجرعون الشهد والحلاوة ، ثم آخر أمرهم تجرع

المرارة ، بدليل قوله ﷺ: «**إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**»(١) ونهاية الولاية تأخذ بداية النبوة من بعدها.

وتأمل يا أخي في قصة أيوب عليه الصلاة والسلام ، تطّلع على ما قلناه ، فإنه لم يقل ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. إلا في آخر أمره ، وأما في الأوائل فتجلد وتصبر ، ومدحه الله تعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. أي رجّاع إلينا في الشدائد لنمده بالصبر فيها.

فافهم يا أخي ذلك ، فإنه نفيس جداً ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم التهاون بمكافأة من أهدى إلي هدية ، بل إن علمت منه أنه يردّ هديتي إذا كافأته لم أقبل هديته وأردها إليه ، أو ثمنها ، اللهم إلا أن يكون من الأولياء الذين لم يخطر على بالهم طلب مكافأة ممن أهدوا إليه شيئاً ، فمثل هؤلاء ليس لنا رد هديتهم من هذا الوجه ، وإنما نردها لعلة أخرى ، كأن علمنا أنه ما أهدى ذلك إلينا إلا لاعتقاده فينا الصلاح ، وذلك لأن من أكل هدية من يعتقد فيه الصلاح فقد أكل بدينه كما مر إيضاحه في هذه المنن مراراً.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إذا علمت من أخيك أنه لا يقبل منك مكافأة على هديته فردها إليه ، وقل له يا أخي أهدها إلى من هو أحوج إليها مني ، فإنه أكثر أجراً لك مما تعطيه لمثلي ، وأنا والله أحب لك كثرة الأجر ، انتهى.

وهذا إذا كانت الهدية من وجه حلال ، كربح التجار المتورعين ، أما هدايا غير المتورعين كهدايا الكُشاف ومشايخ العرب والقضاة الذين يأخذون الرشوة مجاهرة ونحوهم ، فلا ينبغي لأحد قبول هديتهم مطلقاً ، وقد صار هذا الخلق غريباً في هذا الزمان ، فقل من يتخلق به لتعودهم الأخذ من الناس دون العطاء ، وقد قالوا في المثل: يد تأخذ لا تعطي ، بل رأيت بعضهم يرى الفضل له الذي قبل هدية ذلك الأمير ، وربما يقول النقباء للمعطي: لولا أنك عزيز عند سيدي الشيخ لما قبل لك هدية، إشارة إلى أن الشيخ متنزه عن قبول هدايا الولاة وغيرهم ، وربما يكون سيدي الشيخ كالتمساح ، فليحذر من لبس زي الفقراء من مثل ذلك ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: هروبي من تحمل منن الإخوان ، وإن لم يمنوا عليّ

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب المرضى ، باب أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل (٥٦٤٨) ، ومسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو عند ذلك (٢٥٧١).

بما أعطوه لي ، حتى أني ربما أهدي عمل ذلك اليوم في صحائف من تكلف ، وزارني من العلماء والفقراء ، حتى أنه لا يفوته خير بسببي ، وقد يكون درسه الذي فوّته لأجلي أكثر أجراً من أعمالي كلها في ذلك اليوم ، ولكني فعلت معه قدرتي ، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. ثم إن جعلي ثواب عملي في صحائف ذلك الشخص إنما هو من باب حسن الظن بالله تعالىٰ ، أنه يتقبل مني ذلك ، وإلا فالعبد ليس هو على يقين من قبول عمله ، حتى يهديه في صحائف غيره ، فافهم ، على أني لا أفعل مثل ذلك إلا إذا لم يكن معي شيء من الدنيا ، وإلا فكثيراً ما أعطى الزائر الرداء ، كما أني في بعض الأوقات أعطي المزور كذلك ، لحصول الأجر لي بسبب زيارته ولولا هو لما خضت في الرحمة ذاهباً وراجعاً كما ورد ، فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: محبتي لتحمل بلاء جاري عنه ، وأود أن ذلك البلاء نزل عليّ دونه ، بشرط أن يمدني الله تعالىٰ بالرضا أو الصبر ، وقد كان لي جيران لهم خرارات تخرج من أخليتهم في الخليج ، فلما جاءهم جماعة الوالي يطلبون منهم البلص ، قلت لهم هذه الخرارات من بيتي ومن زاويتي فقط ، ثم نزلت بالفقراء ، ونزحت ذلك الماء أيام قطع الخليج ، ونزل معي ذلك اليوم الشيخ رضي الدين قاضي قليوب وغيره كل ذلك خوفاً على جاري أن يرعبه جماعة الوالي ، وربما كان عنده ذلك الوقت ضيوف أو مريض أو عرس ، وربما كان عليه ديون يريد أهلها حبسه فيها ، وربما كان ذلك اليوم قد اشتكاه المستحقون لمفتش الأوقاف بعد أن كان جازف في مصاريف الوقف ، ونحو ذلك فإنه يشتد عليه البلاء بذلك ، ويستحيي من ضيوفه ، ويزداد تنغيصاً لعيشه.

وهذا الخلق غريب لم أر له فاعلاً غيري ، ويتأكد فعله على من يقدر عليه من العلماء والصالحين لأنهم أولى من وفى بحق الجار ، فالله تعالىٰ يوفقنا وإياهم لما يرضاه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة محبتي وإكرامي لحملة العلم والقرآن من حيث كونهم حملة الشريعة المطهرة لا لعلة أخرى من معاشرة وصحبة ومجانسة طبع ، كل ذلك محبة في رسول الله ﷺ؛ لأن من أحبه كثيراً أحب خدامه وأصحابه ، ومن كره واحداً منهم لعلة نفسانية فمحبته معلولة ، فعلم أني لا أتوقف في محبتهم على كمال عملهم بعلمهم ، كما عليه بعضهم؛ لأنه ما ثَمَّ عالم قديماً كان أو حديثاً إلا وعلمه أكثر من عمله ، وليتأمل الذي يقول: لا أحب إلا من عمل بعلمه نفسه هو هل عمل بكل ما يعلم ؟ وهناك يعذر الناس ، ثم على مدّعاه فمحبة الناقص للناقص مطلوبة ، كمحبة الكامل للكامل ، فليس للناقص أن يزدري ناقصاً وإنما ينصحه كما ينصح نفسه من حيث أن كلاهما واجب.

وكان الحسن البصري رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لو أن الإنسان توقف عن سماع الوعظ ،

وقال لا أسمع ذلك إلا ممن اتعظ بذلك قبلي ، لفاته خير كثير ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: سترتي لطالب العلم إذا دخل عليّ وأنا أقرر شيئاً في كلام الصوفية ، مما أعلم أنه غير عالم به ، فلا أقول له قط قرروا أنتم للفقراء ، خوفاً عليه أن يفتضح ويتبين للحاضرين جهله إذا قرر الكلام بغير مراد أهله ، ثم إذا أردت أن أقيده ما ليس عنده أفهم الجماعة أنه يعرف معنى ذلك الكلام ، ثم أقول له بعد تقرير فوائد تلك المسألة: هذا ما ظهر لي ، فهل هو صحيح ، كالمستشير له ، فإن قال: صحيح كان ، وإن قال فيه إشكال وافقته في الإشكال ، ورجعت إليه فيما يجيب هو عنه على نية أنه مشكل عنده هو لا عندي ، ثم إذا فارقنا ومضى قررنا لأصحابنا تلك المسألة على مراد القوم؛ لأن الحاضرين ترقوا عما فهمه هو ، والشريعة كالبحر يغترف منها العالم والقطب وغيرهما.

وقد حكى الشيخ تاج الدين بن عطاء الله أن العلماء اجتمعوا في خيمة في وقعة المنصورة في البحر الصغير ، وكان فيهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد والشيخ مكين الدين الأسمر ، رضي الله تعالىٰ عنهم ، ورسالة القشيري تقرأ عليهم ، وكل واحد يبدي ما عنده ، فدخل عليهم الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالىٰ عنه ، فعزموا عليه أن يقرر لهم شيئاً من معاني ذلك على مصطلح القوم ، فقال لهم الشيخ: أنتم بحمد الله مشايخ الإسلام ، وكبراء الوقت ، وقد تكلمتم فما بقي لكلام مثلي محل ، فقالوا له لا بد من ذلك ، فحمد الله تعالىٰ وأثنى عليه ، ثم شرع في الكلام ، فنهض الشيخ عز الدين بن عبد السلام قائماً ، وخرج من الخيمة ونادى بأعلى صوته: هلموا إلى هذا الكلام القريب العهد من الله تعالىٰ فاسمعوه ، انتهى.

فعلم أننا إذا رأينا كلام ذلك العالم يكفي الحاضرين فمن الأدب أن نعزم عليه أن يقرر ذلك الكلام ، لعدم خوفنا عليه الفضيحة ، وهذا الأدب قليل من يفعله من الفقراء ، بل رأيت من يقصد فضيحة الفقيه إذا حضر درسه ، ويقول لأصحابه: إيش قلتم فيمن يبين لكم جهله بالطريق ، ثم يعزم عليه ، وذلك لا يجوز ، ومن فعل ذلك فربما قام من ذلك المجلس مفتضحاً ، ولو كان من أكبر المشايخ.

وقد كان الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: ما جلست مجلساً قط أريد فيه أن أعلو القوم إلا وافتضحت ، وأرتج عليّ في الكلام ، وما جلست مجلساً قط أريد فيه أن أستفيد من القوم إلا وقمت وهم معترفون كلهم بفضلي ، انتهى.

فافهم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي للتقدم للإمامة في الفرائض والنوافل وصلاة

الجنازة خوفاً من تحمل نقص المأمومين في صلاتهم زيادة على نقص صلاة نفسي ، لا سيما إن كانوا يظنون فيَّ الخير كالزهد في الدنيا ، والخوف من الله تعالىٰ ، ومراقبته بالغيب ، وأنا بخلاف ذلك ، وربما أنهم لو اطّلعوا على زلاتي التي فعلتها طول عمري لكانوا لا يصلون قط خلفي ، في الحديث : «**اجعلوا أئمتكم خياركم لأنهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم**»(١) أو كما قال ، وأنا لست بخير من الجماعة الذين يقدموني .

وكان الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالىٰ ، لا يدع أحداً قط يصلي وراءه إذا كان يصلي منفرداً ، هكذا نقل عنه .

وأما حديث : «**صلوا خلف كل بر وفاجر**»(٢) فهو محمول على إمام يخشى الناس من ضرره لو امتنعوا من الصلاة خلفه ، فكانت صلاتنا خلفه مع فسقه أخف مفسدة من امتناعنا من الصلاة خلفه ، وربما قتلنا أو نفانا من بلادنا ، وأخرج عنا وظائفنا ، وما فيه معاشنا العادي ، كما وقع لبعض الصحابة والتابعين مع الحجاج بن يوسف الثقفي .

فليعرض من يطلب التقدم على الناس للإمامة جميع زلاته السابقة ما أسر فيها وما أعلن على المأمومين ، بحكم الفرض والتقدير ، وينظر فإن غلب على ظنه أنهم يصلون خلفه بانشراح صدر دون كراهة ، أو حزازة في نفوسهم ، فليؤم بهم ، وإلا فمن الورع ترك الإمامة ويصلي مأموماً ، وأظن أن الإنسان لو عرض زلاته على أعظم جماعة من أصحابه في هذا الزمان لامتنعوا من الصلاة خلفه ، ونفروا من صحبته ثم كانت كراهتهم له حينئذ بحق وصدق؛ لأنه قد وقع في تلك الذنوب كلها بيقين ، وأما كونه تاب منها وقبلت توبته فليس هو على يقين من ذلك ، وفي حديث الطبراني : «**إن الملائكة تقول لبعض الناس يوم القيامة حين تظهر أفعاله للناس : أف لك ، أكل هذا كنت تجاهر به ربك**»(٣) ، انتهى .

فإن قيل : إذا كان جميع الناس الحاضرين تلطخوا بالذنوب عند أنفسهم كما ذكرنا ، فماذا يصنعون ؟

فالجواب : يتقدم واحد منهم يصلي بهم قياماً بواجب الشرع الشريف ، مستغفراً لنفسه وللمأمومين ، وكذلك الميت ، كما يقع لي ذلك كثيراً إذا توقف جميع الحاضرين عن التقدم اكتفاء بالإذن العام من الشارع ﷺ في ذلك ، وما أمرنا الله تعالىٰ بالصلاة على الميت ، والشفاعة فيه ، إلا وهو يريد إجابة دعائنا وقبول شفاعتنا في حقه إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٩٨٠) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٩٠) ، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٣٢٨) ، والربيع في مسنده (٧٨١)

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٩) ، والديلمي في مسند الفردوس (٣٧٠٥)

(٣) لم أجده .

وقد حضرت أنا وأخي أفضل الدين في جنازة في الجامع الأزهر ، فقدموه للصلاة عليها فغشي عليه ، ولم يتم الصلاة فقدموا غيره ثانياً فصلى بالناس ، فلما أفاق من غشيته قلت له في ذلك ، فقال: سمعت في سري قائلاً يقول: مثلك يشفع عندي ، وقد فعلت كذا وكذا ، وجاهرتني بالمعاصي في حضرتي ، وأنا أراك ، فما تمالكت أنني أقف بين يديه ، فرحمني بتلك الغشية ، انتهى.

وفي القرآن العظيم: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. أي خائفون ، مع أن شفاعتهم فيمن ارتضاه تعالىٰ ، فمن كان على وصف الملائكة في العصمة بأن يحفظ من المعاصي فليتقدم ليشفع في غيره ، وإلا فلا؛ لأن المتلطخ بالذنوب لا يتصدر للشفاعة في غيره عادة؛ لأنه محتاج إلى من يشفع له ، فكيف يشفع في غيره ، وهذا وإن كانت شفاعته جائزة لكن ذلك ليس من مقامه ، ولكل مقام رجال.

وقد مكثت أنا في هذا المشهد زماناً ، لا أستطيع قط أن أتقدم في صلاة جنازة ، فتقدمت يوماً فنوديت في سري تجاه باب المدرسة الجنبلاطية خارج باب النصر: لا يشفع إلا من ارتضاه الله تعالىٰ ، فهل تعلم أنه ارتضاك ورضي عنك ، حتى تقدمت تشفع ، فكاد أن يغشى علي.

وكان الشيخ محمد المغربي الشاذلي رحمه الله تعالىٰ ، شيخ الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالىٰ ، لا يذهب لصلاة جنازة إلا إن علم من طريق كشفه أن الله تعالىٰ يشفعه في ذلك الميت ، فإن لم يعلم ذلك قال للناس: اذهبوا ، ولم يحضر ، وقدموه مرة لصلاة جنازة في جامع الأزهر ، فمكث نحو خمس عشرة درجة يدعو لها ، والناس خلفه يظنون أنه ساه ، ثم سلم بهم ، فقالوا له في ذلك ، فقال: رأيت عليه تبعات كثيرة ، فلا زلت أشفع فيه بين يدي الله عز وجل حتى غلب على ظني أن الله تعالىٰ أرضى عنه خصماءه ، انتهى.

وكذلك وقع لي في بعض الجنائز ، ولما مات المقدم عياد بباب الشعرية ، دعوني إلى الصلاة عليه ، فرأيت عليه تبعات كثيرة ليس لي فيها يد ، فدعوت له أن الله تعالىٰ يبعث له من يصلي عليه من الصالحين ويشفع فيه ، فجاء بعض الفقراء فصلينا خلفه ، ورجونا قبول دعائه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إياك أن تزاحم على التقدم لصلاة الجنازة إلا أن يجمع كل من هناك على تقديمك بانشراح صدر ، لا سيما التقدم في جنائز الأكابر من العلماء والصالحين والأمراء ، في مثل جامع الأزهر ، فإن الغالب من أصحاب الرعونات الحاضرين حصول الحزازة في نفوسهم من تقديم مثلك عليهم ، ثم إذا قدموك عليهم بانشراح صدر فلا تتقدم إلا إن أمنت على نفسك من الوقوع في الإعجاب ، ورؤيتها على الحاضرين ، ولم يكن عليك ذنب ، فإن كان عليك ذنب وجب عليك التوبة منه قبل

الصلاة ، ففتش نفسك يا أخي التفتيش التام ، ثم صل بالناس ، انتهى.

فقلت له مرة: إن السلف الصالح لم يبلغنا عنهم أنهم قيدوا بهذه الشروط على الإمام ، فقال: صحيح ذلك ، ولكن ما قلناه احتياط لأنفسنا ، والاحتياط لا تأباه الشريعة ، انتهى.

وقدموا معروفاً الكرخي مرة لجنازة فامتنع ، وقال: إن لي منذ ثلاثين سنة وأنا أظن أن الله تعالىٰ ناظر إلي نظر السخط والغضب ، فكيف أقف بين يديه أشفع في غيري ؟ انتهى.

وهذا هو مشهدي الآن بحمد الله تعالىٰ ، فلذلك كنت أكره التقدم في الجنازة ، مع أن الدعاء للميت حاصل مني حال كوني مأموماً ، ثم إن هذا الخلق غريب في هذا الزمان ، بل بعضهم عادى من قدموه عليه في صلاة الجنازة حتى مات ، فالحمد لله الذي عافانا من مثل ذلك بما كشف لنا من شهود نقصنا ، وشهود الكمال في غيرنا ، وقد علمت يا أخي من جميع ما قررناه أن الذين يتزاحمون على التقدم في صلاة الجنازة غافلون عن جميع ما قلناه ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: مبادرتي للشكر إذا قدَّر الحق تبارك وتعالىٰ لي خيراً ، ومبادرتي للاستغفار إذا قدَّر علي معصية ، فلا أستغفر من نقص طاعاتي إلا بعد الشكر ، ولا أرضى بقضائه تعالىٰ على معصية إلا بعد الاستغفار؛ لأن ذلك هو الجانب الذي كلفت به من حيث الكسب، وأما الشكر لله، والرضا بقضائه، فهو تحصيل الحاصل.

وإيضاح ذلك: أن كل طاعة ومعصية لها وجهان ، فالعبد يشكر ربه تعالىٰ من حيث قسمة الطاعة له ، ويستغفر من حيث وقوعها على يديه ناقصة ، ويستغفر ربه من حيث ارتكابه المعصية ، ويرضى عنه من حيث تقديره إياها عليه ، ومن هنا قال أهل السنة والجماعة ، يجب على العبد الرضا بالقضاء لا بالمقضي ، فيحتاج المؤمن إلى عينين في كل طاعة ومعصية ، والناظر بعين واحدة أعور ، فلا بد من شهود الفعل لله كاملاً؛ لأنه حكيم عليم ، ولا بد من شهود الفعل كخلاف الأولى مثلاً للعبد ناقصاً ، من حيث نسبة التكليف إليه ، فإن تأدية العبادات على الكمال من خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم ، وأما غيرهم فلا بد في طاعتهم من النقص في مشهدهم على اختلاف مراتبهم ، وتفاوت نقصهم ، فافهم.

وكذلك القول في النعم والنقم ، فمن تأمل النعم وجد في باطنها النقم وبالعكس ، فوجه النقم التي في النعم ، أي النعم من عافية ، وصفاء وقت ، وكثرة مال ، مطالبة الحق تعالىٰ لصاحبها بالشكر بالفعل ، والأعمال الشاقة ، دون القول ، ودون الأعمال الخفيفة على النفس ، ثم حسابه في العقبى على تركه إنفاقها ، فربما لم يتيسر له ذلك في وجوه الخير التي شرع له صرفها فيها ، ووجه النعم التي في النقم ، كونها تكفر سيات العبد إن كانت ذهاب

مال ، أو فقد ولد ، أو مرض ، وإن كانت معصية فربما أذلت نفسه بعد أن كانت متكبرة بالطاعات ، كما قال صاحب الحكم[1] : «**رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً**» ويحتاج صاحب هذا المشهد إلى علم وافر ، وقلب حاضر ، ليعطي كل ذي حق حقه.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: إذا نمت لغير غلبة عن وردك في الليل مثلاً فبادر إلى التوبة والاستغفار ، لتفريطك باستجلابك النوم ، وغيبتك عن حضورك تلك المواكب الإلهية ، وحرمانك مما فرق فيها من الغنائم التي ليس في نعم الدنيا لها نظير ، فما أمرت بالاستغفار من النوم إلا لعدم كونك نمت غلبة ، وعلى ذلك يحمل حديث: «**ليس في النوم تفريط**»[2] عند بعض العارفين ، وقال بعضهم المراد ليس في ما يصدر من الكلام في النوم تفريط وإن كان ظاهر الحديث العموم.

ثم بعد ذلك يجب عليك الرضا ، من حيث كونه تعالىٰ أنامك صحيح الجسم على طراحة مثلاً ، وأباح لك النوم في الجملة ، وربما كان نومك أرجح من قيامك لغلبة رؤية نفسك على من تراه نائماً طول ليله ، وغلبة الإعجاب بذلك ، ومعلوم أن النائم سالم من المناقشة التي كان معرضاً لها ، لو أنه قام الليل ، فربما قام رياء وسمعة ، وربما قام طلباً للثواب ، لا لو لم يكن هناك ثواب امتثالاً لأمر الله ، وفي كل ذلك المناقشة ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يحث أصحابه كثيراً على نية القيام من الليل كل ليلة ليكتب للناوي أجر من قام تلك الليلة كاملاً موفراً ، مع سلامته من المناقشة ، ويقول قد قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىءٍ ما نوى**»[3] فعلق الأجر في هذا الحديث بالنية ، ولم يقل: وإنما لكل امرىءٍ ما عمل ، توسعة على أمته ، فكل عمل لم يقسم لهم مباشرته يحوزون ثوابه بالنية ، انتهى.

وبالجملة فسدي العبد ولحمته نعم ، كما أن سداه ولحمته من جهة أخرى ذنوب ، فافهم

---

(١) الحكم العطائية للشيخ تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن عطاء الله الإسكندراني المتوفى سنة (٧٠٩) هـ. اهـ. كشف الظنون (١/ ٦٧٥).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب المساجد مواضع الصلاة ، باب قضاء الصلاة الفائتة (٦٨١) ، والترمذي ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء في النوم عن الصلاة (١٧٧) ، والنسائي ، كتاب المواقيت باب فيمن نام عن الصلاة (٦١٥) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب في من نام عن الصلاة أو نسيها (٤٤١) ، وابن ماجه ، كتاب الصلاة ، باب من نام عن الصلاة أو نسيها (٦٩٨).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب بدء الوحي (١) ، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب قوله «إنما الأعمال بالنية» (١٩٠٧).

يا أخي ذلك ترشد ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، ويدبرك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: شكري لله تعالىٰ على كل ما حصل من غلاء الأسعار؛ لكونه لم يكن أغلى ولا أشد مما وقع لغيرنا ، وذلك لعلمي بأن جميع ذنوبنا أعظم من ذنوب من سبقنا بالزمان ، وقد بلغنا أنه وقع في سنة خمسين وأربعمائة في زمن المستنصر بالله غلاء ، إلى أن أكل الناس أولادهم ، بعد أن أكلوا الكلاب والدواب ، وبلغ ثمن القدح ديناراً ونصفاً ، ثم فقد بالكلية ، فنبشوا القبور وأكلوا لحوم الأموات ودام ذلك علهيم سنين ، حتى صار بعض الكلاب يدخل إلى الدار فيأكل الطفل ، وأبواه ينظران لا يقدران على النهوض إليه من شدة الجوع ، وخرجت امرأة بربع من الجوهر ، وقالت من يأخذه بربع قمح ، فما وجدت أحداً عنده قمح ، وباع السلطان جميع ما عنده من الثياب والخيل والأمتعة وأكل بها ، وصار ينزل ماشياً في مصر في قبقاب زحافي لا يجد حماراً يركبه ، ودخل رجل على صاحبه فوجده قد ذبح ولده هو وأمه وهما يأكلان فيه ، فخاف على نفسه وخرج ، وكذلك وقع أيام السلطان شعبان ، فلا تستبعد يا أخي وقوع مثل ذلك في هذا الزمان ، فإننا نستحق أعظم من ذلك ، فالحمد لله الذي عافانا من مثل ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كوني أحمل هم من عزم على زيارتي من إخواني ، وجاء فلم يجدني ، لا سيما إن جاءني من موضع بعيد ، ولذلك كنت لا أخرج قط من بيتي إلى موضع بعيد حتى أقول بتوجه تام: اللهم إن كان في علمك أن أحداً من الإخوان قد خرج لزيارتي ، وهو في الطريق فعوقني له حتى يحضر ، وإن كان لم يخرج فعوقه عن المجيء إلي حتى أرجع ، ثم أقول دستور يا ربي ، وأخرج.

وهذا الخلق قريب من دعاء الاستخارة ، فكل شيء وقع بعد ذلك من خروج أو عدم خروج مني أو من أخي ، كان فيه الخيرة إن شاء الله تعالىٰ ، ولهذا الخلق حلاوة عظيمة يجدها الإنسان في قلبه ، ثم إن هذا الدعاء لا ينبغي أن يقوله الإنسان إلا في حق الزائر الصالح من إخوانه الذي جاءنا بنية صالحة ، ويحصل لنا به خير ، أو يحصل له بنا خير ، أما من يزورنا عادة بغير نية صالحة ، فينبغي للإنسان أن يقول في دعائه: اللهم عوقه عنا ، وعوقنا عنه ، وباعد بيننا وبينه ، ولم أجد فاعلاً لهذا الأمر إلا قليلاً.

وممن أدركناه متخلقاً به شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ، والشيخ علي النبتيتي الضرير ، وسيدي علي الخواص ، وسيدي محمد بن عنان ، وأخي أبو العباس الحريثي ، وأخي الشيخ أفضل الدين ، فكل هؤلاء كانوا محفوظين من كثرة اللغو في مجالسهم ، وكل من أكثر من اللغو عندهم قالوا له: قم ضيعت علينا الوقت ، ولا يستحيون من ذلك ولو كان قاضياً ، وكان شيخ الإسلام المذكور يخبط للواحد بالعصا في الأرض ، ويقول له قم ، فكانوا رضي الله

تعالىٰ عنهم يكرهون من ينقل إليهم أخبار الناس من الولاة والفقهاء والفقراء والتجار وغيرهم ، فأين مقام هؤلاء من مقام غالب أهل هذا الزمان ، بل رأيت بعض المشايخ يستجلب كلام اللغو من الداخلين عليه ، ويقول لهم: إيش أخبار الناس اليوم ، فينفتح الزائر كأنه جسر انقطع ، ويحكي له ما جمعه في تلك الغَيبة كلها من غِيبة ، ونميمة ، وقذف عرض ، وذكر نقائص الناس من سائر أصناف الخلائق ، ثم يقول للزائر: والله ما أنت إلا حكيت لي ، إيش بقي معك أيضاً ؟ كأنه ما كفاه ما وقع فيه من الإثم ، حيث لم ينكر عليه شيئاً مما قاله في الناس من الغِيبة ، لا سيما غيبة العلماء والمشايخ ، وكيف ينكر عليه وهو الذي استجلب ذلك منه.

فالحذر يا أخي كل الحذر من فتح بابك لمثل هذا الزائر ، وقد دخل علي شخص له عذبة وجندة ، فشرع يذكر مشايخ مصر بالنقص ، فأخرجته ، فاشتغل بي ، فمنعته من ذلك اليوم أن يدخل عليّ ، ثم عمي بعد سبعة أيام ، نسأل الله العافية ، وأن يلطف بنا وبه آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: صلاتي كل يوم للاستخارة على مصطلح ما ذكره القوم ، بقصد أن الله تعالىٰ يجعل جميع حركاتي وسكناتي ذلك اليوم ، أو تلك الليلة ، أو تلك الجمعة ، أو ذلك الشهر ، أو تلك السنة ، صالحة محمودة ، وكان على ذلك الشيخ محيي الدين بن العربي والشيخ أبو العباس المرسي وجماعة ، وصورة ذلك كما قاله الشيخ محيي الدين في وصاياه آخر كتاب الفتوحات المكية: أن تصلي يا أخي ركعتين عند ارتفاع الشمس كرمح ، أو بعد صلاة المغرب ، أو كل يوم جمعة ، أو شهر ، أو سنة ، تقرأ في الركعة الأولى فاتحة الكتاب ، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨]. و: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١] وفي الركعة الثانية فاتحة الكتاب ، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]. فإذا سلّم دعا بدعاء الاستخارة الوارد ، ويقول بدل الموضع الذي أمر العبد أن يعين فيه حاجته: اللهم إن كنت تعلم أن جميع ما أتحرك فيه ، أو أسكن فيه في حقي وحق أهلي وولدي وإخواني ، وجميع من شاء الله تعالىٰ في ساعتي هذه إلى مثلها من اليوم الآخر ، أو الليلة الأخرى ، خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فأقدره لي ويسره لي ، وإن كنت تعلم أن جميع ما أتحرك فيه أو أسكن في حقي وحق غيري من أهلي وولدي وسائر من شاء الله من ساعتي هذه إلى مثلها من اليوم الآخر أو الليلة الأخرى شر لي في ديني ومعاشي ، وعاقبة أمري ، وعاجله وآجله ، فاصرفه عني ، واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به.

قال أشياخ الطريق: فمن فعل ذلك كل يوم وليلة فلا يتحرك قط في كل حركة ،

ولا يسكن ، ولا يتحرك أحد في حقه كذلك إلا كان ذلك خيراً له بلا شك .

قالوا : وقد جربنا ذلك ، ورأينا عليه كل خير لما فيه من الأدب مع الله تعالىٰ ، والتفويض إليه .

قالوا : وإذا فرغ من دعاء الاستخارة فليشرع فيما استخار الله لأجله ، من فعل أو ترك مع انشراح صدر ، فإنه إن كان له فيه خير فلا بد أن الله تعالىٰ يسهل عليه أسبابه إلى أن يحصل، وتكون عاقبته محمودة ، وإن كان عليه فيه شر فلا بد أن يضيق منه صدره ، ويتعذر عليه أسباب تحصيله ، وحينئذ يعلم أن الله تبارك وتعالىٰ قد اختار له تركه ، فلا يتألم لفقده ، بل يحمد ربه على ذلك ؛ لأنه تعالىٰ أعلم بمصالح عبده من نفسه .

قالوا : ومعنى قوله : «وأستقدرك بقدرتك» أي : إن كان لي في فعله خير فاقدرني على تحصيله بقدرتك التي تخلقها في عبادك ، فإنك تقدر أن تخلق لي القدرة على تحصيله ولا أقدر ، أي ليس لي قدرة أحصله بها ، ومعنى : «وأنت علام الغيوب» أي : ما غاب عني مما تعلمه أنت دوني ، ومعنى «فاقدره لي» ، أي : فاخلقه من أجلي ، وأظهر عينه على يدي ، ومعنى «فاصرفه عني» ، أي لكوني استحضرته في خاطري ، حتى أنه اتصف بضرب من الوجود وهو تصوره في خاطري أي فلا تجعله يا رب حاكماً عليّ بظهور عينه على يدي ، مع أنه ليس لي خير في فعله ،ومعنى : «واصرفني عنه» ، أي حل بيني وبين وجوده في الخارج ، واجعل بيني وبينه الحجاب الذي بين الوجود والعدم حتى لا أستحضره ولا يحضرني ،ومعنى : «واقدر لي الخير حيث كان» ، أي : لأنك عالم بالأماكن التي لي الخير فيها من غيرها ، ومعنى : «ثم رضني به» ، أي اجعل عندي السرور والفرح بحصوله أو بتركه ، انتهى .

فاعمل يا أخي بذلك ولو في كل أسبوع ، أو شهر ، أو سنة ، أو سنتين ، أو أكثر ، وتقول في الدعاء : اللهم إن كنت تعلم أن جميع ما أتحرك فيه ، أو أسكن من يومي هذا ، إلى مثله من الأسبوع الآخر ، أو من الشهر الآخر أو من السنة الأخرى ، وهكذا ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : كثرة اجتماعي في منامي بالأموات ، وكثرة سؤالي عن أحوالهم في قبورهم ، وما وقع لهم ، حتى إن من كثرة تكرر ذلك لي كاد أن يكون كاليقظة ، فإن جهلت حالهم في حياتهم من حيث أعمالهم فلا أجهل حالهم بعد مماتهم من كل وجه ، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليّ ، لكي أتهيأ لدخول البرزخ بفعل الحسنات وترك السيآت ، والندم على ما فات من الطاعات ، وإن كنت لا أعتمد إلا على عفو الله تعالىٰ ، فإن لقاء العبد المطيع عادة لسيده ليس هو كلقاء العبد الآبق المخالف .

وقد عمل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ، والتابعون بما يرونه في المنام من الاعتبارات ، كما هو مشهور في كتب الأحاديث ، ولما قص عبد الله بن عمر على رسول الله ﷺ: «**أنه رأى في منامه أنه أوقف على شفير جهنم وهو خائف أن يقع فقال له رسول الله ﷺ: نعم عبد الله بن عمر ، لو كان يقوم من الليل**»(١) فما ترك عبد الله بعدها قيام الليل حتى مات.

وكان شخص في جوارنا يستهزىء بالناس ، فابتلاه الله تبارك وتعالىٰ بالربو والزمانة ، فمكث نحو عشر سنين لا يقدر على وضع جنبه إلى الأرض ، فصارت ذقنه على ركبتيه ، ويبس عصبه ، ومات كذلك ، ودفن كذلك ، فرأيته بعد موته فقلت له: أنت إلى الآن مزمن ؟ فقال: نعم وأحشر كذلك ، وغالب ذلك من جهتك ، ومن جهة الشيخ شعيب الخطيب ، فقلت ذلك للشيخ شعيب ، فقال: صحيح كنت كلما أمر عليه يتنخم ويلقي النخامة في وجهي ازدراء بي ، انتهى. وأما أنا فكان يقول لي كلما أمر عليه ألفاظاً لا تقال لرعاة البقر ، فالله تعالىٰ يعفو عنه ويسامحه آمين ، انتهى.

ومما وقع لي أنني رأيت في منامي أنني نزلت تحت الأرض ، فرأيت أهل القبور على أحوال شديدة ، نسأل الله العافية ، فمنهم من رأيت عنده كلباً عقوراً يعضه ويكشر عليه ، ومنهم من رأيت عنده ذئباً ، ومنهم من رأيت عنده تمساحاً ، ومنهم من رأيت عنده هرة ومنهم من رأيت عنده فيراناً ، ومنهم من رأيت عنده ثعباناً ، ومنهم من رأيت عنده عقرباً ، ومنهم من رأيت عنده بعوضاً ومنهم من رأيت عنده بقاً ، ومنهم من رأيت عنده قملاً وبراغيث ، فسألت الملائكة الذين هناك عن أصل هذه المؤذيات التي تطورت في قبورهم على هذا التفصيل ، فقيل: هي غيبة ونميمة ، وسخرياء بالناس ، وسوء ظن ، ونحو ذلك ، فأخبروني بأصولها.

ونزلت مرة أخرى قبور الروضة ، خارج باب النصر ، فوجدتهم حلقاً حلقاً ، يتحدثون على رمل أبيض ، فقال لي واحد منهم: إذا رجعت إلى الدنيا فادعوا بهذا الدعاء فقلت له وما هو فقال قل اللهم إني أنزلت بك ما يهمني من أمور الدنيا والآخرة ، فإنه لا يرفع البلاء إلا من أنزله ، انتهى ، فلم تزل تلك دعوتي في كل كرب.

ونزلت مرة أخرى إلى القبور ، فرأيت القيامة قد قامت ، ورأيت جماعة واقفين ، وأعمالهم عنهم تصدر والناس ينتهبونها ، فقلت: من هؤلاء فقال لي ملك هناك: هذه أعمال هؤلاء القوم الذين كانوا يأكلون أوساخ الناس ، ويسألونهم وهم قادرون على الكسب ، فحكم الله تبارك وتعالىٰ أصحاب تلك اللقيمات في أعمالهم يأخذ كل واحد منها ما شاء في نظير ما أطعمه؛ لأن تلك العبادات كلها نشأت من القوة الناشئة من ذلك الطعام ، فمن أكل من كسبه كان عمله له ، انتهى.

---

(١) لم أجده.

ومما رأيته في حق نفسي ، أنني كنت لا أخرج زكاة الفطر أبداً لعدم ملكي لشيء من الدنيا ليلة العيد ويومه دائماً؛ لأن جميع ما عندي إنما يأتي به الله على اسم الفقراء القاطنين عندي ، فرأيت في سنة خمس وخمسين وتسعمائة أنني في فلاة من الأرض ، مع خلق كثير من المؤمنين ورأيت هناك شيئاً يشبه الأريكة قدر البطيخة بين يدي كل واحد ، ورأيت أحدهم يرميها نحو السماء فترجع إلى الأرض ، فرميت أنا الآخر أريكتي فرجعت ، فقلت لملك رأيته هناك: ما هذه الأشياء التي ترمى نحو السماء ؟ فقال: هذا صوم رمضان ، وهؤلاء كلهم لم يخرجوا زكاة فطرهم ، وهو لا يرفع إلى السماء إلا إن أخرج الصائم زكاة فطره ، فقلت لذلك الملك: إنه ليس عندي شيء ، فقال لي: بل عندك قبقاب في الصندوق ، وقميص ثان خلاف الذي عليك ، فبع أحدهما واشتر لك به زكاة وأخرجها ، فإن مثلك لا ينبغي له العمل بالرخص ، فسألت العيال عن ذلك القبقاب ، فقالت: عندنا قبقاب في الصندوق له سبع سنين على اسم الولد عبد الرحمن إذا كبر ، فبعته لشخص من أصحابي ، واشتريت به قمحاً وأخرجته ، ومن تلك السنة وأنا أخرج زكاة الفطر ، وتقوى بهذه الواقعة عندي حديث: «**صوم رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع حتى تخرج زكاة الفطر**»(١) فإنه ضعيف عند بعضهم.

وكذلك مما وقع لي في حق نفسي ، أنني رأيت القيامة قد قامت ، ونصب الصراط ، وأمر الناس بالمشي عليه ، فما نجا من الوقوع إلا القليل ، فقيل لي اصعد ، فقلت: لا أقدر ، فقال لي ملك: لعله يكون معك شيء من الدنيا ، فقلت: ما معي شيء فقال: بل معك ، افتح كفك ، ففتحته ، فأخرج منه قشة صغيرة كالسفاية من بين أصبع يدي اليسرى الإبهام وبين السبابة فرميتها ، واستيقظت قبل أن أصعد.

وقد طلبت مرة من الله أن يطلعني على ما يقع لي في قبري ، فرأيت أني نائم على طراحة محشوة شوكاً ، وأنا أتقلب عليه ، فلا تسأل يا أخي ما حصل لي من الألم ، فنسأل الله اللطف.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إن هذه الوقائع التي تقع للإنسان في المنام جند من جنود الله ، تقوي إيمان صاحبها بالغيب إذا كان أهلاً لذلك ، وإن كان ذلك نقصاً في حق كامل الإيمان الذي لو كشف الغطاء عنه لم يزدد يقيناً ، فإن من شرط المؤمن الكامل أن يكون ما وعده الله به ، أو توعده عليه عنده كالحاضر على حد سواء ، وكان رحمه الله تعالىٰ يقول أيضاً لا يتساهل بما يراه في المنام إلا جاهل؛ لأن جميع ما يراه المؤمن في منامه من وحي المؤمن على لسان ملك الإلهام ، وذلك أنه لما عجز عن تحمل أعباء الوحي في اليقظة ، ولم يطلق سماعه من الملك ، فأتاه به في النوم الذي هو الحس المشترك؛ لأن الحلم

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾

الغالب فيه للروحانية لا للجسم ، ومعلوم أن الأرواح من قسم الملائكة ، والملك له قوة سماع كلام الحق جل وعلا بلا واسطة ، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٥١]. ففهم من هذه الآية أنه لو رفع حجاب البشرية عن العبد لكلمه الله تعالىٰ من حيث كلم الأرواح ، وقد قال العارفون رضي الله تعالىٰ عنهم: إنما سمي الإنسان بشراً لمباشرته للأمور التي تعوقه عن اللحوق بدرجة الروح ، انتهى ، فعلم أن من كمل إيمانه لم يحتج إلى تقويته بما يراه في منامه.

وقد وقع لبعض الوعاظ أنه قال لأخي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ: إني رأيت الليلة رؤيا أرعبتني ، فقال له: وما ذاك ؟ قال: رأيت أن بيدي قنديلاً يضيء بالليل فانطفأ مني ، وأنا خائف أن يكون إيماني قد انطفأ ، فقال له أخي سيدي أفضل الدين: والله إن إيمانك ضعيف ، كيف يؤثر عالم خيالك في عالم يقظتك وحسك ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: رؤيتي للأولياء الذين ماتوا ، ومباسطتهم معي ، وذلك لحسن أدبي معهم إذا زرتهم ،ومعاملتي لهم معاملة الأحياء ، وبعضهم رأيته ناقصاً في بعض المقامات ، فتوجهت إلى الله تبارك وتعالىٰ في إعطائه كمال ذلك المقام ، فما خرجت حتى كمل وشكر صنيعي على ذلك ، ثم لحقني إلى بيتي تلك الليلة وزارني ، منهم سيدي عمر بن الفارض رضي الله تعالىٰ عنه ، ولنذكر لك يا أخي بعض وقائع وقعت لنا لتستدل بها على غيرها ، فأقول وبالله التوفيق.

زرت مرة رأس الحسين بالمشهد ، أنا والشيخ شهاب الدين بن الجلبي الحنفي ، وكان عنده توقف في أن رأس الإمام الحسين في ذلك المكان ، فثقلت رأسه فنام ، فرأى شخصاً كهيئة النقيب طلع من عند الرأس ، وذهب إلى رسول الله ﷺ ، ومازال بصره يتبعه حتى دخل الحجرة النبوية فقال: يا رسول الله أحمد بن الجلبي وعبد الوهاب زارا قبر رأس ولدك الحسين ، فقال رسول الله ﷺ: اللهم تقبل منهما واغفر لهما ، انتهى. ومن ذلك اليوم ما ترك الشيخ شهاب الدين زيارة الرأس إلى أن مات ، وكان يقول: آمنت بأن رأس الحسين هنا.

ومما وقع لي مع الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه: أنني تعوقت عن زيارته مدة فرأيته في المنام ، وقال لي: أنا عاتب عليك وعلى الشيخ نور الدين الطرابلسي الحنفي ، وعلى الشيخ نور الدين الشوني في قلة الزيارة ، فإني صرت رهين رمسي أنتظر دعوة من رجل صالح ، فقلت له: إن شاء الله نزوركم بكرة النهار ، فقال: لا بل تذهب في هذا الوقت معي.

وكنت تلك الليلة في مولد في الروضة عند سيدي أبي الفضل شيخ بيت السادات من بني الوفاء رضي الله تعالىٰ عنه ، فخرجت لزيارته ، ثم سبقني هو فتلقاني من خلف قبته مما يلي

قبر القاضي بكار ، وطلع بي إلى فوق القبة ، وفرش لي حصيراً جديداً ، ووضع لي سفرة فيها خبز لين أبيض ، وجبن أزرار ، وشق لي بطيخة من العبد اللاوي ، وكان أول طلوعه مصر ، وقال لي كل يا أخي في هذا المكان الذي ماتت ملوك الدنيا بحسرة أكلة فيه معي ، انتهى.

ومما وقع لي معه بعد ذلك أنه دخل على بيتي ، وقال: قد جئت آخذك تسكن عندي أنت وعيالك ، فقلت له: إن شاء الله تعالىٰ في غد ، فقال: بل هذا الوقت ، فحمل إبنتي رقية على كتفه ، وأخذ بيد أختها نفيسة ، وخرجت معه أنا وأمهما حتى أدخلنا القبة ، فأسكنني بين قبره وبين قبر أم السلطان الكامل المدفونة خلف ظهره ، فغار منا الخدام ، فقال لهم: هذا لا يزاحمكم في شيء من الدنيا فرجعوا عني ، ثم انفتحت القبة من أعاليها كالباب فنزل منه شيء أبيض كالقطن أو كالجص المعجون فلازال ينزل ويتراكم حتى صار كوماً عند رأس الإمام ، فقلت له: ما هذا ؟ فقال: هذا سكينة الحياء من الله تعالىٰ ، فمن نظر إليها رزقه الله تبارك وتعالىٰ الاستحياء من الله حق الحياء ، فصرت آمر كل داخل بالنظر إليها ، ثم استيقظت ، انتهى.

ومما وقع لي مع السيدة نفيسة رضي الله تعالىٰ عنها أنني ذهبت لزيارتها مع الفقراء ، فوقفت عند حذاء الباب الأسفل الذي كتب عليه التاريخ ، ولم أدخل حياء منها ، ودخل جميع الفقراء ، فجاءتني تلك الليلة ، وقالت لي: إذا جئت لزيارتي فادخل واجلس تجاه وجهي ، فقد أذنت لك في ذلك ، من ذلك اليوم وأنا أدخل وأجلس تجاه وجهها.

قال سيدي الخواص رحمه الله تعالىٰ: وأصل دفنها كان بالمراغة قريباً من القبر الطويل في الشارع ، ولكن ظهرت في هذا المكان الذي كانت تتعبد فيه لتعلق قلبها به ، وكان الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه يؤم بها في صلاة التراويح.

وكذلك وقع لسيدي أحمد بن الرفاعي رحمه الله تعالىٰ ، فله قبر في بلده أم عبيدة ، وقبر آخر في الصحراء التي كان يتعبد فيها ، والناس يزورون هذا القبر وهذا القبر ، ولكن لا يحصل لهم الهيبة والرعدة إلا عند قبره الذي في البرية.

وأخبرني الشيخ أحمد الخنازيري الضرير أنه بات عنده في مشهده الذي في البرية ، فقال له الخادم: لا تقدر تنام هنا من الهيبة التي تقع في الليل ، فقال: توكلت على الله ، فلما دخل وقت العشاء ارتعد من الهيبة حتى كادت مفاصله تتقطع ، وصارت السباع تجأر خارج المقام ، وأبوابه الحديد يحس بها تفتح وترد ولها صوت عظيم ، قال: ثم إني أحسست بشخص جلس عندي ، وقال: ليلة مباركة ، أما تقرأ القرآن أقرأ معك ؟ فقلت له: نعم: فقرأت أنا وإياه من سورة النحل إلى سورة النجم ، فلما قرب طلوع الفجر أتاني برغيفين وإناءين في أحدهما لبن دسم ، وفي الآخر عسل نحل ، فأكلت حتى شبعت ، فطلع الفجر فلم أجده ، قال: ثم إن الخادم جاءني ، وقال: خاطري معك في هذه الليلة فإن أحداً لا يقدر ينام هنا أبداً ، قال:

فقصصت عليه القصة ، فقال: هذا الذي قرأ معك وأطعمك هو سيدي أحمد ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: حكم باب البرزخ حكم التيار الذي يدك فيه إنسان فيغطس ثم يطفو من موضع آخر، كما وقع لسيدي أحمد بن الرفاعي، والسيدة نفيسة ، ثم إذا نفخ في الصور يوم القيامة يخرج من موضع نزل ، انتهى.

ومما وقع لي مع سيدي عمر بن الفارض رضي الله تعالىٰ عنه ، أنني ذهبت لزيارته يوماً وقت القائلة ، فناديت الخادم فلم يجبني ، والباب مغلق ، فقرأت الفاتحة من على الباب ورجعت ، فجاءني تلك الليلة وعليه عمامة عظيمة وثوب صوف أخضر ، فصلى عندي في مدرسة أم خوند ركعتين ، وقال لي أعذرني يا أخي فإني ما كنت حاضراً ، ولكن ، واحدة بواحدة جزاء ، وكنت لم أسمع بنصف هذا البيت المذكور قبل ذلك ، فعرفت شدة عزمه وفتوته ، وعلمت أنه من الأولياء الأكابر لإطلاقه وسراحه وعدم تقيده بالمكث في قبره ، بل هو كالأحياء يذهب حيث شاء ويرجع إلى داره.

وكذلك ذهبت مرة إلى سيدي غانم رحمه الله تعالىٰ لأزوره ، فقال لي أخي أفضل الدين ارجع فإن الشيخ الآن في وقعة رودس له خمسة عشر يوماً غائباً ، فرجعت ، انتهى.

ومما وقع لي مع سيدي أحمد البدوي رضي الله تعالىٰ عنه أنه جاءني ودعاني أيام خروج الناس من مصر إلى مولده ، وقال: إن زرتني طبخت لك ملوخية ، فلما ذهبت إلى طندتاء طبخ لي جميع من ضيفني فيها ملوخية مدة ثلاثة أيام من غير تواطؤ ، تصديقاً لكلام الشيخ في المنام ، وصار كل من دخل القبة يبدأ بالسلام علي قبل زيارة الشيخ حتى استحييت منه ، وكانت أم ولدي عبد الرحمن لها معي مدة سبعة شهور وهي بكر ، فجاءني وقال: اختل بها في ركن قبتي الذي على يسار الداخل ، وأزل بكارتها ، ففعلت ، فطبخ لي حلواء وملوخية حتى كفى أهل المولد ، فلما رجعت إلى مصر حصل ما أشار به في تلك الليلة.

ومما وقع لي مع سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله تعالىٰ عنه ، أنه جاءني وقال لي: زرني لله تعالىٰ ، فزرته ، فخرج إليّ من قبره ، فنزع عمامته وألبسها لي ، ووضع عمامتي على ركبته ساعة ، وقال: قد نزلت لك عما بيدي من قراءة الحديث في الحجرة النبوية ، وتدريس العلم ، فحصل لي بذلك أنس عظيم ، انتهى.

ومما وقع لي مع سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ: أنني أكثرت من الترحم عليه في مجلس ، فرأيته تلك الليلة وهو حريص على تقبيل رجلي ، وأنا حريص على منعه من ذلك ، ثم غلبني في غفلة وقبل باطن رجلي ، فاستيقظت ونعومة فمه في بطن رجلي.

وكذلك أكثرت من الترحم على سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالىٰ ، وقلت: إنه كان ختام نظام الطريق في مصر ، فرأيته تلك الليلة وقد دخل على الدار ، ففرشت له حصيراً ، ثم

أتيت بصحن صيني فيه طعام حلوى ملتوت بأنواع من الطيب ، فصرت ألقمه من ذلك وهو متبسم .

وكذلك أكثرت من الترحم على سيدي محمد الشناوي ، فرأيته وقد فرش لي سجادة خضراء وأجلسني عليها ، وجلس بين يدي ، وقبل ركبتي .

ومما وقع لي مع أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ : أنني رأيته دخل تحت ذيلي ، وصار يعصر منه ماء ورد ممسك على رأسه وعمامته كأنه يتبرك بي .

ورأيت مرة الشيخ نور الدين الشوني رحمه الله تعالىٰ ، وقال لي : مقصودي أن أكون شعرة من جسدك الآن ، انتهى ، كل ذلك لكثرة الترحم عليهم .

وكذلك مما وقع لي مع سيدي محمد بن عنان رحمه الله تعالىٰ : أنني أردت ليلة أن أمد رجلي ، فصرت كلما أمدها أجدها تجاه أحد من أولياء الأقطار ، فنمت جالساً فأتاني سيدي محمد ، وقال لي : مد رجلك إلى ناحيتي ، فاستيقظت ونعومة يده في رجلي يسحبها ناحيته ، انتهى .

فانظر يا أخي ما يثمره الأدب مع الأولياء ، ولو أنني كنت قليل الأدب معهم ما باسطوني هذه المباسطة ، ولا زاروني ، ولما أخبرت الشيخ نور الدين الشوني بعتب الإمام الشافعي عليه في قلة زيارته ، وكان عنده الشريف عرار صاحب السلطان بركات بمكة ، فقال للشيخ : هذه أباطيل ، فإن الشافعي لا يعتب على مثلك ، فرأى عرار تلك الليلة الإمام الشافعي وهو يقول : نعم أنا أعتب عليه وعبد الوهاب صادق ، فجاءني من بكرة النهار ، واستغفر ربه من جهتي ، فالحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : عدم تشوف نفسي إلى شيء من مقامات الأولياء التي لا يثاب العبد عليها ، مما يتعلق بالاطلاع من طريق الكشف على أوقات حوادث الزمان المستقبلة كطلوع النيل هذه السنة كذا كذا ذراعاً ، أو نزول المطر ، أو حدوث الوباء ، أو وقت ارتفاع القرآن ، أو إبطال العمل بالشريعة ، أو وقت جلوس الشياطين على كراسي الوعظ يعظون الناس ، ولا يعرف ذلك العامة ، أو وقت تسافد[1] الرجال والنساء تسافد الحمير ، أو وقت خراب مصر ، أو انقراض دولة بعض الملوك ، ونحو ذلك مما وردت به الأخبار .

وقد روى الترمذي وغيره عن حذيفة رضي الله تعالىٰ عنه «**أن رسول الله ﷺ خطب الناس ، فذكر في تلك الخطبة ما كان وما يكون إلى قيام الساعة ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه**»[2]

---

(١) السِّفاد : نزو الذكر على الأنثى . اهـ . القاموس المحيط مادة (سفد)

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩١) ، والترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابة بما هو كائن إلى يوم =

فإن وقع لأحد من الأولياء مكاشفة بشيء من حوادث الزمان المستقبلة سلمنا له ذلك ما لم يعارض شيئاً من شرعة ﷺ ، ولعل ما كوشف به ذلك الولي من جملة ما نسيه الناس ، لقوله: «ونسيه من نسيه» انتهى.

وصاحب هذا المقام لا أحد أتعب قلباً ولا جسماً منه؛ لاطلاعه على الأحوال قبل وقوعها ، ولذلك قالوا أشجع الناس إذا مسك وهدد انجزع قلبه؛ لأنه ليس له إقدام ولا هجوم إلا في أول مرة إذا دهمه العدو على غفلة ، ومن هنا كان ﷺ أكثر الناس هماً وحزناً وغماً لأجل ما أطلعه الله تعالىٰ عليه من الشدائد والأهوال التي تصيب أمته إلى قيام الساعة ، وكان يقول كثيراً: «والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»[1] ولما أخبره جبريل بيوم قتل ولده الحسين كسفت الشمس حتى بدت النجوم ، فظن ﷺ أن الساعة قد قامت ، فمن ذلك اليوم لم ير ضاحكاً حتى مات ﷺ ، وقد بسطنا الكلام على ذلك في « المنن الوسطى » ، فراجعه ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: رؤيا جماعة من الحكام وغيرهم في المنام أموراً تزيدهم فيَّ اعتقاداً ، سترة لي بين العباد مع أنه لا سر لي ولا برهان على كوني صالحاً.

فمنهم الأمير محمد الدفتردار ، كان جماعة يجتمعون عليه كل ليلة ، فيجرون له قوافي الناس من العلماء والفقراء وغيرهم ، فذكروني ليلة بسوء ، فقبل ذلك الدفتردار ، فرأى تلك الليلة أن عسكراً عظيماً دخل إلى مصر ، فوقف مَلِكه على باب النصر ، وقال: لا ندخل حتى تشاوروا صاحب مصر ويعطينا المفتاح ، فقالوا له: من هو ؟ فقال: فلان ، فذهب قاصده إلي فلم يجدني ، فوجد ولدي عبد الرحمن ، فأرسل لهم المفتاح ، فأصبح الدفتردار معتقداً ، وجاءني هو وسيدي أحمد الراشدي ، ولم يزل معتقداً حتى مات.

ووقع مثل ذلك للشيخ نجم الدين الكبري لما جاء ملك الفرنج لخراب بغداد ، وقف خارج بغداد ، وقال: إني أشم في هذا البلد رائحة محمدي كبير ، فاستأذنوه فقال الشيخ نجم الدين ليدخل يضرب هذه الرقبة ، ثم يضرب رقبة فلان وفلان ، ثم ثلثي أهل البلد ، جف القلم بما هو كائن ، فهي خراب إلى الآن ، ورموا كتب المجتهدين في الدجلة ، حتى صارت

= القيامة (٢١٩١) ، وأبو داود ، كتاب الفتن والملاحم ، باب ذكر الفتن وولائلها (٤٢٤٠).

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب الصدقة في الكسوف (١٠٤٤) ، ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود أو نحوهما (٤٢٦) كلاهما بدون قوله: «ولما تلذذتم إلخ» ، وبهذه الزيادة أخرجه الترمذي ، كتاب الزهد ، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» (٢٣١٢) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الحزن والبكاء (٤١٩٠) ، وأحمد في مسنده (٢١٠٠٥).

الخيل تمر عليها إلى ذلك البر كالجسر ، انتهى.

ومنهم سيدي محمد بن الأمير شيخ سوق أمير الجيوش ، وأخوه سيدي الشيخ شرف الدين ، فأما محمد فإنه أشرف على الموت وهو بمكة ، وأوصى فرآني خرجت له من الحائط ، وأخذت بيده ، وقلت له: قم أنت طيب ، فاستقل من ذلك المرض ، وذكر أن رؤيته لي كانت يقظة ، فإن صح ذلك فهو في غاية الاعتقاد؛ لأن من كان اعتقاده ضعيفاً لا ينهض به أن يراني في اليقظة.

وأما شرف الدين فمرض وأنا مسافر بمكة حتى أشرف على الموت ، فرأى نفسه عائماً في الخليج تحت قنطرة باب القوس ،وهو يعالج التيار ليخرج من القنطرة ، فذكر أني أخذت بيده ، فأخرجته من تحت القنطرة ، وخلص من ذلك المرض.

ومنهم سيدي يحيى الورَّاق ، لما سافر إلى الحجاز رقدت بغلته في الطريق من شدة التعب ، فلما أيس منها رآني وأنا أقيمها يقظة ، فقامت طيبة وحج عليها ، فلما دخل مكة كان يراني كل قليل وأنا طائف معه يقظة ، ثم إنه حجب عن رؤيتي ، فأرسل لي كتاباً يعلمني فيه بذلك ، ويسأل عن سبب انقطاعي عن الطواف معه ، وذلك كله دليل على صحة اعتقاده فيّ ، فإن الاعتقاد إذا صح في فقير صار مريده يراه أيّ وقت شاء ولو كان بينه وبينه مسيرة كذا كذا سنة.

ومنهم الشيخ عبد الله أحد أصحاب سيدي عمر النبتيتي نفعنا الله ببركاته ، كتب لي أنه رآني بحضرة رسول الله ﷺ وهو يقول للإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه: ألبس عبد الوهاب طاقيتي هذه ، وقل له يتصرف في الكون ، ما دونه مانع ، انتهى وكان عند الشيخ عبد الله هذا وقفة في كوني من خدام الفقراء ، فازداد اعتقاده إلى الغاية.

ومنهم الأمير عامر بن بغداد ، كان عنده قلة اعتقاد في الفقراء ، إلا أنه كان عنده وقفة فيّ ، فرآني بحضرة رسول الله ﷺ وهو مقبل عليّ يكلمني ، فصار عامر كلما يريد أن يقبل يد رسول الله ﷺ يجدني حاجباً له عنه ، وكان يقول: لا يحتاج أحد إلى الوسايط في ضرورة ، والأصل القدرة الإلهية ، فمن تلك الرؤيا صار يعتقد فيّ الصلاح ، ويقضي حوائج الناس التي أكاتبه فيها.

ومنهم الشيخ سعد الدين الصناديدي ، كان من أشد المنكرين عليّ في حضوري مولد سيدي أحمد البدوي ، ويقول: كيف يحضر فلان المولد وفيه هذه المنكرات ، فرأى النبي ﷺ وقد ضمني إلى صدره ، وثديي يشخبان لبناً حليباً ، والناس يشربون ، إلى أن رَوي أهل المولد كلهم ، وسيدي أحمد البدوي واقف تجاه وجه رسول الله ﷺ يقول بأعلى صوته من أراد المدد فليزر عبد الوهاب ، ثم استيقظ ، وصار من أكثر المعتقدين

وهذه الأمور كلها ما علمت بها إلا من أصحابها ، وهو من جملة ما سترني الله تعالىٰ به بين العباد ، فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: توفيقي للعمل على حسب موافقة وردي للمأثور ، فلا أترك موافقتي في وردي لعمار السموات من الملائكة ، بل ألتزمها ، ولا أعلم الآن أحداً من أقراني ورده في الليل مشتمل على ما يسبح به الملأ الأعلى أبداً ، وصورة ترتيب وردي أني أبداً بقولي سبحان من سبقت رحمته غضبه ، لما ورد في الطبراني وغيره: «**أن صلاة الحق تعالىٰ سبقت رحمتي غضبي**»[1] فأقول أنا سبحان من سبقت رحمته غضبه ألف مرة .

ثم أقول: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم استغفر الله ، ألف مرة .

ثم أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ألف مرة . لما ورد أن هاتين الصيغتين يحبهما الله عز وجل .

ثم أقول: أشهد أن لا إله إلا الله واشهد أن محمداً رسول الله ألف مرة ، ثم أقول: اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، ألف مرة . لما ورد أنها عضلت على الملكين فلم يعرفا قدر ثوابها ، فقال الله تعالىٰ اكتباها كما قال عبدي وعلي جزاؤه بها .

ثم أقول: جزى الله سيدنا ونبينا محمداً ﷺ عنا خيراً بما هو أهله ألف مرة . لما ورد أن من قالها مرة واحدة أتعب سبعين كاتباً ألف صباح .

ثم أقول: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، وسبحان الله وبحمده رضا نفسه ، سبحان الله وبحمده زنة عرشه ، سبحان الله وبحمده مداد كلماته . لما ورد أن كل مرة منها تعدل تسبيح العبد طول النهار .

ثم أقول: ألف مرة سبحان من أظهر الجميل ، وستر القبيح . لما ورد أنها تسبيح ملائكة الستور ، ثم أقول: ألف مرة سبحان العلي الديان ، سبحان الله الشديد الأركان ، سبحان من يذهب الليل ويأتي بالنهار ، سبحان من لا يشغله شأن عن شأن ، سبحان الحنان المنان ، سبحان الله في كل مكان . لما ورد أنها تسبيح ملك نصفه من نار ، ونصفه من ثلج .

ثم أقول: ألف مرة الحمد لله بجميع محامده كلها ما علمت منها وما لم أعلم ، على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم أعلم ، عدد خلقه كلهم ما علمت منهم وما لم أعلم . لما روي في الأثر أن شخصاً قالها يوم عرفة مرة ، فلما حج العام الثاني شرع يقولها ، فناداه الهاتف: يا فلان من العام الماضي إلى الآن نكتب لك في ثواب هذه التحميدة فما فرغنا .

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ (٧٥٥٣) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى (٢٧٥١) .

ثم أقول: اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم ألف مرة ، لما ورد أنها صلاة ملائكة خلف البحر المحيط ، لا يفترون عنها ليلاً ولا نهاراً ، ذكره الثعلبي في كتاب العرائس.

ثم أقول: سبحانك اللهم وبحمدك على عفوك بعد قدرتك ، سبحانك اللهم وبحمدك على حلمك بعد علمك ، لما ورد أن الشق الأول تسبيح نصف حملة العرش ، والشق الثاني تسبيح النصف الآخر ، يرد ملكان على ملكين ، أقولها ألف مرة.

ثم أقول: ألف مرة لا إله إلا أنت ، يا حي يا قيوم؛ لأنها مجربة لحياة القلب.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: ينبغي للعبد إذا ضاق عمره ، أو فاته القيام من أول ما ينصب الموكب الإلهي ، أن يبدأ بجوامع الكلم من الآيات والأخبار ، فيصلي بها ، ويسبح بها؛ لأن الله تعالىٰ ما أخبرنا بفضلها إلا ليكون اهتمامنا بها أكثر ، وقد ورد أن آية الكرسي تعدل ألف آية ، وكذلك آخر سورة الحشر تعدل ألف آية ، وكذلك ورد أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، يعني لو قسم أثلاثاً ، وكذلك ورد أن قل يا أيها الكافرون تعدل نصف القرآن ، يعني لو قسم أنصافاً ، ويقاس ما ورد أنه يعدل ربع القرآن ، أي: لو قسم أرباعاً ، فينبغي مراعاة البداءة بذلك عند ضيق العمر أو الوقت ، فكأن من يصلي بآية الكرسي ، أو آخر الحشر صلى بألف آية ، وذلك نحو سبع عشرة حزباً فإني عددت الآي من أول البقرة إلى نحو نصف سورة الأنفال فكان ألف آية وذلك نحو سبع عشرة حزباً ، وكان الذي قرأ قل هو الله أحد ثلاث مرات في كل ركعة قرأ القرآن كله ما عداها فإذا قرأها رابعة فكأنه قرأ القرآن كله وزيادة ، مشتملاً على سورة قل هو الله أحد ، وقس على ذلك ، ومقادير الثواب لا تدرك بالقياس ، فنقولها كما أخبر الشارع ﷺ ونؤمن بما وعد على ذلك من الثواب ، فإن للحق أن يجعل الثواب الجزيل في العمل الذي هو أقل تعباً من غيره ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: إيماني بتطور أعمالي صوراً قبيحة أو حسنة بحسب طاعاتي ومعاصيّ ، فكأني أشهدها محسوسة ، وكثيراً ما أشهدها حال بروزها على حالة ثم تتغير وهي صاعدة من خير إلى شر وعكسه ، فأشكر الله تعالىٰ وأستغفره.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا يكمل إيمان العبد الكمال المتعارف بين القوم حتى يصير يشهد أعماله وهي متطورة صاعدة إلى محل استقرارها من الأفلاك ، من عرش أو لوح أو قلم أو كرسي أو سدرة كما هو معروف عند أهل الكشف ، وسمعته مرة أخرى يقول: لا يكمل إيمان العبد الكمال المتعارف بين القوم حتى يصير يشهد تطور كل حرف يقوله من القرآن ، أو غيره ملكاً على صورة حاله في الإخلاص أو الرياء من حسن أو قبح ،

ولا يخلو ذلك من موافقته لأحكام الدين الخمسة فإن المندوب يقارب الواجب في الحسن ، والمكروه يقارب الحرام في القبح ، فالملك الحسن الصورة يصعد مستغفراً لمن نطق به ، والملك القبيح يصعد لاعناً من نطق به ، وسمعته يقول: إذا كمل جلاء قلب العبد من الشهوات المذمومة صار يرى تطور الآيات وهي صاعدة ، حتى أن بعضهم كان يسأل الآية إذا غلط فترد عليه الآية الغلطة ، قال الشيخ وقد رأيت الآية مرة تطورت في صورة أبي قردان ، فردت على الغلطة ، فقلت له: يا سيدي القرآن كلام الله ، فكيف قبل الصورة ؟ فقال: الذي تطور إنما هو تلاوتي لا المتلو ، انتهى.

ويؤيد ذلك حديث: «**إذا قال العبد لا إله إلا الله خرج من فيه طائر أبيض فيرفرف تحت العرش ، فيقال له: أسكن ، فيقول: وعزتك لا أسكن حتى تغفر لقائلها**»[1].

ويؤيد تطور المعاني أيضاً ما أخبرني به أخي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ: أنه كان يرى النوم إذا جاءه كالسحابة أو كالدخان فعندما يصل إليه يحصل له النوم ، وكذلك أخبرني أنه رأى الرحمة وهي نازلة على جماعة يذكرون الله تعالىٰ ، انتهى.

وكذلك وقع لي أنني رأيت السكينة والحياء وهما نازلتان على قبر الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه كالقطن الأبيض.

وأخبرني الشيخ أحمد السروي أنه رأى الملائكة بأقلام من نور يكتبون كل حرف ، يلفظ به المصلون على رسول الله ﷺ في صحيفة ، وقال لي مرة أخرى: رأيت مرة كل حرف نطق به العبد يتطور ملكاً يذكر الله تعالىٰ بذلك الذكر ، ثم يتطور كل حرف من أذكار الملك ملكاً كذلك ، ثم يتطور من أملاك الدور الثالث ملائكة ، وهكذا فلو كشف للعبد لرأى الجو مملوءاً ملائكة من تطورات أفعاله وأقواله ، انتهى.

واعلم أن هذا المشهد لا يكون إلا لمن صفت نفسه من كدورات البشرية ، كما أشرنا إليه آنفاً ، حتى صار باطنه كباطن الملائكة ، ومن لم يكن كذلك فهو محجوب عن مثل ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: محبتي في الأعمال الصالحة رغبة في مجالسة الحق تعالىٰ فيها؛ لأنه أخبرنا أنه لم يجالس إلا من ذكره ، وكأنه تعالىٰ يقول: من طلب مجالستي في غير ما شرعته لم يصح له ذلك ، وكثيراً ما يقع لي الاستغفار من طلبي مجالسة الحق تعالىٰ في شيء من العبادات ، وأحب الحجاب عن هذا المشهد إجلالاً لله تعالىٰ عن مجالسة مثلي ، وكثيراً ما أحب العبادات من حيث علمي بأن الله تعالىٰ يحب ذلك لي ، ليفيض عليّ من ثوابه إظهاراً لفضله عليّ ، وإلا فأنا على يقين من أني لا أملك معه شيئاً في الدارين ، وأعظم أحوال

---

(١) لم أجده.

العبد مع ربه عز وجل أن يطلع الحق تعالىٰ على قلبه فلا يرى فيه محبة لشيء يشغله عنه ، فافهم يا أخي ذلك ترشد والله تعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: احترامي لكل من رأيته يذكر الله تعالىٰ ، أو يصلي على رسوله ﷺ؛ لأنه صار بذلك من جلساء الحق جل وعلا ، أو من جلساء رسوله ﷺ ، فلو أني احتجت لاستعماله في حاجة من حوائجي ، وهو مشغول بما ذكر ، لتكلفت الصبر عن تلك الحاجة أو أتقاضاها بنفسي إن أمكن ، ولا أستعمله بما يشغله عما هو فيه أبداً ، أدباً مني مع الله تعالىٰ ، ومع رسوله ﷺ ، ولو أن ذلك الشخص علم احتياجي ، وترك ما هو فيه للقيام بمصلحتي لمنعته ، ولو أنه فارق ذلك المجلس وآذاني لا أقابله بنظير ذلك أبداً أدباً مع الله تعالىٰ ، ومع رسوله ﷺ ، وربما غفر الله تعالىٰ له كل معصية جناها فيصير مغفوراً له ، ومن كان مغفوراً له لا ينبغي مؤاخذته ، ثم إن طلبت العوض على ذلك طلبته من سيده تعالىٰ لا من العبد ، وتأمل يا أخي من يجالس الملوك في الدنيا كيف يحترمه الناس ، ويخافون من تغير خاطر السلطان عليهم بسببه ، ولو فعل معهم ذلك الجليس ما فعل لا يقابلونه بشيء إكراماً للسلطان ، فالله أولى وأحق ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم دعائي على شريف إذا ظلمني فضلاً عن كوني أشكوه من بيوت الحكام ، وإذا تخاصم الشرفاء مع بعضهم بعضاً لا أنتصر لأحد منهم دون الآخر، بل أطلب الصلح بينهم لا غير ، وكثيراً ما أتوجه إلى رسول الله ﷺ ، وأقول: يا رسول الله خاطرك على أولادك يصلح الله بينهم.

وقد بلغني أن بعض المشايخ توجه إلى الله تعالىٰ في قتل الشريف أبي نمي سلطان مكة؛ لأجل ولاية أولاد عمه بعده ، فقلت: يا سبحان الله ، لا بد للمتوجه إلى الله من واسطة رسول الله ﷺ ، فكيف يقول: يا رسول الله أقتل ولدك فلاناً لأجل ولدك فلان ، انتهى ، فالله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حصول الفرح والسرور إذا جفاني أبناء الدنيا من الأمراء والأغنياء ، وكل من لا نفع فيه في الدنيا والآخرة ، فإن عمري قد ضاق عن مباسطة الناس الذين أكثر كلامهم لغو وهذيانات ، فأسر الأيام عندي يوم لا يدخل عليّ فيه أحد من هؤلاء ، وأيضاً فإن العبد كلما كثر تردد الناس إليه كثرت عليه حقوقهم ، مع خوف الإنسان من أمثالنا من الوقوع في الإعجاب بنفسه ، وذلك سم قاتل للحمقى من أمثالنا ، فإنه يزيد مثلنا حجاباً عن ربه عز وجل لعسر إقبال أمثالنا على الحق تبارك وتعالى والخلق معاً ، اللهم إلا إن كان يراهم واسطة بينه وبين ربه جل وعلا من غير وقوف معهم ، فهذا لا يحرج عليه إن شاء الله تعالىٰ في إقباله عليهم ، ولا في تكدره لترك زيارتهم له؛ لأن رضا الواسطة وغضبها عنوان

على رضا الحق تعالىٰ وغضبه على العبد ، وقد جعلت في وردي أني أسأل الله تعالىٰ ألف مرة أن يحبب نبيه ﷺ فيّ ليأخذ بيدي في شدائد الدنياوالآخرة ، فإنه ﷺ هو الواسطة العظمى لجميع الخلق دنيا وأخرى ، فمن أحبه واعتنى به لم يلحقه سوء إن شاء الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة.

فعلم أن من رأى شخصاً مشهوراً من الصالحين يتكدر من إخوانه إذا انقطعوا عن زيارته وجفوه، فليس ذلك من حيث الاستئناس بهم بحكم الطبع ، وإنما ذلك من حيث كون محبة الصالحين للشخص ، عنواناً على رضا ربه عنه ،وعدم رضا الحق تعالىٰ عن عبده لا يطاق حمله ، ولذلك طمن الحق تعالىٰ قلب نبيه ﷺ بقوله : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى : ٣].
وأنشد سدي علي بن وفاء رحمه الله تعالىٰ من جملة أبيات :

أنـــت الحيـــاة فليـــس عنـــك تصبـــر وجفـــاك مـــوت مـــا عليـــه تجلـــد

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا ينبغي لفقير أن يتكدر من انقطاع الناس عن التردد إليه ، والغفلة عنه ، بل اللائق به الفرح؛ لأن أكثر صحبة الناس اليوم تشغل الفقير المبتدىء ، عن ربه عز وجل ، ويستأنس لذلك من طريق الإشارة بقوله تعالىٰ في القرآن العظيم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. فليمتحن من يدعي محبة الوحدة نفسه بهذا الميزان ، فإن وجد نفسه تشتاق إلى رؤية من لا تذكره بالله تعالىٰ رؤيته ، فليعلم أنه كاذب في دعواه ، قال: ومن تأمل حال أكثر المتزاورين اليوم من الفقراء وغيرهم ، فربما وجد زيارتهم معلولة ، انتهى ، فالله تعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة المعتقدين فيّ من الفلاحين وأولادهم مع أنني من بلادهم ، وقل أن يقع ذلك الآن لأن أكثر المنكرين على العبد يكونون من أهل بلده وأهله وجيرانه ، ولذلك كان من أول ابتلاء ابتلى اللهتعالىٰ به عباده إرساله الرسل إليهم من جنسهم ، لينظر تعالىٰ في الخارج ـ كما هو مقرر في علم العقائد ـ هل يطيعونهم أو يخالفونهم ، وهو العالم بسرائرهم قبل أن يخلقهم ، فغالب الأهل والمعارف يتخلفون عن الدخول تحت طاعته ، وقد قالوا : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. وكذلك اليهود ، كانوا يتمنون أن يدركوا رسالة محمد ﷺ ، فلما أدركوه قام بهم داء الحسد ، وكفروا به ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وبلغ من اعتقاد الفلاحين أن أولادهم يحلفون بي ، ويقولون لبعضهم: وسر سيدي عبد الوهاب ما فعلت الشيء الفلاني ، وسره ما قلت الشيء الفلاني ، ونحو ذلك ، فيحلفون بي كما يحلفون بالأشياخ المدفونين في التوابيت ، مع أني لست بشيخ ، وإنما الله تعالىٰ لم يزل

يسترني بين عباده بوجوه شتى ، فله الفضل والمنة على سترتي بين عباده ونرجو من فضله أن يسترنا بينهم كذلك يوم القيامة .

وكان بعض السلف يقول: لو علم الناس ما نفعله في بيوتنا لرجمونا ، منهم الحسن البصري ، ومالك بن دينار ، وبشر الحافي ، والفضيل بن عياض ، فكانوا يقولون: لو اطلع الناس على ما يفعله أحدنا خلف باب داره مثلاً ما جالسونا ، وكان مالك بن دينار يقول: والله لو كان أحد يشم رائحة ذنوبي ما استطاع أن يجلس إلي من شدة نتني ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم اهتمامي بشيء من أمور الدنيا العادية إلا بنية صالحة ، فإذا لم تحضرني نية صالحة تباعدت عن ذلك ، ولذلك لم يقع لي قط أنني حضرت مطبخ طعام يعمل عندي ، من ختان أو عرس أو عقيقة ، ولا سألت الواقفين عليه عن شيء مما صنعوا إلى أن يفرغ ذلك الطعام ، وذلك المهم ، وربما لم أحضر ذلك الجمع ، كما أني لا أدعو أحداً من وجوه الناس إلى حضور ذلك الطعام أبداً ، وإنما هم يحضرون من غير طلب ، وهذا خلق غريب ، وغالب من يعمل ذلك يصير في حملة عظيمة بسبب ذلك ، حتى يصير يلهث ، ويدخل المطبخ ويخرج ، ويصيح على الطباخين وعلى الواقفين إذا أعطوا أحداً شيئاً من الطعام قبل أن يحضر الناس ، وربما تشوش بعض الناس من ذلك ، وحلف أنه لا يأكل له طعاماً حين رآه يتشوش ممن يأخذ له شيئاً من المامونية أو السنبوسك ، وغالب من يعمل المهمات يغفل عن الله تعالىٰ ، حتى يخرج ليلة المطبخ أو يوم الوليمة الصلاة عن وقتها بسبب ذلك ، أو يغفل عن قراءة أوراده ، وإن قدموا أطايب الطعام في السماط للفقراء دون الأغنياء تكدر لذلك وغاب عنه أن ذلك أكثر أجراً له من الأغنياء ، فإن الفقراء لا ينظرون المامونية الحموي إلا مع الناس ، أو في النوم ، بخلاف الأغنياء والأكابر ، وكل ذلك من شدة الاهتمام بأمر الدنيا وأهلها .

ومن عدم اهتمامي بأمر ذلك الطعام أني أوصي الواقفين عليه أن لا يردوا أحداً جاء يطلب طعاماً مطلقاً غنياً أو فقيراً من حين يستوي ، ولا أتوقف على حضور الناس ، ونصب السماط ، وأقول برفع صوت من سبق إلى مباح فهو له ، وقد أبحنا للناس الأكل منه من حين صلح للأكل ، وهذا الأمر أفكه وأوسع لجميع الحاضرين من سكوت صاحب الطعام ، فيتصرف كل واحد في ذلك الطعام بالأكل وغيره ، كأنه ملكه بخلاف من يحجر على الحاضرين ، ويوقف شخصاً بعصا يضرب الناس ، فإن أحدهم يصير في غاية الضيق والحرج ، فينقص كمال السرور للحاضرين ، فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم وجود أحد من الزوالق حولي ، مع شهرتي

بالاستحقاق للتصدر لإرشاد الفقراء بمصر وقراها ، وقل فقير يشتهر إلا ويكون حوله كل واحد يخلي له إقليم ، ومن مفاسدهم أنهم يطرون من يكونون حوله ، ويبالغون في تعظيمه ورفع مقامه على سائر فقراء بلده أو إقليمه ، ويقبلون يده ورجله ، ويقفون بين يديه كما يفعل بالأمراء فربما مال الفقير إلى ذلك وأعجب بنفسه فهلك مع الهالكين ، ومن مفاسدهم أيضاً أنهم يؤذون من كان في صحبة شيخهم إذا اجتمع بغير شيخهم ، فينفر منهم ومن شيخهم؛ لأن غالب من يتردد للفقير ، إنما هو معتقد من بعيد ، وما ثم من يثبت له مرتبة الإرادة إلا القليل.

وقد رأيت جماعة ضربوا من اجتمع بغير شيخهم ضرباً مبرحاً ، ولا يجوز لهم ذلك في ملة من الملل ، ورأيت من تضاربوا بالقباقيب والنعال ، وحصل بينهم فتنة إلى أن وصل الأمر إلى اصطنبول ، ولم يزل الفقير في كل عصر كالبحر يرده البر والفاجر ، وقد أجمع القوم على أن الصادق لا يفرح بالمقبل ، ولا يحزن على المدبر إلا بوجه شرعي ، وأنشد سيدي إبراهيم المواهبي رحمه الله تعالىٰ:

كل من جاء يجي ... وكل من راح يروح
ليس يثبت هنا ... غير أهل الفتوح

وكان سيدي أحمد بن عقبة رحمه الله تعالىٰ يقول: كان شيخي لا يحجر عليّ في الاجتماع بغيره ، ويقول: دونك وزيارة الفقراء ، وكل من وردت عليه ، فقل له: هل للفقير عندكم فتوح ، فإن قال: لا ، فاذهب وإلا فأنخ عنده ، حتى تأخذ فتوحك ، انتهى.

وهذا الأمر أشبه بأحوال السلف الصالح رضي الله تعالىٰ عنهم ، وقد برز في عصرنا هذا شخص من أكابر أهل الفتوح ، ولكن حوله جماعة يؤذون الناس بلسانهم فينفرون الناس عن الاجتماع بشيخهم ، فيفوتوه كمال الأجر والثواب ، ولو أنهم عقلوا الأمر لرغبوا الناس في حضور مجلس شيخهم ، وألفوا عليه الناس ، فحصل لشيخهم الخير؛ لأن بالاتباع كمال الشيخ ونقصه ، وبهم ربحه وخسرانه ، وقد سمعت بعضهم يقول كثيراً لولا الزوالق الذين حول الشيخ الفلاني لكنت لا أفارق خدمته ، ومن مفاسدهم أيضاً أنهم يبالغون في تعظيم شيخهم بحضرة من لا يعتقده ، فيزداد نفرة منهم ومن شيخهم ، لا سيما إن سمعهم يقولون: شيخنا هو القطب بيقين.

فكان من فضل الله عليّ منع أصحابي أن يطروني في المدح غيبة وحضوراً ، وكثيراً ما أقول لهم: إذا سمعتم الأعداء والحسدة يرموني بالبدعة ومخالفة السنة فلا يجب أحد منكم جواباً واحداً عني ، وقد قام علي جماعة من الحسدة معروفون في مصر ، وآذوني كل الأذى الذي قدروا عليه ، فلم أمكن أحداً من أصحابي أن يرد عليهم شيئاً فتمزقوا كل ممزق ، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصير.

فينبغي للفقير أن لا يغفل عن نهي إخوانه أن يرفعوه فوق أحد من أقرانه ، لا تعريضاً

ولا تصريحاً ، ويظهر لهم التكدر بذلك ظاهراً وباطناً ، فإنهم إذا عرفوا صدقه في ذلك اجتنبوه ، بخلاف ما إذا عرفوا رضاه بذلك في الباطن ، فافهم ، وهذا الخلق قد صار غريباً في هذا الزمان ، فلا تكاد تجد فقيراً يزجر أصحابه إذا رفعوه على أقرانه ، ثم إذا بلغ الأمر إلى من فضلوه عليه فربما تحركت عنده داعية الحسد والبغضاء والشحناء ، وصار ينقص ذلك الشيخ الذي رفعوه عليه في المجالس ، وقد تقدم في هذه المنن أنني ذكرت جميع أقراني من الفقراء في طبقات الصوفية ، وذكرت مناقبهم ومفاخرهم ، استجلاباً للرحمة لهم ، ولم يفعل ذلك في مصر الآن غيري ، فاعمل على التخلق به ترشد ، واسلك طريقه تشد وتسد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهة سماعي للغناء على الآلات المطربة ، من حين كنت صبياً ، عملاً بنهي الشارع ﷺ عن ذلك ، فلما بلغت ، ودخلت طريق محبة الفقراء ، ازددت في ذلك نفرة ، اتهاماً لنفسي أنها تسمع ذلك فيؤثر فيها غفلة عن الله تعالىٰ ، وعن الذكر والصلاة ، مع أن النهي عن شيء إذا ثبت عن الشارع ﷺ لا يتوقف اجتنابه على معرفة علته ، وهذا أسلم ممن سمع ذلك ، وجعل علة التحريم هو الغفلة عن ذكر الله وعن الصلاة ، وأن من لم يحصل له بسماع ذلك غفلة فلا بأس به في حقه ، ونقل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والفقهاء والصوفية ، ذكرهم الشيخ أبو المواهب الشاذلي في كتاب له في ذلك ، انتهى.

قلت: وجمهور المحققين على خلافه إلا بشرطه؛ لأن الله تعالىٰ لا ينهى عن شيء على لسان نبيه ﷺ ويبيحه بشرطه إلا ويصير المتعاطي له ممن لم يتصف بالعصمة على خطر ، ويمكن عدم صحة نسبة ذلك للصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ، والكمل أبعد عن مواضع الريب من غيرهم.

وروى أبو عبد الله الحاكم مرفوعاً «**لا الله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته**»(١) قال بعضهم: ففي هذا الحديث إباحة سماع الغناء؛ لأن سماع الله لا يجوز أن يقاس على محرم ، قال: وهو حديث صحيح على شرط الشيخين ، انتهى.

وخرج بقينته قينة غيره ، فلا ينبغي سماعها ، بل ربما حرم ذلك كما وردت به الأحاديث فيمن خسف بهم الأرض لما سمعوا القينات ، وبالجملة فقد استقر ظاهر المذاهب الأربعة على الفتوى بالتحريم في نحوالعود إلا بشرطه عند بعضهم ، فليس لمقلد أن يخالفهم ويسمع العود أو نحوه أبداً ، وكان أخي سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ ينهى عن سماع الآلات

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب في حسن الصوت بالقرآن (١٣٤٠) ، وأحمد في مسنده (٢٣٤٢٩) ، والحاكم في المستدرك (٢٠٩٧).

المطربة كثيراً ، ويقول: قد ذهب جماعة إلى أن علة التحريم عدم سماع ذلك عن الحق تعالىٰ ، وهو مذهب فاسد ، قال: ومن ادعى أن سماع الآلة المطربة لا تؤثر فيه فأغضبوه مراراً ، فإن غضب فهو مفتر كذاب؛ لأن من لم يقدر يرد نفسه عن الغضب لا يقدر أن يرد عنها الغفلة عن الله تبارك وتعالىٰ بالطرب إذا سمع المطربات ، انتهى. فافهم ذلك ، وإياك وسماع ما ذكر ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حسن ظني في الطوائف المنتسبين إلى طريق الفقراء عموماً ، كالأحمدية والبرهامية والرفاعية والمطاوعة بالشرقية والصعيد ، ولا أحكم على أحد منهم بخروجه عن الشريعة المطهرة بحكم الإشاعة عن أهل خرقته ، فقد يكون ذلك الشخص على نعت الاستقامة دون غيره ، وإنما أحكم عليه إذا شاهدته يخالف السنة ، أو قامت بذلك عندي بينة عادلة ، فإن كل طائفة من هؤلاء فيها غالباً الجيد والرديء ، والحكم على جميع الطائفة بحكم واحد جور وتهور غالباً ، ولم يزل الناس يستفتون على طائفة المطاوعة ونحوهم ، فينبغي للمفتي أن يخلص عبارته ، ليخلص ذمته ، ويقول: إن كان من ذكر يعتقد كذا وكذا فهو فاسق مثلاً ، أو مبتدع ، وذلك؛ لأن فيهم الصالح والولي.

وتقدم في هذه المنن عن سيدي عليٰ البدوي ، تلميذ سيدي أبي العباس المرسي ، أنه قال: دخلت زاوية القلندرية فرأيت منهم فعالاً تخالف ظاهر الشرع ، فأنكرت عليهم ، فرفعت رأسي ، وإذا بشخص متربع في الهواء يقول لي: تنكر على القلندرية وأنا منهم ، قال: فتركت الإنكار ، انتهى.

ويحتاج من يترك الإنكار بمثل ذلك إلى علم وافر يفرق به بين الولي والشيطان ، فربما كان ذلك المتربع في الهواء شيطاناً ، فيحصل لذلك الذي ترك الإنكار التلبيس في دينه ، ويفوته الأجر المترتب على ذلك الإنكار ، فإياك يا أخي أن تحكم بالبدعة على من نسب إلى المطاوعة مثلاً ، بمجرد كونه معدوداً منهم ، فقد تعد الناس فيهم من ليس منهم ممن تزيا بزيهم ، وإياك أن تسلم للمبتدعين أحوالهم ، رعاية أن يكون لهم شبهة صحيحة ، بل در مع ما عليه أهل السنة والجماعة حيث كان ، واحمِ سمعك وبصرك ، وامش على نور السنة ، وقد صنف سيدي محمد الغمري كتاباً في المطاوعة ، وحط عليهم أشد الحط ، وكذلك كان سيدي محمد الحنفي ، والشيخ مدين ، وغيرهم يحطون على من يخالطهم ، انتهى. ولكن يحتاج الأمر إلى تفصيل ، فالله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم تحجيري على أحد من أصحابي أن يصلي عندي الجمعة ، أو يحضر مجلس الذكر ، لا سيما إن كان أحد من الأكابر يحضر عندنا ذلك اليوم ، فإن في مثل ذلك عدة آفات كما مر تقريره في هذه المنن.

وكذلك لا أعاتب أحداً على تخلفه عن زيارتي ، ولا أقول له قط: أوحشتنا كثيراً ، إلا بنية صالحة ، خوفاً أن يفهم مني أن مرادي منه أن لا ينقطع عن التردد إليّ ، فيصير يكلف نفسه في الحضور ، خوفاً من عتبي عليه أو عتب أحد من النقباء ، ثم لأي شيء يطالب الإنسان الناس بترددهم إليه ، ولا يطالب هو نفسه بتردده إليهم ، مع أن من شرط الشيخ أن يرى نفسه دون جميع إخوانه ، لزوال الرعونات النفسية منه.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا تعتبوا على أحد في عدم تردده إليكم ، فربما كان في ذلك قوت للنفس ، بل لو ترك أصحابك زيارتك مطلقاً استهانة لك ، لا ينبغي أن تعتب على أحد منهم ، لا سيما إن كنت تعرف من نفسك عدم القدرة على مكافأتهم في التردد ، انتهى.

ومما وقع لي: أن شخصاً من أصحابي عاتب شخصاً من أكابر الدولة على عدم التردد إلي بعد أن كان يزورني ، فما وجد له عذراً ، فاحتال بحيلة ، وقال: كلما أريد المجيء إليه أجد تمساحاً في الطريق يصدني عنه ، فكذبه الحاضرون ، ووقع هو ومن كذبه في الإثم ، حيث أسمعه ما يكره ، فانظر آفة التحجير ، ولو أن أحداً لم يعاتبه لما وقع في شيء من ذلك ، فإن الاجتماع مقدر.

وكان سيدي أحمد بن الرفاعي رحمه الله تعالىٰ يقول: ينبغي للفقير أن يفرح إذا انقطع الناس عن زيارته ، ليخلو لعبادة ربه ، وكذلك ينبغي له أن يغتم ويضيق صدره إذا أقبلوا عليه ، فكم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس ، وكم أذهبت من دين ، انتهى كلامه رحمه الله تعالىٰ ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حفظي لمقام صاحبي ، ومن أكلت معه لقمة بملح في وقت من الأوقات ، ولا أخونه بالغيب لأجل تلك اللقمة ، وهذا الخلق قد صار في هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر ، فربما أكل الشخص مع صاحبه نحو عشرة أرادب من الخبز فلا يحفظ له مقاماً ، بل يجعل فيه العجر والبجر إذا وقع بينه وبينه نفس ، بخلافي أنا ، فإني بحمد الله تعالىٰ لا أذكر من عاداني ، وسمع نقل الناس بيني وبينه النميمة إلا بخير ، حفظاً للعيش ، فاعرف زمانك يا أخي ، ولا تركن إلى أحد حتى تجربه.

وقد كان هذا الخلق في اللصوص إلى أيام السلطان قايتباي رحمه الله تعالىٰ ، حكى لي سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ: أن حموراً كبير المنسر دخل هو وجماعته على تاجر في الليل ، ففتح عينه فرآه عند رأسه فارتعد ، فقال له: لا تطرّب يا خواجا فإن الصبيان يطلبون منك الغذاء فقط فقال: هو حاضر ، ففتح الصندوق وأخرج للعشرة ألف دينار ، فقال له الشاطر: عدّاك العيب يا خواجا ، ما كان أملنا فيك ذلك كله ، فحملوا الألف دينار وخرجوا

إلى الدهليز ، فتخلف منهم واحد فأخذ خفاً أبيض فوضعه في عبه ، ثم فركه لينظر ما فيه ، فرأى فيه ملحاً أبيض ، فذاقه ، فقال: آه ، هذا ملح ، فسمعه حمور ، فقال: ردوا الألف للرجل ، فوالله ما نخون شخصاً ذاق صاحبنا في داره الملح فتدخل عليهم الخواجا أن يأخذوا مائة دينار ويبرىء ذمتهم منها ، فأبوا وقالوا له: عليك أمان الله ما دمنا نعيش.

هذه حكاية سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ ، فانظر يا أخي في أصحابك ، فلا ترى من يحفظ عيشك إلا القليل ، فإذا كان مثل هذا من أخلاق اللصوص مع فسقهم فكيف كان حال صالحيهم ، فاعرف زمانك ، وخذ حذرك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي بالطبع فضلاً عن الشرع لكل من ينقل إلي نقائص الخلق ، من وقوعهم في حقي أو غيري ، فربما قال لي: سمعت فلاناً يذكرك بالنقائص ، فتحركت نفسي وحصل لي غم بذلك ، وما كل وقت توجد العناية الربانية للعبد ، كما أشار إليه تشريعاً قوله ﷺ: «**لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيراً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»[1] وقد مر بسط ذلك أوائل هذا الباب ، ثم إنه يقال للناقل: لا يخلو أمرك من أمرين ، إما أن تعتقد عدم وجود ذلك فيّ ، أو لا ، فإن كنت لا تعتقد وجود ذلك فيّ فلأي شيء تنقل الكذب ، وإن كنت تعتقد صدق القائل فانقل ذلك عن نفسك أولى.

وفي تصديق النمام عدة مفاسد: منها تخلف العناية الربانية عن نصرتي غالباً إذا تحركت نفسي ، وقابلته بنظير فعله ، ومنها فتح باب الحقد عليّ إذا صبرت على ذلك العدو ، وعلى رميه لي بالبهتان ، وقلّ صابر يسلم من الحقد ، بل يصير يتذكر كلام ذلك العدو في حقه كل قليل ، ولا يكاد ينساه ، ولو أنه لم يبلغه لربما سلم من مثل ذلك ، فإن السلطان ربما يشتمه إنسان من ورائه ، ومنها فتح باب نقل الناس الكلام إلي إذا رأوني أصغي لسماع الناقل ، بخلاف ما إذا زجرت الناقل وكذبته ولم أصدقه ، فإن الناس يتسامعون بذلك فيقل نقلهم إلى الكلام ، وما رأيت في أصحابي أوسع عقلاً من أخي الشيخ زين العابدين ابن الشيخ عبيد البلقيني ، فلا أضبط عليه أنه بلغني قط عن عدو إلا خيراً ، ويقول: لا ينبغي لمن يدعي محبة شخص أن يدخل عليه غماً وكثيراً ما يقلب الكلام السوء بكلام مليح طلباً لإدخال السرور عليّ ، فإن الإنسان إذا بلغه أن عدوه يذكره بخير ينشرح لذلك ، ويحصل عنده سرور وانبساط ، ومن خان لا كان.

وقد نقل إلي شخص مرة نميمة ، فقلت له: أنا لا أصدق في هذا الرجل الذي نقلت عنه

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب المناقب ، باب فضل أزواج النبي ﷺ (٣٨٩٦) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في رفع الحديث من المجلس (٤٨٦٠) ، وأحمد في مسنده (٣٧٥٠).

شيئاً من ذلك؛ لأني فارقته على صلح وانشراح ، وإن شئت أنا أبين لك ذلك بأن تجلس عندي ، وأرسل وراءه ، وأقول له: هذا قال عنك كذا وكذا ، فإذا قال: نعم قد قلت ذلك فحينئذ أصدقك ، فخجل ، وسأل الإقالة من نقل الكلام ، ومن ذلك اليوم ما نقل كلاماً فيه نميمة أبداً ، مع أن السر عنده كأنه في بيت الوالي ، لضيقه عن كتم كل كلام ، وفي الحديث: «**شر الناس المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الطالبون للبراءة العيوب**»[1] وقد فعلنا ذلك مع النمامين فقلت نميمتهم إلينا ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حفظي لمقام العالم أو الصالح إذا نصرته على خصمه الفاسق ، فأجعل الأذى كله من خصمه لا منه ، فلا أقول للعالم قط أو الصالح اصطلح مع فلان؛ لأن هذا الكلام يفهم منه أنه نظيره في الإثم ، والمقابلة بالأذى ، وإنما أقول: ما لهذا الشيطان مع سيدي الشيخ رضي الله تعالىٰ عنه.

وقد سمع أخي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ شخصاً يقول: ما هذه المخاصمة التي وقعت بين فلان وبين سيدي علي الخواص ؟ فقال له: أستغفر الله ، فإن سيدي الشيخ لا يخاصم أحداً من المسلمين في حظ النفس ، ولا يقابله بسوء ، ولفظ المخاصمة تقتضي المغالبة في الخصومة ، فإن من شرط الفقير السكوت عمن آذاه ، والساكت لا يقال فيه: إنه مخاصم (اسم فاعل) ، انتهى.

ثم من الجهل أن يقال للشيخ: امض بنا إلى فلان لتصالحوه ، فإنكم بحر تحملون عدة آلاف من مثل هذا ، فربما دخلت رأس الشيخ الجراب ، وذهب معهم إلى ذلك الفاسق مثلاً ، فلا يزداد الفاسق إلا فجوراً ، وإنما الأدب أن نأخذ الفاسق لسيدي الشيخ ، ونأمره بتقبيل نعاله حتى يرضى عنه ، حيث اقتضى الحال ذلك شرعاً.

وقد قدمنا عن الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه أنه كان يقول: أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ، ورغب في مودة من لا ينفعه.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا تتواضع لظالم عليك ، ولا تبدأه بالصلح ، فتكبر نفسه بغير حق ، وتذل نفسك في غير محل ، انتهى.

وقد آذاني شخص بمكة المشرفة من علماء مصر ، بكلام افتراه علي بعض الحسدة ، فذهبت إليه وقلت له: أنا أقول: استغفر الله على مصطلح الفقراء في أن أحدهم يقول: أنا ظالم ، وأنا أعلم أنه مظلوم ، فبنوا على ذلك صحة ما أضافوه إلي من الكذب والافتراء ، ودام

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥٣٧) ، والبيهقي في شعب الإيمان (١١١٠٨) ، والطبراني في الصغير (٨٣٥) ، والبزار في مسنده (٢٧١٩) ، والديلمي في مسند الفردوس (٣٦٥٧) ، وهناد في الزهد (١٢١٤).

الضرر بذلك نحو ثلاث سنين ، وأرسل إلى مصر مكاتبة أن فلان اعترف بما قالوه عنه ، والحال أني ما قلت له أنا أقول: أستغفر الله إلا اختصاراً للفتنة ، والله شهيد على ما أقول.

فليكن الفقير على حذر ، ولا يقول: أستغفر الله في محل ينبني عليه مفسدة ،وإنما ذلك في حق المؤمنين الذين يخافون على دينهم ، وعليه يحمل نحو قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. بخلاف اللئيم ، فإنك إذا أكرمته ازداد طغيانه فاعلم ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: صبري على غضب صاحبي إذا خالفت هواه لما ينفعه في دينه ، كما إذا علمت بالقرائن أنه يحب مني القيام له ، فلا أقوم له؛ لأن قيامي له على هذه الحالة ربما يكون من باب الإعانة له على تبوئه النار ، كما ورد في الصحيح ، اللهم إلا أن يترتب على قلة قيامي له مفسدة هي أعظم من مفسدة عدم القيام له ، فأقوم له ، ثم أسأل الله تعالىٰ أن لا يؤاخذه بذلك ، وأن يكشف عنه حجاب النفس حتى يرى نفسه أقل من ناموسة ، وأنه لا يستحق أن أحداً يقوم له ، وكذلك نسأل اللهأن يتوب عليه من الكبر.

فعلم أن الأولى لنا أن نقوم له حينئذ مداواة لنفسه ، ثم نشفع له عند الله تعالىٰ ، وهذا هو اللائق فعله مع غالب أهل هذاالزمان ، فلا يترك القيام إلا لمن لا يخشى منه مفسدة يتعدى ضررها.

وقد كان الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا تقصر في حق أخيك اعتماداً على مروءته، انتهى ، يعني: فقم بواجب حقه وقم له وعليه الكراهة لذلك ، خوفاً من الوقوع في الإثم ، وعلينا القيام بحقه عادة وشرعاً ، فافهم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: قلة عيادتي للظلمة إذا مرضوا؛ لأن الغالب في مرضهم أنه عقوبة لذنوب سلفت ، ولا ينبغي لنا التحمل عنهم ، وأيضاً ففي العيادة لهم إيناس لهم ، ولا ينبغي إيناس الظلمة والفسقة الذين يشربون الخمر ، ويزنون ، ويأخذون أموال الناس بالباطل ، ويحبسونهم ويضربونهم إذا لم يزنوا لهم تلك المغارم التي طلبوها منهم ، وأما الولاة الذين لا يظلمون الناس ، وإنما يأخذون من الناس المال في نظير مصالح يعملونها لهم فلنا عيادتهم وزيارتهم؛ لأنهم قد يكونون بحسن النية مثلنا ، أو أحسن حالاً منا ، ولو لم نكن نحن نقبل في مقابلة مثل ذلك شيئاً.

فعلم أنه لا اعتراض على العالم والفقير إذا لم يعد ظالماً حال مرضه ، أو بعد أن شفي منه؛ لأن العيادة عندنا إنما شرعت للمنكسرة قلوبهم ، أو لمن يرجى بعيادته الثواب ، وقد

كان الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إذا لم يكن في أخيك نفع لك ولا للعالم فلا عليك من مقاطعته ، انتهى.

فإذا كان هذا فيمن لا نفع فيه ، فمن يؤذي الناس أولى بالمقاطعة ، وترك العيادة ، أو الزيارة.

ولما مرض الوزير علي باشا بمصر ، وشفي ، طلعت له وسلمت عليه ، لكن بعد حصول مقتص ، وذلك أن بعض المحبين ذكر للباشا أنني عازم على زيارته بكرة النهار ، وقصد بذلك إظهار المحبة للباشا ، وليس لي أنا علم بذلك ، فانتظرني الباشا أيضاً في إظهار محبتي له؛ لاعتنائه بي ، وانتظاره لي ، فخشيت أن يترتب المعروف مداواة صاحبي الذي كذب في قوله إني عازم على زيارة الباشا ، ومداواة الباشا أيضاً في إظهار محبتي له ، لاعتنائه بي ، وانتظاره لي ، فخشيت أن يترتب على ظهور كذب هذا الرجل على الباشا من الضرر له ، أكثر مما يترتب عليه من نفعه بتأديبي له عن الكذب بعدم طلوعي لزيارة ذلك الباشا وقلت: يمكن تأديبه بشيء آخر ، وخشيت أنه يترتب على عدم زيارتي للباشا أيضاً بعد ما أظهره من رعاية مقامي كراهته لي ، فلا يصير يقبل لي شفاعة في مظلوم ، وذلك ضرر متعد ، فزرته بنية مصالحة لهذا المعنى ، وإلا فأنا بحمد الله ليس لي حاجة عند أحد من هؤلاء الولاة في الدنيا أبداً ، فاعلم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: مداواتي لبعض المريدين للأشياخ إذا مرض بعضهم فلم يعده شيخه ، ولا أحد من إخواني ، بنحو قولي: أنت بحمد الله يا أخي في مقام المجاهدة والرياضة ، وما ترك شيخك عيادتك إلا ليخلصك من ورطة الميل لسواه ، أو الاعتماد على أحد من الخلق دون الله تعالىٰ ، فإن المريد إذا لم يعده أحد يحصل له الأسف في نفسه ، ويحول باطنه إلى الاعتماد على الله تعالىٰ ، بخلاف ما إذا عاده أصحابه ، وصرفوا عليه المال في الأدوية وغيرها ، فإنهم ربما يحجبونه عن الالتجاء إلى الله تعالىٰ في مثل ذلك ، وربما قال: ما نفعني إلا فلان ، ولكن يحتاج الذي يعمل بهذا الخلق إلى ميزان دقيق ، وكشف صحيح.

فإياك والمبادرة إلى الاعتراض على الأشياخ المحققين وجماعتهم ، إذا مرض واحد منهم ولم يعودوه ، فإنهم في ذلك على هدى من ربهم ، ولا يتركون حقاً إلا لحق هو أعظم من الأول ، وإياك أن تقول: والله ما بقي في أحد خير ، وهذا فلان له في خدمة الشيخ الفلاني كذا وكذا سنة فلما مرض لم يفتقده بشيء يصرفه في مرضه ، ولولا أني افتقدته لحصل له ضرر شديد ، فإن شيخه أكثر شفقة عليك منك بيقين ، ولكنك غائب عن مشاهدة شيخه ، ولو أنك حققت النظر وجدت ما فعله معه شيخه أعظم نفعاً للمريد مما فعلته أنت معه ، بل ربما حصل له بإحسانك إليه الضرر في دينه ، من حيث عدم تخليصه من ورطة اعتماده على الخلق دون الله

تعالىٰ ، فاعلم يا أخي ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، ويدبرك في بلواك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: صبري على عوج أتباعي وزوجتي وخادمي ، ونشوزها وإباقه كما مر تقريره ، وذلك لعلمي بأن الوجود يعاملني على صورة ما عاملت به ربي ، فاللوم عليّ لا عليهم في الأصل؛ لأنهم كظل الشاخص على حد سواء ، فإن كان الشاخص مستقيماً فالظل مستقم ، أو أعوج فالظل أعوج؛ لأنه أثره ، ومن طلب استقامة الظل مع عوج الشاخص فقد رام المحال ، فالمرأة أو الخادم مثلاً عوجهما من عوج أخلاقنا ، فمن عقل الرجل أن يرجع إلى نفسه فيتفقدها إذا رأى في زوجته أو خادمه أو حماره مخالفة لعادتهم السابقة معه ، ويسعى في استقامة نفسه في الأعمال مع الله تعالىٰ ، فتستقيم رعيته ضرورة ، ومن خفة عقل الرجل أن يأمر المرأة مثلاً بالطاعة له مع بقائه هو على العوج مع الله تعالىٰ ، ولا يسعى في استقامة نفسه فإنه لا يزداد إلا قهراً ، ويطول تعبه ، وربما ترافعا إلى الحكام وطلقها ، وظن أنه يظفر بعدها بمن هي خير منها ، وذلك لا يصح؛ لأنه مادام أعوج فكل زوجة يتزوجها تنعوج معه ، ولوكانت مستقيمة قبل تزوجه بها.

وقد كان الفضيل بن عياض رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إني لأقصر في طاعة الله تعالىٰ ولا أشعر ، فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي وزوجتي ، فتنشز المرأة ، ويأبق العبد ، ويشمص[1] الحمار؛ لأن طاعتهم لي إنما هي فرع عن طاعتي لربي ، وتسخيرهم لي إنما هو فرع عن رضاه عني ، انتهى.

واعلم أن النشوز والإباق والشموص يعظم ويصغر بحسب عظمة ذلك الذنب عند الله وصغره ، فإن كان الذنب عظيماً كانت مخالفة من ذكرنا له أعظم ، وكلما بالغ الزوج أو السيد من شكواه من مخالفة الزوجة وإباق العبد وشموص الحمار عرفنا شدة مؤاخذة الله تعالىٰ له ، ثم أعظم من يبتلي بمخالفة رعيته الأولياء ، لكثرة مناقشة الحق تعالىٰ لهم رحمة بهم ، حتى لا يتمادى أحدهم في القطيعة والغفلة عن الله تعالىٰ بخلاف غيرهم.

وقد كانت زوجة سيدي علي الخواص ، وزوجة سيدي محمد السروري ، وزوجة سيدي عثمان الحطاب ، وزوجة سيدي عثمان الديمي ، لا يكدن يدخلن على أزواجهن سروراً أبداً ، وقال لي سيدي علي الخواص يوماً: لي مع ابنة عمي سبع وخمسون سنة ما أظن أنني بتّ معها ليلة واحدة ونحن مصطلحون أبداً ، وكان يقول لمن يقول له: طلقها: الظلم من نفسي لا منها؛ لأنها صورة عملي ، وسمعته يقول: الرجل مبتلى بزوجته وعبده وحماره وغير ذلك على كل حال ، فإن هذه الأمور إن لاقت بخاطره أصابته في قلبه بالميل إليها فأهلكته ،

---

(١) يشمص الحمار: يُساق سوقاً عنيفاً حتى عنيفاً تُعبي صاحبه. اللسان ، مادة (شمص).

وإن لم تلق بخاطره أصابته في ظاهره فكره رؤيتها ، وكدرت عليه معيشته ، ولا شك أن ذلك أهون من أن تصيبه في قلبه ، فإن الحق تعالىٰ غيور ، فمن مال عن الله تعالىٰ إلى غيره بغير إذنه ضرب بسهم مسموم في قلبه ، فخسر الدارين ، فرحم الله من أتى البيوت من أبوابها ، ولم يعتب امرأة إذا خالفته ، وإنما يلوم نفسه التي انعوجت حتى انعوجت زوجته ، هذا هو الغالب في حق أمثالنا ، انتهى.

فاعمل يا أخي بهذا الخلق ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة صبري على زوجتي وجاريتي إذا مرضت ، ولا أستنكف من أن أمسح ما تحتها من القاذورات إذا عجزت عن الذهاب إلى الخلاء ، أو الجلوس على الطشت مثلاً ، كما كانت تفعل معي إذا مرضت ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وإن طال مرضها واحتجت إلى التزوج لم أتزوج عليها لئلا أجمع بذلك عليها مرضين حسياً ومعنوياً ، وإن خفت العنت استعملت الأدوية المسكنة لهيجان الشهوة إلى وقت شفاء زوجتي أو موتها ، كل ذلك قياماً بحق الصحبة ولو ليلة واحدة ، وشفقة على خلق الله تعالىٰ ، وليعاملني الله تعالىٰ بمثل ما أصنع معها إذا مرضت ، قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٥].

وإذا مرضت ومعها طفل صغير حملته عنها في المرض ، وداعبته ولاهيته حتى يسكت ، وأسهر لأجله الليلة كاملة كما أسهر كذلك لأجلها ، ولا سيما إن كان الولد ربيبي كما فرضت ذلك ، وإن لم يقع لي فإني إن أعطيته لوالده إذا كان حياً حصل لأمه الضرر ، ولا يمكنه أن يدخل بيتي يداعب ولده وأمه في عصمة غيره.

وهذا الأمر قلّ من يفعله مع ربيبه ، بل يدعو عليه ويتمنى موته ، ويقول اللهم أرحنا منه ، وقد قالوا في المثل: «اللهم الصبيب ولا الربيب» ، فعلم مما قررناه أن من لم يصبر على زوجته ، ولم يخدمها ، ولم يصبر على التزوج عليها إذا مرضت فلا يلومن إلا نفسه إذا مرض وقست عليه القلوب ، ولم يجد أحداً يخدمه ولا يسهر عنده طول الليل.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ إذا مرضت زوجته ، ومشت بطنها عليها يصير يمسح القذر من تحتها ، ولا يمكّن أمها ، ولا أختها ، ولا أخاها من ذلك ، خوفاً من حصول منتهم عليها إذا شفيت ، ووقع بينهم وبينها خصومة مثلاً ، ويقول: أنا بحمد الله لا أمن عليك أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وكان يخفي ذلك عن الجيران ، خوفاً أن يمدحوه على حسن خلقه ، فيذهب أجره بذلك ، وكان يقول: من أظهر من أعماله ما يحمده الناس عليه قبل خمود نار بشريته فربما رجع عمله إلى الرياء ، ولو لم يقصد هو ذلك في الابتداء.

وحكي لي مرة أن كلباً حصل له جذام حتى قذرته العيون في بلد سيدي أحمد بن الرفاعي ،

وصار كل من رآه يصيح به ، فأخذه سيدي أحمد وخرج به إلى البرية ، وضرب عليه خصاً ، وصار يطعمه ويسقيه ويدهنه مدة سبعة وأربعين يوماً حتى عوفي ، ثم سخن له ماء وغسله ، ودخل به البلد ، فصار الناس يقولون : وتعتني بهذا الكلب هذا الاعتناء ، فقال : نعم ، نوديت في سري : يا أحمد أما كان في قلبك رحمة لخلق من خلقي ، فما وسعني إلا أن أخدمه حتى عوفي ، وخفت أن يؤاخذني الله به يوم القيامة ، انتهى.

فإذا كان هذا في حق كلب ، فما بالك بزوجة الإنسان التي جعلها الله تعالىٰ لباساً له ، وجعله لباساً لها ، فاعلم ذلك واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي للخلوة بالأجنبية ، ونفرة كل شعرة مني منها ، خوفاً على نفسي من الميل إليها ، وفي الحديث : «**ما خلا رجل بامرأة (أي ليس بينه وبينها محرمية) إلا كان الشيطان ثالثهما**»(١) وقد سئل الشيخ أبو القاسم النصراباذي شيخ خراسان في عصره عن شخص يقول : ما علي لوم في مجالستي للنسوان لعدم ميلي إليهن ، فقال الشيخ : ما دامت الأشباح باقية ، فإن الأمر والنهي باق ، والتحريم باق مخاطب به كل مكلف ، ولن يجرؤ على الشبهات إلا من تعرض للمخالفات ، انتهى.

ووقع لبعضهم أنه كلم أجنبية ، فاستلذ بكلامها ، فحرم لذة العبادة شهراً ، ثم إن أكثر من يقع في مثل ذلك المتهورين في دينهم من الفسقة ، وكذلك مشايخ السمران من الأحمدية وغيرهم ، فيقول للجارية الكبيرة : يا أمي ، ولمثله يا أختي ، ولدونه يا بنتي ، ويجتمعون كلهم على السماط من غير احتجاب ، فينبغي تنبيههم على تحريم ذلك ، فربما كان أحدهم جاهلاً بالتحريم.

وقد كان سيدي أبو بكر الحديدي رضي الله تعالىٰ عنه من أشد الفقراء إنكاراً عليّ مثل ذلك ، ورأى مرة الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد العدل يضع يده على بطن امرأة يرقيها بشيء من القرآن لوجع كان بها ، فصاح عليه بأعلى صوته : واديناه ، وامحمداه ، تضع يدك على بطن أجنبية ، فقال له : إنه بحائل ، فقال له : ولو كان بحائل ، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وربما تضع يدك بلا حائل في المرة الثانية ، فتاب الشيخ محمد ، واستغفر الله تعالىٰ مع شهرته بالصلاح عند الخاص والعام ، واتصافه به.

فالله يجعلنا من المتبعين لآثار السلف الصالح في ذلك ، وفي الاتهام لنفوسنا آمين ، اللهم آمين.

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب الرضاع ، باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات (١١٧١) ، وأحمد في مسنده (١٧٨)

وقد خاطب الله تعالىٰ الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم بقوله تعالىٰ لهم في حق زوجات رسول الله ﷺ اللاتي هن أمهات المؤمنين: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. فإذا كان هذا في حق خيار الناس من الأمة، فكيف يدعي أحمق أن رؤية الأجانب من نساء مريديه مثلاً لا تضره، هذا من رقة الدين، وقد عاب بعض السلف على جلوس سفيان الثوري عند رابعة العدوية وقالوا: هذا خرق في الشريعة مع شهود القلوب بحفظهما، وبعدهما من المعاصي، فاعلم يا أخي ذلك، واعمل على التخلق به ترشد، والله يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم معاتبتي لمن تخلف عن الصلاة مثلاً على زوجتي أو ولدي إذا ماتا، وعدم دعائي الناس من بكرة النهار مثلاً، فيصيرون ينتظرون الصلاة وقلوبهم وراءها التفاتاً إلى مهماتهم، لا سيما إن كان يوم سوق البلد، وقد وقع لبعض الإخوان أنه دعا الناس للصلاة على أخته من بكرة النهار إلى صلاة العصر، فصار غالبهم يقلل الرحمة عليها، ويستحي أنه يقوم ويخرج لحاجته، وبعضهم خرج من غير الحضور للصلاة، وأما الجماعة الذين تكلفوا وحضروا الصلاة فأخبروني أنهم لم تحضرهم نية صالحة، ولا حضر لهم قلب في الدعاء، وبالجملة فقد صار الناس الآن يتفاخرون بكثرة من يحضر جنائزهم مثل زفة الختان، ويتخاصمون بسبب ذلك، فيقول الواحد: هذه الجنازة أو الزفة أكثر ناساً، فيقول الآخر: حاشا لله، وقد مضى السلف الصالح كلهم على مراعاة ضرورات الناس، فمن يحضر شكروا فضله، ومن تخلف أقاموا له العذر، وكانوا لا يدعون أحداً للصلاة على الميت حتى يشرفوا على الفراغ من تكفينه، خوفاً من تقلق الناس، لا سيما من ليس عند عياله ذلك النهار شيء يأكلونه.

فإياك يا أخي أن تدعو الناس من بكرة النهار، وأنت عازم على الدفن بعد الزوال، فإن كثيراً من الناس تزهق نفوسهم، ولا يصير لهم داعية في التوجه إلى الله تعالىٰ في الشفاعة في ذلك الميت، ومعلومٌ أن الحق تعالىٰ لا يستجيب دعاء من قلب غافل كما ورد، فاعلم ذلك ترشد، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حسن تدبيره تعالىٰ لي في الحملات التي أدخل فيها من حملات الخلق الثقيلة التي أشرف فيها على الموت، فكثيراً ما ينزل على أهل مصر بلاء من فقراء وعلماء وتجار ومباشرين ومحترفين وفلاحين، فأدخل تحت ذلك البلاء مع جملة الأولياء، ولا أزال كذلك حتى يرتفع، وأحس بمفاصلي مادام البلاء لم يرفع كأنها تقطعت، وبعظمي كأنه يدق في الهاون، وبرأسي كأنه يرضخ بين حجري معصرة، لا أكاد أحس بغير ذلك، وتارة أحس بأن تحت كل شعرة من بدني مسماراً من نار يدق، ولا يعرف ذلك حكيم من الخلق، ولا جار، ولا صاحب، وربما سمع بذلك بعض الناس، فيقول. وايش بلاء

فلان بمعارضة الأقدار ، وربما أن ذلك البلاء الذي دخلت فيه كان نازلاً عليه هو ،ولو أنه علم بذلك لشكر فضلي على ذلك ، وربما فاض البلاء من جسدي على جيراني وأصحابي قهراً عليّ ، فيتفلت وينزل عليهم ، فأتوجه إلى الله تعالىٰ في رد ذلك البلاء عليّ ، وأن يصبرني على تحمله عنهم؛ لما جبلني الله تعالىٰ عليه من الشفقة والرحمة على عموم الخلق ، كما تقدم بسطه مراراً. وكثيراً ما يصيب البلاء المتناثر من جسدي بركة الماء التي تحت بيتي في أيام الشتاء فيصير ماؤها كالدم الأحمر ، حتى يراه الخاص والعام ، ويصير بعضهم يعتقد أنها مجراة المصبغة ، فأشكر الله عز وجل على ذلك ، فإن مثل ذلك لو نزل على جسدي لذاب؛ لعجزي عن تحمل مثل ذلك عادة ، وهذا الأمر ما رأيته وقع لأحد من فقراء مصر غيري ، فمادام الماء أحمر فجسدي متألم بالأوجاع التي يغيب معها عقل الرجل ، ثم إذا أخذ الماء الأحمر في الصفاء أحس بالألم ينقص شيئاً بعد شيء ، حتى يرتفع البلاء كله.

وقد سألت أهل الحارة عن احمرار هذه البركة ، هل كان ذلك يوجد فيها قبل أن أسكن حارتكم ؟ فقالوا: لا ، هذا ما حدث إلا في أثناء مدتك ، فعلمت أن ذلك إنما حدث بتكاثر البلاء المتجدد كلما تقارب الزمان للقيامة ، فأنا أحمل منه جهدي عن المسلمين ما دمت حياً ، وأرجو من فضل الله تعالىٰ أن يقيض له من يتحمله بعدي ،أو يتفضل برفعه أوتخفيفه عن المسلمين آمين.

وصورة مجموع الأمراض التي تقع لي أيام الحملات الثقيلة ، أنني تارة أحس بأن شخصاً قوياً يضرب رأسي بطبر[1] من حديد ، وتارة تحبس فضلاتي مدة سبعة أيام فلا تخرج بدواء ولا غيره ، وتارة يدخل علي غم وهم وثقل حتى أصير ألهث مثل الثور إذا تعب ، ويخرج من حلقي رائحة الدخان ، وأطلب الموت فلا أجاب ، وكثيراً ما يبلغ بعض أشياخ مصر عني ما أنا فيه ، فيقول أحدهم: التسليم لله أولى من هذا كله ، فيقال لهم: إن تحمل هموم المسلمين لا ينافي التسليم لله تعالىٰ ، فيسلم العبد لله تعالىٰ من حيث تقديره ، ويحمل همهم من حيث استحقاقهم ذلك بكسبهم. وقد تقدم أن عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، وسفيان الثوري ، وجماعة كانوا إذا نزل بالمسلمين بلاء لا يأكلون ولا يضحكون ولا ينامون ، كل ذلك ليس إلا لما يجدونه في نفوسهم من تحمل هموم المسلمين وبلاياهم ، وإن لم يصرحوا لهم بذلك ، ولا يزول كربهم حتى يرتفع ذلك البلاء ، فهل كان أولئك ناقصين وهذا المعترض كامل ؟ فيا ليت المعترض من هؤلاء إذا لم يتحمل بلاء الناس يعترف بنقصه ، أو يدعو لذلك الفقير المتحمل ، بأن الله تعالىٰ يدبره بحسن التدبير ، فإن ذلك أقرب إلى قواعد الشريعة من التجريح عليه ، وربما جامع هذا المعترض زوجته تلك الليلة ، ودخل الحمام ،

---

(١) الطَّبَر: نوع قديم من السلاح يُشبه الفأس. المعجم الوسيط (٢/ ٥٤٩) ، مادة (طبر).

ولبس الثياب المبخرة ، وأكل الطعام اللذيذ ،وما عند أهل الجنة خير من أهل النار.

وبلغني عن شيخ كبير منهم أنه كان يقول: لو أن عبد الوهاب إذا نزل عليه بلاء استعان بإخوانه لأعانوه؛ لأن المؤمن كثير بأخيه ، فلما نزل بلاء ناظر النظار على الأوقاف ، وعم البلد الكرب ، وطلع العلماء والعامة للقلعة يشكون إلى الوزير علي باشا ، دخلت في حملة إخراجه من البلد ، وعدم تنفيذ المراسيم التي معه ، فقعدت سبعة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ، حتى أخرجه الله تعالىٰ من مصر طريداً ، وما أحد شعر بذلك مني ، بل بعضهم صار يقول: على فلان اللوم الذي لم يطلع القلعة مع الناس يشكو للباشا ، وربما كان الذي عملوه كلهم لا يجيء عشر ما عمله فقير بتوجهه إلى الله تعالىٰ ، ولما ثقلت هذه الحملة عليّ أرسلت لذلك الشيخ الذي كان عرض لي بأنه يساعدني ورقة أذكره بنجاز وعده ، فأنكر ذلك ، وقال: أنا لم أقل قط إني أساعده ، فمن ذلك اليوم نفضت يدي من التوجه إليه في شيء من البلايا المستقبلة ، ثم إنه دخل علي ليلة السابع خلائق من فقراء العراق والشام والقدس لا يحصون ، حتى ملؤوا المدرسة والبيت والزقاق ، وقالوا على سبيل الاستفهام الإنكاري: ما جعل الله فيكم يا فقراء هذا البلد بركة ، يبايع فقير منكم الحق تعالىٰ على تلف نفسه في تحمل بلاء مصر ، وما منكم أحد يساعده!؟ هذا لفظهم ، ثم إنهم توزعوا تلك الحملة ونشطت منها ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم قبولي من أحد حملت عنه بلاءً هدية أو ثناء حسناً بعد تحملي عنه ذلك ،ولو كان من عادته أنه يهدي إلي قبل ذلك تركت قبولها بعد ذلك ، وكذلك لا أقبل هدية على دعاء دعوت به لمريض فشفاه الله تعالىٰ بعد ذلك؛ لأني لست على يقين من قبول دعائي حتى آخذ عليه أجرة ، وإن وقع الشفاء فليس هو بدعائي حتماً ، وإنما ذلك لانتهاء مدة المرض. وأيضاً فإني أعلم أن صاحب تلك الهدية ما أهداها إليّ إلا لاعتقاده فيّ الصلاح ، وأني مجاب الدعوة ، ولولا ذلك ما أهدى إليّ شيئاً كما لم يهد إليّ من لم يعتقد فيّ صلاحاً ، ثم بتقدير أن الحق تعالىٰ أجاب دعائي فضلاً منه ، فلا آخذ على ذلك أجراً في الدنيا ، وقد أرسل إليّ قاضي العسكر بمصر بمال على يد إمامه لأحمل حملة ولده لما مرض ، فرددته عليه ، فقال لي: فرقه على الفقراء ، فقلت له: من جمعه فهو أولى بتفرقته ، ليخرج من حسابه يوم القيامة ، ودخلت في حملة ذلك الولد لله تعالىٰ ، فشفاه الله تعالىٰ.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله لا يزيد في الحملة على قبول أكثر من رغيف ، ويتصدق به عن المريض.

وأرسل لي بعض الولاة مرة أخرى مالاً فرددته ، فأرسله لشخص ممن لا أصلح أنا عند الناس أن أكون تلميذاً له ، فقبل ذلك المال ، وقال: ضمان ولدك عليّ ، فأصبح الولد ميتاً ، فجاء غلام والد الميت يطلب المال وكان خمسين ديناراً ، فقال: إنما أخذت المال عن حملة

ولده أنه لا يموت في هذه الأيام ، وأكل الفلوس إلى يوم تاريخه.

فإياك يا أخي أن تعطي أحداً من النصابين مالاً ، وإن كان ولا بد ففرقه أنت على الفقراء ، عملاً بحديث «**داووا مرضاكم بالصدقة**»[1] فافهم ذلك ترشد ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة حنيني إلى الوحدة ، وكراهتي لتردد الأكابر والأصاغر إلى زيارتي وعيادتي ، إلا بعد تصحيح لأغراض الشريعة كما مر تقريره مراراً. أما الأكابر فإني أجلهم عن المشي إلى مثلي ، خوفاً أني أفتضح لهم يوم القيامة حين تبدو لهم سوأتي ، ويندمون على المشي إليّ. وقد زرت مرة سيدي علي البحيري ماشياً لما دخل مصر ، وجلس في سيدي أحمد الترابي ، فصار يوبخ نفسه زماناً ، ويقول: يا فضيحتك يا علي يوم القيامة ، يأتي فلان إليك ماشياً لاعتقاده فيك الصلاح ، وأنت لست بصالح.

وأما زيارة الأصاغر عادة فغالبها معلولة ، إما علة دنيوية أو أخروية ، وهما قد تكونان مفقودتان عندي ، فلا أنا صالح كما يزعمون ، ولا أقدر أن أكافئهم في التردد إليهم كما ترددوا إليّ ، وربما مرض أحدهم فلم أعده فعاداني حتى يموت ، ويقول للناس: فلان لما مرض ترددت إليه ولم أقطعه يوماً واحداً ، فلما مرضت لم يعدني مرة واحدة ، فمثل هؤلاء خسروا عيادتهم لي ، فإني لا أنا كافأتهم ، ولا هم عادوني بنية صالحة ليؤجروا على ذلك.

وقد كان أخي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ ، لا يعلم أحداً من العلماء والصالحين بمرضه ، ويقول: إن العالم أو الصالح ربما يحمل عني شيئاً من المرض ، فآذى نفسه من أجلي ، وصار له المنة عليّ ، وأنا لا أحب أن أحداً يؤذي نفسه من أجلي ، ولا أن يكون له عليّ منة ، انتهى.

وإن شككت يا أخي في قولي إن غالب عيادة الناس لك اليوم معلولة ، فافرض عدم عيادتك لبعض من عادك إذا مرض بعد إعلامه لك بمرضه ، تنظر ماذا يبلغك عنه من الذم والسب ، وهناك تعرف صدقي ، فإني ما ذكرت لك إلا ما جربته في نفسي ، أو رأيته وقع مع أصحابي.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا تعلم أحداً بمرضك ، إلا إن علمت بالقرائن أنه يعودك خالصاً لله تعالىٰ ، وهذا أعز من الكبريت الأحمر في هذا الزمان ، فالسلامة عدم الإعلام إلا بنية صالحة ، والحق تعالىٰ أرحم بك من والدتك ، وسمعته رحمه الله تعالىٰ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٨٢) ، والطبراني في الأوسط (١٩٦٣) ، والكبير (١٠١٩٦) ، والشهاب في مسنده (٦٩١) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٥٦).

يقول: جميع ما أمرك الله تعالىٰ به من العيادة والزيارة وغيرهما إنما يؤمر به العبد إذا وجد نية صالحة، وإلا فتركه أولى، انتهى.

وقد تقدم في هذه المنن: أن من الناس من صار يتفاخر بكثرة عواده، فيستغيب من لم يعده، ولو لم يجد نية صالحة، وذلك خروج عن محاسن أخلاق الشريعة، فلا ينبغي موافقته إلا لخوف مفسدة كما تقرر في نظيره من قيامنا لمن يحب القيام له، فافهم يا أخي ذلك، واعمل على التخلق به ترشد، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك، ويشد عضدك، وهو يتولى الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تفتيشي صباحاً ومساءً لكل جارحة من جوارحي الظاهرة والباطنة؛ لأنظر ما فعلته كل جارحة في ذلك النهار أو في تلك الليلة من الطاعات أو المعاصي؛ لأشكر الله تعالىٰ أو أستغفره، كما أشكره على ما صرف عنها من البلايا التي هي معرضة لها أو مستحقة لوقوعها بها، وقد كان ذلك من جملة أخلاق سيدي إبراهيم المتبولي، وسيدي علي الخواص، وهو من أحسن الأخلاق، فإن بذلك يعرف العبد قدر ما أنعم الله تعالىٰ عليه عادة: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد جاءني مرة شخص يشكو ضيق حاله بالنسبة لما كان عليه في قديم الزمان، ويقول: قد صار الموت اليوم أحسن من هذه المعيشة، فقلت له: أما جسمك سالم من المرض؟ فقال: نعم، فقلت له: أما عندك قوت يوم؟ فقال: وقوت سنة، فقلت له: أما تنام على طراحة؟ فقال: نعم، قلت له: أما أنت آمن في بيتك على نفسك؟ فقال: نعم، فقلت له: أما لك خادم يخدمك؟ فقال: نعم، فقلت له: قد قال رسول الله ﷺ: «**من أصبح آمناً في سربه معافاً في جسمه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بأسرها**»(١). وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]. أي عند الواحد منكم قوت يومه، وله زوجة، وخادم، وحمار، ودار، انتهى.

فلما سمع مني هذا الكلام تاب واستغفر، ثم أرسلته إلى البيمارستان، وقلت له: طف على المرضى كلهم، وانظر ما هم فيه من الأمراض، ثم اخرج وادخل الحبس، وانظر ما فيه من الحصر والضيق والرعب، وتعال أخبرني، ففعل، ومن ذلك اليوم ما شكى لي ولا لغيري، وذلك أن العبد كلما غمرته النعم جهل مقدارها، فإذا رأى أصحاب البلايا والمحن، عرف مقدار ما هو فيه من النعمة.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالىٰ إذا جاء من بركة الحاج إلى مصر، أول

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله (٢٣٤٦). وابن ماجه، كتاب الزهد، باب القناعة (٤١٤١).

ما يبدأ بدخول البيمارستان ، فيطوف على جميع المرضى ، ليشكر الله تعالىٰ على ما صرفه عنه من البلايا والأمراض مع استحقاقه لها عند نفسه ، ويقول : من أراد أن ينظر إلى مقدار ما صرف الله عنه من البلايا والمحن والأمراض والمعاصي والجرائم ، فليواظب على دخول بيت الوالي ، وحبس الديلم والبيمارستان فجميع ما يراه قد ابتلي به غيره ، يحمد الله الذي صرفه عنه ، فكم استحقت العين القلع أو العمى ، بنظرها إلى ما لا يحل لها ، وكم استحقت الأذن الطرش وطلوع الخراجات فيها حتى تدوّد بسماعها ما لا يحل لها ، وكم استحق اللسان القطع ، أو طلوع الدمامل فيه وتشققه ، حتى لا يصير صاحبه يقدر على بلع الماء؛ بكلامه في أعراض الناس ، وكم استحق الفم طلوع الأكلة فيه؛ حتى يصير كالطاقة من تقبيل ما لا يحل له ، وكم استحقت البطن المغص والقولنج[1] والنفاخ[2] وتقريح المصارين[3] وبرد الكلى ، والاستسقاء وغير ذلك؛ بإدخال الحرام والشبهات فيها ، وكم استحق الفرج طلوع الأكلة فيه والقروح وحبس البول وتربية الحصى فيه بمباشرته ما لا يحل له ، وكم ، وكم ، وكم ، فليتأمل الإنسان في أعضائه كلها ، وما صرفه الله عنها ، وينظر كيف حاله إذا طلع في وجهه الحب الفرنجي ، فأكل أنفه وفمه ، وصار القيح والصديد يقطر منه ، كيف حاله مع امرأته التي كان يحبها إذا نفرت منه وقذرته ، مع ارتكاب الديون ، وقلة من يفتقده بشيء يأكله هو وعياله ، أو ليتأمل حاله إذا طلع في ذكره أكلة فسقط كله ، أو طلع في دبره باسور أو ناصور من خارج السفرة أو داخلها ، حتى إنه يحس بأن شخصاً يشرح بسكين في دبره ليلاً ونهاراً ، ولا يصل أحد إلى مداواة تلك الخراريج الباطنة ، فيتمنى الموت فلا يجاب ، انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك في العهود المحمدية ، فراجعها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١) القُولنج : بضم أوله وقد تكسر لامه ، مرض معوي مؤلم يعسر منه خروج الثُّفل والريح . القاموس ، مادة (قنج) .

(٢) النفاخ : الورم . المعجم الوسيط ، مادة (نفخ) .

(٣) القرحة : البَثرة إذا دَبَّ فيها الفساد . المعجم الوسيط ، مادة (قرح) .

الباب العاشر
في جملة أخرى من الأخلاق

فأقول وبالله التوفيق ، وهو حسبي وثقتي وغياثي ومعيني ، ونعم الوكيل :

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : حمايتي من أن أدعو أحداً من أكابر العلماء إلى المشي في زفة ختان؛ إعظاماً لخرقة العلماء ، وقد وقع أن شخصاً من أصحابي دعا سيدي الشيخ العالم العامل الكامل الراسخ سيدي محمد البكري ، ولد الشيخ أبي الحسن رضي الله تعالىٰ عنهما إلى زفة ختان ولده على لساني بغير إذني ، فلا تسأل يا أخي عما قاساه مني بسبب ذلك ، ولما رأيته في تلك الزفة تمنيت أن الأرض تبتلعني ولا أراه يمشي فيها ، مع أنه لم يعهد أنه يمشي في زفة أحد قط قبل ذلك ، وأنا أعرف أن سجيته تكره مثل ذلك ، وإنما جاء لغلبة الحياء عليه مني ، فمثل هذا لا ينبغي لأحد أن يدعوه قط إلى مثل ذلك؛ لأن فيه إزراء بالعلماء ، وأيضاً فإن الزفاف إنما هو خاص بالنساء ، كما ثبت ذلك عن نساء الأنصار ، لكن لا بأس للرجال بتهنئة بعضهم بعضاً بذلك ، وفي دعوة العلماء والصالحين إلى مثل ذلك مفاسد وأمور بيناها فيما سبق في الباب الثالث ، في نعمة عدم دعاء العلماء والصالحين إلى الموالد والولائم فراجعه ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، ويدبرك في بلواك ، والحمد لله رب العالمين ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : عدم تمكيني أحداً من أصحابي من التصدر للرد على أحد من الفرق الإسلامية ، إلا إن خالف كلامه صريح السنة المحمدية ، أو قواعد علمائها ، فمثل هذا يجب الرد عليه ، وذلك دليل على عدم كماله؛ لأنه لو كان كاملاً لغار على ظاهر الشريعة ، لكون الشارع ﷺ قد أمنه على شريعته من بعده .

وقد نقل الشيخ محيي الدين بن العربي في الفتوحات المكية إجماع المحققين على أن من شرط الكامل أن لا يكون عنده شطح عن ظاهر الشريعة أبداً ، بل يرى أن من الواجب عليه أن يحق الحق ويبطل الباطل ، ويعمل على الخروج من خلاف العلماء ما أمكن . انتهى ، هذا لفظه بحروفه ، ومن تأمله وفهمه عرف أن جميع المواضع التي فيها شطح في كتبه مدسوسة عليه ، لا سيما كتاب الفتوحات المكية ، فإنه وضعه حال كماله بيقين ، وقد فرغ منه قبيل

موته بنحو ثلاث سنين ، وبقرينة ما قاله في الفتوحات المكية في مواضع كثيرة ، من أن الشطح كله رعونة نفس ، لا يصدر قط من محقق ، وبقرينة قوله أيضاً في مواضع من أراد أن لا يضل فلا يرم ميزان الشريعة من يده طرفة عين ، بل يستصحبها ليلاً ونهاراً عند كل قول وفعل واعتقاد ، انتهى.

وبالجملة فلا يحل مطالعة كتب التوحيد الخاص إلا لعالم كامل ، أو من سلك طريق القوم ، وأما من لم يكن واحداً من هذين الرجلين فلا ينبغي له مطالعة شيء من ذلك ، خوفاً عليه من إدخال الشبه التي لا يكاد الفطن أن يخرج منها ، فضلاً عن غير الفطن ، ولكن من شأن النفس كثرة الفضول ، ومحبة الخوض فيما لا يعنيها ، وقد وضع بعض العلماء من السلف كتاباً جمع فيه كثيراً من الكلمات التي ينطق بها العوام مما يؤدي إلى الكفر ، وحذر فيه من النظر في جملة من الكتب ، نصيحة للمسلمين.

وقد حبب لي أن أذكر لك طرفاً من ذلك هنا لتجتنب النطق به أو النظر فيه فأقول وبالله التوفيق:

مما يقع فيه كثير من الناس قولهم: يا من يرانا ولا نراه ، وقولهم: يا ساكن هذه القبة الخضراء ، وقولهم: سبحان من كان العلا مكانه ، ونحو ذلك ، ومثل ذلك لا يجوز التلفظ به لما يورث من الإيهام عند العوام ، وأن الله تعالىٰ في مكان خاص.

وإن قال هذا القائل: أردت بقولي: ولا نراه ، عدم رؤيتنا له في الدنيا.

قلنا له: قد أطلقت القول ، والإطلاق في محل التفصيل خطأ ، وقد أجمع أهل السنة على منع كل إطلاق لم ترد به الشريعة ، سواء كان في حق الله تعالىٰ أو في حق أنبيائه أو في حق دينه ، وكان الشيخ أبو الحسن الأشعري يقول: ما أطلق الشرع في حقه تعالىٰ ، أو في حق أنبيائه ، أو في حق دينه أطلقناه ، وما منع منعناه ، وما لم يرد فيه إذن ولا منع ألحقناه بالممنوع حتى يرد الإذن في إطلاقه ، انتهى.

وقال القاضي أبو بكر الباقِلاّني: ما لم يرد لنا فيه إذن ولا منع نظرنا فيه ، فإن أوهم ما يمتنع في حقه تعالىٰ منعناه ، وإن لم يوهم شيئاً من ذلك رددناه إلى البراءة الأصلية ، ولم يحكم فيه بمنع أو إباحة ، انتهى.

فقد اتفق الإمامان على منع كل إطلاق يوهم محظوراً في حق الله تعالىٰ ، وتبعهما العلماء على ذلك قاطبة ، وقد نقلوا فيه الإجماع ، فعلم من هذه القاعدة أن كل من كان لا يفرق بين ما يوهم إطلاقه محظوراً ، وبين غيره ، فلا يجوز له أن يطلق في حق الله تعالىٰ إلا ما ورد به التوقيف والإذن الشرعي ، حذراً أن يقع فيما لا يجوز إطلاقه على الله تعالىٰ ، فيأثم أو يكفر، والعياذ بالله تعالى.

ومما يقعون فيه أيضاً قولهم: يا دليل الحائرين ، يا دليل من ليس له دليل ، يا دليل الدليل ، ونحو ذلك ، وكله لم يرد به شرع ، فلا ينبغي أن يقال ، وكذلك من الخطأ قولهم: يا من لا يوصف ولا يُعرف ، فإنه تعالىٰ موصوف معروف من غير تكييف.

ومما يقعون فيه أيضاً قولهم: يا من هو في عرشه يرانا ، لإيهامه الاستقرار ، وإنما يقال: يا من استوى على عرشه كما ينبغي لجلاله ، وقد أجمع أهل الحق على وجوب تأويل أحاديث الصفات ، كحديث «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»[1] وخالف في ذلك الكرامية المجسمة والحشوية المشبهة ، فمنعوا تأويلها ، وحملوها على الوجه المستحيل من حقه تعالىٰ من التشبيه والتكييف ، حتى أن بعضهم كان على المنبر ، فنزل درجاً منه ، وقال للناس: ينزل ربكم عن كرسيه إلى سماء الدنيا كنزولي عن منبري هذا ، وهذا جهل ليس فوقه جهل ، وكل هؤلاء محجوجون بالكتاب والسنة ، ودلائل العقول ،وإذا تعددت وجوه الحمل لآيات الصفات وجب الأخذ بالوجه الراجح عند الشيخ أبي الحسن الأشعري ، لقوله تعالىٰ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] ولقوله تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧ ، ١٨]. وذهب سفيان الثوري والأوزاعي وغيرهما إلى أنه يطرح التشبيه والتكييف ، ويقف عند تعيين وجه من وجوه التأويل.

ومما يمتنع شرعاً إطلاق بعضهم على الله تعالىٰ الخمار ، والساقي ، وراهب الدير ، وصاحب الدير ، والقسيس ، وليلى ، ولبنى ، وسعدى ، وأسماء ، ودعد وهند ، والكنز الأكبر ، ونحو ذلك ، وكذلك لا يجوز إجماعاً إرادة ذاته تعالىٰ بقول بعضهم:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا

وقول بعضهم:

تمازجت الحقائق بالمعاني ... فصرنا واحداً روحاً ومعنى

فكل هذا وأمثاله لا يجوز عنه أهل السنة والجماعة.

وقد سألت سيدي علياً الخواص عن التغزلات التي في كلام القوم ، هل مرادهم بها الله تعالىٰ؟ فقال: لا ، إنما مرادهم بها الخلق ، ولكن يفهم الفاهم منها في حق الحق ما يبعثه عند سماعها على الحضور مع الحق ، قال: لأنَّ أولياء الله تعالىٰ أعرف الخلق بالله تعالىٰ بعد الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ويجلون الحق تعالىٰ عن أن يجعلوه محلاً لتغزلاتهم ، فلذلك ضربوا الأمثال بالمحبين والمحبوبين من قيس ولبنى وغيلان ونحو ذلك ، انتهى ، فليتأمل.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل (١١٤٥) ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الترغيب في الدعاء والذكر (٧٥٨).

ومما يحرم سماعه من الشعر ما يخطر في نحو قول المتنبي في محمد بن زريق:

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه ... لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان لج البحر مثل يمينه ... ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه ... عبدت فصار العالمون مجوسا[1]

وقوله أيضاً:

أنا في أمة تداركها الله غريب، كصالح في ثمود.

فكل هذا وأمثاله يفهم التهاون بمعجزات الأنبياء، فلا يجوز. وأكثر ما يقع مثل ذلك في شعر المعري، وأبي نواس بن هانىء، فليتحفظ المؤمن من سماع ذلك، ويزجر من يتكلم به، فإن الإجماع قد انعقد على أن سوى الأنبياء من البشر لا يبلغون مقام الأنبياء أبداً، فكانت هذه الإشارات التي في الشعر خطأ بإجماع الأمة، وكان سبب توبة أبي العتاهية عن الشعر أنه أنشد مرة:

الله بيني وبين مولاتي ... أبدت لي الصدّ والملالات[2]

فقيل له في المنام: أما وجدت من تجعل بينك وبين امرأة في الحرام إلا الله تعالىٰ، فاستيقظ وتاب، فلم ينظم بعد ذلك بيتاً إلا في الزهد والترغيب في الطاعات.

ومما ينبغي اجتنابه قولهم: فلان حجة الله في أرضه على عباده، فإن ذلك خاص بمرتبة الرسل، فلا يطلق على غيرهم، اللهم إلا أن يراد أنه كآحاد العباد من حيث أنهم كلهم حجة دالة على قدرة الله تعالىٰ، وعلم من باب أولى وجوب اجتناب الألفاظ التي لا تليق إلا بالحق تبارك وتعالىٰ، كقول بعضهم في كتب المراسلات: الأعظم، الأقرب، الأعلى، ونحو ذلك، فإن معانيها لغة حيث أطلقت خاصة بالحق تعالىٰ، فإن قال قائلها: أردت الخلق، قلنا له: قد تقدم أن الإطلاق في محل التفصيل خطأ، وقد أوهم كلامك الإطلاق والعموم في الحق والخلق، وذلك ممتنع.

وكذلك مما ينبغي اجتنابه قول بعضهم: ما في الوجود إلا الله، وقولهم: إن الله في قلوب العارفين. وإنما الصواب أن يقال: ما في الوجود في الأزل إلا الله، ومعرفة الله في قلوب العارفين، وإليه الإشارة بحديث: «وسعني قلب عبدي المؤمن»[3] أي: وسع معرفتي من غير إحاطة بي.

---

(١) انظرها في ديوانه.
(٢) انظره في ديوانه.
(٣) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٥)، وابن أبي عاصم في الزهد (١/ ٨١).

وكذلك مما ينبغي اجتنابه قولهم: هذا زمان سوء، ويراد أن الزمان هو الدهر، وقد قال تعالىٰ في الحديث القدسي: «**أنا الدهر**»[1] فما أطلقه الحق تعالىٰ على نفسه لا يجوز لأحد أن يصف به مخلوقاً، وفي الحديث: «**لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله**»[2]

وكذلك مما ينبغي اجتنابه قولهم: ما يسمع الله من ساكت، ويراد أنه لا يعلم الأسرار، وهذا الإطلاق لا يجوز لمضادته لنحو قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ﴾ [الزخرف: ٨٠]. وقد قامت براهين العقول على أن الله تعالىٰ يسمع كل موجود حتى حديث النفس في النفس.

وكذلك مما ينبغي اجتنابه قول بعض الخطباء: سبحان من لم يزل معبوداً؛ لأنه عبد عند من لم يعلم كونه معبوداً بالقوة أي أهلاً لأن يعبد؛ لأنه يوهم قدم العالم، وذلك كفر.

وكذلك مما ينبغي اجتنابه قولهم: يا قديم الأزمان؛ لأن الرب لا يتقيد بالزمان، فهو كلام باطل.

وكذلك مما ينبغي اجتنابه قول بعضهم: كل ما يفعله الله خير لإيهامه نفي الشر في العالم، وأن كل ما يكسبه العبد من المعاصي خير.

وكذلك مما ينبغي اجتنابه قول بعضهم لأمير الجيش مثلاً: لا تسافر حتى يطلع القمر مثلاً، فإن ذلك مثل قول بعضهم: مطرنا بنوء كذا على حد سواء، وقد قال منجم مرة لعمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه: لا تقابل أعداءك حتى يطلع لك القمر، فقال له عمر: وهو قمرهم أيضاً، أي كما يكون لي بطلوعه سعد كذلك يكون لهم؛ لأن طلوعه على الجيشين واحد.

وكذلك مما ينبغي اجتنابه قول بعضهم إذا دخل على مريض: الله يحمل عنك؛ لأنه لفظ موهم. وإنما الأدب أن يقال: الله يدفع عنك أو يصرف وكذلك مما ينبغي اجتنابه قول بعضهم: فلان يطلع على الغيب؛ لأنه يوهم باطلاً، وإنما الأدب أن يقال: فلان له فراسة صادقة، أو كشف، أو اطلاع فقط؛ لئلا يزاحم الرسل في مقام العلم والقطع، فإنه ليس للأولياء إلا الظن الصادق فقط، الذي هو في اصطلاحهم عبارة عن الاعتقاد الصحيح الجازم المطابق للواقع فقط، خلافاً لبعضهم، وهذا الظن هو الذي يسمونه إلهاماً، وفتحاً، وكشفاً.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب وما يهلكنا إلا الدهر (٤٨٢٦)، ومسلم، كتاب الألفاظ في الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب الأدب، باب لا تسبوا الدهر، ومسلم، كتاب الألفاظ في الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

وكذلك مما ينبغي اجتنابه قول بعضهم: باعك الله وأقالك الله، إذا سئل في البيع أو الإقالة؛ لأنه يوهم مذهب أهل الاتحاد، وذلك كفر.

وكذلك يجب اجتناب تصغير شيء من شعائر الله تعالىٰ، كقوله: مصحيف ومسجد، ولويح، ونحو ذلك؛ لأنه كفر عند بعض العلماء.

وكذلك ينبغي اجتناب تسمية الكتب المؤلفة أسماء تضاهي القرآن والوحي، فإن ذلك غير جائز شرعاً، كقول بعضهم عن مؤلفه كتاب «الإسراء والمعاريج»، أو «مفاتح الغيب»، أو «الآيات البينات»؛ لإيهامها مزاحمة النبي ﷺ في الإسراء، أو العروج إلى السماء، أو مشاركة الحق تعالىٰ في علم الغيب.

قال الإمام العلامة عمر بن محمد الأشبيلي الأشعري رضي الله تعالىٰ عنه في كتابه المسمى بـ«لحن العوام»[(١)]: وليحذر من العمل بمواضع من كتاب «الإحياء» للغزالي، ومن كتاب «النفخ والتسوية»[(٢)] له، وغير ذلك من كتب الفقه، فإنها إما مدسوسة عليه، أو وضعها أوائل أمره ثم رجع عنها، كما ذكره في كتابه «المنقذ من الضلال»[(٣)]، وكذلك يحذر من مواضع في كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب الملكي، نحو قوله: الله تعالىٰ قوت العالم، ومن مواضع في تفسير مكي، ومن مواضع كثيرة في كلام ابن ميسرة الحنبلي، وقد صنف الناس في الرد عليه.

وليحذر من مطالعة كلام منذر بن سعيد البلوطي، فإنه مخلوط بكلام أهل الاعتزال لما عاشرهم حين رحل إلى بلاد المشرق، ومن مطالعة كتب ابن برجان، وكذلك مواضع في تفسير الزمخشري، وبعضها كفر صراح، وكذلك يحذر من مطالعة كتاب «إخوان الصفاء»[(٤)]، وهو مشتمل على اثنين وخمسين رسالة، وهو تأليف المجريطي، وقد ذكروا أنه كان من الملحدين المجانبين لطريق الإسلام، وكذلك يحذر من مطالعة كلام إبراهيم النظام، وابن الراوندي، ومعمر بن المثنى، ومن مطالعة قصيدة عبد الكريم الجيلي التي رَوِيُّهَا العين المضمومة، ومن جملتها:

قطعت الورى من نفس ذاتك قطعة ... وما أنت مقطوع ولا أنت قاطع

فإنه لفظ لا يجوز إطلاقه على الله تعالىٰ مطلقاً، ومن مطالعة كتاب «خلع النعلين»[(٥)] لابن

---

(١) ذكره في إيضاح المكنون (٢/ ٤٠١).

(٢) ذكره في كشف الظنون (٢/ ١٨٧٧).

(٣) واسمه المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحول. انظر كشف الظنون (٢/ ١٨٦٩).

(٤) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٩٠٢).

(٥) واسمه خلع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين. اهـ. كشف الظنون (١/ ٧٢٢).

قسي ، لعلو مراقيه عن الفهم ، وكذلك تائية سيدي محمد وفاء.

وليحذر كل الحذر من مطالعة كتب محمد بن حزم الظاهري إلا بعد التضلع من علوم الشريعة ، لا سيما ما فيها مما يتعلق بأصول الدين ، وقواعد العقائد والمعاني والحقائق؛ لأنه رحمه الله تعالىٰ لم تكن له يد في هذه العلوم ، وإنما أخذها بالفهم ، فلم يحسن كلامه فيها ، وكذلك ينبغي أن يحذر من مطالعة كلام الحفيد ابن رشد؛ لأن غالب كلامه في المعتقد فاسد.

وليحذر أيضاً من مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالىٰ عنه لعلو مراقيها ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ ، لا سيما «الفصوص»[1] و«الفتوحات المكية» ، فقد أخبرني الشيخ أبو طاهر عن شيخه عن الشيخ بدر الدين بن جماعة أنه كان يقول: جميع ما في كتب الشيخ محيي الدين من الأمور المخالفة لكلام العلماء فهو مدسوس عليه ، وكذلك كان يقول الشيخ مجد الدين صاحب القاموس في اللغة.

قلت: وقد اختصرت «الفتوحات المكية» وحذفت منها كل ما يخالف ظاهر الشريعة ، فلما أخبرت بأنهم دسوا في كتب الشيخ ما يوهم الحلول والاتحاد ، وردّ عليّ الشيخ شمس الدين المدني بنسخة «الفتوحات» التي قابلها على خط الشيخ بقونية ، فلم أجد فيها شيئاً من ذلك الذي حذفته ، ففرحت بذلك غاية الفرح ، فالحمد لله على ذلك.

وليحذر أيضاً من مطالعة كتب عبد الحق بن سبعين ، لما فيها مما يوهم الحلول والاتحاد والتشبيه ، وأقوال الملحدين ، ومنع بعضهم من سماع كلام سيدي عمر بن الفارض في التائية ، والجمهور على جواز ذلك مع التأويل.

فهذه عدة نصائح وتحذيرات قد سبقت إليها ، فزنها بميزان الشرع ، فإن لم تجد عنها بداً فاعمل يا أخي بها ، وعليك بمطالعة كتب الشريعة من حديث وتفسير وفقه ، والاقتداء بأئمة الدين من الصحابة والتابعين وتابع التابعين ومقلديهم من الفقهاء والمتكلمين ، رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

وإياك والاجتماع بهؤلاء الجماعة الذين تظاهروا بطريق القوم في النصف الثاني من القرن العاشر من غير أحكام قواعد الشريعة ، فإنهم ضلوا وأضلوا بمطالعتهم كتب توحيد القوم من غير معرفة مرادهم ، وقد دخل علي منهم شخص وأنا مريض ، ولم يكن عندي أحد من الناس ، فقلت له: من تكون ؟ قال: أنا الله ، فقلت له: كذبت ، فقال: أنا محمد رسول الله ، فقلت له: كذبت ، فقال: أنا الشيطان وأنا اليهودي ، فقلت له: صدقت ، فوالله لو كان عندي أحد يشهد عليه لرفعته إلى العلماء فضربوا عنقه بالشرع الشريف ، فالحمد لله الذي عافانا وإخواننا من مثل ذلك ، فالله تعالىٰ يوفق الإخوان ويتولاهم ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) واسمه فصوص الحكم. اهـ. كشف الظنون (٢/ ١٢٦).

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم تنفيذ غضبي فيمن غضبت عليه عند القدرة ، فإن من كمال أخلاق المؤمن إخلافه الوعيد تخلقاً بصورة أخلاقه ﷺ ، وقد قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»[1] ، اللهم إلا أن يكون هناك حد مشروع ، فمثل ذلك لا ينبغي إخلافه على أن الإيعاد بإيقاع الحد إنما هو صورة وعيد فقط ، وإلا فهو في الحقيقة إنما هو وعد لما فيه من التطهير ، فتأمل يا أخي في هذا الحديث فإنه أمرنا فيه بخلف الوعيد ، وجعله خيراً.

وهنا دقيقة ينبغي التفطن لها وهي: أن كل من آسى علينا فقد أعطانا من خير الآخرة مما نحن محتاجون إليه فيها ، حتى أنه لو كشف عن أحدنا الغطاء هنا لرأى أنه لم يعطه أحد شيئاً ، ولم يحسن إليه بمثل إساءته عليه أبداً ، ومن كان هذا مشهده فمن اللائق به أن يجازيه كذلك بالإحسان والفضل ، فضلاً عن الصفح عنه أو الحرمان ، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. فقال أبو بكر رضي الله تعالىٰ عنه: بل أحب أن يغفر الله لي ، وردّ على مسطح نفقته لأجل شفاعة الله تعالىٰ في مسطح عنده ، فاعلم ذلك ، واعمل عليه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حفظ الأدب مع أشياخي وأصحابي ، فلا أمدحهم إلا بحضرة من يعتقدهم ، ولا أبالغ في تعظيمهم كل ذلك التعظيم بحيث يبقى عند الناس حزازة أو إنكار عليّ ، أو على مشايخي ، ويتكدر من ذلك بعض أقرانهم ، ولذلك كنت أقول في بعض الأوقات: وقع لي كذا من بعض فقراء العصر ولا أعينه ، إذا كان هناك أحد من أقرانه الذين يصفونه بغير ما وصفت ، رحمة به وبهم.

وهذا الأمر يقع في كثير من مريدي مشايخ هذا العصر ، فيبالغون في تعظيم شيخهم حتى تسخر الناس بهم ، وقد وقع لبعض المغفلين أنه جهز بنته ، فاحتاج إلى طراحة ولحاف ، وليس معه مال ، فأتى التاجر بكيس فيه من شعر رأس شيخه رهناً على الثمن ، فسخر به التاجر ، وقال: لو أتيتني بأردب من شعر شيخك ما أخذته بجديد ، فمكث أهل السوق يضحكون على ذلك مدة ، ويسخرون به مدة طويلة ، فينبغي للشيخ أن يزجر جماعته إذا رآهم يبالغون في تعظيمه ، وإلا خيف عليه النفي والإخراج من مملكة السلطان بحكم القانون ، وقد بالغ الشيعة في تعظيم الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه ، فأحرقهم بالنار ،

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الأيمان ، باب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها (١٦٥٠) ، والترمذي ، كتاب النذور والأيمان ، باب ما جاء فيمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها (١٥٢٩)

فصاروا يصيحون في النار الآن تحققنا أنك إله لأنه لا يحرق بالنار إلا الله ، فقال الإمام: اللهم اشهد أني زجرتهم جهدي.

فإياك يا أخي من مسامحة أصحابك في المبالغة في تعظيمك ، فإن في ذلك مفاسد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم اهتمام نفسي بعمارة شيء من الدنيا من بيت أو مركب أو بستان ونحو ذلك ، وقد توقف البناء والنجار لما عمروا قاعتي ومركبي عن البداءة ، حتى أحضر ، فلم أفعل ، كل ذلك هواناً بأمر الدنيا ، وربما كان ذلك اليوم يوم عيد عند أبناء الدنيا.

وقد خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة وقال: «**ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(١) وكانت درجة من سلم غرفته تزلزلت حتى زهقت به ، فانفكت رجله ، ومكث لا يمشي نحو شهر ، فقالوا له: ألا تصلحها ، فقال: لا ، ومات وهي كذلك.

وأيضاً فإن نفوس الفقراء أشرف من نفوس الملوك ، وما رأينا قط أحداً من صالحي أكابر الملوك أو الأمراء اعتنى بحضور ابتداء عمارة له ، بل يكل مثل ذلك إلى غلمانه إلا لمصلحة أخرى ، كإظهار القدرة على تحمل أعباء المرتبة ،أو تنشيط أتباعه ، فافهم يا أخي ذلك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم اهتمامي بشيء من ملابس الدنيا ، فلا أذهب قط إلى سوق الجوخ أو الصوف أو البعلبك وأجلس في دكان لأجل ذلك ، وكذلك لا أراعي قط الذهاب إلى السوق في مثل يوم الاثنين والخميس مثلاً ، بقصد وقوع قطعة رخيصة ، بل أرسل وكيلي إلى السوق أي وقت كان ، وأعزم عليه أن لا يأتيني بالقماش قط ليعرضه عليّ ، بل أقول له كل شيء انشرح صدرك له فاشتره لي ، فإن رجوع الوكيل من السوق ثانياً ليشاورني أثقل عليّ من وزن ثمن ذلك ، هروباً من ثقل المنة عليّ ، لا سيما إن كان ماشياً صائماً في الحر.

وقد رأيت شخصاً من المعتقدين في مصر ، كلما أراد أن يشتري له جوخة أو صوفاً يجلس في المدرسة الغورية ، ويصير الدلالون يعرضون عليه القماش وهو يرده فلا يعجبه منه شيء ، وربما رجع آخر النهار بلا شراء ، ثم يأتي السوق الثاني. وما هكذا كان السلف الصالح الذين أدركناهم.

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في أخذ المال بحقه (٢٣٧٧) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)

فإن قال قائل: إنما يعرضون على الشيخ القماش ويرده؛ لأنه دائر على ما يعلم أن الله تعالىٰ قسمه له.

قلنا للقائل: لو كان هذا معه علم سابق بما قسمه الله له لأرسل التاجر فطلبه منه من أول مرة، وأراح الدلال أو الغلام من التعب، وفي كلام القوم: الفقير لباسه ما وجد، وقالوا: إذا رأيتم الفقير في زيه لبق، فاعلموا أنه عن الاستقامة زلق.

وفي الحديث: «إن الله تعالىٰ يحب المؤمن المتبذل»[1] أي: الذي لا يبالي بما لبس.

وفي كلام السيد عيسى عليه الصلاة والسلام: **«والله إن لبس المسوح وسف الرماد والنوم على المزابل لكثير على من يموت»**.

وكانت ثياب الشعبي رحمه الله تعالىٰ لونها لون التراب، وكانوا إذا قالوا له: إن ثوبك قد اتسخ، يقول: ليت قلبي في القلوب كثوبي في الثياب، فافهم يا أخي ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تعففي عن المبادرة إلى إجابة من دعاني وإخواني إلى التفرج في بستانه أيام الفواكه، أو إلى الزيارة عنده في أيام النيل ونحو ذلك، لا سيما إن كان عازماً على أنه يتكلف لنا الطعام مدة تفرجنا أو زيارتنا عنده، ولا يمكننا أن نفعل شيئاً من ذلك معه، وربما اجتمع مع الفقير جماعة لا يتورعون، بل يأكلون ما يجدونه ولو بسيف الحياء، أو يقطعون ثمر الفواكه أيام المشمس، أو العنب قبل استوائه، وربما طبخوا في البستان الحامض بحصرم البستان من غير طيبة نفس صاحبه، وربما كان العازم عليهم في البستان شريكاً لأقوام لا تطيب نفوسهم بذلك، أو لا يتصور منهم إذن لصغرهم أو سفههم مثلاً، وربما علم الجماعة الذين يذهبون مع الفقير عدم طيب نفس صاحب البستان بكثرة أكلهم من الفواكه أيام نضجها وكمالها، ولبسوا على أنفسهم، وصاروا يمدحونه بخلاف ما في نفوسهم، ويقولون: ما رأينا أطيب نفساً من فلان، ولا أكثر محبة لسيدي الشيخ والفقراء منه، وقلبهم يشهد بخلاف ذلك.

وهذا الأمر يقع فيه كثير من الفقراء في هذا الزمان، فربما دعاهم إنسان إلى التنزه في بستانه تجملاً، أو بطلبهم، فيأذن لهم حياء منهم، فيذهب سيدي الشيخ معه بمن هب ودب من الناس، فيحصل لصاحب البستان ذلك اليوم غاية الأذى.

وربما كان سبب دعائهم إلى ذلك البستان قول جماعة الشيخ لصاحب البستان بحضرة الناس الذين يستحي منهم بلفظ المباسطة اي وقت تأخذ الفقراء إلى بستانك يتنزهون فيه ؟ فلا

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٢٨٥)، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٨٥٥)

يسعه إلا أن يقول: أي وقت طلبتم ، فيقولون: يوم كذا ، وربما قال الفقراء لصاحب البستان: قد حصل لبستانك الخير في هذه السنة الذي دخله سيدي الشيخ ، فقال صاحب البستان بقلبه: ما بقي فيه هذه السنة بركة.

فليحذر من يقال له سيدي الشيخ من وقوعه في مثل ذلك ، فإن كان ولا بد له من الإجابة بطريقه الشرعي ، فليكافىء صاحب البستان ولو بإعطائه عمامته في نظير كلفته في الطعام والفاكهة التي أكلوها ، ثم يسألونه براءة الذمة فيما لعلهم أكلوه زائداً على ما بذلوه على العادة الشرعية.

وقد وقع لبعض مشايخ العصر أنه ذهب هو وجماعته من غير دعوة إلى بستان صاحبي سيدي شرف الدين بن الأمير ، فصار بواب البستان يسمع صوت ذلك الشيخ وجماعته فلا يأذن لهم ولا يفتح ، فحصل للشيخ وجماعته غاية الخجل ، ثم إن جماعة من الأروام جاءوا فدقوا الباب دقاً مزعجاً ، وخوفوا البواب ، ففتح لهم ، فدخلوا كلهم وقطعوا ثمر البستان وطبخوا من الحصرم بغير إذن سيدي شرف الدين بن الأمير ، وطبخوا بحطبه بغير إذن ، فحصل له بهم غاية الأذى.

وقد سألته حتى عجزت فيه أنه يبرىء ذمة الشيخ وجماعته في الحصرم الذي طبخوا به ، والنعناع والبقل والكراث الذي أكلوه فلم يرض ، وأخّر الأمر إلى يوم القيامة ، ولعمري هذا من الشيخ خروج عن الشريعة ، وعن هدي السلف الصالح ، وكان الواجب على هذا الشيخ أن يتعفف عن مثل ذلك وينزه خرقة الفقراء عن مثل ذلك.

وقد قالوا: من شرط الفقير أن يكون خفيف المؤنة على الناس ، يلحق بلاحق اللاحق ، لا سيما في هذه الأيام ، ولا ينبغي له أن يذهب إلى بستان أحد أو زيارته أيام النيل إلا بعد دخلة عظيمة عليه ، بحيث يظهر له صدق محبة الداعي في ذلك ، فافهم ذلك واعمل عليه ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حيائي من الله عز وجل إذا مشيت وحدي في طريق ، ولعله مراد الشارع ﷺ بقوله: «**لو تعلمون من الوحدة ما أعلم ما سافر أحدكم وحده**»[1] انتهى.

ومن شرط الفقير أن يكون مراقباً لله عز وجل على الدوام إلا في أوقات يتفضل الله تعالىٰ بها عليه ، لكون البشر يعجز عن مراقبة الله تعالىٰ مع الأنفاس ، بخلاف الملائكة.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالىٰ يقول: ينبغي للفقير أن يلازم المراقبة لله

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب السير وحده (٢٩٩٨) ، والترمذي ، كتاب الجهاد ، باب ما جاء في كراهية أن يسافر الرجل وحده (١٦٧٣).

تعالىٰ إذا سافر ، ويستشعر نظر الحق تعالىٰ إليه حتى يرجع إلى مقصده ، وذلك ليحفظه الله تعالىٰ من الآفات التي تطرق غالب المسافرين ، فإن العبد مادام يستحضر أن الله تعالىٰ ينظر إليه ، وأنه بين يديه ، لا يسطو عليه إنس ولا جن ولا شيطان.

وتأمل يا أخي نفسك إذا وقفت وحدك بين يدي سلطان ، كيف تعمل الهيبة ، بخلاف ما إذا كنت من جملة الناس ، فإن الهيبة تخف عليك لاستئناسك بالناس.

وفي بعض طرق حديث الإسراء: **«أن رسول الله ﷺ لما زج به جبريل في النور ، ووقف بين يدي الله تعالىٰ، وعمته الهيبة، سمع صوتاً يشبه صوت أبي بكر يقول: يا محمد قف إن ربك يصلي، فسكن روعه بذلك»**[1] وفي الحديث الوارد في شأن استحباب الجماعة في السفر: **«أن رسول الله ﷺ قال: الواحد شيطان ، الاثنان شيطانان ، والثلاثة ركب»**[2] انتهى.

ومن فوائد الثلاثة فأكثر أنه إذا مرض واحد منهم تخلف واحد عنده يمرضه ويخدمه ، وواحد يبلغ خبره إلى أهله ، وواحد يخدم الدواب ، بخلاف الواحد أو الاثنين ، فتأمل يا أخي ما أحكم إرشاده ﷺ لأمته ، وما أكثر شفقته عليهم ، واقتد به في ذلك.

وتقدم في هذه المنن أن مما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ عدم خوفي من السير في السفر ليلاً ، وهو لا ينافي ما ذكرناه هنا؛ لأن ذلك من حيث عدم خوفي من اللصوص أن يأخذوا ثيابي وما معي من الأمتعة الخاصة بي دون الخاصة بغيري ، وهذا من حيث حيائي من الله تعالىٰ ، فهذا مشهد ، وذاك مشهد ، انتهى

فاعلم ذلك وافهمه ، واعمل عليه ترشد ، والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كراهتي لتردد أصحابي عليّ كثيراً ، لا سيما إن كان سبب إكثارهم من التردد مراعاة خاطري ، فيترك أحدهم مهماته ، ويقول: نذهب إلى زيارة سيدي الشيخ ليحصل لنا بركته.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول لنا: لولا أني أخاف من فلان أن يتكلف ويأتي إذا قلت لكم إنه أوحشنا كثيراً لقلت ذلك ، انتهى.

فينبغي للفقير أن لا يستجلب إخوانه إلى التردد إليه أبداً ، لا سيما إن كان من عادتهم أن لا يأتوا إلا بهدية ، ولا يقبلون عليهم مكافأة فإن ذلك يتعين على الفقير.

---

(١) أخرجه الذهبي في ميزان الاعتدال ٦/ ٣٦٦

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب الجهاد ، باب ما جاء في كراهية أن يسافر الرجل وحده (١٦٧٤) ، وأبو داود ، كتاب الجهاد ، باب في الرجل يسافر وحده (٢٦٠٧) ، وأحمد في مسنده (٦٧٠٩).

وقد قلت مرة لبعض إخواني: إن صاحبنا بهاء الدين النقلي بباب زويلة أوحشنا كثيراً فراح شخص وبلغه، فأصبح عندي بقوطة فاكهة، وبدن صوف، فمن ذلك اليوم ما قلت لأحد أوحشنا فلان.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول: ربما أشتاق إلى رؤية بعض الإخوان، فلا أذكر ذلك لأحد خوفاً أن يبلغهم فيأتي أحدهم متهوراً بغير نية صالحة، وربما كان وراء أحدهم ضرورات من أمور معيشته، فيتركها ويأتي لزيارتي، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يكره لفقراء عصره أن يحجروا على أصحابهم أن لا يغيب أحدهم عن مجلسهم، أو وردهم بعد صلاة الجمعة مثلاً، لا سيما أرباب الحرف، فإنهم يداوون نفوسهم بالتنزه، والخروج إلى مواضع المتفرجات يوم الجمعة، ليدخلوا يوم السبت لحرفتهم من غير ملل ولا سآمة، وليس لسيدي الشيخ حرفة يشتغل بها أيام الأسبوع، بل يأكل من جواليه، أو مسموحة، أو رزقته، أو من هدايا أصحابه، وربما كان ليس عليه كراء بيت، ولا حانوت، ولا مغارم للظلمة، فليراع الشيخ مصلحة جماعته إن طلب ملازمتهم لأوراده، وإلا نفروا منه قهراً عليهم.

وقد سئل سفيان بن عيينة رضي الله تعالىٰ عنه، عن رجل يحترف ما يقوم بنفسه وعياله، ولو ذهب لصلاة الجماعة لتعطل عن ذلك، فقال: يحترف ما يقوم بنفسه وبعياله، ويصلي وحده، انتهى.

وفي القرآن العظيم: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]. أي للقيام بالأسباب ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]. أي اذكروا الله تعالىٰ حال انتشاركم في الأرض، للقيام بالأسباب التي يعود عليكم نفعها.

فإن قال قائل: الانتشار في الأرض في الآية مباح، لا مأمور به على مصطلح الأصوليين.

قلنا قد قال العلماء: إنه إذا قصد بفعل المباح غرضاً صحيحاً صار مستحباً، كأن ينوي بالنوم في النهار التقوي على العبادة في الليل، أو بالأكل التقوي على فعل المستحبات، ونحو ذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إنما شرع الحق تعالىٰ المباح تنفيساً لعباده من مشقات التكاليف، لعجزهم عن دوام التحجير عليهم في فعل المأمورات، فجعل لهم حالة لا يكونون فيها تحت أمر يتنفسون فيها.

ويؤيد ما قاله العلماء آنفاً حديث: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»[1] ففتح لأمته باب حيازة ثواب الأعمال التي لم يقسم لهم مباشرتها فكل عمل أرادوا ثوابه نووا فعله،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي (١).

فقد يحصل لهم ثوابه من غير مباشرته ، كما ورد فيمن عزم على قيام الليل ، فأخذ الله بروحه إلى الصباح ، فإن الله يكتب له أجر قيام تلك الليلة كاملاً موفراً سالماً من المناقشة فيه ، ولو أنه قام وباشر الفعل لربما نوقش في ذلك من حيث عدم الإخلاص ، فخفف جزماً يا أخي على إخوانك بعدم التحجير ، والله يتولى هداك ، ويدبرك في بلواك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حفظ زوجاتي من حضور الأعراس التي لا ينضبط أصحابها على القوانين الشرعية ، بل يخلطونها بعدة محرمات كضرب الآلات ، والمحبظين الذين يحكون الحكايات السخريات ، مع اختلاط الرجال بالنساء ، ومع عدم التورع من كل من الفريقين عن الوقوع فيما لا ينبغي ، وهذا الأمر قد كثر وقوعه في الأعراس والموالد ، وبعضهم يختم ليلته بعد قراءة القرآن بضرب العود مع الغناء.

وربما قال بعض الزوالق لصاحب الوليمة يكفينا قرآناً ، وأسمعونا شيئاً من الغناء والآلات ، وابسطونا.

وربما قال بعضهم: أبطلوا القرآن ، واسمعونا ما يبسطنا ، ونحو ذلك من الألفاظ التي قد يكفر بها قائلها ، وما هكذا كانت ولائم السلف الصالح رضي الله تعالىٰ عنهم ولذلك شرط العلماء المتأخرون شروطاً لوجوب حضور وليمة العرس منها:

أن لا يخص الأغنياء بالدعوة من نساء ورجال ، ومنها أن لا يكون هناك من يتأذى به المدعو ، أو لا يليق به مجالسته ، أي ولا شيء من المنكرات التي لا تزول بحضوره ، كما هو مبسوط في كتب الفقه.

فإياك يا أخي أن تبادر إلى إرسال عيالك إلى عرس بقصد جبر خاطر الداعي ، حتى تعلم سلامته من مثل هذه الأمور ، وإياك أن تقول: عيالي من الدينات الخيرات التي لا يسرق طبعهن من محبة الغناء وسماع الآلات ، فإنه ربما أخطأ ظنك فيهن ، والطبع سراق فربما سرق طبعهن ، وصرن يملن إلى سماع الآلات والغناء ، فيتلف باطنهن ، ويفسد حالهن ، فاعلم ذلك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: محبتي للشرفاء وأهل البيت ، ولو من قبل الأم فقط ، ولو كانوا على غير قدم الاستقامة؛ لأنهم بيقين يحبون الله ورسوله ﷺ ، ومن أحب الله ورسوله لا يجوز بغضه ، ولا سبه ، بقرينة أنه ﷺ كان يحد نعيمان كلما شرب الخمر ، وأتوا به إليه مرة فحده ، فصار بعض الناس يلعنه ، فقال ﷺ: «**لا تلعنوا نعيمان فإنه يحب الله ورسوله**»[1] فعلم أنه لا يلزم من إقامتنا الحدود على الشرفاء أننا نبغضهم ، بل إقامتنا الحد عليهم إنما هو محبة فيهم ، وتطهير لهم ، وقد قال ﷺ: «**وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد**

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٥٢٩).

سرقت لقطعت يدها»[1] وقال في ماعز لما رجمه «لقد تاب توبة لو قسمت على أهل الأرض لوسعتهم»[2] أي قبلت منهم، وأحبهم الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله تعالىٰ: الذي أقول به: إن ذنوب أهل البيت إنما هي ذنوب في الصورة لا في الحقيقة؛ لأن الله تعالىٰ غفر لهم ذنوبهم بسابق العناية، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ولا رجس أرجس من الذنوب.

قال: وجميع ما يقع منهم من الأذى لنا، يجب علينا في الأدب معهم أن نجعله شبيهاً بالمقادير الإلهية من الأمراض ونحوها، فيجب علينا الرضا به، أو الصبر عليه، وإن أخذوا أموالنا، ولم يعطوها لنا، لا ينبغي لنا حبس أحد منهم ولا رفعه إلى حاكم؛ لأنه بضعة من رسول الله ﷺ، انتهى.

وفي الحديث الصحيح، عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «أنشدكم الله في أهل بيتي»[3] قالها ثلاثاً، وفسر زيد رضي الله تعالىٰ عنه أهل بيته بآل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس.

وقال الجلال السيوطي رحمه الله تعالىٰ: وهؤلاء هم الأشراف حقيقة عند سائر الأمصار، وتخصيص الشرف بآل علي فقط اصطلاح لأهل مصر خاصة، انتهى.

وكان الإمام أبو بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه يقول: ارقبوا محمداً في أهل بيته، وكان يقول: والذي نفسي بيده لقرابة محمد ﷺ أحب إليّ من قرابتي.

وأتى عبد الله بن الحسن بن الحسين مرة إلى عمر بن عبد العزيز في حاجة، فقال: إذا كانت لك حاجة فأرسل إليّ أحضر، أو أكتب لي ورقة، فإني أستحي من الله أن يراك على بابي.

وصلى زيد بن ثابت على جنازة، فلما ركب أخذ ابن عباس بركابه، فقال: خل عنك يا بن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء، فقبل زيد ابن عباس، وقال: هكذا أمرنا أن نفعل مع أهل بيت رسول الله ﷺ.

دخلت بنت أسامة بن زيد على عمر بن عبد العزيز يوماً، فأجلسها في مجلسه، وجلس

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار (٣٤٧٥)، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره (١٦٨٨)

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى (١٦٩٥).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٥٠٢٧).

هو بين يديها وما ترك لها حاجة إلا قضاها ، هذا فعله رضي الله تعالىٰ عنه مع بنت مولى رسول الله ﷺ ، فما ظنك به مع أولاده وذريته.

وبلغ معاوية رضي الله تعالىٰ عنه ، أن كابس بن ربيعة يشبه رسول الله ﷺ ، فكان إذا دخل عليه كابس يقوم عن سريره ويتلقاه ، ويقبله بين عينيه.

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ يقول: لو كان لي مدخل في العصبة مع قتلة الحسين بن علي ، وخيرت بين الجنة والنار لاخترت دخول النار حياء من رسول الله ﷺ أن يقع بصره عليّ في الجنة.

ولما ضرب جعفر بن سليمان الإمام مالكاً رضي الله تعالىٰ عنه ، غشي على مالك فدخل عليه الناس فلما أفاق قال لهم: أشهدكم أني قد جعلت ضاربي في حل ، فقيل: لم ؟ فقال: خفت أن أموت فألقى رسول الله ﷺ فأستحي أن يدخل أحد من آله النار بسببي ، فلما تولى المنصور طلب أن يقتص له منه ، فقال الإمام مالك رضي الله تعالىٰ عنه: أعوذ بالله ، والله ما ارتفع منها سوط عن جسمي إلا وقد جعلته في حل منه ، لقرابته من رسول الله ﷺ.

وكان أبو بكر بن عياش رضي الله عنهما يقول: لو أتاني أبو بكر وعمر وعلي في حاجة ، لبدأت بحاجة علي لقربه من رسول الله ﷺ ، ولئن أخر من السماء إلى الأرض أحب إليّ من أن أقدمه عليهما في الفضل.

وكان أبو بكر وعمر رضي الله تعالىٰ عنهما يزوران أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ ، ويقولان كان رسول الله ﷺ يزورها.

ولما قدمت حليمة مرضعة رسول الله ﷺ على أبي بكر وعمر ، بسطا لها ثوبيهما ، وفي رواية أرديتهما.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: من حق الشريف علينا أن نفديه بأرواحنا ، لسريان لحم رسول الله ﷺ ودمه الكريمين فيه ، فهو بضعة من رسول الله ﷺ ، وللبعض في الإجلال والتعظيم والتوقير ما للكل ، وحرمة جزئه ﷺ بعد موته ﷺ كحرمة جزئه حياً ، على حد سواء.

قال بعض العلماء: ومن حقوق الشرفاء علينا وإن بعدوا في النسب أن نؤثر رضاهم على أهوائنا وشهواتنا ، ونعظمهم ونوقرهم ، ولا نجلس فوق سرير وهم على الأرض ، انتهى.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه: إذا جلس إليه شريف يظهر الخشوع له ، والانكماش بين يديه ، ويقول: إنه بضعة من رسول الله ﷺ ، وكان يقول: من آذى شريفاً فقد آذى رسول الله ﷺ ، وكان يقول: يتأكد على كل صاحب مال إذا رأى شريفاً عليه دين أن يفديه بماله؛ لأنه جزء من رسول الله ﷺ ، وكان يقول: لا ينبغي لمن يؤمن بالله ويحب

رسوله ﷺ ، أن يتوقف عن تعظيم الشريف والإحسان إليه ، حتى يعرف صحة نسبه ، بل يكفيه تظاهر الشريف بالشرف ، وذلك أوجه للمؤمن عند رسول الله ﷺ من حيث أنا عظمناه ووقرناه من غير توقف على صحة النسب.

وكان الإمام مالك رضي الله تعالىٰ عنه يقول: من ادعى الشرف كاذباً يضرب ضرباً وجيعاً ، ثم يشهر ، ويحبس طويلاً ، حتى يظهر لنا توبته؛ لأن ذلك استخفاف منه بحقه ﷺ، ومع ذلك كان يعظم من طعن في نسبه، ويقول: لعله شريف في نفس الأمر.

قال بعض العلماء: ولا ينبغي تعظيم الشريف إذا تعاطى المحرمات ، وخالفه معظم العلماء ، وقالوا: تعظيم الشريف مطلوب بما لا إثم فيه ولو زنى ، وعمل عمل قوم لوط ، وشرب الخمر ، وسحر ، وأكل الربا ، وسرق ، وكذب ، وأكل أموال اليتامى ، وقذف المحصنات ، وآذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، لا سيما إن كانت هذه الأمور لم تثبت عنه على يد حاكم شرعي ، وإنما أشاعها عنه بعض الحسدة كما هو الغالب في الناس اليوم ، فقل من يثبت عنه شيء مما يوجب الحد لاستتار هذه المعاصي عن الناس بفعلها في بيوتهم ، وهي مغلقة عليهم.

قلت: ولم أر من تخلق من أقراني بهذا الخلق إلا قليلاً ، بل رأيت بعضهم يستخدم الشريف المستور ويحمله غاشية سرجه وسجادته ويمشيه خلف بغلته ، وهذا من أدل دليل على شدة جهله بالأدب مع الله ورسوله ، فكيف يدعي التقرب من حضرة الله ، وأنه يدعو الناس إليها ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد تقدم أن إقامة الحدود على الشرفاء لا تنافي تعظيمهم وتوقيرهم ، فنعظمهم من حيث كونهم من ذرية رسول الله ﷺ ، ونقيم عليهم الحد الذي شرعه جدهم ﷺ ، ولم يخص به أحداً دون أحد ، بدليل قوله ﷺ: «**وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»(١) والله أعلم.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: اصطنعوا الأيدي مع الأشراف لمكانهم من رسول الله ﷺ ، وأنووا بذلك الهدية والمودة للقربى دون الزكاة فإن لهم في أعناقنا عبودية لا يمكننا أن نقوم ببعضها ، زيادة على ما لجدهم ﷺ من الحق علينا ، انتهى.

وقد تقدم في هذه المنن أن من الأدب أن لا يتزوج أحدنا شريفة إلا إن عرف من نفسه أنه يكون تحت حكمها وإشارتها ، ويقدم لها نعلها ، ويقوم لها إذا وردت عليه ، ولا يتزوج عليها ، ولا يقتر عليها في المعيشة إلا إن اختارت ذلك ، ولا ينظر إليها إذا كانت أجنبية وهي في الإزار ، ولا ينظر إلى وجهها إذا ابتاعت منه شيئاً ولا ينظر إلى رجلها إذا كان بائع

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٧٣).

الخفاف ، ولا تسأله شيئاً ويمنعه عنها إلا بطريق شرعي ، في جميع الأمور السابقة واللاحقة ونحوها ، ولا يمر عليها وهي جالسة ، على الطرقات تسأل شيئاًيقدر عليه فلا يعطيها ، ونحو ذلك.

فاعلم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: زيارتي كل قليل لأهل البيت الذين دفنوا في مصر كلهم ، أو رؤوسهم فقط ، فأزورهم في السنة ثلاث مرات ، بقصد صلة رحم رسول الله ﷺ ، ولم أرَ أحداً من أقراني يعتني بذلك ، إما لجهله بمقامهم ، وإما لدعواه عدم ثبوت كونهم دفنوا في مصر ، وهذا جمود ، فإن الظن يكفينا في مثل ذلك.

وقد أخبرني سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ: أن السيدة زينب المدفونة بقناطر السباع ابنة الإمام علي رضي الله عنه وكرم اللهوجهه ، في هذا المكان بلا شك ، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يخلع نعله من عتبة الدرب ، ويمشي حافياً حتى يجاوز مسجدها ، ويقف تجاه وجهها ، ويتوسل بها إلى الله تعالىٰ في أن يغفر له.

وأخبرني أن السيدة نفيسة رضي الله تعالىٰ عنها في هذا المكان الذي هي فيه بلا شك ، وأنها كلَّمته من ضريحها مرات.

وأخبرني أن رأس زين العابدين رضي الله تعالىٰ عنه ، ورأس زيد بن الحسين في القبة التي بين الأثل قريباً من مجراة القلعة.

وأخبرني عن الإمام الحسن والد السيدة نفيسة أنه في التربة المشهورة قريباً من جامع القرَّاء بين مجراة القلعة ، وجامع عمرو.

وأخبرني أن رقية بنت الإمام علي في المشهد القريب من جامع دار الخليفة أمير المؤمنين ، ومعها جماعة من أهل البيت.

وأخبرني أن الإمام محمد الأنور عم السيدة نفيسة ، في المشهد القريب من عطفة جامع ابن طولون مما يلي دار الخليفة في الزاوية التي هناك ، ينزل إليها بدرج ، وأن السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله تعالىٰ عنها في الزاوية التي عند الدرب ، قريباً من دار الخليفة عند الحمصانيين.

وأن السيدة عائشة بنت جعفر الصادق رضي الله تعالىٰ عنهما ، في المسجد الذي له المنارة القصيرة على يسارك وأنت تريد الخروج من الرميلة إلى باب القرافة وأخبرني أن رأس السيد إبراهيم ابن الإمام زيد رضي الله عنهما في المسجد الخارج من ناحية المطرية ، ممايلي الخانقاه ، وهو الذي قاتل معه الإمام مالك رضي الله عنه ، واختفى من أجله كذا وكذا سنة.

وأخبرني أن رأس الإمام الحسين رضي الله تعالىٰ عنه حقيقة في المشهد الحسيني قريباً من خان الخليلي ، وأن طلائع بن زريك نائب مصر وضعها في القبر المعروف بالمشهد ، في كيس من حرير أخضر ، على كرسي من خشب الأبنوس ، وفرش تحته المسك والطيب ، وأنه مشى معها هو وعسكره حفاة من ناحية قطية إلى مصر ، لما جاءت من بلاد العجم في قصة طويلة.

فهؤلاء هم الذين بلغنا أنهم في مصر من أهل البيت ، وصححه أهل الكشف.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يختم زيارة أهل البيت بالإمام الشافعي ، رضي الله تعالىٰ عنه.

فعليك يا أخي بزيارة قرابة نبيك محمد ﷺ ، وقدمهم على زيارة كل ولي في مصر ، عكس ما عليه العامة ، فلا تكاد ترى أحداً منهم يعتني بزيارة أحد ممن ذكرنا أبداً ، ويعتني بزيارة بعض المجاذيب ، وينام في موالدهم ، وهذا كله من جملة الجهل ، فاحذر ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: مرضي لمرض السلطان ، واهتمامي به إذا كان في هم من جهاد ، أو قتال بغاة ، أو روافض ، فلا آكل إلا لضرورة ، ولا أنام إلا عن غلبة، ولا أضحك إلا لأمر مشروع، ولا أجامع ، ولا ألبس ثوباً نظيفاً إلا بنية صالحة ، وذلك لارتباطي بإمامي اتباعاً للشرع في ذلك فعلم أن من خالف ما ذكرناه فهو ناقص الإيمان، قليل الأدب مع السلطان، فافهم يا أخي ذلك ترشد، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة اهتمامي بالأمير الذي يعتقد في أحد من أصحابي ، ويحسن إليه إذا أصابته مصيبة في ماله أو ولده ، أو عزل من ولايته ، وفاء بحق صاحبي ، وقليل من الفقراء من يهتم بمثل ذلك ، بل رأيت بعضهم شمت بذلك وفرح ، بخلافي أنا ، فإني بحمد الله تبارك وتعالىٰ لا أزال متوجهاً إلى الله تعالىٰ في جبر مصيبة ذلك الأمير ، مساعدة لصاحبي ، وصيانة لحرفة الفقراء ، وتقوية لاعتقاده فيه ، ولا أقول كما قال غيري: من أكل الغفارة يرد الغارة.

ولما أشاع الناس عزل الأمير محمد بن عمر ، وصرت متوجهاً إلى الله تعالىٰ ليلاً ونهاراً في عدم عزله ، لكونه مستنداً إلى صاحبنا الشيخ زين ابن بنت سيدي علي المرصفي ، نفع الله به ، مع كون هذا الأمير لم يهد إلي قط شيئاً ، ولا جاءني ، وليس عنده في جانبي اعتقاد ، وأصل صحة توجهي في قضاء حاجة الأمير الذي يحسن لغيري ، ويعتقده دوني ، كوني لا أصاحب أميراً قط لأمر دنيوي ،ولو أني صحبته لمثل ذلك وزاحمني أحد فيه لم أقدر على

توجيه قلبي في قضاء حاجته أبداً ، فإن أردت يا أخي العمل بهذا الخلق بسهولة ، فاصحب الأمير لله تعالىٰ لا لعلة.

وكان محمد بن بغداد يظهر الاستناد إليّ وأنا لا أصدقه على ذلك ، فلما حبس في البرج شمتت غالب أرباب الزوايا فيه ، لكونه مستنداً إليّ في الظاهر ، وبعضهم صار يقول: إن شنقوه طبخت للفقراء حلواء ، ولعل ذلك لظنهم أني أقبل منه هدية ، أو آكل له طعاماً ، وهذا أمر لم يقع لي معه قط إلى أن مات ، حماية من الله تبارك وتعالىٰ ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم شهودي أنني وفيت بحق الله تعالىٰ في عمل من الأعمال ، أو حق أحد من خلقه ، لا من حيث الكمية ، ولا من حيث صفاء المعاملة ، ولو أنه كشف للعبد لرأى الدنيا كلها مملوءة من حقوق اللهوحقوق عباده وأنه مطالب بوفاء ذلك كله ، وحينئذ يمتلىء قلبه خوفاً وحذراً وفراراً من الإقامة في الدنيا؛ لأنه إذا كان يعجز عن الإخلاص في تأدية بعض ما فيها من الحقوق ، فكيف لا يعجز عن تأدية جميع حقوقها ، ومن تحق بهذا المشهد فعيشه دائماً منغص لا يتهنأ بمعيشة ، على أنه ما ثم لنا حق خالص للآدمي أبداً لا بد أن يكون مخلوطاً بحق اللهتعالىٰ ، فمن طلب براءة الذمة من عبد ، فإنما ذلك لجهله من حيث تمييز حق اللهتعالىٰ من حق العبد ، فتأمل.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: حكم الخلق في هذه الدار حكم ناس جالسين في الحر والقر في خرابة ، وفي تلك الخرابة سائر المؤذيات ، من سباع ، وتماسيح ، وحيات ، وعقارب ، وكلاب عقورة ، وقد أمروا بمجاهدة هذه المؤذيات ليلاً ونهاراً ، ومتى تركوا مجاهدتهم عصوا ربهم ،ولا يَتَهنَّؤُون مع ذلك بأكل ولا شرب ولا نوم ، فدعاهم الملك جل وعلا على لسان شخص من رسله ، وقال لهم: أخرجوا من هذه الخرابة إلى حضرة ربكم ، في « ظل ظليل » « وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة » وتملوا برؤية ذلك الجمال البديع ، واستريحوا من جهاد هذه المؤذيات ، ومن عصيان ربكم في هذه الخرابة ، فلم يجب من هؤلاء الخلائق إلا القليل ، وتركوا حضرة ربهم عز وجل ، فهل مع هؤلاء من عقل ، فقلت له: لا ، فقال: هذا حكم أبناء الدنيا المحبين للإقامة فيها ، ولله المثل الأعلى ، انتهى ، فافهم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم الجدال مع من حكم عليه الطبع وحب الرياسة ، فإن الجدال مع مثل هذا لا فائدة فيه ، بل هو إلى الضرر أقرب.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لم يخرج إبليس من الجنة إلا جداله وعدم تسليمه لمن فضله الله عليه.

وكان يقول: إذا جادلكم مجادل بغير حق فتصدقوا عليه بالسكوت ، فإنه يخمد هيجان

نفسه ، إذ العلوم المستعارة محلها النفس ، كما أن العلوم الإلهية محلها القلب، فاحمدوا الله تعالى واشكروه، واعذروا المجادل ، فإنه كالمجاهد في سبيل الله عند نفسه ، ويرى وقوعه في الإثم إن ترك جدالكم ، وإن كان جداله بباطل فعاودوه المرة بعد المرة ، فلعله يرجع لكم ، ولا تطلبوا منه أن يرجع لكم قهراً من غير ظهور أن الحق معكم ، فإن ذلك لا يكون ، لا سيما غالب المجادلين الذين يرون أنهم أعلم ممن يجادلونه ، فلا يرونه إلا بعين الحقارة ، وقد جاءني بعض الحنفية يطلب أن يتلمذ لي ، وألقنه الذكر ، فرأيت سداه ولحمته نفساً وكبداً ، فلم أجبه إلى ذلك فأقسم عليّ فلم أجبه ، وكيف يتلمذ وهو يرى نفسه أعلم مني ، ففارقني ، وأخذ عن بعض مشايخ العصر من العلماء العاملين ، ثم إنه فارقه ، وقال: هذا رجل عامي ، فصح ظني فيه ، وعرفت أنه كان يفعل معي مثل ما فعل مع ذلك الشيخ ، فليكن الفقير المجادل للفقيه على حذر.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ ، يقول: من علامة كون علم العبد موضوعاً في نفسه ، أن يورثه الكبر ، وكثرة المجادلة ، ورؤية نفسه على غيره من أقرانه ، ومن علامة كونه موضوعاً في قلبه أو روحه أن يورثه هضم النفس ، وكثرة التواضع ، وقلة الجدال ، فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حث كل من يجتمع بي من الإخوان على الاشتغال بالحِرَف والصنائع وعلى دوام إقامتهم فيها إن كانوا من أهل الحرف قبل اجتماعهم بي ، وهذا الخلق قليل من يتنبه له من متصوفة الزمان بل يزينون لمن يجتمع بهم ترك الاشتغال بالحرفة ، والاشتغال بأحزابهم وأورادهم ، ثم هم بعد ذلك على قسمين ، إما أن الشيخ يصير يطعمهم من الصدقات والأوساخ فيتلف بواطنهم ، وإما أن يصيروا يسألون الناس ، وبعضهم يأمر المريد أن يخلي دكانه ، ويعرض عن الدنيا فينفقه ، ثم يطلب دكاناً بخلوة فلا يجده ، فبعد أن كان يطعم الناس صار الناس يطعمونه ، وبعد أن كان يعطي السائلين صار هو يسأل الناس.

وقد وقع لبعض إخواننا أنه أخلى دكانه ،وترك البيع والشراء ، وصار يذكر الله تعالىٰ ، ويأكل من هدايا الظلمة والعمال وغيرهم ، فقال له سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ: يا أخي النصح من الإيمان ، وإنك لم تخلق شيخاً فارجع إلى دكانك واشتغل بذكر الله تعالىٰ مع الحرفة ، فلم يسمع أبداً ، فكشف الله تبارك وتعالىٰ حال ذلك الفقير بعد شهور ، وما بقيت نفسه بعد المشيخة تنكبس لعمل الحرفة فكان كمن تولى مشيخة الإسلام ثم عزل ، فما بقي يعمل نائباً ولا شاهداً.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالىٰ يقول: حكم الفقير الذي لا حرفة له حكم البومة الساكنة في الخراب ، ليس فيها نفع لأحد

ولما ظهر رسول الله ﷺ بالرسالة لم يأمر أحداً من أصحابه بترك الحرفة التي بيده ، بل أقرهم على حرفهم ، وأمرهم بالنصح فيها.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: الكامل هو من يسلك الناس وهم في حرفهم لأنه ما ثم سبب مشروع إلا وهو مقرب للعبد من حضرة الله عز وجل وإنما يبعد الناس من الحضرة الإلهية عدم إصلاح نيتهم في ذلك الأمر سواء العلم والعمل ، وسائر الحرف المشروعة.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول إنما يستلذ بالبطالة وتعطيل السبب من فسد حاله ، وقلت مروءته ، فآثر الدعة والراحة ، وتجمل لهذا الخلق وانتظرهم أن ينفقوا عليه كالنساء ، ولو كان عند هذا بعض مروءة لقدم مرارة السبب والمشقة على حلاوة التلذذ بالمأكل والمشرب والملبس ، من صدقات الناس. اهـ.

وكان يقول: استغناؤكم بالشيء أحسن من ادعائكم الكمال في الطريق ، وأنتم محتاجون إلى الناس ، فإن الحاجة إلى الناس تنافي ادعاء الكمال ، وكان يقول: لا تتركوا الأسباب لما تجدونه من قوة اليقين ، فإن ذلك لا يدوم ، وربما عاقبكم الله بسبب اليقين ، وقد مدح الله تعالىٰ قوماً قاموا في الأسباب ، ولم تشغلهم أسبابهم عن ذكر الله عز وجل ، بقوله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]. الآية.

فإن قيل: إن غالب مشايخ العصر لا حرفة بيدهم ، فكيف كمالهم ؟

فالجواب: أنهم لما اشتغلوا بالله عز وجل كل الاشتغال رزقهم من حيث لا يحتسبون ، مما لا منة عليهم به في الدنيا ، ولا حساب عليهم به في العقبى ، فأين أنت منهم يا بطال ، فكلامنا مع المريدين ، لا مع العارفين ، فافهم ذلك ، واعمل عليه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم شهودي الكمال في مقام إسلامي أو إيماني أو إحساني ، فإن من شرط المسلم الكامل أن يسلم المسلمون من لسانه ويده ، ومن شرط المؤمن الكامل أن يكون الغائب عنده فيما توعده الله به ، أو وعده ، كالحاضر على حد سواء ، ومن شرط المحسن أن يعبد الله كأنه يراه على الدوام ، لا في وقت دون وقت ، وأنى لمثلي أن يكون بهذه الصفة.

وقد سألت مرة فقيراً: لِمَ لمْ تأخذ عن فلان ؟ وذكرت له واحداً من مشايخ هذا الزمان ، فأبى ، فقلت له: لأي شيء ؟ فقال: لأن شرط المسلم أن يسلم المسلمون من لسانه ويده ، وهذا لم يسلم أولاد شيخه من لسانه ويده ، فكيف بغيرهم ، وإذا كان هذا لم يحصل الكمال في أول المراتب ، فكيف يدعي دخول حضرة الله تعالىٰ ، انتهى.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: الدين الشرعي ثلاثة أمور: إسلام ، إيمان ، وإحسان ، فالإسلام عمل ، والإيمان علم وعمل وإحسان ، والإحسان علم وعمل وتسليم ، فلا يكون عنده رائحة اعتراض بقلبه على شيء من مقدورات الحق تعالىٰ ، من حيث الإلهية ، فليفتش من يدعي مقاماً من هذه الثلاثة نفسه ، ولا يتكدر إذا نسبه أحد إلى النقص ، وهو لم يوف بالمقام.

وقد رأى بعض الفقراء مناماً ، فقصه على سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ ، وقال يا سيدي خفت أن أكون قليل الدين ، فقال له الشيخ: خفف عن نفسك يا أخي ، أين كامل الدين اليوم ؟ انتهى.

وكان الحسن البصري رضي الله تعالىٰ عنه يقول: والله لو حلف حالف أن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب ، لقلت له صدقت ، لا تكفر عن يمينك ، انتهى ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حفظي من ادعاء مقام لم أبلغه ، كما مر تقريره في مقدمة الكتاب ، وهذا الخلق قليل من يحفظ منه ، فإن النفس من شأنها حب الرياسة والعلو ، والغالب عليها أن تدعي المقامات التي لم تبلغها.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إياكم أن تبادروا إلى دعوى مقام لم تبلغوه ، فتقعوا في الكذب والرياء والنفاق ، وحرمان ذلك المقام بعد ذلك. قال: وانظر إلى النبات لما عدم روح التصريف والحركة الحيوانية ، وطلب التشبه بالحيوان حين قام على ساقه ، طالباً للانفصال عن رتبته ، كيف عوقب بالحصاد والدوس بحوافر البهائم إلى أن صار كالتراب تحت الأقدام ، فما ساوى صعوده هبوطه ، فهكذا تكون سياط القدرة على أهل الدعاوى والغرور ، انتهى.

وقد يرد على شأن النبات إيرادات طرداً وعكساً ، غير أنا سطرناه اعتباراً بعبارة هذا الأستاذ رضي الله تعالىٰ عنه ولاحتمال أن يكون عنده ما يجاب به ، عما يرد ، فاعمل يا أخي على تصحيح إيمانك بيوم القيامة وما يقع للناس فيه ، حتى لا تدعي إلا ما تعلم أنه يكون لك يوم القيامة وإلا فمن لازمك الدعوى للمقامات العالية في هذه الدار ، طلباً للجاه فيها ، وليس لك من الجاه في الآخرة نصيب ، فإياك يا أخي ، ثم إياك من الدعاوى الكاذبة.

وقد جاءني شخص من فقراء هذا الزمان يطلب مني أن أربيه ، فتفرست فيه النفس ، ففارقني وتحلس بحلاس الفقراء ، ولبس الصوف ، وصار يقول: لا أعلم الآن في دائرة الفقراء أوسع من دائرتنا ، وصار يقول للعوام الذين يجتمعون به. إن كنتم تجتمعون بي فلا تجتمعوا على غيري فما مضى عليه إلا بعض أيام ثم ابتلاه الله تعالىٰ بأفعال تكذب دعواه ،

فنفر أصحابه منه ، ولم يصر أحد منهم يعتقده ، فما أسرع ما طلب الطريق ، وما أسرع ما عمل شيخاً يرى نفسه أكمل من جميع فقراء مصر ، فأسأل الله أن يرد عاقبته إلى خير ، آمين.

وفي كلام الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه: من طلب الرياسة قبل حينها فرت منه ، انتهى ، فافهم ذلك ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تفويضي إلى الله تعالىٰ أمر تربية أولادي وإخواني ، ونظري إلى وزن الأفعال البارزة على يديهم بالكتاب والسنة ، فما كان من محمود قلت لهم: اشكروا الله ، وما كان من مذموم قلت لهم: استغفروا الله ، ولا أقاوم الأقدار الإلهية فيهم ، وأطلب أنهم يوافقوني على كل أمر اردته منهم ، فإن ذلك من التعب الذي لا فائدة فيه.

وقد خالف قوم هذا الأمر ، فلم يفوضوا أمر أولادهم وإخوانهم إلى الله تعالىٰ كما ذكرنا ، فكان عاقبة أمرهم الندم ، وفرار الأولاد ، والإخوان عنهم ، إذ التحجير على العبد بما لم يصرح الشارع ﷺ بالتحجير عليه به لا يطاق.

وقد رأيت شخصاً من أهل العلم حجر على أولاده كل التحجير في ترك الكلام اللغو ، وفي ترك مجالسة الناس ، وفي ترك التنزه في وقت من الأوقات ، حتى صار يتبع الواحد منهم إلى الخلاء ، فإذا طال الولد في الجلوس لقضاء الحاجة يقول له: كنت اختصرت وعملت موضع جلوسك في الخلاء حفظ مسألتين في العلم ، ومازال على التحجير عليهم حتى في المأكل والملبس ، حتى سرق بعضهم ماله ، وعزم على إطعامه السم ، وبعضهم أطعم والده السم ، حتى وقعت أطراف أصابعه ، وكمن له في الظلام بخنجر يريد قتله ، فلولا أن الجارية حذرت الولد ، وأخبرت الوالد بذلك ، لربما قتل والده تنفيساً له من مشقة التحجير عليه ، كما أن بعضهم شنق نفسه حين توعده بعقوبة ، فلو أن هذا الوالد كان فوض أمره إلى الله تعالىٰ في ولده وعامله بالسياسة الشرعية ، أو العقلية ، لما كان وقع له شيء مما ذكرناه.

وقد كان الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب ، وكان يقول: أنفق على ولدك وزوجتك وخادمك بقدر الكفاية ، ولا تحجر عليهم كل التحجير ، فينفروا منك ، وإياك أن تعطيهم فوق الكفاية فيستغنوا عنك ، ويخرجوا من يدك؛ لأن طاعتهم لك تكون بقدر حاجتهم إليك ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: أحسنوا أدب أولادكم ، وبغضوهم في الدنيا وزينتها جهدكم ، ولا تعطوهم الفلوس بأيديهم لينفقوا منها على أنفسهم الشهوات تتلفوا حالهم ، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

فمن الأدب أن يتعاطى الوالد الإنفاق على الولد بنفسه ، من غير أن يعطيه الفلوس في يده ، قبل أن يبلغ رشده ، فإن للدنيا حلاوة ، فيشب على حلاوة الدنيا ، حتى يصير يشح على والده منها بفلس ، انتهى.

وكان رضي الله عنه يقول: إياكم أن تسترضوا أولادكم إذا غضبوا بلين الكلام ، وخفض الجناح ، فإن ذلك يتلف حالهم ، ويهون عليهم مخالفتكم في المستقبل ، وذكروهم بخطيآتهم ، وما أعد الله لهم من العقاب عليها ، وإياكم أن تسبوهم أو تشتموهم بألفاظ قبيحة ، فإن ذلك يجريهم على النطق بمثلها مع أخوانهم ، بل معكم ، ولا تكثروا ضربهم ، ولا تشدوا عليهم بالحبس في الدار ، وفي المكتب مثلاً ، وكثرة القراءة ، فإن ذلك يميت نفوسهم عن الأسباب ، ويولد عندهم الجبن والبخل والكسل عن الطاعات ، وداووهم أحياناً وأحياناً ، واستعملوا لهم الدعاء والنية الصالحة ، وكِلوا أمرهم إلى الله تعالىٰ ، يكفكم ما يهمكم من جهتهم ، انتهى.

وقد قالوا: إذا كبر ولدك فعامله معاملة الأخ ، وقد رأيت أنا من أعطى ولده جميع ماله قبل امتحانه له ، فقال له: يا والدي أنا خائف من إخوتي أن ينازعوني في هذا المال ، ويطلبوا مني النفقة التي أريد أن أنفقها عليك وعلى عيالك ، ومقصودي كتابة براءة بيني وبينك ، حتى لا يصح لأحد من إخوتي معي نزاع ، ففعل الوالد له ذلك ، فادعى المال كله له ، ولم يعط والده منه درهماً.

وقد وقع مثل ذلك لسيدي محمد البرماوي مع بعض ولده ، ولبعض العلماء مع ولده ، ولبعض مشايخ الصوفية مع ولده.

فإياك يا أخي من مثل ذلك ، بل رأيت ما هو أغم من ذلك ، وهو أن ولداً اشتكى والده من بيت الوالي ، وبيت قاضي العسكر والباشا ، وقال: إن والدي يضرب الزغل ، فلولا لطف الله بوالده لقتله الولاة.

ورأيت بعضهم حجر على ولده كل التحجير ، فبينما هو تجاه بيت الوالي إذ مسك الولد طوق والده ، وقال: يا مسلمين هذا الشيخ أراد بي شراً ، وهو يطلب مني الفاحشة ، فما جاء إلا جماعة من سوقهما ، أخبروا الوالي بأنه والده ، حين ضربه ضرباً مبرحاً وغرم مالاً جزيلاً ، هذا رأيته بعيني ، فاعرف زمانك يا أخي ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: شهودي الكمال في صاحبي ، والنقص في نفسي ، ولذلك كنت أكره العزلة عن الناس إلا لغرض شرعي آخر ، كأن أخشى أن يحصل لهم مني شيء يتضررون به؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون متعلماً ، أو معلماً له ، وكلا الحالين لا ينبغي لصاحبهما العزلة؛ لئلا تفوته مصالح الدارين.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: من طلب العزلة والخلوة في هذا الزمان لشهوده أنه ما ثم أحد يصح لمجالسته فقد عرض نفسه لفقر الدارين ، مع سوء ما يتعاطاه من قبيح القصد ، وسوء الظن بالناس الذين اعتزل عنهم ، قال: وإنما كانت الخلوة مطلوبة أيام الفترات ، حين فقد الشرائع ، فكان الحكيم من أهل ذلك الزمان يعتزل الناس طلباً لتصفية نفسه من الكدورات النفسانية ليحصل له أدنى نور يمشي عليه ، ويعبر عن ذلك بالقانون ، أما مع وجود الشرائع كما في زماننا هذا فلا فائدة للخلوة إلا لمعنى مطلوب شرعاً ، أما من اختلى لتنتج له الخلوة أمراً ينقدح له به سبيلاً يهتدي به ، خلاف ما فهمه العلماء العاملون من الكتاب والسنة فيا طول تعبه ، ويا خيبة خلوته ، ولو اختلى ألف عام لا يقدر على أن يجيء لنا بحديث واحد ، مثل ما في البخاري ومسلم وغيرهما ، فما أجهل عبد استضاء بنور مصباح ، في نور الشمس الوضاح ، فإن الله تعالىٰ ما ترك شيئاً يقرب إليه حتى ذكره في كتابه ، وأوضحه على لسان رسوله ﷺ ، انتهى.

قلت: وهذا الذي ذكره الشيخ لا يسوغ إلا في حق الأشياخ ، أما المريدون فقد أجمع أشياخ الطريق على أن العزلة والخلوة واجبة في حقهم ، وليس قصد الأشياخ بذلك أن يأتوا بشرع جديد ، إذا صفت سرائرهم ، وإنما مرادهم أن يأتوا بالمشروعات على وصف الكمال من الخشوع والحضور ، هذا ما ظهر لي ، انتهى. والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم الركون والميل إلى شيء من أحوالي دون الله تعالىٰ ، فلا أحب علماً ولا أحداً من الخلق إلا من حيث أمر الله تعالىٰ لي بذلك.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: أكثر ما يخاف على المؤمن ميل نفسه إلى أعماله الصالحة ، على وجه اعتقاد الإخلاص فيها ، ولو كشفاً وذوقاً.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا تفرحوا بما تعطونه من الأحوال والكرامات والعلوم والمعارف ، حتى ينكشف لكم الغطاء عن هذه الأمور ، هل هي بطريق الاستحقاق لكم ، أو بطريق الوعد ، وحسن الظن فقط فإن العطايا التي هي بطريق الوعد لا ينبغي لعاقل أن يفرح بها إلا إن كانت قطيعة ، وما معكم شيء إلا بطريق الوعد وحسن الظن فقط ، وتأملوا في مدح الله تعالىٰ لبعض الجماد وذمه لبعض الناس ، تعرفوا أنه لم يعط أحداً من الأمة الجزم بما يؤل إليه أمره ، فإن ذلك لا يكون إلا بنص صحيح في ذلك ، وأنى لأمثالنا ذلك ، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [البقرة: ٧٤]. الآية. وقال تعالىٰ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر ٢١]. ومن هنا بكى السلف الصالح الدم فضلاً عن الدموع ، وما رأوا أنهم أدوا حق العبودية.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: لم يخرج أبونا آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة بمجرد وقوعه في الأكل من الشجرة ، وإنما ذلك لما ضم إلى الأكل من اتكاله على علم الأسماء ، وظنه أنه لا يدخل ذلك محو ولا إثبات ، فكان تحجير الحق تعالىٰ عليه في نهيه عن الأكل من الشجرة في مقابلة تقييده هو على الحق بعلم نفسه ،كما أن أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام ، كان في مقابلة طلبهم أن لا يجعل في الأرض خليفة.

قال: وفي ذلك كفاية في التنفير عن الاعتراض على شيء من أفعال الحق تبارك وتعالىٰ ، إلا إن ورد بذلك نص ، لقصور العبد عن إدراك حقائق العواقب ، انتهى. فليتأمل فإنه كلام قد يحتاج إلى تعقب وتحرير ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: شهودي أن الله تبارك وتعالىٰ أرحم بنفسي مني ، حتى أن ذلك صار مقرَّراً عندي أشهده ببادئ الرأي ، لا أحتاج فيه إلى تفكر وقل من يقع له مثل ذلك ، ولذلك لم يقع مني قط قنوط من رحمة الله في وقت من الأوقات ، حتى احتاج إلى مداواة ذلك بالرجاء ، كما يقع فيه كثير من الناس ، وقد قالوا: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا ، وما ثَمَّ للعبد جانب يجزم بانتهاء أمره إليه مع الحق تعالىٰ أبداً.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول لنا كثيراً: لا يغرنكم شهود محبة الله تعالىٰ لكم ، وشهود كمالكم ، وصفاء حالكم معه تعالىٰ ، فإن حكمكم في ذلك كحكم اللبن الحسن اللون والطعم ، ومع ذلك فيحتاج إلى الأنفحة الخبيثة المنظر والرائحة ، لشدة افتقاره إليها لتثبته وتصبره على مصائب الزمان ، وتقلب الحدثان ، ففي لمح البصر يبدل الله تعالىٰ العبد وحشة بعد الأنس ، وبعداً بعد القرب ، وسوء ظن بعد حسن الظن ، حتى يكاد العبد يتفتت كبده ، ولو أنه راض نفسه حتى صارت ترى أن الله تعالىٰ أرحم بها من والديها ومن نفسها ، لخلف تكدره وقهره ، إذا وقع له ما يخالف هواه ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كوني لا آكل ولا ألبس إلا مما أشتريه من مالي ، دون أخذ شيء من ذلك بالدين ، ولو جعت وعريت لا آكل ولا ألبس بالدين ، وأرى صبري على العري والجوع أولى من صبر الناس عليّ ،وهذا من أكبر نعم الله تعالىٰ عليّ ، وقد رأيت فقيراً من أولاد الأشياخ أرسل نفسه في ميدان الشهوات ، فلم يجد معه ما يشتري به شهواته ، فصار يستدين حتى صار عليه مال عظيم ، فاجتمع عليه أرباب الديون ، وأرادوا حبسه ، فقام المعتقدون على أصحاب الديون ، وقالوا: كيف تحبسون ولد سيدي الشيخ ؟ فلم يصل إلى

أصحاب الديون شيء من ديونهم إلى وقتنا هذا ، نسأل الله العافية.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إياكم وإجابة نفوسكم إلى شهواتها مع ضيق مكاسبكم ، وإياكم أن تحاسبوا عيالكم على ما يحتاجون إليه مما لا بد منه ، فمن حاسبهم على ما أخرجه عليهم حاسبه الله على عمله في ذلك اليوم ، وأظهر له تقصيره في الخدمة ، ومن سامح عياله سامحه الله في العمل: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]. فأصلحوا نيتكم في الإنفاق على عيالكم ، فمن صلحت نيته لا يكشف الله تعالىٰ له حالاً أبداً ، اهـ.

فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم الإكباب على معاشرة الناس ، وعدم انقباضي عنهم بالكلية ، فلا أكثر من التردد إلى بيوتهم إذا تركوا زيارتي ، ولا أنقطع عن زيارتهم أصلاً ، ويحتاج فاعل ذلك إلى ميزان دقيق ، يعرف به من يصلح للقرب منه ، ومن لا يصلح.

وقد كان الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء ، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة ، فكن بين المنقبض والمنبسط.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: قد قلت آداب غالب أهل هذا الزمان ، وساءت أخلاقهم ، فالمرء متحير بين أن يسالمهم فيخونهم فيأثم ، وبين أن يناصحهم فلا يقبلوا منه فلا يسلم.

وقد كان غالب الناس في السنين الخالية يشمئزون من النصح ، فما ظنك بهم الآن ، فالله تعالىٰ يلطف بنا وبهم ، آمين ، اللهم آمين ، وقد أنشد الوالد رحمه الله تعالىٰ:

النـــاس داء دفيـــن لا دواء لـــه … العقـل قـد حـار فيهـم فهـو منـذهـل
إن كنـت منبسطـاً سميـت مسخـرة … أو كنـت منقبضـاً قـالـوا بـه ثقـل
وإن تخـالطهـم قـالـوا بـه طمـع … وإن تجـانبهـم قـالـوا بـه ملـل
وإن تهـــور يلقـــوه بمنقصـــة … وإن تـزهـد قـالـوا زهـده حيـل

إلى آخر ما قاله ، رحمه الله تعالىٰ الرحمة الواسعة ، آمين.

وكان من دعاء داود عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أعوذ بك من خليل ماكر ، عينه ترعاني ، وقلبه يشناني ، إن رأى خيراً أخفاه ، وإن رأى شراً أفشاه» اهـ.

فاجعل يا أخي سداك ولحمتك الاحتمال للناس ، وعدم مقابلتهم بالأذى ،ووطن نفسك على ذلك ما عشت ، ولا تطلب أن يكونوا معك على ما تختاره ، فإن ذلك لا يصح لك ، وكل أفعالهم إلى الله تعالىٰ لا إليهم ، فإن كلفتهم أن يكونوا معك على ما تحب فقط فقد كلفتهم بالمحال.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إذا ابتلي أحدكم بصحبة من لا بد له من صحبته فسالموه تارة ، وناصحوه أخرى ، وادعوا له تارة ، وتجنبوه أخرى ، واسألوا الله تعالىٰ في الخلاص منه تارة ، فما زال الناس كذلك ا هـ.

وتأمل أنت نفسك ، تجد نفسك تفعل معك ما تكره في الدنيا والآخرة ، مع أن نفسك أقرب الأقربين إليك ، وكم تقع أنت في فعل وتندم عليه ، فالعاقل من عذر غيره بما يعذر هو به نفسه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة صبري على كتمان سري ، وعدم إفشائه ، ولو لأعز أصدقائي ، لعدم العصمة ، وقد ينقلب الصديق عدواً فيفشي سري ، ويؤذيني أشد الأذى.

وقد كان سفيان الثوري رضي الله تعالىٰ عنه يقول: والله ما أنا آمن من صديق فكيف آمن من عدوي ؟

وقد سئل سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ: عن أحزم الناس رأياً فقال: من يقدر على كتمان سره ، ولم يقابل من آذاه ، ولم يحرم من حرمه ، ولم يقطع من قطعه ، واعتمد على فضل ربه دون علمه ، واستحيا من لقاء الله. ا هـ.

فافهم يا أخي ذلك واعمل على التخلق به ترشد والله سبحانه وتعالىٰ يتولى هداك والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم كثرة امتحاني لأصحابي ، خوفاً أن يظهر لي عيبهم ، ولم يكلف الله عبداً بالتجسس على عيوب الناس ، وإنما أمره بالستر إذا اطلع عليهم ، ثم ينبغي له أن يضرب له الأمثال لعله يتذكر ، ولا يوهمه أنه اطلع على عيبه أبداً ، فيخجله.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: أوحى الله تعالىٰ إلى داود عليه السلام: «**يا داود إذا اطلعت على عيب أحد من بني إسرائيل ، فاستح من اطلاعك ، فإني أستحيي من عبدي أن أكون في قلبه حال عصيانه ، لئلا يشهدني ، فيخجل مني ، ولذلك ضربت الحجاب بيني وبينه ، حتى يفرغ من تلك المعصية**» ا هـ.

وسمعته أيضاً يقول: إياكم أن تمتحنوا إخوانكم فإن الله تعالىٰ لا يمتحن عباده غالباً إلا بما يسهل عليهم الوفاء به ، لئلا يخجلهم بين يديه بإظهار ما كان كامناً عندهم ، قال: ومن تأمل حاله من أمثالنا وجد نفسه كلّها عيوباً ضم بعضها إلى بعض ، فصارت صورة تشبه صورة الآدمي ، مع أن شرف ابن آدم إنما هو بالصورة فقط أصالة ، وأما شرفه بالصفات فإنما هو

مرتبة ثانية ، ميزت بين الشقي والسعيد ، وقد قيل لكسرى : ألا تمتحن أصحابك ؟ فقال : إذن نخرج كلنا عيوباً .

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول : إن كنا أخياراً من جهة ، فنحن شرار من جهات عديدة .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يكره تقبيل اليد من الفقراء ، ويقول : إنما ذلك لأرباب المناصب من أهل الدنيا ، وأما الفقير فمن شأنه على الدوام شهود عيوبه الكامنة من غيره ، المتجددة فيه ، مادام الحدثان ، وكان يقول : إن كان ولا بد لكم من الامتحان فامتحنوا نفوسكم في دعواها الكاذبة ، فإن لكم في ذلك لشغلاً عما ليس هو بأهم منه ، اهـ كلامه .

فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله يتولى هداك ، ويدبرك في بلواك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : تنفيري للإخوان من أن يرسلوا إليّ طعاماً من بيوتهم ، أو هدية من غير استدعاء مني ، وأعلمهم أن في إرسالهم شيئاً إليّ إذا أرادوا استقبالي لما يرسلونه وأطعتهم أو خالفتهم مفاسد كثيرة .

منها أن قلبي يخرب بأكل طعامهم فلا يصح لي بعد ذلك توجه إلى الله تعالىٰ في قضاء حوائجهم ، لأن مقامهم في الكسب قد لا يخلو من غش أو محاباة ، أو بيع على أحد من الظلمة ، وأعوانهم ، ونحو ذلك ، فإذا أكلت من طعامهم صرت في التوجه إلى الله تعالىٰ كأحدهم في غلظ الحجاب ، فضروني وضروا أنفسهم .

ومنها أنه ربما يترتب على مخالفتي لما أراده بعضهم نفرة خاطره مني ، فلا ينقاد لنصحي له بعد ذلك .

ومنها أني إذا قبلت من أحدهم إحساناً من طعام أو كسوة يصير عنده إدلال عليّ ، فلا يخاف من مخالفتي بعد ذلك فيما أنصحه وأشير به عليه ، فيقل نفع الصحبة بيني وبينه .

ومنها أن من أكل من قصعة رجل وهو غير معصوم ذل له ، وإذا ذل له فقد فتح باب عدم المبالغة في نصحه ، وكثرة مسامحته في فعل ما يراه يضره في دينه قهراً عليه .

فإياكم أيها الإخوان أن تتشوشوا من الفقير إذا رد عليكم هديتكم دون هدية غيركم ، فإن ذلك إنما هو مصلحة لكم ، لا سيما إن كان صادقاً في صحبتكم ، فإن الصادق لا يصحب أحداً إلا لمصلحة ذلك الأحد بالأصالة لا لمصلحة نفسه هو ، وأيضاً فإن من مقام الفقير أن يحكم على أصحابه لا أن أصحابه يحكمون عليه ، فهم تحت إشارته وأمره وليس هوتحت إشارتهم وأمرهم ، وكثيراً ما أداوي صاحب ذلك اللباس أو الطعام إذا كان قليل الاعتقاد؛

لقرب عهده بالصحبة ، فألبس جبته ، أو آكل طعامه بحضرته تأليفاً له ، ثم أعطي الجبة بعد ذلك لأحد وأتقيأ الطعام بعد ذلك ، فافهم ذلك والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة مسامحتي لإخواني فيما يتعلق بالإخلال بالأدب معي ، وعدم مسامحتهم في ذلك في حق غيري ، بل ربما أهجر الواحد على قلة أدبه مع الغير أياماً ، ثم إن لم ينزجر أحدهم عن مثل ذلك تركتهم ولم أعاتبهم على ذلك؛ لأن العتب يسقط حرمة العاتب ، ويقطع وده من القلب ، وإنما كنت أسامح الإخوان في حق نفسي؛ لأني وإياهم عبيد لسيد واحد في رتبة واحدة والبشر من أمثالنا لا يخلو عن الخطأ في أقواله وأفعاله؛ لأنه الأصل فيه ، إذ هو تحت مجاري الأقدار ليلاً ونهاراً ، فمن أراد أن أحداً لا يخل بواجب حقه فليسأل ربه أن يترك خلق ذلك فيه ، أو يطال هو نفسه بالاستقامة مع الله تعالىٰ في أقواله وأفعاله ، فإذا صح له ذلك فحينئذ له أن يطالب الإخوان الصالحين بالوفاء بحقه لسهولته حينئذ عليهم.

وقد كان عطاء السلمي رضي الله تعالىٰ عنه إذا خالفه عبده في فعل يقول له: ما أشبه فعلك مع مولاك بفعل مولاك مع ربه عز وجل ، اهـ. فافهم ذلك ترشد ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم اغتراري برؤيا صالحة رأيتها لنفسي ، أو رؤيت لي مع أن سبب الرؤيا الصالحة قد يكون إنما هو ضعف إيمان من رؤيت له فيأتي بها الله تعالىٰ تقوية ليقينه وإيمانه ، فإن الكامل يعرف كمال حاله أو نقصه من شهود أعماله الظاهرة ، فلا يحتاج إلى رؤيا ترى له من المرائي الحسنة أو السيئة.

وقد كان السلف الصالح مع شدة اجتهادهم في العبادة ليلاً ونهاراً ، كلهم على قدم الخوف ، وشهود النقص ، فلا يركنون قط لمنام ، بل وقع أن بعضهم قال لمالك بن دينار رضي الله تعالىٰ عنه: قد رأيتك الليلة وأنت تخطر في الجنة ، فقال له مالك: أما وجد الشيطان أحداً يسخر به غيري وغيرك ؟! اهـ.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا تغتروا بالرؤيا الصالحة ، فإنها من حكم الوقت مع صحة المزاج ، وأصل وقوعها كذلك مصادفة لقمة حلال مع حسن اعتقاد في النفس ، قال: ولذلك كانت مرائي العارفين لأنفسهم كلها مهولة يقشعر البدن منها ، بخلاف مرائي المريدين ، فإن العارفين ينامون على شهود تقصيرهم ، وسوء معاملتهم مع الله تعالىٰ ، والمريدين ينامون على شهود كمالهم ، وحسن معاملتهم ، فلذلك كان كل منهم يرى ما يناسب حاله مع الله تعالىٰ ، ولا شك أن الركون إلى الرؤيا الصالحة يوقف العبد عن شدة

الاجتهاد عكس الرؤيا السيئة ، فكان اعتناء الحق تبارك وتعالىٰ بالعارفين أكمل من اعتنائه بالمريدين.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: إياكم والركون إلى ما منحكم الحق تعالىٰ من خزائن جوده من علم أو حال ، فإن ذلك يورثكم الإدلال على الحق تعالىٰ ، فينقطع عنكم المزيد ، إذ المزيد إنما هو لمن يشهد نفسه مقصراً عاصياً ، ولو كان الركون إلى عطايا الحق تعالىٰ محموداً لكان العارفون أحق بالإدلال ، من حيث أن عطايا المريدين لا تجيء عشر معشار ما أعطاه الله تعالىٰ للعارفين ، ومع ذلك فهم على قدم الخوف ، كلما ازدادوا عملاً ازدادوا خوفاً ، وذلك لشهودهم ما في أعمالهم من النقص ، فلا يكادون يشهدون لهم عملاً سلم من نقص ، فكأنهم كلما كثرت طاعاتهم كثرت معاصيهم بالاختلال فيها ، وكثرة العصيان موجب للخوف اهـ.

فافهم ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: شهودي لمحاسن العامة من المحترفين ، وتفضيلهم على نفسي كشفاً ويقيناً ، لا ظناً وتخميناً ، لا سيما إن نصحوا في حرفهم ، وأدوا فروضهم.

وكان على هذا القدم سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه ، كان يقول: المؤمن المحترف أكمل عندي من المجاذيب ، ومن مشايخ الزوايا الذين يأكلون بدينهم ،وليس بيدهم حرفة دنيوية تعفهم عن صدقات الناس وأوساخهم.

وأخبرني سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ ، أنه سمع سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: قد أكرم الله تعالىٰ المؤمن المحترف بسبعة أمور ، قل أن تقع لفقير.

الأول: أنه يأكل من كسب يمينه ، ويطعم الناس منه ، غنيهم وفقيرهم ، ظالمهم ومحسنهم ، عالمهم وجاهلهم.

الثاني: حمايته من أكل صدقات الناس وأوساخهم ، حتى من الأوقاف.

الثالث: شهود جهل نفسه ، وتذكره لسوء فعله ، وخوفه من قبيح معاصيه ، من غير وقوع في تأويل يخفف عنه الندم ، أو نظر إلى كونها صغيرة تكفر بالصلوات الخمس ، بل لم تزل زلته مشهودة ، لا يرى أنه فعل شيئاً يكفرها.

الرابع: شهوده حقارة نفسه على الدوام ، وأنه أدنى الناس منزلة عند الله ، ولو أجلسوه في صدر مجلس في وليمة ونحوها كاد أن يذوب من الخجل ، عكس ما يقع لأصحاب الأنفس الغوية.

الخامس: كثرة تعظيمه للعلماء والصالحين ، وعدم إقامته الميزان العقلي على جميع ما يظهر منهم ، بل لا يكاد يرى لهم عيباً ، كل ذلك لحسن ظنه بالمسلمين.

السادس: أنه يأتي بعباداته بهمة ، وخشوع ، وذلة ، وانكسار ، وكثرة تضرع ، وابتهال ، رافعاً يديه إلى السماء حتى يرى سواد أبطيه ، لا يدخل في عبادته وسوسة ولا شك ، كما يقع لغيره.

السابع: سلامته من الشبه العقلية ، والتحكيمات الهوائية ، والاعتقادات الفلسفية ، والحجج الوهمية ، بل إيمانه إيمان الفطرة ، وعمله بكلام العلماء محض تقليد على وجه التعظيم ، لا يطرقه قط شبهة تضعف قول من قلده ، اهـ.

فإياك يا أخي إذا تفقهت أن ترى نفسك على أحد من العوام إلا بطريق شرعي ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: إقامة العذر باطناً للإخوان إذا أخرجوا أخلاقهم الرديئة على بعضهم بعضاً ، لا سيما إن كان أحدهم لا قدم له في علم ولا أدب ، ولذلك كنت لا أبادر لعتاب أحد منهم إذا خرج في سوء الخلق عن الحد ، لأنه ربما كان ذلك منه مقابلة لما فعله معه خصمه ، إذ لا يقدر على مقابلة خصمه بالإحسان دون الإساءة إلا من كان يعلم أن الله يراه حال خصامه ، وذلك خاص بأهل الكمال من الأولياء.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: الحياء وإن كان خيراً كله فقد يحتاج المحجوبون إلى تركه ، دفعاً لأمر آخر هو أشد قبحاً ، وذلك لغلبة الحياء الطبيعي على غالب الناس ، ومن هنا قال الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه: ينبغي للعالم أن يكون عنده سفيه يسافه عنه السفهاء ، حماية للعالم من الوقوع فيما لا ينبغي ، فإن صغيرته كبيرة ، والناس ناظرون إلى فعله. اهـ.

لكن هنا دقيقة ينبغي التفطن لها ، وهي أن سبب سفه السفيه على العالم قلة سياسة العالم ، فلو كملت سياسته لم يقع له سفه من أحد.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: اعذروا إخوانكم في عدم صبرهم على ما يحصل لهم من الأذى في هذا الزمان فإن الأحوال قد فسدت ، ومراسم الأشياء قد تغيرت وتبدلت ، واكتفى غالب الناس بالأقوال عن الأعمال ، وعم البلاء كل شيء ، وظهر من الناس أخلاق الذئاب تارة ، وأخلاق الثعالب تارة ، وأخلاق الكلاب تارة ، وأخلاق الخنازير تارة ، وأخلاق الأسد تارة ، وأخلاق البهائم تارة ، وأخلاق الشياطين تارة ، وأخلاق الفسقة تارة ، وأخلاق الظلمة تارة ، فلا يكاد العبد يرى منهم أخلاق كمل المؤمنين أو الصالحين إلا في النادر ، فيمن يقتدي المحجوب ، والحكم للأغلب ، قال: ومن أنصف من العقلاء وجد أخلاق من ذكرنا من الحيوانات تتوالى عليه ليلاً ونهاراً ، وعذر الناس بما يعذر به نفسه ، اهـ.

وكان سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: والله لقد شاهدت في نفسي سائر أخلاق البهائم والفجرة والشياطين، قبل أن أشهد بعض ذلك في غيري ، فمن طلب من الناس في هذا الزمان المشي على سنن الاستقامة فقد رام المحال ، ما لم تحفه العناية الربانية، وكان يقول: إياكم أن تزنوا أعمال إخوانكم بميزان أعمالهم في اليوم الماضي، فإن ذلك لا يصح لكم ، فكيف إذا وزنتموهم بميزان الصحابة والتابعين فحسبكم وإخوانكم في هذا الزمان التوحيد ، وسلامة القلب من الشك والنفاق ، وأن تأتوا بصور العبادات بحسب ما تطيقونه من النيات إقامة لشعار الدين ، وقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اهـ. كلامه رحمه الله تعالىٰ.

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم إعطائي الحكمة غير أهلها ، ولذلك كثر ردي لمن جاء يطلب الطريق ، لعدم صدقه ، وحبست عن إخواني علوماً وأسراراً لم أفصح لأحد منهم عنها ، وهي ذاهبة معي إلى القبر ، وكثيراً ما كنت أسمع سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: إذا تكرَّم الحق تعالىٰ عليكم بعلم أو حال فتكرموا به على من رأيتموه صادقاً في همته ، كامل الخلق في نشأته ، فإنه أزكى لزرعكم ، وإياكم أن تتكرموا به على من رأيتموه كان بالضد من ذلك ، فتبذروا بذركم في أرض سبخة ، فلا تنمو ، بل كل شيء بذرتموه فيها أحرقته.

قال: ومن علامة كون المريد أرضه سبخة أن يتفرس الشيخ فيه أنه يريد بصحبته أنه يصير من أصحاب الأحوال أو الكشف ونحو ذلك ، وإن كان ولا بد زارعاً في أرضه فليطيبها أولاً من الغلت والشوك ، ومن كل شيء غير القرب من حضرة الله تعالىٰ ، ثم يبذر فيها بعد ذلك ، اهـ.

وكان يقول: من علامة طيب أرض المريد أن يكون ذليل النفس منكس الرأس ، يفرح بكل شيء يذل نفسه وينكسها بين الناس ، مما لا يسخط الله ، لا يطلب له مقاماً ولا حالاً ، فمثل هذا فازرعوا له في أرضه ، فإن رأس ماله محظوظ.

وكان يقول: من علامة المريد الصادق أن يشكر الله تعالىٰ على كل شيء منعه من الكشوفات والمعارف ، خوفاً أن يشتغل بذلك المقام أو الحال عن ربه عز وجل ، فإن للمقام لذة تشغله عنه مراعاة ما كلف به من الأعمال والإقبال على الله في كل نفس.

وكان يقول: من علامات الصادقين مع الله تعالىٰ أن يزدادوا بالسلب تمكيناً ، لأنهم مع الله بما أحب ، لا مع نفوسهم بما تحب ، اهـ.

وإيضاح ذلك: أن العبد الصادق كلما جرده الله تعالىٰ عن النسب كلما تمكن في مقام العبودية وقرب من حضرة الله تعالىٰ ، وكلما كثرت إضافة الأمور إليه كلما بعد من حضرة الله تعالىٰ ، فالعبد الصادق من لا ملك له لشيء في الدارين ، إنما يأكل ويلبس من مال سيده ، ويسكن في داره ، على حكم العبيد مع أسيادهم ، فعلم بحمد الله أنه ليس ردي لمن جاء يطلب الطريق ، وإرساله إلى غيري لجهلي بالطريق ، وإنما ذلك لعدم صدقه الصدق النسبي ، فاصدق يا أخي ، وتعال ترشد ، فالحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم مشاورتي للنساء في فعل أمر أو تركه ، ولو لأم أولادي ، لأن محبة الزوجين لبعضهما بعضاً في الغالب محبة طبع وشهوة ، وما ثم أميل للنساء من الرجال عكسه ، لافتقار كل منهما للآخر شهوة وحالاً وطبعاً ، أما عدم العمل بإشارة الزوجة فلنقصها ، لا سيما إن كانت تحبه ، وقد قالوا: المحب لا يستشار ، لغلبة مراعاة هوى محبوبه عليه .

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: لا تشاوروا أحداً من المتجردين عن الدنيا عن شيء من أمورها ، فإنه لا معرفة له بذلك ، ولا من المنهمكين على محبتها ، فإنها قد استولت على قلبه ، ومن استولت الدنيا على قلبه أظلم قلبه ، ومن أظلم قلبه فسد رأيه وشاوروا مَنْ جمع بين معرفة الدنيا والآخرة من الكمل ، واعملوا برأيه ، ولا تخالفوه ، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: لا تشاوروا البخيل ، ولا المعجب برأيه .

وكان يعتب على من يستشير النساء ، ويقول: إذا كان غالب الرجال لم يبق له رأي سديد ، فكيف بالنساء ، وذلك لأن عقل الرجل يذهب بحبه للشهوات التي حلت بقلبه وغمرته ، إذ الرأي السديد لا يكون إلا لمن كان قلبه عامراً بذكر الله عز وجل ، ومحبة الأعمال الصالحة ، وأما عقل النساء فإنه ذاهب من أصله لكون شهواتهن مركوزة في الجبلة من أصل النشأة ، اللهم إلا أن يعرض الرجل على زوجته الأمر ، مداواة لخاطرها ، من غير عمل بإشارتها ، فهذا لا بأس به ، اهـ . فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ من صغري: كراهتي لتعلم علم الحرف ، وعلم الرمل[1] ، والهندسة[2] ، والسيمياء ، وغير ذلك من علوم الفلاسفة ، وزجر أصحابي عن تعلم

---

(١) علم الرمل علم يبحث فيه عن المجهولات وهو خرافة . اهـ . المعجم الوسيط مادة (رمل) .

(٢) الهندسة: كلمة فارسية معربة ، وفي الفارسية: إندازة ، أي: المقادير ، قال الخليل: المهندس الذي يقدر مجاري القنى ، ومواضعها حيث تحتفر ، وهو مشتق من الهندزة ، وهي فارسية ، فصيرت الزاي سيناً في الإعراب؛ لأنه ليس بعد الدال زاي من كلام العرب . اهـ . مفاتيح العلوم (٢٢٥) =

ذلك ، فإن هذه الأمور إنما يفعلها المفلسون من صفات الصالحين ، فيريدون أن يكون لهم تأثير في الوجود ، تشبيهاً بالصالحين الذين يقع منهم تأثير بتوجههم إلى الله تعالىٰ في ظالم أو فاجر ، على أن مستند هذه العلوم كلها إنما هو الظن ، وأما التأثير المنقول عنهم فإنما هو من هممهم ، وعن ذلك الوقت الذي جعلوه شرطاً لصحة وضع الحرف فيه مثلاً ، ولو أن أهل هذه العلوم شموا رائحة الأدب مع الله تعالىٰ لاحترموا جناب الحق تعالىٰ عن أن يتعبوا أبدانهم وقلوبهم في تحصيل أغراضهم النفسانية ، وعظموا الحروف عن استعمالها في ذلك ، فإن الله تعالىٰ جعلها أسماء لمراتب كليات العالم.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: إن عباد الأوثان أكثر أدباً من الذين يطلبون الأمور لأغراض نفوسهم المذمومة ، وقد حكى الله تعالىٰ عنهم أنهم قالوا: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ ينهى عن كتابة الحروف الأعجمية في الحروز التي تحمل على الرأس ، ويقول: عليكم باستعمال مما ورد في السنة من ذلك ، فإن فيه كفاية وغنية عن مثل ذلك ، على أن غالب الفقراء الذين يستعملون الرياضة للحروف جاهلون بمعاني الحروف ، فاقدون لشروط الرياضة ، فلا ينالهم بالرياضة إلا العناء والتعب.

وقد ذكر أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ حروف الهجاء ، وما نزل عليها من العلم في وصاياه ، من طريق كشفه ، فراجعها إن شئت ، وقد رأيت أن بعضهم ضربه خدام الأحرف ، فأبطلوا نصفه ، فلم يزل مكسحاً إلى أن مات ، وبعضهم عوجوا فمه ، فلم يزل أشحط حتى مات ، كل ذلك لسوء قصدهم وسوء أدبهم ، ولو أنهم كانوا طلبوا علم معانيها ، وعملوا على ذلك لكان أولى بهم ، وربما أتتهم أغراضهم بغير تعب ، فالحمد لله الذي حمانا من الاشتغال بمثل ذلك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: هروبي من التفعل بكثرة المناصحة للإخوان خوفاً أن أترقى من ذلك بالاستدراج إلى حد المكاشفة بالعيوب والقبائح ، كما يقع فيه كثير ممن لم يسلك الطريق على يد الأشياخ وأهل الطريق ، يسمون الكشف الذي يطلع الإنسان به على مساويء الخلائق كشفاً شيطانياً ، وكثيراً ما يشتغل الإنسان بنصح إخوانه ، فينسى نصح نفسه فيهلك ولا يشعر.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: حكم من ينصح الناس وينسى نفسه حكم من وقف على جرف بحر واقع ، وجعل ظهره للبحر ، وصار يقول للناس: إياكم أن تقربوا من الجرف الواقع ، فلا يزال كذلك حتى ينهدم به الجرف وهو غافل عن نفسه. اهـ.

وفي كلام أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ في وصاياه: وإياكم أن تخرجوا من حد المناصحة بالاستدراج ، إلى حد المكاشفة بالعيوب ، فإن ذلك من علامة رفع الحياء عن وجه الإيمان ، وعليكم بالتناصح ، وأنتم متوادون متحابون من غير تجسس ، اهـ.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: يجب على كل من اطلع من طريق كشفه على معاصي العباد التي يفعلونها فيما بينهم وبين الله تعالىٰ ، أن يسأل الله تعالىٰ في الحجاب ، وإذا اطلع أصحاب الفقير على أن الله تعالىٰ يطلعه على معاصيهم ، حصل لهم بذلك خجل عظيم ، وحصل للفقير بذلك شهود الخلق بعين النقص قهراً عليه ، وقد ورد في بعض الآثار: «أن الله تعالىٰ يستحي من عبده يوم القيامة أن يقول له: عملت كذا وكذا ، لئلا يخجله بين يديه»[١] فالكامل من تخلق بأخلاق الله ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: ردّي جميع الأمانات التي جعلها الحق تعالىٰ عندي إلى أهلها ، حتى من العلوم ، فهي وإن كانت عندي لا أراها إلا مستعارة من أهلها ، وأهلها هم الحقيقون بنسبتها إليهم ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. وهذه الآية وإن كانت واردة في مفتاح الكعبة ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند جمهور العلماء ، ومن هنا سهل عليّ سماع نسبتي للجهل والعامية على فرض أن أسمع مثل ذلك ، ولو أنني كنت أدعي أن العلم الذي معي لي لربما تكدرت ضرورة ، كما يقع فيه أهل الدعاوى.

وقد تقدم أوائل هذه المنن ، قول سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ: من أراد أن يعرف رتبته في العلم الذي يزعم أنه من أهله فليرد كل قول إلى قائله ، وكل علم إلى عالمه ، وكل شيء استفاده من أمر دنياه وآخرته إلى من استفاده منه ، وينظر نفسه بعد ذلك ، فما وجد معه من العلم فهو علمه الذي يصحبه في الآخرة ، وتصح له دعواه ، فإنه لا يصحب العبد في الجنة من علومه إلا العلم بالله تعالىٰ ، وصفاته فقط ، ومن جملة ذلك كلامه تعالىٰ ، وإنما قلنا إنه لا يصحب الإنسان في الجنة إلا العلم بالله تعالىٰ لأنه هو الذي فطر عليه ، وإما ما أخذه تقليداً ، أو من بطون الكتب ولو فهماً ، فلا يصحبه منه شيء في الآخرة ، اهـ.

فإياك يا أخي أن تدعي العلم بعد اطلاعك على ما ذكرناه ، فإنه ليس لك منه إلا أجرة حمله لا غير ، فافهم ذلك ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم الجواب لمن سألني عن مسألة وقلبه غافل عن الاهتمام بالعمل بها ، وإرشادي له إلى العمل على جلاء مرآة قلبه ، حتى يعلم أن حمل العلم

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٢٥٤).

إنما هو لأجل العمل به ، والتأدب بآدابه ، فلا ينبغي لعاقل أن يطلب زيادة التكاليف وهو غافل ، إنما يطلبها وهو يبكي ، وكذلك أرشده إلى العمل على جلاء مرآة قلبه إذا توقف في فهم آية ، أو حديث ، أو كلام أحد من العلماء ، وهذا الخلق قل من يفعله مع إخوانه ، بل غالبهم يبذل علمه لكل سائر أو متوقف في الفهم ، ولا عليه إن عمل به ، أو كان عليه فتنة أم لا ، حتى أن بعضهم يقوم أصحابه من مجلسه لم يحملوا منه مسألة واحدة ، وما هكذا كان السلف الصالح رضي الله تعالىٰ عنهم.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول: كل ما لم تفهموه فاشتغلوا عنه ، وردوا علمه إلى الله ورسوله ، وإلى العلماء العاملين ، الذين لا يتدينون بالرأي ، رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يزجر أصحابه عن التأسف على عدم فهم السؤال ، إذا توقفوا في فهم شيء ، ويقول: اعملوا على جلاء مرآة قلوبكم بأكل الحلال ، والأعمال المرضية ، فإن لم تعملوا على جلائها ، فيكفيكم العمل بما ثبت عندكم فهمه وعلمه ، من غير تأسف على عدم فهم سؤال ، فإنه هو الذي تعبدكم الحق تعالىٰ به ، على اختلاف طبقاتكم ، كما كان عليه السلف الصالح عند سماعهم القرآن أو الحديث ، قبل أن يتكلم الناس في معناهما ، واعلموا أنكم إذا لم تقدروا على العمل بما فهمتم بأنفسكم من غير سؤال ، فكيف تأسفون على عدم فهم ما تسألون العلماء عنه ، مما لعلكم لا تطيقون العمل به ، ولا ببعضه ، ولم يسمعه الحق تعالىٰ لقلوبكم ، ولم يثبته فيها ، وربما كان سبب حجر الحق تعالىٰ لكم عن فهم شيء إنما هو التخفيف عليكم ، حيث علم ضعفكم عن العمل به ، وفتح باب رؤيتكم التقصير في نفوسكم ، لتقوموا بين يديه بالذل وشهود الجهل ، ثم إن كان ولا بد لأحدكم من الحرص على فهم السؤال عما جهل ، فليسأل الله تعالىٰ مع التفويض ، كأن يقول: اللهم فهمني معنى هذه الآية ، أو الحديث ، إن كان لي في ذلك مصلحة ، لتحفظوا من مكر الإجابة فإن حضرة الحق تعالىٰ حضرة إطلاق ، فربما سأل العبد منها ما يضره ولا يشعر ، كما وقع لبلعام بن باعوراء. اهـ. والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: إذعاني وخدمتي لكل من ظهر بمظهر الدعوى للعلم ، أو الطريق من أهل زماني الذين لا أعرف حالهم ، فأصدقه على دعواه من غير حزازة ولا شك في الباطن ، لا سيما إن تكلم بلسان غريب لم يعهد لمن قبله من العلماء فإنه يتأكد علينا تعظيمه وإجلاله ، وحمل نعله وتقبيله ، فإن لله تعالىٰ في كل دورة عالماً يظهره ، يجدد من الشرع ما أخلقته أيدي المحرفين ، ومن علامته دقة مداركه من غير حب رياسة ولا تمييز عن إخوانه ، وإنما إخوانه هم الذين يميزونه عليهم ، ومن علامته: حفظه من القول في دين الله بالرأي ، وإذعان نفوس أهل الله تعالىٰ له بالمحبة والود ، وقد يكون صاحب رتبة وتصريف

فلا يعرفه إلا الخواص ، فيبلغ العلم ويفيده لمن يستحقه ، ويختفي ، فلا ينسب إليه منه حرف ، وقليل من يتخلق بالإذعان والخدمة لمن رفعه الله عليه من أقرانه ، لغلبة رعونات نفسه عليه.

فافهم ذلك ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، ويدبرك في بلواك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: شدة حرصي على ما ينفع الإخوان في أمر دينهم ودنياهم ، حتى إني لأعدهم في كل صلاة جماعة ، وكل مجلس ذكر ، لأعرف من غاب منهم فأعاتبه على ذلك ، وكثيراً ما أوصي النقيب أن يعدهم ويوقظهم إذا كنت مشغولاً بجمع نظام المجلس ، وخفت أن يتفرق إذا اشتغلت بعدهم أو إيقاظهم من النوم ، مثلاً.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يحث أصحابه على ملازمة حضور الجماعة في الصبح والعصر ، وربما يهجر أحدهم على ذلك مصلحة له ، ويقول: إن صلاة الصبح في جماعة تسهل عليكم أسباب الدنيا الصعبة ، وصلاة العصر في جماعة تورث الزهد في الدنيا ، تقمع النفس عن الشهوات ، وتصحح الاعتقاد ، مع ما في ذلك من سلوك الأدب مع الله تعالىٰ حال قسمته أرزاق العباد ، فإنه يقسم أرزاقهم المحسوسة بعد الصبح ، وأرزاقهم المعنوية بعد العصر ، وكان يقول: عليكم بعدم الكلام بعد صلاة الصبح ، ولو بحديث النفس ، فإن ذلك يورث القناعة ، ويزيد في رزق العبد عادة ، وإن كانت الزيادة لا تصح في نفس الأمر ، وكان يقول: عليكم بالصمت عند وضع المائدة إلا إذا كان هناك ضيف ، فإن الأكل من أفضل العبادات التي استعبد الله عباده بها ، وعليكم بالتفكر في السبب الذي أفقركم الله إلى الأكل لأجله ، انتهى.

فعليكم أيها الإخوان بتفقد إخوانكم عند كل مجلس قرآن ، أو علم ، أو أدب ، كما تتفقدونهم عند تفرقة جوامعهم ، بل أولى ، إن أردتم محبة الله لكم ، وتخلقكم بأخلاق رسول الله ﷺ التي أشار إليها قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: شدة حذري من تقصيري في صحبة الأولياء والعلماء العاملين ، مع محبتي القرب منهم ، وذلك لعجزي عن القيام بحقوقهم ، فإنهم ورثة الأنبياء في الحال والقال.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه يقول: اسألوا الأولياء والعلماء ،

ولا تكثروا من سؤالهم ، لحديث: «**إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال**»[1] انتهى.

وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول أيضاً: لا تسألوا العلماء إلا فيما لا بد لكم منه ، وشاوروهم في الأمور ، ولا تخالفوهم ، وسلموا لهم ما يقولون ، ولا تجادلوهم ، واتركوهم حيث تركوكم ، كما كان ﷺ يقول لأصحابه «**اتركوني ما تركتكم**»[2] انتهى.

وقد خالف قوم ، فأكثروا من سؤال العلماء عن أمور ليسوا من أهلها لكونهم من العامة ، ثم صاروا ينقلونها عن العلماء محرفة بعد موتهم ، فضلوا وأضلوا لتحريفهم عن العلماء ما كانوا يستمعونه منهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: لا تسألوا العلماء إلا عما لا بد لكم منه ، لئلا تشغلوهم عما هم فيه من الإقبال على الله تعالىٰ ، أو عن تأليف علم يعود نفعه على جميع الأمة ، وكان رضي الله تعالىٰ عنه يقول: للعلماء والأولياء ساعات مع الله تعالىٰ لا يعادلها عبادة الثقلين ، ولهم ساعات مع نفوسهم لا تساويها معاصي مؤمني الخلق أجمعين ، وربما عاقبهم الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة على تناولهم ما أبيح لهم من شهوات نفوسهم ، وفي عدم استطاعة موسى الصحبة مع الخضر عليهما الصلاة والسلام كفاية لكل معتبر ، وقد طلب بعض العلماء من إبراهيم بن أدهم الصحبة ، فقال له إبراهيم: الطير لا يطير إلا مع جنسه ، انتهى.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: لولا أن الأكابر يتنزلون لنا في المقام ما استطاع أحد منا أن يتبعهم فيما هم فيه ، وربما كانت معاصي بعض العلماء والأولياء صورية لا حقيقية، كمعاصي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلا يؤاخذهم الله عليها لكونها وقعت منهم حال سهو ونسيان ، فربما تشبه بهم المريد أو الطالب فيتبعهم على مثل ذلك فيهلك ، انتهى.

فعليكم أيها الإخوان بتعظيم علماء زمانكم وإجلالهم ، ولا تقيموا عليهم ميزان عقلكم الجائر ، وانظروا إليهم بالهيبة والإجلال ، كما تنظرون إلى ملوك الدنيا ، لأنهم حملة عرش النبوة ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: بلوغي إلى مقام صرت ازداد بالسلب تمكيناً ، ولا أرى لي مع الله تعالىٰ ملكاً في الدارين ، فإنما أنا عبد آكل من طعام سيدي ، وألبس من ماله ، وأسكن داره ، وليس لي في جميع ما أتقلب فيه من أمور الدنيا والآخرة شيء ، وبيان ذلك أن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة ، باب قول الله تعالى. ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (١٤٧٧) ، ومسلم ، كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (١٧١٥).

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب العلم ، باب في الانتهاء عما نهى عنه رسول الله ﷺ (٢٦٧٩).

شدة قرب العبد من حضرة ربه عز وجل إنما تكون برؤيته الأشياء كلها لله تعالىٰ ، ليس للعبد منها سوى نسبة التكليف ، ومتى أشرك نفسه في شيء من أحواله مع الله تعالىٰ بعد عن حضرته ، فازداد طرداً ، لكونه أشرك نفسه مع الله تعالىٰ فيما هو خصيص بالحق تعالىٰ ، فعلم أن الصادق كلما سلبه الحق تعالىٰ من الكرامات والخوارق كلما ساعده الحق تعالىٰ على حصول كمال مقام عبوديته ، وكلما أعطاه مقاماً ووقف معه نقص تمكينه ، فافهم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: كثرة نصحي للإخوان من التجار والمباشرين ونحوهم ، ونهيهم عن الإسراف في المأكل والملبس في هذا الزمان الذي كسدت فيه البضائع ، وعن عمل الأعراس والولائم الواسعة ، وإعلامهم بأن كل من أسرف في ماله فقد أسرف في دينه وعرضه ، وعن قريب يصير يسأل الناس فلا يعطونه شيئاً .

وإيضاح ذلك: أن الله تعالىٰ ما أعطى عبداً شيئاً فوق كفايته إلا لينفق منه بقدر ضرورته ، ويدفع بقية ذلك للمحتاجين ، أو يرصده على إسمهم ، لا ليأكل منه إسرافاً ، ويدفع ذلك في الكنيف ، فعلم أنه ليس لعبد من جميع ما يدخل يده إلا ما لا بد منه ذلك اليوم فقط ، والباقي إنما هو وديعة عنده يدفعه لمستحقه في أوقات الحاجات ، ومن تعدى هذا الحد فقد خالف طريق الحق التي درج عليها الأنبياء والمرسلون ، والأولياء والصالحون ، ولولا أن الله تعالىٰ جعل العبد يحتاج إلى الطعام والشراب لكان الطعام إسرافاً وبداراً ، فإن حكم من يلقي الطعام الطيب والكنافة المبخرة في بطنه حينئذ حكم من يرمي ذلك في بيت الخلاء من حيث إتلافه وتنجيسه .

فافهم ذلك ، واعمل به ، وراع نعمة الله تبارك وتعالىٰ حق الرعاية ، إلاّ نفرت منك أبداً ما عشت ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: حرصي على حصول كمال الخير للإخوان من الفقراء الذاكرين لله تبارك وتعالىٰ ، والمشتغلين بالعلم ، بتعليمهم الآداب المطلوبة في حال ذكرهم ، وفي حال طلبهم العلم ، فأما أدبهم في الذكر فأن يذكروا مع إخوانهم تارة ، ويستمعوا لهم تارة ولا يجاهروهم في الصوت لأن ذلك أكمل في حصول الاستعداد ، وكذلك من الأدب أن يقصدوا بذكرهم الله تبارك وتعالىٰ مجالسة الحق جل وعلا ، لا تمشيخاً وغيره مما يستحق به العبد الطرد عن الحضرة الإلهية ، فليحذر الذاكر من مثل ذلك ، ومن شرب الماء عقب الذكر فإنه يضعف القلب ، ويميت الجسد ، فإن من شأن الذكر الخالص أن يجد به العبد حلاوة في قلبه ، ومزيداً في نفسه وقوة في بدنه ، وحرارة في جسده ، ومن الأدب عدم إطفاء ذلك بالماء .

وأما أدبهم في طلب العلم فإنه يطلبه أحدهم ليتأدب به ، ويؤدب به إخوانه ، فهذا هو مراد

الحق تبارك وتعالىٰ من العبد ، فليس لنا علم شرعي إلا وهو يدعو صاحبه إلى الأدب مع الله تعالىٰ ، ومع خلقه ، فليمتحن طالب العلم نفسه ، فإن وجد نفسه كلما ازداد علماً وازداد أدباً وورعاً وزهداً في الدنيا ، فليعلم أن اشتغاله بالعلم على القواعد الشرعية ، فليزداد من الاشتغال به ، وإن وجد نفسه كلما ازداد علماً ازداد محبة للدنيا ، وطلباً لمناصبها ووظائفها ، وأحب الأكل والشرب والنكاح والملابس ، فليقتصر عن الاشتغال بالعلم ، ويكثر من الاستغفار حتى تصلح نيته ، والحمد لله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

الباب الحادي عشر
في جملة آداب أخرى من الأخلاق

فأقول وبالله التوفيق ، وهو حسبي وثقتي ، وغياثي ، ومغيثي ونعم الوكيل.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: نفرة نفسي من التلبس بالصفات التي يكرهها الله تعالىٰ ، ومحبتي للصفات التي يحبها الله تعالىٰ ، وذلك حتى لا يقع نظر الحق تعالىٰ عليّ وأنا متلبس بشيء يكرهه ، فينظر إليَّ نظرة غضب ، فأخسر في الدارين.

وقد قال الإمام زين العابدين بن الحسين رضي الله تعالىٰ عنهما: إن لله تعالىٰ ثلاثمائة وستين نظرة إلى عباده في اليوم والليلة ، يمدهم بها في أمر دينهم ودنياهم ، ولولا ذلك لتلاشى العالم في أقل من طرفة عين ، انتهى.

فالعاقل من راعى تلك النظرات في كل درجة رمل ، وغار على نظر ربه إليه ، حتى لا يرى منه إلا ما يحب ، تنزيهاً لجناب ربه عز وجل.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: لا يخلو مسلم قط في حال من الأحوال عن تلبسه بصفة محبوبة لله عز وجل ، لدوام نظر الحق إليه ، فهو لو وقع في معصية لا بد من تلبسه بالإيمان بأنها معصية ، وهو في موضع نظر الله إليه ، وما زاد فهو من العوارض ، انتهى.

وسمعته مرة أخرى يقول: من كان مشهده حضرة الإرادة الإلهية ، والنظر إلى تصاريفها دون نسبة الأفعال إلى الخلق ،زلت به القدم في مهواة من التلف ، ومن نظر إلى الأصل مع الفرع سعد في الدارين.

وسمعته مرة يقول: عملت مرة على المراقبة والمشاهدة لحضرة التكوين ، حتى أطلعني الله تعالىٰ على عدد النوع البشري من السعداء الذين يدخلون الجنة من ذرية آدم عليه السلام ، فقلت: كيف ؟ قال: تضرب كليات العالم في ثلاثمائة وستين من النظرة الرحمانية تعثر على ذلك ، فقلت له: وما عدد الكليات ؟ فقال: عددها سبعمائة ألف ألف ألف (ثلاث مرات) ونصف وستة عشر الفاً وستمائة وستة وستون وسدس ، يضرب ذلك في ثلاثمائة وستين ، فما

تحصل من ذلك فهو عدد السعداء الذين كانوا في ظهر آدم عليه السلام لا يزيدون واحداً ، قلت له: فما عدد الأشقياء الذين يدخلون النار ، فقال: ذلك لا يحصيه إلا الله عز وجل ، انتهى ، وهو كلام ما رأيته قط لغيره ، فافهم ، والله تعالىٰ يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: تعليمي لمن عزل من ولايته مثلاً إقامة الحجة على نفسه دون الله ، ودون الحكام الذين نصبهم لتنفيذ أقداره تعالىٰ ، قياماً بواجب الأدب معهم ، وذلك بقولي له: تذكر يا أخي جميع ما وقعت فيه من المحرمات من منذ وعيت على نفسك ، وقدر عرضك ذلك على الحاكم الذي ظلمك ، تجد ما عاقبك به دون ما تستحق بيقين.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالىٰ يقول: ربما أقام الله تعالىٰ بعض الحكام ، وحفظه من ظلم رعيته بغير حق ، ثم إن وقع منه صورة ظلم فإنما ذلك ما كسبته أيدي الرعية ، فما أقامه حاكماً حتى حفظه ، فإنه تعالىٰ أحكم الحاكمين ، وهو الحاكم حقيقة من حيث حكم الإرادة بما حكم به الولاة ، كما ينكشف ذلك في الآخرة ، انتهى. وهو كلام يحتاج إلى تحرير لبعد غوره ، فافهمه ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: معرفتي بطب أرباب الأحوال ، فإن طبهم لا يعرفه غيرهم من الأطباء ، وقد بسطت الكلام على ذلك في رسالة مستقلة ، ولكن جملة الأمر أيها الإخوان أن من وجدتم في نفسه هيجاناً ، ونيراناً في قلبه ، وطيشاناً في بدنه ، بسبب حال قاهر فادعو له بتخفيف ذلك عنه ، فإن المحل غير قابل للطب ، ومن وجدتم حاله كحال الأموات لشدة الألم الذي في باطنه ، والضعف الذي في بدنه ، والانحطاط الذي في روحه ، ولكن هو مع ذلك كثير الغيبة والاستغراق ، فهذا لا تتعرضوا له بطبيب؛ لأن ما به ليس هو من ضعف المزاج ، وغلبة الكيموسات ، إنما هو فتوح من الله تعالىٰ قبله ذلك المحل ، لقوة الاستعداد والكمال ، ولهذا الفتوح علامة يعرفها أهل الله تعالىٰ عند نظرهم إلى ذلك الضعيف ، أو بلوغ خبره إليهم ، ويقع لي ذلك كثيراً ، فأمتنع من الخروج من البيت أياماً ، ولا أتداوى بطبيب ، لعلمي بأنه ليس له يد في ذلك ، وما رأيت في عمري كله أعرف بدواء أرباب الأحوال من سيدي علي الخواص ، ومن سيدي أفضل الدين رضي الله تعالىٰ عنهما ، فكانا يأمران كل من كان مرضه من طريق الحال بالاقتصار على أكل الثمار الأخضر ، والبقل فقط ، حتى يرتفع الأمر ، ومرضت مرة في حياتهما بهذا الأمر فأخبرهما سيدي شرف الدين بن الأمير بمرضي ، فقال له سيدي علي: هذا ليس بمرض وإنما هو زيادة في البحر ، فحمدت الله تعالىٰ على ذلك ، فإن الفتوح كما يكون بهذا الحال ، كذلك يكون به السلب.

واعلم يا أخي أن الفتوحات الإلهية تارة تنزل على السر ، وتارة تنزل على الروح ، وتارة على القلب ، وتارة على النفس ، وتارة على الجسد ، وهذه الأمور وإن كان لها أسماء متعددة

في مراتب ، فهي لأمر واحد وهو اللطيفة الإنسانية ، والفتوح يكون على شاكلتها صفاء وكدرة.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: قد يكون السلب بواسطة توجه أحد من أرباب الأحوال إلى ذلك المسلوب ، فمن الأدب عدم مقابلته بنظير فعله ، ويكل العبد أمره إلى الله تعالىٰ ، فإن من شرط الفقير الصادق أن لا يتعرض لأخيه المسلم بسلب ولا بأذى ، ولو على وجه التأديب ، بل يسأل الله تعالىٰ له حسن العاقبة ، انتهى.

وقد وقع بين سيدي الشيخ حسن العراقي ، وبين سيدي عبد القادر الدشطوطي مصادمة بالحال ، فعمي الشيخ عبد القادر ، وتكسح الشيخ حسن العراقي ، كما أخبرني بذلك الشيخ حسن عن نفسه.

فعليك يا أخي بالرحمة على العباد ، وإياك أن تؤذي أحداً منهم بغير طريق شرعي ترشد ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: سروري بالمرض إذا جاء ، لعلمي بأنه ينظف جسدي وروحي من القذر الحاصل بالمخالفات ، وربما أسأل ربي في المرض إذا رأيت كثرة القذر في بدني أو روحي ، وأقول: اللهم اعف عني ، وإن كان سبق في علمك تطهيري بالمرض فعجل به لي ، فإن الله تعالىٰ ما يمرضنا إلا ليطهرنا من ذنوبنا ، ويرجع بدننا كيوم ولدتنا أمنا ، مع ما يحصل منا حال المرض من إظهار العبودية بالسؤال وكثرة المناجاة له بالأنين والتأوه والاستغاثة وكثرة التضرع والابتهال ، حتى يصير أحدنا مفوضاً مستسلماً خائفاً مما جناه أن يقدم على الله تعالىٰ ، وهو غير تائب منه.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: لولا الأمراض لكان أحدنا كالأنعام في الإضلال أو أضل من الأنعام ، أو كالذباب أو الكلاب التي لا نفع فيها ولا ألطاف بوجه من الوجوه ، فعليكم أيها الإخوان بالصبر على البلاء لا على طلب إدامة البلاء ، فإنه من باب التفويض ، وعليكم بكثرة السؤال إلى الله في حق الخلق أجمعين ، فإنه باب التسليم ، واحذروا من حمل هم أولادكم الصغار حال مرضكم ، فإن ذلك مما يكرهه الله منكم.

ومن ادعى التسليم لله تعالىٰ حال مرضه ، وحمل هم أولاده من بعده فهو لم يشم للتسليم رائحة ففوضوا إليه أمر أولادكم ، كما فوضتم إليه أمر أنفسكم في زعمكم ، فإنه أولى بكم ، وأولى من حفظ ما استرعى عليه ، انتهى.

فالعاقل من وصى ربه عز وجل على ذريته من بعده دون خلقه بلسان الحال دون المقال ، لأن كل شيء وقع في سابق علمه لا يصح تغييره ، فاعلم ذلك ، وأت البيوت من أبوابها ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم عجلتي بالجواب في مجلس المذاكرة والمناظرة في العلم ، بل أصبر حتى يبدي الحاضرون كلهم ما عندهم ، ثم أتكلم ، وأصل ذلك عدم محبة الرياسة ، إذ الطالب لها لا يقدر على التأني أبداً ، بل من شأنه المبادرة بالجواب ، واعلم يا أخي أن حكم من يتعجل بالجواب ، حكم من يبني حائطاً مستعجلاً من غير تمهل ، فلا بد أنها تتشقق وتنهدم ولو على طول ، بخلاف ما بني على التأني والتمهل.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: العجلة تطمس البصيرة وتعمي البصر ، فكيف إذا ضم إليها سرعة الغضب وحمية النفس ، كما هو الغالب على أهل المناظرة ، فربما وصلوا إلى الخصام ، وسعوا في عزل بعضهم بعضاً من ولايتهم ، وأخرجوا بعضهم من ولايتهم ، وقد بلغنا أن جماعة من الحنفية فيما وراء النهر يفطرون في نهار رمضان ليتقووا بذلك على المناظرة ، هكذا ذكر في الفتوحات ، وأصل ذلك كله ظن الإنسان بنفسه الكمال ، وهو جهل ، والجاهل معذور عند الله في بعض الأمور ، حيث لم يقصر ، فاعذروه حيث عذره الله تعالىٰ ، انتهى ، وتقدم بسط ذلك مراراً والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: عدم طلبي أحداً يساعدني على من آذاني من أرباب الأحوال ، بل أصبر وأحتسب ، ولا أقابل من آذاني بسوء ، ولا أعتب على أحد من فقراء عصري في ترك المساعدة.

وكان على هذا المقام أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ ، فحكى لي: أنه حدث له مرة حادث عظيم في بداية أمره يؤدي إلى الموت في الغالب ، قال: وذلك أن شخصاً من النقباء والموكلين بقيام الميزان على أرباب الأحوال عارضني ، حتى صرت أرى بدني كله كأنه دمل قرب انفجاره ، وطلبت من الله تعالىٰ طلوع الروح ، فلم يقع ، فجئت استنصر بسيدي علي الخواص ، فقال لي: قد رموني وافعل ما كنت فاعلاً ثم ولّى بباطنه عني ، حتى قضى الحق تعالىٰ علي بما شاء ، ثم جئت إليه فرحب بي ، ثم فتح لي باب الاكتساب والإيمان ، وقال: هذا أساسك فابن عليه ما شئت ، فإنه الأصل كما أشار إلي حديث: «**ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»(١) ثم قال لي: يا ولدي لأن تأتي الله وأنت فقير من سائر العلوم والمعارف والأحوال الموضوعة للزينة ، ومعك الإيمان ، أفضل لك من أن تأتيه بعلوم الأولين والآخرين ، وفي إيمانك نقص ، انتهى.

فعليك يا أخي بالتوجه إلى الله تعالىٰ في كل أمر يصيبك ، ولا تعول على أحد من إخوانك في هذا الزمان ، فلا ينالك منه إلا سواد الوجه من حيث ذللت له ، وإن شككت فجرب ، فإني

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب السنة ، باب في القدر (٤٦٩٩) ، وابن ماجه ، كتاب المقدمة ، باب في القدر (٧٧) ، وأحمد في مسنده (٢١٠٧٩).

جربت هذا الأمر قبلك مراراً ، والله تبارك وتعالىٰ يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالىٰ به عليّ : ميلي إلى الطب إذا حصل لي مرض ، فأتداوى بما وصفه لي الطبيب المسلم ، ولا أترك التداوي كما يفعله أصحاب الأنفس الغوية ، فإن ذلك كالمقاومة للقهر الإلهي ، ثم إنه إذا طال بالعبد المرض طلب الدواء ضرورة ، فكان من العقل أن العبد يفعل أولاً ما يفعل آخراً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨] . وجميع ما يدعيه من القوة عرض لا ثبات له .

وقد سئل الحكيم الترمذي عن صفة الخلق ، فقال : ضعف ظاهر ، ودعوى عريضة .

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول : عليكم بالتداوي من سائر الأمراض فإن الله تعالىٰ كما أمر العبد بالنظر في مصالح نفسه من حيث الأعمال الصالحة ، والأكل والشرب وغيرهما ، كذلك أمره بالنظر في مصالح بنيته ، وما يقوم بها من الأغذية والأشربة مما يحصل الغذاء والري عند استعماله ، ويدفع حر الطبيعة أو بردها الموجبين للبرد واليبس أو غير ذلك ، فينبغي للعبد أن يتفقد بدنه وطبيعته في كل أسبوع بما يناسب ذلك الوقت من مشي الطبيعة أو حبسها أو يقوي المعدة عند ضعفها وعجزها عن هضم الغذاء ، أو امتلائها ، ولكل واحد من ذلك علامة يعرفها الحاذق من نفسه بلا واسطة ، قال : ولنذكر لك يا أخي بعض أمور مما يناسب كل زمان ، فنقول وبالله التوفيق .

اعلم يا أخي أن الله تعالىٰ يخرج لعباده في كل فصل وأوان من البقول والفواكه ما يناسب أمراض ذلك الفصل التي تحصل فيه ، فينبغي للعبد أن يستعمل من كل ما يظهره الله تعالىٰ من المأكولات في الفصول الأربعة ، استعمالاً كافياً ، ويتفطن لما يخرجه الله تعالىٰ في الفصول من حيث القلة والكثرة ، فإن كان كثيراً فوق العادة ، فليعلم أن الداء المقابل له كثير ، فيكثر من أكله بنية الشفاء لا بنية شهوة النفس ، وذلك ليثاب على الأكل ؛ لأن الحق تعالىٰ ما وضع ذلك في هذه الدار للشهوة ، وإنما وضع ذلك لحكمة بالغة .

واعلموا أيها الإخوان أن أصول الطب كلها ترجع إلى تقليل الغذاء ، إذ الداء إنما يقوى سلطانه بزيادة الغذاء ، لا سيما إن كان موافقاً لزيادته بالطبع أو الخاصية ، لكن إذا قطعت الطبيعة الغذاء لقوتها فلا يضر زيادة الأكل إن شاء الله تعالىٰ ؛ لأن حكم هذا حكم من أكل قليلاً ، قال : وينبغي للعبد أن يستعمل في كل أسبوع منقوع العود السوس بيسير من الملح والشمار ، من غير استدعاء ، فإن الحكماء الأول لم يحكموا بالاستدعاء إلا لما كانوا عليه من قوة الأبدان ، وهذا أمر قد أخذه الله تعالىٰ من أبدان غالب الخلق ، لغلبة الشبهة في مطاعمهم ، إذ الطعام الحرام أو الذي فيه الشبهة يوهن البدن بخلاف الحلال ، قال على أن تعاطيهم للاستدعاء في زمانهم غير صواب في نفس الأمر ؛ لأن قلب الحكمة عن موضوعها

موجب للضعف في البنية قطعاً ، إذ الشيء لا يستقر له حكم ، ولا يظهر له أثر إلا إذا مكث في محله المخصوص به.

والحكمة الصحيحة ، استعمال الأكل والشرب في محله المخصوص ، ثم يصبر عليه حتى تأخذ العروق والقوى منها حظها ، ثم ينزل من محله المعتاد من قبل أو دبر في وقته المحتاج إليه ، ولا تستمعوا لقول طبيب غير محفوظ يخالف ما قلناه ، فإن الطبيب حقيقة هو الله تعالىٰ.

قال: ولا بأس أن يستعمل الضعيف البقل والملح على الفطور غالب أيامه ، مع مراعاة تقليل الغذاء ، والأكلة الواحدة كافية من الوقت إلى مثله ، لكن مع تقليل الشرب أيضاً ، فإن كثرة الشرب توجب في قوى الطبيعة امتلاء بزيادة حكم تأثير الأغذية بما فيها من المناسبة لذلك الداء ، فإن الغذاء لا يخلو من حكم العناصر الأربعة ، وتتفاوت أحكامها زيادة ونقصاً ، كما هو حكم الجسد في نفسه من حيث أنه يوجب في الضعيف انقلاب مزاجه إذا كان مناسباً إلى طبع البلغم أو السوداء أو كلاهما ، فيغلب ذلك الخلط على الآخر فيولد المرض ، ولو أن كل واحد بقي بحكم الاعتدال على وصف خلقته ما حصل لصاحبه مرض.

قال: ولا بأس بالحجامة والفصد في فصل الربيع ، سواء أكان ثم حادث أم لم يكن ، وشرب الدواء المسهل أقطع في حق الأمزجة القوية.

قال: وثم من الأمزجة القوية ما لا يحتاج صاحبه إلى دواء ولا إلى غيره ، لصحة تركيبه من أخلاط ثابتة الحكم ، والأثر في نشأته الأولى ، أو لكثرة تعاطيه الأعمال الشاقة.

قال: ولا بأس بترك اللحم والحلواء زمن الصيف والربيع ، واستعمال الأمراق والحوامض وما شاكل ذلك مما هو معلوم في كل فصل ، ولا بأس بالصوم فإنه بنية التضرع أو الشكر نور ، وبنية صحة المزاج للعبادة قوة فيه.

قال: ولا أعلم من طريق الطب أولى منه كما ورد: «**جوعوا تصحوا**»[1] قال: ولا ينبغي للعبد أن يأكل ما فيه رائحة كريهة ، أو ينفخ البطن ليلة الجمعة ، ويومها ، حفظاً للمساجد من الريح الكريه إن كان ممن يعمرها ، وقياماً بواجب أذكار تلك الليلة أو يومها.

قال: ولا بأس بتناول العبد يوم الجمعة بعض شهواته المباحة؛ لأن ذلك يخرج فضلات الأهوية النفسانية ، ويقوي النفس على العبادات ، وعمل الحرف فيما بعده ، ولسان حال النفس يقول لصاحبها: كن معي في بعض أغراضي وإلا صرعتك انتهى.

فتأمل يا أخي هذا المحل فإنه نافع ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) لم أجده.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: أخذي بالاحتياط في عدم كتابتي في المحاضر التي فيها إطناب في وصف صاحب المحضر الذي يطلب شيئاً من الولايات الشرعية ، إلا إن علمت تعين تلك الولاية على مثله.

وكذلك من نعم الله تبارك وتعالىٰ عليّ: عدم مبادرتي إلى تزكية كل مسلم سئلت عنه ممن لا يطلب ولاية إلا بطريقه الشرعي ، ثم إني إذا كتبت في ذلك المحضر بشرطه أكتب ما صورته يقول: سطرها فلان أني أعتقد أن فلاناً خير مني ، وأرضى بشهادته عليّ ، انتهى. فلا أزكي مطلقاً ، ولا أمتنع من التزكية مطلقاً ، كما بسطت الكلام على ذلك أوائل كتاب (تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر) ولكن ينبغي التورية في الصفات إذا اضطر إلى ذلك ، وعلى هذا التفصيل يحمل قول سيدي علي الخواص رحمه الله تعالىٰ: لا تمتنعوا عن تزكية أحد من المسلمين ، فإنكم إنما تشهدون على تزكية الله عز وجل ، بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ولم يستثن تعالىٰ من الأمة أحداً إكراماً لنبيهم محمد ﷺ ، إذ لو استثنى الحق تعالىٰ منهم أحداً لم يكن لنبينا ظهور سيادة على سائر الأنبياء والمرسلين ، انتهى.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالىٰ يقول: احذروا أن تجرحوا من أثبت الحق تعالىٰ عدالتهم ، وزكاهم عند رسوله ﷺ ، واستروا أصحابكم وإخوانكم جهدكم ما داموا متسترين على المخالفة ، فإذا جاهروا بها فعظوهم فإن لم يتعظوا فازجروهم ، فإن لم تستطيعوا فاتركوهم تحت المشيئة ، ولا تعايروهم بالذنوب ، فربما تبتلون بما ابتلوا به ، انتهى.

ثم اعلم أنه ينبغي لمن يزكي الشاهد أن يكون حاذقاً ، وإلا فربما زكى فاسقاً يشهد زوراً ، فيصير إثم ذلك في عنقه ، وعلى هذا يحمل قول الصوفية: من شرط المريد أن لا يرجح ولا يجرح ، لكونه مشغولاً بنفسه ، لا نظر له إلى أحوال الناس ، فربما رجح بغير حق.

فانظر يا أخي ما يترتب على التزكية من الأمور ، ثم زك ورجح ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالىٰ به عليّ: إعطائي جانباً عظيماً من علم الفراسة الناشئة من نور الإيمان ، وذلك لأني أرتب على كل شيء رأيته في أخي مقتضاه ، وللعلماء في ذلك كتب كثيرة ، لكن غالب فراستهم من حيث رؤية أعضاء الجسد الظاهرة ، وهذه الفراسة إنما من حيث الأعمال والأحوال والهيآت ، إذا علمت ذلك ، فأقول وبالله التوفيق.

كل من رأيتموه أيها الإخوان كثير الصمت ، والفكر ، والطمأنينة في الحركة ، وحفظ العين من فضول النظر إلى إثبات البصيرة في وجوه الناس لغير غرض شرعي ، فهو دليل على

كمال إيمانه ، ومن رأيتموه يراسل الكلام مع الوزن والاختصار والإيهام فهو دليل على قوة عقله وفهمه ، وغير ذلك يكون من صفات المجاذيب أرباب الأحوال والمجانين ، ومن رأيتموه يقرمط أنفه مع عبوسة وجهه ، فهو دليل على قيام نفسه ، وعدم انقيادها ونفعها بكلامكم ، ومن رأيتموه سريع الجواب مع الإصابة ، فذلك دليل على نور قلبه ، ومن رأيتموه كثير البكاء والخوف ، فهو دليل على العلم والعمل ، ومن رأيتموه عالي الهمة ، نافذ الكلمة ، فهو دليل على إخلاصه في عمله ، ومن رأيتموه كثير التسليم والانقياد لأهل الخير ، فهو دليل على معرفته.

ومن رأيتموه يحب سماع العلم والآثار عن السلف الصالح من غير عمل ، فهو دليل على فساد نيته ، وأنه يحب صفات الصالحين ليشتهر بذكرها ، مع فراغ القلب من محبة الحق ، ومن رأيتموه يحمر وجهه عند الغضب ، فو دليل على قوة النفس بغير حق ، ومن رأيتموه يسود وجهه عند الغضب ، فهو دليل على أنه صاحب حال أو حقد ، ومن رأيتموه يصفر وجهه عند الغضب ، فهو دليل على موت نفسه ، أو شدة رعبه ، ومن رأيتموه يرعد وتتخلخل ركبه بحضرة أهل التصريف من الفقراء أو الأمراء ، مع علو الهمة ، وصدق القول ، فهو دليل على ضعف المضغة بسبب انحراف مزاج الأب ، ومن رأيتموه لا يتغير له مزاج عند الغضب ، فهو دليل على ثبات إيمانه.

ومن رأيتموه كثير السؤال في العلم والغضب فيه ، مع قلة الحفظ والعمل ، فهو دليل على انطماس البصيرة وظلمة القلب ، ومن رأيتموه كثير التخيلات والآراء ، فهو دليل على قلة أدبه ، وقلة تسليمه ، ومن رأيتموه يتكلم بالمعارف في أكثر أوقاته ، فهو دليل على عدم استعداده ، وتزلزل فطنته ، ومن رأيتموه يطلب شيخاً يسلكه في الطريق مع كسله فيما يعلمه من أوامر الله ، فهو دليل على موت قلبه ، وكثرة جهله ، ومن رأيتموه كثير الارتباط بالعادات ، فهو دليل على كثرة الغفلة.

ومن رأيتموه كثير النسيان بأمور الدنيا مع اشتغاله بأمور الآخرة ، فهو دليل على الخروج من حكم العادة وسلطانها ، ومن رأيتموه كثير القيام بأغراض نفسه ، وتحصيل مرادها ، فهو دليل على الاغترار وسوء الأدب ، ومن رأيتموه كثير الوقوف مع الأسباب وتحكيمها في المسببات ، فهو دليل على شدة غلظ الطبع ، وضعف العقل.

ومن رأيتموه كثير التقييد في الأمور بأعلاها ، فهو دليل على كمال عقله ، ومن رأيتموه كثير الصبر على السبب الواحد مع حصول المسبب عنه ، فهو دليل على التقوى ، وعكس ذلك بعكس ذلك ، ومن رأيتموه لا تميل نفسه إلى التقيد في أعماله وأحواله ، فهو دليل على خروج حكم الطبع والهوى من النفس.

ومن رأيتموه كثير الضحك والاستغراق فيه ، فهو دليل على موت قلبه ، وخراب سره ، ومن رأيتموه كثير الحزن على فوات الطاعات فهو دليل على اعتماده على أفعاله ، أو سوء ظنه بالله عز وجل ، ومن رأيتموه ينوع الطعام المكلف للضيف ، فهو دليل على الرياء والمفاخرة وقلة الورع ، فلا ينبغي أكل طعامه للنهي عنه ، ومن رأيتموه لا ينتفع بعلم ولا عمل ، فهو دليل على سوء ظنه بالله ، نعوذ بالله عز وجل.

وقال الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالىٰ عنه ، في الباب الثامن والأربعين ومائة ، من الفتوحات المكية: اعلم أن الفراسة مأخوذة من الافتراس الذي هو يقرب من صورة غيب النفث الإلهي القهري ، وإذا اتصف بها العبد كان له في المتفرس فيه علامات يستدل بها ، والعلامات منها ما هو طبيعي مزاجي ، وهي الفراسة الحكيمة ، ومنها ما هو روحاني نفسي إيماني ، وهي الفراسة الإلهية ، وذلك نور إلهي يجعله الله في عين بصيرة المؤمن ، يعرف به ، أو يكشف به ، ما وقع من المتفرس فيه ، أو ما يقع منه ، أو ما يؤول إليه ، ففراسة المؤمن أعم تعلقاً من الفراسة الحكيمة الطبيعية.

قال: ومما وقع لعثمان بن عفان رضي الله عنه: أن رجلاً دخل عليه ، فعندما وقعت عليه عين عثمان رضي الله عنه ، قال: يا سبحان الله ما بال رجال لا يغضون أبصارهم عن محارم الله عز وجل ، وكان ذلك الرجل قد أرسل طرفه فيما لا يحل ، فقال له الرجل: أوحي بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال: لا ، ولكنها فراسة المؤمن ، ألم تسمع إلى قول رسول الله ﷺ: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**»[1] وعندما دخلت عليّ رأيت ذلك في عينك ، فهذه فراسة يعلم صاحبها من رؤية العضو ما وقع فيه ذلك العضو من الأعمال الحسنة ، أو القبيحة.

قال: واعلم أن الفراسة الإيمانية تحصل عند صفاء النفس وتزكيتها ، وذلك حين يلحق بالأولياء الذين يحبهم الله تعالىٰ ، المذكورين في حديث: «**كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به**»[2] إلى آخره ، فعند ذلك يعرف العبد مصادر الأمور ومواردها ، وما ينبعث إليه وما يؤول.

قال: وكل ذلك موهبة من الله تعالىٰ لا تختص بسليم الطبع ، بل تكون له ولغيره ، ولنذكر شيئاً من الفراسة الحكيمة فنقول ، وبالله التوفيق: إذا أراد الله تعالىٰ أن يخلق إنساناً معتدل النشأة ، وتكون جميع حركاته وتصرفاته مستقيمة ، وفق الله تعالىٰ الأب لما فيه صلاح مزاجه ، ووفق الأم أيضاً لذلك ، فصلح المني من الذكر والأنثى ، وصلح مزاج الرحم ، واعتدلت فيه الأخلاط اعتدال القدر الذي يكون به صلاح النطفة ، وقد وفق الله تعالى لإنزال

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة الحجر (٣١٢٧).
(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب التواضع (٦٥٠٢)

الماء في الرحم طالعاً سعيداً يشار إليه بحركات فلكية ، لا يعرفها إلا من كشف الله عن بصيرته الحجاب ، وقد جعلها الله تعالى بإرادته علامة على الصلاح ، فيما يكون في ذلك من الكائنات ، فيجامع الرجل امرأته في طالع سعيد ، بمزاج معتدل ، فينزل الماء في الرحم المعتدل فيتلقاه الرحم ، ويوفق الله الأم ، ويرزقها شدة الشهوة إلى كل غذاء يكون فيه صلاح مزاجها ، وما تتغذى به النطفة ، في الرحم ، فتقبل النطفة التصوير بإذن الله تعالى في مكان معتدل ، ومواد معتدلة ، وحركات فلكية مستقيمة ، فتخرج النشأة ، وتقوم على اعتدال صورة ، فتكون نشأة صاحبها معتدلة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، لين اللحم رطبه ، ليس عنده غلظ ولا رقة ، أبيض مشرب بحمرة وصفرة ، معتدل الشعر طويله ، ليس بالسبط ولا بالجعد القطط ، في شعره حمرة ، ليس بذاك السواد ، أسبل وجهه ، معتدل عظم رأسه ، سائل الأكتاف في عنقه استواء ، معتدل اللثة ، ليس في وركه ولا صلبه لحم مستنكر ، خفي الصوت صاف ما غلظ منه وما رق ، غليظ البنيان ، سبط الكف ، قليل الكلام لا عن عيٍّ ، كثير الصمت إلا عند الحاجة ، يميل طبعه إلى الصفراء والسوداء ، في نظره فرح وسرور ، قليل الطمع في المال ، لا يريد الرياسة على أحد ، ليس بعجل ولا بطيء.

فهذا ما قالت الحكماء إنه أعدل الخلقة وأحكمها ، وفيه خلق نبينا محمد ﷺ ، فصح له الكمال في النشأة ، كما صح الكمال في المرتبة ، فكان أكمل الناس من جميع الوجوه ظاهراً وباطناً ، فإن اتفق أن يكون في الرحم اختلال مزاج فلا بد أن يؤثر ذلك الاختلال في نشأة الإنسان في الرحم في عضو مخصوص من أعضائه ، أو في أكثر الأعضاء ، أو في أقلها ، بحسب ما تكون المادة في الوقت لذلك العضو من القوة الجاذبة التي تكون في النطفة ، فيخرج الولد بحسب تلك النشأة.

إذا علمت ذلك فاعلم أن البياض الصادق مع الشقرة والزرقة الكبيرة ، دليل على القحة ، والخيانة ، وخفة العقل ، والفسوق ، فإن كان مع ذلك واسع الجبهة ، ضيق الذقن ، أزعر ، كثير الشعر على الرأس ، وجب التحفظ ممن هذه صفته ، كما يتحفظ من الأفاعي القتالة.

وإذا كان الشعر خشناً ، فهو دليل على الشجاعة ، وصحة الدماغ ، وإن كان ليناً ، دل على الجبن ، وبرد الدماغ ، وقلة الفطنة ، وإن كان الشعر كثيراً على الكتفين والعنق ، فهو دليل على الحمق والجراءة ، وإن كان كثيراً على الصدر والبطن ، فهو دليل على وحشة الطبع ، وقلة الفهم ، وحب الجود والكرم ، والشقرة في الشعر دليل على الجبن ، وكثرة الغضب وسرعته ، والتسلط على الناس ، وإذا كان شعر الإنسان أسود فهو دليل على السكون في عقل والأناة ، وحب العدل ، وإن كان شعره معتدلاً بين هذين ، فهو دليل على الاعتدال ، ومن كانت جبهته منبسطة لا غضون فيها ، فهو دليل على الخصومة والرقاعة والصلف ، وإن كانت متوسطة في النتوء والسعة ، وكان فيها غضون ، فهو صدوق محب ، فهم عالم يقظان ، يتدبر

في أمره حاذق ، ومن كان صغير الأذنين فهو سارق أحمق ، ومن كان حاجبه كثير الشعر ، فهو دليل على عيه ونطقه بغث الكلام ، ومن امتد حاجبه إلى الصدغ فهو تياه صلف ، ومن دق حاجبه واعتدل في الطول والقصر وكان أسود فهو يقظان.

ومن كانت عينه زرقاء فهو أردأ العيون ، فإن كانت فيروزجية فهي أردأ الزرق ، ومن كان متسع العينين أجحظ فهو حسود وقح كسلان ، غير مأمون ، وإن كانت عينه زرقاء فهي أشد ، ومن كانت عينه متوسطة مائلة إلى العور والكحلة والسواد ، فهو يقظان فهم ثقة محب ، فإن أخذت العين في طول البدن فصاحبها خبيث ، ومن كانت عينه جامدة قليلة الحركة كالبهيمة ، فهو جاهل غليظ الطبع ، ومن كان في عينه حركة بسرعة وحدة نظر ، فهو مختال لص غادر ، ومن كانت عينه حمراء ، فهو شجاع مقدام ، فإن كان حواليها نقط صفراء ، فصاحبها أشر الناس وأدهاهم.

ومن كان أنفه شديد الانتفاخ فهو غضوب ، فإذا كان غليظ الوسط مائلاً للفطوسة فهو كذوب مهذار ، قالوا: وأعدل الأنوف ما طال طولاً وسطاً ، ومن كان أنفه متوسط الغلظ ، وقناه غير فاحش ، فهو دليل على الفهم والعقل.

ومن كان فمه واسعاً فهو شجاع ، أو غليظ الشفتين فهو أحمق ، أو متوسط الغلظ في الشفتين من حمرة صادقة ، فهو معتدل ، ومن كانت أسنانه ملتوية أو ناتئة فهو خداع متحيل غير مأمون ، ومن كانت أسنانه منبسطة خفافاً بينها فلج ، فهو عاقل ثقة مأمون مدبر.

ومن كان لحم وجهه كثيراً منتفخ الشدقين ، فهو جاهل غليظ الطبع ، ومن كان نحيف الوجه أصفر ، فهو رديء خبيث خداع ، ومن طال وجهه فهو وقح ، ومن كانت أصداغه منتفخة وأوداجه ممتلئة ، فهو غضوب ، ومن نظرت إليه فاحمر وجهه ، وخجل وربما دمعت عيناه أو تبسم ، فهو متودد محب لك ، في نفسه مهابة.

ومن كان ذا صوت جهير ، فهو دليل على الشجاعة ، وسرعة الكلام ، ومن كان صوته رفيعاً ، فهو دليل على الكلبة والقحة والجهل ، ومن كان صوته غليظاً ، فهو دليل على الغضب ، وسوء الخلق ، والغنة في الصوت تدل على الحمق ، وقلة الفطنة ، وكبر النفس.

ومن كان كثير الوقار في جلسته ، وتدارك لفظه ، وتحريك يده في فصول الكلام ، فهو دليل على تمام العقل والتدبير.

ومن كان قصير العنق ، فهو دليل على الخبث والمكر ، أو طويل العنق مع الدقة ، فهو دليل على الحمق والجبن ، وكثير الصياح ، فإن انضم إليها صغر الرأس ، فهو دليل على الحمق والسخف ، ومن كان غليظ العنق فهو دليل على الجهل ، وكثرة الكلام ، ومن كان

معتدل العنق في الطول والغلظ ، فهو دليل على العقل والتدبر ، وخلوص المودة والثقة والصدق.

ومن كان كبير البطن ، فهو دليل على الحمق والجهل والجبن ، ومن كان لطيف البطن مع ضيق الصدر ، فهو دليل على جودة الرأي ، وحسن العقل.

ومن كان عريض الكتفين والظهر ، فهو دليل على الشجاعة وخفة العقل.

ومن كان ظهره منحنياً فهو دليل على الشكاحة والترافة ، واستواء الظهر علامة محمودة ، وبروز الكتفين يدل على سوء النية وقبح المذهب.

وطول الذراعين حتى تبلغ اليد الركبة دليل على الشجاعة والكرم ، ونيل اليقين ، ومن قصرت يده ، فهو دليل على الجبن ومحبة الشر ، وطول الكف مع طول الأصابع ، يدل على تعديل الصنائع ، وإحكام الأعمال.

ومن كان قدمه غليظ اللحم ، فهو دليل على الجهل ، وحب الجود ، ومن كان قدمه صغيراً ليناً ، فهو دليل على الفجور ، ومن كان دقيق العقب ، فهو دليل على السخف ، أو غليظ العقب ، فهو دليل على الشجاعة ، أو غليظ الساقين مع العرقوبين ، فهو دليل التدبير ، ومن كانت خطاه واسعة بطيئة ، فهو ناجح في سائر أعماله ، متفكر في عواقبه ، ومن كان بالضد فهو بالضد.

هذا ما نقلناه من كلام العلماء بالطبيعة ، وهذه النعوت قد تكثر وقد تقل ، والحكم للغالب ، واستعمال العلم والرياضة مؤثر في كل صفة مذمومة بإزالتها ، ولكن عمل أهل الله تعالى على الفراسة الإيمانية ، وقد وصلوا منها إلى معرفة الشقي والسعيد من رؤية موضع قدمه في الأرض ، كالقائف الذي يتبع الأثر ، فيقول: صاحب هذا القدم أبيض ، أو أعور العين ، ويصف خلقته ، كأنه رآه بعينه ، وهذه الفراسة لا تخطىء أبداً ، بخلاف فراسة الحكماء ، فإنها مبنية على الظن ، وربما أدت العبد المحجوب إلى سوء ظنه بعباد الله ، انتهى.

وفي هذا القدر كفاية ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: معرفتي بالآفات التي تطرق الإنسان على طبقات الناس ، ولنذكر لك منها يا أخي جملة فنقول وبالله التوفيق.

آفة الإيمان القدر ، وآفة الإسلام العلل ، وآفة العمل الملل ، وآفة العلم رؤية النفس ، وآفة العقل الحذر ، وآفة المال الأمن ، وآفة العارف الظهور من غير وارد من جهة الحق ، وآفة القول الجور ، وآفة المحبة الشهوة ، وآفة التواضع الذلة ، وآفة الصبر الشكوى ، وآفة التسليم التفريط في جانب الله تعالى ، وآفة الغنى الطمع ، وآفة العز البطر ، وآفة الكرم السرف ، وآفة البطالة فقد الدنيا والآخرة ، وآفة الكشف التكلم به ، وآفة الاتباع التأويل ،

وآفة الأدب التفسير ، وآفة الصحبة المنازعة ، وآفة الفهم الجدال ، وآفة الطالب التسلل دون الإقدام على المكاره ، وآفة الانتفاع التسلق ، وآفة الفتح الالتفات له ، وآفة الفقيه الكشف ، وآفة المسلك الوهم ، وآفة الدنيا الطلب ، وآفة الآخرة الإعراض ، وآفة العبد إذا أعطي الكرامات الميل إليها ، لا سيما مع ارتكابه المخالفات ، فإنه من الاستدراج ، وآفة الظلم الانتشار ، وآفة العدل الانتقام ، وآفة التقيد الوسوسة ، وآفة الإطلاق الخروج عن المراسم ، وآفة الحدث النقص ، وآفة الجود رؤية الكمال.

وفي هذا القدر كفاية ، فافهمه ، واعمل عليه ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: دوام نظري إلى أدب ذوي البيوت من الأكابر ، دون النظر إلى شيء من مساويهم ، فإن معهم من الأدب ما لا يوجد عند غالب الناس ، من حيائهم من النطق بالكلمة القبيحة ، وغض الطرف عن عورات الناس ، وعدم شرههم في الطعام ، وكثرة افتقادهم جيرانهم بالهداية ، وتعظيمهم ممن يعلمهم القرآن والأدب ، ولبسهم الخف في أرجلهم ، وجعلهم الأكمام ضيقة ، خوفاً أن يبدو شيء من أطرافهم ، ولبسهم السراويل على الدوام ، حتى كأنه فرض لازم ، وغير ذلك من التواضع ، حتى إنك تجد الواحد منهم أشد تواضعاً من بواب داره.

وقد أخبرني أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى ، وقال لي: قد تعلمت من سيدي أحمد بن برسباي عدة آداب ، وهو في سن التمييز ، وكذلك من عبده الصغير ، حتى كانا إذا سألاني عن مسألة أقول لهما: منكم نستفيد ، حياء منهما ، وقد قال سيدي أحمد مرة لعبده: لم لا تقبل يد الفقيه عند الانصراف ، فقال: أنت سيدي ، ورأيتك تقبل يده ورجله ، فما بقي لي موضع أقبله من الفقيه ، وأستحي أن أقبله موضع فمك وأنا عبدك ، قال: وقد حصل لي من الأدب بمجالستهما ما لم يحصل لي بالمشايخ الكبار ، رضي الله عنهما. انتهى كلامه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي تواضع الأمير إذا زرته ، ولا أرى نفسي أهلاً لتواضعه لي ، وأن تواضعي له على الأصل ، وتواضعه لي على خلاف الأصل فكان أكثر تواضعاً مني ، لتنزله من مقامه العالي عادة إلى أن رأى نفسه دوني ، بخلافي أنا ، فإنه لم يكن لي مقام فوقه أتنزل له منه ، فافهم ، لا سيما إن كنت لا أعرف له ذنباً ، أو كان في حال تواضعه تائباً من ذنوبه ، كما هو الغالب من حال بعض الأمراء إذا اجتمعوا بمن يعتقدونه من الفقراء.

ولما دخلت على الأمير عامر بن بغداد ، في شفاعة أيام مولد سيدي أحمد البدوي ، قبل رجلي في النعل ، وأنا راكب بحضرة آلاف من الخلائق من جماعة الباشا ، وكتاب الديوان ،

وشيوخ العرب وغيرهم ، فكدت أن أذوب حياء منه ، ورأيت تواضعي له بالنسبة لتواضعه لي كذرة من البحر المحيط ، واستحييت من الله تعالى أن أبقي موضع فمه في نعلي ، أدوس به على النجاسات ، فقطعته من نعلي ، وأمرت بعض الإخوان ، أن يضع ذلك عنده في كيس مقابلة للأمير على ما فعل في محل عزه وحكمه ، فالله تعالى يكفيه شر الظالمين والحاسدين ، ويغفر له ما جناه ، آمين ، آمين ، آمين والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حفظ الأدب مع سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، فكل مسلم رأيته أقول: يحتمل هذا أن يكون ولياً لله عز وجل ، فإن الله ستر أولياءه في عباده ، وما أظهر منهم إلا القليل من أهل الكرامات المعتادة ، وما عداهم فهم مستورون في حجب الصوب ، لا يكاد يظهر على أحدهم ما يميزه عن العامة ، كما صرح القوم بذلك في رسائلهم.

وقد كتب لي أخي الشيخ أفضل الدين وصية أول اجتماعي بسيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه ، يحثني فيها على كثرة الاعتقاد في عامة المسلمين ، وعدم إقامة الموازين الدقيقة عليهم ، من جملتها:

أوصيك يا أخي أن لا تميل بنفسك إلى تفضيل أحد على أحد ، واعتقد الخير في عموم الناس ، فإن الله تعالى لا يسألك قط لم حسنت ظنك بعبادي ، وإياك أن تزدري أحداً من السوقة الجمالين والحمالين والبغالين والزبالين ، وسائر من فيه نفع لعباد الله من غير ضرر ، فإنهم محفوظون بالاسم الأعظم ، وفيهم المتخلقون بالأدب مع الله تعالى ، ومع الكون ، وإن كانوا لا يشعرون بذلك.

قال: وقد أوصى الإمام علي رضي الله تعالى عنه ولده الحسين بمثل ذلك ، وقال: اعلم يا ولدي أن الله تعالى أخفى رضاه في طاعته ، وأخفى سخطه في معصيته ، وأخفى أولياءه في عباده ، فلا تستصغرن من الطاعة شيئاً ، فربما كان رضا الحق تعالى في ذلك ، ولا تستصغرن من المعصية شيئاً فربما كان سخط الحق في ذلك ، ولا تحتقرن من المسلمين أحداً ، فربما كان ولياً لله عز وجل ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: لله تعالى عباد أخفياء أبرياء ، لا يكاد يعرفهم إلا من دخل دائرتهم ، ومن علامتهم أن لهم لسان الإدلال ، والبسط والإظهار ، والتقديم ، والتأخير ، والولاية ، والعزل ، والعز ، والفخر وقوة الحجة وصحة الدعوة ، والقيام ، والاستغناء عن الخلق ، والبطش ، والقهر ، والانتقام ، والقوة ، والهمة ، والسيادة ، والتحكيم ، والإرادة ، والتخيير ، والتحجير ، والحفظ والأمن ، والرفعة ، والترفة في المطاعم والملابس والهيئة ، والتخويف ، واللسان ، والإفصاح ، والعلم ، والمعرفة ، والشهود ، والكشف ، والذوق ، والخصوص ، والتمييز إلى غير ذلك من

الأمور التي خلعها الحق تعالى عليهم ، وزينهم بها مما لا يحصي وصفه إلا الله عز وجل.

قال: وهؤلاء قد عجل الله تعالى لهم غالب النعيم الذي يكون في الجنة لأهلها ، في هذه الدار ، فحكم هؤلاء في الدنيا كحكم غيرهم في الآخرة على السواء ، فإن نهاية العبد في الآخرة أن يكون بهذه الأوصاف.

قال: لكن حكمهم في ذلك حكم عبيد الإحسان ، لكونهم لم يقوموا في هذا العالم قيام من خلق له ، ومنه ، وافتقر له ، وإليه؛ لظهورهم في العالم الدنيوي بمظهر العالم الأخروي ، فكأنهم لم يخلقوا ولم يخرجوا من العدم إلى دار التكليف ، وغالب المجاذيب من هذا الصنف فهم غائبون عن شهود حكمة ظهور العالم ، وترتب الأسباب بعضها على بعض ، وعن حكم البدء والإعادة ، والختم ، والفتق ، والرتق ، والظهور ، والإظهار ، والتفضيل بالذوات وبالأوصاف والأحوال ، ولا يعرفون كمالاً ولا نقصاً ولا خسة ولا شرفاً ، إلى غير ذلك مما أحاط به علم الله عز وجل ، ولذلك كان العارفون أعلى في المقام من هؤلاء ، لتحققهم بعلم هذه الأمور كشفاً وذوقاً ، ومعرفتهم بما يخص كل موطن من الحكم والأثر ، ليوفوه حقه.

قال: وهؤلاء أي: العارفون هم الطائفة العظمى ، وأصحاب الولاية الكبرى المكتسبة بالتخلق والتحقق ، وهم النازلون في العالم منزلة القلب من الجسد ، فهم تحت حكم طريق الحق تعالى ، وتحت رتبة أنبيائه ، وفوق العامة بالتصريف ، وتحتهم بالافتقار ، وهم أيضاً أهل التسليم ، والأدب ، والعلم ، والعمل ، والانكسار ، والانخفاض ، والفقر ، والذل ، والعجز ، والصبر على المصائب والبلايا والمحن ، والحزن ، والخوف ، والقيام تحت الأسباب ، والسعي ، والحركة ، والسكون ، والنوم ، واليقظة والنسيان ، والغفلة ، والربح ، والخسران ، وتجرع الغصص والمصائب ، والموت الأحمر ، والأزرق ، والأسود ، والأبيض ، وأهل الإيمان لعدم شهودهم التمييز والخصوص ، وهم أهل الهمة ، والدعوة ، والخفاء والظهور ، والإلهام ، والتقييد ، والإطلاق ، وحفظ حقوق المراتب والأسباب والأعيان والأوصاف والأحوال والأعمال ، وأهل القدم الراسخ النافذ في كل شيء من حيث هو لا شيء ومن حيث هو من أعيان كل شيء ، وهم أهل الاتباع لرسول الله ﷺ ، من حيث هم أتباع وورثة ونواب وحفظة ووكلاء ، إلى غير ذلك من صفات العبودية الخالصة ، من المزج بدعوة شيء من صفات الربوبية على العامة أو الخاصة ، بالدار الآخرة ، وهم أيضاً أهل الحشر ، والنشر ، والحساب ، والوزن ، والمشي على الصراط ، كما يمشي عليه أدنى المؤمنين ، فهم المجهولون الحكم عند غالب الناس في الدنيا والآخرة لعدم ظهورهم في الدنيا بشيء من أوصاف السيادة الدنيوية ، وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ، من حيث أنهم ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهم أهل الثبات عند كشف الساق في

المحشر ، وهم أهل الجثي على الركب ، وهم المطلعون على جريان الأقدار وسريانها في الخلق ، وهم العبيد اختياراً ، السادة اضطراراً ، وهم المكاشفون بعلم دهر الدهور من الأبد إلى الأزل في نفس واحد من أنفاسهم الشريفة فكما تنزل الحق تعالى لعقول عباده بإخباره لنا بأنه ينزل إلى سماء الدنيا ، ليعلم عباده التواضع مع بعضهم بعضاً ، فكذلك هم ينزلون مع العامة بقدر أفهامهم ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، انتهى كلام سيدي علي الخواص ، رحمه الله تعالى.

وهو كلام ما طرق سمعي إلا منه ، وهو يدل على علو شأنه ، ومعرفته بمراتب الأولياء ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، فتأمله يا أخي ، وخذ لنفسك بالاحتياط في عدم ازدراء أحد من المسلمين ، إن طلبت أن تكون من المفلحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم سياحة فكري فيما تشابه من أخبار الصفات ، لعلمي بأن المطلوب من الخلق إنما هو الإيمان بما أخبر به الحق تعالى عن نفسه ، على ألسنة رسله ، لا تعقله ، فإن ذلك لا يصح ، وغاية الخائضين أن يقفوا على الحيرة مع تعاطيهم ما نهاهم الله تعالى عنه في طريق الإشارة ، بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]. يعني أن تتفكروا فيها ، وبقوله ﷺ: «**تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في ذاته**»[١]

وقد سألت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه عن سبب الحيرة في الله تعالى للخلق أجمعين ، فقال: سببها اضطراب حقائقها ، فإنها من مواد مختلفة بين لطيف وكثيف ، وهو الروح والجسم ، مع اختلاف الدواعي ، إذ الإنسان مفطور على دواعي كثيرة ، كداعية العقل ، وداعية النفس ، وداعية العلم ، والإيمان ، والحق ، والهوى والوهم ، والظن ، والخيال ، والفكر ، وغير ذلك ، مما له التفكر والتحكم على هذا الهيكل الجثماني ، بحسب مواقع تقاطع درج أفلاك الطباق السبع في أزمنتها المخصوصة الحاكمة على الإنسان ، لظهور آثارها فيه قهراً عليه ، فتراه تارة يتكلم بحكم الإيمان ، فلا يتعدى قوله الإجمال والستر ، وتارة يتكلم بحكم الحق ، فلا يتعدى قوله التسليم والأدب ، وتارة يتكلم بحكم العلم ، فلا يتعدى قوله الحيرة ، وتارة يتكلم بحكم النفس ، فلا يتعدى قوله التفضيل والترجيح ، وتارة يتكلم بحكم العقل ، فلا يتعدى قوله التقييد وتارة يتكلم بحكم الهوى فلا يتعدى قوله التخصيص والتمييز وتارة يتكلم بحكم الوهم فلا يتعدى قوله الأمل ، وتارة يتكلم بحكم الظن ، فلا يتعدى قوله التشبيه ، وتارة يتكلم بحكم الخيال ، فلا يتعدى قوله القياس ، وتارة يتكلم بحكم الفكر ، فلا يتعدى قوله المحسوسات ، هذا مع تنوع الدواعي في الأشخاص والأوقات والأحوال إلى صفات كثيرة ، مختلفة الآثار والأحكام.

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٣/ ٢٦٣)

قال: وكل هذه لا توجب علماً تاماً يستقر عليه الإيمان ، ويرجع عن البحث والطلب ، فليس الحق إلا مع من قلد الحق ، وآمن بما أنزله على رسله من غير تأويل فإن التأويل قد لا يكون مراداً للشارع ﷺ ، انتهى.

فتأمل ذلك ، فإنك لا تجده في كتاب ، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب اليواقيت والجواهر ، في بيان عقائد الأكابر ، فراجعه تظفر بالمراد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: ذهابي إلى حضور درس كل عالم رأيت عنده شبهة في طريق إيمانه من شبهة الفلاسفة أو المعتزلة أو غيرهم ، وذلك لأسارقه كل قليل في الكلام ، حتى أزيل شبهته ، بحيث لا يشعر هو ولا أحد من طلبته بذلك ، ثم إذا زالت عنه تلك الشبهة تركت حضور درسه.

وكان على هذا القدم الشيخ يحيى البجائي المغربي ، رحمه الله تعالى ، كما أخبرني بذلك بعض العلماء فكان إذا بلغه عن عالم دخوله في شبهة يعجز عن الخروج عنها ، يذهب إلى درسه ، ويحضر مع طلبته ، فتعجب الناس في ذلك ، ويقولون: إن الشيخ مستغن عن علم مثل هذا الرجل فلم يحضر؟ فإذا زالت شبهة ذلك العالم انقطع عن حضور درسه.

وهذا من جملة سياسة العلماء العاملين ، فاعمل بذلك ، وإياك أن تفشي ذلك في حق ذلك العالم فتكشف سوأته ، وتفتح باب الغيبة فيه ، وترميه عند الأعداء بالعقائد الفاسدة ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من كثرة النوم في الليل والنهار ، وتقدم في هذه المنن أن نومي انتهى إلى خمس وأربعين درجة في الليل والنهار ، وما زاد على ذلك فهو عبث ، وأن ذلك يكفيني في راحة الجسد ، وذكر أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى في رسالته: أن النوم الزائد على العادة يميت القلب من تعاطي أسباب الدنيا وأحوالها ، فضلاً عن أمور الآخرة ، مما لا بد للعبد منه.

قال: وربما استحكم في الإنسان كثرة النوم ، حتى يصير حكمه مخالفاً لحكم نوم الطبيعة ، الذي جعله الله تعالى راحة للجسد ، وزيادة في النفس ، فتفسد على العبد معيشته وأسبابه الدنيوية ، وتفسد عليه صحة مزاجه الأصلي الذي خلق عليه ، قال: وأعظم مفاسده في الإنسان أنه يضعف نفسه الروحانية؛ لكثرة ارتباطها بعالم الخيال ، وعدم ارتباطها بجسدها المأمورة بمساعدته على مصائب الدنيا ، لا سيما إن كان الجسد مظلماً كثيفاً بالأعمال الخارجة عن السنة المحمدية ، والطبيعة الكلية ، فإنه يتركب من ذلك الارتباط ضعف الاعتقاد وفساده وضعف القوة الخيالية المصورة للأشياء في مرآة العقل ، فيصير لا يشهد أمراً إلا معقولاً مقيداً مرتبطاً منعقداً ، حتى ربما اختلط حاله على نفسه وعلى غيره

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إياكم والنوم في الأوقات المنهي عن النوم فيها ، كنوم الإنسان من بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ، وبعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، فمن فعل ذلك فقد عرض نفسه للهلاك ، وفساد كيموس صحة عين المزاج المادي والصوري ، حتى ربما التحق في الحكم بالحيوانات البهم البعيدة الإدراك ، كالبقر والغنم والجاموس ، وأمثالها من المأكولات الحيوانية ، قال: وإنما قيدنا الحيوانات بالبهم البعيدة الإدراك كالبقر والغنم والجاموس وأمثالها من المأكولات الحيوانية ، لتخرج الحيوانات التي لا تؤكل كالخيل والبغال والحمير المسخرة لمنافع العباد ، فإنها أنعام ذات عقل حساس ، ولذلك كانت أكثر الحيوانات تعباً وتكليفاً ونفعاً ، وأكثرها تعقلاً وإدراكاً ، كما هو مشهود في حركاتها ، ولفتات أعينها ، ورفع رؤوسها وخفضها ، ومفاداتها لما في الطرق من الوهدات والمهالك ، إلى غير ذلك مما هو مشهود للعارف الذائق ، انتهى.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إياكم وكثرة النوم ، فإنه يورث الغفلة والنسيان ، وفساد حكم المزاج الطبيعي والنفساني ، ويكثر البلغم والسوداء ، ويضعف المعدة ، وينتن الفم ، ويولد دود القرح ، ويضعف البصر ، ويربي الغشاوة على العين ، ويضعف الباه على الفور ، حتى لا يكاد يكون له داعية إلى الجماع ، ويفسد الماء ويورث الأمراض المزمنة في الولد المتخلق من تلك النطفة حال تكوينه ، ويضعف الجسد ، هذا في النوم في غير وقت الصبح والعصر ، أما النوم في هذين الوقتين فلا أقدر على وصف مفاسده في العقل والنفس ، والصفات الإنسانية والروحانية ، أقلها أنه يورث ضعيف الحال بحكم الخاصية عدم الإيمان بالبعث والنشور ، وما يقارب ذلك من غير تعقل لما يدفع عنه ذلك ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إياكم وكثرة النوم تبعاً لما ترونه من بعض العارفين ، فإن لهم أحكاماً خلاف حكمكم ، وذلك أن بعضهم يخلع الله تعالى عليه القوة على خلع نفسه عنه متى شاء ، وسراحها إلى أي وجه شاء ، من غير ارتباط بعالم الخيال ، فلا يضرهم نوم العادة في النهار إلا بعد الصبح والعصر ، إذ النوم في هذين الوقتين يؤثر بالخاصية في كل نائم الفساد ، سواء كان صحيح المزاج أو غير صحيح ، انتهى.

فعُلم مما قررناه أن النوم في النهار لغير حاجة مضر جداً ، إلا أن يكون في مثل أيام الصيف ، فقد ورد «**استعينوا بالقيلولة على قيام الليل**»[(١)] ، فمثل ذلك لا يضر.

وكان سيدي عبد العزيز الديراني رضي الله تعالى عنه يقول: النوم قبل الزوال دواء للسهر الماضي ، والنوم بعد الزوال دواء للسهر الآتي.

---

(١) ذكره العسقلاني في فتح الباري (١١/ ٧٠).

فعليكم أيها الإخوان بتقليل النوم جهدكم ، فإن النوم أخو الموت ، لانقطاع العمل فيه ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: محبتي لمن يبصرني بعيوبي ونقائصي ، وتقديمه في المحبة على الصديق الذي يداهنني ، ويظهر لي أنه يحملني على أكمل الأحوال ، وقد سألت الله تعالى لكل من نصحني وبصرني بعيوبي من إخواني أن يستره في الدنيا والآخرة ، وأنه يعطيه جميع ما يؤمله من خير الدنيا والآخرة ، فعليكم أيها الإخوان بنصحي ما استطعتم ، ولا تداهنوني تغشُّوني وتغشوا نفوسكم ، ولا تراعوا خواطري ، وتقولوا في أنفسكم: كيف ننصح سيدي الشيخ ، وقد يكون له مقصد صحيح ، لا يطلع مثلنا عليه ، فإن ذلك من تلبيس إبليس؛ لأنكم إن كنتم تظنون فيَّ الكمال ففعلي ما يخالف ظاهر الشريعة يكذب ظنكم ، فإني لو كنت كاملاً ما فعلت شيئاً يخالف ظاهر الشريعة ، فما بقي إلا أني ناقص مفاسق بذلك الفعل ، فالواجب عليكم النصح إذا فهمتم عني مخالفتها بقول أو فعل ، فإما أن يكون فهمكم صحيحاً فأرجع وتثابون ، وإما أن يكون خطأ فاظهر لكم خطأه فتستفيدونه وأثاب.

وقد درج السلف الصالح كلهم من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين على التناصح لبعضهم بعضاً في الخلاء والملاء ، وأحثوا بعضهم بعضاً على ذلك.

وهذا الخلق غريب في هذا الزمان في المتصوفة فادعوا مراتب الكمال بالحال والقال ، ومهدوا لمن تتلمذ لهم بساطاً ، وأعلموه أن مقام الشيخ كالسماء ، ومقام المريد كالأرض ، وأنه لا يحل له أن يحمل حال الشيخ على حاله هو ، فسدُّوا بذلك باب النصح ، وربما ادعى أحدهم أنه يحب من ينصحه ، وهو غير صادق؛ لأن ذلك لا يكون إلا لمن صح له ثبوت القدم مع الحق جل وعلا ، ورضي بقضائه وقدره ، ولم يلتفت لرضا أحد من عبيده ولا لسخطه ، وليمتحن من يدعي محبة من ينصحه من إخوانه نفسه بما إذا فرض كون اسمه مكتوباً في اللوح المحفوظ ، بأنه من الأشقياء المخلدين في النار ، فإن خيلت له نفسه رضاه بذلك عن الله عز وجل ، فليمتحنها بأنها تتلمذ لعدوها ، وتنقاد له ، وتظهر ذلك للخاص والعام ، فإن انشرحت لأن تتلمذ لعدوها ، وتتقيد تحت أمره ونهيه وحكمه فيها وتقريعها وتوبيخها ، فقد انقادت إلى الله عز وجل ، وصح له دعوى محبة النصح من إخوانه ، فإن الانقياد إلى الخلق هو باب الانقياد للحق تعالى ، فمن أبت نفسه أن تنقاد لجنسها ، أو تدخل تحت حكمه فيها ، فهو كاذب في دعواه مقام كمال العبودية ، فكيف يطلب مجالسة الحق تعالى على بساط الأدب ، وهو لم يحسن مجالسة الخلق على بساط المماثلة.

ثم إن الواقع في ذلك ، أي في كراهة النصح من إخوانه أحد رجلين: إما رجل أشغله الله تعالى عن عيوبه بعيوب غيره ، فصار ممن أضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، وإما رجل ظن بنفسه الكمال مما ظهر له من كثرة الثقة بحاله ،

والتعشق بمطلوبه ، فهذا هالك مع الهالكين من حيث لا يشعر ، وقد قال تعالى فيمن أبى النصح : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [البقرة : ٢٠٦].

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: ربما يظن بعض المتمشيخين بنفسه حين يعظ الناس ، أو يسلكهم ، أنه صار بذلك من نواب رسول الله ﷺ في إرشاد أمته إلى فعل الخير ، وهو في ذلك طالب للرياسة ، تحت أسر شهوة نفسه ، يظن أنه يستمد فيما يعظ به من رسول الله ﷺ ، والحال أنه يستمد من الشيطان ، فإن من شأن من كان يحب نفسه أن روحانيته لا تأخذ علماً إلا من روحانية إبليس الأول ، فيصير إبليس يمده بالعلوم ، ويوسوس له ، محبة في اجتذاب قلوب الناس إلى صحبته ، دون أقرانه ، ويصير رعاع الناس الذين حوله يقولون: إن سيدي الشيخ قد أحيا معالم الشريعة ، ولولا هو في هذا الزمان لاندرست الشريعة ، فيغتر هو بذلك القول ، ويزيد في تحسين الظن بنفسه ، فيهلك مع الهالكين.

ثم لو قدر أن أحداً من الحاضرين نسبه إلى حب الرياسة ، تكدر كل التكدر ، وقام عليه تلامذته حتى أخرجوه من دائرة الإسلام ، وربما ضربوه ضرباً مبرحاً ، وذلك حرام بإجماع المسلمين ، قال: وقد اجتمعت بشخص من هؤلاء فنصحته ، فما سلمت من الضرب بالنعال إلا بجهد ، وفي الحديث «**لا تقوم الساعة حتى تجلس الشياطين على المنابر يعظون الناس**»(١) انتهى ، فليحذر الواعظ للناس من مكايد النفس والشيطان ، وليمتحن نفسه بالمشي على طريق السلف الصالح الذين يزعم أنه على قدمهم ، فقد كان مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه يقول: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إليّ ، وقالت له مرة امرأة: يا مرائي ، فقال لنفسه: اسمعي اسمك الذي أضله أهل البصرة ، وعرفته هذه المرأة.

وكان سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه يقول لأصحابه: انصحوني ، وإياكم أن تقتدوا بأفعالي ، فإني رجل قد خلطت في أموري.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تغتروا باجتماع الناس عليكم وانقيادهم لكم ، فتعتقدوا أنكم صرتم من مشايخ العصر ، لا سيما إن جثت تلامذتكم بين يديكم على الركب ، وأكثروا من الإطراق ، وعدم التكلم ، وإن طالت الجلسة فإن ذلك استعباد لإخوانكم ، وسيادة لنفوسكم ، وانصحوا إخوانكم من غير تميز ، وأقسموا عليهم بالله أن ينصحوكم ، وإياكم أن تمكنوهم من تقبيل أيديكم وأرجلكم بعد ختام المجلس ، فإن في ذلك قيام النفس ، وإياكم أن تتكدروا من نصح تلميذكم لكم ، بما يظهر له من الحق ،

---

(١) لم أجده

وتأملوا في آداب الصحابة ، ونصحهم لبعضهم بعضاً حتى لرسول الله ﷺ ، وقد وقع أن رسول الله ﷺ أراد أن يبشر أمته ، فقال له عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه «**يا رسول الله لا تفعل ، دعهم يعملوا ولا يتكلموا**» فرجع النبي ﷺ ، إلى قوله ، انتهى.

وقد تقدم في هذه المنن ، أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه خطب الناس فقال «**أيها الناس اسمعوا ما أعظكم به ، فقام حذيفة ، وقال: كلا والله لا نسمع لوعظك ، فقال له** عمر: **لم؟ فقال: لأن عليك قميصين وعلى كل منا قميص ، فنادى عمر بأعلى صوته ولده عبد الله ، فقال: أنشدك بالله أما هذا قميصك؟ فقال: اللهم نعم ، فقال له حذيفة فقل الآن نسمع لك**» انتهى.

وتأملوا أيها الإخوان فيما قصه الله تعالى علينا في الكتاب والسنة ، من قبول نصح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من خدامهم، ومن رعيتهم، كاستشارة موسىٰ عليه الصلاة والسلام لفتاه ، وكنصح النملة للسيد سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، وكنصح يوسف لأبيه يعقوب عليهما الصلاة والسلام ، وذلك أن يعقوب لما بلغه أن الملك أخذ ولده بحيلة الصواع ، ولم يعلم أن الملك هو يوسف ، كتب يعقوب كتاباً فيه «**بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب إسرائيل الله ، إلى عزيز مصر ، سلام عليك ، أما بعد: فأنا أهل بيت خص بنا البلاء فأما جدي إبراهيم فألقاه النمرود في النار ، فمكث فيها أربعين يوماً ، فجعلها الله برداً وسلاماً ، وأما أبي فابتلي بالذبح ، ففداه الله بالكبش ، وأما أنا فكان لي ولد أحبه ، وآنس به ، فآخذه الملك على أنه سارق ، فالله الله في ابني ، فإني لم أسرق ، ولم ألد سارقاً والسلام**».

فكتب إليه يوسف على ظهر الكتاب «**بسم الله الرحمن الرحيم من عزيز مصر إلى يعقوب إسرائيل الله ، أما بعد فقد عرفنا شأنك وشأن آبائك ، فاصبر كما صبروا ، كي تظفر كما ظفروا**» فرجع يعقوب بهذا القول إلى الأصل الحق ، ووطن نفسه مع الحق تبارك وتعالى على الصبر.

وكذلك بلغنا عن الخلفاء الراشدين أنهم كانوا يستدعون النصح من علماء زمانهم وبعضهم طلب ذلك بشروط ، هذا مع قيام ناموسهم ، وعدم رياضة نفوسهم ، فكيف يتكدر من ذلك من يدعي الرياضة والسلوك.

وبلغنا أن الأصمعي لما أراد مجالسة هارون الرشيد ، قال له هارون ناصحاً له: اعلم أنك أعلم منا ، ونحن أعقل منك ، فلا تعلمنا في ملأ ولا تذكرنا في خلا ، واتركنا حتى نبتدئك نحن بالسؤال ، ثم إذا بلغت في الجواب حد الاستحقاق ، فإياك أن تزيد إلا أن نستدعي ذلك منك ، وإذا رأيتنا خرجنا عن الحق ، فأرجعنا إليه ما استطعت من غير تقريع على خطئنا ، ولا اضجار بطول التردد إلينا ، خوفاً أن تهون في أعيننا فلا نصير نعتني بقولك ، ثم قال

هارون: اعلم يا أبا سعيد أنه لن تهلك أمة مع التناصح ، ولن يهلك ملك مع الاستشارة ، ولن يهلك قلب مع التسليم ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: الزموا النصح والاستشارة لإخوانكم في كل أمر مهم ، فإن النصح والاستشارة بمنزلة تنبيه النائم أو الغافل ، وكان يقول: من شأن العاقل أن لا يتكدر من الناصح له إذا خرج عن حد الأدب ، ولم يراع ألفاظ التفخيم ، وليقس قبيح ما وقع منه من الألفاظ القبيحة في نفسه بالنصح له ، فما كل الناس أعطوا السياسة وحيث وجد العبد النفع فلا مبالاة بفوات حظ النفس من محبتها اللين في الكلام ، انتهى.

وكان يقول: من أدب الناصح أن يستشير المنصوح في النصح قبل النصح ، كما درج عليه السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم ، فإن النصح من غير استشارة خاص بكمل العارفين الذين لا يداخل نصحهم ظن ولا شك ، لما هم عليه من الكشف الصحيح ، ولا يرون نفوسهم على المنصوح ، ولا عليهم من المنصوح إن قبل ذلك ، أو لم يقبل إنما قصدهم امتثال الأمر ، ونفع العباد فقط ، ثم إن الأحكام الإلهية تجري على حسبها ، فلا يقال: إن النصح فيه منازعة للأقدار الجارية على الخلق؛ لأن الحكم على الشيء قبل ظهور عينه لا يصح ، وإنما النصح بمنزلة تنبيه النائم من النوم كما مر ، واستيقاظه من غفلته ، والنكتة في مشروعية ذلك أن الله تعالى أفقر الخلق إلى بعضهم بعضاً ، حتى لا يتكل أحد على رأيه دون أخيه ، وإن كان المنصوح غنياً عن نصح الناصح ، أو إشارته ، إذ المراد الاعتراف بظهور الافتقار إلى الخلق ، ليقع افتقارهم إلى الله تعالى ، باطناً من باب أولى ، انتهى.

فعلم من جميع ما قررناه أن من تكدر ممن نصحه ، أو طلب أن لا ينصحه إلا من يعرف أدب الخطاب فاته خير كثير ، فافهم يا أخي ذلك ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كراهتي من أصحابي أن يكثروا من اللغو عندي ، وجرقوا في الولاة وغيرهم ، وإن سكت عن زجرهم عن ذلك ، فإنما ذلك لمقتضى شرعي ، واحتقار لنفسي أن تكون آمرة أو ناهية ، وممن سبقني إلى نحو ذلك سيدي إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه ، فكان يقول: والله إني لأرى أخي على معصية ، فأحتقر نفسي أن أكون ناهياً له عنها ، انتهى.

لكني مع السكوت بحمد الله تعالى أصير أقول بقلبي: اللهم أخرسهم عن هذا الكلام ، وألهمهم ذكرك ، وما يقربهم إليك ، فربما استجاب الحق تبارك وتعالى ذلك ، وسكتوا وذكروا الناس بخير.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إياكم والاشتغال بالقيل والقال وإن كان

ذلك حقاً فإن كثرة اللغو تؤدي إلى احتقار الذنوب ، وقلة المبالاة بها ، وتورث كثرة الحسد والدعوى والرعونة والحمق ، انتهى.

وقد تقدم ذلك في هذه المنن مراراً ، فافهمه ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة إرشادي للإخوان من طلبة العلم أن لا يكثروا من الجدال ، ورفع الصوت ، عند قراءة التفسير ، أو شرح الحديث ، حتى أني أغار أن أحداً منهم يذكر اسم محمد ﷺ على غير طهارة ، وحضور قلب ، وقد كان عبد الله بن مسعود ، والإمام مالك بن أنس وغيرهما ، إذا ذكر اسم محمد ﷺ ، اقشعرت جلودهم من هيبته ، وفاضت دموعهم من الخشية.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: الزموا الأدب مع كلام الله تعالى ، وكلام رسوله ﷺ ، كما أنكم تلتزمون الأدب مع الله تعالى ، إذا ناجيتموه في صلاتكم على الكشف والمشاهدة ، فإن القرآن كلام الله تعالى وصفة من صفات ذاته.

قال: ولو أن الخلق ذلوا بين يدي الله تعالى ، وخشعت جوارحهم لذهلوا عن مراعاة مخارج الحروف ، وعن تفهم معاني ما يقرؤونه أو يذكرونه ، ولو أنهم نظروا إلى صفتهم حال السجود ، وأحدهم وجهه معفر بالتراب الذي هو محل الأقدام ، منكس إلى أسفل سافلين ، وإن كان في مستعل لوجد روحه ونفسه وعقله وسره كذلك ساجدين منكسين إلى أسفل سافلين ، وكان في شغل عن جداله وبحثه.

وكان يقول: لا يسلم من الجدال في كلام الله تعالى ، وكلام رسوله ﷺ إلا من كان إيمانه كاملاً ، ووقف عند ظاهر ما حده الله تعالى ورسوله من الأوامر والنواهي ، فإن مجموع الشريعة افعلوا كذا وكذا واتركوا كذا ، وهذا لا يقف فيه فهم ، قال: وقدروا وجودكم في عضر النبي ﷺ ، وعصر أصحابه قبل تدوين كتب الفقه ، ووجود المجتهدين ، تجدوا نفوسكم لم تكلف إلا بقدر ما فهمتموه أنتم دون ما فهمه غيركم ، انتهى.

قلت: وهو كلام محمول على من يقدر على استنباط الأحكام ، أما العاجز فقد صرح العلماء بوجوب التقليد عليه ، وإلا فربما وقع في الضلال.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله تعالى يقول: أصل وقوع الجدال إنما هو من وجود كبر في النفس ، ولو أن العبد قام على نفسه بالذم ، وحكم عليها به ، لانسد عليه باب الجدال جملة وسلم لإخوانه كل ما فهموه ، ووجه ذلك لهم.

وكان يقول: ما أحوج العلماء إلى التأويل ، وعدم التفويض إلا الخوف على العامة أن يفهموا من صفات الله تعالى شيئاً من التشبيه على قدر عقولهم الضعيفة ، وأما على مقدار

ما يفهمه العلماء فلا حاجة إلى التأويل ، لعلمهم بأن صفاته تعالى مباينة لصفات خلقه ، وأنه لا يصح أن يلحقه تشبيه بخلقه أبداً على أن التشبيه لا ثبات له في القلب ، لأحد من الخلق بشراً كان أو غيره ، إنما يطرق القلب ، ثم يرد ذلك بالأدلة العقلية والنقلية ، انتهى.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: اجتمعت روحي بروح الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه في البرزخ ، فقلت له: ما معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. فقال: أليس علمه تعالى بالعرش الآن كعلمه به قبل أن يخلقه على حد سواء؟ فقلت له: نعم ، فقال رضي الله عنه: فكذلك استواء الحق تعالى العرش الآن هو كاستوائه عليه قبل أن يخلقه ، إذ لم يخرج عن علمه حال وجوده وحال عدمه ، فقلت له: يا إمام ثم ما هو أوضح من هذا الوجه؟ فقال لي: قل فقلت: إن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: ١٦]؛ لأن المراد بالاستواء إنما هو قرب صفة الربوبية من العبودية بالحكم والتدبير ، والخلق والتقدير. فقال الإمام: جواب جيد ، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]. ثم انصرف الإمام رضي الله تعالى عنه ، وهو يكرر هذه الآية ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: أحب لإخواننا من طلبة العلم أن لا يتحكموا على علم الله القديم بظاهر أدلتهم وتأويلاتهم ، وأن لا يعطلوا أنفسهم من العمل ، ويقولوا: حتى نفرغ نتعلم ثم نعمل ، ولا أن يستغرقوا عمرهم في زوائد العلوم التي لا يحتاج إليها إلا في النادر ، ولا أن يتركوا عمل الحرفة التي يكون بها معاشهم ، خوفاً عليهم أن يأكلوا بدينهم وعلمهم ، أو يتعرضوا لصدقات الناس وأوساخهم ، فإن الأكل من ذلك يطمس أفهامهم ، بخلاف أكل الحلال ، فإن له مدخلاً في فهم دقائق العلوم ، ولذلك فاق الإمام النووي على أقرانه مع قصر عمره ، وصار ترجيح المذاهب راجعاً إليه ، قال: وقد جالست جماعة لا يتورعون في مأكلهم وهم يبحثون في العلم ، فرأيتهم يسألون السؤالات الواهية النازلة عن أدنى أفهام آحاد الناس من العوام ، فعلمت أن ذلك بسبب أكلهم الشبهات والأوساخ.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: أكره لإخواننا من الفقهاء أن يدخلوا في تفضيل الأئمة المجتهدين ، ويرجحوا مذهباً على مذهب من غير دليل ، فإن ذلك يؤدي إلى تفرقة الدين ، وقد نهانا الحق تعالى عن ذلك بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. ومع ذلك فلم يسمع بعض مقلدي المذاهب ، بل تفرقوا وتمرقوا ، وتناكروا وتخالفوا وتباغضوا وتحاسدوا ، وجهل بعضهم بعضاً ، وكفَّر بعضهم بعضاً ، مع أن ذلك الأمر الذي وقع بسببه ذلك ، ربما لم يطالبهم الله تعالى بعلمه ولا بالعمل به ، ولا بتأويله

وتحريفه ، وصرف الألفاظ عن ظاهرها ، وغاب عنهم أن الحق تعالى لم يخاطب بأحكامه أحداً دون أحد ، إنما خاطب بها الأنبياء والمرسلين ، والملائكة المقربين ، والأولياء والصالحين ، والعلماء العاملين ، والأئمة المجتهدين ، وعامة المؤمنين ، والكفرة والمنافقين ، والطغاة والظالمين ، والخلق أجمعين ، ممن في السموات وممن في الأرضين ، فكل العلماء مستمدون من القرآن العظيم على اختلاف طبقاتهم ، وكمال إيمانهم ، وحسب استعداداتهم ، فإنه هو البحر الذي لا ساحل له ، ومعلوم أن البحر من أي الجوانب أتيته وجدته بحراً ، فعلم أن من حجر كلام الله تعالى على مذهبه دون غيره بغير دليل شرعي فقد أتى باباً من سوء الأدب ، فإنه ما ثَمَّ مذهب أولىٰ بالشريعة من مذهب إلا إن وقعت مخالفة في النصوص الصريحة ، بأن لم يبلغ المجتهد النص ، فهناك يرجح المذهب الذي اعتضد بالنص.

وكان يقول: والله إن الحق أوضح من شمس الظهيرة في قلوب العارفين ، والعلماء العاملين ، وأخفى من ينابيب الشمس في قلوب المجادلين والمتعصبين ، الذين يطلبون العلم والعمل بالعجز والكسل ، فعلم أن كلامنا مع العلماء ، أما العامة فمن الواجب تقيدهم على مذهب واحد ، لا يرون أرجح منه ، وإلا وقعوا في الرخص بغير وجود شرطها ، وتبدد حالها ، وأطال في ذلك.

ثم قال: ومن طلب أن يكون من أهل الأدب مع الأئمة المجتهدين فليدخل طريق الفقراء بذل وانكسار ، وتسليم وانقياد ، كأنه أعمى مقاد ، ويترك الجدال ، وينعزل بباطنه عن الخلق ، ويقوي همته بالتوجه إلى الحق ، ويكثر من سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم في ظلمات الليالي ، بأن الله يرزقه الأدب والتسليم ، فإنه ما من ليلة إلا وينزل من السماء في الثلث الأخير فتوح رباني ، ومدد دنيوي ، فيلتقطه أهل التسليم ، ثم أهل التفويض ، ثم تقع الإفاضة من هؤلاء على أصحاب الدوائر العلية أقطاب الأفلاك الكلية ، ثم تقع الإفاضة من هؤلاء على الحفظة والنواب ، وولاة الأمور من الحكام ، ثم تقع الإفاضة من هؤلاء على المسلكين والصالحين ، والعلماء العاملين ، ممن حضر فتح الباب ، وتنزل الأمداد ، فإن الهدية لمن حضر.

قال: وأما النائمون في الثلث الأخير فنصيبهم عند أحد الرجال الخمس المعروفين عند الأولياء ، فإنه يأخذ لكل من غاب نصيباً عند صلاة الصبح ، إما قبل فراغه ، أو مع فراغه ، ومن تخلف عن اليقظة عند صلاة الصبح فإنه يعطَى نصيبه في أسبابه الدنيوية إذا رضي بإقامة الله تعالى فيها ، وما بقي بعد ذلك فهو حظ الأنعام ، وأمثالهم من العوام الغافلين عن الأسباب ، انتهى.

وكان يقول: أكره لإخواني من طلبة العلم أن يتسلقوا على مقامات العارفين ، ويطلبوا

حصولهم من غير شيخ ، فإن ذلك ربما لا يكون ، فتحصل لهم الحسرة ، وليوطن أحدهم نفسه على ثبوته على عبوديته ، وأما الولاية فإن فاتت أحدهم في الدنيا أدركها في الآخرة ، فيحصل له من المقامات والكرامات ما لم يكن له في حساب ، وكان يقول: أكره لأحدهم السعي على وظيفة أحد من إخوانه ، لا سيما إن سافر واستنابه فيها ، وأحب لجميع الإخوان الرضا عن الله إذا قتر عليهم الرزق ، وأحب لهم حسن الاعتقاد في طائفة القوم من غير تمن لحال أو مقام أو كشف ، فإن الهمة إذا صدقت في شيء من ذلك أعطاه الله تعالى للعبد ، ولو قبل موته بلحظة فأدرك ما فاته ، وساوى الأولياء الذين أعطوا ذلك مع الأمان من السلب والاستدراج ، في محل يصدق فيه العبد ، انتهى.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول كثيراً لأصحابه: أحب لجميع إخواننا من طلبة العلم أن لا يقيدوا على العامة في عباداتهم وإخوانهم بما يشق عليهم فعله ، كما درج عليه السلف الصالح ، وأن لا يكفروهم ولا يزدروهم ، وينقصوا إيمانهم لأجل جهلهم بمصطلح الفقهاء والمتكلمين في ألفاظهم وعلومهم التي لا يدركونها إلا بدقائق النحو مثلاً؛ لأن العلماء لم يؤمروا بتعليم العلم بالأصالة لمثل ذلك ، وإنما أمروا بشهود ضعفهم وجهلهم بأمر دينهم ودنياهم ، وأن يكونوا عالمين بالحق في بواطنهم من غير تقييد بما يشق عليهم وعلى غيرهم.

وكان يقول: إنما ينبغي للعلماء أن يتميزوا عن العامة بالاتباع ، لما كان عليه نبيهم ﷺ من الأخلاق في التواضع وحسن الخلق ، وحسن الظن بعباد الله تعالى ، والكف عمن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، إلا بدليل شرعي واضح ، والزهد ، والورع ، والتقشف ، وترك فضول الدنيا أكلاً ولبساً وادخاراً وترك مؤلفات النفوس ، وتحمل الأذى ، وكثرة الصبر على من يؤذيهم بيده ولسانه ، ولو كان من غير المسلمين ، وعدم التعرض لأحوال العامة على وجه التعمق ، فيأمرهم بما أمر به العلماء العاملون من غير زيادة.

قال: ومما أحبه للعلماء عدم الإنكار على كمل العارفين فيما علموه وأظهروه في كتبهم ، وإن كان دليل العقل يحيله؛ لأن دائرة الولاية تبتدىء من وراء ظهور العقل كما يعلم ذلك من سلك الطريق.

قال: وكذلك أحب لهم عدم الإنكار على صلحاء الزمان ، وعلى صحاة المجاذيب ، اكتفاء وحفظاً من شرهم ، فإنهم سريعوا العطب لمن ينكر عليهم ، لكونهم جليات الحضرة ، لا يقام عليهم ميزان العارفين ، فمن أدب الفقيه إحالة علم ما يراه من المجاذيب إلى الله تعالى الذي مكنهم من سلب الفقيه إذا أنكر؛ لأنهم بمعزل عما فهمه الفقيه.

وكان يقول: أكره للفقيه الوسوسة ، وتكرير النية باللفظ ، ورفع صوته بها رفعاً مزعجاً ، ونثر أكمامه ويديه نثراً شنيعاً يذهب خشوع المؤمنين ، وأكره له التعمق في إخراج حروف

الفاتحة ، وتشديداتها ، حتى ربما تفوته الركعة أو بعضها مع الإمام ، ونحو ذلك ، مما هو مشهود منهم ، حتى أن بعضهم يدرك زمن الفاتحة ، فيتأخر حتى يركع الإمام ، بقصد أن لا تلزمه الفاتحة ، ويتحملها عنه الإمام ، وغاب عن هؤلاء أن المطلوب من العبد في صلاته إنما هو الصمت بين يدي الله تعالى بالقلب واللسان إلا في مواضع الجهر ، وخلع النفس ، وشهود الحق تعالى في قبلته التي هي حضرة إيمانه ، وشهوده ، وإن قرأ يقرأ بخفض صوت على وجه الهيبة والتعظيم لله عز وجل.

وكان يقول: أكره للفقيه كثرة الجدال ، وإقامة الحجة والدليل على الخصم؛ لأن ذلك مما يوجب عدم التسليم للأئمة ، ويجرح اعتقاده أن سائر أئمة المسلمين على هدى من ربهم ، ويوجب عدم الانقياد إلى الحق ، لقيام النفس حال الجدال واستعلائها على سلطان العقل ، وعلى الإيمان ، حتى أن بعضهم يبلغ به الجدال إلى حد انحراف المزاج ، حتى لو كشف للعبد لرأى صورة أحدهم صورة بهيمة.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ما جعل الله تعالى العلم في قلوب العلماء ليصيروا به أرباباً على الناس ، وإنما أعطاهم العلم لينفعوا به الناس بحسب التيسير ، ينفوا به الفساد ، ويجادلوا به أهل الزيغ والعناد من المبتدعة ، دون أرباب المذاهب الشرعية ، وفي قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. الآية ما يشير إلى ما نبهنا إليه.

وكان يقول: إنما جعل الله تعالى العلماء واسطة بينه وبين عباده ، نيابة عن الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ليقبلوا على تعليم الأمة أحكام دينهم الصريحة دون دقائقه المستنبطة ، وأن يؤدبوهم ، وينصحوهم ، ويرشدوهم ، ويكثروا من الدعاء لهم ، والشفقة عليهم ، ويحملوا همهم ، ويدفعوا الأذى عنهم بأنفسهم وأموالهم؛ لأن بالعامة ربح العلماء وخسرانهم ، ولذلك وجب عليهم حفظهم ، وصونهم والذب عما ظهر من عيوبهم ، وسترها عن حكام الجور الذين يأكلون أموال الناس بالباطل.

وكان يقول: أحب للعامة أن يحفظوا الأدب مع العلماء في جميع أحوالهم وأقوالهم ، وخدمتهم وقضاء حوائجهم ، والإحسان إلى فقرائهم ومحاويجهم ، لا سيما إن كان أحدهم كثير العيال ، ولا ينبغي للعامة أن لا يأخذوا على الفقيه في حدة نفسه عليهم ، فإن غالب الناس اليوم قد وضع الحق تعالى علمهم في نفوسهم دون قلوبهم ، كما ورد **«أن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»**[1] وقال عبد الله بن مسعود: **«بلغنا أنه سيأتي في آخر الزمان أقوام**

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر (٣٠٦٢) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١١١).

يوجدهم الله تعالى يحملون العلم ولا يعملون به كي لا يضيع ولو أن الله تعالى أسكن علم هؤلاء في قلوبهم ، كما وقع للعلماء العاملين ، لبطل التمييز بين العلماء والعوام ، وبين العاملين والفاجرين» انتهى.

فتأمل يا أخي في هذه المنة ، وتخلق بأخلاقها ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: مطابقتي بين ما عليه العارفون من دقائق الأسرار ، وبين ما جاءت به الرسل ، وقل من طابق بينهما ، إنما يجعلون ما عليه العارفون خارجاً عن الشريعة كما مر تقريره في هذه المنن مراراً.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: من لم يطابق بين جميع طرق العلم الشرعي فاته خير كثير ، فقلت له فما عدد طرق العلم الشرعي؟ فقال: عددها أربع وعشرون طريقة ، اثنتا عشرة منها خاصة بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، واثنتا عشرة منها خاصة بأبدال الرسل من المتأهلين أيام الفترات ، وتسمى هذه بالسياسة الحِكمية ، بكسر الحاء المهملة ، وإطلاق الشرع عليها مجاز ، فكان المتأهلون من أيام الفترات يدخلون الخلوة ، ويروضون نفوسهم ، حتى يحصل لأحدهم نور ، فينقدح له بفكره أمر يحصل به نظام العالم إذا فعلوا به ، وحكمه حكم القانون ، فلا يجوز العمل به أيام الشريعة ، وكله متعلق بأحوال الدنيا المشهودة ، لا يصل أحد منهم إلى شيء من أحوال الآخرة ، ولا يعرفون أن بعد هذا الموت بعثاً ولا نشوراً ولا حساباً ولا جنة ولا ناراً ، ولا غير ذلك من أحوال الآخرة ، كل ذلك لئلاَّ يخلو الوجود من داع يدعو إلى الحق حقيقة أو مجازاً ، فالطرق الخاصة بالرسل عليهم الصلاة والسلام هي الوحي ، والكشف ، والمحادثة ، والمكالمة والمخاطبة ، والنفث في الروع ، والتفهيم ، والإلهام ، والتعليم ، والاستعداد ، والقبول ، والاجتهاد ، وأما الطرق الخاصة بالمتأهلين فهي المناسبة ، والتخصيص ، والتأثير ، والمقابلة ، والمقارنة ، والوقت ، والتحكيم ، والحكم ، والأصل ، والعلة ، والوعد ، والتخلي.

قال: ومدار طرق الرسل على الوحي ، ومدار طرق المتأهلين على التخلي ، وهذان الطريقان من خصائص الفريقين لا مدخل للأتباع فيهما ، فأما طريق الرسل فمعلومة عندنا بالتواتر والعلم الضروري ، وأما طريق المتأهلين فالمراد منها اعتزال القلب بالتخلي عن الدنيا وأسبابها ، وشهواتها ، وعلومها ، وأحوالها ليتفرغ القلب إلى الأخذ عن الحق من طريق الإلهام بلا واسطة من البشر ، فإذا تخلى العبد ، وتحقق بما ذكر ، أعطاه الله تعالى الحكمة في موضع الأسباب ، وقيام ناموس الدنيا في معاملة أهلها ، وما يفتقر الناس إليه في ذلك الزمان والقطر والأقليم ، فرجعوا إلى الخلق عاجزين مفتقرين للنور الذي صحبهم حال إفاضة الحكمة عليهم ، فظهروا بأعمال وأحوال لم يسبقوا إليها وقاموا في ذلك الزمن مقام الرسل في

جميع نظام العالم الدنيوي. مع علمهم بأنه لو جاء إليهم رسول لتبعوه فيما يدعوهم إليه ، وتركوا ما عندهم ، ولذلك بشروا في كتبهم بظهور الرسل الآتين بعدهم ، وأوصوا أتباعهم باتباعهم إن أدركوهم ، ولم يكتفوا بذلك حتى سألوا الحق تعالى أن يريهم صورهم المختصة بهم إذا ظهروا ليثبتوها في الكتب لأتباعهم ، فأراهم سبحانه وتعالى صور الأنبياء والرسل في عالم الأرواح ، فوصفوا تلك الصور في كتبهم على علم وبينة ، ثم لما توفرت الدلالة على صدقهم عند الأتباع بوقوع ما أخبر به أئمتهم المذكورون من الأوصاف ، اختلفت أهواء الأتباع وآراؤهم ، لعدم من يبصرهم بعيوبهم ، وما هم عليه من الخطأ ، فحرفوا كلام المتأهلين عن مواضعه ، كما حرفت أتباع الرسل من غير أهل السنة والجماعة كلام الرسل بالتأويل العاضد لأهوائهم المضلة عن سواء السبيل ، وفهموا من طريق التخلي عن الدنيا أن كل من سلك تلك الطريق نال ما ناله المتأهلون ، وغفلوا عن كون تلك الطريق خاصة بأولئك الأشخاص الظاهرين في زمن الفترات ، ليس لغيرهم فيها قدم ، فسلكوا طريقهم ، فلم تنتج لهم شيئاً مما توهموه ، فظنوا أن الخطأ إنما هو لفقد شرائط في نفس الأمر لم تبلغهم ، فاشترطوا في التخلي شروطاً لم يشترطها المتأهلون ، من تقليل الطعام ، وعدم الكلام ، وعدم النوم ، والعزلة بأجسامهم عن الناس ، وغير ذلك مما أضعف أبدانهم ، وكثرت به تخيلاتهم ، وفسدت به عقائدهم ، وظهرت لهم صور حسنة أو مهولة نشأت من جميع هممهم ، مثالاً لما هم عليه من التقييد بالأعمال ، فتارة يظهر لهم صور شبحية في الخيال ، فتخبرهم عن أشياء تأويلها هو ما هم عليه ، وتارة يظهر لهم نور أو ظلمة ، أو صور قبيحة أو حسنة من كلاب وحيات وغيرهم ، مما هو كامن في طباع الإنسان ، فإن جسده هو النسخة الجامعة لما في العالم العلوي والسفلي.

فمن هنا دخل الغلط على أهل الخلوة ، حتى أن بعضهم تزندق ، وبعضهم خرج يضرب الزغل ، ويزعم أنه صار يعرف التدبير الصحيح الذي يطلع الله تعالى عليه أهل الكشف ، ولو أن هؤلاء كان لهم شيخ متضلع في علوم الشريعة لأعلمهم أن الحق تعالى لم يفرط في الكتاب المنزل إليهم من شيء ، ومع ذلك فلم يشترط في الأعمال التي جاءت على أيدي الرسل شيئاً مما اشترطه هؤلاء ، إنما اشترط عليهم اتباع الرسل في أقوالهم وأفعالهم؛ لأنهم أعلم بمصالح من أرسلوا إليه من أنفسهم.

وقد أخبرني الشيخ محمد العياشي ، أحد أصحاب سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه: أنه ذهب من غير علم سيدي إبراهيم إلى بعض المشايخ في عصره ، فاختلى عنده أياماً فبلغ ذلك سيدي إبراهيم ، فأرسل آخرجه من الخلوة ، وقال له: يا غمه هل تقدر بخلوتك أن تأتي الناس بمثل حديث في البخاري ومسلم ، ولو مكثت فيها ألف سنة؟ فقال له.

لا ، فقال له سيدي إبراهيم: مثلك مثل من لا يكتفي في النهار بضوء الشمس ، ويجلس يقدح الزناد ليجعل له مصباحاً يستضيء به ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: جميع ما يطلبه أهل الخلوة باختلائهم إنما هو لجهلهم بالشريعة المطهرة ، فإنهم مقلدون للشارع بزعمهم ، والمقلد يكفيه معرفته بصور العبادات ، والإيمان بأنها من عند الله تعالى ، ولا يحتاج إلى تأويل ولا تحريف ، ولا طلب دليل على ما جاء عن الشارع ، ولا علم معاني ما كلف به؛ لأن ذلك ليس من وظيفة التابع ، وإنما من ظيفة المتبوع ، وما أقبح عبداً تجرأ على الله تعالى ، وطلب إظهار ما ستره عنه مما لم يقسمه له ، وطلب أن يقسمه له ، وغفل بقلبه وقالبه عن فعل ما أمره الحق تعالى به من الأقوال والأفعال والسنن الواضحة ولو أنه كان عنده نور إيمان في قلبه ، لأثر فيه الإيمان بخاصية الكشف عن معاني ما تعبده الحق تعالى به ، وعلم أن في فعل الطاعات من صلاة وغيرها ما يغني عن الخلوة؛ لأنها حضرة خاصة بالحق تعالى ، لا تقبل أحداً من الخلق ، فلو أراد الإنسان أن يكون مختلياً دائماً ، لكفاه الاشتغال بما شرعه الله تعالى من الطاعات القولية والفعلية ، فاعلم ذلك فإنه سر عظيم ، ما أظنه طرقك قبل ذلك أبداً. اهـ.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن ما ذكرناه من ذم الخلوة ، إنما هو في حق من يطلب من الحق تعالى بخلوته أمراً يكون عليه من النواميس ، أما من يطلب بها صفاء المعاملة مع الله تبارك وتعالى في المأمورات الشرعية ، كما عليه أتباع الشيخ دمرداش ، وأتباع الشيخ شاهين في مصر ، فهذا لا بأس به ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: العمل على طهارة إيماني ، وذلك بالتوبة ، وإصلاح الطعمة ، فمن قام بهذين الأمرين فقد طهر إيمانه من النقص ، فأما التوبة فترفع حكم المعاصي المتحدة في اليوم والليلة ، كما ترفع الشهادتان حكم الشرك بالله تعالى ، المسمى بالخفي في هذه الأمة ، فالواجب أدباً على كل مسلم الإكثار من الاستغفار في الليل والنهار ، سواء استحضر أنه عصى أم لم يستحضر ، بل عدم استحضار العاصي أنه عصى ربما يكون عند الله تعالى أشد من معصيته التي وقعت ، فيكثر من التوبة والاستغفار ، ناوياً به التوبة مما يعلمه الله تعالى منه مما فعله ونسيه ، والمراد من التوبة رجوع العبد إلى الله بقلبه في أكثر حالاته ، حتى لا يكون غافلاً عن ربه ونفسه ، فيكتب من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، وأعظم أوقات التوبة أواخر النهار ، وأواخر الليل.

وأما صلاح الطعمة فهو الأساس الأعظم ، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الكسب الحلال ، والأكل منه ، ومن عمل العبد بيده ، والتصدق بما زاد ، وورد النهي عن ترك الكسب في الآيات والأخبار ، وذم من جعل نفسه كلاً على الناس ، سواء كان أباه أو أمه أو صديقه أو قريبه ، وقد جعل العلماء بالله تعالى الكسب واجباً وجوباً مؤكداً ملحقاً برتبة

الإيمان ، وأشار إلى ذلك في حديث: «**الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له**»(١) فجعل دعاء من يأكل الحرام يرد كما يرد دعاء الكفار ولو في الجملة ، فافهم.

ثم مدار الأمر على التقوى في جميع ما يعلمه العبد من الحرف والصنائع ، وكل إنسان يعرف في حرفته ما تقع به التقوى ، وما يقع به الغش ، وقد جعل الله ورسوله العبد أميناً على نفسه في حرفته ، فإذا خان الأمانة فإنما خان نفسه ودينه ، والناس أجمعين ، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام: «**الطهور شطر الإيمان**»(٢)

وقد جعل الله تعالى البركة في التقوى ، والفقر في الغش ، فمن نصح في حرفته بارك الله له في رأس ماله من حيث لا يشعر ، حتى يصير من أوسع الناس مالاً ، ومن غش فيها وتشبه بأبناء الدنيا الذين هم فوقه في الدنيا ، انكشف حاله ، وتبددت بركته ، وصار عن قريب يضرب به المثل في الخمول.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: كما أمر العبد أن لا يغش في حرفته ، كذلك أمر أن لا يغش في طاعاته ويخلطها برياء أو سمعة ، فمن فعل ذلك فقد بخس دينه وإيمانه ، انتهى.

فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد وتسعد ، ويبارك لك ، والله تعالى يتولى هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عملي دائماً للطاعات أوائل دخولي في الطريق على تحصيل مقام الصديقية والشهادة ، دون تحصيل طريق الولاية ، بإشارة سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه ، فإن الصديقية والشهادة من مراتب الولاية ، وهي مرتبة مخصوصة لأقوام مخصوصين ، على عدد مخصوص ، لكن العدد بالمراتب لا بالأشخاص؛ لأنه ربما يكون في المرتبة الواحدة شخصان أو أربعة أو أكثر ، وربما يكون في المرتبتين واحد كالقطب ، وربما يكون الرجلان بمنزلة الرجل الواحد وعكسه ، ولا طريق للولاية ظاهراً حتى تطلب ، إنما هي أخذة تأخذ العبد على أي حالة كان ، فتقلب عينه ولياً خالصاً في أسرع من لمح البصر ، وهذا ليس للعبد فيه تعمل؛ لأنه من الوهب لا من الكسب.

فعلم أن جميع من يشتغل بالرياضة والخلوة طلباً لحصول الولاية مغرور ، وغايته التشبه بالأولياء في المواسم ، والهبات ، وظواهر الأعمال لا غير ، فهو كالرطب المعمول الذي

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب (١٠١٥) ، والترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة البقرة (٢٩٨٩) ، وأحمد في مسنده (٨١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء (٢٢٣) ، وأحمد في مسنده (٢٢٣٩٥).

يحمض ويتلف عن قرب ، بخلاف الولي الخالص ، فإنه كالرطب الجني لا يزداد على ممر الأ إلا حلاوة.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول لشخص اختلىٰ وأكثرَ من الذكر والجوع طلباً للولاية ، فقال له: يا مبارك الحال ، أخرج من هذه الخلوة ، وما قسم لك لا بد من حصوله ، فإن الولاية الخاصة لا تنال بعمل؛ لأنهم محبوبون كالأنبياء بالاختصاص الإلهي من غير تقدم عمل.

وأما الولاية العامة فقد تنال بعمل ، كما أشار إليه قوله تعالى: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه**»[1] فما حصلت محبة الحق لمثل هذا العبد إلا بعد تفعل ، وذلك مذموم في طريق الخواص ، محمود في طريق غيرهم إذا لم يجدوا من يرشدهم إلى تحقيق الخواص ، ثم قال له: يا أخي لو أن شيخك أخلاك وجوعك ثلاثين سنة ، لم تصل إلى مقام الولاية التي جعلت جوعك طريقاً لتحصيلها ، فقال: لا أخرج من الخلوة أبداً ، فقال له الشيخ تب إلى الله تعالى ، واعبد ربك امتثالاً لأمره ، فإن أجلك قد قرب ، فأبى ، فمات بعد يومين بالجوع ، فأعلمت الشيخ به فقال: لا تصل عليه ، فإنه مات عاصياً لقتله نفسه بالجوع.

وكان رضي الله تعالى عنه يقول: حكم هؤلاء الذين يأخذون العهد على المريدين بالجوع والرياضة ليصيروا أولياء حكم من أراد أن يجعل شجرة أم غيلان تطرح رطباً أو شجر الجميز يصير تفاحاً أو شقف الطباخ الزفوري تصير كآنية الصين ، وذلك لا يصح له أبداً ، انتهى.

واعلم يا أخي أن الصديقية التي طلبتها بأعمالي هي في مصطلحنا اسم لترك المناهي جملة ، فكل من أحكم ترك المناهي ، وانقادت نفسه إلى الموت ، وقطع المألوفات ، والخروج عن العوائق ، والعوائد ، وغلظ الطبع ، واستحكام ترك الشهوات قلّت أو جلّت ، فقد استقام مع الله تعالى حد الاستقامة الممكنة لأمثاله ، وليس ذلك لبشر بعد رسول الله ﷺ ، وبعد الأنبياء إلا لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه من مقام التسليم حظه الأوفر ، وأطلق عليه اسم الخلة ، في حديث «**أن الله تعالى يتجلى في الآخرة للأخلاء الثلاثة محمد وإبراهيم وأبي بكر الصديق**»[2] أي تجلياً خاصاً وحقق ذلك قوله ﷺ: «**إنما مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم**»[3] إشارة إلى تحقيق الخلة التي هي تسليم النفس والمال والولد لله رب العالمين ، فكان من أمن الناس على رسول الله ﷺ بنفسه وماله وولده.

وأما طريق الشهادة التي طلبت تحصيلها بأعمالي ، فهي التزام الأوامر ، وانسحاب ذلك

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب التواضع (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٢/ ١٩)

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٢٥).

الحكم على مراتب الدين كله في سائر الأعمال ، وليس ذلك لبشر بعد النبيين إلا لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وكمل ورثته ، فكل من استحكم أمره في توفيقه فعل الأوامر فهو من الراسخين في العلم ، فإن عمر رضي الله عنه لم يدع باباً من المناهي اتصف أبو بكر بتركه إلا أخذ عمر رضي الله تعالى عنه في مقابلة ذلك وجهاً محموداً ، وإن لم يؤمر به شرعاً ، فلذلك شبهه ﷺ بموسىٰ الكليم في التكليم ، بقوله: «**إن يكن في أمتي محدَّثون**» بفتح الدال المهملة المشددة «**فعمر بن الخطاب**»(1) إذ التحديث فرع من مكالمة الحق تعالى عبده في سره.

وكان رضي الله تعالى عنه مع فعله سائر المأمورات ، يقول لحذيفة رضي الله تعالى عنه: انظر هل فيَّ شيء من النفاق فأخبرني لأتوب منه؟ فكان يتهم نفسه بالنفاق ، وإنما خص بذلك حذيفة؛ لأنه كان يعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ ، وإنما كان مقام الصديقية أكمل ، لكون مقام الشهادة أقرب لخطر صورة نسبة ظهور الأعمال ، فنزهت مرتبة الصديقية عن ذلك.

فتأمل ذلك ، واعمل يا أخي على تحصيل مرتبتي الصديقية والشهادة ، حسب الطاقة ، فإنهما زمام جميع الأعمال الصالحة ، وترجع إليهما جميع الأعمال على اختلاف طبقاتها؛ لأنها لا تخلو أن تكون فعل مأمور ، أو اجتناب منهي ، فافهم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حفظي من الندم على فوات معصية فاتت ، أو طاعة فاتت ، إلا من حيث أن الله تعالى يحب الندم على فوات الطاعات ، لا من حيث مالي في ذلك من الثواب ، أو نسبة العمل ، إذ الندم على ترك المعاصي يحبط العمل ، والندم على فوات الطاعة بشهود نسبة العمل للعبد يحبط الإخلاص عند القوم ، وإن كان الندم على فوات الطاعة كمالاً في حالة البداية والنهاية ، لكن من وجهين مختلفين ، فافهم.

وإيضاح ذلك أن المؤمن الكامل في حال توسط سلوكه لا ميل في قلبه إلى شيء يقع في مستقبل الزمان دون شيء ، فإن صوَّمه الله صام بنية الشكر ، وإن أقامه في الليل قام كذلك بنية الشكر ، وإن نوَّمه نام بنية الرضا ، لا حزازة في نفسه على شيء فات ، ولا نظر عنده لما هو آت ، يقول الحق على نفسه وولده ، يعطي الحق من نفسه لخادمه وأمته ، مشغول بما أهمه من أمر دنياه أولاً ، ثم بأمر دينه ثانياً ، ثم حقوق إخوانه ثالثاً ، ثم حقوق نفسه رابعاً ، ومن سلك هذا المسلك فهو الآمن من عذاب الله ، المؤمن بتعظيم آيات الله.

فعلم أن كل من حزن على فوات شيء ، أو فرح بحصول شيء ، فهو عبد ذلك الشيء

(1) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب حديث الغار (٣٤٦٩).

فلذلك كان كل المؤمنون لا يحزنون على ما فات ، ولا يفرحون بما هو آت ، إلا إن طلب الله تعالى منهم ذلك ، هذا أساسهم الذي دخلوا به لمعاملة الله عز وجل ، فكانت بدايتهم نهاية غيرهم.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول للمريد: اعلم يا ولدي أنه لا يصح لك شيء من الطريق إلا إن أسست أساسك ، على أنك لا تفرح إلا بربك ، ولا تحزن إلا على حجابك عنه ، وهناك يرقيك في المقامات ، وأما إن أسست أساسك على الفرح بغيره ، والحزن على فوات غيره ، فيا طول طريقك ، انتهى.

فتأمل يا أخي ذلك ، واجعله أساسك ، وفي قول بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم «تمنيت أن لو لم أكن أسلمت إلا يومئذ» إشارة إلى بعض ما هنا من المقامات ، فافهم ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: نصحي لمن استشارني في الأخذ عن أحد من فقراء هذا الزمان ، وعدم مداهنتي في ذلك ، فأقول له: إن أردت الطريق فعليك بفلان ، وإياك والاجتماع على فلان ، لكن يكون مثل هذا سراً ، لئلا يتولد من ذلك مفسدة ، ويكون بحق لئلا يكون غشاً لعباد الله تعالى ، وطريق الحق في ذلك أن يطلع أحدنا من طريق كشفه أن ذلك المريد لا نصيب له عند ذلك الشيخ ، أو كون ذلك الشيخ ناقصاً لا قدم له في الطريق ، كأن جلس للمشيخة بلا إذن من الأشياخ ، كما هو الغالب.

وقد أخبرني شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصاري رضي الله تعالى عنه: أن سيدي محمد الغمري ، وسيدي مدين ، لما دخلا مصر يطلبان الطريق ، دلهما بعض الناس على سيدي محمد الحنفي رضي الله تعالى عنه ، فبينما هما يمشيان بين القصرين ، وهما قاصداه ، إذ لقيهما شخص من أرباب الأحوال ، فقال لهما: لا تطرقا الأبواب الكبار ، فإنه ليس لكمال فيها نصيب ، ارجعا واطلبا أحمد الزاهد في خط المقسم بباب البحر، فرجعا عن سيدي محمد الحنفي، فاجتمعا بسيدي أحمد الزاهد، فكان فتحهما على يديه ، فكان إرشادهما إلى الزهد نصحاً لهما لا ازدراء بسيدي محمد الحنفي رضي الله تعالى عنه ، فإنه تقطب سنين عديدة ، كما هو مذكور في مناقبه ، انتهى.

وقد كان سيدي علي المرصفي رضي الله تعالى عنه لا يذكر أحداً بسوء ومع ذلك سمعته مراراً يقول لأصحابه: إياكم والاجتماع بالشيخ الفلاني ، فإنه جلس بنفسه بغير إذن شيخ ، فصرَّح باسمه ، ولم يكن عن ذلك نصحاً للمسلمين.

وقد اجتمعت أنا بالشيخ المذكور ، ورأيت طريقة الرياضة بأسماء السهروردي فأعطته الأسماء بعض آثار من تولية بعض المباشرين وعزلهم ، فاشتهر بذلك ، فظن بعض

المحجوبين أن ذلك من صحة ولايته ، لجهلهم بالطريق ، وأقام على ذلك سنين ، وصار له عشر نقباء يرسلهم في حوائج الناس إلى الأمراء في الشفاعات أيام الغوري ، ثم انكشف حاله ، وتفرق الناس عنه ، فتدارك أمره ، وأخذ عن سيدي علي الخواص ، وعن سيدي علي المرصفي ، وصار يقول: كل ما كنت فيه ضلال عن الطريق ، ومات بخير رحمه الله تعالى.

وفي عصرنا هذا جماعة على قدم الصدق في الطريق ، كسيدي الشيخ سليمان الخضيري ، والشيخ إبراهيم الذاكر ، والشيخ عبد الكريم ، خليفة الشيخ دمرداش ، وسيدي محمد البكري ، وغيرهم ممن ذكرناهم في الطبقات رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، فكثيراً ما أرشد من يطلب الطريق إلى هؤلاء لعلمي برسوخ قدمهم في الطريق ، فأسأل الله تعالى أن يفسح في أجلهم لنفع المسلمين آمين.

وفي وصية أخي أفضل الدين لإخوانه: إياكم ومصاحبة غالب مشايخ المتصوفة الذين خرجوا في هذا الزمان بالجهل والدعاوي الكاذبة ، حين ذهب الصالحون ولم يبق من آثارهم إلا التشبه بظواهرهم ، فيما لا نفع في وجوده ، ولا ضرر في عدمه ، ولا مكروه في تركه ، كلبس الجبة ، والتعمم بالصوف ، وإرخاء العذبة ، وإمساك السبحة ، لكن يكون ترككم لهم من غير ازدراء لهم ، ولو رأيتم أحدهم يسافر من مصر إلى بلاد الروم في طلب الدنيا فلا تقيموا عليه الميزان ، وتقولوا: هذا خروج عن الطريق ، فربما قاس بعضهم حاله على حال الجاهلين وكان هو من الصادقين فيكشف لأحدهم أن الله تعالى جعل له في الروم رزقاً ، فهو يسافر له وقلبه فارغ من محبة الدنيا ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من لم يجد في عصره شيخاً صادقاً ، فحسبه محبة الله تعالى ، ومحبة رسوله ، وحسن الاعتقاد ، والرضا بالإقامة في الأسباب بنية نفع نفسه ، ونفع العباد ، وإذا اجتمعتم بأحد من مشايخ هذا الزمان الذين جلسوا بأنفسهم ، وزل بكم القدم ، فإياكم ونسبته إلى القطبية ، ولا تزيدوا على وصفه بسيدي الشيخ فلان ، وإياكم بعد الاجتماع عليه أن تقبضوا وجوهكم عن إخوانكم ، وتقرمطوا أنوفكم وتطأطئوا رقابكم ، بل كونوا كما كنتم قبل اجتماعكم عليه ، ومن فعل ما ذكرناه مع إخوانه فإنه دليل على نقص شيخه ، فإن الكامل من شأنه أن يسلك الناس وهم في أسبابهم ، ولا يقول لأحد منهم: اترك سببك أو أهجر إخوانك حتى نسلكك ، وما نهى الأشياخ المريد أوائل توبته إلا عن صحبة الفسقة من إخوان السوء ، خوفاً عليه أن يرجع إلى فعل ما كان تاب منه ، انتهى.

وقد رأيت أنا جماعة أخذوا عن شيخ ، فصاروا مع إخوانهم كأنهم في دين وهم في دين ، فتنافروا وتشاحنوا وترافعوا إلى الحكام ، وامتلأت قلوبهم بالشحناء والبغضاء لبعضهم بعضاً ، فازدادوا مرضاً إلى مرضهم ، فإياكم أيها الإخوان من ذلك ترشدوا ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداكم ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم استجلابي حضور أحد من الأمراء إلى مجلسي، كما يفعله النصابون الذين عجزوا عن أعمال الصالحين التي تقع لهم بها الرياسة على الناس، بل رأيت بعضهم يغمز نقيبه، ويقول: إذا جلس عندي الأمير الفلاني مثلاً، فتعال قل لي بحضرته أن الباشا أرسل لكم السلام مع شخص من جماعته، ويقول لكم: لا تخلوه من نظركم، فإنه في بركتكم، فيسمع ذلك الأمير، فيحكي ذلك للأمراء فيصيرون يترددون إليه، بل بعضهم رأى في خلوة شخصاً فادعى أنه رسول الله ﷺ جاء يزوره، وبعضهم يدعي أن الخضر يزوره، وينزل شخصاً في فرد كبير من طاقة في سقف البيت، فإذا قرب من الأرض أمر الحاضرين بالقيام له، والتبرك به، ثم يغمز الذي أنزله أن يرفعه، وقد بلغ جماعة من العلماء ما يفعله من دعوة النبوة، وحكموا بردة ذلك الذي ادعى، وجددوا إسلامه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فاحذر يا أخي من دعوى مثل ذلك، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك، وهو يتولىٰ الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة حضور الملائكة والجن لدرسي، ولذلك كنت أرسل الكلام دائماً من غير تحجير ولا تقييد على قدر فهم الحاضرين، وقل من الفقراء من يتفطن لهذا، وما رأيت في عصري أحداً على هذا القدم، إلا سيدي محمد البكري نفعنا الله ببركاته، فلا يكاد أحد من الحاضرين لمجلسه يتعقل شيئاً من غالب كلامه المتعلق بأولئك الحاضرين من الجن والإنس والملائكة، ونحوهم من أهل الدوائر العلية، لكثرة حضور الملائكة وأكابر علماء الجن والإنس مجلسه، فربما قال من لا معرفة له بما قلناه ليس في كلام هذا فائدة، لعدم تعقل الحاضرين له، ولو أنه كشف له عما ذكرناه للزم الأدب مع سيدي محمد هذا، فإنه من نوادر الزمان في الاطلاع على دوائر الأقطاب، والأوتاد، والأبدال، وأسرار الشريعة، رضي الله تعالى عنه.

وفي وصية أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى: إذا تكلمتم في الطريق فلا ترسلوا الكلام بحسب الحاضرين من الإنس فقط، وبحسب رتبتهم، بل تكلموا بحسب الوقت والفتوح، فإنه ما ثَمَّ مجلس إلا وفيه من يقبل التخلق بأخلاق الكمل من أنس وجن وملائكة، سواء علمتم بهم أم لم تعلموا، انتهى.

وقد تقدم في هذه المنن أن علماء الجن أرسلوا إلي خمسة وسبعين سؤالاً في التوحيد وغيره، فكتبت لهم عليها، ومسودتها عندي إلى الآن

وبلغنا عن الشيخ عثمان إمام جامع الأزهر: أن الجن كانوا يشتغلون عليه بالعلم، وكذلك

سيدي محمد الحنفي ، كما هو مذكور في مناقبهما ، فقال سيدي محمد بن زين في قصيدته الرائية هذه الأبيات:

أيـن شيخـي عثمـان مقـرىء سبـع فخـر ديـن إمـام جـامـع الأزهـر
كـانـت الجـن يقـرأون عليـه يـا لهـا مـن منـاقـب حيـن تـذكـر

إلى آخر ما قال ، رحمه الله تعالى.

ومما وقع له أن شخصاً من طلبته طلب التزويج ، وطلب من الشيخ المساعدة ، فأمر الجن بمساعدته ، فأعطوه كيساً فيه ثلاثون ديناراً ، فبينما هو يخرج منه في سوق الألماطيين ، إذ عرفه الألماطي ، وأقام بينة أنه كيسه ودراهمه ، فمسك الكيس ، فرجع الطالب إلى الشيخ ، فأرسل وراء الجني الذي أتاه بالكيس ، فقال له: ما الخبر؟ فقال له: يا سيدي نحن قوم موكلون بأخذ كل ما يحبسه التجار من واجب الزكاة ، ودفعه للفقراء ، وبأخذ كل ما زادوه في الأخبار بالمشتري ودفعه لمستحقيه ، ثم قال للشيخ: قل له القطعة الفلانية أما أخبرت بمشتراها زائداً كذا وكذا ، والقطعة الفلانية كذا وكذا ، فلا زال يعد له وقائعه واحدة واحدة ، فأرسل الشيخ وراء التاجر وأخبره ، فقال: صدق ، وأنا تائب إلى الله من هذا الوقت ، وصدق الجني على جميع ما قال.

ومما وقع لسيدي محمد الحنفي رضي الله عنه: أن الجن انقطعوا عن مجلسه مدة ، ثم جاؤوا فقال لهم: ما منعكم عن الحضور هذه المدة؟ فقالوا: كان عندكم أترج في طبق ، ونحن لا ندخل بيتاً فيه أترج أبداً ، انتهى.

فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كراهة نفسي للأكل من الأطعمة الفاخرة في الأواني الصيني أو الزجاج الفرنجي ، وكذلك أكره لبس الأصواف الرفيعة ، والجوخ البندقي العال ، والشاشات القندمارية ، لعزة وجودها الآن من وجه حلال.

وقد كانت عمامته ﷺ من غليظ القطن ، وهي المسماة بالقوطية وكان السيد عيسى عليه الصلاة والسلام يقول للحواريين: «**بحق أقول لكم: والله إن أكل نخالة الشعير ، وسف الرماد ، ولبس المسوح الخشنة ، والنوم على المزابل ، لكثير على من يموت**» انتهى.

ولا تغتروا أيها الإخوان بمن رأيتموهم يلبس الرفيع ، ويأكل من الأطعمة الفاخرة ، وفتشوا أمره تجدوه قليل الورع ، وقليل الورع لا يقتدى به ، اللهم إلا أن يكون من أصحاب الدوائر الكبرى في الولاية ، فمن حضرته حضرة الجمال ، كسيدي علي بن وفا ، وسيدي مدين ، وسيدي أبي الحسن البكري ، وولده سيدي محمد الحنفي ، وغيرهم ، فمثل هؤلاء لا يقام عليهم الميزان المذكور؛ لأن الله تعالى ربما يستخلص لهم الحلال من بين فرث

الشبهات ، ودم الحرام ، لكرامتهم عليه ، ومصداق ذلك حصول هذه الملابس والمآكل والمراكب التي بأيديهم من غير حصول ذل في وصولها إليهم ، فلا تكلف عندهم في شيء منها فافهم ، وإياك والإنكار فيحصل للعبد المقت والعياذ بالله تعالى.

وقد وقع أن الوزير المشهور بابن زنبور ، رأى سيدي علي بن وفا في باب زويلة ، فنظر إلى ملابسه ومركبه ، فرأى هيبته كملابس الملوك ومراكبهم ، فقال في نفسه: ايش خلى هؤلاء لنا من الأمور؟ فقال سيدي علي لغلامه: اذهب ، فقل له في أذنه: تركوا لكم خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، فنقم السلطان على ابن زنبور ، وسلب نعمته بعد أيام ، فجاء ابن زنبور واستغفر من حق سيدي علي رضي الله تعالى عنه.

فإياك يا أخي ، ثم إياك من الإنكار على من تراه في هذا الزمان بهذه الصفة ، أما من لا يصل إلى تلك الملابس والمراكب إلا بذل في طريق تحصيلها كأمثالنا فلك الإنكار عليه ، وبيان نقصه ، وقلة ورعه في إتعاب نفسه ، والإشفاق عليها في تحصيل ما ليس هو من أهله ، ولا يسره الله تعالى له ، فلعله ينزجر ، هذا إذا وجدت هذه الأمور من وجه حلال نسبي ، فكيف إذا أخذت من الأمراء والظلمة بقلوب مائلة ، ونفوس كالبة ، وعقول سالبة ، في زمان لا يوجد فيه القوت إلا بمعاينة أسباب الموت ، فافهم يا أخي ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: تشريفي برؤيته تعالى في النوم خمس مرات ، وبرؤية سيدنا ومولانا محمد ﷺ مراراً ، وبرؤية السيد عيسى عليه الصلاة والسلام مرة واحدة ، وبرؤية الخضر عليه السلام ، وبرؤية المهدي عليه السلام ، وبالاجتماع التام على القطب رضي الله تعالى عنه.

فأما رؤية الحق جلا وعلا ، فوقع لي في بعضها عتاب من جهة تنظيف المسجد الذي أنا مقيم فيه الآن من بيت العنكبوت ، وسواد حيطانه ، فأصبحت فشرعت في كنسه وتبييضه ، وخاطبني سبحانه وتعالى بأمور تظهر في الآخرة إن شاء الله تعالى ، من علوم سر القدرة.

أما السيد عيسى عليه الصلاة والسلام فدعا لي ، وقدمني فصليت إماماً في صلاة العصر ، وربما اجتمعت به في اليقظة ، وألهمت أنه هو ، وقد ادعى شخص من إخواننا أنه اجتمع به في سوق الوراقين بمصر في سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ، فأنكر ذلك عليه بعض العلماء ، وإنكاره غير صحيح ، فقد نقل ابن سيد الناس في ترجمة سليمان الفارسي رضي الله تعالى عنه ، رواية الطبراني والطبري «أن عيسى عليه الصلاة والسلام نزل إلى الأرض بعد الرفع ، في حياة أمه وخالته عليهما السلام فوجد أمه تبكي عند الجذع ، فسلم عليها وأخبرها بحاله ،

فسكن ما بها ، ووجه الحواريين في بعض الحوائج»[1]

قال الطبري: فإذا جاز نزوله بعد رفعه مرة قبل نزوله آخر الزمان ، فلا بدع أنه ينزل مرات ، ونقل عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه ، أنه اجتمع به أيام سياحته في طلب من يرشده إلى الدين الحق ، قبل بعثة رسول الله ﷺ ، وذلك أنه مر على غيضة فرأى قوماً من أرباب البلايا يجلسون تجاه الغيضة ، في وقت يعرفونه ، فيخرج لهم المسيح عليه الصلاة والسلام فيمسح بيده على عاهاتهم فيبرؤا منها كلها ، فاجتمع به سلمان ، وأعلمه بقرب ظهور محمد ﷺ ، هكذا نقله بعضهم ، وفي ترجمة سلمان في السيرة ما يشهد لبعض ذلك.

وأما الخضر عليه السلام ، فأرشدني إلى ذكر الله ، والصلاة على رسول الله ﷺ كل يوم بعد صلاة الصبح.

وأما القطب فرأيته يبيع الفول الحار بالأمشاطيين ، بمعرفة سيدي علي الخواص ، فدعا لي بالصبر على البلاء.

وقد بسطنا الكلام على وقائعنا مع رسول الله ﷺ في رسالة مستقلة ، فراجعها ترشد ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم شكوى من يؤذيني إلى الله تعالى ، أو إلى نفسي ، فإن ولينا كلنا هو الله تعالى ، وإنما أرضى بذلك الأذى ، فإن لم يقع لي الرضا صبرت ، لكن لا يخفى أن الرضا بذلك إنما هو من حيث التقدير الإلهي ، لا من حيث الكسب ، فيجب علي الإنكار على من أذاني بغير حق عادي ، من حيث أنه عصى ربه بذلك ، كما يجب علي الإنكار على من آذى غيري بغير حق كذلك على حد سواء ، فأقول له: إيذاؤك لي لا يجوز ، إذا عجزت عن رده باليد ، فإن عجزت عن هذين الشيئين توجهت بقلبي إلى الله تعالى أن يكفه عني ، وذلك من جملة تغيير المنكر الذي هو أضعف الإيمان ، وأقواه من حيث مقام الإحسان ، فإن الضعف تارة يكون من قلة الدين ، وتارة يكون من قوة الدين ، والمراد به هو عند العارفين الثاني ، الذي هو أعلى من مقام الإيمان ، كما مر تقريره مراراً.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول في الحديث: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده»**[2] الحديث معناه: أن تغييره باليد يكون للولاة الذين يَضرِبون ولا يضرون ، وتغييره باللسان يكون للعلماء العاملين ، فيؤثر زجرهم باللفظ في مرتكب ذلك المنكر ، فيرجع عن المنكر ، وتغييره بالقلب لكل العارفين الذين غلب عليهم شهود احتقارهم نفوسهم ، أن يكونوا ناهين لغيرهم ، فيتوجه أحدهم بقلبه إلى الله عز وجل في تغيير ذلك

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/ ٤٦٥) وقال. أخرجه الطبراني والطبري.

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩)

المنكر فكيف الظالم عن ظلمه ، وشارب الخمر عن شربه ، فهذا هو التغيير حقيقة ، وأما قول الإنسان: اللهم هذا منكر لا أرضاه ، فليس فيه تغيير ، فتأمل ، انتهى.

والحق أن المراتب الثلاث تكون لكل واحد من الثلاثة ، فأول المراتب المقاتلة والجهاد ، فإن عجز عن الجهاد ، أنكر باللفظ ليقبح ذلك المنكر عند فاعله ، وعند من يراه ، فإن عجز بأن خاف ضرراً من قتل أو جرح أو إخراج من وطن فليقل بقلبه: اللهم إن هذا منكر لا أرضاه ، وتقدم أن مما أنعم الله تبارك وتعالى به على شهودي أن جميع ما ينالني من الأذى من بعض ما استحق من الله تعالى ، وأن الحق حاضر ناظر إلى ما يصنع عباده ، فلا حاجة لنا إلى الشكوى إليه إلا بالنظر لأمر آخر ، قليل من يقف له ، لعزته ، فافهم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: إيماني بالغيب من صغري ، سواء كان غائباً عن بصري ، أو عن إدراك عقلي ، وذلك من أكبر نعم الله تعالى عليّ ، فلم يقع لي قط توقف في شيء تحيله العقول ، ويثبته الشرع من صغري إلى وقتي هذا ، وقد مدح الله تعالى الذين يؤمنون بالغيب ، وجعلهم من المفلحين ، وكرامات الأولياء فرع من معجزات الرسل ، وقد جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام إلينا بما تحيله العقول ، وآمنّا بذلك من غير تأويل ، فكذلك الحكم في كرامات الأولياء ، يجب الإيمان بها ، انتهى.

وقد حكى لي مرة شخص من أهل بيت المقدس أنه كان مسافراً هو وزوجته الحامل معه ، فخرج عليهما الأسد من أمامهم ، وقطاع الطريق من خلفهم ، فصاح الولد من بطن أمه صيحة عظيمة ، فولى الأسد راجعاً ، وولى قطاع الطريق هاربين ، فلما ولدت ، وأفصح الولد ، أخبر أمه بالقضية وكيفيتها.

وقد ذكر الشيخ عبد الغفار المعروف بابن نوح في أوائل كتابه المسمى: «بالوحيد في علم التوحيد»[1] أن خادم شيخ العرب ، شيخ الشيوخ ابن مسكينة ببغداد ، أخذ سجادات الفقراء وسبق بها يوم الجمعة ليفرشها لهم ، فنزل يتطهر في شط الدجلة ، فطلع بمصر فوجد رجلاً صباغاً ، وكان يعرف صنعة الصبغ فاستعمله صانعاً عنده في الصبغ ، وزوجه ابنته ، وأقام معها سبع سنين ، وولد له منها أولاد ، ثم نزل يوم جمعة ليغتسل في بحر النيل فطلع ببغداد ، ووجد السجادات في المكان الذي تركها فيه ، فأخذها وفرشها لهم ، وصلوا صلاة الجمعة ، فقال له الشيخ: قد أبطأت في هذه المرة ، فحكى له القصة ، فقال له الشيخ: هل كنت تفكرت في شيء؟ ، أو أنكرت شيئاً من كرامات الأولياء؟ فقال: نعم: تفكرت في معنى قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

---

(١) ذكره في كشف الظنون (٢/ ٢٠٠٥) باسم التوحيد في سلوك أهل التوحيد

فقال له: يا ولدي إن الله يبسط الزمان في حق قوم، ويقبضه في حق قوم آخرين، وقد أراك الله تعالى ذلك، ثم إن الشيخ أرسل إلى مصر فأحضر أولاده إلى بغداد، فعرف بعضهم بعضاً، وأقره علماء ذلك العصر من غير نكير في ذلك، انتهى.

وهذه الحكاية لا يتوقف في الإيمان بمثلها إلا الضعفاء، فإن القدرة لا يتوقف عليها شيء، وهذه من مسائل ذي النون، التي تحيلها العقول، مثل إدخال الواسع في الضيق من غير أن يتسع الضيق، وتأمل يا أخي إذا رسمت القرآن كله في قالب، وصرت تختم به على الورق الأبيض، فيرتسم القرآن كله في آن واحد، فلو أراد صاحب القالب أن يكتب كل يوم كذا كذا ألف ختمة، لفعل.

وقد حكى لي الشيخ يوسف الكردي، صاحب سيدي إبراهيم المتبولي: أنه اشتهى زيارة والدته، فدخل الخلوة بعد العصر، فرأى أنه داخل بلاد الأكراد، فمكث عند أهله سنة ثم سافر إلى بركة الحاج ثاني مرة، فلما خرج من الخلوة، أخبرهم بالخبر، فضحكوا عليه، ثم إن والدته جاءت، وأخبرت الفقراء أنه أقام عندها سنة، انتهى.

وقد تقدم في هذه المنن أن سيدي علياً المرصفي أخبرني: أنه قرأ في حال سلوكه في اليوم والليلة ثلاثمائة وستين ألف ختمة، كل درجة ألف ختمة، انتهى.

وفي القرآن العظيم:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾[النمل: ٣٩]. ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

مع بعد المسافة، ومن لم يؤمن بذلك فهو كافر، فإياك يا أخي والاعتراض، فقد وضح السبيل، ورفع النص حكم التأويل، والله تبارك وتعالى يتولى هداك، ويرشدك، وهو يتولىٰ الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: أنه جعلني من ورثة شريعة محمد ﷺ، لكونها تجمع مقامات الرسل كلها فلا يخرج عنها مقام، وقل فقير يعطى ذلك، إنما يكون أحدهم وارثاً لموسىٰ، أو عيسى، أو زكريا، أو يحيى، ونحوهم عليه الصلاة والسلام، حتى ربما نطق أحدهم بموسىٰ أو بعيسى عند طلوع روحه، ويكرر ذلك الاسم، فيعتقد من لا معرفة له بما قلناه أنه تهود أو تنصر عند الموت، ومات على ذلك، وليس كذلك، وإنما نطق باسم من كان وارثه من الأنبياء، كما ينطق الإنسان باسم شيخه عند الموت، مع أن شيخه من باطنية محمد ﷺ بيقين، فلا يضره ذكر اسم ذلك النبي، كما لا يضره اسم شيخه، فعلم أن من كان محمدي المقام فقد انطوى عنده جميع مقامات الرسل بقدر حظه ونصيبه منها؛ لأنه لا يصح لغير نبي أن يرث مقام نبي على التمام أبداً.

وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين إبراهيمي المقام ، وسيدي علي الخواص محمدي المقام ، وسيدي إبراهيم المتبولي محمدياً إبراهيمياً ، فكان تارة يقول: شيخي السيد إبراهيم الخليل ، وتارة يقول: شيخي رسول الله ﷺ.

قلت: ويجمع بينهما بأنه كان تلميذاً في بدايته للخليل عليه السلام ، ثم صار تلميذاً لرسول الله ﷺ في نهايته ، فافهم ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: زهدي في الدنيا ، لكونها مبغوضة لله تعالى لا لعلة أخرى ، من راحة بدن ، أو تخفيف حساب.

وكذلك مما أنعم الله تبارك وتعالى عليّ: زهدي فيما في أيدي الناس ، ليحبني الناس ، فيشفعوا عند ربهم إذا وقعت المؤاخذة على ذنوبي ، لا لعلة أخرىٰ من أمور الدنيا ، وذلك ليس من شرط الفقراء ، أن لا يحبوا شيئاً إلا من حيث الوجه الرباني ، أو الأخروي ، الذي فيه ، حتى لا يخرج شيء من أحوالهم عن محبة الله عز وجل.

وإيضاح ما قلناه: أن الدنيا لما كانت مبغوضة لله تعالى ، لكونه من منذ خلقها لم ينظر إليها ، كما ورد ، وقال لها لما تكلمت: اسكتي يا لا شيء ، وأبغضها الزاهد لأجل بغض الله لها ، جوزي بمحبة الله تعالى له ، وكذلك لما ترك الزاهد للناس ما أحبه ولم يزاحمهم فيما أحبوه أحبوه لذلك ، كما صرح به حديث «**ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**»(١) فانظر هذه الدقيقة ما أخفاها على غالب الناس ، وأما طلب الزهد لراحة القلب والبدن من هم الكسب وعدم الركون إلى القسمة السابقة ، فذلك حاصل للزاهد بحكم التضمن لا بالقصد الأول ، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام «**يا داود: أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت به لنفسك الراحة ، وأما انقطاعك إليّ فقد تعززت به على عبادي ، ولكن أنظر هل واليت لي ولياً ، أو عاديت لي عدواً؟**».

فعلم أن الحب لله ، والبغض لله مرتبة أخرىٰ من وراء مقام الزهد ، وأن من زهد في الدنيا لأجل ما يناله من نعيم الآخرة فليس هو بزاهد كامل؛ لأنه تعوض باقياً عن فان ، فقد انتقل من رغبة فيما سوى الله إلى رغبة أخرىٰ هي أعلى منها ، وكل ذلك جملة من معاملة الأكوان ، فلم تخلص له معاملة الله تعالى ، وإنما يخلص له معاملة الله إذا زهد في مقام الزهد ، بمعنى أنه لم ير له ملكاً لشيء في الدارين حتى يزهد فيه ، وفوق ذلك مقام آخر أعلىٰ وأرقى عند بعضهم ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الزهد في الدنيا (٤١٠٢) ، والديلمي في مسنده (١٧٥٨) ، والحاكم في المستدرك (٧٨٧٣) ، والطبراني في المعجم الكبير (٥٩٧٢) ، والشهاب في مسنده (٦٤٣).

أشار إليه سيدي علي بن وفا رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، بقوله :

تـرحـل عـن مقـام الـزهـد قلبـي ... فـأنـت الحـق وحـدك فـي شهـودي
أأزهـد فـي سـواك وليـس شـيء ... أراه سـواك يـا سـر الـوجـود

فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ، واعمل على تحصيل مقام الزهد لله سبحانه وتعالى ، والله يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حصول مقام التجريد في الباطن ، فليس لي بحمد الله تعالى علاقة في الدنيا أطلبها ، وأتأسف على فواتها ، لعدم شهودي ملكي لشيء من الكونين ، ومن كان كذلك فقد صح له مقام التجريد ، فلو أني خلعت ثيابي الظاهرة المعتادة ، وجعلت على رأسي عرقية فقط ، وفي وسطي خرقة تستر عورتي فقط أو خيشة تدفع عني ألم الحر والبرد فقط ، لما كان عليّ في ذلك لوم ، لمشاكلة ظاهري لباطني الآن ، بخلاف إذا لبست هذه اللبسة قبل حصول التجريد بالباطن ، فإن ذلك يكون من التدليس ، وأوصاف التلبيس ، ومن حبائل إبليس ، وذلك من علامات النفاق ، وسوء الأخلاق ، إذ المنافق هو كل من أظهر خلاف ما أبطن ، على أن تجريد الإنسان من ثيابه الظاهرة من أشق شيء على نفوس أصحاب الرعونات ، خوفاً من احتقار الناس لهم ، ونسبتهم إلى خفة من العقل ، كما جربته في نفسي أول مجاهدتي ، كما مر في الباب الأول من هذا الكتاب.

وقد قال العارفون: فطام العادة أصعب من فطام الرضاعة ، وقالوا: العوائد قطاع على طرق البرية ، يقطعون الطريق على كل سالك ، لكن إذا كمل حال السالك ، وتساوى عنده الجوع والعري وأضدادهما ، فله أن يتجرد عن اللباس ، لتساوي الأمور عنده في نفسه ، ثم إنه يترقى في ذلك إلى أعلى منه ، وهو لبسه الثياب أسوة بأهل حرفته ، طلباً لعدم التمييز ، وخلوصاً من شبكة الرياء وخوفاً من دخوله في حديث «**من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب نار في الآخرة**»[1] ولا شك أن من ستر عورته فقط أو لبس خيشة مثلاً ، فقد تعاطى أسباب الشهرة بتمييزه عن إخوانه ، فلذلك انتهى حال الفقراء بعد الكمال إلى لبس الجوخ ، والصوف ، والمضربات ، والعمائم الرفاع ، طلباً للستر بين العباد ، وإن كان صرف ما زاد عن الحاجة إلى محاويج المسلمين أفضل.

فافهم ، ولا تتجرد عن ثيابك الظاهرة قبل تجريد قلبك من الشهوات النفسانية ، وكلاب الصفات المعنوية ، ونجاسات القاذورات الدنيوية ، وجميع الصفات الشيطانية ، فتهلك في نفسك من حيث لا تشعر ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حفظي من أكل أموال الناس بغير حق ، حين شهدت

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب اللباس ، باب في لبس الشهرة (٤٠٢٩).

أنهم لا يملكون مع الله شيئاً ، أوائل دخولي في الطريق ، وقل من يحفظ من مثل ذلك ، فإن الحق تعالى إذا تجلى في قلب العبد بتوحيد العبد الملك له ، لا يصير العبد يتعقل قط أن أحداً يملك معه شيئاً ، وإن قيل له: إن الله قد حرم أخذ أموال الناس إلا بحقها ، ويقول: ذلك خطاب لمن يشهد أن أحداً يملك معه شيئاً ، وأنا لا أشهد ذلك ، وتصير الشريعة كلها وأهلها يحطون على ذلك العبد ، ويكفرونه ، باستحلاله جميع ما أجمع على تحريمه.

وقد بلغني أن فقيراً من مريدي الشيخ أبي عبد الله القرشي ، مد بصره مرة إلى طعام إنسان ، فطار الطعام ونزل بين يديه ، فأراد أن يفتح فاه ، فيدخل بطنه من غير فعل منه ، فقال له الشيخ: لا تفعل ، فقال: يا سيدي إنما منعني الشرع من أكل ما مددت إليه يدي ، أو جارحة من جوارحي ، وقد تصرف في هذا الطعام مالكه الحقيقي هو الذي حرمه عليك إلا بطريقه الشرعي ، فقف حتى نرسل وراء صاحب الطعام ، ونستأذنه في أكله ، فأرسل وراءه ، فامتنع من إباحته له ، فقال الشيخ للفقير: لا تأكل يا ولدي من شيء حتى يبيحه الحق تعالى لك من الوجهين ، فإن الترقي والنجاة في هذه الدار إنما هو باتباع الشريعة انتهى.

فالحمد لله الذي حمانا من مثل ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم ادعائي مقام المحبة المشهور بين القوم ، لعزة الوصول إليه من غالب الناس ، ومن ادعاه فربما كان ذلك وهماً منه ، وقد كان بعض مشايخنا يقول إذا قيل له أتحب الله عز وجل؟ يقول: نعم أحبه تعالى المحبة المسقطة للحرج الشرعي ، بقدر ما جعل عندي من المحبة له ، انتهى.

وهذا ليس هو المقام المشهور بين القوم لمشاركة الناس كلهم له في ذلك ، وإنما مراد القوم بمقام المحبة أن يكون صاحبه ذا أشواق ، وأتواق ، واحتراق ، ولهف ، وأسف ، وشغف ، وحزن ، وأنين ووجد ، وغرق واصطلام ، وفناء ، ومحق ، وسكر ، وصحو ، وبقاء ، ونحول ، وذبول ، وأرق ، وقلق ، وملق ، وسهر وسهاد ، ووحدة ، وانفراد ، وعزلة ، وانقياد ، وبهتة ، ودهشة ، وحيرة ، وغيبة ، وسكون ، وحركة ، وبلاء ، وضناء ، وبكاء ، وخشوع ، وخضوع ، ودموع ، ونيران ، وأشجان ، ونوح ، وبوح ، وكتمان وسر ، وإعلان ، وشهود ، وخمود ، وجمود ، وإطراح ، وشجن ، وسراح ، وغير ذلك ، فكلها صفات المحب ، أوائل أمره ، وأما صفاته حال توسطه ونهايته فلا تحصر أوصافه ، فإياك يا أخي من دعوى المحبة ، ثم إياك إلا إن كنت كما وصفنا.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول لشخص ادعى أنه مشتاق إليه فقال له: يا أخي ما أحوجك إلى هذا الكذب العظيم ، فقال له: ما ذاك؟ فقال له: من صفات المشتاق أن يكون عامة أوقاته الحرق ، والقلق ، واللهب ، والتعب ، والأسف ، واللهف ، والحزن ، والكمد ، والكآبة ، والأرق ، والسهاد ، والبكاء ، والعويل ، والضعف ،

والسقم ، والنحول ، والغرام ، والحيرة ، والبهتة ، والهيام ، والمحو ، والانعدام ، ونحو ذلك ، ولم أر فيك يا أخي شيئاً من هذه الأوصاف ، فقال له: وماذا أقول إذا رأيتك؟ فقال له: قل السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وإذا سبق لسانك إلى دعوى المحبة أو الشوق فاستغفر الله عز وجل ، فإن مثل ذلك معدود من الكذب الذي لا يجوز.

ثم لا يخفى عليك أن من القوم جماعة كلما ازداد أحدهم محبة ازداد سمناً ، منهم: الشبلي ، والشيخ حماد الدياس ، وأدركت أنا واحداً منهم اسمه إبراهيم المقدسي ، كان كلما ازداد جوعاً كلما سمن ، وكلما أكل كلما هزل؛ وذلك لأن الأكل يحجب صاحبه عن مقام المحبة ، والطي يدخله إليه ، فما كان الناس على طبع واحد في المحبة ، فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: خوفي من وقوع يدي على فرجي من غير حاجة ، إكراماً للقرآن ، وكتب العلم ، والسبحة التي أسبح عليها فلا أمسك شيئاً باليد التي أمسك بها فرجي ، ولقد وقعت رجلي مرة على السبحة فكدت أهلك من ذلك ، ولذلك لازمت لبس السراويل؛ لأن فيها عدم وصول اليد إلى ذكر ، والسترة عن الأرض.

وقد أدركت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى ، وهو على هذا القدم ، وكان رضي الله عنه يقول: إني لأستحي أن أدخل الخلاء بثوب وقفت به في الصلاة ، أو أقرأ القرآن بلسان تكلمت به كلمة قبيحة قال: وربما أترك القراءة زمناً طويلاً حتى أنسى تلك الكلمة ، وكان رضي الله عنه يقول: حكم من يقرأ القرآن بلسان اغتاب الناس به ، حكم من رمى القرآن في قاذورة ، انتهى.

وما رأيت أحداً من أقراني يراعي مثل ذلك إلا قليلاً ، فالحمد لله رب العالمين.

وقد بلغني أن مريداً من مريدي الشيخ نجم الدين الكبرى رضي الله عنه ، وقعت يده على ذكره في الخلوة ، فتوقف عليه الفتح مدة ، وهو يستحي أن يذكر تلك الواقعة للشيخ ، فلما خرج بعد الفتح ، قال له الشيخ: قد علمت بوقوع يدك على ذكرك ، ولكن لما علمت شدة خجلك من ذلك لم أعلمك باطلاعي على ذلك ، ثم قال: يا ولدي كيف يجلس أحدكم بين يدي الله تعالى ، ويضع يده على ذكره؟ أما علمت أن من كان في الخلوة فهو في حضرة الله تعالى ، ولذلك يعملون له طعاماً وعرساً لما يخرج منها؛ لأنه كان في حضرة الله تعالى ، ثم ورد منها علينا فقال: يا سيدي كيف علمتم بذلك؟ وإنما وقعت يدي على ذكري في الظلام ، فقال: يا ولدي لو علمت بأنه يخفى علي شعرة منك ما أدخلتك الخلوة ، فإياك يا ولدي أن تضع يدك على فرجك بغير حاجة ، قال المريد: فما وضعت يدي على ذكري من ذلك اليوم ، انتهى.

وكذلك بلغنا عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه لم يمسك ذكره باليد التي بايع بها رسول الله ﷺ إلا بحائل إلى أن مات رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، فافهم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم مبادرتي إلى إجابة من طلب أن يكون مريداً تحت إشارتي وتربيتي ، لعزة اجتماع شرائط الشيخ والمريد في هذا الزمان ، وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إن صح للشيخ في عمره كله مريد واحد صادق ، فهو أعز من الكبريت الأحمر ، أو وجد المريد الصادق شيخاً ناصحاً ، فهو كذلك أعز من الكبريت الأحمر ، فقلت له: وما صفات المريد الصادق على وجه الاختصار؟ فقال: هي أربع **الأولى**: صدقه في محبة الشيخ ، **الثانية**: امتثال أمره ، **الثالثة**: ترك الاعتراض عليه ولو بالباطن ، في ليل أو نهار أو غيبه أو حضوره ، **الرابعة**: سلب الاختيار معه ، فكل مريد يجمع هذه الصفات الأربع فقد صحت قابليته ، ونفذ فيه الحال ، ونجع فيه الدواء ، وصار كالحراق الناشف بالنسبة إلى الزناد ، ومن طلب من المريد أخذ العهد عليه وحراقه مبلول ، فلا تعلق فيه شرارة الزناد ، بل كل شرارة وقعت عليه طفئت ، وقد قال عز وجل لأكمل الداعين إليه ، وأعظمهم معرفة بأحوال الخلق ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]. الآية ، ومن هنا عدم أكثر المريدين النفع بأشياخهم في هذا الزمان ، لفقد الشروط.

فقلت له: وما شروط الشيخ الصادق حتى يصح الأخذ عنه ، والنتاج على يديه؟ فقال رضي الله عنه: شرطه أن يكون عنده علم يكشف به الحقائق ، والدقائق ، فارقاً بين الحق والحقيقة ، والوهم والخيال ، يعلم ما جاز ، وما وجب ، وما استحال له سريان في العوالم العلويات والسفليات ، عارفاً بالفرق بين إلقاء الملك والشيطان ، والهمة واللمة ، والنفث في الروع ، والإلهام ، وخطوات المريد ونزعاته ، له قوة على التلبس في الصور ، والتطور في الرتب ، والقيام بأوصاف المريد ، ومعرفته بأمراض القلوب والنفوس ، والأسرار ، وتطهير النجاسات النفسانية ، وما يدخل من الظلمات على العوالم الروحانية ، ينظر أحوال مريده من اللوح المحفوظ ، فيعرف داءه ودواءه ، يلاحظ مريده من حين كان في عالم الذر قبل وروده وهبوطه ، إلى أصلاب الآباء وبطون الأمهات ، إلى غير ذلك مما هو مذكور في رسائل القوم ، وهذا الشيخ عزيز وجوده في هذا الزمان ، بخلاف الزمن الماضي.

وقد نقل القشيري في رسالته ، عن أبي علوان قال: خطر لي شهوة محرمة بين يدي الله تعالى في الصلاة فاسود وجهي ، فدخلت الحمام ، وغسلته فلم يزدد إلا سواداً ، فأرسل لي شيخي الجنيد فقيراً من بغداد ساعة خطور تلك الشهوة على قلبي ، فأخذني إلى بغداد ، فلما وقفت بين يديه ، قال: مثلك يقف بين يدي الله ، وتخامره الشهوة ، لولا أني استغفرت لك للقيت الله بذلك السواد.

فانظر يا أخي اطلاع الجنيد وهو ببغداد على خواطر مريده وهو بالبصرة ، رضي الله تعالى عنهما ، فعلم أن من جمع هذه الصفات المذكورة ، فله أخذ العهد على المريد ، وإلا فالأدب منه عدم التمشيخ على أحد ، ويكفيه أن ينصح أخاه بظاهر الشرع من غير مشيخة عليه ، وربما رأىٰ المريد نقصاً في شيخه فيسقط من عينه ، فيسقط المريد من عين الله ، فافهم يا أخي ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: رؤيتي نفسي عقب كل مجلس جلست فيه مع الفقراء أنني أكثر ذنوباً منهم ، وكثيراً ما أقول: اللهم إني أعترف بين يديك بأني أكثر هؤلاء ذنوباً فبحق أنفاسهم الطاهرة اغفر لي ، فإن نبيك ﷺ أخبرنا أنهم «**هم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم**»(١) ولذلك كان من أشد ما يقع لي ذلك عند تقبيلهم يدي بعد المجلس، فأكاد أذوب من ذلك؛ لأنهم يفعلون ذلك مع غفلتهم عن مشهدي ، ولو أنهم علموا شدة تأثري لما فعلوا ذلك معي ، فالله تعالى ينفعني ببركاتهم ، وربما أصافحهم في بعض الأوقات وأمسح بيدي على وجهي تبركاً بما لمسته من يدهم، لا سيما الأطفال والعميان ، انتهى. فافهم ذلك ، واعمل عليه ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

* *

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الدعوات ، باب فضل ذكر الله عز وجل (٦٤٠٨) ، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل مجالس الذكر (٢٦٨٩).

الباب الثاني عشر
في جملة أخرى من الأخلاق المحمدية

فأقول ، وبالله التوفيق ، وهو حسبي وثقتي ومغيثي ، ومعيني ، ونعم الوكيل:

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إيثار جناب الحق جل وعلا على جناب نفسي ، في عدم تمكيني لمريدي أن يرسخ محبتي في قلبه ، وهذا أمر قل من يتنبه له من الأشياخ والمريدين ، فيجب على الشيخ أن يأمر المريد بمحبته من حيث كونه واسطة بينه وبين الله تعالى ، مع عدم الوقوف معه ، فربما تخلف الفتح على المريد بسبب ذلك.

ومما وقع: أن مريداً لسيدي الشيخ أبي مدين المغربي رضي الله تعالى عنه ، كان على قدم عظيم في الاجتهاد ، وهو مع ذلك لا يفتح عليه ، فنظر سيدي أبي مدين في أمره ، فقال: يا ولدي إن أردت سرعة الفتح فارفع محبتي من قلبك فإني نظرت جميع الحجب التي بينك وبين الله تعالى فوجدتها كلها قد ارتفعت ، وما بقي بينك وبينه إلا حجاب محبتي ، فارفعه يفتح عليك ، ففعل ، ففتح الله عليه تلك الليلة ، انتهى.

فانظر يا أخي إلى هذه النصيحة التي لا يكاد أحد يطلع على وجهها من شدة خفائها ، ومن هنا قال الشيخ أبو مدين أول رسالته: ليس للقلب إلا وجهة واحدة ، متى توجه إليها حجب عن غيرها ، انتهى ، فانظر يا أخي ، ما أخصر هذه الكلمة وما أكثر معانيها ، فاعلم ذلك ، واعمل عليه فإنه نفيس ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة إرشادي لفقراء الأحمدية والبرهامية وغيرهم من أصحاب الخرق ، أن يتتلمذوا لشيخ يربيهم من الأحياء ، ولا يتقيدوا على من مات ، فإن الأموات صارت وجهتهم في البرزخ إلى الآخرة ، وظهرهم إلى الدنيا ، فلا عليهم إن خربت الدنيا أو عمرت ، اللهم إلا أن يكون ذلك الشيخ ممن يُقتدى به في أقواله كالأئمة المجتهدين وأصحاب الرسل ، فمثل هذا لنا الاقتداء بأقواله ، لكنه اقتداء ناقص من حيث أن لكل واحد منا أمراضاً لا تعرف إلا بالمشافهة من شيخ حي ، يدلنا على كيفية الدواء ، ويخاطبنا ونخاطبه.

وممن بلغنا أنه يربي مريده وهو في البرزخ ، سيدي أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه ،

لكن ذلك خاص بمريده الصادق الذي يسمع كلامه من القبر كسيدي وشيخي الشناوي رحمه الله تعالى ، فإني زرت معه سيدي أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه ، فشاوره الشيخ محمد على سفره إلى مصر في حاجة ، فقال له سيدي أحمد البدوي من القبر سافر وتوكل على الله تعالى ، هذا كلام سمعته أنا بأذني الظاهرة.

وكذلك بلغني عن الشيخ عز الدين الأصفهاني: قال: كنت أجتمع بسيدي أحمد الرفاعي في المنام كثيراً فيأمرني وينهاني ويربيني ، فقال لي يوماً: لست أنا بشيخك الذي يفتح عليك على يديه ، وإنما شيخك عبد الرحيم القناوي ، فسافرت إليه ، فأول ما اجتمعت به ، حكى لي جميع ما وقع لي في المنام مع سيدي أحمد الرفاعي ، ثم قال لي: لا أصحبك حتى تصير ترى رسول الله ﷺ يملأ الوجود كله ، فقلت له: وما السبيل إلى ذلك؟ فقال: سافر إلى بيت المقدس ، فإنك ستراه كذلك ، ثم تعال ، ففعل ثم جاء ، فقال له: ما وصل أحد لشيء من المقامات إلا بعد شهوده ذلك ، انتهى.

فمن صح له هذا القدم فلنا الكف عن أمره ، بأن لا يتتلمذ لأحد من الأحياء لاكتفائه بذلك الشيخ ، وقيامه مقام الحي في الخطاب والمراجعة في الأمور.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا يجوز العمل بقول الأشياخ الذين ماتوا إذا تصور أنهم خاطبوا مريدهم بأمر أو نهي ، إلا بعد عرض ذلك على علماء الشريعة ، فربما كان الناطق من القبر شيطاناً لعدم عصمة الولي عن مثل ذلك ، وكان رحمه الله تعالى يقول كثيراً: لا يشترط في صحة الاقتداء بأقوال العلماء معرفة صورتهم الظاهرة ، فإننا قد اقتدينا برسول الله ﷺ ، وبأصحابه ، وبالأئمة بعدهم ، وما أحد منا اجتمع بأحد منهم ، ولم يمنع جمهور العلماء من مثل ذلك.

فعلم أن الاحتياط للفقير أن لا يأخذ عن شيخ ميت أمور تربيته ، وأدوية أمراضه ، فافهم ذلك ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم مبادرتي للإنكار على أحد من أهل الكشف ، إذا رأيته ضرب مريده بغير سبب ظاهر ، بل أتربص وأترك الإنكار ، فربما كان ذلك المريد قد تقدم منه أنه حكم ذلك الشيخ في نفسه ، يؤدبه بما شاء كيف شاء ، ومن هذا الباب أيضاً ما إذا رأينا شيخاً أمر مريده بحلق لحيته مثلاً فربما كان ذلك امتحاناً من غير تمكينه من حلقها ، كما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام في أمره بذبح ولده ، وهذا الأمر قل أن يتربص فيه متشرع ، بل يقول ببادئ الرأي: هذا لا يحل لك ، ايش جرى منه؟ ونحو ذلك.

وقد حكى صاحب كتاب التوحيد: أن بعض الأولياء كان يتكلم في مناقب شيخ ، وكان هناك فقير مشهور بالصلاح يسمع ، فنزل الشيخ من على الكرسي ، فضرب ذلك الفقير على

رأسه ثلاث ضربات ، فأنكر الحاضرون ذلك عليه ، فضربه ثانياً ، فلما أنكروا عليه ، قال الشيخ: قولوا له الله عليك ، أما قلت في نفسك إنني أفضل من هذا الشيخ الذي يذكره فلان؟ فقال الفقير: قد وقع ذلك ، فقال الشيخ: والله لقد رأيت ذلك الشيخ أخرج رأسه من هذا الحائط ، وقال لي: أنظر مريدك كيف يسيء الأدب عليّ ، فما وسعني إلا تأديبه ، فما ضربته لكوني شيخه ، إنما ذلك من باب أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقام الحاضرون كلهم ، واستغفروا ، وجددوا العهد على الشيخ ثانياً. قال: وكان ذلك الشيخ الذي أخرج رأسه له نحو مائة سنة ميت ، انتهى.

ووجه عدم المبادرة إلى الإنكار في مثل ذلك ، علمنا بأن الشيخ مع المريد كالطبيب مع المريض ، بل هو أعرف بالأمرض الباطنة منه ، والكبر وهو من الأمراض القلبية ، وهو أشد الأمراض؛ لأنه يحجب صاحبه عن الخير مدة حياته ، وعن دخول الجنة ، كما ورد فلما ادعى المريد الولاية ، وفضل نفسه على الأولياء ، استحق التأديب ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقد ذكر الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: أن من الذنوب ما يورث سوء الخاتمة ، وهو ادعاء الولاية مع فقدها منه ، فلعل الشيخ ضربه تلك الضربات ليستخرج من نفسه تلك الدعوى ، ولذلك نظائر في الشرع؛ لأن للطبيب أن يقطع بعض الأعضاء لسلامة الجسد والروح ، كأن يكون في الإصبع أكلة ، فإن تركها أكلت الكف ، وإن كانت في الكف وتركها أكلت الذراع ، ومتى لم يقطعها أفسدت ذلك العضو جميعه ، أو سرت للروح ، فمات الشخص ، فاعلم ذلك، واعمل عليه، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم إجابتي لأمير أو شيخ عرب طلب أن يتتلمذ لي ، إلا إن علمت منه الصدق الحامل له على فعل ما أمرته به ، واستعمال ما أصفه له من الدواء ، ومتى أجبته إلى ما طلب من غير ذلك فقد غشّيته وغشّيت نفسي ، ولعبت بالطريق.

وقد وقع في ذلك فقراء العصر المتصدرين بغير حق ، فأخذ العهد على بعض الأمراء والمباشرين ، فلم يمتثل أحد منهم ما أمره به.

وحكى لي بعض المباشرين ، قال: شرط علي شيخي عدة شروط فلم أعمل منها بشرط؛ لكوني رأيته هو لا يقدر على العمل بها ، وقد كان هذا الأمر في الفقراء الماضين ، والأمراء الماضين ، فكان الأمير يتتلمذ لذلك الفقير ، ويمتثل أمره في كل شيء يذل به نفسه من غير توقف ، وهذا أمر قد تودّع منه ما بقيت الدنيا.

وقد كان سيدي يوسف العجمي رحمه الله تعالى شيخاً للأمير شيخون ، الذي عمر الشيخونية ، وكان يمتثل أمره ، ويجلس بين المريدين كأحدهم ، وربما يزجره بالكلام اليابس بين الفقراء ، فيصبر ، وأمره مرة أن يلبس لبس فلاح ، ويركب ويدخل الزاوية ففعل.

وكذلك وقع لسيدي محمد الحنفي الشاذلي رضي الله تعالى عنه: أنه كان يستخدم أميراً كبيراً ، ويأمره بنزع ثيابه وبملء المطهرة للفقراء من البئر فيفعل.

وكذلك وقع للأمير أبي شعرة من أمراء الملك الكامل: أنه كان تتلمذ للشيخ عبد الله ابن الماردانى فكان يستخدمه كآحاد المريدين ، ودخل عليه مرة وعليه خلعة السلطان ، فصفعه الشيخ ، فرمى عمامته ، فطأطأ الأمير فأخذها فصفعه أخرى ، فرمى عمامته فتشوش لذلك جماعة الأمير وهو ساكت ، فغضب الشيخ ، وقال له: لا تعد تأتنا ، فما أطاق غضب الشيخ ، فتشفع بزوجته عنده ، فقال الشيخ: هذا شخص كبير النفس ، فإن أراد طيبة خاطري عليه فليجعل على ظهره برذعة ، ويمكن الفقراء من ركوبه ، ففعل ذلك.

فانظر يا أخي إلى هذه الأدوية من هؤلاء المشايخ ، واستعمال الأمراء ما يأمرونهم به ، فإن كنت تعرف من نفسك ومنهم مثل ذلك فتمشيخ على الأمراء ، وإلا ضحك الناس عليك ، وربما ينسبك الناس إلى الزوكرة والنصب ، وأنك إنما تصحبهم لشيء يتصدقون به عليك ، وذلك ينافي شهادة الأشياخ ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: سلبي من الحال التي تؤثر فيمن جنى عليّ ، فلو قام الوجود كله عليّ بالأذى ما قابلت أحداً منه ، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليّ ، وصاحب هذا الحال يخفى بعد الشهرة ، ويذل بعد العز ، ويفتقر بعد الغنى ، فلا يكاد أحد يميزه عن آحاد الناس ، مع أنه أعلى من صاحب الحال ، خلاف ما تتوهمه الناس ، فليس عندهم شيخ عظيم إلا من يعطب الناس ، والحال بخلاف ذلك ، فإن الكامل لا تصرف له في الوجود ، أدباً مع الله تعالى ، فيسطو عليه كل شيء في الوجود ، ولا يسطو هو على أحد.

ولما سرقوا ستر سيدي أحمد الزاهد الموضوع على تابوته ، صار الناس يقولون: لو كان هذا شيخاً لقيد من سرق ستره حتى تمسكه الناس ، فقلت لهم: مرتبة الكامل أن لا يؤذي من آذاه ، ولا يشح بشيء سئل فيه ، ولو أن هذا اللص سأل أحمد في ستره ، أو في الثياب التي عليه حال حياته لأعطاها له ، ورآها أقل من ذكرها ، فكيف يقيد مسلماً موحداً لأجلها حتى يأتي الناس فيمسكوه ، ويسلموه للوالي ، هذا لا يكون من الشيخ أبداً ، ولم تزل الكمل من الأشياخ لا تصرف لهم ، وبعضهم يقول لمريده: تصرف في فلان بكذا ، أو كف فلاناً عن ظلم فلان ، فيفعل.

وكان على هذا القدم سيدي حسين الجاكي وسيدي إبراهيم المتبولي ، وسبقهما إلى ذلك الحسن البصري ، فحكى أبو طالب المكي في القوت: أن الحجاج بن يوسف لما طلب الحسن البصري ، استجار الحسن بتلميذه حبيب العجمي ، فدخل رسل الحجاج فلم يروا الحسن مع أنه جالس تجاه الباب ، فقال الحسن لحبيب. كيف أخفيتني عنهم حتى لم يروني؟

فقال: قلت: يا رب الحسن اجعل الحسن عندك في حضرتك ، حتى لا يروه ، ففعل سبحانه ذلك ، مع أن الحسن أفضل من حبيب بما لا يتقارب؛ لأنه من أكابر التابعين ، انتهى.

وبلغنا أن سيدي حسيناً الجاكي ، لما عقد له الفقهاء مجلساً في القلعة ، ومنعوه من الجلوس للوعظ، وقالوا: إنه يلحن في الحديث، قال لخادمه أيوب: اعزل لنا القاضي الذي أفتى فينا، وكان أيوب يكنس الزاوية، فقال: على الرأس والعين، فخرج للسلطان من حائط بيت الخلاء وهو جالس يقضي حاجته ، فقال: إن لم تعزل فلاناً خسفت بك الخلاء ، فارتعب منه السلطان ، وأرسل في عزل القاضي ، ودخل أيوب في الحائط.

وكذلك بلغني أن سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه كان يأمر بعض جماعته فيفعل الأفاعيل ، وينزه هو نفسه عن ذلك.

فعلم أن الكمل يستحيون من الله تعالى أن يضيف الناس إليهم شيئاً من التصريف ، بخلاف أرباب الأحوال ، فإنهم في تجليات الحضرة ، وهي فياضة بالجود على كل وارد ، فكل من طلب شيئاً أعطيه ، وربما كان ينقص مقامه عند الله تعالى.

وتأمل يا أخي: العقرب ، والبرغوث ، والقملة ، والنملة ، كيف تؤثر في الإنسان مع أنه أشرف منها بالإجماع ، فلم يدل تأثيرها فيه على تفضيلها عليه ، فاعلم ذلك ، لكن لا يخفى أن الكمل حيث تركوا التصريف إنما هو من حيث لم يؤمروا به ، فإن أمروا به فمن الكمال التصريف ، إلا أن يكون على سبيل العرض ، أو برؤية منام ، كما وقع لي ذلك على لسان الشيخ الصالح عمر النبتيتي المكشوف الرأس ، فإنه رأى رسول الله ﷺ ، وقال له: قل لفلان: يتصرف في الكون ما دونه مانع ، فلما عرض ذلك علي توقفت أدباً ، لكون ذلك رؤيا منام ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تربيتي لخواص أصحابي بالنظر من غير لفظ ولا إشارة ، فيؤثر نظري إليهم في الخير كما يؤثر عن المعيان في غيره الشر ، كل ذلك بجعل الله وإرادته ، فله أن يجعل عبداً آلة في الخير ، وعبداً آخر آلة في الشر.

واعلم يا أخي أنه ليس لي خصوصية بهذا الخلق ، فقد سبقني إلى ذلك سيدي أبو الحسن الشاذلي وسيدي أبو العباس المرسي ، وسيدي إبراهيم المتبولي ، وسيدي علي الخواص ، رضي الله تعالى عنهم.

وقد كان سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه يقول: إذا كانت السلحفاة تربي أولادها بالنظر ، فنحن أولى بذلك ، انتهى.

وصورة تربيتها أولادها ، أنها تبيض وتبعد عن بيضها ، وتصير تلحظه بنظرها ، فكل

بيضة توارت عنها فسدت ، وكل بيضة ظهرت لها صلحت ، وتم نتاجها ، ثم إذا خرج فرخها من البيض تدفئه وتبقي منه رأسه فوق الرمل ، فما دامت تراه فهو محفوظ من الآفات . ولم يزل أصحاب الفقير على أقسام وطبائع ، فمنهم اللين الطبع ، ومنهم اليابس القاسي ، فتراهم يربون أصحابهم تارة بالأقوال ، وتارة بالأفعال ، وتارة بالإيلام ، وتارة بالإيماء والإفهام ، وتارة بصريح الكلام ، وتارة بالرؤيا والمنام ، وتارة بالأمراض والسقام ، فإن الشيخ إذا عرف العلة ودواءها يجب عليه أن يتبعها بالدواء ، مصلحة للمريد ، ولا عليه إن كان ذلك مراً على النفس أو حلواً لها ، ومتى أخر الدواء من غير ضرورة فقد خان الله تعالى فيما ائتمنه عليه ، وإذا رأى عند المريد عجزاً عن استعمال الدواء الذي وصفه له ، وإباية عن استعماله ، فمن أخلاق الكمل أن يلاطفه ويداويه بشيء آخر يسارقه به ، ولكن ينبغي للمريد أن يتفطن لما يفعله معه شيخه ، فإن رآه يلاطفه في جميع أحواله ويوافقه في هواه ، فليعلم أنه مكر به حيث رآه لا يصلح للطريق ، فإياك يا أخي ومكر الشيوخ ، وأقدم على كل ما يصفونه لك ، وتجرع كاسات الألم والمرارات ، فإن العز في ذلك المستور ، والذل في حلاوة الدنيا مشهور ، وقد أنشدني سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالى :

ولو قيل طأ في النار والنار جمرة ... لها لهيب يرمي الشرارة كالقصر
لما كان لمح البرق أسرع أن يرى ... بأسرع مني في امتثالي للأمر

وأنشدني سيدي محمد الشناوي رحمه الله تعالى :

ولو قيل لي مت مت سمعاً وطاعة ... وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحبا

وممن ربيته بالنظر من الإخوان : سيدي محمد بن الموفق ، كاتب ديوان الجيش ، وسيدي محمد بن الأمير ، شيخ سوق أمير الجيوش ، وسيدي أبو الفضل صهر سيدي محمد الحنفي ، وسيدي أبو الفضل الجزيري القباني ، وسيدي علي ابن أمير كبير أزبك ، وسيدي أبو بكر بن أبي بكر بن أبي أصبع ، وأخوه سيدي محمد ، والحاج علي المنوفي ، والحاج علي البسطي ، وجماعة لم يؤذن لنا في ذكر أسمائهم رضي الله تعالى عنهم ، وما رأيت أتعب من تربية الشيوخ الذين طعنوا في السن ، فإنه لا يليق ضربهم ولا هجرهم ولا استخدامهم ، لا سيما إن كانوا يعتقدون في نفوسهم الصلاح ، فإنهم لا يكادون ينتفعون بصحبة أحد ، وكذلك أصحاب النفوس الشكسة المشحونة بالرعونات ، فربما لا يؤثر فيها إلا الضرب المؤلم ، والهجر الشديد ، كبيت الوالي ، فأسأل الله تعالى أن ينظر إليّ وإلى جميع أصحابي الذين انتفعوا بصحبتي باللطف والرحمة ، إنه المنعم الجواد ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ : إطلاعه تعالى لي على عدد أصحابي الذين انتفعوا بصحبتي ، ويكونون معي في الآخرة ، وهي بشرى معجلة في هذه الدار وعرفتهم وأنسابهم ، ولكن لم يؤذن لي في تعيينهم ، أدباً مع حضرة الإطلاق التي يفعل الله منها

ما يشاء ، ولكل فقير دائرة ، كما أن لكل نبي دائرة ، ثم إن الدوائر تختلف سعة وضيقاً بحسب الإرث النبوي.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه ، في الفتوحات المكية: أن الله تعالى أطلعه في مشهد القدس على عدد الأنبياء والمرسلين ، وجميع أممهم وعرفهم بوجوههم من مات ومن يوجد إلى يوم القيامة ، وعلى عدد أهل الجنة ، قال: وأما عدد أهل النار فلا يحصيهم إلا الله لكثرتهم ، انتهى.

وقد نقل الفارقي: أن حلقة مريدي سيدي أحمد الرفاعي كانت ستة عشر ألفاً وكان يمد لهم السماط صباحاً ومساء ، قال الفارقي: ولما وردت عليه كان لي ثمانون يوماً لم آكل طعاماً ، فمد للفقراء طعاماً لا يناسبني ، فقلت في نفسي: ماذا أصنع إذا قال لي الشيخ: كل من هذا؟ فما أتممت خاطري إلا وقد رفع الشيخ رأسه ، فقال للخادم: خذ هذا للبيت فأطعمه العصيدة التي هناك ، قال: فمضيت معه ، فأكلتها وهي التي كانت خطرت لي في خاطري ، فلما جئته قال لي: فتوحك ليس هو عندي ، وإنما هو عند الشيخ عبد الرحيم القناوي ، فامض إليه ، انتهى.

وحكى لي الشيخ أحمد الضرير من جماعة سيدي عمر روشني ، قال: كان عدد مريدي سيدي عمر الذين يحضرون مجلس الذكر صباحاً ومساء عشرة آلاف ، وكان الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور يقول: إن جماعة الشيخ أبي الفتح الواسطي بمدينة الإسكندرية، الذين كانوا يحضرون ورده كل يوم خمسة آلاف ، منهم الشيخ عبد العزيز الديريني رحمه الله ، والشيخ عبد الله البلتاجي ، والشيخ عبد السلام القليني ، والشيخ عبد الله الجيلي ، والشيخ ضرغام المسيري ، وغيرهم ، وكان الشيخ أبو الفتح من أعظم تلامذة سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه ، وكان يتكلم عن أرباب الأحوال ، ويقول: اسمعوا هذا الكلام الذي له خمسة آلاف سنة ما تكلم به أحد غيري.

وروى الفارقي أن يعقوب خادم سيدي أحمد بن الرفاعي نفعنا الله ببركاته ، ورضي عنه أنه قال: سمعت سيدي أحمد بن الرفاعي ، يقول: صحبت ثلاثمائة ألف أمة ممن يأكل ويشرب ، ويروث ، وينكح ، لا يكمل الرجل عندنا حتى يصحب هذا العدد ، ويعرف كلامهم ، وصفاتهم وأسماءهم وأرزاقهم وآجالهم ، قال يعقوب الخادم: فقلت له: يا سيدي إن المفسرين ذكروا أن عدد الأمم ثمانون ألف أمة فقط ، فقال: ذلك مبلغهم من العلم ، فقلت له: هذا عجب ، فقال: وأزيدك أنه لا تستقر نطفة في فرج أنثى إلا ينظر ذلك الرجل إليها ، ويعلم بها ، قال يعقوب الخادم: فقلت له: يا سيدي هذه صفات الرب جلا وعلا ، فقال: يا يعقوب استغفر الله تعالى ، فإن الله تعالى إذا أحب عبداً صرفه في جميع مملكته ، وأطلعه على ما شاء من علوم الغيب ، فقال يعقوب: تفضلوا علي بدليل على ذلك ، فقال سيدي

أحمد: الدليل على ذلك قول الله عز وجل في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»[1] إلى آخره وإذا كان الحق تعالى مع عبده كما يريد صار كأنه صفة من صفاته، انتهى.

وهذا أمر تحار فيه العقول، هذا مع كون سيدي أحمد كان في غاية الذل في نفسه، وكان الشيخ أبو الفتح الواسطي مع كثرة تلامذته الزائدين على الألوف لا يصحب إلا أرباب الأحوال، قال الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور: ولما استأذنت سيدي الشيخ عبد السلام القليبي على باب سيدي أبي الفتح الواسطي، وكان قد سكن في مصر، وأذن له وكلمه كلاماً حسناً، وأعجب به، فقال له الشيخ صفي الدين: كيف عرفت حال الشيخ بغير أحد يدلك عليها، فقال: اجمع لي حطباً وحلفاء، فجمع له، وقال: اجج النار، فأججها، ثم دخل فيها سيدي عبد السلام زماناً حتى طفئت، ثم قال له: عانقني، قال الشيخ صفي الدين: فعانقته، فوجدت جسمه كالثلج.

فانظر يا اخي إلى أصحاب سيدي أحمد، وسيدي أبو الفتح، تعرف أن المريد لا يسقي إلا من ماء شيخه، فأصحابنا على شاكلتنا، وأصحاب من مضوا على شاكلتهم، وكل ذلك بحسب القسمة، وكل يشكر الله عز وجل على ما أعطاه، وربما يكون كل واحد من جماعة فقير مقوماً بألف نفس من جماعة فقير آخر، فافهم ذلك، والله تعالى يتولىٰ هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تقريب الطريق على الصادقين من أصحابي، وذلك باشتغالهم بالتوحيد، دون التنفل بالصلاة، وتلاوة القرآن، ونحو ذلك؛ لأن هذه الأمور إنما هي أوراد الكمل، الذين قد عرفوا الله تعالى المعرفة النسبية، وأما غير الكمل فتعبدهم بغير التوحيد عادة لا عبادة، لجهلهم بالله تعالى، وما دام العبد ينسب الأمور لنفسه ذوقاً، وإلى الله تعالى علماً، فهو محجوب بسبعين ألف حجاب، فإذا رفعت الحجب شهد أفعاله كلها خلقاً لله تبارك وتعالى، ذوقاً بادئ الرأي دون نفسه.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا يكمل حال المريد ويدخل مبادئ الطريق حتى يشهد أفعاله كلها لله تعالى ذوقاً، وأما علمه أنها من الله تعالى إذا حققت معه المناط، وراجعته فيه، فلا يكفيه، إذ ليس العلم كالوجدان والذوق، كما أن المتكلم بالصبر عن ذوق لطعمه ليس هو كالمتكلم من غير معرفة طعمه، وكذلك القول في طعم العسل، ولذع النار، ليس المتكلم بحروفهما كالذائق لهما، قال: وأكثر المريدين حكمة حكم من يعرف الأمور بالكلام، فلا يثبت لهم قدم في توحيد أفعالهم لله تعالى، ولذلك

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢).

ينسبون أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم إلى أنفسهم ، ويطلبون الجزاء على ذلك من الله تعالى ، كالبيع والشراء على حد سواء ، وكذلك يطلبون الجزاء من الخلق إذا أجرى الله على أيديهم إحساناً لهم ، ويأخذون في التغيظ على الخلق إذا وقع منهم شيء ، مما يؤذيهم ، ويحقدون على من آذاهم ، فلولا غفلتهم عن الله تعالى ما وقع منهم شيء من ذلك ، فهم ولو كانوا يعلمون أن الله تعالى هو الذي قدر وأراد جميع ما يقع من الخلق في حقهم ، لا يقوم ذلك في نفوسهم مقام الذوق والوجدان ، ولو كانوا يذوقون ذلك ما تأثروا من أحد آذاهم من الخلق ، فهذا هو الفرق بين العلم والذوق ، فعلم أنه لا يصفو لعبد التوحيد حتى يصير لو جلس إنسان يقطع من لحمه ما تغير عليه ، لغيبته عن صفات الخلق بشهود أفعال الحق.

فتأملوا أيها الإخوان في هذا التحقيق ، واعملوا على جلاء مرآة قلوبكم ، فإن الله تعالى لا يرضى عنكم إلا بتوحيد الأمور له ، ما عدا نسبة التكاليف ، والله يتولىٰ هداكم ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: أنني ما خرجت في سري لأحد عن شيء ورجعت فيه ، ولو كانت عمامتي أو جوختي أو مضربتي ، وربما أعمل بالخاطر الأول في نزعها بسرعة خوفاً من تغير الخاطر عليه ، فيصير في دفعها علة ، فإن الخاطر الأول من الله تعالى لا علة فيه ، بخلاف الثاني ، وربما نزعت جبتي وأنا في بيت الخلاء وأقول لعيالي قد خرجت لفلان عن هذا الثوب ، فأتيني بخلافه ، لا سيما إن كنت خرجت عنه لأحد من الفقراء الصادقين.

وقد حكى الشيخ عبد العزيز الديريني رحمه الله تعالى: أن شخصاً صحب الشيخ حسن الطندتائي الاختائي مدة ، وكان الشيخ حسن هذا من أصحاب سيدي أبي الفتح الواسطي ، فجمعتهما القدرة في بيت أيام شدة البرد ، فخرج ذلك الشخص لسيدي حسن عن قميص كان عليه زائد ، وشرع في نزعه ، ثم أدخل رأسه ثانياً ، ونام كل ذلك في سره ، فاستيقظ من الليل ، فوجد الشيخ جالساً ، ولم يجد القميص ، فمسك الشيخ حسن أذنه وقال له: لا تعد تنوي نية وترجع فيها أبداً ، فقال: أستغفر الله تعالى ، ثم قال: يا سيدي أين القميص؟ فقال: ذاك أعدمه الله تعالى لرجوعك فيه ، وهذا الخلق قليل من الإخوان من يفعل به ، فافهم ذلك ، واعمل عليه ، والله يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة أدبي مع كل من تزيا بزي القوم ، فألزم الأدب معه في جميع حركاته وسكناته ، وقبضه وبسطه ، ويقظته ومنامه ، وحياته وموته ، وسماعه وضحكه ، وقربه وبعده ، وسفره وحضره.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله تعالى عنه يقول: إذا ضحك الفقير في وجه أحدكم فاحذروه ، ولا تخالطوه إلا بالأدب ، فإن أهل الطريق ربما مزحوا كما يمزح الناس وهم في ذلك مع الله لا مع الناس ، وربما فعلوا ذلك تستراً لأحوالهم أو تجريباً لظاهرهم ،

ليدفعوا بذلك من يستحق الطرد عنهم ، وربما أساء بعض أرباب الأحوال الأدب فسلب عن حاله مع رسوخ قدمه ، فكيف بمن لا رسوخ له.

وقد حكي عن سيدي عمر المجنون ، وكان من أصحاب الشيخ أبي الفتح الواسطي رضي الله تعالى عنه أنه قال: بينما أنا أصب الماء على سيدي عبد الله البلتاجي ، وإذا بشخص طائر في الهواء فوق رأس سيدي عبد الله البلتاجي ، فقلت: يا سيدي شخص طائر في الهواء قليل الأدب ، فقال: ما عليك منه ، سوف ترى عاقبته بعد مدة ، قال سيدي عمر: فبعد مدة قال لي سيدي عبد الله البلتاجي: امض إلى المحلة ، فانظر حال ذلك الطائر ، قال: فمضيت إليه فوجدته مسلوباً من حاله ، وهو واقف على عصا بين يدي الكاشف ، ثم ابتلاه الله بالعمى ، والإنكار على الطائفة إلى أن مات على أسوأ حال.

فإياك يا أخي وسوء الأدب مع من تراه مصفوعاً في الأسواق ، أو يتعاطى الحكايات المضحكات ونحو ذلك ، والزام الأدب وإن نصحته على أمر فانصحه بأدب ، فإنه لا يعطيك إلا خيراً ا هـ.

واعلم يا أخي أن أدبنا مع من ينسب إلى الصلاح إنما هو أدب حقيقة مع الله تعالى ، أو مع رسوله ﷺ ، فإن الولي لا يخلو من مجالسة الله تعالى ، أو مجالسة رسوله ﷺ في أغلب أحواله.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من زعم أنه يتأدب مع الله تعالى بلا واسطة شيخه ، أو رسول الله ﷺ ، فقد أساء الأدب ، ثم لا يتم ذلك له أو لا يستمر على الدوام معه ، بخلاف الأدب مع الله تعالى مع شهود الوسائط فإنه يدوم.

وسمعته مرة أخرى يقول: رفع الوسائط الظاهرة والقلبية بالكلية لا يكون إلا للأفراد من الخواص ، لقوة حضورهم ، وشدة مراقبتهم.

وتقدم في هذه المنن مسألة حيائي من الوقوف بين يدي الله تعالى في صلاة وحدي ، في ليل أو نهار ، وذكرنا أن رسول الله ﷺ لما عمته الهيبة ليلة الإسراء ، حين أفرده جبريل نفس الله تعالى عنه بسماع صوت يشبه صوت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، يقول: «يا محمد قف إن ربك يصلي»[1] مثل قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]. فراجعه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كراهتي لوقوع الخوارق على يدي في هذه الدار ؛ لأن محل ذلك إنما هو الدار الآخرة ، فمن تعجل من ذلك شيئاً فقد اختار العرض الفاني على

(١) أخرجه الذهبي في ميزان الاعتدال ٦/ ٣٦٦

الجوهر الباقي ، لكن وقوع الخارق لا بد منه للفقير ولو مرة واحدة بشرى له من الله تعالى أنه من أهل الجنة ، فإن أهل النار لا يقع على أيديهم خوارق ، لعدم دخولهم الجنة .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا تنخرق العوائد لأهل الجنة ، بل جميع ما يقع لهم عادة لا خرق فيها ، فلا يسمى ما يقع لهم فيها خرق عادة ، سواء كانت في المناكح أو المطاعم أو المشارب ، أم غير ذلك من الشهوات ، حتى إن الشخص من أهل الجنة تخطر له شهوة فيجدها حين خطورها عنده من غير كلفة ، وكذلك القول في سمع أهل الجنة وبصرهم ، فيشهد كل واحد منهم جميع المستحسنات على اختلاف أنواعها وأجناسها ، ويتلذذ بشهوده لتلك المستحسنات ، فإذا نظر إليها ثانية ازداد لذة مع بقاء لذة النظرة الأولى ، فإن نظر ثالثاً زادت اللذة على الأولىٰ والثانية ، وهما باقيتان ، وهكذا إلى ما لا نهاية له ، وكذلك القول في الشم ، كلما استنشق رائحة ورد عليه ثانياً رائحة أطيب من الأولى ، مع بقاء ريحها ، وهكذا القول في لذة سماع النغمات والألحان ، وحسن الأصوات ، كلما تنعم بسماع نغمات ورد عليه ما هو أطيب منها ، والأولىٰ باقية ، وهكذا القول في لذة النكاح ، كلما تنعم بلذة المنكوحات المستحسنات ورد عليه ما هو أشد لذة من المرة الأولىٰ ، مع بقاء الأولى ، وهكذا القول في جميع الحواس الظاهرة والباطنة ، الحسيات والمعنويات ، كل لذة تطرأ تتضمن ما قبلها من اللذات ، وعلى عكس ذلك أهل النار ، فلا يتألم أحدهم من شيء إلا ويطرأ عليه ما هو أشد ، وهكذا أبد الآبدين ، أعاذنا الله والمسلمين من ذلك ، فافهم ذلك ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: رؤيتي أولاد أصحاب رسول الله ﷺ بالعين التي كنت أرى بها والدهم لو أدركته ، حتى كأني بحمد الله تعالى صحبت جميع أصحاب رسول الله ﷺ في تفاوت حياتهم ، مع تفاوت مراتبهم التي ظهرت من رسول الله ﷺ ، دون ما يقع في نفوسنا نحن من التعظيم ، فربما أدخل الشيطان علينا العصبة من محبتنا ، بخلاف من كانت محبته للصحابة تبعاً لما بلغه عن رسول الله ﷺ ، فإنه يكون سالماً من العصبة في عقيدته .

وحكي عن المحب الطبري مفتي الحرمين: أن الشريف أبا نمي قال لي: بأي طريق قدمتم أبا بكر على عليّ مع غزارة علمه ، وقربه من رسول الله ﷺ؟ فقال له: يا سيدي إننا لم نقدم أبا بكر برأينا ، وما لنا في ذلك أمر ، وإنما جدك ﷺ قال: «**سدوا كل خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر**»[1] وقال ﷺ: «**مروا أبا بكر فليصلي بالناس**»[2] وقرأنا هذا الحديث بالسند

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٥٨٤) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٣٤٣) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الأذان ، باب حد المريض أن يشهد الجماعة (٦٦٤) ، ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر (٤١٨) .

الصحيح إلى رسول الله ﷺ ، وقبض رسول الله ﷺ ، فقالت الصحابة: من رضيه رسول الله ﷺ ، وقدمه ، قدمناه لديننا ، ورضيناه لدنيانا ، فقال الشريف أبو نمي: نعم فعمر؟ فقال المحب الطبري: وأما عمر فإن أبا بكر عند موته اختاره للمسلمين ، قال الشريف: نعم فعثمان؟ فقال المحب الطبري: إن عمر جعل الأمر شورى بين من توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، فقدموا عثمان ، فقال الشريف: فمعاوية ، فقال المحب الطبري: هو مجتهد كما أن علياً كان مجتهداً ، فقال الشريف: فتقاتل مع من لو كنت أدركتهما؟ فقال: مع علي رضي الله تعالى عنه ، فقال الشريف: فجزاك الله تعالى عنا خيراً.

فانظر يا أخي هذا الكلام النفيس من هذا العالم الذي لا يخرج عن التبعية في شيء ، فإنه لم يجعل لنفسه اختياراً في ذلك كله ، فعلم أن الواجب علينا أن نحب أصحاب رسول الله ﷺ ، تبعاً لحب رسول الله ﷺ ، ونحب أولادهم كذلك لحب رسول الله ﷺ بحكم الطبع ، ونقدم أولاد فاطمة على أولاد أبي بكر الصديق ، كما كان أبو بكر يقدمهم على أولاده ، عملاً بحديث «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين**»[1].

وقيل مرة للإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: لم قدموا عليك أبا بكر وعمر؟ فقال: إن الله هو الذي قدمهما عليّ ، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣]. وقد ركن رسول الله ﷺ إلى أبي بكر ، وعمر ، وتزوج ابنتيهما ، ولو كانا ظالمين لما تزوج رسول الله ﷺ ابنتيهما ، ولا ركن إليهما.

وقد ذكر الشيخ عبد الغفار القوصي رضي الله تعالى عنه ، في كتابه المسمى بالوحيد في علم التوحيد: أنه كان له صاحب من أكابر العلماء ، فمات فرآه بعد موته ، فسأله عن دين الإسلام فتلكأ في الجواب ، فقال: فقلت له: أما هو حق؟ فقال: نعم هو حق ، فنظرت إلى وجهه ، فإذا هو أسود كالزفت ، وكان في حياته رجلاً أبيض ، فقلت له: فما الذي سود وجهك كما أرى كان دين الإسلام حقاً؟ فقال بخفض صوت: كنت أقدم بعد الصحابة على بعض بالهوى والعصبية ، قال: وكان هذا العالم من بلد ينتسب إلى الرفض ، انتهى.

وبلغنا أن معاوية رضي الله عنه قال يوماً لواحد من جلسائه: أيكم يأتيني بالزرقاء الكتانية؟ فأتوه بها ، فقال لها: أتذكرين ركوبك الجمل الأحمر مع علي؟ فقالت: نعم أذكر ذلك. قال: لقد شاركتيه في سفك الدماء ، فقالت: بشرك الله تعالى بخير مثلك من يحدث جليسه بما يسره ، فقال: أو قد سرك ذلك؟ فقالت: نعم ، فقال: والله لوفاؤكم بحقه بعد مماته أعجب إليّ من وفائكم بحقه في حال حياته ، انتهى.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب حب الرسول من الإيمان (١٥) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب محبة الله أكثر من الأهل والولد والوالد (٤٤)

وحكى المحب الطبري رحمه الله تعالى أن جماعة من الروافض أتوا إلى خادم قبر رسول الله ﷺ بمال جزيل ، ليوصله إلى ناظر الحرم ، ويمكنهم من نقل أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، فقبل الناظر ذلك سراً، وبقي الخادم في تشويش عظيم، وما بقي إلا أن الليل يدخل ويأتوا بالمساحي والزنابيل، ويحفروا عليهما، وكانوا أربعين رجلاً.

قال المحب الطبري: فأخبرني الخادم أنهم لما دخلوا المسجد في الليل ، خسف الله بهم الأرض أجمعين ، فلم يطلع منهم أحد إلى يوم تاريخه ، وطلع الجذام في ناظر الحرم حتى تقطعت أعضاؤه ، ومات على أسوأ حال ، قال: ثم إن جماعة من الروافض الذين كانوا أرسلوا الأربعين رجلاً بلغهم ، خبر الخسف ، فأتوا المدينة متنكرين ، وعملوا الحيلة على الخادم ، وأدخلوه داراً لا ساكن فيها ، وقطعوا لسانه ، ومثلوا به فجاءه النبي ﷺ فمسح عليه وعلى فمه ، فأصبح وليس به ضرر ، ثم عملوا عليه الحيلة ثاني مرة ، وقطعوا لسانه وضربوه ضرباً شديداً فجاءه النبي ﷺ ، فمسح عليه ، فأصبح وما به من ضرر ، فعملوا معه الحيلة ثالثاً وضربوه ، وقطعوا لسانه وأغلقوا عليه الباب ، فجاءه رسول الله ﷺ فمسح عليه فأصبح وما به ضرر ، انتهى.

قال الشيخ عبد القادر القوصي رضي الله تعالى عنه ، وكذلك بلغنا أن رجلاً كان يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، وتنهاه زوجته وولده عن ذلك ، فلم يرجع ، فمسخه الله تعالى خنزيراً في عنقه سلسلة عظيمة ، وصار ولده يدخل الناس عليه ينظرونه ، ثم مات بعد أيام ، فرماه ولده في مزبلة ، قال الشيخ عبد الغفار: ورأيته أنا بعيني حال حياته وهو يصرخ صراخ الخنازير ، ويبكي ثم أخبرني الشيخ محب الدين الطبري: أن شخصاً ذكر له أنه اجتمع بولد هذا الرجل ، وذكر له القصة ، وأنه كان يضربه ، ويقول له: سب أبا بكر وعمر ، فلم يفعل ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا يكفي في محبة أصحاب رسول الله ﷺ أن تحبهم المحبة العادية ، إنما الواجب علينا أنا لو كنا نعذب من جهتهم بمجيئنا لهم لا نرجع عن محبتهم ، كما لا نرجع عن محبة إيماننا بالتعذيب ، كما وقع لبلال ، وصهيب ، وعمار ، وكما وقع للإمام أحمد بن حنبل في مسألة خلق القرآن ، فمن لا يحتمل في حب الصحابة مثل ما حمل هؤلاء فمحبته مدخولة ، انتهى.

فتأمل يا أخي في نفسك فربما تكون محبتك مجازية لا حقيقية ، لتجني ثمرتها يوم القيامة ، وسيأتي ذكر محبة الاثني عشر من أهل البيت لي ، وزيارتهم لي في المنام ، في هذا الباب إن شاء الله تعالى ، فافهم ذلك ، واعمل عليه ، والله تعالى يتولى هداك ، ويدبرك في بلواك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تسليمي للعارفين فيما يفسرون به القرآن من طريق كشفهم ، ولا أقول هذا مخالف لما عليه جمهور المفسرين ، فإن تفسير أهل الكشف أعلى من تفسير غيرهم؛ لأن الكشف إخبار بالأمور على ما هي عليه في نفسها ، لا يتغير دنيا ولا أخرىٰ ، بخلاف تفسير أهل الفكر والفهم.

وقد سمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول مراراً: أقل الأمور أن يجعل كلام أهل الله تعالى في معنى آية ، أو حديث مقالة في تلك المسألة ، ولا ينبغي إهمال كلامهم جملة واحدة ، كما عليه جماعة ، فإنهم علماء بيقين ، وقد سمعته مرة يقول في قوله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. والمراد هنا أن تقابلهم كتقابل الصورة في المرآة ، لا كتقابل الجسمين هنا؛ لأن تقابل الصورة في المرآة تكون العين اليمنى من الرائي هي اليمنى في المرئي ، وإن كانت لا تنافي محل اليسار من المقابل ، لو فرض أجنبياً ، بخلاف تقابل الصورتين من الجسمين في هذه الدار ، فإن عينك اليمنى تكون مقابلة عين جليسك اليسار ، كما هو الأمر في سائر أعضاء جسدك ، فإن كان عضو من الجسمين في هذه الدار يكون مقابلاً لضده ، ولا هكذا الأمر في الدار الآخرة؛ لأنه يقع فيها التقابل بالمعنى والصورة المحسوسة ، كرؤيتك صورتك في المرآة على حد سواء ، قال: وهذا هو حقيقة التقابل ، لانكشاف الأمور في الدار الآخرة انكشافاً كلياً ، إذ التقابل هناك يكون كصور المعاني والأرواح ، فكما أنك هنا ظاهر بجسمك ، باطن بروحك ، تكون في الآخرة بالعكس.

ومن هنا زل بعض أهل الكشف الناقص ، فأنكر حشر الأجسام حين رآها تتصور في أي صورة شاءت ، وقال: هذا لا يكون إلا للأرواح ، ولو أن هذا حقق الكشف لوجد الأجسام مطوية في الأرواح عكس الدنيا ، فكما كان الجسم والروح مشتركين هنا في ظهور الأعمال ، فكذلك يكونان مشتركين في النعيم أو العذاب ، قال: ولولا ما قررناه ما صح للأولياء التصور في هذه الدار؛ لأنه لا يعجل للولي هنا إلا ما يصح أن يكون في الجنة ، قال: ومن حكمة ذلك تعجيل البشرى لهم بما يكون لهم في الجنة ، ليفرحوا أو ليقوى يقينهم ، فافهم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: محبتي لإخواني محبة إيمان وإسلام ، لا محبة طبع وإحسان؛ وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. فآخى بين المؤمنين ، وقال ﷺ: «**المسلم أخو المسلم**»(١) فسماهم أخوة.

وهذا الخلق عزيز في هذا الزمان ، لا يوجد إلا في أفراد ، وغالب محبة الناس اليوم

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب المظالم والغصب ، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٢٤٤٢)، ومسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم (٢٥٨٠).

طبيعية لأجل إحسان أو غيره من حظوظ الأنفس ، ولذلك تكثر مفارقتهم لبعضهم بعضاً ، ويتعادون ، ولو أنهم بنوا محبتهم على قواعد صحيحة لداموا على الأُخوة دنيا وأخرى.

وقد حكى الشيخ عبد الغفار القوصي رحمه الله تعالى: أن فقيراً دخل على جماعة من الفقراء كانوا يتعبدون في بيت ، فورد عليهم فقير فأعجبه حالهم ، فأقام عندهم أياماً لا يأكلون شيئاً ، فأتاهم شخص بشيء فقسموه بينهم نصفين ، فأعطوا الفقير نصفه وأخذوا كلهم النصف الباقي ، فقال: كيف أخذتم كلكم النصف؟ فقالوا: لأننا كلنا على قلب رجل واحد ، وأنت لم تبلغ إلى ذلك المقام ، فكأن الفقير استبعد ذلك ، فأخرج أحدهم ريشة ، وفصد ذراع نفسه ، فطار الدم من ذراع كل واحد دون ذلك الفقير ، فاعترف واستغفر ، وقبل رؤوسهم.

فانظر يا أخي إلى هذه الأخوة الصحيحة ، وكيف ظهر أثرها في الشاهد ، واعمل على تحصيل هذه الأخوة إن كنت ممن يطالب نفسه بالحقائق ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شدة اعتنائي بإفادة كل من جلس إليّ من القوم الفقراء أو الفقهاء ، والعوام ، فلا أدعه يقوم إلا بفائدة ، وإن لم يكن هو معتنياً بالفائدة ، وكان على هذا القدم الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، والشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر الأخميمي وأضرابهما.

وكان الشيخ كمال الدين رحمه الله تعالى ، لا يجلس أحد معه إلا وذكر هو وإياه مجلس ذكر ، وبعد ذلك يصرفه ، ويقول: من لم يصلح لإفادة العلوم ، فهو يصلح لذكر الله عز وجل ، وكان كيفية ذكره لا إله إلا الله ، يمدها ثم يقول: الله الله الله ، وهو ذكر أتباعه إلى اليوم ، وكان من كراماته أنه إذا جاء إلى باب من الأبواب التي يحل له أن يدخلها ، ووجده مغلقاً ، دخل بسهولة من شقوق الباب التي لا تسع النملة الصغيرة ، وكان يحث أصحابه على جمع المال ، ويقول لهم: اجعلوه في يدكم لا في قلوبكم ، انتهى.

وهذا الخلق من أعظم أخلاق الرجال ، وقد سهل الله تعالى العمل به عليّ ، فلا يكاد فقير ولا فقيه ولا عامي يقوم من عندي إلا بفائدة تشاكل حاله ، فلدقائق العلم عندي ناس ، ولدقائق الأسرار عندي ناس ، وكثيراً ما أفيد الفقير أو الفقيه الفائدة ، فيغيب عني مدة ثم يجيء ويقيدها إليّ ، ويوهم أنها من مواهبه ، فأشكر الله تعالى على إقامتها عنده ، وإذا رأيت الفقيه مظلم القلب من محبة الدنيا أفدته الأمور الظاهرة ، دون الأسرار؛ لأن الأسرار لا تقيم إلا في القلوب المستنيرة ، وكثراً ما يسألني عن العلم الذي يجوز لي كتمانه فلا أجيبه ، لا سيما حيث كنت أعرف بالقرائن أنه لا يقدر على العمل به كسلاً ، لقلة توفيقه ، فأسكت وأوهمه أني لا أعلمه شيئاً يعذب على ترك العمل به فأكون عليه نقمة ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، وأفد الناس لا تبخل عليهم ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إعطائي لأرباب الأحوال كل ما يطلبونه مني ولو عمامتي ، ولا أشح عليهم بشيء أقدر عليه ، لعلمي بأنهم لا يطلبون مني شيئاً إلا ليدفعوا عني به من البلاء ما لا أطيقه ، ولا يمكنهم أن يخبروني بما يريدون أن يدفعوه عني ؛ لأن ذلك من جملة أسرار الله تعالى ، وقد خالف قوم وشحوا عليهم ، فنزل بهم البلاء ، وندموا على تركهم الإعطاء ، ومنهم طائفة يأخذون من الإنسان ما يعطيه لهم لأنفسهم ، ولا يعطون أحداً منه شيئاً ، ويرون ذلك كالأجرة أو الجعالة على الأعمال الظاهرة ، فإنه مصلحة على كل حال ، وكان على هذا القدم جماعة ممن أدركناهم من أصحابنا منهم: سيدي الشيخ أبو بكر الحديدي ، ومنهم سيدي الشيخ محمد بن صالح ، ومنهم الشيخ محيسن ، ومنهم الشيخ شعبان ، ومنهم الشيخ نور الدين الشوني رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

قد بلغنا عن الشيخ الصالح الورع الزاهد الشيخ ماجد الكردي: أنه كان لا يحمل حملة أحد إلا بفلوس ، أو ثياب ، فجاءته امرأة أمير ، فقالت له: إن الأمير يريد أن يتزوج عليّ لكوني لا ألد ولداً ، فاسأل الله تعالى أن يرزقني ولداً ، فقال لها: هاتي ما معك من الفتوح ، فأعطته أسورة كانت في يدها ، فقال لها هذه ما تكفي حلاوة الصبي ، وإن لم تعطي أختها لي جاءت أنثى بقدرة الله تعالى ، فأعطته الأسورة الثانية ، فقال لها: تأتي بولد وفي يده اليمنى أصبع زائد ، فكان الأمر كما قال ، انتهى.

وهذا الخلق من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليّ ، فإن غالب الناس يشح على الفقير صاحب الحال بما معه ، أو أن يقترض له ، بخلافي أنا ، وما طلب مني قط أحد منهم شيئاً إلا ورايت الخلف عقبه بأضعافه ، فصارت التجربة معينة لي على بذل ما لعل نفسي تشح به ، فإياك ومنع شيء كان معك وطلبه منك صاحب حال ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم التشويش من الفقير إذا دخل داري ، وتشرط على أن لا يأكل إلا كذا دون كذا لا سيما بعد العشاء الآخرة ، فقد يكون ذلك امتحاناً من الله عز وجل ، كما وقع للأعمى والأبرص والأقرع ، والقصة مشهورة في البخاري وغيره ، وربما يكون ذلك الفقير من المترفهين في الأكل ، ولو كان رث الثياب وربما كان ذلك الطعام العزيز الذي طلبه أحل من غيره ، أو غير ذلك.

وقد وقع لبعض الأشخاص أنه دخل عليه ملك في صورة فقير ، فقدم له طعاماً فرده وطلب غيره ، وهكذا ، فمقته وأخرجه ، فحول الله تعالى عنه النعمة ، حتى صار يسأل على الأبواب.

وقد وقع لبعض فقراء الشيخ أبي الغيث اليمني رحمه الله تعالى: أنه دخل قرية فقدموا إليه

طعاماً ، فصار يرده ، فلم يعجبه شيء يأكل منه ، فشتموه وآذوه ، فدعا على قريتهم بالحريق ، فاحترقت كلها ، وخرج أهلها كلّهم هاربين بأنفسهم فقط ، فكلموه في ذلك ، فقال: أنا رجل مدلل على ربي ، ثم خرج الفقير من عندهم بلا أكل ، فلقيه رجل من أمراء زبيد ، فعارضه بغير طريق ، فقال: يا فرس الله روحي فراحت به فلم يعرف أحد أين ذهبت به ، فعرضوا أمره على الشيخ أبي الغيث ، فأرسل وراء الفقير وأتوا به وقال له: ما جمعناك علينا لتحرق بلاد المسلمين ، تنفي أمراءهم فاستغفر وتاب إلى الله تعالى ، ثم نادى الشيخ الأمير فحضر بالفرس من خلف جبل قاف ، من عند قوم لا يعرفون أن الله تعالى خلق آدم ولا إبليس ، ثم جلس الفقير عند الشيخ أبي الغيث يخدم الفقراء إلى أن مات ، ودفن تحت رجليه ، وما مات حتى صار من أشفق الناس على المسلمين

فطول يا أخي روحك على من يشترط عليك في الأكل ترشد ، والله يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم إصغائي بأذني إلى وقتي هذا إلى من يقول بكفر الحلاج أو غيره من القوم المذكورين في كتب الرقائق ، ولم أزل أؤول للقوم ما صح عنهم ، وأتقي ما لم يصح ، كل ذلك أدباً مع الله تعالى الذي أشهرهم بالصلاح ولو بين بعض الناس ، وأخذاً بالاحتياط.

وقد كان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله تعالى عنه يقول: أكره من الفقهاء خصلتين ، قولهم بكفر الحلاج ، وقولهم بموت الخضر عليه الصلاة والسلام أما الحلاج فلم يثبت عنه ما يوجب القتل ، وما نقل عنه يصح تأويله ، ونحو قوله «**على دين الصليب يكون موتي**» ومراده أنه يموت على دين نفسه ، فإنه هو الصليب ، وكأنه قال: أنا أموت على ديني ، أي دين الإسلام ، وأشار إلى أنه يموت مصلوباً ، وكذلك كان.

وقد دخل ابن خفيف على الحلاج فقال له: كيف تجدك؟ فقال: نعم الله علي ظاهرة وباطنة ، فقال له: أسألك عن ثلاث مسائل: فقال: قل. فقال له: ما الصبر؟ فقال: أن أنظر إلى هذه الأغلال فتفكك ، قال ابن خفيف: فنظر إليها فانشق الحائط ، وإذا نحن على شاطىء الدجلة ، فقال لي: هذا من الصبر ، قال: نعم. فقلت له: وما الفقر؟ فنظر إلى حجارة هناك فصارت ذهباً وفضة ، فقال: هذا من الفقر ، وإني مع ذلك أحتال على الفلس أشتري به زيتاً ، قال: فقلت له: ما الفتوة؟ قال: غداً تراها ، قال ابن خفيف: فلما كان الليل رأيت كأن القيامة قد قامت ، ومنادياً ينادي أين الحسين بن منصور الحلاج ، فأوقف بين يدي الله عز وجل ، فقيل له: من أحبك دخل الجنة ، ومن أبغضك دخل النار ، فقال الحلاج: بل اغفر يا رب للجميع ، ثم التفت إليّ وقال لي: هذه الفتوة ، انتهى كلام ابن خفيف.

قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله تعالى عنه: وأما الخضر عليه السلام فهو حي ،

وقد صافحته بكفي هذه ، وأخبرني أن كل من قال كل صباح: اللهم اغفر لأمة محمد ، اللهم أصلح أمة محمد ، اللهم تجاوز عن أمة محمد ، اللهم اجعلنا من أمة محمد ، صار من الأبدال ، فعرض بعض الفقراء ذلك على الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، فقال: صدق أبو العباس ، قال: وقد دخل عليَّ الخضر عليه السلام مرة وعرفني بنفسه ، واكتسبت منه معرفة أرواح المؤمنين بالغيب ، هل هي منعمة أو معذبة ، فلو جاءني الآن ألف فقيه يجادلوني في ذلك ، ويقولون بموت الخضر عليه السلام ما رجعت إليهم.

والله تعالى يوفقنا وإياهم ، ويتولىٰ هدانا ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: اجتماعي وصحبتي لأولياء الله تعالى الأكابر ، كسيدي الشيخ أفضل الدين ، وسيدي علي النبتيتي ، وغيرهما ، وأكثر ما وقع الاتحاد والمحبة بيني وبين أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى ، كان إذا ورد عليه وارد يرد على مثله ، ولقد ورد علي وارد في معاني الأحاديث النبوية ، فكتبتها في الليل ووضعتها في رأسي ، وكان يزورني وأزوره ، فزارني صباح تلك الليلة ، فأخرج لي ورقة من عمامته ، وقال: قد ورد عليَّ هذا الكلام في هذه الليلة ، فقرأه إلى آخره ، فأخرجت أنا الآخر ما ورد عليّ ، فقابلنا الورقتين فلم تزد إحداهما على الأخرى حرفاً. وقد سبقنا إلى مثل ذلك الشيخ أبو الطاهر ، مع صاحبه الشيخ تاج الدين ، كان إذا ورد على أحدهما شيء ورد على الآخر مثله.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين يسمع لخلوته في الليلة دوي كدوي النحل من كثرة الواردات عليه ، وكان يخبر أنه يجتمع كل قليل بملك الموت ، ويتحدث معه.

وكان الشيخ أبو طاهر من أصحاب الشيخ عبد الرحيم القناوي رضي الله تعالى عنهما ، قال: والله لقد وضعت قدمي هذه على الصخرة التي فوق الحوت ، وكلمتني النملة التي كلمت سليمان عليه السلام ، ورفعت على البساط الذي رفع عليه سليمان ، انتهى.

وكذلك وقع لي أني كنت أكلم أخي الشيخ الصالح الشيخ أحمد الكعكي ، فنزل إلى الحوت ، فنزلت معه حتى وضعت رجلي على قحفة في أقل من لمح البصر ، هذا وقع لي معه ، ثم نزلت مرة أخرى وحدي.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى إذا قدِّم له طعام مخلوط بشبهة يميز الحلال منه ، ولقد رأيته مرة يفتت من فطيرة صنعتها له في قصعة ، فيرمي عن يمينه شيئاً ، وعن يساره شيئاً ، ويرمي في القصعة شيئاً ، فقلت له في ذلك؟ فقال: الحلال الذي هو في القصعة ، والحرام الذي على اليسار ، والشبهة الذي على اليمين ، فخلص الله لنا الحلال ، وميز لنا الحرام والشبهة بحوله وقدرته.

فانظر يا أخي هذا الأمر العجيب ، كيف ميز الله له ذلك بعد عجنه واختلاطه

وقد سمعت مرة قائلاً يقول لي في الأسحار: ما صحبت مثل أفضل الدين ، ولا تصحب ، فقصصت ذلك عليه فصار يبكي ، ويقول: من أين لي أن تتكلم الهواتف بشأني؟ وسمعته يقول: إذا امتلأ القلب بالنور ارتفع كل حجاب بين العبد وبين ربه ، وخلع عليه الحق من علمه ما شاء.

وقد بلغنا أنه كان يميز الحلال من الحرام من الخبز الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه ، فيرمي منه ما شاء ، ويأكل ما شاء ، فمثل هؤلاء لا ينبغي الاعتراض عليهم إذا أكلوا في بيوت الظلمة.

فإياك يا أخي أن تقيسهم على حال نفسك ، وإن كان لا بد لك من الإنكار على أهل هذا المقام ، فقل لأحدهم: إن كنت ممن أطلعهم الله تعالى على تمييز الحلال من الحرام فكل ، وإلا فاترك امتثالاً لأمر الشارع ، فإنه لا يقدر أن يعطيك لاستنادك على حماية الشرع ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: أنني إذا قرأت على المارد من الجن بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، احترق ، وصار دخاناً ، وكان أصل تخصيص هذا الذكر بذلك ، ما أخبرني به سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى ، عن الشيخ أبي الحجاج المغاوري رضي الله تعالى عنه ، أنه قال: صحبت شخصاً من الجن ، فقال لي يوماً أريد أن أصعد إلى السماء فأسترق السمع ، ومرادي آخذك معي ، تتفرج ، قال: فأجبته إلى ذلك ، فقال لي: غداً يأتيك ثلاثة أجمال فاركب منها واحداً ، ولكن اجعل عليك ثياباً كثيرة ، فإن الجو بارد ، ففعلت وركبت معهم ، فطار بي حتى حجبنا عن رؤية الأرض ، وسمعنا زجل الملائكة بالتسبيح والتقديس ، ففتحت العصابة التي كنت عصبت بها عيني حين طار بي الجن ، فرأيت الكواكب أمثال الجبال ، ورأيت الملائكة تمشي في طرق السموات ، وهم يسبحون الله تعالى بأنواع التسبيح والأذكار ، فلم أستطع أن أسكت ، فقلت: لا إله إلا الله ، فلما قلتها نظر ملك إلى العفريت ، وبيده شهاب فقال: «بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله» ورماه بذلك الشهاب ، فصادف جانبه فزاغ العفريت من تحتي فطحت في الهواء ، فغبت فلم أشعر بنفسي إلا وأنا على كوم رمل ، فلما أفقت نزلت من الكوم ، فوجدت شخصاً حراثاً ، فقلت له: أين بلدي فلانة؟ فقال لي: بينك وبينها سفر كذا وكذا سنة ، قال: فبعت ثيابي وسافرت بثمنها ، حتى وصلت إلى بلدي ، وأخبرت أهلي بالقصة فعرفوني بعد جهد طويل ، فإنهم كانوا عملوا جنازتي من سنين ، انتهى.

وهذه الحكاية ما سمعت بمثلها ، وكان الشيخ أبو الحجاج هذا عجيباً في مجاهداته ، ذكروا أنه كان يدخل البرية ويجلس على غير طريق ، وليس معه ما يأكله ، فيمكث الشهرين والثلاثة ، ثم يرجع إلى أهله ، وكان رحمه الله تعالى يقول: دخلت مرة برية فوجدت فيها

شخصين يتعبدان ، فلما كان اليوم الثاني جاء طائر فخطف منهما واحد ، فطار به في الهواء ، ثم جاء ثاني يوم فخطف الآخر ، ثم جاء اليوم الثالث فخطفني حتى وضعني على قمة جبل عليه جماعات موتى ، ورأيته لا يأكل منهم سوى أعينهم ، فأخذت عمائمهم وربطتها في بعضها ، ونزلت من الجبال ، فوصلت العمائم إلى الثلثين فقط فرميت بنفسي إلى الأرض ، فنزلت على شجرة فرمتني إلى الأرض بسهولة ، انتهى.

وتقدم وقائعي مع الجن في المنن السابقة ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: صحبتي لجماعة يجتمعون بملك الموت وبجبريل في هذه الأيام ، ولولا أنهم أمروني بالكتمان لذكرت أسماءهم للإخوان ، وفي كتمانهم أيضاً مصلحة لبعض المنكرين ، فربما أنكر بعضهم ذلك عليهم ، فمقت ، ونسأل الله العافية.

وقد نقل الشيخ عبد الغفار القوصي رحمه الله تعالى في كتابه المسمى بالوحيد في علم التوحيد: أن الشيخ تاج الدين بن شعبان ، كان من أقران الشيخ عبد الرحيم القناوي رضي الله تعالى عنهما ، كان يقول لمن يسأله في حاجة: اصبر حتى يجيء جبريل عليه السلام ، فأوصيه عليك ، وجاء مرة شخص يأخذ بخاطره وولده محتضر ، فقال: اصبر حتى أوصي عزرائيل على ولدك ، وكان عند الشيخ حدة عظيمة ، فقيل له مرة: ممن اكتسبت هذه الحدة؟ فقال: من صحبتي لجبريل ، وكان كثيراً ما يخاطب ملك الموت إذا حضر ، ويقول له: مر في طرقاتك فقد بقي من أجله كيت وكيت ، فيعيش كما قال ، ثم يموت ، قال الشيخ عبد الغفار: وقول بعضهم ، قال لي جبريل ، وقلت لجبريل ، ليس بمستحيل ولا ممتنع ، وإنما ينكر ذلك من بعد قلبه عن الملكوت ، وأما الأولياء فقلوبهم جوالة في الملكوت ، ولها أنس بمعالمه ، ومخاطبات لملائكته ، لاجتماع أرواحهم بأرواح الملائكة في عالم الملكوت ، بل ربما سرت أرواحهم فيما وراء ذلك ، فقال: وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠]. وفي قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤]. إشارة لما قلناه ، مع عدم استحالة ذلك ، ووجد جواره ، ولا يعارض ذلك قوله ﷺ: **«لا نبي بعدي»**[١]؛ لأن ما ذكرناه من محادثة جبريل ليس بنبوة ولا وحي ولا إرسال ، فربما عرف الولي جبريل حين يصافحه من طريق كشفه ، وفي الحديث: **«أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»**[٢] فكيف بمن يطلب

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٥) ، ومسلم كتاب الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٢)

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢) ؛ وأبو داود ، كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١) ، وابن ماجه كتاب العلم ، باب فضل العلماء=

الله ، وورد أيضاً «**أن الملائكة وجبريل يصافحون من قام ليلة القدر ويؤمنون على دعائهم حتى يطلع الفجر**»[1] وقد يقول الولي ذلك في غيبة ، أو آخذة أو سنة ، فلا يحتاج ذلك إلى تأويل.

وكان الشيخ بهاء الدين الأخميمي رحمه الله تعالى ، كلما مرض يقول: لست أموت في هذه الضعفة ، فقال له: من أين علمت ذلك؟ فيقول: من ملك الموت ، فإنه قال لي عمرك خمس وثمانون سنة ، فكان الأمر كما قال ، وكان يقول: نزلت قبر بعض الإخوان فوصيت عليه منكراً ونكيراً ، فلما مات سمعوه وهو يكلمهم ، ويسألهم هو عن الإسلام والإيمان ، والكلام مع ملك الموت كالكلام مع جبريل سواء ثم إن قوله لملك الموت ارجع فقد بقي من أجل فلان كذا صحيح ، وإنما جاء ملك الموت قبل قبض روح ذلك الميت لإظهار كرامة لذلك الولي لا غير ، لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

وكرامات الأولياء من وراء أستار العقول ، ومن دائرة المحو والإثبات ، وكتب الرقائق مشحونة بحديث الأولياء مع الملائكة ، كما وقع لثابت البناني وغيره ، ممن كان يسلم على الملكين الواردين عليه ، والصاعدين عنه ، ويردان عليه السلام ، ومعلوم أن الأولياء عدول ثقات ، وقد نقلوا ذلك عن بعضهم بعضاً ، لا سيما عمن لا يقع فيه التهمة ، ولا يتوقف في ذلك إلا من له غرض في عداوة بعض الأولياء ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: أخذي بعض مقامات الطريق عن أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وهو سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى ، ووجه المنة في ذلك أن الأمي ينطق بجوامع الكلم ، بحسب ما أعطيه من الإرث المحمدي ، فيختصر على المريد الطريق ، ومن علامة علوم الأولياء الأميين أنها تأتي خالية عن الإشكال.

وقد كان الشيخ نجم الدين الكرخي رضي الله تعالى عنه أمياً ، وكذلك الشيخ أبو مدين المغربي رضي الله عنه ، وكذلك سيدي محمد وفا رضي الله تعالى عنه ، ولهم كلام عظيم في الطريق ، يعجز العلماء عن الإتيان بمثله ، ولقد جمعت جملة صالحة من كلام سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه ، سميتها الجواهر والدرر ، وكتب عليها علماء الإسلام بمصر ، وتعجبوا منها غاية التعجب ، واستفادوا منها ما لم يكن عندهم من العلم ، وندموا على عدم اجتماعهم بالشيخ حال حياته.

وقال لي شيخ الإسلام الفتوحي الحنبلي رحمه الله تعالى لي منذ ستين سنة أطالع في

= والحث على طلب العلم (٢٢٣).

(١) لم أجده.

التفاسير ، وكتب العلم ، وما رأيت فيها مسألة واحدة مما في هذه الجواهر وكان الشيخ أوحد الدين ينكر على الشيخ نجم الدين الكبرى ، وينهى طلبته عن الاجتماع به ، فأغلظ الشيخ نجم الدين يوماً القول على الشيخ أوحد الدين ، فقال الشيخ أوحد الدين: تغلظ علي القول وقد صنفت في معرفة الله تعالى تسعين كتاباً ، فقال له الشيخ نجم الدين: لو عرفت ما صنفت فيه ، فطلع المنبر ، وقال: أيها الناس إن الشيخ نجم الدين رجل جاهل ، وإن كان عالماً فليجب عن هذه المسألة ، فأجاب الشيخ نجم الدين عنها بثلاثمائة جواب ، حتى تحير الناس ، فهرب الشيخ أوحد الدين ، ووقعت فتنة عظيمة ، فهدم العوام بيت الشيخ أوحد الدين ، وأحرقوه فخاف الخليفة ، وجاء يطيب خاطر الشيخ نجم الدين ، فلم يفتح له ، فأقام على الباب ثلاثة أيام ، فقال للخليفة: هذه فتنة يزول فيها ملكك ، وتقطع فيها رأسي ، وتخرب فيها بغداد ، فكان الأمر كما قال رحمه الله تعالى الرحمة الواسعة ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تعظيم الفقير الذي عليه زي الفقراء من مرقعة أو نحوها ، ببادىء الرأي ، ولا أتوقف على معرفة مقامه في الطريق ، كما أن أهل الدنيا لما عظموا أهلها فنراهم يعظمون كل من رأوه لابساً ثياب جند السلطان ، ولا يتوقفون على تحقيق كونهم من جند السلطان أم لا ، فإياك يا أخي ثم إياك والاستهانة بمن رأيته يتسبب إلى أهل الله تعالى بوجه ما ، كما أنه ليس لك أن تشرب سماً لتجربه هل يقتلك أم لا؟ وقد قال الله تعالى في بعض الكتب الإلهية: «من آذى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»(١) ولم تزل الأولياء أخفياء في كل عصر ، فيحتمل أن يكون كل من رأيته من المسلمين من جملة أولياء الله تعالى الذين يحارب عنهم أعداءهم.

وقد بحث ابن عطاء يوماً مع الجنيد ، ورد عليه قوله ، فقال الجنيد: اللهم إن كان مبطلاً فاذهب ماله وعقله ، وأمت ولده ، فذهب ماله ومات ولده ، وبقي مجنوناً أربعين سنة حتى مات ، وكان يقول: أصابتني دعوة الجنيد.

فإذا كانت دعوة الجنيد قد أثرت في ابن عطاء مع تخلق الجنيد بالشفقة والرحمة على الأمة ، لكماله فكيف بدعوة أرباب الأحوال الذين لا يذوقون طعم الشفقة على أحد لغيبتهم بالحال ، وإجابة الدعوة تدل على أن الحق كان مع الجنيد رضي الله تعالى عنه فسارع يا أخي إلى درجة محبة الله تعالى ، لتصير تعظم كل من زعم من المؤمنين ، أنه من أحبابه ولو كاذباً.

وقد حكي عن الشيخ عبد الرحيم القنائي المدفون بقنا ، أنه رأى كلباً فقام له إجلالاً ، فقيل له في ذلك ، فقال: إن صاحبه ربط في عنقه شرموطاً من جبة الفقراء فنظرت في أثر الفقراء ، وغبت عن شهود الكلب.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب التواضع (٦٥٠٢).

ثم إن أكثر من يزدري الفقراء من يغتر بعلمه وصلاحه وعمله وإيثاره وكرمه ، كما وقع لابن عطاء مع الجنيد ، فإن من رأىٰ نفسه فقد تعرض لتحكم غيره فيه ، ولو كان هو من أكمل الأولياء ، وقد سلب خلق كثير من الكمل عند رؤيتهم نفوسهم . واعلم أن من عباد الله الأخفياء من يجيب الله تعالى دعاءه في كل ما دعاه ، حتى أن بعض السوقة كان كل من دعا عليه مات لوقته ، ووقع له أنه أراد أن يقرب من زوجته فقالت له : إن الأولاد مستيقظين ، فقال : أماتهم الله وكانوا سبعة ، فصلوا على السبعة بكرة النهار ، فقالت له زوجته في ذلك ، فقال : ما كان ذلك باختياري ، فبلغ ذلك سيدي إبراهيم المتبولي ، فأرسل وراء الفقير وقال له : أماتك الله ، فأماته الله لوقته ، فقال سيدي إبراهيم رضي الله تعالى عنه : لو بقي لأمات خلقاً كثيراً ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ : ندائي بقلبي لمن شئت من أصحابي ، وهم في بلادهم أو دورهم في مصر ، فيحضرون من غير لفظ ، وإن عزم أحدهم على المجيء أناديه بقلبي ارجع ، فيرجع ، منهم الأمير شجاع أغاة العزب بالقلعة ، ومنهم الشيخ عبد الله العجمي بمقام الإمام زين العابدين ، ومنهم الشيخ سراج الدين الحانوتي الحنفي ، ومنهم الشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني ، وجماعة من الفقراء ، كل ذلك لشدة ارتباطهم بي ، وارتباطي بهم ، وليس هذا الأمر لكل فقير إنما هو لأفراد منهم .

وكان سيدي إبراهيم الأعزب بالعراق ، له خمسون ألف مريد ، فورد عليه فقير ، فقال : يقدر هذا على تربية هؤلاء ومعرفتهم؟ فلما دخل على الشيخ وجد عليه قميصاً أزرق وطاقية زرقاء ، فقال له مكاشفاً : ليس علي تعب في تربيتهم ؛ لأن الله تعالى جعل قلوب الكل بيدي ، ثم قام فوقف على باب الرواق ، وجمع أصابع كفه في الهواء ، وإذا بهم يهرولون من كل مكان حتى امتلأ الرواق ثم بسط أصابعه ، فرجع كل واحد منهم من حيث جاء ، حتى لم يبق في الرواق واحد ، فلا هو كلمهم ولا هم كلموه .

فانظر يا أخي إلى هذا التصرف العظيم ، ويقع لي في بعض الأوقات أنه يخرج من عندي بعض أصحابي ، فأجد قلبي معه يتبعه حيث ذهب ، لا أقدر على رجوعه عنه ، فيلاحظه حتى يرجع ، لحسن أدبه معي ، فتأمل ذلك ترشد ، والله تعالى يتولى هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد الله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ : جعله تعالى لي ممن يحيي السنة ويميت البدعة ، بعد الفترة التي حصلت بعد موت الأشياخ الذين ماتوا ونحن أطفال ، فإن الدعاة إلى طريق الله تعالى من الأمة على أقدام الرسل ، فكما كان كل رسول يأتي بعد فترة ناسخاً لشرع من قبله أو مؤيداً له ، فكذلك طائفة الدعاة إلى الله تعالى من الأولياء ، وعلى هذا القدم جماعة من أهل عصرنا بحمد الله تعالى ، أحيوا الدين ، وأقاموا معالمه ، وإن لم يسمع لهم كالشيخ سليمان

الخضيري ، وسيدي محمد البكري ، والشيخ نجم الدين الغيطي ، والشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني ، والشيخ زين الجزيري ، والشيخ نور الدين الطندتاني ، والشيخ سراج الدين الحانوتي ، والشيخ بدر الدين الشهاوي ، والشيخ شمس الدين البرهمتوشي ، فهؤلاء من أعظم الذابين عن الدين في عصرنا هذا ، وفيهم الخير والبركة والعلم ، فالله تعالى ينفعنا ببركاتهم.

فلو أن الأمة كلها اجتمعت عليهم وأطاعوهم لهدوهم بإذن الله تعالى إلى الصراط المستقيم ، لكثرة ما أعطاهم الله تعالى من العلوم والأسرار والسياسات ، رضي الله تعالى عنهم ، وفسح في أجلهم للإسلام والمسلمين.

وإيضاح ما قلناه من الفترات الحاصلة بين كل داع وداع من الأولياء ، أنه لما مات الأئمة المجتهدون حدث بعدهم أهواء وبدع ، وحجب على القلوب ، حتى صار الناس كأنهم في فترة بالنسبة إلى ما سلف ، فأتى الله بالمشايخ المذكورين في رسالة القشيري ، فأحيوا معالم الطريق ، وأظهروا ما اندرس منها كالسري ، والجنيد ، وأبي سليمان الداراني ، وأشباههم رضي الله تعالى عنهم ، من كمل العارفين ، والعلماء العاملين ، الذين كانوا في عصرهم ، فلما ماتوا وقعت الفترة مدة ، حتى أتى الله تعالى بالطبقة الثانية كالشيخ عبد القادر الجيلي ، والشيخ أحمد بن الرفاعي ، والشيخ أبي مدين المغربي ، والشيخ أبي عبد الله القرشي ، وأبي يعزى ، وابن النجار ، وأضرابهم رضي الله تعالى عنهم ، فلما ماتوا حصلت الفترة العظيمة ، حتى أتى الله تعالى بالسادة الشاذلية ، والوفائية رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وأول الطبقة أبو الحسن بن الصباغ ، وأبو الحسن الأقصري ، وأبو الفتح الواسطي ، وكانت سلسلة القوم انقطعت من مصر ، حتى جاء سيدي يوسف العجمي رحمه الله تعالى ، فتسلسلت منه الطريق في مصر وقراها إلى عصرنا هذا ، فكانت الفترة الحاصلة بعد هؤلاء في الديار المصرية ، إنما هي بعد موت سيدي علي المرصفي ، والشيخ محمد الشناوي ، والشيخ تاج الدين الذاكر ، والشيخ أبي السعود الجارحي ، وأضرابهم رحمهم الله أجمعين ، فأتى الله تعالى بعدهم بالجماعة الذين قدمناهم ، فأحيوا الدين والطريقة بعد موت هؤلاء ، فالحمد لله الذي جعلنا منهم.

فعلم أن الفترة موجودة برهة من الزمان بعد كل داع إلى الله تعالى ، حتى يظهر من يظهره الله بعده ، هذا مع استمرار وجود الأولياء أصحاب الدوائر الكبرى ، من القطب ، والأقطاب ، والأوتاد ، والأبدال ، والأعين ، وأولي الأمر ، إذ لو خلا الوجود من هؤلاء لخرب الوجود كله دفعة واحدة ، حتى أن الوقت الذي تقوم فيه القيامة لا يكون فيه أحد يقول: الله الله.

ثم إنه لما كانت الأصنام تعبد بين فترات الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وترفض فيها

الشرائع ، وترتكب فيها المحارم ، ويستحلون الدماء ، ويحكمون بالهوى ويتولاهم الشيطان ، ويزعمون مع ذلك أنهم ما عبدوا الأصنام إلا ليقربوهم إلى الله زلفى ، فكذلك الحكم في فترات الأولياء ، فإنها مقابلة لفترات الرسل عليهم الصلاة والسلام ، بل ربما وقع في فترات الأولياء ما هو أقبح من عبادة الأصنام ، فإن عبادها ما نفوا قط الإله ، وإنما قالوا ـ ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ـ على زعمهم ، وأهل فترات الأولياء قد استحكم في غالبهم الضلال والفساد ، واستولى على خيالهم ، وطبائعهم المحال ، حتى عكسوا الأحوال في الأفعال والأقوال ، وحكموا على المستحيل بالواجب، وبالعكس، وألحقوا الموجود بالمعدوم، والحادث بالقديم.

وبعضهم رأى أن كل شيء في الوجود هو الإله ، وأن عين هذا الوجود الحادث هو عين الله من الجماد ، والنبات ، والعقارب ، والحيات ، والجان ، والإنسان ، والملك ، والشيطان ، ويجعلون الخالق هو عين المخلوق من خسيس ، ونفيس ، ومرجوم ، وملعون ، ورائس ، ومرؤوس ، حتى الأباليس ، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون ، ولا من كان في حبه مجنون.

وقد نقلت هذه الأمور في زمننا هذا عن جماعة بالصعيد ، فيعقدون هذه الأمور فيما بينهم ، وبين أصحابهم من الملاحدة ، وينكرون ذلك في الظاهر خوف القتل ، بل الذي أقوله إن إبليس نفسه لو ظهر ونسب إليه هذا المعتقد لتبرأ منه ، واستحيا من الله تعالى ، وإن كان هو الذي يلقي إلى نفوسهم ذلك.

وقد حكيت لسيدي علي الخواص بعض صفات هؤلاء ، فقال: هؤلاء زنادقة ، وهم أنحس الطوائف؛ لأنهم لا يرون حساباً ولا عقاباً ، ولا جنة ولا ناراً ولا حلالاً ، ولا حراماً ، ولا آخرة ، ولا لهم دين يرجعون إليه ، ولا معتقد يجتمعون عليه ، وهم أخس من أن يذكروا؛ لأنهم خالفوا المعقولات والمنقولات ، والمعاني ، وسائر الأديان التي جاءت بها الرسل عن الله تعالى ، ولا نعلم أحداً من طوائف الكفار اعتقد اعتقاد هؤلاء ، فإن طائفة من النصارى قالت: المسيح ابن الله وكفرهم القوم الآخرون ، وطائفة من اليهود قالت العزير ابن الله ، وكفرهم القوم الآخرون ، فلم يجعلوا الوجود عين الله تعالى.

وقد أشبع الشيخ الكامل الراسخ الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه الكلام في الرد على أهل الحلول والاتحاد ، ومن كلامه رضي الله تعالى عنه: ما قال بالاتحاد ، إلا أهل الالحاد ، وما قال بالحلول إلا من دينه معلول ، وقد بسطنا نقوله رضي الله تعالى عنه في كتابنا المسمى باليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر ، ونقلت ذلك من النسخة المقابلة على خطه دون التي دس فيها الأعداء والحسدة ما دسوا ، ولعل الشيطان إنما وسوس لهؤلاء الأعداء بدس العقائد الزائفة في كتب الشيخ ليوقع فيها من أراد الله إضلاله من جهلة

المتصوفة ، فإن الشيخ محيي الدين كان من أكابر الأولياء الراسخين ، فربما قال لهم إبليس: إن ما في كتبه ليس مدسوساً عليه ، وإنما ذلك كان اعتقاده ، ويكفيكم في الدليل اتباع هذا الرجل الجليل ، فعظمه في أعينهم حتى لا يتوقفوا في اعتقاد ما يجدونه في كتبه من المدسوس.

ومن كلامه رضي الله تعالى عنه في الفتوحات المكية من أراد أن لا يضل فلا يرمي ميزان ظاهر الشريعة من يده طرفة عين، ويعتمد ما عليه الأئمة المجتهدون ومقلدوهم ، ويرفض ما عداه ، انتهى.

فانظر يا أخي في هذا الكلام المحشو بالنور بعقلك السليم ، تجد الشيخ بريئاً من سوء المعتقد الذي تشبث به هؤلاء الجهلة ، وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: لو كنت حاكماً لضربت عنق كل من قال: لا موجود إلا الله ، ونحو ذلك من الألفاظ ؛ لأنه لم يأت بذلك شريعة ، وأعلم الناس بالحقائق أرباب الأذواق ، والمكاشفات، والمعارف، والمخاطبات، وذو البصائر والكرامات، وخرق العادات ، ولم ينقل لنا عن أحد منهم أنه كان يعتقد قط خلاف ما جاءت به الرسل ، بل لو اعتقد أحداً منهم خلاف ما جاءت به الرسل ما وقع لأحد منهم كرامة ولا خرق عادة ، وإنما الكرامات لأهل السنة والجماعة ، وأطال في ذلك رحمه الله تعالى في رسالته.

فإياك يا أخي ومخالطة أهل البدع إلا بقصد هدايتهم إلى الطريق الحق ، والله يرشدك والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: إحيائي بعض أخلاق القوم التي اندرست ، كالإحسان إلى من أساء إليّ وبذل المال لإصلاح ذات البين ، حتى لو لم يكن معي إلا جوختي أو عمامتي بذلتها عند توقف الصلح عليها ، وكان على ذلك القدم سيدي الشيخ محمد الشناوي ، والشيخ عبد الحليم ، وما رأيت لهذا الخلق فاعلاً بعدهما.

وقد أعطيت مرة جوختي البنفسجية لسيدي محمد بن الغمري ، ومرة أخرى أعطيت سيدي زين ابن سيدي علي المرصفي جوختي الجديدة، مصروفها أربعة وثلاثين أشرفياً، وذلك لإصلاح ذات البين بينهما ، وبين أخصامهما من غير اتباع نفس لذلك ، فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم الجزم بتفضيل أحد من علماء العصر وأوليائه على غيره ، بل الواجب الأدب مع كل من أقامه الله تعالى في رتبة من الرتب ، وأما حقائقهم عند الله تعالى وتفضيله تعالى لهم فلا علم لنا بذلك ، ولا يلزم من الأفضلية الظاهرة الأفضلية الباطنة ، وما لنا من حيث أنفسنا إلا المحبة للجميع ، والوقوف عند ما أمر الله تعالى به من

الطاعة لأولي الأمر منا سواء كانوا أمراء أو أولياء ، وفي الحديث «**التقوى ههنا**»[1] وأشار إلى قلبه.

ومعلوم أن القلب لا علم لنا بما فيه ، إنما ذلك خاص بالله عز وجل ، وفي قوله ﷺ في حديث آخر «**هلا شققت عن قلبه**»[2] كفاية في رد علم الحقائق إلى الله تعالى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: ما رأينا أحداً قط أساء الظن بالفقراء ، ووجد خيراً قط ، انتهى.

وتقدم في هذه المنن عن أبي عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه ، أنه كان يقول: من غض من عارف بالله ، أو ولي لله ، ضرب في قلبه بسهم مسموم ، ولا يموت حتى يفسد معتقده ، انتهى. وتقدمت هذه المنة مراراً بعبارات أخرىٰ ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: اقتدائي بالسلف الصالح في كتمان الأسرار التي منحتها بفضل الله تعالى فأعرف في كل آية أو حديث أو أثر من الأسرار ما لا يسطر في كتاب.

وقد كان الإمام علي رضي الله تعالى عنه يقول: آه ، بعد أن يضرب على صدره ، إن هنا لعلوماً جمة ، لو وجدنا من يحملها ، وكان رضي الله عنه يقول: علمني رسول الله ﷺ علماً لو أفشيته لخضبت هذه من هذه ، وأشار إلى لحيته وعنقه.

وكان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول: أخذت عن رسول الله ﷺ جرابين من علم ، فأما واحد فبثثته لكم ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم[3]، رواه البخاري وغيره رضي الله تعالى عنهم.

وكان الإمام علي ابن الإمام الحسين رضي الله عنهما ينشد:

ولا أستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ونقل الشيخ عبد الغفار القوصي رحمه الله تعالى ، عن الشريف الكليمي ، أنه أخبره أنه كان ذاهباً في طريق العمرة ومعه فقير أعجمي ، فتكلم بشيء من الأسرار ، فقلعت رأسه من بين كتفيه ، فخفت أنهم يطالبونني به ، فهربت وتركته. ا هـ.

وإيضاح ما قاله الإمام علي وأبو هريرة أنه كما أن بعض الناس ينكر خرق العوائد لكونه لا يراها ولا يسمع بها ، وليس عنده إيمان ولا تصديق بمن أتى بها ، كما وقع للكفار حين

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (٢٥٦٤) ، والترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم (١٩٢٧).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٢٢٦)

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٨١) ، ذكره العسقلاني في فتح الباري (١/ ٢١٦).

جهدوا على عبادة الأوثان ، وتركوا ما جاءتهم به الرسل ، فكذلك أهل الزمان كل عارف ، إذا أظهر من العلوم ما لا تدركه العقول ، ولا تصل إليه الفهوم ، مما لا يقابل بقياس ، ولا يدخل في عوائد الناس يكفرونه ويرمونه بالزندقة ، وقد قالوا: من أفشى أسرار الله فجزاؤه القتل بالسيف ، على عوائد الملوك في قتل من يفشي أسرارهم ، وفي الحديث «**أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم**»[1] اهـ.

وقد حكى الشيخ عبد العزيز المنوفي رحمه الله تعالى ، وكان من أصحاب الشيخ أبي عبد الله القرشي رضي الله عنه ، أنهم قالوا للقرشي مرة: يا سيدي لما لا تحدثنا بشيء من الحقائق؟ فقال لهم: كم أصحابي اليوم؟ فقالوا: ستمائة رجل ، فقال: استخلصوا منهم مائة ، فاستخلصوا ، ثم قال: استخلصوا منهم عشرين ، ثم قال: استخلصوا منهم أربعة ، فاستخلصوا له الشيخ قطب الدين القسطلاني ، والشيخ عماد الدين ، وابن الصابوني ، والقرطبي ، وكانوا أهل مكاشفات وخوارق ، فقال الشيخ: والله لو تكلمت بشيء من الأسرار والحقائق لكان أول من يفتي بقتلي هؤلاء الأربعة ، اهـ.

ووجه ذلك أن علم الحقائق والأسرار من علم سر القدر والجبروت ، وإفشاء ذلك كفر بالله عز وجل ، ويجب على العلماء أن يفتوا بكفره؛ لأن ذلك مما تعبدهم الله تعالى به ظاهراً ، صيانة للشريعة المطهرة ، ولا يلزمهم تصديق ذلك الولي ، فيما طولع به من العلم ، ولذلك قال: افتوا بقتلي ولم يقل يقتلوني ، وأيضاً فإن الأسرار الإلهية المودعة في قلوب العارفين هي من أمانة الله عندهم ، وهي العهد والعقد وهم مطالبون بالوفاء بالعهود والعقود ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، دون غيرهم ، فلو قطع صاحب الأسرار إرباً إرباً لما أظهرها ، لكن إن أعطى الحق تعالى عبداً قوة على التلويح دون التصريح ، كسيدي محمد البكري ، حفظه الله تعالى من عيون الحاسدين ، فلا بأس بذلك؛ لأن صاحب التلويح لا يقدر العلماء على الجزم بحاله أبداً ، وفي كلام الموازيني الشاذلي ، رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مثواه ، موالياً:

تزاحم الكون عندي كالبها في الريح ... مالوا بقاصر حوا وصف الفنا تصريح

ما تم غير الحقائق وضح التوضيح ... لكن لها بحر واسع يطلب التلويح

فعلم أن كمل العارفين لا يقع منهم إفشاء لسر الربوبية ، ثم لو تصور وقوع ذلك منهم في حضور أو غيبة أو غلبة حال ، حصل القتل ، إذ الغيرة الإلهية تقتضي ذلك كما مر في أسرار الملوك ، وفي رمزه تعالى فواتح بعض سور القرآن العظيم ، مع قدرته على إظهار تلك ، مقنع

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٣/ ٣٧٨) ، والعجلوني في كشف الخفاء (٥٩٢) وقال: سنده ضعيف.

لمن يقنع ، فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: معرفتي بأهل الدعاوي الصادقة والكاذبة ، وذلك بعلامات يلهمها الله تعالى لي ، حتى يصير ذلك عندي كالعالم الضروري ، وقد دخل عليّ مرة شريف نحيف البدن بعمامة ، وله لثام ، فكلمني في علوم لا يعرفها إلا المهدي عليه السلام ، وأخبرني أنه هو ، وأنه قرب ظهوره ، فلم أحتفل بأمره ، فقال لي: أما عندك تصديق بذلك؟ فقلت: لا ، مع أنه شاب مهيب النظر حسن السمت فقلت له: صوتك ليس بصوت شريف ، والمهدي شريف بيقين ، فكشف اللثام عن وجهه ، وقال: صدقت وقد امتحنت خلقاً كثيراً في المغرب ، فصدقوا أني المهدي الأكبر ، وصاروا يقولون: قد خرج المهدي ، فقلت له: فما حملك على ذلك؟ فقال: ليكون المهدي على بالهم ، فإنه قد قرب ظهوره ، ومرادي بقولي: أنا المهدي ، أن الله تعالى هداني لدين الإسلام. ا هـ.

وقد حكى الشيخ عبد العزيز المنوفي رحمه الله تعالى: أنه ورد في زمان الملك الكامل فقير جميل الصورة ، وله علوم ظاهرة وباطنة ، وهو شريف ، وكان له أحوال جليلة ، وصنف كتاباً ذكر فيه أنه المهدي ، فوصل إلى السلطان ، فقال له الملك الكامل: إن رسول الله ﷺ أخبر أن المهدي يخرج من بين الصفا والمروة ، ويبايع الناس له عند الحجر الأسود ، فقال للسلطان: أنت جاهل ، إنما أراد ﷺ بالصفا والمروة العلماء والفقراء ، يخرج من بين هؤلاء رجل هو المهدي ، وأنا ذلك الرجل ، وليس مراداً بالصفا والمروة الطوب والحجارة ، فلم يشوش عليه السلطان ، بل أمر بتجهيزه إلى الغرب فجهزوه ، قال الشيخ عبد العزيز فاستخبرت عنه بعض أهل الغرب ، فقال: رأينا رأسه معلقة على باب مراكش.

قال الشيخ عبد العزيز: وبلغني أن ابن تومرت لما ادعى أنه المهدي ، اهتدى على يديه خلق كثير ، وأنه مر على قوم ينكرون دين الإسلام ، والبعث فعمل حيلة وأعطى جماعة مالاً جزيلاً ، وأنهم يدخلون في القبور ويسقفونها عليهم ، ففعلوا ثم صار يأتي بهؤلاء المنكرين جماعة بعد جماعة ، وينادي أهل تلك القبور: أما وجدتم دين الإسلام حقاً ، أما جاءكم منكر ونكير ، فيقولون: نعم نعم وجدنا ذلك حقاً. ا هـ.

وهذا الأمر لم يزل يقع في أرض المغرب ، لكني بحمد الله اجتمعت بالشيخ حسن العراقي ، المدفون فوق الكوم المطل على بركة الرطلي بمصر ، وذكر لي أنه اجتمع بالإمام المهدي الحق بعد مواظبته على سؤال ربه ، أن يجمعه عليه سنة كاملة ، وقال لي: إن وجهه يشبه جده ﷺ ، لكن وجه رسول الله ﷺ أحلى وأملح ، وقال لي: سألته عن عمره ، فقال لي: ستمائة سنة وشيء ، وأن له بعد مفارقته إلى الآن مائة سنة ، وهو من ولد الإمام حسن العسكري ، هكذا أخبرني عنه ، والله أعلم بحقيقة الحال ، فإني لم أجتمع عليه حتى أعرفه ،

فاعلم ذلك ، واعمل عليه ترشد ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة شفقتي على الأيتام والعميان والمجذومين والعرجان ، وسائر من به عاهة لا سيما إن جاوروا عندي ، حتى أني أود أن لو كان المجاورون كلهم عندي عمياناً وعرجاناً ومكاسير ، وكان على هذا القدم سيدي أحمد ابن الرفاعي ، والشيخ عثمان الحطاب ، وغيرهما رضي الله تعالى عنهم ، حتى إن سيدي أحمد كان يدور وراء الكلاب المدودين يداويهم ، فربما هرب منه الكلب فيمشي وراءه ، ويتعطف بخاطره ، ويقول: أي مبارك إنما أريد مداواتك .

وكان يمشي إلى المجذومين والزمنى في أماكنهم ، فيغسل ثيابهم ، ويفلي رؤوسهم وثيابهم من القمل ويحمل إليهم الطعام ، ويأكل معهم ويجالسهم ، ويسأل الله تعالى لهم العافية ، ويسألهم الدعاء ، ويقول: زيارة هؤلاء وخدمتهم من الواجبات ، وكذلك كان يفعل مع العميان والمرضىٰ والعرجان ، وكان يقضي حوائج العجائز والأرامل من النصارى ، ويخدمهم ويحسن إليهم ، حتى أسلم خلق كثير منهم على يديه ، وكانوا يسمونه أبو الأيتام والمساكين ، وربما سمع بمرض أحد من الفقراء في غير بلده ، فيخرج إليه فيعوده ويخدمه ، ثم يرجع بعد يومين أو ثلاثة .

وكان يقف في الشارع بقصد أنه يقود العميان ، فإذا قام أحدهم قبل يده وسأله الدعاء ، وكان يتفقد الشيوخ الذين عجزوا عن الذهاب إلى بيت الخلاء ، وصاروا يتغوطون على ثيابهم ، فيخلعها ويغسلها وينشفها ثم يلبسهم إياها ، ويوصي جيرانهم عليهم ، ويقول: الشفقة على خلق الله مما يقرب العبد إلى الله ، وفي الحديث «**الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله**»[1] .

وكان رضي الله عنه عنده يتيم من الأبوين ، فكان يأتيه في الورد ، أو في مجلس الوعظ فيطلب منه شيئاً يأكله ، أو شيئاً يلعب به ، فيقوم الشيخ ، ويأخذ له ما طلب ، ثم يرجع لا يكاد يخالف اليتيم ، فيما طلب منه ، وكان المشايخ من أهل عصره يقولون: كل ما حصل لأحمد بن الرفاعي من المقامات إنما هو من كثرة شفقته على الخلق ، وذل نفسه رضي الله تعالى عنه .

فاعلم يا أخي ذلك ، وأشفق على خلق الله تعالى لا سيما من ذكرناهم ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، ويدبر أمورك ، ويساعدك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم مروري على أحد من الفقراء أو العلماء وأنا راكب ، إلا وأنا في غاية الحياء وكثرة تقبيلي لرجله في النعل ، لا سيما إن كان ممن

(١) أخرجه الشهاب في مسنده (١٣٠٥) ، والديلمي في مسند الفردوس (٢٩٩٥) .

يكرهني ، وقليل من الفقراء من يقدر أن يفعل مثل ذلك ، وكان هذا من خلق أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه ، كما في المنة التي قبل هذه.

وقد سأل جماعة الشيخ أبا المنذر المهتدارجي رضي الله تعالى عنه ، عن سيدي أحمد بن الرفاعي ، فقال: لا أقدر أن أشرح لكم حاله ، فقالوا له: لا بد أن تخبرنا بشيء من أحواله ، فقال: ماذا أقول في رجل ما اعترف قط لنفسه بمقام ولا قدر ، ولا خطر له غير ربه ، ولا رضي لنفسه التنعم بشيء من الدنيا في يوم من الأيام ، وكلما ازداد قدراً ومقاماً عند الله تراه يزداد ذلاً ومسكنة لله وللخلق ، وكان الأشياخ يقولون: أعظم الأولياء في عصرنا هذا قدر الشيخ أحمد بن الرفاعي في البطيحة ، وأبو محمد بن عبد الله بالبصرة ، قيل لهم: فأي الرجلين أعلى؟ قالوا: أحمد بن الرفاعي ، كان قطب الأقطاب في الأرض ، ثم انتقل إلى قطبية السموات ، ثم صارت السموات السبع في رجله كالخلخال ، حتى سلك بكثرة ذل نفسه طريقاً لم يسلكها غيره ، ثم لا علم لنا بعد ذلك لماذا وصل ، انتهى.

وكان الشيخ سالم السلماباذي يحط هو وأصحابه كثيراً على سيدي أحمد بن الرفاعي ، فلقيه مرة سيدي أحمد في طريق ، ومعه أكابر أصحابه ، فأول ما رآهم سيدي أحمد ، نزل عن دابته ، وكشف رأسه وقبل لهم الأرض ، وقال لأصحابه: بالله عليكم إن أغلظوا علي القول فاصبروا ساعة ، فلما قبل يد السلماباذي ورجله وهو راكب تلقاه بكل قبيح وشتمه ، وقال له: أي أعور ، أي دجال ، أي مستحل الحرام ، أي مبدل القرآن ، أي ملحد ، حتى قال له: أي كلب ، هذا كله وسيدي أحمد يقبل يده ، ويقول له: أي سيدي بفضلك ارضى عني ، وأنا خادمك ، وحلمك يسعني ، فلما طال الشتم منه لسيدي أحمد نزل عن دابته ، وقال: أي أحمد ماذا أصنع معك فوق هذا ، ما بقي لي فيك حيلة ، ثم قال: والله إني لأحبك يا أحمد ، وما فعلت هذا معك إلا لأختبر ذل نفسك ، وأرى عزة النفس تأخذك فلم يتغير منك شعرة ، ثم قال: يا أحمد أغلقت أبواب جميع المشايخ بكثرة ذلك ومسكنتك ، وستكون الدولة لك ولذريتك إلى يوم القيامة ، فقال له سيدي أحمد: كل هذا ببركتك يا سيدي ، وبركة ملاحظتك لي.

قال يعقوب خادم سيدي أحمد : ثم إن سيدي أحمد قبل رجله وانصرفنا ، وقد هلكنا من الغيظ مما فعله مع سيدي أحمد ، فالتفت إلينا سيدي أحمد ، وقال لنا: ما كان إلا الخير ، أنه أخرج ما كان عنده ، ولو بقي ذلك عنده لهلك وأثمنا نحن ، لكوننا سبباً له في ذلك ، فأرحناه مما كان في صدره منا.

وكان الشيخ إبراهيم الأعزب يقول: كان البستي يحط على سيدي أحمد ، فأرسل مرة له كتاباً فيه: أي أعور ، أي دجال ، أي مبتدع ، أي من جمع بين الرجال والنساء ، الكلب بن الكلب ، فأرسل له الجواب: صدقت فيما قلت: جزاك الله عنا خيراً ، فلا تخليني يا أخي من

دعائك ، وحلمك يسعني ، وكتب عنوانه من اللاش أحيمد إلى سيدي الشيخ المحترم المكرم البستي ، فلما وصل الكتاب إلى البستي ندم ، وخرج من بلاده هارباً على وجهه ، فلم يدر أحد أين ذهب .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: قد سلك سيدي أحمد في الذل مسلكاً يقصر عنه فحول الرجال .

وروى الشيخ عبد الغفار القوصي رضي الله تعالى عنه بسنده إلى يعقوب خادم سيدي أحمد قال: كنت كلما لقيت الشيخ عبد الله الهندي يقول لي: احمل هذه الرسالة إلى شيخك ، وقال له: أي ملحد ، أي باطني ، ونحو ذلك من الألفاظ القبيحة ، فكنت أخبر سيدي أحمد بذلك ، فيقول: قل له: صدقت ، ثم يعطيني دريهمات ، هكذا كان شأنه معي ، ثم ترسل للشيخ عبد الله الهدايا والتحف ، فلا يزداد إلا شتماً ، وقبحاً على سيدي أحمد، فلما طال الأمر على الشيخ عبد الله جاء إلى سيدي أحمد وقبل رجله ، وكشف رأسه وبكى بكاء شديداً ، وصار سيدي أحمد يمسح دموعه ويقول له: ما كان إلا الخير يا أخي، فقد أخرجت الذي كان يؤذيك كتمه، واكتسبنا الخير بسببك، ثم أنه سأل سيدي أحمد في أن يأخذ عليه العهد ففعل ، وصار من أعز أصحابه .

فانظر يا أخي إلى هذه الأخلاق ، واقتد بهذا السيد ، وقبل نعل من يكرهك ويحط عليك إن أردت أن تكون من الصالحين ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كراهة نفسي للقرب من الملوك والأمراء إلا إن أعطاني الله تبارك وتعالى الكشف التام ، لعلمي بعلو مقامهم ، فلا يكون شيخهم إلا على شاكلتهم في العلو في المقام على غيره ، فشيخ الفقير في راحلة ، وشيخ الأمير في تعب وخجل فإن الأمير كلما يقول له: قل لي على ما بقي من مدة ولايتي ، أو متى يعزل عدوي الفلاني ، أو هل يقوم السلطان من هذه الضعفة أم لا ، ونحو ذلك ، فإن لم يكن مشهده اللوح المحفوظ من المحو ، وإلا خجل وافتضح وسقط من عين الأمير فلا يلومن إلا نفسه إذا طرده الباشاه مثلاً من حضرته بعد تقريبه ، وقد طلب أبو جعفر المنصور صحبة ابن أبي ذئب ، فقال له: بشرط أن تقبل نصحي ، فقال له أبو جعفر: نعم ، فصحبه ، فقال له أبو جعفر يوماً: ما تقول فيّ؟ فقال له: لا تعدل في الرعية ، ولا تقسم بالسوية ، فتغير وجه أبي جعفر ، فولىٰ عن ابن أبي ذئب ، ولم يطلق صحبته ، فلا بد لمن يصحب الملوك من حال يحميه إذا نصح أحداً منهم .

وقد بلغنا عن السلطان يعقوب بأرض المغرب ، أنه قتل أخاه من أجل الملك ، ثم ندم وصار يتطلب شيخاً يتوب على يديه ويرشده إلى ما يكون به تكفير ذلك الذنب ، فدلوه على

الشيخ أبي مدين ، وكان إذ ذاك ببجاية ، وكان يعقوب بتلمسان ، فأرسل يعقوب رسله إلى بجاية ليأتوه بالشيخ أبي مدين ، فأجاب ، وقال: سمعاً وطاعة لولي الأمر ، ولكني لا يقع بيني وبينه اجتماع؛ لأني أموت بتلمسان ساعة وصولي إليها ، فلما وصل إليها قال لرسل يعقوب: سلموا عليه ، وقولوا له شفاؤك على يد أبي العباس المرسي ، ونفعك على يديه ، فأخبره الرسل بذلك ، فمات الشيخ أبو مدين بتلمسان ، فطلب يعقوب الشيخ أبا العباس المرسي طلباً حثيثاً ، وسير رسله إلى سائر الجهات إلى أن ظفروا به ، فاستأذن الحق تعالى في الاجتماع به ، فوجد انشراحاً بذلك ، فمشى إلى يعقوب ففرح به يعقوب غاية الفرح ، ثم إن السلطان أمر بذبح دجاجة ، وخنق أخرى ، وطبخهما وقدمهما إليه ، وجلس معه ليأكل ، فلما نظر الشيخ أبو العباس إليهما أمر الخادم برفع المخنوقة ، وقال: هذه جيفة ، وقال: لولا تنجس الأخرى بالمرق النجس لأكلت منها ، فسلم يعقوب نفسه إليه ، وأنزل نفسه معه منزلة الخادم ، وسلك الطريق على يده ، ثم ترك ملك المغرب وساح ، فقد علمت أنه لولا كشف الشيخ أبي العباس رحمه الله تعالى عن الدجاجة المخنوقة ، ما كان السلطان اعتقد ، ولا تتلمذ له ، فمن الحمق والجهل طلب أمثالنا أن يكون أحدهم شيخاً على أحد من الأمراء ، ولا كشف عنده ، والحمد لله رب العالمين على كل حال.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم طلبي كثرة المريدين زيادة عن أقراني إلا أن وطنت نفسي على تحمل كثرة البلاء الزائد على بلاء جميع الأقران ، فإن كثرة البلاء تابع لكثرة المريدين ، إذ الأولياء على أقدام الرسل ، فكما أن بلاء الرسل يعظم بحسب كثرة أممهم ، فكذلك الأولياء يكون بلاؤهم على قدر مريديهم ، ومن هنا كان بلاء رسول الله ﷺ أعظم من بلاء الرسل كلهم ، كما قال ﷺ: «**ما أوذي نبي كما أوذيت**»[1] ومعلوم أن غيره نشر ، وقتل ، وابتلي بأنواع من البلاء ، ومع ذلك فما أوذي به نبينا ﷺ أكبر؛ لأنه كلما كمل له الدين ، كذلك كمل له الابتلاء لإرساله إلى الناس كافة ، ولكن لما كان له المقام الأعظم في العلو على مقام غيره ، لم يظهر على ذاته العلية كبير أمره ، وغاية ما ظهر عليه من أذى قومه تكذيبهم له ، وشجهم جبينه ، وكسرهم رباعيته ، ووضعهم الكرش على ظهره وهو ساجد ، ونحو ذلك.

ومعنى قوله ﷺ: «**ما أوذي نبي كما أوذيت**» أي لأن دعوتي عامة ، فاجتمع علي الاهتمام ببلاء أمتي له ، فكمل لي مقام الابتلاء كما كمل بي الدين فكل بلاء كان مفرقاً في الأمم اجتمع لي ، وابتليت به فلا بلاء لأحد كبلائي؛ لأنه لم يرسل أحد إلى الناس كافة غيري.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: كان ﷺ كلما سمع ما جرى لنبي من

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٥٨١٧).

الأنبياء من الأذى والبلاء يتصف به ، ويجد في نفسه كل ما وجده ذلك النبي من الألم والأذى والغيرة على الدين، واحتمال الكذب ، وكان يقوم به من الشفقة والرحمة لأتباعه المؤمنين نظير ما حصل لجميع الرسل ، فقد انكشف لك معنى حديث «**ما أوذي نبي كما أوذيت**» ويحتمل أنه ﷺ كان يجد من الألم أشد من ألم ذلك النبي الذي قص الله خبره عليه ، لعلو مقامه ، وكثرة تألمه ﷺ من حيث محبة الأخوة التي كانت بينه وبينهم ، فإن الإنسان يتألم لكثرة ألم أخيه أكثر ما يتضرر لضرر أجنبي مثلاً ا هـ.

فعلم أن من طلب من الدعاة إلى الله تعالى كثرة الأتباع ، فليستعد لكثرة البلاء ، فإن بلاءه على قدر أتباعه ، وإرثه من رسول الله ﷺ ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: فلاح ولدي عبد الرحمن ، وحسن فهمه وعقله، وامتثاله أمري كما يتمثل المريدون ، وتعظيمه لي كما يعظمني الأجانب ، وقل أن يقع هذا من ولد فقير ، ثم إن وقع هذا لأحد منهم جاء أعظم مقاماً من والده؛ لأنه يأخذ فوائد والده التي حصلها بكثرة المجاهدة إلى أواخر عمره ، فيعمل بها ، ويؤمن بها من غير نصب ولا تعب ، كاملة موفرة ، فقد ساوى والده في مقام العلم والعمل ، وما بقي لوالده عليه مقام الشياخة والإفاضة لا غير ، وذلك أمر سهل وقد استفدت من ولدي هذا عدة فوائد وآداب ، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله ، ولم يزل الفقراء يتجرعون الغصص من جهة أولادهم ، لما يرونه منهم من قلة سلوك طريق القوم.

وقد كان سيدي الشيخ أحمد الزاهد رضي الله تعالى عنه ، يلقن ولده سيدي أحمد ، ويخليه فلا يحصل له شيء مما يحصل لغيره ، فيقول له: والله يا ولدي إنك لمن أحب الناس إليّ ، ولكنها قسم قسمت ، ولو أن الأمر كان في يدي ما قدمت أحداً عليك. ا هـ.

وكذلك أدركت شيخنا الشيخ علياً المرصفي رضي الله تعالى عنه ، يتلهف على عدم سلوك بعض أولاده الطريق ، وعدم انتفاعه به ، مع أن الغريب يجيء فينتفع بالشيخ ، ويبلغ مبلغ الرجال ، ولما حضرت وفاة الشيخ محمد المنير ، كان ولده سيدي علي كالمجذوف ، وكان قلبه معلقاً به ، فكان كل ولي اجتمع به يقول له: خاطرك على ولدي علي ، فلما توفي والده ، أفرغ الله تعالى عليه الأخلاق المحمدية ، والعلوم الشرعية ، ومعرفة مراتب العالم ، وصار آية من آيات الله عز وجل.

قالوا: وإذا وفق الله تعالى ولد الفقير جاء أعلى مقاماً من والده ، فإن لم يوفق فاللوم على الوالد ، لأنه أفرغ في رحم أمه النطفة الجامعة لجميع الكدر الذي كان في ظهره حين تصفى وتجوهر ، ا هـ.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إنما كان الغالب على أولاد الفقراء

عدم بلوغ مراتب الرجال في الطريق؛ لأن أحدهم يتربى على الدلال ، وإكرام الناس لهم ، فيرىٰ جميع أصحاب والده يقبلون يده ، ويحملونه على أكتافهم ، ويطيعونه في كل ما يطلب منهم إكراماً لوالده ، فتكبر نفس أحدهم ، ويرضع من ثدي الرياسة من صغره ، وتتوالى عليه تلك الأحوال المظلمة لقلبه ، حتى يصير لا تؤثر فيه المواعظ ، ولا يسمع من أكابر جماعة والده نصحاً ، ويتجرأ بسوء الأدب على الأكابر ، ويرى المشيخة له كالميراث ، فيعيش في حس والده لا يكتسب فضيلة كما هو مشاهد ، وهذه هي القاعدة الأغلبية في أولاد الفقراء.

وقد تخلفت القاعدة في أولاد جماعة من أهل عصرنا فجاؤوا موفقين صالحين ، منهم سيدي محمد البكري ، وسيدي علي ابن الشيخ محمد المنير ، وسيدي زين العابدين ابن سيدي علي المرصفي ، وسيدي أحمد ابن الشيخ سليمان الخضيري ، وسيدي محمد ابن سيدي الشيخ أبي العباس الحريثي ، وسيدي الشيخ عبد القدوس ابن شيخنا الشيخ محمد الشناوي ، فهؤلاء من نوادر الزمان في أولاد الفقراء ، فأسال الله تعالى أن يزيدهم وولدي عبد الرحمن توفيقاً ، ويجعل الذرة من أعمالهم أرجح من القنطار من أعمال والديهم ، آمين ، آمين ، آمين. فعلم أن ولد الفقير إذا سلك مع والده مسلك المريدين معه في الأدب والتعظيم ، أفلح فلاحاً عظيماً ، ووصل إلى درجة الأولياء في الكمال ، وحاز حقيقة النسب الأصلي من والده ، فإن النسب الروحي هو المطلوب دون الطيني ، فافهم ذلك ترشد والله يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم عداوتي لأحد من مشايخ عصري الذين هم أقران لمشايخي ، فكما أعتقد شيخي وأومن بصحة طريقه ، فكذلك اعتقد صلاحهم ، وأومن بطريقهم ، وإنما خصصت شيخي بكثرة الاجتماع به ، لكون نصيبي في الطريق جعله الله تعالى على يديه دونهم ، كما أن من يكون بينك وبينه معاملة في الدنيا ، وكثرة أخذ وعطاء يكون مجالستك له أكثر ، وهذا أمر مستمر في سائر الأعصار من عصر الصحابة إلى وقتنا هذا ، ثم إن هذا الخلق قليل من المريدين من يتخلق به ، بل رأيت بعضهم يحط على أقران شيخه.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من اعتقد أنه ينال حظاً من الله تعالى بقرابته من أولياء الله ، مع عدم صلاحه ومخالفته لطريقهم في الصفاء والمحبة مع بعضهم بعضاً ، ومع كثرة إساءته مع أحد منهم ، فقد كذب في زعمه ، فكما أنه يجب محبة الرسل كلهم وإن اختلفت شرائعهم ، فكذلك الأولياء يجب محبتهم كلهم وإن اختلفت طرقهم ، كما أن من آمن بالأنبياء والمرسلين إلا واحداً منهم لم يصح إيمانه ، فكذلك من اعتقد أولياء الله كلهم إلا واحداً بغير عذر شرعي لا تصح محبته ولا يفيده ذلك الاعتقاد شيئاً؛ وذلك لأن الرسالة واحدة لا تتبعض ، كما هو الأمر في التوحيد ، فإنه لا يقبل الاشتراك وطريق الولاية

التي يأمر بها الأولياء مريديهم هي طريق الرسالة التي يأمر بها الرسل أممهم ، فإنهم لا يدعون الناس إلا بما دعت به الأنبياء أممهم ، وليس عند الأولياء تشريع من قبل أنفسهم. فجميع ما يدعون به الناس إنما هم نواب فيه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فمن كفر بهم أي قال: ليس لله أولياء ، فقد كفر بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأنهم هم الذين أثبتوهم ومن رد دعوة ولي فقد رد دعوة نبي ، وذلك كفر.

فتنبه يا أخي لنفسك ، وإياك والحط على أحد من أقران شيخك ولو في نفسك فقد يكون ذلك كفراً؛ لأن موضع الإيمان القلب لا اللسان ، ومن أنكر على ولي بباطنه ومدحه بلسانه ، فهو منافق خالص ، والمنافق لا يجيء منه شيء في الطريق أبداً؛ لأن مبتدأ الطريق مقام الإحسان ، وهذا لم يصح له مقام الإسلام ، فافهم.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول لمريدي هذا العصر: إياكم أن تكفروا بطريق غير شيخكم من الأولياء من غير مسوغ شرعي ، فتمقتوا ، فإن كل ولي مؤمن بكل ولي ، كما أن كل نبي مؤمن بكل نبي ، فمن جحد منهم واحداً بغير مسوغ شرعي كان جاحداً للجميع ، ومن آذى منهم واحداً فقد آذى الجميع ، ومن كذب منهم واحداً فقد كذب الجميع ، وبارز الله بالمحاربة ، وكلامنا إنما هو في المقطوع بولايته ، فإنه حينئذ مقطوع بمشروعية ما يدعو إليه حال ولايته.

وسمعته مرات يقول: لو أن إنساناً أحسن الظن بجميع أولياء الله تعالى ، إلا واحداً بغير عذر مقبول عند الله تعالى ، فضلاً عن كونه يؤذيه ، لم ينفعه حسن ذلك الظن عند الله تعالى ، وإن جازاه تعالى عن حسن ظنه ، فلا يجازيه بذلك ، إلا إن كان خالياً من الشوائب ، وأنى له بذلك ، إذ لو كان ذلك حقيقة لما أساء الظن بواحد منهم بغير عذر شرعي ، إذ الولاية في نفسها واحدة وإن اختلفت طرق السالكين ، كما مر قريباً فإنها متلازمة ، ولذلك لا تجد ولياً حقاً له قدم الولاية إلا وهو مؤمن مصدق لجميع أقرانه من الأولياء ، لم يختلف في ذلك إثنان ، كما لم يختلف قط نبيان في الله عز وجل ، فالمحبون لله تعالى كلهم كالواحد ، كما أن المحبوب واحد ، فمن آذى لله ولياً فقد خرج من دائرة الشريعة.

ونسأل الله تعالى العافية ، فاعلم ذلك ، وإياك وما يعتذر منه ، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، والله تعالى يتولى هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من صغري إلى وقتي هذا من الوقوع في شيء من أعمال قوم لوط أو عمل قوم غيره من هود وصالح وغيرهم ، مما أهلك الله تعالى به الأمم السالفة ، كما قصه تعالى علينا في القرآن ، وأشد الذنوب كلها ما خسف الله تعالى بفاعله الأرض ، فإنه ينبيء عن شدة غضب الله تعالى ، بخلاف نحو نطاح الخروف ، ومنافرة الديكة ، ولعب النردشير ، ونحو ذلك ، فلو سجدت لله تعالى على الجمر من منذ خلق الدنيا

إلى زوالها ما أؤدي شكره على ما زوي عني من صفات هؤلاء الهالكين.

وقد اقتلع جبريل عليه السلام مدائن قوم لوط السبعة من تخوم الأرض، ورفعها بقدرة الله تعالى إلى نحو السماء، حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها إلى الأرض، فموضعها الآن بركة ماء في الشام، لا يشرب منها طير ولا وحش ولا إنسان، ولا ينبت فيها شيء من النبات، وأخبرني بعض الأصحاب أنه احتاج إلى الوضوء فلم يتوضأ منها، من شدة قذارتها ونتن رائحتها، وأخبرني شخص من فقراء الشام أن فقيراً أخبره قال: إنا كنا جماعة فمررنا على بركة قوم لوط، فقال بعض الجماعة هذا مكان أصحابنا، فخرج له حوت وجره برجله وأدخله في الماء، ونحن ننظره، وبلغنا أن المارين عليها في ليل أو نهار يسمعون كل قليل وجبة تقع كالحجر، فيموج لها الماء، فيقال: إن كل من عمل عمل قوم لوط ينتقل إليها بعد الموت، تنقله الملائكة الموكلون بأهل النار.

نسأل الله العافية، وأسأل الله تعالى من فضله أن يحمينا وجميع إخواننا وذريتنا من مثل ذلك، بكرامة سيدنا محمد ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: صحبتي لجماعة من الفقراء الكمل في الإيمان، ممن لا يتخللني فيه تهمة قط، من جهة مال أو عيال، فلو فرضت أن الله ملكني مالاً كثيراً فأودعت عند أحدهم مائة ألف دينار، أو تركته عند عيالي في محل خلوة، لا يخطر في بالي قط أنه ينكر الوديعة، أو يراود عيالي عن نفسها، ومع ذلك فلا أمكنه قط أن يجلس مع عيالي إلا بحضرتي، صيانة له عن التهمة، ولعيالي عن لوث أهل الفساد بها، قياساً على أنفسهم، وقد ورد في الحديث: «**المؤمن من أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم وذويهم**»(١) يعني عيالهم.

وكان من هؤلاء القوم سيدي علي الخواص، وسيدي أفضل الدين، والشيخ عبد القادر الدشطوطي، والشيخ محمد الشناوي، وسيدي علي المرصفي، والشيخ أبو بكر الحديدي، والشيخ محمد العدل، والشيخ محمد المنير، والشيخ محمد بن عنان، والشيخ محمد بن داود، والشيخ عبد الحليم رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فكل هؤلاء كانت علامة الولاية ظاهرة عليهم، لا يتخللهم ساعة غفلة عن ربهم، بل هم عاكفون في حضرة الإحسان على الدوام، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وحكي، أن بعض الفقراء زاره أخوه في الله تعالى، وكان الزائر صاحب تصريف عظيم،

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (٢٦٢٧)، والنسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، باب صفة المؤمن (٤٩٩٥)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله (٣٩٣٤)، وأحمد في مسنده (٢٣٤٣٨)

وكشف ظاهر ، فتركه ليلة عند عياله ، بات خارج الدار ، فاطلع الفقير عليه من كوة من دار جاره وهو يقبل جاريته ، فجاءت الجارية لسيدها ، وقالت يا سيدي أنت تقول إنه رجل صالح ، وقد وقع له هذه الليلة ما وقع ، وحكت له القصة ، فقال: اكتمي ذلك ، فلما كان الصباح دخل سيدها الدار ، فقال له بحضرتها عهدي بك وأنت صاحب تصريف وكرامات ، وقد اشتهت نفسي الآن المشمش الرطب ، وكان في الدار شجرة مشمش غير طارحة ، وذلك في غير أوان المشمش ، فأشار إليها فأثمرت في وقتها ، وأخذ المشمش منها ، ووضعه بين يدي سيد الجارية ، فقال له: وكنت أعرف منك أيضاً الطيران ، ولي حاجة في ذلك الجبل ، وسمى حاجته ، فانجمع الضيف وطار إلى الجبل وأتى بالحاجة ، فتحيرت الجارية ، فقال لها سيدها اعلمي يا أمة الله أن الخصائص الوهبية لا يشينها النقائص الكسبية ، وتقبيله لك من الصغائر ، والتوبة تجب ما قبلها من الصغائر والكبائر ، والعصمة لا يتحدى بها إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ا هـ.

فعلم أن العصمة شرط في النبوة لا في الولاية؛ وذلك لأن الأولياء دعاة بواطن وأسرار والأنبياء عليهم السلام دعاة علانية وإظهار ، فيجب عليهم إظهار المعجزة والتحدي بها ، لقيام الحجة على المعاندين والكفار؛ لأنهم يدعون الناس بحكم الاستقلال ، بخلاف الأولياء فإنما يدعون الناس بحكم الاتباع لنبيهم ، بشرعه الثابت المقرر الذي لا شك فيه ، حكى هذه الحكاية الشيخ عبد الغفار القوصي ، عن بعض الثقات ، عن صاحب الواقعة.

وقد تقدم في هذه المنن عن سيدي الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله تعالى عنه ، أن شخصاً من الأولياء نام عنده ، فزنى بجاريته تلك الليلة ، ثم اغتسل وخرج يمشي على الماء في بحر الاسكندرية ، حتى غاب عنا ، فقلت له: ما هذا وذاك؟ فقال: هذا عطاؤه ، وذاك قضاؤه. ا هـ.

ومن هنا قال الجنيد رضي الله تعالى عنه ، لما قيل له: أيزني العارف؟ فقال: «وكان أمر الله قدراً مقدوراً» والحكم للسوابق لا للواحق. ا هـ.

فافهم يا أخي ذلك ، واعلمه ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: صحبتي لجماعة من ملوك الآخرة ممن أطلعهم الله تعالى على أسراره ، وما يحدثه في خلقه ، لكن منهم من يتستر بإظهار الجهل والذلة ، ومنهم من يظهر لمن يستحق ذلك ، ومنهم من يجري الله تعالى على لسانه ما يريد فعله في خلقه ، ومنهم من يعلم ذلك ، ومنهم من لا يعلمه إلا بعد وقوعه ، ومنهم من يؤمن بما يقوله ويفعل ، ومنهم من يكشف له عن الكون جملة وتفصيلاً ، وما سيكون قبل أن يكون من المحدثات في العالم.

وقد كان الشيخ أبو الحسن بن الصباغ بالاسكندرية ، يخرج على أصحابه فيقول: أفيكم من إذا أراد الله تعالى أن يحدث في العالم حدثاً أعلمه قبل حدوثه ؟ فيقولون: لا فيقول: أبكوا على قلوب محجوبة عن الله عز وجل.

ومنهم من إذا دخل البستان نادته كل شجرة وأخبرته بما فيها من المنافع والمضار ، وقد سئل عن ذلك سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه ، فقال: وعزة ربي قد أعطيت هذا المقام وأنا دون البلوغ.

وقد أخبرني الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد الشربيني: أن ملك الموت جاء ليقبض روح ولده أحمد هذا فقلعه منه قلعاً عنيفاً ، وقال: ارجع إلى ربك ، وعاش أحمد بعد ذلك نحو ثلاثين سنة ، وكذلك وقع للشيخ أبي الطاهر في عصر الشيخ أبي الحجاج الأقصري ، ذكره في كتاب الوحيد.

ورأيت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى نزل سلم المقياس لما توقف النيل عن الزيادة ، فتوضأ وصار الماء يتبعه ، فزاد في ذلك اليوم ذراعاً ، ولما توقفت النخلة التي في مدرستنا القديمة كذا وكذا سنة عن الحمل ذكرت له ذلك ، فقال لي: قل لها الحاج علي الخواص يقول لك: احملي هذه السنة وإلا قطعوك ، فحملت تلك السنة ، حتى جعلنا للعراجين شيالات من كثرة الحمل ، وهذه المنة من غرائب الزمان ، فقل فقير يصح له الاجتماع بمثل ذا في هذا الزمان الذي استتر فيه الأولياء بسبعين ألف حجاب ، وتقدم أنني اجتمعت بالمهدي وبالخضر عليهما السلام ، فاعلم ذلك ، والله يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: وقوفي عند ما حده لي شيخي من عدم مصاحبة كل من اتصف بكذا وكذا ، حتى أن شيخي لو اتصف بذلك الأمر وقفت عن صحبته ، حتى يأذن لي في صحبته بأمر جديد؛ لأنه ليس للمريد أن يقتدي بجميع أفعال شيخه إلا بإذن منه ، وعهد الشيخ علي المريد من جملة حقوق الله عز وجل ، وهي مقدمة على حقوق الخلق ، وهذا الخلق فيه خفاء إلا على من نور الله تعالى به بصيرته ، وغالب المريدين يقول: إن شيخي لا يدخل فيمن نهاني عن صحبتهم مثلاً ، ولو أنهم أخذوا بالاحتياط لعهود الله تعالى لتجنبوا شيخهم ، عملاً بعموم اللفظ ، لكان أولىٰ وأرجح في طريق الاقتداء ، وقد قالوا: امتثال الأمر أولىٰ من سلوك الأدب؛ لأنه يطلق على من أمره شيخه بالجلوس على كرسي مثلاً متبعاً ، وعلى من لم يفعل ذلك تعظيماً له مخالفاً في الصورة.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يخدمنا ، ولا يمكننا أن نخدمه ، وكنا إذا

دخلنا مكاناً في وليمة يجعل جميع نعالنا في خريطة ويحملها ، وكنا لا نصلح تلامذة له ، رضي الله تعالى عنه.

وقد حكي أن شيخ الشيخ أبي الحجاج الأقصري ، نهى بعض تلامذته عن صحبة الملوك ، وعن صحبة من يصحبهم ، ثم إن الشيخ صحب سلطان مصر ، وسافر معه ، فهجر الشيخ أبو الحجاج شيخه بالجلوس صورة ، عملاً بعموم لفظ وصيته؛ لأن شيخه لم يستثن نفسه عن ذلك ، فشكره شيخه على ذلك ، وقال: نعم ما فعلت؛ لأني وإن صحبت السلطان مع ظني في الله السلامة منه ، فإني ركبت بذلك الخطر ، فقل فقير يسلم من صحبتهم؛ لأنها أولاً صحبة لغير الجنس ، وقد نهى العقلاء عن ذلك؛ لأن من يصحبهم يحتاج إلى موافقتهم ، وموافقتهم لا تنضبط على الشرع ، وموافقتهم فساد الدنيا والدين ، فإنهم قالوا القرب من السلطان كحد السيف؛ لأن مال من يصحبه ودمه بين شفتيه بإذن الله تعالى ، وما لم يكن الذي يصحبه موافقاً لكل ما يرضيه منه في سائر أحواله ، وإلا أدى ذلك إلى هلاكه ، وأيضاً فإن دخول منازل الملوك محسود عليها ، فيعملوا له الأعداء المكايد ، ويرموا بينه وبين السلطان ، حتى يصير من أعدائه كما جربنا ذلك.

فعلم أن التزام المريد العقد مع شيخه أنه لا يصحب من يصحب الملوك ، حتى شيخه أولى؛ لأنه يرى حل عقده مع عقده مع الله معصية لله ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولو كان شيخه أو إمامه ، ولعله شيخه إنما قصد بما وقع امتحانه ، لينظر هل يقف مع العهد أم يؤول ذلك بعقله إلى غير مراد شيخه.

وقد أخبرني سيدي محمد الشناوي أنه كان مسافراً مع شيخه الشيخ أبي الحمايل في بلاد الريف ، فترك الشيخ أبو الحمايل الطريق المسلوك الناعم ، وساق حمارته في أرض الحرث ، فلم يتبعه أحد من الجماعة غير سيدي محمد ، فلما التفت وراءه ، قال: أحسنت يا محمد ، فإني إنما فعلت ذلك لأعرف هل تتبعني في المتاعب أو تفارقني كما فعل الجماعة ، انتهى.

وامتحان الأشياخ لمريديهم لم يزل يقع كثيراً ، ولذلك كان الغالب على المريد عدم السلامة ، فإن الأشياخ أعظم من الملوك ، فافهم ذلك واعلمه ، واعمل على التخلق به ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم خروجي من بيتي في أغلب الأيام إلى الزاوية أو غيرها إلا إن علمت من نفسي القدرة بإذن الله تعالى ، على هذه الثلاث خصال: تحمل الأذى من الناس ، وتحمل الأذى عنهم ، وجلب الراحة لهم ، فإنه لا بد لمن يخالط الناس من هذه الخصال الثلاث ، زيادة على ما كلف به من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والنصيحة للجميع ، ومع ترك المؤاخذة لهم ، فاعذروني أيها الإخوان في كل يوم لم أخرج

إليكم فيه ، واعذروا كل فقير كذلك ، فإن هذا زمان قد اختلفت فيه الأحوال ، فربما أتى الأذى لك ممن تقصد له الراحة ، وربما أتاك الغش ممن تبالغ في نصحه ، وربما أتاك الخذلان ممن قمت معه في مناصرته على أعدائه ، وربما أتتك العداوة ممن قصدته بالمحبة.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: أوصاني سيدي إبراهيم المتبولي وقال: يا علي إياك والإكثار من مخالطة الناس ، فإن كل واحد منهم يطلبك لما يختار هو من هواه ، ولو كان ذلك يهلك دينك ودنياك ، وليس له فيما تعود مصلحته عليك أرب ، فإن وافقته خسرت دنياك وآخرتك ، وإن خالفته جرد لك سيف المعادة والمعاندة ، مع أن غيره كذلك يطلب ويقصد منك خلاف مقصده هذا لو كان شخصين فقط ، كما ذكر ، فكيف بجميع أهل بلدك ، انتهى.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: قد جربت الناس ، فرأيت بعضهم كالحية ، وبعضهم كالعقرب ، وبعضهم كالسبع ، وبعضهم كالذئب ، وغير ذلك من أصناف القواتل ، فمن لاذع قاتل مع لين مسه كالحية ، ومن لاسع كالعقرب ، ومن مراوغ كالثعلب ، ومن مهارش كالكلب ، ومن محتال كالذئب ، ومن غبي كالدب ، ومن محتال كالفهد ، ومن محك كالقرد ، ومن شديد الغضب والبأس كالأسد ، ومن بليد كالحمار ، ومن حقود كالجمل ، ومن وثاب علي كالنمر ، ومن ناس لما أفعله معه من الخير كالفأر ، والله ما أمثل نفسي بين هؤلاء إلا كالفرخ الذي لا ريش له ، أو كالطير الذي لا جناح له ، وهم يتساقطون علي بالأذى كتساقط الذباب على العسل ، أو كالكلاب على الجيفة ، أو الحدآت على اللحم ، فهم يتجاذبوني ، ويتناهشوني ، ويمزقوني ، ويقطعوني ، ويلدغوني ، ويلعنوني ، ويذموني ، ويسبوني ، فأنى لي الصبر والسلامة مع مثل هؤلاء ، على أن السباع والحشرات التي ضربنا بهم الأمثال أقل ضرراً من الناس؛ لأنهم لا يمنعوني من أعمال آخرتي ، ولا يحجرون عليّ في نفسي ، ولا يفشون سري ، ولا يعيبون على كلامي ، ولا يغري بعضهم بعضاً على إيذائي ، ولا يحيلون بيني وبين ربي ، انتهى.

وسمعته مرة أخرى يقول: إذا قدر الله تعالى عليك الاجتماع بالناس لواجب حق الله ، أو لضرورة خلق ، فإياك أن تعطيهم من نفسك في المحبة والاجتماع فوق الضرورة مع شدة الاحتراز من نفسك عن فضول الكلام معهم ، اللهم إلا أن تجد من هو على نعت الاستقامة ، فهذا مخالطته من السعادة ، ولكن أين من هو بهذا الوصف في هذا الزمان الذي صار فيه الدليل حيران ، وصار غالب علم العلماء صناعة وسلماً يرتقون به إلى الرياسات الدنيوية ، والشهوات النفسية ، وقنعوا من العلم بظاهره دون العمل بحقائقه ، والكشف على دقائقه ، انتهى.

فعليك يا أخي بملازمة التقوى ، وإياك أن ترمي ميزان الشريعة من يدك ، والله تبارك

وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: أني لا آكل ولا أشرب ولا أجامع ولا أضحك إذا جنى عليّ أحد جناية يؤذيني بها بين الناس ، حتى أتوجه إلى الله تعالى في سؤال العفو عنه ، ويلقي الله تعالى في قلبي أنه عفا عنه من كثرة ما دعوت له ، وأقسمت به على الله تعالى ، وهذا الخلق لم أجتمع بأحد من أهله إلى وقتي هذا ، غايتهم الدعاء له بالمغفرة ، ثم يأكلون ويشربون وينكحون ، ولا عليهم إن كان الله قبل دعاءهم أو رده ، وفي الحديث «**أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا أصبح تصدق بعرضه على الناس**»(١) فجعل غايته أي أدنى مكارم الأخلاق المسامحة لمن نقص عرضه ، وما ذكرناه قدر زائد على ذلك ، وقد ذكر الله تعالى المال والعرض والنفس في سياق واحد ، فقال تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وحكي عن سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه أن شخصاً مشى وراءه وصار يلعنه ويسبه ، والشيخ لا يلتفت له ، فقال له الخادم: يا سيدي أما تسمع ما يقول لك؟ فقال: وماذا يقول؟ هذا شخص تصورت له نفسه بصفات ذميمة فهو يسب تلك الصفات ، ولست أنا بحمد الله موصوفاً بها ، انتهى.

ولعل الشيخ أخذ ذلك من قوله ﷺ: «**لا تنظرون ما دفع الله عني بسبّ قريش ، يسموني مذمماً ، وأنا محمد بن عبد الله رسول الله**»(٢) والمعنى صحيح ؛ لأنهم نسبوا صفات مذمومة في مذمم ، ورسول الله ﷺ صفاته محمودة في محمود ، اتصف بها ﷺ ، فعلم أنه لا يعمل بهذا الخلق إلا من أكرم عباد الله لا لعلة أخرى ، كما تقدم بسطه أوائل الباب الثاني.

وقد حكى الشيخ عبد القادر القوصي رضي الله تعالى عنه: أن ذلك كان من خلق الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه ، فقال: حدثني الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ عبد العزيز المنوفي ، عن خادم الشيخ محيي الدين رضي الله تعالى عنه ، أن شخصاً بالشام كان أوجب على نفسه أن يسب الشيخ محيي الدين ، ويلعنه عقب كل صلاة عشر مرات ، فلما مات ذلك الشخص خرج الشيخ محيي الدين لجنازته ، فصلى عليه ، وحضر دفنه ، فلما رجع عزم عليه بعض أصحابه أن يأكل عنده شيئاً ، فلما دخل بيته ، وقدم إليه الطعام ، وصار الشيخ مبهوتاً من بكرة النهار إلى صلاة العشاء ، لا يهتدي إلا للصلاة ، ثم بهت ، وأخذ صاحب

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (١٥٩٤) ، وابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٦٩٤).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٣٥٣٣) ، والنسائي ، كتاب الطلاق ، باب الإبانة والإفصاح بالكلمة الملفوظ بها (٣٤٣٨) ، وأحمد (٧٢٨٧)

الطعام من ذلك أمراً ، وظن أن الشيخ لم ير طعامه حلالاً أو نحو ذلك ، فلما صلى العشاء الآخرة ضحك وتبسم وأكل ، فقيل له في ذلك ، فقال: قد كنت عزمت في نفسي إن مات ذلك الشخص أني لا آكل ولا أشرب حتى يغفر الله له من جهة سبه لي ، إكراماً لرسول الله ﷺ ، لكونه من أمته ، ثم عمل له سبعين ألف لا إله إلا الله وأهداها في صحائفه ، فلما غفر الله له ضحك الشيخ وأكل ، انتهى.

قال الشيخ عبد الغفار القوصي: وحكى لي الإمام المحب الطبري شيخ الحرمين ، عن والدته رضي الله تعالى عنهما ، أنها كانت تنكر على الشيخ محيي الدين أموراً تسمعها عنه ، فقال لها ولدها الإمام: لا يجوز لك يا أمي الإنكار إلا إذا سمعتيه يتكلم ، وأما إذا سمعت شيئاً من أصحابه فلا يجوز لك الإنكار على الشيخ؛ لأن ذلك ليس من العدل ولا من الشرع ، ثم نامت تلك الليلة ، فرأت الكعبة تطوف بالشيخ محيي الدين حجراً حجراً ، ثم عادت والتأمت ، فاستغفرت الله تعالى وتابت ، انتهى.

وكان شيخنا شيخ الإسلام سيدي الشيخ زكريا الأنصاري رضي الله تعالى عنه يقول: جميع ما نسب إلى الأشياخ مما يخالف ظاهر الشرع قبل أن يسمعه أحد منهم فإنما ذلك من أتباعهم ، لقصورهم، فربما فهموا من كلام الأشياخ شيئاً أخطؤوا في فهمه ، فاللوم عليهم لا على الأشياخ ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] انتهى.

فاعلم ذلك ، واعمل على تخلقك بهذا الخلق العظيم ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: وصولي بحمد الله إلى مقام في الإيمان النسبي لم أر أحداً من الأقران تخلق به إلا قليلاً ، بحيث لو كشف عني الغطاء ما ازددت يقيناً ، بحكم الإرث للإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، فكان جميع ما ورد أنه يقع في الآخرة نصب عيني من الآن لا ازداد يقيناً بقيام الساعة ، إنما تقع الزيادة في الوضوح فقط ، مثاله الشمس إذا ظهرت من وراء ساتر السحاب الرقيق ، ثم إن السحاب انقشع عن الشمس ، فإنك يا أخي لا تزداد يقيناً في أنها الشمس بانقشاع السحاب عنها ، إنما تزداد وضوحاً فقط ، وكذلك العروس إذا جليت بخمار رقيق كالشعاري الرقيقة على الحاضرين ، ثم إن ذلك الحجاب كشف عنها ، فإن الحاضرين لم يزدادوا يقيناً في أنها العروس ، إنما ازدادوا وضوحاً ، ومع وصولي في اليقين بحمد الله تعالى إلى هذا الحد ، فأنا خائف من سوء الخاتمة ، كما درج عليه الأكابر الذين لا أصلح أن أكون تلميذاً لهم.

وقد قيل مرة للجنيد: هل أنت خير أم الكلب؟ فقال: هذا غيب لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا دخلت النار فالكلب خير مني ، وإذا دخلت الجنة فأنا خير من الكلب.

وقد روي عن المسيح عليه السلام أنه قال للحواريين «**أنتم تخافون الذنوب ونحن معشر الأنبياء نخاف الكفر**» ، انتهى.

وقد روى البيهقي «بأن العزيز عليه السلام سأل فقال: يا رب إنك لرب عظيم ، وإنك لو شئت أن تطاع لأطعت ، ولم يعصك أحد ، فكيف هذا؟ فأوحى الله تعالى إليه لتنتهين عن مسألتك هذه أو لأمحون اسمك من ديوان النبوة» [(١)] ، انتهى.

ولا يقال: كيف يصح محوه من ديوان النبوة مع وجود العصمة؟ وما وعد الله به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأنا نقول: إن الله تعالى حضرة تسمى حضرة الإطلاق يفعل فيها ما يشاء ولا حجر عليه في مشيئته ، إذ الحجر عليها محال ، والحكم لا يحكم على حاكمه كما لا يحكم العلم على عالمه ، وكما لا يحكم المخلوق على خالقه ، قال تعالى: ﴿ **قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة: ١٧].

وورد مرفوعاً: «**لو يؤاخذني الله تعالى وعيسى بن مريم بما جنت هاتان يعني الأصبعين لعذبنا ثم لم يظلمنا شيئاً**» [(٢)] ، انتهى.

وكذلك ورد الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١٠٧] ، وليس الجزم بشيء من جهة القدرة الإلهية ، إنما الجزم بذلك من حيث وجوب الإيمان بعدم خروج أهل الدارين منهما ، فإنه تعالى إنما استثنى ليعلمنا طريق الأدب معه ، فأخبرنا عما له فعله ، وإن لم يفعله فله فعله ، وقد سمعت سيدي علياً المرصفي رضي الله تعالى عنه يقول: يصل الولي إلى مقام يعرف منه أنه شقي أو سعيد.

وكذلك رأيت أنا في كلام الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه ، قال: رأيت آدم عليه السلام في واقعة من الوقائع ، ونظرت إلى نسم بنية الذين هم السعداء ، فرأيت نفسي فيهم ، انتهى.

فمثل هذا لا يقدح فيما ذكرناه من عدم الطمأنينة ، وخوف سوء الخاتمة ، مع أن رؤية الشيخ محيي الدين كانت في عالم الخيال ، والخيال لا يوثق به في شيء إلا إن كان صاحبه معصوماً ، فعليك يا أخي بالخوف من الله تعالى ما عشت ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إجلالي لحانوت شيخي سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى كلما مررت عليه بعد موته ، ويأخذني عند رؤيته هيبة كهيبة دخول المساجد

---

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٥٧) ، والديلمي في مسند الفردوس (٥١٤٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٣٢).

العظيمة ، وقد بلغنا عن الشيخ أبي بكر الشبلي رحمه الله تعالى : أنه كان يحصل له الرعوة إذا مر على حانوت الجنيد ، الذي كان يبيع فيه القوارير ، ودخله يوماً محدثاً فكاد أن يذوب من الهيبة ، وهذا الأمر قليل من المريدين من يفعله مع شيخه في هذا الزمان.

وقد كان سيدي علياً الخواص عنده إبريق كبير يسقي منه المكروبين ، ويقول للمكروب : اشرب وانوي أن الله تعالى يزيل عنك ما أنت فيه من الكرب ، فيفعل فيزول عنه الكرب لوقته ، فقلت له يوماً وما خصيصة هذا الإبريق؟ فقال: إنه يرد عليه كل يوم الأربعون من رجال الله تعالى فيشربون منه ، انتهى. مع أن روحانية الولي إذا دخل مكاناً أو مشى في أرض تبقىٰ تلك الروحانية في ذلك المكان ستة أشهر ، كما يشهده أرباب القلوب ، فكيف بالمكان الذي كان مسكن الولي ليلاً ونهاراً ، وهذا بعكس بيوت العصاة والظلمة ، فإنك تجدها موحشة لا أنس فيها ، ولا روحانية.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: كل فقير لا يدرك سعادة البقاع ولا شقاوتها فهو والبهائم سواء ، انتهى.

وسمعته أيضاً يقول: من الأماكن التي تظهر فيها الروحانية لغالب الناس في مصر: قبة الإمام الشافعي ، وضريح ذي النون المصري ، وقبور السادة الوفائية ، وجامع محمود ، وزاوية سيدي مدين ، وجامع الملك الظاهر ، وجامع نائب الكرك خارج الحسينية ، فهذه الأماكن لم يزل النور طافحاً منها ، وذلك لكثرة من يرد عليها من الأولياء والملائكة ، فينبغي لداخلها أن يزيد في الأدب والأطراق ، قال: ومن الأماكن التي لا تظهر نورانيتها إلا للخواص ، القطعة من الشارع المقابلة لسوق الكتبيين ، وأنت ذاهب إلى باب الزهومة ، والقطعة المقابلة لجامع الفاكهاني داخل باب زويلة ، والقطعة المقابلة لميضاء جامع الميدان ، وهي الآن مغطاة ببيوت الشيخ سليمان الخضيري ، والقطعة المقابلة للجامع الأخضر ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: معرفتي بالعمل الواقع على يدي، هل هو حسن أو قبيح، وذلك لأشكر الله تعالى على حسنه عادة، وأستغفره على قبحه كذلك، ولا أطلب عليه جزاء في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف : ٣٠]. ومفهومه أن من أساء العمل لا يقبله الله منه ، ويضيعه لعدم الإخلاص فيه.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا فرق بين عباد الأصنام وبين من يعبد الله تعالى لغرض فاسد ، فإن الأصنام المعنوية كالأصنام الحسية على حد سواء؛ لأن كلا من العابدين اتخذ من دون الله ما لم يأذن به الله ، وهم في ذلك على طبقات ، فمنهم من قصد بعلمه وعمله وما يقع على يديه من الخيرات حصول المكانة في قلوب الناس ، ودوام الصيت ، وانتشار الجاه ، ومنهم من يقصد بعلمه وعمله إعلاء الدرجات ، وظهور

الكرامات ، والتصريف في الكون ، والمشي على الماء والطيران في الهواء ، وكشف الغيوب ، ومنهم من لم يقصد بعلمه وعمله شيئاً من أمور هذه الدار ، إنما يقصد بذلك الحور الحسان ، ودخل الجنان ، وغير ذلك من ثواب الآخرة ، ومنهم من يقصد بذلك السلامة من النار والخوف من الحساب والعقاب ، وما أعده الله تعالى لأهل تلك الدار من النكول والوبال ، ومنهم من يقصد بعلمه وعمله القرب من الله تعالى ، والرضا عنه ، والمحبة له ، ومنهم من لا قصد له من علمه وعمله إلا علمه باستحقاق مولاه العبادة ، والتذلل ، والخضوع ، والوقوف عند أمره ونهيه ، قد تبرأ من الاعتماد على حوله وقوته وعلمه وعمله ، وقصده وإرادته ، فأتى بأعمال على وجه الإخلاص وهو خائف من الله تعالى ، لا يرى أنه قام بذرة واحدة من الأمور التي كلف بها على الوجه الذي أمر به ، ومن هنا يترقى السالك في مراتب إخلاص الخواص التي كل ذرة منها تعدل عبادة ألف سنة من عبادة أهل تلك الأقسام السابقة.

فاعلم ذلك ، واعمل به ، والحمد لله رب العالمين.

* *

الباب الثالث عشر
في جملة من الأخلاق المحمدية

فأقول وبالله التوفيق وهو حسبي وثقتي ومغيثي ومعيني ونعم الوكيل

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي لأصل ولاة الزمان حال ولايتهم وضخامتهم ، فلا يحجبني أحد الحالين عن الآخر ، فأشهد الأمير تراباً حال رؤيتي له أميراً ، وتارةً أشهده نطفة أو علقة أو مضغة ، أو عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء في حال رؤيتي له أميراً ، وهذا مشهد عظيم عزيز قل أن يقع لأحد من الأقران ، فعلم أني لا أشهد أصله فقط ، ولا إمرته فقط ، بل أشهدهما معاً في آن واحد بعينين مختلفتين ، ولم تزل الأسافل ترتفع في الأرض قديماً وحديثاً ، فضلاً عن الأشراف ، وأنظر إلى النمروذ بن كنعان كيف ولدته أمه بالبرية ، وماتت وتركته فأرضعته نمرة ، فبذلك سمي نمروذاً ، ونشأ وكان منه ما كان من التجبر ، وكذلك ما وقع لفرعون ، وقد كان أجيراً يبيع البطيخ والخضروات في منف لبعض المعلمين ، ودعواه الألوهية بعد ذلك ، مع دمامته وصغر جسمه ، قيل: كان طوله ذراعاً ونصفاً ، وكانت لحيته إلى سرته ، وكانت خضراء كالسلق ، وكذلك بختنصر ، مع كونه كان يتيماً بأرض بابل ، وأبوه حطاباً ، كيف كان من أمره ما كان ، وكذلك القول في سائر الجبابرة من الملوك إلى عصرنا هذا ، هم كالتراب في حال ملكهم وإمرتهم.

ومن هذا المشهد زهد في الدنيا من زهد ، وقال أف لدنيا سبقنا بها هؤلاء السفلة ، وأيضاً فإن جميع أحوالها تفنى ، فنزهوا نفوسهم عن التعلق بشيء يفنى ، واختاروا الباقي ، وفي القرآن العظيم: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣]. فإن التعالي خاص بالباري جل وعلا ، قال تعالى: ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١].

قال الشيخ أحمد الملثم المدفون خارج باب الفتوح ، وكان من الأولياء الأكابر: بينما أنا أتفكر في معنى تبارك ، وإذا بنات من بنات العرب طلعت واحدة منهن فوق كوم رمل ، وجعلت تقول: تباركت عليكم ، تباركت عليكم ، فعلمت أنه التعالي ، انتهى.

وتقدم في هذه المنن بسط الكلام على تعظيمنا للولاة أدباً مع الله الذي ولاهم علينا ، فعلم

أن القدرة الإلهية لا تتقيد على نسق واحد ، وأن الله تعالى له خرق العادة في أي شيء كان لإطلاق مشيئته وإرادته ، وإذا كانت الجمادات تتخرق فيها العادات ، فيصير الماء حجراً ، والحجر ماء ، مع أنها ليست بمحل تصريف فيها ، فكيف بالإنسان الذي هو المحل الأعظم لجريان الأقدار عليه ، وما عداه فهو كالتابع له ، ففي لمح البصر يصير الغني فقيراً ، والعزيز ذليلاً ، والقوي ضعيفاً ، والأمير مأموراً ، ونحو ذلك وبالعكس.

وقد أخبرني بعض التجار الذين يقدمون من بلاد الهند: أنه سمع بنهر من الماء مهما رمي فيه شيء صار حجراً خفيفاً ، قال: فمشيت حتى وصلت إليه ، وكان معي منديل إسكندراني ، فدليته في الماء فصار حجراً خفيفاً ، قال: وكذلك كان معنا جراب فدليناه ، فصار حجراً إلا ما لم يصل الماء ، قال: وكذلك كانت معنا عصاة فدليناها فصارت حجراً ، وبقي ما كان بأيدينا خشباً على حاله ، قال: ورأيت أسماكاً حجارة فيه ، وذلك أن النهر يجري فيدخل في البحر ، فيطلع فيه السمك فيصير حجارة ، قال: وكل دابة وضعت فمها فيه لتشرب منه مثلاً صار فمها حجراً في وقته ، وأي من خاض فيه ليشرب منه صارت رجلاه حجارة في وقتها.

ونقل ذلك أيضاً صاحب كتاب الوحيد عن شخص من التجار الثقات وأنه شاهد ذلك بعينه.

ثم نقل عن الخواجا عز الدين الكولمي أنه قال: رأيت في الهند بركة ماء كل من نزلت فيها من النساء حبلت من غير زوج.

فانظر يا أخي إلى هذه الأسرار والخوارق ، ومن تحقق بما قلناه ذهب عنه الأمان والقطع بحالة يكون عليها عند الله ، وإذا كان الانقلاب واقعاً في الجمادات والمانعات ، فما ظنك بالإنسان ، مع تقلب قلبه بقدرة الرحمن في كل زمن من الأزمان ، وكيف له الأمان وهو يرىٰ تقلب الإنسان من الإيمان إلى الكفر ، ومن الكفر إلى الإيمان ، فما أعظم هذه الحالة لمن شهدها ، وما أغفل الناس عنها ، فإن من كان قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف شاء ، فلا يثق بسعادة ولا شقاوة ، ولا بفقر ولا غنى ، ولا بآخرة ولا دنيا ، ولا قوة ولا عجز ، ولا بزيادة ولا نقصان ، ولا بطاعة ولا عصيان ، ولا بكفر ولا إيمان ، كما أشار إليه حديث «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة**»[١] الحديث المشهور.

واعلم يا أخي أن من كان ولياً لله عز وجل في علم الله فلا تتغير ولايته ، وإن وقع في معصية بادر إلى التوبة ، فلا يكون ذلك قادحاً في ولايته ، ولا مزيلاً لها ، إلا إذا دخل بأصل الإيمان؛ وذلك لأن الحقائق الوضعية لا تقدح فيها النقائص الكسبية ، وفي الحديث: «الناس

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٤٥٤)، ومسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله (٢٦٤٣)

معادن كمعادن الذهب والفضة»[1] والذهب والفضة موجودان في المعادن ، والمعدن الأصلي صحيح ، ولكن قد يدخل عليه علل تفسده في ظاهره ، فيعالجه من زعم معرفة ذلك ، حتى يرجعه إلى أصله ، فكما أن المعدن في أصله صحيح لا يخرج عن معدنيته ، فكذلك المؤمن الحقيقي ، والولي الحقيقي لا يخرجه ما جرى على جوارحه من النقائص عن حقيقة إيمانه ، أو ولايته.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: ما يزعمه من يدعي علم الكيمياء من أصول أكثر معادن الذهب والفضة يكون من النحاس والرصاص والقصدير وغير ذلك ، وأن كل ما دخل على ذلك من العلل والأمراض يصح معالجته حتى يرجع إلى عادته الأصلية ، لا نعلم لذلك حقيقة ، ولا وقفنا على شيء من ذلك ، مع أن المعادن الحقيقية الصحيحة التي ورد بها الحديث أولىٰ بكل مؤمن ، فإن كل من كان أصله عند الله تعالى مؤمناً فهو يرجع إلى أصله ، كالمعدن ، وإن كان عند الله غير ذلك رجع إلى أصله كذلك ، وحقائق الأمور مستورة عنا الآن؛ لأن الله يفعل ما يشاء ، فيقلب التراب ذهباً ، والذهب تراباً ، والجامد مائعاً ، والمائع جامداً ، والحيوان نباتاً والنبات حيواناً ، فعلم من جميع ما قررناه أن كل من تأمل الخلق على اختلاف طبقاتهم وجدهم تراباً يتكلم ، وينشق ، ويقتل ، ويولي ، ويعزل ، ثم ينزل التراب تحت الأرض من سلطان وأمير وقاض ووال ، والكبرياء لله رب العالمين ، ومن فهم ذلك علم أنه ليس للعبد اعتراض على شيء تفعله القدرة الإلهية إلا بالطريق الشرعي ، وأن العقل معزول عن ذلك.

فاعلم ذلك ترشد ، والله يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: خوفي من فعل شيء يغير قلب أحد من الفقراء الصادقين في معاملة الله ، الذين ظهروا في العصر ، وتعرفوا لنا أو عرفناهم ، فقد أوصاني شيخي سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى ، وقال: إياك أن تؤذي أحداً من الفقراء ، وإن كان لك أعمال من الخير كأمثال الجبال ، فإنه لا ينفع من يؤذي أحداً من هذه الطائفة عمله ، لعدم صعوده إلى السماء ، فإنه محارب لله تعالى ، وعمل من حارب الله تعالى مردود عليه.

وقد كنت ذكرت شخصاً من علماء هذا الزمن في طبقات العلماء التي ألفتها ، ثم رأيته يوماً يحط على بعض الأولياء ، فرفعت ترجمته من الطبقات ، لعلمي بأنه محارب لله ورسوله ، ولا بد أن يقيض الله له من يكشف سوأته ، فيقع وصفي الجميل له ، مخالفاً لأفعاله الظاهرة منه ، فيخطئني الناس في ذكري له مع العلماء العاملين ، فعلم أن الاعتقاد في القوم مما يستر

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب الأرواح جنود مجندة (٢٦٣٨) ، وأحمد في مسنده (١٠٥٧٣).

الله تعالى به عيوب العبد؛ لأنهم هم القوم الذين لا يشقى بهم محبهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ليس للأولياء حاجة عند أحد من الخلق حتى يتعرفوا إليه، لجمعية قلوبهم غالباً على الحق جل وعلا، فهم يستحيون منه أن يلتفتوا إلى أحد من عبيده إلا بأمره، وذلك خاص بعبيده المخصوصين كالأنبياء، وكمل الأولياء الذين يعلمون الناس الأدب مع الله تعالى، وأما أمثالنا فليس في الثقات الولي إليه إلا التفرقة لقلبه مع عدم تأدبنا بأدبه، فإن منّ الله تعالى على أحد يميل قلب ولي الله تعالى إليه، أو يتعرف إليه بنوع من أنواع المعرفة، فتلك نعمة عظيمة من الله تعالى لا يقدر على القيام بشكرها، فإن الأولياء لا يتعرفون إلينا إلا لأحد ثلاثة أمور: إما أن يكون له معنا نسبة أو يكون مأذوناً له في ذلك، أو يتعرف بنا مكراً بنا، والعياذ بالله تعالى، وإن لم يقصد هو ذلك ليظهر ما في بواطننا من الإنكار عليه، والاستخفاف به والاستهزاء، فنهلك لذلك ولا نشعر، وتقام الحجة علينا في تعرفنا به، فلهم مقاصد مع ربهم لا يطلعون عليها الخلق.

وقد بلغنا أن شخصاً من علماء بغداد أنكر على فقير مجاب الدعوة، وآذاه وسعى في إخراجه من بغداد فأخرجه، فقال أصحاب الفقير: ألا تدعو على فلان، فإنك مظلوم معه، فقال: دعائي لا يقبل في حقه؛ لأنه محروس بنيته، فقيل له: كيف؟ فقال: إنه لم يقصد بخروجي وصوله إلى حفظ نفسه، وإنما ظن أنني فاسد العقيدة، فقصد إراحة الناس مني، ولولا هذه النية لربما أخذه الله تعالى.

قلت: ولم يزل هذا الأمر يقع من بعض الفقهاء في حق أهل الله تعالى، ولا يحصل له عطب، فيتعجب الناس من ذلك غاية العجب، وغاب عنهم أنه لم يقصد بإنكاره على الفقراء إلا نصرة جانب الشرع، ولولا ذلك لغارت القدرة عليه فأهلكته، والله أعلم.

ثم إن العالم بلغه ما قاله الشيخ في حقه، فكشف رأسه، وجاء واستغفر الله تعالى، وطلب رجوع الشيخ إلى بغداد، فلم يوافقه الشيخ في ذلك، وأقام بخص خارج بغداد حتى مات، ثم في استغفار العالم، وكشف رأسه للشيخ دليل واضح على أنه لم يكن على يقين من سوء عقيدة الشيخ، إنما آذاه مع الظن **«والظن أكذب الحديث»**[1] انتهى.

وسمعته أيضاً يقول: لا يعرف الولي إلا بنور يقذفه الله تعالى في قلوب المعتقدين فيهم، ومن زعم أنه يعرف الولي من أقواله أو أفعاله، فقد أخطأ في مرامه، إنما تعرف الأولياء بسرائرهم وأحوالهم الباطنة، فقد يخفون في الظهور، ويظهرون في الخفاء، مع أنهم لا يظهرون قط للناس إلا بقدر ما تحتمله عقولهم، خوفاً على الناس، انتهى.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع (٥١٤٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظن والتجسس والتناجش ونحوها (٢٥٦٣).

وقد أنكر بعض الناس على فقير رآه في بيت المزر جالساً ، فحصل للمنكر قولنج ، فما كان إذ مرض فجاءوا إليه يطيبون خاطره ، فقال: قولوا له: يستغفر الله تعالى ، وهو يطيب ، فاستغفر فعوفي من وقته ، فقال لفقير: إنه لا يلزم من جلوسي في بيت المزر أني أشرب المزر ، ويكون جلوسي لأستغفر الله تعالى لكل من يشرب من ذلك ، فلعل الله يتوب عليه.

وحكى الشيخ أبو الحجاج الأقصري رضي الله تعالى عنه: أن جماعة من الفقراء وردوا على معمل الحديد في طريق عيذاب ، وهي حجارة يوقد عليها فيخرج منها الحديد ، فجاء فقير يطلب من صاحب المسبك قطعة حديد يعملها حلقة لمنطقته ، فقال له صاحب المسبك: حتى يبرد الحديد ، فمد الفقير يده وأخذ من الحديد قطعة مثل الجمرة ، فقال صاحب المسبك: جئت تظهر علينا كرامتك بقبضك بيدك على الحديد الذائب في البودقة وعندي عبد في دار المزر يدخل إلى هذا المعمل ، ويخوض في النار ، ويقلب هذه البوادق ويخرج ولا يصيبه شيء ، ثم نادى يا فلان ، فحضر عبد أسود ، فقال: أدخل النار عدل البوادق ، فقال: حتى تعطيني درهماً أشرب به مزراً ، فأعطاه درهماً ، فدخل المسبك وجعل يخوض في النار إلى وسطه ويقلب البوادق بيده ، ثم يقول: هذه تريد الإصلاح ، وهذه كذا ، وهذه كذا ، ثم إنه يرجع خارجاً ، فيقول له المعلم: بقي عليك كذا وكذا من البوادق ، فيرجع ثانياً ، ويخوض في تلك النار ذاهباً وراجعاً ، ونحن ننظر إليه حتى فرغ ، ثم خرج والماء يقطر من جسده.

قال الشيخ أبو الحجاج: وصورة معمل الحديد والفولاذ أنهم يجعلون حول المعمل أكواراً عظيمة من سائر الجوانب ، فينفخون الأكوار من ههنا ومن ههنا ، فتكون ناراً عظيمة ، فيقذفون الحديد في بوادق كبار ، وينفخون عليه فيذوب الحديد ويصفى ، فيخرجونه بآلات لهم ، فيفتح البودقة فتسيل فيكون الفولاذ من ذلك ، انتهى.

قلت: فيحتمل أن يكون هذا العبد ولياً لله تعالى ، إبراهيمي المقام ، وأنه يظهر خلاف ذلك بستره لمقامه في دار المزر ، وقد يكون ما يشربه من المزر بذلك الدرهم غير مسكر ، أو هو مسكر ولكن يصبه في الأرض ، فيمنع الناس من شربه ، ويحتمل أن يكون في جسد ذلك العبد خاصية تمنع النار منه ، فلا تؤثر فيه كطير السمندل ، وحجر الياقوت ، مع أن الإنسان في نفسه أشرف منهما ، وأحوى للأسرار.

وقد أخبرني شخص أنه رأى طير السمندل لا يعيش ولا يبيض ولا يفرخ إلا في النار ، وأنه يعمل من صوفه مناديل ظريفة ، فإذا اتسخت رموها في النار ، فيحترق الوسخ ، ولا يحترق المنديل ، ويحصل له النظافة ، فإذا غسلوه بالصابون لم يخرج له وسخ.

فعليك يا أخي بحسن الظن بالفقراء ، وحسن التأويل لأحوالهم ، فإن الإنكار لا يكون إلا

مع اليقين ، بشرط أن يكون ذلك الشخص مكلفاً يتبع على أفعاله ، وأرباب الأحوال من الفقراء أحوالهم مجهولة ، ولا يتبعهم أحد على ما يفعلونه ، مخالفاً لظاهر الشرع ، فاعلم ذلك ترشد ، والله يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إطلاعي على أسرار الحروف أوائل السور ، والمفرقة في الهجاء ، على غير الطريق التي يعرفها أصحاب علم الحرف ، وحقيقتها أنها أسماء أفلاك من السماء لا يعرفها إلا من كشف الله حجابه ، وكل من تحقق بها قدر على عمل الطلسمات ، وكان اسكندر ذو القرنين أستاذاً في ذلك ، وقد بلغنا أنه غلب على بلد من بلاد الكفار ، فوجدهم يعبدون الغربان ، وغلب على بلدة أخرى ، فوجد أهلها يعبدون العصافير ، فعمل لكل بلد طلسماً ، فلم تعد الغربان والعصافير ترجع إلى تلك البلد ، خوفاً عليهم أن يعبدوها ثانياً إذا فارقهم اسكندر ، ولعل الشيطان كان يدخل في أجواف الغربان والعصافير ويتكلم على ألسنتها بما شاء ، حتى عبدوها مثل ما وقع له في الأصنام من دخوله في أجوافها ، كما ورد ذلك في حديث ذي الخلصة ، وفي الشجرة التي كانت تعبد ، ولولا أن هذا العلم خاص بمن كشف الله له عنه لذكرت للإخوان طريقة العمل بالحروف وتصريفهم بها في الوجود ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة تكرمي بثيابي ، وجميع ما يدخل تحت يدي من النقود والمطاعم والآلات ، ولا أتوقف على كون الآخذ لذلك محتاجاً أو غنياً ، ولا كونه من المعارف أو غريباً ، فربما أعطي السائل الصحن النحاس أو الجوخة أو العمامة إذا لم أجد غير ذلك ، من غير أن تتبعه نفسي؛ لأنه كلاّ كرم ، بالنسبة لما نقل عن الكرام جاهلية وإسلاماً ، ولا أعلم الآن أحداً من أقراني أكرم مني ، فإني أعطي السائل ثيابي ، وكأني أعطيته قشة من الأرض.

وقد بلغنا أن غيلان صاحب مي ، كان إذا اشتاق إليها من بلاد بعيدة يركب ناقة اسمها صيدح ، ويدخل البراري من غير الطريق المعتادة ، وكانت الناقة تسير مسيرة شهر في يوم ، حتى كان الناس يقولون: إنها من الجان ، فتاه يوماً في أرض معطشة فنزل ، وإذا هو بذئب قد تاه وهو عطشان جيعان ، فقال: إن ذبحت ناقتي لهذا الذئب مت أنا وهو في هذه البرية ، وإن لم أذبحها فاتني قرى ضيفي ، ووقعت في العار ، فقطع من وركه قطعة لحم كبيرة فأطعمها للذئب ، وربط فخذه بعمامته وسار ، وهذا الكرم ما بلغنا عن حاتم طي مثله ، فضلاً عن غيره ، وكرم أمثالنا بالنسبة إليه كلا كرم ، فإن غيلان قد جاد على ضيفه بنفسه ، مع أن ضيفه وحش لا يعقل ولا يذم ولا يمدح ، وأما كون مثل ذلك غير جائز في الشرع فغيلان كان أيام الجاهلية قبل مجيء الشرع.

ويقع لي بحمد الله تعالى أنني أعطي ثيابي كلها في جمعة ، وأصير بقميص واحد ، وربما

كان ذلك أيام الشتاء فلحقني الثقل والعصير ، حتى أقاسي مشقة شديدة.

فإن قال قائل: هذا كرم خارج عن الاعتدال المأمور به شرعاً.

قلنا هذا من باب ظلم دون ظلم ، وإنما فعلناه خروجاً من ورطة البخل والشح ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة حمايتي من النظر إلى النساء الأجانب ، والمردان ، ولو بلا شهوة من حين كنت صغيراً ، فلا تزال تنفر نفسي من مثل ذلك ، وقل من يسلم منه طول عمره ، لا سيما أوائل البلوغ.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: العلة الصحيحة عندنا في تحريم النظر إلى ما لا يحل ، كونه يشغل عن الله عز وجل ، فإن الله تعالى قد جعل القلب بيته ، ومحل أسراره ، فلا ينبغي لمؤمن أن يدخل فيه شيئاً من المحبوبات النفسانية ، فإن حب الرب جل وعلا يخرج من القلب؛ لأنه تعالى غيور لا يحب الشريك ، وربما تساهل بعضهم في دخول ذلك المحبوب النفساني قلبه ، فجره بالتدريج إلى وقوع الفاحشة فيه ، وألف الشيطان بينهما ، حتى أن ذلك المحبوب الخسيس صار حاكماً على القلب ، ساكناً فيه ، لا يخرج منه ، وامتنعت محبة الله تعالى أن تدخل ذلك القلب جملة ، فخسر الدنيا والآخرة ، وكان من الواجب على القلوب أن لا يدخلها غير حب خالقها ورازقها ومحييها ومعافيها ، فلذلك كان الواجب على العبد أن لا يحب غير الله ، إلا عن أمر الله.

فعلم أنه لا يتوقف تحريم النظر إلى النساء ، وما الحق بهن على غلبة ظن وقوع العبد في الفاحشة ، وإنما يتوقف على إدخال محبة غير الله القلب من غير إذنه ، وفي القرآن العظيم: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]. فعمّ الأوثان الظاهرة، والهوى النفساني؛ لأن كل من أحب شيئاً دخل قلبه ضرورة ، وسكن ، فرحل حب الحق تعالى منه ، فكأن هذا أنزل ذلك المحبوب منزلة الحق تعالى ، وذلك كفر عند الخواص.

وقد درج السلف الصالح كلهم على تأكيدهم على مريديهم في غض البصر عن كل شيء يجر إلى الغفلة واللهو عن الله تعالى ، ونفذت بذلك وصاياهم في سائر الأقطار ، وقد أنشد سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، بقوله:

كل المصائب مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها ... فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر مقلته ما ضر مهجته ... مرحباً بسرور جاء بالضرر

انتهى ، وفي المثل السائر من أطلق ناظره أتعب خاطره.

وسمعت سيدي الشيخ محمد الشناوي رضي الله عنه يقول: ينبغي للشيخ أن لا يغفل عن

نصح الشباب المقيمين عنده في الزاوية ليلاً ونهاراً ، ويأمرهم بالتباعد عن بعضهم بعضاً ، خوفاً من لوث الناس بهم لا سوء ظن بهم ، قال: وقد كان سيدي محمد الغمري من أشد الفقراء في عصره غيرة على جناب الفقراء ، وكان قد جعل للأطفال الذين هم دون البلوغ مقصورة يقرأون فيها ، لا يدخل عليهم فيها غير الفقيه والعريف ، وجعل للرجال رباطاً لا يدخله غيرهم ، وجعل للشباب البالغين مكاناً لا يدخله غيرهم ، وكان لا يمكن أحداً منهم ينام مع أخيه في خلوة ، ويقول احفظوا قلوب العامة عن اللوث في عرض الفقراء ، قياساً على حالهم.

وكان سيدي على الخواص رحمه الله تعالى يقول: من استهان بالنظر إلى النساء والمردان وقع في مزلات الطريق ، وخرج عن قواعد أهل التحقيق ، قال: وقد بلغنا عن الشيخ عبد الرحيم القناوي رضي الله تعالى عنه ، أنه كان يمشي في الطريق ، فرمق شاباً جميلاً يمشي ، فهرول عنه كالمذعور ، فقال له الخادم: مثلك لا يخاف من مثل ذلك، فقال: يا ولدي أنا لست بمعصوم، والوقوف عند حدود الشرع واجب ، انتهى.

ورأيت في مناقب سيدي محمد الشاذلي رضي الله تعالى عنه: أنه نهى فقيراً عن القرب من النساء ، فقال: يا سيدي أنا بحمد الله أجد عندي قوة تدفع عني ما يخاف منه ، فقال له الشيخ: لا تغتر بذلك ، فخالف فوقع في تلك الجمعة بامرأة ، فاشتبك ذكره في فرجها ، فخاف الفضيحة وحصل له من الخجل من الناس إذا طلع النهار ، فعلم بذلك الشيخ من طريق كشفه ، وتوجه إلى الله تعالى ، فتخلص ذكره من فرجها ، فلولا الشيخ لأصبح مهتوكاً بين الناس ، وكل ما وقع فيه بعض الناس جاز أن يقع من خواص الناس ، فالعاقل من خاف ، والسلام.

وقد قال لي الشيخ شهاب الدين المشهور بمازن: خدمت سيدي محمد بن عنان رضي الله تعالى عنه ، وأنا أمرد ، فما علم بطلوع لحيتي إلا بعد سنين عديدة ، فوقع بصره عليّ يوماً ، فقال لي: متى طلعت لحيتك؟ فقلت: لها ثلاث سنين ، انتهى.

وهكذا أدركت من مشايخ العصر نحو سبعين رجلاً ، كان أحدهم دائماً مطرق الرأس ، لا يكاد يرفع بصره إلى السماء ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة خجلي من الله تبارك وتعالى كلما أقرب من زوجتي ، لاستيلاء سلطان الغيرة الإلهية على قلبي ، وكثيراً ما أكون محتاجاً إلى المسيس ، فأترك ذلك حياء من الله عز وجل ، وما كل وقت يعطي العبد القوة على الجمع بين مداعبة الزوجة ، مع عدم الحجاب عن مشاهدة الحق جل وعلا.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن من قدر على القرب من

زوجته ، ثم ترك ذلك حياء من الله عز وجل كتب له عشر حسنات ، انتهى.

وبلغنا عن بعضهم أنه أتى عياله وهو غافل عن الله عز وجل فعوقب على ذلك.

وكان للشيخ أبي مدين رضي الله تعالى عنه أمة سوداء تخدمه وتوضئه ، فنظر إلى ثديها وقد برز ، فوضع أصبعه عليه وهو غافل عن الله عز وجل ، فاسود أصبعه.

وذكر الشيخ عبد الغفار القوصي رضي الله تعالى عنه أن شخصاً من أصحابه جلس مع زوجته مباسطاً لها ، فلما أراد القرب منها ، خرج له ملك ومعه دبوس فرفع يده ليضربه به فارتعد وترك ذلك الأمر ، وقال له الملك بصوت عظيم: إلى متى أنت في شهواتك؟ فقال: الآن ، فلم يجامع زوجته حتى مات.

ويؤيد ذلك حديث «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرش**»[1] انتهى.

ولم يزل الحق تعالى يؤدب خواص عباده على فعلهم بعض المباحات الشرعية ، كما هو مشهور في كتب الرقائق والتصوف؛ لأن الرخص النفسانية إنما وضعت للضعفاء من العوام ، وقد تقدم في هذه المنن أنه لا يكمل فقير في الطريق حتى يصير يحضر مع الله تعالى في حال جماعه ، كما يحضر في حال صلاته على حد سواء ، بجامع أن كلاً منهما مأمور به شرعاً ، وإن تفاوت المقام ، وهذا الخلق لم أر له فاعلاً من أقراني إلا القليل ، فاعلم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة نصحي بلطف ورفق لمن عرف بالفجور والفسق بالمماليك من حاشية الولاة وغيرهم ، فأصير أحسن الظن إلى الغاية ، وأجيب عنه الأجوبة الحسنة حتى يميل إليّ ، فإذا مال نصحته بضرب الأمثال من بعيد بنحو قولي: لا يجوز لأحد من الناس أن يقع فيما زل فيه بعض العلماء عن ظاهر الشريعة ، كما أباح وطء النساء في أدبارهن ، أو وطء المماليك بحكم الملك ، فإن ذلك مخالف للنصوص القطعية ، وما عليه جمهور العلماء سلفاً وخلفاً ، وما في تفسير الفخر الرازي من إباحة وطء المماليك في أدبارهن بحكم الملك ، أخبرني شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رضي الله تعالى عنه أنه مدسوس عليه ، دسه فيه بعض الملاحدة؛ لأن الفخر الرازي كان من أكابر العلماء فكيف يخفىٰ عليه شيء تحريمه لا يخفىٰ على أدنى شخص شم رائحة الشريعة ، انتهى.

فأسأل الله تعالى كل من كان عنده نسخة من تفسير الفخر الرازي وفيها ذلك. أن يضرب عليه ضرباً فلا يقرأ نصحاً لله ولرسوله ولعامة المسلمين ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب الزهد ، باب قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم» (٢٣١٢).

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كتمي على أصحابي الذين ماتوا ما أراهم فيه من الأحوال بعد موتهم، فإن ذلك ملحق بالغيبة المحرمة، وقد أخبرني أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى: أنه رأى بعض أصحابه الذين ماتوا على خير وعلم وصلاح، أن كلباً أسود أحمر العينين يكشر عليه في قبره فصار كلما يطرده عنه يرجع، فاستيقظ وأخبره بذلك بعض خواص أصحابه، فشق عليهم ذلك، فصاروا يمشون إلى قبره كل يوم، ويقرأون القرآن، ويهدون ذلك في صحائفه مدة عشر سنين، فجاءهم في المنام، وقال: جزاكم الله عني خيراً في شفاعتكم في، ولكن هتكتموني بين الناس، فوالله إن هتكي عند الناس أشد علي من تعذيبي بذلك الكلب، فقال له الرائي: إنما أخبرت بذلك ليساعدوني في الدعاء لك، فقال: كان يمكن فعل ذلك من غير إعلام بقصتي، انتهى.

ومن هنا أوصىٰ بعضهم بأن يدفن وحده، حتى لا يعرف أحد من الأموات حاله، فإياك يا أخي أن تخبر أحداً بما تراه من تعذيب أحد في قبره إلا أن يكون صاحب بدعة مثلاً، فتخبر بذلك ليتوب الناس من نظير فعله، وقد ورد «**كفوا عن مساوىء موتاكم**»[1] فافهم ذلك ترشد، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تصدري لدعاء في حوائج الخلق إلا إن علمت من نفسي أن هذه الثلاث خصال اجتمعت في حال الدعاء، وها هي.

الأولى: خلو قلبي مما سوى الله تعالى، فلا يكون فيه التفات لغيره.

الثانية: أن يجعل كله على الله تعالى، فلا يكون له مشهود إلا هو.

الثالثة: أن لا يكون له مع الله تعالى اختيار ولا ترجيح، بل مهما فعله الحق تعالى رضي به، فمن لم تجتمع فيه هذه الخصال فلا ينبغي له التصدر للدعاء في حق أحد، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ﴾ [النمل: ٦٢]. وهذه هي صفات المضطر إلى الله تعالى دون شيء من حظوظ النفس، فافهم يا أخي ذلك، والله يتولىٰ هداك وهو يتولىٰ الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة تصديقي للأولياء فيما يدعونه من الاطلاع على المغيبات، لكن جمهورهم يتحاشون عن دعوى شيء من الخمس التي في آخر سورة لقمان، فإن ذلك من خصائص الحق جل وعلا عند الجمهور، وقيل: إن نبيناﷺ أعطى علم هذه الخمس، ثم أمره الله تعالى بكتمها، فإن صح ذلك جاز أن يكون لورثته من بعده، ولعل

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وقد ورد عند الترمذي، كتاب الجنائز، باب آخر (١٠١٩)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب النهي عن سب الموتى (٤٩٠٠) «اذكروا محاسن موتاكم، وكفوا عن مساويهم»

قائلاً يقول: إن بعض الأولياء قال للمطر: انزل فنزل، فنقول له هذا لا يناقض شيئاً من علم الخمس؛ لأن هذا الشيخ إنما أشهده الله تعالى نزول المطر ، أو ألهمه الوقت الذي قدر الله تعالى فيه نزول المطر ، وليس ذلك من باب إنزاله الغيث بقدرته هو ، ولا سبباً في إنزاله ، والآية إنما نفت عن العبد أن ينزل الغيث بقدرته ، وذلك محال.

وقد بلغنا عن الشيخ أحمد السبتي المغربي أنه كان يأخذ خراج الأرض التي يدعو الله تعالى فيسقيها بالمطر ، ويقول: لولا دعائي ما نزل عليها مطر ، فامتنع شخص من وزن الخراج له ، قال الشيخ: ونحن نأمر المطر أن لا ينزل على أرضه ، فلم ينزل على زرعه في تلك السنة مطر ، وصار المطر ينزل على أراضي الفلاحين يميناً وشمالاً ، ولا ينزل على حبه قطرة واحدة ، فحمل الخراج ، وجاء به إلى الشيخ ، فقال الشيخ: اللهم إني أسألك أن تقول للمطر اسق أرض فلان ، فنزل عليها كأفواه القرب ، فكان ذلك من الله تعالى له إظهار كرامة له ، لا أن الشيخ أنزل الغيث.

وهكذا وقع لبعض العارفين ، أن بعض الملوك قال له: خاطرك على إبنتي ، فإنها قد حضرها الموت ، فقال للملك: أعطني ديتها وأنا أفديها بابنتي ، فأعطاه ألف دينار ، فقال لابنته: موتي عن ابنة الملك ، فماتت لوقتها ، وعوفيت ابنة الملك ، وتصدق الشيخ بالمال.

وهذا أيضاً ليس مناقضاً للخمس ، ولا داخلاً في علم الله تعالى ، ولا مشاركاً لله في علمه؛ لأن هذا العارف لم يدّع أنه يعلم في أي أرض تموت ابنته على التعيين ، هل تموت على أحد جنبيها ، أو على ظهرها ، أو على بطنها فستر الله تعالى عنه ذلك ، وكذلك القول في علم الساعة ، وإن أطلع الله تعالى عليه بعض أوليائه ، فغايته أن يطلعه على اليوم الذي تقوم فيه الساعة ، لا الوقت الذي تقوم فيه من ذلك القرن ، فإنه مستور عنه ، وكذلك القول في علم ما في الأرحام ، أذكر هو أم أنثى ، أو غير ذلك ، فالولي وإن أطلعه الله تعالى على ما في بطن الأم من ذكر أو أنثى ، إنما يكون ذلك بعد التصوير لا قبل التصوير ، وذلك ليس هو علم ما في الأرحام؛ لأن حال نزول النطفة إلى الرحم لا يدري أحد من الخلق ما يكون منها ، ويؤل إليه أمرها في الرزق ، والسعادة والشقاوة ، والإماتة ، والإحياء ، كل ذلك لا يدريه في بطن الأم أحد.

وقد حكي أن سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه ، قال لشخص: في بطن زوجتك غلام ، فولدت أنثى ، فقال سيدي أحمد: وعزة ربي لقد أمسكت خصيتيه بيدي هذه ، وإنما أراد الله تعالى تكذيب أحمد في دخوله فيما ليس له فعله أدباً.

وكذلك القول في الاكتساب ، فلا تدري نفس ماذا تكسب غداً ، قال بعض العارفين: من زعم أن الله تعالى قد يطلع بعض خواصه على هذه الخمس ، قال: إن في الآية إضمار للاستثناء فيطلع الله تعالى من اختصه من عباده على ذلك ، انتهى.

وقال بعضهم: ليس في الآية شاهد على امتناع إعلام الله أحداً من عبيده بشيء من هذه الخمس، إنما فيها أنه تعالى عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، ويعلم سائر ما يعلمه، إذ كل ما يعلمه خلقه هو من معلوماته، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]. أي لا تدري ذلك بذاتها، وإما بإعلام من الله، فلا بدع لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وبالجملة، فلله تعالى في كل علم وعمل وغيرهما من سائر المخلوقات علم خاص لا سبيل لأحد من المخلوقين إلى الوصول إليه؛ لأنه من صفات الألوهية، فأعلم ذلك، والله يتولىٰ هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم مبادرتي بالإنكار على من قام وتواجد، ولو كان من الظلمة، أو لم يكن له به عادة، فقد يكشف الله تعالى الحجاب عن بعض القلوب فتحن إلى وطنها الأول، فتتمايل كالشجرة التي كأنها تريد قلع عروقها من الأرض، وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: للسماع أثر كبير في ورود الحقائق، فإن الله تعالى قد كلف العبد الاكتساب بحواسه الخمس: السمع، والبصر، واللمس، والشم، والذوق، كما كلفه أيضاً الاكتساب بحواسه الخمس الباطنة، الخاصة بأهل الكشف، فإذا طهرت نفس السالك من الخبائث، وحصل له تصريف من الله تعالى، كانت جوارحه كلها فعالة، ونابت كل جارحة عن غيرها، فيسمع بعينيه، وينظر بأذنيه، ويتكلم بعينيه، ويسمع بهما، ويتكلم بأذنيه، وهكذا.

فإياك، ثم إياك والإنكار لهذه الأمور، فقد تحرم الوصول إليها عقوبة لك على إنكارك، فعلم أن الله تعالى لا يختص سماعهم بشيء في الوجود دون شيء؛ لأنه لكل كلمة في الوجود، أو حركة من الحركات معنى لطيف، وسر رائق، حتى أنهم يستمعون من هبوب الرياح، وتمايل الأشجار، وخرير الماء، طنين الذباب، وصرير الأبواب، ونغمات الأطيار، وحسن الأوتار، وصفير المزمار، وأنين المريض، وصوت الحزين، وصياح الصائح، ونوح النائح، ما يحرك هممهم من غير تفاوت لهذه الأمور بعضها عن بعض إلا من حيث موافقة الطباع فقط.

وقد تكلم العلماء في السماع كثيراً، ومال بعضهم إلى التحريم، وحملة المحققون على أن من داخلته علة في سماعه من هوس أو نفاق، وصنف الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي في ذلك كتاباً، ونقض أقوال من قال بالتحريم، وجرح النقلة للحديث الذي أوهم التحريم، وذكر من جرحهم من الحفاظ، واستدل على إباحة السماع واليراع والأوتار، بالأحاديث الصحيحة، وجعل الدف سنة.

قال الشيخ عبد الغفار القوصي رضي الله عنه: وقد قرأت ذلك على الحافظ شرف الدين

الدمياطي ، وأجازني به ، وجماعة من الحفاظ ، كأبي طاهر السلفي الأصبهاني بسماعه من المصنف، وقال: لا فرق بين سماع الأوتار، وسماع صوت الهزار والبلبل، وكل طير حسن الصوت ، كما أن صوت الطير مباح سماعه ، فكذلك الأوتار ، انتهى.

وقد قدمنا في هذه المنن الكلام على إباحة السماع في مواضع ، كعند تلاوة القرآن ، وتغزلات القوم ، وأما سماع العود والطنبور وما شاكلهما فظاهر كلام الأئمة الأربع ، التحريم.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: الذي أراه أن السماع على ثلاثة أقسام: أحدها ما هو محرم ، كالاستماع من أرباب الأهوية المحرمة من عشاق النسوان ، والفتيان ، واستماعهم بالآلات المحرمات؛ وذلك لأن مثل ذلك يحرم دواعيهم إلى ارتكاب المحرمات ، فمثل ذلك يحرم على السامع والمستمع؛ لأن ما دعا إلى الحرام فهو حرام ، وما يتوصل إلى الحرام إلا به فهو حرام ، ثانيها: ما هو واجب ، كاستماع من اصطلمهم الحب في الله تعالى ، وأقلهم الشوق إلى لقائه ، وأزهقت أرواحهم من العطش ، وتقطعت قلوبهم على طلب القرب من حضرته ، فإذا سمعوا ذكر حبيبهم ، أو شيئاً من جماله ، طارت قلوبهم إليه ، فجذبت أجسامهم بحكم التبعية والسماع على هذه النيات من أوجب الواجبات ، ثالثها: ما هو مباح على أصله إذ لم ترد فيه آية في التحريم ، ولا حديث صحيح.

وسئل الشريف أبو محمد الهاشمي عن السماع ، فقال: ما أدري ما أقول فيه ، ولكني حضرت في دار شيخنا أبي الحسن التميمي ، سنة سبعين وثلاثمائة ، وقد عمل دعوة ، دعا فيها أبو بكر الأبهري شيخ المالكية ، وأبا القاسم الداركي شيخ الشافعية ، وطاهر بن الحسين شيخ الحديث ، وأبا الحسن بن سمعون شيخ الوعاظ والزهاد ، وابن مجاهد شيخ المتكلمين ، وأبا بكر الباقلاني ، وأبا الحسن شيخ الحنابلة ، فقالوا لشخص حسن الصوت أسمعنا شيئاً ، فأنشد لهم شعراً من جملته:

خطت أناملها في بطن قرطاس ... رسالة بعبير لا بأنفاسي

أن زر فديتك لي من غير محتشم ... فإن حبك لي قد شاع في الناس

فكان قولي لمن أدى رسالتها ... قف لي لأسعى على العينين والرأس

قال الشريف الهاشمي رضي الله تعالى عنه: فبعد أن رأيت هؤلاء الأشياخ يسمعون لا يمكنني أن أفتي بمنع السماع ، فإن هؤلاء مشايخ العراق ، حتى لو سقط السقف عليهم لم يبق في العراق من يفتي في حادثة ، انتهى.

وقد كان الشيخ عبد الرحيم القناوي ، والشيخ أبو الحجاج الأقصري ، وغيرهما من الرجال ، يستمعون ويهيجون كهيجان الجمال ، ويصير أحدهم يقول: يا حبيبي يا حبيبي ، وهو دائر لا يشعر بأحد من الخلق ، انتهى.

وقد قدمت أن بين كل محب ومحبوب علاقة تجذب قلب كل محب إلى محبوبه ، وفي تعشق الأشجار بعضها لبعض ، ولقاح النخل ، وجذب المغناطيس للحديد ، آية دالة على إباحة السماع.

وبلغنا أن لكل شيء مغناطيساً يجذبه ، وأن للفضة مغناطيساً وللذهب مغناطيساً ، وللماء مغناطيساً ، حتى أنهم ذكروا أن مغناطيس الماء إذا كان معلقاً في حيال الماء الذي يجعلونه في الإناء يتصعد الماء إليه ، حتى أنهم يزنونه قبل أن يتصاعد فإذا تصاعد إليه وجدوا الحجر قد زاد قدر الماء ، وبلغنا عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام: أنه كان إذا سمع شيئاً من أشعار القوم يهتز ويتواجد ، وكذلك سيدي عمر بن الفارض ، وكانوا يقولون كل سماع لا يحضره سيدي عمر لا يطيب ، ودخل سيدي عمر مرة مكاناً فيه سماع ، وهو مقبوض ، فما انبسط أحد في المجلس ، فقال القوال لصاحب الوليمة: أعطني ديناراً وأنا أبسط لك سيدي عمر ، فأعطاه ديناراً ، فأنشد يقول:

لي بالحجاز بقية خلفتها   أودعتها يوم الفراق دموعي

فقام الشيخ عمر بن الفارض ، وتواجد ، وطاب المجلس ، وصاروا كلهم يتمايلون ، انتهى.

وحكى الشيخ عبد الغفار القوصي: أنه كان جالساً يوماً بجامع عمرو في مصر العتيق ، قال: فدخل سيدي عمر ، فأعطاني دراهم ، وقال: اشتر لنا بها طعاماً وفاكهة ، ففعلت ، فأخذ ذلك وطلع بي إلى بيت فيه نساء يغنين ويضربن بالدف ، فتواجد ليلة كاملة ، ثم أصحبنا فتفرس مني أني وجدت في نفسي شيئاً ، فقال للنسوة : أخبرنه بالقصة ، فقلن كلهن: والله إننا جواري سيدنا هذا اشترانا بماله ، انتهى.

وأحوال السادة الوفائية وغيرهم في السماع مشهورة ، فإياك والمبادرة إلى الإنكار إلا بطريق شرعي ، بعد تربص وتفكر ، والله عليم حكيم ، يتولىٰ الصالحين. والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم رضائي بما يقع من إخواني من الفساد والبغي على بعضهم ، بل أهجر أحدهم حتى يكاد قلبه يتفتت ليرجع عن ظلمه ، وأسلم أنا من الإثم ، فإن الراضي بالفساد حكمه حكم المفسدين ، وقد أدبت خلقاً كثيراً من أصحابي ، وأخذت للمظلومين حقهم من الظالمين من طرق بعيدة ، وذلك أني أتوجه إلى الله تعالى في تأديب الظالم الذي ضرب أخاه مثلاً بغير حق ، فيسبب الله تعالى له أسباباً حتى يضرب ، ويهان ، مثل ما فعل بأخيه ، ولا يكاد هذا الأمر يخطىء معنا في فقراء الزاوية ، وذلك من جملة رحمة الله عز وجل بالظالمين ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وكلما ضرب العبد أخاه

بشدة وعزم شدد على نفسه العذاب والجزاء ولما كان أهل الله عز وجل مؤمنين بوقوع الجزاء إيماناً جازماً إلا أن يعفو الله تعالى عنهم ، كان تأديبهم لأولادهم وغلمانهم وعيالهم ودوابهم بلطف ورحمة من غير تبريج ، حتى كان سيدي عبد العزيز الديريني رحمه الله لا يصحب سوطاً قط إذا ركب دابة ، ويصير يردها بكم قميصه ، ويقول: إن عبد العزيز هيهات أن يقدر على ضربه بكم القميص ، فإن من ضرب دابته أو نخسها بمنخاس حتى أخرج دمها لا بد أن يفعل معه في قبره ، أو يوم القيامة مثل ذلك ، إلا أن يعفو الله عز وجل عنه ، حتى أنه ورد في الزبور «أنه يقتص للعود إذا خدش العود»(١) ، انتهى.

فإياك يا أخي أن ترضى بظلم ظالم فتكون شريكه في ظلمه أو في جزائه كما روي «أن من رضي بذنب أخيه فقد شاركه فيه»(٢) أو كما ورد وفي بعض الكتب: أن نمروذ لما ناظر إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وغلبه إبراهيم بالحجة ، لم يجد النمروذ جواباً ، فقال: اقتلوه أو أحرقوه ، فرضي قومه بذلك ، فأخبر الله تعالى عنه قومه بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤]. ولم يقع منهم التصريح بالقول ، وإنما وقع منهم الرضا ، هكذا نقله ابن فرحون المالكي رحمه الله تعالى.

قال: ونظير ذلك أيضاً أن الله تعالى خاطب اليهود الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]. وهؤلاء لم يقتلوا الأنبياء السابقين ، وإنما قتلهم أجدادهم وأسلافهم ، فلما رضوا بفعل أسلافهم فكأنهم قتلوهم بأيديهم ، فاستحقوا هذا الخطاب بالتوبيخ ، وكذلك أخبار الله تعالى عن المنافقين بقوله: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. وإنما وقع ذلك من عبد الله بن أبيّ بن سلول فقط ، في قصة جرت بينه وبين عمر رضي الله تعالى عنه ، فلما رضي المنافقون من أصحابه بقوله أخبر الله عنهم بالقول ، فعلم أن من إظهار الغضب والسخط على الظالم ، حتى يشهد له بذلك جميع الناس.

وكان الإمام مالك رضي الله تعالى عنه يقول: لما أرسل إلي أبو جعفر المنصور ، دخلت عليه ، فرأيت النطع بين يديه ، والسيوف مسلولة ، وهو يعاتب ابن طاوس على أمور ، ثم قال له: ناولني الدواة فأبى ، فقال: ما منعك ، فقال: خشيت أن أكون شريكاً لك فيما تكتب ، قال الإمام: فضممت ثيابي مخافة أن يصيبني من دمه ، ثم قال له: اذهب إلى حال سبيلك ، فلم أزل أعرف ذلك لابن طاوس.

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٦/ ٤٢١).
(٢) لم أجده.

وفي الحديث: «**اشتد غضبي على من ظلم من لم يجد ناصراً غيري**»[1] انتهى.

وقد حكي أن ايتفش الحكيم أرسل له ملك زمانه، أن ائت إليّ بشيء من حكمتك، فرحل إليه بما كان عنده من كتب الحكمة فلقيه اللصوص في الطريق وأرادوا قتله، فقال: يا رب ألهم هؤلاء الكراكي أن يصيحوا ويأخذوا بثأري إن قتلوني، فضحك اللصوص من قوله وقتلوه، ثم بلغ الملك أنه قتل، فندم عليه، ثم أرسل يتطلب من قتله، فسمع بعض رسل الملك بعض اللصوص يضحك ويقول: هؤلاء الكراكي التي أوصاهم الحكيم أن يأخذوا له منا بثأره، فقبض الرسل على تلك اللصوص، وعرضهم على الملك فاعترفوا بقتله فقتلهم، انتهى.

فانظر يا أخي كيف أجاب الله تعالى دعاء الحكيم، وسبب للصوص الأسباب حتى قتلهم، فإنه تعالى بالمرصاد، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من جعلي قاضياً أو حاكماً أو شاهداً، لخفاء غالب القضايا على الناس من الحكام، فربما حكم الحاكم ببينة زور، وكان عليه اللوم في عدم التفتيش على أحوال الشهود والمزكين، إما حياء طبيعياً، وإما رقة دين منه، وباب القضاء والحكم بين الناس بالشريعة ـ فضلاً عن السياسة ـ من أخطر الأمور وقد أوحى الله تعالى إلى موسىٰ عليه السلام «**يا موسىٰ لا تشهد بما لا يعيه سمعك، ولا يعقد عليه قلبك. فإني أوقف أهل الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة، ثم أسائلهم عنها سؤالاً عنيفاً**» انتهى.

وربما تحاكم إلي امرأة جميلة، فتاقت نفسي إليها فرجحتها على خصمها، بل ربما وقع لبعض القضاة الامتناع من الحكم لها بحقها إلا إن أجابته إلى ما يريد منها في الحرام، كما وقع مثل ذلك في زمن داود عليه الصلاة والسلام، فبلغنا أنه كان في زمنه امرأة بارعة في الجمال، فادعت عند قاض بحق لها على شخص، فنظر القاضي إليها، فأخذت بمجامع قلبه، فقال: أحكم لك بشرط أن تمكنيني من نفسك، فأبت، وكانت امرأة صالحة ففارقته، وذهبت إلى حاكم سياسي فراودها كذلك عن نفسها وإلا لم يساعدها، فذهبت إلى الشهود، فنظروا إليها كذلك فراودوها عن نفسها، فذهبت إلى السلطان فنظر إليها كذلك فراودها فأبت، فاجتمع القاضي والحاكم والشهود والسلطان، ودبروا حيلة في قتلها لتستريح قلوبهم من التعلق بها، فلما بلغها بكت، وشكت أمرها إلى الله تعالى، فذهبوا إلى داود عليه السلام ليشهدوا عليها بالزنا ليقتلها، فقال بعضهم: إن شهدنا عليها بأنها زنت مع رجل قتلا جميعاً، وهذه مصيبة عظيمة، وإنما الغرض قتلها وحدها، فأجمع رأيهم على أنهم يشهدون بأنها امرأة فاسقة تفسق مع كلب لها، فذهبوا إلى داود عليه السلام، وقالوا: جئناك يا خليفة الله في

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٢٠٧)، والصغير (٧١)، والشهاب في مسنده (١٤٥٢).

أمر لا بد لنا من إعلامك به ، وذلك أن في هذه القرية امرأة فاسقة ، قد ربت كلباً لها ذكراً وعلمته كيف يفعل فيها الفاحشة ، وشهدوا عليها بذلك ، وأطفالها مع ولده سليمان وهو صغير ، وتحاكموا عنده في مثل هذه الواقعة بعينها ، وجاء شاب من الصبيان من أجمل ما يكون ، فادعى عند قاض من الصبيان كما ادعت تلك المرأة فراوده عن نفسه ، ثم ذهب إلى الحاكم فراوده عن نفسه ، ثم ذهب إلى الحاكم فراوده كذلك ، ثم إلى الشهود فراودوه كذلك ، ثم إلى من جعلوه سلطاناً فراوده كذلك ، فرجع الصبي إلى سليمان عليه السلام ، وحكى له القصة ، ففكر سليمان في ذلك ، فألهمه الله تعالى أن أمر بتفريقة الشهود حتى تباعد بعضهم عن بعض ، ثم صار يسأل واحداً بعد واحد عن صفة الكلب ، فما منهم أحد وافق الآخر ، فقال أحدهم: أسود ، وقال الآخر: أبيض ، وقال الآخر: أصفر ، وقال الآخر: أبلق ، فعلم أنهم قد شهدوا بالزور ، فأمر سليمان بحد الشهود ، فحدهم باللعب ، وكل ذلك وداود في مكان عال يشرف عليهم ولا يعلمون ، فلما رأى داود ذلك علم أنه حكم برجم تلك المرأة بغير حق ، فأمر بقتل الشهود ، وأخذ الله للمرأة بحقها ، انتهى ، وذكره الإمام ابن فرحون.

فانظر يا أخي ماذا يقع للحاكم ، واشكر الله على حمايتك من مثل ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شدة زجري لأصحابي عن الكذب ، حتى أكاد أتميز من الغيظ ، فليس عندي بحمد الله ذنب يفعلونه معي أشد من كذبهم عليّ فإني أبني عليه أموراً ربما ضرت صاحبها في الدنيا والآخرة ، وقد كانت عائشة رضي الله تعالى عنها تقول: «**لم يكن شيء أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب ، كان يهجر الإنسان على الكلمة من الكذب الشهرين والثلاثة**»[(١)] انتهى.

وانظر إلى الكفار لما اعلموا شدة قباحة الكذب ، وسوء عاقبته ، كيف نسبوه إلى رسول الله ﷺ ، وكذبوا بما جاءهم به من عند الله عز وجل ليغيظوه بذلك ؛ لأنه يوقف الناس عن قبول ما جاء به من الهدى ، ويذهب فائدة الوحي.

وروي أن حذيفة قال: «**يا رسول الله: ما أشد ما لقيت من قومك؟ فقال: خرجت يوماً أدعوهم إلى الله فما لقيني أحد منهم إلا وكذبني ، وبصق في وجهي**»[(٢)] انتهى.

وفي كلام الحكماء: إذا كذب السفير بطل الدبير ، انتهى.

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (١/ ٤٦).
(٢) لم أجده.

وكان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: الكذب كالميتة لا يباح منه شيء إلا للضرورة.

وكان بعض الحكماء يقول: من عرف بالصدق جاز عليه الكذب، ومن عرف بالكذب فبعيد عليه الصدق.

وفي الحديث: «**أن في المعاريض لمندوحة عن الكذب**»[1] كما في قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة عجوز**»[2]، و«**نحملك على ولد الناقة**»[3] أي البعير و«**في عيني زوجك بياض**»[4] فمثل ذلك مباح مع النساء والصبيان لتطييب قلوبهم بالمزاح.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذ دعي أحدكم إلى طعام وهو صائم فليقل إني صائم كما ورد، فإن الصدق أنجى من المعاريض.

وكان سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول لخادمه إذا دعاه أحد لأمر لا نفع فيه: قل له: ما هو هون، يريد به الهاون الذي يدق فيه حوائج الطعام.

وكان إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه إذا طلبه أحد وهو في بيته، يقول للخادم: قل له: انتظره في المسجد.

وكان الشعبي رضي الله تعالى عنه يقول لخادمه دور بأصبعك دائرة في الحائط، وقل له: ما هو في الدار.

وكان سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي رضي الله تعالى عنه إذا أنكر ما قاله، يقول: إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء، فيوهم النفي بحرف ما، وهو يريد غيره، من أنه اسم موصول.

فاحفظ لسانك يا أخي من الكذب ليقتدي بك إخوانك، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك، وهو يتولىٰ الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم قبولي شيئاً من النمام مطلقاً ولو كان معدوداً من

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب الأدب، باب المعاريض مندوحة عن الكذب، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩٩)، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٧٩٤)، والديلمي في مسند الفردوس (٨٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل (٢٤١).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الخراج (١٩٩١)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح (٤٩٩٨).

(٤) ذكره المناوي في فيض القدير ٢/ ٥٧٠، وابن الأثير في النهاية مادة (أذن).

مشايخ العصر ، فأمج كلامه ببادئ الرأي ، ولا أحتاج إلى تفكير فيه ، وهذا من أكبر نعم الله عز وجل عليّ ، وقل من يرد كلام النمام ببادىء الرأي ، إنما يردونه بعد تفكر ، وقد وقع للشيخ نجم الدين الغيطي رحمه الله تعالى : أن نقل له شخص ممن ينسب إلى العلم أن إنساناً من الصالحين ينتقصه ، فقال : قد خرجت عن اعتقادي فيه ، ثم ظهر له كذبه بعد ذلك ، فقال : ما بقيت اعتمد على كلام أحد إلا بعد تجربة ، انتهى .

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى يقول : في رد النمام ببادي الرأي عدم الوقوع في سوء الظن ، في المنقول عنه ذلك الكلام .

وكان أخي سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : قبول النميمة شر من النميمة ؛ لأن النميمة رواية ، وقبولها إجازة وتصديق .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول : إن النمام يفسد في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة ، وكان يقول : من واجهك بالشتم هو الشاتم لك ، ومن تجرأ لك تجرأ عليك ، انتهى . وسمعته مراراً يقول : النمام كاذب بالشرع على من نم إليه ، وخائن لمن نم عنه ، فإياك ومصاحبة النمام فإنه جليس سوء .

وقد كان سيدي إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه إذا رأى نماماً يقول : لا مرحباً برسول إبليس .

فاعلم ذلك ترشد ، واعمل به تسعد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ : المبادرة إلى التوبة فوراً إذا جرى على قلبي غيبة أحد ، فإن الغيبة كما تحرم باللسان كذلك تحرم بالقلب ، وفي الحديث «**إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به السوء**»(١)

وقد حدد العلماء الغيبة بحدود ، وأحضرها ما بينه رسول الله ﷺ في عدة أحاديث ، وهو أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، أو سمعه ، وإن كنت صادقاً سواء ذكرت نقصاناً في عقله ، أو نفسه ، أو في ثوبه ، أو في فعله ، أو في نسبه ، أو في داره ، أو في دابته ، أو في عبده ، أو في ولده ، أو في أمته ، أو شيء مما يتعلق به ، حتى قولك : فلان واسع الكم ، أو طويل الذيل ، أو كبير العمامة ، أو كثير الكلام ، أو يغتاب الناس ، أو يزاحم على صحبة الأكابر ، أو كثير السعي على الوظائف ، أو محب الدنيا ، أو يحب من يعظمه ، أو فلان أعلم منه ، أو أكثر أدباً .

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦٧٠٧)

وقد دخل مرة طبيبان كافران على سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه ، فوصفا له شيئاً فلما خرجا قال: لولا أخشى أن تكون غيبة لقلت أحدهما أعرف بالطب من الآخر.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إنما ذكر العلماء الغيبة باللسان ، وبالغوا في ذم فاعلها؛ لأنها أغلب ، وإلا فهي لا تختص باللسان ، بل تكون في شيء يفهم منه غرض يكرهه المذكور إذا بلغه أو سمعه ، سواء كان باليد ، أو بالرجل ، أو بالإشارة أو بالحركة ، أو التعريض ، أو المحاكاة ، كل ذلك حرام ، انتهى.

وأوحىٰ الله تعالى إلى موسىٰ عليه السلام: «**يا موسىٰ أتريد أن أنصرك على عدوك؟ قال: نعم ، قال: فرد الغيبة عن أخيك المسلم**».

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أن المغتابين للناس يجثون على الركب على باب النار ، ثم ينهش بعضهم بعضاً كالكلاب ، ورأيته مرة أعاد الوضوء من وقوعه في غيبة بالقلب ، وهو مذهب عائشة رضي الله تعالى عنها ، كانت تقول: «**يتوضأ أحدهم من أكل طعام حلال ولا يتوضأ من الغيبة**»[1] إن الغيبة أولىٰ بالوضوء مما مسته النار ، وكذلك كان يعيد الصوم الذي وقع فيه غيبة ولو بالقلب.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: كان لي عم فمات فرأيته بعد موته ، فقال: غفر لي يا ولدي كل ذنب إلا الغيبة ، فأنا محبوس عليها إلى الآن ، فإياك يا ولدي أن تتساهل في غيبة أحد ، انتهى.

وكان مجاهد رضي الله تعالى عنه يقول: إياكم أن تغتابوا من يغتاب الناس ، ولو كانت غيبته جائزة.

والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ تبارك وتعالى به عليّ: كسر قفص طبعي حتى صرت لا أستحي من تعليم النساء الأجانب آداب الجماع ، فضلاً عن تعليم الرجال ، وقليل من يحصل له ذلك ، وقد كان ﷺ «**أشد حياء من العذراء في خدرها**»[2] ومع ذلك كان يعلم أصحابه كيفية الاستنجاء ، ويعلم المرأة إذا حاضت كيف تشد الخرقة على فرجها ، وكيف تحشوه بالقطن ، وقال لأم عطية وكانت تختن الجواري: «**أخفضي ولا تنهكي فإنه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج**»[3].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤٧٠).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٦٢) ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب كثرة حيائه ﷺ (٢٣٢٠)

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣٢٤) ، والطبراني في المعجم الأوسط (٢٢٥٣) ، والصغير (١٢٢).

قال بعض العلماء: ومعنى أسرى للوجه: أي أكثر لمائه ودمه، ومعنى أحظى عند الزوج: أي أحسن في جماع المرأة.

فانظر يا أخي إلى كثرة شفقته ﷺ وحنانه على أمته، فعلم أن من استحيا من فعل رسول الله ﷺ، أو قول قاله فهو جاهل، كثيف الطبع، ولعله يقع في عدة من الكبائر، ولا يستحي: لا من الله ولا من الخلق.

وقد رأيت من يغتاب الناس ليلاً ونهاراً، ويمزق أعراض العلماء والصالحين، فقال له شخص: اشتر لي بهذا العثماني قهوة أشربها فقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لو ضربت بالسيف ما دخلت بيت القوة، انتهى.

فإياك يا أخي أن تسلك هذا المسلك، فإنه من الكبر والنفاق، وقبح ما قبح الشرع، وحسن ما حسن الشرع، تكن من أهل الأدب، والله يتولىٰ هداك، وهو يتولىٰ الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إرشادي لإخواني المهمومين أن يسعوا فيما يخفف همومهم أو يزيلها، من كثرة الاستغفار، وحفظ الجوارح من الآثام، فإن الهموم في كثرة الآثام، وربما أضعف ترادفها الجسم بالكلية، كما يقع لي في غالب الأوقات: أني أريد القيام إذا جلست فلا أقدر إلا بمعين، مع أن سني عادة لا يؤدي إلى مثل ذلك، ومما جربته لزوال الهم ما أفادنيه شيخنا العالم المحدث الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري، بمصر المحروسة، رحمه الله تعالى، قال: روينا بالسند المتصل إلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، قال: **«رآني رسول الله ﷺ حزيناً، فقال: يا ابن أبي طالب مالي أراك حزيناً؟ فقلت: هو ذاك يا رسول الله، قال: فمر بعض أهلك يؤذن في إذنك فإنه دواء لكل هم، قال علي: ففعلت ذلك، فزال عني»**[1]. انتهى.

قلت: وقد رأيت ذلك أيضاً في كتاب الزاهر للشيخ أبي الحسن بن فرحون المالكي رحمه الله تعالى، ورواه بالسند المتصل، وقال جربته فوجدته صحيحاً، كما جربه رجال سنده فوجدوه كذلك، ولو قدر أن أحداً طعن في سنده كان العمل على التجربة، انتهى.

فلقد فاز والله الوارثون لرسول الله ﷺ، من العلماء لمعرفتهم بالحديث الصحيح، وتمييزه عن غيره، فهم يعملون بما يروونه عن رسول الله ﷺ، جزماً لما عندهم من النور، كأنه ليس بين العلماء الوارثين وبين رسول الله ﷺ إلا درجة واحدة، وهي درجة النبوة الفارقة بين الوارث والموروث.

---

(١) لم أجده.

وكان حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول: للعلماء العاملين الإشراف على مقام الرسل ، لكن لا يقدرون على دخوله ، ولو أنهم دخلوا لاحترقوا.

فعلم أنه لا يكمل الداعي إلى الله تبارك وتعالى إلا إن كان متخلقاً بالرحمة على جميع العالم ، فيرشدهم إلى مصالح الدارين ، فاعلم ذلك وافهمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة زجري لمن رأيته من أصحابي يتجسس على عيوب الناس إذا سمعها ، حتى يتحققها ، وعدم مسامحته في ذلك نصحاً له ، ومتى سكت عن ذلك فقد غششته ، وخرجت عن السنة ، وعرضت نفسي أنا وإياهم لكشف سوآتنا ، كما هو مشاهد ، وفي الحديث «**من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في جوف رحله**»[1] انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا تكن كالذباب يترك المواضع السليمة من الجسد فلا ينزل عليها ، وينزل على مواضع القروح فيأكل من اللحم ، ويشرب من الدم ، ويود أن لو كان الجسد كله كذلك.

وكان الحسن البصري رضي الله تعالى عنه يقول: أدركنا كثيراً من الناس ليس لهم عيوب ، فتجسسوا على عيوب الناس ، فأحدث الله تعالى لهم عيوباً.

وسمعت أخي سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: من تلذذ باطلاعه على عورة أحد فهو من الشياطين المجانين؛ لأن العاقل يكره فتح الأبواب التي تهتكه ، وتظهر مساويه بين الناس.

فإياك يا أخي أن تبش لمن تجسس على عيوب أحد ، وأخبرك به ، فإنك شريكه ، بل أعبس في وجهه حتى لا يكاد يخبرك بعيب أحد بعد ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي ببادىء الرأي فضل من يقبل مني صدقة أو زكاة ، أو أقضي له حاجة ، أو أكلمه كلمة طيبة أو أهدي إليه هدية أو أطعمه طعاماً أو أكسوه قميصاً ، أو أوفي عنه ديناً ، أو نحو ذلك من سائر القربات التي ينتفع الخلق بها ، ولو أني قبلت نعال من أسديت إليه معروفاً لكان قليلاً؛ فإنه كان سبباً للخير الذي يحصل له من ذلك إن شاء الله تعالى ، سواء أكان ذلك الخير دنيوياً كإطلاق ألسنة الناس بالمدح والدعاء لي في الدنيا ، أو آخروياً كرضا الله تعالى عني ، أو حصول ثواب في الآخرة ، ونحو ذلك ، فكل

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في تعظيم المؤمن (٢٠٣٢) ، وأحمد في مسنده (١٩٣٠٢).

ذلك يرجح على تقبيل نعال من كان سبباً فيما ذكر ، وهذا الخلق قل من يحصل له ببادىء الرأي وإنما يحصل ذلك له بعد تفكر ، ومن الناس من لا يحوم حول ذلك أصلاً ، بل يرى له الفضل على من أحسن هو إليه ، وربما عاتبه وذكر له ذلك ، وقال: أنا بحمد الله ما عملت معك طول عمري إلا خيراً ، ما أسأت إليك قط ، ونحو ذلك.

فلا تظن يا أخي إذا أحسنت إلى أحد أنك أنت المحسن ، بل اشهد أن الذي قبل صدقتك مثلاً هو المحسن إليك؛ لأنه كان سبباً لطهارتك من ذنوبك ، ولولا أنه قبل ذلك منك لبقيت بوسخ ذنوبك ، فهو كالحجام الذي يخرج منك الدم الرديء الذي تخاف الضرر منه لو بقي في جسدك لم يخرج ، وربما كان إخراج ذلك الدم واجباً حتماً ، ولو تركته لقتلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إن من يأخذ صدقتك كالغاسل الذي يغسل ثيابك ، ولو لم يغسلها لبقيت وسخة ، وقد شاهدناك تعطي الحجام والغاسل الأجرة ، فكذلك ينبغي لك إعطاؤك الأجر لمن يأخذ من صدقتك ، ويطهرك من ذنوبك.

فالله تعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة رفقي ورحمتي لمن شكا إلي كثرة محبته للمعاصي ، وغلبة وقوعه فيها ، وقساوة قلبه ، وعدم انشراح صدره للتوبة ، فإنه كالمريض الذي يشكو أمراضه للطبيب ، فلا ينبغي له أن يزجره وينفر منه ، بل يصبر عليه حتى يفرغ من أن يشكو ضرورته ومرضه ، ثم يصف له الدواء ، وهذا الخلق قل من يعمل به ، لا سيما أهل الحدة والغيرة على الشريعة ، ولو أنهم نظروا في أخلاقه ﷺ لتلطفوا بجميع العصاة ، وقد دخل مرة أعرابي المسجد فبال فيه ، فثار الناس إليه ، فزجرهم رسول الله ﷺ قال: «**لا ، إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**»(١) ثم أمر بدلو من ماء فصب على مكان بوله.

وفي الحديث أن شاباً أتى النبي ﷺ فقال: «**يا رسول الله أتأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به فقال: أقروه ، أقروه ، ادن مني ، فدنا منه ، فقال له رسول الله ﷺ: أتحب ذلك لأمك؟ فقال: لا يا رسول الله ، وجعلني الله فداءك قال: كذلك لا يحبه الناس لأمهاتهم ، ثم قال: أتحبه لابنتك؟ فقال: لا قال: كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم حتى ذكر له الأخت والخالة والعمة ، ويقول كذلك الناس لا يحبونه ، ثم وضع يده على صدره ، وقال: اللهم طهر قلبه ، واغفر**

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الوضوء ، باب صب الماء على البول في المسجد (٢٢٠) ، والترمذي ، كتاب الطهارة ، باب ما جاء في البول يصيب الأرض (١٤٧) ، والنسائي ، كتاب الطهارة ، باب ترك التوقيت في الماء (٥٦) ، وأبو داود ، كتاب الطهارة ، باب الأرض يصيبها البول (٣٨٠) ، وأحمد في مسنده (٧٢١٤).

ذنبه ، وحصن فرجه ، فلم يكن بعد ذلك شيء أبغض إليه من الزنا»[1] قال الحافظ الدمياطي: وإسناد هذا الحديث حسن.

فإياك يا أخي ونهر أحد من العصاة إذا سألك عن دوائه ، وتأمل في صنع الله عز وجل وحكمته ، فإنه لولا حمايته لبعض العبيد لوقعوا في كل محظور ، لا سيما من خلع الله تعالى عليه خلعة الجمال البارع ، فإن النساء لا تكاد تتماسك عن عشقه ، وربما عملت عليه الحيل ، وكان الواسطة بينهما إبليس ، ولذلك ورد في الحديث «**أن الله تعالى ليعجب من الشاب التائب**»[2] وفي رواية «**إن ربك ليعجب من شاب ليست له صبوة**»[3] فيحتاج الناس إلى رفق ورحمة وشفقة وملاطفة ، وإلا فربما وقع في الزنا لكثرة ميل الذكر إلى الأنثى بالطبع وعكسه.

واعلم يا أخي أن كل شيء توعد الله تعالى عليه بالعذاب والعقوبات كثيراً ، فإنما ذلك لكون الغالب على الناس عادة وقوعهم فيه ، ولولا غلبة وقوعهم فيه لما احتاجوا إلى مزيد تنفير ، وتأمل كثرة ما ورد في عقوبة الزناة ، وشربة الخمر ، دون النهي عن أكل العذرة مثلاً ، تعثر على ما قلناه؛ لأن الشارع لما علم نفرة الطباع من أكل العذرة بالوازع الطبيعي ، اكتفى بذلك ولم يحتج إلى النهي عنه ، بخلاف محبوبات النفوس فلا يكاد يخلص منها إلا من حفظه الله تعالى.

وقد ذكر وهب بن منبه رضي الله تعالى عنه: أن شاباً من عباد بني إسرائيل كان يعبد الله في صومعة ، وكان من أجمل الناس وجهاً ، وكان يعمل القفاف ويبيعها في سوق بيت المقدس ، وكان إسمه يوحنا ، وكان لباسه المسموح ، وكان يواصل السبعة أيام ، وكان لونه كلون الياقوت في الصفاء من كثرة العبادة ، ويسطع من بين عينيه النور ، فمر ذات يوم بباب امرأة من المخدرات فنظرت إليه جارية من جوارحها ، فقالت يا سيدتي قد مر ببابنا شاب من أجمل الناس وجهاً ، كأنه جوهر منظوم ، فقالت لها: ويحك أدخليه الدار حتى ننظر إليه ونشتري منه ، فجعل كلما دخل باباً أغلقوا الباب من ورائه ، حتى بلغ المجلس ، فإذا فيه شابة من أجمل الخلق ، جالسة على سرير مشيد بالجوهر ، وعليها قميص كأنه ماء مسكوب ، فبقيت شاخصة تنظر إليه ، لا تقدر على منع نفسها من رؤيته ، فقال لها يا أمة الله إما أن تشتري ، وإما أن أذهب ، فصارت تباسطه ، وهو يقول لها: إما أن تشتري وإما أن أذهب ، فقالت له: إنما أدخلتك بيتي لأحكمك في نفسي ، قال ويحك إني قرأت كتاب الله الإنجيل ، ولا ينبغي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧٠٨) ، والطبراني في الكبير (٧٦٧٩) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤١٥).

(٢) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير (١٨٦٦) ، وعزاه لأبي الشيخ بلفظ: «يحب» بدل «يعجب»

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٩٢٠).

لمن قرأ كتاب الله أن يعصيه ، قالت له: امش معي إلى داخل هذه الخزانة ، فإذا هي مملوءة ذهباً وجواهر ، فقالت له: هذا كله لك إن وافقتني على ما أريد ، فقال: ائتني بماء حتى أغتسل ، فلما اغتسل قدمت له منديلاً مضمخاً بالطيب والمسك والكافور والعنبر ، رجاء أن يتنشف فيه ، فلما رأى منها الجد ، قال لها: إما أن تفتحي لي أخرج ، وإما أن ألقي نفسي من فوق هذا السطح ، وكان علوه ثمانين ذراعاً في الهواء ، فقالت له: لا بد وإلا ألق نفسك ، فألقى نفسه ، فأمر الله تعالى الهواء أن أحبس عبدي ، فأمسكه الهواء ، وبقي قائماً بقدرة الله تعالى ، ثم قال تعالى: يا جبريل أدرك عبدي يوحنا لا يهلك نفسه خوفاً مني ، فأدركه جبريل ، ووضعه على الأرض سالماً.

فانظر يا أخي شدة مراقبة هذا الفتى لربه عز وجل ، ولولا فضل الله عليه لوقع ، فكن يا أخي على العاصي كالأم الشفوقة إن طلبت أن تكون من المحسنين ، والحمد لله رب العالمين.

مما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: غض طرفي عن رؤية النساء وما يلحق بهن ، أدباً مع الله تعالى من حيث كونهنّ في داره ، وتحت أمانه ، لا لعلة أخرى من خوف عقاب ، أو فوت ثواب ، فضلاً عن وقوع في محرم ، ومن تأمل بعين الإيمان الحقيقي وجد الدنيا كلها دار الحق جل وعلا ، وجميع ما فيها من الحريم إماؤه وعبيده ، فمن نظر إلى واحد منهم بغير حق فقد خان ربه وعصاه في حضرته فلا ينبغي لأحد أن ينظر إلى شيء من الدنيا إلا على حد الأمانة ، وقد صح في الكتاب والسنة الأمر بغض البصر ، فيكفينا امتثال الأمر ، ولو لم نعرف علة النهي ، وفي الحديث: «**زنا العين النظر ، وزنا الفم التقبيل ، وزنا اليد اللمس**»[1].

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من نظر بعينه إلى شيء مستحسن قدح في قلبه جمرة الحب ، ومن غض طرفه عن فضول النظر أثمر في قلبه الخشية والخشوع.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: من اعتنى الله تعالى به أدبه عن النظر لسواه على الفور ومن لم يحصل له تأديب على ذلك فليس هو عند الله بمكان.

وقد حكى القشيري رحمه الله تعالى: أن شخصاً جاور بالحرم المكي خمسين سنة ، وهو حافظ بصره ، فنظر بعد ذلك إلى شاب جميل الوجه ، فإذا بلطمة على عينيه أسالتها على خده ، لم يعلم من لطمه ، وقائل يقول نظرة واحدة أسلنا بها عينك ، ولو نظرت ثانياً لأسلنا الأخرى.

ووقع أن سليمان عليه الصلاة والسلام نظر إلى مملكته مرة فسلبه الله تعالى الخاتم، وكأن الحق تبارك وتعالى يقول: ملت عنا إلى غيرنا بخطرة فملنا عنك بمملكة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٥٣٧).

وكذلك وقع يعقوب عليه السلام: أنه كان قائماً يصلي ، فنظر إلى غطيط سيدنا يوسف وهو نائم فأعجبه ذلك ، ففرق الله بينه وبينه سبعين سنة ، فلما ندم واستغفر جمع الله تعالى بينه وبينه.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول مراراً إذا وجدت في صدرك ضيقاً وحرجاً ففتش نفسك ، فربما وقعت في ذنب ولم تحتفل بأمره ، فنبهك الله تعالى بذلك الضيق ، لتتوب وتتذكر ذنبك ، فإن الله تعالى إذا اعتنى بعبده أدبه فوراً على ذنبه ، وكل كامل يحب التأديب فوراً ، خوفاً من سقوطه وهبوطه من عين رعاية الله عز وجل ، ألا ترى الوالد الشفيق لا يكاد يغفل عن زلة ولده طرفة عين ، وأما زلل الناس فربما تغافل عنه؛ لأن ولده موصول به ، فلا بد من تأديبه في الحال ، والغير مفصول عنه فلا بد فيه من الاحتمال ، انتهى.

والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: غيرتي على أذني أن تسمع زوراً أو باطلاً ، وما لا يحل لي سماعه لكوني أسمع كلام الله جل وعلا ، وكلام رسوله ﷺ ، وكلام الأئمة رضي الله تعالى عنهم ، فضلاً عن علة أخرى ، وكذلك القول في النظر ، والكلام ، فأنا بحمد لله تعالى أغار على عيني أن تنظر إلى غير ما أمرت أن تنظر إليه ، وأغار على لساني أن يتكلم بغير ما أمر به ، وهذا خلق غريب في هذا الزمان ، فإن استعمال العضو في الأشياء الشريفة وهو نجس قذر في غاية سوء الأدب.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى يقول لأصحابه: إياكم أن تذكروا اسم الله ، أو تتلوا كلامه بلسان عصيتم الله تعالى به قبل حصول التوبة الشرعية ، فإن ذلك سوء أدب مع الله تعالى.

وقد قال بعضهم: وحكم من فعل ذلك كحكم من وضع شيئاً من كلام الله في قاذورة ، ولا شك في كفره ، قال: ومن تأمل وجد القذر المعنوي كالقذر الحسي على حد سواء ، فإياكم ثم إياكم ، انتهى.

ورأيت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يوماً ، وقد سمع الأذان فلم يجب المؤذن إلا بتخشع زائد ، فقلت له في ذلك ، فقال: خرج خلقي على شخص ، فقلت له كلمة قبيحة ، فاستحييت أن أذكر الله بلسان وفم تقذر بتلك الكلمة إلا بعد أن أتوب ، وأخشى أن لا أكون من المقبولين ، انتهى ، وسمعته مرة أخرى يقول لشخص رآه يتكلم بكلام العياق ، يا أخي إنما خلق الله تعالى للعبد السمع واللسان ليسمع به الخير ويتكلم به الخير كالقرآن ، والحديث ، والأذان ، وتكبيرة الإحرام من الإمام ، والنصح ممن نصحك ، ولم يخلقه

لسماع الملاهي ، والغيبة ، والبهتان ، والكذب ، والنميمة ، والكلام اللغو ، فإنه هو الداء الدفين ، فإياك يا أخي من استعمال سمعك ولسانك فيما لا يعنيك ، فإنه خسران ، وإن سبق لسانك إلى شيء من ذلك فاستغفر الله على الفور ، وسمعته مرة أخرىٰ يقول: السمع كالزجاجة وفضول الكلام كالأحجار ، فمتى رميت الأحجار في تلك الزجاجة انصدعت وتكسرت ، انتهى.

فاعلم ذلك واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شدة ندمي على اجتماعي بأحد من الأمراء لغير غرض شرعي ، وكراهتي للظالم منهم ، ولو مع محبته هو لي ، وعمل الحيلة على عدم اجتماعي به جهدي إلا لمصلحة شرعية ، وذلك لعجزي عن الخلاص من تبعة صحبته ، فإني واحد من الناس ، وكل ما رأيته يقع من غيري في حق كبير إذا صحبه أخشىٰ أن يقع مني نظيره ، وقد رأيت أحدهم يوافق الملك أو الأمير على كل ما يهواه ، فلا يكاد ينكر عليه منكراً ، وإن قدر عليه ، بل ربما زين له الوقوع في الظلم ، وقال: إنك لم تنزل هذا البلاء على الرعية ، وإنما الله تعالى هو الذي أنزله على عباده ، فكأنه يذم الله تعالى ، ويشكر ذلك الأمير ويسخط الله تعالى ويرضي ذلك الأمير ومن أعظم ما يقع فيه أكله من طعام ذلك الأمير ، وعدم امتناعه إذا دعاه الأمير للأكل من طعامه.

وقد أدركنا الفقراء وهم يذهبون إلى ولائم الأمراء إذا دعتهم ضرورة إلى ذلك ولكن لا يأكلون لهم طعاماً ، منهم سيدي الشيخ محمد بن عنان ، وسيدي الشيخ أبو الحسن الغمري ، وسيدي الشيخ محمد العدل ، وسيدي الشيخ عبد الحليم ، فيذهب أحدهم برغيف في كمه ، فإذا مدوا السماط أكل من ذلك الرغيف بحيث لا يشعر به الأمير.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تخالطوا أحداً من الأمراء ، أو تأكلوا له طعاماً أو تسكتوا على ما ترون في مجلسه من المعاصي القولية أو الفعلية فقد كان السلف الصالح مثل: سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه ، وطاوس اليماني رضي الله تعالى عنه يحذرون لأجل ذلك من الدخول عليهم ، ثم إن دعت ضرورة إلى الاجتماع بهم ، أو حصل الاجتماع بحيلة من الحيل نصحوهم وخوفوهم وزجروهم ، وهذا متعذر على من يدخل عليهم اليوم.

قال: ولما قدم هشام بن عبد الملك مكة ، طلب الاجتماع بطاوس اليماني ، فلم يجبه طاوس إلى ذلك ، فعمل عليه الحيلة حتى اجتمع به ، فلما دخل عليه طاوس لم يسلم عليه بسلام الخلفاء ، وإنما قال: السلام عليكم يا هشام ، كيف حالك؟ وخلع نعليه بحاشية البساط ، وجلس بجانبه ، فغضب هشام لذلك حتى هم بقتله ، فقال له الوزير يا أمير المؤمنين أنت في حرم الله عز وجل ، فقال هشام: ما الذي حملك على ما صنعت؟ فقال:

وماذا صنعت؟ فقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي ، ولم تجلس بين يدي ، ولم تقبل يدي ، ولم تقل: السلام عليك يا أمير المؤمنين كما يقول غيرك ، وسميتني باسمي ولم تكنني ، فقال طاوس: أما ما فعلت من خلع نعلي بجانب بساطك فإني أفعل ذلك كل يوم خمس مرات بين يدي الله في بيته فلا يعاقبني ، ولا يغضب عليّ ، وأما عدم تقبيلي يدك فإني سمعت علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ينهى عن تقبيل يد الملوك إلا من عدل ، وأنت لم يصح عندي عدلك ، وأما عدم قولي لك يا أمير المؤمنين حين سلمت عليك ، فليس كل المسلمين راضين بإمرتك عليهم ، فخشيت أن أقع في الكذب ، وأما كوني لم أكنك فالله تعالى قد كنى أبا لهب لكونه عدوه ، ونادى أصفياءه بأسمائهم المجردة لكونهم أحباؤه ، فقال: يا داود ، يا يحيى ، يا عيسى ، وأما جلوسي بجنبك فإنما فعلت اختباراً لعقلك ، فإني سمعت علي بن أبي طالب يقول: يختبر عقل الأمير بجلوس آحاد الناس بجانبه ، فإن غضب فهو متكبر من أهل النار ، فأخذت هشاماً الرعدة ، وخرج طاوس من عنده بغير استئذان ، فلم يعد إليه ، انتهى.

فإن كنت يا أخي تقدر على خطاب الأمراء بمثل ذلك ، فادخل عليهم ، وإلا فابعد عنهم ، وقد تقدم في الباب الثالث ، أنني لم أدخل على الباشا إلا بعد إرساله رسولاً يستأذنني في نزوله إليّ أو طلوعي له ، فرأيت طلوعي له أقل كلفة ، وأخف من نزوله هو إليّ ، وكذلك وقع لي مع مصطفىٰ نائب زبيد ، أنه عزم على زيارتي ، وأرسل لي الشيخ زكريا والقاضي محمد بن سودي المالكي ، يقولان لي: تربص في الدار شيئاً يسيراً ، فإن الباشا مصطفىٰ جاء إليك ، فلم أمكنه من ذلك ، وذهبت أنا إليه.

ومما وقع لي من كراهتي للظلمة مع شدة اعتقادهم في ، أن شخصاً منهم شرع في ظلم على أهل مصر ، وأرسل يأخذ بخاطري عليه ، فجرد له سيف المقاطعة ، ورتبت الفقراء للدعاء عليه حتى أخرجه الله تعالى من مصر هارباً ، ولم أمل إليه لكونه يعتقدني ، وهذا أمر قل أن يقع من أحد من أقراني ، بل رأيت بعضهم يجيب عنه ، ويحمل أفعاله الرديئة على أحسن المحامل ، ولذلك وقعت له العقوبة بعده من نائب مصر ، ومات على أثرها.

فاعلم ذلك ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: الرحمة باطناً لمن قدر الله تبارك وتعالى عليه شيئاً من إمارات الساعة المذمومة ، التي أخبر بها رسول الله ﷺ ، والإنكار عليه ظاهراً ، قياماً بواجب الشريعة ، إن كان من جاءت علامة الساعة على يده مسلماً سألت الله تعالى أن يغفر له ، ويدبره بحسن التدبير ، وإن كان غير مسلم سكت عنه ، على أن علامات الساعة التي أخبر بها الشارع ﷺ ليست كلها مذمومة ، بل فيها ما هو مذموم ، وفيها ما هو غير مذموم ، فقد روى مالك وغيره ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ، أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، كتب إلى سعد بن أبي وقاص بالقادسية أن يوجه فضلة بن معاوية الأنصاري إلى حلوان

العراق ، فذكر الحديث ، إلى أن قال: فلما أذن المؤذن سمعنا شخصاً يجيبه ، ولا نرى شخصه ، فقلنا له: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا زبيب بن برثميلا وصي العبد الصالح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، اسكنني هذا الجبل ، ودعا لي بطول البقاء إلى نزوله من السماء ، ثم انفلق الجبل عن هامة كالرحى أبيض الرأس واللحية ، عليه طمران من صوف ، فسلم علينا واختفى.

وكان من جملة ما أخبر به من علامة الساعة أنه قال: إذا فعلت أمة محمد هذه الخصال فالهرب الهرب ، إذا استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء وانتسبوا في غير مناسبهم ، وانتموا إلى غير مواليهم ، ولم يوقر صغيرهم كبيرهم ، ولم يرحم كبيرهم صغيرهم ، وترك المعروف فلم يؤمر به ، وترك المنكر فلم ينه عنه ، وتعلم عالمهم العلم ليجتلب به الدراهم والدنانير ، وكان المطر قيظاً ، والولد غيظاً ، وطولوا المنارات ، وفضضوا المصاحف ، وزخرفوا المساجد ، وشيدوا البناء ، واتبعوا الهوى ، وباعوا الدين بالدنيا ، وقطعوا الأرحام ، ووقع بيع الحكم ، وأكل الربا ، وصار الغنىٰ عزاً ، وخرج الرجل من بيته فقام إليه من هو خير منه فسلم عليه ، وركب النساء السروج.

فانظر يا أخي إلى هذه العلامات ، فإن فيها ما ليس مذموماً شرعاً ، كنحو قيام الرجل لمن ليس هو خير من القائم لغرض شرعي من القائم.

قال الإمام مالك رضي الله تعالى عنه: ولما كتب سعد بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ أخبرنا بأن بعض أوصياء عيسى بن مريم عليه السلام نزل جبلاً بناحية العراق ، انتهى.

فعلم أن من كمال عقل الرجل في هذا الزمان كثرة الالتجاء إلى الله تعالى ، بأن يلطف به فيما سبق به علمه ، فإن العبد لا يدري إلى أين مصيره ، ولا هل سبق في علم الله تعالى أن يكون عبرة لمن بعده أم لا؟ والله تعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة تعظيمي لمن ينصحني ، وزيادة محبته ، على من يسكت عن نصحي ، ويحملني على محامل حسنة ، فإن الناصح أنفع لي ممن يجيب عني ، وقد نصحني إنسان مرة فأعطيته جوختي ، ومرة أعطيته صوفي ، ومرة أعطيته عمامتي ، وأقسمت عليه بالله تعالى أن لا يترك نصحي ، خوفاً من تغير خاطره قياساً على غيره ، وهذا الشخص هو الذي ظفرت به طول عمري من الناصحين ، فجزاه الله عني خيراً ، وفسح من أجله.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول: إياك أن تظهر كراهة الناصح لك ، فيقطع عنك النصح ، بل أقبل نصيحته بوجه طلق ، وسمع مصغ ، وشكر جميل ،

وصدقه فيما نصحك به ، وأنصف يا أخي من نفسك ، فإن المرء لا يرىٰ عيب نفسه غالباً ، إنما يراه أصحابه ، وربما أن ذلك الناصح كتم عنك من عيوبك ومساويك أكثر مما أبداه لك إذا خاف شرك ، وأنا أعلمك ميزاناً ، وهو : أن كل شيء استحسنته من غيرك فافعله مع إخوانك ، وكل شيء استقبحته من غيرك من القبائح فاجتنبه ، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ: «**المؤمن مرآة أخيه المؤمن**»(١) أي يرى في أخيه المحاسن فيعمل بها ، والقبائح فيتجنبها ، ولولا أخوة المؤمن لربما كان لا يرىٰ تلك العيوب لغلبة الهوى عليه ، ومحبته لنفسه ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: موت أبي وأمي قبل بلوغي حد التكليف ، ولو أنهما عاشا حتى بلغت لربما وقعت في قلة الأدب معهما ، أو في العقوق لهما ، ولو مرة واحدة ، وليس بعد حق الله تعالى ورسوله أعظم من حق الوالدين ، سواء كانوا آباء الجسم ، أو آباء الروح ، كالنبي ﷺ ، ومن بعده من الدعاة إلى الله تعالى ، وقل ولد يسلم من وقوعه في العقوق لوالديه أو أحدهما.

وقد أوحىٰ الله تعالى إلى العزير عليه السلام: «**إياك أن تعق والديك ، فإن من عق والديه غضبت عليه ، ومن غضبت عليه لعنته إلى رابع أهل بيته ، فاطلب رضا والديك ، فإن أرضيتهما فأنا أبارك فيك إلى رابع أهل بيتك**»(٢) ، انتهى.

فعامل أبويك بما عامل به الأنبياء آباءهم ، ألا ترى إبراهيم عليه السلام حين نادى أباه بقوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ ﴾ [مريم: ٤٤]. فناداه باسم الأبوة ، دون أن يناديه باسمه المجرد ، تأدباً معه ، وكذلك يوسف عليه السلام في قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا ﴾ [يوسف: ٤]. فلم يدعه باسمه ، اقتداء بأبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام فمن دعا أباه باسمه صار عاقاً له ، فكيف بمن جفاه ، لا سيما وقد أمرك الله تعالى أن تعامل أباك من جهة الظهور بالمعروف ، أما آباؤك في الدين فربما كان أحدهم أحق وأجل مقاماً ، ولا يخفىٰ أن أجل آباء الدين نبيك محمد ﷺ ، وقد علمك الله الأدب معه في نحو قوله: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾ [النور: ٦٣]. وقال: ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ ﴾ [الحجرات: ٢].

فإنه ﷺ أبو أهل دين الإسلام كلهم ، وأعلمك بجلالته في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم (١٩٢٩) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في النصيحة والحياطة (٤٩١٨).

(٢) لم أجده.

﴿يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. فعلمك الأدب مع آباء الدين، كما علمك الأدب مع آباء الظهور، وحق الوالدة ضعفا حق الوالد العرفي، وإذا كان الله تبارك وتعالى أمر خليله وحبيبه بتعظيم أبويه الكافرين وتبجيلهما، فكيف بالأبوين المؤمنين.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من حق والديك عليك أن تسمع كلامهما، وتقوم لقيامهما، وتمتثل أمرهما، ولا تمشي أمامهما، ولا ترفع صوتك فوق صوتهما، ومن حقهما عليك أن تحرص على تحصيل مرضاتهما، وخفض الجناح لهما، ولا تمن عليهما بالبر لهما، ولا بالقيام بأمرهما، ولا تنظر إليهما شزراً، ولا تقطب في وجهيهما، ولا تسبقهما إلى أطايب الطعام إذا أكلت معهما، بل آثرهما على نفسك، انتهى.

فعلم أنه ليس للعقوق ضابط في الشرع، إنما هو عام في سائر ما يخالف غرض الوالدين من سائر المباحات، كما قاله شيخ الإسلام السراج البلقيني، رحمه الله تعالى، والله يتولىٰ هداك، والحمد لله رب العالمين.

مما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم سؤالي الله عز وجل أن يعطيني المنازل العالية في الجنة إلا إن وطنت نفسي على كثرة الصبر على البلاء، فإن البلاء مقرون بذلك، وانظر إلى قوله ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**»[1] ولا شك أن من طلب أن يكون أميراً فهو أقرب إلى الملك ممن طلب أن يكون خادماً لدواب الملك، فكثرة البلاء يتبعها كثرة النعيم في الجنة، وعكسه.

وقد كان الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه يقول: إذا أراد الله تعالى أن يصافي عبداً من عبيده لم يذر له أهلاً ولا ولداً ولا مالاً، ثم بعد ذلك يصطفيه، انتهى.

فوطن نفسك يا أخي على البلاء في جسمك ومالك وولدك، ثم اطلب من ربك القرب من حضرته.

ولما ابتلى الله تعالى زكريا عليه السلام بالنشر، ووصل المنشار إلى دماغه، قال: آه، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه، وما تقدم منك طلب القرب مني، أما علمت أن أهل حضرتي هم أكثر من ينزل عليهم بلائي، أما علمت أن من أسمائي الصبور، لئن قلت آه مرة ثانية لأمحون اسمك من ديوان النبوة.

وأوحىٰ الله تعالى أيضاً إلى موسىٰ عليه الصلاة والسلام «يا موسىٰ أتحب أن يدعو لك كل شيء طلعت عليه الشمس والقمر؟ قال: نعم، قال: فاصبر على جفاء خلقي، كما صبرت أنا

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب المرض، باب أشد الناس بلاءً الأنبياء، وأحمد في مسنده (٢٦٥٣٩).

على من يأكل رزقي ويعبد غيري ، فإنه يسترزقني مع ذلك فأرزقه» .

فعلم أن أولياء الله تعالى مكلفون بالصبر ، والتجلد ، وعدم الضجر ، والأنين ، ومن طلب أن يزاحمهم على ذلك من غير ولاية الله تعالى له هلك ، ولم يصل إلى ما طلب ، بخلاف من اختصهم الحق تعالى لحضرته ، فإنهم لا يزدادون بالبلاء إلا حباً له سبحانه وتعالى ، فأين أنت منهم ، يا من لا تقدر على عض ناموسة .

وقد ورد **«أن الله تعالى أرسل ملكاً لشخص من أوليائه وهو ساجد ، فقال : إن ربك يقول لك : سلني ما شئت ، فلو سألتني أن أغفر لجميع أهل عصرك لغفرت لهم ، فقال الولي : وعزته وجلاله ما عبدته إلا به ، ولا أردت شيئاً دونه ، ولو حبسني في النار أبد الآبدين ما طلبت الإقالة ، بعد أن عرفته سبحانه وتعالى ، فقال الله تعالى للملائكة : هل فيكم من يقول مثل هذا؟ فقالوا : سبحانك لا نطيق عذابك ، فقال الله تعالى : وعزتي إنه لصادق ، ولن يطيق الصبر إلا بي وبمعونتي»** ، انتهى .

هذا في ولي من أولياء بني إسرائيل ، وفي أولياء هذه الأمة من هو أكمل منه .

وقد سمع سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى شخصاً يقول في دعائه : اللهم اجعلني من أهل حضرتك ، فقال له : اشتغل بما كلفك به من المأمورات الشرعية على لسان نبيك محمد ﷺ ، من قيام الليل ، وصيام النهار ، وكف الجوارح عن معاصي الله تعالى ، وأنت إذن من أهل حضرة الله تعالى ، فإن مثال من يطلب القرب من الله تعالى من غير طريق ، مثال فلاح حاف جاء مكشوف العورة ، يتمنى على السلطان ابن عثمان مثلاً أن يزوجه ابنته ، أو يجعله وزيراً له في هذا الوقت ، وذلك أبعد ما يكون ، أين المقام من المقام ، بخلاف ما لو كان مثل الوزير الأعظم ، فقد يجاب إلى ذلك ، لكونه من أهل حضرة السلطان ، انتهى .

وروي **«أن موسىٰ عليه السلام مر على شخص في كهف وهو ساجد ، يقول في سجوده : الحمد لله الذي فضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً ، فنظر موسىٰ عليه السلام إليه ، فإذا هو مقعد ، وليس له يدان ولا رجلان ، فقال له موسىٰ لما فرغ من صلاته : وما الذي فضلك به؟ فقال : يا عبد الله فضلني بكونه خلقني مسلماً ، ولم يخلقني كافراً ، فرفع موسىٰ طرفه إلى السماء ، وقال : يا رب أعطه الجنة ، فأوحى الله تعالى إليه كأنك يا موسىٰ تقول زده من البلاء ، ثم نظر موسىٰ إليه فإذا السبع ينهش في بطنه حتى أكله ، فقال موسىٰ عليه السلام : هكذا تفعل بأوليائك؟ فقال : هكذا أفعل يا موسىٰ بأوليائي ، سألتني له الجنة وهي لا تنال إلا بالبلاء ، ولو أنك سألتني له الدنيا لأعطيتها له»** ، انتهى .

والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ . إعطائي الخبز حقه من الإكرام والتنظيم والتقبيل ،

ووضعه على العين ، وبذلك تدوم علينا إن شاء الله تعالى .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «**دخل علي رسول الله ﷺ مرة ، فرأى كسرة يابسة في جدار البيت وقد علاها الغبار ، فأخذها رسول الله ﷺ وقبلها ووضعها على عينيه ، ثم قال: يا عائشة أحسني مجاورة نعم الله عز وجل ، فإن النعمة قلما نفرت عن أهل بيت فكادت ترجع إليهم**»(١) . انتهى .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تضعوا الخبز على الأرض من غير حائل ، فإن فيه احتقاراً لنعمة الله عز وجل .

وكان سيدي أحمد بن الرفاعي رحمه الله تعالى يقول: ما ابتلي قوم بالغلاء حتى أهانوا الحب لرخصه . وكان يقول: قلة إكرام الخبز كفر بنعمة الله المنعم ، فاجتهدوا في إكرامه ما استطعتم ، والتقطوا ما يسقط منه عند سقوطه ، ولا تتركوه إلى آخر الطعام ، فإن تعظيم نعمة الله من تعظيم الله .

وفي بعض الآثار: إن القرص لا يؤكل حتى يتداوله ثلاثمائة وستون مخلوقاً ، أولهم ميكائيل ، وآخرهم الفران ، وقال: ثم يكفينا من تعظيمه أن الله تعالى جعل الطعام عديلاً لرؤيته في حديث «**للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه**»(٢) .

قلت: والحكمة في ذلك: إن العبد مركب من جسم وروح ، فالطعام غذاء الجسم ، ورؤية الرب غذاء الروح ، والله أعلم .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا أكلت طعاماً فواس منه من حضر ، إن أردت دوام نعمته عليك ، فإن من أكل وعين تنظر إليه ولم يطعمها ابتلاه الله تعالى بداء يسمى النفس .

وكان يقول: إذا دعاك أخوك المؤمن التقي إلى طعامه فأجبه تسره ، ولا تجب ظالماً ولا فاجراً ، ولا من يعامل بالربا ، ولا من يخص الأغنياء بدعوته دون الفقراء ، وإذا أكلت فلا تتحول حتى ترفع المائدة ، فإن ذلك من سنة السلف الصالح ، فإذا غسلت يدك فادع بالبركة ، واستأذن في الخروج ، ولا تأكل وحدك ، ولا في ظلمة ، فإن ذلك من صفة الشيطان ، ولا تضيع من الطعام شيئاً ، فإنه ما قدم إليك إلا لتأكله لا لترميه على الأرض ، وبادر إلى ما سقط كما مر ، فكله ، فإنه ورد في الخبر: «**أن من أكل ما سقط صرف الله عنه**

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٨٨٩) .

(٢) أخرجه النسائي ، كتاب الصيام ، باب ذكر الاختلاف على أبي صالح في هذا الحديث (٢٢١٤) ، وأحمد في مسنده (٧٥٥٢)

الجنون والجذام والبرص ، وعن ولده وولد ولده إلى رابع أهل بيته»[1] انتهى.

فاعمل يا أخي بهذه الآداب ترشد ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كراهة اجتماعي بمن دخل في عهد شيخ من أهل عصري ، وإن دق على الباب لا أخرج له إلا إن علمت سلامته من الآفات عند اجتماعه بي ، فإن غالب المريدين لا يخلو غالباً إذا اجتمع بغير شيخه من ثلاثة أمور: إما أن يحتقره ويعظم شيخه فيمقت ، وإما أن يعظمه على شيخه فيخون عهده ، ويعرض نفسه للمقت ، وإما أن لا يظهر له أمر من اعتقاد ولا عدمه ، فلا فائدة في الاجتماع ، وقد قدمنا في هذه المنن أن هذا الخلق لا يصح إلا لمن تخلق بالرحمة على العالم ، وصار أشفق على دين الإنسان أن ينقص من نفس ذلك الإنسان ، وأما من لم يتخلق بذلك فهو من المتهورين في تضييع أوقاته وأوقات إخوانه بلا نفع ، لا سيما إن كان ذلك المزور في معترك المنايا ، وقد جاوز الستين سنة ، أو كان خامل الذكر بين الفقراء ، لا يظهر عليه إمارة صلاح ، فما لهذا والناس.

وقد امتحنت بحمد الله كثيراً ممن يدعي محبتي من الأشياخ فضلاً عن المريدين ، ممن له كل يوم نحو ثلاثين نصفاً ، أن يجعل لي منها عثمانياً ، فلم تسمح نفسه بمثل ذلك ، فبالله عليك من لا تسمح نفسه لك بمثل ذلك ، أو بإعطائك رغيفاً من خبزه ، فأي فائدة في صحبته ، فإنه إذا أخل بحقك في هذه الدار ، فهو في الآخرة أكثر إخلالاً فاقتصر يا أخي من أصحاب هذا الزمان على القليل ، فهو أفضل لك ولهم ، ثم موسى الرضا ، ثم محمد التقي ، ثم حسن العسكري ، ثم محمد المهدي الظاهر في الإمام زين العابدين ، ثم محمد الباقر ، ثم جعفر الصادق ، ثم موسى الكاظم والله تعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: رؤية شخص من الثقات الأئمة المباركين الاثني عشر من أهل البيت ، وقد دخلوا مصر ، فقال لهم: ما أتى بكم إلى مصر في هذه الأيام؟ فقالوا: جئنا نزور الشيخ عبد الوهاب الشعراني ، فإنا لا نعلم أحداً في مصر يحبنا كمحبته ، قال الرائي: ولم أر على وجه الأرض أحداً أنور وجهاً منهم ، ولا أحسن ثياباً ، ولا أحسن رائحة ، فإن وجوههم كالأقمار.

قال: ورأيت أمامهم الإمام علي بن أبي طالب ، ويليه الحسن ، والحسين ، ويليهم آخر الزمان ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، انتهى

فما سررت بعد رؤية رسول الله ﷺ سروراً بمثل هذه الواقعة ، فإنه دليل على أن أهل البيت كلهم يحبوني ، ويأخذون بيدي في عرصات القيامة ، فإنهم لا يفرقون جدهم ﷺ ، ومن ذلك

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير ٢/ ٩٣

في زمرة الحبيب الشفيع المشفع ، سيد المرسلين على الإطلاق ، لا يغشاه كرب إن شاء الله تعالى والله تعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: محبتي لعيالي محبة الأخوة في الإسلام ، لا محبة الزوجات ، وكلما زادت في الأعمال الصالحة زدت في محبتها ، وكلما نقصت عن الأعمال نقصت من محبتها ، وهذا الخلق قليل من يتخلق به من المريدين ، ولذلك حذر الأشياخ من محبة النساء ، تبعاً للقرآن العظيم ، وفي الحديث الشريف «**ما تركت على أمتي فتنة هي أضر عليهم من النساء**»[1] أو كما قال ، وإنما كانت النساء فتنة؛ لأن الحق تعالى حببهن إلينا بحكم الطبع ، ثم أمرنا بمجاهدة النفس ، حتى نخرج من محبتها الطبيعية إلى المحبة الشرعية وقل من يصر على مجاهدة نفسه حتى يخرج عن ذلك.

وإيضاح ذلك ، أن المحبة الطبيعية تورث العبد العطب؛ لأنها شهوة نفس ، والحق تعالى غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده المؤمن محبة لغيره إلا من أجله ، فإذا خرج محبتها الطبيعية إلى المحبة الشرعية ، وقل من يصبر على مجاهدة نفسه حتى يخرج العبد إلى فضاء المحبة الشرعية ، من ضيق المحبة النفسية ، فقد أمن من الفتنة ، وما دام في محبة الطبع فهو في حجاب عن الله تعالى ، ومشتغل عن كمال طاعته ، ومن هنا قال سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى: إياك والمرأة الحسناء ، فإن ضررها عليك أكثر من ضرر الشوهاء؛ لأن الشوهاء؛ تصيبك في ظاهرك ، ولا تدخل محبتها قلبك ، والحسناء ربما سكنت محبتها في قلبك ، فامتنع الحق من دخوله ، فباض فيه الشيطان وفرخ.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: من أكثر من مجالسة النساء فسد عقله ، ومنع من دخول الحكمة إلى قلبه ، وفاتته الفضائل.

وقال بعضهم: سأل آدم عليه السلام حواء ، وقال لم سميت بذلك؟ فقالت: لأني أحتوي على قلبك ، وأنسيك ذكر ربك ، فقال لها: غيري هذا الاسم ، فسمت نفسها امرأة ، فقال لها ما معنى ذلك؟ فقالت: أذيقك طعم المرارة ، فقال لها ، غيري هذا ، فلم تغيره ، وفي الحديث: «**النساء مصايد الشيطان**»[2] فعلم أن النساء فخ منصوب لا يقع فيه إلا من اغتر به ، وقال لقمان لابنه: «**يا بني إياك والنساء فإنهن كشجر الدفلى**[3]**، لها ورق وزهر ، وإذا أكل منها لحيم أسقمته وقتلته**» والله تبارك يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب النكاح ، باب ما يتقى من شؤم المرأة (٥٠٩٦) ، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء (٢٧٤١)

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (١/ ٢٧٦).

(٣) الدفلى: نبت مر ، زهره كالورد الأحمر ، وحمله كالخروب ، من الفصيلة الدفلية ويتخذ للزينة اهـ المعجم الوسيط مادة / دفل/

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم مبادرتي لصحبة إنسان إلا بعد مجالسته أياماً كثيرة ، ورؤيتي مراعاته لأوامر ربه التي تنفعه وتنفع الناس فإن رأيته يخل بذلك لم أصحبه؛ لأن الإنسان إذا لم ينفع نفسه فكيف ينفع غيره ، وهذه ميزان نافعة لمن يريد صحبة إنسان ، ليدخل في صحبته على بصيرة من غير معاداة له بعد ذلك فإن الغالب على الناس المصاحبة من غير تجربة ، ثم بعد مدة يتقاطعان ويتضاربان ، ويصير كل واحد يحكي عن صاحبه ما هو أهله.

وكان سيدي تاج الدين بن عطاء الله يقول: لأن تصحب جاهلاً لا يرضىٰ عن نفسه ، خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من صحب الأحمق فلا يلومن إلا نفسه ، فإنه يريد أن ينفع صاحبه فيضره ، وقال: وقد بلغنا أن شخصاً كان نحالاً يقطف عسل النحل من كوارته ، وكان له صاحب جاهل لا ينظر في العواقب ، فنام النحال والجاهل جالس عند رأسه ، فكان الذباب يعف عليه وهو ينشه عنه ، فلما أعجزه الذباب وهو يطير ويرجع ، قال: ما بقي لي حيلة في نجاة صاحبي من لدغ الذباب إلا أن أرمي على وجهه صخرة ، فأقتل الذباب كله ، فقطع من الجبل صخرة على قدر وجه النائم ورأسه ، وجاء فرضخ بها وجهه ورأسه ليقتل الذباب كله ، فطار الذباب يميناً وشمالاً ، وشدخ رأس الرجل ، وخرجت عيناه ، وذاب مع رأسه ، فمات لوقته ، فهذا مثال نفع الجاهل لصاحب.

والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم مطالبتي للعارفين والعلماء العاملين بدليل على جميع أحوالهم ، فإن مثلهم لا يفعل ما هو بدعة ، ومن طالبهم في كل مسألة بدليل فإنه خير كثير ، لا سيما إن كان ذلك الفعل لا يهدم شيئاً من أحكام الشريعة كالتسبيح على السبحة ، وقد بلغني أن بعض الفقهاء يعيب على من يسبح على السبحة فقلت له: الأمر سهل ، فاستفتى العلماء في ذلك ، واختلفت فتاويهم ، فأغاثني الله تعالى بمؤلف للشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في الأمر بالتسبيح على السبحة ، وأن أول من سبح بها الحسن البصري رضي الله تعالى عنه ، وروى بسنده إلى أبي الحسن الصوفي ، قال: رأيت في يد عمر بن علوان الصوفي سبحة لا يفارقها ، فقلت له يوماً: يا أستاذ ، مع عظيم إشارتك ، وسنى عبارتك ، أنت مع السبحة ، فقال لي: كذا رأيت الجنيد بن محمد رضي الله تعالى عنهما وفي يده سبحة ، فسألته عنها ، فقال لي: هكذا رأيت عامر بن شعيب وفي يده سبحة ، فسألته عما سألتني عنه ، فقال لي يا بني هذا شيء كنا استعملناه في بداية أمرنا ، وما كنا بالذي نتركه في نهاية أمرنا ، فإني أحب الآن أن أذكر الله تعالى بلساني ، وبقلبي ، وبيدي ، وبسبحتي ، انتهى.

فشيء تداوله التابعون ومن بعدهم إلى عصرنا هذا من غير نكير ، فيما بينهم ، لا ينبغي إنكاره ، وهو نظير وما ورد في التسبيح على الحصى ، وعقد الأصابع بلا شك ، فافهم ذلك ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: رؤيتي لجملة من أشياخي بعد موتهم ، وحديثي معهم ، فبعضهم فرش لي سجادة خضراء لأجلس عليها وبعضهم ضمخ لحيتي بالطيب والمسك والعنبر ، فأما الذي فرش لي السجادة لأجلس عليها وجلس بين يدي ، فهو شيخنا العارف بالله تعالى سيدي محمد الشناوي رحمه الله تعالى ، ولم أجلس عليها أدباً مع الله تعالى؛ لأنه كالتخيير في الجلوس للإرشاد وعدمه ، ولو أنه أمرني بذلك صريحاً لجلست كذلك ، ولكنه بحمد الله تعالى أذن لي في التلقين والإرشاد للمريدين قبل موته ، كان أقوىٰ أذناً من البرزخ من حيث الحكم الظاهر ، وأما من حيث الباطن فالبرزخ أقوى؛ لأن فيه تتحقق الحقائق.

وقد بلغنا عن أبي عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه: أنه توضأ يوماً ، ففرش الخضر عليه السلام له سجادة خضراء مرصعة بالجوهر والدر والياقوت ، فضمها القرشي ولم يجلس عليها ، فقيل له في ذلك ، فقال: لو أنه أمرني بالجلوس عليها لجلست لإرشاد الناس عن اذنه ، ولكنه خيرني في ذلك ، فلزمت الأدب.

وأما الذي ضمخ لحيتي بالطيب والمسك والعنبر فهو سيدي علي المرصفي رضي الله تعالى عنه، وذلك لكثرة ما أذكره بخير. والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: ظني في الله عز وجل أنه يجيب دعائي ، ولو كنت أكثر أهل الأرض خطايا ، فإني عبد والعبد لا براح له عن باب سيده في نفس من الأنفس ، ولا يستغني عن صدقته عليه أبداً ما عاش.

وقد كان سفيان بن عيينة رضي الله تعالى عنه يقول: لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلمه من نفسه من فعل القبيح ، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين.

وقد نقل عن بعضهم أنه قال في مؤلفه: أنظر كيف أجاب دعاء أشر الخلق أجمعين وهو إبليس لعنه الله في قوله: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]. فأجابه حين دعاه مع كونه أبغض الخلق إليه ، انتهى ، وهو كلام فيه مناقشة كما سيأتي قريباً.

وكان ابن عطاء يقول: من أراد أن الله تعالى يجيب دعاءه فليتطهر من كل شيء يكرهه الله تعالى: ثم يسأل حاجته بعد ذلك.

وقد رأىٰ موسىٰ عليه السلام رجلاً ساجداً وهو سارح بالغنم ، فلما رجع بالغنم آخر النهار

وجده لم يرفع رأسه ، فقال: لو أن ما يريد هذا بيدي لأعطيته له ، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسىٰ لو سجد حتى ينقطع عنقه ما قبلت منه ، حتى ينتقل عما أكره إلى ما أحب ، انتهى.

وأما إجابته إبليس في إنظار يوم الدين ، لسبق الوعد ، لا تكرمة لإبليس؛ لأنه لو لم ينظره إلى يوم الدين وأماته قبل ذلك لم يصر لأهل قبضة الشقاء من يوسوس لهم بالمعاصي ، ولا بدَّ لهم منها بحكم القبضتين.

وكان ابن عطاء يقول أيضاً: للدعاء أركان ، وأجنحة ، وأسباب ، وأوقات ، فإن وافق أركانه قوي ، وإن وافق أجنحته طار في الهواء ، وإن وافق أسبابه أنجح ، وإن وافق أوقاته فاز ، فأركانه حضور القلب ، والرقة ، والخشوع ، والإستكانة ، مع تعلق القلب وقطعه عن الأسباب كلها ، وأجنحته الصدق ، وأسبابه الصلاة على النبي ﷺ ، وأوقاته الأسحار ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من أراد أن يسأل الله تعالى شيئاً فليكثر من الاستغفار ثم يدعو ، فإن الاستغفار من الأعمال كالعينين من الرأس ، ومن خطر له في نفسه في وقت من الأوقات أنه مستغن عن الاستغفار ، أو ثقل على لسانه ، فليعلم أن ذلك من استحواذ الشيطان على قلبه ، قال: وقد سأل شخص من الفقراء ربه عز وجل أن يريه موضع الشيطان من قلب بني آدم ، فرأى في المنام قلب رجل يشبه البلور ، يرى داخله من خارجه ، ورأىٰ الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه ، وله خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه ، يوسوس إليه ، فإذا ذكر الله تعالى أو استغفره خنس ، وإذا غفل عن الذكر وسوس ، انتهى.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إياك أن تدعو على أحد من الخلق بشر ، فإن الله يكره ذلك ، بل قل: اللهم إن كان فلان ظلمني فاغفر له وأصلحه ، وإن كنت أنا ظلمته فاغفر لي ، فإنك وخصمك عبدان لله عز وجل ، ويجب على كل منكما أن يكرم عبد سيده ، ومن هذا الباب دعاء الإنسان على نفسه ، فإن نفسه ليست له حتى يدعو عليها ، ثم إن أجاب الله دعاءه رجعت العقوبة والألم على جسده ، وذاق مرارة ذلك ، فدعاؤه لنفسه أولىٰ على كل حال ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من أراد أن الله تعالى يستجيب له جميع دعائه فلا يعصه أبداً؛ لأن دعاء العاصي مردود ، وتأمل الملائكة كيف لا يرد لهم دعاء ، ومن وافق تأمينه تأمينهم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، كل ذلك لأنهم «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» فمن أراد إجابة دعائه فليكن على صفات الملائكة ، والله ما أجاب الله تعالى دعاء ولي وقلب له الأعيان ، ومشى على الماء وزحزح له الجبال إلا لكونه

أحكم باب ترك المعاصي ، ولو أن كاتب الشمال كان يكتب عليه شيئاً ما أكرمه الله تعالى بكرامة ، انتهى.

فافهم ذلك ترشد ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم إقامتي ميزان عقلي على علماء عصري ، وعدم سبِّ أحد منهم في وجهه أو في غيبته إلا بطريق شرعي ؛ وذلك لأن القدح في علماء الإسلام مضاد لأمر الله عز وجل لنا بإجلال العلماء وإكرامهم ، لا سيما وقد قرن الله تعالى ذكرهم مع ذكره ، في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨]. فمن سبهم وقدح فيهم فقد حط مقام من رفع الله تعالى قدره ، وتلك جرأة عظيمة.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ليس أحد من الأئمة أحب إلى رسول الله ﷺ من العلماء؛ لأنهم حملة شريعته ، وأمناؤه على أمته ، فمن أبغض عالماً فقد أبغض من أحبه رسول الله ﷺ ، ومن كان كذلك فهو عدو لرسول الله ﷺ ، ومن كان عدواً لرسول الله ﷺ فهو عدو لله عز وجل ، ومن كان عدواً لله عز وجل فهو عدو للخلق أجمعين ، انتهى.

وسمعته يقول أيضاً: من كان عنده كراهة لأحد من العلماء فقد خالف أمر الله تعالى ، فإنه تعالى أمرنا بطاعة أولي الأمر منا وهم العلماء ، ومن كره أحداً منهم فقد خرج عن طاعتهم بيقين ، انتهى.

وقد قدمنا في هذه المنن مراراً أن من أشد مكايد الشيطان بالعامة أن يبغضهم في العلماء ، فإذا أبغضوهم عدموا الإصغاء إلى قولهم فضلوا وأضلوا ، فإياك يا أخي أن تكره أحداً من علماء زمانك ، واحمل ما تراه من أحوالهم على أحسن المحامل ، انتهى.

والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من الخديعة أو الغدر لأحد من المسلمين وذلك من نعم الله عز وجل عليّ ، فإن الخداع والغدر من أقبح ما يتحلىٰ به الرجل ، ومن سامح نفسه بمثل ذلك فقد رضي لنفسه ما لم يرضه الكلب لنفسه من الخساسة ، فإن الكلب إذا أحسنت إليه حفظ لك الود ، ولم يخدعك ، ولم يغدر بك.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول: الغدر محبط للأعمال الصالحة ، ومنه يتفرع الغش ، والمكر ، والبغي ، والخديعة ، ثم يرجع ذلك على صاحبه ، فيؤثر فيه الهلاك. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ [يونس: ٢٣]. وقال: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]. فإياك والخديعة والمكر ، فإنك إذا عرفت بهما حرفت

فوائد الدنيا والآخرة ، لا سيما إن أكثرت من ذلك ، فإنه من أكثر من شيء عرف به ، وحمل عليه ، وانظر إلى أولاد سيدنا يعقوب عليه السلام حين قالوا له : ﴿ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف : ٦٣]. كيف قال لهم : ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف: ٦٤]. وإنما قال ذلك لأنهم خدعوا أباهم ، وغدروا أخاهم ، فعرفهم بفعلهم السابق معه ، ولم يطمئن إليهم بعد ما كان منهم ، ما اطمأن أولاً ، وبقي عليهم توبيخ فعلهم إلى آخر الأبد.

قال العلماء : وقد جربنا أن من تحلى بغدر أو خديعة ، ثم مات ورث ذلك منه ذريته وعقبه إلى سابع ولد ، عقوبة له ولذريته ، لشدة قبحه.

نسأل الله العافية ، آمين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حفظي من السرقة والخيانة من منذ وعيت على نفسي إلى وقتي هذا ، ما عدا شخصاً من مدينة الخانكاه أجلسني عنده في حانوته ، ومضى إلى حاجته ، فمر علي شخص يبيع حلاوة ، فأخذت من غلته ثلاث نقرة واشتريت بها حلاوة ، واستحييت أن أذكر ذلك له ، وكنت إذ ذاك دون البلوغ ، فلما بلغت طلبت محاللته من ذلك ، فوجدته قد مات ، وقد أحسنت لأولاده بأكثر من ثلاثين نصفاً ، وما على قلبي الآن أثقل منه ، مع أنه كان يحبني كثيراً ، وكساني بعد ذلك عمامة ومضربة بعلبكية وقميصاً ، ووجه خوفي مع إعطائي بدل تلك الدراهم لذريته أنه ربما طلب في الآخرة عين تلك الدراهم ، فأسأل الله جميع الإخوان أن يسألوا الله تعالى أن يلهم هذا الرجل المسامحة لي ، ولعل الله تعالى يستجيب منكم ذلك ، وأجر الإخوان في ذلك على الله عز وجل ، فقد ورد في الصحيح «**أن الرجل ليتمنى في الآخرة أن يكون له حق على والديه ليدعي عليهما بذلك ويدخلهما النار مكانه**»[1].

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: الخيانة والسرقة أمران مهلكان ، قال: والفرق بينهما أن السارق هو من يسرق ما لم يؤتمن عليه ، والخائن من سرق ما ائتمن عليه ، وقد جعل رسول الله ﷺ من علامة المنافق أنه «**إذا ائتمن خان**»[2] وفي القرآن العظيم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]. وقد أوحى الله تعالى إلى موسىٰ عليه السلام: «**احذر من الأمين ولا تأمن الخائن فإن القلوب بيد غيرك**».

وسمعت أخي سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: الخيانة تذهب البركة ، كما يذهب الحرام كثيراً من الحلال ، ومن خان في درهم جره إبليس إلى الخيانة في ألف

---

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الأيمان ، باب علامة المنافق (٣٣) ، ومسلم، كتاب الإيمان ، باب خصال المنافق (٥٩).

درهم ، وكذلك القول في السرقة ، فما وجدنا قط سارقاً إلا والبركة ممحوقة من عمره وماله ودينه ، ويكفينا في عقوبته أمر الحق تعالى بقطع يده أو رجله أو يديه ورجليه ، كما هو مقرر في الشريعة ، ومنع رسول الله ﷺ الشفاعة في السارق ، وقال: لا ينبغي لأحد أن يشفع في حدود الله عز وجل.

قال: وقد بلغنا أن عبد الملك بن مروان أمر بقطع يد سارق ، فشفع فيه أهله مراراً فلم يقبل ، وقال: هذا حد من حدود الله ، فأتته أم السارق ، وقالت: يا أمير المؤمنين إنه يكتسب ويقوم بي فهبه لي ، فقال: ليس الحرام بكسب ، فقالت: يا أمير المؤمنين: إن لك ذنوباً كثيرة فاجعل ابني ذنباً من ذنوبك ، واستغفر الله تعالى يغفر لك ، فرق لها ، واستحسن كلامها ، وأمر بإطلاقه ، انتهى.

قلت: ولعل عبد الملك فعل ذلك باجتهاد ، فاعلم ذلك وتأمله ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من أكل الحرام الصرف ، فلا أتذكر قط أني أكلت حراماً صرفاً لا عمداً ولا سهواً ، وأما الشبهة فقد تقدم في هذه المنن أن طعامها لا يقيم في بطني إذا أكلته ناسياً ، بل يخرج بالقيْء ، وهذا من أكبر نعم الله عز وجل عليّ ، وقد أوحى الله تعالى إلى سيدنا موسىٰ عليه السلام «**يا موسىٰ إذا أردت أن يستجاب دعاؤك فصن بطنك عن الحرام ، وجوارحك عن الآثام**».

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من أكل حراماً ، وأطال العبادة فهو كالحمام الذي رقد على بيض فاسد ، فهو يتعب نفسه في طول المقام ، ثم لا يفرخ شيئاً ، بل يرجع مذراً.

وكان سفيان بن عيينة رضي الله تعالى عنه يقول: كنت قبل أن آكل من طعام الأمراء أقرأ الآية ، فيفتح لي فيها سبعون باباً من العلم ، فلما أكلت من طعامهم صرت أقرأ الآية وأكررها فلا يفتح فيها باب واحد ، انتهى.

وسمعت أخي سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: من مفاسد أكل الحرام استحالته ناراً ، فيذيب شحمة الفكر ، ويذهب لذة الذكر ، ويحرق نبات إخلاص النيات ، ويعمي البصيرة ، ويظلم البصر ، ويوهن البدن والعقل ، وأطال في ذلك ، ثم قال: وبالجملة فجميع المعاصي التي يقع فيها العبد إنما سببها أكل الحرام ، كما أن جميع الطاعات التي يفعلها العبد سببها أكل الحلال ، ومن أكل الحرام وطلب أن يعمل الطاعات فقد رام المحال.

فاعلم ذلك ترشد ، والله يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: إذا دخلت على أمير أن لا أذكر له حديث الأمير الذي

كان قبله بخير ، إلا إن علمت إنصافه واعترافه بالنقص عن حال من قبله ، فإن علمت عدم إنصافه لم أذكر له شيئاً من أحوال من قبله ، خوفاً من إثارة نفسه ، وكراهته قبول شفاعتي في المستقبل ، وهذا الأمر يتعين فعله الآن مع ولاة هذا الزمان ، فإن غالبهم صار بحكم القانون ليس له عدو إلا من كان من أصدقاء الأمير الذي كان قبله في وظيفته ، وربما سلب نعمة جميع أصحاب من كان قبله.

فاعلم يا أخي ذلك ، ولا تغتر بما تراه في كتب التاريخ من مدح علي بن أبي طالب عند معاوية ، ونحوهما ، رضي الله عنه ، فإن هؤلاء كانوا أئمة يهتدى بهم ، وفازوا بصحبة رسول الله ﷺ ، وكان الثاني لا يبطش بأصحاب الأول ، ولا يؤذى من مدحه ، إنما يتعظ بذلك ، أو يكتم ما عنده ، وقد حكى الشعبي رضي الله تعالى عنه أن عمارة بنت الأسد استأذنت على معاوية رضي الله تعالى عنه ، فأذن لها ، فلما دخلت عليه ، قال لها: جئت يا ابنة الأسد؟ أنت القائلة يوم صفين تنشدين أخاك وتقولين:

شمر كفعل أبيك يا ابن عطية ... يوم الطعام وملتقى الأقران

وأنظر علياً والحسين ورهطه ... واقصد لهند وابنها بهوان

إن الإمام أخو النبي محمد ... علم الهدى ومنارة الإيمان

قد للجيوش وسر أمام لوائه ... قرماً بأبيض صارم وسنان

فقالت: نعم يا أمير المؤمنين ، وما مثلي من رغب عن الحق ، واعتذر بالكذب ، قال لها: فما حملك على ذلك؟ فقالت: حب علي واتباع الحق ، فلما أطال عليها القول عن أحوال علي رضي الله تعالى عنه ، قالت: اعفني يا أمير المؤمنين ، فقال: قد أعفيتك ، فما حاجتك؟ قالت: يا أمير المؤمنين إنك أصبحت للناس سيداً ، ولأمورهم والياً ، والله سائلك عن أمرنا وعما افترض عليك من حقنا ، ولا يزال يؤنبنا من يفتخر علينا بعينك ، ويبطش فينا بلسانك ، فيحصدنا حصد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، هذا ابن أرطأة قدم علينا ، فقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فقال: تهدديني بقومك ، ونهرها ، فبكت وولت ، وهي تنشد:

صلى الإله على قبر تضمنه ... روح فأصبح فيه العدل مدفوعا

قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً ... فصار بالحق والإيمان مقرونا

فقال معاوية: ومن ذلك؟ فقالت: علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال: وما علمك به؟ فقالت: أتيته مرة ، وشكوت إليه والياً فعزله في الوقت ، فقال معاوية. ويحكم اكتبوا لها برد مالها ، واحكموا لها بالعدل ، فقالت: يا أمير المؤمنين إليَّ خاصة أم لقومي عامة؟ فقال: وما لك ولقومك؟ فقالت: هي والله إذاً الفحشاء واللؤم إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلا فأنا

كسائر قومي ، فقال معاوية: علمكم علي بن أبي طالب الجراءة على السلطان ، اكتبوا لها بحاجتها ، انتهى.

وقد كان معاوية مشهوراً بالحلم ، فإن وجدت يا أخي عندك فصاحة ، وعبارة مفحمة ، وإنقاذاً للحق من أمير ، فاذكر له فضائل الأمير الذي قبله ، وإلا فلا تتعرض لمدح أحد غيره ، ودر مع الزمان ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: تأدبي مع الأمير الذي لي عليه أيادي قبل أن يتولىٰ تلك الولاية التي هو فيها ، ولا أطلب منه أن يدخل تحت حكمي ، ويفعل كل شيء طلبته منه ، فإن ذلك كالتكليف بما لا يطاق ، فإنه أتم نظراً مني ، ولذلك ولاه الله البلاد والرقاب ، ولأمسك عليه ما كان وعدني به قبل ولايته ، أو أيام عزله مع أنه يطاوعني في كل ما أرومه منه ، فإن ذلك ليس هو في يده ، فإنه يصير ينظر في مصالح الناس بعين لا أنظر أنا إليهم بها ، ويجب العمل عليه بكل ما ظهر له أنه حق ، ولا يجوز له تركه لما رأيته أنا ، ومن هنا قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: إذا ولي أخوك ولاية فارض منه بعشر وده وإقباله الذي كان يفعله معك قبل ولايته ، انتهى.

فعلم أنه ليس للواحد منا أن يمسك على أحد من الولاة العمل بما كان عاهده عليه ، ولا إقامة الحجة عليه بأنه ظالم ، إلا إذا وثق بوفائه بعهده ووعده.

وقد حكى الكلبي عن رجل من بني أمية ، قال: حضرت معاوية وقد أذن للناس أذناً عاماً ، فدخلت عليه امرأة ، وقد رفعت لثامها عن وجه كالقمر الذي شرب من ماء البرد ، ومعها جاريتان لها ، فخطبت للقوم خطبة بهت لها كل من هناك ، ثم قالت: وكان من قدر الله تعالى أنك قربت زياداً ، واتخذته أخاً ، وجعلت له في آل سفيان نسباً ، ثم وليته على رقاب العباد ، فسفك الدماء بغير حلها ولا حقها ، وينتهك المحارم بغير مراقبة فيها ، ويرتكب من المعاصي أعظمها ، لا يرجو لله وقاراً ، ولا يظن أن له معاداً ، وغداً يعرض عمله في صحيفتك ، وتوقف على ما اجترم بين يدي ربك ، فماذا تقول لربك يا معاوية غداً؟ وقد مضى من عمرك أكثره ، وبقي أيسره وشره ، فقال لها: من أنت؟ فقالت: امرأة من بني ذكوان ، وثب زياد المدعي أنه من بني سفيان على وراثتي من أبي وأمي ، فقبضها ظلماً وحال بيني وبين ضيعتي وممسكة رمقي ، فإن أنصفت وعدلت وإلا وكلتك وزياداً إلى الله تعالى ، وأن تظل ظلامتي عنده وعندك ، فالمنصف لي منكما الحكم العدل ، فبهت معاوية منها ، وصار يتعجب من فصاحتها ، ثم قال: ما لزياد لعنه الله مع من ينشر مساوينا ، ثم قال لكاتبه: أكتب إلى زياد أن يرد لها ضيعتها ، ويؤدي إليها حقها ، انتهى.

قال. وقد بلغنا أن عبد الملك بن مروان خطب يوماً بالكوفة ، فقام إليه رجل من آل سمعان ، فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين ، أقض لصاحبي هذا بحقه ثم اخطب ، فقال: وما

ذاك؟ فقال: إن الناس قالوا له ما يخلص ظلامتك من عبد الملك إلا فلان، فجئت به إليك لأنظر عدلك الذي كنت تعدنا به قبل أن تتولىٰ هذه المظالم، فطال بينه وبينه الكلام، فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين إنكم تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتعظون، أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم، أم نطيع أمركم بألسنتكم، فإن قلتم: أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحنا، فكيف ينصح غيره من غش نفسه، وإن قلت: خذوا الحكمة حيث وجدتموها، واقبلوا العظة ممن سمعتموها، فعلا قلدناكم أزمة أمورنا؟ وحكمناكم في دمائنا وأموالنا؟ أو ما تعلمون أن منا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات، وأحكم بوجوه العظات، فإن كانت الإمامة قد عجزت عن إقامة العدل فيها فخلوا سبيلها، وأطلقوا عقالها، يبتدرها أهلها الذين قاتلتموهم في البلاد، وشتتم شملهم بكل واد، أما والله لئن بقيت في يدكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة، لتضمحل حقوق الله تعالى، وحقوق العباد، فقال له: كيف ذلك؟ فقال: لأن من كلمكم في حقه زجر، ومن سكت عن حقه قهر، فلا قوله مسموع، ولا ظلمه مرفوع، ولا من جار عليه مردوع، وبينك وبين رعيتك مقام تذوب فيه الجبال، حيث ملكك هناك خامل، وعزك زائل، وناصرك خاذل، والحاكم عليك عادل، فأكب عبد الملك على وجهه يبكي، ثم قال له: فما حاجتك؟ فقال: عاملك بالسماوة ظلمني، ليله لهو، ونهاره لغو، ونظره زهو، فكتب إليه بإعطائه ظلامته، ثم عزله، انتهى.

فإن وجدت يا أخي أحداً من الأمراء عنده هذا الانصاف فطالبه بالوفاء بما كان وعدك به من العدل والطاعة لك قبل ولايته، وإلا فألن له القول، وأقم له العذر، وانصرف.

وقد سمعت مرة سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: والله لو تولىٰ الخضر عليه السلام، أو القطب شيئاً من ولايات هذا الزمان، لما قدر أن يفعل مع الناس إلا ما يستحقونه بأعمالهم، ثم قال: «**إنما هي أعمالكم ترد عليكم**»[1] الحديث، فافهم ذلك، والله يتولىٰ هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: زيادة تبجيلي وتعظيمي لكل من زاد عليّ في تحمل الأذى، وأكثر الناس عليه في تجريح عرضه، فإن كل من زاد بلاؤه ازداد رفعة عند الله تعالى، وعند الخلق، فقد بلغ الغاية في الرفعة، فلا عذر لأحد في قلة تعظيمه ومحبته، وهذا خلق غريب قل من يتنبه له من الناس، بل أغلبهم يحتقرون من أكثر الناس في تجريحه، حتى لا يكادون يثبتون له مقام الإسلام، فضلاً عما فوقه، وفي الحديث «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**»[2] فجعل مقام المبتلى يلي مقام النبوة، ولم يفصل في الحديث بين

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٢٦)

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب المرض، باب أشد الناس بلاءً الأنبياء، وأحمد في مسنده (٢٦٥٣٩).

بلاء الأبدان ولا بلاء الأعراض ، فشمل كل شيء يتأذى به الإنسان ، فكما أن الناس يعظمون من ابتلاه الله تعالى في بدنه وصبر ، كذلك ينبغي أن يعظموا من ابتلي في عرضه أو دينه وصبر ، وتقدم بسط ذلك في الباب الثاني من هذا الكتاب ، فراجعه تظفر به وترشد ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: إلهامي لقراءة السور الفاضلة ، والآيات العظيمة ، في قيام الليل إذا ضاق الوقت عن قيام العادة فمن السور القصيرة ما يعدل نصف القرآن ، ومنها ما يعدل ثلثه ، ومنها ما يعدل ربعه ، ومنها ما يعدل ألف آية وهكذا ، وكذلك من الآيات ما يعادل ألف آية كآية الكرسي ، وآخر سورة الحشر ، وهذا من جملة نعم الله تعالى على ضعفاء هذه الأمة ، حتى لا يفوتهم شيء من مقام الأقوياء ، وقد حررت ألف آية من أول سورة البقرة إلى قريب من قوله: ﴿۞وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٤١]. في سورة الأنفال ، فإذا ضاق وقتك يا أخي ، وخفت طلوع الفجر قبل قراءة عادتك في التهجد ، فعليك بآية الكرسي ، وآخر سورة الحشر ، وقل هو الله أحد ، وكرر قراءة ذلك في كل ركعة تلحق بمن قرأ القرآن كله في ركعة.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه يقرأ آية الكرسي ثلاث مرات في ثلاث أحايين ، في كل ليلة ، فيقرؤها قبل الركعتين بعد صلاة العشاء الآخرة ، ويقرؤها عند وتره في السحر ، واقتدى به في ذلك جماعة إلى عصرنا هذا كأبي أمامة ، والقاسم بن محمد ، وعلي بن أبي زيد ، وأبي العالية ، والحافظ السلفي ، والحافظ الدمياطي ، والحافظ ابن حجر ، وشيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وهذا يشبه ما قاله الإمام مالك رضي الله تعالى عنه في ليلة القدر: إن الله تعالى لما سبق في عمله قصر أعمال هذه الأمة بالنسبة لأعمار الأمم السالفة ، جعل لهم قيام ليلة القدر يعادل قيام نحو ثلاث وثمانين سنة ، وذلك هو العمر الغالب ، فمن قام ليلة القدر ثلاثين سنة مثلاً ، كان كمن قام ثلاثين ألف شهر وأفضل؛ لأنه تعالى قال: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[القدر: ٣].

فافهم ، وإياك أن تستصغر حصول ذلك الأجر المذكور ، فإن مقادير الثواب لا تدرك بالقياس ، فاقبل ذلك إيماناً كما ورد ، ولا تقل كلام الله تعالى كله واحد راجع إلى ذات واحدة ، فكيف صح التفاضل فيه ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم ظني أن أعمالي تحميني الآن من وقوع العذاب عليّ في ساعة من ليل أو نهار ، كما كان الأمر في الزمن الماضي ، حين كان عزم المؤمن قوياً ينفذ في الجبل ، ويؤثر فيه من شدة عزمه وحسن إخلاصه ، ومن كشف عنه الحجاب اليوم رأىٰ أعماله للطاعات لا تحميه من وقوع العذاب حال تلبسه بها ، فكيف تحميه منه بعد

وقوعها ، وتطاول المدد ، وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: صفات الخلق تشير إلى صفات الأسماء الإلهية كما أشار إلى ذلك سيدي عمر بن الفارض رحمه الله تعالى في تاءيته ، بقوله:

على سعة الأسماء تجري أمورهم إلى آخر ما قاله ، وقد صارت الحكام الآن لا يقبلون على الإنسان إلا بقدر ما يأخذون منه من الرشوة فقط ، فإذا أخذوا الرشوة فكأنهم لم يعرفوا صاحبهم ، نظير ما قلناه في عدم حمايات الطاعات لصاحبها ، انتهى.

وقد كنت أنا أحس بحماية نفسي في الزمن الماضي ، إذا عملت طاعة من الجمعة إلى الجمعة ، وأجد الانشراح عقد ذلك زماناً طويلاً ، وكان ذلك كالعنوان على رضا الله عز وجل عني ، فصرت الآن ربما ينقبض خاطري ساعة فراغي من تلك الطاعة ، هذا أمر شهدته في نفسي ، وكان العبد في الزمن الماضي إذا عمل طاعة لا يفي عمره ، باستيفاء ما يحصل منها من الخير ، بل ينتقل ذلك إلى ذريته إلى رابع بطن وأكثر ، فالعاقل من عرف زمانه ، ووزن أعماله بميزان السلف ، ليعرف إفلاسه من الخير ، ويتوب إلى الله ويستغفره قبل موته ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تكليفي لأصحابي من الأعمال ما لا يطيقونه عادة ، وذلك أني أنظر إلى مقدمات أحوالهم ، فإن رأيت أحدهم يقبل الزيادة في الأعمال ، والعناية الربانية تحفه ، أرشدته إلى زيادة الأعمال ، وإن رأيت نفس أحدهم زاهقة من العبادة الزائدة على الفرائض ، أمرته بالنقص من طاعاته ، وذلك حتى لا يقف بين يدي ربه بقلب مدبر عنه ، إذ الكسل والفشل لا يبقيان على العبد شيئاً من الإقبال على الله تعالى ، ولا من الحضور معه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول كثيراً: الخلق على أربعة أقسام: ملائكة ، وآدميين ، وشياطين ، وبهائم ، فالملائكة عقول بلا شهود ولا هوى ، والبهائم شهوات بلا عقول ، والشياطين عقول وشهوات ، وكذلك بنو آدم ، لكن الشياطين غلبت شهواتهم على عقولهم ، فقطعوا عمرهم متخلقين بالأخلاق المذمومة ، من كبر ، وعجب ، وفخر ، وحقد ، وغل ، وحسد ، ومكر ، وخديعة ، وغضب ، وغيرها من الأخلاق المهلكة ، وأما بنو آدم فمن غلبت شهوته منهم على عقله التحق بالشياطين ، ومن غلب عقله على شهوته التحق بالملائكة.

وسمعته مرة أخرىٰ يقول: قد اجتمع في بني آدم عقول الملائكة ، وأخلاق الشياطين والبهائم ، فمن غلب عليه شهوات بطنه وفرجه فهو من جملة البهائم.

وسمعته مرة أخرىٰ يقول: بنو آدم على أربعة أقسام في الأخلاق: فمنهم من غلب عقله على

هواه وشهوته ، فالتحق بعالم الملائكة ، كالأنبياء والأولياء والصالحين ، وقليل ما هم ، ومنهم من غلبته شهوته وأسرته لذته ، فأصبح يكرع في اللذات ، وينهمك في الشهوات المباحة ، من المطاعم والملابس والمناكح ، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ ﴾ [آل عمران: ١٤]. الآية ، فهؤلاء من عالم البهائم ، ولو اكتسبوا ذلك من الحلال ، وأنفقوه في المباح؛ لأنهم يتنعمون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وإنما ألحقناهم بالبهائم من حيث أنه لا تكليف على البهائم ، وكذلك لا حرج في الشريعة على متعاطي هذه المباحات ، والاستمتاع بها على الوجه الشرعي ، ومنهم من غلبت عليه أخلاق الشياطين ، من الكبر ، والفحش ، والغل ، والحقد ، والحسد ، والمكر ، والغش ، والخداع ، وغيرها من أخلاق الشياطين ، فهو من عالم الشياطين ، ومنهم من اجتمع فيه إفراط الشهوة ، واتباع الهوى ، والأخلاق المذمومة ، وهو مع ذلك يكتسب المال من غير حله ، وينفقه في غير حله ، فمثل هذا يكون آدمياً في صورته ، وشيطاناً في أخلاقه ، بهيمة في شهوته ، قال: وهذا القسم أرذل الأقسام ، فنعوذ بالله من عمى البصيرة ، وظلام السريرة ، واتخاذ الهوى إلهاً من دون الله تعالى ، ولأهل كل قسم أدوية وعلل تناسبه ، كما يعرف ذلك المسلكون؛ لأنه يضيق الكتاب عن تفاصيلها ، انتهى.

فتأمل يا أخي ما ذكرناه ، وأنزل أهل كل قسم منزلته ، تكن حكيم الزمان ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي لقرب الحق تبارك وتعالى مني في حال سجودي ، كحال قيامي على حد سواء ، بالنسبة إليه سبحانه وتعالى؛ ولأن الله يقول: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ١٩] ولم يقل: قم واقترب ، فالحجاب راجع إليّ لا إلى الحق تبارك وتعالى بحسب تواضعي وتكبري ، فإن تواضعت شهدت قربي من حضرته ، وإن تكبرت شهدت بعدي منها ، هكذا شأن العبد مع الحق على الدوام ، والحق تعالى من حيث نفسه قريب على الدوام.

وقد سأل الإمام أبو المعالي رحمه الله تعالى: ما الدليل على أن الله لا تأخذه الجهات؟ فقال: الدليل على ذلك قوله ﷺ: «**لا تفضلوني على أخي يونس بن متى عليه السلام**»(١) وهذا دليل شرعي عقلي ، ووجه الدلالة منه أنه ﷺ لما عرج به إلى قاب قوسين أو أدنى ، كان في أعلى ما يكون من العلو ، ويونس عليه السلام لما كان في بطن الحوت كان في أسفل ما يكون من الانخفاض في ظلمات ثلاث ، ظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر.

وقد بلغنا أن الحوت سار به في مدة أربعين يوماً ، مقدار أربعة آلاف سنة ، حتى طاف به

---

(١) ذكره العسقلاني في فتح الباري (٨/ ٤٢٩) ، والقرطبي في تفسيره (١٢٤٨٥).

السبعة أبحر ، والدجلة والفرات ، ونيل مصر ، إلى أن انتهى به إلى اللجة الخضراء ، فلم يكن يونس عليه السلام أقرب من رسول الله ﷺ عند قاب قوسين ولا عكسه من حيث المسافة ، بل كان قربهما من الله تعالى واحداً ، والبرهان الصحيح يشهد أن القائم أقرب إلى السماء من الساجد من حيث المسافة ، لكن ذلك مستحيل في جانب الحق تبارك وتعالى؛ لأنه ليس بجسم، ولا تحويه الأقطار وهو بكل شيء محيط.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: قرب الحق تعالى من عبده إنما هو بالرحمة والرضوان ، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾ [العلق: ١٩]. وقوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[١] أي فكما أن الحق تبارك وتعالى يقصد بالدعاء عادة من جهة السماء ، فكذلك يقصد عادة من جهة الأرض ، وكلاهما يسمى عروجاً ، وفي الحديث: «**لو دليتم بحبل لهبط على الله**»[٢] ، وفي الحديث أيضاً: «**إن الله تعالى قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار ، وأن الملأ الأعلىٰ يطلبونه كما تطلبونه**»[٣] رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول.

فعلم أن رفع أكفنا إلى السماء لا يلزم منه تحييز الحق تبارك وتعالى ، إنما ذلك امتثالاً لأمره من حيث كانت السماء محلاً لنزول الإمدادات الإلهية ، على جاري عوائد فضله السابقة ، فاعلم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: انشراح صدري من منذ وعيت على نفسي لكثرة ذكر الله تعالى ، وكثرة الصلاة على رسول الله ﷺ ، وذلك من سنة أربع عشرة وتسعمائة ، عام بلوغي ، فسألت الله تعالى أن يرزقني ذلك بين الباب والركن ، وفي مقام أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وتحت الميزاب ، ولم يكن شيء أحب إليّ في تلك الحجة من سؤالي الله عز وجل أن يرزقني ذلك ، إلهاماً منه تبارك وتعالى ، فمن جعل الذكر والصلاة على رسول الله ﷺ شغله فاز في الدارين بفضل الله ورحمته؛ لأن الله تبارك وتعالى هو السيد الأعظم ، وليس عنده أحد من الوسائط أفضل من رسول الله ﷺ ، فلا يرد الله تعالى له سؤالاً في شيء سأله فيه لأحد من أمته ، وإذا علم الإنسان أن السلطان لا يرد كلام الوزير الأعظم عنده ، فمن العقل أن طالب الحاجة لا يبرح عن باب الوزير ، ليقضي له حوائجه ، في الدنيا والآخرة.

وقد روى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيت حمزة وجعفراً وكان بين أيديهما طبق كله نبق كالزبرجد يأكلان منه ، فقلت لهما: ما وجدتما من أفضل الأعمال والأقوال: فقالا: لا إله**

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢)

(٢) أخرجه الذهبي في ميزان الاعتدال (٧/ ٤٣٤).

(٣) أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١/ ٢٠٥)

إلا الله ، قلت: ثم ماذا؟ قالا: الصلاة عليك يا رسول الله ، قلت: ثم ماذا؟ قالا حب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما»[١] انتهى.

فكما أن رسول الله ﷺ واسطة لنا عند الله تبارك وتعالى ، فكذلك أبو بكر وعمر واسطة لنا عند رسول الله ﷺ ، ومن الأدب إذا كان لنا عند رسول الله ﷺ حاجة أن نسألهما ليسألا رسول الله ﷺ فيها ، وذلك أقرب إلى قضائها ، وأكثر أدباً من سؤالنا رسول الله ﷺ من غير واسطتهما.

فإياك يا أخي أن تطلب حاجة من رسول الله ﷺ بغير واسطة أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما فتخطىء طريق الأدب معهما ، وإياك أن تستبعد سماعهما صوتك إذا توجهت إليهما بقلبك من غير تلفظ ، فإنهما أعظم مقاماً بيقين من جميع أشياخ الطريق ، وقد صرحوا بأن من شرط الشيخ أن يسمع نداء مريده له. ولو كان بينهما مسيرة ألف عام ، فتأمله ، وقد جربنا الوزير إذا كان يحب إنساناً يقضي حاجته بسهولة ، بخلاف ما إذا كان يكرهه ، فاخدم يا أخي الوسائل وحبهم المحبة الخالصة إن أردت سهولة قضاء حوائجك في الدنيا والآخرة ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: مطابقة رؤيتي في بعض الوقائع لما أخبر به رسول الله ﷺ ، أو أحد من أصحابه ، ومن بعدهم من الأئمة ، من طريق الإلهام أو الكشف ، وذلك من أكبر نعم الله عز وجل عليّ؛ لأن القلب كالبحر يرد عليه البر والفاجر من الخواطر جملة ، فربما ورد خاطر يشككك فيما أخبر به الشارع ﷺ ، فإذا شهد العبد ذلك في بعض الوقائع حفظ من الخواطر التي تشككه جملة واحدة.

وما رأيته حين سمعت قوله ﷺ: «إن من الناس من يعذب في قبره ، ويسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً ، هل تدرون ما التنين ، هل تدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية يخمشونه وينهشونه ، ويلسعونه إلى يوم يبعثون»[٢] فنمت فرأيت في المنام شخصاً كنت أعرفه بالعلم والخير ، وإذا هو مات ودخل القبر ، وإذا صفاته القبيحة صارت تتصور تجاه وجهه ، حتى صارت تنيناً له تسعة وتسعون رأساً كل رأس فيها فم ولسان ، فكان عدد الرؤوس على عدد صفاته الذميمة ، وأخلاقه الرديئة ، لا تزيد ولا تنقص.

ورأيت الصفات القبيحة كلها قد تفرعت من حب الدنيا ، فرأيت مما تفرع من حبها:

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (١٦١٥).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣١٢٢) ، وأبو يعلى في مسنده (٦٦٤٤) ، وذكره الهيثمي في موارد الظمآن (٧٨٢).

البخل ، والشح ، وحب الجاه ، والمال ، والحسد ، والحقد ، والمكر والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والعداوة ، والبغضاء ، والقتل ، والرياء ، والخديعة ، والغدر ، والغش ، والخيانة ، والبهتان ، والزور ، وغير ذلك ، وتحققت معنى حديث: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**»(١).

فعلم أن عدد اللسعات على عدد الرؤوس ، وعلى عدد الصفات ، فمن زاد في الصفات القبيحة زادت له الرؤوس ، ومن رق حجابه لا يبعد عليه شهود نظر المعاني ، فاعمل يا أخي على عدد صفاتك القبيحة بالحسنة بتعطيلها عن الاستعمال ، وذلك باعتمادك على فضل الله تعالى لا على حولك وقوتك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما رأيت أيضاً في بعض الوقائع أنني رأيت قلوب المؤمنين على ثلاثة أصناف صنف قلبه يضيء كالمصباح ، وصنف قلبه مربوط على علاقة ، وهو قلب المنافق ، وقلب فيه إيمان ونفاق ، وهو أكثر القلوب ، ورأيت الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب أحياناً ، ورأيت النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد ، ولكن أي المدتين غلبت ، فالحكم لها.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ما دام القلب يقظاناً فهو في خدمة ربه عز وجل ، لا يمكنه أن يتعطل عن خدمته ، فإذا غفل نام ، وإذا نام مرض ، وإذا مرض اشتد سقمه ، وإذا اشتد سقمه عضل داؤه ، وإذا عضل داؤه عسر دواؤه ، وإذا عسر دواؤه مات ، وإذا مات صار جيفة لا يصلح للخدمة ، وألقي إلى الكلب وهو إبليس ، انتهى.

فاعلم ذلك ، واعمل عليه ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم إفشائي الأسرار المتعلقة بالتوحيد ، ودقائق الشريعة الشريفة لأحد من الخلق إلا بعد طول امتحانه ، وكثرة التنكرات والتغريات عليه ، وإغضابه المرة بعد المرة ، وسبه بين من يستحي منهم عادة المرة بعد المرة ، وقولي له: أنت قليل الدين على نية تنبيه على نقص دينه ، فإن كمال الدين لا يكون إلا للأنبياء ، وكمل الأولياء فقط ، وما عدا الأنبياء والأولياء من لازمهم النقص حتى في عبادتهم.

وذكر الجلال السيوطي رحمه الله في الخصائص(٢): أن تأدية الصلاة وغيرها من الطاعات على وجه الكمال من خصائص رسول الله ﷺ ، انتهى.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٠١) ، والزهد (٢٤٧) ، وابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٠٠).

(٢) واسمه الخصائص النبوية كما ذكره في كشف الظنون (١/ ٧٠٥)

وقد جاءني مرة شخص من دهاة فحول الرجال من معلمي دار الضرب بالقلعة ، يطلب مني أن أطلعه على شيء من أسرار الطريق ، وألح عليّ في ذلك ، فتنكرت عليه ، وتغربت مدة ، وصرت أكلمه بالكلام المؤذن بنقص مرتبته على وجه التعريض والتأويل ، فزهقت نفسه مني ، ونفرت ، فلولا داويته في ثاني الحال ، ومدحته بكلمات ، وإلا قاطعني مدة عمره ، فقلت له بعد ذلك: كيف تطلب مني أن أطلعك على شيء من علوم الأسرار ، وأنت تطلب لك مقاماً عند الخلق دون الله تعالى ، ومعلوم أن الأسرار من علم الحكمة ، والحكمة لا تدخل قلباً يراعي غير الله تعالى ، وسددت عليه الباب حتى يبني أساسه على قواعد أهل الطريق ، وفي الحديث «**لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوا منها أهلها فتظلموهم**»(١) انتهى.

وتقدم في هذه المنن أن شخصاً دخل على أبي عبد الله القرشي ، فرآه يتكلم في الأسرار ، فلما شعر به قطع الكلام ، فقال له الشخص: أنا من المعتقدين في أهل الطريق ، لا تخافوا مني ، فقال: لا تكون معتقداً حتى أفصد أحداً من الجماعة بحضرتك وأنت تنظر ، فإن خرج دمك كذلك فأنت من أهل الأسرار ، ثم إن الشيخ فصد ذراعه ، ففار الدم من ذراع الجماعة كلهم دون ذلك الشخص ، فخجل واستغفر ، انتهى.

فمن وجد من يكون بهذه الصفة فليطلعه الأسرار ، وإلا فالواجب عليه الكتمان وفي كلام القوم:

ويقتـــل بـــواح الســـر الـــذي يهـــوى

فاعلم ذلك ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي أن ذاتي وروحي معي كاليتيم وماله تحت يد وليه ، فلا يتصرف لهما إلا بما فيه المصلحة في الدنيا والآخرة ، فكما أعظم اليتيم وأكرمه من حيث إن الله تعالى وصى عليه ، فكذلك أكرم روحي من حيث إنها بنية الله ، وأمة الله لا لعلة أخرى ، وهذا من باب التجريد المقرر في علم المعاني والبيان.

وهذا الخلق غريب في هذا الزمان ، حتى أن بعضهم يتعرض لإزالة منكرات الولاة ، فيحصل له حبس وضرب ، ويظن أنه مصيب ، والحال أنه مخطىء ، كما أشار إليه حديث «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه**»(٢) فلم يكلف

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٧٠٧) ، والحارث في مسنده (١٠٧٠) ، وعبد بن حميد في مسنده (٦٧٥) ، والزهد لابن أبي عاصم (٦٧٥).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩) ، والترمذي ، =

أهل مرتبة بفعل ما هم فوقها ، صيانة للجسم والروح عن التعرض لما يضرهما ، فمن تعرض لما يضر ذاته فقد خالف قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. فإن الله تعالى ناظر لبقاء المهج ، وترجيح بقائها على تلفها ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦] فما سامح العبد بالتولية من كان متوجهاً إلى قتاله إلى فئة أخرى إلا لمحبته في إبقاء مهجته ، وما أباح له الاستسلام للقتل إلا عند العجز عن الهروب ، أو عن الدفع عن نفسه.

وحكي أن داود عليه السلام لما شرع في بناء بيت المقدس ، فكان كلما بني شيئاً يصبح مهندما ، فشكا ذلك إلى الله تعالى ، فأوحى إليه أن بيتي لا يقوم على يدي من سفك الدماء ، فقال داود عليه الصلاة والسلام: يا رب أليس ذلك كله في سبيلك ، قال تعالى: بلى ، ولكن أليسوا عبيدي ، قال: يا رب اجعل بناءه على يد ولدي سليمان ، فأجابه الحق عز وجل إلى ذلك ، انتهى.

فاعلم ذلك ترشد ، والله يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حفظي للأدب مع السلطان ونوابه ، فلا أعترض عليهم في فعل ما هو من ملازمهم عادة دولي ، بل ابتكر لهم المحامل الحسنة في الشريعة والأجوبة المسكتة ، ولا أجيش عليهم بالعوام في هدم كنيسة أو بيعة أقروا النصارى واليهود عليها ، ولا أنزل قصاد ملوك الفرنج عن الخيل إذا وردوا بلادنا ، وأركبوهم الخيل ، وأخدموهم مماليك السلطان ، وطرقوا لهم الطريق ، بل أحمل ذلك على محامل صحيحة في الشرع ، فربما فعلوا معهم ما ذكر لمصالح تعود على المسلمين ، كأن يرحموا من عندهم من الأسرى إذا بلغهم أننا أكرمنا قصادهم ، ومن ورد إلينا منهم فإن الولاة أتم نظراً منا بيقين ، ولذلك ملكهم الله تعالى رقابنا في الحكم فينا.

وقد رأىٰ شخص من الفقراء إفرنجياً راكباً فرساً ، ومماليك السلطان يمشون بين يديه؛ فقال: الله أكبر عليكم ، فضربه مماليك السلطان ضرباً مبرحاً ، فما كان إلا قتل ، وكسر مرة شخص منْ طلبة العلم جرة خمر رآها بين يدي مماليك السلطان في أيام الزينة في مصر ، فضربوه بالدبابيس ، ففلقوا رأسه ، وما قدر أحد من المسلمين يحميه منهم ، وأفتىٰ الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق الواعظ لمصر بهدم بيعة لليهود ، وأراد أن يهدمها ، فما كان إلا أن

= كتاب الفتن ، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب (٢١٧٢) ، والنسائي ، كتاب الإيمان وشرائعه ، باب تفاضل أهل الإيمان (٥٠٠٨) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب الخطبة يوم العيد (١١٤٠) ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب ما جاء في صلاة العيدين (١٢٧٥). =

نفوه ، وثارت فتنة عظيمة من العوام والأمراء في مصر ، ومنعوه الفتيا والتدريس والوعظ مدة ، ولم يزل يحصل الضرر والأذى لكل من دخل في شيء ليس هو من مقامه ، ولا من مرتبته من قديم الزمان ، إلى وقتنا هذا.

وقد حكى الشيخ عبد الغفار الفوصي رحمه الله تعالى ، في كتابه المسمى بالوحيد: أن جماعة من العلماء والصالحين أيام السلطان الملك الناصر حسن بن قلاوون ، هدموا بعض كنائس بنواحي قوص وأسيوط ، فاشتكوهم للسطان ، فأرسل للعلماء والصالحين أميراً ومعه عسكر ، فأخذوهم ، وضربوهم ، وكبسوا دورهم ، وهتكوا حريمهم وجرسوهم ، ثم قال: والله لقد سمعت المشاعلية تنادي عليهم ، وأنا ضعيف لا أستطيع الجلوس ، وداروا بهم أزقة البلاد وسواحل البحر ، قال: والمصيبة العظمى أن الحاكم بناحية قوص ، والحاكم بناحية أسيوط ، كانا حاضرين ، وخوفوهما بالقتل والنهب والنفي ، فسكتا ، قال: ولما رأىٰ النصارىٰ مساعدة نائب السلطان لهم ، صالوا على المسلمين ، وهدموا عدة مساجد ، منها مسجد الفتح ، كان عامراً بالذكر والقرآن والعلم فهدموه ، وجعلوه محلاً للقمامة والأوساخ ، وصار كالكوم ، فلما عمرناه لم تخرج منه محل القبلة إلا بعد تعب شديد ، ومنها مسجد بناحية كدكوس ، هدموه وجعلوه مراحاً للبقر ، وهدموا محرابه ، وعمروا كنيسة مكانه بعد الهدم ، وكشف على ذلك المسلمون ، ونواب الحكم والعدول ، ولم يقدروا على هدم تلك الكنيسة إلى أن نصر الله تعالى الدين باتضاح أمر النصارى للسلطان ، فأرسل فهدم الكنائس التي أحدثوها ، وضربهم وقتلهم وحصلت الدائرة والهلاك على كل من ساعد النصارى ، قال: وهذه واقعة لم يجر في التواريخ المتقدمة ، ولا القرون الماضية مثلها ، ولم نسمع قط أن جماعة من العلماء والصالحين ضربوا بالمقارع ، وجرسوا على الدواب والمشاعلية تنادي عليهم بسبب هدم الكنائس أبداً.

ثم إن السلطان الملك الناصر جمع اليهود والنصارى والسامرة وغيرهم ، وجدد عليهم البيعة ، وشرط عليهم شروطاً ، وأرسل بذلك مراسيم إلى بلاد مصر والشام ، ليجمع النائب بها أكابر اليهود والنصارى من البطاركة والقسوس والرؤساء والربانيين وأن يقرأ عليهم نص كتاب الإمام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، الشاهد به الكتب الحديثية المعنعنة الإسناد ، بحضرة السادة العلماء والفقهاء والحكام ، ليعتمدوا أحكام الشريعة المطهرة فيما يلزمهم من الشروط التي يترتب عليها عقد الذمة ، اقتداء بالشروط العمرية فيهم ، وتقريراً لأحكامها ، وتجديداً لما تقادم من أيامها ، وتعظيماً لدين الإسلام وأهله ، وإلزاماً للذلة والصغار على أهل الذمة ودفعاً لهم عما كانوا يتطرقون إليه ، فامتثل نواب مصر والشام المرسوم ، وعقدوا للكفار مجلساً ، وقرؤوا عليهم نص ما عوهدوا عليه ، فانقادوا سامعين طائعين راغبين ، سائلين إليه وهو أن لا يحدثوا في البلاد الإسلامية وأعمالهم ديراً ولا كنيسة

ولا قلاية ، ولا صومعة راهب ، ولا يجددوا فيها ما خرب منها ، ولا يمنعوا كنائسهم التي عوهدوا عليها ، وثبت عهدهم عليها أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال ، يطعمونه ولا يؤوا جاسوساً ولا من فيه ريبة لأهل الإسلام ، وَلا يكتموا غشاً ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا يظهروا شركاً ، ولا يمنعوا ذا قرابة لهم عن الإسلام إن أراده ، وإن أسلم أحد منهم لا يؤذوه ولا يساكنوه ، وأن يوقروا المسلمين وأن يقوموا لهم من مجالسهم إن أرادوا الجلوس فيها ، وأن لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من ملابسهم ، كالقلنسوة والعمامة والنعلين وفرق الشعر ، بل يلبس النصراني منهم العمامة الزرقاء عشر أذرع من غير الشعر فما دونها ، ويلبس اليهود العمامة الصفراء كذلك ، وكذلك يمنع نساؤهم من التشبه بنساء المسلمين ، ومن لبس العمائم ، ومن أن يتسموا بأسماء المسلمين ، ويكتنوا بكناهم ، أو يتلقبوا بألقابهم ، ولا يركبوا على سرج ، ولا يتقلدوا سيفاً ، ولا يركبوا الخيل ولا البغال ، بل يركبون الحمير بالأكف عرياً من غير تزين ، ولا قيمة عظيمة لها ، ولا يتخذوا شيئاً من السلاح ، ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية ، ولا يبيعوا الخمور ، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم ، وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا ، ولا يخدموا عند الملوك والأمراء ، ولا فيما يجري أمرهم على المسلمين من كفالة ووكالة وأمانة ، ولا كل ما فيه تآمر على المسلمين ، بحيث لا يكون لهم كلمة على المسلمين يستعلون بها عليهم ، ويشدوا زنانيرهم غير الحرير على أوساطهم ، والمرأة البارزة من النصارى تلبس الإزار الكتان المصبوغ أزرق ، واليهودية المصبوغ أصفر ، ولا يدخل أحد منهم من ذكر أو أنثىٰ إلى الحمام إلا بعلامة تميزه عن المسلمين ، كخاتم نحاس أو رصاص ، أو جرس في عنقه ، ونحو ذلك ، ولا يستخدموا في أعمالهم الشاقة مسلماً ، ولا يستخدموه في الحمام ، وتلبس المرأة البارزة خفين أحدهما أسود ، والآخر أبيض ، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ، ولا يرفعوا بناء قبورهم ، ولا يعلوا على المسلمين في البناء ، ولا يساووهم ، ولا يتحيلوا على ذلك بحيلة ، بل يكونوا أدون من ذلك ، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفيفاً ، ولا يرفعوا أصواتهم في كنائسهم ، ولا يجمعوا شعانين ، ولا يرفعوا أصواتهم على موتاهم ، ولا يظهروا النيران معهم ، ولا يشتروا من الرقيق مسلماً ، ولا ما جرت عليه سهام المسلمين ، ولا من سباه مسلم ، ولا يهوِّدوا ولا ينصِّروا رقيقاً لهم ، ويجتنبوا أوساط الطريق توسعة للمسلمين ، ولا يفتنوا مسلماً عن دينه ، ولا يدلوا على عورات المسلمين ، ومن زنى منهم بمسلمة قتل ، وأن لا يضعوا أيديهم على أرض موات المسلمين ، ولا غير موات المسلمين ، ولا على درع ، ولا يبنون صومعة ، ولا كنيسة ، ولا ديراً ، وغير ذلك ، ولا يشتروا شيئاً من الجلب ، ولا يوكلوا فيه ، ولا يتحيلوا عليه بحيلة ، ولا يظهروا الصليب على كنائسهم ، ولا في طريق المسلمين وأسواقهم ، وأن يرشدوا المسلمين ، ولا يطلعوا على عورات المسلمين في

منازلهم ، ولا يضربوا أحداً من المسلمين ، ومتى خالفوا ذلك فلا ذمة لهم ، وقد حل فيهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

هذا ما عهد به إليهم ، وقص قصصه عليهم ، فمن خرج عن النص المشروح فيه ، واعتمد شيئاً يخالف ما رتله لسانه وتلاه فقد تعرض للهلاك ، وألقى مسحته لسيف الإسلام والقتال ، وقد حرم بطرك لنصارى يونس اليعقوبي ، وأسقف الملكية نائب البطريك اشناسينوس ، بحرمات الله تعالى عليهم ، أن يخرجوا عن هذه الشروط ، وأوقع رئيس اليهود الكلمة على من يتعدى طور هذا الأمر المضبوط ، وأشهدوا على أنفسهم ذلك ، معلنين بالإشهاد ، وقاموا مصرحين على رؤوس الأشهاد ، وكتب هذا المكتوب ليخلد بما دخلوا تحت طاعته من الالتزام ، ويكون حجة عليهم على ممر الليالي والأيام ، وتم ذلك بشرطه ، ولزم بمشروطه بالقاهرة المحروسة ، بالمدرسة الصالحية النجمية في يوم الثلاثاء ، الثالث والعشرون من شهر رجب الفرد عام سبعمائة من الهجرة النبوية المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله رب العالمين. ا هـ.

وقد نقلت ذلك من نسخة عليها خط السلطان الملك الناصر حسن بن قلاوون ، تغمده الله بالرحمة لما برز أمر والده المنصور قلاوون ، بتجديد العهد على النصارى واليهود ، الذي كتب المرسوم هو الشيخ الإمام العالم العلامة شهاب الدين محمود الحلبي ، كاتب الدست إذ ذاك ، ولك تجديداً لما كانوا التزموه أيام الخلفاء الراشدين من الشرائط ، وذلك بحضرة مولانا شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد ، ومولانا الشيخ الإمام العلامة أبي عبد الله بن الحجاج ، شيخ الدونية ، وسيدنا ومولانا الشيخ أبي عبد الله القروي ، وغيرهم من قضاة العصر وعلمائه ، ورسم السلطان حسن بن قلاوون أن لا يستخدم في الشريعة يهودي ولا نصراني، في ثامن عشري جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وسبعمائة ، وهذا آخر ما بلغنا عن ملوك مصر من الشروط على الكفار.

قال الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى: وكان كتاب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه جواباً لكتاب نصارى الشام ، لما صالحهم كما رواه أبو يعلىٰ الموصلي ، والبيهقي ، وغيرهما ، وصورة كتابهم «من نصارى مدينة كذا وكذا إلى أبي عبد الله عمر أمير المؤمنين: أنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا ، وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ، ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ، إلى آخر ما تقدم في كتاب عهد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لهم ، فلما وصل كتابهم إلى عمر بجميع الشروط المتقدمة ، زاد فيه بعض شروط ، فأرسلوا سامعين مطيعين لها ، انتهى.

فإن أردت يا أخي أن تجري الكفار وكنائسهم وبيعهم مجرى من نقض العهد ، فاجتمع

بسلطان الإسلام والمسلمين أو نوابه ، واتفق معهم على ذلك ، ثم افعل معهم ما بدا لك ، وإلا خيف على مثلك الهلاك ، ولا ينصرك أحد ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ : ملاطفتي لإخواني الفقراء في جميع أحوالهم وعدم مطالبتهم بكمال الإخلاص ، وما دامت بشريتهم قائمة ، فإذا ارتفع حجاب أحدهم حفظ من الرياء لا محالة ، وذلك لا يكون إلا حال كمالهم ، وكثيراً ما أخرج إلى الزاوية في الليل بقصد تقوية قلوب الفقراء إذا رأوني ، فيزيدوا في الذكر ، والصلاة ، وتلاوة القرآن .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول : إنما قال تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل : ٢٠] . تقوية لقلوب أصحابه ، وإلا فهو ﷺ معصوم من كل ما فيه شائبة رياء بإجماع المسلمين ، وكثيراً ما يخاطب الحق تعالى نبيه ﷺ بأمر والمراد به غيره ، نحو قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] . ونحو قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [الأحزاب : ١] . ونحوهما من الآيات ، فعلم أنه تعالى ما قال : ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ ﴾ [المزمل : ٢٠] إلى آخر النسق إلا ليخبر بذلك أصحابه الذين لا يشهدون اطلاع الحق تعالى عليهم حال عبادتهم ، ليستحضروا عظمة ربهم ، فيخشعوا بين يديه ، لكونهم كانوا في مقام الترقي إلى مراتب الكمال ، وقد جربت أنا في نفسي أنه لما يحصل عندي كسل في قيام الليل ، أو فتور استحضر أن الله تعالى يراني ، فيزول الكسل والفتور ، وفي الحديث : «**أروا الله في أنفسكم خيراً فلا يزال العبد يراقب الله تعالى في صلاته وعباداته شيئاً فشيئاً إلى أن يصير يراقب الله تعالى مع الأنفاس إلا ما يسامح الحق تعالى به عباده عادة**»(١) وكانت سيدتنا عائشة رضي الله عنها تقول : «**كان ﷺ يذكر الله تعالى على كل أحيانه**»(٢) .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول : إذا علم الشيخ من مريده أنه يستلذ برؤية شيخه له ، حال عبادته ، فليغض عنه حتى يهوي ، قال : وزارني سيدي إبراهيم المبتولي مرة ، فوجدت في نفسي إعجاباً بذلك ، فلما اطلع عليّ قال : يا علي ما جئتك بالقصد ، وإنما مررت لحاجة فتذكرتك ، وأنا مار ، انتهى .

وكان يقول : ينبغي للشيخ إذا علم من مريده رائحة رياء أن يتلطف به ، ويصفح عنه ، ثم لا يزال يسارقه بضرب الأمثال ، وأن الله لا يقبل عملاً أشرك فيه غيره حتى يتخلص إن شاء الله تعالى من ورطة الرياء ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) لم أجده .

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً ، كتاب الحيض ، باب نقض الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ، ومسلم ، كتاب الحيض ، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها (٣٧٣) .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: ملاطفتي لإخواني من الفقهاء إذا استفتوني في أمر لا يطيقون المشي عليه ، فأفتيهم بالرخصة ، ثم إذا بلغ أحدهم مقام الورعين أفتيته بالتشديد ، وقد كان الإمام النووي رحمه الله تعالى لا يطالع في كتاب أخرج من مقره الذي جعله الواقف فيه ، واختصر الروضة كلها من نسخة الرافعي الكبير ، في خلوة الكتب ، وكان باب الخلوة يؤيد عليه كثيراً ، فكان يضع السكين على ركبته ، ويجعل ذبابتها من ناحيته دون باب الخلوة ، خوفاً أن يخدش خشب الباب ، وهذا قدم يشق على غالب الناس اليوم فعله.

وقد استفتى الجلال السيوطي رحمه الله تعالى عن نقل الكتب من مدرسة محمود الاستداز ، مع إنه شرط في كتاب وقفها أنها لا تخرج من المدرسة إلا لمصلحة ترميم أو خوف من إتلاف ونحو ذلك ، فأجاب رضي الله عنه: الذي أقول به الجواز ، وقد رأيت شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقيني ، وشيخنا الشيخ شرف الدين المناوي ، رضي الله عنهما ، يستعيران كتب المحمودية ، ويمكث الكتاب عندهما في دارهما سنين عديدة ، وهما الإمامان المقتدى بهما ، فإنهما كانا من الفقه بالمحل الأعلى ، بحيث بلغا رتبة الاجتهاد في المذهب ، وكان المناوي صوفياً له أحوال وكرامات ، فلولا رأيا ذلك جائزاً ما فعلاه ، وفي قواعد الشريعة ، أنه يجوز أن يستنبط معنى من النص يخصصه فإذا كان هذا في نص الشارع ففي نص الواقف أولىٰ.

فيقال هنا إن مقصود الواقف بشرطه تمام النفع ، وتمام الحفظ ، فإذا وجد من يحتاج إلى الانتفاع بكتاب منها حال تصنيفه لكتب العلم ، ولا يمكنه الانقطاع لأجل ذلك في المدرسة ، ووثقنا بدوام حفظه ، وصونه ، جاز الإخراج له ، وكان ذلك مستثنى من المنع مخصصاً لعموم لفظ الواقف بهذا المعنى المستنبط ، كما خصص قوله تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة: ٦]. واستثنى منه المحارم بالمعنى المستنبط ، وهو الشهوة ، ولا دليل لاستثناء المحارم من آية أو حديث ، سوى هذا الاستنباط ، فكذلك هذا.

قال: وقد ذكر الحافظ عماد الدين بن كثير في تاريخه ، أن علماء بغداد منعوا في بعض السنين تعليم الأطفال في المساجد ، إلا شخصاً واحداً ، كان موصوفاً بالصلاح والخير ، فاستثنوه من المنع ، وأنهم استفتوا الماوردي صاحب الحاوي من أئمتنا ، والقدوري من أئمة الحنفية وغيرهما ، فأفتوا باستثنائه ، واستدلوا بأنه ﷺ أمر بسد كل خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر فقاسوا استثناء هذا الرجل على استثناء خوخة أبي بكر.

وقال: وهذا استنباط دقيق لا يدركه إلا الأئمة المجتهدون ، كالماوردي ، والقدوري ، قال وقد استندت إلى قولهم حين استفتيت قديماً في أبنية القرافة ، فأفتيت بهدمها كلها ، كما هو المنقول ، إلا مشاهد الصالحين قياساً على ما أفتىٰ به الماوردي والقدوري ، وذكر في المسألة أمران ينبغي التفطن لهما ، أحدهما أنه لا يستعار من هذه الخزانة إلا ما يتيسر وجوده

في غيرها مما ليس فيه شرط منع الخروج ، والثاني أنه لا يمكث عند المستعير إلا بقدر ما يقضي حاجته منه في العادة ، ومدرك هذين الأمرين إن جاز للضرورة يتقدر بقدرها.

قال: وما أفتينا به هو الوجه الحسن الصحيح ، وأطال في ذلك ، ثم قال: وفي المسألة وجه آخر حسن ، وهو أن بعض أئمة الحنابلة جوز مخالفة شرط الواقف ، إذا اقتضت المصلحة ذلك ، فإن كان ذلك هو المشهور عندهم فهو وجه حسن ، يصلح الاستناد إليه ، قال: ورأيت في المسألة وجهين ضعيفين: أحدهما أن هذا الشرط باطل ، جنح إليها بعضهم لكن رده السبكي ، وقال: إنه شرط صحيح؛ لأن للواقف فيه غرضاً صحيحاً من حيث إن إخراجها مظنة ضياعها ، الوجه الثاني أن يحمل قول الواقف: إنها لا تخرج ، على نقلها كلها من مقرها إلى مدرسة أخرىٰ مثلاً تجعل مقرها وهذا وجه بعيد ، انتهى كلام الجلال السيوطي رحمه الله تعالى. فاعلمه ، واعمل عليه ، والله يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: صبري على مجالسة الثقلاء ، وكتمي عنهم أني أدركت ثقلهم ، وعدم غيبتهم إذا قاموا من مجلسي ، بل ربما أذكر بعض محاسنهم ستراً لهم عند من لحق بثقالتهم من أهل المجلس ، فإنه ما من شخص إلا وفيه من الصفات الحسنة والقبيحة ما في غيره ما عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإن الله تعالى طهر طينتهم من سائر الأخلاق والصفات الرديئة ، كما مر بسطه في هذه المنن ، وهذا خلق غريب قل من يصبر له ، حتى رأيت شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى ، يخبط بالعصي لمن عنده ثقالة ويزجره ليقوم ويقول: ضيعت علينا الزمان ، فيما لا يعنينا.

وكان سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى إذ رأىٰ ثقيلاً يقصده بالجلوس يقوم ويمشي ، حتى يتوارى عنه ، وكذلك رأيت شيخنا أمين الدين الإمام بجامع الغمري ، وكان رجل ثقيل يأتيه ، فكان إذا رآه داخلاً من باب الجامع يقوم ، ويطلع بيته ، ويقول: إنه يحصل لي بمجالسته تألم في باطني لا أطيقه ، انتهى.

ورأيت مؤلفاً للشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى ، فيما ورد في الثقلاء من الأحاديث والآثار ، فمنه ما رواه الحافظ أبو محمد بن الحسن بن الخلال ، أن أبا هريرة رضي الله عنه كان إذا استثقل رجلاً قال: «**اللهم اغفر لنا وله وأرحنا منه**».

وكان حماد بن أبي سليمان ، يقول: «**من كان يرى نفسه ثقيلاً فهو خفيف وبالعكس**».

وكان الطبيب جبريل الشامي يقول: «**نجد في كتبنا أن مجالسة الثقيل حمى الروح**».

وكان سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه يقول: «**إنه ليكون في المجلس عشرة أنفس وفيهم ثقيل واحد فيرجح عليهم كلهم ويثقلون عليّ**»

ولما عمي الأعمش قالوا له: ما عوضك الله تعالى على ذهاب بصرك؟ قال: عوضني أن لا أرى به ثقيلاً.

وكان ابن شهاب رضي الله تعالى عنه يقول: إذا ثقل عليك الجليس فاصبر ، فإنها ربطة في سبيل الله ، فإذا أبرمك وملكك بطول حديثه فجاهد بقيامه عنك ، أو قيامك عنه.

وكان ابن أبي عتيق رضي الله عنه إذا رأىٰ ثقيلاً يتناعس ويغمض عينيه حتى لا يراه.

وروى ابن عبد ربه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: نزل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] في الثقلاء.

وكان جالينوس يقول: إنما كان الرجل الثقيل أثقل من الحمل الثقيل؛ لأن ثقل الإنسان الثقيل على القلب ، وثقل الحمل على البدن.

وكان حماد بن سلمة إذا رأىٰ ثقيلاً قال: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢].

قال الأصمعي رحمه الله تعالى: وجلس عندي رجل ، فأطال الجلوس ، فقال لي: لعلي قد أضجرتكم؟ قلت: نعم ، ثم نعم ، قال: وقد أثقلتكم ، قلت: ثقل فوق الثقل ، قال: فإني راحل ، قلت: العجل ثم العجل يا جبلاً من جبل في جبل فوق جبل.

وكان الأعمش إذا رأىٰ ثقيلاً يشرب الماء ، ويقول: النظر إلى وجه الثقيل حمى نافض ، والحمى من فيح جهنم ، فأدبروها بالماء ، رواه الحافظ المنذر في تاريخه.

ونظر ابن الأنباري إلى ثقيل فقال له: لو كان آدم عليه الصلاة والسلام يعلم الغيب ما أودع نطفته من حواء ، وكان أبانها بالطلاق لأجله ، لكنه لم يعلم بأنه يأتي منه هذا الشخص ، قال: ولعل ثقل هذا هو الذي أهبط آدم عليه السلام وجميع من كان من صلبه إلى الأرض من ثقله.

وكلام العلماء في الثقلاء كثير ، وما ذكرت لك ذلك إلا لتعرف أن من تحمل مجالسة الثقلاء ، وأخفىٰ عنهم إدراكه ثقلهم ، فهو من أوسع الناس خلقاً ، فتنبه لذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

* *

الباب الرابع عشر
في جملة أخرى من الأخلاق فأقول وبالله التوفيق

وهو حسبي وثقتي وغياثي ومغيثي ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة شفقتي على كل دابة ركبتها من جمل أو حمار أو غيرهما ، وكراهة حملي سوطاً إذا ركبتها خوفاً أن تغلبني حدة النفس فأضربها إذا حرنت ، وكذلك لا أردف أحداً معي على ظهرها ، ولو بإذن صاحبها إلا إذا علمت بالقرائن أنها لا تتأذى بذلك ، وكذلك لا أسبها ، ولا أدعو عليها حال ركوبها ، ولا حال عثورها ورميي إلى الأرض ونحو ذلك ، عملاً بوصية الله تبارك وتعالى في نحو حديث: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء**»[1]

وقد كان سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله تعالى عنه لا يحمل قط عصا إذا ركب ، ولا ينخسها بذبابة المسوقة أو غيرها ، ويقول: يكفيني ردها بكمي إذا انحرفت عن الطريق ، فإنه لا بد أن يقتص لها مني يوم القيامة بمثل ما ضربتها ، وأنا لا أطيق ضربي بعصا كما ضربتها ، ولا نخسي بذبابة المسوقة في قفاي حتى يخرج الدم ، انتهى.

وكثيراً ما أجعل مقود الحمارة مع بعض الإخوان ، يقودها بي لئلا تؤذي أحداً ، وقد جاء ضرب الدواب في عدة من الأحاديث ، وهو محمول بقرينة الأحاديث الثابتة على ضرب التأديب الذي لا يؤذي الدابة ، كضرب الصغير للتأديب لا على الضرب المبرح الذي يصير له أثر ، ويخرج به الدم ، ولا يضرب على الوجه ، لما ورد من النهي عنه ، فافهم ، وهذا الخلق قل من يتفطن له.

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الصيد والذبائح ، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥) ، والترمذي ، كتاب الديات ، باب ما جاء في النهي عن المثلة (١٤٠٩) ، والنسائي ، كتاب الضحايا ، باب الأمر بإحداد الشفرة (٤٤٠٥) ، وأبو داود ، كتاب الضحايا ، باب في النهي أن تصبر البهائم والرفق بالذبيحة (٢٨١٥) ، وابن ماجه ، كتاب الذبائح ، باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح (٣١٧٠) ، وأحمد في مسنده (١٦٦٦٤)

فمما ورد أن جعيداً الأشجعي رضي الله تعالى عنه ، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ على فرس عجفاء مريضة ضعيفة ، فلحقني رسول الله ﷺ فقال: «**سر يا صاحب الفرس قلت: يا رسول الله هي عجفاء ضعيفة ، فرفع رسول الله ﷺ مخفقة** (يعني درة) **كانت معه فضربها بها ، وقال: اللهم بارك له فيها ، قال: فلقد رأيتني وما أملك رأسها أن تتقدم الناس ، وقد بعت من بطنها باثني عشر ألفاً**»[1]. وأرسل رسول الله ﷺ مرة رجلاً إلى بني عبس في حاجة فقال: يا رسول الله ﷺ إن ناقتي أعيتني من بطء سيرها ، وعدم القيام إذا جلست ، فأتاها النبي ﷺ فضربها برجله ، فلقد كانت بعد ذلك تسبق القائد.

وقال جابر: عي جملي ، وأردت أن أسيبه ، فجاءني النبي ﷺ ، وقال: «**أعطني مقوده**» ، فأعطيته إياه فضربه وزجره ، وفي رواية فنخسه ، وفي رواية فقال: «**أعطني العصا**» ، أو قال: «**اقطع لي عصا من شجرة**» ، ففعلت ، فأخذها فنخسه بها نخسات ، وفي رواية فمج في وجهه الماء ثم ضربه بالعصا فوثب ، وفي رواية فضربه بعصية فانبعث[2].

قال الحافظ السخاوي وبذلك يستدل على جواز ضرب الدواب اليسير ، وإن كانت غير مكلفة ، لكن محل ذلك ما إذا لم يتحقق أن ذلك من فرط تعب أو إعياء ، وعليه يحمل ما نقل عنه ﷺ ، أنه كان إذا رأىٰ دابة حرنت دعا لها بالبركة والقوة ، ولم يأمر بضربها فعدل عن الضرب إلى الدعاء لها رحمة بها.

وكان بعض الأئمة يقول: تمتحن الدابة بالعلف ، فيشار إليها به من مكان بعيد ، فإن قصدته وانبعثت فجائز لصاحبها حملها بالضرب لتصل إلى الحد الذي قصدته لأجل العلف بمحبتها فيه ، ورغبتها إلى الوصول إليه ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا علم صاحب الدابة أن الضرب لا يؤثر فيها انبعاثاً إذا رقدت ، حرم عليه ضربها ، بل ربما كان الضرب سبباً لزيادة الضعف والعجز ، قال: وكذلك لا يجوز له ضربها إذا عثرت؛ لأنه لا قوة لها على تركه ، ولا تريد العثور ، بخلاف ما إذا جفلت فله معالجتها في تجنبه برفق ، قال: ومحل جواز الضرب فيما عدا الوجه لشمول النهي الوارد فيه في حق كل حيوان محترم ، من الآدمي والحمير والخيل والبغال والإبل والغنم وغيرها ، لكنه في الآدمي أشد ، بل روى الإمام أحمد بن حنبل رضي

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٥٣) ، والطبراني في المعجم الكبير (٢١٧٢) ، والروياني في مسنده (١٥١٤).

(٢) قصة جمل جابر رضي الله عنه أخرجها البخاري ، كتاب الوكالة ، باب إذا وكل رجل رجلاً أن يعطي شيئاً ولم يبين كم (٢٣٠٩) ، ومسلم ، كتاب المساقاة ، باب بيع البعير (٧١٥).

الله عنه أن رسول الله ﷺ: «**نهى عن لطم خدود الدواب**»[1].

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصاري رضي الله تعالى عنه يقول: لا شك في تحريم تحميل الدابة ما لا تطيق حمله، أو طلب أن تسير في السفر فوق طاقتها، والضرب حينئذ بسبب ذلك حرام، وقد ورد أنه «**يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»[2] فالقصاص هنا من باب أولى، ويؤيده ما ورد من أن صاحب الدابة يسأل يوم القيامة عن صنيعه معها في دار الدنيا، انتهى.

وقد بلغنا أن الحافظ السخاوي ألف في ضرب الدواب مؤلفاً، وذكر فيه فوائد، فينبغي للمتدين مراجعة مثله ليرشد إلى الطريق الأقوم، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم سبي ولعني للدابة إذا عثرت ورمتني إلى الأرض على وحل أو قذر ونحو ذلك لأن الاشتغال بمقابلة الدواب من خفة العقل، ونقل البيهقي عن الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول: ما سب أحد شيئاً من الدنيا دابة أو غيرها وقال: أخزاك الله، أو لعنك الله، إلا قالت: أخزى الله، أو لعن الله أعصانا لربه عز وجل، قال الفضيل بن عياض: وبلغنا، أن ذلك من قول أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه، ولا شك أن ابن آدم أعصى وأظلم.

وبلغنا أن شخصاً عثر به حماره، فقال الحمار، تعست، فقال صاحب اليمين: ما هي حسنة فأكتبها، وقال صاحب الشمال: ما هي سيئة فأكتبها، فنودي كل ما تركه صاحب اليمين فأكتبه، انتهى.

ويلحق بما ذكرناه سب البراغيث لما ورد فيهم من النهي.

وكان أخي سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقبل رجل الجمل الذي كان يركبه في طريق مكة كلما ينزل من على ظهره، وتارة يقبله في وجهه، ويقول: جزاك الله عني خيراً، وأمدك بالقوة، وكثر عليك العلف، وخفف عليك الحساب يوم القيامة. وهذا الخلق قل من يتنبه له من الناس اليوم، فافهم ذلك واعمل على التخلق به ترشد، والله يتولىٰ هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: مواظبتي على الوضوء لكل ما يستحب له الوضوء، فلا أفعل شيئاً من ذلك إلا على طهارة، وإن وقع أنني فعلت شيئاً من ذلك على حدث، استغفرت الله تعالى وتبت إليه خروجاً من سوء الأدب مع الله تعالى، وتعظيماً لأوامره، وهي كثيرة نذكر

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٧٢٨)

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨٢)، والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص (٢٤٢٠)، وأحمد في مسنده (٧١٦٣).

لك منها جملة ، فمنها قراءة القرآن ، وسماع الحديث ، والعلم ، وقراءة وردي ، ودخولي المسجد ، وذكر الله تعالى ، والسعي ، والوقوف بعرفة ، وزيارة قبر رسول الله ﷺ ، أو غيره من الأنبياء والصالحين ، واستحب بعضهم الطهارة لزيارة جميع القبور ، ومنها خطبة غير الجمعة ، والنوم ، والأذان ، والإقامة ، والوضوء في غسل الجنابة ، ولفعل سائر العبادات ، وعند إرادة الجنب أكلاً أو شرباً أو نوماً أو عوداً للجماع ، ومنها الفصد ، والحجامة ، والقيء ، وحمل ميت أو مسه باليد ، ومس الخنثى ، أو مس الخنثى أحد فرجيه ، وكل مس ولمس فيه خلاف كالأمرد ، وأكل لحم الجزور ، والغيبة ، والنميمة ، والفحش ، والقذف ، وقول الزور ، والقهقهة للمصلي ، وقص الشارب ، ونتف الإبط ، ولكل ليلة من ليالي رمضان ، وللتوبة من كل ذنب ، وللغضب ، وغير ذلك مما يعلمه العلماء بالله عز وجل ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم غفلتي عن تبغيض كل من صحبني من الحشاشين في بلع الحشيشة ، وعدم زجري له بعنف ، بل أتلطف به كما مر بسطه أوائل هذه المنن ، ومن ملاطفتي له إطعامي له الحلاوة والكنافة المبسوسة بالقطر ، وعدم العبوسة في وجهه ، وذكري محاسنه بين الفقراء ، وذلك ليميل إلينا.، ثم لا أزال أذكر له ما فيها من المفاسد لعله ينفر من أكلها.

وقد ذكر الشيخ قطب الدين العسقلاني ، خليفة شيخ الشيوخ الشيخ شهاب الدين السهروردي ، رحمه الله تعالى في الحشيشة مائة وعشرين مضرة دنيوية وآخروية.

وقال الحكماء إنها تورث أكثر من ثلاثمائة داء في البدن ، كل داء لا يوجد له دواء في هذا الزمان ، فمنها تنقيص القوى ، وإحراق الدماء ، وتقليل الحياء ، وتنقيب الكبد ، وتقريح الجسد ، وتجفيف الرطوبات ، وتضعيف اللثات ، وتصفير اللون ، وتحقير الأسنان ، وتورث البخر في الفم ، وتولد السوداء ، والجذام ، والبرص ، والخرس ، واللقوة ، وموت الفجأة ، وتورث كثرة الخطأ ، والنسيان ، والضجر من الناس ، وتولد الأعشاء في العيون ، وتخلط العقول ، وتورث الجنون غالباً ، وتسقط المروءة ، وتفسد الفكرة ، وتولد الخيال الفاسد ، ونسيان الحال والمآل ، والفراغ من أمور الآخر ، وتنسي العبد ذكر ربه ، وتجعله يفشي أسرار الإخوان ، وتذهب الحياء ، وتكثر المراء ، وتنفي الفتوة والمروءة ، وتكشف العورة ، وتمنع الغيرة ، وتتلف الكيس ، وتجعل صاحبها جليساً لإبليس ، وتفسد العقل ، وتقطع النسل ، وتجلب الأمراض والأسقام ، مع تولد البرص والجذام ، وتورث الأبنة ، وتولد الرعشة ، وتحرك الدهشة ، وتسقط شعر الأجفان ، وتجفف المني ، وتظهر الداء الخفي ، وتضر الأحشاء ، وتبطل الأعضاء ، وتقوي النفس ، وتهز السعلة ، وتحبس البول ، وتزيد الحرص ، وتسهر الجفون ، وتضعف العيون ، وتورث الكسل عن الصلاة ،

وحضور الجماعات ، والوقوع في المحظورات ، وارتكاب الإجرام ، وجماع الآثام ، والوقوع في الحرام ، وأنواع الأمراض والأسقام.

قال الشيخ قطب الدين: وقد بلغنا عن جمع بلغوا حد التواتر أن الإكثار من أكلها يورث موت الفجأة ، كما وقع لكثير ممن يتعاطاها ، وبعضهم اختلت عقولهم ، وبعضهم ابتلوا بأمراض متعددة ، وأسقام متنوعة من الدق ، والسل ، واحتراق السوداء ، وضيق النفس ، والاستسقاء ، وسوء الخاتمة.

واتفق العلماء والحكماء أنها خبيثة ضارة في الجسد والعقل ، صادة عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة ، وما كان هذا فعله حرام بإجماع أهل الإسلام؛ لأن ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام.

ورأيت في كلام ابن البيطار أن علاج ترك أكل الحشيشة يكون بالقيء بالمشمش والماء المسخن ، حتى تنقى المعدة منه ، وشراب الحماض في غاية النفع لذلك.

وقال شيخ الإسلام قطب الدين المذكور: ولا يخفىٰ أن تناول الحشيشة والإقدام عليها حرام عند أكثر علماء الإسلام ، من أهل الحجاز واليمن والعراق ومصر والشام ، قال: وهي من المخدرات المسكرات ، كجوز الطيب ، والزعفران ، والسيكران ، ونحو ذلك مما يتلف العقل والفكر.

وأفتى الشيخ بدر الدين بن جماعة بأن الحشيشة حرام بلا خلاف.

وقال بعض العلماء الأطباء: إنها مخدرة وأكثرهم على أنها مسكرة.

قال: وعلى بائعها وآكلها الإثم والتعذير ، وقال: وكذلك زارعها ، وطابخها وحاملها ، والمحمولة إليه ، والراضي بذلك ، والساكت عنه ، فيمنع ويزجر ، فإن تاب من ذلك وإلا ضرب وعزر بالدرة ضرباً شديداً بإجماع أئمة المذاهب الأربعة ، حتى قال بعض العلماء: من أباح أكلها فهو زنديق ، وقال: إنه يقع طلاقه كالسكران زجراً له ، قال: وقد ظهرت الحشيشة في زمن الإمام المزني رضي الله تعالى عنه ، وأفتىٰ فيها بالتحريم على مذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه وقواعده ، وليس للأئمة الأربع ، فيها كلام؛ لأنها لم تكن في زمنهم ، ولما أفتىٰ المزني فيها بالتحريم رجع من كان أفتىٰ فيها بالإباحة من أصحاب أبي حنيفة ، وأفتوا بحرمته ، أعني الحشيش مع خطر قيمته ، وأمر بتأديب بائعه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنها ظهرت وسط المائة السادسة وكان مستند من أفتىٰ بإباحتها أنها على الإباحة الأصلية ، فلما اشتهر فسادها في عراق العجم رجعوا عن فتواهم بالإباحة ، وقالوا: إنها مضرة للعقل والبدن ، وتجعل العبد إن أكل لا يشبع ، وإن أعطي

لا يقنع ، وإن كلم لا يسمع ، وتجعل الفصيح أبكماً ، والصحيح أبلماً ، واليقظان نائماً ، انتهى.

فإذا ذكرت يا أخي هذه المفاسد للحشاش ولاطفته ، ربما ينقاد لك ، ويشرع في التوبة عن أكلها ، وأكل كل ما يسكر أو يخدر أو يغيب ، ويحتاج صاحب هذاالخلق إلى سياسة تامة ، وعقل وافر ، وشفقة ورحمة على الخلق ، وطول زمان ، فإن العارض إذا استحكم يحتاج إلى طول زمان ، وغالب الحشاشين قطعوا عمرهم في أكلها ، وألفتها أجسادهم ، فيحتاج من يريد أن يتوب عنها إلى مسارقة النقص من عادته شيئاً فشيئاً ، كالأفيون ، والبنج ، والبرش ، وإلا فلا يقدر على التوبة من ذلك دفعة ، فاعمل يا أخي على ما ذكرته لك في هذا المحل ، وأكثر من ذكر مفاسدها لصاحب الكتبة حتى تتشكل تلك المفاسد في ذهنه ، ثم بعد ذلك فأمره بالتوبة ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي بنور الإيمان ، وسر الإيقان ، أن نبينا محمداً ﷺ أفضل خلق الله تعالى على الإطلاق ، فلا أحد من أهل السموات وأهل الأرض يساويه في مقام من المقامات ، ثم لا يتوقف على دليل في ذلك ، إلا من أعمى الله بصيرته ، وصار بصره كبصر الخفافيش ؛ لأن نور شريعته ﷺ أضوأ من نور الشمس وقت الظهيرة ، وقد وقع في سنة ستين وتسعمائة أن شخصاً من طلبة العلم ، أنكر فضل النبي ﷺ على غيره من الرسل ، مستنداً إلى قوله ﷺ: «**لا تفضلوني على يونس بن متى**»(١) وقوله ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح**»(٢) وقد أجاب العلماء رضي الله تعالى عنهم عن مثل ذلك بعدة أجوبة أظهرها أنه قال ذلك تواضعاً منه ﷺ مع إخوانه من الأنبياء ، كما في نحو قوله ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»(٣) وقوله ﷺ في يوسف عليه السلام «**لو كنت أنا مكانه لأجبت الداعي**»(٤) فخاف ﷺ من المبالغة في تعظيمه حتى يصل الناس إلى حد التحقير لغيره ، وكان ذلك من جملة إنصافه ﷺ.

ويكفي في بيان فضله إجماع أمته كلهم في سائر الأقطار على تفضيله على الأولين والآخرين بالبديهة ، من غير توقف ، مع أن أحداً منهم لم يره ، وإنما رأىٰ شرعه ، وسمع

---

(١) ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص ١١٦.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ (٣٤٤٥) ، وأحمد في مسنده (٣٤٤٥).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (٣٣٧٢) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (١٥١).

(٤) انظر تخريج الحديث السابق.

هديه فقط ، وقد قال ﷺ: **«لا تجتمع أمتي على ضلالة»**(١).

وقد وقع في سنة إحدى وأربعين وتسعمائة أن شخصاً آخر زعم أن سيدنا إبراهيم عليه السلام أفضل من سيدنا محمد ﷺ ، مستنداً إلى تعليمه ﷺ الصحابة كيفية الصلاة عليه في الصلاة ، وقوله في حديث التشهد **«كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»**(٢) بناء على قاعدة أهل المعاني ، من أن المشبه به أعلى من المشبه ، وغاب عن هذا الشخص أن المسألة واردة على سبب ، وذلك أن الصحابة لما قالوا له: يا رسول الله قد علمنا السلام عليك ، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا؟ فقال: قولوا: **«اللهم صلي على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم»** إلى آخره ، فالنكتة في قوله ﷺ كما صليت على إبراهيم كونه ﷺ مسؤولاً في تعليم الكيفية.

وتأمل إذا قلت لإنسان من الأولياء أو العلماء مثلاً: علمني تحية أعظمك بها ، وأمدحك بها ، وأفضلك بها بين الناس ، كيف لا يسعه إلا السكوت أو النطق بما فيه تواضع ، ولذلك جاء في حديث كعب بن عجرة أنه قال: لما سألنا رسول الله ﷺ كيف نصلي عليك سكت ، وتمعر وجهه ، حتى تمنينا أن لو لم نكن سألناه يعني من شدة حيائه ﷺ.

وقوله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع ، وأول مشفع»**(٣) صريح في تفضيله على جميع الخلق ، حتى آدم عليه السلام ، إلا فيما يؤذن له كما تقدم ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]. وإنما تأدب ﷺ مع أبيه آدم؛ لأنه لا ينبغي للولد أن يقول: أنا أفضل من أبي ، فإنه سوء أدب ، وهو ﷺ معصوم من مثل ذلك قطعاً ، إلا ما ورد به الإذن الإلهي ، كما في حديث: **«آدم فمن دونه تحت لوائي»**(٤)

وقد انتصر علماء مصر ، وصنفوا مصنفات في الرد على هذا الشخص ، بتقدير ثبوت ذلك عنه ، كسيدي محمد البكري ، وسيدي محمد الرملي ، والشيخ ناصر الدين الطبلاوي ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب السواد الأعظم (٣٩٥٠) ، والطبراني في المعجم الكبير (١٣٦٢٣) ، وعبد بن حميد في مسنده (١٢٢٠) ، والديلمي في مسند الفردوس (١٦٦٢).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٧٠) ، ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب الصلاة على النبي بعد التشهد (٤٠٦).

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (٢٢٧٨) ، والترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٨) ، وأبو داود ، كتاب السنة ، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤٦٧٣) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر الشفاعة (٤٣٠٨) ، وأحمد في مسنده (١٦).

(٤) أخرجه الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٨) ، وأحمد في مسنده (٢٥٤٢) ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٨٨)

والشيخ نور الدين الطندتائي ، وقُرِئت تلك المصنفات على رؤوس الأشهاد بحضرة خلائق لا يحصون ، فافهم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: من صغري ، عدم مرحي مع أحد وهو في عبادة ، أدباً مع الله تبارك وتعالى ، فلم يقع مني قط أني غمزت صبياً مصلياً أو قارئاً ، أو ذاكراً بعيني أو يدي ، وقلّ طفل يسلم من ذلك مع إخوانه في المكتب ، وهذا من أكبر نعم الله عز وجل عليّ ، لكونه حفظني من مثل ذلك في صغري ، وفي تاريخ الملك المنصور ، ابن السلطان شعبان ، أن في سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة ، ورد بريد من نائب حلب إلى مصر ، بكتاب يتضمن أن إماماً صلى بقوم في جامع ، فجاء شخص وعبث به في صلاته من باب المداعبة ، فلم يقطع الإمام صلاته حتى فرغ ، فلما سلم انقلب وجه العابث وجه خنزير ، ثم هرب ، ودخل غابة هناك ، فتعجب الناس من هذا الأمر ، وكتب بذلك محضراً ، انتهى.

وهذا من جملة غيرة الله تعالى ، وعقوبته المعجلة لمن أساء معه الأدب ، فإياك يا أخي أن تمكن أولادك من مثل ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم مبادرتي للإنكار على ولاة أمورنا ، من أمير أو قاض ، في تغاليهم في شراء المماليك الصباح الوجوه ، وعدم سوء الظن بهم ، فإن من شأن الولاة في كل زمان محبة الجمال ، والتلذذ برؤيتهم له في دورهم وملابسهم وخدامهم ، من غير أن يتعدى ذلك إلى فعل حرام ، وقد يحمي الله تعالى العبد وهو بين المغاني ، ويوقعه وهو بين العباد.

وقد كان الشيخ محمد الأخناني يبيع الأخفاف للنساء ، ويقول: ما حدثتني نفسي قط بأن أنظر إلى ساق امرأة ولا يدها ولا وجهها ، وكان له أخ عابد يركب السبع في شوارع بغداد ، والناس يتبركون به ، فجاء مرة وجلس عند أخيه ، فرأىٰ ساق امرأة ، فافتتن بها ، وعصىٰ عليه السبع ، فسلب حاله من ذلك اليوم ، فقال له أخوه: إنما الحماية يا أخي من الله ، لا بحولي ولا بقوتي.

ودخل إسماعيل القاضي يوماً على الخليفة المعتضد ، فرأىٰ على رأسه أحداثاً صباح الوجوه من الروم ، قال القاضي: فنظرت إليهم وتأملتهم ، فخطر في ذهني شيء فلما أردت القيام أشار إلي المعتضد قف ، ثم قال: والله يا قاضي ما حللت سراويلي على حرام قط ، فاستغفرت من سوء ظني.

فإياك يا أخي وسوء الظن ، ونظف باطنك من الرذائل حتى تصير منظفاً من الرذائل ، مطهر لا تجد في باطنك شيئاً منها تقيس أحداً عليه ، والحمد لله رب العالمين.

وكان المعتضد من أورع الناس ، وصنف شخص كتاباً في الرخص ، وذكر فيه زلل

العلماء، فنظر فيه، وأمر بإحراقه، وقال: إن صاحب هذا زنديق، فإن من أباح شرب النبيذ مثلاً لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء، وما من عالم إلا وهو معرض للزلة، ومن أخذ بكل زلل العلماء فقد ذهب دينه، انتهى.

فاعلم ذلك، والله يتولىٰ هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم وسوستي في الوضوء والنية والقراءة وغير ذلك، مع كوني بالغت في التورع إلى حد المبالغة التي لم يصل إليها هؤلاء الموسوسون، أوائل اشتغالي بالعلم، كما مر بسطه في أوائل الباب الأول، وهذه النعمة من أكبر نعم الله تعالى عليّ، فإن الوسوسة قد عمت غالب الناس الآن، حتى إن بعضهم ترك الوضوء والصلاة، وقال: لا يعجبني وضوء أصلي به، ولا قراءة أقرؤها، وشهدت أنا بعيني موسوساً دخل ميضأة ليتوضأ قبل الفجر من ليلة الجمعة، فلا زال يتوضأ للصبح حتى طلعت الشمس، ثم جاء إلى باب المسجد فوقف ساعة يتفكر، ثم رجع إلى الميضأة، فلا زال يتوضأ ويكرر غسل العضو إلى الغاية، ثم يرجع، وينسى الغسل الأول، حتى خطب الخطيب الخطبة الأولى، ثم جاء إلى باب المسجد فوقف ساعة، ورجع، فلا زال يتوضأ حتى سلم الإمام من صلاة الجمعة، وأنا أنظر من شباك المسجد، ففاته صلاة الصبح والجمعة، وذلك حرام بإجماع المسلمين.

ومثل هذا قد خرج عن قواعد الدين، حتى أنك لو قلت له توضأ كما كان رسول الله ﷺ يتوضأ أو صل كما كان رسول الله ﷺ يصلي، لا يرضيه ذلك، ويرى أنه لو فعل مثل ما فعل رسول الله ﷺ في وضوئه وصلاته لا يصح وضوءه ولا صلاته، وذلك من الضلال المبين، لطاعته عدو الله الشيطان، وعصيانه للشارع أمين الرحمن، وفي الحديث: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١).

وقد رأيت بعضهم يأنف من مواكلة الصبيان، أو من مواكلة العوام، ويغسل يده إذا أكل معهم، ويرى أنها تنجست بالأكل معهم، وبعضهم يغسلها سبعاً إحداهن بتراب كلما يأكل أو يشرب من محل أكل الناس أو شربهم، ثم رأيته بعد ذلك يأخذ فلوساً من مكاس قرأ عنده، فقلت له: كيف تأخذ مثل هذا، وهو أخبث من كل خبيث؟ فما درى ما يقول، ثم إنه غسل الدراهم بماء وطين، فقلت له: هذا لا يرفع خبثها، انتهى.

ورأيت بعضهم لا يصلي قط في صف المسلمين، حتى اضطره ذلك إلى أنه لا يصلي إلا إماماً حتى لا يلاصقه أحد بثيابه، وصلىٰ مرة في صف فيه شخص مالكي بينه وبينه نحو عشرة

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً، كتب البيوع، باب النجش، ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، وأبو داود في السنة، باب لزوم السنة (٤٦٠٦).

أنفس ، فأعاد الصلاة ، وقال: إن المناكب اتصلت به وبثيابه.

ورأيت بعضهم كلما يجامع زوجته يفتق الطراحة واللحاف ويطهرهما ، ثم ينجدهما ، وإذا جامع فتق في الملاءة فتقاً يخرج ذكره منه ، حتى لا يلامس جسم المرأة ، وهذا قريب من صورة دين السامرة الذي يقول بنجاسة المسلمين ، ويمتنعون من أكل شيء مسه مسلم ، بل من يسبع يده بالطين ، أبلغ من مخالفة السنة من صورة مذهب السامرة؛ لأنه جعل المسلم كالكلب ، مع أنه لم يشاهد ذلك الشخص الذي غسل يده من أثره ، يمسك الكلب ، ولا يشرب فضلته ، حتى يعذر في ذلك.

وهذا كله من استيلاء الشيطان على قلوب هؤلاء ، فإنهم أجابوه إلى ما دعاهم إليه مما يشبه الجنون ، ويقارب مذهب السوفسطائية الذين ينكرون حقائق الموجودات ، فإن الواحد من هؤلاء ينكر الأمور المحسوسة اليقينية التي عملها بيده أو لسانه ، وهو ينظر أو يسمع؛ فيغسل العضو مثلاً ثلاث مرات ، وينطق بالكلمة ، ويكذب بصره وسمعه ، حتى أن الثقة من الناس يراه أو يسمعه ، ويقول له: إنك فعلت كذا ، أو قلت كذا ، فلا يرجع إليه ، ولو كان عدداً كثيراً.

وقد رأيت من استحم بخمسة وخمسين إبريقاً ، ثم شك بعد ذلك في أن الماء عم بدنه ، وكان ذلك لصلاة الظهر ، فقال: روحوا بي إلى بحر النيل ، فجعل يغطس ويصعد برأسه إلى أن غربت الشمس ، وفاته الظهر والعصر ، وقد رأيت من ذهب أيام النيل إلى بركة الخازندار خارج القاهرة ، ليطهر ثيابه ، فما زال يغسلها ويجففها إلى آخر النهار ، ثم ضم ثيابه ، ولبس بعضها ، ثم شك في بعضها ، ثم شك في أنه هل غسلها أم لا ، وكان قد مر على صيادي السمك في طريقه إلى البركة ، فلما رجع قال لهم: هل رأيتموني مررت عليكم بكرة النهار ، ومعي ثيابي ، فقالوا له: ما رأيناك فقال: إذن أنا ما رحت إلى البركة ، ثم ذهب من بكرة النهار إلى البركة ثانياً ، ومن بلغت به طاعة إبليس إلى هذا الحد فهو ممن أضله الله على علم؛ لأنه جعله ينكر يقين نفسه ، ويجحد ما رآه بعينه أو سمعه بأذنه أو يعلمه بقلبه.

وقد رأيت من يقفز في الهواء إذا نوى الصلاة ، ثم يقبض بيديه على صدره ، كأنه يخطف شيئاً كان هارباً منه ، ثم يقول: أستغفر الله ، ثم يقول: الطلاق يلزمني ثلاثاً لا أزيد على نية واحدة ، ثم يزيد ، وكان ذلك في صلاة الجمعة ، فما زال كذلك حتى فاتت الجمعة.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: أصل الوسوسة من ظلمة الباطن ، وأصل ظلمة الباطن من عدم الورع في اللقمة ، فمن تورع في اللقمة ضمنت له زوال الوسواس ، انتهى.

ثم من جملة مفاسد الوسوسة أن الموسوس يصير يعذب نفسه باستعمال الماء البارد في

الشتاء ، وربما غاص في الماء البارد ، فنزل الماء البارد في عينيه فعمي ، كما وقع للشيخ محمد الجويني بالجامع الأزهر ، وربما فتح عينيه في داخل الماء ليغسلهما ، فيضر بصره ، وربما كشف عورته للاستنجاء في الحمام ، وعلى أفريز الفساقي ، والناس ينظرون إليه ، وربما صار إلى حال يسخر منه الصبيان ، ويستهزىء به كل من يراه.

وقد رأيت مرة موسوساً من قضاة شبين الكوم ، وهو ذاهب إلى البحر ، وذكره مربوط بخيط في عود جعله بين وركيه حتى لا يصدم ذكره وركيه ، وهو عريان ، ورأسه مكشوف ، وثيابه وعمامته في يده مرفوعة ، خوفاً أن تمس جسده ، فلا زال كذلك حتى نزل البحر فطهر ثيابه ، واغتسل بعد تكدير الماء ، ثم وضع ثيابه على جرن قمح ليجففها ، فطلع له كلب من داخل القش ، فرجع بثيابه إلى البحر فغسلها ، ثم طلع بها ، فمر كلب وصل ظلله إلى ثيابه ، فرجع بها البحر ثالثاً ، فحملت همه ، وسألت الفقراء أن يدعوا له ، فمن ذلك اليوم ما حصل له وسوسة ، ورأيته يجلس بثيابه بعد ذلك على الأرض ، وعلى زبل الغنم الجاف ، وهو والد القاضي عز الدين المتولي ، بشبين الكوم الآن رحمه الله تعالى.

وبالجملة فلو لم يكن في الوسوسة إلا فوات أول الوقت ، أو فوات تكبيرة الإحرام ، أو القراءة ، أو الركعة الأولىٰ ، لكان في ذلك غاية الخسران النسبي.

وقد رأيت شخصاً يتوسوس في إخراج الحرف ، حتى ربما كرر الحرف ثلاث مرات وأكثر ، ورأيت من يقول الله: أك أك أك ككبر ، ورأيت من يقول: أت أت أت حيات لله ، ومنهم من يقول: أس أس أس لام عليكم ، وقد أفتىٰ بعضهم ببطلان الصلاة بذلك ، وربما كان إماماً فأفسد صلاة المأمومين ، وصار إثم ذلك في عنقه ، ولو سلمنا أن ذلك لا يبطل الصلاة فهو مكروه ، فقد قلب هذه العبادة المقربة إلى الله تعالى ، مكروهة لله ، مبعدة عنه لإخراجه الحروف عن وضعها الشرعي ، ورغبته عن رسول الله ﷺ وهدي أصحابه.

وربما رفع صوته بذلك فآذى سامعيه ، وأغرى الناس على ذمه والوقيعة فيه ، وربما كان يزعم في نفسه أن صلاة كل من لم يتوسوس مثل وسوسته باطلة ، فيؤدي ذلك إلى القول بإبطال صلاة الصحابة ، والتابعين ، والأئمة المجتهدين ، وسائر المؤمنين؛ لأنهم لم يفعلوا كفعله ، وهذا كالمروق في دين الإسلام.

وإن قال: إن الصلاة صحيحة بدون الذي أفعله أنا ، فنقول له: فما دعاك إلى الوسوسة وتعدي الحدود ، وإن قال: هذا مرض ابتليت به ، قلنا له: نعم هو مرض ، وأصله موافقة مراد الشيطان ، ولم يعذر الله تعالى بذلك ، ولو قبل الله تبارك وتعالى عذر من قبل وسوسة إبليس ، لم يوجب الله تبارك وتعالى التوبة على أبينا آدم وحواء عليهما السلام ، ولا على بنيهما من بعدهما ، مع أن آدم وحواء أقرب إلى قبول عذرهما منا؛ لأنهما لم يسبق لهما من يعتبران بحاله بخلافنا وقد أخبرنا الله تعالى بأن الشيطان عدو لنا ، وقال: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ

عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وما بقي لنا عذر ولا حجة بعد ذلك، وفي الحديث الصحيح أنه ﷺ: توضأ هذا الوضوء الشرعي الذي يتوضؤه المؤمنون الآن، ثم قال: «**فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم**»[١] وقال ﷺ: «**المعتدي في الصدقة كمانعها**»[٢] وقال: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٣] وقال «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**»[٤]

وكان طاووس رضي الله عنه يقول: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]. أي المعتدين في الماء والطهر، انتهى.

وقد كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يخافون من الوقوع في البدع، حتى كان سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه يقول لأصحابه: لا تقتدوا بي في أعمالي، فإني أخاف أن أكون قد ابتدعت شيئاً.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يهم بالأمر ويعزم عليه فيقول له شخص من الصحابة إن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك، فيرجع عن ذلك من حينه، وهم مرة أن ينهى الناس عن لبس ثياب بلغه أنها تصبغ ببول العجائز، فقال له شخص أن رسول الله ﷺ لبسها، ولبسها الناس في عصره، فاستغفر الله ورجع عن ذلك، وقال للشخص: صدقت يا أخي، لو كان عدم لبسها من الورع لكان فعله ﷺ.

وقال الإمام زين العابدين لولده يوماً: يا بني اتخذ لي ثوباً ألبسه عند قضاء الحاجة، فإني رأيت الذباب يسقط على النجس في الخلاء، ثم يقع على الثوب، فقال له ولده: إنه لم يكن لرسول الله ﷺ إلا ثوب واحد لخلائه ولصلاته، فرجع الإمام عن ذلك.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لو كانت الوسوسة في الوضوء

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب الطهارة، باب الاعتداء في الوضوء (١٤٠)، وأبو داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً (١٣٥)، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي فيه (٤٢٢)، وأحمد في مسنده (٦٦٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في المعتدي في الصدقة (٦٤٦)، وأبو داود، كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة (١٥٨٥)، وابن ماجه، كتاب الزكاة، باب ما جاء في عمال الصدقة (١٨٠٨).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور (٢٦٩٧).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧)، وابن ماجه، كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٢)، وأحمد في مسنده (١٦٦٩٤)، والدارمي، كتاب المقدمة، باب اتباع السنة (٩٥).

والصلاة ونحوهما خيراً لما ادخرها الله تعالى عن النبي ﷺ وأصحابه ، وهم أفضل الخلق ، فما كان فيهم موسوس قط .

وكان الشيخ شمس الدين اللقاني المالكي رحمه الله تعالى يقول: لو أدرك النبي ﷺ هؤلاء الموسوسين لمقتهم ، ولو أدركهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لضربهم ، ولو أدركهم أحد من الصحابة والتابعين لبدعهم وكرههم ، انتهى.

وسمعت شيخ الإسلام الفتوحي الحنبلي رحمه الله تعالى يقول: قد أتعب الموسوسون أنفسهم في ألفاظ النية التي أحدثوها ، واشتغلوا بمخارج حروفها ، ولم يصح عنه ﷺ في ذلك شيء ، إنما كان ينوي بقلبه فقط ، وكذلك أصحابه ، وكان لا يسمع منه ولا من أصحابه إلا لفظ الله أكبر لا غير ، فاستحوذ الشيطان على طائفة ، وأشغلهم بمخارج حروف النية ، ليصرف قلوبهم عن الحضور مع الله تعالى ، الذي هو روح الصلاة ، فترى أحدهم يقول: أصلي أصلي ويكرر ذلك اللفظ العشر مرات وأكثر ، ولم يتعبده الله بذلك ، وسمعته مرة أخرىٰ يقول: النية من لازم كل عاقل حاضر الذهن ، فلا يصح أن يدخل في الصلاة ويراعي أفعالها وترتيب أركانها بلا نية أبداً ، حتى لو قدر أن الله تعالى كلف العاقل بأن يصلي بلا نية لكان ذلك كالتكليف بما لا يطاق ، وتأمل الإنسان إذا ذهب إلى الميضأة يتوضأ ، تقول له: إلى أين؟. فيقول: لأتوضأ ، وإذا ذهب إلى المسجد ، تقول له: إلى أين؟ فيقول: لأصلي ، فكيف يشك عاقل مع قصده هذا أنه غير ناو للوضوء والصلاة ، هذا نوع جنون ، ثم من العجب كون الواحد من هؤلاء الموسوسين لا يتوسوس قط في فلوس تأتيه من وجه شبهة ، ولا يرد طعاماً دعاه إليه ظالم ، مع أن أكل مثل ذلك كالذي يلطخ بدنه قذراً من فرقه إلى قدمه ، فهو كمن تضمخ بالعذرة ، ثم خرج للصلاة ، ورش على ثيابه ماء الورد ، فقال له شخص: إغسل هذه النجاسات عنه ، ثم رش الماء ورد ، فقال له: تلومني على فعل السنة ، فهذا مثاله.

فاعلم ذلك ، وتأمل ما ذكرته لك في هذه النعمة ، واعمل بها ، والله يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: طيب نفسي بالقراءة على أحد من أقراني ، وإظهاري أنني من طلبته بين أصحابي ظاهراً وباطناً ، وقد عد العارفون ذلك من أكبر علامات صحة رياضة النفس ، وانقيادها للخير ، وزوال رعواناتها ، ولا أعرف الآن لهذا الخلق فاعلاً إلا القليل؛ لأنه من آخر ما يخرج من نفوس الصديقين ، ومن هنا صار غالب الطلبة يرى نفسه أعلم من شيخه ، وربما قال: إن شيخنا ذهل ما بقي يؤخذ عنه علم.

فاعلم ذلك واعمل على التخلق به ترشد والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تعظيمي لأقراني من الفقراء كلما اختفى أحدهم ، ونفر عنه الناس؛ لأنه مال إلى طريق الحق التي كان عليها السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم ، وهذا الخلق قلَّ من يتنبه له من الناس ، بل ربما نفروا عن ذلك الشيخ الذي نفر الناس عنه ، وعن الاعتقاد فيه ، وقالوا: فلان مقت ، أو رفضته الطريق ، وكل ذلك لجهل الناس بالطريق ، فصاروا لا يعظمون شيخاً إلا ما دام الخلق مقبلين عليه ، لا سيما إن نزل إليه نائب مصر لزيارته .

فإياك يا أخي أن تسلك مثل ذلك ، فتخطىء طريق الأدب ، ثم من أكبر طرق الخلفاء للفقير كثرة بيعه وشرائه ، وسعيه على الوظائف ، ومسافرته إلى بلاد الروم مثلاً في طلب جوالي أو مسموح أو غيرهما ، لكن بشرط استقامته على آداب الشريعة ، فإياك أن تطعن على من رأيته كذلك ، فقد يكون قصده بذلك ستره بين الناس ، وإيثار إخوانه على نفسه بالظهور ، ونسبة الصلاح إليهم دونه .

قلت: وقد قدمنا في هذه المنن أن الفقير كلما ترقى في مقام العرفان صار غريباً في الأكوان ، لا يكاد أحد يعرف له مقاماً ، وأن سيدي يوسف العجمي كان يدور هو وأصحابه كل يوم على واحد ، وكان يوم سيدي يوسف لا يحصل لهم إلا القليل من الطعام ، فقالوا له في ذلك ، فقال: قد ذهب كثرة المجانسة بيني وبين الخلق ، وضعفت بشريتي ، فنفروا مني لقلة مجالستي لهم في أوصاف البشرية ، بخلافكم أنتم ، بينكم وبينهم المجانسة ، فلذلك يعطونكم أكثر مما يعطوني ، وذلك وقع لشيخ الجماعة سيدي محمد ابن أخت سيدي مدين ، فنفر الناس منه آخر عمره ، حتى صار يخرج فيحمل طبق الخبز على رأسه ، ويذهب به إلى الفرن يخبزه ، ويشتري حوائجه من السوق ، ويلبس الظهور من الحرير كآحاد العوام ، حتى مات إلى رحمة الله تعالى بعد أن سلك خلائق كثيرين ، وأذن لاثني عشر رجلاً ، منهم سيدي محمد السروي ، وسيدي علي المرصفي ، وغيرهما ، رضي الله عنهم أجمعين .

فاعلم ذلك ، والله يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من أن يكون لي ديوان سر بين أصحابي أذكر فيه عجز أقراني وبجرهم ، وأفضل نفسي عليهم على التعيين ، ثم إذا جاءني أحد منهم زائراً أقوم له وأعظمه ، وأمشي معه إذ خرج إلى ظاهر الزاوية ، حتى يصير أصحابي يتغامزون على ذلك ، ثم أقول لهم: أيش أعمل ، لا يرضيهم منا إلا تعظيمنا لهم ، فاجعل نفسي شيخاً كبيراً عارفاً بالله تعالى ، سالماً من رعونات النفس ، وإني أتنزل لهم مداواة لهم ، واجعل غيري بالضد من ذلك ، وقد وقع لي ذلك مع شخص منهم ، فشيعني إلى خارج الزاوية هو وجماعته ، فلما وليت عنه ، جر قافيتي بالسوء ، فتذكرت حاجة كنت نسيتها عنده ، فدخلت

من باب المسجد الآخر ، فوجدتهم جالسين جميعاً في ذكري بالنقائص ، فكحلوا وخجلوا ، فأوهمتهم أني لم أسمع منهم شيئاً من ذلك.

فإياك يا أخي أن تفعل مثل ذلك ، ثم إياك ، فإنه من أعظم صفات المنافقين ، والمنافق لا يصلح شيخاً في الطريق ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إذا رأيت شخصاً يعصي ربه عز وجل أن لا أحتقره ، إلا إن أطلعني الله تعالى على سوء خاتمته التي يبعث عليها ، وما لم يطلعني الله تعالى على ذلك فلا أحتقره ، ولا أعتقد فيه الإصرار ، وأقول لعله تاب في سره ، أو لعله ممن لا تضره المعصية ، لاعتناء الحق به في عاقبة أمره.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: الازدراء لشيء من العالم يرجع في الحقيقة إلى صنع الله تعالى ، والازدراء بالصنع كفر ، وإنما على العبد أن يتطلب الحكمة في كل مخلوق ليوفيه حقه ، ومن احتقر شيئاً من العالم من جانب الحقيقة ، ثم ادعى الولاية فهو كاذب؛ لأن ذلك يناقض ولاية الله له ، وكيف يكون ولي الله قليل الأدب معه ، هذا لا يكون ، وفي الحديث: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[1] وقال ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**»[2] فشمل كل شيء يضر ابن آدم.

وسمعت أخي سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: كف الأذىٰ على نوعين: أحدهما ترك أذى أحد من المسلمين بالجوارح الظاهرة ، ثانيهما: كف القلب عما يخطر فيه من سوء الظن ، فإن ذلك من السموم القاتلة ، ولا يشعر به كل أحد ، لا سيما سوء الظن بالأولياء والعلماء ، وحملة القرآن ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: رب قطيعة جلبت وصالاً ، وربما كان على العبد بقية من تقديرات الحق تعالى عليه فتحجبه تلك الزلة عن الوصول إلى ما يطلبه من المقامات ، ويصير يتحسر على تلك المقامات ، ويتوقى الوقوع في تلك المخالفات التي بقيت عليه ، حتى يوقعه الحق تعالى فيها بقضائه ، فيتوب إلى الله تعالى ، ويلجأ إليه فيعطيه الله تعالى تلك المقامات ، فأقروا ما أقره الشرع ، ولا تحتقروا أحداً بحكم الطبع ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: كل من لم يطلعك الله تعالى على أنه عدو لله تعالى فليس لك معادته ، وأقل أحوالك إذا جهلت أن تهمل أمره ، فإذا تحققت أنه

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب تفاضل الإسلام وأي أموره خير (٤١).

(٢) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الأحكام ، باب من بنى في حقه ما يضرُّ بجاره (٢٣٤٠) ، وأحمد في مسنده (٢٨٦٢)

عدو لله ، وليس ذلك إلا المشرك ، فتبرأ منه ، كما فعل ذلك إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في حق أبيه.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله تعالى يقول: لا تعادوا أحداً بالإمكان ، وانكروا عليه فعله لا عينه ، بخلاف من أطلعكم الله على سوء عاقبته ، فاكرهوا عينه ، ولا تتبرؤوا ممن لم يطلعكم الله على حكمه عنده ، اعتماداً على ما ظهر منه من قبيح الأعمال ، وإن كان عدواً لله في نفس الأمر ، فإن تبرأتم منه خاصمكم الاسم الظاهر عند الله تعالى ، وسمعته مرات يقول: كل من لم تعلموا باطن حاله من المسلمين فوالوه ، فإنه مسلم على كل حال ، انتهى.

فاعلم ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم سبي للسكران أو ضربه ، إذا طلع المسجد ، وإنما أسعى في إخراجه منه برفق ورحمة ، خوفاً أن يتقيأ فيه أو يحدث ، وقد خالف هذا الخلق كثير من فقراء الزوايا ، فسبوا السكران ، وضربوه حال سكره ، وذلك ممنوع شرعاً ، ثم إنه لا فائدة فيه ، ولا يحصل به زجر ، فإن الزجر إنما يحصل للصاحي الذي يعلم ما يفعل به ، وأما غائب العقل فلا يحصل له زجر لعدم شعوره ، على أنه ليس لأحد من الفقراء أن يحد سكراناً إلا إذا ولاه ولي الأمر ذلك ، ومتى ضرب أحداً من السكارى عزر.

وقد مسك جماعة الوالي مرة شخصاً رأوه طالعاً إلى الزاوية وهو سكران ، فقال لهم: أنا من جماعة شيخ الزاوية ، فجاء واحد من الجبلية وقال: هل هو من جماعتكم؟ فتحيرت؛ لأني إن قلت هو من جماعتي أساءوا الظن ببقية الجماعة وإن قلت لا أخذوه إلى بيت الوالي ، فألهمني الله تبارك وتعالى أن أسأله تعالى أنهم يتركوه من ذات نفوسهم ، فتركوه ، ومنعت الجماعة أن يضربوه ، ووضعته في مخزن حتى حصل له الصحو ، ولكثرة رحمتي وشفقتي للعصاة صار بعض الجهلة يقول: إني أسامحهم في ارتكاب المعاصي، وهو كذب وافتراء ، وكيف أسامح عبداً بما يسخط الله عليه وعليّ.

وقد كان المسيح عليه الصلاة والسلام يقول: «**لا تعيروا أحداً بذنب يذنبه ، فإنما الناس قسمان مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واشكروا الله على العافية**» انتهى. وقد رأى سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه شخصاً يتمايل أوائل سكره ، فنظر إليه شزراً فقال له: يا عبد القادر: قادر على أن ينقل إليك ما بي ، فأطرق الشيخ رأسه ، وشكر الله تعالى على العافية.

فعلم أنه لا ينبغي لأحد أن يرفع ذلك السكران إلى حاكم بعد صحوه من سكره ، لاحتمال توبته ، كما أنه ليس لأحد أن يتجسس على العصاة ليطلع على ما يفعلونه في بيوتهم ، وفي

بعض طرق حديث هزال لما رأى رجلاً عند زوجته ، وشكاه إلى النبي ﷺ فقال له: «**هلا سترته بثوبك**»[1].

وجاء رجل إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما ، فقال: إن لي جيراناً يشربون الخمر في بيوتهم ، وقد عجزت عن نصحهم ، فلا يتوبون ، وأنا داع الشرط إليهم ليأخذوهم ، فقال له: عبد الله لا تفعل ، ودم على نصحك لهم ، انتهى.

فاعلم ذلك ، وارحم الخلق ، فإن من لا يرحم لا يرحم ، والله يتولىٰ هداك وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: اهتمامي بأمر الضيف ، وكثرة سؤالي عنه وقت الغداء والعشاء ، مع كوني مشتغلاً عنه بأمور كثيرة يعرفها أصحابي ، من تحمل هموم الناس ، وتأليف كتب العلم ، وخدمة الفقراء القاطنين عندي ، والسعي في شأن المرصدين لتهيئة ما يأكلون ، من غربلة القمح وطحنه وعجنه وخبزه ، وتهيئة أمر طعام يكفيهم كل يوم ، وغير ذلك مما يستغرق كل أمر منها النهار ، وكل ذلك عناية من الله تعالى بي.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول: وعزة ربي معي سبعون وظيفة ، وستقسم بعدي على سبعين رجلاً ، ويعجزوا عنها ، انتهى.

ولو لم يكن إلا تلقي الواردين عليّ في الزاوية كل يوم وليلة لكان فيه كفاية ، حتى أن بعض العلماء قال لي: أنا أتعجب من تأليفك لكتب العلم مع اشتغالك بهذه الأمور التي في الزاوية ، فإن المؤلف عادة لا يكون إلا في مكان خال ليجتمع فكره ، فقلت له: ذلك من فضل الله تعالى عليّ.

ثم لا يخفى أن من توابع خدمة الضيف إعلامه بجهة القبلة ليصلي إليها ، وإعلامه ببيت الخلاء ، وتهيئة ماء عنده للشرب والاستنجاء والوضوء ، وإعلامه بدخول وقت الصلاة ، وتلقيه بالترحيب.

وقد ورد «**أن للقادم دهشة فتلقوه بالترحيب**»[2] انتهى.

وتقدم في المنن السابقة: إيضاح ما يتعلق بالضيف والضيافة ، وأن كل من تكلف لضيف هرب من لقائه ، ولو على طول.

ذكر الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه في رحلته إلى الإمام مالك رضي الله تعالى عنه

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الحدود ، باب في الستر على أهل الحدود (٤٣٧٧) . وأحمد في مسنده (٢١٣٨٣) ، ومالك ، كتاب الحدود ، باب ما جاء في الرجم (١٥٥٣).

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٢١٧٦)

قال: لما نمت عند الإمام مالك رحمه الله تعالى بالمدينة ، أدخلني مكاناً في بيته ، وأرسل لي غلاماً ، فقال لي: القبلة من هذا البيت هكذا ، وهذا إناء فيه ماء ، وهذا الخلاء من الدار ، وأشار إليهم ، ثم دخل علي مالك ومعه غلام حامل طبقاً ، فوضعه من يده وسلم عليّ وقال للعبد: اغسل علينا ، فوثب الغلام إلى الإناء وأراد أن يصب عليّ أولاً ، فصاح به مالك وقال: الغسل في أول الطعام يكون لرب البيت ، وفي آخر الطعام للضيف ، فرآني ناظر إلى حكمة ذلك ، فقال: لأن صاحب الطعام يدعو الناس إلى كرمه ، فحكمه أن يبتدىء بالغسل ، وفي آخر الطعام ينتظر من يدخل ليأكل معه.

قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: فاستحسنت ذلك من الإمام مالك رضي الله تعالى عنه ، ثم أكلت أنا وإياه ، فأتينا على جميع الطعام ، وعلم مالك أني لم آخذ من الطعام الكفاية ، فقال لي: يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معذر ، فقلت: لا عذر على من أحسن ، إنما العذر على من أساء.

فلما صلينا العشاء في مسجد رسول الله ﷺ ، سألني عن بعض أحوال أهل مكة ، ثم قال: حكم المسافر أن يحل تعبه بالاضطجاع ، قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه : فلما كان الثلث الآخر من الليل ، قرع مالك عليَّ الباب ، وقال: الصلاة يرحمك الله تعالى ، فانتبهت فإذا هو حامل إناء فيه ماء ، فشق ذلك عليّ ، فقال: لا يروعك ما رأيت مني ، فإن خدمة الضيف فرض ، ولما أردت السفر من عنده عمل لي طعاماً فأكلناه ، وزودني صاعاً من تمر ، وصاعاً من أقط ، وصاعاً من شعير ، وسار معي يشيعني إلى البقيع ، ثم أكرى لي راحلة إلى الكوفة ، وأعطاني صرة فيها خمسون ديناراً ، وودعني وانصرف ، انتهى.

فتأمل يا أخي إلى هذه الآداب ، واعمل بها ترشد ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم استكثاري على علماء الزمان شيئاً من أمتعة الدنيا أو وظائفها فإن ذلك من توابع ناموس العلم ، ولا أقول كغيري قل أن يسلم من اتسع في الدنيا من الشبهات والحرام إلا إذا كان ذلك في مناقشتي لنفسي بل أقول: هم أعلم بالحلال والحرام مني ، وقد كان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: لا بد للعالم من مال وجاه ، حتى لا يذل لأحد من الخلق ، ولا يحتاج إليه ، انتهى.

وذكر الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه في رحلته إلى العراق ، قال: لما قدمت العراق اجتمعت بمحمد بن الحسن في الجامع ، فعزم على أن آتيه منزله ، فأجبته إلى ذلك ، فقدم إلي بلغته بسرج محلى بالذهب ، حتى أتيت إلى منزله ، فرأيت أبواباً عراقية ، ودهاليز منقوشة بالذهب والفضة ، فذكرت ما فارقت عليه مالكاً رحمه الله تعالى من ضيق المعيشة ،

وبكيت ، فقال لي محمد بن الحسن : لا يروعك يا أبا عبد الله ما رأيت ، فما هو إلا من حقيقة حلال ، ومكسب ، وإخراج زكاة مالي كل سنة ، وما أظن أن الله تعالى يطالبني بفرض فيه ، ونعم المال للرجل يسر به الصديق ، ويكمد به العدو.

قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: ثم إنه كساني خلعة بألف دينار ، فلما أردت السفر زودني ثلاثة آلاف درهم ، وعرض علي أن أشاطره في جميع ماله فأبيت ، ثم إني اجتمعت بالزعفراني ، فرأيته في دنيا واسعة ، فأعطاني أربعين ألف درهم لما عزمت على السفر ، وعرض علي أربع ضياع له ، وقال: قد سمحت لك بها ، فلم أقبل ، فورد جماعة من الحجاز فسألتهم عن مالك ، فذكروا لي أن الله تعالى وسع عليه في الدنيا ، وأنه صار له ثلاثمائة وستون جارية ، ينوب إحداهن منه في السنة ليلة واحدة.

قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: فلما سافرت إلى الإمام مالك ، ودخلت المدينة وافيته في المسجد في صلاة العصر ، فصليت معه ، ثم نظرت إلى كرسي من حديد ، وعليه مخدة من قباطي مصر ، مكتوب عليها بالحرير: لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وحول الكرسي أربعمائة دفتر أو يزيدون ، فبينما أنا كذلك إذ رأيت مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قد دخل من باب النبي ﷺ ، وقد فاح عطره في المسجد ، يحمل أذياله أربعمائة ، فلما وصل إلى الكرسي قام الحاضرون كلهم له ، وجلس على الكرسي ، فألقى مسألة في جراح العمد ، فما زال يتكلم في العلم ويستدل حتى نزل من الكرسي ، فقمت وسلمت عليه ، فضمني إلى صدره ، ثم امسك بيدي ، وأتى بي إلى منزله ، فرأيت بناء غير البناء الأول الذي كنت أعهده قبل رحلتي إلى العراق ، فبكيت ، فقال لي: مالك؟ مما بكاؤك؟ كأنك يا أبا عبد الله ظننت أننا بعنا الآخرة بالدنيا ، طب نفساً ، وقر عيناً ، هذه هدايا خراسان ، وهدايا مصر ، تجيئني من أقصىٰ البلاد ، وقد كان النبي ﷺ يقبل الهدية ، ويرد الصدقة ، وإن لي ثلاثمائة خلعة من خراسان ، وثلاثمائة خلعة من قباطي مصر ، وعندي من العبيد مثلها ، وهي كلها هدية مني إليك ، وفي صناديقي تلك خمسمائة ألف دينار ، أخرج زكاتها كل حول ، نصفها هدية مني إليك ، فقلت له: إنك موروث وأنا موروث ، وما جئتك لمثل ذلك ، فتبسم مالك رضي الله عنه في وجهي ، وقال: أبيت إلا العلم ، فلما أردت السفر إلى مكة خرج معي ماشياً حافياً ، فقلت له : ألا تركب دابة؟ فقال : أستحي من رسول الله ﷺ أن أطأ مكان قدمه بحوافر دابتي.

قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: فسررت بذلك ، وعلمت أن ورعه على حاله لم ينقص ، وأن كثرة المال للعلماء لا يضرهم إن شاء الله تعالى ، وأعطاني مالاً جزيلاً ، فلما وصلت إلى مكة فرقته على بني عمي بإشارة أمي ، خوفاً علي أن أفتخر عليهم.

ولما بلغ مالكاً ذلك استحسنه مني ، ووعدني بأنه يرسل لي كل سنة مثل ما وصل إليّ منه.

قال: وأقام مالك رضي الله عنه يحمل إلي كل سنة من المال ما يكفيني إحدى عشرة سنة ،

فلما مات مالك إلى رضوان الله ورحمته ضاق علي الحجاز ، فخرجت طالباً أرض مصر ، فعوضني الله تعالى ابن عبد الحكم ، فقام بكفايتي في مصر ، انتهى. فقد علمت يا أخي أن ناموس العلماء لا يتم إلا باتساع الدنيا عليهم كالملوك ، فكما ينفق الملك على جنده ، كذلك العالم ينفق على طلبته ، وكما أن الجند يحفظون دين الإسلام من العدو الظاهر ، فكذلك طلبة العلم يحفظونه من العدو الباطن ، وأن كمال الدين لا يحصل إلا بالملوك والعلماء.

وكذلك بلغنا عن الإمام أشهب صاحب مالك ، أنه كان في سعة من الدنيا ، وكانت معيشته كمعيشة الملوك ، وكانت بلاد جيزة مصر إقطاعاً للإمام الليث بن سعد رضي الله تعالى عنه ، وكان خراجها كل سنة مائة ألف دينار ، ولم تجب عليه زكاة قط.

وكان الفخر الرازي له ألف مملوك خلاف الجواري ، والخدم ، والخيل ، فإياك يا أخي أن تعترض ولو بقلبك على أحد من علماء زمانك ، إذا تشبه بالإمام مالك أو غيره من العلماء السابقين ، في توسعة الدنيا وملابسها ومراكبها ، فإن ذلك من الجهل بك ، فإن العلماء والأولياء على أقدام الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فمنهم من كان له مال ، ومنهم من لا مال له ، كسيدنا سليمان ، وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام ، ومن الأولياء كسيدي عبد القادر الجيلي ، وسيدي مدين ، وسيدي إبراهيم بن أدم ، وسيدي أحمد الزاهد ، رحمهم الله تعالى ، فكل واحد منهم قائم بمرتبة هو كامل فيها لا تضره سعة الدنيا عليه ولا ضيقها.

فإياك يا أخي أن تعترض على مثل سيدي محمد البكري ، أو على سيدي محمد الرملي ، إذا ركبا الخيول المسومة أو لبسا الثياب النفيسة ، فإن ذلك اعتراض بالجهل ، وحسد منك ، وأظنك أنه لو حصل لك ما هما فيه من الدنيا ما كنت ترده أبداً ، وما حث الأكابر أصحابهم على الزهد في الدنيا إلا خوفاً عليهم من ذل الطمع لا غير ، وإلا فلو جاءتهم الدنيا بغير طمع ولا ميل كان من الأدب مع الله تعالى قبولها.

وما رأيت سيدي محمداً البكري ولا والده ذلا قط في طلب دنيا ، إنما تأتيهما الدنيا بغير سؤال ، فإني مخالط لهما من صغري إلى الآن ، فالله تعالى يفسح في أجل هذين المحمدين للإسلام والمسلمين ، ويكثر عليهما الدنيا والطلبة ، ويحشرنا في زمرتهما ، آمين ، فاعلم ذلك والله تعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: رؤيتي محاسن أعمال العلماء والصالحين ، وسائر المسلمين ، اعتماداً على رؤية ظاهر أعمالهم ، ولا أتعرض للحكم على باطنهم إلا بخير؛ لأن الله تبارك وتعالى لم يكلفنا بالحكم على بواطن الخلق ، وجعل ذلك من خصائصه تعالى ، فهو العليم بذات الصدور ، فاعلم أنه لا يجوز لنا أن نقول عن عالم أو صالح بعيد إن مثل هؤلاء يسلمون من الرياء والنفاق ، قياساً على ما نجده نحن في نفوسنا من المقاصد الخبيثة ، فإنه قياس فاسد ، وهذا الخلق غريب من المتقدمين والمتأخرين ، بل رأيت كتاباً لبعض

المتقدمين ، ذكر فيه عجز أهل زمانه من العلماء وبجرهم بأمارات وقرائن ، يفهم منها التعيين لأحدهم ، وسماه «**الكشف والتبيين في بيان غرور الخلق أجمعين**».

فإياك يا أخي أن تقصد بتبيينك علل الأحكام ، ودسائس النفوس أحداً من أهل زمانك على التعيين ، ولو بالقرائن ، فتفتح للناس باب غيبته وتنقيصه ، وقد كان ﷺ إذا وعظ لا ينص على أحد بعينه ، وإنما يقول «**ما بال أقوام يقولون كذا أو يفعلون كذا**»(١) ونحو ذلك ، وإياك أن تقول في أحد من علماء زمانك وصلحائه ، إن فلاناً مغرور ، أو مفتون ، أو تائه عن الطريق ، إلا بطريق شرعي.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا رأيتم من أحكام العلم والعمل الظاهر ، فعمل الطاعات ، وترك المعاصي ، فإياكم أن تظنوا به أنه متخلق بالأخلاق المذمومة عند الله تعالى ، كالكبر ، والرياء ، والحسد ، وطلب الرياسة ، والعلو ، والشماتة بمصائب الأقران ، ومحبة طلب الشهرة في البلاد والعباد بالصلاح والزهد فإن ذلك حرام عليكم.

وفي الحديث: «**إذا رأيتم من أخيكم حسنة فاعلموا أن لها عنده أخوات**»(٢) انتهى.

وسمعته رضي الله عنه يقول أيضاً: إذا رأيتم من يقرر لكم أمراض الباطن ، ويذكر لكم دواءها ، فإياكم أن تظنوا به العجب بذلك ، أو أنه يظن بنفسه السلامة منها ، أو أنه يتكدر ممن ظهر من أقرانه ، وانقلب الناس إليه ، أو أنه يتكدر ممن صار يشفع عند الحكام الذين كان يشفع هو عندهم ، وصاروا يردونه ، ولا يقبلون له شفاعة ونحو ذلك ، بل احملوه على أحسن المحامل ، ولا تقيسوا حاله على حالكم لو وقع لكم ذلك ، فإنه سوء ظن بي ، وكذلك إذا رأيتم من أحكم العلوم الشرعية ، وطهر الجوارح من سائر المعاصي ، وزينها بالطاعات ، وتفقد أحوال النفس ، وصفاتها الرديئة حسب طاقته ، فإياكم أن تقولوا إنه مغرور؛ ولو فتش نفسه لوجد عنده بقايا نفاق ، وحب محمدة ورياء ، وغير ذلك ، كما يقع فيه كثير من حذاق الوعاظ ، قياساً على أنفسهم بل سلموا له حاله الظاهر ، وكلوا قلبه إلى الله تعالى ، وليس لكم مزاحمة الباريء جل وعلا في قلبه ، وإذا رأيتم من أفنى عمره في تحصيل علم الفتاوى والخصومات ، وفصل المعاملات الجارية بين الخلق لمصالح معاشهم ، وخصص اسم العلم الشرعي بذلك دون غيره ، فإياكم أن تقولوا: إنه مغرور ، ولأنه لم يغتر بكثرة الأعمال الظاهرة والباطنة ، ولم يتفقد جوارحه الظاهرة أو الباطنة من وقوعها في الغيبة والنميمة ، وأكل الحرام ، والحسد ، والرياء ، وسائر المهلكات ، بل ظنوا به الخير ، فإنه لم يقم أحد

---

(١) أخرجه النسائي ، كتاب النكاح، باب النهي عن التبتل (٣٢١٧) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في حسن العشرة (٤٧٨٨).

(٢) لم أجده.

من الأمة بجميع ما كلف به أبداً إلا النادر فيما نظن ، بل إن رجح من وجه خف من وجه ، سواء الفقيه والصوفي ، وإن شككتم في قولنا هذا ، فأرسلوا الأخصام إذا تنازعوا للمتعبدين في الزوايا ، وأرسلوا المتعبدين في الزوايا للقضاة ، يشكوا أمراض أعمالهم ، تجدوا كل واحد يخل بالقيام بوظيفة الآخر ، فإن الجامع بين علم الشريعة والحقيقة في كل عصر أعز من الكبريت الأحمر ، ولو فتش من نسب الناس إلى الغرور ، لوجد نفسه مغروراً كذلك ، لحديث «**إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم**»[1] ، انتهى.

وإذا رأيتم من أفنىٰ عمره في علم الكلام ، فإياكم أن تقولوا إنه مغرور؛ لأن إيمان جميع العوام صحيح ، ولو لم يعرفوا ما قاله المتكلمون بل اشكروه؛ لأنه ربما قام لنا مدع يجادل في الشريعة ، فيكون هذا مستعداً له بقطع الحجج ، لا سيما والزمان قابل لمثل ذلك ، كلما قربت الساعة ، كما وقع أمس لمن قال: ائتوني بدليل على أفضلية محمد ﷺ على غيره ، فإنه ما بلغنا طول عمرنا أن أحداً طلب على ذلك دليلاً ، وإذا رأيتم واعظاً يدعو الناس إلى الخير ، فإياكم أن تظنوا به أنه لا يعمل بما يقول ، بل ظنوا به أنّه متصف به ، وأنه متصف بجميع ما دعاكم إليه ، وأنه ما دعاكم إلى الإخلاص إلا بعد أن أخلص ، ولا إلى الزهد إلا بعد أن زهد ، وغير ذلك ، وكذا إذا رأيتم من يختم القرآن كل يوم ، فإياكم أن تقولوا: إنه لا فائدة في ذلك لعجزه عن العمل به ، والتفكر فيه ، بل أثبتوا له الثواب بمجرد تلفظه بحروف القرآن ، وفتشوا نفوسكم تجدوها لا تقدر على العمل بكل ما قرأت ، فكما تعذرون نفوسكم فاعذروا غيركم ، وبالجملة فما من أحد من الأمة يعمل عملاً من الأعمال إلا والله تعالى عليه فيه الحجة ، من حيث تقصيره فيه ، حتى الصوم والحج والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمجاورة بمكة والمدينة ، والزهد ، وسائر مقامات الطريق ، كما هو مبسوط في ربع المهلكات من كتاب الإحياء ، فراجعه ، والله يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تفتيش نفسي كل يوم وليلة بالتوبة من كل صفة مذموم رأيتها فيّ ، لا سيما إن قمت إلى الصلاة ، من حسد ، ومكروه ، وبغي ، وخداع ، وغش ، ونفاق ، ورياء ، واحتقار للناس ، ونحو ذلك ، فإن مثال من يقوم بهذه الأمور بين يدي الله عز وجل ، مثال من لطخ ثوبه وبدنه بعذرة ودم وقيح ، ثم وقف بين يدي السلطان ، ولله المثل الأعلى ، فهو لا يأمن من العقوبة لازدرائه بحضرة الملك ، ومن هناك لبست الأكابر والثياب النفيسة المبخرة أدباً مع الله تبارك وتعالى في الصلاة ظاهراً ، ثم استغفروا من الصفات القبيحة المركوزة في باطنهم ، عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلاة والآداب، باب النهي عن قول هلك الناس (٢٦٢٣)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب لا يُقال خبثت نفسي (٤٩٨٣)، وأحمد في مسنده (٧٦٢٨).

ﷲ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. كل ذلك لتكمل لهم الطهارة باطناً وظاهراً.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يتفقد كل عضو عند غسله ، ويتوب مما جناه به ، وما رأيته يخل بذلك قط.

فاعلم يا أخي ذلك ، واعمل به ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم أكلي شيئاً أو شربي له إذا ركبت حمارة أو غيرها بالكراة ، أو عارية مدة غيبتي بها عن صاحبها لكوني أصير بالأكل والشرب أثقل مما كنت حال استئجارها أو عاريتها ، ثم إن وقع أنني أكلت أو شربت شيئاً فلا بد من إعلامي صاحبها بذلك ، واستحلالي منه ولو بزيادة الأجر ، ثم أقبل رأس الحمارة مثلاً ، واعتذر لها ، فإنها كما قال أهل الكشف ، تدرك من يفعل معها خيراً ، ومن يفعل معها شراً ، ولكنها لا تنطق ، وما سميت البهائم بالبهائم لإبهام الأمور عليها في نفسها ، وإنما ذلك لإبهام أمرها على المحجوبين ، فما هي ناقصة عنا إلا النطق فقط ، وتأمل القطة لما ترمي لها قطعة لحم كيف تأكلها قريبة منك ، لعلمها برضاك ، وإذا خطفت هي شيئاً كيف تهرب به ، وتعدو عنك إلى ظهر البيت ونحوه مما لا يصل إليه الإنسان غالباً إلا بعسر ، فعلم من باب أولىٰ أني لا أردف أحداً معي على دابة استأجرتها أو استعرتها بغير إذن صاحبها ، وكذلك لا أردف ثقيلاً ولو رضي صاحب الدابة ؛ لأن الحق في ذلك لله وللدابة لا لصاحبها.

وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقف في طريق السوق ، فكل دابة رأىٰ فوقها ما تعجز عنه عادة يخففه عنها ، وربما ضرب صاحبها بالدرة تعزيراً له على ما صنع.

فاعلم ذلك ، واعمل به ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عملي بالأمور التي علق الله عز وجل عليها زيادة العمر ، أو الرزق أو الموت على الإيمان ، أدباً مع الله تعالى ، ولا أترك العمل بذلك ، وأقول: إن كان سبق في علم الله تعالى زيادة عمري أو رزقي أو موتي على الإيمان فهو واقع لا محالة ، كما عليه طائفة ممن ادعوا الطريق بلا شيخ ، فإن ذلك في غاية الجهل ؛ لأن الله تعالى رتب الأسباب على المسببات ، وألزم الخلق كلهم رق الأسباب ، فلا يصح لأحد أن يخرج عن ذلك كما هو مشاهد ، ومن أدب العبد امتثال أمر سيده ، وأن يدور معه حيث دار فإذا قال له لا أغفر لك إلا إن قلت كذا وكذا ، فليس له أن يقول اغفر لي بلا قول ذلك ، وقس عليه.

وسمعت سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله تعالى يقول: كان لأبي إدريس الخولاني مجلس وعظ ، وكان الخضر عليه السلام يحضره ، ويحادثه إذا فرغ من المجلس ، فقال له أبو إدريس يوماً: يا نبي الله أي عمل إذا عمله العبد أماته على الإيمان؟ فقال الخضر عليه السلام: أدركت مائة ألف نبي ، وسألتهم عن ذلك فلم يجيبوني ، حتى أدركت محمداً ﷺ فسألته عن ذلك ، فقال: من صلّى صلاة الفجر وقرأ آية الكرسي و﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. إلى آخر السورة و﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى قوله: ﴿ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٢٧]. انتهى.

وذكر صاحب بستان العارفين رحمه الله تعالى ، عن عمر أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عما يحفظ على العبد الإيمان ، فقال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يحفظ الله عليه الإيمان حتى يلقاه يوم القيامة ، فليصل كل ليلة بعد سنة المغرب قبل أن يتكلم ركعتين ، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وسورة الإخلاص ست مرات ، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] مرة ، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] مرة ، ويسلم منهما ، فإن الله تعالى يحفظ عليه الإيمان حتى يوافي به يوم القيامة**»[1] زاد في رواية أخرىٰ أنه يقرأ «**إنا أنزلناه في ليلة القدر مرة قبل قراءة قل هو الله أحد ، فإذا سلم سبح الله تعالى خمس عشرة مرة**»[2]

فعليك يا أخي بالمواظبة على ذلك وأمثاله ولا تمل من الخير تجن ثمرة ذلك سروراً يوم القيامة ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة توجهي إلى الله عز وجل في حفظ عمل كل من بات عندي في مولد عملته عن النقص أو الإحباط ؛ وذلك لأنه قد يكون في طعامي شبهة ، فإذا أكله من بات عندي أظلم باطنه ، فلا يفي طعامي بما حصل له من ظلمة القلب ، وربما وقع الحاضرون في غيبة فيّ ، أو في جماعتي من حيث طعم الطعام ، أو من حيث ما رأوه من النظام ، فربما لا يفي سماعهم لما سمعوه من القرآن بما ارتكبوه من الآثام ، فصرت أنا وإياهم من الخاسرين ، ولو بعدم الأجر في الجملة ، فكان ترك عمل ذلك المولد أولىٰ وأفضل ، لا سيما إذا عملنا في أيام تكدر السلطان من عدو للإسلام أراد دخول بلاده من الكفار أو الروافض ، فإن ذلك في غاية ما يكون من سوء الأدب معه ، إلا أن يكون قصد صاحب المولد أن يهدي ما قرىء من القرآن في صحائف مولانا السلطان ، ويدعو له بالنصر ، فمثل ذلك لا بأس به ، بشرط سلامة أهل المولد من فراغ القلب عن الاهتمام بهم المسلمين ،

---

(١) لم أجده.
(٢) لم أجده.

ومما يدل على فراغ القلب غالباً وجود الضحك والغفلة عن الله عز وجل ، وعدم وقوع ذلك عزيز في الموالد.

وقد عملت عقيقة لابنتي حسنى فلم أحضر عند المقرئين ولا عند المداحين ، بل بت متوجهاً إلى الله تعالى في أن يحفظني ، ومن حضر مولدي من الإثم ، فربما كان قصدي بعمل الطعام ، وجمع الناس مرجوحاً ، لإخلالي بشرط من شروط القبول ، وربما دخل الرياء على المقرئين والمداحين في تلك الليلة لأجل حضور من يستحيي منه عادة فيعجب القارىء أو المادح مثلاً بنفسه ، لا سيما عند قول الناس: فلان داخل ، أو قراءاته عليها أنس ، أو مدحه عليه أنس ، ونحو ذلك ، فربما حبط عمله ، وأنا كنت السبب في ذلك ، ثم إن المقصود من الحضور إنما هو أكل الطعام لا غير ، وأما الوعظ والمدح فذلك أمر زائد عادة بحكم الطبع ، والغالب فيه غرامة الفلوس ، وحظ النفس ، ولذلك كان الغالب على عدم حضور ذلك ، وعدم إشارتي بعمله ، وإنما الإخوان يفعلون ذلك برأيهم ، فأوافقهم مداواة لعقولهم ، كما درج عليه السلف الصالح وأسارقهم بالنصيحة في آداب ذلك ، ثم إن خرجت إليهم فلا يكون ذلك إلا بشرط أن يغلب على ظني سهر الناس تلك الليلة ، أو سهولة نومهم ، ومد رجلهم ، ووضع جنبهم إلى الأرض بحضرتي ، فإن غلب على ظني احتشامها مني ، وتكلفهم السهر ، أو عدم اضطجاعهم في الأرض مثلاً ، لم أخرج إليهم رحمة بهم ، وربما يكون أحدهم له شغل بكرة النهار لا يقدر على تفويته من مباشر ، أو محترف صاحب عيال ، فيصبح والنوم غالب عليه ، فإن عمر الحرفة ذلك اليوم شق عليه ذلك ، وإن تركها يحتاج إلى شيء ينفقه على عياله ، وما ثم إنصاف من الشيخ صاحب المولد فيعطيه ما يكفيه من الطعام ، أو الدراهم مدة تعريقه عنده ، بل الغالب تكليف من يبيت عنده النقوط للمداحين ، ثم لا يلتفت إليه ، وربما ادعى أنه مريده فلا يشكر فضله على ذلك النقوط ويقول: المريد لا يرىٰ له ملكاً مع شيخه ، وما عند أهل الجنة خير من أهل النار ، وإنما لم أمتنع من موافقتهم في عمل المولد الذي سألوني فيه ، لشهودي أن جميع ما هو بيدي أو باسمي من الدينار إنما هو لهم ، ومنعهم من التصرف في أموالهم في مثل ذلك لا ينبغي ، لأنه من أفعال البر في الجملة ، والإثم فيه غير محقق ، ثم ينبغي لصاحب المولد إذا لم يخرج تلك الليلة إلى المقرئين والمداحين لعذر من الأعذار ، أن يتوجه إلى الله تعالى في حفظهم من الوقوع في غيبته ، والاعتراض عليه ، فإنهم غائبون عما قصده بعدم خروجه لهم من راحتهم ، أو عدم سهرهم ، أو عدم اضطجاعهم عند النوم بحضرته ، ونحو ذلك.

وهذا واقع كثيراً ، فيقول بعضهم: لو أنه خرج إلى الناس لكان أولىٰ . ويقول بعضهم: هذا قيام ناموس له ، ومثل ذلك لا يليق بالفقراء ، ونحو ذلك ، فيصير كل إنسان يريد منه حالة دون أخرىٰ ، كما وقع لي ، مع أني ما امتنعت من الخروج إليهم إلا رحمة بهم .

لاشتغالي بالتوجه إلى الله تعالى في حفظهم من الوقوع في الرياء ، وحب المحمدة ، ونشر الصيت بحسن القراءة ، أو الدخول ، والأنس بسماعهم ، مع أنه ليس من عادتي قط أن أدعو أحداً إلى حضور مولد إلا إن علمت سلامتي وسلامته من الآفات ، بالقرائن التي هي إحدى الأدلة ، وإنما الناس يتسامعون بمولدنا فيحضرون.

وكثيراً ما يدعي بعض أهل النفوس من أهل الكبر فلا يقوم له أحد إذا دخل ، فيندم على الحضور ، ثم يصير يقطع في عرض صاحب المولد الشهر كله ، وأكثر وربما كان غضبه من عدم قيام صاحب المولد ، أو صاحب الوليمة له بخصوصه ، وربما كان الحادث لصاحب الوليمة على القيام له ظنه فيه الخير ، وأنه غائب عن التلف إلى مثل ذلك.

وقد دخل علي مرة فقيه وعندي بعض مشايخ العرب ، وأنا مقبل عليه أداويه بكلام طيب ، لأجل حوائج الناس ، والشفاعة في المظلومين عنده ، فلم أقم لذلك الفقيه ، فخرج يهجوني نحو خمس سنين في المجالس ، ويقول: مثلي يدخل عليه فلا يقوم له ويقبل على ظالم ، ولكن أنا الظالم الذي أزور مثل هذا الرجل ، فمثل هذا كان عدم زيارته لنا أولىٰ في حقه ، ولم يزل الفقراء يفعلون مثل ذلك مع الظلمة ، بقصد تليين قلوبهم لقبول الشفاعات في المظلومين عندهم ، وأما الفقراء ، وطلبة العلم ، فالناس آمنون من شرهم ، في الغالب فلا يحتاجون إلى مداواة ، وكان على هذا القدم سيدي عبد القارد الدشطوطي رحمه الله تعالى فكان إذا رأىٰ أحداً من جند السلطان أقبل عليه وضمه إلى صدره ، دون أن يفعل ذلك مع الفقير ، فكان الناس ينكرون عليه ذلك ، ويقولون: لو كان ولياً لله عز وجل لكان يعظم الفقراء ، وقد بلغه يوماً أن جماعة من الفقراء أنكروا عليه ذلك، فقال: يا أولادي إن هؤلاء الجند يظلمون الناس ويؤذونهم ، فنظر لهم الود والمحبة لقبول شفاعتنا في المظلومين عندهم ، وأما الفقراء فالناس آمنون من شرهم ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ليحذر من يعمل مولداً في المسجد من تقذيره بالطعام الذي يعف عليه الذباب على الحصر أو البلاط ، فإن في ذلك قلة احترام لجناب الله عز وجل ، وليتأمل صاحب المولد لو كان المسجد قصراً لملك من ملوك الدنيا ، هل كان يفعل ذلك المولد فيه ، ويقذر حصره وبلاطه بالطعام ، والحفاة الذين يخرجون في الوحل حول المطبخ ثم يدخلون المسجد لنقل الطعام ، أو غير ذلك ، لا والله ما كان يفعل ذلك ، بل كان يحترم جناب ذلك الملك ، فجناب الله تعالى أحق بالتعظيم ، انتهى.

ثم إن الغالب على الطباخين ، ومن يقف على المطبخ من جماعة صاحب المولد إذا كانوا قليلي الدين إخراج الصلاة عن وقتها ، وتأخرها عن أول الوقت ، مدة اشتغالهم بالطبخ ، فينبغي لصاحب المولد أن ينبههم للصلاة ، ولا يغفل عنهم ، لئلا يكون طعامه مشوباً بمعاصي الله عز وجل ، وليس اشتغالهم بطبخ الطعام عذراً في إخراج الصلاة عن وقتها ، إنما

هو عذر في عدم حضور الجماعة فقط إن خيف تلفه.

وبالجملة، فقل مولد أو جمعية يخلو الآن من معصية تقع من الحاضرين، وربما يحضر بعض الناس فيأكل طعام صاحب المولد، ويخرج يعترض على طعامه، أو على نظامه، كما تقدم، فينصرف محتملاً ذنوباً فوق ذنوبه، فلينظر صاحب المولد لما عليه، ولا ينظر للذي له، لعله يخرج كفافاً بعد ذلك التعب العظيم، لا له ولا عليه.

فافهم ذلك، والله يتولىٰ هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم ظني النجاة في طاعة من الطاعات، بعد أن سمعت قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]. ولو تأمل العبد وجد نفسه جاهلاً بما يؤل أمره إليه من سعادة أو شقاوة لكثرة مزلات الأقدام التي يؤاخذ بها العارفون، لا سيما من سلك الطريق على غير نور الشرع، ومن هنا قالوا لا بد للسالك من نورين يمشي بهما في الطريق، وهما نور الشرع، ونور البصيرة، قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]. ولو كان مع العبد نور واحد منهما لما سعد، إذ لا سعادة إلا باجتماعهما، أما حفظ الشرع بغير خلق البصيرة أي الملكة التي يكون معها التوفيق، أو خلق البصيرة التي هي الملكة كما تقدم، بغير معرفة الشرع فلا شرف في ذلك، فافهم.

وقد رأىٰ شخص مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه وهو يتبختر في الجنة، فجاء إلى مالك ليبشره، فقال له: أما وجد إبليس أحداً أحقر في عينه مني ومنك ليسخر به، انتهى.

فافهم ذلك ترشد، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة تصويبي لمن زهد في صحبتي وفارقني، وأقول: إن فلاناً قد أصاب في مفارقة مثلي، خوفاً أن ينظر مني فعلاً فيتبعني عليه، وأنا أعلم يقيناً عدم القطع بحفظي من الزيغ، وقد سبقني إلى ذلك سفيان بن عيينة رضي الله تعالى عنه، وسفيان الثوري، كانا يقولان لأصحابهما لا تقتدوا بنا، فإنا قوم قد خلطنا في الأعمال، وهذا خلق غريب في هذا الزمان، بل بعضهم يقيم الحجة على من فارقه، ويقول في معرض الذم له: ما كل أحد يصلح لعشرة الفقراء، إشارة إلى أنه خسر بمفارقته له، وهذا دليل على بقاء الرعونة.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول: من كمال الفقير أن يطالب نفسه بحقوق الناس، ولا يطالب الناس بحقه هو.

وكان يقول: لا ينبغي لفقير أن يطالب أحداً قط بالتردد إليه، احتقاراً لنفسه، وتعظيماً لإخوانه، انتهى.

ولو تأمل سيدي الشيخ لوجد إخوانه أحسن حالاً منه ، وأكثر تواضعاً؛ لأنهم لا يطالبونه بالتردد إليهم ، كما يطالبهم هو.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى من أشد الناس نفرة ممن يقبل يده ، ويقول: تقبيل اليد إنما يكون لمن كان على قدم الاستقامة مع الله تعالى ليلاً ونهاراً ، وكان إذا قبل أحد من المسلمين يده أو ركبته كاد أن يذوب من الخجل.

هذا ما درج عليه السلف الصالح ، وقد رأيت من يمد يده للناس ليقبلوها ، وذلك من السذاجة أو التكبر ، وقد قالوا: من شأن الفقير الحذق والفطنة ، فيهرب من فعل كل شيء يؤدي إلى نظام ، وقيام ناموس على إخوانه ، وربما ألفت النفس ذلك ، ومالت إليه ، فتكدرت من عدم تقبيل الناس يدها على عادتهم ، وذلك دليل على تكبره على الناس؛ لأنه طلب من الناس أن يقبلوا يده ، ولم يطالب نفسه بتقبيله يد إخوانه ، وقد رأيت شخصاً من أهل العلم ، وبين يديه جماعة من طلبته ينزلون الناس من فوق دوابهم لمروره كما يفعل ذلك بالكفار وهو ساكت ، وهذا خروج عن الأدب ، فليكن سيدي الشيخ على حذر ، وبالجملة فكل من عتب على الناس في عدم ترددهم إليه ، أو في عدم إطراقهم بين يديه ، أو في عدم ذهابهم معه إلى حاجة أو وليمة ونحو ذلك ، فهو علامة على أنه من المتكبرين ، والله لا يحب المتكبرين.

فاعلم ذلك، واعمل على التخلق به ترشد، والله تبارك وتعالى يهديك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تنزيل الناس منازلهم في الإكرام ، بحسب ما هم عليه من ذل النفس ، فإن المتكبرين أسفل من الناس درجة ، وهذا الخلق قل من يراعيه ، بل غالب الناس يعظم بحسب الثياب والضخامة ، تقليداً لما يراه من العامة ، وقد قام سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه مرة لإنسان يعرفه ، وكان عنده شخص ، فقام لذلك الإنسان تقليداً لسفيان ، فقال له سفيان : لم قمت لهذا الرجل؟ هل تعلم حاله؟ فقال: لا ، إنما قمت تبعاً لك ، فقال: لا تفعل مثل ذلك بعد اليوم ، انتهى.

وقد قال الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه : تعرف مراتب الناس عند الله تعالى بطريقين ، إحداهما الكشف ، الثانية بكثرة طاعته ، وما عدا هذين الطريقين فهو هزؤ ولعب ، انتهى.

وكان سيدي ياقوت العرشي رضي الله تعالى عنه يقول: ينبغي للفقير أن يعظم الناس بحسب دينهم في الباطن ، لا بحسب ثيابهم ، قال. وقد رأيت شيخنا سيدي أبا العباس المرسي رضي الله تعالى عنه كثيراً ما يكرم بعض العاصين أكثر من بعض المطيعين ، فقلت له

يوماً في ذلك ، فقال: إنه يظهر لي من المطيع عز النفس والكبر ، ومن العاصي ذل النفس والاحتقار ، فأعامل كل واحد بحسب ما في باطنه ، انتهى.

فاعلم ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تعظيمي للفقير الخامل الذكر مع الاستقامة ، أكثر من الفقير المشهور بالكرامات؛ وذلك لأن الدنيا ليست بدار نتائج ، إنما هي دار تكليف ، وكل إنسان مشغول فيها بنفسه؛ لأنه مطالب بأداء ما كلف به في الكتاب والسنة ، فلا التفات له إلى وقوع شيء من الكرامات على يد هؤلاء إلى مدح الناس له ، بل يهرب من مواطن المدح ، وكل موطن مدحوه فيه ارتحل منه ، أو ذموه فيه أقام فيه.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: احذر إذا مدحك أحد أن تقول: نحن من أقل الناس ، أو ما نجي تراب نعال الفقراء؛ لأن تواضعك إذا مدحوك يزيدك عندهم رفعة وتعظيماً لهم ، بل اسكت موهماً لهم أنك تحب المديح ، فإن ذلك أقوىٰ في رياضة نفسك ، ثم اسأل الله تعالى أن يحفظك ومن يمدحك من الآفات ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تكدري ممن أمرته بأمر فلم يمتثل إلا بقدر حكم الشرع في ذلك الأمر ، فإني نائب لرسول الله ﷺ في ذلك ، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال عز من قال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. وقال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]. وقال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]. وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وإذا كان التكدر من العاصي لا لحظ نفس ، وإنما هو من باب الشفقة الدينية عليه ، والرحمة الشرعية به ، فلا حرج ، كما يتكدر الوالد من ولده إذا خالف أمره محبة فيه وشفقة عليه ، وهذا الخلق قل من يعمل به الآن ؛ لغلبة محبة الرياسة على غالب الناس ، وربما يعتذر أحدهم بأن تكدره إنما هو من جهة نصرة الدين لا لحظ نفسه ، فليمتحن نفسه بما إذا كان الأمر من غيره ، ولم يمتثل المأمور أمره ، فإن تكدر له مثل تكدره هو حين خولف فهو تكدر للدين ، وإن كان قلبه بارداً عنه عند مخالفة أحد أمر غيره فهو حظ نفس.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ما دام الحق تعالى يخلق المعصية للعبد فلا يمكنه التوبة النصوح التي ما بعدها ذنب أبداً ، فإذا رجع الحق تعالى عن خلق

المعصية للعبد تاب العبد لا محالة ، فلو أراد أن يمتحن نفسه هل يقدر أن يعصي لما وجد ما يعصي به ، انتهى.

وتأمل يا أخي في حال نفسك ، تجد الحق تعالى يأمرك بالأمر فلا تمتثل أمره ، ومع ذلك يحلم عليك ويطعمك ويسقيك ، ولا يسرع بالانتقام منك ، فعامل عبيده بمثل ما يعاملك به إن كنت منصفاً فعلم أن جميع الدعاة إنما يدعون الناس إلى الله تعالى وإلى شرعة ، إلا إلى أنفسهم ، فإذا قبلوا الدعوة منهم تحولوا بقلوبهم إلى الله تعالى دون الواسطة ، وما بقي للواسطة إلا حكم الإفاضة عليهم ، بل الداعي إلى الله تعالى يغار على الله تعالى أن يقف المدعوون معه دون الله تعالى ، فأمر يا أخي إخوانك برفق ، وانههم برفق ، فإن امتثلوا ذلك فاحمد الله تعالى ، وإن لم يمتثلوا فاستغفر الله تعالى لهم ، ولا تأمرهم وتنههم بعنف واحتقار ، فربما تقوم نفوسهم منك ، وتحصل الإباءة ، وكما أن رسول الله ﷺ كان رحمة للعالمين ، فكذلك يا أخي كن رحمة على إخوانك ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: مبادرتي إلى النظر في حكمة كل شيء وقع في الوجود من المعاصي والمخالفات ، دون الاعتراض ، فلا اعتراض إلا بقدر اعتراض الشرع بعد النظر في حكمة ذلك ، أدباً مع الله تعالى ، وهذا من جملة الأخلاق المحمدية ، قال أنس رضي الله تعالى عنه: «**خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ولا لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء تركته لم تركته**»(١) ، انتهى.

فاعرف يا أخي الحكمة في ذلك ، ثم اعترض باعتراض الشرع ، وقد حزت الكمال ، وقل للعاصي: إياك يا أخي أن تعود لمثل ذلك ، وارجع إلى الله تعالى ، ولا تغتر بحلمه عليك ، ولا تقل له: لم فعلت كذا؛ لأنه لا فائدة فيه الآن ، فإنه وقع وانقضى ، وإياك أن ترمي ميزان الشرع من يدك في كل فعل برز على يدك أو يد غيرك ، فتقره على ذلك ، والله يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تكدري ممن لم يحضر مولدي إذا دعوته ، أو لم يساعدني فيه بماله أو ببدنه؛ لأن من شرط الفقير حمل كلفته عن الناس ، وأن ينظر للذي عليه من حقوقهم ، ولا ينظر إلى الذي له عليهم ، ومن عكس انتكس بين الناس ، وليتأمل في كل شيء أخل به إخوانه معه ، فإن كان خيراً لهم فهم الذين تركوه ، وإن لم يكن خيراً لهم فقد

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الوصايا ، باب استخدام التيمم في السفر والحضر (٢٧٦٨) ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً (٢٣٠٩).

استراحوا منه ، وكذلك لا ينبغي له أن يكلفهم لعيادته إذا مرض ، ولا يعتب عليهم ، ولو مكث ضعيفاً السنة وأكثر .

وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى أول ما يمرض ، يقول: اللهم أنس جميع إخواني أمر مرضي ، حتى لا يتكلف أحد منهم للمجيء إليّ ، وقد قلت له مرة: إن فلاناً يستحي منك الذي أبطأ في زيارته لك ، فقال: قد استراح من رؤية وجهي القبيح ، وكان رضي الله تعالى عنه يكتم مرضه عن أصحابه ، فلا يكاد أحدهم يعرف مرضه إلا بشدة اصفرار لونه ، كما كان ﷺ يفعل مع أصحابه.

وكان أنس رضي الله تعالى عنه يقول: «**ما كنا نعرف شدة جزعه ﷺ إلا باصفرار وجهه**»(١)

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: كل فقير تلفت إلى مساعدة الناس له في مهم عمله فهو لم يشم من أدب القوم رائحة.

فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي في نفسي أنني دون من أشد من المريدين في المقام؛ لأنهم مشايخي بالحال ، وأنا شيخهم بالقال ، والحال أقوىٰ من القال ، وإيضاح ذلك أنني كلما أنظر إلى افتقارهم إليّ في تعليم الأدب ، وتهيئة ما يأكلون وما يشربون ، أتذكر شدة افتقاري إلى الله تعالى ، وكثرة أنعامه عليّ مع كثرة ما أتعاهاه من القبائح.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول: من شرط الشيخ أن لا يرىٰ بيده ضراً ولا نفعاً دون الله تعالى ، فيسلك الناس ويرشدهم ، وينتفعون به ، ولا يشهد له مدخلاً في هدايتهم إلا بمعنى الدلالة فقط على وجه الشكر لله تعالى ، دون الغفلة والزهو ، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. الآية.

وقيل للجنيد رضي الله تعالى عنه مرة: لم تحبس هؤلاء الفقراء عندك؟ دعهم يسيحون في الأرض ، فقال: إنما جعلهم الله تعالى عندي مصلحة لديني ، لأتذكر بصفة افتقارهم إلى افتقاري إلى الله تعالى ، وأيضاً فإن بهم يقوم نظام ذكر الله تعالى صباحاً ومساء ، ولو لم يكن لهم من العمل عندي إلا ذكر الله عز وجل صباحاً ومساء لكفاهم ذلك ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: عليك بخدمة الفقراء القاطنين عندك ، فإنهم يذكرونك بالله عز وجل؛ لأن الفقير إذا اشتهر صار موردة للناس ، يقصدونه في حوائجهم ، فكل واحد منهم يطلب الإقبال عليه ، والنظر في حاجته الدنيوية ، وذلك

---

(١) لم أجده.

لا يشغل الفقير عن ربه عز وجل ، فقراءتهم القرآن عنده في الزاوية تذكره بالقرآن ، وذكرهم لله يذكره بالله ، وصلاتهم تذكره الصلاة ، وقيامهم باليل يذكره قيام الليل ، وهكذا ، والأعمال بالنيات ، وفي الحديث: «**الخلق عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله**»(١) وقد درج جمهور القوم على إقامة الفقراء عندهم في زواياهم ، كما كان أهل الصفة في مسجد رسول الله ﷺ ، ولا التفات إلى من أنكر مثل ذلك.

فاعلم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي في نفسي أنني من جملة العصاة على الدوام؛ وذلك لأني لا يخلو أمري من حالين: إما أن أكون في معصية ، فالأمر ظاهر ، وإما أن أكون في طاعة فعصياني فيها بتقصيري ، وعدم بذلي نفسي في الرياضة ، حتى تركت كمال الخشوع فيها ، والحضور مع مشرعها.

وقد سمعت أخي سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: والله ما أخرجت نفسي عن الفاسقين في ساعة واحدة من ليل أو نهار ، فقلت له: كيف؟ فقال: لأن الفسق في اللغة الخروج ، يقال فسقت النواة إذا خرجت ، ومن خرج عن السنة المحمدية قيد شبر في مأكله ، أو ملبسه ، أو كلامه ، أو نومه ، أو في معاملته ، مع الله تعالى ، أو مع خلقه ، فقد انسحب عليه وسم الفسق ، والسالم من هذا أعز من الكبريت الأحمر ، يتحدث به ولا يرى ، انتهى.

فاعلم ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تكدري ممن نفاني من طريق الصوفية ، وقال: إن فلاناً ليس من أهل الطريق ولا ذاق منها شيئاً ، لعلمي ببعدي عما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم من الزهد والورع ، والخوف من الله تعالى ، وغير ذلك ، هب أني ادعيت ذلك ، فربما أن أفعالي وأقوالي تكذبني.

وقد رأيت شيخاً من مشايخ العصر ، قالوا له: أنت فقيه ما أنت صوفي ، فتكدر ، فقلت له: كيف تتكدر من كونهم جعلوك فقيهاً ، والحسن البصري ، وإبراهم النخعي وغيرهما كانوا إذا قيل لأحدهم: ما تقول في كذا يا فقيه؟ فيقول: والله إن زماناً صار مثلي ينادى فيه بالفقيه لزمان سوء انتهى.

وسئل الجنيد رضي الله تعالى عنه مرة عن مسألة في التصوف ، فقال: هذا علم قد طوي

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٠٣٣) ، وأبو يعلى في مسنده (٣٣١٥) ، والشهاب في مسنده (١٣٠٦) ، والحارث في مسنده (٩١١) ، والشاشي في مسنده (٤٣٥) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٤٤٥) ، والديلمي في مسند الفردوس (٢٩٩٥).

بساطه منذ ثلاثين سنة ، والناس يتكلمون في حواشيه ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: إياك أن تعتقد يا أخي إذا طالعت كتب القوم ، وعرفت مصطلحهم في ألفاظهم أنك صرت صوفياً ، إنما التصوف التخلق بأخلاقهم ، ومعرفة طرق استنباطهم لجميع الآداب والأخلاق التي تحلوا بها من الكتاب والسنة ، فإن بعضهم ربما جلس يدرس في التصوف بكلام رسالة القشيري ، أو الإحياء للغزالي ، ونحوهما ، ولو قيل له: اشرح لنا مثل كتاب أبي شجاع في الفقه لا يعرف يحله لنا ، فكيف يدعي طريق الولاية ، هذا غلط ظاهر ، انتهى.

ورأيت بعضهم جمع له بعض كلام من رسالة القشيري ، ومن كلام الإحياء للغزالي ، ومن كلام سيدي أحمد الزاهد ، ونحوهم ، وجعلها رسالة ، وكتب اسمه عليها ، وظن بنفسه أنه بلغ رتبة الأشياخ ، وغاب عنه أن الأشياخ ما وضعوا الرسائل إلا من فتوحهم ، أو استشهاداً لما فتح به عليهم من العلوم والمعارف ، خوف الإنكار عليهم من بعض الأقران ، فيظنون انفرداهم بما وضعوه ، فكان ما نقلوه من كلام القوم مقوياً لكلامهم.

وقد قيل مرة للجنيد رضي الله تعالى عنه: ما فائدة قراءة المريد لهذه الحكايات المسطورة في الرسائل؟ فقال: فائدتها تقوية عزمه ، قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

فعلم أن بعض ضعفاء الطلبة لا يقدر على جمع رسالة مثل رسائل هؤلاء ، وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: كل شيخ لا يقدر على استنباط جميع أحكام الشريعة ، وآداب القوم من الكتاب والسنة ، لقد فقدت جميع كتب النقل ، فليس بشيخ ، إنما هو متفعل في الطريق ، متجرىء على الله تعالى ، وهذا هو معنى قول سيدي الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر: من لم يكن كتابه قلبه فليس بفقير ، انتهى.

فاعلم ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تسليمي لمن ادعى من الفقراء أنه من أهل الكشف ، ولكن تنزه عن إشاعة ما كشف له كما عليه الكمل من الأولياء ، فإذا سمعناه يقول الكشف إنما هو للناقصين ، والكامل لا كشف له ، موهماً للناس أنه كامل ، قلنا له صدقت ، ثم إن كان كاذباً رجع إثم كذبه عليه لا علينا ، وإيضاح قولهم ، أن الكامل لا كشف له؛ أي لأنه مشغول بأداء أوامر ربه عز وجل التي عليه في كل نفس ، فلا تدعه الأوامر المتوجهة إليه يتفرغ لغيرها ، وأيضاً فإن كشف حقائق الأمور إنما هو من صفات الحق جلا وعلا ، والكامل لا يزاحم أوصاف الربوبية بخلاف الناقص ، فإنه يتعشق للاطلاع على المغيبات ، فيعطيه

الحق تعالى ما تعشقه مداواة له ، فضعف يقينه لا سيما اطلاعه على عورات الخلق ، ولو أن الكامل اطلع على عورة أحد من الخلق لكاد أن يذوب حياء من ذلك ؛ لأنه كشف شيطاني.

ومما يشهد لكون الكامل لا كشف له عن حقائق الأمور من ذات نفسه ، إلا إن أطلعه الله تبارك وتعالى على ذلك من فضله ، قوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: ٩]. كما حكاه الله جل وعلا عنه ، وقوله ﷺ: «لا أعلم ما خلف جداري هذا»(١) مع قوله ﷺ: «إني أراكم من ورائي»(٢) وذلك لأنه نور كله.

وإيضاح ذلك: أن الكامل مع الله تعالى ما يريد ، وليس له إرادة من نفسه ، ولو أنه أراد ما لم يرده الله تبارك وتعالى لم يكن.

واعلم يا أخي أن أهل الكشف كلهم أجمعوا على أن كل من لم يكن مأكله ومشربه حلالاً لا يعرف أن يفرق بين الخواطر ، وهذا عزيز جداً فكيف يصح له مقام الكشف.

وقد ذكرنا في رسالة الأنوار القدسية: أن من شرط صحة بداية المريد في دخوله الطريق ، أن يمشي على الماء ، والهواء ، وتطوى له الأرض ، ومن لم يقع له ذلك فليس له في مقام الإرادة قدم ، فاعلم ذلك ترشد ، والله يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من الوقوع في تغيير ما كنت عليه من المباسطة مع أصحابي إذا دخل علي من يستحيا منه عادة ، بل أكمل المباسطة التي كنت فيها ، وذلك هو المزاح الشرعي؛ لأن خرق ناموسي عند من يستحيا منه أولىٰ من وقوعي في صورة من النفاق ، وكذلك لا أمسك السبحة إذا دخل علي إنسان إلا إن كنت أسبح عليها قبل دخوله ، ومتى سبحت لأجل الداخل خفت أن أقع في النفاق.

وقد كان الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه يقول: لو قيل لي: إن هارون الرشيد داخل عليك ، فسويت لحيتي بيدي لقدومه ، لخشيت أن أكتب في جريدة المنافقين ، انتهى.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من آداب الفقير أن لا يظهر عند ملاقاته للناس أو ملاقاتهم له ناموساً وخشوعاً زائداً عما كان عليه قبل ذلك ، ولا إطراقاً بل يدوم على حالته الأولىٰ ، اللهم إلا أن يكون الإطراق صار له عادة ، فلا بأس بذلك بطرقه الشرعي ، انتهى.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢١٧٥) وقال: قال الحافظ ابن حجر لا أصل له ، وكذلك نقل الملا علي القاري في المصنوع (٢٧١) كلام ابن حجر.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب عظة الإمام الناس في إتمام الصلاة (٤١٩) ، ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب الأمر بتحسين الصلاة بإتمامها (٤٢٥).

فاعلم ذلك ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم محبتي للبس ثياب مخصوصة دون غيرها لهوى نفسي ، وإنما أحب ذلك بوجه شرعي ، وكان أخي سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: من آداب الفقير أن لا يكون عنده محبة لحالة يفتخر بها على أقرانه ، دون العبادة لله تعالى ، وذلك كمحبته للبس الفروجيات الصوف الرفيعة ، وإرخائه العذبة ، وكل ما فيه تمييزه عن أبناء جنسه ، كنشر ردائه على ظهره دون أن يضمه حول عنقه ، فإن هذه قد صارت علامة للمتشيخين لا يفعلها غيرهم ، لكن إذا بلغ الفقير إلى حد تساوى عنده فيه جميع الملابس ، أو كان رداؤه كبيراً يعسر ضمه على عنقه ، فيتقنع به ، كما كان رسول الله ﷺ يفعل ، فلا حرج عليه .

وقد كان سفيان الثوري رضي الله عنه يلبس ملبس الفتيان إذا خاف من الشهرة ، وكذلك إبراهيم التيمي رضي الله تعالى عنه ، فليحذر القاصر من تحسين عمامته وهيئته إذا دعي إلى حضور وليمة مثلاً ، وليخرج على الهيئة التي كان عليها قبل أن يدعى إلى تلك الوليمة ، ثم إذا بلغ الكمال فله تحسين هيئته وعمامته لغرض صحيح ولا حرج ، كما كان ﷺ في بعض الأحيان يصلح طيات عمامته في حب الماء ، إذا بلغه قدوم الوفود عليه ، ويأمر أصحابه بتحسين ملابسهم .

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه يقول: إنما كره الأكابر محبة الظهور في هذه الدار أدباً مع الحق تعالى ؛ لأنها مكان نوزع فيه سيدهم في مقام الألوهية ، وأيضاً فإن الحق تعالى استتر عن عباده فيها ، فكان عدم ظهور الإنسان بها من التخلق بأخلاق الله تعالى ، ثم إذا ظهر الحق تعالى لعباده في الآخرة فهناك لهم الظهور تبعاً للحق تعالى ، انتهى .

وسمعت أخي سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى يعاتب شخصاً ، صار كلما يركب لحاجة يأمر إخوانه بالمشي أمامه وهو راكب بغله ، كزفة الختان ، ويقول له: كيف تحب الظهور في هذه الدار ، مع أن إبليس اختار الخفاء فيها ، انتهى .

وقد درج أهل الله عز وجل على إخفاء نفوسهم ، وعدم تعاطي أسباب الشهرة ، حتى يكون الحق تعالى هو الذي يشهرهم من غير ميل منهم ، وينادي مناد في الكون ألا إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبوه ، فهناك تقع له المحبة والتعظيم في قلوب العباد ، ولو أرادوا أنهم يكرهونه أو يحقرونه لما قدروا على ذلك ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، ومن يكرم الله فلا مهين له ، ثم إذا وقع لهم التعظيم والمحبة في قلوب الخلق فلا يزالون خائفين وجلين من الحق تبارك وتعالى ، خوفاً على نفوسهم من محبة الكبر ، وقد كان الإمام مالك رضي الله تعالى عنه يقول: لو أحب السلف أن يعرفوا لما عرفوا ، انتهى .

فليس سرورهم إلا في الذل والانكسار للمؤمنين ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، فاعلم ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: تحبيبي لمن أراد من إخواني ـ أن يأخذ عن أحد من أقراني الصادقين ـ في ذلك الشيخ الذي أراد أن يتركني ويأخذ عنه ، وأرغبه جهدي في الأخذ عنه ، ولا أتكدر منه في الباطن ، فإن مشهدي في نفسي أنني دون أقراني ، ولو أنني كنت أرىٰ نفسي فوق أقراني ، لربما تكدرت لذلك محبة في الرياسة ، وهذا خلق غريب لا يوجد إلا في أفراد من الفقراء.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: من علامة الفقير الصادق أن يرغب من يريد أن يأخذ الطريق عن أحد من أقرانه أكثر مما يرغبه إذا طلب أن يأخذ عنه هو ، وقد أخبرني فقير عن شيخ أنه قال: مقصودي أن آخذ عن فلان الطريق ، فقال له الشيخ: أنت أحسن حالاً ممن تريد أن تأخذ عنه ، فلا تحتاج بحمد الله إلى شيخ؛ لأنك تعرف الحلال والحرام ، وتصلي وتصوم ، وتتلو القرآن ، قال: ثم إن المجلس طال، فقلت له: مقصودي آخذ عنكم الطريق، فقال: يا ولدي هذا واجب عليك ، فإن الطريق مهالكها كثيرة ، ولا بد للإنسان من شيخ يبين له كل عيب خفي غليه ، انتهى.

قال الفقير: فتعجبت من قوله الأول والثاني.

فإياك يا أخي من الوقوع في مثل ذلك ، ثم لا يخفى إن إظهار العارفين بالتكدر على المريد يجب حمله على قصد المصلحة للمريد لا غير ، فافهم ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: تكدري إذا دخل علي أحد من الأمراء والأكابر وأنا في قراءة حزبي مع الجماعة صباحاً أو مساء؛ وذلك لأن رؤية الأكابر للفقير وهو في محل ناموسه يحدث له التعظيم في قلوبهم ، فتستلذ النفس الخبيثة لمثل ذلك ، وأيضاً فإنه لا يرضيهم من الفقير إلا القيام لهم ، والإقبال عليهم ، ومعلوم أن تلك الحضرة إنما هي لله تعالى وحده ، فيصير الفقير في حيرة بين أن لا يعظمهم اشتغالاً بالله عز وجل ، فيتكدرون في نفوسهم ، ويندمون على مجيئهم ، وبين أن يقبل عليهم فيفوته كمال الإقبال على مخاطبة الله عز وجل ، وخطاب الحق تعالى مع خطاب عباده لا يصح لأمثالنا.

إذ علمت يا أخي ذلك ، فإياك أن يجيئك أمير أو شيخ عرب في غير وقت حزبك وناموسك ، واجتماع الفقراء عندك ، فتستشعر منه قلة التعظيم لك ، فتقول: كان عندنا بكرة النهار خلائق كثيرة لا يحصون ، كما يقع فيه كثير ممن يحب الشهرة ، فإن في ذلك هلاكه ، وكذلك إذا دخل عليك أمير وأنت جالس وحدك فخجلت فقلت له تكسيراً للخجل خصر

بالبلاء من عرفته الناس ، كأنك تريد بذلك قيام التعظيم في باطن ذلك الأمير مثلاً حين رآك جالساً وحدك ، فإن في ذلك هلاكك ، ومن هنا قالوا: الجمول نعمة ، وكل أحد يأباه ، وبالجملة فكل من حب زيارة الناس له في وقت محافله دون غيرها فهو مراء دق المطرقة ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: خوفي من المواظبة على الأذكار ومجالس الخير ، أن يكون ذلك رياء ، ودوامه استدراجاً من الله تبارك وتعالى ، فقل من يواظب على خير ويحمده الناس عليه ، ويسلم من الآفات ، ومن شأن النفس الخبيثة أنها إذا ألقت التعظيم لأجل عبادتها شق عليها تركها ، لأجل ذلك ، لا لأجل عدم مجالسة الحق جل وعلا فيها ، فليمتحن الفقير نفسه ، فإن وجد عندها خجلاً واستحياء من الخلق إذا ترك إظهار تلك العبادة فليعلم أنها كلها رياء ونفاق ، فيجب عليه التوبة والرجوع إلى الله تعالى ، وإن رآها ليس عندها خجل ولا استحياء فليشكر الله تعالى الذي نجاه ، ثم لا يأمن.

وقد وقع لبعض السلف رضي الله تعالى عنهم أنه صلى الصلوات الخمس أربعين سنة في الصف الأول ، فتخلف يوماً عنه فوجد في نفسه وحشة فأعاد صلوات أربعين سنة ، وقال لنفسه: إنما كنت تواظبين على الوقوف في الصف الأول ليحمدك الناس ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: كل من وجد في نفسه استيحاشاً إذا ترك إظهار ورده في القرآن أو الصوم أو الزهد أو الورع أو الصمت أو غير ذلك ، فأعماله كلها رياء وسمعة ، ولا يجد في ميزانه شيئاً من حسناته يوم القيامة.

وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالى يقول: لا يليق بفقير أن يجمع الناس على مجلس ذكر ، أو قراءة حزب إلا إن خرج عن الرعونات النفسانية ، وخرج عن حب الرياسة ، وإلا أهلك نفسه ، قال: وقد أدركنا أشياخ الطريق ، وما يتجرأ أحد يجلس مع جماعة من حزب أو ذكر إلا بعد موت شيخه ، أو أذنه له ، بعد أن شهد له شيخه بالكمال ، وسمعته مرة أخرىٰ يقول: ينبغي للفقراء الذين يحضرون مجالس الذكر أن لا يستلذ أحدهم بما يحصل له من صورة الخشوع ، والرعدة ، وضم الأكتاف ، وإطراق الرأس ، ولا يسامح نفسه في ذلك إلا إن كان مغلوباً ، وقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلاً يصلي ، وقد ضم أكتافه ، فضربه بالدرة ، وقال: ليس الخشوع هكذا ، إنما الخشوع في القلب ، انتهى.

ففر يا أخي من الوقوع في مثل ذلك ، وإن رأيت أحداً فعل ذلك فاحمله على أنه مغلوب ، لتخرج أنت عن الإثم ، واعمل على ذلك ترشد وتسعد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم أخذي إخواني معي إذا دعيت إلى وليمة تجون

صاحبها فيها ، وعملها بتكلف ، بل أذهب وحدي ماشياً رحمة بإخواني المحترفين ، ورحمة بصاحب الوليمة ، وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى إذا دعاه أحد إلى وليمة لا يدع أحداً من أصحابه يذهب معه ، ولو طلب هو ذلك؛ لأن المريد قاصر عن معرفة ما ينفعه وما يضره ، وذهب مرة بأصحابه إلى بيت تاجر فرآه دعا غلة لا يحصون ، وطعامه قليل ، وعنده جماعة ينشرون الخشب لعمارة بيته ، فقال للتاجر: اجمع لي النشارة وضعها لي في هذا الدست وصب عليها الماء ، وأوقد تحتها النار ، ففعل ، فصارت خبيصاً ، وصار يغرف منها إلى أن كفى الناس وفضل ، انتهى.

فإن أعطاك الله تعالى يا أخي أن تفعل مثل ذلك ، فاذهب بجماعتك الكثيرة إلى الولائم ، وإلا فالزم الأدب.

واعلم يا أخي أن كل ساعة تمر على الفقير وهو في عمل حرفة يعود نفعها عليه وعلى عياله أفضل من حضور ألف وليمة مع سيدي الشيخ المتفعل في المشيخة ، وقد أجمع أهل الطريق على أن الأكل من صدقات الناس وولائمهم يقسي القلب ، وأن الورع أحد أركان الطريق ، حتى كان أحدهم يسافر في تعلم الورع الشهر وأكثر.

وجاء رجل من بلاد بعيدة إلى الحسن البصري رضي الله تعالى عنه ، وقال: جئت إليك لتعلمني الورع ، فقال له الحسن: يا أخي أكلت من طعام الأمراء فما بقي يصلح أن يؤخذ عني ورع ، ولكن امض إلى فلان في الكوفة تراه في مزرعة له قد ورثها من آبائه ، لا يأكل إلا منها ، فخذ عنه الورع ، فذهب إليه من البصرة إلى الكوفة فوجده كما وصفه له الحسن البصري ، فقال: من أرسلك إليّ ، قال: الحسن البصري ، قال: كان عهده بشيء وقد زال ، فقلت له: وما ذاك؟ فقال اشتغلت يوماً عن البقرة في صلاتي ، فذهبت إلى طين الجار على أثر مطر فرجعت وفي قوائمها طين ، فاختلط بطين أرضي ، فما بقي يصلح أن يؤخذ عني ورع ، انتهى.

فإياك يا أخي ثم إياك أن تفتح على نفسك باب حضور الولائم إلا إذا لم يكن للشرع عليك اعتراض ، فافهم ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إذا قرأت على الناس كتب الترغيب والترهيب والرقائق ، أني آخذ الكلام في حق نفسي أولاً ، ويحصل لي الخجل من الله تبارك وتعالى ، ومن أوليائه الذين يطلعون على باطني ، حتى أكاد أذوب من الحياء ، وقل من الوعاظ من يقع له مثل ذلك ، فربما كان كالذي جعل ظهره إلى جوف البحر أيام زيادته ، وصار يقول للناس: أبعدوا عن الوقوف قريباً من البحر ، خوفاً أن ينهار بكم الجرف ، فتقعوا في البحر ، فما زال يقول لهم ذلك حتى دارت بالأرض التي تحته المياه ، ونزلت به ، فهذا حكم من يعظ الناس ، وينسى نفسه.

فعلم أنه لولا أمر ضروري للأولياء ما تصدى أحد منهم للوعظ ، وبعضهم لم يجلس حتى هدد باب الإيمان إن لم يجلس يعظ الناس ؛ وذلك لأن الأولياء أكثر الناس معرفة بعيوب أنفسهم.

وقد قالوا: يقبح على معلومة تصف دواء للناس.

وقد كان الحسن البصري رضي الله تعالى عنه يقول للناس: لولا حديث بلغني أنه سيأتي على الناس زمان يكون فيه واعظ القوم أرذلهم ، ما وعظتكم ، انتهى.

فإياك يا أخي إذا وعظت الناس أن تنسى نفسك ، بل خاطب نفسك مع الناس بكل ما تعظ به ، واستغفر الله تعالى كلما تعظ الناس ، فإن الغالب على العبد عدم الوفاء بالعمل بكل ما يعظ به الناس ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تمكيني أحداً من الإخوان إذا ركبت لحاجة أن يمشي بين يدي ، إلا من يمسك لجام الدابة عند عجزي عن ردها عن مزاحمتها للناس ، لا سيما إذا كان فيهم العجوز الأعمى ، وكثيراً ما آمرهم بأن يسبقوني إلى المحل الذي أنا قاصده من زيارة القرافة أو نحوها ، وفي ذلك سد باب الغيبة فيّ ، وجر قوافي أهل الخرقة معي في ذلك ، ونسبتنا أننا كلنا نصابون زواكرة على الخلق ، لا سيما إن كنا تربينا نحن وإياهم في حارة واحدة ، فلا يكاد أحدهم يسلم لنا دعوى ، ما يرفعنا عليه أبداً ، ولعمري لا يليق الركوب الحشم إلا لولاة الأمور ، الذين يردعون الفسقة والمتمردين ، وأما الفقير فمن شأنه أن يكون أضعف من ناموسة أو دودة ، فأي فائدة لركوبه بغلة مثلاً والناس يمشون خلفه.

وقد ركب النبي ﷺ مرة حماراً ، فجاء أبو هريرة يمشي خلفه ، فعزم عليه النبي ﷺ أن يركبه فعلا على الحمار ، ومسك ثياب النبي ﷺ فوقعا جميعاً ، فقال له النبي ﷺ: إركب أبا هريرة ، فركب ثانياً ، ومسك ثياب رسول الله ﷺ فوقعا جميعاً ثانياً ، فقال له النبي ﷺ اركب ، فقال: ما كنت لأصرعك يا رسول الله ثلاث مرات ، فقال له النبي ﷺ: **«إما أن تتخلف عني بعيداً وإما أن تتقدم ولم يمكنه من المشي خلفه»**[(١)]

فانظر إلى شدة تواضعه ﷺ ، واقتد به ، ولا تتعلل بمحبة الإخوان للمشي بين يديك ؛ لأنا نقول المحبون لو علموا منك الكراهية لذلك ما فعلوه معك ، ولو أنهم فرشوا لك سجادة بغير إذنك فأخذتها ورميتها بعنف ما فعلوا ذلك معك ثانياً ، وقس على ذلك سائر ما فيه ضخامة

---

(١) لم أجده.

لك ، كتمكينهم من تقبيل الأيدي والأرجل ، فإن ذلك كالحرام عند العارفين ، أدباً مع الله تعالى أن يستعبدوا أحداً من عبيده.

وقد كان سيدي محمد بن عنان رحمه الله تعالى إذا ركب لحاجة لا يدع أحداً يقرب منه ، وكذلك سيدي علي المرصفي ، وسيدي الشيخ أبو الحسن الغمري ، وكانوا يقصدون المواضع القليلة الناس حتى لا يراهم أحد ، هكذا أدركناهم رضي الله تعالى عنهم ، فاعلم ذلك ترشد ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي في نفسي أني عاجز عن رد كيد إبليس عني ، فضلاً عن رد كيده عن مريدي ، ولذلك لم يقع مني قط أنني قلت لأحد من مريدي: إذا جاءك الشطان وأنت في الذكر فاصرخ عليه باسمي ، أو توجه إليّ بقلبك في دفعه يطرد عنك ، ومن قال ذلك لمريده من أمثالنا ، فإنما ذلك غرور؛ لأن فرار إبليس إنما هو خاص بمن يكون عمري المقام ، وذلك عزيز في الوجود ، ولعمري إذا كان الشيطان يلعب بالشيخ كالكرة في يد الصبيان ، فكيف يفر من ذكر اسمه ، فإن كنت تعلم يقيناً أن الشيطان يفر عن مريديك عن ذكر اسمك فأمر بذلك ، وإلا فالزم الأدب.

واعلم يا أخي أن الحق تبارك وتعالى لولا أنه علم قوة تسليط إبليس علينا ما خوفنا منه ، ولا أمرنا أن نستعيذ بالله منه ، لو أن أحداً من الخلق كان يكفي أن نستعيذ به منه لأمرنا تعالى أن نستعيذ بمحمد ﷺ ، أو بجبريل ، أو غيرهما من الأكابر ، ولكن علم تعالى عجز الخلق عن رده كيده إلا مع استعاذتهم بالله عز وجل ، قال تعالى لسيد الأولين والآخرين ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]. وفي البخاري أن رسول الله ﷺ قال بعد صلاة صلاها: «**أن الشيطان عرض لي فشد عليّ بقطع صلاتي فأمسكني الله منه**»[١].

وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ «**جاءه شيطان ليلة جاءته الجن وبيده شعلة من نار يريد يحرق بها وجه رسول الله ﷺ ، فجاءه جبريل فعلمه كلمات فقالها فطفئت ناره**»[٢].

وفي السير أن الشيطان صاح في عسكر الصحابة يوم أحد: ألا إن محمداً قد مات ، فترك جماعة من الصحابة القتال ، فضحك عليهم ، وقال لجنوده: انظروا إلى قلة إيمان هؤلاء بدينهم ، فإذا كان في قدرة إبليس التي أعطاها الحق له أنه زلزل إقبال الصحابة عن القتال ، فكيف بإيمان من هو عبد شهوة بطنه وفرجه ، فرحم الله تعالى من عرف قدر نفسه ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب ما يجوز من العمل في الصلاة (١٢١٠) ، ومسلم ، كتاب المساجد ، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه (٥٤١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٠٣٤).

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تمكيني أحداً من الإخوان أن يتفوه بأني من الأولياء والصالحين؛ لأن ذلك غرور وجهل ، من أين يعرف هؤلاء الناس الأولياء والصالحين ، وما منهم أحد دخل حضرتهم.

وقد رأىٰ أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى شخصاً من الفقهاء يدعو عقب قراءة القرآن ، ويقول: اللهم اجعل ثواب ذلك في صحائف سيدنا ومولانا القطب الغوث الفرد الجامع سيدي أفضل الدين ، فصاح به صيحة كاد يشق قلبه ، وقال له: أما تخشى المقت من أحد من أصحاب القطب ، فتذهب لا دنيا ولا آخرة. ا هـ.

وقد قال سيدي الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه: الأولياء على عدد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فلا بد أن يكون في كل عصر مائة ألف ولي ، وأربعة وعشرون ألف ولي ، ولا يزيدون ولا ينقصون ، لكل نبي ولي على قدمه. والقطب الغوث هو كبير الأولياء كلهم ، فمن أين لأمثالنا الإحاطة بهؤلاء الأولياء كلهم ، أو معرفة من هو القطب منهم ، بل غالب الأولياء لم يجتمع قط بالقطب لعدم طاقته أن ينظر إليه.

فإياك يا أخي إذا عملت شيخاً أن تقر أصحابك على مثل ذلك ، فإنه كذب ونفاق إلا إن كنت كذلك ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: محبتي لكل من انتسب إلى هذه الطائفة الصوفية ، وكذلك محبة أصحابي لهم ، فلا نكره بحمد الله تعالى أحداً منهم ، ولا من جماعة أحد أشياخ عصرنا، وهذا الخلق قليل في غالب فقراء الزمان، فترى أحدهم يكره من يراه من جماعة أحد من الأشياخ غير شيخه ، وينظر أحدهم إلى أخيه شزراً واحتقاراً، كأنه في دين غير دينه ، ويود أن لا يظهر لغير شيخه اسم في البلد ، وذلك كله من رعونات النفوس ، ودليل على عدم ذوق أحد منهم رائحة أدب أهل الطريق ، ومثل هؤلاء لو صام أحدهم وصلى، واختلى ، لا ينتج له حال أبداً ، لبقاء رعونات نفوسهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من علامة انتفاع المريد بصحبة شيخه أن يفارقه ونفسه ميتة ، وأعضاؤه ذابلة ، كأنه خرج من اللحد بعد الموت ، وعلامة مقته أن يفارقه ومعه رعونة نفس ، ويصير يزن على الفقراء بالميزان الجائر ، فلا يكاد يعجبه أحد ، انتهى.

فاعلم ذلك ترشد ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم سؤالي عن ثمن قمح أو حطب أو جبن ، بحضرة

من أظن فيه أنه يساعدني في الثمن ، كما يقع في بعض من يتخذ المشيخة حرفة يحصل بها أمور معاشه؛ لأن الأغنياء الحاضرين يفهمون من سؤالي عن الثمن أنني أريد أن أشتري ذلك الشيء ، وليس معي ثمنه ، وقد قالوا: السؤال بالحال أعظم من السؤال بالقال ، ومن شأن المعتقدين أنهم إذا رأوا سيدي الشيخ محتاجاً إلى عمامة ، أو جوخة ، أو فروة ، أو منديل للنساء ، أو ملح ، أو بصل ، أو حطب ، أو نحو ذلك ، أن يسارعوا إلى شرائه له بغير ثمن من الشيخ ، ولو بجباية ثمنه من الرؤوس ، وذلك في غاية الذل لذلك الشيخ ، فإنه من الأكل بالدين ، فليحذر سيدي الشيخ من مثل ذلك ، وليحذر أيضاً من أن يقبل من الناس الرفق ، ثم يفرقه على الفقراء ، ولا يأكل منه شيئاً ، وإن كان ذلك خيراً لأنه ربما كان استدراجاً سببه عدم الإخلاص أو قلته ، إذ الخلق من طبعهم أنهم إذا رأوا من شخص عدم الميل إلى الدنيا ، وكل شيء جاءه أعطاه لغيره بادروا لإعطائه ، وزادوا فيه اعتقاداً ، فرجع أمره للنصب على أكل أموال الناس بالباطل ، وصار فعله ذلك كالطعم الذي يجعل فيه سنارة الصياد ، بخلاف من علموا منه أنه يلف كل ما جاءوا به وحده ، ولا يعطي أحداً منه شيئاً ، فإنه يثقل عليهم إعطاؤه ، ويقلون اعتقادهم فيه.

وقد تناظر كلب السوق وكلب الصيد ، فقال كلب السوق لكلب الصيد: لأي شيء يجلسونك على فرشهم ، ويكرمونك ، وأنا يطردونني كلما رأوني ، ولا يكرمونني مع اتحاد جنسي وجنسك ، فقال له: الفرق بيني وبينك واضح ، وهو أني أصطاد لهم ، وأنت تصطاد لنفسك ، انتهى.

فمن أراد التنزه عن أوساخ الناس فليظهر لهم الشح ، وعدم الكره ، وشراهة النفس ، وأنا أضمن له أنهم ينفرون من الإحسان إليه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تعاطي أسباب تميل خاطر الأغنياء إليّ بوجه من الوجوه إلا لغرض صحيح شرعي ، وذلك كأني أعاني من لبس الجبب البيض الرفيعة ، والعمامة الصوف المارداني الرفيعة ، وتنفر نفسي من الجبة الغليظة ، أو العمامة الغليظة ، فإن أبناء الدنيا يميلون إلى الجمال بالطبع ، وينفرون من الثياب الغليظة الدنسة بالطبع ، فلذلك ، ترى الفقير النصاب يتعنت في شراء الجبة البيضاء النقية البياض ، ويرد ما فيه خطوط حمر أو سود ، فإن جلس إلى الأغنياء نظروا إلى غلو ثمن الجبة ، وإن جلس عند الفقراء نظروا إلى كونها جبة صوف.

وقد عد الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ذلك من غوائل النفوس ، فإن من شرط الفقير أن لا يبالي بما لبس إذا كان فيه رضا الله عز وجل ، ومن ادعى من الفقراء ، أنه خرج عن رعونات نفسه فليلبس لباس أهل الرعونات ، كالطرح الذي فيه حرير وخيوط ، ثم ينظر ، فإن رأى

نفسه تميل إلى لبس الفقراء أكثر فليحكم على نفسه بأنه نصاب على الدنيا ، يصطادها بجبته البيضاء أو الحمراء أو السوداء مثلاً .

وقد كان السلف الصالح يخافون من لباس الشهرة ، وإنما كانوا يلبسون المرقعات لقلة الحل في ثيابهم الجديدة ، وكانوا يقنعون بلبس المرقعات خوف الشهرة ، حتى قيل لبشر الحافي رضي الله تعالى عنه : إن فلاناً يريد أن تبيعه مرقعتك ، فقال هل رأيت يا أخي صياداً يبيع شبكته ، انتهى .

ومن هنا قال القوم : من لبس مرقعة فقد سأل ، ثم إن أصل محبة الفقير النصاب لمجالسة الأغنياء محبته في الدنيا ، فإنه يعلم أن مشيخته لا تتم إلا بإطعام الناس الطعام ، وليس معه دنيا ، ولا بيده حرفة ، فيريد أن يمشي على صورة قدم الأشياخ الماضين ، الذين كانت الدنيا تخدمهم ، فلا يصح له ذلك ، فلذلك سارع إلى تمييل خاطر أبناء الدنيا ليساعدوه في سماطه في الزاوية .

وقد رأيت من يسافر إلى مشايخ العرب والكشاف فيسألهم العسل والقمح والبسلة ، فلامه شخص في ذلك ، فقال : من عباد الله من يقدره الله تعالى على الإنفاق من الغيب ، وقلب الأعيان ، وهو يفعل مثل فعلي ستراً على نفسه ، انتهى ، فيوهم السامعين أنه من الأولياء القادرين على مثل ما ذكر ، ولكنه يفعل مثل ذلك تستراً على نفسه ، وذلك في غاية الغرور ، والزور ، والنفاق والاستدراج ، والقرائن تشهد أن الله تعالى أعطى مثله تصريفاً لأهلك الحرث والنسل .

وقد رأيت من يسافر إلى مشايخ العرب وغيرهم من العمال ، فيجيب منهم القمح والأرز والعسل وغير ذلك ، على اسم الفقراء القاطنين عنده ، ثم يأخذه لنفسه ، وإن فضل عنه شيء باعه ، ولم يعط أحداً من فقرائه شيئاً ، فمثل هذا نصاب مالح الرقبة حواف ، ورأيته مرة يفطر عند مكاس في رمضان ، فقال لي : من عباد الله من لا يضره الحرام ، فقلت : الله أعلم .

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : احذر إذا كنت عالة على إخوانك ، ولم ييسر الله تعالى لك الأكل من مكسب يمينك ، أن توهم إخوانك المعتقدين فيك أنك قادر على الأكل من الغيب ، ولكنك تركت ذلك أدباً مع الله تعالى ، فإن ذلك يزيدك مقتاً من الله تعالى وطرداً ، لا سيما إن خرجت واعترضت على الأولياء الماضين الذين كانت الأعيان تقلب لهم ، وتقول : الكاملون لا يكاد يظهر لهم كرامة ، إيهاماً للسامعين ، أنك قادر على إظهار الكرامة ، فإن ذلك من أعلى طبقات النفاق المصطلح عليه بين القوم ، وصاحبه ربما كان من إخوان الدجال ؛ لأن الدجل هو التمويه بالباطل في صورة حق .

فإياك ثم إياك من مثل ذلك ، انتهى .

والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: محبتي لكل من كان أكثر طاعة لله تعالى مني ، وترجحي محبته على محبتي لنفسه محبة في ربي عز وجل؛ لأني أعلم أن كل من كان أكثر طاعة لله تعالى فهو أحب إليه ، ومن أدب كل عبد أن يحب من يحبه سيده ، وهذا خلق غريب ، لا يثبت فيه إلا من خرج عن حب الرياسة ، ونشر الصيت ، وأما من يحب انفراده بالصيت ، فلا يكاد يحب أحداً من المطيعين والمتقين ، خوفاً منهم أن يطفئوا صيته ، وكفىٰ بذلك مقتاً من الله تعالى ، وماذا يضر العبد أن لو كان الناس كلهم صالحين ، عالمين ، عاملين ، ورعين ، زاهدين ، فإن في ذلك الشرف العظيم لدين محمدﷺ ، فليمتحن من يدعي الإخلاص لنفسه بما إذا فارقه تلميذه الذي يزعم أنه كان يحبسه ، ويخدمه سنين ، ولم يفتح عليه ، ثم إنه اجتمع بأحد من الأقران ، ففتح عليه ، فإن رأىٰ نفسه تنشرح لذلك ، فليشكر الله تعالى ، وإلا فليحكم على نفسه بالرياء والنفاق ، فإن المخلص يفرح لهداية الناس بأي وجه كان ، لا سيما إن قالوا : إنما لم يفتح لذلك الفقير على يد فلان ، لكن فلان ليس له قدم في الطريق ، فإن المرائي يكاد يتميز من الغيظ بخلاف المخلص ، وفي الحقيقة الهداية بيد الله تعالى ليست بيد أحد من العباد ، وجميع من فتح عليه على يد فقير•إنما كان ذلك من باب تعليق الأسباب على المسببات .

فاعلم ذلك ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: انشراح صدري إذا سمعت الناس يقولون عن تلامذة أحد من أقراني الذين أخذوا عن شيخي : إنهم على قدم عظيم ، وإن شيخهم هو الوارث لمقام شيخي حقيقة ، وأنا لم أرث من شيخي إلا الدعوى فقط ، ومتى ظهر مني تكدر لذلك ، فهو دليل على صدقهم في أني لم أرث من مقام شيخي شيئاً .

وسمعت أخي سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : من علامة المرائي أن لا ينشرح لكثرة المتقين إلا إن كانوا تلامذة له ، فيفرح حين يسمع الناس يقولون عنه : فلان أحيا الطريق بعد أستاذه ، ولم يحيها أحد ممن أخذ عن شيخه غيره ، وانظروا إلى جماعته كلهم متأدبون صالحون ، عليهم سكينة ووقار ، بخلاف جماعة فلان ، فمتى صغى بقلبه إلى ذلك فهو مراء دق المطرقة ، كما أنه متى انقبض لمدحه ومدح تلامذته ، دون أقرانه ، فهو دليل على إخلاصه ، كما أنه إذا انقبض لذمه وذم تلامذته ، ونسبتهم إلى الرياء والنفاق فهو دليل على عدم إخلاصه كذلك ، فاعلم ذلك والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ : عدم خروجي مع الناس للاستسقاء إلا بعد المبالغة في

تفتيش نفسي من صفات الفاسقين والمنافقين والمرائين ، فربما كنت من أفسق الناس وأنا لا أشعر ، فلا يجاب لهم دعاء بسبب خروجي معهم ، ولا أغتر باعتقاد أصحابي في الصلاح ، لا سيما إن أرسل إلي الباشا مثلاً أن أخرج بالناس للاستسقاء ، وخصني بذلك ، ومالت نفسي إليه ، فربما أكون سبباً لعدم سقيا الناس.

وقد وقع أن صاحبنا الشيخ نجم الدين الغيطي رحمه الله تعالى ، جاءني لما أمر السلطان بقراءة سورة الأنعام في الجامع الأزهر ، يطلبني أن أذهب كل يوم إلى الجامع الأزهر لأدعو بعد قراءة العلماء والفقراء ، فأبيت ، ولم أجبه إلى ذلك ، خوفاً من أن لا يستجاب لهم دعاء لكوني حاضر لا لعلة أخرى ، وعلمت بذلك سلامة صدر الشيخ نجم الدين من الحسد ، لكوني من أقرانه ، وقد رأىٰ دعائي أقرب إلى الإجابة من دعائه ، فالله ينفعنا ببركاته ، ويزيده من فضله ، ووالله أن في الجامع الأزهر كل واحد لا أصلح أن أكون أنا من طلبته ، وكيف يليق أني أركب كل يوم من حارتي حتى آتي إلى الجامع الأزهر لأدعو ، ولسان الحال يقول: لولا أن دعاء هذا أقرب إلى الإجابة من جميع علماء الأزهر ما أتوا به ليدعو.

وقد طلبوا السيد مالك بن دشار مرة للاستسقاء فأبى ، وقال: أخاف أن يمطر الناس حجارة لكوني فيهم ، واستبطأوا مرة المطر ، فقال: أنتم تستبطئون المطر وأنا استبطىء الحجر.

فالحمد لله الذي جعل لنا بهذا السيد أسوة ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم امتناعي من الإجابة إلى وليمة لكون أحد من أقراني هناك ، بل أذهب إلى الوليمة وأقبل رجله وركبته بحضرة ذلك الجمع العظيم ، واجعل المجلس كله له ، وقل من يفعل ذلك مع أخيه من فقراء هذا الزمان ، بل رأيت بعضهم أجاب إلى حضور تلك الوليمة ، ثم بلغه أن صاحب الوليمة دعا شخصاً من أقرانه الذين لهم تلامذة وهيلمة ، فامتنع من الحضور ، فقلت له ذلك ، فقال: مثلي لا يطلع له طالعة من فلان ، فقلت له: ولأي شيء تطلب أنت أن ترتفع على أخيك في المحافل؟ فقال لي: أنا أفضل منه ، فلما سمعت منه ذلك ، مع علمي بخلافه سقط من عيني.

ورأيت مرة سيدي الشيخ أبا الحمائل حضر في وليمة ، فأجلسوه في صدر الحلقة ، فدخل شيخ له هيلمة فأخروا له الشيخ أبا الحمائل ، ثم آخر ، فأخروه أيضاً ، وما زالوا يؤخرون الشيخ أبا الحمائل حتى جلس عند النعال ، فقال لي ولنقيبه: هذا مقامنا الحقيقي يا ولدي.

وقد سمعت أخي سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول. من علامة المتمشيخين بأنفسهم بالدعوى ، عدم صفاء قلوبهم لبعضهم بعضاً؛ لأن كل واحد منهم يعتقد في نفسه أنه هو الشيخ الحقيقي ، وأن أخاه هو المدعي للمشيخة بغير حق ، ويصدقه أصحابه على ذلك ،

وفي الآخرة يصلح الله تعالى بينهما ، ويكشف لكل واحد منهما أنه ليس بشيخ ، ولا شم للطريق رائحة ، انتهى.

وكان رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي إخراج هؤلاء المدعين للصلاح بغير حق في الاستسقاء؛ لأنه ربما منع الناس من السقيا بحضورهم إلا أن يتوبوا ويروا نفوسهم أحقر الناس ، وربما كان هؤلاء الذين يدعون المشيخة لا يعدون الكبر الذي في نفوسهم معصية ، وهو من أكبر المعاصي.

وكان رحمه الله تعالى يقول: ما دامت نفوس هؤلاء المدعين لا تنكبس ، لأن يتلمذوا لأقرانهم ، ويأخذوا عنهم الطريق ، ولو كانوا غير صادقين ، فالكبر باق في صدورهم؛ لأن الصادق لا تأبى نفسه من التتلمذ للكاذب ولو صورة ، بل يبادر إلى ذلك ؛ لاحتمال أن يصلح الله به حال الكاذب إذا سارقه بتعليم آداب الطريق له شيئاً فشيئاً ، فليتنبه الفقير لمثل ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تعريضي لأصحابي أن يحملوا كل شيء صدر مني من الأقوال والأفعال على المحامل الحسنة ، إنما آمرهم بذلك في حق غيري ، وأما أنا فمتى أمرتهم بذلك في حق نفسي فقد سددت على نفسي باب النصح من إخواني ، فإني لست بمعصوم من الخطأ في شيء من أحوالي ، وهذا هو القدم الذي كان عليه الصحابة والتابعون وكمل المؤمنين خلاف ما عليه أهل الناموس ، وممن لم يبلغ مبلغ الرجال فبمجرد ما يجلس للمشيخة بإذن شيخه أو بنفسه يصير يعرض لأصحابه ، بأن الفقير إذا كمل صارت أقواله وأفعاله فوق أحوال الناس ، وأنه لا ينبغي لهم أن يحملوا حاله على حالهم ، فيصير إخوانه لا يتجرأ أحد منهم على أن ينصحه بنصيحة شرعية ، ويقول: يحتمل أن الذي أدركته أنا بفهمي من حال الشيخ ليس هو بصحيح ، فينبغي لهذا الشيخ أن يحثهم على نصحه ، ويشدد عليهم في ذلك ، ويخبرهم أنه ليس بمعصوم ، حتى يعلموا منه يقيناً أنه يحب منهم النصح ، ويصير أحدهم يتقرب به إليه ، لما يعلم من محبته لذلك ، وما دام أصحابه يستحيون منه أن ينصحوه فهو لم يوف بهذا المقام ، إنما هو محب للناموس ، لا سيما إن حبس نفسه في الخلوة ، وأكثر من الإطراق ، ووضع الرأس في الطوق ، فإنهم يصيرون يهابونه أشد الهيبة ، وإنما قال أشياخ الطريق: يجب على المريد أن يحمل أحوال شيخه التي ظاهرها الفساد على أحسن المحامل ، أي بحيث لا يزدريه ، لا من حيث لا ينصحه ، فإن إزدراء المريد للشيخ بعد انتفاعه بتربيته.

وأما النصيحة في الدين فمطلوبة عند الكمل ، لكن من الأدب ، كأن يقول المريد لشيخه من باب العرض: يا سيدي رأيت منكم ما أفهم أن للشرع على ظاهره اعتراض ، وهو كيت وكيت ، وأحب أن تداووني بالجواب عنه ، فإن كان الشيخ عنده عن ذلك جواب أجابه وإلا

تنبه ، فإن العصمة منتفية ولو كان ذلك الشيخ محفوظاً من الزيغ ككمل الأولياء الذين يعلمون من أنفسهم الحفظ كالشيخ عبد القادر الجيلي ، والشيخ يوسف العجمي ، وأضرابهما ، رضي الله تعالى عنهم.

وأما من لم يبلغ مقام الحفظ فيتأكد عليه أن لا يسد على نفسه باب النصح من إخوانه ، فإنه يهلك ولا يشعر.

وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يتهم نفسه بالنفاق ، مع كونه من العشرة المشهود لهم بالجنة.

وكان رضي الله تعالى عنه يذهب إلى حذيفة بن اليمان ، ويقول: يا حذيفة أنظر هل فيّ شيء من النفاق ، فإنك كنت تعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ ، فيبكي حذيفة ، ويقول: ما أرىٰ فيك شيئاً من النفاق ، فيقول له: انظر ثانياً ، وانصحني لله تعالى.

وامتحن سيدنا عمر رضي الله عنه يوماً أصحابه فقال: ما تفعلون بي إذا خرجت عن الاستقامة؟ فقالوا: ننصحك ، فإن لم تقبل منا ضربنا رأسك بالسيف ، ففرح ، وقال: هكذا كونوا. فإذا كان هذا حال السيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكيف بمن هو غارق في شهوة بطنه وفرجه من أمثالنا.

نسأل الله اللطف ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي نقصي إذا سمعت آيات التخويف والزجر ، أو الأحاديث ، أو كلام السلف الصالح ، ولم يحصل عندي خشية ولا بكاء ، وعدم قولي إن ذلك من صفات الكمال إشارة إلى أنني ترقيت عن مثل ذلك ، كما عليه بعض المتمشيخين ، فيقولون ، إذا استشعروا أن أحداً نقصهم بعدم البكاء عند سماع القرآن مثلاً: البكاء إنما يكون للمريدين أوائل دخولهم الطريق ، وأما الكمل فيبكون على ماذا ، والذي سبق في الأزل لا بد من وقوعه؟ فيوهمون السامعين أنهم ترقوا عن مقام المريدين.

وربما يستدل أحدهما بقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، لما رأىٰ شيخاً يبكي عند سماع القرآن ، ولم يبك هو: هكذا كنا حتى قست قلوبنا ، أي قويت وصلبت ، وصارت تحمل مثل تلاوة القرآن ، ولم تتصدع لقوتها.

وربما كان يحكى عن الجنيد رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول: إذا سئل عن عدم تواجده ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] دفعاً لما يتوهم فيه من النقص ، مع أنه لم يبلغ مقام المريدين ، فليحذر القاصر من مثل ذلك ، فقد بكى الأكابر الدم مع كمالهم ، وما رأوا أنهم وفوا بمقام العبودية ، فاعلم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم اغتراري بكثرة أصحابي المعتقدين فيّ ، وكلما كثروا رأيت ذلك من الابتلاء ، لكثرة توجه حقوقهم عليّ ، وهذا خلق قل من يتنبه له ، بل يرىٰ بعضهم ذلك من أكبر النعم ، ولا عليه إن كانوا سالكين طريق القوم ، أم مخالفين لها ، ومن علامة المغتر أنه كلما كثرت تلامذته شكر ربه ، وكلما نفروا عنه انقبض خاطره ، سواء علم من نفسه القيام بحقوق ذلك أولاً ؛ وذلك لأنه مع الله تعالى على علالة ، ولو أنه كان على قدم الإخلاص لنظر ما عليه من الحقوق وهل وفىٰ به أم لا ، ثم بعد ذلك يفرح أو يحزن.

وقد أجمع الأشياخ على أنه ما ثمّ حالة أعلى من الاشتغال بالله وحده ، ثم الاشتغال بما يلحق بذلك على وجه الإخلاص في الحالتين ، وأما الاشتغال بتقويم عوج الخلق ، وإن كان فيه نفع يتعدى إلى الخلق ، فيطرق الداعي إلى الله تعالى فيه الحجاب ، لا سيما إن ادعى المدعون على الداعي أنه غير مخلص في دعائه ، وأنه إنما يريد بذلك الرياسة عليهم ، فإن ذلك ربما أدى إلى الجهاد ، وضرب السيف ، وقل داع يحضر مع الله تعالى حال ضربه بالسيف ، إلا أن يكون ممن وصفهم الله تعالى بما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [صَ: ٢٤]. فاحمد الله تعالى يا أخي إذا قل أتباعك ، وسأل الله لمن كثر أتباعه أن يلطف به في الدارين ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

الباب الخامس عشر
في جملة أخرىٰ من الأخلاق

فأقول وبالله التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل:

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إنزاله تعالى اللذة في طعامي ، كما فعل الحق تعالى بطعام أكابر الأولياء ، كالإمام الليث ، والإمام الشافعي ، وأضرابهما رضي الله تعالى عنهم ، وربما يأكل الأمير الكبير من طعامي الذي ليس فيه لحم ولا دهن ، فيستلذ به أكثر مما يستلذ بطعامه الكثير اللحم والدهن ، وكما وقع ذلك لابن بغداد ، والدفتردار ، والباشا محمود ، وغيرهم ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: سماعي في زاويتي قراءة القرآن والحديث ، وذكر الله عز وجل ليلاً ونهاراً على التواصل ، فلا يفرغ قارىء إلا ويبتدىء قارىء آخر ، ولا يفرغ القارىء من كتاب في الحديث إلا ويبتدىء في كتاب آخر ، ولا يفرغ القارىء لكتب التصوف من كتاب إلا ويبتدىء في كتاب آخر ، ولا يفرغ القارىء من كتاب في الفقه إلا ويبتدىء في كتاب آخر ، وهذا لا يكاد يوجد الآن في زاوية من زوايا مصر إلا قليلاً.

ثم من تمام النعمة كون الفقراء القاطنين يحضرون قراءة الحزب ، والأوراد ، وصلاة الجماعة ، لا يكاد يتخلف منهم واحد ، ويسهرون معي ليلة الجمعة ، من صلاة العشاء إلى الفجر ، ولو عرض على أحدهم الفضة ليذهب إلى القراءة في القبور أو غيرها يرضىٰ ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: في الزاوية إرساله تعالى شخصاً اسمه الشيخ منصور من أولياء الله تعالى ، فيطلع إلى منارة المسجد من أول ما ينصب الموكب الإلهي في السماء والأرض ، فيصير يذكر الله تعالى بصوت جهوري مأنوس ، فيوقظ جميع من في الزاوية من المفلحين وغيرهم ، ويمتد ذلك إلى نحو ستين داراً من كل جانب ، فيستيقظون ، فيذكرون الله تعالى ، ويستغفرونه لا يكاد يغفل عن ذلك ، أو ينام ليلة واحدة ، ثم يعقبه الشيخ محمد الترساوي وغيره ، فيقرؤون القرآن في الزاوية بصوت حسن ، فتنزل الرحمة على الزاوية وعلى جيرانها إلى طلوع الفجر ، ثم يفتتحون القرآن جماعة إلى صلاة الصبح ، ثم يفتتحون

الحزب ، فيصلون على رسول الله ﷺ ، ويذكرون الله تعالى إلى ضحوة النهار ، ثم يشرع أكابرهم في قراءة دروس العلم عقب صلاة الضحى ، وصلاة الظهر ، وصلاة العصر ، ثم المطالعات ، ويشرع من دونهم من المجاورين في قراءة القرآن ، وحفظ المتون من أول النهار إلى آخره ، ثم يجتمعون كلهم على الاشتغال بالتصوف ، وآداب الطريق ، إلى أذان المغرب ، ثم يتحزبون على قراءة القرآن جماعة وفرادى إلى أذان العشاء ، ثم يجتمعون معي على مجلس ذكر عظيم ، ثم يتفرقون لورد النوم أو المطالعات إلى وقت شروعهم في مثل حالهم أمس ، وهكذا.

وهذا من أكبر نعم الله تعالى علينا ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة وجود الرزق عندي في الزاوية ، حتى يفيض على أهلها ، وأخذي منه إلى أصحابي من أرز وعسل ودجاج وإوَز وغير ذلك ، ثم إني إذا وعدت أحداً بهدية في وقت ، ففات الوقت ولم أهدها له لا أرىٰ أني بعد ذلك قمت بواجب حقه ، لو كانت ألف دينار ، ولو زدته أضعافها ، بل أرىٰ تشويش خاطره في مثل انتظار ذلك الوقت يرجح على هديتي ، ولذلك كان الغالب علي عدم الوعد ، خوفاً من إخلافه ، إذ لم يعصم من خلف الوعد إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد تقدم في هذه المنن أن سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى كان لا يقبل قط هدية أعلموه بها قبل أن تحضر بين يديه ، ويقول: إن النفس تصير متشوقة إلى حضورها ، وما جاء للعبد باستشراف نفس فهو غير مبارك ، كما صرح به في الحديث ، انتهى.

ومما يقع لي أنني أتخلف في بعض الأوقات عن الصلاة على رسول الله ﷺ ، في الوقت الذي جعلته لها فاستشعر انتظار رسول الله ﷺ لصلاتي عليه ، فلا أرىٰ أنني قد كافأته على انتظاره لي ﷺ ، ولو أهديت إليه سائر أعمالي المقبولة ، لعظم مقامه ﷺ ، ولو صليت عليه قدر ما كنت أصلي عليه مائة ألف مرة بعد ذلك ، لا أرىٰ أني كافأته لعظيم مقامه ﷺ ، ولو أنني لم أجعل له وقتاً لما كنت وقعت في مثل ذلك.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول: لا توقتوا ذكركم بوقت ، بل كونوا مع الله بالحضور في سائر أوقاتكم ، وإن وقتم للذكر وقتاً فالزموا الحضور مع الله تعالى حال ذكركم ، فإنه لا يحسب لكم منه إلا ما حضرتم فيه مع الله تعالى ، انتهى.

فعلم أن غالب من يعين أو يوقت الأوراد ربما يصير يأتي بها وقلبه غافل بحكم العادة ، وذلك قليل النفع ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: إصلاح زوجاتي الأربع: زينب ، وحليمة ، وفاطمة ، وأم الحسن ، ابنة سيدي مدين ، نفعنا الله ببركاته ، وهذه النعمة من أكبر نعم الله تعالى عليّ ،

ولولا أنها نعمة عظيمة ما امتن الله تعالى بها على نبيه زكريا عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومن جملة إصلاح زوجاتي هؤلاء الأربع: أنهن لا يجلسن قط ساعة بلا غسل من الجنابة، ولا يخرجن صلاة عن وقتها إلا لحيض أو نفاس أو نسيان، حتى في طريق الحجاز ذهاباً وإياباً، ولا يتركن قيام الليل، وأعظمهن عبادة فاطمة، وبنت سيدي مدين.

فأما فاطمة، فربما أحرمت خلفي في صلاة الليل، فأقرأ بها الركعة الواحدة ربع القرآن، فلا تفارقني إلا لبكاء طفلها إذا لم تجد من يقوم مقامها في شأنه.

وأما بنت سيدي مدين، فكان قيامها في ليالي الشتاء والصيف من أول الثلث الأخير من الليل دائماً، لا تكاد تتخلف عنه أبداً.

ومن جملة إصلاح الأربع أيضاً أنهن لم يكلفنني يوماً من الدهر إلى شيء يُشترى من السوق إلا في المرض، وأما في الصحة فهن معي على ما يفتح الله تعالى به علينا.

ومن جملة إصلاح فاطمة أم عبد الرحمن، أنني لم أطلع عليها قط وهي في الخلاء، وسافرت معي الحجاز ثلاث مرات، فلم أطلع قط على بول ولا غائط ذهاباً وإياباً، مع أني معادل لها.

من إصلاحها أن العكام أو الجمال لم ير لها شخصاً، من حيث دخلت المحمل لما سافرت من بيتها إلى أن دخلت مكة، إلى أن رجعت إلى بيتها، ونزل نساء الأكابر كلهن في مثل العقبة، وهي لم تنزل، وكانت خفيفة اللحم، وكان الجمال ينيخ لها الجمل على باب الخيمة، فتخرج من المحمل للخيمة، وتركب من داخل الخيمة، وهذا ما رأيته وقع لامرأة في الحج أبداً.

ومن إصلاحها أيضاً أنها لا تقدر تركب مع مكاري، كأهل مصر أبداً، ولا تقدر كذلك تركب وحدها، ولا تقدر حياء على شخص يراها في الإزار من المعارف، ولا تحضر عرساً ولا جمعية من شدة الحياء من الناس. ومن جملة إصلاحها أيضاً أنها لا تقدر على النظر في وجه الكحال لينظر عينها إذا رمدت وعجزنا فيها أن تفتح عينها للكحال لينظرها فلم تقدر، وبرئت من الرمد، لكن حصل في عينها ضيق، فهي أضيق من أختها إلى الآن، واختارت ضيقها على فتحها للكحال.

ومن إصلاحها تعففها عن أخذ ما تعطيه لها الناس حين رددته أنا عليهم، وقد أعطتني ابنة «خاص بك» عشرة دنانير لما حججت فرددتها، وقلت: لا أقبل رفقاً من امرأة، فأعطتها لأم عبد الرحمن فردتها ولم تقبلها، وكذلك وقع لامرأة الخواجا أبي بكر الداودي، أنها أعطتني أربعة دنانير ولما قضيت لها حاجة، فرددتها فلما عجزت مني أعطتها لأم عبد الرحمن فردتها

عليها ، وقالت لها: أنا لا آكل من كسب امرأة ، وكذلك زوجي ، وهذا أمر قل أن تراه من أحد من نساء الفقراء في هذا الزمان.

ومن إصلاح نسائي كونهن عوناً لي على الخير ، فينبهنني على أفعال الخيرات والقربات ، والمبرات والصدقات ، وإذا لم أجد ما أتصدق به على من يسألني من المحتاجين واسينني بما يستطعنه من دنياهن أو ثيابهن أو أمتعتهن ، مخلصات في ذلك خصوصاً أم عبد الرحمن ، فرضي الله تعالى عنها ، وحشرنا معها آمين ، فاعلم ذلك ترشد ، والله يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تأهيلي لخدمة الفقراء القاطنين عندي للاشتغال بالعلم والقرآن والأدب والأوراد من منذ ثلاثين سنة ، ومن غير تقلق مني ، ولا تعب في تحصيل معاشهم ، ولو صاروا ألفاً أو أكثر لا أتقلق منهم؛ لأن ربهم هو الرازق ، وما قيدهم في الزاوية إلا وهو يسوق إليهم أرزاقهم ، وقد بلغوا عندي الآن نحو مائتي نفس رجالاً ونساء وأطفالاً ، وأحزن إذا نقصوا ، وأفرح إذا زادوا؛ لأني مؤمن بأن المعونة تأتي من الله على قدر المؤونة(١) كما ورد ، فلو أن أهل مصر كلهم بحمد الله تعالى كانوا عيالي ما حملت لهم هماً.

وقد حزرنا الفقراء الذين حفظوا القرآن وماتوا إلى رحمة الله تعالى ، أو رجعوا إلى بلادهم ، فوجدناهم أكثر من ألفي نفس ، وهذا الأمر قل أن يوجد اليوم في زاوية بمصر في حياة صاحبها ، وإن كان لهم وقف ومسموح وجوالٍ ، وغير ذلك.

وقد قال لي مرة شخص من السواحين: قد سحت في بلاد الشام واليمن والروم والعجم ، فما وجدت مدينة مثل مصر ، ولم أجد في مصر زاوية فيها اشتغال وخير ، أكثر من زاويتكم ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: محبة الفقراء الصادقين الطالبين للآخرة في الإقامة عندي ، وسبب ذلك أني بحمد الله تعالى لا أتخصص بشيء إلا لضرورة شرعية وكل شيء دخل في يدي من أمور الدنيا فرقته عليهم ، من فاكهة وطعام ونقد ، حتى ما وقف عليّ وعلى ذريتي بالخصوص أفرق أجرته عليهم ، وآكل منه كأحدهم أو أقل ، وربما دخل في يدي الألف نصف مثلاً فأفرقها كلهم عليها ، ولا آخذ لنفسي ولا لولدي ولا لعيالي منها نصفاً واحداً تعففاً عن مزاحمتهم ، وربما أعطاني أحد شيئاً من الذهب لنفسي ، بحيث لم يعلم به أحد من الفقراء فأفرقه كله عليهم كذلك ، وأقول: لعله ما أعطاني إلا لما أشاعه الناس عني أني لا أتخصص عن الفقراء بشيء ، فلا أخيب ظنه فيّ ، وأنا أوافق ، وهذا الأمر قليل من يفعله من أقراني اليوم ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٩٥٤).

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة تفرقتي على الفقراء وما يدخل على اسمهم من الوقف وغيره بالمعروف ، فأفرق كل سنة نحو العشرين ألف نصف ، ولا آكل منها ، ولا ألبس ، ولا أدخر شيئاً من ذلك إلا على اسمهم.

وإذا علمت أن في شيء من جهات الوقف أو الهدية شبهة لا أفرقها عليهم ، حتى أقول لهم هذا المال فيه شبهة ، فمن كان صاحب ضرورة فليأخذ منه بقدر ضرورته فقط ، وإلا فليتركه ؛ وذلك لأخرج من تبعيته يوم القيامة ، فلا يكون لهم المهناة في الدنيا ، وعلي الوزر في الآخرة.

وبلغ العميان عندي تسعة وعشرين شخصاً ، وبلغ الذين يعجنون الدقيق بالنوبة عشرين نفساً ، وبلغ العجين كل يوم عندنا إردباً وثلثاً ، وبلغ الواردين عليّ من الضيوف زيادة على المجاورين في كل يوم سبعين نفساً ، وأجرى الله تبارك وتعالى على يدي جميع ما يحتاج إليه المجاورون ونساؤهم ، فما منهم أحد له وظيفة خارج الزاوية يأتيه منها شيء ، بل جميع ما يحتاج إليه أحدهم شرعاً يجده في الزاوية ولا يحتاج قط إلى شراء شيء من السوق إلا في النادر ، وكلما كثر أولاد المجاورين أفرح ، حتى كأنهم أولادي لصلبي من غير فرق ، وزوجت منهم نحو أربعين نفساً ، ووزنت عنهم غالب مهورهم من فضل الله تبارك وتعالى ، وعملت لهم طعام العرس والعقيقة ، وحج معي غالب أكابرهم في عدة سنين ، ولم أكلف أحداً منهم بشيء من ذلك ، إلا إن عمل ذلك من غير علمي ، وبالغت في عدم تكليفهم بشيء حتى اشتريت لنسائهم اللبانة ، لينتفعوا بها وغير ذلك ، وهذا أمر ما أظنك يا أخي سمعت أن أحداً من الفقراء فعله غيري في جميع زوايا مصر ، فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تيسير الفرن الذي يخبز فيه الفقراء في البيت ، وتيسير وقوده كل سنة ، فيأتينا كذا وكذا وسقاً في المركب إلى أن ترسي في الخليج على باب الزاوية ، وذلك من تبن الفول الطاهر ، فلا تحتاج إلى الزبل أبداً إلا في النادر ، فيخبز به نساء المجاورين طول السنة كل يوم الأردب وأكثر ، ولم يتيسر ذلك لأحد من فقراء مصر ، ولا لسيدي أحمد الزاهد ، ولا لسيدي مدين ، ولا للغمري ، ولا لغيرهم ، مع تمكنهم ، وعلو مقامهم ، وطاعة الولاة لهم ، ولا أعلم خارج مصر زاوية أكثر خبزاً ولا مجاورين من زاويتنا ، ما عدا جامع الغمري ، وزاوية سيدي محمد الشناوي ، ومقام سيدي أحمد البدوي ، فالحمد لله الذي جعل الفرن في الدار لا يحتاج الفقراء إلى الخروج بالعجين لفرن السوق الذي يخبز فيه بالزبل والنجاسات ، لا سيما حصول المشقة في ذلك أيام المطر ، والشتاء في الزلق والبرد.

وقد بسطنا الكلام على جملة عدد المجاورين الذين كانوا عند سيدي إبراهيم المتبولي ،

وسيدي محمد الغمري ، وسيدي عثمان الخطاب ، وسيدي مدين ، في المنن الوسطى ، وأكثرهم دون النصف من المجاورين في زاويتنا ، فاعلم ذلك ، والله يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: تيسير جميع ما يحتاج إليه في الزاوية من الطعام واللباس وغيرهما ، من غير ذل في طريق الوصول إلى ذلك ، ولا سؤال أحد فيه من الخلق ، وهذا أمر قل أن يوجد الآن في زاوية ، فلا بد لأحد من سؤال الولاة ، بأنفسهم أو بواسطة ، بلسان الحال ، أو بلسان المقال ، بل بعضهم سافر إلى بلاد الروم في طلب ما بيده رزقه أو جوالٍ أو مسموح ، مع كتابته في قصة أو العبد فقير الحال ، وكثير العيال ، ومن أهل العلم والفقراء ، وليس له ولا لجماعته بمصر شيء يقوم بهم ، ونسي أن الله تعالى يطعمه من حين كان في بطن أمه إلى أن شابت لحيته ، فيشتكي ربه أولاً ، ويزكي نفسه بالعلم والفقر ثانياً ، ويذل نفسه للخلق ثالثاً ، وما هكذا كان السلف الذين أدركناهم بمصر وقراها ، ثم بعد أن ينهي في قصته أن تلك الجوالي مثلاً على اسم الفقراء والمساكين يطعم الفقراء منها مدة ، ثم يوسوس له أبو مرة أن يقطع طعام الفقراء ، ويتخصص به هو وأولاده ، وإن نازعه أحد برطل الولاة ببعضه ، ويصير معدوداً من جملة النصابين السفهاء.

وقد سألني الأمير (جانم) الحمزاوي رحمه الله تعالى ، أن يسأل لي السلطان في مسموح للزاوية فأبيت ، وسألني أن يعمل في الجوالي كل يوم خمسة عشر نصفاً فأبيت ، وقلت له: هذه جامكية أمير يسافر بالتجاريد ، وأنا لا نفع فيّ ، ولا لي قدرة على جهاد ولا غيره ، فكيف أزاحم عسكر السلطان على مال المصالح ، وأنا أقنع باللقمة والكسرة اليابسة لو لم أجد غيرها ، مع أني بحمد الله تعالى أوسع معيشة مع أصحاب الجوالي والمسموح ، وعندي كل ليلة من الخبز والطعام أكثر مما يعمله أحدهم في مولده من الشهر إلى الشهر ، أو من السنة إلى السنة ، بركة في رزقي من الله عز وجل ، بواسطة رسول الله ﷺ ، حين أوعدني بسعة الرزق لما أنشأت مجلس الصلاة والتسليم عليه ﷺ في جامع الغمري، في سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، فاعلم ذلك ترشد ، واعمل على التخلق به ، والله يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كل سنة من عسل النحل نحو عشرة قناطير ، ومن عسل القصب نحو عشرين قنطاراً ، ومن القمح ثلاثمائة أردباً ، وبلغ استجرار الفول الحار أيام الشتاء كل سنة أربعين أردباً ، ومن الكشك سبعة أرداب ، ومن الأرز سبعة أرداب ، ومن البسلة والعدس نحو خمسة وعشرين أردباً ، وبلغ عجين الكعك كل عيد خمسة أرداب ، ويأتينا من كعك الريف نحو ثلاثة أرداب في العيد ، ونشتري مع ذلك من التمر والخرنوب والتين نحو خمسة قناطير ، وهذه الأمور ليست اليوم في زاوية من زوايا مصر

فاعلم ذلك، والله يتولىٰ هداك، وهو يتولىٰ الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به علي: كل سنة من البطيخ الهندي نحو ألفي بطيخة، نخزنها على اسم الضيوف والمرضىٰ من المسلمين، ونهادي منه الفقراء والأغنياء، فيقيم عندنا كل سنة إلى أن لا يبقى في مصر منه إلا قليل، وذلك من زرعنا بالجزيرة بناحية برشوم الصغرى.

وكذلك من جملة نعم الله تبارك وتعالى عليّ، أننا نقطع من هذه الجزيرة كل سنة كذا كذا وسقاً من الحطب، نطبخ به، طول السنة، وغالب زوايا مصر يشتري أهلها الحطب طول سنتهم، وكذلك البطيخ، وهذا الأمر لا يخزنه أحد من فقراء مصر ولا علمائها في بيته، ويؤثر به على نفسه غيرنا، فاعلم يا أخي ذلك، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك، وهو يتولىٰ الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم اعتمادي على ما يأتيني من الرزق من جهة وقف أو هدية ونحوهما، ولذلك لم يزل رزقنا في زيادة البركة، وغالب من يكون لهم وقف أو مرتب أو مسموح تجدهم في قلة بركة، والديون عليهم، ولم يزل أحدهم يشكي ويبكي، وذلك لاعتماده على غير الله تعالى في الرزق من الجوالي والمسموح وغيرهما، وإن شككت يا أخي في قولي هذا فاسأل جميع أهل الجوالي والمسموح على غفلة، تجد أحدهم يشكي ويبكي، ومصداق ذلك أن أحدهم إذا عمل له عرساً أو مولداً فلا بد من سؤال الناس في المساعدة، وقد عملنا بحمد الله تعالى كذا وكذا عرساً ما أحوجنا الله تعالى إلى سؤال أحد في المساعدة فيها.

وقد أخبرني الشيخ عبد الحليم بن مصلح المنزلاوي، قال: لم يزل الرزق عندنا في الزاوية فائضاً علينا، حتى وقف بعض الناس علينا بعض عقارات وأماكن، فضاق رزق الزاوية، وقلت البركة منه، وصرنا نقترض غالب الأوقات ما نشتري به للفقراء القمح والأدم.

وفي الحديث: «**أبى الله أن يجعل رزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب**»[1] اهـ.

وذلك ليصير متوجهاً إلى الله تعالى، بخلاف من يخزن قوت عامه مثلاً، فإنه لا يكاد يذكر الله إلا قليلاً، فاعلم ذلك ترشد، والله يتولىٰ هداك، وهو يتولىٰ الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايته تعالى لي من الأكل من خراج رزقة أو بيت بلغني أن واقفه عمل فيه حيلة حتى استبدل، وقد جمعت الفقراء يوماً وقلت لهم: اسألوا الله تعالى

---

(١) أخرجه الشهاب في مسنده (٥٨٥)، والديلمي في مسند الفردوس (١٧١٤)، والأصبهاني في دلائل النبوة (٦٢).

أن يعطل كل جهة فيها لوث في وقف زاويتنا ، بقدر ما فيها من الشبهة ، فمنها ما كان الواقف أخذه بثمن في الذمة ثم غير بعضه وقت الإقباض بنحو محاباة ، فتعطل بموت الواقف تحت أيدي مالكيه إلى أن استوفوا قدر حقهم ، ثم سلموه لنا بطيبة نفس ، ومنهم ما تعطل سنين كثيرة ، وتعطل منها جهتان ، فلم يقدر أحد يأخذ منهما درهماً واحداً إلى وقتنا هذا ، ونرجو أن يقع فيها كما وقع في نظائرهما ، ليتم بذلك غرض الواقف مع براءة الذمة من التبعات.

ولما وقع التفتيش أرسلت للديوان ورقة من غير سؤال منهم ، مضمونها أن تحت نظري جهات ، وقد بلغني أن فيها شيئاً ليس له أصل ، والمسؤول من فضل مولانا الوزير علي باشا ، ومباشري الديوان أن يفتشوا هذه الجهات التفتيش التام المبرئ للذمة ، وما وجده للسلطان يأخذونه ، وما وجدوه لغيره يعطونه له ، وما وجدوه لنا يردونه علينا ، ولا يخافون من دعاء الفقراء عليهم إذا أخرجوا من وقفهم شيئاً بحق ، فإن الفقراء هم السائلون في ذلك تورعاً وتعففاً ، انتهى.

وهذا أمر ما بلغنا أن أحداً عمله في مصر غيرنا ، بل بعضهم يريد أن يبرطل المباشرين حتى يسكتوا ، فلا يرضون ، وقد بسطنا الكلام على ذلك في المنن الوسطى ، فراجعه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: موافقة إخواني المجاورين عندي على رد ما يأتينا إلى الزاوية من أموال الولاة ، وهداياهم ، فإذا قلت لهم: لا تقبلوه ، يردون ذلك بطيب قلب ، وانشراح صدر ، وكثيراً ما يأتي قاصد الولاة بمال لأتصرف فيه برأيي ، ولا أعتقد خلوصه من الشبهة فأرده ، فلا يأخذه حامله ، ويتركه بين يدي ويذهب ، والفقراء حاضرون ، فأبذره في صحن الزاوية إعراضاً عنه ، بقصد إباحته لمن يأخذه غير جماعتي ، فيفهمون مني عدم ميلي لتناولهم له ، فلا يقوم له أحد وإنما يلتقطه الأطفال من أولاد مصر وغيرهم ، وربما أطرحه بين أيديهم ، وأقول لهم: من كان فيكم محتاجاً فليأخذ منه حاجته ، فلا يتعدى ما أقوله أحد منهم.

وهذا خلق غريب في فقراء الزوايا اليوم ، بل بعضهم يزدحمون على القاصد الذي جاء بالمال ، ويرمونه إلى الأرض ، ويصير أحدهم يخلص الفلوس من يده غصباً عليه ، وقد بسطنا الكلام على الولاة ، ووقائعنا معهم في المنن الوسطى ، فراجعه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي وأصحابي من الأكل من خبز ابن عمر ، وابن بغداد ، الذي كانا رتباه لزاويتنا مع أننا ما قبلناه إلا حتى رددناه مراراً ، وقال لنا: أذنت لكم أن تفرقوه على المحتاجين ، فرتبناه للعميان في الزاوية وخارجها ، وما فضل منه يوضع عند النقيب ليطعمه للفلاحين ، ونحوهم من الضيوف.

وكان أحد المجاورين يجوع ، فلا يجد إلا ذلك الخبز فلا يأكله ، ويصبر حتى يخبز خبزنا ، ولم نزل على ذلك حتى شنق ابن عمر داود ، ومحمد بن بغداد في باب زويلة ، وهذا الأمر قل من يتورع عنه ، بل بعضهم كتب له قصة ، وسأل ابن بغداد أن يرتب له خبزاً ، وقال: إن الخبز الذي جعلته في زاويتنا لم يحصل لي منه شيء ، فقلت له أنت شيخ الزاوية ولا ينبغي لك إلا إظهار العفة ، فلم يسمع لقولي ، مع أن له عشرة أنصاف كل يوم ، وليس عنده عيال سوىٰ زوجته فقط ، فاعلم ذلك ترشد والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: مطاوعة إخواني لي في عدم قراءتهم القرآن بفلوس ليالي الجمع وغيرها في بيوت الناس ، أو على القبول ، عدم أكلهم من طعام العزاء ونحوه ، ولو أنه عرض على أحدهم العشرة أنصاف ليقرأ بها ليلة الجمعة في غير الزاوية لا يقبلها ، ويترك مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ ، وهذا أمر لا تكاد تجده الآن في زاوية في مصر ، بل غالبهم يذهب إلى القراءة على القبور ، حتى تصير الزاوية ليلة الجمعة ما فيها أحد يقول: لا إله إلا الله.

وقد أراد سيدي أحمد بن سيدي مدين أن يفعل مثل ذلك في زاويته ، ويحجر عليهم ، فخرجوا من الزاوية ولم يطيعوه ، وأبطلوا مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ ، وقالوا له: لا يلزمنا فعل ذلك في سوى الصلاة.

وقد خرج عن طاعتي بعض الناس ، فصاروا كالممقوتين ، وذهبت النضارة من وجوههم ، وقلت البركة من رزقهم ، ثم إنهم خرجوا عن المجاورة بالكلية ، وسكنوا خارج الزاوية ، وما خرجوا إلا لأجل جمع الدنيا ففرت منهم ، فلا هي تقف لهم حتى يأخذوها ، ولا هم يرجعون عن الجري في طلبها ، فندموا حيث لا ينفعهم الندم ، وفي الحديث: «**ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها**»[1] يعني احتساباً وتقرباً إلى الله تعالى من غير عوض دنيوي ، فإن كل من كان الحاث له على تلاوة القرآن ما يأخذه من الدنيا ، فهو لم يجالس الحق تعالى في حال قراءته ، وهو تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتغى به وجهه ، كما ثبت في الصحيح ، فيقال للذي يترك الزاوية ليلة الجمعة ، ويخرج إلى القبور ويقول: أنا لم أخرج للدنيا ، وإنما خرجت لتلاوة القرآن العظيم ، إن تلاوة القرآن في الزاوية ممكنة على أن مجلسنا بحمد الله تعالى ليلة الجمعة ما بين قراءة القرآن على رسول الله ﷺ ، وتوحيد الله عز وجل إلى طلوع الفجر ، وكلامنا مع هؤلاء الفقراء إنما هو

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٩٣) ، ومسند الشاميين (٤٤٦) ، والديلمي في مسند الفردوس (٥٢٤٤).

ما دام أحدهم يجد اللقمة ، وأما إذا حول الله تعالى النعمة من الزاوية والعياذ بالله تعالى ، فلا تحجير على الفقراء إذا قرؤوا القرآن بالفلوس.

وقد سألت الله تبارك وتعالى مراراً أن كل مجاور أقام عندي لجمع الدنيا أن يلهمه إنفاقها على نفسه وعياله وضيوفه ، وإن لم ينفقها كذلك ، فأسأل الله تعالى أن يلطف به ولا يناقشه في الحساب يوم القيامة إكراماً للقرآن الذي في جوفه ، إنه بعباده رؤوف رحيم ، وماذا يضر الفقير لو أكل ولبس وأطعم إخوانه كل شيء يدخل يده ، ويتصدق من ذلك سراً وجهراً ، فالله تعالى يجعل جميع أصحابي كذلك آمين ، فاعلم ذلك ، واعمل عليه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: جمعي للفقراء القاطنين عندي بقصد نفعهم لأنفسهم بالأصالة ، وأجعل نفع نفسي بالأجر والثواب الحاصل منهم بحكم التبع ، لا بالقصد والحول. ثم إني إن رأيت أحدهم تجرد لحب الدنيا نفر منه خاطري ولم يصر بيني وبينه علاقة في المحبة ، ولو كان مقيماً عندي ليلاً ونهاراً ، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]. ثم إنه لا بد أن يخرج من الزاوية ، ولو على طول ، ولو أن مثل هذا شم رائحة الورع لم يأكل من الخبز الموقوف عليها إلا عن ضرورة شرعية ، ويقول: إنما ذلك للفقراء والمساكين القاطنين المنقطعين للعبادة ، وأنا لست منهم ، لعمري لو أن صاحب تلك الصدقة رأىٰ أحداً في الزاوية دنياوياً ، وقلبه مصروف إلى الدنيا ، لم ينشرح لإطعامه من وقفه لقمة.

وقد بلغنا أن من شرط الرهبان ، أن لا يلتفت أحدهم إلى الدنيا ، ومتى أحب الدنيا اشتكوه لقيم الكنيسة وأخروجه منها ، خوفاً أن يتلف البقية ، انتهى.

إذا كان الكفار يزهدون في الدنيا ما داموا في الكنيسة ، فأهل العلم والقرآن أولىٰ.

ونقل الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه ، في الفتوحات المكية الإجماع من سائر الملل ، على أن الزهد في الدنيا مطلوب ، وأن إخراج العبد ما بيده منها أولىٰ عند كل عاقل ، انتهى.

وفي قواعد الشريعة ما يشهد لأن كل شيء وقف على جماعة موصوفين بصفة ، لا يجوز صرفه لمن فقد تلك الصفة ، ومن هنا تورع بعضهم عن خبز الخوانق الموقوف على الصوفية ، وقال: أنا لست بصوفي ، إنما الصوفي مثل الجنيد ، والشبلي ، وأضرابهما ، انتهى.

فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: مطاوعة إخواني المجاورين إذا أشرت عليهم بترك الأكل من شيء دخل الزاوية ، من طعام أو فاكهة ، ورضاهم بعدم تخصيص أحدهم بشيء إذا كان كبيراً ، ورضاه بأن يأخذ كأصغرهم ، وقد أمرت النقيب أن يفرق عليهم كل شيء دخل

الزاوية من عسل وفاكهة ، كما يفرق أهل المدينة المشرفة القمح على المجاورين فيها ، فربما صاب كل واحد تينة أو خوخة فقط ، ثم إن شيخ الزاوية إذا قدر أنه راعى أهل الشره ، واللؤم ومالحي الرقبة عنده ، وخصص أحدهم بشيء ، فقد خرج عن قواعد الفقراء ، ثم لا بد أن يحول الله تعالى عنهم الرزق؛ لأن أنفاس الآكلين ، كلما كثرت جذبت الرزق ، وربما كان الثلاثون من موالح الرقبة ، لا يجذبون بأنفاسهم مقدار ما يجذبه يتيم أو أعمى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حسن سياستي لمن تشرب قلبه حب الدنيا من إخواني ، بحيث صار يعكس الأوراد ، وقراءة العلم ، ويرجح الدنيا على الآخرة ، فلا أقول له قط إنك انسلخت من طور الفقراء إلى طور أبناء الدنيا ، وإن كان ذلك حقاً ، وإنما أقول له: يا أخي صرت توحشنا في المجلس ، ووالله إني أتحسر على كل مجلس فاتك ، وأحب أن لا يفوت صحيفتك قط شيء من الخيرات ، ونحو ذلك ، وقد خالف قوم ، وزجروا صاحبهم الذي انسلخ من طور الفقراء ، ففجر عليهم ، وذكر في شيخه العجر والبجر ، ولم ينتفع منه بعد ذلك بشيء ، فإياك يا أخي ثم إياك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة مجالستي لله تعالى ، ولرسوله ﷺ في مجلس الذكر ، والصلاة على رسول الله ﷺ من حين رتبه الله تعالى على يدي ، وذلك في سنة ثمان عشرة وتسعمائة كما مر ، ومن حين رتبه الله تعالى على يدي لم يتعطل ليلة واحدة ، ولا صباحاً واحداً ، وكان ترتيب مجلس ليلة الجمعة ويومها بإشارة الشيخ نور الدين الشوني ، رضي الله عنه.

وكان ترتيب المجلس بعد الصبح بإشارة سيدنا ومولانا أبي العباس الخضر عليه السلام ، فرأيته فوق سطوح جامع الغمري بمصر ، وقال لي: لا بأس أنك تجلس بالجماعة بعد الصبح يذكرون الله تعالى ، ويصلون على محمد ﷺ ، إلى أن ترتفع الشمس كرمح ، انتهى.

وهذا كان سبب ترتيبي الدعاء له في الزاوية في الأسباع ، وفي قراءة الكرسي ، وغير ذلك ، لكوني صرت معدوداً من تلامذته ، وهو أكبر أشياخي كلهم قدراً ، بعد رسول الله ﷺ ، فاعلم يا أخي ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

الباب السادس عشر
في جملة الأخلاق

فأقول وبالله التوفيق ، وهو حسبي ونعم الوكيل :

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة سماعي للقرآن ، والذكر ليلاً ونهاراً ، كما مرت الإشارة إليه أول الباب قبله ، وأنا جالس في بيتي ، وهذا من أكبر نعمة أنعمها الله تبارك وتعالى علي في الدنيا ، وأظن أن ذلك لم يتيسر لأحد من ملوك الدنيا ، فضلاً عن غيرهم ، وإنما يسمعون القرآن أو الذكر في أوقات.

وقد دخل عليّ مرة في الليل ثلاثة أملاك ، وأنا بين النائم واليقظان ، طول الثالث منهم نحو سبعة أذرع ، والاثنين نحو طولنا ، ورأيت ألوانهم كلون الزعفران فسلموا عليّ ، فقال الطويل منهم لصاحبيه: قد طفتم الليلة هذه مشارق الأرض ومغاربها ، فهل رأيتم بقعة في الزوايا أكثر ذكراً لله تعالى وقرآناً من هذه البقعة ، فقالا : لا ، فقال أحد الملكين للطويل: فما حد ما ينتشر مدد مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ؟ فقال: ينتهي إلى حد باب جامع الحاكم من ناحية باب النصر ، وإلى حد باب الشعرية الذي على يسار الخارج منه ، ثم استيقظت ، انتهى.

فأسأل الله تبارك وتعالى من فضله أن يديم هذا الخير في هذه البقعة بعدي ، لتدوم الرحمة عليّ مدة بعد موتي ، بحسب ما سبق العلم الإلهي ، وقد قالوا: يدوم الخير في مكان الفقير بحسب قوة عزمه ، فمن الناس من يدوم الخير بعده سنة وأقل وأكثر ، وما رأيت خارج مصر أقوىٰ عزماً من سيدي أحمد البدوي ، ولا بعده أقوىٰ عزماً من سيدي محمد الشناوي ، لقوة عكوف الناس في مكانهما للعلم والقرآن ، وما في مصر أقوىٰ من عزم سيدي أبي العباس الغمري ، بعد صاحب جامع الأزهر ، فإن لسيدي أبي العباس من حين مات نحو سبع وخمسين سنة ، ومكانه في ازدياد من الخير ، بخلاف غيره من فقراء مصر كالمتبولي ، والحطاب ، وسيدي أحمد الزاهد ، وسيدي مدين ، وغيرهم ، فاعلم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تأدب إخواني المجاورين معي إذا عاتبت أحداً منهم

إذا غاب عن مجلس ذكر أو قرآن أو علم ، فإنه ينكس رأسه ، ويستغفر ، ولعل ذلك لعلمه بوفور شفقتي عليه كالوالدة ، فيا سعادة من لزم الأدب مع مربيه ، ويا شقاوة من أقل أدبه وأجاب عن نفسه ، وقد زلق واحد منهم ، وأجاب عن نفسه يوماً ، وقال: حصل لي ضرورة استغرقت الوقت ، فصار الفقراء يضربون به المثل ، فالله تعالى يصلح حالنا وحاله.

ثم لا يخفىٰ على المريد أن شيخه إنما كان يود له كل خير؛ لأنه خرق ببصره إلى الدار الآخرة ، ورأىٰ ما يرد من الأعمال ، وما يقبل وما يفرح به العبد هناك وما يحزن ، فهو يود لأصحابه كلهم أن يكون كل واحد منهم مقبول العمل فرحاناً يوم القيامة ، والمريد محجوب عن مثل ذلك ، وقد قال العارفون: كل مريد لا يخرق ببصره الإيماني إلى شهود أحوال الآخرة ، لا يجيء منه شيء في الطريق.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: من أراد أن يعرف عوجه واستقامته في هذه الدار ، فلينزل أعماله وأقواله وعقائده بالكتاب والسنة ، فإن رأىٰ نفسه موافقاً فليستبشر بكل خير ، وإلا فهو خاسر في الدنيا والآخرة ، بقدر تفريطه الذي لم يسامحه الله تعالى به ، انتهى ، فاعلم ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: دوام الاشتغال بالعلم في الزاوية طول السنة ، فلولا أن أوعية القلوب الآن متخرقة ، لكان كل واحد من المجاورين الآن من أعظم العلماء ، ولكن لهم أسوة بغالب طلبة العلم الذين لا يقدرون على إلقاء درس في العلم إلا إن طالعوه تلك الليلة ، وعندي بحمد الله تعالى من العلم ما يكفي جميع المجاورين ، فلا يحتاجون إلى الخروج من الزاوية ليقبلوا على غيري ، فإن الله تعالى قد ألهمني الفهم في كل علم يتداوله الناس اليوم ، حتى أني أقرأ في الأربعة مذاهب لمن طلب ، وربما أوجه أقوال كل مذهب أكثر من أهله ، مع أني متقيد بمذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وإنما كنت أوجه مذاهب غيرهِ لاطلاعي على منازع أقوال الأئمة ، وإلى ما استندت إليه من الآيات والأخبار والآثار ، كما يعرف ذلك من طالع كتابي المسمى «**بالمنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين**»[1] فما وجهت أقوال الأئمة إلا لاطلاعي على ما استندوا إليه لا بالصدر كما يفعله بعضهم ، ومن تأمل وجد حال أقوال الأئمة ما بين مخفف ومشدد ، قائل برخصة ، وقائل بعزيمة ، ولكل منهما رجال حال مباشرة الأعمال ، فاعلم يا أخي ذلك ، والله تعالى يتولىٰ هداك ، وهو يتولىٰ الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حماية جميع الجهات الموقوفة على الزاوية من الظلمة ، فلا أحد يقف لنا في طريق من كاشف أو شيخ عرب أو غيرهما ، مع أنه ليس بيدي

---

(١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٨٨٣)

مربع ولا مرسوم بالحماية كما مر ، وإنما ذلك محض عناية من الله عز وجل ، وكثيراً ما يجيء أصحاب المربعات السلطانية فأشفع لهم عند الكُشاف وغيرهم ، ولعل النكتة في ذلك عدم تخصيص نفسي بشيء عن الفقراء إلا لضرورة شرعية ، وأنظر إلى وقفهم احتساباً لله تعالى ، ولا آخذ على ذلك معلوماً كما مر أوائل الباب الثالث.

ثم إني إذا جمعت غلتها أقسمها عليهم على الوجه الشرعي ، ولا أزاحمهم في شيء منها لا سراً ولا جهراً ، بل ربما أخلط لهم من مالي شيئاً في مال وقفهم ، وأقول لهم: كل ذلك من وقفكم ، ومن سلك هذا المسلك كان الوجود كله مساعداً له لا معارضاً ، ثم إن وقع أن ظالماً عارضنا فإنما ذلك لعدم استحقاق أحد من الفقراء للحماية ، من حيث محبته للدنيا أو نحو ذلك ، فإني أعرف أني لو نظرت على الوقف بمعلوم ، أو تخصصت بشيء عن الفقراء ، وتزوجت وتسريت ، وركبت الخيل ، وتوسعت في المطاعم ، لم يقدرني الله تبارك وتعالى على حماية شيء من الظلمة ، ولو قل ، كما هو شأن غيري ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم وقوفي على حاكم إذا نازعني أحد في بيتي ، أو في النظر على زاويتي ، أو في رزقتي ، بل أترك ذلك له؛ لأن الدنيا أهون عندي من أن أقف لأجلها على حاكم ، وأستحيي بحمد الله تعالى أني أكذب مسلماً فيما يدعيه عليّ منها ، والنكتة في ذلك كوني بحمد الله تعالى قد تساوت عندي الأماكن كلها ، فأرى كل مكان جلست فيه هو ملكاً لله تعالى ، أنا عبده ، لا أرىٰ لي ملكاً معه لشيء في الدارين ، فآكل من رزق سيدي ، وألبس من ماله ، وأسكن في داره ، وليس لي في ذلك ملك ، ولا شبهة ملك ، ولا استحقاق ، ومن كان هذا مشهده فلو أن الدنيا بحذافيرها كانت في يده وأخذها منه إنسان لم يتغير منه شعرة ، ولم يتبعها نفسه ، وكأنه أعطىٰ حصاة من الأرض.

وهذا الخلق قد صار عزيزاً في غالب الفقراء ، بل ربما ترافع أحدهم مع خصمه إلى الحكام إذا نازعه في زاويته ، أو في بيته ، أو في خلوته ، أو وظيفته ، وذلك خروج عن قواعد السلف الصالح ، ولذلك قالوا: من نازعك في دينك فنازعه ، ومن نازعك في دنياك فألقها في نحره ، وفي الحديث: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء**»(١) انتهى. فما قدر ما يخص الواحد من ذلك لأقل من جناح بعوضة إذا فرق على أهل الدنيا جميعهم ، من ملوكها إلى سوقتها ، حتى يترافع الإنسان لأجله إلى الحكام ، وقد بلغنا أن سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه ، لما بنى داره وزاويته بأم عبيدة ، أتاه شخص يوم نقلته إليها ، وادعى أن العرصة ملك آبائه وأجداده ، وأنه لم يأذن لسيدي أحمد في البناء

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١١٠)

بها ، فرمى سيدي أحمد حوائجه خارج الباب ، وعزم على تركها له ، وأبرأ ذمته من الحيطان التي بناها ، فلما رأىٰ ذلك الشخص همة الشيخ في النقلة ، قال: يا سيدي ليس لي في هذه الأرض ملك ولا شبهة ملك ، وإنما قصدت اختبارك في ميلك إلى الدنيا ، لا سيما الدار الجديدة ، فإن الإنسان يفرح بها ، فقال سيدي أحمد: الأمر سهل ، فقال: يا سيدي تترك دارك بمجرد دعواي ، فقال: نعم ، الدنيا أهون على الفقراء من أن يقفوا لأجلها على حاكم.

فاعلم ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: معرفتي باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، ولكن لا أعلمه لمن طلبه إلا إن وثقت بدينه وبخوفه من الله تعالى ، وشفقته على خلقه ، فإني أخاف أن يدعو به على كل من غضب عليه ، أو آذاه ، فيهلكه الله تعالى ، كما وقع لبلعام بن باعور ، ولولا أن غيري من الأولياء سبقني إلى كتمانه لذكرته لك على التعيين يا أخي في هذا لكتاب ، ولكن الكتاب يقع في يد أهله ، وفي يد غير أهله ، ولا بأس أن أذكر لك يا أخي جملة من الأقوال في تعيين الاسم الأعظم ، وإن كان ذلك لا يفيد الجزم بمعرفته ، فأقول وبالله التوفيق.

ذهب جماعة منهم أبو جعفر الطبري ، والشيخ أبو الحسن الأشعري ، وابن حيان والباقلاني، وغيرهم إلى أن الاسم الأعظم لا وجود له ، بمعنى أن اسماء الله تعالى كلها عظيمة ليس فيها اسم ليس بأعظم ، وبذلك قال الإمام مالك وغيره ، وذهب بعضهم إلى أنه اسم (الله) ، وبعضهم إلى أنه (هو) ، وذهب الشعبي إلى أنه هو قولك: (الله)، وقال بعضهم: أنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ورد به حديث في المستدرك وصححه ، وقال بعضهم هو: (الحي القيوم) فقط ، وغير ذلك ، كما ذكرناه في المنن الوسطى.

وقد كان على شخص دين نحو ثلاثة آلاف دينار ، فقال: اللهم إني أسألك يا الله ، يا الله يا الله ، بلىٰ والله أنت الله ، لا إله إلا أنت الله ، الله ، الله ، والله أنت الله ، لا إله إلا أنت يا حي يا قيوم ، ثم نام وقام ، فوجد عند رأسه ثلاثة آلاف دينار ، ثم قيل له في المنام: لقد سألت الله تعالى باسمه الأعظم الذي إذا قرئ على الماء يجمد ، انتهى.

وبالجملة فلا يطلع أحد عليه إلا من طريق الكشف ، فاعلم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة إفاضة الخير عليّ في الملابس ، حتى أني كسوت خلقاً لا يحصي عددهم إلا الله تعالى ، ولكن رأيت بخط الأخ العزيز الشيخ إبراهيم السندبسطي النقيب ، ورقة فيها جماعة كسوتهم ، فلا بأس بذكرهم هنا تنبيهاً على غيرهم ، فذكر منهم الشيخ نور الدين الشوني رحمه الله تعالى ، تفضل ولبس مني جوخة بمائتي

نصف ، وكذلك الشيخ أبو العباس الحريثي ، لبس مني جبة سوداء ، وكذلك سيدي محمد بن سيدي الشيخ أبي الحسن الغمري ، تفضل ولبس مني جوخة بنحو ثلاثمائة نصف لما عراه اللصوص في الريف ، وكذلك كسوت سيدي زيناً ابن بنت سيدي علي المرصفي جوخة جديدة ، بنحو أربعين ديناراً ، وكسوت الشيخ شرف الدين الفراء ، بجامع الحاكم ثوباً بعلبكياً ، وكذلك أحمد المصامتي ، كسوته ثوبين ، وكسوت خليفة سيدي أحمد البدوي ثوباً من الصوف ، أعطاه لي محمد بن بغداد بلا تفصيل ، وأعطيت ولده بدر الدين مضربة ، والشيخ أبا البقاء ولد عمه مضرة صوف أخضر ، وكسوت الشيخ تقي الدين بن عبد الحليم بن مصلح الأردية والثياب كثيراً ، لما كان يأتي إلى مصر ، وكسوت الشيخ علياً اليمني كذا وكذا ثوباً ، وكسوته مضربة صوف بيضاء لما أراد سفر الحجاز ، وكسوت الشيخ شهاب الدين بن داود الثياب والأردية ، وكذلك كسوت أخاه الشيخ إبراهيم مراراً ، وكسوت الشيخ نور الدين الأحمدي جبة بيضاء بنحو ثمانين نصفاً ، وكذلك الشيخ خطاب البرهاني ، كسوته جبة بيضاء بهذا الثمن لبستها يوماً واحداً.

وكسوت خادم سيدي أحمد البدوي مرقعة من الصوف الملطي ، تساوي مائة نصف ، وكذلك كسوت الشيخ حسن الذي كان يملأ الميضأة بالمقام الأحمدي عدة ، وكسوت الشيخ سيدي أبا بكر القباني ، ووالده كل واحد قميصاً لما جاء من الحجاز وكسوت سيدي محمد البرماوي جبة مختتنة بنحو مائتي نصف ، وكسوت أخي الشيخ أفضل الدين مراراً من الجبب الحمر والسود المضربة ، وكسوت الشيخ يوسف البشلاوي مراراً ، وكسوت الشيخ شهاب الدين الطريني قميصاً مقصوراً ، وكسوت الشيخ زين العابدين صوفاً أخضر ، وله الفضل على قبوله ، وكسوت الشيخ عبد الدايم بن [عبد] الدايم بن عنان مراراً، وكسوت سيدي محمد الحنفي جبة حمراء، وله الفضل عليّ في قبولها ، وكسوت صهر سيدي أبي الفضل جبة بيضاء ، ولا أقوم له بجزاء.

وكسوت سيدي محمد بن موفق صوفاً بنحو مائتي نصف ، وكسوت الشيخ عبد القادر الشاذلي قميصاً مقصوراً ، فكفن فيه عملاً بوصيته ، وكذلك القاضي عبد القادر الرزمكي ، كسوته قميصاً بعلبكياً ، فأوصىٰ أن يكفن فيه في الحلة ، ففعلوا به ذلك ، وكسوت الشيخ عبد الله العجمي خادم زين العابدين جبة حمراء ، وعمامة سوداء ، وهو رجل يحب أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ، وكسوت الشيخ محمد أبا شوشة الجزيري ، جبة حمراء ، وكسوت الشيخ أبا هدوان قميصاً بعلبكياً ، وكسوت سيدي محمد الحموي جبة ، وكسوت الشيخ تقي الدين الأشموني الأقطع جبة حمراء وقميصاً أزرق وقلنسوة.

وكسوت الشيخ محمد الكوير المداح جبة بيضاء ، وكسوت أبا شعرة كذلك جبة بيضاء ، ورداء في طهور ولدي عبد الرحمن ، وكسوت نساء المجاورين كل واحدة قميصاً كذلك في

الطهور المذكور ، وكسوت الشيخ محمد النحريري صوفاً أخضر ، وعمامة وقلنسوة وقميصاً ، وكسوت الشيخ بركات الأحمدي جبة بيضاء ، وأخرىٰ حمراء ، وكسوت الشيخ محمد الصوفي جبة سوداء وأخرىٰ خضراء ، وعمامة سوداء ، وله الفضل على قبوله ذلك ، وكسوت الشيخ يوسف الطهوائي جبة بيضاء لما زارني.

وكسوت الشيخ شهاب الدين السبكي جبة عودي ، وكسوت الشيخ عبد الرزاق المادح ثوباً مقصوراً لما مدح في سيدي عمر بن الفارض ، وكسوت عمر الضرير مضربة خضراء كندكيةً ، وكسوت الشيخ محمداً الجوخي جبة سوداء ، ولا أقوم له بجزاء ، وكسوت سيدي أبا الفضل القباني جبة سوداء وجوخة ولا أقوم له بجزاء ، وكسوت أولاد الشيخ الغمري مراراً ، وكسوت إبراهيم بن عبد ربه ، وولد أخيه الجبب الحمر مراراً ، وكسوت الشيخ يوسف الهندي ، الذي ذكروا أن عمره ثلاثمائة سنة وشيء صوفاً أخضر ، وملاءة مقصورة ، وعرقية جوخ ، وكسوت الشيخ إبراهيم الرحبي ، بباب جامع الأزهر جبة حمراء ، وكسوت أصهاري أبا الفتح القصبي ، والشيخ أحمد القصبي ، الثياب والجوخ والعمائم ، وكسوت أبا الفتح صوفاً من ملبوس السلطان الغوري ، أخبرني الأمير يوسف بن أبي أصبع أن سجافة بسبعة عشر ديناراً ذهباً.

وكسوت أخي الشيخ عبد القادر الجوخ والأصواف والعمائم ، وأولاده وأولاد أولاده مراراً ، ولا أقوم له بجزاء ، وكسوته صوفاً لونه صيني من ملبوس السلطان الغوري ، مركباً عليه فروة سوداء ، وكسوته عمامة السلطان الغوري ، وكان عرض الشاش سبعة أذرع أهداه لي الأمير يوسف بن أبي أصبع.

وكسوت محمد بن بغداد ثوباً بعلبكياً ، وإزاراً بإقسامه عليّ بالله ليكفن فيهما ، وكسوت الأمير محيي الدين بن أبي إصبع جبة بيضاء مضربة من ملبوس الشيخ نور الدين الطنجي الكبير ، وولده مراراً الجبب والقمصان والأردية ، وكسوت الشيخ محمد الطلخاوي الوقاد بالغمري مراراً ، وكسوت الشيخ شمس الدين المتبولي الفقيه بمقام الدشطوطي جبة سوداء ، وكذلك بدر الدين المجاور بالمقام ، والشيخ شعيب الخطيب بجامع الغمري ، وكسوت الفقيه الشيخ عمر المليجي ، والشيخ شرف الدين النعناعي ، الجبب والجوخ وغير ذلك ، ولا أقوم لهما بجزاء ، وكسوت الفقيه أحمد العباسي ، ويوسف البنبي مراراً ، وكسوت الشيخ عبد القدوس الشناوي القمصان البعلبكية والأردية ، وله الفضل على قبوله ذلك ، وكسوت ولده عبد القدوس برنساً أسود وملاءة.

وكسوت الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ عمر الشناوي عمامة وملاءة وقميصاً بعلبكياً ، وكسوت جلالاً الأبشيطي جبة بيضاء ، وكذلك أخاه شمس الدين جبة بيضاء ، وكسوت شرف الدين العصامي جبة حمراء ، وكسوت الشيخ مروان المجذوب جبة سوداء ، وبشتاً بسؤاله إلي

في ذلك ، وكسوت سيدي زين العابدين سبط سيدي علي المرصفي ملاءة مقصورة ، وله الفضل على قبولها ، وكسوت الشيخ محمد الفرضي مراراً الجبب والقمصان ، وكسوت الشيخ صالحاً المسلمي جبة سوداء ، وكذلك كسوت الشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني جبة ، وكسوت المقدم الزردكاش كذا كذا مرة فروة ، لما وجدته في جنزير ، وكذلك كسوت الغزاوي الحائك بالميدان صوفاً عودياً ، لما جاءني كذلك في جنزير يستعين به في وفاء دينه.

وكذلك أخذ مني قاصد الشيخ ناصر الدين الطبلاوي جبة حمراء بمائة نصف ، مساعدة في فكاك أسير ، وكسوت العيار صاحب جهة المغاني صوفاً أخضر ، لما استعان بي في دين كان عليه ، وكسوت سيدي شرف الدين بن الأمير جبة بيضاء ، وقميصاً بعلبكياً على وجه التبرك ، وله الفضل على قبول ذلك ، وكذلك أخاه سيدي محمد أخذ مني قميصاً بعلبكياً ، لما سافر لحلب ، وكسوت الحاج بدر الدين القلعي الجبب الحمر مراراً ، وكذلك ولد أخيه المعلم أبا الفتح وجاريته ، وكسوت سيدي محمد بن موفق مراراً الجبب والصوف ، ولا أقوم له بجزاء ، وكذلك ولد عمه سيدي أحمد ، وابن خاله شرف الدين ، وكسوت حسن البصير الذي أقرأني العلم الأصواف مراراً ، هو وأولاده ، ولا أقوم له بجزاء ، وكسوت الشيخ أبا الخير السفطي قميصاً ورداء.

وكسوت ابن السلطان الملك الكامل قميصاً لما رأيته ليس له قميص ، وكسوت الشيخ أبا الفتح أمين بن الجمال قميصاً ، وكسوت الشيخ عمر المكشوف الرأس صهر الشيخ زين العابدين جبة بيضاء مبطنة بعلبكية ، وله الفضل في قبولها عليّ ، وكسوت الشيخ جمال الدين ابن بنت عمي جبة حمراء عليها فروة حمراء ، وكسوت مثلها لسيدي يحيى ابن بنت الغمري ، وكسوت الشيخ معيناً السنباوي جبة سوداء ، وكسوت أخاه الشيخ نور الدين جبة بيضاء ، وكسوت الشيخ عبد الرحمن الأجهوري جبة ، وكسوت الشيخ أبا الخير الضرير مراراً ، وكسوت الشيخ يحيى الزنجاوي ، وولده الشيخ موسى ، كل واحد قميصاً مقصوراً ، لما ورد إلى مصر ، وكسوت سيدي علم الدين العبادي قميصاً ، وكذلك الشيخ صلاح الدين بن خرنوب الخطيب كسوته جبة سوداء ، وكسوت أصهاري مراراً الجوخ والقمصان والعمائم ، وكذلك أخي الشيخ أحمد وأولاده ، وأولاد العم كسوتهم الثياب والجبب والجوخ والكسا مراراً ، وكسوت شيخ السوق الحنفي لما عزل من مشيخة مرجوش قميصاً مقصوراً.

وأما مشايخ البلاد والمترددون بالهدايا فلا أحصي لهم عدداً.

وممن كسوته من مشايخ البلاد بالهدايا فلا أحصي لهم عدداً.

وممن كسوته من مشايخ البلاد نافع شيخ الساقية ، والحاج علي بن هلال شيخ شطنوف ، والحاج إبراهيم الأكيادي ، وشرف الدين وأحمد أولاد الحاج خليل مشايخ قها.

فهذا ما رأيته مكتوباً بخط الشيخ إبراهيم السندبسطي رحمه الله تعالى ، وأما ما أخذه الناس في غيبته فلا يحصي عدده إلا الله تعالى.

ولما سافرت إلى الحجاز كسوت أولاد ابن أبي كثير كل واحد قميصاً خماسياً ، وكسوت الشيخ شرف الدين الديطي جبة بيضاء خلعتها عليه عند الحجر الأسود ، فأعطي فيها بحضرتي ثلاثين ديناراً فأبى ، وكسوت الشيخ أبا سلمة قميصين ، وأما براقع الزبالع فلا أحصي لها في مكة عدداً ، وفرقت على نساء الأعراب البراقع في المناهل ذهاباً وإياباً.

ولما دخلت مدينة رسول الله ﷺ ، تلقاني شخص من العين الزرقاء ، يريد أن يزيرني قبر رسول الله ﷺ ، فقلت له: ما اسمك؟ فقال: تقي الدين بن المقبول ، فقلت له: فأل حسن ، فدخلت معه ، فأوقفني تجاه وجه رسول الله ﷺ وصار يسأله من خير الدنيا والآخرة مما كنت استحيي أن أسأله فيه فخلعت عليه مضربتي الصوف الخضراء ، فأعطوه فيها ثلاثين ديناراً فأبى ، لكونها خلعت عليه بحضرة رسول الله ﷺ.

وأما القمصان: التي فرقتها هناك فكثيرة ، حتى قمصان ولدي عبد الرحمن ووالدته ، وقلت لهما: إذا وصلنا إلى بلادنا فهناك الثياب كثير ، وفرقت من السكر وغيره في الحرم المكي ما لا يحضرني ضبطه من القناطير ، فقال لي خدام البيت: هذا أمر ما رأينا أحداً فعله في حجه غيرك ، فكنت أكسر الرأس السكر قطعاً قطعاً قدر الليمون وأرميه في المطاف ، وفي أفواه الزيالع من الرجال والنساء.

وإنما ذكرت لك يا أخي بعض من كسوتهم لتقتدي بي في مثل ذلك ، وتتكرم على الإخوان وغيرهم من عرفت ومن لم تعرف ، كما فعلت أنا ولا تخف من الفقر إذا أعطيت الناس مثل ذلك ، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ولم أزل بحمد الله تعالى أعطي الناس الثياب والنقود إلى وقتي هذا ، وما رأيت من الله تعالى إلا السعة في الرزق ، ووالله لو علمت أن أحداً في مصر كسا الناس مثل ما كسوت ، مع حسن نيتي ، وفراغ يدي من الدنيا ، وخفة الدخل لذللت الإخوان عليه ليقتدوا به ، وأخفيت أنا نفسي ، ولكن لم أعلم فيها أحداً وقع له مثل ذلك ، والأعمال بالنيات ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: ملاطفة المريدين والمعتقدين أول اجتماعهم عليّ فلا أمتحنهم في الصدق؛ لأن الامتحان إنما يكون لهم إذا تمكنوا في الطريق ، وعلقت بهم صنارتها ، وأما قبل ذلك فربما امتحنهم الشيخ فرجعوا عما كانوا قصدوه ، وقالوا: ما لنا ولهذه الطريق ، وفترت همتهم ، ومن شك في قولي هذا فليأمرهم أول اجتماعهم عليه

بالتقشف ، ولبس الجبب والبشوت الخشنة وأكل خبز الشعير غير منخول ، حتى لا يقدر يسيغه إلا بجرعة من ماء كما كان ﷺ يأكله ، وينظر ، فإن غالب التلامذة تفارقه ، ولو كان هو من أكبر الأولياء.

وقد أخبرني الأخ الصالح سيدي أبو العباس الحريثي رحمه الله تعالى قال: لما سحت في بلاد الغربية ، ومعي جماعتي ، صار كل من رآنا يمشي معنا ، حتى صرنا نحو مائة نفس ، لكثرة ما كان أهل بلاد الغربية يعملون لنا الأطعمة الفاخرة ، من حلو ودجاج وغنم وغير ذلك ، فدعتني حاجة إلى بلادنا بالشرقية ، فعدى معنا الفقراء كلهم ، فوجدوا طعام أهل بلادنا الشعير الأخضر ، والفول الأخضر ، فصاروا يطعموننا من عصيدة الشعير ، ويسلقون لنا الفول الأخضر ، ويصبون عليه الدبس ، فتفرقوا عني كلهم ، وما فضل معي سوى فقير واحد ، وقد كنت أسمعهم يقولون ونحن في بلاد الغربية: هذه الأيام مع سيدي الشيخ تعد من الأعمار ، وما يعد من عمرنا إلا مدة اجتماعنا عليه ، فقلت لهم: أين قولكم هذه الأيام تعد من الأعمار ، وما يعد من عمرنا إلا مدة اجتماعنا عليه ، فقد بان أنها ما كانت تعد من الأعمار إلا لأجل الطبيخ ، قال: فخجلوا كلهم ، ثم جاؤوا بعد ذلك ، وتابوا ، وطلبوا أن يدوروا معي البلاد فمنعتهم ، تخفيفاً للمؤنة على الناس.

فعامل يا أخي إخوانك في هذا الزمان كما تعامل الأطفال الذين ليس لهم عقول ، ولا تقم عليهم ميزان الصدق فينفروا كلهم من صحبتك ، والله تبارك وتعالى يتولىٰ هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: حذري من مكايد النفس إذا قام علي عدو ، وصار ينقصني في المجالس ، وصرت أنا أثني عليه خيراً ، فإن من شأن النفس النفرة ممن ينقصها ، وما تثني على من ينقصها إلا لعلة كامنة ، فربما تثني على من ينقصها ليرجع عنها ، أو يستحيي ، أو لتدفع عنها ما ظنه الناس فيها من عدم الصبر ، أو ليمدحها الناس على ذلك ، ويقولون شيء لله المدد من فلان ، فإنه من كبار الأولياء ، وانظروا ماذا فعل معه العدو الفلاني ، وما وبخه به في المجالس ، ويبلغه ذلك ، فيثني عليه خيراً ، ولا يقابله بشيء ، فيزداد الناس فيه بذلك اعتقاداً ، ويصيرون يقولون عن عدوه: من أين لفلان أن يناظر فلاناً أو يتشبه به ، وأين العامي الفاسق من العالم العامل ، ونحو ذلك ، فيحقرون خصمه ويعظمونه عليه ، فإذا وجد ذلك فينبغي للشيخ الذي عظمه الناس أن يظهر الضجر ، وعدم احتمال الأذى والتكدير في بعض الأوقات ، ويقول للناس: ردوا فلاناً عني ، فقد أبادني شراً ، مع أنه ليس في باطنه منه تكدير ، وإنما قال ذلك ستراً لحاله.

وقد وقع لي مثل ذلك مع شخص معروف في مصر ، فصار ينقصني في المجالس ، ويبلغني ذلك فأثني عليه خيراً ، وأقول أنا لا أصدق فيه شيئاً ، وما أعرف منه إلا المحبة ،

حتى شهد عندي نحو مائة نفس على أنه يكرهني ، ويحط عليّ ، وأنا أثني عليه خيراً فصاروا يقولون عني: شيء لله المدد ، هذا هو الصالح ، فلما أدى الأمر إلى ذلك صرت أقول لهم: إن فلاناً آذاني فردوه عني ، فاستترت بذلك بحمد الله تعالى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تعظيمي للناس بحسب مراتبهم في الدين ، فأقدم العارف بالله تعالى ، الذي أخذ الطريق عن أهلها بعد إتقانه علوم الشريعة على من كان بالضد من ذلك ، وأقدم الفقيه الصرف الذي لم يدخل طريق القوم ، على الفقير المتفعل فيها من غير إتقان علومها وموادها ، والمشي على شروطها؛ لأن الفقيه الصرف سالم من النفاق الذي وقع فيه المتفعل مع زيادته عليه بالعلوم الشرعية ، بل نقول العامي الذي يعبد الله تعالى ، ويسأل العلماء عن كل شيء أشكل عليه في دينه أحسن حالاً من هؤلاء المتفعلين في طريق القوم ، ومرادنا بالفقيه الصرف: أن تصحبه مع ذلك السلامة في عقيدته من البدع القادحة فلو كان قليل الاعتقاد في الصالحين كثير الإنكار عليهم ، فهذا أسوأ حالاً من المتفعل في الطريق ، لتعدي ضرره إلى الخلق ، بخلاف المتفعل ، فإن ضرره راجع إلى نفسه فقط.

وسمعت أخي سيدي أفضل الدين رحمه الله يقول: الفقيه الصرف الذي لم يتصوف أحسن حالاً من الفقيه المتصوف؛ لأن المتصوف يريد أن يخرج من علم النقل إلى علم الوهب بغير شيخ ، ولا طريق ، بل بالنفس والدعوى ، قال: ومن علامة المتصوف بغير حق أنه إذا بحثت معه في الشريعة عدل بك إلى الحقيقة ، وإذا بحثت معه في الحقيقة عدل بك إلى الشريعة ، فلا يكاد يثبت على حالة معك ، وربما ذم طريق الفقهاء بين أصحابه ، ومدحها بحضرة العلماء رياء وسمعة ، خوفاً منهم أن ينكروا عليه ، ولو أنه كان كاملاً لمدح كلاً من الحقيقة والشريعة ، فإنهما متلازمان ظاهراً وباطناً ، وإنما تقع المخالفة بينهما في مثل حكم الحاكم ببينة زور مثلاً ، فإن الحاكم لم يؤمر بالحكم بالباطن في هذه الدار ، فلو أن البينة كانت صادقة لصح حكم الحاكم ظاهراً وباطناً ، وذلك مرادهم بقولهم: الحقيقة لا تخالف الشريعة ، كما مر بسطه مراراً ، فافهم.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: أحسن الفقهاء حالاً من كسر ميزان عقله في معاني آيات الصفات وأخبارها قبل دخوله إلى حضرة الله تعالى ، ودونه في الدرجة من وضع ميزان عقله عند باب الحضرة الإلهية ، ودخل بلا ميزان ، فهذا لا يُؤَمَّنُ أن يزن بها إذا خرج بها ، فيؤول آيات الصفات فيفوته كمال الإيمان بها ودون هذا في الدرجة بل لا درجة له ، من دخل الحضرة بميزان عقله ، فوزن على الله وعلى رسله ، فإن هذا ربما طرد من الحضرة أبداً ، كما وقع لإبليس ، انتهى ، فالحمد لله رب العالمين

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: أنه جعلني من أهل الإلهام الصحيح غالباً ، فكثيراً ما يسألني إنسان عن مسألة لا أعرف فيها نقلاً ، فأتوجه إلى الله تعالى ، فيلهمني المنقول فيها

على المطابقة ، ومما وقع لي أنَّ شخصاً سألني عن الجمعة في أي وقت فرضت ، فألهمت أنها فرضت في ثاني عشر ربيع الأول ، ولم يكن عندي قط علم من ذلك ، ثم في ثاني يوم جاءني شخص بتفسير الخازن وفيه قول إنها فرضت في ثاني عشر ربيع الأول ، فتقوىٰ عندي صحة الإلهام بموافقته للنقل.

واعلم يا أخي أن الإلهام من أقسام الكشف الصحيح ، فإذا صح فلا يأتي إلا موافقاً للشريعة؛ لأنه إخبار بالأمور على ماهي عليه في نفسها ، فإن وقع أن إلهاماً خالف الشريعة فالخلل من ضعف حال صاحب الكشف ، ويسمى الإلهام أيضاً بالتعريف الإلهي من الله تعالى ، فيوضح الحق تعالى به ما كان مشكلاً على الناس ، ويطلعك على الحديث الصحيح في نفس الأمر ، وإن قال العلماء بضعفه ، ويسمى أيضاً بالتحديث الإلهي، بحكم الإرث لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فإن الحق تعالى كان يحدثه في سره بالأمور على الكشف والشهود ، وهذا الأمر هو الذي فضل به على غيره، كما أشار إليه قوله ﷺ «إن يكن في أمتي محدَّثون»[1] بفتح الدال المهملة المشددة «فعمر» وغير صاحب هذا المقام ربما يحدثه الحق تبارك وتعالى في سره ، ولا يشعر بأن ذلك من الحق تعالى ، ويسمى هذا أيضاً وحي المبشرات ، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٤] وذلك على أقسام.

فمنها ما يكون متلقى بالخيال وهو الوحي في النوم ، فالمتلقي خيال ، والنازل كذلك ، والوحي كذلك ، ومنها ما يكون خيالاً في حس على حس ، ويقع كثيراً لبعض العارفين ، ومنها ما يكون معنى يجده الموحى إليه في نفسه من غير تعلق حس ولا خيال بمن نزل ، وهذا هوالمسمى حقيقة بالإلهام ، ومنها ما يكون كتابة ، ويقع ذلك كثيراً للأولياء كـ «قضيب البان» وأضرابه ، وصورته أن يجد بعد القيام من النوم ، ورقة مكتوباً فيها ما ألقي إليه به.

واعلم يا أخي أن علوم الغيب التي يمكن إدراكها تنزل بها الأرواح على قلوب المؤمنين ، فمن عرفهم تلقاهم بالأدب ، ومن لم يعرفهم أخذ علم الغيب ولا يدري عمن كان ، كالكهنة ، وأهل الزجر.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يرون تنزل الأرواح على قلوبهم ، ولا يرون الملك النازل ، فيشهدون الملائكة ، ولكن لا يشهدونها ملقية إليهم ، أو يشهدوا الإلقاء ويعلمون أنه من الملك من غير شهود للملك ، فلا يجمع بين رؤية الملك والإلقاء منه إليه إلا

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب حديث الغار (٣٤٦٩) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر (٢٣٩٨).

نبي أو رسول ، فهذا هو الفرق بين تنزل الوحي على النبي ، صاحب الشرع ، وبين تنزل الوحي على الولي التابع ، انتهى .

وسمعت أخي سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: التنزل على ضربين ، أحدهما ما كان ذوقياً ، وهو بما يتحقق به المكاشف تحققاً ذوقياً ، الثاني ما كان علمياً ، وهو ما يرد على طريق الأخبار ، ومثاله مثال من يطالع علماً ما في كتاب ما فليس هذا بذوق ، إنما هو حصول علم ، انتهى .

وسمعته أيضاً يقول: من الفرق بين تنزل النبي والولي أن الولي لا يتنزل عليه الأمر إلا من جهة العلو ، والنبي ينزل عليه من جميع الجهات ولهذا حفظ النبي بالرصد دون الولي ، وذلك أن إبليس قال: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ [الأعراف: ١٧] فلذلك جعل الله تعالى الرصد على هذه الجهات الأربع فيحيط الرصد الذين هم الملائكة بقلب النبي ﷺ ، فلم يجد إبليس طريقاً إلى قلبه ، كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾ [الجن: ٢٧] وأما جهة العلو والسفل فإن إبليس لا سبيل له إليهما ، فلذلك امتنع إبليس من قلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جملة ، وهي العصمة ، وأتى إلى قلوب الأولياء من الجهات الأربع ، إلا أن الله تعالى يعرف بعض أولياء به ، فيأخذون منه العلم ، ويعرفون أن الله تعالى أرادهم بذلك العلم على يد اللعين ، لتتميم الإرادة ، وتنفيذ المشيئة ، فيقصمون ظهره بذلك ، ومن الأولياء من لا يعرفه الله تعالى ذلك ، فهذا قد يفتنه إبليس اللعين ، انتهى .

ثم لا يخفى أن ما ألقي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يعبر عنه بالوحي تارة ، وبالشرع أخرى ، فإن كان منسوباً إلى الله تعالى بحكم الصفة سمي قرآناً ، وفرقاناً ، وتوراة ، وزبوراً ، وإنجيلاً ، وصحفاً ، وإن كان منسوباً إلى الله تعالى بحكم الثقل دون الصفة سمي حديثاً وخبراً ، أو رأياً ، وسنة .

وقد أغلق الله تعالى باب تنزل الأحكام المشروعة بموت محمد ﷺ ، وما أغلق باب التنزل بالعلم بها على قلوب أوليائه ، فالتنزل الروحاني بالعلم بها باق لهم ، ليكونوا على بصيرة في دعائهم إلى الله تعالى ، كما كان رسول الله ﷺ ، ولذلك قال: ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ [يوسف: ١٠٨] ، فقد علمت أن الولي لا يدعو قط إلى الله تعالى إلا بحكاية دعوة رسوله ﷺ ولسانه ، لا بلسان يحدثه ، كما يقع للرسل ، ولذلك لو أمر الولي بما يخالف شرع الرسول لم يتبع على ذلك ، وخرج عن كونه على بصيرة من أمره

ولذلك لم ينقل إلينا أن نبياً ندم على ما بلغه من الوحي ، بخلاف العلوم الصادرة عن فكر ونظر ، فربما ندم صاحبها على قولها ، وكما وقع في قصة أسارى بدر ، وفي مسألة تأبير

النخل ، وذلك أنه ﷺ مر على جماعة من الأنصار وهم على رؤوس النخل ، فقال ﷺ: ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يلقحون النخل ، فقال ﷺ: ما أرى ذلك ينفعهم شيئاً ، فسمع بذلك الأنصار فتركوا تلقيح النخل تلك السنة ، فقل حمله ونضجه ، وخرج شيصاً ، فقال ﷺ: «**إذا أخبرتكم بشيء عن الله تعالى فاعملوا به ، فإني لا أكذب وإذا أخبرتكم بشيء من قبل نفسي ، فأنتم أعلم بأمر دنياكم**»(١) انتهى.

فتأمل ذلك **يا أخي** ، فإنك لا تجده في كتاب أبداً ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به علي: حفظي من الخوض في معاني آيات الصفات ، وإخبارها بغير علم من منذ وعيت على نفسي ، وقل من سلم من مثل ذلك من الفقراء ، وهذا من أكبر الذنوب التي يقع فيها الفقراء ولا يشعرون ، فترى أحدهم يخوض في الكلام على الذات ، وينسى ما كلف به من الزهد ، والورع ، وصوم النهار ، وقيام الليل ، والخوف من الله تعالى ، ونحو ذلك ، حتى كان الطريق عندهم محض كلام من غير عمل ، وبعضهم يطالع في كتب الشيخ محيي الدين بن العربي ككتاب الفصوص ونحوه ، ويصير يفهم منها خلاف مراد أصحابها من الكفريات ، ثم يصير يضيف ذلك إلى الشيخ محيي الدين وغيره ، فيعتقد بعض الناس أن ذلك الذي فهمه هو مراد الشيخ محيي الدين ، يضيفون إليه الفواحش ، وسوء العقيدة ، وهو رضي الله تعالى عنه بريء من نحو ذلك كله ، كما أوضحنا ذلك في كتابنا المسمى باليواقيت والجواهر ، على أن هذا الذي يدعي التصوف ، ويطالع كتب الأولياء وكلامهم ، ويفهم غير مرادهم ، ربما كان معدوداً من جملة العوام إذا قيل له: ألق لنا درساً في الفقه مثلاً ، وبين لنا فيه الراجح من المرجوح لا يستطيع ذلك ، فكيف يفهم أسرار الشريعة التي ماتت فحول العلماء بحسرة الاطلاع عليها ، وهو لم يعرف أحكامها الظاهرة.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله تعالى عنه يقول: من شأن القوم أن لا يتكلموا إلا بلسان ذوقهم ومحبتهم ؛ ليشوقوا الناس إلى الترقي في مقامات الطريق ، وأما من حفظ كلام الناس ، وصار يلقيه للمريدين من غير ذوق ، فحكمه حكم من جمع أزواج الحيوانات من الذئاب والثعالب والحيات والعقارب ونحوها في إناء واحد ، وطلب إخراجها عن طباعها بمخاطبتها ، فلا يكون ينتظم ساقط كلام مع كلام ، وذلك لا فائدة فيه.

وكان رضي الله تعالى عنه يقول: جميع المعبرين والمؤولين والمتكلمين في علم التوحيد

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب وجوب امتثال ما قاله ﷺ شرعاً دون ما ذكره من معايش (٢٣٦٣) ، وابن ماجه ، كتاب الأحكام ، باب تلقيح النخل (٢٤٧١) ، وأحمد في مسنده (٢٤٣٩٩).

وآداب الطريق لم يبلغوا إلى عشر معشار معرفة إدراك كنه معاني حرف واحد من حروف الهجاء.

فاسلك يا أخي على يد شيخ صادق حتى تبلغ مبلغ الرجال بعد تبحرك في علم الشريعة ، وإلا فأنت ضال عن الطريق ، ولا يغرك قول العوام من التجار والمباشرين إنك من الصالحين، فإن هؤلاء أجهل الناس بطريق الصالحين، فكيف يجعلونك منهم.

وقد سمعت بعضهم يقول لشخص له عمامة صوف وعذبة: ما بقي في مصر أحد يرى فيه رائحة الصلاح إلا أنتم ، فأحسست بأنه انتفخ حتى صار كالفيل من الفرح ، فقربت من أذنه ، وقلت له: إنهم يضحكون عليك ، وقد سمعتهم يقولون لي ذلك مرات فيلفقون لهم بعض كلمات يقولونها لكل فقير اجتمعوا به ، ويحصرون الصلاح فيه ، فإذا فارقوه حصروا الصلاح في غيره ، ونفوه ، فتاب إلى الله تعالى من الاغترار ، وحسن حاله ، فاعلم ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ: استئذان الحق تعالى بقلبي إذا كنت في عبادة وأردت الجماع، لإعفاف نفسي أو زوجتي أو لغير ذلك من النيات الصحيحة ، ويقع لي ذلك كثيراً إذا شبعت، أو أكلت شبهة، وعجزت عن إلقائها من جوفي فاستأذن الله تعالى، وأقطع قراءة القرآن ، أو الورد الذي أنا فيه ، وأسأله إرخاء الحجاب عليّ ، حتى أعطي الزوجة حقها.

وهذا الخلق قليل من يراعيه ، فيأتي أحدهم إلى الجماع وهو غافل عن استئذان الحق تعالى كالبهائم ، فربما عوقب بالحجاب ، أو العقاب ، أو فوت الثواب.

وكان وهب بن منبه رضي الله تعالى عنه يقول: رأيت في بعض الكتب الإلهية يقول الله عز وجل: «**إن أهون ما أنا صانع بولبي إذا آثر شهوته على طاعتي ومجالستي أن أحرمه لذيذ مناجاتي**» انتهى.

وقد وقع لي أنا ذلك مرة فاقمت في عقوبته نحو أربعين يوماً حتى توسلت برسول الله ﷺ ، وسألت الله تعالى بحقه عليه أن يسامحني ، فأجابني الله تعالى ، إكراماً لنبيه ﷺ.

وهذا الخلق وإن كان مأذوناً للعبد فيه بإذن الشريعة العام ، لكن مراعاة الحياء من الله تعالى ، والأدب في مثل ذلك لا تأباه الشريعة ، بل ترضاه ، فافهم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي في نفسي إذا ادعت أنها من مريدي القوم الصادقين أنها كاذبة ، وأن حكمها حكم خلبوص المغاني ، إذا خرج في بابه الخيال في صفة قاض أو عالم ، فيسخر الناس به ، ويضحكون عليه ، ولا يسلمون له ذلك ، بل يفتون بأنه يستحق

التعزير الشديد ، فكذلك نفس أمثالنا إذا ادعت أنها أعلى ممن هو فوقها من القوم ، تستحق التعزير الشديد.

ومن وصية الشبلي رحمه الله تعالى لبعض الفقراء امح اسمك من ديوان القوم ، حتى تموت ، انتهى.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: لو كان هؤلاء المدعون للطريق مؤهلين لها لأدبهم أصحاب النوبة إذاتشبهوا بأهلها قبل أن يتحققوا بها ولكنهم غير معدودين من أهلها ، فلذلك أهملوهم ، ولم يؤدبوهم ، انتهى.

وقد جاءني مرة شخص من هؤلاء المدعين ، فقال: أبشركم بأن شيخي فلاناً أجلسني اليوم هذا للمشيخة ، وأذن لي بأخذ العهد على المريدين ، فسألته عن شروط الوضوء ، فقال: ما قرأت شيئاً في العلم ، فقلت له: فما أركان الصلاة المجمع عليها وشروطها؟ فقال: لم أقرأ شيئاً في العلم ، فقلت له: قد غشك ورب الكعبة ، فغضب ، ومن ذلك اليوم ما طلع زاويتي إلى وقتي هذا.

وقد أخبرني أنه قال كذلك لشيخ من مشايخ العصر ، ففرح له بذلك ، وقال قد أصاب شيخك فيما فعل ، انتهى.

وفي الحديث «**الدين النصيحة**»(١).

ورأى سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى شخصاً من هؤلاء المدعين للطريق ، فقال له: يا أخي إذا خرجت مقات البطيخ ، وأطلقوا فيها البهائم ، ما بقي يرتجى منها تحصيل بطيخ يدخل الحواصل ، أو ينتفع به ، والدنيا اليوم حكمها حكم مقات البطيخ التي خربت ، فالعاقل من عرف زمانه ، ولزم السكوت ، وابتهل إلى الله تعالى في سؤال التدبير له ولإخوانه ، انتهى.

وقد رأيت من نازعه الناس في صحة إذن شيخه له فأقام بَينة وأثبته عند قاض مالكي ، فنازعوه في ذلك ، وقالوا له: القاضي ليس له حكم على طريق الولاية وإنما حكمه في الأموال والولايات الظاهرة فادعى أنه ما جلس إلا بأمر من الله تعالى على يد ملك الإلهام ، فقلت له: ملك الإلهام لا يصح أن يأتي لغيرنبي بأمر يأمره به أبداً إلا على وجه متعارف عند أهل الله تعالى ، فما هو ذلك الوجه إن كنت منهم؟ وقد أجمع المحققون على أن خاطر الحق تعالى لا يكون فيه أمر ولا نهي؛ لأن الحق تعالى قد فرغ من الأوامر والنواهي على لسان محمد ﷺ ، لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. وقال ﷺ: «**ما تركت شيئاً**

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ، كتاب الإيمان ، باب الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة (٥٥).

يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، ولا شيئاً يبعدكم عن الله تعالى إلا وقد نهيتكم عنه»(١) رواه الطبراني ، فما درى ما يقول.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا ينزل ملك الإلهام قط بأمر ولا نهي بعد رسول الله ﷺ جملة واحدة ، فإن الشريعة قد استقرت ، وتبين حكمها ، فإن قال أحد من الأئمة: إني لم ألهم ذلك إلهاماً ، وإنما أمرني به الله تعالى من غير واسطة ملك ، قلنا له: هذا أعظم من ادعائك الأول؛ لأنك ادعيت أن الله تعالى كلمك كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام ، ولا قائل بذلك ، وفي القرآن العظيم ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ [الشورى: ٥١] الآية ، ثم إنه تعالى لو كلمك ما كان يلقي إليك إلا علوماً وأخباراً ، لا أحكاماً وشرعاً ، ولا يأمرك أصلاً؛ لأن الأوامر والنواهي قد أغلق بابها بموت رسول الله ﷺ ، وهذا أمر لا يسلم له؛ لأن معناه أنه ادعى شريعة مستقلة ، بعد موت رسول الله ﷺ ، لا سيما إن قال: أمرني الله تعالى بفعل المباح لا على سبيل الوجوب ، فإن ذلك أشد؛ لأنه صير المباح على لسان رسول الله ﷺ مأموراً به ، وهذا عين نسخ شريعته ﷺ ، ولا قائل بذلك أيضاً ، وإن قال: أمرني بفعل الواجب الفلاني ، أو نهاني عن الحرام الفلاني ، قلنا: هذا لا فائدة فيه؛ لأن الله تعالى أمرك ونهاك على لسان محمد ﷺ ، انتهى.

فاعلم ذلك يا أخي ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: تحفظي من الآفات إذا أمرت الناس بخير ، فربما كان في ذلك علة تقدح في الإخلاص ، أقل ما في الباب طلبي بامتثال الناس لما آمرهم به ، كثرة أنسي بأشكالي في تلك المرتبة ، وأن يكونوا في طريق الخير لا يبرحون عنها ، وهذا يقع للداعي إلى الله تعالى كثيراً ، حتى أنه يود لو أطاع الناس كلهم ربهم في كل مأمور ، ولم يبق في قبضة الشقاء أحدمن كثرة وجود الرحمة في قلب الداعي ، ولو أنه تفطن لرأى للرحمة حداً لا يتعداه ، فإن أرحم الراحمين هو الذي قسم الناس فريقين شقياً وسعيداً ، فمن الأدب التخلق بنظير أخلاقه تعالى في الاسم ، فليمتحن مدعي الإخلاص نفسه بما لو تفرقت جماعته إلى شخص من أقرانه ، فإن حصل عنده تأثير فدعاؤه لحظ نفس امتثالاً لأمر الله تعالى ، فليستغفر من ذلك ، ويتب إلى الله تعالى ؛ ولذلك كان لا يتصدر للدعاء إلى الله تعالى في كل عصر سبق إلا أكابر الأولياء ، الذين خرجوا عن حظوظ النفوس ، وأما أمثالنا فإن من تصدر منا لذلك أهلك نفسه وأتباعه ، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: خوفي من ترك التظاهر بالدعاوى أكثر من خوفي من

---

(١) أخرج نحوه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٧٦) ، والشافعي في مسنده ص ٢٣٣ ، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٨٥). =

الدعاوى ؛ لأن لذة ترك التظاهر بالمشيخة أكبر من لذة التظاهر بالمشيخة ، وحب الرياسة؛ لأن من شأن النفس أن تفرح إذا سمعت الناس يقولون: فلان صالح لا يحب المشيخة ، ويفر من طرق التظاهر بها ، ويحب ستر حاله عن الناس ، مع أنه من أكابر الأولياء ، ولكن لا يعلم به غالب الناس ، وذلك علامة على صدقه في كراهة الشهرة ، ولو أنه أحب الشهرة لم يكن أحد في مصر أعلى منزلة منه عند الملوك والأكابر ولكنه أعقل من ذلك فهو كالجبل الراسي ساقط ، انتهى. فلينتبه شيخ القرن العاشر لمثل ذلك.

واعلم يا أخي أن للتظاهر بالمشيخة أسباباً لاختلاف الأهوية ، فواحد هواه عذبته وجبته البيضاء النقية ، يشق عليه تركهما ، ويجد في نفسه وحشة إذاتركهما بعد اعتيادهما ، وواحد هواه الجلوس على السجادة في قراءة حزبه ، وفي المحافل ، وواحد هواه إطراق رأسه ، والعزلة عن الناس ، وواحد هواه أنه لا يخرج من بيته أو خلوته للناس إلا في أوقات مخصوصة ، وربما أتاه شخص من مكان بعيد فلم يخرج له ، حتى يجيء الوقت الذي عادته الخروج فيه ، خوفاً من قلة تعظيمه إذا خالط الناس في وهمه ، وواحد هواه حلقة الذكر في زاويته ، واجتماع الناس عنده ، وكثرة تواضعهم له ، وربما فارقوه واجتمعوا بغيره ، فتكدر لذلك ، وواحد هواه ، إقامة المجاورين عنده ليصطاد بهم الدنيا ، ويكمل نظام مشيخته ، فإن من لا فقراء عنده ليس بشيخ عند غالب الناس ، أو هو شيخ على الفتح ، بخلاف من عنده فقراء ، ولذلك يفرح إذا سمع الناس يقولون: فلان عنده مجاورون كثير ، وواحد هواه إطعام الطعام ، أو الدقة أو السعتر ، وواحد هواه تقواه وورعه وزهده ، فهو يحب ذلك لما فيه من تعظيم الناس ، ويخاف من تركه خوفاً أن يزدريه الناس ، لا خوفاً من الله تعالى ، وواحد هواه أن يرد كل من يأتيه من الولاة والمباشرين ، ويفرح إذا وصفه الناس بذلك من بين أقرانه ، بل رأيت من يكذب ، ويقول: أعطاني الباشا نحو ستين ألف نصف فرددتها عليه ؛ ليقوم له بذلك جاه في قلوب العامة وواحد هواه جميع هذه الخصال ، وواحد هواه التنزه عن جميع الخصال المذمومة شرعاً أو عرفاً ، والتحلي بأضدادها ، فيجلس على الأرض بلا سجادة ، ويترك إرخاء العذبة ، ويلبس الغليظة الدنسة ، ويخالط الناس ، ولا يحبس نفسه عنهم في بيته في وقت من الأوقات ، ولا يجعل له حلقة ذكر في زاويته ، ولا يمكن أحداً من المجاورة عنده ، ولا يجعل له سماطاً في زاويته ، ولا يرد ما يأتيه على يد الولاة وغيرهم وأعوانهم وغير ذلك ، ويقول: النفس من شأنها طلب العلو ، والنفرة من أماكن الذم ، ولا إخلاص عنده.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: كل شيء مالت إليه النفس من حيث الحظ فارم به ، وإن كان خيراً في الأصل ، إذ النية كالأكسير ، فربما دخلت النية الخبيثة فجعلتها معصية.

فالعاقل من فتش نفسه ، فاعلم يا أخي ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: نصح إخواني على سبيل الكر والفر من غير رؤية نفسي أني شيخ عليهم ، وهم مريدون لي ، وهذا هو القدم الذي كان عليه السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم فكانوا ينصحون بعضهم بعضاً من غير رؤية أحدهم نفسه على أخيه؛ وذلك لأن شروط الشيخ والمريد قد عز وجودها في هذا الزمان ، بل من أزمان متعددة.

وبلغنا أن جماعة جاؤوا إلى سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه ، يطلبون الطريق إلى الله تعالى ، فقال لهم: اللعب بالطريق ما هو مليح ، وأوعيتكم مخرقة ، فبتقدير أن أحط لكم فيها شيئاً من المدد لا يصل معكم إلى بيوتكم ، بل يتساقط كله قبل وصولكم إليها ، فقالوا: يا سيدي سد لنا خروق قلوبنا ، فقال: ما بقي مع أحد إذن في ذلك ، ﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال: ٤٢] انتهى.

وكذلك وقع للشيخ عبد الحليم بن مصلح رضي الله تعالى عنه ، قال له إنسان: أريد أن أتلمذ لك ويحصل لي بركتك فقال له: النجاسة لا تطهر بنجاسة ، انتهى.

وكذلك وقع لسيدي أبي العباس الغمري رضي الله تعالى عنه ، وكذلك سيدي عثمان الحطاب ، وسيدي محمد بن عنان ، وسيدي محمد المنير ، وسيدي محمد بن داود ، وجماعة كثيرة ممن أدركناهم ، كلهم سدوا باب التسليك ، وقالوا: ما بقي أحد يقدر على المشي على قواعد أهل الطريق.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: مثال من يفتح باب المشيخة الآن مثال من فتح المكتب يوم الخميس بعد العصر ، وطلب جمع الأطفال ليقرئهم ، ثم بتقدير أن أولياءهم يأتون به إليه كرهاً ، فلا يقدرون على جمع قلوبهم عليه ، وكذلك الحكم في الحجاج إذا رجعوا من مكة ، وأشرفوا على بركة الحاج ، ورأوا نخيلها لا يقدر على تقطيرهم أمير الحاج ، ولا على عدم انتشارهم ، فهكذا حكم من يريد أن يعمل شيخاً في هذا الزمان ، لا يقدر على اجتماع قلوب المريدين عليه ، وتخليقهم بأخلاق أهل الطريق ، وإن شككت في قولي هذا فأمرهم بالتخلق بشيء من أخلاق هذا الكتاب ، تعرف ذلك يقيناً ، مع أن المشيخة الآن قد صارت هينة ، فمن شاء أن يعمل شيخاً عمل ، وصار الناس يقولون لبعضهم بعضاً: ما دريتم أيش جرى لفلان ، الآخر عمل شيخاً ، ولو شاء أحدنا لعمل مثله.

وقد كان الشيخ نور الدين الحسني رضي الله تعالى عنه يلقن في مدرسة السلطان حسن ، فسمع شخصاً يبيع شيوخ الكتان الخشب ، ويقول: يا قفه شيوخ بعثماني ، فأخذ له منها معنى ، فلم يلقن أحداً حتى مات إلى رحمة الله تعالى ورضوانه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي كثرة غشي لأصحابي كلما كثروا لأني لو نصحتهم لفروا مني ، ولم يبق معي إلا القليل ، وهذا الخلق قل من يتنبه له من الفقراء ، بل ربما يرى مقامه يعظم بكثرة المريدين ، والمعتقدين ، فليتفقد الفقير نفسه ، ولا يغتر؛ لأنه لولا مسامحته التلامذة بالإخلال بآداب الطريق ما كثروا حوله.

بل سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من خطر في باله أن إخوانه وتلامذته أدنى مرتبة منه عند الله ، وأنه أعرف منهم بالطريق ، فقد خرج عن الطريق ، وهم أحسن حالاً منه ، أي من الشيخ؛ لأنهم لم يخطر لهم أبداً أنه تلميذهم.

وسمعت أخي سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: متى رأى الفقير أن له تلميذاً دونه في الدرجة ، فقد ادعى الكبر ، والمتكبر عدو لله ، لا يصلح أن يكون داعياً له ، فقلت له: فما يخلصه من ذلك؟ فقال: أن ينصح أخاه مع شهوده أن أخاه أحسن حالاً منه ، وأكثر طاعة لله منه ، انتهى.

وسمعته مراراً يقول: من شرط الصادق أن يرى غير جماعته بالعين التي يرى بها تلامذته على حد سواء ، ومتى رجح نسبة تلامذته إليه على نسبة تلامذة غيره إليه ، فقد خرج عن مراسم أهل الطريق ، انتهى.

وهذا الأمر لا يتنبه له إلا القليل من الناس ، ومما وقع لي أنني سمعت يهودياً أعمى ، يقول ليهودي: اسمع يا إسحق ، أجمع جميع أهل الملل على أنه لا يتقرب إلى الرب بشيء دخلته النفس ، انتهى.

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: ما تركت لي كلمة الحق من صديق.

فإياك يا أخي أن تستهين بجانب الفقير الذي قلت تلامذته ، فإن ذلك قد يكون من علامة صدقه في الطريق ، بل رأيت بعض المدعين للتصوف يأخذ جماعته كل قليل إلى مواضع الفرج ، والتنزهات ، ويتجابون الفلوس التي يصنعون بها الطعام ، كما يفعل العوام ، فوقع أن جماعته فارقوه ، وتنزهوا في بستان مع شخص من أقرانه ، فهجرهم وصار يحط فيهم ، ويقول: إنهم صاروا مرتدين ، فاستفتوا عليه العلماء فأفتوا بتعزيره التعزير الشديد ، فما لهذا الشيخ والتلامذة ، فلا هو مشى على قواعد الطريق ولا جماعته ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأين هذا الشيخ ممن كان مريده إذا رآه يرتعد كما ترتعد القصبة في الريح العاصف من شدة هيبته.

ومن هنا كان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: أنا أكره اسم الشيخ والمريد في هذا الزمان ، وأكره سماع قول الشيخ عن أخيه المسلم فلان من طلبتنا ، أو من تلامذتنا ، وإنما الأدب أن يقول: فلان من أعز جماعتنا أو إخواننا ، فإن في قوله إنه تلميذ أو طالب

ازدراء بمقامه ، ورفعة لمقام ذلك الشيخ ، انتهى. وسمعته يقول: إياك أن تترك النصح لإخوانك خوف أن ينفروا منك ، وتقول لك النفس اترك نصحهم إلى وقت آخر ، لا سيما إن صحبوك سنين من غير نصح ، فربما فاتهم النصح منك جملة وإياك أن تترك النصح لأحد خوف أن يفتح عليك الآخر باب النصح ، فتخاف على ناموسك أن ينقص بين الناس ، كما يقع فيه كثير من الناس ، فإن ذلك كله غش في الدين ، ولا خير في أخوة لا نصح فيها. ا هـ.

وقد نصحت مرة فقيهاً صاحب نفس ، فصرت أنصحه وهو دائر على عيب ينصحني به كذلك ليقابلني بالأذى في زعمه ، فمثل هذا ترك النصح له ممن لا سياسة عنده أولى؛ لأن النصح يزيده إثماً ، وبالجملة فكل من لم يأذن له الأشياخ العارفون في الجلوس لتربية المريدين فالآفات تطرقه ، ولا يكاد يسلم له عمل ، فاعلم ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: أنه لا ينصحني ناصح بشيء وأرى نفسي مستغنية عن نصحه ، بل أرى ما نصحني به بعض ما أنا واقع فيه من المهالك ، وهذا الخلق يقع في الإخلال به كثير من المتمشيخين ، وربما يقول لأصحابه: جاءنا اليوم فلان ، ونصحنا بكذا وكذا مما يقع فيه المريدون ، فشكرت فضله على ذلك ، وأوهمته أني كنت محتاجاً إلى نصحه ، لئلا أخجله ، وهذا جهل من الشيخ ، فإنه يوهم جماعته أنه مستغن عن ذلك النصح ، وأنه ما قبل نصحه منه إلا حتى لا يخجله ، وفي ذلك عدة من الآفات.

وقد نصحت مرة شيخاً بشيء شهدته فيه بعين بصري ، وعين قلبي ، فكاد يتميز من الغيظ ، فقلت له: أسأل الله أن يتوب عليك ، فقال: تقول ذلك لمثلي ، وأنا أتوب الناس نحو أربعين سنة؟ فقلت له: أما قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١] فقال لي: هذا كلام من؟ فقلت له: هذا كلام الله عز وجل ، فقال لي: الكلام في هذا أي في صحة قولك: إنه كلام الله ، فمثل هذا جاهل جهلاً مركباً ، نسأل الله العافية.

وسمعت أخي سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: كل من نصحته ، قال: قل هذا لغيري ، فاعلم أنه سقط من عين رعاية الله عز وجل ، ومن قال: إن الذكر لا ينفعني فلسان حاله كمن شهد على نفسه بالخروج من الإيمان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥] فافهم ، انتهى.

فاقبل يا أخي النصح من كل من نصحك جهده بشيء ، وإن كنت قد ترقيت عن الوقوع في مثل ما نهاك عنه عادة ، فإنه نصحك جهده ، وإن لم يكن ذلك فيك فقد قبحه في عينك لتأخذ حذرك منه بالالتجاء إلى الله تعالى ، وأين حال مثل هؤلاء من حال سفيان الثوري رضي الله

تعالى عنه، والفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه، وأضرابهما، كانوا يقولون: من أراد أن ينظر إلى مراء أو فاسق، فلينظر إلينا.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: لا يقع نصح ناصح إلا على ما يصح نسبتك إليك؛ لأن طينة جميع الخلق متحدة، ففي كل إنسان ما في غيره من الصفات إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، انتهى. وقد مر بذلك مراراً، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: استئذاني ربي بقلبي إذا قمت من الليل بنافلة، ولم أجد عندي داعية إلى الوقوف بين يد الله عز وجل، فأقول: دستور يا رب في ترك الوقوف مع إخواني، فإنك غني عن مثلي، وعن الخلق أجمعين، وفائدة هذا الاستئذان الأدب مع الله تبارك وتعالى، أي أني لم أترك خدمتك مع إخواني، فإنك غني عن مثلي وعن الخلق أجمعين: أي أني لم أترك خدمتك مع إخواني للاستهانة بجنابك يا رب، وإنما ذلك من طمعي في مسامحتك، وغناك عن عبادة مثلي، وخشية من الوقوف مع الملل من العبادة.

وتأمل يا أخي مملوك السلطان إذا صار يعكس الوقوف بين يديه في الموكب من غير استئذان، كيف يتكدر منه أكابر العسكر، بخلاف ما إذا علموا أن السلطان سامحه بترك الوقوف تلك المدة، فإنهم يعذرونه ولا يسعون في قطع جامكيته، فالعاقل من اعتبر.

فعلم أن استئذان العبد ربه في ترك فعل تلك الطاعة المندوبة، التي لم يجد له داعية إلى فعلها من الأدب عن كل حال، لخروجه بذلك عن صورة من يترك العبادات لعدم اعتنائه بأوامر سيده، والله تبارك وتعالى يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي ترجيح ضرر إبطال أعذر إخواني في نصحي للأخوان، بأجوبة أنتحلها لرد أعذارهم في باطن الأمر، على نفعي لهم، لا سيما إن بالغت في نصحهم، حتى كشفت لهم اللبس في جميع الأمور، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال ﷺ: «إن من البيان لسحراً»[1] قال الحسن البصري: ولا نرى السحر إلا حراماً، فينبغي للناصح أن يبقي للمنصوح الذي لا يطيق التحقيق بعض ما يعتذر به، ولا يكشف له القناع بالكلية إلا إذا علم منه العلم، وعدم الإخلال بذلك الأمر، ويسمى هذا عند أهل الطريق التلبيس المحمود، لميله إلى الرحمة بالخلق، فإن من كشف لأحد مقاماً لم يصل إليه، وصار يتشهاه ويتحسر على وصوله إليه فقد عذبه وفي القرآن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الخطبة (٥١٤٦)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٩).

العظيم ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥].

فعلم أن كل داع أكثر من المناقشة للناس فهو نقمة عليهم ، لا رحمة ، فإن القدرة الإلهية ، إذا لم تساعدهم على العمل بما سمعوه منه هلكوا ، وهو كان السبب في ذلك ، ثم إن كلامنا في الأمور التي هي من جملة آداب الشريعة ، أما أحكامها وحدودها فلا عذر لأحد في ترك تبيينه للناس ، تبعاً للنبي ﷺ ، فإن الله تعالى قد أمره بتبليغ كل ما أنزل إليه من ربه ، وكذلك حكم ورثته من بعده ، فافهم ، وإياك والغلط ، فإن من شرط الكامل أن ينظر للذي عليه دون الذي له إلا على وجه الشكر لله عز وجل ، فاعلم ذلك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من نصرة نفسي إذا غار مني حاسد ، من حيث كثرة المعتقدين فيَّ دونه ، بقولي: والله إن هذا الأمر ليس بيدي ، ولكن الحق تبارك وتعالى إذا أقام عبداً لمنافع العباد أحبوه ضرورة ، واعتقدوه ، فإن ذلك من السموم القاتلة للفقير من حيث لا يشعر ، فالسكوت إذن أولى ، والسلام؛ لأن الجواب عن النفس بمثل ذلك حق أريد به باطل.

وقد سمعت مرة بعض الإخوان يقول لما حسده بعض الناس ، على إقبال الخلق إليه: والله لو كان بيدي تفرقة هؤلاء الخلائق عني لفعلت ، وما تركت حولي أحداً لأجل هؤلاء الحسدة ، ولكن الأمر ما هو بيدي ، فقلت له: ما أحوجك إلى الحلف بالله عز وجل فقد تكون نفسك تحب ذلك باطناً ، فتقع في الحلف بالله عز وجل كاذباً ، وذلك يورث المقت ، فرجع واستغفر.

وسمعت شيخاً آخر يقول: والله إني أود لو ظهر في بلدنا هذا شخص يرشد الناس ، فكنت أدل أصحابي عليه وأستريح ، فما مضى عليه جمعة إلا ونزل في حارته شيخ ، فأخذ أصحابه ، فوقع بينه وبينه ما لا خير فيه ، وصار يقول فيه العجر والبجر ، فذكرته بقوله أمس ، فخجل وما درى ما يقول. وقد أجمع أشياخ الطريق على أنه لا يصلح لهذا الطريق إلا القوم الذين كنسوا بأرواحهم المزابل ، وصار كل شيء نسبه إليهم الناس من الفواحش يرونه يامناً فيهم ببادئ الرأي من غير تفكر ، هل هو فيهم أم لا ، وما دام أحدهم إذا نسب إلى فجور أو فسق يتبرأ منه ، فهو محتاج إلى علاج نفسه وتطهيرها من الرعونات ، لا يصلح أن يكون داعياً إلى الله عز وجل ، فليحذر الفقير من الركون إلى نفسه ، فإنها لا تستقيم له على حالة واحدة فتارة يكون صعودها هبوطاً ، وتارة عكسه ، كما إذا رأت رفع مقامها في التواضع أو الدعوى والتكبر ، فإنها تتواضع أو تتكبر ، وقد بسطنا الكلام على ذلك في رسالة الأنوار ، فراجعه ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: أني لا أنكر على شخص شيئاً إلا بعد أن أنظر إلى من ناصيته بيد قدرته وإرادته ، أدباً مع الله تعالى ، ثم بعد ذلك أنكر ما أنكرته الشريعة المطهرة ، وهذا الأمر قل من يتنبه له ، إنما يفعلون بالعكس ، فينكرون أولاً ثم بعد ذلك قد يشهدون من ناصيته بيده ، وقد لا يشهدون ، وقد وقع أن سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه ، أنكر في بداية أمره على إنسان سكران قبل أن ينظر أولاً إلى كون ناصيته بيد قدرة الحق تعالى ، فقال له السكران وكان في أوائل سكره: يا عبد القادر ، قادر ، أي على أن ينقل ما بي بك وما بك بي ، فاستغفر سيدي عبد القادر من مبادرته للإنكار ، انتهى.

وحكى لي شخص من الفقراء الصادقين أنه رأى يهودياً أعمى ، فقال في نفسه: أي لذة في هذا الدين ، وأي عقل لصاحبه ، فما استتم كلامه حتى حول الله إليه اعتقاد ذلك اليهودي ، فصار ينشرح للكفر ، وينقبض من دين الإسلام ، فكاد أن يهلك ، قال: فمكثت في ذلك الحال أياماً ، ثم تحول اعتقادي إلى اعتقاد النصارى في التثليث ، فأريد أن أجعل الإله واحداً أو اثنين ، فلا أنشرح إلى ذلك ، قال: وصرت أقول لأي شيء لا يكون الإله إلا ثلاثة ، فلا أقدر على الخروج من ذلك ، فمكثت أياماً كثيرة كذلك ، حتى أغاثني الله تعالى برؤية رسول الله ﷺ ، فقال: يا مبارك أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] فكشف الله عن قلبي الحجاب ، وأزال ما كان عندي من الانشراح لغير دين الإسلام. ا هـ.

وقد بلغنا أن سيدي أحمد الزاهد رحمه الله تعالى ، اعترض على نصراني وهو غافل عن الله تعالى ، وعن حكم تصريفه فيه ، فألقى في قلبه أنه من الأشقياء ، فصار يسارع إلى محو تلك الشقاوة بكل طاعة ، وصار يبكي وينتحب كالمرأة الثكلى ، فدام على ذلك مدة ، ثم نودي في سره يا أحمد العبد عبد يتصرف فيه سيده ، كيف يشاء ، قال: فرجعت إلى اختيار الحق عز وجل ، فمحى عني ما كنت أشهده من الشقاء ، ولولا لطفه بي هلكت. ا هـ.

هكذا حكى لي ولد ولده سيدي أحمد حفظه الله تعالى ، ومن تحقق بهذا المشهد فهو الذي يعلم معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فاعلم يا أخي ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: أنني لا أنصح أحداً بشيء إلا إذا تحققت وقوعه فيه لا بحكم الإشاعة ، ثم إذا رجع عن ذلك الشيء لا أعود أذكره بعد ذلك لأحد ، فلا أنصحه إلا حال ارتكابه للفعل المذموم ، أو حال إخباره عن نفسه أنه مصر عليه ، لا ينشرح للتوبة منه ، ثم إن وقع أنني نصحته من شيء بالظن ، وتبين لي أنه لم يقع فيه وخجلت ، أفرح له أكثر من فرحي له إذا وقع وتاب على يدي ، وهذه الأمور قل من يتنبه لها من الأقران ، فربما نصح أحدهم بالظن ، وربما تبين براءة المنصوح ، فتكدر الناصح في نفسه، خوفاً على ناموسه بين

المعتقدين ، وربما صار أحدهم ، يذكر وقائع من تاب على يديه بعد توبته ، وصار ذلك تاريخاً ، وهذا كله خروج عن سياج الطريق.

ثم إني إذا نصحت أحداً بالظن ، وصادف ذلك ما في نفس الأمر أرجع على نفسي باللوم إذ اطلعت على عورات الناس ، ولو أنني كنت مطهراً من العيوب والنقائص ما دخلت حضرات الشياطين ، واطلعت على عورات الناس التي يستخفون فيها عن الناس ، ثم إني إذا اطلعت على إنسان وهو يشرب الخمر ، أو يزني مثلاً ، لا يسبق إلى ذهني أنني أحسن حالاً منه ، بل أقول: ربما كانت تلك الزلة سبباً لرؤيته نقائصه وعيوبه وخجله وحيائه من الله تعالى ، فيترقى بها أكثر مما أترقى أنا بطاعاتي التي أرى نفسي بها على إخواني ، وقد قالوا: من منافع الوقوع في الزلات للفقير تركه الدعاوى الباطلة؛ لأن أفعاله تصير تكذبه ، كما أن من آفات الطاعات وكثرتها فتح باب الدعاوى ، ولو في نفس صاحبها فيقع في ذنب إبليس ولا يشعر ، فإنه ما أخرج من حضرة الله عز وجل ولعن وطرد إلا بقوله ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] فافهم ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: فرحي برجوع الخلق إلى الله تعالى بلا واسطة نصحي ، أكثر مما أفرح برجوعهم بواسطتي؛ لأنهم إذا رجعوا بلا واسطتي فقد حصلوا مقصودي وزيادة ، وفي الحديث: «**الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من فرح أحدكم إذا وجد دابته التي عليها طعامه وشرابه بعد إذ ضلت منه في فلاة من الأرض**»[(١)] أو كما قال.

وتأمل يا أخي أنت نفسك إذا اعترف خادمك بفضلك وإحسانك عليه من غير أن تعرفه أنت بذلك ، تجد نفسك تحبه أكثر ممن لا يعترف بفضلك إلا بعد تعريف وتعب ، فكما أنك تحب من عبدك رجوعه إلى طاعتك من ذات نفسه ، أكثر من محبتك له إذا رجع بنصحك له ، فكذلك ينبغي لك أن تحب أخاك إذا رجع إلى الله تعالى وتاب من غير أن تنصحه ، أكثر من رجوعه بنصحك له ، وهذا الخلق لا يقدر على العمل به إلا من ترك الرياسة على إخوانه ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: معرفتي بنفسي إذا نصحني ناصح ، هل أنا من أهل الخير أو من أهل الشر ، وذلك أنني إذا انشرحت للنصح بحضرة الناس الذين يعتقدون فيَّ الصلاح ، فأعلم أنني من أهل الخير ، وإن انقبضت وتكدرت ممن نصحني في الملأ فأعلم أنني من أهل الشر والنفس ، فأشكر الله تبارك وتعالى إذا انشرحت ، وأستغفر الله جل وعلا إذا انقبضت.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الدعوات ، باب التوبة (٦٣٠٨) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في الحث على التوبة والفرح بها (٢٦٧٥).

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا وزن الإنسان أحواله بالكتاب والسنة عرف أحواله وأخلاقه بيقين ، إن كان هو من أهل الخير ، وإن كان هو من أهل الشر بيقين ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] انتهى.

وسمعته مراراً يقول: كل من كان قابلاً للخير فلابد أن الله تعالى يلهم الناصحين لنصحه قلة وكثرة ، بحسب طمأنينة نفسه ، وشكاسة خلقه ، فإن كان من أهل الخير كان نصاحه كثيرين ، وإن كان قليل الخير كان نصاحه قليلين ، بل ربما ختم الله تعالى على قلب الناصحين له ، وثقل ألسنتهم عن النطق بنصحه ، حتى يستوجب النار ، فإن الناصح بمثابة من رأى إنساناً يتناول الطعام المسموم بغير علم ، فقال له: إنه مسموم ، فرماه في الحال ، ونجا من الهلاك ، فحق الناصح أن يفرح به المنصوح ، ويخلع له ما عليه من الثياب ، لا أنه ينقبض منه.

وقد كان لي صاحب اسمه بدر الدين المنزلاي حفظه الله تعالى وزاده توفيقاً ورشداً ، فكنت كلما أنصحه يقبل نعلي لابد له من ذلك ، ثم يعرض علي المال بانشراح صدر وفرح يدركه الحاضرون ، وكان عندي أرجح في المقام من مشايخ كثيرين ، فاعلم يا أخي ذلك ترشد ، وإياك والتكدر ممن نصحك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: أمري بالمعروف ونهيي عن المنكر في حال تسليمي للقدرة ما فعلته ، فلا يحجبني شهود التسليم عن نزاع من خالف أمر الله وعكسه ، كما يقع فيه من كان أعور ينظر بعين واحدة ، فيقول لمن أنكر على أحد منكر: مالك ولهذا الأمر سلم لله واسترح ، وهذا القول جهل بالشريعة؛ لأن علمنا بأن المنكر بقضاء الله وقدره دون العبد لا ينافي أمرنا له بالمعروف ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قد جاهدوا في الكفار بالسيف ، مع علمهم بأن الكفار ما خرجوا عن سياج الإرادة ، فلو أن الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى قبلوا من الخلق احتجاجهم بالإرادة لما جاهدوا فيهم.

وهذا الخلق قد كثر من المتصوفة الإخلال به ، فلا يكاد أحدهم ينكر شيئاً يراه ، زاعمين أن ذلك من مقام التسليم ، وغاب عنهم أن من شرط التسليم لله تعالى عدم الاعتراض على أمره ونهيه ، وتارك ذلك معترض على الشرع غير عامل به ، إذ التسليم لا ينافي الاعتراض بالشرع فالعبد يسلم لله تعالى من حيث التقدير ، وينكر بإذن الله ما خالف الشريعة ، وقد قدمنا مراراً أن من شرط الكامل أن يشهد الفعل خلقاً لله تعالى من شهود نسبته إلى الخلق ، لا يحجبه أحد الأمرين عن الآخر ، وسيأتي بسط المسألة قريباً إن شاء الله تعالى ، فاعلم ذلك ، واعمل

عليه ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي العلل في أعمالي وأحوالي كلها ، حتى التوبة التي هي أول المقامات في الطريق ، فإنها لا تسلم من العلل والتفعل فيها غالباً ، ولذلك يرى صاحبها نفسه على من لم يتب عادة.

وقد قيل للشبلي رحمه الله تعالى مرة: ما التوبة؟ فقال: أن لا تشهد في الدارين سواه على الكشف والشهود ، انتهى ، أي لا تشهد في الدارين خالقاً أو رباً أو رازقاً سواه ، وإن شهدت لأحد واسطة في ذلك فلا تقف معها ، وليس معناه أنك لا تشهد غير الله أصلاً من جميع الأكوان ، فإن ذلك لا يصح للمقربين فضلاً عن غيرهم ، ولو قدر أنهم شهدوا ذلك فهو لحجابهم عن الكون لا غير ، فإن ما وقع لا يصح رفعه أصلاً بحيث يصير الأمر كأن لم يكن من سائر الوجوه ، ومعنى قوله ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»[1] أي كالباطل ، من حيث إنه قائم بالله تعالى لا بنفسه ، فإن شاء الله أبقاه ، وإن شاء أذهبه في لمح البصر.

وقد أجمع أهل الحق على أن حقائق الأشياء ثابتة ، فكيف يصح نفيها ، إنما العبد يحجب عنها بما دهمه من الأمور العظيمة كما مر بسطه مراراً في هذا الكتاب فراجعه ترشد ، والله تعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: علمي بسعادتي وشقاوتي ، وذلك بتخلقي بالصفات التي نهاني الحق تعالى عنها ، أو بالصفات التي أمرني الحق تعالى بالتخلق بها ، وهذه من أكبر نعم الله تعالى عليّ؛ لأنها بشرى من الله تعالى لعبده ، ورحمة به ، ليرحمه من الوقوع في سوء الظن بربه سبحانه وتعالى ، وقد أشار إلى ذلك حديث «**كل ميسر لما خلق له**»[2] فمن كان من أهل السعادة فسيصير لعمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ، انتهى.

ففي هذا الحديث ما يفهم أن من عباد الله من يعلم سعادته أو شقاوته من الآن؛ لأنه بين في هذا الحديث أن الأمور لا تقع إلا على ما هي عليه في نفسها من خير وشر ، فلينظر الإنسان في نفسه ، فإن وجد ذلك الأمر في باطنه وظاهره على حد سواء فليفرح بسعادته ، فإن الله تعالى ما يبدل ذلك إن شاء الله تعالى ، وإن رأى الخير في ظاهره ، ووجد في باطنه نكتة سوداء من

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، باب أيام الجاهلية (٣٨٤١) ، ومسلم ، كتاب الشعر ، باب منه (٢٢٥٦).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ (٧٥٥١).

شك أو اضطراب فيما هو عليه من الطاعات ، ووقع له خاطر يقدح في أصل ذلك بما يخالف ظاهر الفعل واستقر ، فليعلم أن الله تعالى لم يعطه إيماناً ولا نوراً في قلبه ، وذلك من علامات الشقاء ، نعوذ بالله من ذلك.

وهذه ميزان ينبغي لكل مؤمن أن يزن بها أحواله ، وهو أعرف بنفسه ، وبما يخطر فيها ، ويؤيد ذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح **«إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس»** أي وإن الله تعالى يعلم منه هذا الخاطر الذي يقدح في أصل الإيمان من الشك القائم به ، فهو على خلاف ما يعطيه ظاهره من أنه على الشرع **«وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس»**[1] يعني من المخالفات ، والله تعالى يعلم من باطنه خلاف ذلك من نور الإيمان والصدق مع الله تعالى ، وأن هذه الحالة التي هو عليها مخالفة لأمر الله تعالى ، فهو يبكي باطناً ، ويخالف أمر الله تعالى بحكم الإرادة ظاهراً ، فيبدو منه ما لا يبدو للناس.

فقد أبان ﷺ ما الناس عليه في أنفسهم.

وما نقل عن الحسن البصري ومالك بن دينار وأضرابهما مما يخالف ما قررناه ، فإنما ذلك اتهاماً لأنفسهم أو مرادهم بقولهم: أعمالنا أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب حث غيرهم على الجد والاجتهاد ، أو ذلك بالنظر إلى مقامات أخرى ، هي أعلى من مقامهم.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين العربي رضي الله عنه في الفتوحات المكية أنه اطلع من طريق كشفه على سعادته ، وقال: رأيت نفسي من جملة السعداء الذين هم على يمين آدم عليه الصلاة والسلام ، فشكرت الله تعالى على ذلك ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم ترجيحي للعطاء الإلهي على المنع ، فهما عندي على حد سواء ، لفناء اختياري مع الله تعالى ، وعلمي بأنه تعالى أعلم بمصالحي من نفسي ، فحلاوة المنع عندي كحلاوة العطاء على حد سواء ، وهذا الخلق غريب في الأقران قل من يتخلق به منهم.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى مراراً يقول: احذروا من مقام الرجاء ، فإن فيه تحجيراً على الحق تعالى أن يعطيكم ذلك الأمر الذي رجوتموه ، فارجوا فضل ربكم ، ولا تحجروا عليه ، بأنه لا يصلح أن يمنعكم ، فإن الرجاء كالتمني على حد سواء ، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢].

وقد بلغنا أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه لما فني اختياره مع الله تعالى ،

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) ، ومسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

مكث نحو ستة أشهر لا يتجرأ أن يسأل الله تعالى حصول شيء ، ثم نودي في سهر: يا علي اسأل عبودية لا ترجيح فيها للعطاء على المنع ، قال: فسألت الله تعالى ورجوته امتثالاً لأمره لا تحجيراً عليه ، فإنه يخلق ما يشاء ويختار ، وليس للعبد معه اختيار ، لقوله تعالى ما كان لهم الخيرة ، ثم لا يخفى أنه ليس من الاختيار المذموم مع الله تعالى الاختيار الذي هو من لازم الفعل ، فإنه لا يصح توجه القلب لفعل شيء أو تركه إلا بعد وجود اختيار ذلك ، وإلا تفسخت عزائم العبيد ، ولم يصح منهم إرادة لفعل شيء أو تركه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: ليس من الأدب أن يقول العبد: أريد أن لا أريد ، وإنما الأدب أن يقول: أريد ما اختاره الشرع لي ، فيتصف بالإرادة لما أراده الشرع خاصة ، فلا يبقى له غرض في مراد معين ، وجميع مختارات الشرع وترتيباته ليس للعبد فيها اختيار ، إنما يكون الاختيار في الأمور التي وردت مجملة ، فليس للعبد أن يستخير الله تعالى في صلاة الضحى ، أو صوم الاثنين والخميس مثلاً لأن ذلك مؤذن بالشك.

وقد قال المحققون من استأذن بقلبه ربه في فعل مأمورات الشرع ، فهو دليل على عدم كمال إيمانه بما ورد ، انتهى.

وفي كلام الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه: لن يصل ولي إلى حضرة الله تعالى ومعه تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته ، ومتى بقي معه اختيار أو تدبير فهو كالمنازع لأوصاف الربوبية ، انتهى. فاعلم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: رجائي محبته تعالى لي ، لما تركت ما هو أقل من جناح بعوضة بإخباره لنا بذلك ، على لسان رسوله محمد ﷺ في قوله: «**ازهد في الدنيا يحبك الله**»(١) الحديث وهذا من أعظم النعم على العبد ، لكونه تعالى علق حصول محبته التي لا تقابل بعوض من الدارين على الزهد في أقل من جناح ناموسة.

ومن نظر إلى الدنيا بهذه العين لم ير شفوف نفسه على أحد من خلق الله تعالى إذا زهد ، بل لا يرى أنه زهد في شيء يدركه العقل من قلته ؛ لأن جميع الدنيا التي بيد جميع الخلق من الملوك إلى السوقة على اختلاف طبقات الخلق أقل من جناح بعوضة فماذا يخص العبد منه إذا فرق ذلك الأقل من الجناح المذكور على جميع أهل الدنيا لكان الزاهد زهد في لا شيء ، هذا من حيث مقام الزهد ، فيما يشغل عن الله تعالى ، لا من حيث كون ذلك نعمة من الله تعالى عليه ، فيرى الذرة من الرزق الجبل العظيم ، فليفهم

ثم بتقدير أن الزاهد يشاهد ما يخصه من الدنيا ثم يتركه ، فليس ما تركه برزق له وإنما

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الزهد في الدنيا (٤١٠٢).

هو لمن أخذه وانتفع به ، ومن هنا قالوا: الزاهدون لم يزهدوا إلا فيما لم يقسم لهم ، فإذا الزاهد ما رأى نفسه على أخيه بالزهد في الدنيا إلا لظنه أن له في ذلك مدخلاً، وأنه كان قادراً على أن يزاحم على الشيء الفلاني ، ويأكله أو يلبسه مثلاً ، كما فعل غيره ، وذلك وهم منه ، إذ لو كان قسم له لم يصح لأحد أخذه ولا الانتفاع به.

فعلم أن مقام الأكابر حين زهدوا أن لا يروا أنهم تركوا شيئاً قسم لهم من الدنيا ، وإنما يرون أن الله تعالى زوى عنهم الدنيا اعتناء بهم ، حتى لا يشتغلوا عنه بشيء ، فكانت صورة حالهم الظاهرة وسيلة إلى اقتداء المحجوبين بهم في التقلل في الدنيا لا غير ، والمشهد مختلف ، ففرق بين من يزهد في الدنيا لا غير ليحصل له الثواب ، وبين من يزهد فيها ليجالس رب الأرباب.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: سمعت سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى ، يقول: من زهد في الدنيا ليوسع على إخوانه فيها فقد وقع في مزاحمتهم في الآخرة ، من حيث كثرة الثواب ، فلا يكاد يبقي لغيره في الآخرة من قصر ولا غرفة ولا فاكهة ولا ثواب ، فالذي فر منه في دار البقاء فهو أشد رغبة ومحبة للآخرة من محبة هذه الدار التي نحن فيها ، انتهى.

يعني فلا يخرج عن اللوم إلا إن زهد في الدنيا امتثالاً لأمر الله عز وجل لا لعلة أخرى ، وإن كانت الدار الآخرة ليست بدار حجاب بحكم الأصالة ، فافهم.

فمعنى: ازهد في الدنيا يحبك الله ، أي لا يتعلق قلبك بحب شيء من الكونين إلا بإذن من الله تعالى ، لا أنك تترك إمساك الدنيا التي تستر بها نفسك وعيالك ، فإن ذلك يخالف ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ومن هنا كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: حقيقة الزهد في الدنيا هو الزهد في الميل إليها بالمحبة بغير إذن من الله تعالى ، لا الزهد في إمساكها ، ويصير العبد كلاً على الناس ، فإن ذلك خلاف الشريعة ، انتهى.

فالحمد لله الذي جعلنا ممن لا يشغله عن ربه عز وجل شيء من الكونين ، فاعلم يا أخي ذلك ، واعمل عليه ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: بعد زهدي في الدنيا إمساكي لها على وجه الأدب مع الله تعالى للحكمة التي جعلها في إمساكها ، لا محبة في ذاتها ، فأنا على نحو ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين . وأما قوله تعالى. ﴿ مِنكُم مَّن

﴿يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فالمراد والله أعلم: منكم من يريد الدنيا للآخرة، ومنكم من يريد الآخرة لله تعالى، فمن الصحابة الفاضلة والأفضل كما قرره كذلك الشاذلي وغيره، فما طلب أحد منهم الدنيا محبة في ذاتها، ولا حرصاً على جمعها لغير غرض صحيح، بقرينة قوله تعالى في حقهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]. فمدحهم على القيام في التجارة والقيام في الأسباب وأخبر عنهم أن ذلك لا يلهيهم عن ذكر الله، وذلك لجمعهم بين الضرتين، والعدل بينهما على القانون الشرعي.

وسمعت أخي سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: في قوله تعالى فيما نسخت تلاوته «**لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى ثالثاً ولو أن له ثالثاً لابتغى رابعاً ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب**»(١)

ومعنى ذلك والله أعلم أنه لو كان لأبناء الدنيا ذلك لطلبوا الزيادة منه، بخلاف أبناء الآخرة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء رضي الله تعالى، إذ الأدم ظاهر الجلد، أي لو كان لبني آدم الذين نظروا إلى ظاهر الدنيا دون باطنها، واديان من ذهب، لابتغوا ثالثاً، وهكذا بخلاف أبناء الآخرة الذين خرقوا ببصرهم إلى الدار الآخرة، وعرفوا ما يقربهم من حضرة الله تعالى وما يبعدهم عنها، قال: ولابد من استثناء الأنبياء والصحابة ومن تبعهم من الأولياء من هذا الحكم بالإجماع لزهدهم في الدنيا. انتهى.

ثم وجه الحكمة التي أشرنا إليها أول هذه المنة هو أن الله تبارك وتعالى جعل الذهب والفضة والفلوس ثمناً وقيمة للأشياء كلها دون غيرها، من التراب، مثلاً، فلو قلت لبائع الفجل: أعطني فجلة وأعطيك هذا الكوم التراب مثلاً لا يجيبك إلى ذلك، بخلاف ما إذا أعطيته جديداً من النقرة فكان من أدب أهل الله تعالى أن يدوروا مع مراد الحق تعالى في الوجود، وكان أصل عزة الذهب والفضة عند الناس كما روي، هو أن آدم عليه الصلاة والسلام لما أكل من الشجرة بكى عليه كل شيء إلا الذهب والفضة، إيثاراً لجناب الله جل وعلا، فقال الله عز وجل: لأجعلنكما عزيزين بين عبادي، ولأجعلنَّ قيمة كل شيء بكما، انتهى.

فاعلم يا أخي ذلك ترشد، والله تبارك وتعالى يتولى هداك، وهو يتولى الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إيماني بأن أفعال العباد خلق الله تعالى في حال إضافتها إلى العباد معاً في آن واحد، وهو من أصعب الأمور لأنه إيمان بطريقتين متناقضتين، فأشهد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٤٣٦)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً (١٠٤٩)

بعين بصيرتي في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] أن الرمي لله تعالى في حال كونه للعبد لا على التعاقب، ويحتاج صاحب هذا المشهد إلى عينين ينظر بهما إلى النسبتين، حتى يخرج عن الحيرة، فإن صاحب العين الواحدة لا يقدر على الخروج من الحيرة في هذه المسألة أبداً.

وقد حبب إليّ أن أوضح لك هذه المسألة بما لم تجده في كتاب من كتب المتكلمين، فأقول وبالله التوفيق:

اعلم يا أخي أن العقل يقصر عن فهم مسألة خلق الأفعال من غير إشكال، ولا يخرجك عن الإشكال فيها إلا الكشف الصحيح، على نزاع في ذلك أيضاً، أو أنك تترقى في المواد الكونية، وأنت صاعد حتى تنظر إلى الحق تعالى بقلبك، وهو يخلق المخلوق الأول الذي لم يتقدمه مادة، فإنك تجد الحق تعالى فاعلاً وحده لا شريك له، ثم تتنزل في الفروع إلى أسفل، مع مشاهدة سريان القدرة الإلهية في كل من أضيف إليه فعل من الخلق، فتجده لا يقدر على فعل إلا بإمداد القدرة الإلهية له.

ومن هنا انفتح باب الإشكال لعدم تخليص الفعل حينئذ في الشهود البصري لله وحده، أو للخلق وحدهم، ووقع الخبط، فمن أضاف الأفعال كلها إلى الله تعالى حسنها وقبيحها، قال له لسان الغيرة الإلهي: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] فإن نسبة الأفعال إلى الخلق نسبة إضافة وإسناد لا نسبة خلق وإيجاد، ومن أضاف الأمور الحسنة كلها إلى الله تعالى، وأضاف القبيحة كلها إلى الأكوان قال له لسان الجود الإلهي أيضاً ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا تكذيباً له، بل ثناء جميلاً، كما نضيف نحن ما قبح من الأفعال مما لا يوافق الأغراض ولا يلائم الطبع إلينا، مع علمنا بأن الكل من عند الله، ولكن لما تعلق به لسان الذم فدينا ما ينسب إلى الحق من ذلك بنفوسنا أدباً مع الله تعالى، كما أننا نضيف ما كان من خير وحسن إلى الله تعالى، ونرفع نفوسنا من الطريق حتى يكون الحق تعالى هو المحمود وحده أدباً معه تعالى، وإن كان هو لله تعالى في الحقيقة بلا شك، مع ما فيه من رائحة الاشتراك بالخبر الإلهي، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وفي قوله تعالى عز من قائل: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] وإن كان المراد من نفسك إسناداً لا إيجاداً، وقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فأضاف تعالى العمل وقتاً إلينا، ووقتاً إليه، فهذا هو سبب قولنا مع ما فيه من رائحة الاشتراك.

وقال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فأضاف الكل إلينا، وقال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] فله الإلهام فينا، ولنا العمل بما ألهم.

وقال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ﴾ [الإسراء: ٢٠] فقد يكون عطاؤه الإلهام، وقد لا يكون عطاؤه خلق العمل، فافهم فإن هذه المسألة لا يخلص فيها توحيد الفعل أصلاً من

جهة الكشف ولا من جهة الخبر الإلهي ، فالأمر الصحيح في ذلك أن الحكم مربوط بين حق وخلق غير مخلص لأحد الجانبين ، فإن أعلى ما يكون من النسب الإلهية عند أهل الوحدة المطلقة أن يكون الحق تعالى هو الموجود وحده ، وما ثم إلا وجود الحق لا غيره ، والتغيرات الظاهرة في ذلك الوجود هي أحكام أعيان الممكنات الموجودة في العلم الإلهي ، فلولا العين ما ظهر الحكم ، ولولا الممكن ما ظهر التغير ، فلابد في ظهور الأفعال من حق وخلق.

وفي مذهب الأشاعرة أن العبد محل ظهور أفعال الله تعالى ، وموضع جريانها ، فلا يشهد لها الحس عندهم إلا من الأكوان ، ولا تشهدها بصيرتهم إلا من الله تعالى من خلف حجاب ، هذا الذي ظهرت على يديه المريد لها المختار فيها ، فهو لها مكتسب باختياره.

وفي مذهب المعتزلة أن الفعل للعبد حقيقة ، ومع هذا فربط الفعل عندهم بين الحق والخلق لا يزول ، فإنهم يقولون: إن القدرة الحادثة في العبد التي يكون بها هذا الفعل من الفاعل ، هي خلق الحق تعالى ، ولولا أن تعالى خلق للعبد القدرة لما قدر على الفعل ، فما يتخلص الفعل للعبد عندهم إلا بما خلق الله فيه من القدرة عليه ، فما زال الاشتراك ، هكذا قرره لي بعض المعتزلة خلاف ما شاع عنهم ، فهؤلاء ثلاثة أصناف ما زال منهم وقوع الاشتراك.

وهكذا أيضاً حكم مثبتي العلل ، لا يتخلص لهم إثبات المعلول لعلته التي هي معلولة لعلة أخرى فوقها إلى أن ينتهوا إلى الحق تعالى الواجب الوجود لذاته ، الذي هو عندهم أعلى العلل فلولا علة العلل ما كان معلول عن علة ، إذ كل علة دون علة العلل معلولة ، فالاشتراك ما ارتفع على مذهب هؤلاء أيضاً.

وأما ما عدا هؤلاء من الطبيعيين والدهريين ، فغاية ما يؤول إليه أمرهم أن الذي نقول نحن فيه إنه إله يقول الدهري فيه: إنه الدهر ، والطبيعي إنه الطبيعة ، فلا يخصون الفعل الظاهر منا دون أن يضيفوا ذلك إلى الطبيعة ، وأصحاب الدهر إلى الدهر ، فما زال وجود الاشتراك في كل ملة ونحلة ، وما ثم عقل يدل على خلاف ذلك ، ولا خبر إلهي في شريعة من الشرائع ، يخلص الفعل من جميع الجهات إلى أحد الجانبين دون الآخر ، لأنّا إن نسبنا الفعل إلى الله تعالى وحده ترتب عليه محذور ، وإن كان له وجه في الإخبار الإلهي؛ لأنه يرتفع بتوحيد الفعل لله وحده حكمة الخطاب بالتكاليف ، وذلك قدح في الخطاب والتكاليف ، ومباهتة للحس؛ ولأنه لا يُؤمَر ويُنهى إلا من له قدرة على فعل.

وقد ثبت التكليف للخلق بالأوامر والنواهي ، ويؤيد ذلك كون الحق تعالى جعل الخلق خلفاء في الأرض ، يعزلون غيرهم ، ولذلك مال بعض أهل الكشف إلى القول بالكشف جزماً؛ لأنه أقوى في الدلالة ، ولا يقدح فيه رجوع كل ذلك إلى الله تعالى بحكم الأصل ، فما

ضعفت على هذا حجة القائلين بالكسب عند من لا يقول به ، من جهة كونهم قائلين بالكسب؛ لأن ذلك لا خلاف فيه عند الفريقين لأنه خبر شرعي ، وأمر عقلي ، وإنما ضعفت حجتهم من الحادثة لنفيهم الأثر عن القدرة فافهم.

وإن نسبنا الفعل إلى قدرة العبد كان كذلك أيضاً وجه في الإخبار الإلهي ، لكن يترتب على ذلك محظور ، كما مر بيانه ، إذ إيجاد الفعل لا يكون بالشركة الحقيقية بين العبد وربه ، ولهذا لم نلحق المعتزلة بالمشركين ، من حيث إنهم وحدوا أفعال العباد للعباد ، ولم يجعلوهم شركاء لله تعالى ، وإنما أضافوا الفعل إليهم عقلاً ، وصدقهم الشرع في ذلك ، والأشاعرة وحدوا فعل الممكنات كلها من غير تقسيم لله تعالى عقلاً ، وساعدهم الشرع على ذلك ، وذلك أقوى عند أهل الكشف.

وذكر الشيخ في كتاب «لواقح الأنوار» ما نصه: اعلم أن من الأولياء من أعطي التصرف بكن ، وتركه أدباً مع الله تعالى ، وقال: إن الفعل حقيقة ليس هو لنا عقلاً ولا كشفاً ، فلما تبين ذلك ، قال: فنحن نضيف الفعل إلى الله تعالى حساً ، كما أضفناه إليه كشفاً وعقلاً ، لنسلم من الآفة التي ربما دخلت على المتصرف بكن ، ولو أنه كان للفعل نسبة محققة إلينا ، ثم تركناه ، وقلنا للحق: افعله عنا ، لوقعنا في سوء الأدب ، وكان نسبة فعلنا إلينا هو عين الأدب مع الله تعالى ، وأطال في ذلك ، ثم قال: فعلم أن من المحال أن يقول الحكيم: امش يا مقعد ، وافعل يا من لا يفعل ، فإن الحكمة لا تقتضيه ، فبقي وجه نسبة الفعل إلى الفاعل ، ينبغي أن تعرف والعبارة تقصر عن ذلك.

فقد بان لك يا أخي أن الكشف والشرع والعقل ما خلصت لنا شيئاً ، ولا تخلص أبداً دنيا ولا أخرى ، فالأمر في نفسه ، والله أعلم ، ما هو إلا كما وقع ليس فيه تخليص؛ لأنه في نفسه غير مخلص إذ لو كان في نفسه مخلصاً ، لابد أن كان يطلع عليه بعض هذه الطوائف من جهة النقل أو الكشف ، ولا يسعنا أن نقول الكل على خطأ ، فإن في الكل الشرائع الإلهية ، ونسبة الخطأ إليها محال ، وما يخبر بالأشياء بما هي عليه إلا الله تعالى ، وقد أخبر ، فما هو إلا كما أخبر؛ لأن مرجع الكل إليه ، فما خلص فهو مخلص وما لم يخلص فما هو في نفسه مخلص فإنه يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فقد اجتمع قول الحق تبارك وتعالى والعالم جميعه في هذه المسألة على الاشتراك ، وهذا هو الشرك الخفي والجلي ، وموضع الحيرة ، فما ثم من قال: إن الأفعال كلها لله تعالى من غير رائحة اشتراك قط ، هذا تقرير المذاهب الإسلامية.

وأما أحوال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فاعتقادنا فيهم أن الأمور كلها مكشوفة عندهم ليس عندهم فيها حيرة ، فتأمل يا أخي في هذه المسألة ، وأمعن النظر فيها ، فإن فيها خضعت أعناق فحول الرجال.

وعبارة الزركشي في جمع الجوامع بعد كلام طويل: وأحسن ما قيل في تعريف الكسب: أنه المقدور الحاصل بالقدرة القديمة ، في محل القدرة الحادثة ، فالذي يجب اعتقاده أن الله تعالى خالق أفعال العباد ، وأنها مكتسبة لهم ، وأن حجة الله تعالى قائمة عليهم ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، ولا يطلب الوصول إلى الغاية في ذلك فلسنا مكلفين بها مع صعوبة مرامها. انتهى كلامه ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

الخاتمة

في ذكر جملة صالحة من المحن والبلايا التي احتملتها من أهل عصري ، ذكرتها للإخوان ليتأسوا بي في كثرة الاحتمال ، وعدم مقابلة أحد بسوء ، وهي من أعظم أخلاق الكتاب ، فأقول وبالله تعالى التوفيق ، وهو حسبي ، ومغيثي ، ومعيني ، ونعم الوكيل:

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي في نفسي أنني دون كل جليس من المسلمين كشفاً وذوقاً ، لا تواضعاً مني ، فإن لفظ التواضع يدل على أن صاحبه أثبت لنفسه مقاماً عالياً ، ثم تنازل منه إلى جليسه ، وما هكذا تواضع أهل الله تعالى ، فإنهم كلما ارتفعوا في المقام ظهر لهم حقارة نفوسهم ، وكمال غيرهم ، إلى أن ينتهوا إلى شهود أنفسهم تحت الأرضين السفليات في المقام ، فلو أن أحداً أقام لهم الأدلة على أنهم أعلى مقاماً من أحد من المسلمين ، لم يخرجهم عن شهود نقصهم ، بل لا يصغون إلى ذلك ، وفي الحديث «من تواضع لله رفعه»[1] فصرح ﷺ بأن القرب من حضرة الله إنما يكون بالتواضع ، ويفهم منه أن التكبر بالعكس.

وقد أجمع العارفون بالله تعالى على أن العبد ما دام يشهد نفسه فوق أحد من المسلمين ، فلا يصح له دخول حضرة الله تعالى أبداً؛ لأنها محرمة على من فيه شيء من الكبر ، فإن أهلها ثلاثة أصناف: أنبياء ، وملائكة ، وأولياء ، وليس عند أحد من هؤلاء شيء من الكبر بإجماع ، فلا يدخل حضرتهم إلا من تخلق بأخلاقهم ، ومن لم يتخلق بأخلاقهم فهو ممنوع من دخولها ، حتى في صلاته جسم بلا روح.

وقد كان الإمام أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه يقول: لا يبلغ أحد مقام الكمال في التواضع حتى يرى نفسه ليست بأهل أن تنالها رحمة الله عز وجل ، أي على وجه الاستحقاق ، وإنما رحمة الله لها من باب الفضل والمنة.

وكان السري السقطي رضي الله تعالى عنه يقول: لا يبلغ أحد مقام التواضع ، حتى يرى أنه لا يقف أحد للحساب يوم القيامة من المسلمين أكثر أوزاراً ولا معاصي ولا مخالفات منه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٦) ، وأحمد في مسنده (٢٧٣٢٤).

وكان الحسن البصري ، وعمر بن عبد العزيز ، رضي الله تعالى عنهما يقولان: لا يبلغ أحد مقام التواضع ، حتى يخرج إلى الجمعة أو العيد فلا يجد أحداً في الطريق ، ولا في المسجد ، أو مصلى العيد ، إلا وهو يرى نفسه دونه حتى يرجع.

وكان حمدون القصار رضي الله تعالى عنه يقول: من ظن بنفسه أنه خير من فرعون فقد أظهر الكبر ! لعل مراده بفرعون أحد ملوك مصر الظالمين.

فعلم أن كل من تحقق بهذا المقام يمتد من كل جليس ، ومن رأى نفسه فوق جليسه ، أو مساوياً له حرم مدده ، وذلك أن المدد كالماء لا ينحدر إلا في السفليات ، فيا حرمان من رأى نفسه فوق جليسه ، أو مثله ، أي مساوياً له ، ويا سعادة من رأى نفسه دونه ، فإننا ما رأينا ماء أبداً يصعد في حائط بطبعه ، والحوضان المتساويان ماؤهما واقف عن بعضهما.

وعلم أيضاً أن صاحب هذا المقام إذا قال لعالم أو فقير: أنت لا تصلح تلميذاً لي ، فليس قصده رفع نفسه عليه ، وإنما مراده أنت فوق درجتي ، فلا تصلح تلميذاً لي ، أو مراده رفع همة ذلك العالم أو الفقير فوق ما هو فيه لا احتقاره ، فإن ذلك لا يصح في حق متواضع أبداً.

وقد سمعت مرة فقيراً يقول: إن العالم الفلاني لا يجيء قلامة ظفري فتكدرت منه ، فقال: لا تتكدر ، أنا أقول: إنه لا يجيء قلامة ظفري ، وأنت تقول: إنه يجيء قلامة ظفري ، فأيّنا المعظم له.

ثم لا يخفى أنه لابد لصاحب هذا المقام من عينين: عين ينظر بها أنه دون كل مسلم ، ليعطي العبودية حقها ، والذلة لله تعالى حقها ، وعين ينظر بها ما أنعم الله تعالى به عليه ، فيرى نعمة الملوك من جملة نعم الله تعالى عليه؛ لأن بوجودهم حفظ دينه وماله وحريمه ، والقيام بشعائر الإسلام ، فيشكر الله تعالى على ذلك ، وصاحب العين الواحدة هو أعور ناقص ، وقد ذكرنا علامات المتحقق بهذا المقام ذوقاً ، في أول كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود ، فراجعه ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: بعد المجاهدة كثرة تحملي للبلايا والمحن الواقعة لي بذنوبي ، أو اختباراً من الحق تعالى لي.

وكذلك مما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ كثرة تحملي للإنكار عليّ بغير ذنب يظهر لي ممن عرفت ، وممن لم أعرف.

ثم إن المعين لي على ذلك كله اكتفائي بعلم الله عز وجل ، ثم إن المنكر علي لا يخلو حاله من أمرين: إما أن يكون صادقاً في إنكاره عليّ ، أو كاذباً ، فإن كان صادقاً وإنكاره عليّ بحق فالغيظ مني حمق ورياء وسمعة ، فإن ما وقعت فيه قد كتب في ديوان السماء قبل أن يظهر

في الأرض ، وإن كان كاذباً وإنكاره عليّ بغير حق ، فإن الغيظ منه أيضاً حمق ؛ لأنه لم يكتب في ديوان السماء ، فكيف يصح من عاقل التكدر من ذلك ، وهو يعلم أن الله تعالى الذي هو المؤاخذ والمعاقب يعلم براءته من ذلك.

وقد حصل لي بحمد الله تعالى بذلك إدمان كثير على تحمل الأذى من الخلق ، فلم تزل طائفة تؤذيني بطريق البهتان والزور ، ويرمونني بأمور أنا منها بريء بحمد الله تعالى ، ثم يستفتون علي العلماء فيفتونهم بحسب السؤال ، ثم يشيعون أن العلماء أفتوا في حق فلان بكذا وكذا ، فلكثرة ما وقع لي ذلك صرت لا أتأثر من مثل ذلك ، وكأن قطب البلاد يدور عليّ كما تدور الرحى على قطبها ، فلا أنفك من دورة بلاء إلا وتستقبلني دورة أخرى ، تارة عقوبة لذنب سلف ، وتارة اختباراً من الله تبارك وتعالى لدعواي مقاماً لم أبلغه مثلاً ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: قلة ضجري ممن يؤذيني ، وذلك لغلبة مراعاتي بحمد الله تعالى لما فيه رضا الحق تبارك وتعالى ، دون ما فيه رضا الخلق ، إذ لا يقدر على تحمل الأذى من الخلق إلا من لم يطلب له مقاماً عندهم ، وإلا فمن لازمه غالباً التكدر منهم ضرورة ومعاداتهم؛ لأنه كلما يريد يبني له مقاماً عندهم يهدمه هؤلاء الذين ينقصونه في المجالس مثلاً ، ولو أنه لم يطلب له مقاماً عندهم ، واكتفى بعلم الله تعالى ، لم يتأثر ولو قام عليه جميع أهل بلده أو إقليمه.

ثم إن هذا المقام ليس هو من مقامات الأكابر كما توهمه بعضهم ، إنما هو من مقامات المريدين ، فمن أراد أن يعرف قدمه في مقام الإرادة فليفتش نفسه إذا قام عليه أهل بلده ورموه بالعظائم ، حتى امتنعوا من مجالسته ، فإن وجد نفسه متأثرة من ذلك ، فليعلم أنه لم يشم من مقام المريدين رائحة ، وهو ملحق بالعوام الذين يلعب بهم إبليس كالكرة.

وقد وقع لبعض العباد مناظرة مع إبليس ، فقال له إبليس: أنا أعلى مقاماً منكم ، فقال له العابد: كيف؟ فقال له: الوجود كله يلعنني ويحقرني ويسبني ، وأنا صابر على حكم الله تعالى ، لم تتغير مني شعرة ، وأحدكم إذا قام عليه أهل حارته ، ورموه بالعظائم تنغصت معيشته ، وسارع إلى طلب براءته مما نسب إليه ، ولم يكتف بعلم الله فيه ، انتهى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: بعد الإدمان على تحمل البلاء والأذى ، مبادرتي لشكر الله تعالى كلما يؤذيني إنسان ، فأشكر الله الذي صبرني على تحمل أذاه ، ولا أشتغل قط بمقابلته ، بل أعذره في ذلك ، فإنه ما آذاني إلا وهو في غفلة عن كوني عبد لله ، وعن كونه في حضرة الله تعالى ، وعن كون الحق عز وجل نهاه عن مثل ذلك مع ضيق حوصلته ، ولو أن الله تبارك وتعالى منَّ عليه بأخلاق الصالحين كان بالضد مما ذكرناه ، ولم يؤذ الذر ، فضلاً عن

الآدمي ، ولكان يستحيي من الله تعالى أن يؤذي عبده في حضرته .

فعلم أنه ينبغي للعبد أنه إذا قام عليه قائم يؤذيه ، أن يتطلب وجه الحكمة في ذلك ، فإنه لا يخلو شيء يقع في الوجود عن حكمة إلهية ، فإن أطلعه الله تعالى عليها فذاك ، وإلا سلم الأمر لله تبارك وتعالى .

ولما شفعت عند علي باشا الوزير بمصر ، وقبل شفاعتي ، رأيت في تلك الليلة أني جالس عنده في القلعة ، وعليَّ حلة خضراء من صوف ، وهي طويلة واسعة جديدة ، فجاء إنسان من غير علمي وفتق منها شيئاً من الدخاريص ، فأولت ذلك بأن أحداً من الأعداء لابد أن يجرحني عنده ؛ لأن الخلع الخضراء من الصوف علامة على ولاية صاحبها لكنه لم يسلم ممن يجرحه ، فبعد أيام كتب بعض الأعداء فيَّ قصة بالتركي على لسان قوم مجهولين ، ورماها في الديوان ، فأول ما بلغني ذلك بادرت بالشكر ، وأخذت ذلك من باب المنة والفضل من الله تعالى ، فإن اعتقاد الباشا فيَّ الصلاح أكثر ضرراً من إنكاره عليّ ، وذلك لأنه إذا بلغ عمال السلطان وأصحاب الجرائم شدة اعتقاد الباشا فيّ ، صار كل من حبس أو عوقب يترامى عليّ ، فلا يسعني إلا أن أشفع عنده فيه ، ولا يقدر الباشا يخالف قانون السلطان في طريق جمع أمواله ، فأصير أنا وهو في حرب عظيم ، وآخر الأمر أفارقه ، ويصير ينكر عليّ كما سيأتي بسطه في مواضع إن شاء الله تعالى .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول : من علامة القطب في كل زمان كثرة تحمله للبلايا ، والإنكار عليه ، فإن جميع بلاء أهل الأرض ينزل عليه أولاً ، ثم يتفرع منه إلى الإمامين ، ثم إلى الأوتاد الأربعة ، ثم إلى الأبدال السبعة ، وهكذا إلى آخر الدوائر ، فإذا فاض عنهم شيء وزعوه على المؤمنين بحسب مقامهم ، فربما حمل رجل واحد جميع البلاء عن أهل حارته ، أو بلده .

قال : وقد اجتمعت بقطب هذا الزمان في الأمشاطيين بمصر ، فرأيته يبيع الفول المسلوق في حانوت ، ورأيته شاكراً لله تعالى على كثرة ما يؤذيه الناس ، انتهى .

وكذلك قال الشيخ محيي الدين بن العربي ، أنه اجتمع بالقطب في عصره في مدينة فاس ، ورآه مبتلى بكثرة إنكار الناس عليه ، وهو أقطع اليد اليمنى ، قال : فلما عرف مني أنني عرفته قال لي : استرني ، فقلت سمعاً وطاعة ، ثم قلت له : إني يشق علي كثرة الأذى لك من هؤلاء الخلق ، فقال لي : يا محمد حكم أذى جميع الناس للرجل المتمكن في المقام ، حكم ناموسة نفخت على جبل ، فأرادت أن تزيله عن مكانه بنفختها ، انتهى .

ومن هنا كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول لنا كثيراً : لا يكمل الفقير حتى يكون قطباً يدور عليه الأذى من أهل إقليمه كلهم ، كما تدور الرحا على قطبها ، ثم تتفاوت الفقراء في المقام بحسب مشاهدهم ، فمنهم من يكون مشهده الصبر ، ومنهم من يكون مشهده

الرضا ، ومنهم من يكون مشهده الشكر لله عز وجل من وجه ، والاستغفار من وجه ؛ لاحتمال أن يكون ذلك الأذى بذنب سلف أحصاه الله تعالى ، ونسيه العبد.

قال: وما من نبي ولا ولي لله تعالى إلا وقد أوذي فصبر ، ثم شكر ، واستغفر ، فانتهى أمره إلى الشكر لما تمكن في المقام ، انتهى.

فجميع ما يبلغك يا أخي عن أحد من القوم من الضجر والقلق من كلام قيل فيه مثلاً ، فذلك قبل تمكنه في المقام.

وقد وقع لسيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله تعالى عنه: أن أهل بلاده آذوه أشد الأذى ، ورموه بالعظائم فقال: آه آه آه من أهل هذا الزمان ، والله لو أني علمت في أجلي فسحة لخرجت من بين أظهرهم ، ومكثت في بطون الأودية حتى أموت ، ثم بعد ذلك صار يتبسم كلما آذوه ، رضي الله تعالى عنه.

وكذلك وقع لسيدي إسماعيل الأنبابي: أن أهل أنبابة آذوه ، وأنكروا عليه ، فعزم على الرحيل ، فأناخ الجمل ، وصار يضع عليه من أمتعة البيت ، فقال له صبي: يكفيك يا عم تحمل الجمل ، فقال له صبي آخر: اسكت ، الجمل يحمل ، فسمعهما سيدي إسماعيل ، فرجع عن الرحيل ، وقال: الجمل يحمل ، وإسماعيل لا يحمل.

ووقع لسيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه ، أن جماعة من جامع الأزهر أنكروا عليه ، وادعوا عليه عند القضاة في الصالحية دعوى بغير حق ، فصاح في وجوه المدعين عليه ، فخرجوا من الصالحية ، فلم يعرف لهم مكان ، فقيل: إنهم اختطفوا ، ثم بعد مدة طلع خبرهم بأنهم أسروا في بلاد الفرنج ، وبعضهم تنصر ، فعاب فقراء ذلك العصر ذلك على سيدي إبراهيم ، وقالوا له: أتلفت أديان قوم بكلام قيل فيك ، فقال: والله ما تسببت في ذلك ، وإنما الحق تعالى غار لعبده ، انتهى.

فعلم أن تحمل البلايا والمحن ، وعدم مقابلة الناس بالأذى ، من أعظم أخلاق الرجال ، وذلك أن الكامل إذا دخل مقام الكمال غلب عليه شهود الحق بقلبه ، ووجد الحق تعالى حكماً عدلاً لا يجور ولا يحيف ، كشفاً وشهوداً ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها لعباده.

وقد أرسل كل يوم وليلة لكل عبد ملكين كريمين كاتبين ، يكتبان عليه جميع ما يقوله في حق الناس ، فبتقدير أن الكامل يقابل خصمه ، فهو يشهد نفسه وخصمه بين يدي الله عز وجل ، وهناك يخرس عن خصمه حياء من الله عز وجل.

وكان سبب كثرة تحملي للبلاء ، وعدم ضجري منه ، أنني لما حججت سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، سألت الله تعالى بين الركن والباب أن الله تعالى يفرغ عليّ من الأخلاق المحمدية ما أتحمل به الأذى من جميع الأنام ، وأن يجعلني ممن يتلقى جميع الأقدار الجارية عليّ

بالرضا والتسليم ، وأن يزيل ما على بدني من الحكة ، وكانت قد تشققت يداي منها ، فما استتم الدعاء إلا ويداي سليمتان تلمعان ، كأن لم تكن بهما حكة ، فعلمت أن الله تعالى قد أجاب دعائي كله من ذلك اليوم ، والحسدة والأعداء يقومون علي جماعة بعد جماعة ، وأنا أحتملهم إلى وقتي هذا ، وأرجو من الله تعالى دوام ذلك إلى الممات ، مع مغفرة الله تعالى لكل من آذاني ، فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تمكيني أحداً من أصحابي يجيب عني من رماني ببهتان ، بل أسألهم بالله تعالى أن أحداً منهم لا يجيب عني ولو بكلمة واحدة ، إلا من جهة أن الشارع ﷺ أمره بأن يرد عن عرض أخيه لمسلم ، لا من جهة نصرته لي وشفقته عليّ ، وذلك أنني أزعم أنني من جملة المحبين لأهل الله عز وجل ، ولابد لمن يكون من أصحابهم من وجود عدو وحاسد ، ليحصل له الإدمان على تحمل بلاء الطريق ، ولا يتم له الإدمان إلا بالسكوت ، وعدم الجواب عن نفسه ، كل ذلك لعزة مراقي الطريق ، وصعوبتها على الحسدة والأعداء ، فلما عجزوا عن سلوك طريق أهل الله تعالى ، لينالوا بزعمهم العز عند الملوك والأمراء كما قالوا شرعوا في تنقيصهم ، ورميهم بالزور والبهتان ، سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ثم إن غالب ما يرميهم به الحسدة إنما هي أمور سرية ، كالرياء ، والنفاق ، وحب المشيخة ، وعمل الكيمياء ، ونحو ذلك ، لعلمهم بأنهم إذا رموه بالمعاصي الظاهرة من ترك الصلاة ، وشرب الخمر ، ونحوهما ، لا يقبل منهم؛ لأن أعمال أهل الله تعالى في نسكهم وعبادتهم تكذب هؤلاء الحسدة ، فلذلك رموهم بالأمور الباطنة.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: لابد لأهل الله تعالى من عدو يؤذيهم ، فإن صبروا كانت لهم الإمامة ، وإلا خرجوا نحاساً ، قال: ودليلنا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة: ٢٤] فما بلغوا مقام الإمام إلا بعد مبالغتهم في الصبر ، وتحمل الأذى ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٣٤] والنكتة في ذلك: أن الحق تعالى لا يصطفي عبداً من عبيده إلى حضرته ، وهو يطلب المقام عند أحد من الخلق ، فهو تبارك وتعالى يسلط على من يريد اصطفاء الخلق بالأذى ، حتى لا يركن إليهم ، من حيث كونهم خلقاً إذ الركون إليهم بهذا المعنى يمنع حصول الاصطفاء ، وإيضاح ذلك: أنهم إذا أحسنوا إليه واعتقدوه مال إليهم بالمحبة ضرورة ، ففاته مقام الاصطفائية.

وقد حبب لي أن أذكر لك جماعة من الصحابة ، والتابعين ، والخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الملوك إلى عصرنا هذا ، قتلوا ظلماً وعدواناً فضلاً عن كونهم أوذوا في أبدانهم

وأعراضهم وأموالهم ، لتتأسى بهم ، فأقول وبالله التوفيق :

قد مات سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تبارك وتعالى عنه مسموماً .

ومات سيدنا عمر رضي الله عنه ، مقتولاً ، طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بخنجر في خاصرته وهو في صلاة الصبح .

وقتلوا سيدنا عثمان رضي الله عنه ، وهو جالس يقرأ في المصحف في داره ، بعد أن حاصروه ، وثاروا عليه ، ورجموه ، وهو على المنبر ، حتى غشي عليه ، ورجموا الناس حتى أخرجوهم من المسجد ، وحمل عثمان إلى بيته ، فلما مات دفنوه بثيابه الملطخة بالدم من غير غسيل .

ومات علي بن أبي طالب رضي الله عنه مقتولاً ، قتله عبد الرحمن بن ملجم ، وضربه بسيف مسموم في جبهته ، ومسك عبد الرحمن فقتل بعد موت سيدنا علي رضي الله تعالى عنه .

ومات الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما مسموماً ، سمته امرأته بإغراء ، قيل إنها من جماعة معاوية ، ووعدوها بأن معاوية يتزوجها ، فلما سمته لم يفعل .

ومات الحسين رضي الله تعالى عنه مقتولاً ، ضربوه بسهم ، ثم قطعوا رأسه ، وداسوا جثته بالخيل ، ووقع بسبب قتله في المدينة نهب وقتل ، حتى قيل إنه قتل في هذه الواقعة عشرة آلاف نفس ، وحمل فيها ألف امرأة من غير زوج ، وافتضوا فيها ألف بكر .

ومات عبد الله بن الزبير مقتولاً بمكة ، وصلبه الحجاج أشهراً ، وطاف برأسه بعد أن نصب المنجنيق وهدم جانباً من الكعبة .

ومات الإمام زين العابدين مقتولاً ، وحملت رأسه إلى مصر ، وكذلك زيد بن الحسن ، قتل وصلب ، وكذلك الحسن والد السيدة نفيسة ، وكذلك جعفر الصادق وكذلك محمد الباقر ، وكذلك موسى الكاظم ، وكذلك الحسن العسكري ، وكذلك إبراهيم بن زيد ، الذي قاتل معه الإمام مالك ، وحملت رأسه إلى مصر فدفنت بعد تجريسها خارج المطرية ، وكذلك محمد بن أبي بكر ، قتله أهل مصر وحرقوه في التنور .

ومات عمر بن العزيز مسموماً ، ونبشوا قبر هشام بن عبد الله ، وأخرجوه ، وصلبوه ، مع صلاحه ودينه وورعه .

وقتلوا الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وحزوا رأسه ، ولكن كان فاسقاً . من جملة فسقه ، أنه أخرج جارية من جواريه سكرانة ، فصلت بالناس وهو الذي مزق المصحف ، وذكرناه من حيث أنه خليفة وابتلي في دينه مع ذلك ، وهو أشد من بلاء الأبدان والأعراض .

وقتلوا مروان بن محمد بن مروان بعد أن ولي الخلافة ، وكان آخر خلفاء بني أمية بدمشق والعراق.

ومات أبو مسلم الخراساني مقتولاً ، قتله الخليفة المنصور الذي بنى بغداد ، وهو أبو جميع الخلفاء العباسيين ، وكان قد أمره بمعروف قبل خلافته ، فنقم عليه.

وقتلوا أمير المؤمنين محمد الأمين بن هارون الرشيد صبراً ، وقطعوا رأسه وجرسوها ، وكان سادس خلفاء بني هاشم بعد علي والحسن رضي الله تعالى عنهما.

ومات المتوكل مقتولاً ، مع أنه أظهر السنة ، وأمات البدعة ، وعاقب من قال بخلق القرآن ، بمواطأة ولده المنتصر على قتله ليلي الخلافة بعده.

وقتلوا الخليفة المستعين بالله ، وقطعوا رأسه بعد أن خلعوه وحبسوه بواسط ، وقتله المعتز ، ولما جلس القاتل على صدره ليحز رقبته بكى ، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله.

وقتلوا الخليفة المعتز بالله في الحمام ، فغطسوه في الماء الحميم حتى مات ، بعد أن كانوا ضربوه على رأسه ووجهه بالدبابيس ، وأوقفوه في الشمس أياماً.

وقتلوا المهتدي ، مع أنه من حين ولي الخلافة لم يفطر في النهار ، وكان يأكل البقل والخل عند إفطاره ، وله جبة وعباءة يلبسهما في الليل ، في سرداب تحت الأرض ، وكان سبب قتله أنه منع حاشيته من المظالم ، فعملوا عليه الحيلة وقتلوه.

وقتلوا الخليفة ابن المعتز ، بعد أن حبسوه أياماً ، وخنقوه ، وقاسى من الأهوال ما لا يعبر عنه ، قتله المقتدر بالله ، كما قتل الحسين بن منصور الحلاج ، سنة تسع وثلاثمائة.

وقتلوا المقتدر بالله بمواطأة وزيره ، فضربوه على رأسه بسيف ، فقال للقاتل: ويحك أنا الخليفة ، فقال: أنا أعلم ذلك ، وذبحه بالسيف ، وشالوا رأسه على رمح ، وسلبوا ما عليه ، وبقي مكشوف العورة حتى ستر بالحشيش ، وفي أيام خلافته دخل عدو الله تعالى أبو طاهر القرمطي من هجر إلى مكة ، وسفك بها الدماء ، ونقل الحجر الأسود إلى هجر ، وعرى البيت ، وقلع بابه ، وطرح بعض القتلى في بئر زمزم ، ثم عاد إلى بلاد هجر ، وكان دخوله مكة يوم التروية ، فحزروا من قتله نحو ثلاثين ألف نفس ، وأسروا من النساء والأطفال مثلهم.

وقتلوا القاهر بالله فكحلوا عينيه بمرود من نار ، فلم يزل كذلك إلى أن مات ، مع ما كان فيه من العز والمال ، وكان في داره عشرة آلاف خادم من الخصيان ، وكان يفرق الضحية من الإبل والبقر أربعين ألف رأس ، ومن الغنم خمسين ألف رأس.

وسملوا عيني المتقي بالله ابن المقتدر ، وأدخلوه الحبس في بغداد ، فلم يزل كذلك إلى أن مات في الحبس ، بعد أربع وعشرين سنة ، وفي زمنه أرسل ملك الروم يطلب منه منديلاً في كنيسة من الرها يقال إن المسيح عليه السلام مسح به وجهه ، ووعده إن أرسله أن يطلق له عشرة آلاف أسير ففعل فأطلقهم.

وهجموا على الخليفة المستكفي بالله ، وهو على سريره في دار الخلافة ، فجروه على الأرض برجله ، ثم سملوا عينيه حتى مات ، وكان الذي فعل به ذلك الديلم ، قال ابن خلكان: ولما بعث ملك الروم يتوعده بالقتال ، عبى لقصاده العساكر ، وصفت الدار بالأسلحة ، وأنواع الزينة ، وكان جملة العسكر المصفوف مائة ألف وستين ألفاً ، ووقفت الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق الذهبية ، وكذلك الخدم والخصيان ، ووقفت الحجاب ، وكانوا سبعمائة حاجب ، وزينت دار الخلافة بالستور والبسط ، فكانت جملة الستور المعلقة ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج المذهب ، وكانت جملة البسط اثنين وعشرين ألف بساط ، وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة ، تشتمل على ثمانية عشر غصناً ، وأوراقها من ذهب وفضة ، وأغصانها تتمايل بحركات موضوعة ، وعلى الأغصان طيور خضر من ذهب وفضة ، ينفخ الريح فيها فيصفر كل طير بلغة ، وأشياء غير ذلك ، فانظر يا أخي ما وقع له بعد هذه الرفعة ، وإنما ذكرت لك ذلك إعلاماً لك بأن شدة البلاء تكون على ملوك الدنيا وأكابرها ، لشدة نعيمهم ورفاهيتهم.

وخلعوا الخليفة الطائع لله وحبسوه إلى أن مات ، وفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة أيام ولايته ، خرج طائر من البحر بعمان قدر الفيل ، فجلس على تل هناك ، وصاح بصوت فصيح: قد قرب الأمر ، فمكث ثلاثة أيام ، ثم نزل البحر وغاب ، وفي سنة تسع وأربعين وثلاثمائة دخل أبو تميم المعز بن باديس ، وملك مصر ، وأبطل اسم الطائع لله من الخطبة.

وقتلوا الخليفة المسترشد بالله تعالى ، دخل عليه سبعة عشر رجلاً من الباطنية ، فضربوه بالسكاكين ، حتى خرقوا جسده ، وقطعوا أنفه وأذنيه ، ثم مسكوه وأحرقوه.

وقتلوا الخليفة الراشد بالله ، بعد أن عاقبوه في الحبس إلى أن مات ، وولد مسدود الفرج ، فجمع والده الحكماء ، وفتحوا له فرجاً فكان ذلك أول بلاء أصابه.

وقتلوا الخليفة المستعصم بالله آخر خلفاء بغداد ، بموالسة وزيره ، وضعوه وولده في تليس ، وصاروا يرفسونه إلى أن مات هو وولده ، بعد أن قتلوا من أهل بغداد ، ما يزيد على ألفي ألف وثلاثمائة ألف رجل ، ثم حرقوا البلد ، وبقيت الدنيا بلا خليفة سنين إلى أن قام الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، بعد بني العباس في الخلافة.

وحبسوا الخليفة المتوكل على الله في قلعة الجبل ، ثم نفوه في أيام السلطان برقوق ، ثم

أعادوه إلى الخلافة إلى أن مات ، وكان سكنه بالكبش قريباً من جامع ابن طولون.

ونفوا الخليفة المستعين بالله بإسكندرية حتى مات ، نفاه السلطان المؤيد شيخ.

وقتلوا السلطان فرج بن برقوق ، بعد تعذيب وتوبيخ.

ونفوا الخليفة القائم بأمر الله من مصر إلى إسكندرية ، فلم يزل بها حتى مات ، نفاه السلطان جقمق ، وحضر مبايعته بالخلافة قاضي القضاة يحيى المناوي ، والقاضي كمال الدين البارزي ، وخطب الشيخ يحيى المناوي خطبة في غير المعنى ، فابتدأ القاضي كمال الدين بخطبة بليغة ، تعرض فيها للبيعة ، ثم تفاوضوا في الكلام: هل للسلطان أن يعزل الخليفة؟ فلم ينطق أحد بشيء ، فقام الشيخ صالح البلقيني ، ونقل عن علماء مذهبه أن للسلطان أن يعزل الخليفة ، ويولي غيره.

وقتلوا الحاكم بأمر الله ، عملت على قتله أخته سيدة الملك ، وهو الذي بنى الجامع داخل باب النصر ، قتل في حلوان خارج القاهرة.

وقتلوا المأمون صاحب جامع الأقمر ، وصلبوه سنة تسع عشرة وخمسمائة.

وقتلوا الخليفة الآمر بأحكام الله وضربوه بالسكاكين وهو مار على الجسر إلى الروضة ، إلى أن مات.

وكان الخليفة الحافظ لدين الله به مرض القولنج ، حتى منعه الأكل إلى أن مات ، وعجز الأطباء عن مداواته.

وقتلوا الخليفة الظافر بأمر الله ، وألقوه في بئر ، وهو صاحب الجامع المعروف بجامع الفاكهاني ، قريباً من باب زويلة.

وقتلوا نائب مصر العباس ، وصلبوه على باب النصر ، قتله طلائع بن رزيك ، الملقب بالملك الصالح ، صاحب الجامع خارج باب زويلة.

وقبضوا على الخليفة العاضد بالله ، ، توعدوه بالقتل ، فبلع فصاً كان في خاتمه فمات ، بعد ذل وخزي ونكال.

وقتلوا السلطان الملك العادل ابن الملك الكامل ، بعد طول حبسه وعقوبته ، بأمر أخيه الملك الصالح.

ولما قتله وقعت الأكلة في خده حتى مات ، ولم يتمتع بنفسه بعده ، وهو صاحب المدارس بين القصرين وقلعة الروضة ، وكانت من عجائب الدنيا.

وقتلوا الملك المعظم ، لما صادر خوند شجرة الدر ، وضربوه بالنشاب والسيوف حتى مات ، وأطلقوا فيه النفط سنة ثمان وأربعين وستمائة.

وكانت شجرة الدر جارية الملك الصالح نجم الدين بن أيوب ، وخطبوا لها على المنابر ثلاثة أشهر بمصر ، وهي تسوس الناس ، ثم قتلها مماليك الملك المعز لما عملت على قتله ، وقيل حين تزوج عليها.

وقتلوا الملك المظفر الذي قاتل التتار على مدينة غزة ، وردهم عن مصر ، وذلك أن بعض أمرائه شفع عنده شفاعة فقبلها فطأطأ على يده ليقبلها ، فقبض عليها ، فضربوه من ورائه بالسيوف ، حتى قطعوه.

وقتلوا الملك الأشرف بن الملك المنصور قلاوون ، وكان عالماً شجاعاً ، عادلاً ، غدره خازن داره ، فضربه وقطع يده ، ثم ضربه آخر بالسيف على كتفه فهدله ، ثم بهادر رأس نوبة ، فأدخل السيف من أسفله فشقه إلى حلقه ، وتركوه طريحاً في البرية.

ثم تسلطن بعده أخوه الملك الناصر ، فقبض على جميع الأمراء الذين تواطؤوا على قتل أخيه وسمرهم ، وقتلهم شر قتلة.

وقتلوا الملك المنصور لاجين على غفلة فدخلوا عليه وهو يلعب الشطرنج ، فضربوه بالسيف ، فصلوا رأسه عن كتفه ، ثم ضربوه فقطعوا رجله ، فمات لوقته ، وهو الذي عمر الجامع الطولوني بعد أن أشرف على الخراب ، ووقف عليه الأوقاف ، وهو الذي راك الديار المصرية الروك الحسامي وذلك في سنة اثنتين وتسعين وستمائة.

وخنقوا السلطان بيبرس ، صاحب الخانقاه بباب النصر ، خنقوه بين يدي الملك الناصر حتى مات سنة تسع وسبعمائة.

وقتلوا الملك المنصور سيف الدين ابن الملك الناصر ، بعد أن نفوه إلى قوص ، وأرسلوا رأسه إلى قوصون سراً ، وكان سلطاناً كريماً معظماً ، لكن أضمر قتل قوصون ، فرد ذلك عليه.

ثم لما تولى الملك الأشرف ابن الملك الناصر ، كان مدبره قوصون ، فظلم وقتل الناس ظلماً ، فنفوه إلى الإسكندرية ، ثم قتلوه هناك.

وقتلوا الملك الناصر بن الناصر محمد بن قلاوون بالكرك ، وأرسلوا رأسه إلى مصر بعد قتال شديد.

وقتلوا الملك الكامل ابن الملك الناصر بإغراء أخيه حاجي ، فضربوه بالطبر[١] من ورائه فشدخوا رأسه وظهره ، فمات.

ثم تسلطن حاجي ، وقتلوه سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

---

(١) هو نوع قديم من السلاح يشبه الفأس. اهـ معجم الوسيط مادة / طبر /

وقتلوا السلطان شيخون صاحب الخانقاه قريباً من الرميلة ، وكان عالماً صالحاً ، ضربه مملوك على غفلة بطبر ، فشق رأسه ، وقطع بعض يديه ، ثم أمسك المملوك ، وقتل شر قتلة ، وذلك سنة ثمان وخمسين وسبعمائة .

وقتلوا صرغتمش صاحب المدرسة تحت جامع طولون ، بعد حبس وعقوبة ، في برج الإسكندرية .

وقتلوا السلطان حسن صاحب المدرسة التي لم يعمر في الإسلام مثلها ، قتله الأمير يلبغا بعد قتال شديد في الرميلة .

وقتلوا الملك الأشرف شعبان وقطعوا رأسه بعد أن اختفى عند امرأة أرملة مدة ، بعد أن رجع إلى مصر من العقبة لما أراد الأمراء الذين معه قتله .

وكان الأشرف هذا عادلاً ، محباً للعلماء والصالحين .

وقتلوا الملك الأشرف شعبان ، وقطعوا رأسه بعد أن اختفى عند امرأة أرملة واختفى سنين ثم ظهر وتسلطن ، فكان أمره عبرة لمن اعتبر .

وتغلبوا على الملك الناصر فرج ابن السلطان برقوق، فتسحب من القعلة واختفى ، فلم يعلم أحد أين ذهب ، من ضيق الحال عليه .

ثم ظهر بعد سنة ، وملك القلعة ، وقتل غالب الأمراء ، ثم قتلوه بقلعة دمشق بالسكاكين على يد المشاعلية ، ثم ألقي على مزبلة وهو عاري البدن ، والناس تمر به أياماً ثم دفن .

وكان السلطان المؤيد شيخ بضربان المفاصل مدة ولايته ، حتى أنه صار يحمل على الأعناق ، وعجز الأطباء عن دوائه إلى أن مات .

وقتلوا ولده الملك المظفر ، قتله ططر نائب الشام .

وكذلك قتل الأمير جمقق نائب الشائب ، بعد حبس وعقوبة ، ومسكوا الملك العزيز ، وقيدوه ، وأرسلوه إلى برج الإسكندرية حتى مات ، بعد أن تسحب من القلعة ، واختفى زماناً .

وقبضوا على الملك المنصور عثمان ، بعد أن تسحب من القلعة ، وقيدوه وأرسلوه إلى برج الإسكندرية ، حتى مات .

وقبضوا على السلطان بلباي ، وقيدوه ، ونفوه إلى الإسكندرية ، حتى مات بعد موت السلطان خشقدم .

وقبضوا على الملك الظاهر تمربغا ، وأرسلوه إلى دمياط . فلم يزل بها إلى أن مات .

فهذه جملة صالحة من ملوك الدنيا الذين ابتلوا ، وأما الفقراء فسداهم ولحمتهم بلاء ، بحكم الإرث للرسل عليهم الصلاة والسلام.

وكان الشيخ الكامل الراسخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه ، يقول: جرت سنة الله تعالى في أنبيائه وأوليائه أن يسلط عليهم الأذى ، في ابتداء أمرهم ، بإخراجهم من أوطانهم ، ورميهم بالبهتان والزور ، ثم تكون الدولة لهم آخر الأمر إن صبروا ، وكان رضي الله تعالى عنه يقول أيضاً: لما علم الله عز وجل ما سيقال في أنبيائه وأصفيائه قضى على قوم بالشقاء ، فجعلوا له تعالى زوجة وولداً ، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] حتى إذا ضاق ذرع النبي ﷺ ، أو الولي من كلام قيل فيه ، نادته هواتف الحق تعالى: أما لك بي أسوة ، فقد جعلوا لي زوجة وولداً ، ونسبوا إلي ما لا يليق بجلالي وعظمتي ، وأنا خلقتهم ، ورزقتهم فلا يسع ذلك النبي أو الولي إلا التأسي ، ولذلك تحمل الأنبياء والأولياء ما يرميهم به قومهم من الزور والبهتان والجنون والسحر وغير ذلك ، مما هو مشهور في الكتاب والسنة. ا هـ.

وقد حكى الشيخ تاج الدين بن عطاء الله رضي الله عنه ، أن سيدي الشيخ أبا الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه كان يقول: لا يكمل عالم في مقام العلم حتى يبتلى بأربع شماتة الأعداء ، وملامة الأصدقاء ، وطعن الجهال ، وحسد العلماء ، فإن صبر على ذلك جعله الله تعالى إماماً يقتدى به ، ولما شاع أمره في بلاد المغرب تحزبت عليه الأعداء والحسدة من كل جانب ، ورموه بالعظائم ، وبالغوا في إيذائه ، حتى منعوا الناس من مجالسته ، وقالوا: إنه زنديق ، ولما أراد السفر إلى مصر كتبوا إلى سلطان مصر مكاتبات من جملتها: أنه سيقدم عليكم مغربي من الزنادقة ، أخرجناه من بلادنا حين أتلف عقائد المسلمين ، فإياكم أن يخدعكم بحلاوة منطقه ، فإنه من كبار الملحدين ، ومعه استخدامات من الجان ، فما وصل الشيخ إلى مدينة الإسكندرية ، حتى وجد الخبر بذلك سابقاً على مقدمه ، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل ، فبالغ أهل الإسكندرية في إيذائه ، ثم رفعوا أمره إلى سلطان مصر ، وأخرجوا له مراسيم ، فيها ما يبيح به دم الشيخ ، فمد الشيخ يده إلى سلطان المغرب وأتى منه بمرسوم يناقض ذلك فيه من التبجيل والتعظيم ما لا يوصف ، تاريخه متأخر عن مراسمهم ، فتحير السلطان ، وقال: العمل بهذا أولى ، وأكرمه ورده إلى الإسكندرية مكرماً.

ولما تزايد الأذى عليه توجه إلى الله تعالى في أنه يصبره ، أغاثه الله تعالى ، وذلك أنه أرسل له سلطان مصر يسأله الدعاء ، ويستلطف بخاطره ، فكف الناس عنه الأذى حرمة للسلطان ، وبعضهم زاد في الأذى ، وكاتبوا فيه السلطان ، وقالوا: يا مولانا إنه سيماوي ، فتغير السلطان عليه ، ثم أرسلوا إليه مكاتبات أنه كيماوي ، وأنه يضرب الزغل ، وحذروا الناس من مجالسته ، فاتفق أن خازندار السلطان محمد بن قلاوون وقع في أمر يوجب القتل

عند الملوك ، فأمر بشنقه ، فاختفى وهرب إلى الإسكندرية ، فأقام عند الشيخ ، فبلغ الخبر السلطان ، فأرسل يقول: ما كفاك ضرب الزغل حتى أنك تؤوي غريم السلطان؟ فأرسله ساعة وصول كتابنا إليك وإلا فعلنا وفعلنا ، فلم يرسله الشيخ ، وغضب السلطان ، وأرسل يتوعد الشيخ بالقتل ، ويقول: كيف تتلف مماليك السلطان؟ فما وصل إليه الخبر مع شخص من أخصاء السلطان ، قال له الشيخ: معاذ الله أن أتلف أحداً من مماليك السلطان ، وإنما نحن نصلحه ، ثم قال لقاصد السلطان: ائتنا بما شئت من تماسيح الرصاص من صواصل السلطان ، حتى أريك كيف الإصلاح ، فأتى بشيء كثير ، فألقاه الشيخ في فسقية جامع من غير ماء ، وأرسل وراء الخازندار ، فقال له: بل على هذا الرصاص ، فبال عليه فصار ذهباً خالصاً ، فقال: هذا صلاح وإلا فساد؟ فقال صلاح ، ثم أمر القاصد بحمل ذلك إلى خزانة السلطان ، فوزنوا ذلك فوجدوه خمسة قناطير، فقال: هذا هدية لمولانا السلطان، وقل له يرضى عن مملوكه ، فرضي عنه.

ثم إن السلطان نزل إلى زيارة الشيخ في الإسكندرية ، وأضمر في نفسه أنه يعلمه صنعة الكيمياء ، فقال: كيمياؤنا التقوى ، فاتق الله يعلمك حرف كن ، ثم لم يزل معظماً للشيخ إلى أن مات ، وقد ذكرنا في مقدمة كتابنا المسمى باليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر ، جملة من العلماء والأولياء الذين امتحنوا وأوذوا ، وقتلوا ، فراجعه ترى العجب.

واعلم يا أخي أنه لولا الكلام في عرض خواص هذه الأمة من العلماء والصالحين لعظموا ، بل عبدوا من دون الله عز وجل ، كما عبدت النصارى المسيح عليه السلام ، لكثرة ما يظهر عليهم من الخوارق والكرامات التي تكاد تلحق بالمعجزات ، فكان تجريح الفسقة لهم ، وتنقيصهم لهم في المجالس كالدافع عنهم شر العين ، ونظير تعليق الناس النعال البالية في رحاب الإبل النفيسة ، أو وضع الجماجم العظم في زروعهم ، دفعاً لشر العين.

وقد ورد مرفوعاً «**اجعلوا في زروعكم الجماجم**»[١] رواه الدايلي ، وقد ورد «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**»[٢] فكان من رحمة الله تبارك وتعالى بأوليائه تجريح الناس لهم ، توفيراً لأجورهم ، ليوافو القيامة بها كاملة ، لم يأخذوا منها في الدنيا شيئاً ، فإن غالب من يعتقده الناس ويعظمونه بتقبيل الأيدي أو الأرجل ، حكمه حكم من نصب منجنيقاً ، ورمى حسناته شرقاً وغرباً ، فكل مكان اعتقدوه فيه طار من حسناته إليه جانب ، ولذلك كان أبو يزيد

(١) أخرجه أبو داود في مراسيله (٥٤٠) ، وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٥١)

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٧٤٤) وقال: قال السيوطي في الدرر لا أصل له ، وقال في المقاصد شيخنا ـ يعني ابن حجر ـ لا أصل له ، وزاد بعضهم ، ولا يعرف في كتاب معتبر

البسطامي رضي الله تعالى عنه لا يقيم إلا في مواضع الإنكار ، وكل مكان اعتقدوه فيه تحول منه.

فاعلم يا أخي ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: تنبيهي لشكر الله عز وجل كلما حسدني حاسد، ونقصني في المجالس، لعلمي بأنه ما نقصني إلا وهو يرمي مقامي فوق مقامه ، ولولا ذلك ما انشغل بتنقيصي حسداً منه فكأنه ينادي على تنقيصه وحسده ، ويقول: إن فلاناً خير مني ، ومرادي بتنقيصه عند الناس أن ينقص مقامه ، ويصير مثلي أو دوني ، ثم إننا إذا فتشنا وجدنا التباغض والحسد لا يقع قط بين صالحين ، ولا من صالح في حق فاسق ، وإنما يكون بين فاسقين ، أو من فاسق في حق صالح ، فالفاسق يبغض الصالح بغير حق ، والصالح إن أبغض الفاسق لا يبغضه إلا بحق من غير ازدراء له.

فإياك يا أخي أن تبارد إلى الإنكار على العالم أو الصالح ، إذا رأيت بينه وبين فاسق وقفة ، بل تأمل وتربص ، فربما كانت البغضاء من الفاسق حسداً للصالح ، حيث لم يلحقه في علم ولا عمل ، ولا جاه ولا تعظيم من الناس ، وإياك أن تأمر الصالح بمصالحة الفاسق ، بل أمر الفاسق بتطييب خاطر الصالح ، وهذا الأمر يقع فيه كثير من الجهلة ، فيقولون للصالح: أنت تحمل مثل هذا وأضرابه ، ويأخذونه ماشياً إلى موضع ذلك الفاسق ، فيذلون الصالح في غير محل ، ويكبرون نفس الفاسق بغير حق ، وهضم النفس له محل على خلاف هذا.

ثم لا يخفى أن تسليط الناس بالأذى على الفقير قد يكون بذنب سلف ، وقد يكون محض اختبار من الله تعالى لا بسبب ذنب ، فاللائق بأمثالنا الأول ، واللائق بالأولياء الثاني ، ثم إن الأولياء إذا اختبروا فمنهم من يتفضل الله تبارك وتعالى عليه بخروجه كالذهب الخالص ، ومنهم من يخرج كالنحاس ، فيظهر له بذلك كذبه في دعواه الصبر مثلاً ، والاكتفاء بعلم الله تعالى دون خلقه.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: ابتلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس كفارة لذنب ، ولا اختباراً لعصمتهم ، وإنما ذلك ليتأسى بهم قومهم وأتباعهم ، وكان رحمه الله تعالى يقول: اللهم كثر أعدائي وحسادي ، وصبرني عليهم ، واغفر لهم من جهتي ، فقلت له يوماً: إن في ضمن سؤالك تكثير الأعداء والحساد طلب وقوعهم في الإثم ، فقال: إني لم أقصد ذلك بالأصالة ، وإنما طلبت من الله عز وجل النعمة التي من شأنها أن يحسد الناس العبد عليها ، فإن الحسد مقرون بالنعمة كالظل مع الشاخص. ا هـ.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أنه يجب عليك أن تنكر على من حسدك ونقصك من حيث كونه

عصى الله عز وجل ، فتقول له إن استطعت : يا أخي حسدك لي حرام ، ومتى لم تنكر عليه ذلك حرم عليك ، وهذا أمر قل من يتنبه له ، بل الغالب على الناس إذا بلغهم أن أحداً حسدهم أو اغتابهم أن يشتغلوا بمقابلته في ذلك ، وليس هذا من أخلاق كمل المؤمنين.

وكان علي بن الحسين رضي الله تعالى عنه إذا آذاه أحد بحسد أو غيبة ، يشكر الله عز وجل ويقول : لولا أنه رآني خيراً منه ما حسدني ، ولا اغتابني ، وكثيراً ما كان يقول إذا بلغه أن أحداً اغتابه : اللهم إن كان صادقاً فاغفر لي ، وإن كان كاذباً فاغفر له.

فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ : صبري على الحسدة والأعداء لما دسوا في كتبي كلاماً يخالف ظاهر الشريعة ، وصاروا يستفتون على زوراً وبهتاناً ، ومكاتبتهم فيَّ لباب السلطان ونحو ذلك ، واعلم يا أخي أن أول ابتلاء وقع لي في مصر من نحو هذا النوع أنني لما حججت سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، زور علي جماعة مسألة فيها خرق لإجماع الأئمة الأربعة ، وهو أنني أفتيت بعض الناس بتقديم الصلاة عن وقتها إذا كان وراء العبد حاجة ، قالوا : وشاع ذلك في الحج ، وأرسل بعض الأعداء مكاتبات بذلك إلى مصر من الجبل ، فلما وصلت إلى مصر حصل في مصر رج عظيم ، حتى وصل ذلك إلى إقليم الغربية والشرقية والصعيد ، وأكابر الدولة بمصر ، فحصل لأصحابي غاية الضرر ، فما رجعت إلى مصر إلا وأجد غالب الناس ينظر إلي شزراً ، فقلت : ما بال الناس؟ فأخبروني بالمكاتبات التي جاءتهم من مكة ، فلا يعلم عدد من اغتابني ولاث بعرضي إلا الله عز وجل.

ثم إني لما صنفت كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود ، وكتب عليه علماء المذاهب الأربعة بمصر ، وتسارع الناس لكتابته ، فكتبوا منه نحو أربعين نسخة ، غار من ذلك الحسدة فاحتالوا على بعض المغفلين من أصحابي ، واستعاروا منه نسخة ، وكتبوا لهم منها بعض كراريس ، ودسوا فهيا عقائد زائغة ، ومسائل خارقة لإجماع المسلمين ، وحكايات سخريات عن جحى ، وابن الراوندي ، وسبكوا ذلك في غضون الكتاب في مواضع كثيرة ، حتى كأنهم المؤلف كما أشرنا إلى ذلك في خطبة هذا الكتاب ، ثم أخذوا تلك الكراريس وأرسلوها سوق الكتبيين في يوم السوق ، وهو مجمع طلبة العلم ، فنظروا في تلك الكراريس ورأوا اسمي عليها ، فاشتراها من لا يخشى الله تعالى ، ثم دار بها على علماء الجامع الأزهر ، ممن كان كتب على الكتاب ومن لم يكتب ، فوقع بذلك فتنة كبيرة ، ومكث الناس يلوثون بي في المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة وأنا لا أشعر ، وانتصر لي الشيخ ناصر الدين اللقاني ، وشيخ الإسلام الحنبلي ، والشيخ شهاب الدين بن الجلبي ، كل ذلك وأنا لا أشعر ، فأرسل لي شخص من المحبين بالجامع الأزهر ، وأخبرني فأرسلت نسختي التي

عليها خطوط العلماء فنظروا فيها فلم يجدوا فيها شيئاً مما دسه هؤلاء الحسدة ، فسبوا من فعل ذلك ، وهو معروف.

وأعرف بعض جماعة من المتهورين ، يعتقدون فيَّ السوء إلى وقتي هذا ، وهذا بناء على ما سمعوه أولاً من أولئك الحسدة ، ثم إن بعض الحسدة جمع تلك المسائل التي دست في تلك كراريس ، وجعلها عنده ، وصار كلما سمع أحداً يكرهني يقول له: إن عندي بعض مسائل تتعلق بفلان ، فإن احتجت إلى شيء منها أطلعتك عليه ، ثم صار يعطي بعض المسائل لحاسد بعد حاسد إلى وقتي هذا ، ويستفتون عليّ وأنا لا أشعر ، فلما شعرت أرسلت لجميع علماء الأزهر أنني أنا المقصود بهذه الأسئلة ، وهي مفتراة عليّ ، فامتنع العلماء من الكتابة عليها ، وسبوا من فعل ذلك.

ثم إن علياً باشا الوزير نقم على بعض المباشرين وعزم على قتله أو نفيه ، فطلع بعض العلماء يشفع فيه ، فلم يقبل ، فأتوا إلي وزينوا لي المسألة ، فطلعت للباشا فأكرمني وأجلسني على كرسي بيني وبينه نحو ذراع ، وقبل شفاعتي ، وقال لي: لا تكلف خاطرك قط إلى طلوع القلعة ، وأرسل لنا ورقة فقط ، فبلغ ذلك الحسدة من جماعة ذلك العالم الذي ردت شفاعته ، فاجتمعوا على ذلك العدو ، وقالوا له: أعطنا شيئاً من تلك المسائل التي عندك في فلان ، فأعطاهم عدة مسائل زوراً وبهتاناً ، فكتبوها للباشا بالتركي ، وأضافوا إليها أموراً منفرة لخاطره فقرأها ، وقال: أما المسائل المتعلقة بالشريعة فذلك راجع إلى العلماء ، وأما غير ذلك فلا أقبله فيه أبداً ، وإنما رجعت في أمره إلى قلبي ، فأرسلوا له قصة ثانية وثالثة فمزقها ، وشاع في مصر أن الباشا يحب فلاناً فخمد الحسدة مدة.

ثم إن إبليس لعنه الله تعالى وسوس لبعض الحسدة ، وقال: قد صار أهل مصر مع عبد الوهاب ، فاكتبوا فيه قصة ترسل لباب السلطان ، فكتبوا قصة من مضمونها أن شخصاً في مصر قد ادعى الاجتهاد المطلق ، وكثرت اتباعه ، ويخاف على المملكة منه والمسؤول من صدقات مولانا السلطان نفيه من مصر ، وأرشوا شخصاً على أن يحملها لباب السلطان ، فحملها ووصل إلى الوزراء ، فقال بعضهم لبعض: نكتب مرسوماً بالنظر في أمره ، وقال بعضهم نكتب مرسوماً بنفيه إلى مكة.

وكان هناك الشيخ أبو اللطف ، ولد شيخنا أمين الدين رحمه الله تعالى ، فأخبرهم بأن هذه القصة كلها زور على الرجل ، فرجعوا لقوله ، وانقلب حامل القصة وجعل نفسه من جماعتي ، وأكرمه الناس بسبب ذلك ، فلما رجع إلى مصر ابتلى بعدة بلايا في دينه وبدنه ، وحصل له الفالج فلما مات صار جسده كالزفت الأسود بعد أن كان في حياته شديد البياض ، ثم إن حامل القصة لما رجع إلى مصر أعلمني بالجماعة الذين أغروه من الأعداء ، ثم إن الذين كتبوا القصة لباب السلطان صاروا يقولون: عن قريب يأتي مرسوم من باب السلطان ينفي

فلان ، فيتشوش أصحابي ، ولا يقدرون على تبليغي ذلك ، خوفاً من تشويشي ، فبعد مدة جاء ذلك الشخص الذي حمل القصة وذكر لي القصة بكمالها فخررت لله ساجداً.

وهذا ولم أقابل أحداً من هؤلاء بنظير فعله إلى وقتي هذا ، وإنما ذكرت لك بعض هذه الوقائع لتتأسى بي في الصبر والحلم على من آذاك ، وقد أرسلت لهؤلاء الحسدة الذين عندهم تلك المسائل المدسدسة ليطلعوني عليها ، لأتبرأ منها على التعيين ، فلم يعترف أحد بها ، فالله تعالى يغفر لهم ما فعلوا وما أضمروه ، آمين ، اللهم آمين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم اشتغالي بمقابلة من آذاني ، وتنقيص من نقصني ، وإنما أرجع إلى تفتيش نفسي ، وأكثر من الاستغفار والاشتغال بالله عز وجل ، وشهودي أنني جالس بين يديه تعالى ، وهو يرى صنيع عبيده فيّ ، ومن كان هذا مشهده حمل أذى الثقلين ، وأيضاً فإني أعلم أن الحق تعالى لا يسلط الخلق بالأذى على أحد ، وهو حاضر بين يديه أبداً ، وأنه ما سلط أحد بالأذى إلا لغفلته عنه ، فيريد بذلك الأذى رجوع عبده إليه بالالتجاء ليدفع ذلك الأذى عنه فكان في تسليط الخلق على العبد رحمة في صورة نقمة ، وقد جربنا فما وجدنا لتسكين الفتن أسرع من الاشتغال بالله ، وتفتيش النفس في جناباتها ، وكثرة الاستغفار ، ولذلك قالوا: إذا اشتغل الناس بك فاشتغل أنت بربهم ، فإن بيده زمام أمورهم ، ولا تقابلهم تتعب ، وتزدد من الأذى ، وقد غفل عن هذا المعنى غالب الناس ، فلم يرجعوا إلى الله تعالى ولم يستغفروه من ذنوبهم ، واشتغلوا بمقابلة من أذاهم ، فمزق بعضهم أعراض بعض ، تارة بأصحابهم ، وتارة بأنفسهم ، إما باللفظ ، وإما بالتوجه إلى الله تعالى بالدعاء عليهم ، فعدموا النصرة من الله تعالى.

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام **«يا داود لا تبغ على من بغى عليك تتخلف عنك نصرتي ، فإني لا أنتصر إلا لمن رضي بعلمي ، ولم يقابل من آذاه بالأذى»**.

والجمع بين ما هنا ، وبين قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] ونحوها من الآيات ، أنه قد يكون المراد بالانتصار هنا ما يعم الانتصار بترك المقابلة ، اكتفاء بعلم الله تعالى ، وانتصاره للمظلوم ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠] أو يحمل ما هنا من النهي عن البغي ، على النهي عن البغي بزيادة على ما يستحقه الباغي ، كما أشير إليه قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وقوله. ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وسيأتي بسط ذلك قريباً إن شاء الله تعالى ، وفي البخاري. «أن شخصاً من بني إسرائيل سرق دجاجة فلما ذبحها ليأكلها ، ونتف ريشها ، نبت الريش في

جسده ، فعجز عن نتفه بكل حيلة ، فلما دعت عليه صاحبة الدجاجة سقط الريش لوقته»[1] فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: انتصاره عز وجل لي ، ومؤاخذته لمن آذاني من غير تعمد مني ولا دعاء عليه ، فبعضهم جاءه مرسوم السلطان بشنقه ، فأخبروه بذلك ، فانزعج فمرض فمات بعد عشرة أيام ، وبعضهم كبس عياله بالفجور والسكر وذهبوا بهن إلى بيت الوالي صباح تلك الليلة التي جر قافيتي فيها ، فابتلاه الله تعالى بذلك ، وبعضهم رأى في منامه رسول الله ﷺ وهو يعرض عنه ، فقال: يا رسول الله ما ذنبي؟ فقال: كيف تؤذي فلاناً وهو من أصحابي ، وعلى سنتي ، فجاءني مستغفراً ، وقال: قد سبق لساني في حقك ، فقلت: عبد الوهاب مبتدع في هذه المجالس التي يفعلها ، يعني الصلاة على رسول الله ﷺ ، فرأيت النبي ﷺ وهو يعرض عني ، وذكر القصة.

وأعرف واحداً لاث بعرضي ، فرأى والده في النوم ، وهو يقول له: إن فلاناً مجاب الدعاء ، فذكر ذلك لأصحابه ، وقال: لعل هذا شيطان ، وأصر على تنقيصي في مجالس المستهزئين ، فابتلاه الله تعالى بمن هتك سريرته ، وأظهر له عيوباً لم يكن أحد يعرف أنها فيه ، ثم ابتلاه الله بترك الصلاة ، وشرب الخمر ، والوقيعة في أعراض الناس من فقهاء وفقراء وتجار وقضاة ومباشرين ، وربما يطوف على عدة من بيوت الأكابر ويطلع على عوراتها ، ثم يخرج يحكيها للناس ، فمقتته القلوب ، وبعضهم منعه من دخول بيته ، وهذا من أعظم بلاء يبتلى به العبد ، فإنه ليس بعد الشرك ذنب أقبح من الإيذاء للناس بغير حق ، فإن صاحب هذا الحال لا يكاد يسلم له في الآخرة حسنة واحدة لكثرة الحقوق التي عليه للناس ، ثم إذا فنيت حسناته وضع عليه من أوزارهم ، ثم يقذف في النار ، كما ورد في الحديث ، وربما شح بعضهم فلم يرض في غيبة واحدة بجميع أعماله الصالحة عنده ، وأيضاً فإن صاحب هذا الذنب ربما لا يبلغ إلى مقام الإخلاص ، فأعماله كلها يدخلها الرياء غالباً ، وقد صرحت الأحاديث بعدم قبولها ، وقد أنشدوا في معنى ذلك على ما فيه:

كن كيف شئت فإن الله ذو كرم ... وما عليك إذا أذنبت من باس
ألا اثنتين فلا تقربهما أبداً ... الشرك بالله والإضرار بالناس

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن الحق تعالى لا ينتصر قط لعبد من عبيده ، وهو مستند إلى أحد من خلقه ، إلا إن جعله واسطة ، ولم يقف معه ، فإذا نظر الحق تعالى إلى عبده ، ورآه مستنداً إليه وحده ، فهناك لا تتخلف عنه نصرة الحق تعالى ، وفي الحديث القدسي «وعزتي وجلالي لا ينتصر بي عبد من عبيدي أعلم ذلك من قلبه يقيناً فيكيده أهل السموات

---

(١) لم أجده.

وأهل الأرض إلا نصرته عليهم»[١] ا هـ ، وإنما قال تعالى : أعلم ذلك من قبله يقيناً وقيد نصرته تعالى لي بذلك لأنه مقام عزيز وقوعه من غالب الناس ، وفي الحديث أيضاً: «**أنا ولي من سكت**»[٢]

وكان سيدي أبو العباس المرسي رضي الله تعالى عنه يقول: إذا كان المريد في حجر تربية شيخه فهو كولد اللبؤة في حجرها ، لا يمكن أن تسلمه لمن يغتالهم ، فكيف بأولياء الحق جل وعلا الذين هم حجر تربيته وكلاءته وحفظه ، فهل يسلمهم لمن يغتالهم؟ لا والله.

فعلم أن كل عبد استند في نصرته إلى الخلق بنفسه أو بوكيله أو بقلبه ، تخلفت عنه نصرة الحق تعالى له ، إلا أن يكون مشهده أن نصرة الخلق من جملة نصرة الحق تبارك وتعالى له ، من حيث أنه هو الملهم لهم أن ينصروه ، فإن لله تعالى النصرة لعبده بواسطة الخلق وبلا واسطتهم ، والكل منه ، فلا يقدح ذلك في مقام الاستناد إلى الله تعالى ، بل ذلك أكمل؛ لأن فيه استعمال الآلة وعدم تعطيلها.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إياكم والإنكار على الولي إذا انتصر بالخلق وتقولون لو كان ولياً ما استند إليهم ، فإن في ذلك الإنكار قدحاً في حق مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقد قال السيد عيسى عليه السلام: من أنصاري إلى الله ، قائلاً ذلك للحواريين ، ومعنى قوله: إلى الله ، أي مع الله ، فطلب النصرة منهم مع الله تعالى ، وعلم أيضاً أنه لا يضر الولي إلا استناده إلى الخلق ، مع غفلته عن كون نصرتهم له بإلهام من الحق تعالى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: من الأولياء من لا يتحمل شيئاً من الأذى له ولأولاده وأصحابه ، لا حياً ولا ميتاً ، بل يعطب كل من تعرض له بأذى غيره للحق تبارك وتعالى ، من حيث تعدى من يؤذيه حدود الله تعالى ، ومنهم من لا يسامح أحداً منهم ولو بكلمة ، بل يسأل الله تعالى تأديبه بالأمراض أو العزل من ولايته ، أو الخروج من بيته ، ونحو ذلك ليطهر من الذنوب أولاً فأولاً ، لئلا تتراكم عليه الذنوب ، فتهلكه ، وإيضاح ذلك أن كل معصية لها وجهان ، وجه للعبد من حيث إن العاصي يتسبب في نزول البلاء على الخلق بواسطة معصيته ، ويؤذيهم ، ووجه إلى الله من حيث تعديه حدوده كما مر ، فالعبد يسامح من جهة وجهه هو ، ويشاحح من جهة وجه الله تعالى ، غيرة له ، ومن الأولياء أيضاً من يكون كثير العطب لكل من آذاه أو آذى أحداً من المسلمين فيجر دنيته لتأديبه من غير تشفٍ

---

(١) لم أجده.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٥٣٤) ، وقال: قال النجم. ليس بحديث ، وذكره الملا علي القاري في المصنوع (٢٠٨). وقال: قال ابن الربيع. ليس بحديث.

للنفس ويقصد بذلك كف ذلك المؤذي عن أذاه ، أو تخفيف أذاه للناس ، ولكل رجال مشهد ، وسيأتي أن انتصار النبي ﷺ بالأنصار ، وبحسان بن ثابت حين هجا المشركين ، كان يقصد النصرة للدين ، وطلباً لرد المشركين إلى الهدى ، شفقة عليهم ورحمة بهم ، كما أنه إنما ضربهم بالسيف لوفور شفقته عليهم في الأصل ، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] فاعلم ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة محبتي وشفقتي وحنوي في الباطن ، على كل من رأيته مقراضاً في الناس من أصحاب الأنفس ، فأقوم بواجب حقه إذا ورد عليّ ، وأجلسه على فرشي ، وأجلس بين يديه ، وأعزم عليه أن يأكل من طعامي ، وأشدد عليه في ذلك ، خوفاً أن يخرج من عندي ، فيمزق عرضي في الآفاق ، فيأثم بذلك بسببي ، وربما غلبت عليّ النفس ، فأقع أنا الآخر في عرضه.

وقد وقع أنه دخل عليّ شخص من أهل الجدال ، فعزمت عليه أن يأكل من طعامي فأبى ، وحلف أنه لا يأكل ، ثم خرج فمزق عرضي ، وقال: مثلي يعزم عليه فلان عزومه محلولة.

ووقع لي مع آخر أنه دخل عليّ ، فجلس على الحصير بين يدي ، فنسيت أن أعزم عليه أن يجلس على الطراحة ، فمزق عرضي في الآفاق.

فاحذر يا أخي من التهاون بتعظيم مثل هؤلاء ، فإن عندهم من الكبر ما ليس عند كبراء الدولة ، فقد عادني قاضي العسكر ، وأبو يزيد الدفتردار ، فجلسا بين يدي على الحصير دون الطراحة على ركبهم ، وأردت النزول من فوق الطراحة فلم يمكناني من ذلك، فانظر تواضع هؤلاء مع الفقراء، وانظر تكبر غيرهم، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة محبتي وشفقتي على كل من بالغ في إيذائي ، وترجيح محبته على محبة من يحسن إليّ ، ويعتقدني ، وذلك أن محبتك للإنسان تعظم بحسب كثرة نفعه لك ، ولا شك ولاريب أن من آذاني فقد تكرم علي بدينه وبصالح أعماله ، التي هي أعز من حطام الدنيا جميعها ، لكونه قد مكنني من أخذ حسناته يوم القيامة أو وضعي من سيأتي على ظهره إن فنيت حسناته ، وإن كنت عازماً على أن لا أفعل إكراماً لأمة محمد ﷺ ، فأنا بحمد الله تعالى أجد في نفسي كثرة الود والمحبة لكل من آذاني ، وافترى عليّ الباطل ، أكثر ممن يحسن إليّ ويمدحني في المجالس ، وكلما بالغ أحد في إيذائي ازددت فيه محبة؛ لأنه بذلك قد بالغ في إثبات حقه عليه ، وتحقيق حسن خدمتي لرسول الله ﷺ بإكرامهم لأجله . فكيف أكرهه وصاحب هذا المشهد لا يرى أحداً من الخلق مسيئاً إليه أبداً إنما يراهم محسنين إليه ، فمن لم يحسن إليه بدنياه أحسن بدعائه ، ولو في عموم دعائه للمسلمين ، ومن لم يحسن إليه بذلك ، أحسن إليه بدينه ، وإعطائه صالح أعماله في نظير إيذائه له ، ومن

لم يحسن إليه بدنياه ولا بدينه فقد أحسن إليه بتركِ الإحسان إليه بواحد منهما ، لإعتاقه له من تحمل منته عليه ، فكان عدم إحسانه إحساناً.

فإياك يا أخي أن تتشوش من وقوع أحد من الصالحين والعلماء العاملين في عرضك ، بل افرح إن كان مشهدك طلب الثواب لذلك ، فإن هؤلاء هم الذين يكون معهم شيء من الأعمال الصالحة يعطونه لك ، بخلاف المرائين والفسقة ، فإنه قل عمل يخلصن لهم ، حتى يعطوك منه شيئاً في الآخرة لكون أعمالهم حابطة في الدنيا فافرح يا مؤمن بإيذاء الصالح لك أكثر من الظالم ، وادع لكل منهما بالمغفرة حتى لا يؤاخذ بسببك.

واعلم يا أخي أن هذا الخلق الذي ذكرناه من زيادة المحبة ، لكل من بالغ في إيذائنا خلق غريب ، لم أجد له ذائقاً من إخواني ، وقد جهدت كل الجهد على أن أكره أحداً ممن يؤذيني ، فلم أقدر بانقلاب طبعي بحمد الله تعالى عن طبع أصحاب الرعونات النفسية ، وبالجملة فلا يصح الفرح بالأذى إلا ممن زهد في الدنيا ، ورغب في الآخرة ، وإلا فمن لازمه غالباً التكدر ممن يؤذيه ، ومن شرط المؤمن الكامل أن يخرق ببصره إلى الدار الآخرة ، فإذا أبصرها فمن المحال في حقه أن يتكدر مما يرفع الله تعالى به درجاته ، أو يكفِّر عنه سيئاته ، ومن هنا قدَّر الله تعالى الأولياء على تحمل الأذى من الخلق ، لما يعلمون لأنفسهم في ذلك من الثواب ، وتأمل إلى الإنسان كيف يشرب الدواء الكريه بقصد التداوي ، لما يعلم من حسن عاقبته ، ولو أن أحداً قال له: لا تشرب هذا الكريه لا يطعه ، فالحمد لله رب العالمين.

وسيأتي قريباً ذكر جماعة سمحت النفس بمقاسمتهم في الحسنات ، ومنهم الذين يؤذوني ، فراجعه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة شفقتي ورحمتي على من يؤذيني ، خوفاً على دينه أن ينقص بسببي حين آذاني ، وربما كنت أشفق عليه من نفسه في ذلك ، فإني أتأثر على نقص دينه بسببي ، أكثر مما يتأثر هو ، حتى أني في بعض الأوقات أقابله باللفظ دون القلب ، تخفيفاً عنه ، وخوفاً عليه من الله تبارك وتعالى أن يهلكه بسبب كثرة تعصبه عليّ بغير حق ، فتراني أقابله ببعض كلمات تؤذيه بعض الأذى ، وقلبي فارغ من التأثر والتشفي منه ، فليس قصدي بحمد الله تعالى إذا قابلته الهروب من كونه نقصني بين الناس ، لحجابي عن شهود تنقيصي بين الناس ، بخوفي على دينه أن ينقص ، بل ربما لم يخطر الخوف من التنقيص على بالي ، وربما كان في علم الله أنه تعالى يسلط عليه من يؤذيه ، ويخرجه من بيته ، أو وظائفه مثلاً ، فلا يهون ذلك عليّ ، وأتعب في الشفاعة فيه عند الله تعالى ، أو عند خلقه ، لكونه لا يستحق الشفاعة فيه لكثرة بغيه.

وقد بلغنا أن من أخلاق العارفين يوم القيامة أن يبدأوا بالشفاعة فيمن كان يؤذيهم في دار الدنيا ، قبل الشفاعة في المحسن إليهم؛ وذلك لأن المحسن يشفع فيه إحسانه ، والمسيء

يعاقبه الله بإساءته ، فهم يبدأون بالشفاعة فيه كرماً وفتوة ، حين قدروا وعفوا ، وليزيلوا أيضاً ما حصل عند من أذاهم من الخجل منهم حين رأى مقامهم عند الله تعالى ، وإكرامه لهم ، وقد كان في دار الدنيا لا يعرف ذلك ، ولو أنه عرف مقامهم عند الله في دار الدنيا ما آذاهم قط ، بل كان من أشد المحبين والمعتقدين لهم.

وهذا الذي ذكرناه خلق غريب في هذا الزمان ، لا يصح إلا ممن أحكم مقام الزهد في الدنيا ، وترك حب الجاه في قلوب المخلوقين ، ومن لم يحكم ذلك فمن لازمه غالباً عدم خوفه على نقص دين عدوه ، وحب التشفي منه ، ومقابلة من يؤذيه ولو بتوجهه إلى الله تعالى ، فضلاً عن الشفقة عليه والرحمة له ، فعلم أنه لا يتخلق بالرحمة والشفقة على من يؤذيه إلا من تخلق بأخلاق الله تبارك وتعالى ، فإنه تعالى ما ذكر أنه استوى على العرش إلا باسمه الرحمن ، فرحم كل من حواه العرش من مؤمن وكافر ، كل أحد بما يشاكله من الرحمة ، على اختلاف طبقاتها ، من رحمة الإيجاد ، أو رحمة الإمداد ، أو رحمة ترك العقاب أو تخفيفه ، فاعلم ذلك ، وتخلق به ترشد ، والله تعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم إتعاب سري في تدبير حيلة تؤذي من آذاني بقول أو فعل ، كما يقع فيه كثير من الناس ، فربما سهر أحدهم الليلة كاملة يدبر في الحيل التي تؤذي عدوه ، ويصير يهد ويبني إلى الصباح ، وقد حذرنا الله تعالى من حيث الإشارة بقوله: ﴿ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٤٥] الآيات.

وكان سيدي خضر الكردي رحمه الله تعالى ، المدفون تجاه جامع الملك الظاهر على الخليج الحاكمي ، يقول: كل كلام معبي مفسود ، ومن فوض أمره إلى الله تعالى نصره من غير أهل ولا عشيرة ، وأغناه عن الحيل والمكايد ، انتهى.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن من أقبح شيء يقع فيه العالم أو الصالح مقابلته بالأذى لمن يؤذيه ، أو يكشف سوأته للناس ، ولو بحق ، فضلاً عن الزور والبهتان ، فإن الله تعالى ستير ويحب عباده الستيرين ، فكما أن الحق تبارك وتعالى يرى العيب من عبده ويستره ، فكذلك ينبغي لعبده أن يفعله.

وقد منّ الله تبارك وتعالى عليّ بذلك ، فلا أفتري على من افترى عليّ ، ولا أشيع على أحد نقيصة عمن أشاع مثلها عني ، ولا أفضحه كما فضحني ، ولو قدر أنني ترافعت أنا وإياه عند حاكم ، وسألني عنه لا أذكر عنه إلا خيراً.

ثم إن من سلك مع عدوه هذا المسلك يخاف على عدوه الهلاك ، فمن الأدب مع ذلك

مسامحة العدو فيما فعل ، وسؤال الله تبارك وتعالى أن يعفو عنه ، وكذلك من لازم من سلك مع عدوه هذا المسلك النصرة من الله عز وجل عليه.

وقد بلغنا أن أهل مصر لما وشوا بذي النون المصري إلى الخليفة ببغداد ، فأرسل في أخذه ، فحملوه إلى بغداد مقيداً مغلولاً ، مر على امرأة من الصالحات تسرح صوفها في مخزنها ، فقالت: ما هذه الكبكبة؟ فقالوا: قد أتى أهل مصر بذي النون المصري ، يدعون عليه أنه زنديق ، وأنه أتلف عقائد الناس ، فقالت: ائتوني به ، فلما وقف عليها ، قالت له: يا ذا النون إذا قدمت على هذا الرجل فسلم عليه بسلام المؤمنين ، وإياك أن تسلم عليه بسلام الخلفاء ، وإياك أن تخافه فيسلطه الله عليك ، وإياك أن تجيب عن نفسك فيكلك الله إليها ، وأشهد نفسك أنت والأخصام والخليفة بين يدي الله عز وجل ، وهو الحاكم ، ثم دعت له ، وانصرف. فلما أوقفوه على الخليفة فعل ما أمرته به المرأة الصالحة ، فقال له الخليفة ، لما دعوا عليه بالزندقة: ما تقول؟ فقال: ماذا أقول إن كذبتهم أجبت عن نفسي ، وأنا أستحي أن أكذب مسلماً ، وقد جاؤوا بي يريدون أنك تنصرهم عليّ ، وإن قلت نعم: كذبت على نفسي ، وهي رعيتي ، وقد أمرني الله تعالى أن لا أسعى لها في شيء يضرها ، فبهت الخليفة ، وقال: إن كان هذا زنديقاً فما بقي على وجه الأرض مسلم ، ثم أمر بتجريد القيود والأغلال عنه ، وأجلسه بجانبه ، وأكرمه غاية الإكرام ، فلما أراد الرجوع إلى مصر صنع له محفة وفرش له فيها نحو خمسة آلاف دينار ، ورده إلى مصر مكرماً ، فكان بعد ذلك يقول: جزى الله تعالى الفقيرة عني خيراً ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا آذاك إنسان أو نقصك بين الناس ، فخذ ذلك من باب تنبيهات الحق تعالى لك ، لتتفكر في ذنوبك ، وتأخذ في التوبة والندم على ما فعلته من الزلات ، أو على ما فرطت فيه من الطاعات ، أو على ما كنت عزمت عليه من المخالفات أو المقابلات لمن كان آذاك ونحو ذلك ، وإياك أن تتفكر في نقائص من نقصك وتستنبط منها نقائص أخر ، فإن ذلك منك جهل بطريق معاملة الله عز وجل ومعاملة خلقه ، فإنه تعالى إذا نهاك عن إشاعة ما رأيته بعينك ، فكيف بما استنبطته بدقيق فكرك ، مما لعله لم يخطر ببال عدوك ، واعلم يا أخي أنك لولا خرجت من حضرة ربك عز وجل ، ما سلط عليك أحداً؛ لأن من كان في حضرة الحق تبارك وتعالى ، ويعلم أنه تعالى يراه ، فليس لأحد من الجن والإنس عليه سبيل ، فكل من خرج من حضرة ربه جل وعلا احتوشته الآفات من جميع الجهات.

وسمعته أيضاً يقول: إياك تستبطىء نصرتك على عدوك إذا دعوت الله تعالى أن ينصرك عليه؛ لأنه تعالى ربما أبطأ عنك الإجابة ليعاملك بنظير ذلك إذا آذيت أحداً ظلماً ، ودعا عليك ، فيؤخر الله تعالى إجابة دعائه في حقك ، لعلك تستعيب أو تستغفر جزاء وفاقاً. فعلم

أنك إذا طلبت من الله تعالى تعجيل إجابة دعائك على عدوك ، فلا تستغرب سرعة إجابة دعاء خصمك عليك ، انتهى.

فالعاقل هو من يفرح بعدم إجابة دعائه على خصمه أصلاً ، أو ببطء الإجابة ، وذلك ليعامله الله تعالى بنظير ذلك إذا دعا عليه خصمه.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: من الواجب على العبد إذا تسلط عليه أحد بالإيذاء أن يتوجه بقلبه إلى الله تعالى ، ويسأله أن يطلعه على ذلك أكثر من الاستغفار من كل ذنب يعلمه الله إيماناً وتسليماً ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠] انتهى فاعلم ذلك.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: مبادرتي لإقامة العذر لمن آذاني ، دون اللوم عليه ، ومقابلته بنظير فعله ، وذلك لعلمي بأنه ما آذاني بقول أو فعل إلا بإرادة الله تعالى ، بعد تقدم وقوعي في ذنب يوجب ذلك ، فكان مطمح بصري حضرة الإرادة الإلهية ، دون حضرات الخلق ، ومن كان هذا مشهده لا يصح منه تكدير ممن آذاه ، ولا سخط على مقدور من مقدورات الحق تبارك وتعالى ، ما دام هذا مشهده ، فأما عدم تكديره من الخلق فلكونه يشهد أن الخلق كلهم لا يتحركون ولا يكنونَ إلا وهم تحت الإرادة الإلهية ، فهم كالسوط الذي يضرب به الضارب أحداً ظلماً ، فالعاقل لا يترك إضافة الضرب للفاعل الحقيقي ، ويضيف ذلك إلى السوط.

وأما عدم سخطه على شيء من مقدورات الحق تعالى ، فلكونه يشهد أن ذلك فعل حكيم عليهم ، أرحم به من والدته على الكشف والشهود ، وانظر يا أخي إلى الوالدة كيف تضرب ولدها ، وتشكه بإبرتها إذا خافت عليه وقوعه فيما هو أشد ألماً من غرز الإبرة أو الضرب ، كل ذلك شفقة عليه ، فإذا كان هذا فعل الأم مع ضعف شفقتها ، فكيف بالحق جلا وعلا.

فعلم أنه لا يصح التكدر من عبد آذاه أحد ، إلا إن كان مشهده أن ذلك من فعل الخلق ، وإلا فلا يصح منه تكدر أبداً ، حياء من الله تبارك وتعالى ، أو لعدم إضافة ذلك الفعل إلى الخلق.

وتأمل يا أخي إذا وقع العبد في معصية ، وهتك بين الناس ، كيف يجد قلبه قد تفتت من القهر وشدة الندم ، فإذا شهد أن ذلك كله كان بتقدير الله تعالى عليه ، قبل أن يخلق ، يخلف عليه ذلك الألم.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: ينبغي لمن آذاه أحد بغير حق أن ينظر إلى السبب الذي حرك ذلك المؤذي له ، حتى آذاه ، ثم ينظر إلى وجه الحكمة في ذلك ، حتى لا يسخط ولا يعترض ، ولا يقول: الله يفعل ما يشاء من باب التسلي ، ثم يقيم العذر

لمن آذاه بحجاته عن شهود حضرة الله تعالى ، وجهله بمن هو المقرب فيها من غيره ، فإنه لو علم أن ذاك الشخص من أولياء الله تعالى ما كان آذاه ، بل كان يعتقده أشد الاعتقاد ، كما هو الشأن في المحبين والمعتقدين ، ثم ينظر أيضاً في الضيق الذي جعله الله تعالى عنه ، حتى إنه لم يحتمل أحداً يعلوه في دين أو دنيا ، ولو أن الله تعالى كان جعل عنده سعة لم يحسد أحداً ولم يؤذه ، ثم إنه إذا تعرف من الله السبب الذي حرك عليه الأذى ، فمن الواجب عليه سد بابه ، فإن لم يعرفه الحق تبارك وتعالى فينبغي له أن يسأل الله تعالى أن يطلعه على ذلك السبب ، فإن لم يطلعه عليه سأل الله تعالى أن يدبره مع ذلك العدو ، وبحسن التدبير ، وأن يغفر له ما جناه ، انتهى.

فو الله لقد فاز من احتمل الأذى من الخلق بعز الدارين ، وكذلك فاز من شهد أنه لا فاعل حقيقة في الدارين إلا الله جل وعلا ، فإنه يتنعم بكل فعل وقع له ، لأنه مع الحق لا مع الخلق ، فلا يجد من يرسل تكدره وسخطه عليه ، كالحكم في حال زبانية جهنم يوم القيامة ، حين يكشف الغطاء عن كل عاص ، لا يضيف إليهم أحد فعلاً ولا يسميهم ظلمة كما في الدنيا أبداً ، بل يراهم كالمجبورين ، فالكامل يرى جميع من ظلمه في دار الدنيا تحت القضاء والقدر ، لا يضيف إليهم ظلماً قط إلا بقدر نسبة التكليف لا غير ، موافقة للشرائع ، فلا بد له من هذه النسبة في هذه الدار ، بخلاف حاله مع الزبانية لزوال التكليف هناك ، فافهم ذلك ، واعمله ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة محبتي وتبجيلي لطلبة العلم الذين بادروا إلى الإنكار عليّ ، وشنوا الغارة عليّ عند الأكابر ، لما دسَّ الحسدة في كتبي ما دسوا مما يخالف ظاهر الشريعة وإن كان على طلبة العلم المذكورين اللوم حيث بادروا إلى الإنكار قبل تفتيشهم على صحة ذلك الكلام عني ، فافهم ولو بادروا إلى الإنكار عليّ بغير علم، جند من جنود الله تعالى أرسلهم إلي ليحذروني مما لعله يقع مني في المستقبل.

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: ما أمرني أحد بمعروف إلا عظم في عيني ، وزدت في محبته ، انتهى.

على أني أعلم أن الفقيه مجتهد في الفهم ، فما أنكر عليّ إلا ما أدى إليه اجتهاده ، ورآه خارجاً عن ظاهر الشريعة ، فيا سعادة من كان مقيماً في مثل الجامع الأزهر ، فإن الفقهاء القاطنين فيه لا يكادون يغادرون صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها عليه ، وناقشوه فيها ، فلا يتكدر من مثل ذلك إلا المرائي الأحمق ، فإنهم ما ناقشوه فيه ، وأضافوه إليه إن لم يكن فيه فقد قبحوه في عينه ، ومن شأن كل عاقل أنه إذا نقص بسبب شيء وقع فيه من قول أو فعل أخذ في التنصل منه ، وبعد عنه جهده.

وهذا خُلُق عظيم ، لا يقدر على التخلق به إلا من خلص من رعونات النفس ، ورزقه الله

الإخلاص ، حتى راعى مقامه عند الله تعالى دون خلقه ، ولم أجد له ذائقاً من إخواني المريدين ، بل غالبهم يكاد يتميز من الغيظ ، ويمزق عرض من أنكر عليه ، أو استفتى عليه ، وذلك من أكبر علامات الرياء والنفاق.

وفي كلام سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه: ما وقف أحد مع الخلق وراعاهم دون الله تبارك وتعالى إلا وسقط من عين رعاية الله عز وجل.

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: إياك أن تتكدر ممن أنكر عليك شيئاً لم تقع فيه ، فإنه إنما نصحك جهده ، بحسب علمه ، وإياك أن تقول له: قل هذا لغيري ، فإني لست بمحتاج إلى وعظ مثلك ، فإن ذلك جهل ، قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥] فافهم ، وما نصحك قط أحد بشيء وهو يعلم أنك بريء منه أبداً ، أقل ما هناك أنه سمع الناس يلوثون بك في ذلك الأمر ، فنصحك شفقة عليك ، إن كنت وقعت فيه ، أو قبحه في عينك ، حتى تأخذ حذرك منه ، أو تأتيه إن قدر عليك وأنت مستقبح له ، غير مستهين به ، فلقد نصحك جهده ، وإن كنت أنت على خلاف ذلك.

واعلم يا أخي أن كل من أخلص لله تعالى أحب كل من يبين له عيبه وعوجه ، خوفاً أن يكتب في جملة الأئمة المضلين للناس ، لا خوفاً على مقامه أن ينهضم ، ولكن من الأدب أن يبين الإنسان لأخيه نقصه وعيبه بينه وبينه لا في الملأ العام ، لا سيما إن كان لهْ أتباع ، فإنهم ربما ازدروا شيخهم فعدموا النفع به ، كما أن من الواجب عليه هو إذا انعوج في أمر باجتهاده ، وتبعه عليه جماعة ، ثم ظهر له عوجه أن ينادي فيهم: ألا إني كنت خرجت عن الشريعة في الأمر الفلاني ، وقد رجعت عنه ، فارجعوا.

وقد كان أبو عثمان المكي رضي الله تعالى عنه يعتقد شيئاً من الجهة ، فلما تاب نادى في أصحابه: قد أسلمت إسلاماً جديداً ، فرجع أصحابه كلهم عن ذلك.

وكان سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه يقول لأصحابه: إياكم أن تقتدوا بي ، فإني رجل مخلط.

وقد نقل عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال: ليس في حل من ينسب إلي شيئاً من القديم ، انتهى.

وهذا كله من الورع ، واعلم يا أخي أن هذا الذي قررناه من محبة العلماء المنكرين علينا ، وتعظيمهم وتبجيلهم ، خلق غريب قليل من يملك نفسه عليه ، بل غالب الناس ينفر ممن ينكر عليه ولو بحق ، وهو نقص وجهل وحمق.

وأما قول سفيان الثوري ، والفضيل بن عياض ، وذي النون المصري: إياكم والقرب من القراء فإنهم إن أحبوكم مدحوكم بما ليس فيكم ، فغشوكم في دينكم ، وأهلكوكم بالعجب ،

وإن أبغضوكم نقصوكم بما ليس فيكم ، وقبل ذلك منهم ، فهو محمول على من كان مشهده غير ما ذكرناه من باب: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] فإنه محمول على الضعيف الذي لا يحتمل كلاماً قيل فيه ، ولا يقنع بعلم الله تعالى فيه ، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح عند كثير من العلماء ، فافهم ذلك ، واعلمه ، واعمل على التخلق به ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: مبادرتي للشكر لله تعالى إذا نقصني منقص عند أحد من الأكابر ، كما أشكر الله تعالى إذا كبرني ومدحني عنده على حد سواء ، وذلك لأن من شرط العاقل أن يدور مع رضا الحق تبارك وتعالى ، بحكم التسليم والتفويض ، لا مع نفسه بحكم الاختيار.

ولما طلعت للوزير علي باشا بمصر ، وعظمني وأجلسني بجانبه على كرسي ، غار الحسدة من ذلك وكتبوا في قصصاً ورموها في الديوان ، ولما بلغني ذلك ، بادرت إلى الشكر ، ولم أتأثر لكوني مشاهداً لله الذي سخره لي ، لا مع الوزير.

ومن علم من سيده أنه يحبه ويعظمه ويكرمه ، ولا يسمع من بعض الأعداء من عبيده فيه فكلامهم عنده هباء منثور ، بخلاف من كان محجوباً عن هذا المشهد ، ولا يرى إلا ذلك العبد فإنه يتأثر ضرورة ، ومن تأمل وجد ضرر إقبال الأمراء عليه أشد من ضرر إدبارهم عنه؛ لأن الولاة لم يزالوا في ازدياد من الظلم والجوروبحكم الوعد السابق من رسول الله ﷺ ، فإذا بلغهم أن الباشا أو الدفتردار يعتقد شخصاً من الفقراء ، صار كل من عليه مال للسلطان يأتي إلى ذلك الشخص ، ويقول له: قل للباشا ، أو الدفتردار: أصبروا على فلان ، أو سامحوه لأنه مظلوم ، فلا يسع ذلك الفقير إذا لم يستطع دفع ذلك المتشفع إلا أن يشفع ، ولا يمكن أن الباشا أو الدفتردار يقبلان شفاعته في كل ما يشفع عندهم فيه غالباً؛ لأن من وظيفتهم التشديد في تحصيل ما يسمونه مال السلطان ، لا في تضييعه ، فيصير الفقير والأمير في عناء وتعب ، وآخر الأمر ينكر الأمير على الفقير ، ويقل اعتقاده فيه ويمجه ، كما وقع ذلك لجماعة من أهل عصرنا من العلماء والصالحين ، فإذا المنقص لك يا أخي عند الأمير أقل تعباً لك ممن يكبر بك عنده ، وكلاهما محسن إليك بما فعل ، ومن ذاق هذا الأمر قل غضبه وغيظه ممن ينقصه عند الأكابر ، كما سيأتي بسطه في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة محبتي لمن نفر عني أبناء الدنيا ، وجرحني عندهم من تجار ومباشرين وأمراء وكشاف ومشايخ عرب وغيرهم ، وذلك لأني بحمد الله تعالى لا أصحب أحداً منهم لدنياهم ، بل ولا يخطر على بالي أنه يعطيني شيئاً ، ولو أنه أعطاه لي ما قبلته ، فأنا غني عن دنياه ، وليس معهم علم ولا أدب أستفيده منهم ، ولا هم يقصدون

بصحبتي تعليم علم ولا أدب مني ، إنما مجالسهم مجالس غفلة وسهو وخوض في أمور الدنيا لا غير ، فصحبتهم إلى الضرر أقرب ، ووالله ، ثم والله ، ثم والله إني لأجد في قلبي المحبة والود لمن ينفر مثل هؤلاء عني أكثر ممن يرغبهم في صحبتي ، فإنني في النصف الثاني من القرن العاشر ، أبي العجائب والغرائب والفتن ، وقد فتشنا غالب الأصحاب اليوم ، فوجدنا الحامل لهم على صحبتنا إنما هي علل دنيوية.

ومعلوم عند كل عاقل أن صحبة مثل هؤلاء من نقص العقل ، ولا يتكدر من تنفير مثل هؤلاء إلا من كان غافلاً عن الله تعالى ، والدار الآخرة ، فإن من نفر مثل هؤلاء عنه فقد أعتقه من دخوله في حقوق الصحبة التي لا يطيق أحد القيام بها ، من غالب أهل هذا الزمان ، فإن من حقوق الصحبة أن الصاحب يشارك صاحبه في ماله وثيابه وطعامه وشرابه ، لا يتميز عنه بشيء من ذلك ، وهذا عسر على أمثالنا ، فإن عقل العاقل أن يشكر من فضل الله تعالى الذي نفر عنه أبناء الدنيا ، على أنه لا ينفر عنا بكلام العدو إلا كذاب في محبتنا ، غير صادق في صحبتنا ، فإن المحب الصادق لا يصرفه صارف ، ولا ترده السيوف والمتالف.

فعلم أن كل من تكدر ممن نفر عنه أبناء الدنيا في هذا الزمان فهو جاهل بما ينفعه ويضره ، وأصل ذلك أنه يصحبهم لأغراض دنيوية، ولو أنه كان يصحبهم للآخرة ما تكدر ممن نفرهم عنه ، ووالله ، ثم والله ، ثم والله إني لأحب الصاحب الذي لا يهدي إلي هدية ، ولا يمدحني في المجالس ، ولا يجلب أحداً لصحبتي ، أكثر ممن كان بالضد من ذلك ، بل يضيق صدري من كل صاحب أهدى إليّ شيئاً لأنه أحوجني إلى مكافأته.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: من علامات الفقير المرائي محبة من يرغب الناس في محبته، وبغض من ينفرهم عنه، انتهى ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة تحملي لهموم إخواني ، وهروبي من هداياهم ، لكثرة ما عندي من الشفقة والرحمة على جميع هذه الأمة المحمدية؛ لأني إذا كنت أحمل همومهم من غير هدية فكيف حالي إذا قبلت منهم هدية ، فربما أكاد أذوب وأصير كالذي شرب رطلاً من السم ، وكثيراً ما يصيب أحداً ممن يهدي إليّ سوء ، فيدخل عليّ من الكرب والضيق ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وأصير كأني هو.

وربما أشارك نحو خمسة عشر نفساً في وقت واحد ، وكثيراً ما أحس بأن جسمي على النار ، وتلحقني الحمى من فرقي إلى قدمي ، فلا أستطيع أن أجلس على الأرض ، وإنما أضطجع حتى يزول ذلك الكرب عن ذلك الأخ ، وفي المثل السائر: «من أكل الخفارة يرد الغارة».

وقد رأيت في واقعة لما نزل بأهل مصر التفتيش في رزقهم ، وتوقف غالب خراجهم ،

وذلك في سنة ثمان وخمسين وتسعمائة ، أنني راكب على حصان أدهم مثل الفيل العظيم ، وبين يدي على ظهر ذلك الحصان أيضاً ثلاثة جمال ، كل جمل كأكبر ما يكون من الجمال ، فبينما أنا راكب كذلك إذ رأيت الجبل المقطم انفلق ثلاث فلقات ، فطارت فلقة منها حتى نزلت على كتفي الأيمن ، ثم إن مصر انقسمت ثلاث فلقات ، فطارت فلقة وهي ثلث البلد حتى نزلت على ظهري ، هذا والحصان تحتي حامل هذه الأثقال العظيمة ، وهو يعدو بها كأنه ليس على ظهره شيء من شدة قوته ، فقصصت ذلك على بعض أولياء العصر ، فقال لي : هذه صورة حالك ، ثم قال لي : والله إني لا أعلم أحداً للآن في مصر أكثر تحملاً لهموم الناس منك ، فالله تعالى يعينك ، ويدبرك بحسن التدبير ، انتهى .

واعلم يا أخي أن مقام تحمل هموم الناس ليس هو لكل الفقراء ، وإنما هو لأفراد منهم ممن كمل إيمانه كما أشار إليه حديث الطبراني وغيره مرفوعاً : «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد إذا مرض منه عضو تداعى له جميع الجسد بالحمى والسهر**»[(١)] ، انتهى .

وقد كانت هذه الحالة وظيفة سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى ، فورثتها منه بعد موته ، كما ورثها كذلك عن سيدي إبراهيم المتبولي بعد موته ، وقد قال لي في حال حياته : إن طال عمرك فسوف تكون قطباً لهموم الناس ، وربما ترادفت عليك حملات الناس ، حتى تصير تصيح من خلف سبعة أبواب ، وكان ذلك قبل أن أعمر الزاوية والبيت ، فعددت الأبواب التي أنا خلفها الآن فوجدتها سبعة ، كما قال الشيخ رحمه الله تعالى ، وكان من شأنه رضي الله عنه إذا نزل بالناس هم أن لا يتهنأ بأكل ، ولا شرب ، ولا نوم ، ولا يلبس ثوباً نظيفاً ، ولا مبخراً ، ولا يدخل حماماً ، ولا يبني حائطاً ، ولا يفصل ثوباً جديداً ، فلا يزال كذلك حتى يزول ذلك الهم عن المسلمين ، أو يشتغلوا بِهمٍّ غيره ، فيأخذ له نفساً ، ويرجع إلى حالته الأولى من ترك هذه الأمور .

وهذا الأمر قل من يفعله الآن من الفقراء المتمشيخين ، وغاية أمر أحدهم أن يتوجع لك باللسان فقط ، أو يشتغل بك حال جلوسك عنده ، فإذا فارقته نسيك ، وأكل وانبسط وضحك ، وربما يعترض عليهم معترض فيقول : التسليم لله تعالى أولى ، فيقال له : تحمل هموم الناس لا ينافي التسليم لله تعالى ، فافهم .

وقد بلغ الناس في خلو القلب من بعضهم بعضاً إلى حد لا يوصف صاحبه بعقل ، وذلك أن بعضهم جعل مثلهم كمثل شخص رأى شخصاً خرج صرمه من دبره ، وصار مدلى ، فوقف

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم (٦٠١١) ، ومسلم ، كتاب البر والصلة باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦) .

عليه شخص وقال: بالله عليك أعطني هذا الصرم المتدلي لأطعمه لقطتي، فمثل هذا يقضي العقل بأنه ليس عنده ذرة من تحمل هم أخيه المسلم، وهذا وإن لم يصح وقوعه فهو مثال، وقد تصوره العقل على كل حال، فالحمد لله الذي جعلني ممن يحمل هم المسلمين.

وقد أخبرني بعض أهل الكشف أن احمرار الماء الذي تحت بيتنا في الخليج، إنما هو من كثرة الهموم النازلة عليّ، وقال لي: أنظر ماء الخرارات التي في الخليج كلها، فلا تجد منها ماء يحمر سوى ما كان تحت بيتك، والله أعلم بالحال، فاعلم ذلك ترشد، والله تبارك وتعالى يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كراهتي للجواب عن نفسي إذا نقصني منقص إلا لمصلحة شرعية ترجع على السكوت، بل أقول لها: جميع ما يقوله الناس فيك بعض صفاتك الخبيثة، فأكون معهم على نفسي، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] بعد قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فأول الآية مداواة لضعيف الحال الذي لا يحتمل إضافة السوء إليه، وآخر الآية خاص بقوي الحال الذي رضي بعلم الله تعالى فيه، ولم يراع مقامه عند الخلق، فافهم.

وقد قدمنا في المنن السابقة أن مما أنعم الله تبارك وتعالى به علي عدم انتصاري لنفسي، ولو بوكيلي، أو بتوجيهي إلى الله تعالى في ذلك الشخص الذي آذاني، وهو مخصوص بما إذا لم يترتب على الانتصار مصلحة، أما إذا ترتب عليه مصلحة كخوف تزلزل قلوب المريدين عن الاعتقاد فينا إذا سكتنا، لظنهم أن ذلك الأمر الذي نقصنا به ذلك العدو فينا فيعدمون النفع بنا، وصورة جواب أحدنا عن نفسه إذا انتصر لها بالشرط السابق، أن يقول: أنا بحمد الله تعالى معافى من مثل ذلك الآن، ولا أدري ما يقع لي في المستقبل، ولا ينبغي لأحدنا أن يتعرض لتنقيص من نقصه بوجه من الوجوه لا تعريضاً ولا تصريحاً لحديث «**ولا تخن من خانك**»[1] فافهم، فإن من قابل من سبه مثلاً بمثل سبه فماذا أنكر عليه، وقد فعل هو مثل فعله.

وكان بعضهم يقول: إن الله تعالى ما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ إلا تنفيساً للضعفاء، كما مر آنفاً، فنرى أحدهم يستريح في نفسه إذا قابل المسيء بمثل إساءته.

وأما الأقوياء فرضوا بالعفو والإصلاح، وأن يكون أجرهم على الله تعالى، وقالوا قد فهمنا من الآية: أنه تبارك وتعالى يريد منا الاحتمال لمن أساء علينا، وعدم مقابلته محبة لنا

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في النهي للمسلم أن يدفع إلى الذمي الخمر (١٢٦٤)، وأبو داود، كتاب البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده (٣٥٣٤)، وأحمد في مسنده (١٤٩٩٨).

حتى لا نكون من أهل السوء ، ولو بالاسم فقط ؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ فسماها سيئة ، وأكدها بمثلها ، ليتنبه العرافون لما فهمناه ، مع أن وقع المثلية منهم متعذر جداً؛ لأنه يشترط في المثلية أن لا تزيد سيئة المجازاة حرفاً واحداً على السيئة الأصلية ، وأن تكون حروفها حروفها ، فتكون كالحكاية لكلام العدو ، وأن يقع التأثير مثل التأثير ، وأن يتحد أهل المجلسين ، فيكون أهل سيئة البداءة هم الحاضرون حال سيئة المجازاة بعينهم ، وأن يكون المجازي «اسم فاعل» مكافئاً للمجازى «اسم مفعول» في المقام ، فإن الأكابر من أهل الدنيا قد يتأثر أحدهم بكلام قيل فيه أكثر مما يتأثر الأصاغر لقلة إدمانهم على الأذى، ولندرة من يؤذيهم خوفاً منهم، أو رغبة في مالهم ، ولا هكذا الأصاغر ، فلما رأى أهل الله تعالى تعذر المثلية في سيئة المجازاة كما ذكرنا تركوا مقابلة أحد بسوء احتياطاً ، وخافوا إذا جازوا أحداً بسوء أن يُكتَبوا من أهل السوء ، من حيث إن الله تعالى خلع على سيئة المجازاة اسم السيئة، وإن كانت غير سيئة عند غيرهم من الضعفاء، من حيث إن الله تعالى أباحها لهم.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين يفرح بمن ينقصه في المجالس ، ويقول: هذا رسول من عند الله ألهمه الحق تعالى أن يقول في ما قال ، حتى لا أستحسن شيئاً من أحوالي فأهلك ولا أشعر ، وكان يتكدر ممن يشكره في المجالس ، ويقول: إنه رسول إبليس أرسله إليّ ليستدرجني حتى دخل علي العجب بأحوالي ، انتهى فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: شكري لله تعالى إذا نقصني أحد من الأعداء بما لم يقع مني في الخارج ؛ لأنه نفعني على كل حال بتحذيري من الوقوع فيه في المستقبل ، وتقبيحه في عيني ، ومن كان مشهده الشكر على ما ذكرناه فلا يصح منه تكدر ممن أضاف إليه أعظم النقائص ، وذلك لعلمه بعدم عصمته أولاً ، ولرضاه بما يفعله ربه عز وجل معه ثانياً ، ولعدم مراعاته الخلق ثالثاً ، فهو لا يستبعد أن يقع في أعظم ذنب يكون على وجه الأرض ، فإن طينة الخلق ما عدا الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام واحدة ، فجائز أن يقع الولي فيما يقع فيه الفاسق.

وأما قول الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: **من استغضب فلم يغضب فهو حمار** ، فلا ينافي ما قلناه؛ لأن صاحب هذا المقام لم يستغضب ، إذ لا يغضب الكامل إلا لله ، والمفروض هنا إنما هو عند الكامل من باب التنقيص بحق الغير من يكره ذلك ، وذلك غير مسخط لله ، كما أشار إليه حديث الغيبة في قوله ﷺ: **«ذكرك أخاك بما يكره»**[1] أما لو نسب

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الغيبة (٢٥٩٨) ، والترمذي ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الغيبة (١٩٣٤)، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في الغيبة (٤٨٧٤) ، وأحمد في مسنده (٧١٠٦)

إلى الكامل ما لم يكن فيه فغضب ، فغضبه حينئذ إنما هو لكذب المنقص خوفاً على دينه وذلك غضب محمود ، وتركه مذموم ، وعليه يحمل بعض الأكابر ، فقد يغضب أحدهم حينئذ مع التحمل وعدم المقابلة؛ لأننا لم ننف الغضب منه ، وإنما قلنا يحتمله ، ولا يقابل من أغضبه كما أغضبه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من شرط المؤمن الكامل أن يرى جميع الصفات الحسنة والقبيحة كامنة فيه ككمون النخلة في النواة ، فإذا مدح إلى الطرف الأقصى فلا يزداد علماً بصفاته الحسنة ، وإن ذم إلى الطرف الأقصى فلا يزداد علماً بصفاته السيئة ، لشهوده بأن جميع الصفات تشرق وتغرب فيه ، وكل ما مدحه الناس به أو نقصوه به دون ما يشهده هو من نفسه. انتهى.

وقد رأيت في المنام لوحاً نزل من السماء من ياقوت أحمر ، مكتوب فيه بالأخضر ما نصه: حكم طينة الخلق ما عدا الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام ، حكم الطينة التي عجنت من سائر الأجسام والجواهر والأعراض ، حتى صارت روحاً واحدة ، ففي كل ذرة من كل ذات من الصفات مجموع ما تفرق في غيرها ، ولكن ما دامت العناية الربانية تحف العبد بالحفظ ، فالصفات المحمودة كلها مستعملة ، والمذمومة كلها متعطلة ، فإذا تخلفت العناية عنه قامت الصفات المذمومة كلها للاستعمال ، وتعطلت الحسنة عن الاستعمال.

ومن هنا كان غير الأنبياء والملائكة لا يوصف أحد منهم على التعيين بالعصمة ، لتداول الصفات وتعاقبها عليه ، فتارة نجد الولي بخيلاً ، وتارة كريماً ، وتارة شجاعاً ، وتارة جباناً ، وتارة زاهداً في الدنيا ، وتارة راغباً فيها ، وهكذا ، وما خرج عن حكم هذه الطينة إلا المعصومون كما مر ، وذلك أن الله تبارك وتعالى طهر طينة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بسابق العناية الربانية من سائر المعاصي والرذائل ، لا بعمل عملوه ، ولا بخير قدموه ، وبما قررناه يعلم أن الصفات المذمومة تدق مع الولي بحسب المقامات التي يترقى إليها ، ولا تنقطع عنه بالكلية كما قد يتوهم ، ولو أن من ظن انقطاعها عنه كان حقق النظر لوجدها فيه ، ولكنها دقت وخفيت لغلبة عسكر الطاعات عليها.

وقد خرج العارفون على من قال في كتابه ، باب علاج الكبر ، باب علاج الحسد ، ونحو ذلك ، إلا أن يكون مراده بالعلاج أن تلك الصفة تخمد ولا تزول ، وإيضاح ذلك أن ما كان من أصل النشأة فمحال أن يزول إلا بانعدام الذات ، وذلك بزوال نشأة الدنيا ، وإتيان النشأة الأخروية حين يدخلون الجنة ، فافهم.

ولما علم الكاملون أن نشأتهم في هذه الدار مجموعة من أضداد ، وأنه لم يرمهم قط أحد بشيء إلا وهو فيهم من أصل تلك النشأة لم يتكدروا كل ذلك التكدر ممن رماهم؛ لأنه ما رماهم إلا بما هو فيهم ظهوراً أو كموناً ، وإنما أقيمت الحدود على من رمى أحداً بما لم

يثبت عنه دفعاً للفساد؛ لأنه ما كل أحد يكشف له عما قلناه حتى يسامح من قذفه مثلاً ، فافهم ، بخلاف العارفين فإنهم يرون الجزء الذي في طينتهم من البشرية يدوم ولا ينقطع كما مر ، ولذلك وضع الكاملون الزاهدون في الدنيا عندهم بعض دراهم دائماً تسكيناً لذلك الجزء الذي يضطرب ويحجب عن شهود القسمة الإلهية ، وأنه قد فرغ منها ، ودفعاً لذلك الجزء الذي يهتم بأمر الرزق ولا يقنع بالقسمة.

ومن هنا أيضاً: أطعموا نفوسهم اللذيذ من الطعام والشراب ، وألبسوا ذاتهم الثياب النفيسة ، وناموا على أوطأ الفراش بعد طول مجاهداتهم ، إعطاء لذلك الجزء الذي فيهم حقه.

ومن هنا أيضاً أكثروا من الاستغفار مما هو كامن فيهم من المعاصي ، وإن كان الحق تبارك وتعالى قد تجاوز عنهم في ذلك ، كما وردت به الأحاديث ، فافهم ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: العفو والصفح عن جميع من جنى عليّ ، في بدن أو عرض أو مال من جميع هذه الأمة المحمدية ، من طلبة العلم والفقراء والتجار والمباشرين والأمراء وسائر المكلفين إكراماً لله عز وجل من حيث كونهم عبيده ، وإكراماً لنبيه محمد ﷺ من حيث كونهم من أمته ، لا لعلة أخرى ، هذا هو الباعث لي الآن ، والله على ما أقول شهيد ، وأرجو من فضل الله تعالى دوام هذه النية حتى أقف بين يديه تعالى للحساب ، وذلك ليعاملني بنظير ذلك إن شاء الله تعالى.

وإنما عممت الحكم بالعفو والصفح عن سائر المكلفين من هذه الأمة المحمدية ، لعلمي بأن اسمي صار مشهوراً في مصر وقراها ، والشام والحجاز والروم ، وبلاد المغرب ، فلا يقع في مصر حركة إلا ويعلم بها أهل هذه البلاد لكثرة من يرد على مصر منهم ، ولما دس علي الحسدة العقائد الزائفة في بعض مؤلفاتي ، فلا يعلم عدد من اغتابني إلا الله عز وجل ، وقد سامحت الكل من علمت منهم ومن لم أعلم ، وأشهدت الله وملائكته وأنبياءه ، وجميع خلقه حتى الكفار على ذلك ، لعلمي بأن كل شاهد لابد أن يؤدي شهادته في ذلك الموقف الأهول ولذلك أشهد هود عليه الصلاة والسلام قومه بأنه بريء مما يشركون من دون الله ومع أنهم كفار بقوله: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥] ويؤيد ذلك ما ورد من كون إبليس إذا سمع الأذان ولى وله ضُراط حتى لا يسمع المؤذن فيضطر إلى الشهادة له بالتوحيد ، وهو لعنه الله ليس له خير إلينا قطعاً ، فهذا سبب قولي حتى الكفار ، فافهم.

فعلم مما قررناه أني لا أطالب أحداً بحق في الدارين ، ولو جئت يوم القيامة مفلساً من سائر الحسنات لا أرجع عن صفحي ومسامحتي لمن جنى عليّ إن شاء الله تعالى . وهذا الذي

فعلناه أولى ممن توقف عن الصفح عن الجاني في دار الدنيا ، وقال : لا أصفح عن أحد حتى أعلم حالي يوم القيامة ، فإن سامحني الله من فضله سامحت ، وإن ناقشني ولم يصفح عني شاححت وأخذت من حسناته ، ووضعت عليه من أوزاري إن فنيت حسناته ، كما ورد في الأخبار ؛ لأن من سامح الناس استحق من فضل الله المسامحة من الله يوم القيامة ، فليظن العبد بالله خيراً ، ولا يتوقف على تجربة الله تعالى ، فإنه نقص في الدين إلا أن يكون ذلك لغرض شرعي ، كأن يمتنع عن مسامحة خصمه ليقبح في عينه الوقوع في غيبة الناس ونحو ذلك ، كما كان عليه الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى ، وصنف في ذلك كتاباً سماه «**تأخير الظلامة إلى يوم القيامة**» لكن أخبرني الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري ، أنه سمع الشيخ جلال الدين يقول وهو محتضر : اشهدوا على أنني سامحت جميع من وقع في عرضي من حين بلغني الخبر عنهم ، وإنما أظهرت لهم عدم المسامحة زجراً لهم عن الوقوع في أعراض العلماء ، انتهى .

ونقل الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه في الفتوحات المكية ، عن عبد الله بن عباس ، ومحمد بن سيرين رضي الله تعالى عنهما : أنهما كانا لا يسامحان من اغتابهما ، ويقولان : إن الله تعالى قد حرم أعراض المؤمنين فلا نبيحها ، ولكن غفر الله لك يا أخي ، انتهى .

وقد عد العارفون ذلك من الورع الدقيق ، وإيضاح ذلك أن كل معصية تتعلق بالآدمي فيها حقان ، حق لله ، وحق للآدمي ، فحق الله لا يصح من العبد المحاللة لصاحبه ، فهو باق على حرمته لا يباح بالإباحة ، وأما حق الآدمي فيصح من العبد المسامحة فيه ، ثم من الأدلة على ندب العفو قوله تعالى :

﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ ﴾ [النور : ٢٢] وقوله تعالى : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٤] .

وقوله ﷺ «**وما زاد الله عبد بعفو إلا عزاً**»(١) ومفهومه أن من لم يعف عمن ظلمه لا يزداد إلا ذلاً ، أي انخفاضاً من المقام الأعلى ، وهو العفو ، فهو ذل بالنسبة لمقام العارفين .

وقد جربت أنا في نفسي ذلك ، فما أنفذ غضبي في أحد ، أو آخذه لحظ نفسي ، إلا وأحس بطرد قلبي عن حضرة الله عز وجل كالشياطين ، وكفى بذلك ذلاً وما صفحت وعفوت عن أحد إلا وأحس بزيادة العز بذلك بين يدي الله تعالى وعند خلقه ، وحصل لي بذلك إدمان

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨) ، والترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في التواضع (٢٠٢٩) ، وأحمد في مسنده (٨٧٨٢) .

كبير ، حتى أن العفو صار عندي أحب من المؤاخذة ، ولم أزل منذ اكتسبت الفضائل يقوم لي في مصر حاسد بعد حاسد يؤذيني ، ويفتري علي ما لا يليق بي إلى وقتي هذا ، وذلك إما لرفع درجاتي ، وإما لتكفير سيئاتي ، وإما عقوبة لذنب وقعت فيه ولم أحتفل بأمره ، أحصاه الله عليّ ، أو غير ذلك.

وما أظن أن أحداً من أقراني سلم من الوقيعة في عرضي إلا القليل ، لا سيما مجاوري الجامع الأزهر ، فإن معظم الفتنة كانت فيه ، لما دس الحسدة في كتبي ما دسوا ، وداروا بتلك الكراريس في الجامع الأزهر كما مر تقريره في هذا الكتاب.

وممن حماه الله تبارك وتعالى من الوقيعة في عرضي شيخ مشايخ الإسلام الشيخ ناصر الدين اللقاني ، والشيخ شهاب الدين الرملي ، والشيخ شهاب الدين الشلبي ، والشيخ نور الدين الطندتائي ، والشيخ شمس الدين الخطيب ، والشيخ سراج الدين الحانوتي ، والشيخ نجم الدين الغيطي ، والشيخ شمس الدين البرهمتوشي ، والسيد الشريف يوسف ، وجماعة ذكرناهم في الطبقات ، فالله تعالى يحميهم من كل سوء إلى يوم القيامة ، وينفعني ببركاتهم ، آمين.

وأعرف جماعة يعتقدون فيّ السوء إلى وقتي هذا ، وما منهم أحد اجتمع عليّ ، فالله يغفر لهم ويسامحهم ، آمين.

ولما صفحت عمن لاث بي من أهل الجامع الأزهر ، رأى الشيخ محمد التلاوي المالكي ، أنني راكب على فرس عظيم ، والشيخ شهاب الدين البلقيني ماسك بلجام الفرس ، وجميع أهل الجامع الأزهر يمشون بين يدي ، فقال شخص للشيخ شهاب الدين: من هذا؟ فقال: هذا عبد الوهاب ، شفع في أهل الجامع الأزهر وهو ذاهب بهم إلى الجنة ، انتهى.

ثم الذي فهمته من إمساك الشيخ شهاب الدين البلقيني للجام ، إنما هو ليعلمني التواضع ، خوفاً عليّ من العجب ، فإنه أعلى مقاماً مني بيقين.

وكذلك رأى الشيخ سعد الدين الصناديدي رسول الله ﷺ وهو حاضنني في حضنه وثدياي يتفجران لبناً ، والناس يشربون ، حتى عم نحو مائة ألف نفس ، وسيدي أحمد البدوي رحمه الله تعالى واقف يقول للناس: زوروا فلاناً يحصل لكم بركته ، فرجع خلق كثير عن الإنكار عليّ ، لاعتقادهم صدق الشيخ سعد الدين المذكور ، فاعلم يا أخي ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

واعلم يا أخي أن مقامي العفو والصفح عن جميع الأمة كما ذكرنا ليس هو لكل فقير ، وإنما هو لأفراد منهم ، لا سيما من يزعم أنه يحب الله عز وجل ورسول الله ﷺ ، فإن مؤاخذة أحد من عبيده تعالى ، أو من أمة نبيه ﷺ يجرح مقام المحبة لله تعالى ورسوله ﷺ ، ولو أنه

كان صادقاً لأكرم الخلق لله عز وجل ، ولرسوله ﷺ، فإن من كمال الفقير أن يكون مشهده دائماً أنه في حضرة الله عز وجل فإن حجب عنها ففي حضرة رسوله ﷺ ، فإن شهد أنه في حضرته جل وعلا أكرم عبيده ، أو في حضرة رسوله ﷺ أكرم أمته ، ومن يحبه ، ومن خرج من حضرة الله تعالى ، وحضرة رسوله ﷺ ، فهو في حضرة البهائم لا يقدر على مسامحة أحد غالباً ، على أن مشهد الكُمَّل دائماً شهود رسول الله ﷺ في حضرة الله عز وجل ، فلا يشهدون الله إلا ويشهدون رسول الله ﷺ معه تعالى ، وبالعكس.

وقد سمع أخي الشيخ أبو العباس الحريثي رحمه الله تعالى شخصاً يقول لآخر: والله لا أبرىء ذمتك لا دنيا ولا آخرة ، فقال له: أعزم على الخير أولى ، أما تستحي من رسول الله ﷺ يصير يفك الناس من بعضهم بعضاً يوم القيامة ، وأنت تعقدهم وتربطهم بمشاححتك ، فقال الشخص: تبت إلى الله تعالى ، وسامح أخاه في الدنيا والآخرة ، انتهى.

وبالجملة فلا يقدر على التخلق بهذا الخلق إلا من صار أرحم بخلق الله من أنفسهم، وحفته العناية في التعظيم لجناب الله تبارك وتعالى ، والإكرام لرسول الله ﷺ ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: مسامحة كل من اغتابني بعد موتي ، أو في حياتي ، ولم تبلغني غيبته؛ لأني وإن لم أعلمه ، فالله يعلمه ، وإنما عينت من اغتابني بعد موتي بالذكر وإن كان داخلاً في ترجمة المنة السابقة قبله؛ لأنني سمعت بعض الناس يستغيب الميت بعد موته ، وما بقي يتصور من ذلك الميت براءة ذمة له ، ولا مسامحة ، ولا عفو ولا صفح إلا يوم القيامة ، فتصير ذمته مشغولة إلى يوم القيامة ، والحق تبارك وتعالى يكون غير راض عنه ، حتى يسامحه خصمه ، أو حتى يصالح الحق تعالى بين عباده.

ومما وقع لي أن بعض الأقران ممن ينسب إلى العلم والصلاح في الجامع الأزهر ، غلب عليه الحسد ، حتى أشاع عني في الجامع الأزهر وغيره أنني مت ، وقال: أخبرني جماعة ثقات أن فلاناً مات فجأة ، وأرسل بذلك كتاباً إلى دمياط ، والمحلة ، والإسكندرية ، فأرسلت فبحثت عن سبب هذه الإشاعة ، فأخبرني بعض من يجتمع على ذلك العالم ، فقال لي: سمعته يقول: إنما فعلت ذلك لأنظر ما يقول الناس في فلان إذا مات ، فبحمد الله تعالى لم يقل الناس إلا خيراً ، فازداد ذلك الحاسد هماً وغماً.

وقد بلغنا وقوع مثل ذلك للشيخ برهان الدين البقاعي رحمه الله تعالى مع حساده ، فأنشد رحمه الله تعالى ، وهو لسان حالي أيضاً:

ألا رب شخص قد غدا لي حاسداً ... يرجى مماتي وهو مثلي فاني
ويا ليت شعري إن أمت ما يناله ... وماذا عليه لو أطيل زماني
وما يبتغي الحساد مني وإنني ... لفي شغل عنهم بأعظم شاني

نعـم إننـي عمـا قـريـب لميـت ... ومـن ذا الـذي يبقـى علـى الحـدثـان
كـأنـك بـي أنعـم لـديـك وعنـدهـا ... تـرى مصـر عـاصمـت لـه الأذنـان
فـلا حسـد يبقـى لـديـك ولا قلـى ... فتنطـق فـي مـدحـي بـأي معـان

إلى آخر ما قال ، رحمه الله تعالى.

وإنما كان الحاسد يمدح المحسود بعد موته غالباً؛ لأن فضائل المحسود كلها لا تظهر إلا بعد موته ، حين يذهب الغل والحسد ، ويطلق الله الألسنة في مدحه ، فلا يسع الحاسد إلا أن يوافق الناس قهراً عليه ، بخلاف ما دام المحسود حياً ، فإن غالب فضائله لم تظهر ، فهو ينقصه في المجالس ، ويقول: لعلي أقبل ، وإذا قام الحسد في باطن إنسان صار ذلك الحسد حجاباً على القلب ، فيمنع صاحبه من شهود فضائل ذلك المحسود وربما كانت النقائص الذي ذكرها الحاسد هي من صفاته هو دون المحسود؛ لأن المؤمن مرآة المؤمن ، ولا ينظر الإنسان في المرآة إلا وجهه ونفسه ، ولو أنه جهد كل الجهد أن يرى جرم المرآة لا يراه؛ لأن صورة نفسه حاجبة له عنه ، فاعلم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: مسامحتي لجميع من سمع بغيبتي ، وصدق المغتاب فيها من المستهزئين والمتهورين الذين يحضرون مجالس الغيبة غالباً ، فيصدقون ذلك المفتري الكذاب الحاسد ، ويصيرون يقولون: وقع اليوم كذا وكذا من فلان في حق فلان ، فبعضهم يرد ذلك ، وبعضهم يقبله ، ويقول: ما كنا لنظن أن فلاناً بهذه المثابة ، كأن ذلك ثبت عند حاكم شرعي ، وقلَّ من يسلم من مثل ذلك ، وإنما سامحت هؤلاء لأنهم تعدوا حدود الله بسببي ، فلولا وجودي ما وقعوا في الإثم ، فخفت على دينهم أن ينقص باستماعهم لغيبتي ، وقبولها من الحاسد.

وهذا الخلق غريب في أهل هذا الزمان ، فلا يكاد أحد ينظر إلى وجه من استغابه ، ولا إلى من صدق فيه النقائص ، ولا يقدر على التخلق به إلا من توالت مراقبته لله تبارك وتعالى ، بحيث غلب عليه مراعاته والاكتفاء بعلمه ، وعدم طلب مقام عند أحد من عبيده ، وإلا فمن لازمه غالباً عدم المسامحة ، فعلم أن كل من كشف حجابه ، وجد كل ما يقع في الوجود بمرأى من الله تعالى ومسمع ، ورأى جميع من يستهزىء به ويؤذيه بغير حق تحت قهر الإرادة الأزلية ، وأن الله تعالى غضبان عليهم ، وإذا كان الأمر كذلك فمن المتأكد على من نور الله تعالى قلبه ، وجعل في قلبه الرحمة أن يشفع فيمن غضب الله تعالى عليه بسببه.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من أدب الفقير إذا آذاه جماعة ، وتعدوا حدود الله لأجله أن يشفع فيهم عند الله تعالى ، ويقول. يا رب ارض عنهم ، فإني قد رضيت عنهم؛ لأننا كلنا عبيدك كالأيتام في حجر الولي الشفيق ، ومن كان هذا مشهده تحمل الأذى من جميع عباد الله تبارك وتعالى ، والحمد لله رب العالمين

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم جوابي عن نفسي حياء من الله تعالى لا لعلة أخرى ، وكراهتي للجواب عني إلا أن يترتب على ذلك مصلحة دينية ، ترجع على ترك الجواب.

وقد رأيت مرة شخصاً يشتم أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى ، فصار يبتسم ويقول للشاتم: على مهلك اشتمني وأنت مطمئن على نفسك ، فإني والله أتأثر على إزعاجك نفسك حال شتمي أكثر من تأثري بشتمك لي ، فقلت له: هذا خلق حسن ، فقال: صحيح ، ولكن لا يقدر على التخلق به إلا من عظمت مراقبته لله تعالى ، فكل من ادعى أنه مراقب لله تعالى فاشتمه على غفلة ، وانظر فإن تأثر فهو كاذب.

واعلم يا أخي أن من فوائد عدم جواب الإنسان عن نفسه رضا الله تعالى عنه ، وتوفير أجره عند الله تعالى ، وعدم تحمل منة من يجيب عنه ، وإن كان ذلك مشروعاً له ، ومن تأمل وجد غالب من يجيب عنه إنما يقصد المكافأة بذلك ، حتى أن بعضهم كان يجيب عن إنسان ، فوقع أن ذلك الإنسان سمع شخصاً يغتابه فسكت ولم يجب عنه ، فعاداه ، وصار يمْن عليه ، ويقول: كيف تسمع غيبتي فلم تجب عني بكلمة ، وأنا عاديت فلاناً وفلاناً بسبك ، وكثيراً ما يجيب عنك صاحب في غيبته فيحصل بينه وبين عدوك خصام ، فينساك ويصير يشتغل بالجواب عن نفسه ، ففي عدم تمكين مثل هذا من الجواب عنك سد باب خصومة الإخوان مع غيرهم بسببك.

وقد كان بين بعض وعاظ الجامع الأزهر وبين واحد من أقرانه نفس وخصومة ، فسمع ذلك الواعظ خصمه يوماً يذكرني بسوء ، فعمل في حقي ثلاث مجالس ، يحط فيها على ذلك الذي ذكرني بسوء ، فتأملت فلم أجد بيني وبين ذلك الواعظ تلك الرابطة العظيمة التي صار يحط على ذلك الشخص بسببها ، فقلت للشريف يوسف رحمه الله تعالى: ما هذا الحال؟ فقال شخص توصل بك إلى غرض فاسد ، في صورة حق ، انتهى.

وقد حضرت هذا الواعظ يوماً متنكراً ، فرأيته يصفني بالصلاح والولاية ، مع أني أعلم بالقرائن ، أن باطنه بخلاف ذلك ، فصار يقول: كيف يدعى فلان العلم والصلاح وهو يجلس في مثل الجامع الأزهر ، ويستغيب الأولياء والصالحين ، أما علم هذا المغرور أن جميع ما يقوله في درسه من العلم لا يجيء في نظير غيبة واحدة ، أما يعلم أن الغيبة وإن كانت من الصغائر عند بعض العلماء فهي من الكبائر في حق العلماء والصالحين ، أما علم أن المسجد حضرة الله ، فكيف يعصيه في حضرته أما علم أن الله يمقت من يستغيب أحداً بغير حق في بيته تعالى ، فكيف يدعي القطبية ، فلا زال يوبخه حتى كاد أن يخرجه عن دائرة الإسلام.

وقد جربت أنا فرأيت أن عدم رد الجواب أقطع للعدو من الجواب ، فإنه إذا رأى خصمه

لا يجيبه استحى ضرورة منه ، ولو على طول ببركة صبره عليه ، ويقول لنفسه: والله إنك لظالمة على فلان ، كم ذا تحطي فيه للناس وهو ساكت ، والله إنه أحسن حالاً منك ، وأكثر حياء ، وربما جاء ذلك الحاسد وصالحني بعد ذلك ، ولو أنني كنت أقابله لدام الضرر عليّ وعليه ، ولم يبدأ بصلح أبداً لكونه يتذكر جنايتي عليه ، وينسى جناية نفسه كما هو الغالب.

فإن قيل: فما وجه أمره ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه أن يجيب عنه الكفار؟

فالجواب: إنما أمره ﷺ بذلك مبادرة إلى نصرة الدين ، وخوفاً من تزلزل من كان أسلم قريباً ، لا تشفياً للنفس؛ لأنه ﷺ معصوم من مثل ذلك بالإجماع ، وفي الحديث عن عائشة رضي الله تعالى عنها لما سئلت عن خلقه ﷺ فقالت:

«كان خلقه القرآن قالت: وكان لا يغضب لنفسه وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله تعالى»[1] انتهى.

واعتقادنا واعتقاد كل مسلم فيه ﷺ أنه لو قام عليه أهل المشرق والمغرب بالأذى لاحتملهم ، اكتفاء بعلم الله عز وجل ، وإن ضاق صدره من كلام قيل فيه ، فذلك لما يترتب عليه من مصلحة اتباعه شفقة ورحمة بهم ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] فافهم.

ثم في أمره ﷺ حساناً أن يرد عنه استئناساً لضعفاء أمته الذين لا يقدرون على سماع كلام في حقهم ، من غير أن يجيبوا عن أنفسهم بنفسهم ، أو بوكيلهم ، وفيه أيضاً فتح باب الاقتداء به ﷺ ، في مثل ذلك ليحصل لهم التأسي به بظاهر الفعل فقط دون قصدهم أمراً آخر ، كما نقل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه ، أنه لما وقع في محنة ، اختفى ثلاثة أيام ، ثم خرج فقيل له: إنهم الآن يطلبونك ، فقال: إن رسول الله ﷺ لما اختفى من الكفار لم يمكث في الغار أكثر من ثلاثة أيام ، فلا أزيد على السنة ، انتهى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إياك أن تفرح بأحد يجيب عنك عدواً أو حاسداً ، فيتولد من ذلك شرور لا تحصى ، لا سيما والإنسان كلما علا مقامه كثرت حساده وأعداؤه من الإنس والجن ، وغالب القلوب اليوم فيها الشحناء والبغضاء لبعضهم بعضاً ، فربما قصد أحد التشفي من عدوه في حجة نصرتك ، والجواب عنك.

وسمعته رضي الله تعالى عنه يقول أيضاً: ما أقطع لعدوك من الاشتغال بالله عز وجل ، كما يشتغل هو بتنقيصك ، فإن ذلك أقرب إلى نصرتك من عمل المكايد والحيل ، انتهى.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٧٧٤) ، والطبراني في المعجم الأوسط (٧٢) ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٢٨).

فاعلم يا أخي ذلك ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: شهودي أن كل ما يؤذيني به الناس من جملة المصالح لي ؛ لأنه ربما كان عندي عجب بأحوالي ، فينبهني هؤلاء بكلامهم الناقص في عرضي على زلاتي ونقائصي ، فيزول عني العجب ، كما مر ذلك مراراً ، ولو أنهم كانوا محبين لي عادة لزادوني عجباً بمدحي ، فأهلكوني من حيث لا أشعر.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى يقول: عدو يوصلك إلى حضرة الله تعالى ، خير من صديق يبعدك عن حضرة الله تعالى.

فإياك ومحبة من لقولك يسمع ، ولعلمك ينشر ، فإنه عدو في صورة صديق ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في أواخر الكتاب أن كثرة المصائب والمحن في هذه الدار ، دهليز يدخل العبد منه إلى تحمل أهوال الآخرة ، ولولا ذلك لكان الإنسان يذوب إذا شهد أهوال الآخرة ، لكونه لم يتقدم له إدمان في دار الدنيا ، فافهم ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شدة كراهتي لمن ينقل إلي أخبار الناس الناقصة ، التي يستحي منهم أن يواجههم بها ، وشدة زجري للناقل ، حتى أنه لا يعود إلي مرة أخرى ، ثم إني أرجع على نفسي باللوم لكوني تماديت في المقدمات ، حتى وجد الناقل لما نقله محلاً ، بل كنت أدفعه بالقلب فلا يكاد يقدر أن يصل إليّ قط بكلام.

وإيضاح ذلك: أنه لولا رأى محلي قابلاً لقبول كلامه والإصغاء إليه لما نقل كلاماً قط ، فاللوم على الناقل ، ونظير ذلك أن الحرام كالسرقة والزنا مثلاً يرمي العبد بهما إذا علم الرامي قبول الكلام فيه ، فاللوم على المرمي الذي تعاطى أفعالاً فيها رقة دين ، حتى صار الناس يقبلون ذلك في حقه ، فتأمل.

فعلم أن من عقل العاقل تكذيب النمام ، ولو علم أنه غير كاذب سداً لباب نقل الكلام له ، فربما نقل إليه كلاماً في حال قيام بشريته ، وتخلفت العناية الربانية عنه ، فيدخل عليه الكدر والغم ، وما هكذا فعل المحب ، ثم إن أقل ما في نقل الكلام من المفاسد أن المنقول إليه الكلام الذي يؤذيه ، يصير كل قليل يتذكره ، ويقول: فلان يقول فيّ كذا وكذا ، فربما لا يقدر بعد ذلك أن يصغي له أبداً فيتولد من ذلك الحقد الذي هو تذكر السيئات ، ولا يخفى ما في ذلك من مقت الله تعالى.

وكان أخي سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يشترط على كل من أراد صحبته أن لا يبلغه قط عن أحد سوءاً ويقول: كيف يدعي إنسان محبة إنسان ثم يدخل عليه الغم والهم ، وكان رضي الله تعالى عنه إذا سمع من أحد شيئاً يسوء صاحبه لو سمعه ينقله بضد ذلك ،

ويقول: سمعت فلاناً يذكرك بخير، وقد ظهر لي أنه يحبك، فقلت له في ذلك، فقال: سمعته يدعو للمسلمين، وهو ذكر بخير، والرجل منهم، وقصدت بذلك إدخال السرور عليه، وتمييل خاطره إلى زوال ما عنده من الشحناء، أو البغضاء، طلباً لمرضاة الله عز وجل.

وأما قولي: ظهر لي أنه يحبك أي أرجو له من الله حسن الحال في المستقبل، ومن شرط المسلم أن يقرب بين الإخوان إذا تباعدوا، كما ورد في الحديث أيضاً مرفوعاً: «**ألا أدلكم على شر عباد الله؟ فقالوا: بلى يا رسول الله، فقال: شر عباد الله المشاءون بالنميمة، والمفرقون بين الأحبة، الطالبون للبراء العيوب**»[1]، وفي الحديث أيضاً «**لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيراً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»[2]

وسبب ذلك كما في سياق الحديث: أن النبي ﷺ قسم ذهباً بين أصحابه، ثم دخل بيته، فقال رجل من القوم: والله إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فلما خرج النبي ﷺ بادر ذلك السامع إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله إن فلاناً قال كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما أنا بشر، أغضب كما يغضب البشر، وأرضى كما يرضى البشر، لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيراً**» الحديث.

وقد جربنا أن كل من صغا إلى النمام كثرة اعتلاؤه، بخلاف من كذب النمام فإن الناس لابد يتكلمون في الإنسان من ورائه بما لا يواجهونه به، حتى السلطان، ومن طلب أن تكون الناس من ورائه مثل حالهم معه في حال مواجهتهم له، فقد رام المحال، وفي الحديث «**عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ومن أتى أخوه متنصلاً من ذنب فليقبله محقاً كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض**»[3].

وفي كلام الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه:

اقبل معاذير من يأتيك متعذراً ... إن بر عنك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره ... وقد أجلك من يعصيك مستترا

وكان سيدي الشيخ أبو الفتح الغمري رضي الله تعالى عنه، إذا نقل أحد إليه نميمة يأمره

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ١٦٧)، والصغير (٨٣٥)، والبزار في مسنده (٢٧١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٧٠٨)، والديلمي في مسند الفردوس (٣٦٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ (٣٨٩٦)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في رفع الحديث عن المجلس (٤٨٦٠)، وأحمد في مسنده (٣٧٥٠)

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٢٥٨)، والطبراني في المعجم الأوسط (١٠٠٢)، والديلمي في مسند الفردوس (٧٤٣٤).

بالجلوس ، ثم يرسل إلى من نقل النميمة عنه ، فإذا حضر قال له: هذا قال عنك كذا وكذا ، أو صحيح ، فيكلح الناقل ، فلا يعود بعد ذلك ينقل إليه شيئاً ، وكان رضي الله عنه يقول: إنما أفعل ذلك من باب ظلم دون ظلم ، فلما علم النمامون منه أنه يفعل مع النمام كذلك انقطع عنه النمامون ، فاعلم ذلك ، والله يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: أنني أحب أن أفدي جميع العلماء والصالحين بنفسي ، وأود أن أعداءهم يضيفون إلي سائر النقائص التي ينقصونهم بها ، أو يجعلون كل ما يغتابونهم به فيّ ، لكوني أسامحهم بخلاف غيري ، فربما شاححهم في ذلك ، ولم يبرىء ذمتهم في الدنيا ولا في الآخرة ، كل ذلك محبة مني في رسول الله ﷺ ، لأنهم حملة شرعه ، وإذا ظهرت نقائصهم قل نفع الناس بهم ، بخلاف ما إذا ظهرت كمالاتهم فإن الناس ينقادون لهم ، ويقتدون بأقوالهم وأفعالهم.

وهذا خلق غريب ، لا يوجد إلا في أفراد من الأقران ، فالحمد لله الذي جعلني منهم ، فإني بحمد الله تبارك وتعالى أنشرح بإضافة جميع النقائص الإسلامية إليّ ، لو خيرت بين إضافتها إليهم وإضافتها إليّ ، وذلك لأتميز أنا بالنقص ، ويتميزوا هم بالكمال ، ومن تحقق بهذا المقام فهو الذي يصلح للطريق.

وقد نسب بعض الإخوان الصادقين إلى ضرب الزغل ، فمسكوه ، وضربوه ، وبهدلوه ، فشق ذلك عليّ ، وودت أن تلك النسبة كانت إليّ لأني لا أطلب عند هؤلاء الخلق مقاماً ، ولا أنا عازم على أني أتولى ولاية تجرحها تلك النسبة ، ثم إن أصحابه تفرقوا عنه ، وصاروا يتبرأون منه ، ويقولون للحكام إنما كنا أصحابه من بعيد ، فلما رأيتهم فعلوا معه ذلك قلت لهم: أف عليكم من أصحاب ، تصدقون في شيخكم كلام الحسدة والأعداء ، ثم قبلت رجله بحضرتهم وقلت له: جزاكم الله تعالى عن المسلمين خيراً ، ثم قلت لأصحابه: إن هذا البلاء كان نازلاً على مصر ، فحمله سيدي الشيخ عن الناس ، فالحمد لله الذي جعل في عصرنا هذا من يتحمل عن جميع أهل مصر البلاء ، فما خرجت من عنده حتى عكف عليه أصحابه ، وتابوا إلى الله تعالى ، ولم يفعلها أحد من إخوانه معه غيري ، إما خوفاً على نسبتهم إليه ، وإلى ما رموه به ، وإما أنهم قصدوا بذلك حصول الإدمان له على تحمل البلايا الآتية ، أو نحو ذلك.

فعليكم أيها الإخوان بمعونة إخوانكم إذا وقعوا في البلاء ، وإلا فلا تصحبوا أحداً ، فإن كل من لم يدخل إلى الصحبة ، وهو موطن نفسه على مشاركة أخيه في البلاء إن لم يتحمله عنه كله ، فصحبته مدخولة ، وهذا هو الغالب على إخوان هذا الزمان ، فإذا وقع واحد من إخوانهم في زلة ، أو رمي بتهمة ، فغاية أمر أحدهم أن يتوجع له باللسان فقط ، أو بالقلب

ساعة ثم ينساه ويأكل ، ويشرب ويضحك ، ويجامع زوجته ، ويدخل الحمام ، وما عند أهل الجنة خيراً من أهل النار ، وربما فرح بعض الأقران فيه ، وأظهر الشماتة ، وأشاع تلك الحكاية لكل من ورد عليه ، وإن خاف من إنكار الناس عليه ذلك ، يقول: والله لقد تشوشنا مما وقع لأخينا فلان ، وربما أنه ليس قصده إلا إعلام الناس بما وقع لذلك الرجل لا غير ، وربما يكون أحدهم قلبه بذلك فرحان ، والناقد بصير.

وقد درج السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم على فداء أصحابهم بأنفسهم ، فضلاً عن تحمل كلام قيل فيهم ، ولما رمي الصوفية بالزندقة في عصر الجنيد ، وقدموا لضرب أعناقهم بين يدي القاضي إسماعيل المالكي ، تقدم الشيخ أبو الحسن النوري للسياف ، وقال له: إضرب عنقي قبل أصحابي ، فقال له السياف: ما حملك على ذلك؟ فقال: لأوثر أصحابي على نفسي بحياة ساعة ، فإن ذلك هو الذي بقي من فتوتي ، فبلغ السياف ذلك إلى الخليفة ، فأمر بإطلاقهم ، وقال: إذا كان هؤلاء زنادقة فما بقي على وجه الأرض مسلم ، انتهى.

فاعلم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تكديري ممن رفع أحداً من أقراني فوقي ، لاسيما إن كان من العلماء أوالصالحين ، بل أفرح لذلك ، وأقول: الحمد لله الذي رفع قدري حتى صلحت لأنهم يفاضلون بيني وبين العلماء والصالحين ، فإنهم لولا رأوني قريباً منهم في المقام ما فاضلوا بيني وبينهم ، وأنا أعلم من نفسي أنني بعيد من مقام العلماء والصالحين ، وإذا جلست إلى أحد منهم أصير في غاية الخجل كالمكشوف السوأة ، ولذلك تركت الاجتماع معهم في غالب المحافل التي لم تشرع.

ولما افترى علي بعض الحسدة أنني ادعيت الاجتهاد المطلق ، كما وقع للشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى ، بادرت إلى الشكر ، وقلت: الحمد لله الذي جعلني في أعينهم عظيماً ، حين افتروا علي ذلك ، ولو أنهم رأوني قليل العلم ما افتروا علي ذلك ، كما لا يفترون على العوام لبعدهم عندهم من مقام المجتهدين.

وإيضاح ذلك: أن المفتري لا يفتري إلا ما يظن أن الناس يقبلونه منه ، وأما ما لا يقبلونه منه فلا يفتريه لعدم رواجه عند الناس ، ولذلك كان الغالب على من يرمي الصالحين بالزور والبهتان أن يرميهم بالأمور الباطنة ، كالرياء ، والنفاق ، ومحبة الرياسة ، ونحو ذلك ، دون ترك الصلاة ، وشرب الخمر ، والتعاون في الناس عند الولاة ، ونحو ذلك فافهم.

وقد كان السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم ، يخافون من وقوعهم في التفاضل بين الناس ، خوفاً أن يقعوا في الغيبة

ووقع للإمام سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه: أن طبيبين يهوديين دخلا عليه ، فلما خرجا قال: لولا أخشى أن تكون غيبة لقلت إن أحدهما أطبُّ من الآخر ، انتهى.

واعلم أنه لم يزل يقع بين أصحاب العلماء والصالحين المشاحنة والفتن ، من جهة رفع جماعة كل شيخ شيخهم على غيره ، فينبغي لكم عالم أو شيخ في الطريق أن يزجر من يراه من إخوانه يرفعه على أحد من أقرانه ، ويقول: أنا لا أصلح تلميذاً له ، ويوري في ذلك إن احتاج إلى التورية ، إما هضماً لنفسه ، أو أنه لعلو مقامه لا يصلح أن يكون تلميذاً له ، وإنما يصلح أن يكون شيخاً له.

وقد رأيت فقيراً يقول لأصحاب شيخ من أقرانه: إن شيخكم هذا لا يجيء قلامة ظفري ، ولا شعرة من جسدي ، فما خلوا ولا بقوا من كثر سبه ، فقلت لهم: إن الشيخ صادق ، فإن شيخكم لا يمكن أن يجيء في قلامة ظفره ، ولا شعرة من جسده ، وكان لسان حالكم يقول أنه يجيء فهو إلى الصدق أقرب منكم ، فاستغفروا الله تعالى ، واعتذروا إلى ذلك الفقير.

وقد كان ﷺ يمزح ، ولا يقول إلا حقاً ، وكذلك الفقراء.

ولما حضرت وفاة سيدي محمد ابن أخت سيدي مدين أذن لاثني عشر رجلاً أنهم يسلكون بعده في مصر ، فصارت جماعة كل واحد يقولون: شيخنا أولى ، فبلغ ذلك سيدي علياً المرصفي رضي الله تعالى عنه ، وكان من جملة الاثني عشر ، فقال لهم: أبرزوا كلكم للطريق ، وكل من كان صادقاً سوف يظهره الله تعالى ، فإن الطريق تعرف أهلها ، فبرزوا كلهم ، فتمزقوا كلهم ، ولم يثبت في مصر إلا سيدي علي المرصفي رضي الله تعالى عنه ، فأجمع الناس على جلالته ، وانقاد إليه الخاص والعام.

فعلم أن كل من تكدر ممن فاضل بينه وبين العلماء والصالحين فهو صاحب رعونة ، لم يشم من طريق القوم رائحة ، وقوله في بعض الأوقات: نحن لا نجيء تراب نعال الإخوان كذب ونفاق ، أو كان ذلك ثم زال ، فإياك يا أخي من مثل ذلك ، ثم إياك ، والله تعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة إجلالي للعلماء والصالحين والأمراء ، فلا أدعو أحداً منهم قط إلى وليمة عملتها مثلاً إلا بشرط الإخلاص مني في دعائهم ، وعدم رؤية نفسي بذلك على أقراني ، كما يقع فيه بعض المتشبهين بالصالحين والمتمشيخين بالآباء والجدود ، فتقول الناس: إنه كان مولداً عظيماً ، حضر فيه فلان وفلان ، بخلاف مولد فلان فإنه لم يحضر فيه أحد من الأكابر ، وربما يكون حضور العلماء والصالحين والأمراء يفوت عليهم مصالح أعظم من حضور ذلك المولد ، وربما أنهم لم يحضروا إلا بعد تقبيل أرجلهم ، وسياق الأكابر عليهم ، ولا محبة في صاحب المولد ، ولا اعتقاداً فيه ، وينبغي لمن يعمل له

مولداً أن يتوقى من مساعدة في ماله شبهة من الظلمة وأعوانهم ، ومن يعطي شيئاً بعين الحياء ، ولا يقبل من أحد شيئاً إلا ما كان حلالاً شرعاً ، وليحذر هو أصحابه من ذكر أحد ممن لم يساعده بسوء كبخل ، فربما كان ثواب المولد لا يفي بذلك ، وهذا الأمر قد حدث في بعض فقراء هذا الزمان ، ولم نر أحداً يفعل مثل ذلك من المشايخ الذين أدركناهم ، إنما كانوا على قدم الورع ، والزهد ، والأدب.

فعلم أن عمل المولد لا يصلح إلا لأكابر الأولياء والصالحين ، الذين اشتهرت كراماتهم ومناقبهم في أقطار الأرض ، كالإمام الليث ، والإمام الشافعي ، وسيدي أحمد البدوي ، وسيدي إبراهيم الدسوقي ، والسادات من بني الوفاء والمشايخ الغمرية ، والمدنية ، والبكرية ، ونحوهم ممن يعمل مولده من ماله ، أو من وقف على ذلك ، ولا يحتاج إلى مساعدة الظلمة له في ذلك ، فإن مثل هؤلاء هم الذين يصلح لهم عمل الموالد لانجذاب القلوب إلى محبتهم ، والاعتقاد فيهم ، حتى لو قيل لأحدهم: لا تحضر ذلك المولد ، لا يتركه ولو في ليالي الشتاء ، لما يجد في نفسه إذا حضر من الإنس ، والمدد.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي لفقير أن يدعو أحداً من العلماء والصالحين والأمراء إلى مولده بشروط منها: أن يحضر ذلك الأمير أو العالم أو الصالح بنية صالحة ، لا خوفاً من جماعة صاحب المولد ، أن يلوثوا به ، ويذكروه بالسوء.

ومنها: أن لا يقصد بكثرة دعاء الناس المفاخرة على أشياخ البلد الذين لا يعملون لهم مولداً ، أو يعملونه ولا يكثرون فيه من دعاء أحد ، بل تحضرهم الناس بنوع المحبة قصد كثرة الرحمة على والدهم أو جدهم مثلاً ، رياء وسمعة.

وكثيراً ما يقع الناس في غيبة صاحب المولد ، ويقولون: هذا المولد لغير الله ، إنما عملوه رياء وسمعة لكثرة القرائن الدالة على ذلك.

ومنها: أن لا يفوت ذلك لعالم مصلحة أخرى أعظم من مصلحة حضوره ، فإنه ربما كان مشغولاً بتأليف كلام في الشريعة ، أو تحرير فتوى تنفع الناس ، ونحو ذلك ، فيحضر من غير قلب ولا نية صالحة.

ورأيت بعض طلبة العلم إذا دعوه يأتي بكراريسه ، فيصير يطالع طول ليلته لا يلقي باله إلى ما يفعل في ذلك المولد ، فأي فائدة للحضور.

ومنها: أن يغلب على ظن الداعي أن المدعو يجيبه للحضور ، لا سيما في وليمة العرس ، فإن لم يغلب على ظنه أنه يجيبه فقد يعرضه للإثم إن لم يحضر ، ولو أنه لم يدع الناس أو دعاهم على سبيل التخيير لم يكن بذلك بأس.

ومنها: أن لا يدعو صاحب المولد إلا من يعلم أنه إذا دعاه الآخر إلى وليمته حضر ، فإن

غلب على ظنه أن أخاه إذا دعاه إلى وليمته لا يجيبه ، فلا ينبغي له أن يدعوه ، لئلا يتحمل منته ، ويوقع الناس في اللوث فيه ، لأن هيئته حينئذ تصير كهيئة المتكبرين ، فيطلب من الناس الحضور عنده ، ولا يحضر هو عندهم ، وقد قال العقلاء:

مـــــن جـــــاء إليـــــك فـــــرح إليـــــه ومـــــن جفـــــاك فصـــــد عنـــــه

أي عملاً بالعدل في ذلك من طريق المقابلة.

فإياك يا أخي أن تدعو أحد إلا بهذه الشروط ونحوها مما هو مقرر في كتب الفقه.

وسمعت أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: إياك أن تدعو أحداً من العلماء والصالحين الذين طعنوا في السن إلى حضور وليمة على سبيل البيات عندك ، فربما كان أحدهم به سلسل بول ، أو له أعمال خفية لا يطلع عليها إلا الله تعالى ، فيشق عليهم ذلك ، فإن أظهر أحدهم عمله في تلك الليلة للناس نقص أجره؛ لأن عمل السر يضاعف وإن تركه بالكلية فاته الأجر ، ثم لا يخفى عليك أيضاً أن من طعن في السن فقد أشرف على معترك المنايا ، وضاق وقته عن حضور الموالد ونحوها من الأماكن التي يقرأ فيها القرآن العظيم ، فكيف بمن يدعو العلماء والصالحين إلى زفة ختان ، أو تزويج ، فتأمل ، فإن الزفاف إنما يشرع حضوره للنساء فتزف الزوجة إلى بيت زوجها.

إذا علمت ذلك فحرر يا أخي النية الصالحة في عمل الموالد ، واجمع آلات الطعام من وجه حل ، وادع الفقراء والمساكين دون تخصيص وجوه الناس ، فإنه أفضل لك ، وما رأيت مولداً أفضل ولا أخف كلفة ، من مولد شيخنا نور الدين الشوني رضي الله تعالى عنه ، فيتعشى أصحابه في بيوتهم ، ثم يحضرون ، فيجلسون بين يدي قبره على طهارة ما بين قراءة قرآن ، وصلاة على رسول الله ﷺ ، وذكر الله عز وجل ، من العشاء إلى الفجر ، وما هناك أحد يراعونه في الحضور إلا الله تبارك وتعالى ، فرضي الله عنهم ، وعن شيخهم ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: رحمتي لعدوي ، وتأثري لأجله إذا نزل عليه بلاء ، لعلمي أنه لا يخلو من حالين: إما أن تكون عداوته لي بحق ، فكراهتي له حمق ورعونة نفس ، وإما أن تكون عداوته بغير حق ، فهو مسكين مبتلى في دينه ، فالواجب علي مسامحته ، ورحمته ، والدعاء له ، لا الغضب والدعاء عليه ، زيادة على ما هو فيه.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا يكمل حال الفقير حتى يصير جميع حركاته وسكناته في كفة الحسنات ، فلا يتعطل العمل بشيء مما يزيد في حسناته ، فلا ينقص له أجر.

ومما وقع أن الكاشف إسكندر بالغربية ، شكا إليّ من قاضي إقليمه ، فمات القاضي بعد

ثلاثة أيام فجاء لي وحزن عليه ، فقلت له : ما هذا الحال وأنت أمس تشكو منه؟ فقال : شخص أراد أن يؤذيني فما سمع الله منه ، فكيف أتكدر منه ولا بيده حل ولا ربط ، انتهى ، فأعجبني قوة يقينه .

وقد بلغنا عن أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه ، أنه كان يقول : لو جلس عن يميني أحب الناس إليّ يكلمني بأطيب الكلام ، ويبخرني بالند والعنبر ، ويطعمني أطيب الطعام ، ويسقيني ألذ الشراب ، ثم جلس عن يساري من كان بالضد من ذلك ، وصار يقرض جسمي بمقاريض من نار ، ما زاد عندي من على يميني ، ولا نقص عندي من على يساري ، لشهودي كلا الحالتين من الله عز وجل .

وهذا المقام لا يثبت فيه إلا من كان مطمح بصره ببادىء الرأي إن كل شيء وقع له من الله تعالى ، قبل شهود ذلك من الخلق ، وكل شيء فحينئذ يصير لا يتلفت إلى الخلق فكل شيء شاءه الله على أيديهم من الأذى فهو فعل الله تعالى ، لا فعل الخلق ، ثم لا يخفى عليك يا أخي أن الإنسان ولو بلغ في العلم والصلاح مقام سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، فلا بد له من محب ومبغض ، شاء أم أبى ، فمن الجهل أن يطلب الإنسان من الخلق كلهم أن يكونوا محبين له ، فإن ذلك لم يصح لأحد من الأكابر فضلاً عن الأصاغر .

وكان شخص يبغض الإمام علياً رضي الله تعالى عنه ، ويقع فيه ، فجمعهما يوماً مجلس ، فصار يثني على الإمام عليّ ، فلما فرغ من ذلك ، قال له الإمام : أنا فوق ما في نفسك ، ودون ما تقول ، انتهى .

ولما استخفى الإمام مالك رضي الله عنه أيام المحنة ، قال لابن القاسم : ماذا تسمع الناس يقولون فيّ؟ فقال : من يحبك لا يذكرك إلا بخير ، ومن يبغضك لا يخافك حاله ، فقال الإمام : الحمد لله : ما زال الناس كذلك ، لهم محب ومبغض ، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها بالذم ، انتهى ، فالحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ : مبادرتي إلى إقامة الحجة على نفسي دون الله عز وجل إذا ظلمني ظالم ، فلا أقول قط : العبد تحت التقدير ، أو الله فعال لما يريد ، ولا نحو ذلك مما فيه رائحة عدم إقامة الحجة على النفس ، وهذا المقام لا يثبت فيه إلا من تحقق بمقام العبودية ذوقاً ، وأما من تخلق به علماً فقد يحجب عنه ذلك؛ ويتوارى عنه عند وقوع نازلة عليه .

وقد وقع لسليمان بن مهران أنه خرج لصلاة الجمعة ، وعليه ثياب نفيسة ، فصبت عليه جارية من سطح غُسالة تنظيف السمك ، فعمته من عمامته إلى ذيله ، فتبسم فوراً

وكذلك وقع لمالك بن دينار رضي الله تعالى عنه ، إلا أن الجارية صبت عليه رماداً ، فبادر

كذلك ، وقال: لك الفضل يا رب الذي صالحتني على النار بالرماد ، انتهى.

وقد تقدم في هذه المنن أن من الأدب إذا نزل على العبد بلاء أن يتعرف سببه من الله عز وجل ، فإن رأى سبب ذلك ذنباً بادر إلى التوبة منه وإن رآه اختباراً من الله تعالى له استعان بالله تعالى على دفعه عنه ، أو سأل الله تعالى الصبر عليه إن كان قد حق به التقدير في علم الله عز وجل ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

فعلم أن ذلك الظالم ما ظلمنا إلا بذنوبنا ، وذلك في الحقيقة جزاء على أعمالنا لا ظلم لنا ، وأن اشتغالنا بسبب الظالم أو مقابلته جهل منا ، لغلظ حجابنا ، وإلا فلو رق حجابنا لرأينا حكم الظلمة في هذه الدار حكم زبانية جهنم على حد سواء ، من حيث إنهم ما عذبونا إلا بذنوبنا ، وسوء أدبنا ، فكما لا يسمي الناس زبانية جهنم ، هناك ظلمة ، فكذلك ينبغي لمن كشف حجابه أن لا يسميهم بذلك ، فإن البحر واحد ، لكن لابد من نسبة الظلم إلى من ظلمنا في هذه الدار لأجل نسبة التكليف ، بخلاف الزبانية ، فإنهم ليسوا في دار تكليف.

فمن أراد أن لا ينزل عليه بلاء ، ولا يسلط الله عليه أحداً ، فليسد الباب الذي يدخل له منه الجزاء الذي يسؤه. وذلك بترك المعاصي جملة ، فلا يكون في ظاهره ولا في سريرته شيء يكرهه الله أبداً ، وقد قالوا: من عقل العاقل إذا أراد أن ينزح حوضاً من الماء المنتن أن يسد الميزاب الذي ينزل منه ذلك الماء ، ثم ينزحه ، وإلا فكل شيء نزحه نزل من الميزاب بدله.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: من جهل عظمة الذنب الذي وقع فيه ، وعوقت من أجله ، فلينظر إلى كبر العقوبة وصغرها ، فإن كانت العقوبة عظيمة فالذنب عظيم ، وإن كانت صغيرة فالذنب صغير ، يعني من حيث صغره في رأي العين ، لا بالنظر لما عند الله تعالى ، فقد يؤاخذ الله تعالى العبد على ذنب صغير ، ويسامحه في الكبير ، انتهى.

وقد ذكرنا فيما تقدم في هذه المنن أنه ليس لمن يدعي أنه مظلوم دواء أنفع له من كثرة الاستغفار؛ لأن غالب العقوبات كالضرب والحبس والخزي إنما هي من أثر غضب الحق تبارك وتعالى ، ولو لم يشعر بعض العبيد بذلك ، وما خرج عن هذه القاعدة إلا الأنبياء ، وكُمَّل ورثتهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فليس ما يصيبهم عن إغضاب من الحق تبارك وتعالى لعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وحفظ الأولياء رضي الله تعالى عنهم ، وليس لمن أغضب ربه دواء إلا الاستغفار ، فإذا أكثر العبد من الاستغفار إلى الحد الذي يطفىء الغضب الإلهي العارض له ، ذهبت عنه العقوبة من وقتها.

وقد علمت هذه الفائدة لكثير من أهل الحبوس ، فأسرع بخروجهم ، وقلت لهم: اجعلوا وردكم الاستغفار ليلاً ونهاراً ، فإن طول مدة الحبس قد تكون معلقة على ترك الاستغفار ليلاً

ونهاراً ، وعدم رؤية الإنسان ذنبه ، فيطول حبس أحدهم ، كما عليه أصحاب الجرائم الغلف القلوب ، فيقول أحدهم: حبسوني ظلماً لا ذنباً ولا سيئة ، ولذلك طال حبسهم.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن عقوبة أهل الله عز وجل أشد من عقوبة غيرهم ، لعلو مقامهم ، وعظم زلتهم التي يستصغرها غيرهم ، بل ربما كان غير أهل الله لا يعدون ما يستعظمه أهل الله إذا وقعوا فيه ذنباً أصلاً ، لصغره في أعينهم ، والقاعدة أن كل من عظمت مرتبته عظمت صغيرته ، فربما يتناول أحد من أهل الله تعالى شهوة مباحة مرة واحدة ، فتقطع يده ، وربما يسرق غيرهم النصاب مراراً فلا تقطع له يد.

وقد نمت مرة على جنابة في ليلة عرفة ، فرأيت في المنام كأني تائه في مكان خرب لا أهتدي للخروج منه ، ثم أتيت بإناء فيه خمرة فشربت منه ثم حصل لي ندم في النوم ، حتى كدت أهلك ، وقلت لنفسي: كيف تشربي الخمر في ليلة عرفة ، فلما استيقظت ، وعلمت أن ذلك في النوم ، وفي عيني قطرة ، فرحت بذلك ، وعلمت أن الميزان بالتأديب منصوب على رحمة بي ، وشفقة عليّ ، لأني كاليتيم في حجر تربية وليه ، وولي اليتيم قد يضره ليدفع عنه الوقوع فيما هو أشد من الضرب ، بخلاف من كان الحق تبارك وتعالى غير ولي له ، فقد ينام على جنابة وغل وحقد وحسد وبغي وغش ومحبة للدنيا ، ونحو ذلك ، ولا يريه الله تعالى شيئاً من ذلك في منامه.

فإياك يا أخي أن تقول: هنيئاً لأهل الله تعالى حين تراهم مستريحين في الظاهر من أمور الدنيا ، فإن تعبهم في الباطن لا يقاومه تعب ، فإن كان ولابد لك من أن تغبطهم فاغبطهم على كثرة الطاعات ، والحمد لله رب العالمين.

فعلم أن قول العبد إن وقع في معصية: إيش أعمل ، هذا كان مقدراً علي قبل أن أخلق ، سوء أدب مع الله تبارك وتعالى ، لما فيه من رائحة عدم إقامة الحجة على نفسه بل من الواجب عليه أن يفر إلى الله تعالى أن يقيل عثرته ، ويغفر زلته ، هذا هو الذي كلف به ، وبإفشائه في هذه الدار ، فإن كون الأمور بتقدير الله تبارك وتعالى تحصيل الحاصل ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] وقد ذم الله تبارك وتعالى الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥] وإن كان ذلك القول حقاً في نفسه ، لكنه حق أريد به باطل ، وهذا الخلق غريب من الفقراء ، بل غالبهم يسلم لله تعالى على كره ، ويقول: العبد مجبور في عين اختياره ، وربما ينشد قول بعضهم:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

وربما قال أيضاً المثل السائر: يد لا تقدر على عضها قبلها ، ونحو ذلك ، وكل ذلك

لا يجوز عند المحققين؛ لأنه فيه رائحة عدم إقامة العبد حجة الله على نفسه ، فإياك من مثل ذلك ، ثم إياك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حمايتي من إظهار الحسد لأحد من أقراني إذا أقبلت الدنيا وأهلها عليه دوني ، وكثر جاهه عند الأمراء والأكابر ، لكثرة ما يرونه من أوصافه الجميلة ، بل ازداد فيه محبة وتعظيماً ، أدباً مع الله تبارك وتعالى الذي خلع عليه خلعة العز والقبول بين عباده ، لا سيما إن رزقه كثرة العلم والعمل ، ولو تأمل الحاسد بعين الإنصاف والعقل لرأى أن الحسد على مجالسة ذلك الفقير لربه عز وجل صباحاً ومساء وغير ذلك ، أولى من الحسد على مجالسة جندي من جنود السلطان كالباشا أو الدفتردار ، ولكن الحاسد أعمى عن أمور الآخرة ، فلا ينظر إلى أحوال الدنيا.

لما طلعت في حادثة للوزير علي الباشا بمصر في سنة ستين وتسعمائة ، ثار الحسدة عليّ بالحسد من كل جانب ، حتى بعض العلماء والفقراء ، فقلت لهم: كيف تحسدوني على إقبال جندي عليّ ، ومجالستي له ، ولا تحسدوني على مجالسة الله عز وجل ، ومجالسة رسوله ﷺ في أورادي نحو خمسين سنة ، فخجلوا ، وهذا الداء قل من يسلم منه لغفلة غالب الناس عن الله تبارك وتعالى ، وعن أحوال الدار الآخرة ، فنرى أحدهم يكاد يتميز من الغيظ إذا رأى الأمراء والأكابر عكفوا على أحد من أقرانهم بالاعتقاد والمحبة ، ولا يتغير منه شعرة لو رآه جالساً في ورده مع الله تبارك وتعالى ليلاً ونهاراً.

ومن فعل ذلك مع أقرانه لا يزداد بذلك إلا تأخيراً إلى وراء ، ولو أنه أنصف لنظر في الصفات التي قدموا بها ذلك المحسود ، وفضلوه بها عليه ، وتخلق بها فربما كان يحصل له الإقبال من الناس كذلك ، وإن لم يكن ذلك مقصوداً له بالأصالة لأنه شوب من الرياء ، على أن كثرة اعتقاد الناس فالعالم أو الصالح ربما ينقص به رأس ماله من الدين ، ويقال له يوم القيامة: اذهب فقد استوفيت أجر أعمالك الصالحة بإقبال الناس عليك ، وتعظيمهم لك ، ونشاطهم في قضاء حوائجك ، ونحو ذلك.

فعلم أن كل من ادعى أنه من أهل حضرة الله عز وجل ، وحسده أحداً من الناس فهو كاذب؛ لأن من شأن أهل الله تعالى أنهم يعظمون كل من خلع الله عليه خلعة ، ومن لم يعظمه فهو مطرود عن حضرة الله عز وجل ، عدو له تعالى.

وقد كان بشر الحافي رضي الله تعالى عنه يقول: أقدر بحمد الله تعالى على أن أرضي سائر الناس في أمر الدنيا ، فكلما طلبوا مني شيئاً تركته لهم ، ولا أقدر قط على رضا حاسدي؛ لأنه لا يرضيه إلا زوال النعمة عني ، وذلك ليس في يدي ، انتهى.

واعلم يا أخي أن من علامة الحاسد أنه لا يقدر على أن يصور عليك بحق دعوى شرعية ،

لا عند الله ، ولا عند أحد من الحكام أبداً ، وإنما يصير يذمك وينقصك في المجالس ، ثم إذا قال له الناس: أي شيء بينك وبين فلان حتى وقع منك في حقه هذا كله؟ فلا يقدر يحرر عليك بحق دعوى تسمع أبداً ، وربما يقول: ما كل ما يعلم يقال ، وهذه ميزان تطيش على الذر ، فكل من رأيته بهذه الحالة فأرح نفسك من طلبك منه أن يصفو لك ، فإنه كالمحال ، وإنما قلنا أول المبحث حمايتي من إظهار الحسد ، دون قولنا حمايتي من الحسد ، لعلمي بأن في كل إنسان جزءاً يحسد الناس لا يمكن إزالته منه ، ولو جاهد نفسه الغاية ، وما خرج عن ذلك إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لكن إذا اعتنى الله تبارك وتعالى بعبد من عبيده عطل منه ذلك الجزء عن الاستعمال ، فيخمد لا غير ، فافهم ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تكدري ممن ناداني باسم المجرد عن الكنية أو اللقب أو الشياخة أو السادة ، أو نحو ذلك ، لعلمي بأن نداء الإنسان باسمه المجرد عما ذكرنا هو الصدق المحض ، بخلاف الألقاب والكنى ، فإنها ربما دخلها الكذب إلا بتأويل بعيد ، وقل من يقبلها من الناس.

وقد درج السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم على محبتهم لنداء بعضهم بعضاً بالأسماء المجردة ، ويقول أحدهم لمن ناداه بذلك: لبيك ، وماذا يغني من يفرح بقول الناس له: يا شمس الدين ، يا نور الدين ، يا سراج الدين ، وقد يكون سبق في علم الله تبارك وتعالى أنه يكون فحمة من فحم جهنم.

وكان الحافظ عثمان الديلمي ، والشيخ عثمان الحطاب ، يناديان بعضهما بقولهما يا عثمان ، فيقول له الآخر: ملك يا عثمان ، وكل منهما غافل عن اللقب والكنية ، رضي الله تعالى عنهما.

وإنما لم نقل بتحريم الألقاب؛ لأن الكذب فيها غير محقق ، فإنه ربما يريد الإنسان بقوله لآخر: يا شمس الدين ، أو يا نور الدين ، أن به ظهور شعار الدين في الجملة؛ لأنه ممن كثر به سواد الإسلام ، وذلك لا كذب فيه ، كما في نحو كمال الدين ، وقطب الدين مثلاً ، أو يريد أنه شمس دين نفسه ، أو نور دين نفسه ، أو قطب دين نفسه فقط ، وهكذا في سائر الألقاب.

ويؤيد ذلك قول بعض العارفين: إن كل مسلم له نصيب من سائر مقامات الأولياء ، ولا يصح تعريته عن المقام جملة ، فهو يخاف الله على قدر ما رزقه الله من الخوف ، ويزهد في الدنيا على قدر ما رزقه الله من الزهد ، ويخشع لله على قدر ما رزقه الله من الخشوع ، وهكذا ، وإنما يقول بعضهم: ليس عند فلان خشوع ، يعني بالنسبة إلى من هو أخشع منه من

الصحابة والتابعين والعلماء العاملين ، فلأجل ما ذكرناه من احتمال الصدق ، قلنا: بعدم تحريم اللقب.

ثم لا يخفى أن هذا الكلام في عرف هذا الزمان إنما هو في حق الأقران ، أما شيخ الإنسان ، فمن الأدب أن ينادى بلفظ السيادة والتفخيم والتعظيم ، كما درج عليه السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم.

وقد نقل الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى أن أول لقب وقع في الإسلام تلقيب رسول الله ﷺ لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بعتيق ، لعتاقة وجهه أي حسنه.

وذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى أن رسول الله ﷺ لقب أبا بكر رضي الله تعالى عنه بالصديق ، وسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه بالفاروق ، وعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه بذي النورين ، وخالد بن الوليد بسيف الله ، وحمزة بأسد الله ، وجعفر بذي الجناحين ، ولقب الأوس والخزرج بالأنصار ، فغلب عليهم ذلك اللقب ، ولقب الحسن البصري محمد بن واسع بزين القراء ، ولقب سفيان الثوري المعافى بن عمران بياقوتة العلماء ، ومحمد بن يوسف بعروس الزهاد ، وكان لقب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ناصر الحديث ، وكان لقب ابن شريح الباز الأشهب ، انتهى والله أعلم.

فافهم ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم نفرة نفسي من عشرة المخنثين ؛ لأنهم أصحاب أمراض ، فربما ازدراهم أحد ، فابتلاه الله تعالى بمثل ما ابتلاهم ، ويسمى المرض بالابنة عند الأطباء ، وعلاج هذا المرض أن ينقع له جلود السمك القديد ثلاثة أيام ، ثم يغلى على النار ، يحقن به ثلاث مرات ، فإنه مجرب لزوال هذا المرض ، فإن لم يطعنا في مداواته فهو صاحب بلاء في بلاء ، فعشرتنا له ومسارقتنا له بالنصح أولى من بعدنا عنه، كما سيأتي بسطه في نعمة خفضنا الجناح لأصحاب الكتب، فراجعه.

وقد كان عطاء السلمي التابعي الجليل رضي الله تعالى عنه يعاشر المخنثين ، ويستخدمهم داخل البيت ، ويقول: والله لهم أحسن حالاً مني ، إذا لامه أحد على ذلك ، وكذلك كان يفعل غيره ، يقول إذا لاموه: والله لهم أطهر عندي من نفسي ، انتهى.

ثم إن هذا الخلق لا يقدر على العمل به إلا من كنس بروحه المزابل ، ونظر إلى مساويه دون مساوي الناس ، ولم يطلب عند الناس مقاماً ، وممن رأيته على هذا القدم من أهل عصري أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى ، كان إذا رأى مخنثاً ، أو صاحب كتبة أو رذيلة ، يسأله الدعاء ، ويقول: قد أمرنا أن نطلب الدعاء من خيارنا ، وهذا خير مني عند

نفسي ، فقلت له: قد اشتهر هذا بالمعاصي ، فقال: أنا ما رأيته يعصي أبداً ، ولا ثبت ذلك عندي ببينة ، ثم بتقدير ثبوت ارتكابه شيئاً من المعاصي ، فيحتمل أنه يتوب عند كل معصية.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا يسيء أحد الظن بأحد في شيء منقص ، ويقبل ذلك في حق أخيه إلا وهو صورة حاله هو في نفسه ، فإما وقع في ذلك ، وإما عزم عليه ، وإما خطر له لأن المؤمن مرآة المؤمن ، اللهم إلا أن يراه على معصية معينة ، فالأمر ظاهر ، لكن لا يجوز له أن يحدث غيره بذلك إلا لغرض شرعي ، وسيأتي في مبحث نعمة خفض الجناح لأصحاب الكتب ، أن أهل المعاصي ضالة كل داع إلى الله تعالى ، فهو يطلبهم ليصحبهم ، ويسارقهم بتقويم عوجهم ، يتخولهم بالموعظة الحسنة ، بخلاف من ينفر منهم ، ويزدريهم ، فإن ذلك لا فائدة فيه ، لا له ولا لهم ، فاعلم ذلك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: محبتي للعالم الذي أنكر علي ما لا يعرفه من علوم القوم؛ لأنه إنما أنكر علي شفقة على ديني في نفسه ، بقدر وسعه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، فاعلم ذلك ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: أني إذا تفرست ممن يقرأ عليّ علماً أنه غير مخلص فيه ، ولو بالقرائن ، توجهت إلى الله تبارك وتعالى وسألته ، أن يمن عليه بالإخلاص ، ثم أقول: اللهم إن كان سبق في علمك أنه يكون غير مخلص في علمه ، فأسألك من فضلك أن تمحو من قلبه جميع ما تعلمه مني ، أو من غيري ، لما ورد أن مثل ذلك يكون زاد صاحبه إلى النار ، ثم أقول: وإن كان سبق في علمك عدم المحو يا رب ، فأسألك أن تلهمه التوبة والاستغفار ، فإن كان سبق في علمك عدم توبته واستغفاره ، فأسألك يا رب أن تمن عليه بتعليمه لمن يعمل به ، فإن لم يكن ذلك سبق في علمك فأسألك أن تدخله في رحمتك التي وسعت كل شيء ، وهي رحمة الامتنان التي ليست في مقابلة عمل ، وهي التي أعدها الله تبارك وتعالى لمن مات مصراً على الكبائر ، من معاصي الإسلام.

وهذا الخلق لم أجد له فاعلاً ، وإنما فعلته لتخلقي بالرحمة على جميع المسلمين ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عزمي على العمل بعلم كل عالم رأيته لا يحتفل بالعمل بما علمه ، فأساعده على تحصيل ثواب علمه بعملي أنا به ، أو بتعليمه لمن يعمل به ، فيكتب ثواب ذلك لذلك العالم ، كل ذلك لوفور شفقتي على الإخوان.

وتقدم في هذه المنن أن مما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ أني أتشوش على نقص دين إخواني إذا نقص ، أكثر مما يتشوشون هم على ذلك ، فإن أحدهم يقع في المخالفة

ويضحك ، ويأكل وينبسط ، وإذا بلغني أنا ذلك كنت بالضد من ذلك ، فأنا أشفق على دينه منه ، وصاحب هذا المشهد وارث لبعض مقام رسول الله ﷺ ، في كونه أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وهنا نكتة غريبة أنبهك عليها ، وهي أن تعلم أنه لا يمكن لعالم ترك العمل بعلمه من كل وجه أبداً ما دام مكلفاً ، فإنه إذا لم يعمل بعلمه من طريق المأمورات ، والمنهيات الشرعية بالامتثال والاجتناب ، عمل بعلمه من طريق أخرى ، وهي أنه لا بد له من الندم والاستغفار إذا وقع في المعصية ، فلولا علمه بتحريم ذلك الفعل ما اهتدى للتوبة والندم والاستغفار ، فعلمه بالتحريم هو الذي جعله يتوب ويستغفر ، فقد عمل هذا بعلمه من هذا الوجه ، لكن بعد وقوعه في المعصية ، وأخص من ذلك أنا لو فرضنا عدم توبته ، فاعتقاده المعصية معصية عمل بالعلم ، إذ لو علمه ما اعتقد أن المعصية معصية ، وذلك الاعتقاد ينفعه في الجملة؛ لأنه من فوائد الإسلام ، والمسلم من يرجى له الخير ، أما المستحل فهو كافر ، وهو عمل بالعلم خفي غريب ، قل من يتنبه له ، وغالب الناس لا يسمي العالم بعلمه إلا من لا يخل بشيء من المأمورات ، ولا يقع في شيء من المنهيات ، وأما من وقع في المنهيات ثم تاب ، فلا يسمونه عاملاً بعلمه أبداً ، فعلم أن عدم العمل بالعلم جملة ، إنما يكون لغير المكلف ، أو لمن أصر على الذنوب ، ولم يتب منها ، ولم يندم حتى مات من غير توبة ، أما من وقع في معصية ثم تاب ، فقد عمل بعلمه حسب طاقته ، فمن الناس من حفظ ، ومن الناس من لم يحفظ ، إذا علمت ما قررناه ، فاعلم يا أخي العلم بقصد نفعك به أولاً ، ثم نفع غيرك به ثانياً، ثم الدوام على العمل به ثالثاً، والله تعالى يتولى هداك، وهو يتولى الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم إصغائي إلى قول عدو ما لا ينبغي في عدوه ، بل بمجرد ما يتلفظ بالنقص ، أعرف أنه عدو جاءني يذكر عدوه عندي بسوء ليحملني الإثم معه ، عكس إصغائي لكلام المحبين ، فإنه بمجرد ما ينطق أعرف أنه محب ، فأصغي له ، حتى يفرغ ، ولو أنني كنت أعرف ما في نفس العدو قبل أن ينطق ما تركته ينطق بكلمة.

وهذا الخلق قل من يتنبه له ، بل غالب الناس يستلذون بكلام العدو في عدوه ، كما يستلذون بالجماع ، ثم يصيرون يحكون تلك النقائص لمن لم يعلم بها ، حتى يملأوا بها أسماع من يذكرونها له من الخلائق ، ويقولون : ما دريتم ما وقع لفلان ، ذكر لنا فلان أنه وقع في كذا كذا ، وغاب عنهم أن ذلك من جملة الغيبة التي لا تجوز بإجماع المسلمين ، ثم إن بعضهم يخاف أن يلوث به الناس في ذكرهم نقائص ذلك العدو ، فيصير يحكي ذلك لغيره في أذنه ، ويقول له: لا تُعْلِم بذلك أحد ، ثم إن ذلك الغير يسره كذلك إلى آخره ، وهكذا ،

فالحمد لله الذي عافانا من مثل ذلك ، ونسأل الله الحفظ إلى الممات ، والحمد لله رب العالمين.

ثم من أقل ما يحصل للسامع من سماع كلام العدو في عدوه ، وإن لم يصدقه تشخص ذلك النقص في ذهن السامع ، فيريد بعد ذلك أن يجعله كالذي لم يجرح ، بنقص في ذهن السامع ، فلا يقدر على ذلك ، فإنه كلما يربد أن يعظمه يتذكر كلام ذلك العدو فيه ، فينتقص مقامه عنده ضرورة.

فاعلم يا أخي ذلك ، وإياك أن تنقل لأمير ما قاله الأعداء في فقير أو عالم يشفع عند ذلك الأمير ، فإنه ينبني على ذلك مفاسد ، أقلها أنه يصير يخل بقبول شفاعته في الناس ، كما وقع ذلك لجماعة من إخواننا ، فينبغي لمن ليس له حال قاهر يحميه عند الحكام عن نقصه في أعينهم ، أن يرسل أحداً من إخوانه إلى ذلك الأمير ليزيل ما عنده ، ويخبره بأن ذلك الكلام الذي بلغه من كلام الأعداء باطل لا حقيقة له ، بخلاف من له حال قاهر يحميه ، فإنه لا يحتاج إلى مثل ذلك.

ولما أرسل بعض الأعداء ورقة إلى الباشا علي يذكر فيها أن عبد الوهاب نصاب شيطان ، فإياكم أن تقربوه منكم ، قال الباشا: أنا لم أرجع في هذا الرجل إلى قول أحد ، إنما رجعت إلى قلبي ، فإني أعلم أن للمشايخ أعداء ، وللعلماء أعداء ، وللأمراء أعداء ، وللباشا أعداء ، ولم يقبل من الأعداء ما رموني به ، وهذا الأمر قل أن يقع من أمثاله ، فجزاه الله تعالى عني خيراً ، وقبل شفاعاتي بعد ذلك إلى وقتي هذا ، فاعلم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: مخالطتي لعدوي في السر إذا ادعى محبتي ظاهراً ، أو تطويل روحي عليه ، وإيهامه أنني صدقته في دعواه المحبة لي ، ولا أوهمه غير ذلك ، فضلاً عن أن أقول له: تكذب في دعواك هذه ، ويحتاج صاحب هذا الخلق إلى ضبط جوارحه ، خوفاً من ذلك العدو ، فربما يكون قصده بمخالطتنا الاطلاع على زلاتنا ليهجونا بها إذا فارقنا ، كما هو الغالب على الناس في هذا الزمان.

وكان الإمام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: من خدعنا انخدعنا له.

وفي كلام الحكماء: العاقل من يقدم التجريب قبل التقريب ، انتهى.

وقد جربت أنا خلقاً كثيراً وفارقوني وصاروا أعداء جهراً ، وصاروا إذا عجزوا عن كون الناس يقبلون في ما يصفونني به يرمونني بالزور والبهتان.

وفي كلام الشيخ أبي الفتح البستي رحمه الله تعالى:

مــن عــاشــر النــاس لاقــى منهــم نصبــاً فجــل إخــوان هــذا العصــر خــوان

مـن استنـام إلـى الأشـرار نـام وفـي ... قميصـه منهـم صـل وثعبـان

وفي كلام الطغرائي في لامية العجم ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة :

أعـدا عـدوك أدنـى مـن وثقـت بـه ... فحـاذر النـاس واصحبهـم علـى دخـل
فـإنمـا رجـل الـدنيـا وواحـدهـا ... مـن لا يعـول فـي الـدنيا علـى رجـل
وحسـن ظنـك بـالأيـام معجـزة ... فظـن شـراً وكـن منهـا علـى وجـل
غـاض الـوفـاء وفـاض الغـدر وانفـرجـت ... مسـافـة الخلـف بيـن القـول والعمـل

إلى آخر ما قال ، فاعلمه ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم تكديري من صاحبي إذا عاشر عدوي معاشرة الأحباب ، بل أحمله على أحسن المحامل ، وأقول: لعله إنما صحبه ليسارقه بتحبيبه فيّ ، ثم إن علمت أن ذلك العدو يتأثر منه إذا زارني قلت لصاحبي: لا تزرني هذه الأيام أبداً ، خوفاً على صاحبي من ذلك العدو أن يؤذيه ، وكذلك لا أذهب أنا إلى صاحبي ولو كثر اشتياقي إليه شفقة عليه من ذلك العدو أن يؤذيه ، وقد عملت بذلك مع ولد شيخي الشيخ شهاب الدين الرملي ، رحمه الله تعالى ، فصاحبه شخص ممن يكرهني من المقاريض ، فامتنعت من زيارة ولد شيخي ، ومنعته من المجيء إليّ خوفاً عليه من ذلك المقراض أن يذكره بسوء في مجالس المستهزئين ، وصار كل من قال لي: ما عدنا نراك تجتمع بسيدي محمد بن شيك؟ أقول له: الاجتماع مقدر ، وبعضهم ظنٍ أن بيني وبينه عداوة ، قياساً على أنفسهم ، وليس كذلك .

واعلم يا أخي ليس عندي عداوة لأحد من المسلمين الآن لرؤيتي محاسنهم دون مساويهم ، فلا أكاد أرى لأحد منهم مساوىء أبداً بطريق شرعي ، وإنما الناس هم الذين يعادونني حسداً وعدواناً عليّ ، وإنما أذكر بعض مساوي أهل زماني لشهودي لها في نفسي فعلاً وتقديراً ، فأقول: لعل ذلك يقع لغيري ، وما كان على وجه التحذير دون التشفي ، فذلك مباح ، على أني بحمد الله تعالى لا أذكر إلا نقائص بعض المجهولين من غير تعيين اسمهم ، وسيأتي عن قريب أنه ما ثم عندي أحد من الخلق إلا وهو محسن إليّ ، فمن لم يحسن إليّ بدنياه أحسن إليّ بآخرته ، حين يستغيبني ويقع في عرضي ، فيحكمني الله تعالى في حسناته في الآخرة ، فهذا قد أحسن إليّ وإن لم يقصد هو ذلك .

ثم أنه لا يخفى أنه لا يصح لعارف يرى الله تبارك وتعالى قبل كل شيء وبعد كل شيء ، عداوته لأحد لأنه لا يجد من يرسل عداوته عليه ، بل إن شهد الله قبل كل شيء حجبه عن رؤية ذلك الشيء ، وإن شهده مع كل شيء سقط ذلك الشيء ، كما قال أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: إذا قرن الحادث بالقديم لم يبق للحادث أثر ، وإن شهده تعالى بعد كل شيء على الأثر فلا يجد زمناً يثبت فيه أفعال الخلق لهم دون الله تعالى ، ليرسل عليهم عدوانه ، فافهم .

وكل من ادعى مقام العرفان ، ورأيناه يكره أحداً بغير طريق شرعي فهو كاذب في دعواه المعرفة ، واعلم يا أخي أن العداوة مأخوذة من قولهم عدا فلان عن طريق علان ، أي جاوزه ، ولم يوافقه فيما يحب ، وكان أصل ذلك أن الخلق يوم أخذ الميثاق عليهم كانوا على صفات ، فما كان وجهاً لوجه فمحال أن تقع بينهما عداوة ، وما كان ظهراً لظهر فمحال أن يكون بينهما صداقة ، وما كان وجهاً لظهر فصاحب الوجه محب عاشق وصاحب الظهر مبغض سال ، وما كان جنباً لجنب ، أو بإزاء كان بحسب ذلك ، ومن شهد هذا المشهد كشفاً أقام للناس المعاذير ، وإن كانوا مذمومين بعداوتهم شرعاً.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله تعالى عنه يقول: من شأن الكُمَّل إثبات الخلق مع الحق ، ثم إكرامهم لأجل معينه ، ولكل مقام رجال.

فافهم ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة شكري لله عز وجل ، واستغفاري إذا كثر حسادي وأعدائي ، فأشكر الله تبارك وتعالى على تلك النعمة التي حسدوني عليها ، فإني لو كنت في نقمة وضيق معيشة وقلة دين ما حسدوني ، وأستغفر الله تعالى لي ولهم من حيث وقوعهم في حقي بسبب ما عندي من النعمة ، فإنه لولا وجودي ما وقعوا في ذلك الإثم ، لعدم من يحسدونه وينقصونه ، وكذلك أستغفر الله لهم لعل الله يغفر لهم ذنب ذلك الحسد ، فإنه ذنب إبليس الذي أخرج به من الجنة ، ولم أر لهذا الخلق فاعلاً من أقراني إلا القليل ، ويحتاج صاحبه إلى عينين ، عين ينظر بها إلى النعمة ليشكر ، وعين ينظر بها إلى الذنب الذي ذكرناه فيستغفر له ، ولمن حسده ، فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة اهتمامي بتحمل هم عدوي أكثر من اهتمامي بهم صديقي ، وكثرة تحفظي من الغيبة في عدوي أكثر مما أتحفظ من غيبة صديقي ، وكثرة كراهتي لكل شيء يؤذي عدوي على وجه التشفي ، أي لا على وجه التكفير والتطهير له ، وهذا الخلق غريب في الناس اليوم ، بل لم أجد له فاعلاً غيري ، وإيضاح ما قلناه أنني لما تخلقت بالرحمة والشفقة على جميع العالم كل أحد بما يناسبه ، وصرت أحمل هم عدوي إذا استعان بي واستنصرني في ضرورة نزلت به ، أكثر من صديقي ، لكون الحق عز وجل أحوجه إلي بعد أن كان يظهر الاستغناء عني ، فكيف لا أحمل همه ، وقد نصرني الله تبارك وتعالى عليه ، وأذله بين يدي ، حتى صار يسألني أن أدعو له بعد أن كان يعتقد أن دعائي لا يجاب من شدة العداوة ، ووالله إني لأكاد أذوب إذا جاءني عدو وذل بين يدي ، وسألني إن أرد ذلك الظالم عنه مثلاً ، وكثيراً ما أحس برأسي يضرب بطبر ليلاً ونهاراً حتى تقضى حاجة ذلك العدو ، ويزول عنه الغم والهم ، وإنما كنت أحس برأسي يضرب بطبر لعدم استحقاقه الشفاعة فيه لما جناه عليّ ، فلذلك كنت أتعب في قضاء حاجته أكثر من المحب.

وقد كان سيدي محمد الشناوي رحمه الله تعالى يقول: إن يوماً يحتاج إليّ فيه عدوي لدفع ما أستطيعه من الضر عنه ليوم عيد.

وأما وجه كوني أحفظ نفسي من عيبة عدوي أكثر من صديقي فلأن صديقي يسهل عليه العفو عني، بخلاف العدو، فعلم من ذلك أن من اغتاب عدوه أو سعى إلى تنقيص أحد فيه، وادعى العقل فهو كاذب، فضلاً عن الصلاح والعرفان، وقد أجمع مشايخ الطريق على أنه لا يكمل عقل الإنسان حتى لا يصير كاتب الشمال يجد شيئاً يكتبه أبداً، وكيف يدعي العقل من يورد نفسه موارد الهلاك، أو يدعي الصلاح من يؤذي الناس، ولا يتحمل الأذى منهم، فإن من شرط البر أن لا يؤذي الذر.

وأما وجه كوني أكره كل شيء يؤذي عدوي، فهو لكوني أرى الحظ والمصلحة لي في ذلك لا لعدوي، فلا أمكن أحداً يذكرني عند عدوي بشيء من أنواع التعظيم قط، لأن ذلك يغمه، وكذلك لا ألبس الثياب الفاخرة المبخرة وأمر عليه، وكذلك لا أضحك، ولا أجمع أحداً على طعامي بقصد إكماده، وكذلك لا أصاحب له عدواً، ولا أستميل عنه صديقاً إلا بطريق شرعي، فإن مصاحبة الإنسان لعدو عدوه زيادة إثم لهما، ومصاحبته لصديق عدوه تحرك عنده الكراهة من جهة مصادقته لغدوه، فبعد الإنسان عن أصدقاء عدوه وأعداء عدوه أولى لكل منهما، فاعلم ذلك، واعمل على التخلق به، والله يتولى هداك، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: رد كيد أعدائي في نحورهم من غير توجه مني إلى الله تبارك وتعالى في أن يأخذ لي حقي منهم، ولم تزل الأعداء والحساد يعملون لي المكايد، ويحفرون لي المهالك، فيرد نظير ذلك عليهم، وتشمت الناس فيهم، كما مرَّ أوائل هذه المنن، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليّ وعليهم، أما عليّ فظاهر، وأما عليهم فلتطيهرهم بذلك إن شاء الله تعالى مما جنوه في حقي، ومن تأمل نفسه من الفقراء الذين لهم صيت بين الناس، وجد نفسه بين الناس كالبهلوان الماشي على الحبل العالي، وفي رجله قبقاب، وجميع الأقران والحساد واقفون ينتظرون متى يزلق حتى يشمتوا به كلهم، ثم من أشق ما يكون على الفقير إذا زلق بين هؤلاء أن يكون الغالب عليه مراعاة مقامه عند الخلق، فإنه يكاد يذوب من القهر، بخلاف من كان يراعي الحق تعالى، فإن الأذى يخف عليه، ولو أظهروا كلهم الشماتة، فافهم؛ وذلك لأنه محجوب بمراعاة الحق تبارك وتعالى عن الخلق، ولذلك خف على العارفين أمر شماتة الأعداء بهم، وثقل ذلك على المحجوبين، فإن قدر أن عارفاً تكدر من شماتة الخلق فيه فذلك حال حجابه عن ربه عز وجل، وعن الجزء الذي فيه يتكدر من تلك الشماتة، وما وقعت الاستعاذة في السنة إلا من شر الشماتة لا منها، ومن الشر المرتب عليها نقص مقام المشموت به عند الشامت، ولذلك قال السيد الكامل هارون

عليه السلام لأخيه سيدنا موسى ، عليهما وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والسلام ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] خوفاً على أتباعه من التفرقة وعدم الانتفاع به إذا قل تعظيمه ، لا لكونه يتأثر مراعاة لحظ نفسه ، لعصمته من مثل ذلك ، فافهم.

وأعرف في مصر جماعة لم يزالوا يتجسسون على أحوال أقرانهم ، فإذا سمعوا أن أحداً رجع عن اعتقاده فيهم فرحوا بذلك ، وأظهروا الشماتة ، فالحمد لله الذي لم يجعلنا منهم ، وجعلنا ممن يبجل الأقران ويعظمهم ويذكر مناقبهم وفضائلهم ، كما يشهد بذلك كتاب الطبقات الذي وضعته في مناقب المشايخ الذين أدركتهم من الفقهاء والصوفية ، فإني بالغت في مدحتهم ، وذكرتهم بكل وصف جميل ، ولم يفعل أحد منهم ذلك معي ولا مع غيري من الأقران ، فترى بحمد الله تعالى يا أخي مناقبهم تقرأ عندنا في الزاوية ، كما تقرأ مناقب العلماء والأئمة الذين في حلية أبي نعيم ، فيترضى الناس عنهم ، ويترحمون على الأولياء ، فاعلم يا أخي ذلك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: وجود جماعة كثيرة يحبونني وأحبهم ، ويدعون لي في السجود وأدعو لهم ، وأما المعتقدون في فلا يحصي عددهم إلا الله تعالى ، والفرق بين المحب والمعتقد أن المحب هو من يحبك على أي حالة كنت عليها سواء كنت من أولياء الله تعالى أصحاب الكرامات ، أو من عامة المسلمين عرفاً ، كمحبة الوالدة لولدها ، فتحمله على أحسن الأحوال ، ولو رأت فيه نقصاً قالت: خزاك الله يا إبليس ، وتجعل الذنب لإبليس لا لابنها ، فلا تكاد تنقص محبتها بذلك ، وأما المعتقد فإنه إنما علق محبته لك ما دمت على الصراط المستقيم ، فإذا رأى منه خللاً في دينه ، أو عدم كرامات رجع عن اعتقاده فيه ، لزوال تلك الصفات التي اعتقده لأجلها ، فافهم ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة رؤيا جماعة من الأمراء والفقراء والعلماء لي المرائي الحسنة ، لما دس الحسدة في كتب ما دسوا ، وأنكر الناس عليّ ، لظنهم أن ما دسوه من العقائد الزائغة صدر عني ، وكان ذلك من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليّ ، فإنه أزال ما كان وقر في نفوس المتهورين ، وخفف منهم الإثم ، لا سيما أهل الجامع الأزهر ، فإن من شأنهم شدة القيام في الدين ، ومما رآه الأخ الصالح الشيخ محمد التلاوي المالكي ، وأخبرني به أنه رآني راكباً فرساً عظيماً ، والشيخ شهاب الدين البلقيني بين يدي قائداً بي ماسكاً لجام الفرس بيده ، وجميع أهل الجامع الأزهر بين يدي يميناً وشمالاً ، قال: فسألت الشيخ شهاب الدين عن هذا الراكب ، وعن الناس الماشين حوله ، فقال: الراكب عبد الوهاب ، قد شفع في أهل الجامع الأزهر كلهم ، وهو ذاهب بهم إلى الجنة ، انتهى.

فإن صح منامه ، فإمساك الشيخ شهاب الدين البلقيني لجام فرسي إنما هو ليعلمني التواضع مع أقراني ، فإنه أعظم مني مقاماً بيقين.

ومما رآه الشيخ علي الخلوتي من أصحاب الشيخ دمرداش أنه رأى رسول الله ﷺ علي أثر الفتنة ، وقال: قل للناس: إن عبد الوهاب على الكتاب والسنة ، انتهى ، قال: فزال عني ما كنت ظننته مما دسوه.

ومما رآه الشيخ الصالح عمر النبتيتي المكشوف الرأس ، كما أرسله لي بخطه ، قال: رأى بعض الفقراء رسول الله ﷺ وأنت بين يديه ، وهو يقول للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: قل لعبد الوهاب: يتصرف في الوجود ما دونه مانع ، ثم إن النبي ﷺ تقدم ونزع طاقيته وألبسها لي ، انتهى.

وكان جماعة من أصحابه قد شكوا في أمري مما يسمعونه من أهل الجامع الأزهر ، فزال ما كان عندهم واعتقدوني.

ومما رآه الشيخ جمال الدين بن قيران أنه رآني وأنا أكلم الله عز وجل ، وأنظر في اللوح المحفوظ ، وكان قليل الاعتقاد في طائفة الفقراء ، لعدم معاشرته لهم ، فصار من أكبر المعتقدين.

ومما رآه ولده سيدي محمد شيخ سوق أمير الجيوش ، لما مرض في مكة ، وأشرف على الموت ، فذكر أنني خرجت له من حائط البيت ، ومسحت على جسده ، فقام من المرض ، وشفي بإذن الله تعالى ، فصار من أكبر المعتقدين ، وكان قد ارتاب في أمري لكثرة ما كان يسمع من الأزهرية.

ومما رآه الأخ العزيز سيدي يحيى الوراق ، وحكاه لي بنفسه: أنه سافر إلى مكة فرقدت دابته ، وعجزت عن أن تقوم ، فرآني وأنا أمسح على رأسها فقامت لوقتها ، فلما وصل إلى مكة كان يراني طائفاً معه ، وذكر أنني انقطعت عنه أياماً: فأرسل لي من مكة كتاباً لما جاوبها يذكر فيه ما سبب انقطاعكم عني ، فقلت له: يقظة؟ فقال: نعم.

ومما رآه الشيخ العلامة شيخ الإسلام بمصر الشيخ شهاب الدين الحلبي الحنفي رحمه الله تعالى ، لما أرسلت له كتاب العهود ينظر فيه ، أنه سمع هاتفاً في منامه يقول له: طالع الكتاب ، ولا تصلح برأيك فيه شيئاً ، فمن اعترض على شيء منه نزعنا منه الإيمان ، انتهى. فجاءني بالكتاب وهو يرعد خوفاً من زوال الإيمان ، فقلت له: المراد هنا بالإيمان الإيمان بكلام الفقراء لا الإيمان بالله ورسله وكتبه ، فزال ما كان عنده من الخوف رحمه الله تعالى.

ومما رآه الشيخ العلامة بقية السلف الصالح الشيخ ناصر الدين اللقاني ، وصار يحكيه لأصحابه ، أنني ذهبت يوماً إلى زيارته فكرهت أني أناديه ، أو أدق الباب ، فجلست خلف

باب داره ساكناً ، فبينما أنا كذلك إذ سمع قعقعة عظيمة في سقف قاعته وحيطانه ، فخاف أن تنطبق عليه فخرج إلى الباب فوجدني جالساً فكان يعد ذلك من الكرامة.

ومما رآه الفقيه محمد بمقام سيدي أحمد البدوي رحمه الله تعالى أنه رأى مقام سيدي أحمد قد انطفأت قناديله إلا واحداً ، فخرج سيدي أحمد من باب القبة فأخبره بانطفاء القناديل ، فقال: ليس هم قناديل ، وإنما هم أصحابي وقد انطفؤوا كلهم ، وهذا الذي بقي هو عبد الوهاب ، فقال له: من عبد الوهاب؟ فقال: الشعراني ، انتهى ، فزاد اعتقاده فيّ وكان قد تزلزل اعتقاده من كلام أصحابه بالجامع الأزهر.

ومما رآه الشيخ أحمد السوهاجي ، وأرسله إليّ في كتاب مخلق بالزعفران ، قال: رأيت رسول الله ﷺ ، وقال لي: قل لعبد الوهاب يدوم على ما هو عليه ، وقد شفعت فيه وفي جميع أصحابه ، انتهى. وكان قد بلغه بعض كلام من المجاورين بالجامع الأزهر من بلاده ، فزاد اعتقاده فيّ.

ومما رآه الشيخ الصالح محمد بن الشربيني ، وحكاه لي بحضرة الشيخ شهاب الدين البابلي ، أنه عزم على زيارتي مرات لما قدم إلى مصر ، ونفسه تأمره بعدم ذلك على عادة أولاد المشايخ من عدم اعتقادهم في غير أبيهم أو جدهم ، فأتاه آت في منامه أولاً وثانياً وثالثاً ، وهو يقول: اذهب إلى عبد الوهاب فزره ، فإنه صاحب مصر اليوم ، انتهى. فزال ما كان عنده من التوقف.

ومما رآه يقظة لما مرضت بورم في رجلي ، فلقيه شخص مجذوب عريان عند باب الجامع الأزهر في رمضان قبل التقريب ، فقال له: هل دريت ما جرى لريس المركب؟ فقال: لا ، فقال: إن السلطان سليمان مرض في بلاد الصوفي بوجع رجله ، وقد حمله عنه عبد الوهاب ، ثم إني رأيت السلطان عقب تلك الليلة وقد ضرب خيامه بجانب بيتي من الخليج الحاكمي ، وهي ممتدة إلى ساحل بولاق ، وهي من بلور ، ومن سائر الألوان ، ثم فتح السلطان طاقة قاعتي. وقال: شكراً لله تعالى فضلك مرتين أو ثلاثاً ، انتهى. وهو بؤيد قول ذلك المجذوب.

ومما رآه الشيخ نور الدين ابن الشيخ محمد الشربيني رحمه الله ، وقال: رأيت النبي ﷺ وهو جالس في جامع بني أمية ، وللجامع منبر أخضر شاهق نحو السماء نحو مائة ذراع ، فاشتاقت نفسي لصعوده ، فقلت ذلك لشخص من الحاضرين هناك ، فقال: هذا منبر رسول الله ﷺ لا ينبغي لأحد صعوده إلا بإذن منه ، فاستأذنته ﷺ في ذلك فسكت ، ولم يأذن لي ، ثم قال لي: إذهب إلى عبد الوهاب الشعراني فاستأذنه يأذن لك ، فقلت: يا رسول الله وأين هو؟ فقال: بمصر ، انتهى.

ومما رآه الشيخ أبو الصفاء بن عنان ، وكان عنده بعض إنكار ، أنه رأى والده الشيخ

الصالح سيدي محمد بن عنان ، وقال له: لا تنكر على عبد الوهاب فإنه مجاب الدعوة ، فخف إنكاره لأجل قول والده ، رحمه الله تعالى.

ومما رآه الأمير محمد الدفتردار عقب إشاعة ما دسه الحسدة عليّ في كتبي ، بعد أن ركب إلى الشيخ شهاب الدين الرملي وسأله: ما تقول في هذا الرجل؟ فقال: بدايته نهاية علماء الزمان ، فلم يكتف بهذا القول ، فلما نام رأى عسكراً عظيماً ، وسلطاناً دخل إلى مصر ، فلما وصل إلى باب النصر وقف ، وقال: استأذنوا صاحب البلد ، فإن أذن لنا في الدخول وإلا رجعنا ، فقالوا للسلطان: من صاحب هذا البلد؟ فقال: عبد الوهاب ، قال: فأرسلوا يستأذنونك فأرسلت لهم المفتاح مع ولدك عبد الرحمن ، انتهى. فزال ما كان عنده ، ولم يزل معتقداً فيّ حتى مات ، رحمه الله تعالى.

ومما رآه الأمير عامر بن بغداد لما تغير اعتقاده فيّ من كثرة الشفاعات ، وحكاه لي بنفسه ، قال: رأيت النبي ﷺ وهو مقبل عليك يكلمك ، وحوله خلائق لا يحصون ، فكنت كلما أريد أن أقبل يد رسول الله ﷺ أجدك حائلاً بيني وبينه ، فلا أصل إليه ، قال: وكنت لا أعتقد في الوسائط ، واقول الأصل ما يريده الله تعالى بالعبد لا ما يفعله العبد ، انتهى ، ومن تلك الرؤيا وهو يعتقد في الصلاح إلى وقتنا هذا.

وستأتي أمور أخرى من المرائي في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، تؤذن ببراءتي مما دسوه في كتبي ، وذلك كله من جملة ستر الله تعالى لي بين عباده ، فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: إنصافي لكل من سعى لي في تحصيل رزقه ، أو جوالي ، أو شيء من أمور الدنيا ، فأشركه معي فيها ، ولو لم يسألني هو في ذلك ، لا سيما إن كان سعيه بنصب على الناس ، ووصفي لهم بأني صالح ، وهو من باب ظلم دون ظلم ، فإن النصب من أصله معصية ، وحرمان النصاب معصية في العادة أخرى.

وقد كثر النصب في هذا الزمان ، وأكلوا أموال الناس بالباطل ، ثم تنازع النصاب والشيخ المنصوب له ، ومزق بعضهم أعراض بعض ، ولو أن هذا الشيخ أعطى النصاب شيئاً مما حصل له بالنصب لكان أولى به ، وقد وقع أن شخصاً نصب على أمير ، قال له: مرادي أجمعك على القطب في هذا الزمان ليقع بصره عليك ، فيرقيك الله تعالى إلى الوزارة ، فأجابه إلى ذلك ، وجمعه على شخص متمشيخ ، وصار يشتري قدور العسل النحل والجفن اللبن ويضعها عند النقيب ، ويقول له: إذا دخل لنا الأمير فأت بالعسل واللبن ، وقل: يا سيدي هذا نذره بعض الأمراء لسيدي الشيخ ، ويسأل من فضلكم أن تجبروا بخاطره ، ثم يعزم على الأمير فيأكل من ذلك ، ويعتقد أنه لولا أن الشيخ من الأولياء مثل سيدي أحمد البدوي مثلاً ما نذره الناس ، ثم إن النصاب صار ينصب للشيخ حتى جمع له عدة زرق وخمسة عشر نصفاً

من الجوالي كل يوم ، وكان قد وعد النصاب بالنصف ، فلما طلب منه ما وقع عليه الاتفاق لم يعطه شيئاً فصار يمزق في عرض الشيخ ، حتى علم بذلك سائر زوايا مصر ، فمثل هذا الشيخ قليل المعروف ، ثم أشيع أن ذلك الشيخ نصاب حتى وصل الخبر إلى الأمير ، فندم في سعيه له في الجوالي والتجون مع السلطان في قوله إن ذلك الشيخ من أولياء الله عز وجل ، فتب ياأخي من النصب إن كنت نصاباً ، أو منصوباً لك ، وإن لم تصح لك التوبة فأشرك معك النصاب ، وأكثر من الاستغفار ، واسأل الله الإقالة من ذلك ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: عملي بالسنة في النظر إلى المخطوبة ، وتحرزي عن النظر إلا بقدر الحاجة خوفاً أن أزيد على القدر المشروع ، فإذا خفت على نفسي الوقوع في الزيادة على القدر المشروع نظرت إلى بعض المشروع تبركاً بالسنة ، أو تركت النظر بالكلية ، وفوضت أمري فيها إلى الله عز وجل ، وهذا الأمر قل من يفعله على هذا الميزان ، إنما يترك النظر حياء طبيعياً لا شرعياً ، أو ينظر زيادة على القدر المشروع ، فيقاسي ما لا خير فيه لعدم رؤيته ، أو يأثم من حيث رؤيته زائداً ، فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: أدبي مع من علمني سورة ، أو آية من القرآن ، ولو صرت من مشايخ الإسلام ، فلا أمر عليه راكباً ، ولا أنساه من هدية ، ولا أتزوج مطلقة له ، ولا أتولى له وظيفة عزل عنها ولو سئلت فيها؛ لأن مقامه مقام الأب بل أعلى ، لأنه أب الروح ، انتهى.

وقد كان الشيخ شمس الدين الديروطي الواعظ بالجامع الأزهر ، وصاحب البرج بدمياط إذا مر على مؤدبه ينزل من على دابته ، ويقبل يده ، ثم لا يركب حتى يبعد عنه جداً ، أو يتوارى عنه بجدار ونحوه ، مع أنه بلغ في العلم الغاية ، وشرح المنهاج وغيره ، وفقيه على حكم فقهاء المكاتب لم يزد على حفظ القرآن إلا ما لابد له منه ، وهذا الخلق قل من يعمل به ، بل رأيت من ضرب فقيهه ونتف لحيته حين نصحه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فاعلم ذلك ، واعمل عليه ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم شهودي في نفسي أنني فعلت شيئاً من النوافل قط؛ لأن النوافل لا تكون إلا لمن أدى الفرائض على وجه الكمال ، وذلك نادر وقوعه من أمثالنا ، وقد أجمع أهل الكشف على أنه لا يعرض على الله تعالى عبادة ناقصة قط ، أدباً مع الله تعالى ، وإنما يكملها الملائكة من جنسها ، ثم إذا كملت عرضتها على الله تعالى ، فربما يحصل للعبد صلاة واحدة من مائة صلاة ، ويصير في ذمته تسع وتسعون صلاة لأن كل عبادة أخذوا منها بارقة من الحضور ، ولغى باقيها ، نظير من نسي ركناً من ركعة لا يعرف عينها.

ومن المنقول عن حجة الإسلام الإمام الغزالي أنه لا يرى صحة الصلاة الخالية عن الخشوع.

وعن هذا المشهد كان من دأب الوزراء أن لا يدخلوا على السلطان شخصاً في بدنه عاهة من جذام أو برص أو نقص عضوا أدباً مع ذلك السلطان أن يقع بصره الشريف على ناقص ، وما كان أدباً مع العبيد فهو أدب مع الله تعالى ، وإن كان الحق تبارك وتعالى خالقاً لذلك الأمر ، فافهم ، وكثيراً ما يتبع الشرع العرف في الأحكام ، كما أننا نعلم أن الحق تعالى لا يحجبه شيء ، ومع ذلك فنلبس الثوب ولا نتعرى ، فاعلم ذلك ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: سماحة نفسي بمقاسمة أعدائي في حسناتي في الآخرة ، وأموالي في الدنيا ، فضلاً عمن يحبني ، وهذا الخلق من أعظم أخلاق الرجال ، فإن المحبين ربما يسمح بعض الناس لهم بمقاسمتهم له في حسناته ، بخلاف الأعداء المبغضين ، فأنا بحمد الله تعالى ليس عندي وقفة في مقاسمة من يكرهني ويؤذيني في حسناتي التي أظن في الله تعالى قبولها ، قبول سيد أهدى لعبده شيئاً ثم قبله منه حين أهداه له ثانياً ، وقد قيض الله تعالى لي في مصر من الأعداء والحسدة جماعة يكرهونني ويسبونني ويؤذونني ، وأنا بالضد من ذلك فأحبهم ، وأمدحهم ، وأحسن إليهم ، وأعظمهم ، ومع ذلك فنفسي تسمح بمقاسمتي لهم في جميع حسناتي ، بل بأن يأخذوها كلها ، وألقى الله تعالى صفر اليدين من جميع الأعمال الصالحة ما عدا الشهادتين ، معتمداً على فضله فقط ، لا على عملي.

ثم إن هؤلاء الأعداء كلما أكثروا من الأذى لي كلما تسمح نفسي بإعطائهم حسناتي أكثر؛ لأنهم قد بالغوا في إثبات حقي عليهم ، وتحكيمي في حسناتهم يوم القيامة ، حين بالغوا في إيفائي وتنقيصي في المجالس ، فكما أهدوا إلينا حسناتهم في الآخرة ، كذلك نهدي نحن إليهم حسناتنا ، فهم يحسنون إلينا كرهاً ، ونحن نحسن إليهم طوعاً بطيبة نفسه ، وإذا وجدوا الأثر من إحسانهم إلينا يوم القيامة بحسناتهم ، فلا فرق بين كون ذلك كرهاً عليهم أو طوعاً منهم ، لأنهم محسنون إلينا على كل حال ، وصاحب هذا المشهد يرى أن من أساء عليه أحق بحسناته ، لأن المحسن ولو أحبك فقد لا تسمح نفسه بأن يقاسمك في حسناته فتحرم يوم القيامة منها ، ولا هكذا العدو فإنه لا يقدر على منعك من أخذ حسناته لو أراد هو ذلك ، كما ورد به النص المتواتر ، فإن كان إيمانك قوياً ، فأنت ترى أن المسيء أحق بحسناتك من المحسن على ما قررناه ، وإن كان إيمانك ضعيفاً فبعيد عليك أن تسمح لصديقك بحسناتك فضلاً عن عدوك.

فاعمل يا أخي على تحصيل الإيمان الكامل ، حتى تصير تقاسم عدوك في حسناتك من

دار الدنيا لإيمانك بأن تتحكم في حسناته يوم القيامة ، ثم إذا فعلت ذلك فلابد إن شاء الله تعالى أن ترتفع إلى مقام تسمح نفسك بمقاسمه عدوك في حسناتك ، احتساباً لله تعالى من غير أن تأخذ من حسناته شيئاً ، ولو حكمك الحق تعالى فيها يوم القيامة ، كما تصير إن شاء الله تعالى كذلك لا تضع عليه شيئاً من أوزارك ، ولو أذن لك الحق تبارك وتعالى في ذلك ، لأن أذن الحق لك إنما هو مداواة لك لضعفك ، وإلا فأهل الكمال يعطون ولا يأخذون.

واعلم أني بحمد لله تعالى ولو قاسمت أعدائي في حسناتي لا أرى لي بذلك فضلاً عليهم ، إنما أرى الفضل لهم علي من وجوه ، منها أنهم فتحوا لي بغيبتهم في وتنقيصهم لي في المجالس باب شهود نفسي ، وتذكر ذنوبي ، ولولا أنهم فعلوا معي ذلك فربما دخل علي الإعجاب بأعمالي ، ومنها تحكيمهم لي في حسناتهم بكثرة إيذائهم لي كما مر ، ومنها أنني كنت سبباً لمقت قلوب المؤمنين لهم ، ومنها أنني كنت سبباً لهتك سيرتهم إذا آخذهم الله سبحانه وتعالى بسببي في دار الدنيا ، ولا أعلم أحداً بحمد الله تعالى آذاني بغير حق في مصر إلا وحصلت له المؤاخذة غيرة من القدرة الإلهية ، كما مر بسطه أوائل هذه المنن.

وقد آذاني مرة فقيه قليل الكلام ، فصار مقراضاً في أعراض الخلق على اختلاف طبقاتهم ، فربما يركب دابته من طلوع الشمس فلا يزال يدخل بيتاً ، ويخرج منه طول النهار ، حتى يحيط علماً بأحوال الناس في بيوتهم ، ثم يصير يحكي ذلك ، فلا يكاد يسمع منه كلمة صالحة في حق أحد ، وربما أنه لا يعد ذلك مقتاً ، وهو من أعظم المقت لتراكم الحقوق عليه يوم القيامة ، مع قلة أعماله الصالحة ، وبعضهم وقع في الكفر ، ثم حقنوا دمه ، وبعضهم كبس بالوالي ، فكيف أرى نفسي على هؤلاء بمقاسمتي لهم في حسناتي ، مع أنه قد حصل لهم من جهتي هذه البلايا العظيمة.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول: رأى ابن الخطاب (شيخ الشيخ محيي الدين بن العربي) ربه عز وجل في المنام ، فقال: يا رب علمني شيئاً آخذه عنك بلا واسطة ، فقال يا ابن الخطاب: من أحسن إلى من أساء إليه فقد أخلص لله تعالى شكراً ، ومن أساء إلى من أحسن إليه فقد بدل نعمة الله كفراً ، قال: فقلت: يا رب حسبي ، فقال: حسبك ، انتهى.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: من أساء إليك وزاد في الإساءة فقد زاد في الهدية بقدر ما زاد في الإساءة فإنه وإن كان أساء إساءة ظاهرة فقد أحسن باطناً ، وإن كان أظهر بالإساءة التعالي عليك عند الناس ، فقد نزل عند الله تعالى.

وبالجملة فمن أراد من الإخوان الوصول إلى هذا المقام من غير سلوك فليمتحن نفسه أولاً بمقاسمة عدوه في ماله ، فإن سمح له بذلك ترقى منه إلى سماحة نفسه بالأعمال ، ومن لم يسمح بماله فلا يشم من رائحة طيب نفسه بمقاسمة عدوه في الأعمال رائحة ، بل ولا يسمح لصديقه بذلك فضلاً عن عدوه.

وقد تمنى الإمام سيدنا الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه يظفر بمحب صادق ليقاسمه في ماله وحسناته ، فلم يجده ، ولعله بحسب مقامه هو ، ثم أنشد في شروط الصحبة :

أحب من الإخوان كل مواتي ... وكل غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل أمر أرومه ... ويحفظني حياً وبعد مماتي
فمن لي بهذا ليت أني أصبته ... فقاسمته مالي مع الحسنات

فلا تستعظم يا أخي هذا الخلق على الفقراء ، فإنهم لا يرون لهم مع الله تعالى ملكاً لأموالهم ، ولا لأعمالهم ، فكما استخلفهم في الأموال ينفقون منها على المحتاجين ، فكذلك الحكم في الأعمال ، واعلم يا أخي أني لا أعلم بحمد الله تعالى أحداً يكرهني من العلماء والصالحين أبداً ، وإنما يكرهني من في دينه نقص ، إما من جهة حسده لي ، وإما من جهة تكبره عليّ ، وهذا لا يقدح في مقام من يطلب مقاماً عند الحق تعالى ، فإن الناس لا بد من عدو وحاسد.

وإيضاح ذلك : أن سبب كراهة الناس لبعضهم بعضاً غالباً إنما هو المزاحمة على الأغراض النفسانية الدنيوية لا غير ، وأنا بحمد الله تعالى لا أتذكر أنني زاحمت أحداً قط على دنيا ولا على ما يؤل إلى الدنيا من تدريس علم ، أو مجلس وعظ ، أو تظاهر بمعصية ، من زنا أو شرب خمر أو ترك صلاة ونحو ذلك ، فعلام يكرهونني ، فما بقي إلا الحسد ، وذلك لا يقدح في كمال العبد؛ لأنه مقرون بالنعمة ، وزوال النعمة التي ترضي الحاسد ليس في يد العبد ، فعلم أن كل من رأيته يكرهك وأنت لم تزاحمه على الدنيا ، ولا تظاهرت بمعصية فاعلم أنه حسودي ، فلا ترج زوال حسده بإظهار محبة ، ولا بإحسان إليه ، فإن ذلك لا يصح.

وقد سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول : من كمال النعمة على العبد وجود عدو وحاسد ، ليحصل له كمال الأجر بالصبر على عداوة الحساد له ، ورميهم له بالباطل والزور ، ولولا ذلك العدو والحاسد لفاته ذلك الأجر ، انتهى.

واعلم يا أخي أن من أولياء الله تعالى من يجري الله تعالى له هذا الأجر بعد موته أيضاً ، فيتوارث بغضه خلف عن سلف ، فترى بعض الناس يكرهه وينقصه ، بل يسبه تبعاً لوالده ، أي الساب ، ولا أحد منهم اجتمع عليه ، ولا ثبت عندهم ببينة عادلة شيء من الصفات التي ينقصونه بها ، وذلك من التهور في الدين لذلك الكاره ، وكمال في المقام لذلك المكروه ، ثم إن كان ولا بد لهؤلاء المتهورين من الإنكار فلينكروا على صاحب تلك الصفة أو العقيدة السنية مثلاً ، بقطع النظر عن نسبة ذلك إلى قائل معين ، فيقول من اعتقد كذا أو فعل كذا فهو فاسق أومبتدع ، وأما إذا ثبت عن أحد شيء من طريق صحيحة فيجب الإنكار عليه على التعيين محبة فيه ، وشفقة عليه ، وخوفاً من أن يكون معدوداً من الأئمة المضلين ، لا بغضاً فيه على وجه التشفي ، كما يقع فيه بعض الجهال.

وكلامنا إنما هو مع من يخشى الله تبارك وتعالى ، وإلا فأي دليل لمن يبغض أبا بكر وعمر أو أحداً من الأئمة المجتهدين ، أو أحداً من كمل العارفين ، كالشيخ محيي الدين بن العربي ، وسيدي عمر بن الفارض رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، فليس لأحد في بغضه لهؤلاء دليل صحيح يستند إليه ، وإنما هي نزعات شيطانية .

وقد ثبت عندنا من طريق صحيحة عن الشيخ بدر الدين بن جماعة أنه قال : جميع ما يوجد في كتب الشيخ محيي الدين بن العربي من الأمور المخالفة لظاهر الشريعة مدسوسة عليه .

وكذلك أخبرني الشيخ شمس الدين أبي الطيب الشريف المدني ، عن شيخه أبي طاهر ، قال ابن جماعة : وقد رأيت كتاباً صنفه الملاحدة ، وأضافوه إلى أبي حامد الغزالي فكتبت عليه «كذب والله وافترى من أضاف هذا إلى أبي حامد» انتهى .

قلت : ومما وقع لي كما تقدم أن جماعة من الحسدة دسوا عليّ في كتابي المسمى بالبحر المورود عقائد زائفة ، ولولا وجود النسخة الصحيحة التي عليها خطوط العلماء كذبتهم في ذلك لكان أكثر الناس قبل ذلك في حقي ، وكثيراً ما يكون سبب الإنكار على العالم أو الصالح دقة مدارك كلامه ، فينبغي للمتدين التسليم له حيث لم يخالف نصاً صريحاً أو إجماعاً ، فإن الأفهام تختلف سلفاً وخلفاً .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول : إنما سلط الله تعالى على العلماء العاملين وأكابر الصوفية من العارفين من يحط عليهم بعد موتهم ، وينقصهم ، لشدة اعتنائه بهم ، ومحبة لهم ، وبغضاً ومقتاً لأولئك المنكرين عليهم ، ووفاء بما وعد به سبحانه وتعالى من تحكيم المظلومين في حسنات الظالمين ، فيحكم الله تعالى هؤلاء العلماء والصلحاء في حسنات من ينكر عليهم يوم القيامة وحتى لا يدعون لهم حسنة ، ثم إن فنيت حسنات هؤلاء المنكرين وضع من سيئات المظلومين على ظهورهم ، ثم قذف بهم في النار ، وإذا كان هؤلاء العلماء يأخذون حسنات من يحط عليهم بعد موتهم ، فكأنهم لم يموتوا ولم ينقصوا شيئاً من أعمالهم ، بل أعمالهم جارية بعد موتهم على يد هؤلاء الظالمين لهم بحكم النيابة ، فإنها تنتقل إلى صحائف العلماء والصالحين ، فما دام الإنكار موجوداً عليهم ، فأعمال المنكرين في صحائفهم ، فما ثم أكثر عملاً من المتأخرين من الشيخ محيي الدين بن العربي ، وسيدي عمر بن الفارض ، وأضرابهما ممن هو بريء مما نسب إليه من مخالفة ظاهر الشرع ، أما من وقع في مخالفة الشريعة فلا تحرم الغيبة فيه إلا إن تاب قبل موته عن بدعته مثلاً ، فالله تعالى يجعلنا ممن ارتضاه ربه في حياته وبعد مماته ، آمين اللهم آمين ، والحمد لله رب العالمين .

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ : شدة بغضي لأهل المعاصي ولو أحبوني ، وأحسنوا إليّ ، واعتقدوني ، لا سيما أهل المعاصي المستصحبة التي يعسر صحة التوبة منها ،

كالمساكين وغيرهم من سائر من يظلم الناس في الأموال والأعراض ، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالى علي فأنا بحمد الله تعالى أكره جميع العصاة من العمال والولاة الذين قدمناهم في المنة السابقة ، ولو أحبوني وقبلوا شفاعتي ، إيثاراً لجناب الله تبارك وتعالى على حظ نفسي ، وقليل من يتخلص من مثل ذلك ، كما أشار إليه خبر «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها**» فيريد الفقير أن يبغض الظالم المحسن إليه ، فلا يقدر على ذلك مع تلاوته لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]. وقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

ولم أعرف أحداً من أقراني تظهر محبته اليهود والنصارى أكثر مني ، وأتعجب منهم غاية العجب لما يرسلون إلي أن أكتب لهم حرزاً لأولادهم ، وأقول: كيف صح لهم اعتقادي مع مخالفتي لدينهم ، ولكن ذلك من جملة الإرث لأبينا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فإن سائر الطوائف المخالفين للرسل يحبونه ويعظمونه ، فالحمد لله على ذلك.

ولما علم العلماء أن من شأن المحسن أن يكون محبوب من أحسن إليه ، ونهوا عن التداوي بإشارة كافر ، لكون الشفاء إذا وافق ما وصفه عند انتهاء المرض يصير ضعيف الإيمان واليقين ، يتوهم أن الشفاء من ذلك الذي وصفه ذلك الكافر ، ويصير يوده ، ويميل إليه ، ويريد أن يعاديه وينفر منه ، كما أمر الله تعالى فلا يقدر ، بل رأيت بعضهم يذهب إلى بعض اليهود ، ويسألهم المساعدة في ظهور ولده ، وذلك في غاية الذل لأهل الإسلام.

وبلغني أن بعض اليهود رده ، وقال: لولا أن في ذلك انتهاك حرمة لدينك لأعطيتك ، ولم يعطه شيئاً.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن تميلوا إلى الكفار بالمحبة إذا رأيتم أحداً منهم يوصل خيراً من إحسان إلى جار ، أو عمل طعاماً للمحابيس ، ونحو ذلك ، بل داوموا على عداوتهم عملاً بإعلام الله عز وجل فيما أخبرنا من ذمهم ، وحكموا عليهم بما حكم الله به عليهم ، ولو لم تشهدوا منهم سبب الذم ، فإنه تعالى أعلم ببواطنهم وظواهرهم ، وأطلق الذم عليهم إلى الأبد ، انتهى.

فاعلم يا أخي ذلك ترشد والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: صحبتي لجماعة من العلماء والصالحين من غير اجتماع بهم ، كما كان عليه السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وهو مقام أويس القرني ، وعبد الله بن غالب ، وأبي بكر المزني ، وأضرابهم ، كانوا يخافون من وقوع الغيبة في الاجتماع ، وأن يذكر كل واحد لصاحبه أحسن ما عنده من العلوم والأحوال ، فيزكي كل

واحد منهم نفسه على أخيه ، ويقع في ذنب إبليس الذي أخرج به من الجنة ، فمن العلماء الذين صحبتهم بمصر من غير اجتماع مدة طويلة: الشيخ العالم الصالح شمس الدين البرهمتوشي الحنفي ، والشيخ شمس الدين الغزي الحنفي ، المقيم بالصحراء ، والشيخ سليمان الحانوتي ، والشيخ أبو النجاء السوهاجي ، وشيخه الشيخ أحمد المغربي المنياوي ، رضي الله تعالى عنهم ، وهي صحبة صحيحة ، بشرط مراعاة كل واحد صاحبه في الغيب ، كما كان يراعيه في الحضور لو صحبه ، وأكثر الناس الذين صحبتهم قياماً بواجب هذه الصحبة الشيخ شمس الدين البرهمتوشي رضي الله تعالى عنه ، ونفعنا ببركاته ، فيشاورني في أموره كما يشاور الوالد البار بوالديه والديه ، فاعلم ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: وجود جماعة يكرهوني على الدوام ، وذلك ليحصل لي الأجر من جهة الصبر عليهم ، وكثرة الاستغفار ، حين ينبهوني على نقائصي التي ربما سترها عني المحبون ، ومن هنا قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه: عدو تصل به إلى حضرة الله تعالى خير من صديق يحجبك عن الله تعالى ، فالعدو ساع في نجاتك ولو لم يقصد ذلك ، والصديق ساع في إهلاكك ولو لم يقصد ذلك ، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: حملي لمن يكرهني غالباً على أنه إنما كرهني بحق ، ومناقشة نفسي إذا كرهت أحداً من المسلمين ، وحملها على أنها إنما كرهته بغير حق ، فأكون على نفسي فيما إذا كرهها أحد ، أو كرهت هي أحداً.

وعلى ذلك درج السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم ، فكانوا يناقشون نفوسهم ، ويتهمونها في كل شيء ادعته من المقامات ، أو تنزهت عنه من المخالفات ، ويقولون لها: هبي أنك تقولين أني أكذب عليك ، فما تقولين في هذا الغريب الذي وصفك بالرياء والنفاق؟

وبلغنا عن مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه ، أنه قال: مكثت نحو سنة ونفسي تقول لي: إنك من المخلصين ، وأنا أقول لها: إنك من المرائين ، فبينما أنا أمشي إذ مررت على امرأة ، فقالت: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إلى مالك بن دينار ، فقلت لنفسي: خذي وصفك من هذه المرأة الصادقة.

وكان الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه يقول: لأن أحلف أني مراء أحب إلي من أن أحلف أني لست بمراء ، وكان رضي الله عنه كثيراً ما يقول: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إليّ ، وكان رضي الله عنه يقول لنفسه إذا غضب أحد منه: لو أنك وافقتيه على ما يهواه من المصالح ما غضب عليك ، فاللوم عليك لا عليه.

وحكايات السلف في ذلك كثيرة ، فاعلم ذلك ، واعمل على التخلق به ترشد ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: طرح نفسي بين يدي الله تبارك وتعالى: إذا أطلعني الله عز وجل على وقوعي في محظور عند القوم في المستقبل ، فأتبرأ من حولي ومن قوتي ، وأقول في سجودي: اللهم إن كان سبق في علمك وقوعي في الشيء الفلاني فأسألك أن تسترني فيه ، بين عبادك في الدنيا والآخرة ، وأن تغفره لي ، ولا تؤاخذني به في الدنيا ولا في الآخرة ، وإن لم يكن ذلك سبق في علمك أنه يقع ، وإنما هو في ألواح المحو والإثبات ، فأسألك من فضلك أن تزيله من شهودي ، فإنه شوش عليّ ، فإن الله تبارك وتعالى يمحوها إن كانت في ألواح المحو والإثبات ، ويخفف عقوبتها إن كان حق بها التقدير الإلهي وذلك لأن من أتى بالمخالفات بحكم التقدير من غير ميل ، أخف عذاباً مما يأتي المخالفات بالشهوة والميل.

وكان بعضهم يقول في سجوده: اللهم إنك تعلم عجزي عن رد أقدارك النافذة فيّ ، فاغفر لي ما جنيته ، أو ادفع ذلك عني ، لابد لي من واحدة منها فضلاً وإنعاماً ، انتهى.

فاعلم ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: أنه إذا جاء صاحبي من سفر الحجاز أو الشام مثلاً ، لا تحدثني نفسي بأنه سيهدي إليّ شيئاً أبداً بل أنا خال عن تذكر ذلك ، ولو أهديت أنا إليه شيئاً لا أنتظر قط أنه يكافئني عليه ، بل أرى الفضل له على عدم إرساله إليّ شيئاً ، كل ذلك شفقة على الإخوان ، لمعاملتي لله تبارك وتعالى فيهم ، من حيث كونهم عبيده ، وكذلك لا أبدأ أحداً ممن يرجى منه المكافأة بهدية ، حملاً للمشقة عنه ، بخلاف من لا يرجى منه مكافأة من الفقراء أو الأراذل ، فإن مثل هؤلاء نبدؤهم بالهدية ، لفقد العلة التي كرهنا البداءة بالهدية لها.

وأعرف كثيراً من أصحابي لا يقدرون على تحمل منة أحد ، فلذلك لا أبدأهم قط بهدية ، وكثيراً ما أفرق ضيافة الأوز والدجاج وغير ذلك ، فلا أرسل لأحد منهم شيئاً: منهم سيدي شرف الدين بن الأمير ، وسيدي أبو الفضل ، صهر الشيخ محمد الحنفي ، وسيدي شرف الدين الخطيب ، فإني أهديت لهم مرة فكافؤني بنحو سبعين ضعفاً فأسأل الله تعالى أن يزيدهم قناعة وعفة آمين.

فإن قال قائل: إن عدم طمع النفس في إرسال للإخوان هدية متضمن لسوء الظن بهم ، ونسبتهم إلى البخل.

قلنا: إن سوء الظن بهم ، ونسبتهم البخل غير مقصود لنا ، مع أن الشارع ﷺ قد ذم الطامع فيما بأيدي الخلق ، انتهى.

والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: زهدي في المطاعم ، والملابس ، والنساء ، والفرش الوطيئة ، وكثرة الروائح الطيبة التي يشق علي تحصيلها من وجه حلال ، وقناعتي بالكسرة اليابسة من غير أدم ، ولا أرى نفسي أهلاً لذلك ، ولا أرغب في شيء من ذلك إلا إن كان بنية صالحة ، وكلما كبر سني ازددت في ذلك زهداً لأني في معترك المنايا قد جاوزت الستين سنة ، وقد قالوا: من أقبح ما يكون شيخ يتصبى ، وشيخ يتمشيخ ، يعني على من هو أكبر منه سناً ، وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليّ ، ولذلك لم يقع لأحد أنه استرقني قط ببر وإحسان أبداً ، لزهدي فيما بيده قبل أن يأتيني.

ولما تزوجت ابنة سيدي مدين رضي الله عنهما ، وكانت من الجميلات المخدرات ، طلبت تشترط علي شروطاً فقال لها وكيلي سيدي شرف الدين بن الأمير: هذا لا يدخل تحت الشروط ، لزهده في الذهب ، والفضة ، والأطعمة ، وجميع ما تهواه النفس ، ثم قال لها: إن كنت تقدرين على أن تسدي بحرالنيل أيام الوفاء من تجاه المقياس ، فأنت تقدرين على التحجير على فلان ، فرجعت عن الشروط ورضيت مني بدرهمين في كل يوم ، وجبة في الشتاء ، وقميص في الصيف ، إلى أن ماتت.

فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: ذكري لمناقب جميع الحسدة والأعداء في كتاب الطبقات ، مع شدة مبالغتهم في إيذائي ، فبعضهم سعى في قتلي مرات ، وبعضهم سعى في إخراجي من مصر ، وبعضهم دس في كتبي عقائد زائفة وأشاعها عني في مصر والحجاز ، وبعضهم افترى عليّ عند الباشا على أمور لا ينبغي لمؤمن أن ينطق بها ، وغير ذلك مما سبق ذكره في هذاالكتاب ، ومما لم أذكره لكثرته ، ومدار جميع الأذى الذي وقع لي طول عمري من ثلاثة أنفس ، وجماعتهم ، وهم معروفون في البلد بين أصحابنا ، مع أن الثلاثة يكرهون بعضهم بعضاً ، ولكنهم اجتمعوا عليّ ، وصنفوا الأذىٰ على صنوف ، وسائر أهل مصر برد وسلام ، وقد بالغت في ذكر مناقب هؤلاء الثلاثة ، وذكرتهم بأحسن الذكر ، ضد ما فعلوا معي ، إظهاراً لما من الله تبارك وتعالى به عليّ من الحلم ، والصفح ، والمسامحة لكل من بالغ في إيذائي ، ليتبعني على ذلك من أراد التخلق بأخلاق الرجال ، ولم أعلم أحداً سبقني إلى مثل ذلك ، بل المنقول عن غالب السابقين أن كل واحد يذكر عن الآخر العجز والبجر ، باللسان ، والريقم بالبنان ، والكلام صفة المتكلم ، فالحمد لله الذي جعلنا ممن لا يقابل

أحداً بالأذى، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، كما هو خلق سيدنا ومولانا محمد ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: مواظبتي أوائل دخولي في محبة طريق القوم، على ذكر الله تبارك وتعالى بلفظ الجلالة أربعاً وعشرين ألف مرة كل يوم وليلة، عدد الأنفاس الواقعة في الثلاثمائة وستين درجة، وكنت أذكرها تارة في مجلس واحد، وتارة في مجالس، على نية أن الله تبارك وتعالى يبسطها لي على جميع النفاس الواقعة في الليل والنهار، ليكون حكمي إن شاء الله تعالى حكم من لم يغفل عن الله عز وجل نفساً واحداً، ولم أزل على ذلك حتى استحكم فيَّ الحضور مع الله تبارك وتعالى في أكثر أوقاتي، فكانت لي كالمادة التي يستمد الإنسان منها المراقبة لله عز وجل، والحضور معه تبارك وتعالى طول عمره، فإن الذكر باللسان إنما هو وسيلة لحضور القلب؛ لأنه يجلي القلب من الظلمات، والأدناس، والرعونات المانعة من دخول حضرة الله تبارك وتعالى، فإذا انجلى القلب كذلك صار ليلاً ونهاراً يستحضر في نفسه أنه بين يدي الله جل وعلا، والله تبارك وتعالى ناظر إليه، فهذا هوالذكر الحقيقي الدائم الذي تصر إليه الفقراء في سلوكهم بالذكر، والخلوة، والرياضة، فلا يحتاجون بعد ذلك إلى ذكر اللسان، إنما ذكرهم به تطوع، ليزينوا جوارحهم الظاهرة بالذكر، أو ليقتدي بهم المريدون، وإلا فمن كان يستحضر دائماً أن الله يراه، فمن أدبه الصمت والهمس، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] أي من شدة الهيبة والحضور مع الله تبارك وتعالى.

فعلم أن من لم يحصل له مادة الحضور مع الله تعالى كما ذكرنا، فلا يقدر على تكيف نفسه الحضور على الدوام، إنما هو تارة وتارة، بخلاف من حصل له المادة، فإنه لا يتكلف للحضور، كما أنه لا يتكلف لدخول النفس وخروجه.

وقد أرشدت الأخ الشيخ يوسف الطهوائي إلى هذا الذكر، لما طلب مني الإرشاد، وذكر أنه حصل له إمارة الفتح، وهو رسم الجلالة بالنور في محل تصوره وحضوره، ثم انتشر من الجلالة نور فملأ الأفق، أو أكثر من غير وجود شيء آخر معه، هذا وهو ملاحظ للجلالة بين الروح مع التلاوة لها باللسان، حتى يتمكن تمكن الرجال، وتنتفي عنه الخواطر والأكدار، إذ الجلالة مصقلة تصقل قذى الأغبار عن وجوه الأسرار، وقد أوفينا ذلك في رسالة خاصة، فراجعها.

واعلم يا أخي أنك لا تطيق تذكر الله تعالى في بدايتك بعدد الأنفاس مفرقة أبداً لا سيما إذا كنت مشتغلاً بعلم، أو شيء آخر من العبادات، أو الحرف، والصنائع، ثم إذا ذكرنا الله تعالى في اليوم والليلة هذا العدد، نرجو من فضل ربنا عز وجل أن يحشرنا مع من لم يغفل عن ذكر ربه نفساً واحداً، وما ذلك على الله بعزيز؛ لأننا أهدينا له هذا الذكر جملة واحدة، أو

جملاً ، والصحيفة واحدة ، ويقع لي إذا اخترت الحالة الأغلبية التي عليها عامة الناس ، دون حالة آحاد القوم الذين يقرأون القرآن في نحو الدرجة من الرسل مثلاً ، أنني أكرر لفظ الجلالة أربعاً وعشرين ألف مرة في خمسين درجة ، بشرط أن لا يتخلل المرات ذكر آخر ، أو كلام آخر ، فمن شاء فليعدها على سبحة أو حصى ، ومن شاء فليقلب المناكب ، ويشتغل بالجلالة إلى أن تمضي الخمسون درجة ، وإن جعلت يا أخي هذا الورد حين تقوم من الليل إلى طلوع الشمس ، أو من بعد صلاة العصر إلى النوم ، كان حسناً ، لكون ذلك طرفي النهار ، وزلفاً من الليل.

فعليك يا أخي بالمواظبة على ذكر الله عز وجل ، فإنه لا يحسب لك من أعظم أسباب النعيم الأخروي من العمر إلا وقت ذكرك لربك ، وما عدا ذلك فهو دون ذكرك لربك ، وأما المباح فالشخص حال فعله هو وأهل الموت سواء ، فإن لم يتيسر لك مراعاة ساعاتك كالفقراء ، فاجعل لك ساعة في الليل ، وساعة في النهار ، تذكر الله تعالى فيها ، ليحيا بذلك قلبك من الموت ، أو الضعف الذي حصل له بأكل الشهوات ، والمعاصي ، واللغو ، والهذيانات ، وأقل مراتب من يحب أن يقال له: رويجل ، إن يراعي أوقاته بالذكر كما يراعى الديك ، أو أم قويق ، أو الصرصار ، أو الناموسة في سهرها في الليل ، ويقبح على من يقول: أنا من الصالحين ، أو العلماء العاملين ، أن يكون نائماً كالجيفة ، وأم قويق ، أو الناموسة سهرانة ، تذكر ربها ، أو واقفة بين يديه ، فأسأل الله تعالى أن يلطف بنا أجمعين.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه ، في كتاب نتائج الأفكار: وينبغي لمن يذكر الله تعالى بالجلالة ، أن يحقق الهمزة ويسكن الهاء ، فإن فتح الذاكر الهاء وأسقط الهمزة ووصل الهاء باللام المدغمة ، كان تلفظه بها حينئذ كتلفظه بكلمة هلا فلا تنتج له شيئاً من الخصائص ، لأنه تعالى ما هو مسمى بذلك الاسم ، إذ هو كلمة تحضيض ، كلوما ولولا.

ومن جملة خصائص الذاكر بالجلالة أن الذاكر يصير يدرك بذاته كما يدرك بالقوى الحسية ذوقاً ، وما لم يحصل للذاكر ذلك فهو لم يحصل نتيجة هذا الذكر ، فالمتأكد عليه الزيادة منه ، ولا يستعجل على نفسه ، بل يدوم على الذكر حتى يسمع الناطق منه بأذنه ، ويتحقق به من نفسه ، وبعد ذلك يكون كيفما كان من كلام أو سكوت أو فرق أو جمع ؛ لأنه يصير مغموراً تحت الوارد ، لا يقدر على دفع الناطق فيه في يقظة ولا نوم ، لا بقلبه ولا بلسانه.

قال: وصورة الذكر بالجلالة أن يقول: الله ، الله ، الله ، حتى ينقطع نفسه بتحقيق الهمزة ، وسكون الهاء ، وهكذا كل ذكر يذكر العبد به ربه عز وجل ، يجب أن لا يحرك آخره ، بل يسكنه ويحقق أوله ، ومن لم يذكر كذلك لا يجد لذكره نتيجة ؛ لأن اسمه تعالى ما هو ذلك الاسم المصحَّف ، والمقصود الذكر باللفظ الصحيح ، ولو أنه تصوره في خياله على الصواب لا يفيد ، إذ اللفظ هو الدعاء ، والإجابة لا تكون إلا ممن ينادي باسمه الصحيح ،

وليس الله تبارك وتعالى اسم هلا مثلاً إذا فتح الهاء ووصلها باللام ، بل ذلك اسم كون من الأكوان ، حتى أن الذاكر لو بدله في لحن آخر ، وقصد به هذا المعنى الملفوظ به في لسان العرب لا ينتج له شيئاً إذ الإنتاج إنما هو لهذا التركيب الخاص في الحروف.

قال: ويتأكد أن يذكر الذاكر هذا الذكر على هيئة مخصوصة في الجلوس ، لابد له منها ، وذلك أن يجلس كالمتحفز الذي حفزه أمر ما ، فلا يقعد متربعاً بل مستوفزاً على قدميه ، مائلاً برأسه نحو القبلة ، ومقعده أناء عن الأرض ، أو على وركه ورجله تحت مقعدته اليسرى ، وساقه اليمني قائمة ملصقة بفخذه قائمة ، أو يقعد مقعياً كإقعاء الأسد ، أو كهيئة جلوسه بين السجدتين في الصلاة ، فهذه الهيآت كلها تعطي الذاكر جميعة الهمة في ذكره.

قال: وهذا كله ما دام يحس بنفسه ، فإن أخذ عن حسه في ذكره فلا يشترط في جلوسه ما ذكرناه.

قال: واعلم يا أخي ليس في الأذكار أقرب ثمرة من هذا الذكر ، أعني ذكر الجلالة، ولا أوسع ممداً منه ، فإنه يعطي الذاكر العلم بأنه تعالى قابل لسائر المعتقدات من جميع الفرق الإسلامية ، حيث بذلوا جهدهم المعتبر ، فيصير يعرف الله تبارك وتعالى بها من سائر طرقها ، كشفاً لا تقليداً ، وأما غيره من الأذكار فإنه يعطي العلم ببعض المعتقدات ، كالأشعرية ، والمتريدية ، أو الحنابلة ، لا كلها.

قال: ومن علامة الفتح على الذاكر بالجلالة: أن يرى نشأته هي نشأة ذكره بأي لسان كان ، فيرى نفس صورته الظاهرة ، هي عين حروف ذكره المتصور في خياله من لفظة ، خاصة إن كان أمياً ، وإن لم يكن أمياً فالغالب عليه تصور حروفه المرقومة في اللوح المحفوظ ، وقد يجتمع لغير الأمي نشأة حرف رقمه ، ولفظه في اللوح المحفوظ ، وقد يجتمع لغير الأمي نشأة حرف رقمه ، ولفظه في اللوح ، فالأمي يرى نشأته على حروف لفظه ، وغير الأمي يراها على صورة رقمه ، وقد يجتمع لغير الأمي نشأة حروف رقمه ولفظه ، يصورها له الخيال ، وهو الأغلب ، فتكون النتيجة بحسب صورة الذكر ، لا بصورة الذاكر.

قال: ومن علامة من صار يذكر الله تعالى بالله لا بنفسه ، أن يحس بلسانه إذا ذكر الجلالة كأنه احترق ، فمن لم تكن له هذه العلامة فليس هو من أهل هذا المقام ، وإنما هو يذكر الله بنفسه.

قال: ولم أر لذلك أهلاً في عصري ، انتهى.

فتأمل ذلك ، فإنك لا تجده في كتاب ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة تفويضي جميع أموري الظاهرة والباطنة إلى الله

تبارك وتعالى ، وعدم اعتمادي على شيء من أعمالي دونه ، سواء كان تأليف كتاب ، أو بناء مسجد ، أو حفر بئر ، ونحو ذلك ، فلو جاء شخص من أعدائي ومزق ذلك التأليف ، أو غسله بعد تعبي في تحريره سنين أو هدم المسجد ، أو ردم البئر وهدم حائطها ، ونحو ذلك ، لا أتأثر من أجل حظ نفسي؛ لأن الفعل بالأصالة لله تعالى والفضل له جلا وعلا على جعلي آلة فيه ، وعبيده هم الذين أتلفوا ذلك بإرادته تعالى ، لا أنا ، فلأي شيء أتغير وأتكدر ، وليس لي شيء من ذلك ، ثم بتقدير أن لي في ذلك مدخلاً ، فالعبد حين يهدي شيئاً إلى حضرة ربه تعالى ، من فضل ربه ، فقد رد الأمانة إلى أهلها ، فلا عليه بعد ذلك من شيء يعرض لها من حيث ما هي تتعلق من قبولها أو ردها ، ولا من عمل الناس بها ، أو انتفاعهم بها أم لا ، ونظير ذلك ما إذا كذب قوم نبيهم ، فإنه يكتب له أجر نيته موفراً؛ لأنه يود أنهم لو كانوا آمنوا به ، وعملوا بكل ما جاءهم به ، فيعطيه الله تبارك وتعالى أجر أمنيته ، وهو ثواب مثل ثواب كل من كان عمل بشريعته ، لو هداه الله تعالى.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول مراراً لمن رآه يؤلف كتاباً: احذر يا أخي أن تنسى الإخلاص في تأليفك ، فإن الثواب منوط به ، ومن لم يخلص في عمله فلا ثواب له فيه ، وكان رحمه الله تعالى يقول كثيراً: من شرط العبد أن لا يطلب على خدمته لسيده ، والعمل بما يأمره به ثواباً؛ لأن طالب الثواب إنما هو أجير لا عبد ، ومن يعمل طلباً للأجرة الأخروية فحكمه حكم من يعمل الأعمال الدنيوية للأجرة الدنيوية على حد سواء ، وما عمل العبيد المخلصون جميع ما أمروا به إلا امتثالاً لأمر الله تعالى ، وقياماً بوظيفة العبودية ، وذلك لعدم ملكهم لشيء مع سيدهم في الدارين ، فهم يفعلون كل ما أمرهم به سيدهم ، ويجتنبون كل ما نهاهم عنه ، ويأكلون ، ويشربون ، ويلبسون من ماله ، تبارك وتعالى في الدارين ، فسواء أعطاهم شيئاً أو منعهم لا يتكدرون ، لشهودهم أنهم لا ملك لهم معه تعالى ، كما تقدم بسطه مراراً.

فاعلم ذلك ترشد ، والله تبارك وتعالى يتولى هداك ، وهو يتولى الصالحين ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: عدم إتعاب سري في تحرير كتاب من مؤلفاتي إلا بنية صالحة ، لا ليمدحني الناس عليه ، ويقولوا: والله ما قصر فلان في تحريره في هذا الكتاب ، ولعلمي أيضاً بأن البشر ولو بالغ في كتابه وحرره أشد تحرير ، فلابد من نسيانه شرطاً للمسألة مثلاً في بعض الأوقات ، أو إطلاقه حكماً في محل التفصيل ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ولذلك قال الشيخ محيي بن العربي رضي الله تعالى عنه: ما صنفت قط كتاباً عن تدبير ولا عن رؤية ، إنما أكتبه بحسب ما يلهمني الله تعالى على يد ملك الإلهام ، وربما ذكرت

مسألة مع غير جنسها بحسب الإلهام ، كما في قوله تعالى : ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فإنه تعالى ذكرها بين آيات طلاق وعدة ، تتقدمها وتتأخرها ، انتهى.

واعلم يا أخي أن السبب في كون البشر لا يسلم كلامه من التناقض غالباً ، عدم اليقظة الدائمة ، ووقوعه في الغفلة والسهو ، فما كل وقت يمكنه أن يستحضر جميع توابع تلك المسألة ، وربما ترجح عنده في وقت ما لم يترجح عنده في وقت آخر.

وكان سيدي أحمد الزاهد رحمه الله تعالى يقول: من الأدب أن لا يجهد العبد في تحرير كتابه هروباً من مضاهاة كلام الله عز وجل ما أمكن ، وحتى يجد من بعده في كلامه ما يحتاج إلى الحل مثلاً ، فيشرحه ، أو يعمل عليه حاشية ، فمن فعل ذلك فهو أبعد من الزهو والعجب ، انتهى.

فاعلم ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: جمعه تعالى في جميع هذه الأخلاق المذكورة في هذا الكتاب ، وقل أن تجتمع في مريد من مريدي هذا الزمان ، بل لا أعلم أحداً منهم تخلق بها غيري وهذا من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليّ ، ببركة سيدنا ومولانا محمد ﷺ، وأرجو من فضل الله تعالى دوام ذلك التخلق عليّ، حتى ألقاه وأنا غير مخل بشيء منها، وقد أعطاني الله تعالى أخلاقاً عظيمة لم يؤذن لي في إفشائها في هذه الدار ، فشكرته تبارك وتعالى عليها في نفسي ، ولم أبح بها لأحد في الدنيا ، مع أن جميع ما ذكرناه في هذا الكتاب من أخلاق المريدين لا العارفين، كما تقدم بسطه في المقدمة.

ثم إذا تخلق الإخوان بها ، وكان في الأجل فسحة ، استأذنت ووضعت لهم شيئاً من أخلاق كُمَّل العارفين ، فإني لو ذكرتها لهم الآن لم يذوقوها ، وكان ينبهر عقل من يسمع بها ، ولم يقدر على التخلق بها ، وإذا كان بعض العلماء يقول عن أخلاق المريدين لما رآها في هذا الكتاب: هذه أمور لا يتخلق بها إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فماذا كان يقول لو رأى أخلاق كُمَّل العارفين؟

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: أخلاق الكُمَّل ، على عدد أخلاق رسول الله ﷺ؛ لأنهم ورثته في الحال والقال ، كما أن أخلاقه ﷺ على عدد الله تعالى التي شرع لعباده التخلق بها ، فما تفاوت الكُمَّل إلا في صفاء المعاملة لا غير ، فاعلم ذلك ترشد ، والله يتولى هداك ، والحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: إطلاعه تعالى لي في واقعة على ما تفضل به عليّ في الآخرة ، من حيث ثواب الأعمال ، وكان ذلك بمشهد من الأنبياء والمرسلين لكن لم يكلمني

منهم أحد غير موسى ، وعيسى ، وسليمان ، عليهم الصلاة والسلام ، ولو أني أخذت أذكر للإخوان جميع ما أعطاه الله تعالى لي في الدنيا والآخرة ، لانبهرت عقول المصدقين لي ، وكذبني الأعداء والحسدة.

وقد أشار إلى نحو ما ذكرناه قوله ﷺ في حديث الترمذي وغيره «**إن أدنى أهل الجنة منزلة من يعطى قدر الدنيا ، ومثلها معها**»[1] وفي حديث أبي هريرة «وعشرة أمثالها معها» ، انتهى.

ومما أعطاني الله تبارك وتعالى في تلك الواقعة ، وأذن لي في ذكره: أنه جعلني أحبه تعالى لا لعلة إحسان ، ولا طلب ثواب في الدنيا ولا في الآخرة.

ومنها أنه أشهرني بالعلم ، وحفظ القرآن في مصر وقراها ، وجعلني معدوداً من جملة فقهاء الزمان.

ومنها إعطاؤه تعالى لي القناعة ، فأغناني بها عن الذل للملوك والأمراء ، فمن حين أجد الكسرة اليابسة اكتفى بها إلا لضرورة شرعية.

ومنها أنه جعل الولاة من الملوك فمن دونهم ، يقبلون شفاعتي مع صغر سني وكثرة مخالفاتي ، فشفعت عند السلطان الغوري ، والسلطان طومان باي ، وخاير بك ، وغيرهم من باشات مصر ، فقبلوا شفاعتي ، وذلك معدود من جملة طاعة الملوك لي.

ومنها تخلقي بالعفو ، والصفح ، والحلم ، على كل من جنى عليّ ، وافترى عليّ باطلاً ، وسعى في قتلي ، فلم يقع لي بمقابلة لأحد منهم بسوء كما تقدم تقريره في هذه الخاتمة ، بل أرى لهم الفضل عليّ بذلك ، من حيث حصول الأجر والثواب والإدمان.

ومنها أنه تعالى شفعني في تلك الواقعة في كل من آذاني في دار الدنيا ، ولذلك كنت أبدأ به قبل من أحسن إليّ في دار الدنيا ، فسوف أشفع إن شاء الله تعالى يوم القيامة في جميع الأعداء والحاسدين ، ووجدت لذلك الأمر حلاوة لا يقدر قدرها.

ومنها أنه تعالى أطلعني في تلك الواقعة على دوري وبساتيني في الجنة وأحطت بها علماً ، حتى كأن ذلك يقظة.

ومنها شهودي أن ذلك كله من فضل الله تعالى عليّ ، من غير استحقاق ، ثم استيقظت من تلك الواقعة ، وأنا أنشد هذه الأبيات:

أحبكم لا لشيء في الوجود ولا ... أرجو سواكم ولا أبغي بكم بدلا
يا سادة غمرونا من فضائلهم ... وألبسوا ذاتنا التيجان والحللا

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٧١) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب آخر أهل النار خروجاً (١٨٦) ، والترمذي ، كتاب صفة جهنم ، باب منه (٢٥٩٥).

وصيـرونـا ملـوكـاً تحـت رفهـم حـال القنـاعـة وأغنـونـا بـلا وبـلا
وأخـدمـونـا ملـوكـاً تحـت طـاعتنـا لمـا خـدمنـا وقمنـا فـي الـدجـى ذلـلا
وخلقـونـا بـأخـلاق الأكـابـر مـن عفـو وصفـح وحلـم فـي الـوجـود مـلا
وشفعـونـا بيـوم الحشـر فـي مـلا مـن الأعـادي وأغنـوهـم عـن الخلـلا
وأقطعـونـا مـن الجنـات مـا عجـزت عنـه الملـوك وأرخـو دوننـا الكلـلا
والكـل مـن فضلهـم قـدمـاً لعبـدهـم فعـم جـودهـم الكـونيـن واتصـلا

انتهى.

هذه الأبيات متضمنة لما ذكرناه آنفاً.

وإنما كنا نشفع يوم القيامة في اعدائنا قبل غيرهم، مسارعة إلى زوال خجلهم منا؛ لأنهم إذا رأوا عظم مقام من كانوا يؤذونه، ومرتبته عند الله تعالى، خجلوا، فلذلك كنا نبدأ بهم لنزيل خجلهم، لما جبلنا الله تعالى عليه من الشفقة والرحمة لجميع الأمة، والله سبحانه وتعالى يتولى هداك، وهو يتولى الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شمي لروائح المعاصي من بدني، وثيابي، ومكاني، إذا وقعت في معصية من معاصي أهل الطريق، فأشم نتان كل معصية على حسب تفاوتها في القبح، من كبائر، وصغائر، ومكروهات، وأشم رائحة خلاف الأولى، كأن في بدني أو ثيابي عفن واستحال، وهذا كله من جملة نعم الله تعالى عليَّ التي لا أستطيع القيام بشكرها، فإني إذا شممت رائحة ثيابي أو بدني، أو مكاني منتناً، أشرع في الاستغفار والندم، فلا زال أشم رائحة تلك الروائح حتى يقبل الله توبتي، فإذا قبلها ذهبت تلك الروائح، بفضل الله ورحمته، وأكثر دوامها إلى شهر فما دونه، وهذا الخلق كان لمالك بن دينار، وسفيان الثوي، وسيدي علي الخواص، رضي الله تعالى عنهم، ولم أجد له ذائقاً من أقراني.

وقد كان مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه يقول: والله لو أن الناس يشمون للمعاصي رائحة كما أشمها، لما استطاع أحد منهم أن يجلس إلي ساعة، انتهى.

وكذلك مما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ: شمي لرائحة المعاصي من غيري، ثم حجب ذلك عني، حتى أني كنت أعرف من عليه صلاة ممن ليس عليه صلاة، فكنت أقول للإنسان: قم فصل، فيتذكر، ويقوم يصلي، فالحمد لله رب العالمين.

ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة حلمه عليّ، وعدم معاجلتي بالعقوبة على ذنوبي التي جاوزت الحصر، مع أني قد استحقيت خسف الأرض بي، والمسخ لصورتي، لولا عفو الله تعالى وحلمه، وإمهاله، وجميع ما خرجت به على الأقران الغير معينين في هذا الكتاب كله من بعض صفاتي القبيحة، فإني لولا ذقتها ما اهتديت لأن أحذر أحداً عنها، فلا

تظن يا أخي أنني أرى نفسي خيراً من أحد منهم ، معاذ الله أن أرى ذلك .

وبهذه النعمة يكون ختام كتاب «**لطائف المنن والأخلاق ، في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق**» وهي من كبر ما من الله تبارك وتعالى به علي بعد الإسلام والعافية .

ووجه مناسبة ختم الكتاب بها أن الوقوف على حد العجز والاعتماد على عفو الله تعالى محط رحال الأولين والآخرين ، فما من ولي لله عز وجل إلا وهو يسأل الله تبارك وتعالى العفو والصفح عنه ، وفي الحديث «**لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه**»(1)

وقال بعض العارفين: ينبغي لكل إنسان أن يختم أعماله كلها بالاستغفار لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣] ثم إنه لو صح لنا قبول استغفارنا ، لحصل لنا بعض طمأنينة ، لكن من أين لنا العلم بذلك ، فقد يكون حالنا ، كما قال القائل:

إذا كان المحب قليل حظ فما حسناته إلا ذنوب

ومن نظر منا إلى كثرة إحسانه تعالى إلينا ، وعدم معاجلته لنا في العقوبة ليلاً ونهاراً ، مع قلة حيائنا منه ، أو عدمها بالكلية ، خاف ضرورة ، فإني والله ، ثم والله ، ثم والله لا أتعقل أن أحداً من أهل الإيمان منذ خلق الله تعالى الدنيا إلى أن يفنيها أقل حياء ، ولا أكثر جرائم مني على الإطلاق ، ومن ذاق هذا المشهد في نفسه ، ذاب قلبه وجسمه من شدة الخجل من الله عز وجل لو لم يكن إلا ما يقع فيه العاصي من شدة حيائه من العباد دون الله عز وجل ، فلا تكاد تراه يعصي الله تبارك وتعالى بحضرة من يخشاه من عباده أبداً ، ثم إنه يجاهر ربه جل وعلا بالمعاصي ، وهو في حضرته من غير حجاب ، ولا يشعر بذلك ، فأعظم من الذنب كونه لا يستحي منه جلا وعلا ، ولو أنه حقق النظر في حاله لوجد نفسه قد كفر بالله عز وجل ، من حيث إنه راعى عباده ، واستهان بمراعاته تعالى.

وكثيراً ما يقع لي أن أقول في سجودي في صلاة الليل: اللهم إن كنت صادقاً في شهودي أنني أكثر عبادك كلهم مخالفة لأمرك ، فاغفر لي ، وكثيراً ما أسكت ولا أنطق بشيء من ذلك من شدة الخجل، بل أمثل نفسي واقفاً خلف جميع العصاة من المسلمين الماضين واللاحقين ، منكس الرأس ، انتظر من فضله أنه يعفو عن أحد من خلقه ، فاستبشر بذلك ، وأقول: لعله يفيض عنه شيء من المغفرة فينالني منه نصيب.

وكثير ما أقول بحق وصدق: اللهم إن ذنوبي قد رجحت على ذنوب الأولين والآخرين من المسلمين ، ولكنها في جنب عفوك لا شيء ، وكثيراً ما أخلف عن الدعاء بين يدي الله

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب المرضى ، باب تمني المريض الموت (٥٦٧٣) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦)

عز وجل من الناس في الاستسقاء ، خوفاً من أن الله تعالى يردهم من غير إسقاء لأجلي ، فلذلك كنت أترك الوقوف معهم رحمة بإخواني ، لا لعلة أخرى.

وكثيراً ما أقول: اللهم إني أعترف بين يديك بأني أكثر عبادك المسلمين معصية فأكثر لي من المغفرة في الأخرة ، فإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه خزي الدنيا ، وعذاب الآخرة.

وكثيراً ما أرى ذنوبي كالجبال الرواسي في الأرض ، وأجد ذنوب جميع الخلق كالذر الطائر في الهواء.

وكثيراً ما اعتقد أن جميع البلايا النازلة على مصر وقراها إنما نزلت بسبب ذنوبي وحدي ، لا أتعقل غير ذلك أبداً ، فأصير أفحص في الليل كالطير المذبوح ، وبدني كأنه ذائب من شدة النار أو السم.

وقد تقدم في مقدمة الكتاب قول شيخ مشايخ الطريق أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: لا يبلغ أحد مقام الشكر لربه عز وجل ، حتى يرى نفسه أنها استحقت الخسف ، وأنها ليست بأهل أن تنالها رحمة الله عز وجل ، إنما رحمة الله لها من باب الفضل والمنة.

وتأمل يا أخي في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام ، وقوله: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

تعثر على ما ذكرناه في قصدنا ختام هذا الكتاب بهذه المنة ، فإنه ﷺ ذكر ما أنعم الله تعالى به عليه حال الصحة في الابتداء ، قياماً بواجب الشكر لربه عز وجل ، ثم تواضع آخر عمره لربه عز وجل ، وخاف من تغييره تعالى عليه ذلك الحال ، من حضرة الإطلاق التي يفعل الحق تعالى منها ما يشاء من غير تحجير ، وإلا فالمعصوم المحبوب لا يخاف على نفسه من تغير الحال عليه ، فلذلك سأل ربه عز وجل أن يتوفاه مسلماً؛ ويلحقه بالصالحين ، من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فتأمل يا أخي إذا كان هذا حال المعصوم الذي لا يصح في حقه أن يموت على غير الإسلام قطعاً فكيف بأمثالنا.

وقد درج الأكابر كلهم من الأنبياء ، والصالحين ، على هضم نفوسهم بين يدي الله عز وجل ، مع مبالغتهم في طاعته التي لا يستطيعها أحد من الخلق ، لا سيما عند خوف انتقالهم من هذه الدار ، ولكل وقت مقال ، كما أن اللائق بالعاصي منا ، أو الفقير إذا دعا ربه أن يقول: يا غفار ، يا غني ، اغفر لي ، وارزقني ، دون أن يقول: يا جبار ، يا منتقم ، يا مانع ، وإن كان كل اسم من أسماء الله تعالى يفعل فعل أخواته لسعة إطلاق الحق جل وعلا ، فافهم.

ومثل ذلك قول العلماء: إن الاشتغال بالعلم أفضل من صلاة النافلة ، ولو أنك سألت أحدهم عند طلوع روحه أن يشتغل بالعلم لا يجد في قلبه داعية لذلك ، بخلاف قولك له: قل لا إله إلا الله أو قل استغفر الله من كل ذنب يعلمه الله ، فإنه يجد ذلك خفيفاً على قلبه.

فعلم مما قررناه أن قولي أول هذه المنة إني قد استحقيت الخسف بي ، والمسخ لصورتي ، ليس هو من باب التواضع ، وهضم النفس ، وإنما قلت ذلك بحق وصدق ، فإن الله تعالى قد خسف الأرض بقوم كانت ذنوبهم دون ذنوبي بيقين.

وقد روى الإمام أحمد ، والبزار ، مرفوعاً «**بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما إذ أمر الله تعالى الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»(١)

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً: «**بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه إذا خسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»(٢) قال ابن عباس: وكان ذلك بزقاق أبي لهب بمكة ، وممن رآه حين خسف به العباسي رضي الله تعالى عنه وردي الزار وأوردته رواة الصحيح كما قاله الحافظ المنذري مرفاعة: إن رجلاً في حلة حمراء يتبختر ـ أو يختال فيها ـ فخسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وروى الترمذي وغيره مرفوعاً «**يبيت قوم من هذه الأمة على لهو ولعب ، فيصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير**»(٣).

وفي رواية للترمذي «**يبيت قوم على لهو ولعب فبينما هم كذلك إذ خسف الله تعالى بأولهم وآخرهم**».

وفي رواية لأحمد والبيهقي مرفوعاً «**يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب فيصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير ، وليصيبنهم خسف وقذف ، حتى يصبح الناس فيقولون: خسف الليلة بدار فلان وليرسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيها وعلى دور ، وليرسلن عليهم الريح العقيم التي أهلكت عاداً ، على قبائل فيها وعلى دور ، بشربهم الخمر ، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم القينات ، وأكلهم الربا ، وقطيعتهم الرحم**»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٩٦٣) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٥٣٥) وقال: أخرجه أحمد والبزار.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب اللباس ، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥٧٨٩) ، ومسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه (٢٠٨٨)

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧٢٨).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٢٨٤).

وروى البخاري تعليقاً وأبو داود «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الخز والحرير ، يمسخ منهم قردة وخنازير إلى يوم القيامة**»[1] انتهى.

فانظر يا أخي إلى هذه الأمور التي وقع بأهلها الخسف ، تجدها دون ذنوبنا بيقين ، فكم نظر أحدنا إلى عطفيه لما لبس ثوباً جديداً ، أو مضربة جديدة ، وكم نظر إلى عمامته بعد أن عممها على رأسه ، وكم نظر إلى تبختره في مشيته ، رافعاً نفسه على أقرانه ، وكم يبيت على ضحك ، ولعب ، ولهو ، وكم ، وكم ، وكم.

وقد نقل ابن الجوزي رحمه الله أنه وقع في أيام الخليفة المطيع لله بمصر ، زلازل عظيمة ، حتى عدة بلاد ، وسكن الناس الصحراء ، ووردت أيضاً محاضر شرعية ، أن الله تعالى خسف بأرض الري بمائة وخمسين قرية، وصارت كلها ناراً، وتقطعت الأرض وخرج منها دخان، وقذفت الأرض جميع ما فيها حتى عظام الموتى من القبور، انتهى.

ووقع ببلاد تبريز العجم زلزلة مات فيها تحت الهدم نحو مائة ألف إنسان ، ولبس الناس المسوح ، وصاروا يجأرون إلى الله عز وجل.

ووقع ببذد خراسان من السماء قطعة حديد نحو مائة قنطار ، ولها دوي ، أسقطت الحوامل.

وفي أيام الملك الظاهر ، أو الفتوحات ، خسف الله تعالى بسبع جزائر من البحر بأهلها ، بنواحي عكا ، بعد أن أمطرت السماء دماً سبعة أيام.

ولم يزل يبلغنا الخسف ببلاد ، وجبال في الروم ، والعراق إلى عصرنا هذا ، مع صغر ذنوب أهلها ، وقلة عددها ، فكيف لا يخاف من جعل الله تعالى علامات القيامة على كاهله في هذا الزمان ، نسأل الله اللطف.

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا يستبعد وقوع الخسف به في هذا الزمان إلا كل جاهل بمؤاخذات الله تعالى ، مغرور بحلم الله تعالى ، انتهى.

وسمعته يقول كثيراً: لو أن أحدنا كان معه شيء من الأدب مع الله تعالى ، والحياء منه ، لوجد ذنوبه كالجبال ، ولو أن الله تعالى خسف بجميع أهل الأرض لأجلها لكان ذلك يسيراً.

وسمعت أخي أفضل الدين يقول: والله لو أن ذنوبي قسمت على جميع أهل الأرض لوسعتهم ، واستحقوا بها الخسف والهلاك ، فكيف بمن يحملها وحده ، ولكن سبحان من سبقت رحمته غضبه ، انتهى.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ، كتاب الأشربة ، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ، وأبو داود ، كتاب اللباس ، باب ما جاء في الخز (٤٠٣٩).

ويؤيد ما ذكره أخي المذكور ما في صحيح مسلم «**أن رسول الله ﷺ رجم امرأة من جهينة في الزنا، ثم صلى عليها حين ماتت، فقال له عمر رضي الله عنه: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ فقال رسول الله ﷺ: لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل**» يعني في قولها «**يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه عليّ**»(١) كما ذكر مسلم في أول الحديث.

ويؤيده أيضاً قوله ﷺ في ماعز لما رجم: «**لقد تاب توبة لو قسمت على أهل الأرض لوسعتهم**»(٢) اهـ.

أي فكما أن توبة شخص واحد تسع أهل الأرض من حيث الرحمة، التي نزلت عليه، فكذلك القول في معصية الشخص الواحد، ربما تكون بالقياس على التوبة، لو قسمت تلك المعصية أي إثمها وعقوبتها على أهل الأرض لوسعتهم، وكفتهم في المقت والشر، كما يؤيد ذلك ما رواه البخاري مرفوعاً «**إذا مات العبد الفاجر استراحت منه العباد والبلاد والشجر والدواب**»(٣)، انتهى.

ومعلوم أنها لا تستريح منه إلا لما يصيبها من البلاء بواسطة أعماله، وإيضاح ذلك أن كل من أطاع الله عز وجل فقد أحسن إلى جميع الخلق، ومن أساء فقد تسبب في البلاء ونزوله على جميع الخلق، بقرينة أن الله تعالى خسف بمدينة عظيمة في بني إسرائيل بذنوب رجل واحد، وبقرينة قوله ﷺ «**إذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح**»(٤).

ومن هنا قالوا: الرحمة خاصة، والبلاء عام، لكن هنا تدقيق في بيان حكمة ذلك، وهو أنه لو نزل البلاء على العاصي وحده لذهب أثر العصاة من الأرض في لمحة، ولكنه فرقه على الخلق رحمة بالعاصي، حتى لا يناله من العقوبة إلا كآحاد الناس، من باب سبق رحمته تعالى غضبه.

وأما المطيع فينزل عليه أكثر الرحمة، لكونه محبوباً لله، فلا يكاد يصل إلى غيره من الرحمة إلا اليسير، فلما رأى الناس ذلك، قالوا: الرحمة خاصة، والحال أنها تنتشر في

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩٦)، والترمذي، كتاب الحدود، باب تربص الرجم بالحبلى حتى تضع (١٤٣٥).

(٢) انظر تخريج الحديث السابق.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت (٦٥١٢)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه (٩٥٠).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٦)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الساعة وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٢٨٨٠).

جيران الطائع ، وأهل بلده ، أو إقليمه ، بحسب قوة عزمه أو ضعفه ، فافهم ، فإن هذا المعنى لعله ما طرق سمعك قبل ذلك.

ثم إن هذا المقام الذي ذكرناه من شهود العبد من باب التواضع ، أن كل بلاء نزل على بلده ، أو إقليمه ، بسبب ذنوبه هو دون الناس ، ليس هو لكل فقير ، إنما هو لأفراد من الناس ، وبقيتهم لا يهتدي لشهود مثل ذلك ، بل ربما سمع بعض الناس يقول في حقه: لولا وجودكم في هذه البلدة لكان حل بها الدمار ، فيفرح بذلك ، كما يفرح إذا سمع أحداً يقول: فلان رحمة على الناس في بلده ، وإن كان خير نزل عليها فإنما هو بسبب إقامته بها ، وهذا من أكبر الغرور.

وممن أدركته على قدم الخوف من أهل هذا المقام: شيخنا شيخ الإسلام زكريا ، وسيدي علي النبتيتي الضرير ، وتلميذه الشيخ علي البحري ، والشيخ عبد الحليم بن مصلح ، فكان كل واحد من هؤلاء إذا نزل ببلاده شيء من البلاء يصير يتمرغ في الأرض ، ويفحص كالطير المذبوح ، ويقول: كل هذا بشؤمي ، لكوني نازلاً عندهم ، ولو أخرجوني من بلدهم لما نزل عليهم بلاء ، فكانوا لا يتعقلون إلا أن كل بلاء نزل على بلادهم بذنوبهم ، وأن ذنوب الناس كلها مغفورة ، حتى يكاد جسم أحدهم يذوب من الخجل والحياء من الله عز وجل.

وقد زرت مرة سيدي علياً البحيري لما نزل في الحسينية ، خارج مصر ، فكاد يذوب من الحياء ، وصار يوبخ نفسه إلى أن مات ، ويقول كل قليل: يا فضيحتك يا علي يوم القيامة ، حين تظهر مساويك للناس الذين كانوا يعتقدون فيك الصلاح في دار الدنيا ، ويمشون إلى زيارتك ، فلم أزره بعد ذلك رحمة به ، حتى مات.

وصاحب هذا المشهد لا يصير له رأس ترفع بين الناس ، بل يستحي أن يجالس أحداً من المسلمين ، لا سيما في الولائم والمحافل ، ومنذ تحققت به ما قدرت على أني حضرت وليمة ولا مجمعاً فيه العلماء والأكابر أبداً وإن در أني حضرت متكلفاً أصير أشهد نفسي كالذي كبسوه بجارية مثلاً ، وسخموا وجهه بالسواد ، وأعروه من الثياب ، وأوقفوه مكشوف السوأة الظاهرة والباطنة ، وأود أن الله تعالى يخسف بي الأرض حتى استريح من شماتة الأعداء فيّ ، لا سيما إن بالغ أهل ذلك المجلس في تعظيمي كلما اشتد حيائي من الله تعالى ، وكل من ذاق هذا عذرني في عدم حضوري الولائم والمحافل.

وسمعت أخي أفضل الدين يقول: والله إني لا أترك مجالسة الناس إلا من شدة الحياء منهم ، لا سيما العلماء والصالحين ، فإني أرى نفسي بين يديهم كاليهودي بين يدي شيخ الإسلام ، انتهى.

وقد ذقت أنا بحمد الله هذا المقام ، ووراثة عنه ، وعن شيخ الإسلام زكريا ، ونحوهما ،

فلا أتعقل الآن بلاء ينزل على مصر وقراها إلا بسبب ذنوبي وحدي ، دون ذنوب الناس ، فأصير أستغفر الله في حق جميع الناس الذين أصابهم ذلك البلاء ، لكونه بواسطتي ، وأحس برأسي كأنه قدر يغلي على النار ، وببدني كأنه شرب رطلاً من السم ، وأصطلم عن إحساسي مرات كأني أموت موتات ، ولا يشعر بذلك جليسي ، فالحمد لله على ذلك.

وقد قدمنا في هذه المنن أن سيدي عبد العزيز الديريني قال لمن طلب منه كرامة: يا ولدي وهل ثم لعبد العزيز في هذا الزمان كرامة أعظم من أن الله يمسك به الأرض إذا مشى أو جلس عليها ، ولا يخسفها به ، ثم قال: والله يا ولدي ما أرفع قدمي وأضعها على الأرض وأجدها ثابتة تحتي ، وفي عيني قطرة ، انتهى.

ودخلت مرة مع أخي أفضل الدين على شيخ من مشايخ العصر ، فدعا له أخي أفضل الدين بأن الله تعالى يتوب عليه ، ويميته على الإسلام ، ولا يخسف به الأرض بذنوبه ، فتمعر وجه ذلك الشيخ وجماعته ، واستبعدوا أن مثل الشيخ يستحق الخسف ، فقال أخي أفضل الدين: هؤلاء مغرورون مفتونون ، يرون أنهم مستغنون عن التوبة ، ولا يستحقون الخسف بهم ، ثم منعني من زيارته ، فلم أزره حتى مات.

وقد تقدم أيضاً في هذه المنن أن مالك بن دينار رضي الله عنه كان إذا مرت عليه سحابة وهو يملي الحديث يتغير وجهه ، ويقطع الحديث ، ويقول أصبروا: فإني أخاف أن يكون في هذه السحابة حجارة ترجمنا بها لسوء فعالنا ، وقبيح زلاتنا ، وطلبوه مرة للخروج معهم للاستسقاء ، فقال: إن أهل البصرة يستبطؤون المطر ، وأنا أستبطىء الحجر ، ولم يخرج معهم ، وقال: أخاف أن لا يسقوا من أجلي.

وكذلك تقدم عن معروف الكرخي رضي الله عنه أنه يقول: أشتهي أن أموت ببلد غير بغداد ، فقيل له: ولم ذلك؟ فقال: أخاف أن لا يقبلني قبري ، فأفتضح ، ويسيء الناس ظنهم بأمثالي ، وكان يقول: إني لأنظر إلى أنفي في اليوم كذا كذا مرة مخافة أن يكون قد اسود وجهي ، لسوء ما أتعاطاه من قلة الحياء مع الله عز وجل ، وكانت المرآة في رأسه لا يفارقها ، لينظر كل قليل فيها إلى وجهه.

كل ذلك من شدة الخوف من الله تعالى ، وشهودهم أنهم استحقوا مثل ذلك ، لا قنوطاً من رحمه الله عز وجل ، بل هم طالبون رحمة الله ، راجون لها ، مستغفرون الله عز وجل ، راجون القبول ، فافهم.

ثم إن هذا الذي ذكرته لك عن مالك بن دينار ، وعن معروف الكرخي ، وعن سيدي عبد العزيز الديريني ، ونحوهم رضي الله عنهم ، وهو شرح حالي بحمد الله تعالى ، ووالله ، ثم والله ، ثم والله ما أرى جميع ما أنا فيه من مسمى الطاعات والكرامات إلا كالاستدراج وإن

وقع لي أنني سررت بذلك من حيث كونه من فضل الله علي أعقب ذلك بالاستغفار ، حتى كأن طاعاتي سيئات لسوء ما يقع مني فيها من قلة الخشوع المطلوب ، وقلة الحياء وقلة الأدب.

وقد كان الحسن البصري يحلف بالله ويقول: والله لو حلف حالف بالله عز وجل ، وقال: إن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن القيامة ، لقلت له: صدقت ، لا تكفر عن يمينك ، انتهى.

ومن المشهور أن سيدنا الشيخ عبد القادر الجبلي رضي الله عنه كان يقول: قدمي هذا على عنق كل ولي لله عز وجل ، من باب التحدث بالنعمة ، ثم إنه لما حضرته الوفاة ، قال: ليت أمي لم تلدني ، وكان تحت رأسه مخدة ، فقال: أنزلوا خدي عن هذه المخدة ، وضعوه على التراب ، لعل الله تعالى يرى ذلي فيرحمني ، ثم قال: هذا هو الحق الذي كنا عنه في حجاب ، هكذا نقله عنه الشيخ محيي الدين في الفتوحات.

فكان في ختامي لهذا الكتاب بهذه المنة نوع من التأسي بالأنبياء والأولياء ، أواخر أعمارهم.

وقد بلغنا عن الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه ، أنه كان ينشد حال صحته ، ويقول:

ولولا الشعر بالعلماء يزري ... لكنت اليوم أشعر من لبيد
وأشجع في الوغى من كل ليث ... وآل مهلب وأبي يزيد
ولولا خشية الرحمن بي ... حسبت الناس كلهم عبيدي

يعني بالناس أبناء الذين يحبونها بقرينة قول بعض العارفين لبعض الملوك: أنت عبد عبدي ، فقال: ولم ذلك؟ فقال: لأنك عبد للدنيا ، والدنيا خادمة لي ، انتهى.

فهذا تأويل قول الإمام رضي الله عنه ، ثم إنه لما دنت وفاته ، دخل عليه الربيع رضي الله عنه ، فقال له: كيف حالك يا أبا عبد الله؟ فقال: ما حال من أصبح من الدنيا راحلاً ، ولأهلها مفارقاً ، ولكأس الموت ذائقاً ، ولسوء عمله ملاقياً ، انتهى.

وقد قدمنا في هذه المنن مراراً أنه ينبغي أن يكون للمؤمن دائماً عينان ، عين ينظر بها إلى استحقاقه للعقوبة من الله ، على ما ارتكب من المعاصي ، وعلى ما قصر في الطاعات ، وعين ينظر بها إلى ما أعطاه الله ، وتفضل عليه من مسمى الطاعة ، والأخلاق الحسنة ، وانشرح صدره لذلك ، ليشكر ربه على ما أعطاه ، ويستغفره مما جناه ، إلى طلوع روحه ، فإنه لولا فضل الله عليه لجعله لا ينشرح قط لطاعة ، ولا لأن يقف بين يدي الله تعالى فيها ، كما عليه أهل الطرد عن حضرة الله عز وجل

وقد درج السلف الصالح كلهم على الخوف من سوء الخاتمة.

فنسأل الله من فضله بحق محمد ﷺ أن يستر فضائحنا في الدارين ، ولا يؤاخذنا بسوء أفعالنا ، ولا يسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ، وأن ينبت لنا الزرع ، وأن يدر لنا الضرع ، ويلطف بنا في سائر حركاتنا وسكناتنا ، إنه ولي ذلك ، والقادر عليه آمين ، اللهم آمين.

فإن ولاتنا في هذا الزمان قد تحكموا فينا ، بسوء أعمالنا ونياتنا ، والأمر في زيادة لنا ولهم ، وإذا كان الشاخص أعوج فظله أعوج ، لا يصح استقامته ، ونحن الشاخص ، وولاتنا ظلنا ، ولا عكس ، أدباً مع حكامنا الذين ملكهم الله رقابنا في دولة الظاهر والباطن.

فرحم الله من نظر هذا النظر ، وتأمل في جميع الأخلاق التي رقمناها في هذا الكتاب ، فمن رأى نفسه متخلقة به فليشكر الله ، ومن رآها منجردة عنه فليستغفر الله ، كما مر بيانه في الخطبة فإنها كلها أخلاق محمدية ، لا أعلم أن فيها خلقاً واحداً خارجاً عن الشريعة ، وها هي كلها بين يديك ، ومن تخلق بها كلها ولو صورة كان من صدور أهل السنة والجماعة ، ومن لم يلقبه بذلك فقد ظلمه.

فإياك يا أخي أن يقوم بك داء الحسد ، أو حجاب المعاصرة ، فتنظر في أخلاق هذا الكتاب ، ولا تتخلق منها بشيء فإنك تخسر في الدارين ، ولا أعلم أحداً من فقراء عصري ذكر شيئاً منها في رسالة ، حتى أدلك على مطالعتها ، وسوف تشكرني يا أخي عند نبيك محمد ﷺ إن عملت بها ، فإني كنت المترجم لك عنها.

وأنا أسأل بالله عز وجل كل ناظر في هذا الكتاب أن يصلح كل ما يراه يفهم خلاف الصواب ، مساعدة لي على ما قصدته من الخير للمسلمين.

وأرجو من مدد رسول الله ﷺ أن يحمي هذا الكتاب من كل عدو وحاسد يدس في فواصله أو غضونه ، ما يخالف ظاهر الشريعة ، لينفر الناس عن المطالعة فيه ، كما فعلوا في كتابي المسمى «بالبحر المورود في المواثيق والعهود» وفي مقدمة كتابي المسمى «بكشف الغمة عن جميع الأمة» ، فإن أمرهم بالتخلق بأخلاق هذا الكتاب أشد عليهم من ضرب السيوف ، لصعوبه مراقيها عليهم ، من غير أن يتلمذوا الشيخ ، أو لكثرة إعجابهم بنفوسهم إذا تلمذوا مع أنها من جملة أخلاق المريدين ، دون العارفين كما مر بيانه في خطبة الكتاب.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان ، وأشيعوه بقصد صيانة الناس عن الوقوع في عرضي بغير حق.

وإنما أخبرت الإخوان بالدس المذكور في كتبي ؛ لأني في أواخر عمري ، حين بلغ زمان الرياضة للنفس حده ، فلذلك لم أخبر أصحابي بالدس أول ما علمت به ، مع أني سامحت كل من استغابني من المتهورين في دينهم ، الذين لم يقم عندهم بذلك بينة ، ولا منهم أحد اجتمع بي إلى وقتي هذا ، كما مر بسطه في الباب الرابع من هذا الكتاب ، فالحمد لله رب العالمين.

وليكن ذلك آخر الكتاب المسمى **«بلطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق»**.

وقد جاء بحمد الله كتاباً نافعاً لعموم الخلق، من العامة والمريدين، مرقوماً على أسلوب غريب، لم أعلم أحداً سبقني إلى وضع مثله من المتقدمين والمتأخرين، وجميع ما ذكرته فيه من النعم والمنن بالنسبة لما لم أذكره كقطرة من البحر المحيط، كما أني لو ذكرت كل ما من الله تعالى به عليّ من أخلاق المريدين، كان كقطرة من بحر أخلاق العارفين، كما أن جميع أخلاق العارفين كقطرة من بحر أخلاق الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فلذلك تركت كثيراً من النعم التي لم يؤذن لي في إفشائها، لعدم من سبق في علم الله تعالى أنه يتخلق بها على يدنا.

وقد قدمت لك يا أخي في مقدمة الكتاب، أنني ما صرحت لك بالأمور التي كان الأولى بنا سترها في هذا الدار إلا رحمة بك، لتقتدي بنا في ذلك، ولا تعلل بقولك حتى أجد أحداً يتخلق بها قبلي، فأتبعه، فها أنا قد أعلمتك بأني قد تخلقت بها فاتبعني، وما بقي لك عذر.

وكذلك ما ذكرت لك في الباب الثاني كثرة ما تحملته من الأذى، وعدم مقابلة الناس إلا لتقتدي بي، والله على ما أقول شهيد.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ منه على يد مؤلفه، ومنشيه: عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني، الشافعي، في مستهل ربيع الأول، سنة ستين وتسعمائة، بمصر المحروسة، حامداً، مصلياً، مسلماً، مستغفراً من كل ذنب فعلته إلى وقتي هذا، استغفار عبد ظالم لنفسه، معترف بذنبه، مستشفعاً برسول الله ﷺ، في قبول توبته، وموته على الشهادتين، آمين، اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

* * *

فهرس الكتاب

* مقدِّمة المحقق ٥
* ترجمة المؤلِّف ٧
* خطبة الكتاب ١١
* المقدمـة في ذكر أمور مشتملة على بيان الطريق الموصلة إلى التخلق بأخلاق هذا الكتاب . . الخ ٤٥
* الباب الأول: في أمور يجب عند أئمة الطريق فعلها قبل طلب طريق القوم . . الخ ٦٦
- مطلب فيما مَنَّ الله عليـه من شرحه لمحفوظاتـه السابقة المأخوذة عن مشايخه وذكر بعضهم . الخ ٦٩
- مطلب في أخذه بالأحوط في دينه وعدم ترخيصـه في تركه إلا بطريق شرعي . الخ ٧٥
- مطلب في عدم التعقب لمذهب دون آخر من غير علم ولا اجتهاد ، ويتبع ذلك مطالب أخرى يجب العمل بها ٧٦
- مطلب في اطلاعه على كتب أئمة المذاهب الأربعة ، ويتبع ذلك مطلب آخر فيما يتعلق بالقرآن العظيم وغيره ٧٩
- مطلب في تقريظ بعض العلماء لبعض مؤلفاته . الخ ٩٣
- مطلب في اطلاعه على معاني الكتاب والسنة . . الخ ١٠٦
* الباب الثاني: في جملة أخرى من الأخلاق ينبغي العمل بها . الخ ١١٢
- مطلب فيما مَنَّ الله به عليه إلهامه جوامع الكلم من التسبيح والاستغفار والصلاة على رسول الله ﷺ ١٣٠
- مطلب في نصحه لأصحابه ١٣٣

- مطلب في فراره من جميع الشدائد إلى الله تعالى، ويتبع ذلك مطالب أخرى في أخلاق ينبغي التمسك بها ١٣٣
- مطلب في كيفية وصول العبد إلى حضرة يشهد فيها أن لا فاعل إلا الله تعالى .. الخ ١٤٥
- مطلب في عدم قوله في دين الله عز وجل برأيه .. الخ ١٥٠
- مطلب في سروره بالفقر إذا أقبل وخوفه منه إذا أدبر .. الخ ١٥٣
- مطلب في عدم التدبير مع الله تعالى وقت نزول البلاء وعدم الالتجاء إلى أحد من خلق الله تعالى، ويتبع ذلك مطالب أخرى ينبغي الاعتناء بها .. الخ ١٥٤
- مطلب في اطلاعه على بعض المنعمين والمعذبين في قبورهم .. الخ ١٥٩
- مطلب في زهده عما فضل عن حاجته وعدم امساكه .. الخ ١٦٥

*** الباب الثالث: في جملة من الأخلاق ينبغي العمل بها .. الخ** ١٦٧

- مطلب في تنبيهه في المنام على أمور تقع منه في المستقبل من خير أو شر .. الخ ١٩٢
- مطلب في كثرة تعظيمه للشرفاء ومعرفة أصواتهم وتمييزهم عن غيرهم ولو من وراء حجاب .. الخ ١٩٧

*** الباب الرابع: في ذكر جملة من الأخلاق ينبغي العمل بها .. الخ** ٢٠٤

- مطلب في حمل كلام الأئمة ومشايخ الصوفية على أحسن الوجوه .. الخ ٢٢٢
- مطلب في عدم طلب نفسه مقاماً عند الخلق وعدم قبوله مرتباً من بيت مال المسلمين ٢٣٤
- مطلب في حمايته من الأكل من هدايا الظلمة وأعوانهم .. الخ ٢٤٦
- مطلب في حمايته من طعام شفع فيه .. الخ ٢٤٩
- مطلب في عدم بخله بشيء داخل يده .. الخ ٢٥٠
- مطلب في غلبة حيائه من الله تبارك وتعالى .. الخ ٢٥٢

*** الباب الخامس: في جملة أخرى من الأخلاق .. الخ** ٢٥٦

- مطلب في معرفته بالولي إذا زاره في قبره هل هو حاضر أو غائب .. الخ ٢٧٩

*** الباب السادس: في جملة أخرى من الأخلاق .. الخ** ٢٨٠

- مطلب عدم التفاته إلى شيء ضاع أو سرق منه .. الخ ٢٨٥
- مطلب في عدم مزاحمته على شيء في رياسة دنيوية .. الخ ٢٨٦
- مطلب في عدم تقديمه نفسه على إخوانه في شيء فيه رياسة إلا بسؤالهم له ذلك بطيبة نفوسهم ٢٩٢
- مطلب في عدم التكدر على شيء فات من الدنيا ٢٩٩

- مطلب في انشراح صدره إذا أمسى أو أصبح وليس عنده شيء من الدنيا ، ويتبعه أخلاق في هذا المعنى ينبغي الحرص عليها والعمل بها ٣٠٠
- مطلب في عدم رؤيته في نفسه أنه معدود من جملة العلماء . . الخ ٣٠٧
- مطلب في كراهته لمن يمدحه في المجالس بنظم أو نثر . . الخ ٣٠٩
- مطلب في عدم بغضه أو إيذائه لأحد ممن يحضر المواكب الإلهية كالمؤذنين وقوَّام الليل . . الخ ٣١٤
- مطلب في تعظيمه لمشايخه وإمامه وتعظيم من عظمهم ٣١٦
- مطلب في التنبيه على من يأكل بدينه من فقراء هذا الزمان والعزلة عنهم . الخ ٣١٨
- مطلب في حمايته من الأكل من طعام النذور والأعراس الواسعة وطعام الفقراء ونحو ذلك ٣١٩
- مطلب في كراهته للأكل وحده . . إلخ ٣٢٢
- مطلب في عدم رده للسائل إذا كان محتاجاً . . إلخ ٣٢٣
- مطلب في اعتقاد كثير من الإنس والجن فيه . . إلخ ٣٢٤
- مطلب في كشف الحجاب عنه حتى يسمع تسبيح الجمادات والحيوانات . . الخ ٣٢٨
- مطلب في عدم تسليمه للنفس دعواها العجز عن فعل شيء من الطاعات حال مرضها . الخ ٣٣٠
- مطلب في شدة اعتقاد الظلمة والولاة فيه الصلاح وعدم مساعدتهم له في مؤنة الحج . الخ ٣٣٧
- مطلب في حمايته من الأكل من صدقات الناس وزكواتهم . . الخ ٣٤٢
- مطلب في كثرة شكره لله تبارك وتعالى إذا زوى عنه الدنيا . . الخ ٢٤٣
- مطلب في انشراح صدره إسراره بالصدقة أكثر من جهره بها إلا أن تكون صدقة فرض . الخ ٣٤٥

* **الباب السابع: في جملة من الأخلاق** ٣٤٧

- مطلب في طيب نفسه باعطائه القطة والكلب ورك الدجاجة . الخ ٣٤٩
- مطلب في حضور قلبه مع الله تبارك وتعالى حال أكله وشربه . . الخ ٣٥٠
- مطلب في دفعه الدنيا عنه كما إذا بلغه أن شخصاً أوصى له بمال مثلاً ، ويتبعه مطالب أخرى ينبغي العمل بها ٣٥٣
- مطلب في كراهته للجلوس في المسجد على حدث في ليل أو نهار . الخ ٣٦٦
- مطلب في كراهته لخروج الريح في المسجد منه أو في غيره تعظيماً لجناب الله عز وجل الخ ٣٦٧

- مطلب كراهته لحضور المحافل التي لم يندب الشارع ﷺ إلى حضورها . . الخ ٣٧٢
- مطلب في عدم هجره لأحد المسلمين لحظ نفسه فوق ثلاث . . الخ ٣٧٧
- مطلب في كثرة تواضعه وتعظيمه لكل عالم أو فقير زاره . الخ ٣٨٠
- مطلب في كثرة ستره لعورات المسلمين الذين لم يتجاهروا بالمعاصي . الخ ٣٨٢
- مطلب في مشاركته في الفرح والسرور المسلمين . . الخ ٣٨٦

*** الباب الثامن: في جملة أخرى من الأخلاق** ٣٨٩

- مطلب في حفظه حرمة أشياخه أحياء وأمواتاً ، ويتبعه في هذا المعنى مطالب أخرى ينبغي التفطن لها والعمل بها لا سيما فقراء هذا الزمان ٣٩٠
- مطلب في كثرة أمره للمريدين بالصبر وتحمل الأذى . الخ ٤٠٠
- مطلب في محبته لجميع الطاعات من حيث أن فيها مجالسة الحق تبارك وتعالى . الخ ٤١٢

*** الباب التاسع: في جملة من الأخلاق** ٤١٧

- مطلب في محبته لتحمل بلاء جاره . . الخ ٤٢٠
- مطلب في كثرة اجتماعه في منامه بالأموات وكثرة سؤاله عن أحوالهم في قبورهم ٤٢٨
- مطلب في عدم تشوق نفسه إلى شيء من مقامات الأولياء التي لا يثاب العبد عليها ٤٣٤
- مطلب في إيمانه بتصور أعماله صور قبيحة أو حسنة بحسب طاعاته ومعاصيه . . الخ ٤٣٨
- مطلب في كراهة سماعه للغناء على الآلات المطربة ، ويتبعه مطالب أخرى في هذا المعنى ينبغي الوقوف عليها ٤٤٤
- مطلب في كثرة صبره على زوجته وخادمه . الخ ٤٥١
- مطلب في حسن تدبيره تعالى له في الحملات الثقيلة ٤٥٤
- مطلب في كثرة حنينه إلى الوحدة وكراهته لتردد الأكابر والأصاغر إلى زيارته . . إلخ ٤٥٧
- مطلب في كثرة تفتيشه صباحاً ومساء لكل جارحة من جوارحه الظاهرة والباطنة . إلخ ٤٥٨

*** الباب العاشر: في جملة أخرى من الأخلاق** ٤٦٠ .

- مطلب في عدم تنفيذه غضبه فيمن غضب عليه عند القدرة الخ ٤٦٧
- مطلب في حفظ الأدب مع أشياخه وأصحابه الخ ٤٦٧
- مطلب في عدم اهتمامه بعمارة شيء من الدنيا من بيت أو مراكب أو غير ذلك ٤٦٨

- مطلب في حفظه زوجاته من حضور الأعراس التي لا ينضبط أصحابها على القوانين الشرعية . . الخ ٤٧٣
- مطلب في زيارته كل قليل لأهل البيت الذين دفنوا في مصر . . الخ ٤٧٧
- مطلب في عدم شهوده الكمال في مقام إسلامه أو إيمانه ٤٨١
- مطلب في تفويض أمر تربية أولاده وإخوانه إلى الله تعالى ٤٨٣

*** الباب الحادي عشر: في جملة أعداد أخرى من الأخلاق** ٥٠٢

- مطلب في محبته لمن يبصره بعيوبه ونقائصه . الخ ٥٢٠
- مطلب في نصحه لمن استشاره في الأخذ عن أحد من فقراء هذا الزمان . . الخ ٥٣٥
- مطلب في جعله من ورثة سيدنا محمد ﷺ ٥٤٢
- مطلب في عدم مبادرته إلى إجابة من طلب أن يكون مريداً تحت إشارته وتربيته . . الخ ٥٤٧

*** الباب الثاني عشر: في جملة أخرى من الأخلاق المحمدية** ٥٤٩

- مطلب في تربيته لخواص أصحابه بالنظر من غير لفظ ولا إشارة ويتبع ذلك في هذا الباب مطالب أخرى مفيدة جداً ٥٥٣
- مطلب في إحيائه بعض أخلاق القوم التي اندرست ٥٧٤
- مطلب في فلاح ولده عبد الرحمن وحُسن فهمه وعقله . . الخ ٥٨٢

*** الباب الثالث عشر: في جملة من الأخلاق المحمدية** ٥٩٥

- مطلب في عدم الإنكار على من قام وتواجد ولو كان من الظلمة ٦٠٦
- مطلب في شدة زجره لأصحابه عن الكذب ٦١١
- مطلب في رده النمام ولو معدوداً من مشايخ العصر ، ويتبعه مطالب أخرى ينبغي التفطن لها والعمل بها ٦١٢
- مطلب في غيرته على أذنه أن تسمع زوراً أو باطلاً . الخ ٦٢٠
- مطلب في كثرة تعظيمه لمن ينصحه ومحبته له وبغضه أن يسكت عن نصحه . الخ ٦٢٣
- مطلب في إعطائه الخبز حقه من الإكرام والتعظيم ، ويتبعه مطالب أخرى من رؤيته الأئمة المباركين الاثنى عشر وصحبته لعياله وغير ذلك ٦٢٦
- مطلب في حفظه من السرقة والخيانة من منذ وعى على نفسه ٦٣٤
- مطلب في إلهامه لقراءة السور الفاضلة والآيات العظيمة في قيام الليل الخ ٦٣٩
- مطلب في شهوده قرب الحق تبارك وتعالى الخ ٦٤١
- مطلب في عدم افشائه الأسرار المتعلقة بالتوحيد ودقائق الشريعة الخ ٦٤٤

- مطلب في حفظه للأدب مع السلطان ونوابه . . الخ ٦٤٦
- مطلب في ملاطفته لإخوانه الفقراء . الخ ٦٥٠
- مطلب في ملاطفته لإخوانه الفقهاء . . الخ ٦٥١

* **الباب الرابع عشر: في جملة أخرى من الأخلاق ككثرة الشفقة ، وعدم سبه لمن غضب عليه ومواظبته على الوضوء في كل حالة يستحب فيها الوضوء ، وغير ذلك من الأخلاق الجميلة** ٦٥٤
- مطلب في اهتمامه بأمر الضعيف . الخ ٦٧٠
- مطلب في تفتيشه نفسه كل يوم وليلة بالتوبة . . الخ ٦٧٥
- مطلب في عمله بالأمور التي علق الله عليها زيادة العمر ونحو ذلك . . الخ ٦٧٦
- مطلب في تنزيله الناس منازلهم في الإكرام ونحو ذلك ٦٨١
- مطلب في شهوده نفسه أنه أقل من مريديه في المقام ، ويتبعه مطالب كثيرة النفع جداً ٦٨٤
- مطلب في عدم تعاطيه أسباباً تميل خاطر الأغنياء إليه بوجه من الوجوه إلا لغرض شرعي ٦٩٥
- مطلب في محبته للطائعين ويتبعه مطالب أخرى ينبغي الحرص عليها والعمل بها ٦٩٧

* **الباب الخامس عشر: في جملة من الأخلاق** ٧٠٢
- مطلب في تأهيله لخدمة الفقراء ٧٠٥
- مطلب في محبته الفقراء الصادقين ٧٠٥
- مطلب في تيسير جميع ما يحتاج إليه من الرزق ٧٠٧
- مطلب في كثرة مجالسته لله تعالى ولرسوله ﷺ ٧١٢

* **الباب السادس عشر: في جملة من الأخلاق منها كثرة سماعه للقرآن ، وتأدب إخوانه المجاورين معه ودوام اشتغاله بالعلم . الخ** ٧١٣
- مطلب في معرفته باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب . . الخ ٧١٦
- مطلب في ملاطفته للمريدين والمعتقدين أول اجتماعهم عليه ٧٢٠
- مطلب في تعظيمه الناس بحسب مراتبهم ٧٢٢
- مطلب في أن الله سبحانه وتعالى جعله من أهل الإلهام الصحيح ٧٢٢
- مطلب في حفظه من الخوض في معاني آيات الصفات ويتبعه مطالب شتى في هذا المعنى ٧٢٥
- مطلب في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر في حال تسليمه للقدرة ٧٣٧
- مطلب في عمله بسعادته وشقاوته . الخ ٧٣٨

- مطلب في عدم ترجيحه للعطاء الإلهي على المنع ٧٣٩
- مطلب في إمساكه الدنيا على وجه الأدب مع الله تعالى ٧٤١
- مطلب في إيمانه بأن أفعال العباد خلق الله تعالى في حال إضافتها إلى العباد ٧٤٢

خاتمة في ذكر جملة صالحة من المحن والبلايا التي تحملها من أهل عصره ذكرها ليتأسى به فيها ٧٤٧

- مطلب في قلة ضجره ممن يؤذيه . الخ ٧٤٩
- مطلب في شكره لله تعالى ٧٦١
- مطلب في صبره على الحسدة والأعداء . الخ ٧٦٢
- مطلب في كثرة شفقته وصحبته كل من رآه مقراضاً في الناس ٧٦٧
- مطلب في عدم اتعابه سره في حيلة تؤذي من آذاه ٧٦٩
- مطلب في مبادرته لإقامة العذر لمن آذاه . . الخ ٧٧١
- مطلب في كثرة محبته وتبجيله لطلبة العلم الذين أنكروا عليه ٧٧٢
- مطلب في كثرة تحمله لهموم إخوانه ٧٧٥
- مطلب في عفوه وصفحه عمن جنى عليه في بدنه أو عرضه أو ماله ويتبعه مطالب أخرى ينبغي العمل بها ٧٨٠
- مطلب في شدة بغضه لأهل المعاصي ٨١٤
- مطلب في كثرة تفويضه جميع أموره إلى الله تعالى ٨١٧
- مطلب في عدم اتعابه سره في تحرير كتاب من مؤلفاته إلا بنية صالحة ٨٢٢

*

محمد رسول الله